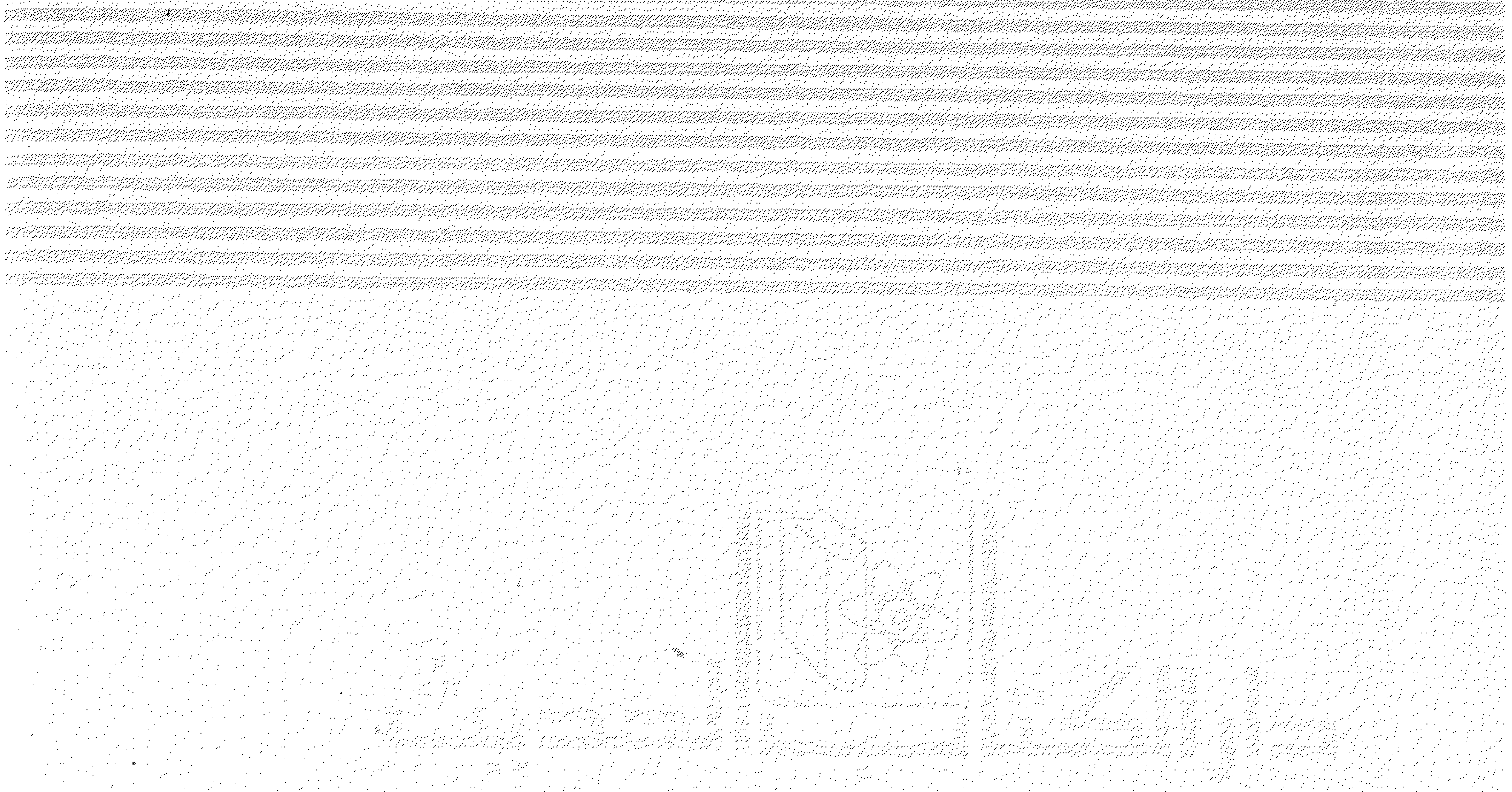
15 رواية حوارية كتبتها من أجل الدفاع عنه





حبيبنا رسول الله ﷺ
15 رواية حوارية كتبتها من
أجل الدفاع عنه

محمد صلى الله عليه وسلم

# المحبون للنبى ﷺ
# المقبلون على دينه والمنصفون
# قلوب مع محمد

نور الدين أبو لحية

دار الكتاب الحديث

| | |
|---|---|
| | أبو لحية ،نور الدين. |
| | محمد صلى الله عليه وسلم : المحبون للنبي ؛المقبلون على دينه والمنصفون |
| | قلوب مع محمد /نور الدين أبو لحية . ـ القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2008. |
| | 650ص ؛ 24سم . |
| | في رأس العنوان : حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم 15 رواية حوارية كتبتها من أجل الدفاع عنه<br>تدمك 8 222 350 977 |
| | 1- السيرة النبوية 2- السيرة النبوية ـ دفع مطاعن |
| | أ ـ العنوان |
| | 239 |

رقم الإيداع /2008/20318



دار الكتاب الحديث

| | |
|---|---|
| القاهرة | 94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com |
| الكويت | شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw |
| الجزائر | B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria<br>Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dkhadith@hotmail.com |

# من القرآن الكريم

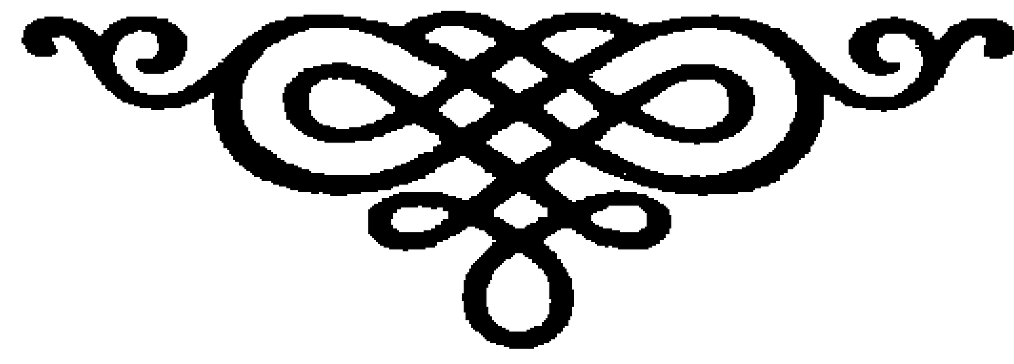
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحقاف].

﴿ ... إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القصص].

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام].

# تنبيه



نحب أن يتنبه قارئ هذه السلسلة لما يلى:

1 ـ بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيمانى، والجدال بالتى هى أحسن، فقد اهتممنا فى أصل الرواية بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأى شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهى مما لا يمكن إدراجه فى الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها فى الهوامش..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرواية مراجعة ما ورد فى الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد فى أصل الرواية من معلومات.

2 ـ أننا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة الإسلامية والمسيحية.. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التى تهدف إليها هذه الرواية..

بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده فى الكتب الكثيرة التى اهتمت بهذه الناحية.. ولهذا نكتفى بذكر المراجع العامة التى لجأنا إليها دون التدقيق فى التوثيق فى كل محل.

3 ـ نحب أن نعتذر هنا عن عدم ذكر الصلاة على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء، وعدم الترضى عن الصحابة والعلماء والأولياء ـ كما هو شأن المؤلفات الإسلامية ـ فى بعض المواضع أو فى كثير منها، وذلك لأن الحديث المفترض فيها بحسب الرواية بين مسيحيين.. والضرورة الفنية تقتضى أن لا نذكر ذلك حتى لا يؤثر فى أصل الرواية وجانبها الفنى.. ولا حرج على القارئ المسلم أن يصلى على رسول الله ﷺ والأنبياء كلما ذكروا بغض النظر عن كتابة ذلك..

4 ـ قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعى على كثير مما يرد فى هذه السلسلة مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفنى الواقعى.. كحفظ أبطال الرواية للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد.. ولكننا ننبه إلى أن الغرض من السلسلة ليس أحداث الرواية، وإنما الجانب العلمى منها.. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التى قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة.

ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

# مقدمة



في الليلة السادسة من زيارة البابا لي، أصابني أرق شديد حال بيني وبين النوم، فخرجت خارج غرفتي ـ كعادتي في مثل هذه المواقف ـ لأنشغل بعد النجوم والنظر في أشكال تجمعاتها.. فلم يكن يجلب النوم لعيني مثل النجوم.

بينما أنا كذلك، إذا بي أسمع صوتا عذبا يصدر من غرفة البابا.. وكأنه لحن من ألحان السماء.. فاقتربت أسترق السمع، فإذا بي أسمع البابا، وهو ينشد بصوت خاشع، ممتلئ بحشرجة الدموع، قول الشاعر الصالح، وهو يبث أشواقه لرسول الله ﷺ:

كيف لا تسكب الدموعَ عيوني ... وهي من قبل أن تراك سجام

كيف لا تذهل العقول وتفنى ... أنفسُ العاشقين وهي كرامُ

يا رسول الإله إني محبٌ ... لك والله شائق مستهامُ

يا رسول الإله في كل حينٍ ... لك مني تحية وسلام

يا رسول الإله شوقي عظيم ... زائد والغرام فيك غرام

يا رسول الإله إني نزيل ... ونزيل الكرام ليس يُضام

سقطت دموع حارة من عيني.. وأنا أكاد أرى ذلك الشاعر الصالح، وهو بين يدي رسول الله ﷺ يخبره بما امتلأ قلبه به من محبته والشوق إليه.

وفي تلك اللحظات خطر على قلبي أجيال من المؤمنين من الذين ملأ حب رسول الله ﷺ عليهم كيانهم، فلم يرضوا لعروش قلوبهم المقدسة شمسا غير شمسه:

منهم ذلك الصحابي الجليل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ ممتلئا حزنا، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان مالي أراك محزونًا؟» فقال: «يا نبي الله شيء فكرت فيه»، فقال: «ما هو؟» قال: «نحن نغدو ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك»[1].

ومنهم ذلك الرجل العظيم الذي جاء إلى النبي ﷺ، فقال: «يا رسول الله! إنك لأحب إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت،

(1) روى هذا الأثر مرسلا عن مسروق، وعكرمة، وعامر الشَّعْبي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس. قال ابن كثير: وهو من أحسنها سنداً. (تفسير ابن كثير: 2/ 354).

فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعتَ مع النبيين، وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك»[1].

ومنهم ثوبان مولى رسول الله ﷺ. . فقد كان ـ كما يذكر الرواة ـ شديد الحب له ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف فى وجهه الحزن؛ فقال له: «يا ثوبان ما غير لونك؟» فقال: «يا رسول الله ما بى ضر ولا وجع، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك؛ لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وأنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة هى أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا».

وقد رسم الشاعر الصالح هذه المشاعر الصادقة، فقال:

شهود طلعة طه نعمة عظمت ... قدراً وشانًا وكانت أفضل النعم
وكان ثوبان ذا وجه له شغف ... بحبه دمعه يجرى بمنسجم
قال الرسول له: ما لى أراك كذا ... فقال: شوقا لوجه منك مبتسم
إنى ذكرتك فى سرى وفى علنى ... ففاض دمعى وحبى غير مكتتم
فهل أراك بجنات الخلود أجب ... نعم يكون بفضل الله ذى الكرم

وعلى هؤلاء جميعا، وعلى جميع أجيال الأمة التى أحزنها ما أحزنهم نزلت هذه الآية: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء]. . فلم يفرح الصحابة ولا الأجيال الكثيرة من الأمة بشىء فرحهم بهذه البشرى[2].

ساد صمت لذيذ على ذلك الجو الذى عبقت فيه أنفاس محبة النبى ﷺ سمعت خلاله البابا، وهو ينشد بنغم خاشع قول الشاعر:

يحن الجذع من شوق إليك ... ويذرف دمعه حزنًا عليك
ويجهش بالبكاء وبالنحيب ... لفقد حديثكم وكذا يديك
فما لى لا يحن إليك قلبى ... وحلمى أن أقبل مقلتيك
وأن ألقاك فى يوم المعاد ... وينعم ناظرى من وجنتيك
فداك قرابتى وجميع مالى ... وأبذل مهجتى دومًا فداك

---

(1) رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى كتابه (صفة الجنة)، من طريق الطبرانى، عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال، عن عبد الله بن عمران العابدى، به، ثم قال: لا أرى بإسناده بأسا، ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (3308) وقال: غريب من حديث فضيل ومنصور تفرد به العابدى. قال الهيثمى فى المجمع (7/7): رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران وهو ثقة.

(2) روى ذلك البخارى ومسلم.

| | |
|---|---|
| تدوم سـعـادتـي ونعـيـم روحي | إذا بذلت حـيـاتي في رضـاك |
| حـبـيب الـقلب عـذراً لا تلمني | فـحـبي لا يحق في سـمـاك |
| ذنوبـي أقـعـدتـني عن عـلو | وأطمـح أن أقـرب من عـلاك |
| لعل مـحـبـتي تسـمـو بروحي | فـتجـبـر مـا تصـدع من هواك |

فتذكرت الجذع كيف حن شوقا إلى رسول الله ﷺ. . فرددت بيني وبين نفسي قول الحسن البصري: (يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه).

قاطعتني ألحان البابا العذبة، وهي تردد قول الشاعر:

| | |
|---|---|
| جـاءت إليك حـمـامـة مـشـتـاقـة | تـشكـو إلـيك بـقلـب صب واجـف |
| من أخـبـر الـورقـاء أن مـقـامكم | حـرم وأنـك منزل لـلخـائف |

فتذكرت تلك الحمامة العاقلة العاشقة التي حدث حديثها عبد الله بن مسعود، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة، فأخذناهما، قال فجاءت الحمرة إلى رسول الله ﷺ وهي تصيح فقال النبي ﷺ: «من فجع هذه بفرخيها؟» قال: فقلنا: نحن. قال: «فردوهما»[1].

قاطعتني ألحان البابا مرددة:

| | |
|---|---|
| لا تلـومـوا أحـداً لاضـطراب | إذ عـلاه فـالوجـد داءُ |
| أحـد لا يلام فـهـو مـحبٌ | ولـكـم أطرب المحب لـقـاءُ |

فتذكرت تلك المحبة المتبادلة بين رسول الله ﷺ وجبل أحد، والتي عبر عنها ﷺ في قوله: «هذا جبل يحبنا ونحبه»[2].

ردد البابا بشوق قصيدة أحمد شوقي المشهورة التي استهلها بفرح الأكوان بمحمد:

| | |
|---|---|
| ولد الهـدى فـالكائنات ضـيـاء | وفم الـزمـان تبـسـم وثناء |
| الـروح والملأ المـلائـك حـولـه | للـدين والـدنيـا بـه بشـراء |
| والوحـي يقطر سـلسـلاً من سلسل | والـلوح والـقلـم الـبـديـع رواء |
| يوم يتـيـه على الزمـان صـبـاحـه | ومـساؤه بمـحـمـد وضـاء |
| بك بشـر الله الـسـمـاء فـزينت | وتضـوعت مـسكًا بك الغـبـراء |
| يا من له الأخـلاق مـا تهـوى العـلا | منهـا ومـا يتـعـشق الـكبـراء |
| زانتك فـي الخلق العـظيم شـمـائل | يغـرى بـهن ويـولع الـكرمـاء |

---

(1) رواه أبو داود والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(2) رواه البخاري.

فشعرت بذلك الفرح العظيم الذى سرى فى قلوب الأمة عندما جاءها الحبيب، فراحت تحتضنه بكل مشاعرها حتى نسيت فى حبه النفس والأهل والمال.

فى ذلك الحين تذكـرت زيد بن الدثنـة.. وما أدراك ما زيد بن الدثنة!؟

لقد أخرجه أعداؤه من أهل مكة من الحرم ليقتلوه، فقال له أبو سفيان: «أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمـدًا الآن عندنا مكانك لضرب عنقه وإنّك فى أهلك؟» فـقال زيد: «والله ما أحبّ أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة، وإنّى جالس فى أهلى»، فقال أبو سفيان: «ما رأيت فى الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا»[1].

وذكرت تلك الأنصارية التى قـتل أبوها وأخوها وزوجها، فأخبـروها بذلك، فقالت: «ما فعل الله برسول الله؟» قالوا: «بحمد الله كـما تحبين»، قالت: «أرونيه حتى أنظره»، فلما رأته قالت: «كل مصيبة بعدك جلل»[2].

وذكرت ذلك الرجل الصـالح الذى ادخر لآخرته أعظم زاد يمكن أن يدخـره مؤمن.. فعن أنس بن مالك قـال: «بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجـد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى السـاعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: «ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله»، قال: «فأنت مع من أحببت»[3].

وذكرت تلك الأمنية العزيزة التى كانت تتردد فى نفس ربيعة بن كعب الأسلمى.. فلما واتته الفرصـة راح يطلبها من رسول الله ﷺ.. قال يحدث عن نـفسه: كنت أبيت عند النبى ﷺ فأتيـته بوضوئه وحاجـته، فقال لى: «سل» فـقلت: «يا رسول الله أسألك مرافـقتك فى الجنة»، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: «هو ذاك»، قال: «فأعنى على نفسـك بكثرة السـجود»[4].

وذكرت قول أنس بن مـالك.. وهو يبين الأثر العظيم الذى أحدثه غـياب رسول الله ﷺ.. لقد قال: لما كان اليوم الذى دخل فيـه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء فلما كان اليـوم الذى مات فيـه أظلم منها كل شىء، وما نفـضنا عن رسـول الله ﷺ الأيدى وإنا نفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)[5].

* * *

لم يخطر على بالى أولئك الأصحاب الأجلاء فـقط فى تلك اللحظات اللذيذة.. فقد كانوا بعضا من آلاف.. بل من عشرات الآلاف.. بل من ملايين المسلمين عبر أجيال المسلمين الطويلة..

---

(1) رواه ابن إسحاق وابن سعد.

(2) رواه ابن إسحاق.

(3) رواه الطبرانى فى الكبير.

(4) رواه أبو داود والترمذى.

(5) رواه الترمذى.

كلهم كانوا على قلب رجل واحد يمتلئون محبة وتعظيما لرسول الله.. يجتمعون به وبحبه وبالشوق إليه، ويفترقون على ذلك.

وكانت المعانى النبيلة التى أشرقت عليهم من شمس محمد ﷺ تملؤهم بالسعادة والسكينة.. وتحول قلوبهم إلى قلب رجل واحد، فهم إخوة فى الله، لهم شمس واحدة يستنيرون بنورها، ويستدفئون بدفئها.

لكن مرارة الحسرة عادت، فكدرت ذلك الشوق اللذيذ..

لقد اختلط ذلك الشوق اللذيذ لتلك الأجيال السامية بحسرة وألم على أجيالنا التى امتلأت قلوبها بالأهواء، فراحت تبحث فى القمامات والمزابل والمستنقعات عن حب تملأ به قلوبها، فلم تجد فى المزابل إلا الجرذان والخنافس.

* * *

التفت البابا، فرآنى، فقام من مجلسه، ودعانى أن أدخل عليه.

دخلت، وحييته معتذرا عن تنصتى عليه، فقال: لا بأس عليك.. ربما لا يصلح لحديثنا الذى وعدتك به أمس إلا هذا المجلس.. وفى هذا الوقت من الليل الذى يفترش فيه المحبون أقدامهم ليتنعموا بحرارة الأشواق الرفيعة.

قلت: لقد سمعتك تنشد أبياتا ممتلئة حبا ساميا، وأشواقا طاهرة.

قال: تلك بعض نفثات قلوب المحبين التى امتلأت بحرارة الإيمان والمحبة والشوق.

قلت: أيام جميلة هى تلك الأيام التى عاصرها أولئك الشعراء.

قال: وتلك الأيام لن تنقضى.. إن القلوب التى عبرت لرسول الله ﷺ عن محبتها وأشواقها لا تزال حية تنبض بالحياة.

قلت: أين ذلك.. وقد ملأ الإعلام المنحرف قلوب الناس بالأشواق المدنسة، والهمم المنحطة.. لقد صار الحب بين الناس ـ فى ظل هذه الحضارة المتعفنة ـ مرادفا للانحراف والفساد والرذيلة.. وصارت أشواق المحبين الرفيعة سلعة رخيصة تباع فى سوق النخاسة.. وصار الأبطال فى هذا الزمان هم كل راقص ومطبل ومزمر وناعق.

قال: ذلك سراب سرعان ما يفطن له الناس.. وذلك ضباب سرعان ما تشرق عليه الشمس لينقشع عن الحقيقة.

قلت: إلى متى!؟

قال: ذلك ليس بعيدا.. بل كل شىء يقرب إليه.

نظر من كوة النافذة إلى السماء المزينة بزينة النجوم، ثم قال: لقد عرفت فى حياتى الطويلة كثيرا من الناس لاحظت فى عيونهم ووجوههم وقلوبهم حرارة الشوق العظيم إلى محمد ﷺ.. لقد تشرفت بلقائهم والحديث إليهم..

قاطعته قائلا: فهل ستحدثني عنهم؟

قال: أجل.. لقد وعدتك بذلك.. فأحدثك اليوم عن القلوب التي امتلأت بحب محمد ﷺ.. أو شعرت في لحظة من لحظات الصدق بتعظيمها لرسول الله ﷺ ولما جاء به.

قلت: في أي بقعة من بقع العالم ظفرت بهذه القلوب؟

قال: في كل بقاع العالم التي زرتها.. ليس هناك محل في الأرض إلا وفيه من يلهج لسانه بذكر محمد، ويلهج قلبه بالشوق إلى محمد.

قال ذلك، ثم قام إلى محفظته، وأخرج دفترا هو أشبه بالسفر، وقد كتب عليه هذا العنوان (قلوب مع محمد)، ثم سلمنيه، قلت: ما هذا؟

قال: في هذا الدفتر الذي صحبني طيلة فترات حياتي لم أسجل إلا نفحات الصدق التي فاهت بها الألسن في لحظات تقدسها.

فتحت الدفتر، فرأيت فيه أسماء كثيرة.. فسألت: ما هذه الأسماء؟

قال: هذه أسماء من قدر الله لي أن ألقاهم، وأتنعم بالحديث معهم عن رسول الله ﷺ، وقد كان كل فرد منهم شعاعا من الأشعة التي اهتديت بها إلى شمس محمد ﷺ.

رحت أقلب الكتاب فهالتني كثرة الأسماء.. فرحت أسأل: أكل هؤلاء التقيتهم؟

قال: أجل.. كلهم قيض الله أن يكونوا سببا من أسباب هدايتي.

قلت: فهلا أذنت لي، فوضعت فهرسا ييسر عليك الاطلاع عليهم؟

قال: لقد فعلت.. لقد صنفت من رأيتهم إلى عشرة أصناف، يشملون أكثر أنواع الناس.. ففيهم: العامة والخاصة.. وفيهم الأدباء والفنانون.. وفيهم العلماء والأولياء.. وفيهم الأحبار والمفكرون.. وفيهم الأصدقاء والأعداء.

قلت:.. والأعداء!؟

قال: أجل.. حتى الأعداء لم يملكوا ـ في لحظة من لحظات الصدق، أو لحظة من لحظات عودة الوعي ـ إلا أن يعبروا عن تقديرهم الشديد لرسول الله ﷺ.

قلت: فستقص عليّ قصة كل اسم من هذه الأسماء.

قال: لا يفي العمر جميعا ببعض ذلك.. فلي مع كل اسم قصة من القصص.

قلت: فستحدثني عن بعضها..

قال: سأحدثك عن أفراد من كل صنف.. وأنت تستدل بمن ذكرت على من لم أذكر..

قلت: ألم تلق معلمي (معلم السلام) في بداية هذا النوع من الأشعة، كما تعودت أن تلقاه!؟

قال: بلى.. لقد لقيته.. وقد كان سببا في أن أتخذ هذا الدفتر..

قلت: فحدثنى عنه، فما أعظم شوقى إليه.

قال: كان يوما من أيام الشتاء الباردة.. وكـان الثلج يتساقط.. ونحن فى مقبرة نشيع جثمان بطل من أبطال ألمانيا..

قلت: من هو؟

قال: اعفنى من هذا السؤال.. فلو عرف أهل عـصرنا هذا من هو لاتهمونى أو اتهموا أخى بما لا طاقة لنا به.

قلت: فكيف التقيت معلم السلام فى ذلك الموقف.. هل كان أحد المشيعين؟

قـال: لست أدرى.. فجـأة استـدرت، فـرأيته خلفى، وهو يـنظر باستـغراق لأفـواه المتحدثين، وهم يرسلون مراثيهم تصحبها دموعهم.

كنت أحسبـه متأثرا كالجـمع الحاضر.. ولكن وجهـه الواجم لم يبد لى أى أثر أو أى تأثر.

بعد انتـهاء حفل التـأبين، اقتـربت منه، وقلت: لا شك أنك حزين لفـقد هذا البطل العظيم الذى امتلأت قلوب الدنيا حزنا عليه.

قال: ويوشك أن تمتلئ بغضا له.

قلت: أخفض من صوتك.. ما الذى تقول؟

قال: أقول الحـقيقة.. لـقد كنت أطالع وجوه المتحـدثين.. فلم أر فيها أى نسـمة من نسمات الصـدق.. وكنت أحلل تلك الدموع، فلم أرها غير دموع التـماسيح.. وكنت أحلل تلك الكلمات، فلم أرها غير أكاذيب المنافقين..

قلت: فكيف عرفت بارتداد القلوب عنه؟

قال: لأن القلـوب لا يمكن أن تظل على النفاق.. والأعـين لا يمكن أن تظل ترسل دموع التماسيح.

قلت: كل الناس يحصل لهم هذا.. يمدحون، ثم يهجون.. ويشكرون ثم يكفرون.

قاطعنى، وقال: إلا الصادقون.. فـالقلوب لا تزداد لهم إلا محبة.. والأعين لا تزداد لهم إلا شوقا.. والأفواه لا تزداد لهم إلا مدحا.

قلت: فمن هؤلاء!؟

قال: أنا أبحث عنهم.. لقد اتخذت دفترا أسجل فيه منحنيات الحب والبغض..

قلت: هذه أول مرة أسمع بهذا النوع من المنحنيات.

قال: لأن البشر انشغلوا بمنحنيات العمران عن منحنيات الإنسان.

قلت: عرفت قيمة منحنيات العمران.. فما قيمة منحنيات الإنسان؟

قال: لقد جعل الله فى قلوب البشر جواذب نحو الحقيقة.. قد يشردون عنها، ولكنهم سرعان ما يعودون إليها.. هى كإبرة البوصلة.. تحركها ذات اليمين، وذات الشمال، ولكنها تأبى إلا أن تعود إلى المحل الذى تنجذب إليه.

قلت: عرفت قيمة إبرة البوصلة.. فبها نميز الشمال من الجنوب.. وبها نهتدى فى طريق البر والبحر.

قال: وببوصلة القلوب نعرف الصادقين من الكاذبين.. ونهتدى إلى أهل الحقائق، وأهل الدجل.

قلت: لقد ذكرتنى بما قالت لى العذراء فى ذلك الحلم الجميل.. لقد قالت فى وصف تلك الشمس المقدسة: «وامتلأت القلوب حبا لها، وشوقا إليها»[1].

قال: لقد ذكرت لك العذراء مقياسا من مقاييس الحقيقة.. فابحث عنه.. فكل من بحث وصل.

قلت: أين!؟

قال: سر فى أرض الله.. واتخذ لنفسك دفترا.. وابحث عن نبرات الصدق الحقيقى التى تنطلق من القلوب.. ففى تلك النبرات ما يدلك على تلك الشمس المقدسة.

قلت: لكل شخص وجهة هو موليها.

قال: ولكن الناس يفترقون فى كل شىء إلا عند الشمس، فإنهم يجتمعون.. يجتمع الجميع.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد كنا نشيع ذلك البطل الهمام فى نظرنا.. وفى نظر أهل بلدنا!؟

قلت: أجل..

قال: ولكن قلوب الآلاف.. بل عشرات الآلاف.. بل الملايين.. تلعن هذا النعش الذى كنا نسمع تأبينه.

قلت: أجل.. وهم أحرار فيما يحبون، وفيما يبغضون.

قال: بل هم مجبرون على ذلك.. فلولا ما فعل بهم ما أبغضوه.

قلت: ولكن هؤلاء الذين أحبوه فعل لهم.. فلذلك أحبوه.

قال: وهذا مقياس آخر.

قلت: لم أفهم.

قال: هذا البطل الهمام أرضى هؤلاء على حساب أولئك.. فلذلك أبغضوه..

---

(1) انظر الرسالة الأولى من هذه السلسلة.

وسيبغضه هؤلاء أيضا.. لأن القلوب لا بد أن تـعود إلى لحظات الصدق لترى الإجرام إجراما والعدل عدلا.

قلت: فأين الذى تجتمع عليه كل القلوب؟

قال: ذاك ما أبحث عنه.. فمن ظفر به ظفر بالإكسير الذى يجعله إنسانا.

قلت: فسلمنى دفتر قلوبك لأنطلق مما وصلت إليه فى بحثى.

قال: لا تسلم لك الحـقائق إلا بالمعاناة.. فسر، وسل القلـوب، وابحث.. فما وصل إلا من سار.

قال ذلك، ثم انصرف.

فى ذلك المساء اشتريت دفترا.. وصـرت أبحث عن كل نفحة صدق تفوح بها الألسن فى لحظة تقدسها.

وهذا هو الدفتر.. وهذه قصته.

* * *

# أولا - العامة

فتحت دفتر البابا على فصله الأول، فوجدت عنوانه (العامة)، فقلت: من تقصد بالعامة؟

قال: أقصد بهم أولئك البسطاء الذين لم تسجل أسماؤهم فى دفاتر المؤرخين مع أنهم هم الذين صنعوا التاريخ.

قلت: لقد كان هذا الصنف من الناس أكثر من اتبع الرسل.

قال: لأنه لم يكن لديهم من السلطان ما يخافون عليه، فلذلك لم ينحجبوا بما انحجب به غيرهم.

كان أول اسم سجله البابا فى هذا الفصل اسم (الراعى)، فسألته عنه، فقال: هذا (الراعى).. وهو أول من رأيت حرارة الصدق فى كلماته.. فلذلك كان أول من سجلت اسمه فى هذا الدفتر.. والذى كان فى ذلك الحين خاليا من أى عنوان.

قلت: فحدثنى حديثه.

قال: فى ذلك اليوم من أيام الربيع.. وفى بلدى الذى ولدت فيه.. وبعد لقياى لمعلم السلام وإقناعه لى بتخصيص دفتر للكلمات الصادقة الصادرة عن القلوب المخلصة، خرجت إلى الحقول المجاورة لأتنسم عطر الهواء الذى لم يدنس بالمداخن، ولألتقى بالبشر الذين لم تخرجهم الحضارة عن فطرتهم.

وفى ذلك الحقل، التقيت ذلك الراعى الصادق الذى كان يمتلئ شوقا لمحمد.

لقد وجدته جالسا بجنب نعجاته من غير أن يراه أحد، أو يسمعه أحد، وهو ينشدها بصوت عذب قول الشاعر:

يا حبيبًا علم الوجد هواه ... ياترانى بعد صبر هل أراه؟
يا جميلا ليس خلق فى البرايا ... قط مثل أو قريب من بهاهُ
بان فى الأفلاك بدر أو هلال ... يسلب الألباب بعض من سناه
ليس حسن فى البرايا أو جمال ... أو بديع من جمال ما عداه
يا حبيبا لست أدرى كيف أوفى ... قدره العالى وفيضا من عطاه
ذاك قلبى هام وجدًا يا حبيبى ... والهوى فى وجدكم حقا سباه
يا دموعا ذارفات فى الليالى ... هل لقاءُ فى نعيم منتهاه
يا لسعدى ساعة اللقيا بحبى ... يا حبيبا حق سعدى فى حماه!

كيف أسلو يا حبيبا في فؤادي | جاوز الأحباب عشقا فاكتواه
كيف أسلو والحنايا لم تزل | ترقب الوصل ووصلي لا أراهُ!
يا ليال ذبت فيها من هواكم | والتياعي يا حبيبي من شِفاه؟
طال بعدي بت ليلي من هواكم | ضج قلبي هائما دمعي ذراه
مال قلبي نحو حب ليس فيه | غضة للقلب رقراق نقاهُ!
كلما همت وزاد الحب فيكم | زاد سعدي بالغنا بي منتهاهُ
كيف لا والوعد منكم يا حبيبي | أن ينال محبكم حقا مناه

اقتربت منه، وقد هزني إنشاده، فقلت: أنت عربي.. لا شك في ذلك.

قال: لا.. بل أنا ألماني.. نبتت شجرتي في هذه البلاد.

قلت: ولكن أشجار هذه البلاد لا تتقن العربية.

قال: لقد شوقني في العربية حبيبي الذي همت به.. فضبطت لساني على موجات لسانه، كما ضبطت قلبي على ترددات محبته.

قلت: عهدي بالمحبين في بلادنا يتلاقون بمحبوبيهم كما يشتهون.. ولا يقتنعون بما تقتنع به من ترديد الأشعار.

قال: ومن قال لك بأن حبيبي قد غاب عني.. إنه معي.

قلت: ولكني لا أراه.

قال: فأنت إذن لا تبصر.

قلت: بل أبصر.. وأنا لا أرى أمامك إلا نعجاتك.

قال: لو نظرت إلى إنسان عيني لرأتيه، ولو حدقت في سويداء قلبي لوجدته مستويا على عرشه.

قلت: لا طاقة لي بفك ألغازك، فحدثني عن حقيقة أمرك.. أخبرني عن حبيبك الذي ملكته قلبك وعقلك وروحك.

قال: محمد هو حبيبي الذي ملك على عقلي وقلبي وروحي وجميع كياني.

قلت متعجبا: محمد!؟

قال: أجل.. محمد..

ثم راح ينشد بصوت عذب قصيدة البوصيري:

محمد أشرف الأعراب والعجم | محمد خير من يمشي على قدم
محمد باسط المعروف جامعه | محمد صاحب الإحسان والكرم
محمد تاج رسل الله قاطبة | محمد صادق الأقوال والكلم

محمد ثابت الميثاق حافظه محمد طيب الأخلاق والشيم
محمد رويت بالنور طينته محمد لم يزل نورا من القدم
محمد حاكم بالعدل ذو شرف محمد معدن الإنعام والحكم
محمد خير خلق الله من مضر محمد خير رسل الله كلهم
محمد دينه حق ندين به محمد مجملا حقا على علم
محمد ذكره روح لأنفسنا محمد شكره فرض على الأمم
محمد زينة الدنيا وبهجتها محمد كاشف الغمات والظلم
محمد سيد طابت مناقبه محمد صاغه الرحمن بالنعم
محمد صفوة البارى وخيرته محمد طاهر من سائر التهم
محمد ضاحك للضيف مكرمه محمد جاره والله لم يضم
محمد طابت الدنيا ببعثته محمد جاء بالآيات والحكم
محمد يوم بعث الناس شافعنا محمد نوره الهادى من الظلم
محمد قائم لله ذو همم محمد خاتم للرسل كلهم

قلت: فكيف اهتديت إلى محمد، وأنت من هذه البلاد التى لا تعرف محمدا.

غضب، وقال: كل البلاد تعرف محمدا.. بل كل الأشجار والحجارة والتربة تعرف محمدا.

قلت: أحدثك عن البشر.. لا عن الأشجار والحجارة.. فأخبرنى خبرك.

قال: قصتى طويلة..

قلت: فقصها علي.

قال: سأقص عليك منها ما تحتاجه.. وأرغب بك عما لا تحتاجه.

قلت: كلى آذان صاغية لك.

قال: لقد وقعت فى عز شبابى ضحية لشباك الحب المدنس..

قلت: ما الحب المدنس؟

قال: ذلك الحب الذى يتغنى به قومنا.. فيملؤون عروش قلوبهم بالمستنقعات الأسنة.

قلت: فكيف نجوت منه.. عهدى بمن يقع فيه يسلم به ما ألم بالمجنون من الجنون، أو ما ألم بعروة إخوانه من الموت.

قال: تلك قصتى مع حبيبى محمد.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد أذاقتنى محبوبتى التى أسلمتها روحى من ألوان الهوان ما امتلأت به مرارة،

فبعت لأجلها كل مـا أملك، وأرضيتها بكل ما أطقت أن أرضيهـا به، فلما نفذ ما عندى من مال ومتاع هجرتنى.. بل باعتنى لمن يملك ما لا أملك، ويقدر على ما لا أقدر.

قلت: فكيف نجوت من خنادق الهوى الوعرة؟

قال: بمحمد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: فى تلك الأيام ظهر لى أن أسافـر إلى اليمن.. ولست أدرى كيف لاح لى ذلك الخاطر.. وقد كـانت تلك الأيام تزدهى بميلاد محمد ﷺ.. فـكانت الأفراح فى كل جانب، وكانت القصائد العذبة تمتلئ بها الحناجر والأسماع.. وكنت أرى الفرحة تمتلئ بها القلوب غير شاعرة بتلك الناقة التى تصيح بها الأجساد.

لقد أثـرت فى تلك المشاهد مع كـونى لم أكن أعرف من العـربية إلا مـا أحتـاجه فى معاملاتى الضرورية.

قلت: فكيف فهمت ما يقولون؟

قال: حرارة الصدق والإخلاص جعلتنى أستوعب كل ما يذكرونه، بل أعيه وعيا تاما.

قلت: أكان ذلك وحده هو الذى أنقذك من شباك الحب المدنس؟

قال: كان ذلك هو البـاب.. وكانت تلك هى البداية.. لقد كـان الإخلاص والصدق هو الذى جعلنى أنضم إلى تلك المجالس، وأجلس معها، وأحاول أن أستشعر المشاعر المقدسة التى تستشعرها..

لقد كـان كل هدفى أن أنسى من جـرعتنى الـسموم.. ولم أكن أعلم أن الله الرحـيم الرحمن يدخر لى كل ذلك الفضل.

قلت: لم أفهم.

قال: فى مـجلس من تلك المجالـس لاحت أنوار عظيمـة غسلت جمـيع أدران قلبى، ومحت جميع ظلماته.. لقد كانت أنوارا لذيذة وجميلة لا يمكن وصفها.

قلت: أنوار من تلك؟

قال: أنوار الشمس التى لا تغيب..

قلت: لم أفهم..

قال: لم يكن دليلى إلى محمد إلا محمد.

قلت: لا زلت لا أفهم.

قال: أنا لست فيلسوفـا، ولا لى قدرة على الجدل، ولا على البحث المضنى.. ولكن مع ذلك لى قدرة على تلمس الصدق والإخلاص.. وقد رأيت فى محـمد منهما كل ما يملأ القلب بالمحبة السامية.

قلت: والمسيح!؟.. ألم تكن مسيحيا؟

قال: بلى.. ولا أرى أن حبى للمسيح يغنى عن حبى لمحمد.. ذلك أنى لم أصل للمسيح إلا بعد أن وصلت لمحمد.

قلت: كيف تقول ذلك، ومحمد جاء بعد المسيح.

قال: لقد عرض للمسيح قطاع طرق كثيرون شوهوه.. ولم يُعِدْ للمسيح جماله ولا كماله غير محمد.

قلت: فكيف تعلمت العربية.. وعلى من تعلمتها؟

قال: علمتنى المحبة.. لقد جعلتنى تلك العيون الصادقة أتعلم من غير معلم.

قلت: لقد رأيتك تردد أشعارا بليغة.

قال: تلك الأشعار من تلك المجالس.. لقد كنت جالسا فى أحد تلك المجالس الآن.

قلت: أنت هنا الآن.

قال: أنا لم أخرج من هناك.. ويستحيل على قلبى أن يفارق مواطن الأحبة.

قلت: ونعجاتك؟

قال: هى لا تشغلنى.. بل لو اجتمع الخلق جميعا على أن يشغلونى فلن يشغلونى.

قال ذلك، ثم انصرف إلى نعجاته، وهو يشدو بقول الشاعر:

| | |
|---|---|
| دارُ الحبيبِ أحقُّ أن تهواها | وتَحِنُّ من طربٍ إلى ذِكراها |
| وعلى الجفونِ إذا هممتَ بزورةٍ | يا ابن الكرامِ عليك أن تغشاها |
| فلأنتَ أنتَ إذا حللت بطيبةٍ | وظللتَ ترتعُ فى ظلال رُباها |
| مغنى الجمال من الخواطرِ والتى | سلبت قلوبَ العاشقين حلاها |
| لا تحسبِ المسكَ الذكىّ كتُربها | هيهاتَ أين المسكُ من رياها |
| طابت فإن تبغى لطيبٍ يا فتى | فأدم على الساعات لثم ثراها |
| وأبشر ففى الخبر الصحيح تقررا | إن الإله بطيبة سماها |
| واختصها بالطيبين لطيبها | واختارها ودعا إلى سكناها |
| لا كالمدينةِ منزلٌ وكفى بها | شَرفًا حلول محمد بفناها |
| خُصت بهجرةِ خيرِ من وطئ | الثرى وأجلهم قدراً وأعظم جاها |
| كُل البلادِ إذا ذُكرنَ كأحرف | فى اسم المدينة لا خَلا مَعناها |
| حاشا مُسمى القدسِ فهى قريبةٌ | منهما ومكة إنهما إياها |
| لا فرقَ إلا أن ثَمَّ لطيفةٌ | مهما بدت يجلو الظلام سَناها |

جَزمَ الجميعُ بأن خير الأراضى ما — قد حاز ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علَتْ — كالنفسِ حينَ زكَت زكا مأواها
وبهذه ظهرت مزيةُ طيبة — فغدت وكل الفضل فى معناها
حتى لقد خُصت بهجرة حِبِّه — الله شرفها بِه وحَباها
ما بين قبرٍ للنبى ومنبرٍ — حيا الإلهُ رسولَه وسقاها
هذى محاسنها فهلل من عاشقٍ — كَلِفٍ شَجِى ناحلٍ بنواها
إنى لأرهبُ من توقع بينها — فيظل قلبى مُوجعًا أواها
ولقلما أبصرتُ حال مودعٍ — إلا رثت نفسى لَهُ وشَجاها
فلكم أراكم قافلين جماعةً — فى إثر أُخرى طالبين سواها
قَسَمًا لقد أكسى فؤادى بينكم — جَزعًا وفجرَ مُقلتى مِياها
إن كان يُزعجكم طلابُ فضيلة — فالخير أجمعُهُ لَدى مَثواها
أو خفتموا ضُراً بها فتأملوا — بركاتِ بُقعتها فما أزكاها
أُفٌّ لمن يبغى الكثيرَ لشهوةٍ — ورفاهةً لم يدرِ ما عقباها
فالعيشُ ما يكفى وليس الذى — يُطغِى النفوسَ إلى خَسيس مُناها
يا رب أسأل منك فضلَ قناعةٍ — بيسيرها وتحصنها بحِماها
ورضاكَ عنى دائمًا ولُزومها — حتى تُلفى مُهجتى أُخراها
فأنا الذى أعطيتُ نفسى سُؤلها — فقبلتُ دعواها فيا بُشراها
بجوارِ أوفى العالمين بذمةٍ — وأعز من بالقرب منه يُباهى
من جاء بالآيات والنورِ الذى — داوى القلوب من العَمى فَشفاها
أولى الأنامِ بخطة الشرفِ التى — تدعى الوسيلة خير من يُعطاها
إنسانُ عين الكونِ شرفِ التى — تدعى الوسيلة خير من يُعطاها
إنسانُ عين الكونِ شرفَ جود — يس أكثرُ المحامدِ طاها
حسبى فلستُ أفى ببعضِ صفاته — لو أن لى عدد الورى أفواها
كثرت محاسنه فأعجز حصرها — فغدت وما تلقى لها أشباها

سالت دموع حارة من عينى البابا، وهو يحدثنى عن قصة هذا الراعى، فقلت: أرى أن هذا الراعى قد أثر فيك أيما تأثير؟

قال: أجل.. فى ذلك المساء سطرت فى هذا الكراس أول اسم من أسماء الصدق.. وفى ذلك اليوم عنونت هذا الدفتر بهذا العنوان، وقد كنت أحسب أنى سأضع دفاتر أخرى لشخصيات أخرى.. ولكنى كلما هممت بذلك انصرفت إلى محمد.

قلت: أراك وضعت فى هذا الفصل أسماء كثيرة؟

قال: كل هؤلاء من العامة البسطاء الذين أتيح لى أن ألتقى بهم، وأحادثهم عن سر إقبالهم على محمد ودين محمد.

قلت: كيف أتيح لك ذلك؟

قال: لقد لاحظت مراكز الدراسات المختلفة ـ والتى تزود الفاتيكان بما يحتاجه من معلومات ـ الإقبال الشديد على الإسلام رغم التشويهات الكثيرة التى تناله من وسائل الإعلام، وقد دفع ذلك الكنيسة إلى تكليفى بالبحث عن هؤلاء المسلمين الجدد والتحاور معهم لنعرف سر الإقبال الشديد على الإسلام.

قلت: لقد أتيحت لك فرصة عظيمة إذن؟

قال: أجل.. لقد كانت هذه فرصة لا تعوض. فقد أتيح لى أن ألتقى بأكبر عدد من المسلمين الجدد، والذين فتحوا لى قلوبهم، وحدثونى بكل إخلاص عن رحلتهم إلى الإسلام[1].

قلت: فى أى بلد تمكنت من لقائهم؟

قال: فى بلاد كثيرة.. فأنت تعلم سخاء الكنيسة.

قلت: فقد استغللت سخاء الكنيسة إذن؟

قال: لا.. لقد كنت صادقا معها.. ولكن صدقى مع الحق كان أعظم من صدقى معها، فلذلك انشغلت بالبحث عن أسرار الصدق عن البحث الذى طلبته منى الكنيسة، وأحسبنى قد عملت بإخلاص، ولم أتقاض على ذلك إلا ما هو حق لى.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد أريد من تلك الأموال التى صرفت على رحلاتى أن أسمع الحقائق من أهلها، وأنقلها بكل صدق وموضوعية، وأحسبنى لم أفعل إلا ذلك.

**الفتى عماد:**

قلبت دفتر البابا فى هذا الفصل، فرأيت اسم (الفتى عماد)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: قصة هذا الفتى مع الإسلام طويلة، ولا يمكننى فى هذا المجلس أن أحدثك عنها جميعا، ولهذا سأكتفى باختصارها لك أو ذكر ما تمس إليه الحاجة فقط منها.

قلت: فمن حدثك بها؟

قال: الشاب عماد نفسه.. لقد أتيحت لى فرصة قدمت له فيها ـ بفضل الله ـ بعض الخدمات، وقد ارتاح إلى، وأخبرنى عن قصته بتفاصيلها.

---

(1) من أهم مراجعى فى أخبار المسلمين الجدد كتاب: رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا، إعداد: عبدالرحمن محمود، وموقع: http://www.newmuslims.tk/

(2) نقلا عن كتاب: قصة الفتى النصرانى الذى اهتدى.. (بتصرف).

قلت: فحدثنى بما وعدتنى منها.

قال: لقد بدأ هذا الشاب الطيب الذى أنار الإسلام عقله وقلبه حديثه بحمد الله على نعمة الإسلام، ثم الصلاة على النبى ﷺ الذى جعله الله واسطة لتلك النعمة، ثم أخذ يحدثنى عن أسرته قبل الإسلام وبعد الإسلام، فقال: كانت أسرتى تتكون منى وأختى وأمى وأبى.. أربعة أفراد فقط وكانت أسرة نصرانية متدينة تواظب على دروس الكنيسة وتؤدى العبادات النصرانية بانتظام، وكنت أختلف إلى دروس الكنيسة مع أسرتى وكنت أواظب على أداء الصلوات، وكان والدى يعمل فى تجارة الحبوب، وكنت منذ صباى ألازمه فى متجر الحبوب الذى كان ملكًا للعائلة الكبيرة التى تتكون من الجد والجدة والأعمام والعمات، وكانت لى مكانة مميزة لدى الجد والجدة برغم وجود أبناء العائلة وأولاد الأعمام، وكنت الأثير لديهم، وكنت سعيدًا بهذه المكانة التى ميزتنى عن أفراد العائلة وأبناء العم حتى إن الجد كان يفاخر دائما أبناء العم بذكائى ومهارتى فى التجارة برغم حداثة سنى حينذاك مما كان يغيظ أبناء أعمامى جدًا، وحتى عمى الذى لم يرزق أولادًا كان يبدى إعجابه بى ويقول: (إننى أعتبرك مثل ابنى، وأنا على يقين بأن والدك لا يعرف قيمتك مثلى)

والحمد لله رب العالمين كنت ماهرًا فى التجارة ماهرًا فى التعامل مع الناس حتى اشتهرت بالدقة فى الميزان وحسن التعامل مع المشترين، الأمر الذى حببهم فى متجرنا وكان لى أسلوبى اللطيف الطيب فى المعاملة مما فطرت به ونشأت عليه، والحمد لله كنت بأسلوبى ذلك متمشيًا مع أدب الإسلام الذى جعل الدين المعاملة والكلمة الطيبة صدقة والابتسامة فى وجوه الناس صدقة، وكنت سعيدًا بهذا التقدير أيما سعادة..

وقد كان أول ما هدانى الله به إلى الإسلام أمى.

قلت: أكانت أمه مسلمة؟

قال: لا.. ولكنها كانت سبب دخوله الإسلام.. لقد ذكر لى هذا الشاب الفاضل أنه شعر بتوجه أمه نحو الإسلام وميلها إليه، وقد اكتشف ذلك من خلال تعلقها بدرس التفسير الأسبوعى للشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله - فيقول: (لاحظت أن لحديث الشيخ الشعراوى الأسبوعى أثرًا أشبه بالرعد فى آذان المتعصبين من النصارى، وساعة الحديث الأسبوعى ساعة نحس عندهم، وتمثل عبئًا نفسيًا ومعاناة لهم، بيد أن الأمر كان مختلفًا مع أمى كل الاختلاف حيث كنت أراها تفتح التلفاز وتشاهد درس الشيخ الشعراوى الأسبوعى يوم الجمعة فأسألها دهشا: ماذا تصنعين؟! فتجيب قائلة: أتابع هذا الشيخ لأنظر ماذا يقول؟ وأسمعه ربما يخرف!.. ولم أكن أدرى أن ردها علىّ وقتها كان من باب التمويه حتى لا أخبر أبى[1]!

---

(1) ورد فى النصوص ما يدل على جواز اللجوء إلى الكذب فى مثل هذه الأحوال من باب الضرورة، فقد جاء فى حديث الغلام والراهب والساحر قول الراهب: «إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر» الحديث رواه مسلم.

وهناك برنامج آخر كانت تتابعه أمى، وهو برنامج (ندوة للرأى) أراها تشاهده، فلما أنكر عليها ذلك مستفسرًا ترد قائلة: أشاهد وأسمع لأرى ما يقوله هؤلاء العلماء عن النصرانية والنصارى!فأسمع جوابها دون تعليق.. وأواصل مراقبتها، وكانت أمى سمحة المعاملة لطيفة المعشر، وكادت فى معاملتها تبدو أقرب للإسلام والمسلمين، حتى إن أحد القساوسة سبّها ذات مرة، لأنها قالت أمامه: (والنبى) على طريقة العامة من المسلمين فى مصر، فسبّها القس ونهرها قائلاً لها: أى نبى ذلك الذى تقصدين؟! وعنفها حتى سالت الدموع من عينها.

ولما فكرت أمى فى الإسلام، استدعتنى ذات مرة وقالت لى: تعال يا عماد أنت ابنى الوحيد ولن أجد أحدًا يسترنى غيرك! فقلت لها: خيرًا يا أمى، فقالت: أنت ابنى الكبير وأنا مهما كانت الأمور وفى كل الأحوال أمك.. ومن المستحيل أن تتخلى عنى أو ترمينى فى التهلكة، فقلت لها: نعم يا أمى. فقالت: ماذا تفعل لو أن أهلك قالوا عنى كلامًا سيئًا ورمونى بتهم باطلة؟! فقلت لها: ولم يفعلون ذلك وهم جميعا يحبونك. قالت: ماذا تفعل لو حاولوا قتلى والتخلص منى؟ فقلت لها: كيف ذلك؟ولم يحاولون قتلك وهم يحبونك؟! قالت: ماذا تفعل لو صرت مسلمة؟هل ستحاربنى مثلما الحال مع أبيك وأعمامك وأخوالك وأقاربك؟! فكانت إجابتى لها: الأم هى الأم، وأنت أمى فى كل الأحوال.

قلت ذلك.. ولكن نفسى كانت ممتلئة بالمخاوف عليها، وقوّى ذلك لدى كثرة مشاجرتها مع أبى فى شأن رغبتها فى اعتناق الإسلام.. وكان أبى يغضب من تهديدها بترك النصرانية ويتحداها أن تعتنق الإسلام.

وذات يوم عدت إلى المنزل قادمًا من المدرسة، فلم أجد أمى، فأخذت أسأل عنها فى كل مكان يمكن أن تذهب إليه... وكانت الصدمة أنى وجدت أنها أعلنت إسلامها أمام الجهات المسؤولة، وأنها لن تعود إلى البيت أبدًا..

لقد جن جنون العائلة كلها وفقدت توازنها وصارت تقول فى الإسلام والمسلمين كل ما يمكن أن يقال من ألفاظ السباب واللعن والتهديد والوعيد وصار الجميع من أخوال وأعمام فضلاً عن الأب فى حالة عصبية انفعالية فى الكلام والسلوك فهم غاضبون من كل شىء ومن أى شىء...

وكنت أستمع إلى الشتائم توجه إلى أمى من الأقارب والأخوال والأعمام، فمن قائل: إنها كانت تشبه المسلمين فى كذا وكذا، وهذا الخال يوجه كلامه إلى قائلاً: «انظر كيف تركتكم، وتخلت عنك وعن أختك؟! انظروا من سوف يرعاكم ويقوم على تربيتكم؟!».. أما العم فقد كان يقول كلامًا مشابهًا ويقول موجهًا كلامه لى ولأختى: «ترى لو ذهبت أنت وأختك إليها وتوسلتما إليها وبكيتما بين يديها.. هل ترجع إليكم؟!».

وكان العم يذهب إليها فى الجهات المختصة ليوقع الإقرار تلو الإقرار بعدم التعرض

لها . . وأحيانًا كـان يلقاها ويستعطفها كي تعـود إلى ولديها لشدة حاجتهـما إليها، ولكن أمي رفضت بشـدة بعدما ذاقت حلاوة الإسـلام والإيمان وأسلمت لله رب العالمين وتركـتنا وديعة عند من لا تضيع عنده الودائع سـبحانه هو خير حافظٍ وهو أرحـم الراحمين، وأيقنت أن الله سوف يحرسنا بعينه ويرعانا برعايته[1].

قال البابا: ثم أخبرني هذا الفتى عن بعض البلاء الذى تعرض له بسبب إسلام أمه، ثم كيف بدأ يتلقى أنوار الإسلام، فقال: أخذت العنوان وقفلت راجعًا إلى منزلنا أفكر فى الأمر، وبعد يومين أو ثلاثة عـزمتُ على زيارة أمي على عنوانها الجديد فى موعـد يسبق يوم الثلاثاء اللاحق لموقف القس السابق فى درس الكنيسة، وبلغت مسكن الوالدة وشاء الله أن يكون ذلك مع أذان المغرب . . يا سبـحان الله . . وأستمع إلى أذان المغرب وكأنى أسـمعه لأول مرة برغم سماعى له آلاف المرات ولكن كان للأذان هذه المرة وقع مغاير تمامًا لما ألفته من قبل .

وتستقبلنى أمي أثناء الأذان مرحبةً بـى، وأراها وأسمعها تردد الأذان وهى لا تكاد تنتبه لحديثى إليها، وبعـد الأذان ذهبت فتطهـرت وتوضأت ثم دخلت فى صـلاتها وجـعلت تتلو القرآن فى الصـلاة بصوت مسـموع فكنت لأول مرة أسـمع القرآن من أمي، إنهـا تتلو سورة الإخلاص، وكان لذلك وقع لا يوصف فى قلبى وأثر ساحر فى نفسى.

إن مشـاعرى فى تلك اللحظة لا أقوى على وصفـها، فقد شـملنى نورٌ ربانيٌّ وتملكنى شعور غريب تمنيت معه فى تلك اللحظة لـو جثوت على ركبى وقبلت قدم أمي وهى تصلى، شعرت بشىء ما يغسل قلبى، وداخلنى صفاءٌ ونقـاءٌ لم أشعر بهما من قبل، أجل إن شعورى فى ذلك اليوم لا يمكن وصفه أو التعبيـر عنه . . إنه روح جديدة تسرى فى جسدى وعروقى، أحسـست بمدى الظلم الذى وقع على أمي من ذلك القس[2] فى درس الثلاثاء الماضى، تمنيت لو خنقته لافتـرائه على أمي دون وجه حق، لماذا يشوه سيرتها؟! أهـذا عدل؟ وهل المسيح أمر بذلك؟!

ولكن الأمر كان عند القوم مختلفًا. إن لديهم قاعدة تقول: (ابحث عن الخروف الضال قبل أن تبحث عن أحد الغرباء ليدخل الكنيسة) والمعنى أنه يجب أن تبحث عن النصرانى الذى ابتعد عن عـبادة المسيح قبل أن تبحث عن أحـد تغريه بعبادة المسيـح، ويواصل الفتى تساؤله: لماذا يفتـرى ذلك القس على أمي؟ويشنع عليـها؟ودخلت فى صـراع مع نفسى، وبعـد الصلاة

(1) هذا الموقف مع مـا فيه من الـصدق والإخلاص إلا أن الداخل للإسـلام لا ينبغى أن يفـرط فى أى شىء يرتبط بحياته وبمسؤولياته، بل إن اعتناقه للإسلام لا ينبغى أن يزيده إلا حرصا على هذه المسؤوليات.

وفى الأحكام الفقهيـة من التيسير فى هذا الباب ما يرفع الحـرج عن الداخلة إلى الإسلام من النساء من البقاء فى بيت الزوجية، ولو ظـل زوجها على كفره. انظر المسألة بتفاصيلهـا فى (الضوابط الشرعية لحماية الزواج) من سلـسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية) للمؤلف.

(2) ذكر هذا الشاب فى كلام حذفناه أن قسا من القسس اتهم أمه فى عرضها، وأنها سجنت من طرف شرطة الآداب.

جاءت أمى بالطعام، وعرضت على أن أتناول الطعام معها، وقالت: هيا لتأكل معى أم أنك تخشى أن تأكل معى؟! وأنظر بعينين تفيضان بالشوق إليها والإكبار لها، وأطالع فى وجهها نوراً ونضارةً لم أعهدهما من قبل، إنها أم جديدة غير التى ألفتها من قبل، إنها مختلفةٌ تمامًا.. ما هذه الوضاءة التى تنور وجهها؟!! ما الذى حدث؟!.. ماذا حدث لأمى.. لقد عشت معها عمرى.. ما الذى جد عليها؟! ما هذا النور الذى يفيض به وجهها؟!

وبرغم مشاعرى المتناقضة وتقذاك من مشاعر حب الأم وكراهيتها لأنها خانت المسيح بتركها المسيحية.. إلا أنى أرى أمى مختلفةً تمامًا، أرى فى وجهها نوراً وبياضًا وجمالاً لم أعهده فى وجهها من قبل.. هل هى نضارة الإسلام؟أم هو نور الإسلام؟... وتناولت معها الطعام وكنا وحدنا لم يشهد هذا اللقاء أحد من أهلى.. ثم ودعت أمى متوجها إلى البيت..

أعود لأستلقى على سريرى وأسترجع أحداث زيارتى لأمى كأنها حلم جميل.. لا أكاد أصدق أن هذا حدث.. ويقترب موعد درس الثلاثاء التالى وأذهب إلى الكنيسة للاستماع إلى محاضرة القس الأسبوعية فى يوم الثلاثاء التالى للثلاثاء الذى تعرض فيه لأمى بالتشهير والشتم.

وأعود إلى الكنيسة للاستماع إلى المحاضرة الأسبوعية وفى هذه المرة وخلال المحاضرة تجاوز القس كل الحدود فى الإساءة لأمى والتعريض بها وسبها وإهانتها بأقذر الأساليب وبأشنع الافتراءات للدرجة التى زعم فيها أنه تحدث معها فى السجن وقد زارها فيه[1]، فأعجب لمستوى الكذب والزور والبهتان الذى بلغه القس، وأدهش لمستوى التدنى الذى انحدر إليه، وبرغم ما يتمتع به ذلك القس وأمثاله من مكانة روحية كبيرة فى نفوس أتباع الكنيسة إلا أنى وجدت نفسى لا أحتمل السكوت عليه وعلى وقاحته فاندفعت أصيح فى وجهه قائلاً: كفى إلى هذا الحد من فضلك.

وهذا أمر جلل أن يوقف فتى فى سن المراهقة مثلى القس المحاضر فى الجمهور وهو الأب الروحى للكنيسة وروادها، ويقاطعه فتى بهذه الجرأة وبهذا الأسلوب الغاضب المهين، ويواصل الفتى كلامه الغاضب للقس قائلاً: انتظر من فضلك.. كفى إلى هذا الحد، توقف! أنت كذاب.

ثم توجهت إلى جمهور الحاضرين قائلاً: يا جماعة، أنا كنت عند أمى (وأقسمت لهم بقسم المسيح عندهم) أنى كنت عندها وعندما سمعت أمى الأذان قامت فتطهرت وتوضأت وصلت، منتهى النقاء، والله رأيت فى وجهها نضارة..

عندما قلت ذلك لاحظت وجوههم اسودت وكشروا عن أنيابهم عندما سمعونى أتحدث

---

(١) بالرغم من عدم وثوقنا التام بما ذكر هنا إلا أن مثل هذا النوع من الكذب الفاضح مما تمتلئ به المواقع التبشيرية، فهم يفترون على علماء الأمة وصالحيها بل على رسولها من الأكاذيب ما لا يمكن تصوره.

عن أمى بهذه الطريقة. وواصلت الحديث قائلاً لهم: والله إن القس لكذاب وأمى ليست فى السجن كما يزعم القس، وهاكم العنوان لمن يرغب بزيارتها. . أمى بفضل الله رب العالمين حين سمعتها تقرأ القرآن أمامى كانت تغسلنى وتطهرنى، فقاطعنى القس قائلاً: اسكت يا ولد وإلا سأطردك خارج الكنيسة.

ثم حدثنى الفتى عن لجوئه إلى الإنجيل ليبحث فيه عن السكينة والهداية والهدوء فيكتشف أنه محرف، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله حقًا، هو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال: فالإنجيل عندما طالعته وجدته كتابًا كأى كتاب يؤلف فى سيرة شخص أو عظيم حيث تطالعك أخبار عن المسيح الذى يأكل والمسيح الذى يشرب والمسيح الذى يموت والمسيح الذى يقوم. من الذى يتحدث بهذه الأخبار؟ هل هو الله؟ أم هو المسيح؟!

إن الإنجيل كتاب كأى كتاب يحكى قصة شخص أكل وشرب ونام، وفعل كذا من المعجزات أو له كذا من المعجزات والخوارق، من المتحدث فى كل هذا؟ أو من الذى كتب هذه الأخبار بعد وفاة المسيح؟ ولماذا تتعدد الروايات وتختلف وتتناقض أحيانًا بتعدد الأناجيل واختلافها، حتى والمسيح على الصليب - كما يزعمون - ينادى: (إيلى إيلى لماذا؟ شبقتنى!)

أى: إلهى إلهى لماذا تركتنى وخذلتنى؟! لماذا؟ ينادى مَنْ؟ وهو من؟ وكيف يتخلى الأب عن ابنه وهو يستصرخه ويستنصره ويستنجد به؟! أهذا منطق؟! أسئلة كثيرة رسمتْ أمامى علامات استفهام كبيرة.

وقد أصاب الفتى الملل من قراءة الإنجيل ـ كما يحكى ـ لأن قراءته الإنجيل ضاعفت من حيرته ولم تجب عن أسئلته، ويمضى الفتى قائلاً: ولكن حرصى على الوصول للحقيقة دفعنى لمزيد من المراجعة ومعاودة قراءة الإنجيل مرة أخرى حتى انتهيتُ من قراءته لأصل إلى الاطمئنان النفسى والعقلى والروحى فما وجدت إلا المزيد من الإبهام والغموض، فاشتدت حيرتى حتى طالعت فى الإنجيل قول السيد المسيح: (الحق الحق أقول لكم: إن من يتبع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية).

الله أكبر. الله أكبر إذًا جاءت صريحة وعلى لسان المسيح عبارته تلك التى تؤكد أنه رسول من عند الله، فقوله: (الحق. الحق) قسم وقوله: (إن من يتبع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى) تأكيد على أنه رسول من عند الله وقوله: (فله حياة أبدية) أى له الجنة والحياة الخالدة فى الجنة.

قلت للبابا: فقد أسلم الفتى بعد هذا إذن؟

قال: أجل. . لقد أسلم. . وأسلمت بعد ذلك عائلته بعد عناء شديد تعرض له، ولكن الله أنقذه بفضله وكرمه كما ينقذ كل صادق ومخلص.

**الفتاة سناء:**

من الأسمـاء التى رأيتها فى دفـتر البابا فى هـذا الفصل اسم (سناء)[1]، فسـألت البابا عنها، فـقال: هذه فتاة هداها الله للإسـلام، وقد التقـيت بها فى مصر، وكـان مما ذكرته لى قولها: نشأت كأى فتاة نصرانيـة مصرية على التعصب للدين النصرانى، وحرص والداى على اصطحابـى معهـما إلى الكنيـسة صبـاح كل يوم أحد لأقـبل يد القس، وأتلو خلفه الـتراتيل الكنسية، وأستـمع إليه وهو يخاطب الجمع ملقنا إياهم عقيدة التـثليث، ومؤكدا عليهم بأغلظ الأيمان أن غير المسيحيين مهمـا فعلوا من خير فهم مغضوب عليهم من الرب، لأنهم ـ حسب زعمه ـ كفرة ملاحدة.

كنت أستـمع إلى أقوال القس دون أن أستوعبـها، شأنى شـأن غيـرى من الأطفال، وحينما أخرج من الكنيـسة أهرع إلى صديقتى المسلمة لألعب معها، فـالطفولة لا تعرف الحقد الذى يزرعه القسيس فى قلوب الناس.

كبـرت قليلا، ودخلت المدرسـة، وبدأت بتكوين صداقات مع زمـيلاتى فى مـدرستى الكائنة بمحافظة السويس.. وفى المدرسة بدأت عيناى تتفتحان على الخصال الطيبة التى تتحلى بها زمـيلاتى المسلمـات، فهن يعـاملننى معـاملة الأخت، ولا ينظرن إلى اختـلاف دينى عن دينهن، وقد فهمت فيـما بعد أن القرآن الكريم حث على معاملة الكفار غـير المحاربين معاملة طيبة طـمعا فى إسلامهم وإنقـاذهم من الكفر، كمـا قال عز وجل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة].

إحدى زمـيلاتى المسلمات ربطتنى بهـا على وجه الخصـوص صداقة مـتينة، فكنت لا أفارقـها إلا فى حـصص التـربية الدينيـة، إذ كنت - كمـا جرى النظام - أدرس مع طالـبات المدرسة النصرانيات مبادئ الدين النصرانى على يد معلمة نصرانية. كنت أريد أن أسأل معلمتى كيف يمكن أن يكون المسلمون ـ حسـب افتراضات المسيحيين ـ غـير مؤمنين، وهم على مثل هذا الخلق الكريم وطيب المعـشر؟ لكنى لم أجـرؤ على السؤال خـشية إغـضاب المعلمـة حتى تجرأت يوما وسألت، فجاء سؤالى مفاجأة للمعلمة التى حاولت كظم غيظها، وافتعلت ابتسامة صفراء رسمتها على شفتيها وخاطبتنى قائلة: «إنك ما زلت صغيرة ولم تفهمى الدنيا بعد، فلا تجعلى هذه المظاهر البسيطة تخدعك عن حقيقة المسلمين كما نعرفها نحن الكبار».

صمتُّ على مضض على الرغم من رفضى لإجابتها غير الموضوعية، وغير المنطقية.

وتنتقل أسـرة أعز صديقـاتى إلى القاهرة، ويومهـا بكينا لألم الفراق، وتبـادلنا الهدايا والتذكـارات، ولم تجد صديقـتى المسلمة هدية تعـبر بها عـن عمق وقوة صـداقتهـا لى سوى

(1) انظر: كتاب (العائدون إلى الله) للشيخ محمد بن عبد العزيز المسند.

مصحف شريف فى علبة قطيفة أنيقة صغيرة، قدمتها لى قائلة: «لقد فكرت فى هدية غالية لأعطيك إياها ذكرى صداقة وعمر عشناه سويا فلم أجد إلا هذا المصحف الشريف الذى يحتوى على كلام الله» تقبلت هدية صديقتى المسلمة شاكرة فرحة، وحرصت على إخفائها عن أعين أسرتى التى ما كانت لتقبل أن تحمل ابنتهم المصحف الشريف.

وبعد أن رحلت صديقتى المسلمة، كنت كلما تناهى إلىّ صوت المؤذن، مناديا للصلاة، وداعيا المسلمين إلى المساجد، أعمد إلى إخراج هدية صديقتى وأقبلها وأنا أنظر حولى متوجسة أن يفاجئنى أحد أفراد الأسرة، فيحدث لى ما لا تحمد عقباه.

ومرت الأيام وتزوجت من شماس كنيسة العذراء مريم، ومع متعلقاتى الشخصية، حملت هدية صديقتى المسلمة (المصحف الشريف)، وأخفيته بعيدا عن عينى زوجى، الذى عشت معه كأى امرأة شرقية وفية ومخلصة وأنجبت منه ثلاثة أطفال، وتوظفت فى ديوان عام المحافظة، وهناك التقيت بزميلات مسلمات متحجبات، ذكرننى بصديقتى الأثيرة، وكنت كلما علا صوت الأذان من المسجد المجاور، يتملكنى إحساس خفى يخفق له قلبى، دون أن أدرى لذلك سببا محددا، إذ كنت لا أزال غير مسلمة، ومتزوجة من شخص ينتمى إلى الكنيسة بوظيفة يقتات منها، ومن مالها يطعم أسرته.

وبمرور الوقت، وبمحاورة زميلات وجارات مسلمات على دين وخلق بدأت أفكر فى حقيقة الإسلام والمسيحية، وأوازن بين ما أسمعه فى الكنيسة عن الإسلام والمسلمين، وبين ما أراه وألمسه بنفسى، وهو ما يتناقض مع أقوال القسس والمتعصبين النصارى.

بدأت أحاول التعرف على حقيقة الإسلام، وأنتهز فرصة غياب زوجى لأستمع إلى أحاديث المشايخ عبر الإذاعة والتلفاز، لعلى أجد الجواب الشافى لما يعتمل فى صدرى من تساؤلات حيرى، وجذبتنى تلاوة الشيخ محمد رفعت، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد للقرآن الكريم، وأحسست وأنا أستمع إلى تسجيلاتهم عبر المذياع أن ما يرتلانه لا يمكن أن يكون كلام بشر، بل هو وحى إلهى.

وعمدت يوما أثناء وجود زوجى فى الكنيسة إلى دولابى، وبيد مرتعشة أخرجت كنزى الغالى (المصحف الشريف) وفتحته وأنا مرتبكة، فوقعت عيناى على قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران] ارتعشت يدى أكثر وصببت وجهى عرقا، وسرت فى جسمى قشعريرة، وتعجبت لأنى سبق أن استمعت إلى القرآن كثيرا فى الشارع والتلفاز والإذاعة، وعند صديقاتى المسلمات، لكنى لم أشعر بمثل هذه القشعريرة التى شعرت بها وأنا أقرأ من المصحف الشريف مباشرة بنفسى.

هممت أن أواصل القراءة إلا أن صوت أزيز مفاتيح زوجى، وهو يفتح باب الشقة حال دون ذلك، فأسرعت وأخفيت المصحف الشريف فى مكانه الأمين، وهرعت لأستقبل زوجى.

وفى اليـوم التالى لهـذه الحادثة ذهبت إلى عـملى، وفى رأسى ألف سؤال حـائر، إذ كانت الآية الكريمـة التى قرأتها قد وضـعت الحد الفاصل لما كان يؤرقنـى حول طبيعة عـيسى عليه السلام، أهو ابن الله كما يزعم القسيس ـ تعـالى الله عما يقولون ـ أم أنه نبى كريم كما يقول القرآن؟ فجـاءت الآية لتقطع الشك باليقين، معلنة أن عيـسى، عليه السلام، من صلب آدم، فهو إذن ليس ابن اللـه، فالله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص].

تساءلت فى نفسى عن الحل وقد عرفت الحقيـقة الخالدة، حقيقة أن (لا إله إلا الله وأن محـمدا رسول الله) أيمكنَ أن أشـهر إسلامى؟ ومـا موقف أهلى منى، بل مـا موقف زوجى ومصير أبنائى؟ طافت بى كل هذه التساؤلات وغـيرها وأنا جالسة على مكتبى أحاول أن أؤدى عملى لكنى لم أستطع، فالتفكير كاد يقـتلنى، واتخاذ الخطوة الأولى سيعرضنى لأخطار جمة أقلها قتلى بواسطة الأهل أو الزوج والكنيسة.

ولأسابيع ظللت مع نفسى بين دهشة زميلاتى اللاتى لم يصارحننى بشىء، إذ تعودننى عاملة نشيطة، لكننى من ذلك اليوم لم أعد أستطيع أن أنجز عملا إلا بشق الأنفس.

وجاء اليـوم الموعود، اليوم الذى تخلصت فـيه من كل شك وخوف وانتقلت فـيه من ظلام الكفر إلى نور الإيمـان، فبينمـا كنت جالسة ساهمـة الفكر، شاردة الذهن، أفكر فيـما عقدت العزم عليه، تناهى إلى سمعى صوت الأذان من المسجد القريب داعيا المسلمين إلى لقاء ربهم وأداء صلاة الظهـر، تغلغل صوت الأذان داخل نفـسى، فشعـرت بالراحة النفسـية التى أبحث عنها، وأحسـست بضخامة ذنبى لبقائى على الكفـر على الرغم من عظمة نداء الإيمان الذى كـان يسرى فى كل جـوانحى، فوقـفت بلا مـقدمـات لأهتف بصوت عـال بين ذهول زميـلاتى: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محـمدا عبده ورسـوله)، فأقبل علىّ زميـلاتى وقد تحيرن من ذهولهن، مهنئات باكيات بكاء الفـرح، وانخرطت أنا أيضا معهن فى البكاء، سائلة الله أن يغفر لى ما مضى من حياتى، وأن يرضى عنى فى حياتى الجديدة.

كان طبيـعيا أن ينتشر خـبر إسلامى فى ديوان المحافظة، وأن يصل إلى أسـماع زملائى وزميلاتى النصـارى، اللواتى تكفلن ـ بسبب سخطهن ـ بسرعـة إيصاله إلى أسرتى وزوجى، وبدأن يرددن عنى الافتراءات، مدعين أن وراء القرار أسبابًا لا تخفى.

لم آبه لأقوالهن الحاقـدة، فالأمر الأكثر أهمـية عندى من تلك التخرصـات: أن أشهر إسلامى بصورة رسمـية، كى يصبح إسلامى علنا، وبالفعل توجـهت إلى مديرية الأمن حيث أنهيت الإجراءات اللازمة لإشهار إسلامى.

وعدت إلى بيتى لأكتشف أن زوجى ما إن علم بالخبـر حتى جاء بأقاربه وأحرق جميع ملابسى، واستولى على ما كان لدى من مجوهرات ومال وأثاث، فلم يؤلمنى ذلك، وإنما تألمت

حضف أطفالى من قبل زوجى ليتخذ منهم وسيلة للضغط عليّ للعودة إلى ظلام الكفر. . آلمنى مصير أولادى، وخفت عليهم أن يتربوا بين جدران الكنائس على عقيدة التثليث، ويكون مصيرهم كأبيهم فى سقر. . رفعت ما اعتمل فى نفسى بالدعاء إلى الله أن يعيد إليّ أبنائى لتربيتهم تربية إسلامية، فاستجاب الله دعائى، إذ تطوع عدد من المسلمين بإرشادى للحصول على حكم قضائى بحضانة الأطفال باعتبارهم مسلمين، فذهبت إلى المحكمة ومعى شهادة إشهار إسلامى، فوقفت المحكمة مع الحق، فخيرت زوجى بين الدخول فى الإسلام أو التفريق بينه وبينى، فقد أصبحت بدخولى فى الإسلام لا أحل لغير مسلم، فأبى واستكبر أن يدخل فى دين الحق، فحكمت المحكمة بالتفريق بينى وبينه، وقضت بحقى فى حضانة أطفالى باعتبارهم مسلمين، لكونهم لم يبلغوا الحلم، ومن ثم يلحقون بالمسلم من الوالدين.

حسبتُ أن مشكلاتى قد انتهت عند هذا الحد، لكنى فوجئت بمطاردة زوجى وأهلى أيضا، بالإشاعات والأقاويل بهدف تحطيم معنوياتى ونفسيتى، وقاطعتنى الأسر النصرانية التى كنت أعرفها، وزادت على ذلك بأن سعت هذه الأسر إلى بث الإشاعات حولى بهدف تلويث سمعتى، وتخويف الأسر المسلمة من مساعدتى لقطع صلتهن بى.

وبالرغم من كل المضايقات ظللت قوية متماسكة، مستمسكة بإيمانى، رافضة كل المحاولات الرامية إلى ردتى عن دين الحق، ورفعت يدى بالدعاء إلى مالك الأرض والسماء. أن يمنحنى القوة لأصمد فى وجه كل ما يشاع حولى، وأن يفرج كربى، فاستجاب الله دعائى وهو القريب المجيب، وجاءنى الفرج من خلال أرملة مسلمة، فقيرة المال، غنية النفس، لها أربع بنات يتامى وابن وحيد بعد وفاة زوجها، تأثرت هذه الأرملة المسلمة للظروف النفسية التى أحياها، وتملكها الإعجاب والإكبار لصمودى، فعرضت على أن تزوجنى بابنها الوحيد (محمد) لأعيش وأطفالى معها ومع بناتها الأربع، وبعد تفكير لم يدم طويلا وافقت. وتزوجت محمدا ابن الأرملة المسلمة الطيبة.

وأنا الآن أعيش مع زوجى المسلم (محمد) وأولادى، وأهل الزوج فى سعادة ورضا وراحة بال، على الرغم مما نعانيه من شظف العيش، وما نلاقيه من حقد زوجى السابق، ومعاملة أسرتى المسيحية، ولا أزال بالرغم مما فعلته عائلتى معى أدعو الله أن يهديهم إلى دين الحق ويشملهم برحمته مثلما هدانى وشملنى برحمته، وما ذلك على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعزيز.

**سوسن هندى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (سوسن هندى)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد التقيتها مع سناء. . وقد حدثتنى عن قصة إسلامها، فقالت: نشأت فى أسرة مسيحية وكنت الابنة الوحيدة بين أربعة أشقاء من الذكور، ولذا كنت مدللة للغاية.

وتعلقت بالإسلام منذ الصغر قبل أن أصل لمرحلة التفكير، ففى المرحلة الابتدائية كنت المسيحية الوحيدة فى الفصل إلى جانب مسيحى آخر، وكنت أحرص على حضور درس الدين الإسلامى مع زميلاتى، وكان مدرس اللغة العربية بأسلوبه المحبب إلينا وشرحه المبسط يأسرنى بما يرويه عن الإسلام.

وفى المرحلة الإعدادية كنت أحرص على استعارة كتاب الدين الإسلامى المقرر، وبى شغف شديد لاستيعاب كل ما فيه، كذلك كان حالى فى المرحلة الثانوية، وكان كتاب (عبقرية عمر) للأستاذ محمود العقاد الذى كان مقرراً علينا فى المرحلة الثانوية، نقطة تحول فى تفكيرى.

سكتت قليلا، ثم قالت: رغم تشبث أبى بمسيحيته وتردده على الكنيسة إلا أن مكتبته الخاصة بمنزلنا بها عدد كبير من الكتب الإسلامية، وكنت أتسلل إلى المكتبة فى غيبته لأشبع نهمى للاطلاع المجرد بلا هدف، وبالتدريج تكونت لدى الرغبة فى المزيد من البحث عن المجهول بالنسبة لى من أجل العلم والمعرفة.

فى هذه المرحلة كنت مسيحية شديدة التعصب مواظبة على التردد على الكنيسة، وكنت أشعر بالغيرة على عقيدتى، وهى تتضاءل أمام الإسلام، وكنت أتمنى أن أرى - وقتها - فى عقيدتى المسيحية من القيم والمبادئ القويمة فى العقيدة والشريعة والسلوك ما هو موجود فى الإسلام، وكان كل همى أن أستوعب (عبقرية عمر) المقرر علينا رغبةً فى الحصول على درجة كبيرة فى اللغة العربية التى أعشقها، وحتى يتسنى لى الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، ولم أكن أدرى أن هذا القسم لا يلتحق به إلا المسلم أو المسلمة، وشخصية عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أذهلتنى، وقد كان على - رضى الله عنه - محقًا عندما قال: «عقمت الأمهات أن يلدن مثل عمر».

لقد أرسى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - الدولة المسلمة سياسيًا لكن عمر أرساها سياسيًا وفكريًا معًا.

لم تكن أسرتى تشعر بشىء، بل كان والدى لا يرى مانعًا من مطالعتى للكتب الإسلامية لزيادة المعلومات لا أكثر، وكان هناك إنسان واحد يحس بى وبحيرتى، قس شاب متفتح حر التفكير، كان يقول لى: (أنت ملزمة بما ترين، ولست بملزمة بنصوص الإنجيل التى تقلقك، إنى أراك باحثة عن الحقيقة).

وعندما علم بحزنى لعدم التحاقى بقسم اللغة العربية، أشار على بقسم التاريخ، وقال لى: (ستجدين فى التاريخ ما تبحثين عنه)، وكان هذا القس يحمل ليسانس آداب قسم تاريخ.

توفى القس، وكم حزنت على وفاته، فلم أشك لحظة واحدة فى أنه مؤمن يكتم إيمانه، وزاد حزنى أن القس الذى حل محله، كان على عكسه تمامًا، وكان يضيق بمحاورتى له، وما أكثر ما قال لى: إنك تفسدين زميلاتك الشابات فى الكنيسة.

فقدت الثقة فى الإنجيل.. وعندما التحقت بالجامعة.. حملت معى فكرًا قلقًا بالنسبة لمسيحيتى وفقدت الثقة فى الأناجيل وشروحها الكثيرة، ولكنها على طرفى نقيض، ولكن لا أكتمك سرًّا حين أقول: إن الإنجيل كان عاملاً مساعدًا لى على إشهار إسلامى وطالما وضعته أمام القرآن الكريم فى إطار المقارنة فأحسست بأن لا وجه للمقارنة.

كان الحوار بينى وبين الشباب المسلم داخل الجامعة على أشده ولكن بروح سمحة، وما إن ينتهى الحوار حتى نعود أصدقاء، وفى السنة الأخيرة قررت أن يكون حوارى مع أستاذ بالكلية، هذا الأستاذ كان على بينة من دينه فى غير تعصب.

وقبل امتحان السنة النهائية، فاجأت الأستاذ بعزمى على الدخول فى الإسلام عن اقتناع تام، ودهشت عندما طلب منى أن أتريث حتى أنتهى من الامتحان، لكنى أصررت على موقفى.

وغادرت منزلى لأعيش فى ضيافة أسرة إحدى زميلاتى حتى استطعت إشهار إسلامى، حينها جن جنون أسرتى التى فقدت كل أمل فى أن أعود إليها، وأبلغوا عنى أننى مخطوفة، ولكننى ذهبت إلى الأجهزة المختصة وكتبت إقرارًا بأننى لست مختطفة.

بعدها تزوجت شابًا مسلمًا ملتزمًا من الذين كنت أحاورهم فى الجامعة ولم تتعد أو تتجاوز علاقتى به حدود الحوار، ولكن ما إن علم بإعلان إسلامى حتى بادر بالتقدم لخطبتى وقبلت على الفور، وكنت أعرف فيه دماثة الخلق وهدوء الطبع بالإضافة إلى استقامته والتزامه بدينه، وقد رحبت أسرته بى ترحيبًا شديدًا وأحسست بأننى فى أمان بين هذه الأسرة المؤمنة، وحاولت وكنت أود أن تكون هناك صلة بينى وبين أسرتى.. فالله سبحانه وتعالى يقول فى محكم التنزيل: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان].

حاولت أن أكون على هذا المثال ولكن بلا جدوى، وقد رأى زوجى أن أبدأهما بالزيارة، وبالفعل قمت بزيارة أبى إلا أنه رفض هذه الزيارة، ونصحنى بعدم زيارة أمى وأخوتى.

وأخيرًا أقول: الحمد لله.. أنا الآن ربة بيت أبحث عن عمل يليق بى حيث أعيش مع زوجى وابنتىّ أسماء وإسراء، وأكتب فى بعض المجلات والصحف الدينية، وشغلى الشاغل حاليًا أن يظهر أول كتاب لى وهو (قصتى مع الإسلام).

**إيفا ماريا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (إيفا ماريا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه سيدة ألمانية، وقد التقيت بها فى بلدى ألمانيا، وقد حدثتنى عن قصة دخولها الإسلام، فقالت: لقد وجدت بادئ الأمر أن صورة المعبود عند النصارى قريبة جدًا منا معشر

البشر، وقد أضيفت عليها صفات الإنسان لدرجة لا تجعلها تنطبق على خالق كل شيء، كما أن صوره السيد المسيح عليه السلام التي يجمع فيها بين الإنسان وصمة الخالق، هذه الصورة لا يمكن تصديقها أبداً.

إلى جانب ذلك، فقد ورد بخاطرى أن المسيحية ليست إلا علاقة بين الإنسان وربه، ولا شأن لها بأى حال من الأحوال بشئون الناس الاعتيادية كالشئون المالية مثلا أو العمالة أو أى نوع من أنواع التقنين لحياة الناس، أضف إلى ذلك التوجيهات العامة، التى وجدت أنها عسيرة التطبيق، ومن ذلك مبدأ المحبة، محبة الإنسان لأخيه الإنسان، هذا المبدء لا يمكن أن تطبقه جماهير الناس فى ظل العقيدة النصرانية.

هذه الأفكار التى كانت بخاطرى وقعت إبان الفترة التى تسمى فترة تمرد الطلاب على الرأسمالية، فعندما بحثت هذه القضايا مع زميل مسلم - أصبح فيما بعد زوجًا لى - وجدت أن الإسلام قد وضع فى اعتباره كل هذه المشكلات، واهتم بها أعظم الاهتمام كمشكلة الاستغلال او القوانين العامة الديمقراطية وغير الديمقراطية ومشكلة المال والاقتصاد وغيرها.. فقد أوجد الإسلام الحلول المناسبة لكافة هذه المشكلات الدنيوية.

وكم كان تأثرى عظيمًا حينما علمت أن الإسلام يعترف بالإنسان باعتباره مخلوقًا له روح وجسد فى آن واحد، كما أحببت مبدأ الاتصال المباشر بين الإنسان وخالقه دون أية وساطة من أى نوع بينهما، فقد شعرت أن من اللائق جداً للإنسان أن يخضع لخالقه فقط لا لأى أحد من خلقه.

كذلك شرح لى زميلى المسلم بأنه لا يوجد فى الإسلام أى فصل بين الدين والدولة، فاقتنعت بذلك تمامًا، حيث وجدت من الضرورى أن لا يقتصر الإيمان والاعتقاد الدينى على الشئون الشخصية فحسب، بل لابد أن يشمل كافة جوانب الحياة الإنسانية.. وهذه صفة مميزة وخاصية فريدة للدين الإسلامى الحنيف، فهو لا يرفع شعار (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، بل على العكس من ذلك تمامًا إذ أن العبادة فى الإسلام لا تقتصر على المساجد، بل تمتد لتشمل الحياة البشرية بأسرها.

سكتت قليلا تسترجع ذكرياتها، ثم قالت: عندما كنت أمر فى هذه المرحلة من تجميع المعلومات والقيام بدراسات دينية صادفت بعض المصاعب والعقبات، وكان عسيراً على نفسى أن أتقبل القيود التى يفرضها الإسلام على المرأة، والتى ظننت خطأ حينذاك أنها تحد من حريتها الشخصية، وهذه على كل حال هى نفس الحرية والتسيب الذى اعتدت أن أنتقده فى ديانتى السابقة، وهى حرية يساء فهمها واستخدامها. فقد اكتشفت أن الفهم النظرى شىء والتطبيق العملى شىء آخر تمامًا، وأذكر هنا اللباس الإسلامى للمرأة، فقد كان فى البداية مشكلة كبرى بالنسبة لى، وأظن أن هذا ينطبق على معظم السيدات الألمانيات المسلمات، فإلى

جانب الإحساس بعدم الارتياح والشعور بالحر الشديد والمرأة فى لباس كامل فى الصيف. فقد كان من العسير علىّ أن أصمد أمام أسئلة التهكم والاحتقار التى كانت توجه لى وقد استمر ذلك حتى وفقنى الله إلى الرد بإجابات كريمة وردت لى اعتبارى أمام نفسى وأمام الناس. دون أن أحس بأننى قد أوذيت أو خُدش حيائى.

ثم تعرفت على مجموعة من الشابات المسلمات، فكم كان تأثرى عظيمًا لما لمسته بين أفرادها من حب وجو أخوى يسود بين الجميع، وهو جو يختلف تمامًا عما هو سائد بين أى جماعة عرفتها من قبل، فقد منحنى الانضمام إلى هذه الجماعة الإسلامية إحساسًا بالسعادة واليقظة، وهكذا اقتنعت أننى اتخذت القرار الصحيح حين أصبحت مسلمة، وقد كان ذلك الإحساس بمثابة تعويض مناسب لكل ما لقيته من عقبات نتيجة لهذا القرار، ولدينا الآن اجتماع أسبوعى للمرأة المسلمة مع أطفالنا حيث نتعلم المزيد عن ديننا الإسلامى الجديد.

**كايسى ستاربك:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كايسى ستاربك)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه سيدة أمريكية، وقد حدثتنى عن نفسها، فقالت: إدراكى الأوَّلىُّ حول فكرة الخلاص المسيحيَّة جاء بعد تعميدى وأنا فى سن مبكِّر فى إحدى الكنائس المعمدانيَّة الجنوبيَّة، فقد عُلِّمْتُ فى مدرسة الأحد: (إذا لم تكونى مُعمَّدةً، فإنَّك ستذهبين إلى جهنَّم).

حصل تعميدى لأنِّى كنت أُريد إرضاء النَّاس، فقد سألتُ أمِّى عن التعميد ـ حين جاءت إلى غرفتى فى إحدى الأُمسيات ـ فشجَّعتنى لكى أفعل ذلك، وهكذا قرَّرت فى يوم الأحد التالى أن أذهب إلى مُقدِّمة القاعة الكنسيَّة، وخلال التراتيل النِّهائيَّة للموعظة، توجَّهتُ سائرةً إلى الأمام لأُقابل الرَّاهب الشاب. كانت هناك ابتسامةٌ على وجهه، فحيَّانى، وقعد بجانبى على المقعد الطويل. سألنى: لماذا تريدين أن تفعلى هذا؟. انتظرت بُرهةً ثمَّ قلت: لأنِّى أُحبُّ المسيح، وأنا أعرف أنَّه يحبُّنى. وبعد انتهاء هذا التصريح، جاء إلىَّ أعضاء الكنيسة وعانقونى. على أن تكون مراسم الغمر فى الماء بعد بضعة أسابيع.

خلال سنىِّ عمرى المبكِّرة فى الكنيسة ـ وحتى فى صفِّ الرَّوضة ـ أذكر أنَّنى كنت مُشاركةً فى الإيقاع الصَّوتىِّ أثناء دروس مدرسة الأحد. فيما بعد ـ أثناء سنىِّ مراهقتى الأولى ـ كنت عضواً فى مجموعة البنات الفتيَّات، والَّتى التقت فى الكنيسة من أجل النَّشاطات الأسبوعيَّة، وقامت بالتَّخييم سنويًا من أجل الرياضة الروحيَّة. وفى صباى حضرت مخيَّمًا مع أعضاء أكبر منِّى سنًّا من المجموعة الشبابيَّة. وعلى الرغم من أنِّى لم أقض الكثير من الوقت معهم فى السابق، إلاَّ أنَّهم كانوا يعرفوننى كابنة المنسِّق للشبيبة، أو الفتاة الَّتى تعزف البيانو فى المناسبات الكنسيَّة الخاصَّة.

وفى إحدى أُمسيات هذا المخيَّم كان هناك رجلٌ يتحدَّث عن زواجه. تحدَّث عن قصة

لقائه بزوجه. لقد ترعرع فى الولايات المتحدةّ الأمريكيَّة حيث تُعتبر المُواعدة أمراً طبيعيًا، ولكن ـ فى تقاليد تلك الفتاة ـ كان بإمكانه فقط أن يلتقى بها برفقة حارسٍ معهما، وبما أنَّه كان مُعجبًا بها فقد قرَّر أن يستمرَّ فى لقائها. وكان هناك شرطٌ آخر، وهو أنَّهما لم يكن بإمكانهما أن يلمس أحدهما الآخر حتى يعقدا الخطبة[1]. وبعد أن تقدَّم لطلب يدها، سُمح لهما بإمساك الأيدى. كان هذا مّما حيَّرنى، وما زال يُشعرنى بالرَّهبة. فقد كان من الجميل أن أفكِّر بأنَّ مثل هذا الاكتشاف عن شخصٍ آخر كان يمكن أن يظلَّ سرًّا حتى تمَّ هذا الاعتراف. ومع أنَّ القصَّة أمتعتنى، إلاَّ أنَّنى لم أكن أظنُّ أبدًا أنَّها يمكن أن تتكرَّر.

بعد بضع سنوات، تطلَّق والداى، وتغيَّر دور الدِّين فى حياتى. فقد كنت دائمًا أنظر إلى عائلتى من خلال عيون طفلة، فكانوا بذلك مثاليِّين. فقد كان والدى شمَّاسا فى الكنيسة وذا احترامٍ كبير، وكان معروفًا من الجميع، وكانت والدتى نشطةً فى مجموعات الشبيبة.

عندما غادرت أُمِّى البيت، أخذت دور العناية بأبى وأخوىَّ الاثنين. واستمرَّ ذهابنا إلى الكنيسة، ولكن بسبب زيارتنا لأُمِّى فى عُطَلِ نهاية الأسبوع، أصبحت زياراتنا للكنيسة أقل. عندما كنَّا فى بيت والدى، كنَّا نتجمَّع ليلاً ـ وفى كلِّ ليلة ـ لقراءة الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورونثوس (1-13) والَّتى تتحدَّث عن المحبَّة والإحسان. وقد كرَّرت القراءة معهم مرَّات كثيرة جدًّا حتى حفظتها عن ظهر قلب. فقد كانت تمثِّل نوعًا من الدَّعم المعنوىِّ لأبى، على الرغم من أنِّى لم أكن أفهم لماذا.

وفى فترة ثلاث سنوات متتالية انتقل أخى الأكبر، ثمَّ أخى الأصغر، ثمَّ أنا إلى بيت والدتى. وفى ذلك الوقت لم تعد أُمِّى تذهب إلى الكنيسة، وهكذا وجد أخواى أنَّ الذهاب إلى الكنيسة ليس ضروريًّا. وبانتقالى إلى بيت أُمِّى ـ خلال السَّنة قبل الأخيرة من مرحلة الدِّراسة الثانويَّة ـ أنشأت صداقات جديدة، واكتشفت طريقةً مختلفةً فى الحياة. ففى يومى الدِّراسىِّ الأوَّل تعرَّفت إلى فتاة كانت غايةً فى اللطف. وفى اليوم الدِّراسىِّ التالى دعتنى لزيارتها فى بيتها خلال عطلة نهاية الأسبوع، لأقابل عائلتها وأزور كنيستها. تقبَّلتنى عائلتها على الفور كفتاة طيِّبة وقُدوة حسنة لها. وأيضًا صدمتنى المفاجأة من جماعة المصلِّين الَّذين حضروا إلى كنيستها، فعلى الرَّغم من أنِّى كنت غريبةً عنهم إلاَّ أنَّ كلَّ النِّساء والرِّجال حيُّونى بالعناق والقُبَل وجعلونى أشعر بأنِّى فى موضع ترحيب.

بعد قضائى المستمرِّ للوقت مع هذه العائلة، وذهابى إلى كنيستهم فى عُطَل نهاية الأسبوع، بدأوا يحدِّثوننى عن معتقداتهم الخاصَّة فى كنيستهم ـ كنيسة المسيح ـ فهذه الطَّائفة تسير على العهد الجديد (أو التطبيق الحرفىِّ لكتابات بولس). فلم يكن لديهم آلاتٌ موسيقيَّةٌ فى الكنيسة أثناء الصَّلاة، بل الغناء الصَّوتىُّ فقط؛ ولم يكن هناك وُعَّاظٌ مدفوعى الأجر، بل

(1) المراد هنا عقد الزواج لا مجرد الخطبة كما هو معلوم.

كان بعض كبار السنّ يقودون الصلاة. ولم يكن يُسمح للنّساء بالحديث فى الكنيسة. ولا يحتفلون بعيد الميلاد، والفصح، وباقى الأعياد. وكان النبيذ والخبز غير المخمّر يُقدّمان بالمشاركة كلّ يوم أحد. وكان التعميد يتمّ فوراً، وفى اللحظة الّتى يقرّر فيها الآثم بأن يصبح مؤمنًا. وعلى الرغم من أنّى كنت أُعتبر مسيحيَّة، إلاّ أنّ أعضاء كنيسة المسيح كانوا يعتقدون بأنّى سأذهب إلى جهنّم إذا لم أتعمَّد مُجدّدًا فى كنيستهم وعلى طريقتهم. فكان هذا أوّل انفجار رئيسى فى نظامى العقائدىّ. فهل أنا ترعرت فى كنيسة كان كلّ ما فيها يُعمل بطريقة خاطئة؟! وهل كان يتوجّب علىّ حقًّا ان أتعمّد مرّةً أخرى؟!

عند هذه النقطة كان لى نقاشٌ مع أُمّى حول العقيدة. حدّثتها عن ارتباكى، وأنّنى فقط أحتاج إلى من يوضح لى الأمور. وأصبحت ناقدةً للطُّقوس الدّينيَّة فى كلّ الكنائس، لأنّ الوعّاظ يحكون لنا القصص فقط، ولا يُركّزون على الإنجيل. ولم يكن باستطاعتى أن أفهم: إذا كان الإنجيل مهمًّا جداً، فلماذا لا يُقرأ لوحده فى الصّلاة الكنسيَّة؟

ومع أنّى فكّرت بالتعميد كلّ يوم أحد، ولفترةٍ تُقارب السنتين، إلاّ أنّنى لم أستطع أن أتقدّم للتعميد. كنت أُصلّى لله تعالى ليدفعنى للأمام إن كان فعل ذلك صائبًا، ولكنّ هذا لم يحدث أبدًا.

فى السَّنة التالية، ذهبت إلى الكليَّة وأصبحت منفصلةً عن كلّ الكنائس، كإنسان يبدأ من جديد. فى بعض أيَّام الآحاد كنت أزور بعض الكنائس مع الأصدقاء، فقط لأشعر بلحظات نقد للطُّقوس الدينيَّة. حاولت الانضمام إلى الجمعيَّة الطلاَّبيَّة المعمدانيَّة، ولكنّى شعرت بأنّ الأشياء خاطئةٌ هناك أيضًا. فقد جئت إلى الكليَّة مُعتقدةً بأنّى سأجد شيئًا يشبه كنيسة المسيح، ولكنّ مثل ذلك لم يوجد. وعندما كان يصادف وأعود إلى منزل والدتى أيَّام العُطَل الأسبوعيَّة، كنت أزور الكنيسة لكى أحصل على شعورٍ فورى بالمشاركة الاجتماعيَّة والترحيب.

فى سنتى الثانية فى الكليَّة أمضيت أيَّام الآحاد بالغناء فى الجَوْقة الموسيقيَّة لكنيسة (ويك فوريست)، لأنّى كنت أكسب مبلغًا جيِّدًا من المال. ومع أنّى لم أكن أُومن بمعتقدات الكنيسة، إلاّ أنّى كنت أحتمل الطُّقوس الدينيَّة لأجنى المال.

وفى شهر تشرين الأول من هذه السَّنة قابلت مسلمًا كان يسكن فى سكن الطلاَّب الّذى كنت أسكن فيه. كان شخصًا لطيفًا، وكان دائمًا يبدو مُتأمّلاً أو غارقًا فى تفكيرٍ عميق.

وفى إحدى الأمسيات قضيت كلّ الأمسية سائلةً إيَّاه بعض الأسئلة الفلسفيَّة حول الإيمان والدّين. فتحدّث عن إيمانه كمسلمٍ شيعى إمامى إسماعيلىّ، وعلى الرغم من أنّ أفكاره لم تمثّل تمامًا طائفته الإسلاميَّة (حيث إنّه كان أيضًا مُرتبكًا وباحثًا عن بعض الإجابات)، إلاّ أنّ تصريحاته الأساسيَّة جعلتنى أتساءل عن معتقداتى الخاصَّة: فهل نحن لأنّنا وُلدنا فى

هذا الدِّين، فإنَّ ذلك يتضمَّن بأنَّه هو الدِّين الصَّحيح؟ ويومًـا بعد يوم كنت ألقاه وأسأله الكثير من الأسئلة -راغـبةً في نفس المستوى من التـعامل معه، كـما حصل حين التقـينا لأوَّل مرَّة- ولكنَّه لم يعد يجيب على أسئلتي، أو يوافق الاحتياجات الروحيَّة الَّتي كانت لديّ.

في الصَّيف التالي، عملت في إحدى المكتبات، وكنت ألتهم أيَّ كتاب استطعت إيجاده عن الإسلام. ثم قـدَّمت نفسي لمسلم آخـر في الحرم الجـامعيّ، وبدأت أسـأله عن الإسلام. وبدل أن يجيـبني على أسئلـتي وجَّهني لقراءة القـرآن الكريم. وفي أيِّ وقت كان لـديَّ أسئلةٌ عامَّةٌ عن الإسـلام، كان يجيبني عليـها. ذهبت إلى المسجد المحليِّ مـرَّتين خلال تلك السَّنة، وكنت سعيدةً لشعوري بنوعٍ من المشاركة الاجتماعيَّة مُجدَّدًا.

وبعد قراءتي عن الإسلام خلال الصَّيف، أصبحت أكثر حساسيةً تجاه التصريحات الَّتي تُدلي عن المسلمين. وعندما كنت آخذ مادَّةً تمهيديَّةً عن الإسلام في منتصف الفصل الدِّراسيّ، كنت أشعر بالإحـباط حين يقوم الأستـاذ بإلقاء تعليقات خاطئـة، ولكنِّي لم أكُن أعرف كيف أصحِّحه. وفي نشاط خارجٍ عن دراستي الجامعيَّة، أصبحت عاملةً نشطةً وداعمةً لمنظَّمة حديثة النشـأة في حرمنا الجـامعيّ هي منظَّمـة الوعي الإسـلاميّ وحيث إنَّني كنت العـضو الأنثـوي الوحيد، كنت أُقدَّم للآخرين على أنِّي مسيحيَّة المجموعة. وفي كلِّ مرَّة كان فيها أحد المسلمين يقول ذلك كنت أنظر إليه بحيرة، لأنِّي كنت أظـنُّ بأنِّي كنت أفعل كلَّ ما كانوا يفعلون، وأنِّي بذلك كنت مسلمـةً أيضًا. فقد امـتنعت عن أكل لحم الخنزير وأصبحت نبـاتيَّة، ولم أكن أبدًا أُحبُّ الخمر، وبدأت الصَّوم في شهر رمضان المبارك، ولكن كان لا يزال هناك اختلافٌ ما.

في نهـاية تلك السَّنة قبل النهـائيَّة حـصلت بعض التغـييـرات، فقد قـرَّرت أن أُغطِّي شعري، لأُخفيه عن أعين النَّاس. ومـرَّةً أخرى فكَّرت بذلك كشيء جميل، وكانت لديَّ فكرةٌ بأنَّ زوجي فقط سـيكون بإمكانه أن يرى شعري. حـتى إنَّه لم يحدِّثني أحدٌ عن الحـجاب.. حيث إنَّ الكثير من الأخوات في المسجد لم يكنَّ يلبسنه.

في ذلك الصَّيف، كـنت أجلس في المدرسة أتصفَّح الإنتـرنت، باحثـةً عن مواقع عن الإسلام. كنت أريد العثـور على عناوين إلكترونيَّة لأُناسٍ مسلمـين، ولكنِّي لم أُوفَّق. وأخيرًا غامرت بالدُّخول إلى صفحـة كانت رابطةً للزَّواج. قرأت بعض الإعلانات، وحاولت أن أجد أُناسًا في مـثل سنِّي لأكتب لهم عن الإسلام. وقـدَّمت لرسائلي بعـبارة: (إنَّني لا أبحث عن الزَّواج، أنا فقط أريد أن أتعلَّم عن الإسلام) بعـد بضعة أيَّامٍ وصلتني ثلاثة ردود من ثلاثة من المسلمين: رسالةٌ من باكستاني كـان يدرس في الولايات المتحدة، وأخرى من مسلمٍ هندي كان يدرس في انجلترا، والأخيرة من مسلمٍ يعـيش في دولة الإمارات العربيَّة. قدَّم لي كلُّ أخٍ منهم المساعدة بطريقـة فريدة، ولكنِّي بدأت المراسلة مع المسلم الباكسـتانيِّ الَّذي يعيش في الولايات المتحدة، لتـواجده في نفس النطاق الزمنيِّ لمنطقتي. كنت أُرسل إليـه الأسئلة، وكان هو بدوره

يقوم بإرسال إجابات شاملة ومنطقيَّة. وعند هذه النقطة عرفت بأنَّ الإسلام هو دين الحقّ، فكلُّ النَّاس سواسيةٌ بغضِّ النَّظر عن اللون أو العمر أو الجنس أو العرق، وبالرُّجوع إلى القرآن الكريم تلقَّيت إجابات على أسئلة مُعقَّدة. فأصبحت أشعر بالرِّباط الاجتماعيِّ النوعيِّ مع المسلمين، فأصبحت لَدىَّ حاجةٌ قويةٌ غامرةٌ لإعلاني الشهادتين في المسجد. ولم يعد لدىَّ الخوف المسيحيُّ من إنكار المسيح كإله، فقد آمنت بأنَّ هناك إلهًا واحدًا فقط، وأنَّه لا يمكن أن يكون له شريك. وفي مساء أحد أيَّام الخميس من شهر تموز لعام 1997 تحدَّثت هاتفيًا مع الأخ الباكستانيِّ، وسألت المزيد من الأسئلة، وتلقَّيت المزيد من الإجابات الموثوقة والمنطقيَّة، فقرَّرت الذَّهاب إلى المسجد في اليوم التالي.

ذهبت إلى المسجد مع أخٍ مسلمٍ من (ويك فوريست) وأخته غير المسلمة، ولكنِّي لم أُخبره بنيَّتي. ذكرت فقط بأنِّي أريد أن أتحدَّث مع الإمام بعد خطبة الجمعة. وبعد أن أنهى الإمام خطبته، وصلَّى بالمسلمين، جاء للحديث معي. فسألته عمَّا هو ضروريٌّ لكي أصبح مسلمة. فأجابني بأنَّ هناك أركانًا رئيسيَّةً للإسلام بالإضافة إلى الشَّهادتين. فقلت له بأنِّي درست الإسلام لأكثر من عام، وأنِّي جاهزةٌ لأصبح مسلمة. فردَّدت أمامه بأنِّي أشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله.

وهكذا أصبحت مسلمةً في الثاني عشر من شهر تموز لعام 1997، والحمد لله.. كانت هذه هي الخطوة الأولى والكبرى، ثمَّ فُتحت بعد ذلك أمامي الكثير من الأبواب، وما زالت تُفتح بنعمةٍ من الله سبحانه وتعالى. بدأت أوَّلاً بتعلُّم الصَّلاة، ثمَّ زرت مسجدًا آخرًا في وينستون-سالم، وبدأت بلبس الحجاب بعد ذلك بأسبوعين...

أثناء عملي في الصَّيف تكون لدىَّ مشكلةٌ بخصوص الحجاب. فمدراء العمل لا يحبونه، ويدعونني أذهب مبكِّرًا. فهم يعتقدون بأنِّي لا يمكنني أن أقوم بعملي في بيع الحقائب المدرسيَّة بطريقةٍ حسنة، لأنَّ ملابسي تُعيق حركتي. ولكنِّي وجدت أنَّ في لبس الحجاب عمليَّة تحرُّرٍ كبيرةٍ. وأنا أقابل المسلمين وهم يتسوَّقون.. كلَّ يوم ألتقي بأُناسٍ جُدُد، والحمد لله.

في السَّنة الدِّراسيَّة النِّهائيَّة، أخذت زمام القيادة في منظَّمة الوعي الإسلاميِّ الجامعيَّة، لأنِّي وجدت بأنَّ إخواني لم يكونوا نشطاء كما ينبغي. وحيث إنِّي كنت دومًا أدفعهم للقيام ببعض الأمور، وأقوم بتذكيرهم ببعض الأحداث، أطلقوا علىَّ لقب الأم كايسي.

وخلال الفصل الثاني من السَّنة النِّهائيَّة أخذت مباحثَ دراسيَّةً اختياريَّةً عن الإسلام والمسيحيَّة واليهوديَّة. وكانت كلُّها جيِّدةً، لأنِّي كنت أُمثِّل الأقليَّة (المسلمة) في كل منها. ما شاء الله، كم كان جميلاً أن أُمثِّل الإسلام، وأن أقول للنَّاس الحقيقة عن المسلمين، وعن الله سبحانه وتعالى.

**إيريس صفوت:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (إيريس صفوت)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لسيدة ألمانية أسلمت، وقد التقيت بها وحدثتنى عن قصة إسلامها، ومما ذكرته لى قولها: نشأت فى أسرة مسيحية علمانية ابتعدت عن الكنيسة، وعندما كنت فى سن العاشرة شعرت بأن شيئا ينقصنى فى حياتى، وفطرتى دائما تشتد نحو الدين وأخذت أبحث لى عن دين، وكنت فى ذلك الوقت أقرأ فى الكتب عن الإسلام.. ووقتها شعرت بشيء يشدنى بقوة إلى الإسلام كدين سماوى يرفع من كيان الإنسان ويحمل جميع الفضائل والأخلاق الفاضلة وأخذت أهتم بهذا الدين وتحدثت إلى زميلاتى فى المدرسة عن الإسلام وأننى أحب هذا الدين، وحينئذ كنت بلغت الثانية عشرة من عمرى، وبالفعل أسلمت وكتمت إسلامى لأن زميلاتى وصفننى بالجنون.

قلت: أسلمت فى ذلك السن.. فما كان موقف أسرتك؟

قالت: فى البداية اعتبرت أسرتى أننى أمر بمرحلة اضطراب وتقلب فى المزاج.. لكن عندنا فى الغرب حرية، وإذا بلغ الأبناء سن الثالثة عشرة فمن حقهم أن يتصرفوا كيفما شاءوا، ومن حقهم أيضا أن يتركوا أهلهم، ولهذا تركوا لى حرية الديانة.

وعندما وصلت للثانوية العامة، وكان عمرى حيئذ ثلاث عشرة سنة، وذلك عام 1967 وكنت فى رحلة إلى لندن، ذهبت إلى المركز الإسلامى هناك والتقيت بالشيخ محمد الجيوشى (عميد كلية الدعوة الأسبق بجامعة الأزهر) وكان إماما للمركز، وقلت له: إننى أريد أن أعلن إسلامى، وأذهب إلى الأزهر وأدرس الدين الإسلامى واللغة العربية، كما التقيت بالشيخ أحمد حسن الباقورى (وزير الأوقاف المصرى الأسبق) فى ذلك الحين، ووعدنى بالدراسة فى الأزهر، واعلنت إسلامى أمام الشيخين ونطقت بكلمة التوحيد، وفى عام 1969 سافرت إلى مصر، وتعلمت اللغة العربية، ثم عدت إلى ألمانيا لدراسة الماجستير فى جامعة كيسين، وفى أثناء دراستى للماجستير تعرفت على شاب مصرى كان يدرس فى مرحلة الدكتوراه، وتزوجنا وسافرنا عام 1975 إلى مصر وواصلت دراستى للغة العربية، وزادت معرفتى بالإسلام.

**قلت لها: لقد مر أكثر من ثلاثين عاما منذ اعتناقك الإسلام.. فهل استطعت إيصال الإسلام إلى أهلك؟**

**قالت: منذ اللحظة الأولى لإسلامى، وأنا أنتمى لهذا الدين وأدعو إليه والحمد لله استطعت أن أقنع اثنين من أقاربى بأن يسلما هما جدتى ورجل آخر من أقاربى، والذين لم يسلموا كنت أعطى لهم فكرة عن الإسلام، وهم عندما يسمعوننى كانوا يحترمون الإسلام.**

**قلت: فعلاقتك بأسرتك جيدة إذن؟**

---

(1) انظر: صحيفة الشرق الأوسط 4-10-2002.

قالت: علاقتى بأسرتى فى ألمانيا جيدة منذ أعلنت إسلامى، لأن فى ألمانيا تسامح واحترام لحرية العقيدة، ويعتبرون الدين مسألة شخصية.

سألتها عن أكبر ما جذبها للإسلام، فقالت: قبل أن أعلن إسلامى كنت أقرأ عن شخصية الرسول ﷺ وسيرته فأحببت هذه الشخصية كثيرا لما تتميز به من خصال لا توجد فى بشر على وجه الأرض.

**ليلى أوغان رمزى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ليلى أوغان رمزى)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذه امرأة أمريكية الجنسية، وقد أعلنت إسلامها فى مصر وقد حدثتنى عن طريقها إلى الإسلام، فقالت: أنا محبة للاطلاع والاستزادة من العلم والمعرفة، فبعد أن حصلت على شهادتى الجامعية فى الإعلام من أميركا، ومع شغفى الشديد فى استمرارية طلب العلم، وجدت لدى رغبة ملحة فى التعلم فى الشرق الأوسط، رغم ظروفى المادية الصعبة، وفقرى الشديد، ولكن فضل الله واسع حيث أنعم على بمنحة قدرها عشرة آلاف دولار.

جئت إلى مصر لأدرس العلوم السياسية، وفى مكتبة الجامعة وقع بصرى على مصحف شريف مترجم المعانى إلى اللغة الانجليزية.. عندما فتحته شعرت بقوة خفية تهزنى من الأعماق.. قرأت وقرأت.. وكلما تعمقت عرفت شيئًا وأدركت أشياء.

أمضيت ستة أشهر أفكر فى الأمر، خاصة وأننى عضو فى الكنيسة الكاثوليكية، ووالدى رجل دين، ثم بدأت أسأل نفسى كيف أعتنق الإسلام؟ وما هى الجهة المسؤولة عن هذه الأمور، لا سيما وأنا غريبة هنا.. وبغير تفكير وجدتنى أذهب إلى أحد المساجد، وهناك التقيت بشيخ المسجد، فقلت له: أريد أن أشهر إسلامى فماذا أفعل؟ فدلنى على الطريق، وتم المراد، ودخلت فى الدين الحنيف.

وفى مصر التقيت بالداعية الإسلامية الكبيرة بعلمها وسلوكها الدكتورة زهيرة عابدين أستاذة ورئيسة قسم الأطفال بكلية طب القاهرة سابقًا، وعميدة كلية دبى الطبية للبنات حاليًا، حيث نصحتنى بالذهاب إلى مصر للدراسة فى الأزهر الشريف، فاستجبت لنصيحتها.

وأما الشخصية الثانية التى التقيتها، وتأثرت بها، فهو الشيخ أحمد فرحات إمام مسجد الحسين، الذى غمرنى بعطفه وحنوه حتى كنت أناديه بالوالد، فقد ساعدنى فى معرفة أصول الدين الإسلامى وفرائضه، كما شجعنى على أداء فريضة الحج عام 1982م.

بعد إشهار إسلامى مكثت أتردد على بيوت الله كثيراً، وفى أحد المساجد التقيت بزوجى الدكتور يس (من المحلة الكبرى ـ إحدى مدن مصر)، فتقدم إلى ليخطبنى، ولكننى

---

(1) انظر: مجلة الضياء / العدد 31/ 1993.

اشترطت عليه موافقة أهلي أولاً على الاقتران به، ومن ثم كتب إليهم ليخطبني منهم. فوافقوا، وتم الزواج عام 1984، وفي عام 1986 التحقت بهيئة التدريس في المعهد الأزهري للفتيات بالمحلة الكبرى، بعد أن أصبحت أجيد اللغة العربية تمامًا.

وقد ختمت حديثها لي برغبتها في أن تصبح داعية إلى الله، فقالت: منذ أن هداني الله إلى طريق الحق والرشاد، وفتح بصري على ما في كتاب الله من آيات بينات. وكشف عن بصيرتي لأعرف قبسًا من نور اليقين، وأنا عازمة على المضي قدمًا في مجال الدعوة إلى الدين الإسلامي، وأملي كبير في أن يساعدني الأزهر الشريف لاستكمال دراستي العليا في العلوم الإسلامية حتى يتسنى لي أن أعمل في سبيل خدمة الإسلام، وإعلاء كلمة الحق تحت راية التوحيد في كل مكان.

وقد حدثتني عن الأخطاء التي يقع فيها بعض الدعاة حين يتركون الأسلوب المتبصر الذي دعا إليه الإسلام، فقالت: إن الدعاة المسلمين لا يزال أغلبهم بعيدين عن روح الإسلام الحقيقية التي فهمتها من خلال د تي للدين الإسلامي والسيرة العطرة، ولأساليب السلف الصالح، فالدين يسر لا عسر، وسماحة لا غلظة أو فظاظة أو تنفير.

ومن ثم يجب على الداعية إلى الله أن يكون على بصيرة بأمر الأمانة التي يحملها سواء كان مبشرًا أو منذرًا، وأن يتحلى بكل مكارم الدين الإسلامي من سماحة ويسر ورحمة

**إحسان جيم تشوا:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إحسان جيم تشوا)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من سنغافورة، وهو من عائلة تتبع الدِّيانة الطاويَّة، وقد أخبرني أنه آمن بالمسيحيَّة حين كان في التاسعة من عمره، وبعد ذلك، وفي سنيِّ مراهقته المبكِّرة اتَّبع تعاليم بوذا، ثم وجد طريقه لدخول الإسلام.

وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن قصة إسلامه، فقال: أنت تعلم أن والديَّ طاويَّان، وهكذا أُنشئت على الدِّيانة الطاويَّة منذ ولادتي، وخلال سنيِّ طفولتي، آمنت وقبلت الطاويَّة، حتى ولو لم أكن أعرف شيئًا عنها، فقط وفي سنيِّ مراهقتي اكتشفت بأنَّ الطاويَّة هي دين عبادة السَّلَف، حتى إنَّ والديَّ - كغيرهما من الكثير من الطاويِّين - لم يكلِّفا نفسيهما معرفة تاريخ هذه الدِّيانة، فأنا لم أُعلَّم تاريخ التعاليم الطاويَّة، بل مارست هذه الدِّيانة فقط تبعًا لما قُدِّم لي دون أدنى شك.

حين كنت في التاسعة من عمري، حدَّثني وبعض زملائي معلِّم المدرسة بأنَّنا كلُّنا يجب أن نصبح مسيحيِّين، وأخبرنا بأنَّنا إن لم نصبح مسيحيِّين، فإنَّه بالضَّرورة سيصيبنا الموت

---

(1) نُشرت قصَّة إحسان في مجلة (القارئ المسلم) عدد تشرين أول-كانون أول، والَّتي تصدر عن جمعيَّة مُعتنقي الإسلام في سنغافورة.

كعقوبة لنا على عدم كوننا كذلك. . بتُّ خائفًا جدا من هذا التهديد، ومنذئذ أصبحت مؤمنًا بديانتين، الطاويَّة (بسبب عائلتي) والمسيحيَّة (بسبب التهديد)، وحين كبرت، لم أستطع أن أقرِّر بأيِّ دين عليَّ الالتزام.

خلال سنتيَّ الثالثة والرابعة في المدرسة الثانويَّة، اخترت دراسة البوذيَّة كموضوع في العلوم الدينيَّة، لأنَّها كانت معروفةً على أنَّها الموضوع الأسهل للدراسة.

تأثَّرت بالعقيدة البوذيَّة لأنَّها منطقيَّة جدا وعمليَّة، ومفهوم الصدقة في البوذيَّة أصاب وترًا في قلبي، فاتَّبعت التعاليم البوذيَّة قدر ما استطعت، لكنِّي لم أُصبح بوذيا، فقد وجدت أنَّ البوذيَّة وعلى الرغم من أنَّها تقوم على مبادئ وتطبيقات جيِّدة إلاَّ أنَّها مع ذلك ينقصها وجود القوَّة العليا (الله سبحانه وتعالى).

حين انضممت إلى كليَّة سانت أندروز يونيور، وهي مدرسةٌ تبشيريَّة، كان إلزاميا على كلِّ الطلاب ـ عدا المسلمين منهم ـ حضور صلاة الأحد المدرسيَّة.

خلال الصلاة كنَّا ننشد ونستمع إلى الطقوس. في نهاية بعض الصلوات، كنَّا نُسأل إن كان أحدٌ منَّا يرغب في دخول المسيحيَّة، وقد كنت متأثِّرًا بأحد الرُّهبان على وجه الخصوص. لأنِّي اعتبرته قويا في وعظه. فقد كان يستخدم النبوءات من الإنجيل ليثبت بشكلٍ فعَّال الحقيقة الموجودة في العهد القديم وعلاقتها مع تلك الموجودة في العهد الجديد.

وتأثَّرت بشكلٍ خاص حين كان يتكلَّم عن النبوءات الَّتي كانت في العهد القديم وتحقَّقت في العهد الجديد(1)، وزاد اهتمامي حين تكلَّم عن اليوم الآخر، وقد قام أيضًا بربط تجارب متنوِّعة مرَّ خلالها بعض المسيحيِّين.

أحد الأمثلة كان عن سيِّدة مسيحيَّة كانت قد أُعلن موتها. وفي موتها مرَّت خلال محنة جر لها من رِجلَيْها إلى جهنَّم؛ وبطريقة ما تحرَّرت وعادت إلى الحياة. وبعد عودتها من الموت أكَّدت على وجود الله، والحياة بعد الموت، ووجود جهنَّم كما هو مذكورٌ في الإنجيل، وهكذا بدأ انجذابي نحو الدِّيانة الأرثوذكسيَّة الأنجليكانيَّة. حينئذ كنت في السابعة عشرة من عمري.

لكنِّي مع ذلك لم أستطع أن أستقرَّ في طائفة واحدة من الطوائف المسيحيَّة، فقد كنت دائم التنقُّل من كنيسة إلى أخرى، كنت ما أزال أبحث عن السَّكينة الداخليَّة، ولم أستطع اتِّخاذ قراري إلى أيِّ كنيسة كان عليَّ الذَّهاب.

حين كنت في السَّنة الأخيرة في الجيش، قابلت صديقًا قادني إلى كنيسته (سانت جون سانت مارجريت)، فشعرت أخيرًا بأنِّي في بيتي في هذه الكنيسة، وأصبحت فاعلاً في النَّشاطات الكنسيَّة. كنت المسؤول في مُهمَّتين تبشيريَّتين، إحداهما كانت تتعلَّق بالعمل مع الأولاد، في حين كانت الأخرى تتعلَّق بنشاط رياضيّ. وكنت مُشاركًا في التخطيط التعليميّ

---

(1) انظر ما يستدل به المسيحيون من هذا الباب في (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

للأولاد. قُدِّم مــن خلال هذا النشــاط التعليم المجــانىُّ لأولاد المدارس، فى نفس الوقت الَّذى كانت فيه رسالة المسيحيَّة تُنشــر ببطء وبشكلٍ مهذَّب. كان الأولاد من مستوىً ابتدائى، وأُوكل إلىَّ الاهتمــام باثنين منهم، وقبل أىِّ تعليمٍ كــانت هناك جلسةٌ للعــبادة؛ كنَّا ننشد الأناشـيد، وكانت لدينا جلسات سردٍ للقصص، حيث كنت أحكى للأولاد قصصًا من الإنجيل.

وعملت أيضًا باجـتهادٍ مع المجمـوعة الرياضيَّة للكنيســة، فكنَّا نقوم بالعمل التبـشيرىِّ بسؤال الناس الانضمام إلينا فى اللعب، وكنت المسـؤول عن فريق كرَة السلَّة، وفى كلِّ أُسبوعٍ كنَّا نستأجر قاعةً نمارس فيها اللعبة. وكنا ندعـو الدُّخلاء ونحاول قيادتهم للمسيحيَّة بأن نكون مثلاً لهم، فكنَّا نقوم بالتركـيز على روح التعاون والاهتمام، فحاولنا التعـبير عن هذه الفضائل قدر ما استطعنا. وخــلال ذلك، وبعد التمارين، كنَّا نحاول تلقين المسيحـيَّة لأولئك الشباب، والَّذين كانت غالبيتهم من المراهقين اليافعين.

مفهوم النشاط الرياضىِّ عملىٌّ إلى درجةٍ كبيرة، ليس فقط فى سنغافورة بل وفى بلدانٍ أُخرى أيضًا. كانت كنيستى هى الأولى فى سنغافورة الَّتى تُقدِّم مفهوم الرعاية والاهتمام.

عندما كنت لا أزال نشـيطًا فى الكنيسة، تعرَّفت إلى مـسلمةٍ فحاولت أن أُحـدِّثها عن المسيـحيَّة، ولكنَّها كــانت على درجةٍ عاليةٍ من اليـقين حول الحقِّ فى دينهــا، مع أنَّها لم تكن تعرف كيف تشرح لى هذه الحقـيقة. ولم تكن هناك أىُّ وسيلة أستطيع بها إقناعهــا بالمسيحيَّة. والَّذى كان يدهشنى دومًــا هو أنَّ الكثير من المسلمين، حـتى أُولئك الَّذين يُدمنون المخدِّرات، كلُّهم مُتأكِّدون حـتى الموت بأنَّ الإسلام هو الدِّين الحق. فقرَّرت سؤال صديقـتى المسلمة عمَّا هو حقٌّ جدا بخـصوص دينها ممَّا يدفع مُـعتنقيه إلى التـمسُّك به وعدم تركـه. لكنَّها لم تكن تعـرف كيف تشـرح لى هذا الأمـر، وبدلاً من ذلك أخـبرتنى بأن أحـصل على مــا أُريد من المعلومات عن الإســلام من دار الأرقم، وهى جمعيَّة مُـعتنقى الإسلام فى سنغــافورة. وافقت على اقتراحها على الرغم من أنِّى كنت أعـتبر الإسلام دين الإرهاب، وعلى أنَّه دينٌ لا منطقيَّة فيه. فقد كان فهمى يملى علىَّ بأنَّه إذا كان الدِّين صــالحًا فإنَّ مُعتنقيه سيكونوا صالحين. وفى حالة المسلمين، الَّذين كنت أعرف القليل منهم، كان أُولئك الَّذين كنت أعـرفهم مسلمين غير صالحين.

أذكر أنِّى كنت أعرف مسلمةً واحدةً صالحةً فقط، وذلك خلال سنىِّ دراستى فى الكليَّة ولكنَّها لم تقم ولا بأىِّ مُـحاولةٍ لنقل رسالة الإســلام لى. فى ذلك الوقت، كان هناك بعض المسلمين الَّذين كانوا يحاولون نشر الرسالة الإسلامـيَّة لى. وكانت عائلتى ضدَّ الإسلام بسبب ما كان دائم الحدوث فى الشرق الأوسط؛ كمــا حدث أيضًا أن كان كلُّ العمَّال الملاويِّين الَّذين وظَّفهم والدى من الكُسالى وسيِّئى السُّلوك.

وحيث إنّي وافقت على زيارة دار الأرقم، ذهبت من فوري إلى تلك الجمعيَّة. في زيارتي الأولى حضرت درس التوجيه، وقُدِّمْت إلى الأخ ريماى. وقد صُدمْت وأُثير اهتمامى بأمرين حدَّثني بهما، أولهما: أنَّه أشار لى بأنَّ الإسلام لا يقوم على الهوى، عكس المسيحيَّة. تأمَّلت في هذه الكلمات وكنت مندهشًا من ردَّة فعلي عليها. وثانيهما: أنَّه قال: لا تتحوَّل إلى الإسلام بطريقة عاجلة، حتى تسأل قدر ما تستطيع من الأسئلة، وعندما لا يتبقَّى لديك ما تسأل، فقط عندها تحوَّل إلى الإسلام.

ففى المسيحيَّة أنت لا تستطيع طرح الأسئلة، لأنَّك إن سألت أكثر أصبحت مُشوَّشًا أكثر. وبعد أن أوضح هاتين النقطتين، أوصى الأخ ريماى الصفَّ التوجيهيَّ بقراءة كتاب (الإسلام فى بؤرة التركيز).

صُدمت بما وجدته فى هذا الكتاب، فبعض المواضيع الَّتى كنت أعتقدها غير منطقيَّة فى المسيحيَّة، ولم تكن هناك طريقةٌ لفهمها، وجدت الإجابة عليها فى هذا الكتاب. وصُدمت أيضًا بأنِّى وجدت فى الكتاب ما كنت أُومن به، وكما وجدت أنَّ بعض المعتقدات البوذيَّة هى فى الحقيقة مفاهيم إسلاميَّة، فهناك العديد من المبادئ البوذيَّة المشابهة لبعض المفاهيم الإسلاميَّة.

فى الأسبوع التالى عدت إلى دار الأرقم لحضور صف المبتدئين، وكان الصفُّ قد قطع نصف الطريق خلال أركان الإسلام. فوجدت الدرس مملا، فحضرت حصَّة أو حصَّتين فقط ثم تركت الصف. بعدئذ اشتريت كتابين آخرين عن الإسلام ـ (الخيار، الإسلام والمسيحيَّة) للشيخ أحمد ديدات و(أساس عقيدة المسلم) لجارى ميللر. وقد تأثَّرت بهما حقا.

قابلت الأخ ريماى مرَّةً أخرى فقدَّمنى للأستاذ ذو الكفل، والَّذى ناقش معى الإسلام لبضعة أسابيع. أىُّ أسئلة كانت تُشكِّل مُعضلةً بالنسبة لى عن المسيحيَّة، والَّتى لم يكن باستطاعتى التعامل معها، كنت أضعها فى قائمة وأعرضها على كنيستى وعلى الكليَّة الإنجيليَّة فى سنغافورة. وقد جعلنى ذلك فى وضعٍ صعبٍ للغاية، لأنِّى لم أستطع قبول ردودهم على تلك الأسئلة، لا من الكنيسة ولا من الكليَّة الإنجيليَّة. فقد كنت أعتبر بأنَّ قبولى منطق ردودهم وكأنَّه تلويثٌ لله (سبحانه وتعالى). فعلى سبيل المثال، عندما حاولت نقاش التناقضات فى الإنجيل كان كلّ ما استطاعوا قوله لى بأنَّ هذه تناقضات صغيرة، أو أخطاء صغيرة، أو خطأ طباعىّ، فكان علىَّ أن أقوم ببحثى الخاص للردِّ على تلك الأسئلة الَّتى وُجِّهت إلىَّ فى دار الأرقم.

الجزء الأكثر تدميرًا فى بحثى كان تاريخ الكنيسة، فتاريخ الكنيسة نفسه يُلقى الضَّوْء على حقيقة أنَّ مفهوم الثالوث قُدِّم فى سنة 325 بعد الميلاد، أى بعد 325 من موت المسيح (عليه الصَّلاة والسَّلام). وقبل ذلك كانت هناك تعاليمٌ كلُّها مختلفة عن بعضها بعضًا.

وحيث إنِّى حصلت على الكثيـر من المعلومات عن المسيحيَّة من مصـادر إسلاميَّة، فلم أكن مقتنعًا، فما وجدته حول المسيحيَّة من المصادر الإسلاميَّة حاولت التثبُّت منه من موسوعات متنوِّعة ومن مصـادر أخرى، فـوجدت بأنَّ كلَّ المعلومـات الَّتى حصلت عـليها مـن المصادر الإسلامـيَّة كـانت حقائق دامـغة. وحـين نظرت عن قُرب ـ أقرب من أىِّ وقـت مضى ـ إلى النبوءة الَّتى تقول: (سيأتى روح الحقِّ وسـيقود الناس إلى كلِّ الحقِّ) استطعت أن أرى بوضوح بأنَّ تلك النبوءة كانت تشير إلى النبىِّ محمَّد ﷺ وإلى رسالته. فهذه النبوءة لم تُشر إلى عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، لأنَّ المسيحيِّين الأوائل لم يستطيعـوا التقرير بخصوص شخصيَّته. وحتى هذا اليوم ما يزالون يتجادلون بخصوص ذلك.

خلال دراستى للإسلام، حاولت أيضًا أن أتعلَّم شيئًـا عنه من الكتب المسيحيَّة فوجدتها خبيـثة، فمع المعرفـة الَّتى كانت لدىَّ عن الإسلام كنت أستطيع دحض كـلِّ الادِّعاءات الزائفة الَّتى لفَّقها المسيحيُّون.

أحد الأمثلة هو الادِّعاء الَّذى لفَّقوه عن الله (سـبحانه وتعالى) فى الإسلام ـ بأنَّه يبدو بعيدًا جدا، وأنَّه لا يمكنه التواصل مع مخلوقاته (سبـحانه وتعالى عمَّا يصفون). كنت أعرف أنَّ هذا ليس صحيحًا لأنَّ الله تعالى فى الإسلام أقرب إلى مخلوقاته من حبل الوريد: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق].

وادَّعى المسيـحيُّـون أيضًا بأنَّ الله تعـالى تنقصـه معانى الحب. لا أدرى كـيف يمكن للمسيحيِّين ادِّعاء مـثل ذلك فى حين أنَّ قول (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم) هو روتينٌ يومىٌّ عند المسلم. بالإضافة إلى ذلك فإنَّ هناك 99 اسمًا لله تعالى تُلْقى الضَّـوء على أسمى معانى الحب والرعاية الإلهيَّة فى الإسلام. فكان يتوجَّب علىَّ رفض كلِّ الادعـاءات الَّتى صنعها المسيحيُّون عن الإسلام، لأنَّه كان يتـوجَّب علىَّ أن أكون عادلاً مع نفسى. فكلُّه كـانت من وجهة النظر الكنسيَّة، وكان يتوجَّب علىَّ أن أعتبرها كذبًا.

بعدئذ قرأت كتاب (محمَّدٌ فى الإنجيل) وكتاب (إنجيل توما) حتى الآن كنت قد تلقَّيْت الكثيـر من الصَّدمات. أمَّـا (مخطوطات البحـر الميِّت) فقد كـانت هى الصدمة الأخـيرة الَّتى حطَّمت عقيدتى المسيحـيَّة. لقد حاولت ولكنِّى لم أجد سببًا للبقاء على المسـيحيَّة. فقد رأيت كلَّ الزَّيف الَّذى لم أكن أتوقع رؤيته فـيها. لقد تفحَّـصت بعناية وبكلِّ الطُّرق لأتأكَّد، فلعلِّى كنت مخطئًا، حتى لم يتبقَّ لى ما أتأكَّد منه.

واصلت تعلُّمى عن الإسـلام، من القـرآن الكريم ومن كـتبٍ أُخرى، ومـن معلِّمـين مسلمين كافحوا لإرشادى إلى طريق الحق.

وفى أحد الأيَّام سـألنى الأستاذ ذو الكفل: أما آن لك أن تدخل الإسـلام؟ فلم أستطع أن أتفوَّه ببنـت شفة. فكَّرت فى ذلك مـراراً وتكراراً، لكنِّى لم أجد سـببًا واحـدًا يمنعنى من دخول الإسلام، وعندها قرَّرت إعلان الإسلام، دين الحق.

في البداية لـم تأخذ عائلتي تحـولي هذا على محـمل من الجدّ، فقـد ظنُّوا أنِّي أعلنت إسلامي اسمـيا فقط وأنِّي سأواصل حـياتي كغير مـسلم وآكل لحم الخنزير. فيمـا بعد، عندما وجَدَت عـائلتي أنِّي أصبحت مـسلمًا ملتزمًا حـدثت فوضى عارمـة. وأصبحت الأمور أكـثر فوضويَّةً حين بدأتُ صيام شهر رمـضان. لقد كنت على وشك أن أُطرد من البيت. واستمرَّت هذه الحال من التوتـر لبضعة شهـورٍ تلت. لم أكن خلالها أتناول طعامي في بـيتي. واتُّهمت بأنِّي لم أعد أُحبُّ عائلتي. وكـانت هناك مشاحناتٌ مستمرةٌ بيني وبـين أفراد عائلتي. حاولت أن أشرح لهم الإسلام ولكنَّهم لم يفهموه.

وتشكَّل لديَّ خـوفٌ من العودة إلى البـيت، فكنت أبقى حتى وقت مـتأخِّـرٍ من الليل خارجه. وفي أحد الأيَّام جاءت إليَّ أمِّي ورجتني بألاَّ أتأخَّـر ليلاً. وقالت بأنَّ أبي قد عبَّر عن قلقه حيـال ذلك. واقْتَرَحَتْ بأن أشتـري طعامي الخاص وأنَّها ستُعدُّه لي بشكل مـستقلٍ. أمَّا الآن فإنَّ معظم أفـراد عائلتي يأكلون الطعام الحلال في البـيت، لأنَّ من المناسب أكثر لأُمِّي أن تُعدَّ الأطـباق الَّتي يمكن أن يأكلهـا ليس فقط مـعظم أفراد العـائلة بل وابنها المسلـم كذلك. تحسَّنت الأوضاع في بيتي، إلاَّ من بعض الإزعاج العرضي وغير المؤذي من عائلتي.

**عبد الرحمن محمود داود:**

من الأسـماء التي رأيتـها في دفتـر البابا في هذا الفصل اسم (عـبد الرحمن محـمود داود)[1]، فسـألت البابا عنه، فقال: هذا رجل ينحـدر من أسرة هندية برهميـة، تنصرت على أيدي المبشرين الذين قدموا مع طلائع الاستعمـار، وكان كثير القراءة للكتب الدينية، ولما أتيح له أن يطلع على القـرآن الكريم كـان جوابه هو انتـماؤه للإسـلام، وقد ذكـر ذلك في بعض تصريحاته لمن سألوه، فقال: (تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشـرعت في قراءته وتدبّر معانيه. لقد استقطب جل اهتـمامي، وكم كانت دهشتي عظيـمة حين وجدت الإجابة المـقنعة عن سؤالي المحيّـر: (الهدف مـن الخلق) في الصفـحات الأولى من القـرآن الكريم.. لقد قـرآت الآيات (30ـ39) من سورة الـبقرة.. وهي آيات تـوضح الحقيـقة بجـلاء لكل دارس منصف، إن هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق).

وقال: (إن دراستي للقرآن الكريم وضـحت أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة).

وقال: (بفضل دراسـتي الحرّة البعيـدة عن كل تعصّب مقيت أصبح إيـماني بهذا الدين [الإسلام] قـويًا راسخًـا، لقد آمنت برسـالة القرآن، وأحـسست أن الإسـلام هو دين الفطرة والكمـ. أنزله الله على قلب آخر الأنبـياء وخاتمهم محمد ﷺ.. لقد اكـتشفت أن الإسلام

(1) رجال ونساء أسلموا، 7 / 116 - 118.

يخاطب الناس مباشرة ودون أية واسطة من أى نوع. من أجل ذلك كان هذا الدين متمشيًا مع الفطرة البشرية).

وقـال: (إن الإسلام يخـاطب الإنسان الكامل. وهـكذا أيقنت أن هذا الدين هو خيـر الأديان جميـعًا. لقد شرعت فى التـحدث عن معتـقداتى الجديدة، حول الإسلام والـنصرانية وصارحت بهـا العديد من العلماء المرمـوقين والقسس المعـروفين، وكنت صريحًا وصـادقًا فى مناقشاتى معهم. لقد سألت القسس لماذا يخدعون الناس بإخفاء الحقيقة ولا يخبرونهم بوضوح وصدق أن محمـدًا ﷺ هو رسول الله؟ ولما سمعوا منى ذلك غضبـوا ولكنهم لم يستطيعوا أن يحروا جوابًا).

* * *

■■■■■■■

## ثانيا - الخاصة

■■■■■■■

فتحت دفتر البابا على فصله الثاني، فوجدت عنوانه (الخاصة)، فقلت: من تقصد بالخاصة؟

قال: أولئك الذين تعلقوا من الدنيا بحبلها المتين، فراحت الأبصار تحنو عليهم، وراحت القلوب تحن إلى كراسيهم.

قلت: ما أصعب أن يبصر هؤلاء الحق.

قال: أجل.. لقد خالطت بعض هؤلاء، فوجدتهم صنفين، بعضهم ائتم بالنجاشي، والآخر ائتم بهرقل.

قلت: لم أفهم قصدك.

قال: أما النجاشي، فقد عرف الحق وآمن به، ولم يمنعه منصبه الرفيع من ذلك الإيمان.. وأما هرقل، فقد عرف الحق، ولكنه حجب عنه، وكان منصبه هو الحجاب الأكبر بينه وبينه.

قلت: فحدثني حديثهما قبل أن تحدثني عن أصحابك.

قال: أما النجاشي، فقد حدثتنا بحديثه أم سلمة بنت أبي أمية ـ رضي الله عنها ـ فقد قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى، ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة.

وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدما كثيرة، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم. ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا فقدما على النجاشي فنحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما

ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلـمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين مبـتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليـك فيهم أشراف قومهم، من آبـائهم، وأعمامهم، وعشـائرهم، لتردهم إليهم فـهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يـكن شيء أبغض إلى عبـد الله بن أبى ربيعـة وعمرو بن الـعاص من أن يسمع النجاشى كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليـهم، فأسلمهم إليهـما فليرداهم إلى بلادهم وقـومهم قال: فغـضب النجاشى ثم قال: لاها الله أيم الله إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكـاد قوما جاورونى نزلوا بلادى واختارونى على من سـواى حتى أدعوهم فـأسألهم مـاذا يقول هذان فى أمـرهم فإن كـانوا كمـا يقولان أسلمتهم إليهم ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسـول الله ﷺ فدعاهم، فجاءهم رسوله اجـتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه قال: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن فى ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوه، وقد دعا النجاشى أسـاقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فـقال: ما هذا الدين الذى فارقتم فيـه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الأمم. قـالت: فكان الذى كلمه جـعفـر بن أبى طالب فقال له: أيهـا الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانتـه وعفافه فـدعانا إلى الله لنوحده ونعـبده ونخلع ما كنا نعـبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجـارة والأوثان، وأمـرنا أن نعبـد الله وحده لا نشـرك به شيـئا، وأمـرنا بالصلاة والـزكاة والصيام، فعدد عليه أمور الإسلام.

ثم قال: وأمـرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحـسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا واتبـعناه على ما جاء بـه من الله تعالى، فـعبدنا الله تعـالى وحده ولم نشـرك به شيـئا وحرمنا مـا حرم الله علينا وأحلـلنا ما أحل لنا، فعـدا علينا قومنا فـعذبونا وفـتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عـبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبـائث، فلما قهرونا وظلمونا وضـيقوا عـلينا وحالوا بيننا وبين ديننا خـرجنا إلى بلادك واختـرناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به من شيء، فقال له جعفر: نعم؟

فقـال له النجاشى: فاقرأه على، فـقرأ عليه صـدرا من (كهيعص) قـالت: فبكى والله

النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والله، والذى جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنهم غدا عيبهم عندهم، ثم أستاصل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه؟ قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون فى عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشى يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم، ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله. اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى - والسيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لى دبرا ذهبا وإنى آذيت رجلا منكم - والدبر بلسان الحبشة الجبل - ردوا عليهم هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى، فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردودا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

وفى رواية: أن النجاشى قال للمسلمين: أيؤذيكم أحد؟قالوا: نعم.

فأمر مناديا ينادى: من آذى أحدا منهم فأغرموه أربعة دراهم.

ثم قال: أيكفيكم؟ قلنا: لا.

قال: فأضعفوها.

وعند موسى بن عقبة: من نظر إلى هؤلاء نظرة تؤذيهم فقد غرم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه، فخرجا من عنده مقبوحين مردود عليهما ما جاءا به.

ثم إن الحبشة اجتمعت فقالت للنجاشى: إنك فارقت ديننا ـ وخرجوا عليه ـ فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا حيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفوا له صفين فقال: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى.

قال: فكيف رأيتم سيرتى فيكم؟ قالوا: خير سيرة؟ قال: فما لكم؟ قالوا: فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد، هو ابن الله.

فقال النجاشى - ووضع يده على صدره على قبائه -: هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعنى ما كتب، فرضوا عنه وانصرفوا.

قالت أم سلمة: فو الله إنا على ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه، فوالله ما حزنا قط حزنا كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى، فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه.

وسار إليه وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل ينطلق حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا.

قالوا: فأنت.

وكان من أحدث القوم سنا.

فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليهم حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها يلتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

وقالت: ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده.

قالت: فو الله إنا على ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير بن العوام يسعى فلمع بثوبه وهو يقول: أبشروا فقد ظهر النجاشى وأهلك الله عدوه.

قالت: فو الله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها.

ورجع النجاشى وقد أهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة، وكنا عنده فى خير منزل[1].

قلت: هذا النجاشى، وهو إمام المهتدين من الخاصة، وقد علمت أن رسول الله ﷺ صلى عليه الجنازة لما مات.. فحدثنى خبر هرقل.

قال: أما هرقل، فقد حجب المسكين بملكه عن الإسلام، وقد حدث بخبره أبو سفيان بن حرب - الذى كان زعيم أعداء رسول الله ﷺ - فذكر أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار

(١) روى القصة ابن إسحق وابن سعد وغيرهما.

قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم فى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه منى، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إنى سائل عن هذا الرجل، فإن كذبنى فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه[1].

قال: ماذا يأمركم؟قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها. . وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله. . وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه. . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. . وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. . وسألتك هل

(1) وقد كذب فى هذه أيضا، فقد انتصر رسول الله ﷺ فى كل الحروب التى خاضها مع المشركين أو غيرهم حتى غزوة أحد. . هى نصر عظيم للمسلمين لا يقل عن أى نصر آخر. لأن قصد المشركين كان القضاء على الإسلام وعلى الأعمدة التى يقوم عليها الإسلام، ولم يتحقق لهم ذلك، وسنرى تفاصيل أوفى عن هذا فى الأجزاء التالية.

يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابى حين أخرجنا: لقد عظم أمرُ ابن أبى كبشة، إنه يخافه مَلِكُ بنى الأصفر، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علىّ الإسلام.

وكان ابن الناطور، صاحب إيلياء وهرقل، أسقفا على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء، أصبح يوما خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم، فقال لهم حين سألوه: إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟

قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مداين ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر.

ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره فى العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﷺ، وأنه نبى، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم فى الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم على، وقال: إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل[1].

---

(1) رواه البخارى.

قلت: لقد عرفت خبر هؤلاء.. فهل ستحدثنى عن أصحاب هرقل أم عن أصحاب النجاشى؟

قال: بل سأكتفى بالحديث عن أصحاب النجاشى.

قلت: وأصحاب هرقل.. ألم تلتق بهم؟

قال: بلى.. وما أكثرهم.. ولكنى لو كتبت أخبارهم، فسيملؤون الدنيا ضجيجا، ويصادرون كل ما أكتبه حرصا على مصالحهم.

**اللورد جلال الدين برانتون:**

من أول الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (اللورد جلال الدين برانتون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أشهر من نار على علم.. وقد كان بارونًا إنجليزيا، ورجلاً ذا شعبيةٍ كبيرةٍ وسمعةٍ عريضة.. وقد أتمَّ دراسته فى جامعة أكسفورد.. وقد حدثنى حديثه الثقة الفاضل محمد كامل عبدالصمد[1]، فقال: ولد ونشأ بين أبوين مسيحيين.. وولع بدراسة اللاهوت وهو فى سن مبكرة، وارتبط بالكنيسة الإنجليزية، وأعطى أعمال التبشير كل اهتمامه.

وحدث ذات يوم أن زاره صديق هندى مسلم تحدث معه فى موضوع العقائد المسيحية ومقارنتها بالعقيدة الإسلامية، وانتهت الزيارة، إلا أنها لم تنته فى نفسه، فقد أثارت انفعالاً شديدًا فى ضميره وعقله، وصار يتدبر كل ما قيل فيها من جدال، مما دفعه إلى إعادة النظر فى العقائد المسيحية.

وقد عبر عن ذلك، فقال: عندئذ قررت أن أبحث بنفسى، متجاهلاً عقائد الناس، بعد أن أيقنت بضرورة البحث عن الحقيقة مهما طال المدى فى هذا السبيل، ومهما كان الجهد، حتى أصل لمزيد من المعرفة بعد أن قيل إن الإنجيل وتعاليم المسيح قد أصابها التحريف..

فعدت ثانيًا إلى الإنجيل أوليه دراسة دقيقة، فشعرت أن هناك نقصًا لم أستطع تحديده.. عندئذ ملك علىّ نفسى رغبة أن أُفرغ كل وقتى لدراسة الإسلام.. وبالفعل كرست كل وقتى وجهدى له، ومن ذلك دراسة سيرة النبى محمد ﷺ، ولم أكن أعلم إلا القليل النادر عنه، برغم أن المسيحيين أجمعوا على إنكار هذا النبى العظيم الذى ظهر فى الجزيرة العربية.

ولم يمض بى وقت طويل حتى أدركت أنه من المستحيل أن يتطرق الشك إلى جدية وصدق دعوته إلى الحق وإلى الله.

ثم أخذ يكرر هذا المعنى، وهو يقول: «نعم شعرت أنه لا خطيئة أكبر من إنكار هذا الرجل الربانى بعد أن درست ما قدمه للإنسانية، وجعل من المسلمين أقوى مجتمع رفيع يعاف الدنايا.. إنى غير مستطيع أن أحصى ما قدمه هذا الرسول من جليل الأعمال».

(1) انظر: كتاب (الجانب الخفى وراء إسلام هؤلاء) لمحمد كامل عبد الصمد.

بعدها تساءل فـي ألم ووجوم قائلاً: «أمام كل هذا الفضل وهذا الـصفاء.. أليس من المحزن الأليم حقًّا أن يقدح في شأنه المسيحيون وغيرهم!؟»

وقد حانت لي فرصـة للاستماع إليه في جمع كان قـد دعي إليه، وكان من أقواله في ذلك الجمع: أشعر بعميق الامتنان على إتاحة هذه الفرصة لي لأُعبِّر فيها ببعض الكلمات عمَّا دفعني لإعلان إسلامي، لقد تربَّيت تحت تأثير أبوين مسـيحيَّين. وأصبحت في سنوات عمري المبكِّرة مهـتما بعلم الـلاهوت. فشاركت بنفـسي في الكنيسة الإنجليـزيَّة، واهتمـمت بالعمل التبشيريِّ دون أن يكون لي فيه مشاركةٌ فعليَّة.

وقـبل بضـع سنواتٍ مضت انـصبَّ اهتمـامي على عقـيدة (العـذاب الأبدي)[1] لكلِّ البشـريَّة عدا بعض المختـارين، وأصبح الأمر بالنِّسـبة لي مقيـتًا جدا بحـيث صار يغلب عَلَيَّ الشكُّ، فقد فكَّرت منطقيا بأنَّ ذاك الإله الَّذي يمكن أن يسـتخدم قدرته لخلق الكائنات البشريَّة الَّتي يجب أن تكون ـ في سابق علمه وتقديره ـ مُعذَّبةً للأبد، لابدَّ أنَّه ليس حكيمًا، أو مُـ ـ ـ ـ سبحانه وتعالى عـمَّا يصفون علوا كبيرًا ـ فمستـواه لابدَّ وأن يكون أقلَّ من الكثير من البشر، ومع ذلك واصلت الاعـتقـاد بوجود الله تعـالى، ولكنِّي لم أكن راغبًـا بقبـول الفهم الـسـائد للتعاليم الَّتي تقول بالوحي الإلهيِّ للرِّجال، فحولَّت اهتمامي للتَّحقيق في الأديان الأخرى، ممَّا أشعرني بالحيرة فقط.

وكَبُرَت في داخلي رغبةٌ جديَّةٌ للخضـوع للإله الحق وعبادته، ومع أنَّ المذاهب المسيحيَّة تدَّعي أنَّها أُسِّسَت على الإنجيل إلاَّ أنَّني وجدتها مـتناقضة، فهل من الممكن أنَّ الإنجيل وتعليم السيِّد المسيح ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كانا مُحرَّفَين؟!

لذلك صببت اهتمامي ـ وللمـرَّة الثانيـة ـ على الإنجيل، وصمَّـمت أن تكون الدِّراسة عميقة، وشعرت بأنَّه كان هناك شيء ناقص وصمَّمت على فعل ذلك لنفسي، بغضِّ النظر عن مذاهب البشـر، فبدأت أتعلَّم بأنَّ النَّاس يمتلكون الرُّوح، وقـوةً ما غير مـرئيَّة، وهي خالدة، وأنَّ الآثام سيُعاقَب عليـها في هذا العالم وفي العالم الآخر، وأنَّ الله تعالى برحمـته وإحسانه يمكنه دومًا أن يغفر ذنوبنا إذا ما تبنا إليه حقا.

ولإدراكي أهمـيَّة البـحث العمـيق والعيش على مـستـوى الحق، ولكي أجد الجـوهرة الثمينة، كرَّست وقتي مرَّةً أخرى لدراسة الإسلام. كان هناك شيءٌ في الإسلام شدَّني في ذلك الوقت.

وفي زاويةٍ مغمورةٍ -بالكاد معروفة- من قـرية (إتشرا) كنت مكرِّسًا وقتي وعبادتي لله العظيم بين أدنى طبـقات المجـتمع مع رغبـةٍ صادقـةٍ لرفعهم إلـى مستـوى معـرفة الإله الحقِّ والواحد، ولغرس الشعور بالأخوة والطَّهارة.

---

(1) في رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام) للمؤلف توضيحات كثيرة حول هذه الناحية، وهي كافية ـ بفضل الله ـ في رد جميع الشبهات المثارة حول هذا الموضوع

ليس فى نيَّتى أن أحدِّثكم كيف عملت بين هؤلاء النـاس، ولا ما هى التضحيات الَّتى قدَّمـتها، ولا المصـاعب الجمَّة الَّتى مـررت بها، فقـد واصلت العمل ببـساطةٍ من أجل هدفٍ واحد، وهو أن أخدم هذه الطبقات ماديا ومعنويا.

وأخيراً بدأت بدراسة حياة النبىِّ محمَّد ﷺ كنت أعرف القليل عمَّا فعله، ولكنِّى كنت أعرف وأشعر بأنَّ المسيحيِّين ـ وبصـوتٍ واحدٍ ـ أدانوا مجد النبىِّ العربىِّ ﷺ وأردت حينها أن أنظر فى المسألة دون تعصُّبٍ وحقد، وبعـد القليل من الوقت وجدت أنَّه من غير الممكن وجود شك فى جديَّة بحثه ﷺ عن الحقِّ وعن الله تعالى.

فـأدركت بأنَّه من الخطأ ـ فى نهايـة الأمر ـ إدانة هذا الرجل المقـدَّس بعد قـراءتى عن الإنجازات الَّتى حقَّقها للبشريَّة.

فالنَّاس الَّذين كانوا فى الجاهليَّة يعبـدون الأصنام، ويعيشون على الجريمة، وفى القذارة والعُرى، علَّمـهم (كيف يلبسـون، واستُبدلت الـقذارة بالطهارة، واكتـسبوا كـرامةً شخصـيَّةً واحترامًـا ذاتيا، وأصبح كـرم الضِّيافة واجبًـا دينيا، وحُطِّمت أصنامهم، وبدأوا يعـبدون الله تعالى الإله الحق، وأصـبحت الأمَّة الإسـلاميَّة هى المجـتمع الشَّـامل القوىُّ والأكثـر منعةً فى العالم. وأنجزت الكثير من الأعمال الخيِّرة والَّتى هى من الكثرة بحيث لا يمكننا ذكرها هنا[1]، فكم من المحزن -أمام كلِّ هذا، وأمام صفاء عقله ﷺ حـين نفكِّر كيف استطاع المسيحيُّون أن يحطُّوا من شخصه الكريم، واستحوذنى تفكيرٌ عميق.

وخلال لحظات تأمُّلاتى زارنى سيِّدٌ هندىٌّ اسمـه (معن أمير الدِّين)، وكان من الغريب حقا أنَّه هو الَّذى أعطى النار الَّتى فى حـياتى الهواء لتزداد اشتعالاً، فـتأمَّلت فى المسألة بشكلٍ عميق؛ وقدَّمت الحجَّة تلو الأخرى مُتحامـلاً على الدِّين المسيحىِّ المعاصر، ومستنتجًا كلَّ شىءٍ لصالح الإسلام، وشاعراً بالاقتناع أنَّه دين الحقِّ، واليُسْرِ، والتَّسامحِ، والإخلاص، والأُخوَّة.

وقـد ختم كلمـاته العذبـة الصادقـة بقوله: «لم يعـد لى الآن سـوى القليل من الزَّمن لأعيش على هذه الأرض، وأريد أن أكرِّس كلَّ ما بقى لى فى خدمة الإسلام».

**الدكتور روبرت كرين:**

من الأسمـاء التى رأيتها فى دفتـر البابا فى هذا الفصل اسم (الدكتـور روبرت كرين)، فسألت البـابا عنه، فقال: هو أحد كبـار الخبراء السياسيـين فى أمريكا، وهو المؤسس والمنشئ لمركز الحضارة والتجـديد فى أمريكا، وبعد حصوله على شهادة الماجستـير فى الأنظمة القانونيَّة المقارنة من جامعة هارفـارد، وبعد تأسيسه لصحيفـة (هارفارد) للقانون الدولىِّ وتسلُّمه منصب الرئيس الأوَّل لجمعيَّـة هارفارد للقانون الدولىِّ عمل لمدَّة عقد من الزمن فيـما يسمَّى بـ (المراكز الاستشاريَّة لصنَّاع السياسة فى واشنطن)

(1) انظر الرسالة السابقة (ثمار من شجرة النبوة).

وفى عام 1962م شارك فى تأسيس مركز الدراسات الاستراتيجيّة الدوليّة، وفى عام 1963م وحتّى عام 1968م كان أكبر مستشارى الرئيس السابق ريتشارد نيكسون فى السياسة الخارجيّة.. وفى عام 1969م عيّنه نيكسون نائبًا لمدير مجلس الأمن القومىّ فى البيت الأبيض.. وفى عام 1981م عيّنه رونالد ريغان سفيرًا للولايات المتّحدة فى الإمارات العربيّة.

وقد اعتنق الإسلام عام 1980م، وصار اسمه بعد إسلامه (فاروق عبد الحق)، وبعد إسلامه، عمل كمدير للقسم القانونى للمجلس الإسلامى الأمريكى، وهو الرئيس المؤسس لرابطة المحامين الأمريكيين المسلمين، وهو حاصل على دكتوراه فى القانون عام 1959م.

وقد نشر عشرة كتب وخمسين مقالة اختصاصيّة حول الأنظمة القانونيّة المقارنة والاستراتيجيّة العالميّة وإدارة المعلومات.

وقد تشرفت بالالتقاء به، فسألته عن سر إسلامه، فكان مما أجابنى قوله: فى عام 1980م، وعلى إثر انتصار الثورة الإسلاميّة فى إيران، ازداد اهتمام الناس فى الغرب بالإسلام، ولم يكن اهتمامهم إعجابًا به، وإنّما اعتبروه تهديدًا لهم، لذلك نادى العديد من صنّاع الفكر إلى عقد الندوات والمؤتمرات، حول هذا الموضوع.

وقد حضرت أحد المؤتمرات كى أرى ماهيّة هذه الدراسات والأطروحات المقدّمة، (فى خريف 1980م)، وكان مشاركًا فى المؤتمر الكثير من قادة الفكر الإسلامىّ، ومنهم الدكتور حسن الترابىّ الذى تكلّم عدّة مرّات، وشرح الإسلام تمامًا، كما كنتُ أبحث عنه، فأدركتُ أنّه متقدّم فى أفكاره، ثمّ رأيته وهو يصلّى ويسجد، وكنتُ ضدّ مسألة السجود، لأنّ الإنسان فى نظرى لا يجب أن يسجد لأحد، ففى هذا إهانة له ولإنسانيّته.

ولكننى أدركتُ أنّ الشيخ حسن الترابى ينحنى لله ويسجد له، فالأولى أن أنحنى وأسجد أيضًا، وهكذا فعلتُ ودخلتُ الإسلام، من يومها، على يد الدكتور حسن الترابىّ.

وقد حدثنى عن الهواجس التى كانت تملأ عليه نفسه، ولم يجد إجابة لها إلا فى الإسلام، فقال: كان والدى يعمل أستاذًا فى جامعة هارفارد، وقد علّمنى أن أهتم وأدافع عمّا هو صواب، وأن أحاول تجنّب الخطأ، وقد قضيتُ معظم وقتى فى التحرّى عن العدل والعدالة قبل أن أصبح مسلمًا.

وفى الندوة التى جمعتنى مع البروفسور (روجيه غارودى) فى دمشق سمعته يتحدث ويهاجم الرأسمالية منذ كان شيوعيًا، وكلانا كان لديه نفس الهدف، وهو أن يدعم العدالة، وكلانا كان ضدّ التركيز على الثروة، لأنّ الاهتمام بجمع الثروة ليس بعدل.

لقد اتّبع غارودى المبدأ الماركسى الذى يسعى لتحطيم الملكيّة[1]، فى حين أنّى كنتُ أعتبر الملكيّة مفتاحًا للحريّة، لكن كلانا كان يرى أن الملكيّة تؤدّى فى النهاية إلى الظلم وعدم

(1) وقد أسلم بعد ذلك، وسنتحدث عنه فى فصل (مفكرون).

انتشار العدل، وكلانا كان يدعو إلى نظام يدعو إلى إنتاج وإعطاء العدالة للجميع . لذلك وجدنا أنّ الإسلام هو الحلّ الوحيد، فهو الذى يحمل العدالة فى مقاصد الشريعة وفى الكليّات والجزئيّات والضروريّات، وأنا كمحام كنتُ أسعى إلى مبادئ ليست من وضع البشر.

انطلاقا من هذه القناعات بدأتُ أسعى وأفتش عن العدالة، والمفارقة أنّنى عندما ذهبتُ إلى جامعة هارفارد وحصلتُ على شهادتى فى القانون، مكثتُ هناك ثلاث سنوات لم أسمع خلالها كلمة العدل ولا مرّة واحدة.

قلت: كيف اختاروك لذلك المنصب الخطير؟

قال: تقصد (مستشاراً للشؤون الخارجيّة الأميركيّة).

قلت: أجل. . وغيرها من المناصب الخطيرة.

قال: لقد كان ذلك فى عام 1963م، وذلك بعد أن كتبتُ مقالة طويلة عن الصّراع بين روسيا وأميركا، وقد قرأ الرئيس نيكسون هذه المقالة ... فى الطائرة.

واستدعانى بعدها، وكلّفنى بوضع كتاب حول السياسة الخارجيّة الأمريكية، وحول الشيوعيّة. ثمّ عملت مستشاراً للشؤون الخارجيّة منذ عام 1968م.

وكنتيجة لهذا الكتاب عُينتُ نائبًا للرئيس نيكسون للأمن القوميّ فى البيت الأبيض، وكان هناك أربعة نوّاب للرئيس كنتُ أحدهم.

وفى عام 1969م عندما استلم هنرى كيسنجر وزارة الخارجية أنهى عملى بسبب 25 ورقة كانت فى كتابى تضمّنت موضوع فلسطين، وقد اقترحتُ يومها تشكيل دولتين: يهوديّة وفلسطينية، وقد بُحثَ هذا الموضوع لسنوات عديدة على أعلى المستويات فى دوائر الولايات المتحدة وفى البيت الأبيض، ولكنّ كيسنجر كان ضد كل إنسان يبحث فى هذا الموضوع.

ووقف كيسنجر ضدّى فى كلّ مجال دخلتُ أو عملتُ فيه، ثمّ عيننى نيكسون نائبًا لإدارة شؤون إحدى الولايات فى البيت الأبيض، كما عملتُ فى مسألة (ووترغيت).

بعد فضيحة (ووتر غيت) وجدتُ أنّنى لا أستطيع أن أؤثّر على سياسة الولايات المتحدة بشكل فعّال من داخل الدولة، ورأيتُ أنّ الحلّ الوحيد لإزالة الظلم هو إنشاء حركة فكريّة تعود للمثاليّات فى أمريكا، وتنادى باستعادة التراث الأمريكى الذى كاد أن يضيع.

وهذا التراث الذى ضاع، وتلك المثل العُليا لم تعد موجودة فى أمريكا، لكنّى وجدتها فى الإسلام، لذلك أرى أنّ الطريق إلى إنعاش التراث الأمريكى سيكون عن طريق الإسلام، وهذا ما أقوم بالعمل عليه منذ إسلامى عام 1980م.

وقد أخبرنى بأنّ الحاجة قائمة إلى صناع فكر إسلامى لكى يشرحوا للأمريكيين كيف يجب على أمريكا أن تدير سياستها الخارجيّة، وأن يبيّنوا أنّ العدل هو الطريق الطويل الذى يجب أن تسلكه أمريكا.

وفى الوقت الذى لا يبدى فيه د. فاروق قلقًا على بقاء الإسلام فى أمريكا، غير أنه يجب التركيز على بناء فكر عال للمفهوم الإسلامى بين الشباب بشكل خاص، وقد قال فى ذلك: «يجب أن يفهموا العالم الحديث، ويجدوا ردودًا إسلاميّة لكل المشاكل المطروحة فى المجتمع، ومن جانب آخر يجب أن ننمّى ونطوّر قيادة فكريّة بين المسلمين وفى كلّ حقول المعرفة، ويكون الهدف من كلا الأمرين هو تدعيم العدل والعدالة فى العالم.. وهذا يجعل الإسلام قوّة إيجابيّة من أجل الخير فى العالم، وهذه الأولويّات تنطبق على الغرب كما تنطبق على العالم الإسلامىّ».

وقد قرأت عليه بعد ذلك آراء وتصوّرات عميقة فى أمّهات القضايا والتحدّيات التى تواجه المسلمين فى عالم اليوم، وهو حين يوجّه النقد إلى الغرب لنظرته المنحازة والقاصرة تجاه الإسلام، فإنّه لا ينسى توجيه اللّوم إلى بعض المسلمين فى الشّرق أو الغرب ممّن لا يفهمون التعاليم الإسلامية، ومن الصّعب - كما يقول - أن تفهم الغربيين حقيقة الإسلام لأنّ الكثير من المسلمين الذين يعيشون فى الغرب لا يمارسون ولا يعيشون حسب تعاليم الإسلام.

**ديفد كيربا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ديفد كيربا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل تبوأ أعظم منصب يمكن أن يتبوأه امرؤ فى بلده . هذا الرجل كان رئيسا لجمهورية جامبيا.

قلت متعجبا: رئيس جمهورية!؟

قال: أجل. ولا تكمن الغرابة فى كونه رئيسًا لجمهورية، وإنما لأن هذا الرئيس ولد مسلمًا ثم أبحر للغرب، وتشرب من فكره وقيمه وعقيدته، ودخل عالم السياسة، فدانت له، واستهوته شهوة المناصب التى وصل إلى أقصاها، ولكن حين اقترب من القصر السياسى اكتشف أنه قد نسى شيئًا مهمًا. نسى فطرته، فعاد إليها مسرعًا، وقد عبر عن ذلك بقوله (كنت أشعر دائمًا أن لى قلبين فى جوفى.. قلب لى وقلب على.. أما القلب الذى لى. فكان يدفعنى إلى الدراسة والسياسة وخوض معركة الحياة. وأما القلب الذى على، فكان ما يفتأ يلقى على عقلى وقلبى سؤالاً لم يبرحه قط، هو: من أنت؟... وما بين القلبين مضت بى الرحلة الطويلة استطعت معها ومن خلالها أن أحقق كل ما أصبو إليه، تحرير وطن أفريقى أسود، ووضعه على خريطة الدنيا كدولة ذات سيادة).

واستطرد قائلاً: (وكان هذا نصرًا منتزعًا من فم الأسد، يكفى لأن يدير الرؤوس، ويصيب الشبان الحالمين من أمثالنا فى هذا الوقت بدوار السلطة.. كانت تلك معركة كبرى سلخت من أعمارنا نصف قرن من الزمان مع الحرب والنضال، والمفاوضات وتكوين الأحزاب، وخسارة المعارك والفوز بها أيضًا، وما كان أسعدنا حينئذ ونحن ننشل وطننا من

وهدة الاحتلال والتخلف والضياع الفكرى والاقتصادى.. ولم يكن هذا الفوز سوى لإرضاء النفس وغرورها، أما فطرة النفس فأخذت تحضنى على خوض المعركة الكبرى.. لقد كسبت معركتك مع الحياة فاكسب معركتك مع نفسك، عد إلى ذاتك، اكتشف المعدن الثمين الذى بداخلك.. أزح ما عليه من هذا الركام من التغريب والعلمانية والدراسة فى مدارس اللاهوت.

كان الصوت يخرج من داخلى يقول لى: عد إلى الطفل البرىء الذى كان يجلس بين أيدى شيوخه ومعلميه يتلو القرآن ويسعى للصلاة.. وهنا أحسست أن قلبى يصدقنى وأن لا شىء فى الدنيا يعادل أن يخسر الإنسان نفسه، أن أعود لإسلامى الذى ضاع منى وأنا فى خضم فى الحياة ومشاغلها ومباهجها، أستشعر الآن أنى قد كسبت نفسى وتعلمت درسًا لا يتعلمه إلا من كان فى قلبه حس نابض، وعقل واع).

لقد عاد هذا الرئيس إلى فطرته الصحيحة وأعاد اسمه إلى (داود جاوارا) بعد أن كان اسمه (ديفد كيربا).

**مستروليم:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (مستر وليم)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل كان مدير دريم بارك الأمريكى فى مصر، وقد التقيت به فى بعض رحلاتى إلى مصر، وقد سألته عن علاقته بالإسلام، فقال: عندما جئت إلى مصر لم أكن متعودًا كما هو الحال فى الغرب أن أرى الناس عندما يسمعون الأذان يتجمعون ويصلون، فكان هذا غريبًا علىّ فى بداية الأمر، كما أن هناك مهندسين وزملاء آخرين مصريين بدأوا يكلموننى عن الإسلام، وبدأت أحس أن بداخلهم طمأنينة وراحة نفسية معينة لم أحسها من قبل هى سبب تمسكهم بهذا الدين، مما جعلنى أبدأ فى التفكير فى الإسلام وأقرأ عنه وأقارنه بالمسيحية، ومن خلال قراءاتى والخبرة الواقعية حولى عن طريق زملائى المسلمين اعتنقت هذا الدين، ومن أهم الكتب التى قرأتها عن الإسلام [تفسير معانى القرآن الكريم] باللغة الإنجليزية.. وكتاب دين الحق، الزواج فى القانون الإسلامى، وكتب أخرى كثيرة تشرح ما يحويه الإسلام، كما أننى أحمل مصحفًا معى دائمًا، وأحاول تعلم اللغة العربية حتى أستطيع قراءة القرآن الكريم.

قلت: ما هى المعانى الإسلامية التى جذبتك إلى الإسلام؟

قال: لا يمكننى أن أحصر لك تلك المعانى فى هذا المجلس، ولكنى أقول لك بأنى فى البداية سمعت عن الإسلام قبل أن أعتنقه لكن ليس بالقدر الكافى، وبدأت بالفعل فى القراءة عنه، وأخبرنى زملائى المسلمون أن أهم شىء فى معرفة الإسلام معناه البسيط بداية، وليس شرطًا أن أعرف قواعده وقوانينه فى بداية الأمر، فقد تكون صعبة ومعقدة بعض الشىء بالنسبة

إلى وسأستطيع معرفتها بعد ذلك، وقد أشهرت إسلامى، ولم أغير اسمى، ولكن أضفت إليه اسم [يوسف] فأنا معجب بشخصية سيدنا يوسف عليه السلام فقد قرأت عنه قبل وبعد اعتناق الإسلام فاحترمته وأحببت اسمه، ولكن فى نفس الوقت لم أغير اسمى لأنه لقب والدى وعمومًا فأنا أعتز بالاسمين معًا.

قلت: ألم تعترض أسرتك على إسلامك؟

قال: والدى ووالدتى متمسكان بدينهما وملتزمان بتعاليم المسيحية، وكانا يحباننى، ولذلك عندما أخبرتهما أننى سأعتنق الإسلام سألا عن هذا الدين وذهبا إلى القسيس فى الكنيسة وطرحا عليه عددًا من الأسئلة حول الإسلام فهما لم يكونا يعرفان عنه شيئًا، وقالا لى طالما ستظل كما أنت أبيض القلب وطيب النفس، وأن هذا الدين لن يغير فيك ذلك، فليس هناك مانع.

أما أصحابى فربما لم يفهموا موقفى، ولكنهم يعرفوننى جيدًا، وهم متأكدون أننى لن أتحول عن دينى إلى دين آخر إلا إذا كان هذا الدين سيحسن من نفسى وسيزيد إيمانى وسيجعلنى أحس بشعور أفضل، ولذلك تقبلوا الموقف ولكن لم يفهموه بالضبط.

قلت: هل واجهتك ضغوط للحيلولة دون اعتناقك للإسلام؟

قال: لم تواجهنى أى ضغوط عندما قررت اعتناق الإسلام، بل إن من حولى تقبلوا الأمر، ولكن لم يكونوا قد تفهموه بعد، خاصة أن الغرب لا يرانا مثلاً ونحن نصلى بل يرون جانب التعصب فى المسلمين، فوسائل الإعلام تنقل إليهم صورة غير حقيقية، ولا تنقل إليهم صورة الإسلام الحقيقية، فالتعصب ليس من الإسلام فى شىء، ولكن الغرب للأسف لا يرى سوى ذلك، وبالنسبة إلى لم أجد مشاكل فى أمريكا بسبب إسلامى ولكن أقابل أناسًا لا يفهمون موقفى.

قلت: فكيف تعلمت إقامة شعائر الدين الجديد مع أنك لا تتقن العربية[1]؟

قال: للأسف لم أتعلم اللغة العربية بعد، ولكن قالوا لى ليس هناك مشكلة الآن طالما أنك تصلى وتقف أمام الله بقلب سليم وتعرف كيف تصح صلاتك وعندما أقول (الله أكبر) أحس أننى قريب من الله وصلاتى ستقبل كما أخبرنى بذلك علماء من الأزهر، وأن الأمر يأتى خطوة خطوة، وزملائى المسلمون يصلون بى دائمًا، والفرصة المتاحة لى هى أن أتعلم العربية ممن حولى، فليس عندى وقت كثير فأنا أعمل من 12 إلى 16 ساعة يوميًا، وبالنسبة لصيام شهر رمضان فلم تكن عندى مشكلة فى الامتناع عن الطعام فأنا متعود على ذلك فى العمل، ولكن عانيت بعض الشىء أولاً، ثم اعتدت ـ بحمد لله ـ على ذلك، وأنا أنوى الحج إلى بيت الله برفقة زوجتى [منى] التى ارتبطت بها بعد اعتناقى الإسلام.

---

(1) قد ذكرنا عدم اشتراط تعلم العربية لمن يريد الإسلام، بل يمكنه أداء شعائر الإسلام جميعا بلغته الأصلية.

قلت: هل ترى أى فروق بين الإسلام والمسيحية؟

قال: الإسلام منحنى الأمان والسلام، وهو دين لم يتغير ولم يتبدل ولم يطرأ عليه أى تغيير، أما المسيحية، فقد حدث فيها تغيير وتحريف من قبل القساوسة والكهنة، فمنهم من يؤمن بأن عيسى عليه السلام هو الله، وهذا خطأ فعيسى هو عبد الله ورسوله، ونحن - المسلمين - نؤمن بجميع الرسالات، وأن المسيح هو رسول من رسل الله، ونؤمن بالدين الذى جاء به، وهنا يقف المسيحيون عند الإيمان بالمسيحية فقط، فلم يؤمنوا بأى شىء بعدها، أما نحن فقد آمنا بمحمد ﷺ ودينه، وهذا هو الفرق.

قلت: ما الجديد فى حياتكم إثر تحولكم إلى الإسلام؟

قال: منحنى الإسلام شيئًا جديدًا وقوة وجعلنى لا أخشى أحدًا إلا الله، بل أنا لا أهتم بأى مشكلة مهما كانت طالما أنها مشكلة دنيوية، ولا تتعلق بالآخرة، ولا تمس حياتنا بعد الموت، وهذا ما لاحظته فى تعاملى مع بعض الزملاء، فمثلاً توفيت أختى الصغيرة بعد إسلامى بفترة، فتقبلت الأمر لأنه من الله، وعلىّ أن أؤمن بالقضاء والقدر، ولو حدث ذلك قبل إسلامى لكان من الممكن أن أعترض وأتساءل لماذا يحدث ذلك.

قلت: هل طرأ تغير على تعامل المحيطين بك بعد اعتناقك الإسلام؟

قال: إن زملائى المسلمين سعدوا جدًا بإسلامى لدرجة الانبهار، وقالوا لى: (مبارك)، وهم يعاملوننى جيدًا حتى قبل أن أسلم أو أخبرهم أننى أفكر فى الإسلام، ومعاملتهم لى لم تجعلنى أشهر إسلامى، ولكن جعلتنى أفكر بإيجابية فى اعتناق هذا الدين، وأعتقد أنه لو كانت سيئة ربما لم أعتنق الإسلام، لأنه طالما أن هؤلاء المسلمين معاملتهم سيئة وتصرفاتهم خاطئة، فلماذا أكون على دينهم؟

قلت: هل حاولت أن تدعو أحدًا من الشعب الأمريكى إلى الإسلام؟

قال: لقد تحدثت مع أصدقائى عن الإسلام والجديد فيه، ولكنى أعتقد أن المهم هو تصرفاتى وأفعالى، فهى أفضل دعوة صريحة للتأثير فى الآخرين، وحثهم على تقليدى واعتناقهم الإسلام.

وللأسف هناك كثير من الناس، لا يعرفون أى شىء عن الإسلام، ومعلوماتهم بشأنه تكاد تكن منعدمة حتى إن أصدقائى لم يستطيعوا أن يسألونى سؤالاً محددًا، فكانت استفساراتهم ما هو الإسلام؟ فهم لا يعرفون أن الإسلام دين يدعو للتسامح مع كل الأديان وأن سيدنا محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، والمشكلة تكمن فى أن الغرب لا يعرف الكثير عن الإسلام، فالصلة التى تربطه بالشرق تتركز فى النواحى السياسية.

قلت: من وجهة نظرك ما هى رؤية الأمريكيين للإسلام؟

قال: الناس فى الولايات المتحدة يتقبلون الأديان، ولذلك تجد مزيجًا من الأديان فى

دول الغرب، وليس هناك مشكلة أن تكون مسلمًا، ولكن للأسف هناك من يسيئون لصورة الإسلام.

**د.مراد هوفمان:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مراد هوفمان)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أشهر من نار على علم، وقد كان سفير ألمانيا في المغرب وفي مصر، وقد نال شهادة دكتوراه في القانون من جامعة هارفرد.

وبعد إسلامه ابتدأ د.هوفمان مسيرة التأليف، ومن مؤلفاته: كتاب (يوميات مسلم ألماني)، و(الإسلام عام ألفين) و(الطريق إلى مكة) وكتاب (الإسلام كبديل) الذي أحدث ضجة كبيرة في ألمانيا.

ولما أشهر إسلامه حاربته الصحافة الألمانية محاربة ضارية، وحتى أمه لما أرسل إليها رسالة أشاحت عنها، وقالت: «ليبق عند العرب».

ولكن هوفمان لم يكترث بكل هذا، بل قال: «عندما تعرضت لحملة طعن وتجريح شرسة في وسائل الإعلام بسبب إسلامي، لم يستطع بعض أصدقائي أن يفهموا عدم اكتراثي بهذه الحملة، وكان يمكن لهم العثور على التفسير في هذه الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة].

وقد التقيته مرات عديدة حدثني خلالها عن سر إسلامه.. وسأعرض لك بعض ما دار بيننا لتعلم سر انجذاب مثله إلى الإسلام[1].

لقد ذكر لي في أول لقاء لي به أن الله عز وجل بكرمه وفضله منّ عليه بأن يعيش ثلاثة أحداث كبرى كان لها تأثيرها الكبير في توجيهه للإسلام، وهي ذات طبيعة إنسانية، وجمالية فنية، وفلسفية.

أما الحدث الأول فيرتبط بالجزائر، قال: في أثناء عملي بالجزائر في عامي 61/ 1962، عايشت فترة من حرب استمرت ثماني سنوات بين قوات الاحتلال الفرنسي وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، وانضم أثناء فترة وجودي هناك طرف ثالث هو (منظمة الجيش السري)، وهي منظمة إرهابية فرنسية، تضم مستوطنين وجنودا متمردين، ولم يكن يوم يمر دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر.

وغالبا ما كانوا يقتلون رميا بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة، ولم يكن لذلك من سبب، إلا كونهم عربا، أو لأنهم مع استقلال الجزائر[2]، وكنت عند سماعي صوت

---

(1) انظر كتابه (الطريق إلى مكة).

(2) اهتممنا بسياق هذا الكلام هنا بحروفه لنبين من هو الأسبق للإرهاب، أو من علم الإرهابيين ما يمارسونه من أساليب الإرهاب التي يبرأ منها الإسلام.

سلاح آلى، أتصل تليفونيا بزوجتى الأميركية لتسرع إلى شراء ما تحتاج إليه، لأن الهجوم التالى فى المنطقة نفسها لا يتوقع حدوثه قبل عشرين دقيقة.

وكانت أنبل مهماتى هى إعادة أفراد الفرقة الأجنبية من الألمان الفارين إلى الوطن بمعاونة من السلطات الفرنسية، وكان عدد هؤلاء الرومانسيين المساكين غير قليل، منذ فر قائد قوات المظلات فى العام السابق. وكم كان الموت يجذبهم! وكانت منظمة الجيش السرى قد جندت عددا منهم ضمن قوات خاصة (كوماندوز). ومن ثم وجدوا أنفسهم بين نارين. كما أن فرص نجاتهم من الموت كانت ضئيلة جدا. وكنت، بصفتى ممثلا للقنصلية العامة الألمانية، أضع الزهور على قبور الكثير منهم.

كنت، وأنا أبحث عن ألمان بين الجرحى فى المستشفيات، أحمل سلاحى معدا للاستخدام. وكنت أدقق النظر فى وجه من يقابلنى، بل وفى يديه. وعندما كانت القامات تتقابل، كان كل شخص يبتعد عن الآخر عائدا إلى الخلف، طلبا للأمان، وفى بعض الأحيان كانت زوجتى المذعورة تصر على حماية ظهرى، فكانت تسير خلفى على مسافة عدة خطوات حاملة فى كم ثوبها سكينا حادة.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: ما تزال بعض ذكريات تلك الأيام تثير كآبة فى نفسى حتى الآن، فعندما كنت فى طريقى إلى مقر إذاعة فرنسا 5، حيث كان من المقرر أن ألقى، تنفيذا لتكليف من القنصل العام، محاضرة عن (وضع الرقص المسرحى) فى ألمانيا، تعطلت مضخة البنزين فى سيارتى فى شارع إيزلى الضيق، كثير المنحنيات، وسرعان ما اصطفت السيارات خلف سيارتى، مطلقة أصوات النفير، وفى تلك الأثناء، كان أمامى رجل يعبر الشارع، واطلق عليه شخص الرصاص من الرصيف المقابل، فسقط جريحا أمام رفرف سيارتى الأيسر، واذا بالمهاجم يشير لى بسلاحه آمرا أن أواصل سيرى، كى أخلى ساحة إطلاق الرصاص.

ولم أكن أرغب فى ذلك، بل ولم أكن أستطيعه أيضا، وأخيرا، تقدم الشخص الذى يحمل السلاح من الرجل المصاب وأطلق عليه رصاصة أخرى أردته قتيلا، ثم اختفى فى زحام البشر فى تؤدة وعلى مهل، ولقد استأت كثيرا ايضا، عندما رأيت - مضطرا - أعضاء منظمة الجيش السرى، وهم يشعلون النار فى سيارات شحنوها سلفا ببراميل من الوقود، ويدفعونها من فوق منحدر إلى حى يسكنه العرب، ولا بد للمرء من أن يتوقع أن يكون على قائمة القتلى، إذا ما أصبح شاهدا غير مرغوب فيه.

وكان حلاقى فى الأبيار يدرك ذلك جيدا، فحين هاجمت قوات (منظمة الجيش السرى) مكتب التلغراف المقابل لمحله فى شارع جالينى، أدار مقعده حتى لا يكون شاهدا على ما يجرى. ولم يكن تصرفه أقل غرابة من تصرف أحد أفراد الشرطة الذى عرض علىّ فى مايو (ايار) عام 1962 أن يحرس سيارتى، بينما كانت النيران مشتعلة خلف ظهره فى مكتبه بالأبيار.

عندما توصل الرئيس الفرنسي شارل ديجول، فى إيفيان فى مارس (آذار) عام 1962، إلى اتفاق مع الحكومة المؤقتة لجبهة التحرير الوطنى الجزائرى على وقف إطلاق النار فى يوليو (تموز) التالى، صعدت منظمة الجيش السرى من أعمالها الإرهابية، بهدف استفزاز الجزائريين لخرق الاتفاق، فبدأ أفرادها فى تصفية النشء الأكاديمى الجزائرى، وراحوا يقتلون، رميا بالرصاص، النساء اللاتى يرتدين الحجاب.

وقبل تحقيق الاستقلال بأيام قلائل، أطلقوا الرصاص على آخر بائع جزائرى جائل فى الأبيار، فأردوه قتيلا أمام مكتبى مباشرة، وكان هذا البائع قد عاش ينادى على أسماكه منذ عقود طويلة، دون أن يلحق أذى بأى إنسان كائنا من كان، وفى الشارع الذى كنت أقطنه، كان جيرانى من الفرنسيين يلقون من النوافذ على المتنصرين بكل ما لا يبخلون به.

قلت: فقد عرفت المسلمين إذن انطلاقا من هذه المشاهد المأساوية؟

قال: أجل.. لقد شكلت هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لى عن قرب بالإسلام المعيش، وقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم، والتزامهم الشديد فى رمضان، ويقينهم بأنهم سينتصرون، وسلوكهم الإنسانى، وسط ما يعانون من آلام. وكنت أدرك أن لدينهم دورا فى كل هذا.

ولقد أدركت إنسانيتهم فى أصدق صورها، حينما تعرضت زوجتى للإجهاض تحت تأثير الأحداث الجارية آنذاك، فقد بدأت تنزف عند منتصف الليل، ولم يكن باستطاعة سيارة الإسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحا، بسبب فرض حظر التجول، وبسبب شعار (القتل دون سابق انذار) المرفوع آنذاك. وحينما حانت الساعة السادسة، أدركت وأنا أطل من نافذة مسكنى فى الطابق الرابع، أن سيارة الإسعاف لا تستطيع العثور علينا، لأن منظمة الجيش السرى كانت قد غيرت فى تلك الليلة أسماء كل شوارع الحى الذى أقطنه، بحيث أصبحت كلها تحمل أسماء مثل شارع (سالان) وشارع (يهود) وشارع (منظمة الجيش السرى).

بعد تأخير طال كثيرا، كنا فى طريقنا متجهين إلى عيادة الدكتور شمعون (قبل أن تنسفها منظمة الجيش السرى بوقت قصير)، حيث صادفنا حاجزا أقامته الجمعية الجمهورية للأمن، وعلى الرغم من صفير البوق الذى كان السائق يطلقه، فإنه لم يكن باستطاعته أن يشق طريقه إلا ببطء شديد، وكانت زوجتى تعتقد، فى تلك الأثناء، أنها ستفقد وعيها. ولذا، وتحسبا للطوارئ، راحت تخبرنى أن فصيلة دمها هى O ذات RH سالب. وكان السائق الجزائرى يسمع حديثها، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذى هو من نفس فصيلة دمها. ها هو ذا العربى المسلم يتبرع بدمه، فى أتون الحرب، لينقذ أجنبية على غير دينه.

ولكى أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الأصليون المثيرون للدهشة، بدأت أقرأ كتابهم (القرآن) فى ترجمته الفرنسية لـPesle/Tidjani. ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين،

حتى الآن، وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد تعرفت على القرآن إلا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن فى ميزاب جنوب الجزائر، حيث يحفظه أطفال البربر، ويتلونه فى لغة غريبة عنهم، وهو ما دهشت له كثيرا. وفيما بعد أدركت أن حفظ وتلاوة القرآن، باعتباره رسالة الله المباشرة، فرض تحت الظروف كافة.

وقد أزعجنى رد الفعل الغاضب من جانب أحد الجزائريين، عندما حدثته فى بار فندق ترانس ميدترانيان فى غرداية، عن قراءتى للقرآن، إذ استنكر فى صراحة لا ينقصها الوضوح، وجود ترجمات له، واعتبر محاولة ترجمة كلام الله إلى لغة أخرى بمثابة تجديف.

ولم أستغرق وقتا طويلا قبل أن أستوعب رد فعله. فاللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه. فالمفردات التى تشير إلى مستقبل مؤكد يمكن أن تدل على أمر حدث فى الماضى أيضا. ناهيك عن أن اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربى أن يفهمه تلميحا. وبغض النظر عن ذلك، فهناك المشكلة المعتادة التى تكمن فى أن الكلمات التى تعبر عن ذات المعنى فى لغتين لا تتطابق فى ما يختص بتداعى الخواطر إلا نادرا. ومن ثم، فإن كل ترجمة للقرآن إن هى إلا تفسير يفقر المعنى ويجرده من مضمونه. وهكذا كان الرجل فى البار على حق.

لم تشأ هذه الجزائر، التى أدين لها بالكثير، أن تتركنى لحالى، وإنما تبعتنى كالقدر، فعندما أصبحت سويسرا ترعى مصالحنا فى الجزائر، فى عام 1966، كان علىّ أن أعمل من السفارة الألمانية فى برن على استمرار الاتصال مع من تبقى من بعثتنا الدبلوماسية فى الجزائر، من خلال القسم السياسى فى السفارة السويسرية. وكان البريد المرسل من بون إلى الجزائر، يمر من خلالى أسبوعيا.

وبعد 25 عاما من عملى بالجزائر لأول مرة، عدت إليها سفيرا فى عام 1987، ومنذ اعتمدت سفيرا فى المغرب، المجاور للجزائر، فى عام 1990، يندر أن تفارق مخيلتى صورة الجزائر التى ما تزال تعانى آلاما مأساوية، فهل يمكن أن يكون ذلك كله محض مصادفة؟!

قلت: فحدثنى عن الجانب الثانى الذى تعرفت من خلاله على الإسلام، وهو الجانب الجمالى الفنى.

قال: لذلك قصة.. وهى تتلخص فى أننى كنت منذ صباى معجبا بالجانب الشكلى للجمال، وأرغب فى الغوص فى أعماقه حتى عندما كانت حماتى الأميركية تقول - استنادا إلى المنهج البيوريتانى - إن الجمال مجرد أمر سطحى، وأنه ليس إلا خداعا على السطح.

وعندما تلقيت فى عام 1951 الدفعة الأولى من منحة التفوق، التى تمنحها وزارة الثقافة فى بافاريا للموهبين جدا، دفعتها بأكملها ثمنا لشراء نسخة مطبوعة على قطعة من الجوت من لوحة بول جوجان (الفتاة وثمار المانجو)، وبما أننى لم اكن ممن يقطنون حى Maximilianeum

الواقع على اليـمـين مـن نهـر إيزار، وإنما كنت أقيم فى المستـوطنات السكنية للشوريين الديمقراطيين، عند ميدان ماسمـان، حيث يتقاسم العمـال والطلبة غرفها، فـقد نقلت لوحة جوجـان التى اشتـريتهـا إلى مسكنى هنـاك، ورحت أحللها، ولم ألبث أن اقـتنعت بأن الفن الساكن - الرسم والنحت والعمـارة والخط والأعمال الفنية الصغيرة - مـدين بالفضل فى تأثيره الجمالى للحركـة المجمدة، ومن ثم، فإنه مشتق من الرقص. ولذلك، يزداد إحـساسنا بجمال الفن التـشكيلى كلما ازدادت قـدرته على الإيحاء بالحـركة. وهذا مـا يفسـر انبهارى الـشديد بالرقص الذى دفعنى إلى مشاهدة عروض الباليه كـافة فى مسرح برينزرجنتن فى ميونخ، ومنذ ذلك الحين ازداد اهتمـامى بالرقص، واتسع ليشمل كل ما يتصل به. وكنت أقـضى كل ساعة فراغ بين مواعيد المحكمة فى صالات عروض الباليه، بالقرب من قصر العدل، وحصلت على تمارين للباليه، لكى أتعلم - ولو عـلى نحو متخلف - رقص الباليه الكلاسـيكى، حتى أعرف ماهية ما أكتب عنه.

وكعاشق للباليه، ذلك الفن المجـرد الذى يجسد الموسيقى، كنت فى الواقع أبحث عن الأسباب التى ترغـمنا على الإحساس بجمال أشـياء أو حركات بعينهـا. ولهذا السبب، كنت أقبع لأسابيع طويلة فى إحدى الغابات البافارية باحثا فى أسس علم جمال الحركة.

وهناك تبين لى أننا كـبشر لا نملك إلا أن نحس جـمال الجسـد البشرى الصحـيح وما يتطابق مع مقاييـسه. وهو ما ينطبق أيضا علينا كـمحللين بصريين لما تفرزه الطبيـعة من صور وأنواع.

يضاف إلى ذلك أننا نقرأ الـصور فى ذات الاتجاه الذى نكتب فيه، وتبـين لى أخيرا أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوى عليه من مخاطر، وتبين لى آخرا أننا نعجب بحركات الطرد المركزى، لأننا نستطيع أن نتخيلها ممتدة فى ما لا نهاية.

عبر هذا الطريق، صار الفن الإسلامى بالنسبة لى تجربة مهـمة ذات قيمة عالية ومثيرة، ألا يماثل فى سـكونه تماما ما أسـعدنى فى حـركات الباليـه، التجـريدية: القدرة الإنسـانية، والحركـة الداخلية، والامـتداد فى ما لا نـهاية؟ وذلك كله فى إطار الروحـانية التى يتـسم بها الإسلام.

وألهمتنى أعمال مـعمارية، مثل الحمراء فى غرناطة والمسجد الكبيـر فى قرطبة، اليقين بأنها إفراز حضارة راقية رفيعة، واستوعبت جيدا ما كتبه راينر ماريا ريلكا بعد زيارته لكاتدرائية قرطبـة، إذ كتب: (تملكنى منذ زيارة قرطبـة عداء وحشى للمسـيحية، إننى أقـرأ القرآن وهو يتجسد لى صوتا يستوعبنى بقوة طاغية، وأندفع بداخله كما تندفع الريح فى الأرغن).

وصـار الفن الإسلامى لى وطنا جـماليـا، مثلـما كـان الباليـه الكلاسيكى من قـبل، وأصبـحت أرى الأعمـال الفنية للعـصور: الإغريقى والرومـانى والقوطى، ولعـصر النهـضة

والروكوكو مثيرة، وعريقة، وأصيلة، بل وعبقرية، ولكنها لا تنفذ إلى داخلى، ولا تحرك عواطفى ولا مشاعرى.

سكت قليلا، ثم قال: إننى أدرك قوة جاذبية فن هذا الدين الآن أفضل من ذى قبل. حيث إننى محاط فى المنزل الآن بفن تجريدى، ومن ثم بفن إسلامى فقط. وأدركها أيضا عندما يستمر تاريخ الفن الغربى عاجزا عن مجرد تعريف الفن الإسلامى. ويبدو أن سره يكمن فى حضور الإسلام فى حميمية شديدة فى كل مظاهر هذا الفن، كما فى الخط، والأرابيسك، ونقوش السجاد، وعمارة المساجد والمنازل والمدن. إننى أفكر كثيرا فى أسرار إضاءة المساجد وفى بنائها الديمقراطى، وفى بناء القصور الإسلامية، الذى يوحى بحركة متجهة إلى الداخل، بحدائقها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة وينابيعها ومجاريها المائية، وفى الهيكل الاجتماعى ـ الوظيفى المبهر للمدن الإسلامية القديمة (المدينة) الذى يهتم بالمعيشة المتجاورة تماما كما يهتم بإبراز موقع السوق وبالمواءمة أو التكيف لدرجات الحرارة وللرياح، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل فى منطقة السوق ومنطقة السكن. وإن من يعرف واحدا من هذه الأسواق ـ وليكن فى دمشق، أو اسطنبول أو القاهرة أو تونس أو فاس ـ يعرف الجميع، فهى جميعا، كبرت أم صغرت، منظمات إسلامية من ذات الطراز الوظيفى. فما أكثر ما تجولت فى سوق مدينة سالى المؤاخية للرباط لكى أستعيد حيويتى، إنه ذروة مجتمعية حيوية يجد فيها كل إنسان مكانا له، شيخا كان أم شابا، صحيحا كان أم مريضًا، فقيرا أم غنيا، بيض أم أسود، ولا يوجد به عجلة، ولا أزمة ضيق وقت، ولا مبالغة فى تقييم الذات، ولا خمور ولا وسائل نقل ثقيل، ولا سياج ولا ابتزاز، وحيث الجميع سواسية، وكل عملية شراء ترتبط بـ (دردشة)، وحيث تغلق الحوانيت أبوابها وقت الصلاة.

كان ما أحسست منذ البداية أنه إسلامى وباعث على السعادة هو فى واقع الأمر التأثير الناضج للتناغم الإسلامى، وللإحساس بالحياة والمكان الإسلاميين على العقل والروح. وهذا ما أحسست به فى متحف جولبينكيان الإسلامى فى لشبونة، مثلما أحسست به فى المسجد الأموى بدمشق، وفى مسجد ابن طولون بالقاهرة، وفى مسجد القيروان القديم أو المسجد السليمى فى درنة.

وقبل أن يقودنى الدرب الفلسفى إلى الإسلام، الذى قادنى بدوره إلى تجربة أساسية ثالثة فى حياتى، كنت قد حصلت، وأنا بعد فى سن المراهقة فى مدينة اشفنبرج، على قسط وافر من التعليم الجيزويتى، من خلال عضويتى لجمعية Congregatio Mariana وهى المقابل لحركة (ألمانيا الجديدة) المتمركزة فى الشمال.

ويعود ارتباطنا، بل تعلقنا الرومانسى، بهذه المنظمة إلى فترة حكم النازى، وذلك لأن الجستابو لم يتمكن من الكشف عنها عندما كانت تقاوم هذا الحكم سرا. ولم يكن حتى أبى

المشتت الفكر يعلم بعضويتى لهـذه المنظمة. وكنا نجتمع أسبوعيا مع أحد القساوسة الجيزويت فى إحدى المقابر، فى ظل إجراءات أمنية مشددة. فكان كل فرد منا لا يعرف سوى أفراد مجموعته فحسب. ولكننا تمكنا بمرور الوقت من استقطاب أفضل عناصر تلاميذ المدارس الثانوية. وقطعنا بذلك الطريق على منظمة (شبيبة هتلر)، أى أننا منعنا هذه العناصر الجيدة من أن تنضم إلى منظمات الشباب التابعة للحكم النازى، ولقد أدهشنا أن عدد أفراد المنظمة بلغ عند انتهاء الحرب 80 فردا، بعد أن انقضت الحرب، عدنا إلى الاستمتاع بحياة وأساليب منظمات الشباب التى كانت سائدة فى عشرينيات هذا القرن.

ونظرا لما سبق ذكره، فقد كنت على دراية تامة بالديانة الكاثوليكية، وبأدق شؤونها من الداخل، ولكننى فى الوقت ذاته، كنت قد بدأت أضع هذه الديانة محل تساؤلات وشكوك. كنت أنا وCarl Jacob Burckherdt نتساءل دوما عما إذا كان من الصواب أن يكون عالم اللاهوت ودارس الأديان مسيحيى الديانة.

وبالرغم من إعجابى بفلسفة Ludwig Wittgenstein فإنى كنت على يقين تام من عدم وجود دليل ينفى وجود الله، وكنت شديد التمسك بالرأى القائل بأن عدم وجود الله غير مؤكد بشكل قاطع، وأن الاعتقاد بوجود الله أو نفى وجوده يظل مسألة تحسمها العقيدة ويقين الفرد، وقد حسمت هذا باعتقادى فى وجود الله.

وبعد ذلك، ثار سؤال عن ماهية الاتصال بين الله الإنسان، وقد كنت شديد الاقتناع بإمكانية، بل قل بضرورة، تدخل الله وتسييره لمجريات الأمور.

ويرتكز اقتناعى هذا على دراستى ودرايتى بتاريخ الإنسانية والعلوم والحق، التى استنتجت من خلالها أن مجرد مراقبة الطبيعة وتتبعها فقط لن يقودنا إلى إدراك حقيقة علاقتنا ببيئتنا وبالله. ألا يشهد تاريخ العلوم على حقيقة مفادها أن الحقائق العلمية يغير بعضها بعضا بسرعة شديدة؟! كنت بهذه الخطوة قد حسمت يقينى بإمكانية، بل بضرورة، الوحى والدين، ولكن أى دين؟ وأى عقيدة؟ هل هى اليهودية، أو المسيحية أو الإسلام!؟

وهنا تداركنى الله بلطفه، فجاءتنى الإجابة من خلال تجربتى الثالثة التى تتلخص فى قراءتى المتكررة للآية 38 من سورة النجم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، ولا بد من أن تصيب هذه الآية بصدمة شديدة كل من يأخذ مبدأ حب الآخر الوارد فى المسيحية مأخذ الجد، لأنه يدعو فى ظاهر الأمر إلى النقيض. ولكن هذه الآية لا تعبر عن مبدأ أخلاقى، وإنما تتضمن مقولتين دينيتين تمثلان أساسا وجوهرا لفكر دينى، هما:

1 ـ أنها تنفى وتنكر وراثة الخطيئة.

2 ـ أنها تستبعد، بل وتلغى تماما، إمكانية تدخل فرد بين الإنسان وربه، وتحمل الوزر عنه.

وهذه المقولة الثانية تهدد، بل وتنسف مكانة القساوسة وتحرمهم من نفوذهم وسلطانهم الذى يرتكز على وساطتهم بين الإنسان وربه وتطهيرهم الناس من ذنوبهم. والمسلم بذلك هو المؤمن المتحرر من جميع قيود وأشكال السلطة الدينية.

أما نفى وراثة الخطيئة وذنوب البشر، فقد شكل لى أهمية قصوى، لأنه يفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية، مثل: ضرورة الخلاص، التجسيد، الثالوث، والموت على سبيل التضحية. وبدا لى أن تصور فشل الله فى خلقه، وعدم قدرته على تغيير ذلك إلا بإنجاب ابن والتضحية به ـ أى أن الله يتعذب من أجل الإنسانية ـ أمر فظيع ومروع، بل وتجديف وإهانة بالغة.

وبدت لى المسيحية وكأنها تعود لترتكز فى أصولها على أساطير متنوعة ومتعددة، وتبين لى جليًا الدور الخطير والشرير الذى لعبه بولس الرسول. لقد قام بولس، والذى لم يعرف المسيح أبدا ولم يصاحبه فى حياته، بتغيير بل وبتزوير التعاليم اليهودية ـ المسيحية والتى ترى فى المسيح أحد رسل الله وأنبيائه. وتيقنت أن المجلس الملى، الذى انعقد فى نيقيا (عام 325)، قد ضل طريقه تماما، وحاد عن الصواب وتعليمات المسيحية الأصلية، عندما أعلن أن المسيح هو الله، واليوم، أى بعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرنا، يحاول تصحيح هذا الخطأ بعض علماء اللاهوت الذين يتمتعون بجرأة شديدة.

ومجمل القول أننى بدأت أنظر إلى الإسلام كما هو، بوصفه العقيدة الأساسية الحقة التى لم تتعرض لأى تشويه أو تزوير. عقيدة تؤمن بالله الواحد الأحد الذى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص].

رأيت فى الإسلام عقيدة التوحيد الأولى، التى لم تتعرض لما فى اليهودية والمسيحية من انحراف، بل ومن اختلاف عن هذه العقيدة الأولى، عقيدة لا ترى أن معتنقيها هم شعب الله المختار، كما أنها لا تؤله أحد أنبياء اليهود.

لقد وجدت فى الإسلام أصفى وأبسط تصور لله، تصور تقدمى، ولقد بدت لى مقولات القرآن الجوهرية ومبادئه ودعوته الأخلاقية منطقية جدا حتى أنه لم تعد تساورنى أدنى شكوك فى نبوة محمد.

ولقد سمعت مرارا قبل اعتناقى الإسلام مقولة أن التحول من دين إلى دين آخر ليس له أى أهمية، حيث إن الأديان كلها تؤمن فى آخر الأمر بإله واحد، وتدعو إلى الأخلاقيات والقيم ذاتها، وأن السلوكيات والأخلاق الحميدة، بالإضافة إلى الإيمان بالله فى قلب الإنسان، وأن يتوجه الإنسان إلى الله سرا، لأهم من الصلاة خمسا، ومن صوم رمضان وأداء فريضة الحج، كم من مرة اضطررت إلى الاستماع إلى هذه المقولات من مسلمين أتراك تخلوا عن عقيدتهم دون أن يدركوا ذلك.

إن إلها خاصــا سريا ليس بإله، وكل هذه الحجج والمقولات تبدو واهيــة، إذا ما تيقنت أن الله يتحدث إلينا فى قرآنه. ومن يدرك هذه الحقيقة لا يجد مفرا من أن يكون مسلما بأعمق معانى هذه الكلمة.

سكت قليــلا يستــرجع أفكاره التى ربطتــه بالإسلام.. ثــم قال: لقــد كنت قريبــا من الإسلام بأفكارى قبل أن أشــهر إسلامى فى عام 1980، بنطق الشهادتين متطهــرا كما ينبغى، وإن لم أكن مهتما حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية.

لقد كنت مسلما من الناحية الفكرية أو الــذهنية، ولكنى لم أكن كذلك بعد من الناحية العملية، وهذا على وجه اليقين ما يتحتم أن يتــغير الآن جذريا. فلا ينبغى أن أكون مسلما فى تفكيرى فقط. وإنما لا بد أن أصير مسلما أيضا فى سلوكياتى.

إذا كان الدين يعنى ربــاطا يربط الإنسان بربه، وإذا كان الإســلام يعنى أن يهب المسلم نفســه لله، فقد كانت أهم واجــباتى، كمــسلم حديث عهــد بالإسلام، فى الخمــسينيات من العمر. أن أتعلم صلاة الإسلام. وليس من الضــرورى أن يكون المرء خبيرا فى الحاسب الآلى ليدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسألة اتصال.. ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به؟

ومن المؤكد، عــلى أى حال، أنه لا شىء يعرض إســلام المرء للخطر أكثــر من انقطاع صلته بربه، من ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنصر المحورى فى حياة كل من يعى ويدرك معنى ما يقوله، عندما يقول إنه يؤمن بالله.

وبناء على ذلك، فإن من لا يصلى ليس بمؤمن مــن وجهة نظرى[1]، فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لهــا، دون أن تكون لديه رغبة فى التحدث إليها تليفــونيا أو فى الكتابة اليها، ودون أن يلقى نظرة واحدة على صورتها طوال اليوم، ليس محبا لها فى حقيقة الأمر.

وهذا ما ينطبق تماما على الصــلاة، فمن يعى ويدرك حقا المعنى الحقــيقى لوجود الله، ستكون لديه بالضــرورة رغبة فى التأمل وفــى التوجه إلى الله كثــيرا. وبذلك فقط، يصيــر ما يردده المسلم كثــيرا وهو يقرأ سورة الفــاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة] حــقيقة واقعة.

وكنت حتى تلك اللحظات أجهل ما يجب فعله واتباعه فى الصلاة، ناهيك عن قدرتى على الحفظ والتــلاوة باللغة العربية، ومن ثم كــانت أولى أولوياتى آنذاك هى التغلب على هذا النقص. وقبل أن أمعن فى دراسة مقدمة مصورة باللغة الألمانية للصلاة الإسلامية، تحظى بأكبر قدر مــن الثقة، طــلبت من صديق تركى أن يعلمنــى الوضوء وكــيفيــة الوقوف فى الــصلاة، والركوع والسجود، والجلوس على الأرض مستندا على القدم اليسرى، ورفع الذراعين، واتجاه

(1) بل هو كذلك من حيث الأدلة الشرعية، فالكثير منها يعتبر الصلاة مظهرا لا يستغنى عنه لإثبات الإيمان، وقد ورد فى الحديث الصحيح (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها، فقد كفر).

النظر، ومتى يقرأ المرء جهرا، ومتى يقرأ سرا مع تحريك الشفتين فى القراءة، وكيف يقف المرء موقفا صحيحا خلف الامام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتى متأخرا إلى المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد. إنه علم كامل! وفى الحقيقة، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم كمسلم دون أن يكون كذلك.

وتبدأ الصلاة الإسلامية، وإن بدا ذلك أمرا غريبا، فى الحمام أو عند مصدر المياه فى الفناء الأمامى للمسجد بالوضوء، وينبغى تعلم ذلك بحسب تتابعه وتسلسله، وكيف يغسل المرء اليدين، وكيف يمسح الرأس، وكيف يتأكد من غسل الكعبين، كل شىء وُضع وحُدد على نحو دقيق تماما. وحينما ينوى المرء الصلاة ويرفع اليدين إلى الرأس مكبرا مفتتحا الصلاة، فإنه ينفصل تماما عن مشاغل حياته اليومية، مما يؤكد قدسية الصلاة بالنسبة له.

وينبغى أن يتعلم المرء أيضا عدد الركعات فى كل من الصلوات الخمس: الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وأن يعرف مواقيتها، وما ينبغى على المسافر أن يراعيه من أحكام الصلاة.

وتعلمت أخيرا كيفية الوقوف فى صلاة الجماعة، حيث ينبغى أن يصطف المسلمون فى صف مستقيم تتلاصق فيه الأقدام وتسد الفرج، وهذا التلاصق يرمز بالنسبة لى أكثر من مجرد ضم صفوف. إنه يرمز إلى التضامن على نحو يؤثر فىّ مجددا كل مرة. ويتجدد هذا التضامن فى نهاية كل صلاة مع تحية (السلام عليكم) التى ينطقها المصلى وهو يلتفت يمينا ثم يسارا، وبعد ذلك يمسح وجهه بكلتا يديه إعلانا عن انتهاء الصلاة، وبعدها يمد يديه إلى جاره فى الصلاة مصافحا ومتمنيا أن يتقبل الله صلاته (تقبل الله صلاتك).

وروى لى عبد الوهاب عبادة، السكرتير العام لوزارة الخارجية الجزائرية، أنه غير هده التحية مرة عندما كان طفلا، فقد بدا له أنه من الأقرب إلى المنطق أن يقول (السلام عليك)، وكانت نتيجة ذلك أنه تلقى تأنيبا من والده الذى علمه أن المسلم يقول دائما: (السلام عليكم)، لأن تحيته تشمل جميع المخلوقات المرئية وغير المرئية، تشمل الملائكة وتشمل الصراصير.

قلت: لقد كنت أسمع بحبك للخمر، وهو شىء طبيعى بين قومنا وأهل بلدنا، فكيف استطعت أن تتخلص منها، أو كيف لم تقف الخمر حجابا بينك وبين الإسلام؟

قال: لقد ظننت فى بادئ الأمر أننى لن أستطيع النوم جيدا دون جرعة من الخمر فى دمى، ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تماما، فنظرا لأن جسمى لم يعد بحاجة إلى التخلص من الكحول، أصبح نبضى أثناء نومى أهدأ من ذى قبل.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: كنت فى جاهليتى الشخصية قبل اعتناقى الإسلام خبيرا بالخمور حتى إننى كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشة بمجرد تذوقها بطرف لسانى.

لقد وجدت مع ذلك أن التحريم القرآنى للخمر والمخدرات ليس ضرورة اجتماعية فحسب، وإنما هو أيضا منفعة شخصية للفرد، إذ يمكنه أن يكون متيقظا صافى الذهن دائما، ومن ثم، أنهيت هذه المرحلة من حياتى مرة واحدة، وإلى الأبد، فإن الإنسان، بفضل قدرته على التفكير وإعمال عقله، يفاخر بأنه أعظم المخلوقات. فنحن البشر نستطيع أن نمعن التفكير فى العالم من حولنا وفى أحوالنا، وأن نتصرف بحكمة، وهذه الصفات التى ترقى بنا، هى ذات الصفات التى ندمرها على نحو منتظم بتعاطى الخمور والمخدرات، ونحن بذلك نمتهن أنفسنا ونحط من قدرتنا داخل المنظومة الكونية، وننحدر بالتالى إلى مكانة أدنى من مكانة الحيوانات، التى لا يغيب عنها وعيها أبدا. فإدمان تعاطى الخمور والمخدرات نوع من التشويه الذهنى الذاتى. وكانت مديرة منزلى الصربية فى بلغراد مثالا منذرا لى، إذ كانت تعود دائما إلى إدمان الخمر، حتى بعد علاج لفترات طويلة.

إن مشهد مدمنى تعاطى الخمر مشهد مهين، يبعث على الاكتئاب، ويثير الشفقة، وكثيرا ما يقدم هؤلاء على الانتحار، وهم يعلمون حقيقة حالهم، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع عما هم فيه، لأن الخمر سلبتهم العزيمة والإرادة والقدرة على اتخاذ القرار. من النادر أن تجد عدد مدمنى الخمر فى المجتمع الأحدث فى المدن التركية الكبيرة أقل من عددهم فى ألمانيا. فهم يمسكون ـ من وقت الظهيرة ـ بكأس الراكيا فى يد، وبالسيجارة فى اليد الأخرى، مبرهنين بذلك على أنهم لم يعودوا سادة أنفسهم، وهم من الناحية الدينية، يمارسون بذلك نوعا من الشرك بالله، لأن الخمر ونيكوتين الدخان أهم عندهم من كل ما عداهما فى العالم بمن فى ذلك ربهم الذى خلقهم. فهم يستطيعون ـ فى ظنهم ـ أن يعيشوا بدونه، ولكن ليس بدون الراكيا.

يهدف القرآن من وراء التحريم المطلق للخمر إلى منع البدء فى تعاطيها، حيث لا يبدو ضارا فى حالة احتساء كأس واحدة. فالكأس الواحدة لا تبدو خطيرة فى الظاهر يمكن فى يوم ما أن تصبح كؤوسا عديدة، ومن المعتاد ألا يرى المدمن أنه معرض للخطر، وأن يقدم ما لا حصر له من الأعذار والحجج لتبرير اعتياده التدخين أو احتساء الخمر، فى هذا الوقت بصفة خاصة، ومن ذلك كون المدمنين سعداء أو تعساء، يعانون من ضغط العمل أو فى إجازة منه، جماعة أو فرادى، مرضى أو أصحاء، جوعى أو شبعى.

لقد واجهت كرئيس مسؤول هذه المشكلة، فكنت، عندما أنبه أحد العاملين معى حتى قبل احتسائه الخمر بيوم واحد، كنت أعد معتديا على حقه فى أن يعبر عن شخصيته بحرية (وأواجه بذلك مشكلة مع مستشار شؤون العاملين). ومع ذلك، كان مستشار شؤون العاملين نفسه يستطيع أن يتأكد فى اليوم التالى أن الموظف المعنى صار فى واقع الأمر مدمنا للخمر، ومن ثم، فإنه يعد رسميا من هذه اللحظة مريضا بإدمان الخمر.

قلت: ألا ترى تحريم الخمر سببا حائلا بين قومنا، وبين الإسلام؟

قال: هذا صحيح.. فالألماني قد ينادي بحق المرء في تعدد الزوجات إذا أراد، ولكنه من الصعب أن يتنازل عن الخمر.

قلت: ألا ترى الإسلام قاسيا بهذا النوع من التشريع؟.. أو أنه لم يلاحظ في هذا التشريع خصوصيات المناطق المختلفة التي قد تستدعي القول بإباحة الخمر؟

قال: إن ما تطرحه خطير جدا.. فالخمر هي الخمر.. فما يزال النساء والأطفال يتعرضون اليوم للضرب تحت تأثير الخمر.. بل تسقط الطائرات اليوم تحت تأثيره، وقد تسبب قائد إحدى الناقلات البحرية تحت تأثير الخمر في وقوع أسوأ كارثة بيئية حتى الآن.

وعلى الرغم من توفر إحصاءات عن حوادث الطرق وحوادث المصانع، فإنه لا يمكن تقدير الخسائر البشرية والمادية التي تصيب المجتمع الغربي بسبب إدمان الخمر والمخدرات. وفي بعض المستشفيات التركية، تتجاور أقسام علاج الإدمان وأقسام علاج الأمراض العقلية، لما ينطوي عليه ذلك من إنذار، إن عاجلا أو آجلا، هذا إذا ما دمر العقل قبل أن يتوقف الكبد عن أداء وظائفه.

لقد كنت واحدا من ضحايا حوادث المرور التي تقع تحت تأثير الخمر، ففي نهاية عام دراسي في كلية الاتحاد بشينيكتادي بولاية نيويورك، قمت بجولة في الولايات المتحدة الأميركية بطريقة الأوتوستوب (أي إيقاف السيارات والانتقال بها مجانا من موقع إلى آخر). وفي أثناء هذه الجولة، تعرضت يوم 28 من يوليو (تموز) عام 1951 لحادث سيئ بالقرب من هول سبرنجز بولاية مسيسيبي، فبينما كنا في طريقنا على الطريق السريع من أتلانتا بولاية جورجيا إلى ممفيس في ولاية مسيسيبي، ظهر أمامنا ونحن على مقربة من غايتنا شبح، ولا أتذكر شيئا عما حدث بعد ذلك. ولكني علمت في ما بعد أن هذا الشبح لم يكن سوى سيارة اصطدمت بنا، كان سائقها ومرافقه قد احتسيا كميات كبيرة من الخمر في تنيسي، التي تسمح باحتسائه أثناء القيادة، قبل أن يتوجها إلى مسيسيبي التي تمنع احتساءه أثناءها.

وقد تبين لي بوضوح أن ذراعي المصابة الآن، والتي كنت أضعها على وسادة المقعد الخلفية، قد وقتني مما هو أكثر، ومع ذلك، كانت خسارتي في هذا الحادث تسع عشرة من أسناني. وبعد انتهاء الجراح من خياطة ذقني وشفتي السفلى، سألني قائلا: إنه من الممكن إصلاح وجهي بعد سنوات عن طريق إجراء عملية تجميل، وأضاف قائلا: «إن مثل هذا الحادث لا ينجو منه في الواقع أحد، وإن الله يدخر لك يا عزيزي شيئا خاصا جدا».

وقد كنت أفكر في هذا الأمر، وأنا أتجول في هول سبرنجز بذراع مربوطة وضمادة تحيط بالذقن وفم مخيط، وكنت أفكر في ما أرفه به عن نفسي في يوم عيد ميلادي العشرين، ولكن كل شيء كان يؤلمني.. تناول الطعام أو الشراب، أو التنزه، أو الإجابة عن الأسئلة، وأخيرا

ذهبت لأقص شعرى، فهذا على الأقل لا يؤلم، ولم أدرك المغزى الحقيقى لنجاتى وبقائى على قيد الحياة إلا بعد ثلاثين سنة، عندما أشهرت اعتناقى للإسلام.

**مالكولم إكس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (مالكولم إكس)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان هذا الرجل زعيم الملونين الأمريكيين، وكان يُلقَّب قبل إسلامه بالشيطان و(أحمر ديترويت) إذ كان زعيما عنصريا متطرفا فى عداوته للبيض، ولكنه عدل عن هذا النهج بعد إسلامه.

قلت: فهل التقيته؟

قال: لا.. لم أتشرف بلقائه، ولكنى - عندما كنت فى أمريكا - قرأت رسالة له كانت أهم عندى وأعظم أثرا من أى لقاء.

قلت: فما كتب فى تلك الرسالة؟

قال: بعد رحلته للحج أرسل إلى أتباعه من مكة رسالة يقول فيها: (ما رأيت قط كرمًا أصيلاً، ولا روحًا غامرة من الأخوة كهذه التى تسود هنا بين الناس من كل لون وجنس، فى هذه الأرض المقدسة، وطن إبراهيم ومحمد... فها هنا عشرات الألوف من الحجاج قدموا من كل أنحاء العالم، ليؤدّوا المناسك نفسها بروح من الوحدة والأخوة، ما كنت أظن - بحكم خبراتى فى أمريكا - أنها يمكن أن تنشأ بين البيض والسود...

وإن أمريكا فى حاجة إلى أن تفهم الإسلام، لأنه هو الدين الوحيد الذى يمكن أن يمحو المشكلة العنصرية فى مجتمعها... لقد تقابلت مع مسلمين بيض وتحدثت معهم، بل تناولت الطعام معهم! ولكن النزعة العنصرية محاها من أذهانهم دين الإسلام..

إننا هنا نصلى لإله واحد، مع أخوة مسلمين لهم أعين زرقاء كأصفى ما تكون الزرقة، ولهم بشرة بيضاء كأنصع ما يكون البياض).

**اللورد هدلى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (اللورد هدلى)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل سليل الأسرة المالكة فى بريطانيا، وهو من أغنى البريطانيين، ومن أرفعهم حسبا، درس الهندسة فى كامبردج، وقد أسلم وأصدر مجلة (The Islamic Re-new)، وأصدر كتاب (إيقاظ العرب للإسلام) وكتاب (رجل غربى يصحو فيعتنق الإسلام)، وقد تسمى بعد إسلامه باسم (رحمة الله فاروق).

قلت: فحدثنى عنه.

قال: سأحدثك بما حدثنى به بعض من لقيه وعرفه خير معرفة، فقد ذكر لى أنه رغم مولده فى بيت مسيحى عريق، لم يشعر يومًا فى قرارة نفسه بإيمان صادق نحو المسيحية، بل

طالما راودته الشكوك فى صحة التعاليم التى تروج لها الكنيسة، والطقوس التى يمارسها آباء الكنيسة فى صلواتهم وأقداسهم، وطالما توقف بفكره عن أسرار الكنيسة السبعة.

إذ لم يستطع ـ وهو المثقف الواعى ـ أن يهضم فكرة أكل جسد المسيح أو شرب دمه، ولم يقتنع بفكرة الفداء التى هى من أسس عقيدة الكنيسة...

وشاء قَدَرُ الله أن يسافر إلى منطقة كشمير التى يدين أهلها بالإسلام، وذلك من أجل مشروعات هندسية، حيث كان يعمل ضابطًا فى الجيش البريطانى ومهندسًا...

وهناك أهدى إليه صديق ضابط بالجيش نسخة من المصحف الشريف حين لمس انبهاره بسلوكيات المسلمين، وكان هذا الإهداء بداية تعرفه الحقيقى على الإسلام، إذْ وجد فى كتاب الله ما يوافق طبيعة نفسه ويلائم روحه...

لقد وجد أن مفهوم الألوهية ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ يتوافق مع المنطق والفطرة، ويتميز ببساطة شديدة، كما لمس فى الدين الإسلامى سمة التسامح، وهى السمة التى لم ير لها وجودًا بين أهله من النصارى الذين عُرِفُوا بتعصبهم ضد الديانات الأخرى، بل ضد بعضهم بعضًا، فالكاثوليك يتعصبون ضد البروتستانت، وهؤلاء بدورهم يتعصبون ضد الأرثوذكس، الذين لا يقلون عن الطائفتين السابقتين تعصبًا ضدهما، فكل فريق يزعم أن مذهبه هو الحق وما عداه باطل، ويسوق فى سبيل ذلك من الحجج أسفارًا يناقض بعضُها بعضًا.

ولم يكن بوسع اللورد هدلى إلا أن يميل للإسلام بعد اطلاعه على ترجمة معانى القرآن الكريم، وما قرأه عن العقيدة الإسلامية، وأبطال الإسلام الأوائل الذين استطاعوا أن يصيروا أعظم قواد العالم، وبقوة عقيدتهم أسسوا حضارة عظيمة ازدهرت لقرون طويلة، فى وقت كانت أوروبا ترزح تحت وطأة الجهل وطُغيان البابوات والكرادلة.

كما وجد اللورد هدلى فى الشريعة الإسلامية وسيرة الرسول محمد ﷺ وصحابته ومن تلاهم من التابعين القدوة الحسنة التى تروى روحه العطشى للحق.

وبرغم اقتناع اللورد هدلى بالإسلام فقد ظل قرابة عشرين عامًا يكتم إسلامه لأسباب عائلية، حتى كتب له الله أن يعلنه على الملأ فى حفل للجمعية الإسلامية فى لندن..

ففى ذلك المحل صاح بصوت مرتفع قائلا: إننى بإعلانى إسلامى الآن لم أحِدْ مطلقًا عمًا اعتقدته منذ عشرين سنة، ولمّا دعتنى الجمعية الإسلامية لوليمتها سُرِرْتُ جدًا، لأتمكن من الذهاب إليهم وإخبارهم بالتصاقى الشديد بدينهم، وأنا لم أهتم بعمل أى شىء لإظهار نبذى لعلاقتى بالكنيسة الإنجليزية التى نشأت فى حجرها، كما أنى لم أحفل بالرسميات فى إعلان إسلامى، وإن كان هو الدين الذى أتمسك به الآن.

سكت قليلا، ثم قال: إن عدم تسامح المتمسكين بالمسيحية كان أكبر سبب فى خروجى عن جامعتهم، فإنك لا تسمع أحدًا من المسلمين يذم أحدًا من أتباع الأديان الأخرى، كما نسمع ذلك من النصارى بعضهم فى بعض.

نظر إلى الجمع الملتف به، والمشدوه لذلك الإعلان الخطير، ثم قال: إن طهارة الإسلام وسهولته وبُعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته، كانت كل هذه الأمور أكبر من أثَّرَ فى نفسى، وقد رأيت فى المسلمين من الاهتمام بدينهم والإخلاص له ما لم أرَ مثله بين النصارى، فإن المسيحى يحترم دينه ـ عادة ـ يوم الأحد، حتى إذا ما مضى يوم الأحد نسى دينه طول الأسبوع... وأما المسلم فبعكس ذلك، يحب دينه دائمًا، سواء عنده أكان هو الجمعة أو غيره، ولا يفتر لحظة عن التفكير فى كل عمل يكون فيه عبادة الله.

قلت: إن رجلا بهذا المحل من أهل بلده لا بد أن يكون لإسلامه تأثير كبير.

قال: أجل.. لقد كان لإسلامه أكبر الأثر فى تقوية نشاط المسلمين فى بريطانيا، إذْ لم تكد تمر أشهر قليلة على إعلان إسلامه حتى اقتفى أثره أكثر من أربعمائة بريطانى وبريطانية، بعد ما استرعى انتباههم ما تَحَدَّثَ به عن محاسن الإسلام، فأقبلوا على قراءة الكتب الإسلامية، ودخلوا فى دين الله أفواجًا.

قلت: ألم يصبه ما يصيب المسلمين الجدد من الأذى؟

قال: بلى.. لقد كان لإشهار إسلامه صَدىً واسعا فى بريطانيا للَّقَب الكبير الذى يحمله، ولكونه سياسيًا بارزًا، وعضواً قياديًّا فى مجلِس اللوردات، فقد انتقدته الصحف البريطانية، واتهمته فى صدق دينه مُحاولةً تفسير موضوع إشهار إسلامه بأنه لتحقيق مكسب رخيص، وهو أن يصبح ممثل المسلمين فى مجالس اللوردات وزعيمًا لهم.

وقد دفعته هذه التهمة إلى الرد عليها بمقال عنوانه (لماذا أسلمت؟) قال فيه: نحن ـ البريطانيين ـ تعودنا أن نفخر بحبنا للإنصاف والعدل، ولكن أى ظلم أعظم من أن نحكم ـ كما يفعل أكثرنا ـ بفساد الإسلام قبل أن نلم بشىء من عقائده، بل قبل أن نفهم معنى كلمة إسلام!؟

وقال فيه: (من المحتمل أن بعض أصدقائى يتوهم أن المسلمين هم الذين أثروا فىَّ، ولكن هذا الوهم لا حقيقة له، فإن اعتقاداتى الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيتُ فيه عدة سنين... ولا حاجة بى إلى القول بأنى مُلِئْتُ سروراً حينما وجدتُ نظرياتى ونتائجى متفقة تمام الاتفاق مع الدين الإسلامى).

ومن ردوده على هؤلاء ما نشرته مجلة (إسلاميك رفيو) حيث قال: (إن كل هذه المحاولات العقيمة والوسائل الدنيئة التى يقوم بها المُتَنَصِّرُونَ لتحقير شريعة النبى العظيم ﷺ، بالبذاءة وبالسفاسف لا تمسه بأذىً، ولا تغيّر عقيدة تابعيه قَيْدَ أنملة).

ورد على المبشرين قائلاً: (لا عَجَبَ أن يكذب المنصرون وقد افتروا على الله كذبًا. فكم تظاهر اللص بالأمانة والداعر بالاستقامة والزنديق بالتدين، ولكن لا عجَبَ، فقد غاض من وجوههم ماء الحياء، وقد قال نبى الإسلام ﷺ: «إذَا لَمْ تَسْتَحِ فاصنع ما شئْتَ». . فلو كانوا يستحيون من أنفسهم ـ أو على الأقل من الناس ـ لما أقدموا على هذا الادعاء الباطل، والافتراء الواضح).

سكت البابا قليلا، ثم قال: لقد حفظت من كلامه جواهر من الحكم سأعرضها عليك لتكتشف من خلالها سر اعتناقه للإسلام، وإخلاصه له:

لقد قال معبرا عن ساعة اعتناقه الإسلام: (لا ريب أن أسعد أيام حياتى هو اليوم الذى جاهرت فيه على رؤوس الأشهاد بأننى اتخذت الإسلام دينًا. . فإذا كنت قد ولدت مسيحيًا، فهذا لا يحتم علىّ أن أبقى كذلك طوال حياتى، فقد كنت لا أعرف كيف أستطيع أن أؤمن بالمبدأ القائل: إذا لم تأكل جسد المسيح، وتشرب دمه، فلن تنجو من عذاب جهنم الأبدى!

ويقول: (إننى بإسلامى أعتبر نفسى أقرب إلى المسيحية الحقة مما كنت من قبل، ومن يعادى المسيحية الحقة فلا أمل فيه. . .).

ويقول: (لم أولد في الخطيئة، ولست مولود سخط وغضب، ولا أحب أن أكون مع الخاطئين).

ويقول: (لقد تملك الإسلام لبى حقا، وأقنعنى نقاؤه، فأصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل).

ويقول: (بما أننا نحتاج إلى نموذج كامل ليفى بحاجاتنا فى خطوات الحياة، فحياة النبى تسد تلك الحاجة، فهى كمرآة نقية تعكس علينا الأخلاق التى تكون الإنسانية، ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة. .

خذ أى وجه من وجوه الآداب، تتأكد بأنك تجده موضحًا فى إحدى حوادث حياة الرسول ﷺ).

ويقول: (الإسلام هو الدين الذى يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة مدى الحياة! لا فى أيام الآحاد فقط. . . أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تنيره شمس النهار، وأخذ يستنشق هواء البحر النقى الخالص).

**اللادى ايفلين كوبولد:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (اللادى ايفلين كوبولد)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم نبيلة إنجليزية، اعتنقت الإسلام، وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وقد كتبت مذكراتها عن رحلتها تلك فى كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة)، والذى ترجم إلى العربية بعنوان (البحث عن الله).

قلت: فهل التقيت بها لتسألها عن سر إسلامها؟

قال: لا.. لم أتشرف بذلك.. ولكنى قرأت كتابها الذى ذكرت فيه رحلتها إلى الله، وتعرفها على الإسلام، وفيه يتجلى سر إسلامها.

قلت: فما الذى جذبها إلى الإسلام؟

قال: أول ما جذبها إليه القرآن الكريم.. فقد قالت فى بيان تأثيره فى الحضارة الإسلامية: (إن أثر القرآن فى كل هذا التقدم الحضارى الإسلامى لا ينكر، فالقرآن هو الذى دفع العرب إلى فتح العالم، ومكّنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانًا وحضارة)[1].

وذكرت موقف القرآن من العلم، وما فى القرآن من سبق علمى، فقالت: (وذكرتُ أيضًا ما جاء فى القرآن عن خلق العالم وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالاً عديدة)[2].

وذكرت تأثرها بأسلوب القرآن فى مواضع عديدة، فقالت: (الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفًا ولا تعريفًا، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها فى غيره من الكتب. ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأى مثقفى الفرنجة وكبار مفكريهم قال: (إذا لم يكن شعرًا، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه فى الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخًا ولا وصفًا، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين فى شىء قليل أو كثير، ولا خطبًا فلسفية كمحاورات أفلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالميًّا فى جملته، بعيد المعنى فى مختلف سوره وآياته، حتى إنه يردد فى كل الأصقاع، ويرتل فى كل بلد تشرق عليه الشمس)[3].

وقالت: (أشار الدكتور مارديل المستشرق الفرنسى الذى كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد فى كتاب غيره وسواه فقال: (أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا، ذلك أن الأسلوب الذى ينطوى عليه كنه الكائن الذى يصدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيًّا. والحق والواقع أن أكثر الكتّاب ارتيابًا وشكًّا قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره، وأن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين

---

(1) البحث عن الله، ص 51.

(2) البحث عن الله، ص 45.

(3) البحث عن الله، ص 111

على سطح المعمورة لبالغ الحدّ الذى جعل أجانب المبشرين يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن. ذلك أن هذا الأسلوب - الذى يفيض جزالة فى اتساق منسق متجانس - كان له الأثر العميق فى نفس كل سامع يفقه اللغة العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذى لا يثمر أن يحاول المرء نقل تأثير هذا النثر البديع الذى لم يسمع بمثله بلغة أخرى)[1].

وقالت: (الواقع أن للقرآن أسلوبًا عجيبًا يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فَحُسنُ تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله فى أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده.. قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلّ أن تجد فيها غريبًا، وهى مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا تُحِسُّ فيها لفظًا نابيًا عن أخيه، فإذا أضفت إلى ذلك سموّ معانيه أدركت بلاغته وإعجازه)[2].

بالإضافة إلى هذا، فقد ذكرت الثمرات العظيمة التى أنجزها محمد ﷺ والتى تبرهن على صدق الإسلام، وكونه من عند الله، فقالت: (كان العرب قبل محمد أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد بعث هذه الأمة بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً)[3].

وقالت: (هذه هى مدينة الرسول.. تعيد إلى نفسى ذكرى جهوده فى سبيل لا إله إلا الله، وتلقى فى روعى صبره على المكاره واحتماله للأذى فى سبيل الوحدانية الإلهية)[4].

وقالت: (لعمرى، ليجدن المرء فى نفسه، ما تقدم إلى قبر الرسول روعة ما يستطيع لها تفسيرًا، وهى روعة تملأ النفس اضطرابًا وذهولاً ورجاء وخوفًا وأملاً، ذلك أنه أمام نبى مرسل وعبقرى عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم.. إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحى بكل شىء فى الحياة فى سبيل الإنسانية وخير البشرية)[5].

وقالت: (لقد استطاع النبى القيام بالمعجزات والعجائب، لَمّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول الوحدانية الإلهية.. لقد وفّق إلى خلق العرب خلقًا جديدًا ونقلهم من الظلمات إلى النور)[6].

(1) البحث عن الله، ص 112.
(2) البحث عن الله، ص 113.
(3) البحث عن الله، ص 51.
(4) البحث عن الله، ص 39.
(5) البحث عن الله، ص 52.
(6) البحث عن الله، ص 66

وقالت: (مع أن محمدًا كان سيد الجزيرة العربية.. فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفيًا بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، كريمًا بارًّا كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلاً لا يكاد يكفيه)[1].

بالإضافة إلى هذا ذكرت إعجابها الشديد بالمنهج الإسلامي في العقيدة والشريعة والسلوك، واعتبرته من الأسباب الأولى لإسلامها، فقالت: (سألني كثيرون كيف ومتى أسلمت؟ وجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعيين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي فارتضيت الإسلام دينًا. ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريبًا إذا ما راح المرء يفكر بأن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه ولم يفرض عليه أبواه الدين الذي يعتنقانه فرضًا. ألم يصف أحد مشاهير النقاد في أوروبا: (بأنه دين العقل والإنسانية)[2].

وقالت: (الإسلام كلمة تعني التسليم لله، وهي تعني السلام أيضًا، ويعرف المسلم بأنه الرجل الذي يسير في حياته وفقًا لمشيئة خالقه وأوامره والذي يعيش بسلام مع الله وعباده. ولعل أجمل ما في الإسلام ما يضطرب فيه من وحدانية إلهية، وأخوة إنسانية، وخلوه عن التقاليد والبدع والتصاقه اللصوق كله بما في الحياة من أمور عملية.. والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبدًا)[3].

وقالت: (من فوائد الحج أنه يوطد الوحدة الإسلامية ويغذي الأخوة التي أنشأها محمد وهو يدعو المسلمين في كل عام مرة واحدة إلى التعارف والتقارب والتحدث فيما بينهم.. فالحج والحالة هذه ليس فرضًا دينيًا فحسب، وإنما هو إلى ذلك كله، جمعية أمم عظمى. ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الخطيرة الأستاذ سنوك هيروغرنجه المستشرق الهولندي فقال: (لقد سبق الإسلام الحكومات الأوروبية في التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقره من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع إلى الحج سبيلاً، ولعمري إن هذه الديمقراطية والأخوة التي أقرها الإسلام وجعلها عامة بين أتباعه لما يخجل الجماعات الأخرى التي لم تفطن لها ولا دعت إليها)[4].

وقالت: (من المعلوم أنه لا كهنوت في الإسلام، وليس هناك واسطة بين المسلم وربّه)[5].

---

(1) البحث عن الله، ص 67.

(2) البحث عن الله، ص 9.

(3) البحث عن الله، ص 12.

(4) البحث عن الله، ص 13.

(5) البحث عن الله، ص 13

وقالت: (إذا لم يكن فى الإسلام إلا هذه الأخوة التى قتلت التفرقة وجعلت من الإنسانية شخصًا واحدًا لا يعلو واحدها على رفيقه إلا بالتقوى والعمل الصالح، لكفى، ولكان الإسلام خير الأديان وأقربها إلى الله وأرفعها درجات. ولقد أشار المستر بيكتول الكاتب الإنجليزى، إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذة فى تاريخ الإنسانية، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعمّ الغرب من أقصاه إلى أقصاه ويفصل بين المرء وولده وشقيقه ونسيبه وجاره، وكيف أن الإسلام يقف وحيدًا فى هذه الظاهرة حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات)[1].

وقالت: (إن الإسلام دين حى، حى فى قلوب أتباعه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادت حيويته وقوى أمره وتبسط سلطانه وفشت دعوته ولولا ذلك لما أمكنه أن يعيش وأن يظل محتفظًا بقوته وتأثيره وحب أتباعه له)[2].

وقالت: (إن روحانية الإسلام قوية شديدة، فهى أبدًا تدفع المسلمين بعضهم إلى بعض وتجعل منهم قوة إنسانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مما لا يوجد مثله فى العالم الحاضر)[3].

وقالت: (الحق أقول: إن الحب عندنا وكما يفهمه الغربيون ما يزال قريبًا من الغريزة الجنسية، مقصورة دائرته أو تكاد، على ما تلهمه هذه الغريزة.. فأما المناطق العليا التى يرتفع الحب المهذب إليها، أما الحب بمعناه الإنسانى السامى.. الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقى النفسى إلى عالم الخير والجمال والحق فهذا ما لا يفكر به أحد أو يتصور وجوده إنسان، وهو إلى ذلك كله موجود فى الإسلام، منطوٍ فى هذه الأخوة الإسلامية التى تجعل من الفرد عبدًا يعمل لخير المجموع وفردًا قصارى همه أن يعمل للإحسان والإحسان أبدًا)[4].

وذكرت إعجابها بالتسامح الإسلامى، فقالت: (إن الإسلام لا يعرض لمعتنقى الأديان الأخرى بسوء وهو لا يحملهم على قبول دينه والنزول تحت شرعته.. كما أنه لم يحارب الذين لم يعتنقوا دينه، ولا عمل على قتلهم وحرقهم وتعذيبهم كما فعل غيره وسواه، وآية القرآن الكريم ظاهرة بينة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة][5].

وقالت: (هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل بيت المقدس فاتحًا ظافرًا.. أدركته الصلاة وكان فى داخل كنيسة القيامة، فخرج منها وصلى خارجها. ولما سأله البطريرك عن

(1) البحث عن الله، ص 13.
(2) البحث عن الله، ص 13.
(3) البحث عن الله، ص 13.
(4) البحث عن الله، ص 28.
(5) البحث عن الله، ص 93.

سبب ذلك قال له: أخشى أن يتخذ المسلمون بعدى من صلاتى هذه فى الكنيسة حجة لقلبها إلى مسجد فيخرقون المعاهدة بذلك.. وبذلك حفظ الفاروق للمسيحية كنيستهم الأولى)[1].

وقالت: (لما استرجع السلطان صلاح الدين بيت المقدس بعد معارك عديدة، وطرد الصليبيين من البلاد أظهر فى حروبه ومعاركه كل ألوان الرفق والرحمة والعطف والعفو عند المقدرة، وقد حفظ له كثير من كتاب الغرب هذه الصفات، ولم يتأخروا من المجاهرة بها والإقرار بأنه كان أشرف الأعداء وأطهر الفاتحين)[2].

وقالت: (مما يجدر ذكره أن صلاح الدين لما افتتح القدس وكانت أفعال الصليبيين الدامية بأهلها لا تزال ملء السمع والبصر، وأبى أن يعامل المغلوبين إلا بالحسنى والرفق، ورفض الانتقام من الذين أساءوا وأحرقوا ودمروا وزاد ندى فسمح لجميع المسيحيين بمغادرة المدينة تحت رعاية رجاله ومحافظة قواده)[3].

وذكرت إعجابها الشديد بالحضارة الإسلامية المبنية على القيم التى نشرها الإسلام بمصادره الأصلية، فقالت: (ليس من يجهل خدمات العرب للعلم والمعرفة فى أيام حضارتهم وعزّهم وكيف أنهم أنشأوا المدارس وعنوا بالمستشفيات، وعززوا المعارف وأجازوا أهل العلم والعرفان، وعملوا على نشر الكتب وترجمة المؤلفات فى كل الأقطار التى امتدت حضارتهم إليها واستقام حكمهم فيها حتى أصبحت بغداد فى عصرها الزاهر مدينة العلم والفلسفة، وأوروبا لا تزال حتى يومنا هذا مدينة للإسلام بهذه الشعلة العلمية التى حملها العرب فى أيام حضارتهم وحافظوا عليها كل المحافظة حتى أخذتها أوروبا منهم)[4].

وقالت: (جاء العرب إلى أوروبا ومعهم شعلة العلم فى ذلك الزمان الماضى، وهو ما يحملنا أن نبكى مصرع الأندلس لأن مصرعها كان ضربة على الحضارة الحديثة والعمران القديم)[5].

وقالت: (أصيب العالم والحضارة من سقوط العرب وانهيار سلطانهم بخسارة لا تعوض)[6].

وقالت: (اطلبوا العلم ولو فى الصين) هذه كلمة النبى العربى إلى المؤمنين، أوجب عليهم فيها طلب العلم من أقصى الأرض إلى أقصاها وهى كلمة ألقاها وأمر بها منذ مئات

---

(1) البحث عن الله، ص 94.
(2) البحث عن الله، ص 95.
(3) البحث عن الله، ص 96.
(4) البحث عن الله، ص 50
(5) البحث عن الله، ص 51
(6) البحث عن الله، ص 51

السنين.. ولكن العلم الأوروبى لم يتفهم خطورتها ولا اتبعها حتى القرن الثالث عشر وبعد سبعة قرون من صدورها)[1].

وقالت: (إن الإسلام كان يقف شعلة للمعرفة والعلوم.. ولقد عرف كلومبوس فى جامعات إسبانيا الإسلامية أن الأرض مدورة.. وكانت هذه الجامعات ترحب بطلاب المعرفة من اليهود والنصارى.. الذين انتظموا فيها ونالوا شهاداتها وتلقوا معارفها)[2].

قلت: ألم يصرفها عن الإسلام تلك الشبهات الكثيرة التى تثار حول موقف الإسلام من المرأة؟

قال: لقد كانت هذه المرأة الفاضلة صادقة فى بحثها عن الله، فلذلك هداها الله إلى التعرف عن كثب على حقيقة موقف الإسلام والمسلمين من المرأة، ومما ذكرته فى هذا قولها: (لم تكن النساء المسلمات متأخرات عن الرجال فى ميدان العلوم والمعارف فقد نشأ منهن عالمات فى الفلسفة والتاريخ والأدب والشعر وكل ألوان الحياة)[3].

وقالت: (لما جاء الإسلام ردّ للمرأة حرّياتها، فإذا هى قسيمة الرجل لها من الحق ما له وعليها ما عليه ولا فضل له عليها إلا بما يقوم به من قوة الجلد وبسطة اليد، واتساع الحيلة، فيلى رياستها فهو لذلك وليها يحوطها بقوّته ويذود عنها بدمه وينفق عليها من كسب يده، فأما فيما سوى ذلك فهما فى السرّاء والبأساء على السواء. ذلك ما أجمله الله بقوله عز وجل: ﴿ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة]، وهذه الدرجة هى الرعاية والحياطة لا يتجاوزها إلى قهر النفس وجحود الحق، وكما قرن الله سبحانه بينهما فى شؤون الحياة، قرن بينهما فى حسن التوبة وادخار الأجر وارتقاء الدرجات العليا فى الدنيا والآخرة. وإذا احتمل الرجل مشقات الحياة، ومتاعب العمل وتناثرت أوصاله، وتهدّم جسمه فى سبيل معاشه ومعاش زوجه فليس ذلك بزائد مثقال حبة عن المرأة إذا وفت لبيتها وأخلصت لزوجها وأحسنت القيام فى شأن دارها)[4].

وقالت: (كتبت اللادى مارى مونتكاد، زوجة السفير الإنجليزى فى تركيا إلى شقيقتها تقول: (يزعمون أن المرأة المسلمة فى استعباد وحجر معيب، وهو ما أودّ تكذيبه فإن مؤلفى الروايات فى أوروبا لا يحاولون الحقيقة ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أننى فى تركيا، وأننى اجتمعت إلى النساء المسلمات ما كان إلى ذلك سبيل، وأنى أستمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى، لذهبت أصدق ما يكتب هؤلاء الكتاب، ولكن ما رأيته يكذب

(1) البحث عن الله، ص 91.
(2) البحث عن الله، ص 92.
(3) البحث عن الله، ص 51.
(4) البحث عن الله، ص 81.

كل التكذيب أخبارهم، ولا أبالغ إذا قررت لك أن المرأة المسلمة وكمـا رأيتها فى الأستانة أكثر حرية من زميلاتها فى أوروبا ولـعلها المرأة الوحيدة التى لا تعنى بغير حياتهـا البيتية، ثم إنهن يعشن فى مقصورات جميلات ويستقبلن من يرد من الناس)[1].

وقالت: (إن جـهل النساء فى الإسلام أمـرٌ لا يتفق وأوامـر الرسول الكريم، فقـد أمر رسـول الله النسـاء بطلب الـعلم وحظر الإسلام الجـهل على المؤمنين به وشـدّد فى ذلك بما لا يدعو مجالاً للشبهة والتأويل)[2].

***

(1) البحث عن الله، ص 85.

(2) البحث عن الله، ص 86.

## ثالثا - الأدباء

فتحت دفتر البابا على فصله الثالث، فوجدت عنوانه (الأدباء)، فقلت: من تقصد بالأدباء؟

قال: أولئك الذين فتحت لهم خزائن الكلام، ونبعت لهم من منابع المشاعر عيون عبروا بها عما لم يطق غيرهم التعبير عنه.

قلت: فما الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم؟

قال: هؤلاء هم لسان البشر الذى يعبر عنهم.

قلت: ولكنهم قد يتيهون فى أودية الأمانى، كما قال عز وجل: ﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء]، وقد روى فى الحديث عن أبى سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْج، إذ عَرَض شاعر يُنشد، فقال النبى ﷺ: «خذوا الشيطان -أو امسكوا الشيطان -لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعراً»(1).

---

(1) رواه أحمد. . فهم البعض هذه النصوص فهما خاطئا، فراحوا يذمون الشعر ذما مطلقا، حتى حكى عن بعض الزهاد أنه كان لا يتمثل ببيت شعر، ولما سئل عن ذلك قال: لا أحب أن أرى فى صحيفتى يوم القيامة بيت شعر!

وهم يستدلون لهذا بأحاديث مكذوبة على رسول الله ﷺ منها (مَنْ قرض بيت شعر بعد العشاء لم تُقبَلْ له صلاة تلك الليلة)، وقد قال ابن كثير فى تخريجه: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يَروه أحد من أصحاب الكتب الستة.

أما الحديث الذى جاء عن النبى ﷺ فى ذم الشعر: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه خير له من أن يمتلئ شعرا) رواه البخارى فى باب الأدب، ومسلم فى باب الشعر.

فقد حمل على الشعر المشتمل على الفحش، أو على الوعيد على ما إذا غَلَبَ عليه الشعر، وملك نفسه؛ حتى اشتغل به عن القرآن والفقه فى الدين ونحوهما؛ ولذلك ذكر الامتلاء.

ويدل لهذا ما ذكره من لفظ (الامتلاء) الذى يعنى أن يشغل المالئ بشىء جميع أجزائه؛ حتى لا يكون فيها فضل لغيره.

وأورد مصطفى صادق الرافعى -رحمه الله- فى كتابه (إعجاز القرآن) قولا نسبه للرسول ﷺ وهو لما نشأت. . بُغِّضَتْ إِلَيَّ الأوثان، وبُغِّضَ إِلَيَّ الشعر. .

وهو قول لا أصل له، ولا سند بدليل ما ورد من سماع النبى ﷺ للشعر ومحبته له فى مواضع كثيرة، فقد أخرج البخارى فى (الأدب المفرد) عن عمر بن الشريد عن أبيه أنه قال: استنشدنى رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبى الصلت، فأنشدته؛ حتى أنشدته مائة قافية.

وذكر ابن كثير فى تفسيره أن بعض الصحابة أنشد النبى ﷺ مائة بيت، فكان ﷺ يقول عقب كل بيت: «هيه» يستزيده، فيزيده.

وقد قالت عائشة -رضى الله عنها-: «الشعر كلام. . فحسنه حسن، ورديئه ردىء، فخذ الحسن، واترك الردىء».

=

قال: وقد يصدقون، فيمتلئ غيرهم صدقا، وقد استثنى الله تعالى المؤمنين، فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء]، وقد ورد في الحديث أنه لما نزلت: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء]، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم قال: «أنتم» ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «أنتم»، ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال: «أنتم»[1].

وقد روى عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله، عز وجل، قد أنزل في الشّعر ما أنزل، فقال ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذى نفسى بيده، لكأن ما ترمونهم به نَضْح النبْل»[2].

قلت: أما إن قلت هذا، فقد كان في الإسلام شعراء كثيرون يمتلئون صدقا. وقد قدموا للإسلام أعظم ما يقدمه مسلم ناصح.

قال: ولذلك تراني قد بدأت بهم في هذا الدفتر.

**1 - شعراء من الصحابة:**

قلت: قد رأيت ذلك، وتعجبت منه، فكيف التقيت بابن رواحة، أو بحسان.

قال: لقد التقيت بشعرهم، وأعجبت به، ولاحظت فيه من الصدق ما لم أخظه في جميع أشعار الدنيا، فليس هناك من هو أحق بالمدح من رسول الله ﷺ.

**عبد الله بن رواحة:**

قلت: فلنبدأ بعبد الله بن رواحة، فإني أراه يستهل قائمة الشعراء في دفترك هذا.

قال: أجل.. فلي محبة خاصة لهذا الشاعر المحب الصادق.

= وقد ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني ثلاثة وجوه لذم الشعر؛ وهي:

الأول: أن يُذَمَّ الشعر من حيث المضمون. أي: من حيث ما يتضمنه من فُحش ونُبو عما تقتضيه الأخلاق.

الثاني: أن يُذَمَّ من حيث الوزن والقافية. وهذه ناحية صناعية.

الثالث: أن يُذَمَّ لاعتبارات تتصل بالشاعر.

ونحن في هذا الفصل كما في سائر الرسائل لا نعتبر إلا الأول، باعتبار الثاني يرجع إلى الصناعة، والثاني يرجع إلى شخصية الشاعر، لا إلى ما قاله، والمؤمن يستفيد الحكمة ولا يهمه من أي وعاء خرجت.

(1) رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من رواية ابن إسحاق، وقد شكك في صحة هذه الرواية باعتبار السورة مكية، وهؤلاء كانوا في المدينة، ومنهم من تأخر إسلامه، ولكن هذا ومثله لا يحمل على سبب النزول وإنما يحمل على التفسير، فهؤلاء الصحابة الشعراء طبقوا على أنفسهم المعنى السلبي للآيات، فصحح لهم رسول الله ﷺ ذلك.

(2) رواه أحمد

قلت: وكيف لا تحبه، وهو صحابى جليل حضر بيعتى العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق.

قال: وفوق ذلك كان أحد شعراء النبى الثلاثة، وكان بين يدى النبى ﷺ فى عمرة القضاء، وكان يقول:

خَلُّوا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيلِهِ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فنادى عليه عمر وقال له: فى حرم الله وبين يدى رسول الله تقول هذا الشعر؟ فقال له النبى ﷺ: «خَلِّ عنه يا عمر، فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وَقْعِ النبل»[1].

وقد أنشد ذات يوم من شعره بين يدى النبى ﷺ قوله:

إنِّى تَفَرَّسْتُ فيكَ الخَيْرَ أَعْرِفُهُ وَاللهُ يَعْرِفُ أنْ ما خَانَنِى الخَبَرُ
أَنْتَ النبى وَمَنْ يُحْرَمْ شَفَاعَتَهُ يَوْمَ الحِسَابِ لَقَدْ أَزْرَى بِهِ القَدَرُ
فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حُسْنٍ تَثْبِيتَ مُوسى وَنَصْرًا كَالذى نصَرُوا

فدعا له الرسول ﷺ قائلا: «وإياك فثبَّتَكَ الله»[2].

وكما نصر عبد الله الإسلام فى ميدان الكلمة، فقد نصره باقتدار فى ميدان الحرب والجهاد بشجاعته وفروسيته.

وفى شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، علم الرسول ﷺ أن الروم قد حشدوا جيوشهم استعدادًا للهجوم على المسلمين، فأرسل النبى ﷺ جيشًا إلى حدود الشام عدده ثلاثة آلاف مقاتل؛ ليؤمِّن الحدود الإسلامية من أطماع الروم، وجعل زيد بن حارثة أميرًا على الجيش، وقال لهم: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رَواحة».

فلما وصل جيش المسلمين إلى حدود الشام، علموا أن عدد جيش الروم مائتا ألف فارس، فقالوا: نكتب إلى النبى ليرسل إلينا مددًا من الرجال، أو يأمرنا أن نرجع أو أى أمر آخر، فقال لهم ابن رواحة: «يا قوم، والله إن التى تكرهون هى التى خرجتم تطلبون، إنها الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة».

فكبر المسلمون وواصلوا مسيرتهم حتى نزلوا قرية بالشام تسمى مؤتة، وفيها دارت الحرب، وقاتل المسلمون أعداءهم قتالاً شديدًا، وأخذ زيد بن حارثة يقاتل ومعه راية المسلمين، فاستشهد زيد، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب، وراح يقاتل فى شجاعة حتى

---

(1) رواه أبو يعلى.

(2) رواه ابن سعد.

استشهد، فأخذ عبد الله الراية، فأحس فى نفسه بعض التردد، ولكنه سرعان ما تشجع، وراح يقاتل فى شجاعة ويقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّه ... طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهِنَّه
فَطَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّة ... مَالِى أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّة
يَا نَفْسُ إلا تُقْتَلِى تَمُوتِى ... وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ
إِنْ تَفْعَلِى فِعْلَهُمَا هُدِيتِ ... وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شُقِيتِ

ونال عبد الله الشهادة، ولحق بصاحبيه زيد وجعفر.

وقد كان فوق هذا مثال المسلم الصادق، وقد أرسله النبى ﷺ إلى يهود خيبر؛ ليأخذ الخراج والجزية مما فى أراضيهم، فحاولوا إعطاءه رشوة؛ ليخفف عنهم الخراج، فقال لهم: يا أعداء الله، تطعمونى السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىَّ، ولأنتم أبغض إلىَّ من القردة والخنازير، ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على أن لا أعدل عليكم.

**حسان بن ثابت:**

كان الاسم الثانى فى دفتر البابا فى هذا الفصل هو اسم الشاعر المشهور (حسان بن ثابت) فطلبت من البابا أن يحدثنى عنه، فقال:

هو شاعر الرسول بلا منازع، وقد أخبرت عائشة - رضى الله عنها - أن النبى ﷺ كان يضع لحسان المنبر فى المسجد يقوم عليه قائمًا يهجو الذين كانوا يهجون النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ»[1].

وقد روى عن سعيد بن المسيب قال: مر عمر بحسان فى المسجد وهو ينشد فلحظ إليه فقال: كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبى هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت النبى ﷺ يقول: «أجب عنى اللهم أيده بروح القدس»[2].

ومن قصائده التى رثى بها رسول الله ﷺ[3]:

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمتحى الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادى الذى كان يصعد
وواضح آثار وباقى معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى فالآى منها تجدد

(1) رواه أبو داود.
(2) رواه البخارى ومسلم.
(3) هذه القصيدة والقصائد التالية من رواية ابن إسحق فى سيرة ابن هشام.

عرفت بها رسم الرسول وعهده     وقبرا بها واراه فى الترب ملحد
ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت     عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الرسول وما أرى     لها محصيا نفسى فنفسى تبلد
مفجعة قد شفها فقد أحمد     فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره     ولكن لنفسى بعد ما قد توجد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها     على طلل القبر الذى فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت     بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا     عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين     عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة     عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم     وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكى السموات يومه     ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوما رزية هالك     رزية يوم مات فيه محمد؟
تقطع فيه منزل الوحى عنهم     وقد كان ذا نور يغور وينجد
يدل على الرحمن من يقتدى به     وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا     معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم     وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله     فمن عنده تيسير ما يتشدد
فبينا هم فى نعمة الله بينهم     دليل به نهج الطريقة يقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى     حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثنى جناحه     إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
فبينا هم فى ذلك النور إذ غدا     إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فأصبح محمودا إلى الله راجعا     يبكيه حق المرسلات ويحمد
وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها     لغيبة ما كانت من الوحى تعهد
قفارا سوى معمورة اللحد ضافها     فقيد يبكينه بلاط وغرقد
ومسجده فالموحشات لفقده     خلاء له فيه مقام ومقعد
وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت     ديار وعرصات وربع ومولد
فبكى رسول الله يا عين عبرة     ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
وما لك لا تبكين ذا النعمة التى     على الناس منها سابغ يتغمد

فجودي عليه بالدموع وأعولي ... لفقد الذى لا مثله الدهر يوجد
وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة ... وأقرب منه نائلا لا ينكد
وأبذل منه للطريف وتالد ... إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم صيتا في البيوت إذا انتمى ... وأكرم جدا أبطحيا يسود
وأمنع ذروات وأثبت في العلا ... دعائم عز شاهقات تشيد
وأثبت فرعا في الفروع ومنبتا ... وعودا غذاه المزن فالعود أغيد
رباه وليدا فاستتم تمامه ... على أكرم الخيرات رب ممجد
تناهت وصاة المسلمين بكفه ... فلا العلم محبوس ولا الرأى يفند
أقول ولا يلقى لقولي عائب ... من الناس إلا عازب العقل مبعد
وليس هواى نازعا عن ثنائه ... لعلى به فى جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره ... وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

ما بال عينك لا تنام كأنما ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدى أصبح ثاويا ... يا خير من وطئ الحصى لا تبعد
وجهى يقيك الترب لهفى ليتنى ... غيبت قبلك فى بقيع الغرقد
بأبى وأمى من شهدت وفاته ... فى يوم الاثنين النبى المهتدى
فظللت بعد وفاته متبلدا ... متلددا يا ليتنى لم أولد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ... يا ليتنى صبحت سم الأسود
أو حل أمر الله فينا عاجلا ... فى روحة من يومنا أو من غد
محضا ضرائبه ... كريم المحتد
يا بكر آمنة المبارك بكرها ... ولدته محصنة بسعد الأسعد
نورا أضاء على البرية كلها ... من يهد للنور المبارك يهتدى
يا رب فاجمعنا معا ونبينا ... فى جنة تثنى عيون الحسد
فى جنة الفردوس فاكتبها لنا ... يا ذا الجلال وذا العلا والسودد
والله أسمع ما بقيت بهالك ... إلا بكيت على النبى محمد
يا ويح أنصار النبى ورهطه ... بعد المغيب فى سواء الملحد
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا ... سودا وجوههم كلون الإثمد
ولقد ولدناه وفينا قبره ... وفضول نعمته بنا لم نجحد

والله أكرمنا به وهدى به أنصاره في كل ساعة مشهد
صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

نب المساكين أن الخير فارقهم مع النبي تولى عنهم سحرا
من ذا الذي عنده رحلي وراحلتي ورزق أهلي إذا لم يؤنسوا المطرا
أم من نعاتب لا نخشى جنادعه إذا اللسان عتا في القول أو عثرا
كان الضياء وكان النور نتبعه بعد الإله وكان السمع والبصرا
فليتنا يوم واروه بملحده وغيبوه وألقوا فوقه المدرا
لم يترك الله منا بعده أحدا ولم يعش بعده أنثى ولا ذكرا
ذلت رقاب بني النجار كلهم وكان أمرا من أمر الله قد قدرا
واقتسم الفيء دون الناس كلهم وبددوه جهارا بينهم هدرا

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

آليت ما في جميع الناس مجتهدا مني ألية بر غير إفناد
تالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول نبي الأمة الهادي
ولا برا الله خلقا من بريته أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذي كان فينا يستضاء به مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد
أمسى نساؤك عطلن البيوت فما يضربن فوق قفا ستر بأوتاد
مثل الرواهب يلبسن المباذل قد أيقن بالبؤس بعد النعمة البادي
يا أفضل الناس إني كنت في نهر أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

**كعب بن زهير:**

من أسماء الصحابة الشعراء التي رأيتها في دفتر البابا اسم (كعب بن زهير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا كعب بن زهير، كان شاعرا فحلاً مجيداً، وهو صاحب البردة المعروفة، والتي يقول فيها:

بانَتْ سُعَادُ فقَلْبي اليومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لم يُجزَ مَكْبُولُ
وما سُعادَ غَداةَ البَيْنِ إذ عَرَضَتْ إلاَّ أغَنُّ غَضيضُ الطَّرفِ مكْحُولُ
وما تَدُومُ على العَهْدِ الذي زَعَمَتْ كما تَلَوَّنُ في أثْوَابِهَا الغُولُ
ولا تَمَسَّكُ بالودِّ الذي زَعَمَتْ إلاَّ كما تُمْسِكُ الماءَ الغَرَابِيلُ
كانَتْ مَوَاعيدُ عُرْقُوبٍ لها مَثَلاً وما مَوَاعِيدُهُ إلاَّ الأبَاطِيلُ

نُبِّـئْتُ أنَّ رَسُـولَ الله أوعـدَنى   والعَفْـوُ عِنْدَ رَسُولِ الله مَـبْذُولُ
مَـهْـلاً هداك الذى أعطاك نافلَةَ الْـ   ـقُرآنَ فـيـهـا مَـواعـيظٌ وتَفْـصـيلُ
لا تأخُـذنّى بـأقْـوالِ الوُشـاةِ ولم   أُذنِبْ ولَوْ كَـثُـرَتْ فِيَّ الأقـاوِيلُ

فلما بلغ قوله:

إنَّ الرَّسُـولَ لَنُورٌ يُسْـتَـضَـاءُ به   وصـارمٌ منْ سُيُـوفِ الله مَسْلُولُ
فى عُـصْبَةٍ مِنْ قُـرَيْشٍ قَـالَ قَـائلُهُمْ   بِبَطْنِ مكَّـةَ لَمَّـا أسْلَمُـوا زُولُوا
زَالُوا فـمـا زالَ أنْكَاسٌ ولا كُـشُفُ   يَوْمَ اللِّـقَـاءِ ولا سُـودٌ مَـعَـازِيلُ

نظر رسول الله ﷺ إلى من عنده من قريش، كأنه يومى إليهم أن يسمعوا، حتى قال:

يَمْشُونَ مَـشْىَ الجمالِ البُهْمِ يَعْـصِمُهُمْ   ضَـرْبٌ إذَا عَـرَّدَ السُّـودُ التَّنَابِيلُ

يعرض بالأنصار، لغلظتهم عليه، فأنكرت قريشٌ عليه وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم.
فقال:

مَنْ سَـرَّهُ شَرَفُ الحَـيَـاةِ فَـلا يَزَلْ   فى مِـقْنَبٍ من صـالحى الأنْصَـارِ
البَـاذلِيـنَ نُفُـوسَـهم لِنَبِـيِّـهِمْ   يَوْمَ الهِـيَـاجِ وسَطْوَةَ الجَـبَّـارِ
يَتَـطَهَّـرُونَ كـأنَّهُ نُسُكٌ لـهم   بدِمَـاءِ مَنْ عَـلِقُـوا مِـنَ الكُفَّـارِ

فكساه النبى ﷺ بردةً..

**2 - شعراء البردة:**

قلت: لقد ذكرتنى بالبردة..

قال: بردة البوصيرى!؟

قلت: أجل.. فالصبيان عندنا لا يزالون يحفظونها ويرددونها.

قال: بوركت تلك البردة، وبورك قائلها.. لقد فتحت فى سماء الشعر المحب لرسول الله ﷺ فتوحا عظيمة.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد سن البوصيرى فى الشعر سنة حميدة لا زلنا نحيا آثارها إلى اليوم، فقد وجه الشعر الذى تاه فيه الكثير فى أودية الأمانى نحو قبلة رسول الله ﷺ.

قلت: صدقت.. فلا زال للبردة ومن نهج نهجها آثار طيبة إلى اليوم.

**البوصيرى:**

قال: فلذلك ترانى وضعت البوصيرى فى قمة المادحين للنبى ﷺ.

قلت: لقد كان شاعرا فحلا.

قال: لم يكن شاعرا فقط، بل كان أمير شعراء المديح النبوى بلا منازع .. فقد وقف شعره على مدح النبى ﷺ[1]، وكان من ثمار مدائحه النبوية (بائياته الثلاث)، التى بدأ إحداها بلمحات تفيض عذوبة ورقة استهلها بقوله:

وافاكَ بالذنب العظيم المذنبُ ... خجلا يُعنفُ نفسَه ويُؤنِّبُ

ويستهل الثانية بقوله:

بمدح المصطفى تحيا القلوبُ ... وتُغتفرُ الخطايا والذنوبُ

أما الثالثة، وهى أجودها جميعًا، فيبدؤها بقوله:

أزمعوا البين وشدوا الركابا ... فاطلب الصبر وخلٍّ العتابا

وله عدد آخر من المدائح النبوية الجيدة، من أروعها قصيدته (الحائية)، التى يقول فيها مناجيا الله عز وجل:

يا من خزائن ملكه مملوءة ... كرمًا وبابُ عطائه مفتوح
ندعوك عن فقر إليك وحاجة ... ومجال فضلك للعباد فسيح
فاصفحْ عن العبد المسىء تكرُّمًا ... إن الكريم عن المسىء صفوح

وقصيدته الدالية التى يبدؤها بقوله:

إلهى على كل الأمور لك الحمد ... فليس لما أوليتَ من نعم حدُّ
لك الأمر من قبل الزمان وبعده ... وما لك قبل كالزمان ولا بعدْ
وحكمُك ماضٍ فى الخلائق نافذ ... إذا شئتَ أمرًا ليس من كونه بُدُّ

وله قصيدة أخرى على وزن (بانت سعاد)، ومطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغولُ ... وأنت عن كل ما قدمتَ مسئولْ؟!

قلت: ولكن تظل قصيدته التى يقول فيها:

أمِنْ تذكّر جيرانٍ بذى سلم ... مزجتَ دمعًا جرى من مقلة بدمْ؟
أم هبت الريحُ من تلقاء كاظمةٍ ... وأومضَ البرقُ فى الظلماء من إضَمْ؟
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا؟ ... وما لقلبك إن قلت استفق يهمْ؟

والتى سماها (الكواكب الدرية فى مدح خير البرية)، والمعروفة باسم (البردة) تظل من عيون شعره، بل من عيون الشعر العربى، ومن أروع قصائد المدائح النبوية.

(1) ترك البوصيرى عددًا كبيرًا من القصائد والأشعار ضمّها ديوانه الشعرى الذى حققه محمد سيد كيلانى، وطُبع بالقاهرة سنة (1374 هـ= 1955م)، وقصيدته الشهيرة البردة (الكواكب الدرية فى مدح خير البرية)، والقصيدة (المضرية فى مدح خير البرية)، والقصيدة (الخمرية)، وقصيدة (ذخر المعاد)، ولامية فى الرد على اليهود والنصارى بعنوان: (المخرج والمردود على النصارى واليهود)، وقد نشرها الشيخ أحمد فهمى محمد بالقاهرة سنة (1372 هـ= 1953م). وله أيضا (تهذيب الألفاظ العامية)، وقد طبع كذلك بالقاهرة.
وقد تُوفِّى البوصيرى بالإسكندرية سنة (695 هـ= 1295م) عن عمر بلغ 87 عامًا

وقد زاد فى جمالها أنها قصيدة طويلة تقع فى 160 بيتًا، كل بيت منها يمتلئ محبة وشوقا لرسول الله ﷺ، ويدل على الصدق العظيم الذى كانت تمتلئ به نفس صاحبها.

قال: ومن دلائل هذا الصدق أنه لم تلق قصيدة فى الدنيا ذلك الاهتمام الذى لقيته البردة حيث ولدت شعرا كثيرا فى مدح النبى ﷺ لا يزال مادة هامة للفن الإسلامى الرفيع.. فقد شطرت وخمست وسدست وسبعت:

فممن شطرها الإمام أحمد بن شرقاوى، كما فى قوله:

(أكــرم بخلق نبى زانه خلق) مولاه عظمه فى أفصح الكلم
وخصنا بنبى طاب محتده (بالحسن مشتمل بالبشر متسم)

وممن خمسها الإمام شمس الدين الفيومى، كما فى قوله:

كأنه البدر باد وسط هالته كأنه الغيث يرجى حسن حالته
كأنه الليث يخشى من بسالته (كأنه وهو فرد من جلالته)
(فى عسكر حين تلقاه وفى حشم)

وممن سدسها الأستاذ عباس الديب، كما فى قوله:

يا رب بالمصطفى عشنا نصائحه كيما يطهر ذو شوق جوارحه
مذ جئت للساح صبا كى أصالحه أصبحت فى الحب والأحباب صادحه
(ومنذ آلزمت أفكارى مدائحه وجدته لخلاصى خير ملتزم)

وممن سبعها الإمام القاضى البيضاوى صاحب التفسير، كما فى قوله:

الله منه إلينا الخير مستبق على لسان نبى وجهه طلق
فالشمس من نوره والبدر والفلق والجود من كفه فى الخلق مندفق
والمسك من ريحه فى الأفق يعتبق (أكــرم بخلق نبى زانه خلق)
(بالحسن مشتمل بالبشر متسم)

قلت: أفلا نتبرك بروايتها والاستماع إليها؟

قال: لا ينبغى أن نقصر فى ذلك.. وقد وفقنى الله فحفظتها عن ظهر قلب.

قلت: لقد بدأها بذكر حبه..

قال: أجل.. فقد قال فى بدايتها:

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ مَزَجْتَ دَمعا جرى من مُقلَةٍ بدَمِ
أم هبَّتِ الريحُ من تلقاء كاظمَةٍ وأومَضَ البرقُ فى الظَّلماء من إضَمِ
فما لعَينيك إن قُلتَ اكْفُفَا هَمَتَا وما لقلبكَ إن قلتَ استَفِقْ يهِمِ
أيحَسبُ الصَّبُّ أنَّ الحبَّ مُنكَتِمٌ ما بينَ مُنسَجِمٍ منه ومُضطرِمِ

لولا الهوى لم تُرِقْ دمعا على طَلَلٍ
ولا أرِقْتَ لذكر البان والعَلَمِ

فكيفَ تُنْكِرُ حبا بعدما شهدت
به عليك عُدولُ الدمع والسَّقَمِ

وأثبتَ الوَجْدُ خَطَّى عَبْرَةٍ وضَنًى
مثلَ البَهَارِ على خَدَّيك والعَنَمِ

نَعَم سرى طيفُ مَن أهوى فأرَّقَني
والحُبُّ يعترضُ اللذات بالألَمِ

يا لائمى فى الهوى العُذْرِيِّ مَعذرةً
منِّى إليك ولَو أنصفتَ لَم تَلُمِ

عَدَتْكَ حالي لا سِرِّى بمُسْتَتِر
عن الوُشَاة ولا دائى بمُنحَسِم

مَحَّضْتَنِي النُّصحَ لكنْ لَستُ أسمَعُه
إنَّ المُحِبَّ عَنِ العُذَّالِ فى صَمَمِ

قلت: لطالما سمعت هذه الأبيات وتعجبت منها.

قال: تتعجب من حديثه عن الحب فى بداية قصيدة يريد منها مدح نبيه ﷺ.

قلت: أجل.. وقد فعل مثل ذلك كعب بن زهير.. وقد قرأت تبريرات لذلك لم أستسغها.

قال: أما أنا.. فقد فتح الله على من الفهم فى ذلك ما عرفت به سر ذلك.

قلت: فبشرنى به.

قال: لقد رأيت ـ من خلال صحبتى الطويلة للمسلمين ـ أنهم صنفان:

أما أولهما.. فيمتلئون رقة وعذوبة.. وتمتلئ قلوبهم من المشاعر والمواجيد ما لا طاقة لهم بحبسه.

وأما ثانيهما.. فقد يمتلئون عقلا وحكمة.. ولكن عيونهم جامدة، وقلوبهم لا يكاد يحركها شىء.

قلت: لا أرى هذا خاصا بالمسلمين وحدهم.. فجميع البشر يدخلون ضمن هذين الصنفين.

قال: ولذلك ترى هؤلاء الشعراء يبدأون بذكر المحبة ليغلقوا الأبواب أمام الجامدين. وكأنهم يقولون لهم: هذه الكلمات لا يمكنكم أن تفهموها.. لأنكم لم تذوقوا ما ذقنا.. فدعونا وشأننا.

ابتسمت، وقلت: لقد تنبأ البوصيرى بما لاقت بردته من الإنكار إذن؟

قال: ألا تعلم أن الشاعر لم يسم شاعرا إلا بعد أن نال من الحس المرهف ما جعله يرى ما لا يرى غيره؟

قلت: صدقت فى هذا.. ولكنى لم أزل حائرا فى هذا المحبوب الذى بدأ البوصيرى يتغنى به.

قال: وهل هناك إلا محمد.. البوصيرى لا يتحدث إلا عن رسول الله ﷺ؟

قلت: البعض اعتبرها غزلا لا يختلف عن غزل المجنون.

قال: ولكن البوصيرى عاقل وليس مجنونا.. وما كان للعاقل أن يقع فى شباك الحب المدنس.

قلت: إن هؤلاء يدافعون على أنها من الغزل المرتبط بالنساء..

قال: فليفهموا ما يشاءون.. ولكن أخبرنى أيهما أقوم قيلا: من سمع هذه الأبيات فحركت قلبه شوقا لرسول الله ﷺ.. أم من سمع لهذه الأبيات، فراح يتصور الشاعر يناجى معشوقته ويشكو آلامه لها.

قلت: لاشك أن الفريق الأول أعقل بكثير من الفريق الثانى.

قال: فلا ترغب عن العقلاء إلى غيرهم.

قلت: بعد ذكر البوصيرى لمواجيده راح يتحدث عن النفس..

قاطعنى البابا، وقال: لأن النفس هى الحجاب الأعظم بين الأنا ومحمد.. اسمع ما يقول فى هذا:

إنى اتَّهَمْتُ نصيحَ الشَّيْبِ فى عَذَلى ... والشَّيْبُ أبعَدُ فى نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

فإنَّ أمَّارَتى بالسوءِ ما اتَّعَظَت ... من جهلِهَا بنذيرِ الشَّيْبِ والهَرَمِ

ولا أعَدَّتْ مِنَ الفعلِ الجميلِ قِرَى ... ضَيفٍ ألَمَّ برأسى غيرَ مُحتشمِ

لو كنتُ أعلمُ أنِّى ما أوَقِّرُهُ ... كتمتُ سرًّا بَدَا لى منه بالكَتَمِ

مَن لى بِرَدِّ جِمَاحٍ من غَوَايَتِهَا ... كما يُرَدُّ جِمَاحُ الخيلِ باللُّجُمِ

فلا تَرُمْ بالمعاصى كَسْرَ شهوتِهَا ... إنَّ الطعامَ يُقَوِّى شهوةَ النَّهِمِ

والنَّفسُ كالطِّفلِ إنْ تُهمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرَّضَاعِ وَإنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ

فاصرِف هواها وحاذِر أن تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهوى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ

وراعِهَا وهىَ فى الأعمالِ سائمَةٌ ... وإنْ هِىَ استَحْلَتِ المرعى فلا تُسِمِ

كَم حَسَّنَتْ لَذَّةً للمرءِ قاتِلَةً ... من حيثُ لم يَدْرِ أنَّ السُّمَّ فى الدَّسَمِ

واخْشَ الدَّسَائِسَ مِن جوعٍ ومِن شِبَعٍ ... فَرُبَّ مخمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

واستَفرِغِ الدمعَ مِن عينٍ قَدِ امتلأتْ ... مِنَ المَحَارِمِ والزَمْ حِميَةَ النَّدَمِ

وخالفِ النفسَ والشيطانَ واعصِهِمَا ... وإنْ هما مَحَّضَاكَ النُّصحَ فاتَّهِمِ

ولا تُطعْ منهما خصمًا ولا حَكَمًا ... فأنت تعرفُ كيدَ الخَصمِ والحَكَمِ

قلت: إن هذه الابيات تمتلئ توجيهات تربوية راقية؟

قال: أجل.. فالنفس التى تحب محمدا ﷺ ينبغى أن يكون لها من الطهارة ما تنال به شرف هذه الصحبة.

قلت: لست أدرى لم عقب الشاعر ذكره لمحبوبه بذكر النفس..

قال: لأن الحب هو أعظم الدوافع السلوكية

قلت: لم أفهم..

قال: من امتلأ قلبه بمحمد ﷺ سيمتلئ قلبه بحب الطهارة.. فإذا أحب الطهار اندفع للسلوك إليها.

قلت: الحب يفعل هذا.

قال: يفعل أكثر من هذا.. فالمحب لا يكل عن طاعة محبوبه.

قلت: بعد ذلك دخل الشاعر حضرة الحبيب..

قال: أجل.. بعد أن طهر أرض القلب بالحب.. وطهر أرض النفس بالدموع دخل على الحبيب..

قلت: لم كل هذا؟

قال: لأنه لا يمكن أن تدخل حضرة الحبيب.. وفى قلبك الأهواء المدنسة، وفى نفسك المستنقعات والمزابل.

قلت: وعيت هذا.. ووعيت من خلال الواقع خطره.

قال: وما خطره؟

قلت: رأيت أقواما من الناس.. عقولهم جامدة.. وقلوبهم خامدة.. ونفوسهم تمتلئ بالأوباء.. ثم يدخلون إلى سنة رسول الله ﷺ.. فلا يرون منها إلا ما يشوه جمال من استنوا بسنته.

قال: فأرشد هؤلاء إلى البوصيرى وأحفاد البوصيرى.

قلت: كيف أرشدهم إليه.. وهم يحملون سيوفهم عليه.

قال: فأنبئهم أن سنة رسول الله ﷺ تبدأ من الداخل.. فمن لم يزين باطنه بسنة الرحمة واللطف والمودة لم يظهر على ظاهره إلا الخراب.

قلت: صدقت.. وقد بلينا بالخراب الذى تتحدث عنه.. عد بنا إلى البردة.. وعد بنا إلى أجمل أبياتها.

قال: أجمل أبياتها هى الأبيات التى مدح فيها الحبيب ﷺ.. لقد قال فى ذلك:

ظَلَمتُ سُنَّةَ مَن أحيا الظلامَ إلى ... أن اشتكَتْ قدمَاهُ الضُّرَّ من وَرَمِ
وشَدَّ من سَغَبٍ أحشاءَهُ وطَوَى ... تحتَ الحجارةِ كَشْحاً مُترفَ الأَدَمِ
وراوَدَتْهُ الجبالُ الشُّمُّ من ذَهَبٍ ... عن نفسِه فأراها أيَّما شَمَمِ
وأكَّدَتْ زُهدَهُ فيها ضرورتُهُ ... إنَّ الضرورةَ لا تعدُو على العصَمِ

مُحمدٌ سيدُ الكونينِ والثقلَيْنِ ... والفريقينِ من عُربٍ ومن عَجَمِ
نبيُّنا الآمرُ النَّاهي فلا أحدٌ ... أبرَّ في قولِ لا منه ولا نَعَمِ
هُو الحبيبُ الذي تُرجَى شفاعَتُهُ ... لكلِّ هَولٍ من الأهوالِ مُقتَحَمِ
دَعَا إلى الله فالمُستَمسِكُون به ... مُستَمسِكُونَ بحبلٍ غيرِ مُنفَصِمِ
فاقَ النَّبيينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يُدانُوهُ في علمٍ ولا كَرَمِ
وكُلُّهُم من رسولِ الله مُلتَمِسٌ ... غَرفًا منَ البحرِ أو رَشفًا منَ الدِّيَمِ
وواقفُونَ لَديه عندَ حَدِّهِم ... من نُقطَةِ العلمِ أو من شكْلَةِ الحكَمِ
فهوَ الذي تَمَّ معناهُ وصورَتُهُ ... ثم اصطفاهُ حبيبًا بارئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عن شريكٍ في محاسنه ... فجوهر الحُسنِ فيه غيرُ منقسِمِ
دَع ما ادَّعَتهُ النصارى في نَبيِّهِمِ ... واحكُم بما شئتَ مَدحًا فيه واحتَكِمِ
وانسُبْ إلى ذاته ما شئتَ من شرف ... وانسُبْ إلى قَدْرِه ما شئتَ من عظَمِ
فإنَّ فَضلَ رسولِ الله ليس له ... حَدٌّ فَيُعرِبَ عنهُ ناطقٌ بفَمِ
لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عظَمًا ... أحيا اسمُهُ حين يُدعَى دارسَ الرِّمَمِ
لم يمتَحِنَّا بما تَعيَا العقولُ به ... حِرصًا علينا فلم نرتَبْ ولم نَهِمِ
أعيا الورى فَهمُ معناهُ فليس يُرَى ... في القُربِ والبُعدِ فيه غيرُ مُنفَحِمِ
كالشمسِ تظهَرُ للعينَيْنِ من بُعُدٍ ... صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ من أَمَمِ
وكيفَ يُدرِكُ في الدنيا حقيقَتَهُ ... قَومٌ نِيَامٌ تَسَلَّوا عنه بالحُلُمِ
فمَبلَغُ العلمِ فيه أنه بَشَرٌ ... وأنَّهُ خيرُ خلقِ الله كُلِّهِمِ
وكُلُّ آيٍ أتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بِهَا ... فإنما اتصَلَتْ من نورِه بِهِمِ
فإنَّهُ شمسُ فَضلٍ هُم كواكبُها ... يُظهِرْنَ أنوارَهَا للناسِ في الظُّلَمِ
أكرِمْ بخَلْقِ نبيٍ زانَهُ خُلُقٌ ... بالحُسنِ مشتَمِلٌ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ
كالزَّهرِ في تَرَفٍ والبدرِ في شَرَفٍ ... والبحرِ في كَرَمٍ والدهرِ في هِمَمِ
كأنَّهُ وهوَ فَردٌ من جلالَتِه ... في عسكرٍ حينَ تلقاهُ وفي حَشَمِ
كأنَّما اللؤلؤُ المكنُونُ في صَدَفٍ ... من مَعدِنَيْ مَنْطِقٍ منه ومبتَسَمِ
لا طيبَ يَعدِلُ تُربًا ضَمَّ أعظُمَهُ ... طوبى لمُنتَشِقٍ منه ومُلتَثِمِ
أبانَ مولدُهُ عن طيبِ عنصُرِه ... يا طيبَ مُبتَدَإٍ منه ومُختَتَمِ
يومٌ تَفَرَّسَ فيه الفُرسُ أنَّهُمُ ... قَد أُنذِرُوا بحُلُولِ البُؤسِ والنِّقَمِ
وباتَ إيوانُ كسرَى وهْوَ مُنصَدِعٌ ... كشَملِ أصحابِ كسرَى غيرَ مُلتَئِمِ
والنارُ خامدةُ الأنفاسِ من أسَفٍ ... عليه والنهرُ ساهي العَينِ من سَدَمِ

وساءَ ساوةَ أنْ غاضتْ بُحيرتُها ورُدَّ واردُها بالغيظِ حين ظمي

كأنَّ بالنارِ ما بالماءِ من بَلَلٍ حُزنًا وبالماءِ ما بالنارِ من ضرمِ

والجنُّ تهتفُ والأنوارُ ساطعةٌ والحقُّ يظهرُ من معنًى ومن كَلِمِ

عَمُوا وصَمُّوا فإعلانُ البشائرِ لم تُسمعْ وبارقةُ الإنذارِ لم تُشَمِ

من بعدِ ما أخبرَ الأقوامَ كاهنُهُم بأنَّ دينَهُمُ المعوجَّ لم يقُمِ

وبعدَ ما عاينُوا في الأفقِ من شُهُبٍ مُنقضَّةٍ وفقَ ما في الأرضِ من صنمِ

حتى غدا عن طريقِ الوحيِ منهزمٌ من الشياطينِ يقفو إثرَ منهزمِ

كأنَّهم هربًا أبطالُ أبرهةٍ أو عسكرٌ بالحصى من راحتيهِ رُمي

نبذًا به بعدَ تسبيحٍ ببطنهما نبذَ المُسبِّحِ من أحشاءِ ملتقمِ

جاءت لدعوتهِ الأشجارُ ساجدةً تمشي إليهِ على ساقٍ بلا قدمِ

كأنَّما سطرتْ سطرًا لمَا كتبتْ فروعُها من بديعِ الخطِّ في اللَّقمِ

مثلَ الغمامةِ أنَّى سارَ سائرةً تقيهِ حرَّ وطيسٍ للهجيرِ حمي

وما حوى الغارُ من خيرٍ ومن كرمٍ وكلُّ طرفٍ من الكفارِ عنه عمي

فالصدقُ في الغارِ والصدِّيقُ لم يرما وهم يقولونَ ما بالغارِ من أرمِ

ظنُّوا الحمامةَ وظنُّوا العنكبوتَ على خيرِ البريَّةِ لم تنسُجْ ولم تحُمِ

وقايةُ اللهِ أغنتْ عن مضاعفةٍ من الدُّروعِ وعن عالٍ من الأُطُمِ

ما سامني الدهرُ ضيمًا واستجرتُ به إلا ونلتُ جوارًا منه لم يُضَمِ

ولا التمستُ غنى الدارينِ من يدهِ إلا استلمتُ الندى من خيرِ مُستلَمِ

لا تُنكرِ الوحيَ من رؤياهُ إنَّ لهُ قلبًا إذا نامتِ العينانِ لم ينمِ

وذاكَ حينَ بلوغٍ من نبوَّتهِ فليسَ يُنكَرُ فيهِ حالُ مُحتلمِ

تباركَ اللهُ ما وحيٌ بمكتسبٍ ولا نبيٌّ على غيبٍ بمتَّهمِ

كم أبرأتْ وصِبًا باللمسِ راحتُهُ وأطلقتْ أربًا من ربقةِ اللممِ

وأحيتِ السنةَ الشهباءَ دعوتُهُ حتى حكتْ غُرَّةً في الأعصرِ الدُّهُمِ

بعارضٍ جادَ أو خلتَ البطاحَ بها سَيْبٌ من اليمِّ أو سَيْلٌ من العَرِمِ

دعني ووصفيَ آياتٍ له ظهرتْ ظهورَ نارِ القِرى ليلًا على عَلَمِ

فالدُّرُّ يزدادُ حُسنًا وهو منتظمٌ وليسَ ينقصُ قدرًا غيرَ منتظمِ

فما تطاولُ آمالُ المديحِ إلى ما فيهِ من كرمِ الأخلاقِ والشِّيَمِ

آياتُ حقٍّ من الرحمنِ مُحدثةٌ قديمةٌ صفةُ الموصوفِ بالقِدَمِ

لم تقترنْ بزمانٍ وهي تخبرُنا عنِ المعادِ وعن عادٍ وعن إرمِ

| | |
|---|---|
| دامَتْ لدينا ففاقَتْ كُلَّ مُعجزةٍ | منَ النَّبيينَ إذ جاءَتْ ولَم تدُمِ |
| مُحكَّماتٌ فما تُبقينَ من شُبَهٍ | لذى شِقَاقٍ وما تبغينَ من حكَمِ |
| ما حُورِبَت قطُّ إلا عادَ من حَرَبٍ | أعدَى الأعادى إليها مُلقِىَ السَّلَمِ |
| رَدَّتْ بلاغتُها دعوَى مُعارِضِها | رَدَّ الغيورِ يَدَ الجانى عَنِ الحُرَمِ |
| لها مَعانٍ كمَوجِ البحرِ فى مَدَدٍ | وفَوقَ جَوهرِهِ فى الحُسنِ والقِيَمِ |
| فَمَا تُعَدُّ ولا تُحصَى عجائبُها | ولا تُسامُ على الإكثارِ بالسَّأَمِ |
| قَرَّتْ بها عينُ قاريها فقُلتُ له | لقد ظَفِرتَ بحَبْلِ الله فاعتَصِمِ |
| كأنَّها الحوضُ تَبيَضُّ الوُجُوهُ به | مِنَ العُصَاةِ وقَد جاؤُوهُ كالحُمَمِ |
| وكالصِّراطِ وكالميزانِ مَعدِلَةً | فالقِسطُ من غيرِها فى الناسِ لم يَقُمِ |
| لا تَعجَبَنْ لحَسُودٍ راحَ يُنكِرُها | تجاهُلًا وهْوَ عينُ الحاذقِ الفَهِمِ |
| قد تُنكرُ العينُ ضَوءَ الشمسِ من رَمَدٍ | ويُنكرُ الفَمُ طعمَ الماءِ من سَقَمِ |
| يا خيرَ مَن يَمَّمَ العافُونَ ساحَتَهُ | سعيًا وفوقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ |
| ومَن هُوَ الآيةُ الكُبرَى لمُعتَبِرٍ | ومَن هُوَ النِّعمَةُ العُظمَى لمُغتَنِمِ |
| سَرَيتَ من حَرَمٍ ليلًا إلى حَرَمٍ | كما سَرَى البدرُ فى داجٍ مِنَ الظُّلَمِ |
| وبِتَّ ترقَى إلى أن نِلتَ منزلةً | من قابَ قوسَينِ لم تُدرَكْ ولَم تُرَمِ |
| وقَدَّمَتْكَ جميعُ الأنبياءِ بها | والرُّسْلِ تقديمَ مخدومٍ على خَدَمِ |
| وأنتَ تخترقُ السبعَ الطِّباقَ بهم | فى موكبٍ كُنتَ فيه صاحبَ العَلَمِ |
| حتى إذا لم تدعْ شأوًا لمُستَبِقٍ | منَ الدُّنُوِّ ولا مَرقًى لمُستَنِمِ |
| خَفَضْتَ كُلَّ مَقامٍ بالإضافةِ إذ | نُوديتَ بالرَّفعِ مثلَ المُفرَدِ العَلَمِ |
| كيما تَفُوزَ بوَصْلٍ أىِّ مُستَتِرٍ | عَنِ العُيُونِ وسِرٍّ أىِّ مُكتَتَمِ |
| فَحُزتَ كُلَّ فَخَارٍ غيرَ مُشتَرَكٍ | وجُزتَ كُلَّ مَقَامٍ غيرَ مُزدَحَمِ |
| وجَلَّ مِقدارُ ما وُلِّيتَ من رُتَبٍ | وعَزَّ إدراكُ ما أُولِيتَ من نِعَمِ |
| بُشرَى لنا مَعشَرَ الإسلامِ إنَّ لنا | منَ العنايةِ رُكنًا غيرَ منهَدِمِ |
| لمَّا دَعَى اللهُ داعينا لطاعَتِهِ | بأكرمِ الرُّسْلِ كُنَّا أكرمَ الأُمَمِ |
| راعَتْ قلوبَ العِدَا أنباءُ بِعثَتِهِ | كنَبأَةٍ أجفَلَتْ غُفلًا مِنَ الغَنَمِ |
| ما زالَ يلقاهُمُ فى كُلِّ مُعتَرَكٍ | حتى حكَوا بالقَنَا لَحمًا على وَضَمِ |
| ودُّوا الفِرارَ فكادُوا يَغبِطُونَ به | أشلاءَ شالَتْ معَ العُقبانِ والرَّخَمِ |
| تمضى الليالى ولا يدرُونَ عِدَّتَها | ما لم تكُن من ليالى الأشهُرِ الحُرُمِ |
| كأنَّما الدِّينُ ضَيفٌ حَلَّ ساحتَهُم | بكُلِّ قَرمٍ إلى لَحمِ العِدا قَرِمِ |

يَجُرُّ بحرَ خميسٍ فوقَ سابحةٍ يرمي بموجٍ من الأبطال ملتطمِ
من كُلِّ منتدبٍ لله محتسبٍ يسطو بمستأصلٍ للكفرِ مصطلمِ
حتى غدتْ ملّةُ الإسلامِ وهي بهم من بعدِ غربتِها موصولةَ الرَّحمِ
مكفولةً أبدًا منهم بخيرِ أبٍ وخيرِ بَعلٍ فلم تَيْتَمْ ولم تئمِ
هُمُ الجبالُ فسَلْ عنهم مُصادمَهم ماذا لَقي منهم في كُلِّ مصطدَمِ
وسَلْ حُنَيْنًا وسَلْ بَدْرًا وسَلْ أُحُدًا فُصولُ حتْفٍ لهم أدهى من الوَخَمِ
المُصدِري البيضِ حُمرًا بعد ما وردَتْ منَ العدا كُلَّ مُسْوَدٍّ من اللِّمَمِ
والكاتبينَ بسُمرِ الخطِّ ما تركَتْ أقلامُهُمْ حَرفَ جسمٍ غيرَ مُنعجمِ
شاكي السلاحِ لهم سِيمَى تُميِّزُهُم والوَرْدُ يمتازُ بالسِّيمَى عن السَّلَمِ
تُهدي إليكَ رياحُ النَّصرِ نَشْرَهُمُ فتحسبُ الزَّهرَ في الأكمامِ كُلَّ كمِي
كأنَّهُم في ظُهورِ الخيلِ نَبْتُ رُبًا من شدَّةِ الحَزْمِ لا من شدَّةِ الحُزُمِ
طارتْ قلوبُ العدا من بأسِهم فَرَقًا فما تُفَرِّقُ بين البَهْمِ والبُهَمِ
ومَن تَكُن برسولِ اللهِ نُصرتُهُ إن تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامِها تجمِ
ولَن ترى من وليٍّ غيرَ منتصرٍ به ولا من عدوٍّ غيرَ مُنعجمِ
أحلَّ أُمَّتَهُ في حِرزِ مِلَّتِه كاللَّيْثِ حلَّ معَ الأشبالِ في أجَمِ
كم جدَّلَتْ كلماتُ اللهِ من جَدَلٍ فيه وكم خصَمَ البُرهانُ من خصِمِ
كفاكَ بالعلمِ في الأُمِّيِّ مُعجزةً في الجاهليةِ والتأديبَ في اليُتُمِ

قلت: إن هذه الأبيات تختزن محبة عظيمة لرسول الله ﷺ . .

قال: لقد رأى صاحبها الناس يتهافتون على حفظ المتون التى تملؤهم فقها ونحوا وبلاغة. . فوضع لهم متنا يملؤهم محبة وتقديرا وأشواقا.

قلت: ولكن هناك من يجادل فى كثير مما ذكرت. . فيعتبر هذا الثناء العطر على رسول الله ﷺ شركا. .

قال: أين الشرك؟

قلت: إن البوصيرى يقول ـ مثلا ـ:

وانسُبْ إلى ذاتِه ما شئتَ من شرفٍ وانسُبْ إلى قَدْرِه ما شئتَ من عظَمِ
فإنَّ فضلَ رسولِ اللهِ ليس له حَدٌّ فيُعرِبَ عنهُ ناطقٌ بفَمِ
لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَمًا أحيا اسمُهُ حين يُدعَى دارِسَ الرِّمَمِ

قال: هذه أبيات رقيقة، تمتلئ تقديرا لرسول الله ﷺ.

قلت: لقد ذكروا أن الله عز وجل هو المحيي المميت.. واعتبار اسم محمد محييا ـ ولو من باب الافتراض ـ شرك.

قال. ألم يقرأ هؤلاء ما قاله عز وجل فى حق رسول الله ﷺ.. فقد قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ... ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال].

قلت: لكأنى أسمع هذه الآية أول مرة.. لقد اعتبر رسول الله ﷺ محييا.. كيف غربت عنهم هذه الآية.

قال: لأنهم مهووسون بالشرك.. هم يتصورون الله كما يتصور ملوكهم رعيتهم.. فلمث يقبح صورة كل من مدحه الناس، أو توجهت له القلوب، خشية على كرسيه أن يسلب منه.

قلت: صدقت.. بل إنهم يرسمون لله صورة لا تختلف عن صورة الملوك والأمراء.

قال: لا تذكر لى أحاديث هؤلاء.. ودعنا فى حضرة محمد ﷺ.. فلا ينبغى لمن أنعم الله عليه بالدخول إلى حضرته أن يزيغ بصره أو أن يطغى.

قلت: فأكمل لى ذكر ما بقى من أبيات البردة.

قال: فى باقى أبيات البردة جلس الشاعر أمام الحبيب، وراح يشكو إليه همومه وآلامه.. وحينها راحت تتنازعه حاجات شتى عبر عنها بقوله:

خَدَمْتُهُ بمديحٍ أستَقِيلُ بِهِ ... ذُنوبَ عُمْرٍ مَضَى فى الشِّعرِ والخِدَمِ
إذ قَلَّدَانِيَ ما تُخشَى عواقبُهُ ... كأنني بِهِما هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ
أَطَعتُ غَيَّ الصِّبَا فى الحالَتَيْنِ وما ... حَصَلْتُ إلا على الآثامِ والنَّدَمِ
فيا خَسَارَةَ نَفْسٍ فى تِجَارَتِهَا ... لَم تَشْتَرِ الدِّينَ بالدنيا ولم تَسُمِ
ومَن يَبِعْ آجِلاً منه بعاجِلِهِ ... يبِنْ له الغَبْنُ فى بَيْعٍ وفى سَلَمِ
إنْ آتِ ذَنْبًا فما عَهدِى بمُنتَقِضٍ ... منَ النَّبِيِّ ولا حَبلِى بمُنصَرِمِ
فإنَّ لى ذِمَّةً منه بتَسمِيَتِى ... مُحَمَّدًا وهُوَ أوفَى الخلقِ بالذِّمَمِ
إنْ لَم يكُن فى مَعَادِى آخِذًا بِيَدى ... فَضْلا والا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ
حاشاهُ أنْ يَحْرِمَ الرَّاجِى مكارِمَهُ ... أو يَرجِعَ الجارُ منه غيرَ مُحتَرَمِ
ومُنذُ أَلزَمْتُ أفكَارِى مَدَائِحَهُ ... وجَدْتُهُ لِخَلاصِى خيرَ مُلتَزِمِ
ولَن يَفُوتَ الغِنَى منه يَدًا تَرِبَتْ ... إنَّ الحَيَا يُنبِتُ الأزهارَ فى الأكَمِ
ولَم أُرِدْ زَهرَةَ الدنيا التى اقتَطَفَتْ ... يَدَا زُهَيْرٍ بما أثنَى على هَرِمِ
يا أكرَمَ الخلقِ ما لى مَن ألوذُ به ... سِوَاكَ عندَ حُلُولِ الحادثِ العَمِمِ
ولَن يَضِيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بى ... إذا الكريمُ تَجَلَّى باسمِ مُنتَقِمِ

يـا نَفْـسُ لا تَـقنَـطـى من زَلَّـةٍ عَـظُمَـتْ … إنَّ الكَبَـائـرَ فى الغُــفــرَانِ كــالَّـلمَمِ
لعَلَّ رَحـمَـةَ ربِّى حـينَ يَقـسِـمُـهَـا … تَأتِى على حَسَبِ العِـصيَـانِ فى القِسَمِ
يا رَبِّ واجـعَلْ رجـائى غـيـرَ مُـنعكسٍ … لَدَيْكَ واجعلْ حِـسَابـى غـيـرَ مُنخَـرِمِ
والطُـفْ بعَـبـدِكَ فى الدَّارَيـنِ إنَّ لَهُ … صَـبـرًا مَـتَى تَدعُـهُ الأهوالُ ينهَـزِمِ
وائذَنْ لسُـحْبِ صـلاة منك دائمَـةٍ … عـلى الـنبىِّ بِمُنْهَـلٍ ومُنسَـجِـم
مـا رنَّحَتْ عَـذَبَات البَـانِ رِيحُ صَبَـا … وأطرَبَ العِـيسَ حـادى العِـيسِ بـالنَّغَمِ
ثُمَّ الرِّضَـا عَن أبى بكرٍ وعَـن عُـمَـرَ … وعَن علَى وعَن عـثـمـانَ ذى الكَرَمِ
والآلِ والصَّـحبِ ثُمَّ التَّـابعِـينَ فَـهُمْ … أهلُ الـتُّـقَى والـنَّقَى والحِلْمِ والـكَرَمِ

قلت: هذه أبيات تنم عن حب عظيم لرسول الله ﷺ وتقدير عظيم له.

قال: ذلك لا يستغرب من الصالحين.. فلن يصير الصالح صالحا حتى يملأ عليه رسول الله ﷺ شغاف قلبه.

قلت: ولكن المجادلين يجادلون فى أبيات كثيرة مما ذكرت.. فهم ـ مثلا ـ يجادلون فى قوله:

إنْ لم يكُن فى مَعَادِى آخِذًا بِيَدِى … فَضْـلا وإلا فَقُـلْ يا زَلَّةَ القَـدَمِ

ابتسم، وقال: ويعتبرون ذلك شركا!؟

قلت: أجل.. أليس ذلك شركا؟

قال: ما يقول هؤلاء فى منكر الشفاعة؟

قلت: هم يبدعونه.. بل قد يكفرونه.

قال: ففى الشفاعة لا يأخذ رسول الله ﷺ بيد الشاعر فقط.. بل يأخذ بيد البشر جميعا[1]، فيسأل الله عز وجل فى الموقف الذى يقف فيه الكل.. وهو يأخذ بعد ذلك بيد كل محب لينال من بركات محبته ما لم يكن يحلم به[2].

**ابن جابر الأندلسى:**

سكت البابا قليلا، فقلت: لقد تحدثنا عن صاحب البردة الشريفة.. فلنتحدث عمن نهج نهجها.

قال: كثيرون هم..

قلت: سمعت أن من بينهم ابن جابر الأندلسى المتوفى سنة 780هـ.

قال: أجل.. فله قصيدة رائعة يقول فيها:

---

(1) هذا فى الشفاعة العظمى.

(2) ذكرنا أسرار الشفاعة، وعلاقتها بالتوحيد والعدالة والحكمة فى رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (رسائل السلام).

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم ... وانشر له المدح وانشر أطيب الكلم
وابذل دموعك واعذل كل مصطبر ... والحق بمن سار والحظ ما على العلم
سنا نبيٍّ أبى أن يضيعنا ... سليل مجد سليم العرض محترم
جميل خلق على حق جزيل ندىً ... هدى وفاض ندى كفيه كالديم
كفَّ العداة وكدَّ الحادثات كفى ... فكم جرى من جدا كفيه من نعم
وكم حبا وعلى المستضعفين حنا ... وكم صفا وصفا جوداً لجبرهم
ما فاه في فضحه من فاء ليس سوى ... عدل بعدل ونصح غير متهم
حان على كلِّ جان حاب إن قصدوا ... حام شفى من شقا جهل ومن عدم
ليث الشرى إذ سرى مولاه صار له ... جاراً فجاز ونيلاً منه لم يرم
كافي الأرامل والأيتام كافلهم ... وافي الندى لموافي ذلك الحرم
أجار من كلِّ من قد جار حين أتى ... حتى أتاح لنا عزا فلم نضم
وعام بدر أعام الخيل في دمهم ... حتى أبات أبا جهل على ندم
وحاق إذ جحدوا حقَّ الرسول بهم ... كبير هم أراهم نزع هامهم
فهدَّ آطام من قد هاد إذ طمعوا ... في شته فرماهم في شتاتهم
وجلَّ عن فضح من أخفى فجاملهم ... ما ردَّ رائد رفد من جناتهم
من زاره يقه أوزاره ونوى ... له نوافل بذل غير منصرم
كالغيث فاض إذ المحل استفاض تلا ... أنفال جود تلافى تالف النسم
سل منهم صلةً للصبِّ واصلةً ... والثم أنامل أقوام أنا بهم
أقم إلى قصدهم سوق السرى ... وأقم بدار عز وسوق الأينق التشم
عج بي عليهم فعجبي من جفاء فتىً ... جاز الديار ولم يلمم بربعهم
دع عنك سلمى وسل ما بالعقيق جرى ... وأمَّ سلعا وسل عن أهله القدم
من لي بدار كرام في البدار لها ... عزٌّ فمن قد لها عن ذاك يهتضم
بانوا فهان دمي وجداً فها ندمي ... فقد أراق دمي فيما أرى قدمي
يولون ما لهم من قد لجا لهم ... فاشدد يداً بهم وانزل ببابهم
يا برد قلبي إذا برد الوصال صفا ... ويا لهيب فؤادي بعد بعدهم
ما كان منع دمي بخلاً به لهم ... لكن تخوفت قبل القرب من عدم
أهلاً بها من دماء فيهم بذلت ... وحبذا ورد ماء من مياههم
من ناله جاههم منا له ثقةٌ ... أن لا يصاب بضيم تحت جاههم
بدار والحق بدار الهاشميِّ بنا ... قبل الممات ومهما اسطعت فاغتنم

جَزمى لَئن سارَ رَكبٌ لا أُرافقُهُ ... فلا أُفارِقُ مَزجى أدمُعى بدَمى
فَأىُّ كَربٍ لِركبٍ يُبصرونَ سَنا ... بَرقٍ لقَبرٍ مَتى تَبلُغهُ تُحتَرمِ
مَتى أحُلُّ حِمى قَومٍ يُحِبُّهُمُ ... قَلبى وكَم هائمٍ قَبلى بِحُبِّهِم
جارَ الزَمانُ فَكَفّوا جَورَهُ وكَفوا ... وهَل أُضامُ لَدى عُربٍ عَلى إضَمِ
وحَقِّهِم ما نَسينا عَهدَ حُبِّهِم ... ولا طَلَبنا سِواهُم لا وحَقِّهِم
لا يَنقَضى ألَمى حَتّى أرى بَلَدًا ... فيهِ الّذى ريقُهُ يَشفى مِنَ الألَمِ
وقَد تَشَمَّرَ ثَوبُ النَقعِ عَن أُمَمٍ ... شَتّى يؤمّونَ طُرا سَيِّدَ الأُمَمِ
مَتى أرى جارَ قَومٍ عَزَّ جارُهُمُ ... عَهدٌ عَلَىَّ السُرى حِفظًا لعَهدِهِم
صَبُّ الدُموعِ كَأمثالِ العَقيقِ عَلى ... وادى العَقيقِ اشتياقًا حَقُّ صَبِّهِم
أبحَثُ فيهِم دَمى لِلشَّوقِ يَمزُجُهُ ... بِماءِ دَمعى عَلى خَدّى وقُلتُ دُمِ
ولَيسَ يَكثُرُ إن آثَرتُ نَضخَ دَمى ... حَيثُ المُلوكُ تَغُضُّ الطَرفَ كالخَدَمِ
مِن سائِلِ الدَمعِ سالَ عَن مَعاهِدِهِ ... نَعيمُهُ أن يُرى يَسرى مَعَ النَعَمِ
لِلسَّيرِ مُبتَدِرٍ كالسَّيلِ مُحتَفِرٍ ... كالطَّيرِ مُشتَمِلٍ باللَيلِ مُلتَثِمِ
قَصدًا لمُرتَقَبٍ لِلَّهِ مُنتَصِرٍ ... فى الحَقِّ مُجتَهِدٍ لِلرُّسلِ مُختَتِمِ
مَن لى بِمُستَسلِمٍ لِلبيدِ مُعتَصِمٍ ... بالعيسِ لا مُستَئِمٍ يَومًا ولا سَئِمِ
لِلبَرِّ مُقتَحِمٍ لِلبِرِّ مُلتَزِمٍ ... لِلقُربِ مُغتَنِمٍ لِلتُّربِ مُلتَثِمِ
يَسرى إلى بَلَدٍ ما ضاقَ عَن أحَدٍ ... كَم حَلَّ مِن كَرَمٍ فى ذلكَ الحَرَمِ
دارٌ شَفيعُ الوَرى فيها لمُعتَصِمٍ ... جارٌ رَفيعُ الذُرا ناه لمُجتَرِمِ
فَهَجرُ رَبعى لِذاكَ الرَبعِ مُغتَنَمى ... ونَشرُ جَمعى لِذاكَ الجَمعِ مُعتَصَمى
ومَيلُ سَمعى لِنَيلِ القُربِ مِن شِيَمى ... وسَيلُ دَمعى بِذَيلِ التُّربِ كالدِّيَمِ
يَقولُ صَحبى وسُفنُ العيسِ خائِضَةٌ ... بَحرَ السَّرابِ وعَينُ القَيظِ لَم تَنَمِ
يَمِّم بِنا البَحرَ إنَّ الرَكبَ فى ظَمَأ ... فَقُلتُ سيروا فَهَذا البَحرُ مِن أمَمِ
وافٍ كَريمٌ رَحيمٌ قَد وَفى ووَقى ... وعَمَّ نَفعًا فكَم ضُرٍّ شَفى وكَم
فَقُم بِنا فَلكَم فَقرٍ كَفى كَرَمًا ... وجودُ تِلكَ الأيادى قَد صَفا فَقُمِ
ذو مِرَّةٍ فاستَوى حَتّى دَنا فَرَأى ... وقيلَ سَل تُعطَ قَد خُيِّرتَ فاحتَكِمِ
وكانَ آدَمُ إذ كانَت نُبُوَّتُهُ ... ما بَينَ ماءٍ وطينٍ غَيرَ مُلتَئِمِ
صافِح ثَراهُ وقُل إن جِئتَ مُستَلِمًا ... إنّا مُحَيّوكَ مِن رَبعٍ لمُستَلِمِ
قَد أقسَمَ اللَّهُ فى الذِّكرِ الحَكيمِ بِهِ ... فَقالَ والنَجمِ هذا أوفَرُ القَسَمِ
ما بَينَ مِنبَرِهِ السّامى وحُجرَتِهِ ... رَوضٌ مِنَ الخُلدِ نَقلٌ غَيرُ مُتَّهَمِ

مُهنّدٌ من سُيوفِ اللَّه سُلَّ على ... عِداه نورٌ به إرشادُ كُلِّ عَمِ
إنَّ الَّذي قال يُستسقى الغمامُ به ... لَو عاشَ أبصرَ ما قد عَدَّ من شِيَمِ
نلوحُ تحتَ رداءِ النَّقعِ غُرَّتُهُ ... كأنَّ يُوشعَ رَدَّ الشَّمسَ في الظُّلَمِ
وتَقرعُ السَّمعَ عن حقٍ زواجرُهُ ... قَرعَ الرِّماحِ ببدرٍ ظَهرَ مُنهزِمِ
قالَت عِداهُ لَنا ذكرٌ فَقُلتُ على ... لسانِ داودَ ذكرٌ غيرُ مُنصرِمِ
إنّي لأرجو بنَظمي في مدائحِهِ ... رَجاءَ كَعبٍ ومَن يَمدَحهُ لَم يُضَمِ

وفيها يقول:

فَلُذ ببَرٍ رَحيمٍ بالبَريَّةِ إن ... عَقَّتكَ شِدَّةُ دَهرٍ عاقَ واعتَصِمِ
يُروى حديثُ النَّدى والبِشرِ عن يَدِه ... ووَجهُهُ بينَ مُنهَلٍ ومُبتَسِمِ
تَبكي ظُباهُ دمًا والسَّيفُ مُبتَسِمٌ ... يَخُطُّ كالنونِ بينَ اللامِ واللَّمَمِ
دمعٌ بلا مُقَلٍ ضِحكٌ بغيرِ فَمٍ ... كَتبٌ بغيرِ يَدٍ خَطٌّ بلا قَلَمِ
جاوِرهُ يمنع ولُذ يَشفَع وسَلهُ يَهَب ... وعُد يَعُد واستزِد يَفعَل ودُم يَدُمِ
لَم يَخشَ قِرنًا ويَخشى القِرنُ صَولَتَهُ ... فَهوَ المَنيعُ المُبيحُ الأُسدَ للرَّخَمِ
والشَّمسُ رُدَّت وبَدرُ الأُفقِ شُقَّ لَهُ ... والنَّجمُ أينَعَ منهُ كُلُّ مُنحَطِمِ
سَقاهُمُ الغَيثُ ماءً إذ سَقى ذَهَبًا ... فغَيرُ كَفَّيهِ إن أمحَلتَ لا تَشِمِ
قَد أفصحَ الضَّبُّ تَصديقًا لبِعثَتِه ... إفصاحَ قُسٍ وسَمعُ القَومِ لَم يَهِمِ
الهاشمُ الأُسدَ هَشمَ الزّادِ تَبذُلُهُ ... بَنانُ هاشمِ الوهّابِ للطُّعَمِ
كأنَّما الشَّمسُ تحتَ الغَيمِ غُرَّتُهُ ... في النَّقعِ حَيثُ وجوهُ الأُسدِ كالحُمَمِ
إذا تَبَسَّمَ في حَربٍ وصاحَ بِهِم ... يُبكي الأُسودَ ويَرمي اللُّسنَ بالبَكَمِ
فَلّوا ببَدرٍ فَفَلّوا غَربَ شانئِهِم به ... وما قَلَّ جَمعٌ بالرَّسولِ حَمي
فابيَضَّ بَعدَ سَوادٍ قَلبُ مُنتَصِرٍ ... واسوَدَّ بعدَ بَياضٍ وَجهُ مُنهَزِمِ
فاتبَع رجالَ السُّرى في البيدِ واسرِ لَهُ ... سُرى الرِّجالِ ذَوي الألبابِ والهِمَمِ
خَيرُ اللَّيالي لَيالي الخَيرِ في إضَمٍ ... والقَومُ قد بَلَغوا أقصى مُرادِهِمِ
بعَزمِهِم بَلَغوا خَيرَ الأنامِ فَقَد ... فازوا وما بَلَغوا إلاّ بعَزمِهِمِ
يَقومُ بالألفِ صاعٌ حينَ يُطعِمُهُم ... والصّاعُ مِن غَيرِهِ باثنَينِ لَم يَقُمِ
مِنَ الغَزالَةُ قَد رُدَّت لِطاعَتِهِ ... لَو رامَ أن لا تَزورَ الجَديَ لَم تَرِمِ
داني القُطوفِ جَميلُ العَفوِ مُقتَدِرٌ ... ما ضاقَ منهُ لِجانٍ واسعُ الكَرَمِ
لا يَرفَعُ العَينَ للرّاجينَ يَمنَحُهُم ... بَل يَخفِضُ الرّأسَ قَولاً هاكَ فاحتَكِمِ
يا قاطعَ البيدِ يَسريها على قَدَمٍ ... شَوقًا إليهِ لَقَد أصبَحتَ ذا قَدَمِ

قَد اعتَصَمَتَ بِأقوامٍ جُفونُهُمُ ... لا تَعرِفُ السَّيفَ خِلواً مِن خِضابِ دَمِ
جَوازِمُ الصَّبرِ عَن فِعلِ الجَوى مُنِعَت ... وَرَفعُهُ حالَ إلّا حالَ قُربِهِمِ
في القَلبِ وَالطَّرفِ مِن أهلِ الحِمى قَمَرٌ ... مَن يَعتَصِم بِحِماهُ الرَّحبِ يُحتَرَمِ
يا مُتهِمينَ عَسى أن تُنجِدوا رَجُلاً ... لَم يَسلُ عَنكُم وَلَم يُصبِح بِمُتَّهَمِ
أغارَ دَهرٌ رَمى بِالبُعدِ نازِحَنا ... فَأنجِدوا يا كِرامَ الذّاتِ وَالشِّيَمِ
إنَّ الغَضى لَستُ أنسى أهلَهُ فَهُمُ ... شَبّوهُ بَينَ ضُلوعي يَومَ بَينِهِمِ
جَرى العَقيقُ بِقَلبي بَعدَما رَحَلوا ... وَلَو جَرى مِن دُموعِ العَينِ لَم أُلَمِ
حَيثُ الَّذي إن بَدا في قَومِهِ وَحَبا ... عُفاتَهُ وَرَمى الأعداءَ بِالنِّقَمِ
فَالبَدرُ في شُهبِهِ وَالغَيثُ جادَ لِذي ... مَحلٍ وَلَيثُ الشَّرى قَد صالَ في الغَنَمِ
وَإن عَلا النَّقعُ في يَومِ الوَغى فَدَعا ... أنصارَهُ وَأجالَ الخَيلَ في اللُّجُمِ
تَرى الثُّرَيّا تَقودُ الشُّهبَ يُرسِلُها لَيثٌ ... هَدى الأُسدَ خَوضَ البَحرِ في الظُّلَمِ
أخفَوا في الإنجيلِ وَالتَّوراةِ بِعثَتَهُ ... فَأظهَرَ اللَّهُ ما أخفَوا بِرَغمِهِمِ
قَد أحرَزَ البَأسَ وَالإحسانَ في نَسَقٍ ... وَالعِلمَ وَالحِلمَ قَبلَ الدَّركِ لِلحُلُمِ
لا يَستَوي الغَيثُ مَع كَفَّيهِ نائِلُ ذا ... ماءٍ وَنائِلُ ذا مالٍ فَلا تَهِمِ
غَيثانِ أمّا الَّذي مِن فَيضِ أنمُلِهِ ... فَدائِمٌ وَالَّذي لِلمُزنِ لَم يَدُمِ
جَلا قُلوباً وَأحيا أنفُساً وَهَدى ... عُميًا وَأسمَعَ آذاناً ذَوي صَمَمِ
يُريكَ بِاليَومِ مِثلَ الأمسِ مِن كَرَمٍ ... وَلَيسَ في غَدِهِ هَذا بِمُنعَدِمِ
فَلُذ بِمَن كَفُّهُ وَالبَحرُ ما افتَرَقا ... إلّا بِكَفٍّ وَبَحرٍ في كَلامِهِمِ
وَالمالُ وَالماءُ مِن كَفَّيهِ قَد جَرَيا ... هَذا لِراجٍ وَذا لِلجَيشِ حينَ ظَمي
فازَ المُجِدّانِ دانٍ أو مُديمُ سُرىً ... فَذاكَ ناجٍ وَذا راجٍ لِجودِهِمِ
مِن وَجهِ أحمَدَ لي بَدرٌ وَمِن يَدِهِ ... بَحرٌ وَمِن فَمِهِ دُرٌّ لِمُنتَظِمِ
كَم قُلتُ يا نَفسُ ما أنصَفتِ أن رَحَلوا ... وَما رَحَلتِ وَقاموا ثُمَّ لَم تَقُمِ
يَمِّم نَبِيّاً تُباري الرّيحَ أنمُلُهُ ... وَالمُزنَ مِن كُلِّ هامي الوَدقِ مُرتَكِمِ
لَو قابَلَ الشُّهبَ لَيلاً في مَطالِعِها ... خَرَّت حَياءً وَأبدَت بِرَّ مُحتَرِمِ
تَكادُ تَشهَدُ أنَّ اللَّهَ أرسَلَهُ ... إلى الوَرى نُطَفُ الأبناءِ في الرَّحِمِ
لَو عامَتِ الفُلكُ فيما فاضَ مِن يَدِهِ ... لَم تَلقَ أعظَمَ بَحراً مِنهُ إن تَعُمِ
تُحيطُ كَفّاهُ بِالبَحرِ المُحيطِ فَلُذ بِهِ ... وَدَع كُلَّ طامي المَوجِ مُلتَطِمِ
لَو لَم تُحِط كَفُّهُ بِالبَحرِ ما شَمِلَت ... كُلَّ الأنامِ وَأروَت قَلبَ كُلِّ ظَمي
لَم تَبرُقِ السُّحبُ إلّا أنَّها فَرِحَت ... إذ ظَلَّلَتهُ فَأبدَت وَجهَ مُبتَسِمِ

وَالماءُ لَو لَم يَفِض مِن بَينِ أَنمُلِه ... مَا كَانَ رِيُّ الظَّمَا فِي وِردِه الشَّبِمِ
يَستَحسِنُ الفَقرَ ذو الدُّنيا لِيَسأَلَهُ ... فَيأمَنَ الفَقرَ مِمَّا نالَ مِن نعَمِ
وَالبَدرُ أَبقى بِمَرآهُ لِيُعلِمَنا ... بالانشقاقِ لَهُ آثارَ مُنثَلِمِ
أزالَ ضُرَّ البَعيرِ المُستَجيرِ كَما ... بِهِ الغَزالَةُ قَد لاذَت فَلَم تُضَمِ

**صفى الدين الحلى:**

**قلت:** وسمعت أن من بين هؤلاء رجل يقال له (صفى الدين الحلى).

**قال:** أجل.. هذا الرجل من أكبر الشعراء المهتمين بالبديع.. حتى إنه لقب بأبى البديع، حيث كان علم البديع مهجورا قبله..

**قلت:** لا يستغرب حب بديع اللغة ممن أحب بديع البشر.

**قال:** وميزة هذا الشاعر أنه جمع فى هذه القصيدة بين علم البديع ومدح الحبيب.

**قلت:** تقصد أن القصيدة متن فى البديع؟

**قال:** أجل.. وهى من أشهر المتون العلمية، حيث جمعت بين مديح المصطفى ﷺ، وبين ذكر جميع شواهد علم البلاغة، وهى (الكافية البديعية).

**قلت:** لقد شوقتنى إليها.. فاروها لى.

**قال:** يقول هذا الشاعر الفاضل فى هذه القصيدة:

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم ... واقرأ السلام على عرب بذى سلم
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم ... لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمى
أبيت والدمع هام هامل سرب ... والجسم فى إضم لحم على وضم
من شانه حمل أعباء الهوى كمدا ... إذا همى شانه بالدمع لم يلم
من لى بكل غرير من ظبائهم ... عزيز حسن يداوى الكلم بالكلم
بكل قد نضير لا نظير له ... ما ينقضى أملى منه ولا ألمى
وكل لحظ أتى باسم ابن ذى يزن ... فى فتكه بالمعنى أو أبى هرم
قد طال ليلى وأجفانى به قصرت ... عن الرقاد فلم أصبح ولم أنم
كأن آناء ليلى فى تطاولها ... تسويف كاذب آمالى بقربهم
هم أرضعونى ثدى الوصل حافلة ... فكيف يحسن منها حال منفطم
كان الرضا بدنوى من خواطرهم ... فصار سخطى لبعدى عن جوارهم
وجدى حنينى أنينى فكرتى ولهى ... منهم عليهم إليهم فيهم بهم
لله لذت عيش بالحبيب مضت ... فلم تدم لى وغير الله لم يدم

وعاذل رام بالتعنيف يرشدني    عدمت رشدك هل أسمعت ذا صمم
أقصر أطل أعزز أعذل سل خل أعن    خن هن عن ترفق لج كف لم
أشبعت نفسك من ذمي فهاضك ما    تلقى وأكثر موت الناس بالتخم
أنا المفرط أطلعت العدو على    سرى وأودعت نفسى كل مخترم
فمي يحدث عن سرى فما ظهرت    سرائر القلب إلا من حديث فمي
لأنت عندى أخص الناس منزلة    إذ كنت أقدرهم عندى على السلم
محضتنى النصح إحسانا إلى بلا    غش وقلدتنى لإنعام فاحتكم
ليت المنية حالت دون نصحك لى    فيستريح كلانا من أذى التهم
حسبى بذكرك لى ذما ومنقصة    فيما نطقت فلا تنقص ولا تذم
سالمت فى الحب عذالى فما نصحوا    وهبه كان فما نفعى بنصحهم
عدمت صحة جسمي مذ وثقت بهم    فما حصلت على شيء سوى الندم
قالوا سلوت لبعد الإلف قلت لهم    سلوت عن صحتي والبرء من سقمي
ما كنت قبل الظبا الألحاظ قط أرى    سيفا أراق دمي إلا على قدمي
قالوا اصطبر قلت صبرى غير متسع    قالوا اسلهم قلت ودى غير منصرم
وإننى سوف أسلوهم إذا عدمت    روحي وأحييت بعد الموت والعدم
فالله يكلأ عذالى ويلهمهم    عذلى فقد فروجى كربى بذكرهم
قالوا ألم تدر أن الحب غايته    سلب الخواطر والألباب قلت لم
لم أدر قبل هواهم والهوى حرم    أن الظباء تحل الصيد فى الحرم
رجوت أن يرجعوا يوما وقد رجعوا    عند العتاب ولكن عن وفى ذمم
فكل ما سر قلبى واستراح به    إلا الدموع عصانى بعد بعدهم
فلوا رأيت مصابى عندما رحلوا    رثيت لى من عذابى يوم بينهم
يا غائبين لقد أضنى الهوى جسدى    والغصن يزوى لفقد الوابل الردم
يا ليت شعرى أسحرا كان حبكم    أزال عقلى أم ضربا من اللمم
رجوتكم نصحاء فى الشدائد لى    لضعف رشدى واستسمنت ذا ورم
وكم بذلت تليدى والطريف لكم    طوعا وأرضيت عنكم كل مختصم
من كان يعلم أن الشهد مطلبه    فلا يخاف للدغ النحل من ألم
خلت الفضائل بين الناس ترفعنى    بالابتداء فكانت أحرف القسم
لا لقبتنى المعالى بابن بجدتها    يوم الفخار ولا برت تقى قسمى
إن لم أحث مطايا العزم مثقلة    من القوافى تؤم المجد عن أمم

تجـار لفظ إلـى سـوق القـبـول بهـا ... من لجـة الفكـر تهدى جـوهر الكلم
من كل مـعـربة الألـفـاظ مـعـجـمـة ... يزينهـا مـدح خـيـر العـرب والعـجم

ثم مدح النبى ﷺ بقوله:

محـمـد المصطفى الهادى النبى أجل ... المرسلين بن عـبـدالله ذى الكرم
الطاهر الشـيـم بن الطاهر الشـيـم بن ... الطـاهر الشـيـم بن الطاهر الشـيـم
خـيـر النبيين والبرهان متضح ... فى الحجر نقلا وعقلا واضح اللقم
كم بين من أقـسـم الله العلى به ... وبين من جـاء بسم الله فى القسم
أمى خط أبان الله مـعـجـزه ... بطاعـة الماضيين السيف والقلم
مـؤيـد العـزم والأبطال فى قلق ... مـؤمل الصفح والهيجاء فى ضرم
نفس مؤيدة بالحق تعضدها ... عناية صدرت عن بارئ النسم
أبدى العجائب فالأعمى بنفثته ... غدا بصيرا وفى الحرب البصير عمى
له السلام من الله السلام وفى ... دار السلام تراه شافع الأمم
كم قد جلت جنح نقع الليل طلعته ... والشهب أحلك ألونا من الدهم
فى معرك لا تثير الخيل عثيره ... مما تروى المواضى تربه بدمى
عـزيز جار لو الليل استجار به ... من الصباح لعاش الناس فى الظلم
كأن مرآه بدر غير مستتر ... وطيب رياه مسك غير مكتتم
لا يهـدم المن منه عمر مكرمة ... ولا يسوء أذاه نفس متهم
يولى الموالين من جدوى شفاعته ... ملكا كبيرا عدا ما فى نفوسهم
كأنما قلب معن ملء فيه فلم ... يقل لسائله يوما سوى نعم
إن حل أرض أناس شد أزرهم ... بما أتاح لهم من حط وزرهم
آراءه وعطاياه ونقمته ... وعفوه رحمة للناس كلهم
فجود كفيه لم تقلع سحائبه ... عن العباد وجود السحب لم يقم
أفنى جيوش العدا غزوا فلست ترى ... سوى قتيل ومأسور ومنهزم
سناه كالنور يجلو كل مظلمة ... والبأس كالنار يفنى كل مجترم
أبادهم فلبيت المال ما جمعوا ... والروح للسيف والأجساد للرخم
من مفرد بغرار السيف منتشر ... ومـزوج بسنان الرمح منتظم
واستخدم الموت ينهاه ويأمره ... بعزم مغتنم فى زى مغترم
يجزى إساءة باغيهم بسيئة ... ولم يكن عاديا منهم على إرم
كأنما حلق السعدى منتشرا ... على الثرى بين منفض ومنفصم

حروف خط على طرس مقطعة ... جاءت بها يد غمر غير مفتهم
لم يلق مرحب منه مرحبا ورأى ... ضد اسمه عند هد الحصن والأطم
لاقاهم بكماة عند كرهم ... على الجسوم دروع من قلوبهم
بكل منتصر للفتح منتظر ... وكل معتزم للحق ملتزم
من حاسر بغرار العضب ملتحف ... أو سافر بغبار الحرب ملتثم
مستقتل قاتل مسترسل عجل ... مستأصل صائل مستفحل خصم
ببارق خدم فى مارق أمم ... أو سابق عرم فى شاهق علم
فعال منتظم الأهواء مقتحم الـ ... أهوال ملتزم بالله معتصم
سهل خلائقه صعب عرائكه ... جم عجائبه فى الحكم والحكم
فالحق فى أفق والشرك فى نفق ... والكفر فى فرق والدين فى حرم
فالجيش والنقع تحت الجون مرتكم ... فى ظل مرتكم فى ظل مرتكم
بفتية أسكنوا أطراف سمرهم ... من المكاة مقر الضغن والأضم
كل طويل نجاد السيف يطربه ... وقع الصوارم كالأوتار والنغم
من كل مبتدر للموت مقتحم ... فى مأزق بغبار الحرب ملتحم
تهوى الرقاب مواضيهم فتحسبها ... حديدها كان أغلالا من القدم
شوس ترى منهم فى كل معترك ... أسد العرين إذا حر الوطيس حمى
صالوا فنالوا الأمانى من عداتهم ... ببارق فى سوى الهيجاء لم يشم
كالنار منه رياح الموت إن عصفت ... روى ثرى مائه أرضى الوغى بدمى
حران ينقع حر الكر غلته ... حتى إذا ضمه برد المقيل ظمى
قادوا الشواذب كالأجبال حاملة ... أمثالها ثبتة فى كل مصطدم
من سبق لا يرى سوط لها ثملا ... ولا جديد من الأرصان واللجم
كادت حوافرها تدمى جحافلها ... حتى تشابهت الأحجال بالرثم
خاضوا عباب الوغى والخيل سابحة ... فى بحر حرب بموج الموت ملتطم
حتى إذا صدروا والخيل صائمة ... من بعد ما صلت الأسياف فى القمم
تلاعبوا تحت ظل السمر من مرح ... كما تلاعبت الأشبال فى الأجم
فى ظل منصور اللواء له ... عدل يؤلف بين الذئب والغنم
سهل الخلائق سمح الكف باسطها ... منزه لفظه عن لا ولن ولم
أغر لا يمنع الراجين ما طلبوا ... ويمنع الجار من ضيم ومن حرم
شخص هو العالم الكلى فى شرف ... ونفسه الجوهر القدسى فى عظم

ومن له حـاور الجـزع اليـبـيـس ومن بكـفـه أورقـت عـجـراء من سـلم
والعـاقـب الحـبـر فى نجـران لاح له يوم اجـتـبـاه لعـقـبـى زلة القـدم
والـذئـب سلـم والجنى أسلـم والثـعـبـان كلم والأمـوات فـى الرجم
ومن أتى سـاجـدا لـله ساعـتـه ولم يكن سـاجـدا فى العـمـر للصنم
ومن غـدا اسم أمـه نعـتـا لأمـتـه فـتـلك آمـنة مـن سـائـر النـقم
من مـثـلـه وذراع الشـاة حـدثه عن سـمـه بلـسـان صـادق الرنم
هـل مـن يـنـم بـحـب مـن يـنـم لـه بما رمـوه كـمـن لم يدرِ كـيـف رمى
هـو النـبـى الـذى آياتـه ظـهـرت من قـبل مـظهـره للنـاس فى القـدم
مـحـمـد المصطفى المختـار من خـتـمت بمجـده مـرسـلو الرحـمـن للأمم
فـذكـره قـد أتى فى هل أتـى وسـبـا وفـضلـه ظـاهر فـى نون والـقلـم
إذا رآه الأعـادى قـال حـازمـهم حـتـام نحن نـسـار النجم فى الـظلم

**محمود سامى البارودى:**

سكت البابا، فقلت: عد بنا إلى عصرنا.. فقد سمعت أن شعراء كثيرين عارضوا البردة.

قال: أجل.. فحب رسول الله ﷺ لا يخلو منه عصر من العصور.. ولا مكان من الأماكن.. ألا تعلم أن رسول الله ﷺ أمان لأمته.

قلت: لقد ذكر الله عز وجل ذلك، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].. ولكن رسول الله ﷺ انتقل إلى رحاب ربه فلم يبق لنا إلا الاستغفار.

قال: الاستغفار لا ينفع وحده ما لم يمتلئ القلب بمحبة سيد المستغفرين.. فلذلك إن ذهب جسد رسول الله ﷺ.. فإن روحه لا زالت تعمر القلوب والأرواح.

قلت: لقد سمعت بأن الوزير محمود سامى البارودى عارضها فى قصيدة عصماء من 450 بيتا.

قال: أجل.. وقد سماها (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة).

قلت: فاروها لى.

قال: سأقتصر لك منها ما يتعلق بالحبيب[1].. اسمع:

مُـحَـمَّـدٌ خـاتَمُ الـرُسلِ الَّذى خَـضَـعَت لَهُ الـبَـرِيَّـةُ مِن عُـربٍ وَمِن عَـجَمِ
سَـمـيـرُ وَحيٍ وَمَـجنى حِكمَـةٍ وَنَدى سَـمـاحَـةٍ وَقِـرى عـافٍ وَرِيُّ ظَمِ

(1) ننقل القصيدة هنا بتصرف.

قَد أبلَغَ الوَحيُ عنهُ قَبلَ بِعثَتِهِ     مَسامِعَ الرُّسلِ قَولاً غَيرَ مُنكَتِمِ
فَذاكَ دَعوَةُ إبراهيمَ خالِقَهُ     وَسِرُّ ما قالَهُ عيسى مِنَ القِدَمِ
أكرِم بِهِ وَبِآباءٍ مُحَجَّلَةٍ     جاءَت بِهِ غُرَّةً فى الأعصُرِ الدُّهُمِ
قَد كانَ فى مَلَكوتِ اللهِ مُدَّخَراً     لِدَعوَةٍ كانَ فيها صاحِبَ العَلَمِ
نُورٌ تَنَقَّلَ فى الأكوانِ ساطِعُهُ     تَنَقُّلَ البَدرِ مِن صُلبٍ إلى رَحِمِ
حَتّى استَقَرَّ بِعَبدِ اللهِ فَانبَلَجَت     أنوارُ غُرَّتِهِ كَالبَدرِ فى البُهُمِ
وَاختارَ آمنَةَ العَذراءَ صاحِبَةً     لِفَضلِها بَينَ أهلِ الحِلِّ وَالحَرَمِ
كِلاهُما فى العُلا كُفءٌ لِصاحِبِهِ     وَالكُفءُ فى المَجدِ لا يُستامُ بِالقِيَمِ
فَأصبَحَت عِندَهُ فى بَيتِ مَكرُمَةٍ     شِيدَت دَعائِمُهُ فى مَنصِبٍ سَنِمِ
وَحينَما حَمَلَت بِالمُصطَفى وَضَعَت     يَدُ المَشيئَةِ عَنها كُلفَةَ الوَجَمِ
وَلاحَ مِن جِسمِها نُورٌ أضاءَ لَها     قُصُورَ بُصرى بِأرضِ الشّامِ مِن أمَمِ
وَمُذ أتى الوَضعُ وَهوَ الرَّفعُ مَنزِلَةً     جاءَت بِرُوحٍ بِنُورِ اللهِ مُتَّسِمِ
ضاءَت بِهِ غُرَّةُ الاثنَينِ وَابتَسَمَت     عَن حُسنِهِ فى رَبيعٍ رَوضَةُ الحَرَمِ
وَأرضَعَتهُ وَلَم تَيأس حَليمَةُ مِن     قَولِ المَراضِعِ إنَّ البُؤسَ فى اليَتَمِ
فَفاضَ بِالدَّرِّ ثَدياها وَقَد غَنِيَت     لَيالِيًا وَهىَ لَم تَطعَم وَلَم تَنَمِ
وَانهَلَّ بَعدَ انقِطاعٍ رِسلُ شارِفِها     حَتّى غَدَت مِن رَفيهِ العَيشِ فى طُعَمِ
فَيَمَّمَت أهلَها مَملُوءَةً فَرَحًا     بِما أُتيحَ لَها مِن أوفَرِ النِّعَمِ
وَقَلَّصَ الجَدبُ عَنها فَهىَ طاعِمَةٌ     مِن خَيرِ ما رَفَدَتها ثُلَّةُ الغَنَمِ
وَكَيفَ تَمحَلُ أرضٌ حَلَّ ساحَتَها     مُحَمَّدٌ وَهوَ غَيثُ الجُودِ وَالكَرَمِ
فَلَم يَزَل عِندَها يَنمُو وَتَكلَؤُهُ     رِعايَةُ اللهِ مِن سُوءٍ وَمِن وَصَمِ
حَتّى إذا تَمَّ مِيقاتُ الرَّضاعِ لَهُ     حَولَينِ أصبَحَ ذا أيدٍ عَلَى الفُطُمِ
وَجاءَ كَالغُصنِ مَجدُولاً تَرِفُّ عَلى     جَبينِهِ لَمَحاتُ المَجدِ وَالفَهَمِ
قَد تَمَّ عَقلاً وَما تَمَّت رَضاعَتُهُ     وَفاضَ حِلمًا وَلَم يَبلُغ مَدى الحُلُمِ
فَبَينَما هُوَ يَرعى البَهمَ طافَ بِهِ     شَخصانِ مِن مَلَكوتِ اللهِ ذى العِظَمِ
فَأضجَعاهُ وَشَقّا صَدرَهُ بِيَدٍ     رَفيقَةٍ لَم يَبِت مِنها عَلى ألَمِ
وَبَعدَ ما قَضَيا مِن قَلبِهِ وَطَرًا     تَوَلَّيا غَسلَهُ بِالسَّلسَلِ الشَّبِمِ
ما عالَجا قَلبَهُ إلاّ لِيَخلُصَ مِن     شَوبِ الهَوى وَيَعى قُدسِيَّةَ الحِكَمِ
فَيا لَها نِعمَةً للهِ خَصَّ بِها     حَبيبَهُ وَهوَ طِفلٌ غَيرُ مُحتَلِمِ
وَقالَ عَنهُ بُحَيرا حينَ أبصَرَهُ     بِأرضِ بُصرى مَقالاً غَيرَ مُتَّهَمِ

إذ ظَلَّلَتهُ الغَمامُ الغُرُّ وانهَصَرَت ... عَطفًا عَلَيهِ فُروعُ الضَّالِ وَالسَّلَمِ
بِأنَّهُ خاتَمُ الرُّسلِ الكِرامِ ومَن ... بِهِ تَزولُ صُروفُ البُؤسِ وَالنِّقَمِ
هَذا وكَم آيَةٍ سارَت لَهُ فَمَحَت ... بِنُورِها ظُلمَةَ الأهوالِ وَالقُحَمِ
ما مَرَّ يَومٌ لَهُ إلاّ وَقَلَّدَهُ ... صَنائِعًا لَم تَزَل في الدَّهرِ كَالعَلَمِ
حَتَّى استَتَمَّ وَلا نُقصانَ يَلحَقُهُ ... خَمسًا وَعِشرينَ سِنُّ البارِعِ الفَهِمِ
وَلَقَّبَتهُ قُرَيشٌ بِالأمينِ عَلى ... صِدقِ الأمانَةِ وَالإيفاءِ بِالذِّمَمِ
وَدَّت خَديجَةُ أن يَرعَى تِجارَتَها ... وِدادَ مُتَّهِزٍ لِلخَيرِ مُغتَنِمِ
فَشَدَّ عَزمَتَها منهُ بِمُقتَدِرٍ ... ماضِي الجَنانِ إذا ما هَمَّ لَم يَخِمِ
وَسارَ مُعتَزِمًا لِلشَّامِ يَصحَبُهُ ... في السَّيرِ مَيسَرَةُ المَرضِيُّ في الحَشَمِ
فَما أناخَ بِها حَتَّى قَضى وَطَرًا ... مِن كُلِّ ما رامَهُ في البَيعِ وَالسَّلَمِ
وَكَيفَ يَخسَرُ مَن لَولاهُ ما رَبِحَت ... تِجارَةُ الدِّينِ في سَهلٍ وَفي عَلَمِ
فَقَصَّ مَيسَرَةُ المَأمونُ قِصَّتَهُ ... عَلَى خَديجَةَ سَردًا غَيرَ مُنعَجِمِ
وَما رَواهُ لَهُ كَهلٌ بِصَومَعَةٍ ... مِنَ الرَّهابينِ عَن أسلافِهِ القُدُمِ
في دَوحَةٍ عاجَ خَيرُ المُرسَلينَ بِها ... مِن قَبلِ بِعثَتِهِ لِلعُربِ وَالعَجَمِ
هَذا نَبِيٌّ وَلَم يَنزِل بِساحَتِها ... إلاّ نَبِيٌّ كَريمُ النَّفسِ وَالشِّيَمِ
وَسيرَةَ المَلَكَينِ الحائِمَينِ عَلى ... جَبينِهِ لِيُظِلاّهُ مِنَ التَّهَمِ
فَكانَ ما قَصَّهُ أصلاً لِما وَصَلَت ... بِهِ إلى الخَيرِ مِن قَصدٍ ومُعتَزَمِ
أحسِن بِها وُصلَةً في اللهِ قَد أخَذَت ... بِها عَلى الدَّهرِ عَقدًا غَيرَ مُنفَصِمِ
فَأصبَحا في صَفاءٍ غَيرِ مُنقَطِعٍ ... عَلى الزَّمانِ وَوُدٍّ غَيرِ مُنصَرِمِ
وَحينَما أجمَعَت أمرًا قُرَيشُ عَلى ... بِنايَةِ البَيتِ ذي الحُجّابِ وَالخَدَمِ
تَجَمَّعَت فِرَقُ الأحلافِ وَاقتَسَمَت ... بِناءَهُ عَن تَراضٍ خَيرَ مُقتَسَمِ
حَتَّى إذا بَلَغَ البُنيانُ غايَتَهُ ... مِن مَوضِعِ الرُّكنِ بَعدَ الكَدِّ وَالجَشَمِ
تَسابَقوا طَلَبًا لِلأجرِ وَاختَصَموا ... فيمَن يَشُدُّ بِناهُ كُلَّ مُختَصَمِ
وَأقسَمَ القَومُ أن لا صُلحَ يَعصِمُهُم ... مِنِ اقتِحامِ المَنايا أيَّما قَسَمِ
وَأدخَلوا حينَ جَدَّ الأمرُ أيديَهُم ... لِلشَّرِّ في جَفنَةٍ مَملُوءَةٍ بِدَمِ
فَقالَ ذُو رَأيِهِم لا تَعجَلوا وَخُذوا ... بِالحَزمِ فَهوَ الَّذي يَشفي مِنَ الحَزَمِ
لِيَرضَ كُلُّ امرِئٍ مِنّا بِأوَّلِ مَن ... يَأتي فَيَقسِطُ فينا قِسطَ مُحتَكِمِ
فَكانَ أوَّلَ آتٍ بَعدَما اتَّفَقوا ... مُحَمَّدٌ وَهوَ في الخَيراتِ ذُو قَدَمِ
فَقالَ كُلٌّ رَضينا بِالأمينِ عَلى ... عِلمٍ فَأكرِم بِهِ مِن عادِلٍ حَكَمِ

فأعلموهُ بما قد كانَ واحتكموا  إليه في حلِّ هذا المُشكلِ العَمَمِ
فمدَّ ثوبًا وحطَّ الرُّكنَ في وسَطٍ  منهُ وقالَ ارفعوهُ جانبَ الرَّضَمِ
فنالَ كُلُّ امرِئٍ حظًا بما حملَتْ  يداهُ منهُ ولَم يَعتِب على القِسَمِ
حتّى إذا اقتربوا تلقاءَ موضعِهِ  من جانبِ البَيتِ ذي الأركانِ والدّعَمِ
مدَّ الرَّسولُ يدًا منهُ مُباركَةً  بَنتهُ في صَدَفٍ من باذخٍ سَنِمِ
فليزدَدِ الرُّكنُ تيهًا حيثُ نالَ بهِ  فخرًا أقامَ لهُ الدُّنيا علَى قدَمِ
لَو لَم تَكُن يدُهُ مسَّتهُ حينَ بنَى  ما كانَ أصبحَ مَلثُومًا بكُلِّ فَمِ
يا ليتَني والأماني ربَّما صدقَت  أحظى بمُعتَنَقٍ منهُ ومُلتَزَمِ
يا حبَّذا صبغَةٌ من حُسنِه أخذَت  منها الشَّبيبَةُ لَونَ العُذرِ واللمَمِ
كالخالِ في وجنَةٍ زِيدَت محاسنُها  بنُقطَةٍ منهُ أضعافًا منَ القيَمِ
وكَيفَ لا يفخرُ البَيتُ العتيقُ به  وقَد بَنَتهُ يدٌ فيّاضَةُ النِّعَمِ
أكرِم بهِ وازِعًا لولا هدايَتُهُ  لَم يَظهرِ العدلُ في أرضٍ ولَم يقُمِ
هذا الّذي عَصَمَ اللّهُ الأنامَ بهِ  من كُلِّ هَولٍ منَ الأهوالِ مُخترِمِ
وحينَ أدركَ سنَّ الأربعينَ وما  من قَبلِه مَبلَغٌ للعلمِ والحكَمِ
حَباهُ ذُو العَرشِ بُرهانًا أراهُ بهِ  آيات حكمَتِهِ في عالَمِ الحُلُمِ
فكانَ يمضي ليَرعى أُنسَ وحشَتِهِ  في شاسعٍ ما بهِ للخَلقِ من أرَمِ
فما يمُرُّ علَى صخرٍ ولا شجَرٍ  إلاّ وحَيّاهُ بالتَّسليمِ من أمَمِ
حتّى إذا حانَ أمرُ الغَيبِ وانحسَرَت  أستارُهُ عَن ضَميرِ اللَوحِ والقلَمِ
نادى بدَعوتِه جهرًا فأسمعَها  في كُلِّ ناحيةٍ مَن كانَ ذا صَمَمِ
فكانَ أوَّلُ مَن في الدِّينِ تابعَهُ  خديجَةٌ وعَليٌّ ثابتُ القَدَمِ
ثُمَّ استجابَت رِجالٌ دُونَ أُسرَتِه  وفي الأباعدِ ما يُغني عنِ الرَّحِمِ
ومَن أرادَ بهِ الرَّحمنُ مكرُمَةً  هَداهُ للرُّشدِ في داجٍ منَ الظُّلَمِ
ثُمَّ استَمَرَّ رَسُولُ اللّه مُعتزمًا  يَدعو إلى ربِّه في كُلِّ مُلتَأمِ
والنّاسُ منهُم رَشيدٌ يستجيبُ لَهُ  طَوعًا ومنهُم غوِيٌّ غيرُ مُحتَشِمِ
حتّى استرابَت قُرَيشٌ واستبَدَّ بها  جَهلٌ تردَّت به في مارجٍ ضَرِمِ
وعَذَّبوا أهلَ دينِ اللّه وانتَهكوا  مَحارِمًا أعقَبَتهُم لهفَةَ النَّدَمِ
وقامَ يدعُو أبو جَهلٍ عَشيرَتَهُ  إلى الضَّلالِ ولَم يَجنَح إلى سَلَمِ
يُبدي خداعًا ويُخفي ما تضَمَّنَهُ  ضَميرُهُ من غَراةِ الحقدِ والسَّدَمِ
لا يَسلَمُ القلبُ من غلٍ ألَمَّ بهِ  يَنقى الأديمُ ويَبقى مَوضعُ الحَلَمِ

والحقدُ كالنار إن أخفيتَهُ ظهرت ... منهُ علائمُ فوقَ الوجهِ كالحُممِ
لا يبصرُ الحقَّ من جهلٌ أحاطَ به ... وكيفَ يُبصرُ نورَ الحقِّ وهو عمِ
كلُّ امرئٍ واجدٌ ما قدَّمت يدُهُ ... إذا استوى قائمًا من هُوَّةِ الأدَمِ
والخيرُ والشرُّ في الدُّنيا مُكافأةٌ ... والنَّفسُ مسؤولةٌ عن كلِّ مُجترَمِ
فلا ينَم ظالمٌ عمّا جنَت يدُهُ ... على العبادِ فعينُ اللَّهِ لم تنَمِ
ولم يزَل أهلُ دينِ اللَّهِ في نصَبٍ ... ممّا يُلاقُونَ من كَربٍ ومن زَأمِ
حتَّى إذا لم يعُد في الأمرِ منزَعةٌ ... وأصبحَ الشرُّ جهرًا غيرَ مُنكتمِ
سارُوا إلى الهجرةِ الأولى وما قصَدوا ... غيرَ النَّجاشيِّ ملكًا صادقَ الذِّمَمِ
فأصبحُوا عندهُ في ظلِّ مملكةٍ ... حصينةٍ وذمامٍ غيرِ مُنجذِمِ
مَن أنكرَ الضَّيمَ لم يأنس بصُحبتِه ... ومَن أحاطَت به الأهوالُ لم يُقمِ
ومُذ رأى المُشركون الدِّين قد وضحَت ... سماؤُهُ وانجلَت عن صمَّةِ الصَّمَمِ
تألَّبُوا رغبةً في الشرِّ وائتمرُوا ... على الصَّحيفةِ من غيظٍ ومن وغَمِ
صحيفةٌ وسمَت بالغدرِ أوجُهَهُم ... والغدرُ يعلَقُ بالأعراضِ كالدَّسَمِ
فكشَّفَ اللَّهُ منها غُمَّةً نزلَت ... بالمُؤمنينَ وربِّي كاشفُ الغُمَمِ
مَن أضمرَ السُّوءَ جازاهُ الإلَهُ به ... ومَن رعى البغيَ لم يسلَم من النِّقَمِ
كفى الطُّفيلَ بنَ عمرٍو لمعةٌ ظهرت ... في سوطِه فأنارت سُدفَةَ القَتَمِ
هدى بها اللَّهُ دوسًا من ضلالتِها ... فتابعَت أمرَ داعيها ولم تهِمِ
وفي الإراشيِّ للأقوامِ مُعتبَرٌ ... إذ جاءَ مكَّةَ في ذَودٍ من النَّعَمِ
فباعَها من أبي جهلٍ فماطلَهُ ... بحقِّه وتمادى غيرَ مُحتشِمِ
فجاءَ مُنتصِرًا يشكو ظُلامتَهُ ... إلى النَّبيِّ ونعمَ العَونُ في الإزَمِ
فقامَ مُبتدِرًا يسعى لنُصرتِه ... ونُصرةُ الحقِّ شأنُ المرءِ ذي الهِمَمِ
فدقَّ بابَ أبي جهلٍ فجاءَ لهُ ... طوعًا يجُرُّ عنانَ الخائفِ الزَّرِمِ
فحينَ لاقى رسولَ اللَّه لاح له ... فحلٌ يحُدُّ إليهِ النابَ من أطَمِ
فهالَهُ ما رأى فارتدَّ مُنزعِجًا ... وعادَ بالنَّقدِ بعدَ المطلِ عن رغَمِ
أتلكَ أم حينَ نادى سرحةً فأتت ... إليهِ منشورةَ الأغصانِ كالجُمَمِ
حنَت عليهِ حُنُوَّ الأمِّ من شفَقٍ ... ورفرفَت فوقَ ذاكَ الحُسنِ من رَخَمِ
جاءتهُ طوعًا وعادت حينَ قالَ لها ... عُودي ولو خُلِّيَت للشَّوقِ لم ترِمِ
وحبَّذا ليلةُ الإسراءِ حينَ سرى ... ليلاً إلى المسجدِ الأقصى بلا أتَمِ
رأى به من كرامِ الرُّسلِ طائفةً ... فأمَّهُم ثُمَّ صلَّى خاشعًا بهِمِ

بل حبذا نهضة المعراج حين سما   به إلى مشهد فى العز لم يرم
سما إلى الفلك الأعلى فنال به   قدرا يجل عن التشبيه فى العظم
وسار فى سبحات النور مرتقيا   إلى مدارج أعيت كل معتزم
وفاز بالجوهر المكنون من كلم   ليست إذا قرنت بالوصف كالكلم
سر تحار به الألباب قاصرة   ونعمة لم تكن فى الدهر كالنعم
هيهات يبلغ فهم كنه ما بلغت   قرباه منه وقد ناجاه من أمم
فيا لها وصلة نال الحبيب بها   ما لم ينله من التكريم ذو نسم
فاقت جميع الليالى فهى زاهرة   بحسنها كزهور النار فى العلم
هذا وقد فرض الله الصلاة على   عباده وهداهم واضح اللقم
فسارعوا نحو دين الله وانتصبوا   إلى العبادة لا يألون من سأم
ولم يزل سيد الكونين منتصبا   لدعوة الدين لم يفتر ولم يجم
يستقبل الناس فى بدو وفى حضر   وينشر الدين فى سهل وفى علم
حتى استجابت له الأنصار واعتصموا   بحبله عن تراض خير معتصم
فاستكملت بهم الدنيا نضارتها   وأصبح الدين فى جمع بهم تمم
قوم أقروا عماد الحق واصطلموا   ببأسهم كل جبار ومصطلم
فكم بهم أشرقت أستار داجية   وكم بهم خمدت أنفاس مختصم
فحين وافى قريشا ذكر بيعتهم   ثاروا إلى الشر فعل الجاهل العرم
وبادهوا أهل دين الله واهتضموا   حقوقهم بالتمادى شر مهتضم
فكم ترى من أسير لا حراك به   وشارد سار من فج إلى أكم
فهاجر الصحب إذ قال الرسول لهم   سيروا إلى طيبة المرعية الحرم
وظل فى مكة المختار منتظرا   إذنا من الله فى سير ومعتزم
فأوجست خيفة منه قريش ولم   تقبل نصيحا ولم ترجع إلى فهم
فاستجمعت عصبا فى دار ندوتها   تبغى به الشر من حقد ومن أضم
ولو درت أنها فيما تحاوله   مخذولة لم تسم فى مرتع وخم
أولى لها ثم أولى أن يحيق بها   ما أضمرته من البأساء والشجم
إنى لأعجب من قوم أولى فطن   باعوا النهى بالعمى والسمع بالصمم
يعصون خالقهم جهلا بقدرته   ويعكفون على الطاغوت والصنم
فأجمعوا أمرهم أن يبغتوه إذا   جن الظلام وخفت وطأة القدم
وأقبلوا موهنا فى عصبة غدر   من القبائل باعوا النفس بالزعم

فجاءَ جبريلُ للهادي فأنبأهُ ... بما أسرُّوهُ بعدَ العهدِ والقسمِ
فمُذ رآهُم قياماً حولَ مأمنه ... يبغونَ ساحتَهُ بالشرِّ والنقمِ
نادى علياً فأوصاهُ وقالَ لهُ ... لا تخشَ والبس ردائي آمناً ونمِ
ومرَّ بالقومِ يتلو وهو منصرفٌ ... يس وهي شفاءُ النفسِ من وصمِ
فلم يروهُ وزاغت عنهُ أعينُهم ... وهل ترى الشمسَ جهراً أعينُ الحنمِ
وجاءهُ الوحيُ إيذاناً بهجرتِه ... فيمَّمَ الغارَ بالصدّيقِ في الغسمِ
فما استقرَّ به حتى تبوأهُ ... منَ الحمائمِ زوجٌ بارعُ الرنمِ
بنى به عُشّهُ واحتلَّهُ سكناً ... يأوي إليهِ غداةَ الريحِ والرهَمِ
إلفانِ ما جمعَ المقدارُ بينهما ... إلا لسرٍّ بصدرِ الغارِ مكتتمِ
كلاهما ديدبانٌ فوقَ مربأةٍ ... يرعى المسالكَ من بُعدٍ ولم ينمِ
إن حنَّ هذا غراماً أو دعا طرباً ... باسمِ الهديلِ أجابت تلكَ بالنغمِ
يخالُها من يراها وهي جاثمةٌ ... في وكرِها كُرةً ملساءَ من أدمِ
إن رفرفت سكنت ظلاً وإن هبطت ... روت غليلَ الصدى من حائرٍ شبمِ
مرقومةُ الجيدِ من مسكٍ وغاليةٍ ... مخضوبةُ الساقِ والكفينِ بالعنمِ
كأنما شرعت في قانئٍ سربٍ ... من أدمعي فغدت محمرةَ القدمِ
وسجفَ العنكبوتُ الغارَ محتفياً ... بخيمةٍ حاكَها من أبدعِ الخيمِ
قد شدَّ أطنابَها فاستحكمت ورست ... بالأرضِ لكنَّها قامت بلا دعمِ
كأنها سابريٌّ حاكَهُ لبقٌ ... بأرضِ سابورَ في بحبوحةِ العجمِ
وارت فمَ الغارِ عن عينٍ تُلمُّ به ... فصارَ يحكي خفاءً وجهَ ملتثمِ
فيا لهُ من ستارٍ دونَهُ قمرٌ ... يجلو البصائرَ من ظُلمٍ ومن ظُلَمِ
فظلَّ فيهِ رسولُ اللّهِ معتكفاً ... كالدرِّ في البحرِ أو كالشمسِ في الغسمِ
حتى إذا سكنَ الإرجافُ واحترقت ... أكبادُ قومٍ بنارِ اليأسِ والوغمِ
أوحى الرسولُ بإعدادِ الرحيلِ إلى ... من عندهُ السرُّ من خلٍ ومن حشمِ
وسارَ بعدَ ثلاثٍ من مباءتِه ... يؤمُّ طيبةَ مأوى كلِّ معتصمِ
فحينَ وافى قُديداً حلَّ موكبُهُ ... بأمِّ معبدَ ذاتِ الشاءِ والغنمِ
فلم تجد لقراهُ غيرَ ضائنةٍ ... قد اقشعرت مراعيها فلم تسمِ
فما أمرَّ عليها داعياً يدهُ ... حتى استهلت بذي شخبينِ كالديمِ
ثمَّ استقلَّ وأبقى في الزمانِ لها ... ذكراً يسيرُ على الآفاقِ كالنسمِ
فبينما هو يطوي البيدَ أدركهُ ... ركضاً سراقةُ مثلَ القشعمِ الضرمِ

حَـتَّى إذا مـا دَنـا سـاخَ الجَـوادُ بِه فى بُرقَـة فَـهَـوى للسَّـاقِ وَالقَـدَمِ
فَـصـاحَ مُـبـتَـهِـلاً يَرجُـو الأمـانَ وَلَو مَـضى عَلَى عَـزمِـه لانهـارَ فى رجَمِ
وكَـيـفَ يَـبلُـغُ أمـراً دُونَـهُ وَزَرٌ مِـنَ العـنايَـةِ لَم يَـبلُـغـهُ ذُو نَسَمِ
فَـكَفَّ عَـنهُ رَسـولُ اللَّـه وَهوَ بِـه أدرى وكَم نِـقَمٍ تـفـتَـرُّ عَن نِـعَمِ
ولَم يَـزَل سـائـراً حَـتَّى أنافَ عَـلى أعـلامِ طَيـبَـةَ ذاتِ المَنظَرِ العَـمَمِ
أعظِم بِـمَقـدَمِـه فَـخـراً وَمَنـقَبَـةً لِمَعشَرِ الأوسِ وَالأحيـاءِ مِن جُشَمِ
فَـخـرٌ يَدُومُ لَـهُم فَـضلٌ بِذكـرَتِه مـا سـارَتِ العِـيسُ بِالزُّوَّارِ للحَـرَمِ
يَـومٌ بِه أرَّخَ الإسـلامُ غُـرَّتَـهُ وأدرَكَ الدِّينُ فـيـهِ ذِروَةَ النُّجُمِ
ثُمَّ ابـتَنى سَـيِّـدُ الكَونَينِ مَسـجِـدَهُ بُنيـانَ عِـزٍّ فَـأضحـى قـائِمَ الدِّعَمِ
وَاخـتَصَّ فـيـه بلالاً بالأذانِ وَمـا يُلـفى نَـظيـرٌ لَهُ فـى نَبـرَةِ النَّغَمِ
حَـتَّى إذا تَمَّ أمـرُ اللَّهِ وَاجـتَـمَـعَت لَهُ الـقَـبـائِلُ مِن بُعـدٍ وَمِـن زَمَمِ
قـامَ النَّبِـيُّ خَطيـبًـا فـيـهِمُ فَـأرى نَهجَ الهُـدى وَنَهى عَن كُـلِّ مُجـتَـرَمِ
وَعَـمَّـهم بِكِـتـابٍ حَـضَّ فـيـه عَلى مَـحـاسِنِ الفَـضلِ وَالآدابِ وَالشِّـيَمِ
فَـأصبَـحُـوا فى إخـاءٍ غَـيـرِ مُنصَـدِعٍ عَلى الزَّمـانِ وَعِـزٍّ غَـيـرِ مُنهَـدِمِ
وَحِـيـنَ آخى رَسُـولُ اللَّـه بَينَـهُمُ آخى عَلِيـاً وَنِعمَ العَـونُ فـى القُـحَمِ
هُـوَ الَّذى هَـزَمَ اللَّـهُ الطُّغـاةَ بِـه فى كُلِّ مُـعتَـرَكٍ بِالبيضِ مُحـتَـدِمِ
فَـاستَـحكَم الـدِّينُ وَاشـتَـدَّت دَعـائمُهُ حَـتَّى غَـدا واضِحَ العِـرنينِ ذا شَـمَمِ
وَأصـبَـحَ النـاسُ إخـوانًا وَعَـمَّـهُمُ فَـضلٌ مِنَ اللَّه أحيـاهُم مِنَ العَـدَمِ

سكت البابا قليلا، ثم قال: ثم عد الشاعر مفصلا مغازى رسول الله ﷺ[1].. ثم قال بعدها:

فَـهَـذِه الغَـزَواتُ الغُـرُّ شـامِـلَةً جَـمعَ البُـعُـوثِ كَدُرٍّ لاحَ فـى نُظُمِ
نَظَمـتُـهـا راجِيًـا نَيلَ الشَّـفـاعَـةِ مِن خَيـرِ البَـرايا وَمَـولـى العُـربِ وَالعَـجَمِ
هُوَ الـنَّبِـيُّ الَّذى لَولاهُ مـا قُـبِـلَت رَجـاةُ آدمَ لَمَّـا زَلَّ فى القَـدَمِ
حَـسـبى بِطَلعَـتِـه الغَـرّاءِ مَـفـخَـرَةً لَمَّـا التَـقَـيتُ بِه فى عـالَمِ الحُلُمِ
وَقَـد حَبـانى عَـصـاهُ فَـاعـتَـصَمتُ بِهـا فى كُـلِّ هَولٍ فَـلم أفـزَع وَلَـم أهِمِ
فَهِىَ الَّتـى كـانَ يَحبُـو مِـثـلَـهـا كَـرَمًـا لِمَـن يَوَدُّ وَحَـسـبى نِسـبَـةً بِـهِمِ
لَم أخشَ مِن بَـعـدِها مـا كُنتُ أحـذَرُهُ وَكَـيـفَ وَهِىَ الَّتى تُنجى مِـنَ الغُـمَمِ

---

(1) ستتحدث بتفصيل عن مغازى رسول الله ﷺ وعلاقتها بالسلام والشبهات المثارة حولها فى رسالة (النبى المعصوم) من هذه السلسلة.

كَفى بها نعمةً تعلو بقيمتها ... نفسي وإن كُنتَ مسلوبًا من القيمِ
وما أُبرِّئُ نفسي وهي آمرةٌ ... بالسُّوءِ ما لم تعقها خيفةُ النَّدمِ
فيا ندامةَ نفسي في المَعادِ إذا ... تعوَّذَ المرءُ خوفَ النُّطقِ بالبكمِ
لكنَّني واثقٌ بالعفوِ من ملكٍ ... يعفو برحمتهِ عن كُلِّ مجترمِ
وسوفَ أبلُغُ آمالي وإن عظُمت ... جرائمي يومَ ألقى صاحبَ العلَمِ
هُوَ الَّذي ينعشُ المكروبَ إذ علقت ... بهِ الرَّزايا ويُغني كُلَّ ذي عَدَمِ
هيهاتَ يخذُلُ مولاهُ وشاعرهُ ... في الحشرِ وهوَ كريمُ النَّفسِ والشِّيَمِ
فمدحُهُ رأسُ مالي يومَ مُفتقري ... وحُبُّهُ عِزُّ نفسي عندَ مُهتضَمي
وهبتُ نفسي لهُ حُبًّا وتكرمةً ... فهل تراني بلغتُ السُّؤلَ من سلَمي
إنِّي وإن مالَ بي دهري وبرَّحَ بي ... ضيمٌ أشاطَ على جمرِ النَّوى أدَمي
لثابتُ العهدِ لم يحلُل قُوى أملي ... يأسٌ ولم تخطُ بي في سلوةٍ قدَمي
لم يتركُ الدَّهرُ لي ما أستعينُ بهِ ... على التَّجمُّلِ إلاَّ ساعدي وفمي
هذا يُحبِّرُ مدحي في الرَّسولِ وذا ... يتلو على النَّاسِ ما أُوحيهِ من كَلِمي
يا سيِّدَ الكونِ عفوًا إن أثمتُ فلي ... بحُبِّكم صلةٌ تُغني عنِ الرَّحمِ
كفى بسلمانَ لي فخرًا إذا انتسبت ... نفسي لكُم مثلهُ في زُمرةِ الحَشَمِ
وحسنُ ظنِّي بكم إن مُتُّ يكلؤني ... من هولِ ما أتَّقي في ظُلمةِ الرَّجَمِ
تاللَّهِ ما عاقني عن حيِّكم شجنٌ ... لكنَّني مُوثَقٌ في ربقةِ السَّلَمِ
فهل إلى زورةٍ يحيا الفُؤادُ بها ... ذريعةٌ أبتغيها قبلَ مُخترَمي
شكوتُ بثِّي إلى ربِّي لينصفني ... من كُلِّ باغٍ عتيدِ الجورِ أوهكم
وكيفَ أرهبُ حيفًا وهوَ مُنتقمٌ ... يهابُهُ كُلُّ جبَّارٍ ومُنتقمِ
لا غروَ إن نلتُ ما أمَّلتُ منهُ فقد ... أنزلتُ مُعظمَ آمالي بذي كرمِ
يا مالكَ المُلكِ هب لي منكَ مغفرةً ... تمحو ذُنوبي غداةَ الخوفِ والنَّدمِ
وامنُن عليَّ بلُطفٍ منكَ يعصمني ... زيغَ النُّهى يومَ أخذِ الموتِ بالكظَمِ
لم أدعُ غيركَ فيما نابني فقني ... شرَّ العواقبِ واحفظني منَ التُّهمِ
حاشا لراجيكَ أن يخشى العثارَ وما ... بعدَ الرَّجاءِ سوى التَّوفيقِ للسَّلَمِ
وكيفَ أخشى ضلالاً بعدما سلكت ... نفسي بنورِ الهُدى في مسلكٍ قيَمِ
ولي بحُبِّ رسولِ اللَّهِ منزلةٌ ... أرجو بها الصَّفحَ يومَ الدِّينِ عن جُرُمي
لا أدَّعي عصمةً لكن يدي علقت ... بسيِّدٍ من يرد مرعاتهُ يسمِ
خدمتُهُ بمديحي فاعتلوتُ على ... هامِ السِّماكِ وصارَ السَّعدُ من خدَمي

وكيف أرهب ضيمًا بعد خدمته ... وخادم السادة الأجواد لم يضم
أم كيف يخذلني من بعد تسميتي ... باسم له في سماء العرش محترم
أبكاني الدهر حتى إذ لجئت به ... حنا عليّ وأبدى ثغر مبتسم
فهو الذى يمنح العافين ما سألوا ... فضلاً ويشفع يوم الدين في الأمم
نور لمقتبس ذخر لملتمس ... حرز لمبتئس كهف لمعتصم
بث الردى والندى شطرين فانبعثا ... فيمن غوى وهدى بالبؤس والنعم
فالكفر من بأسه المشهور في حرب ... والدين من عدله المأثور في حرم
هذا ثنائي وإن قصرت فيه فلي ... عذر وأين السها من كف مستلم
هيهات أبلغ بالأشعار مدحته ... وإن سلكت سبيل القالة القدم
ماذا عسى أن يقول المادحون وقد ... أثنى عليه بفضل منزل الكلم
فهاكها يا رسول الله زاهرة ... تهدي إلى النفس ريا الآس والبرم
وسمتها باسمك العالي فألبسها ... ثوبًا من الفخر لا يبلى على القدم
غريبة في إسار البين لو أنست ... بنظرة منك لاستغنت عن النسم
لم ألتزم نظم حبات البديع بها ... إذ كان صوغ المعاني الغر ملتزمي
وإنما هي أبيات رجوت بها ... نيل المنى يوم تحيا بذة الرمم
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت ... أحسن بمنتثر منها ومنتظم
صدرتها بنسيب شف باطنه ... عن عفة لم يشنها قول متهم
لم أتخذه جزافًا بل سلكت به ... في القول مسلك أقوام ذوي قدم
تابعت كعبًا وحسانًا ولي بهما ... في القول أسوة بر غير متهم
والشعر معرض ألباب يروج به ... ما نمقته يد الآداب والحكم
فلا يلمني على التشبيب ذو عنت ... فبلبل الروض مطبوع على النغم
وليس لي روضة ألهو بزهرتها ... في معرض القول إلا روضة الحرم
فهي التي تيمت قلبي وهمت بها ... وجدًا وإن كنت عف النفس لم أهم
معاهد نقشت في وجنتيّ لها ... أيدي الهوى أسطرًا من عبرتي بدم
يا حادي العيس إن بلغتني أملي ... من قصده فاقترح ما شئت واحتكم
سر بالمطايا ولا ترفق فليس فتى ... أولى بهذا السرى من سائق حطم
ولا تخف ضلة وانظر فسوف ترى ... نورًا يريك مدب الذر في الأكم
وكيف يخشى ضلالاً من يؤم حمى ... محمد وهو مشكاة على علم
هذي مناي وحسبي أن أفوز بها ... بنعمة الله قبل الشيب والهرم

وَمَن يَكُن راجِيًا مَولاهُ نالَ بِهِ
مَا لَم يَنَلهُ بِفَضلِ الجِدِّ وَالهِمَمِ
فاسجُد لَهُ وَاقتَرِب تَبلُغ بِطاعَتِهِ
ما شِئتَ فى الدَّهرِ مِن جاهٍ وَمِن عِظَمِ
هُوَ المَليكُ الَّذى ذَلَّت لِعِزَّتِهِ
أَهلُ المَصانِعِ مِن عادٍ وَمِن إِرَمِ
يُحيى البَرايا إِذا حانَ المَعادُ كَما
يُحيى النَّباتَ بِشُؤبوبٍ مِنَ الدِّيَمِ
يا غافِرَ الذَّنبِ وَالأَلبابُ حائِرَةٌ
فى الحَشرِ وَالنارُ تَرمى الجَوَّ بِالضَّرَمِ
حاشا لِفَضلِكَ وَهوَ المُستَعاذُ بِهِ
أَن لا تَمُنَّ عَلى ذى خَلَّةٍ عَدَمِ
إِنّى لَمُستَشفِعٌ بِالمُصطَفى وَكَفى
بِهِ شَفيعًا لَدى الأَهوالِ وَالقُحَمِ
فَاقبَل رَجائى فَما لى مَن أَلوذُ بِهِ
سِواكَ فى كُلِّ ما أَخشاهُ مِن فَقَمِ
وَصَلِّ رَبِّ عَلى المُختارِ ما طَلَعَت
شَمسُ النَّهارِ وَلاحَت أَنجُمُ الظُّلَمِ
وَالآلِ وَالصَّحبِ وَالأَنصارِ مَن تَبِعوا
هُداهُ وَاعتَرَفوا بِالعَهدِ وَالذِّمَمِ
وَامنُن عَلى عَبدِكَ العانى بِمَغفِرَةٍ
تَمحو خَطاياهُ فى بَدءٍ وَمُختَتَمِ

قلت: بورك فى هذا الشاعر الفاضل.. لقد تألم المسكين كثيرا فى حياته.

قال: من قال مثل هذه الأبيات لا يتألم.. فالحب إكسير أحمر يحول الألم لذة.. والتعب راحة.. والحزن سرورا.

قلت: صدقت.. ومذ هجر الناس هذا الحب الشريف وقعوا ضحية للمخدرات والخمور والليالى الماجنة..

قال: وفوق ذلك صرتم تسمعون بالانتحار الذى لم يسمع به أسلافكم.

قلت: فهل ترى نشر مثل هذا الحب الشريف يقى الأمة مثل هذه الأوباء؟

قال: لا يقيها فقط.. بل يرفعها لتعتلى عرش الحضارة الذى نزلت منه بعد هجرها لحبيبها.

**أحمد شوقى:**

قلت: لاشك أن من أكبر المعارضين للبردة أحمد شوقى.

قال: أجل.. فله فى ذلك قصيدته العصماء (نهج البردة) والتى صاغها على نسق البردة للإمام البوصيرى.

قلت: لقد كان شوقى ذا ذوق رفيع وأدب عال جعله يعترف بأفضلية الإمام البوصيرى، وسبقه عليه، فقال:

يا أحمد الخير، لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالنبى سمى؟
المادحون وأرباب الهوى تبع
لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى
وصادق الحب يملى صادق الكلم

اللـه يشـــهــد أنى لا أعــارضـــه ... من ذا يعارض صوب العارض العمم
وإنما أنا بـعـض الغـــابطـين ومـن ... يغـــبط وليك لا يذمم ولا يلم

قال: أجل.. ومما ورد فيها من مدح النبى ﷺ:

لزمتُ بابَ أميرِ الأنبياءِ، ومَنْ ... يُمْسِكْ بمفتاح باب الله يغتنمِ
فكلُّ فضلٍ، وإحسانٍ، وعارفةٍ ... ما بين مستلمٍ منه ومُلتزمِ
علقتُ من مدحه حبلاً أعزُّ به ... في يوم لا عزَّ بالأنسابِ واللُّحَمِ
يُزرى قَريضى زُهَيْراً حين أمدحُه ... ولا يقاسُ إلى جودى لدَى هَرِمِ
محمدٌ صفوةُ البارى، ورحمتُه ... وبغيةُ الله من خَلْقٍ ومن نَسَمِ
وصاحبُ الحوض يومَ الرُّسْلُ سائلةٌ ... متى الورودُ؟ وجبريلُ الأمينُ ظَمى
سناؤه وسناهُ الشمسُ طالعةً ... فالجِرمُ فى فلكٍ، والضوءُ فى عَلَمِ
قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوتُه ... من سؤددٍ باذخٍ فى مظهَرٍ سَنِمِ
نُمُوا إليه، فزادوا فى الورَى شرفًا ... ورُبَّ أصلٍ لفرعٍ فى الفخارِ نُمى
حَواه فى سُبُحاتِ الطُّهرِ قبلهم ... نوران قاما مقام الصُّلبِ والرَّحِمِ
لما رآه بَحيرا قال: نعرِفُه ... بما حفظنا من الأسماءِ والسِّيمِ
سائلْ حِراءَ، وروحَ القدس: هل عَلِما ... مَصونَ سِرٍّ عن الإدراكِ مُنْكَتِمِ؟
كم جيئةٍ وذهابٍ شُرِّفتْ بهما ... بَطحاءُ مكة فى الإصباحِ والغَسَمِ
ووحشةٍ لابنِ عبدِ الله بينهما ... أشهى من الأنس بالأحبابِ والحشَمِ
يُسامِرُ الوحىَ فيها قبل مهبطه ... ومَن يبشَّرْ بسيمَى الخير يَتَّسِمِ
لما دعا الصَّحْبُ يستسقونَ من ظمإٍ ... فاضتْ يداه من التسنيم بالسَّنِمِ
وظلَّلَته، فصارت تستظلُّ به ... غمامةٌ جذَبَتْها خيرةُ الدِّيَمِ
محبةٌ لرسول الله أُشرِبَها ... قعائدُ الدَّيرِ، والرُّهبانُ فى القِمَمِ
إنَّ الشمائلَ إن رَقَّتْ يكاد بها ... يُغْرَى الجمادُ، ويُغْرَى كلُّ ذى نَسَمِ
ونودىَ: اقرأْ. تعالى اللهُ قائلُها ... لم تتصلْ قبل مَن قيلتْ له بفمِ
هناك أذَّنَ للرحمنِ، فامتلأتْ ... أسماعُ مكَّةَ من قُدسيَّةِ النَّغمِ
فلا تسلْ عن قريش كيف حَيْرتُها؟ ... وكيف نُفْرتُها فى السهل والعَلَمِ؟
تساءلوا عن عظيمٍ قد ألمَّ بهم ... رمَى المشايخَ والولدانَ باللَّمَمِ
يا جاهلين على الهادى ودعوته ... هل تجهلون مكانَ الصادق العَلَمِ؟
لقَّبتموهُ أمينَ القومِ فى صِغَرٍ ... وما الأمينُ على قولٍ بمتَّهمِ
فاق البدورَ، وفاق الأنبياءَ، فكمْ ... بالخُلْقِ والخَلْقِ مِن حُسنٍ ومِن عِظَمِ

جاءَ النبيون بالآيات، فانصرمت ... وجئتنا بحكيمٍ غيرِ منصرمِ
آياتُه كلما طالَ المدى جُدُدٌ ... يزينهنّ جلالُ العتقِ والقِدمِ
يكاد في لفظةٍ منه مشرَّفةٍ ... يوصيك بالحق، والتقوى وبالرحمِ
يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً ... حديثُك الشهدُ عند الذائقِ الفهِمِ
حلّيتَ من عطَلٍ جيدَ البيانِ به ... في كلٍّ مُنتَثرٍ في حسنِ مُنتظِمِ
بكلِّ قولٍ كريمٍ أنت قائلُه ... تُحيي القلوبَ، وتُحيي ميّتَ الهِممِ
سرَتْ بشائرُ بالهادي ومولده ... في الشرق والغرب مَسْرى النور في الظلمِ
تخطّفتْ مُهجَ الطاغين من عربٍ ... وطيّرت أنفسَ الباغين من عجمِ
ريعت لها شُرَفُ الإيوان، فانصدعت ... من صدمة الحق، لا من صدمة القُدمِ
أتيتَ والناسُ فوضَى لا تمرُّ بهم ... إلا على صنمٍ، قد هام في صنمِ
والأرض مملوءةٌ جوراً، مُسخَّرةٌ ... لكلّ طاغيةٍ في الخَلْق مُحتكمِ
مُسيطِرُ الفرسِ يبغي في رعيّته ... وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِ
يُعذِّبان عبادَ الله في شُبَهٍ ... ويذبحان كما ضحّيتَ بالغنَمِ
والخلقُ يَفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليثِ بالبَهْم، أو كالحوت بالبلَمِ
أسرى بك اللهُ ليلاً، إذ ملائكُه ... والرُّسْلُ في المسجد الأقصى على قدمِ
لما خطرتَ به التفّوا بسيدهم ... كالشُّهْبِ بالبدرِ، أو كالجُند بالعَلَمِ
صلى وراءَك منهم كلُّ ذي خطرٍ ... ومن يفُز بحبيبِ الله يأتممِ
جُبْتَ السمواتِ أو ما فوقهن بهم ... على منوّرةٍ دُرّيّةِ اللُّجُمِ
رَكوبةً لك من عزٍ ومن شرفٍ ... لا في الجيادِ، ولا في الأينُق الرُسُمِ
مشيئةُ الخالق الباري، وصنعتُه ... وقدرةُ الله فوق الشك والتُّهَمِ
حتى بلغتَ سماءً لا يُطارُ لها ... على جَناحٍ، ولا يُسْعَى على قَدمِ
وقيل: كلُّ نبي عند رتبته ... ويا محمدُ، هذا العرشُ فاستلمِ
خطَطتَ للدين والدنيا علومَهما ... يا قارئَ اللوح، بل يا لامسَ القَلمِ
أحطتَ بينهما بالسرِّ، وانكشفتْ ... لك الخزائنُ من علمٍ، ومن حِكمِ
وضاعفَ القُربُ ماقُلِّدْتَ من مِنَنٍ ... بلا عِدادٍ، وما طُوِّقتَ من نِعمِ
سلْ عصبةَ الشِّرك حولَ الغار سائمةً ... لولا مطاردةُ المختار لم تُسَمِ
هل أبصروا الأثرَ الوضّاءَ، أم سمعوا ... همْسَ التسابيحِ والقرآنِ من أمَمِ؟
وهل تمثّل نسجُ العنكبوت لهم ... كالغابِ، والحائماتُ الزُّغْبُ كالرخمِ؟
فأدبروا، ووجوهُ الأرضِ تلعنُهم ... كباطلٍ من جلالِ الحق منهزمِ

لولا يدُ اللهِ بالجارَيْنِ ما سلِما وعينُه حولَ ركنِ الدين؛ لم يقمِ
تواريا بجَناح اللهِ، واستترَا ومن يضمَّ جناحُ اللهِ لا يُضَمِ

وبما ورد فيها من وصف النبي ﷺ ورد الشبهات المثارة حول رسالته:

البدرُ دونكَ في حُسنٍ وفي شَرفٍ والبحرُ دونك في خيرٍ وفي كرمِ
شُمُّ الجبالِ إذا طاولتَها انخفضتْ والأنجُمُ الزُّهرُ ما واسمتَها تسِمِ
والليثُ دونك بأسًا عند وثبتهِ إذا مشيتَ إلى شاكي السلاح كَمِي
تهفو إليكَ - وإن أدميتَ - حبَّتُها في الحربِ - أفئدةُ الأبطالِ والبُهَمِ
محبةُ اللهِ ألقاها، وهيبتُه على ابنِ آمنةٍ في كلِّ مُصطَدَمِ
كأن وجهَكَ تحت النَّقْعِ بدرُ دُجًى يضيءُ مُلْتَثِمًا، أو غيرَ مُلتثِمِ
بدرٌ تطلَّعَ في بدرٍ، فغُرَّتُه كغُرَّةِ النصرِ، تجلو داجيَ الظُلَمِ
ذُكِرْتَ باليُتْمِ في القرآنِ تكرمةً وقيمةُ اللؤلؤ المكنونِ في اليُتمِ
اللهُ قسَّمَ بين الناسِ رزقَهُمُ وأنت خُيِّرْتَ في الأرزاقِ والقِسمِ
إن قلتَ في الأمرِ: "لا"، أو قلتَ فيه: "نعم" فخيرةُ اللهِ في "لا" منك أو "نعمِ"
أخوك عيسى دعَا ميْتًا، فقام لهُ وأنت أحييتَ أجيالاً من الرِّمَمِ
والجهلُ موتٌ، فإن أوتيتَ مُعْجِزةً فابعثْ من الجهلِ، أو فابعثْ من الرَّجَمِ
قالوا: غَزَوْتَ، ورسْلُ اللهِ ما بُعثوا لقتْلِ نفسٍ، ولا جاءُوا لسفكِ دمِ
جهلٌ، وتضليلُ أحلامٍ، وسفسطةٌ فتحتَ بالسيفِ بعدَ الفتحِ بالقلمِ
لما أتى لكَ عفواً كلُّ ذي حَسَبٍ تكفَّلَ السيفُ بالجهالِ والعَمَمِ
والشرُّ إن تَلْقَهُ بالخيرِ ضِقتَ به ذَرْعًا، وإن تَلْقَهُ بالشرِّ يَنحسمِ
سَلِ المسيحيةَ الغراءَ: كم شربت بالصَّابِ من شهواتِ الظالمِ الغَلِمِ
طريدةُ الشركِ، يؤذيها، ويوسعُها في كلِّ حينٍ قتالاً ساطعَ الحَدَمِ
لولا حُماةٌ لها هبُّوا لنصرتِها بالسيفِ؛ ما انتفعتْ بالرفقِ والرُّحَمِ
لولا مكانٌ لعيسى عند مُرسِلهِ وحُرمةٌ وجبتْ للروحِ في القِدَمِ
لَسُمِّرَ البدنُ الطُّهرُ الشريفُ على لَوْحَيْنِ، لم يخشَ مؤذيه، ولم يَجِمِ
جلَّ المسيحُ، وذاقَ الصَّلْبَ شانئُهُ إن العقابَ بقدرِ الذنبِ والجُرُمِ
أخو النبيِّ، وروحُ اللهِ في نُزُلٍ فوقَ السماءِ ودونَ العرشِ مُحترَمِ
علَّمْتَهم كلَّ شيءٍ يجهلون به حتى القتالَ وما فيه من الذِّمَمِ
دعوتَهم لجِهادٍ فيه سُؤْدُدُهُمْ والحربُ أسُّ نظامِ الكونِ والأُممِ
لولاه لم نرَ للدولاتِ في زمنٍ ما طالَ من عمدٍ، أو قرَّ من دُهُمِ

تلك الشواهدُ تَتْرَى كلَّ آونة     في الأعصُر الغُرِّ، لا في الأعصُر الدُّهُمِ

بالأمس مالت عروشٌ، واعتلت سُرُرٌ     لولا القذائفُ لم تَثْلَمْ، ولم تَصِمِ

أشياعُ عيسى أعَدُّوا كلَّ قاصمة     ولم نُعِدَّ سوى حالات مُنقصِمِ

مهما دُعيتَ إلى الهيْجاء قُمْتَ لها     ترمي بأُسْدٍ، ويرمي اللهُ بالرُّجُمِ

على لِوائكَ منهم كلُّ مُنتقمٍ     لله، مُستقتلٍ في الله، مُعتزمِ

مُسبِّحٍ للقاء الله، مُضطرمٍ     شوقًا، على سابحٍ كالبرْقِ مضطرمِ

لو صادفَ الدَّهرَ يَبغي نقلةً، فرمى     بعزمه في رحال الدهرِ لم يَرِمِ

بيضٌ، مَفاليلُ من فعلِ الحروبِ بهم     من أَسْيُفِ الله، لا الهندية الخُذُمِ

كم في الترابِ إذا فتَّشت عن رجلٍ     من ماتَ بالعهد، أو من مات بالقَسَمِ

لولا مواهبُ في بعضِ الأنام لما     تفاوت الناسُ في الأقدار والقِيَمِ

شريعةٌ لك فجرت العقولَ بها     عن زاخرٍ بصنوف العلم ملتطمِ

يلوحُ حولَ سنا التوحيدِ جوهرُها     كالحلْي للسيف أو كالوشْي للعَلَمِ

غرّاءُ، حامت عليها أنفسٌ، ونُهًى     ومن يَجِدْ سَلْسَلاً من حكمةٍ يَحُمِ

نورُ السبيل يساس العالَمون بها     تكفَّلتْ بشباب الدهرِ والهَرَمِ

يجري الزمانُ وأحكامُ الزمانِ على     حُكم لها، نافذ في الخلق، مُرتَسِمِ

لَمَّا اعتلَت دولةُ الإسلامِ واتسعت     مشتْ ممالكُهُ في نورها التَّمِمِ

وعلَّمتْ أُمَّةً بالقفر نازلةً     رعْيَ القياصرِ بعد الشَّاء والنَّعَمِ

كم شَيَّد المصلحُون العاملون بها     في الشرق والغرب مُلكًا باذخَ العظَمِ

للعلم، والعدل، والتمدينِ ما عزموا     من الأمور، وما شدُّوا من الحُزُمِ

سرعان ما فتحوا الدنيا لملَّتهم     وأنهلوا الناسَ من سَلسالها الشَّبِمِ

ساروا عليها هُداةَ الناس، فَهْي بهم     إلى الفلاحِ طريقٌ واضحُ العَظَمِ

لا يهدِمُ الدَّهرُ رُكنًا شاد عدلُهُمُ     وحائط البغي إن تلمسْهُ ينهدمِ

نالوا السعادةَ في الدَّارين، واجتمعوا     على عميم من الرضوان مقتسمِ

دعْ عنك روما، وآثينا، وما حوتا     كلُّ اليواقيت في بغدادَ والتُّوَمِ

وخلِّ كسرى، وإيوانًا يدلُّ به     هوى على أثَرِ النيران والأيُمِ

واتركْ رعمسيسَ، إن الملكَ مَظهرُهُ     في نهضة العدل، لا في نهضة الهرَمِ

دارُ الشرائع روما كلَّما ذُكِرَتْ     دارُ السلام لها ألقتْ يدَ السَّلَمِ

ما ضارعتها بيانًا عند مُلتأَمٍ     ولا حكَتها قضاءً عند مُختصَمِ

ولا احتوت في طِرازٍ من قياصرها     على رشيدٍ، ومأمونٍ، ومُعتصمِ

مِن الذين إذا سارت كتائبُهم ... تصرّفوا بحدود الأرض والتُخُمِ
ويجلسونَ إلى علمٍ ومَعرفةٍ ... فلا يُدانَون في عقلٍ ولا فَهَمِ
يُطأطئُ العلماءُ الهامَ إن نَبَسُوا ... من هيبةِ العلْم، لا من هيبةِ الحُكُمِ
ويُمطِرون، فما بالأرضِ من مَحَلٍ ... ولا بمن باتَ فوق الأرضِ من عُدُمِ
خلائفُ الله جلُّوا عن موازنةٍ ... فلا تقيسنّ أملاكَ الورى بهمِ
مَنْ في البرية كالفاروق مَعْدَلَةً؟ ... وكابنِ عبد العزيزِ الخاشعِ الحشِمِ؟
وكالإمامِ إذا ما فَضَّ مزدحمًا ... بمدمعٍ في مآقي القومِ مزدحمِ
الزاخرِ العذْبِ في علْمٍ وفي أدبٍ ... والناصرِ النَّدْبِ في حربٍ وفي سلمِ؟
أو كابنِ عفّانَ والقرآنُ في يدهِ ... يحنو عليه كما تحنو على الفُطُمِ
ويجمعُ الآي ترتيبًا وينظمُها ... عقدًا بجيدِ الليالي غيرِ منفصمِ؟
جُرحانِ في كبدِ الإسلام ما التأما ... جُرْحُ الشهيد، وجرحٌ بالكتاب دمي
وما بلاءُ أبي بكرٍ بمتّهمٍ ... بعد الجلائلِ في الأفعالِ والخِدَمِ
بالحزمِ والعزمِ حاطَ الدين في محنٍ ... أضلَّت الحلم من كهلٍ ومحتلمِ
وحدْنَ بالراشدِ الفاروقِ عن رشدٍ ... في الموت، وهو يقينٌ غيرُ منبَهمِ
يجادلُ القومَ مُسْتَلاً مهنَّدَهُ ... في أعظمِ الرسْلِ قدرًا، كيف لم يدمِ؟
لا تعذلوه إذا طاف الذهولُ به ... مات الحبيبُ، فضلَّ الصبُّ عن رَغَمِ
يا ربِّ صلِّ وسلِّم ما أردتَ على ... نزيلِ عرشك خيرِ الرسْلِ كلِّهمِ
مُحيي الليالي صلاةً، لا يقطِّعُها ... إلاّ بدمعٍ من الإشفاقِ مُنسجمِ
مسبِّحًا لك جُنْحَ الليل، محتملاً ... ضُرًّا من السُّهدِ، أو ضُرًّا من الورَمِ
رضيَّةً نفسُهُ، لا تشتكي سأمًا ... وما مع الحبِّ إن أخلصت من سأمِ
وصلِّ ربِّي على آلٍ لهُ نُخَبٍ ... جعلتَ فيهم لواءَ البيتِ والحرمِ
بيضُ الوجوه، ووجهُ الدهر ذو حَلَكٍ ... شُمُّ الأنوف، وأنفُ الحادثات حمي
وأهدِ خيرَ صلاةٍ منك أربعةً ... في الصحب، صُحبتُهم مَرْعيَّةُ الحُرَمِ
الراكبين إذا نادى النبيُّ بهم ... ما هال من جَلَلٍ، واشتدَّ من عَمَمِ
الصابرين ونفسُ الأرض واجفةٌ ... الضاحكين إلى الأخطار والقُحَمِ
يا ربِّ، هبتْ شعوبٌ من منيّتها ... واستيقظت أُمَمٌ من رقْدة العدمِ
سعدٌ، ونحسٌ، ومُلكٌ أنت مالكه ... تُديلُ مِنْ نِعَمٍ فيه، ومِنْ نِقَمِ
رأى قضاؤك فينا رأيَ حكمته ... أكرِمْ بوجهك من قاضٍ ومنتقمِ
فالطُفْ لأجلِ رسول العالمين بنا ... ولا تزدْ قومه خسفًا، ولا تُسمِ
يا ربِّ، أحسنت بَدءَ المسلمين به ... فتمِّم الفضلَ، وامنحْ حُسنَ مُختتَمِ

**السيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي:**

قلت: ومن الصالحين الذين سمعت أنهم ساروا على أقدام البردة الشريفة السيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي.

قال: أجل.. ذلك الشاعر الصالح المحب..

قلت: فارو لي من قصيدته ما يذكرنا بالحبيب..

قال: لا بأس.. يقول في قصيدته العصماء في مدح حبيبه ﷺ:

أبيت أرعى نجوم الليل في الظلم ... لم تغمض العين من وجدي ولم تنم
أبيت ليلي أناجي الشهب مرتقبًا ... ضوء الصباح كملسوع من الصمم
والقلب ما زال خفاقًا ومضطربًا ... مما احتوى من عظيم الشوق والألم
والعين تذرف بالدمع الغزير أسى ... من لوعة الوجد يحكي فائض الديم
يا قلب مالك طول الدهر مضطربًا ... لم تستفق وإذا قيل استفق تهم
رميتني عامداً قصداً بلا سبب ... هل ينبغي الرمي للأحباب بالحمم
رفقًا على دنف رفقًا على كلف ... من الصبابة والأشواق في سقم
سقم الصبابة في قلبي له ضرم ... أواه من لوعة الأشواق والضرم
ليت الحرارة من قلبي قد انطفأت ... يا ليتها أصبحت كالمورد الشبم
أبيت ليلي من الأشواق في قلق ... والقلب يخفق من شجواه كالعلم
وجدد الوجد والأشواق مذ نظرت ... عيناي برقًا بدا في الليل من إضم
تذكر القلب والذكرى مهيجة ... أهل الحجون وأهل البان والعلم
وبات ليلاً يعاني حر لوعته ... وفي عناء من الأشجان والسدم
وحالة الصب لا تخفى على أحد ... فالعين شكرى وقد فاضت بمنسجم
وكيف يستر حبًا غير مستتر ... هيهات ليس بمخفي ومكتتم
يا عاذلاً جاء باسم النصح يعذلني ... كأنه غير ذي عذل ومتهم
رويدك العذل لا يثني الفتى أبدًا ... عن حبه فانكفف عنه ولا تلم
لو كنت تعرف أسرار المحبة ما ... عذلته فدع الأسرار للفهم
والحب سر به نفسي لقد علقت ... وما بلغت لعمري حلم محتلم
والنفس إن أصبحت في الحب مولعة ... فلا ترم كبح حب النفس باللجم
لا تترك النفس مألوفًا لها أبدًا ... وإن يكن يصم الإنسان أو يصم
والنفس أمارة بالسوء إن جمحت ... رمتك في حمأة أو مأزق وخم
كالخيل إن روضت سارت بصاحبها ... هونًا وإن أهملت بالغير تصطدم

ثم يقول:

بسيد الخلق شمس الحق معتصمى ... محمد خير معصوم ومعتصم
له فررت حبيب الله حجته ... ومصدر الفضل والعرفان والكرم
أصل الوجود وروح الكون بهجته ... زين الشمائل والآداب والشيم
مطهر الأرض من رجس ومن درن ... من عابدى وثن من عابدى صنم
لله من منقذ الإنسان من سقر ... خير البرية من عرب ومن عجم
لولاه ما سارت الركبان عن طرب ... إلى مدينته الغراء والحرم
أسمى الورى فطرة أعلاهم نسبًا ... أرقى الخليقة فى قدس وفى العظم
أصوله طهر المولى عقائدهم ... طهرًا جرى سابقًا من سالف القدم
كرامة وامتيازًا للحبيب ... عليه الله صلى عظيم الشان والهمم
من أسعد الكون إسعادًا وطهره ... وسن أعظم ما قد سن من نظم
أتى لنا بكتاب الله معجزة ... يهدى إلى الرشد كم يحلو بكل فم
وجاء يقرؤه باسم الرشاد ... على الوجود من كان ذا سمع وذا صمم
سبت عقول بنى الإنسان لهجته ... لا يستطيع لعمرى وصفها قلمى
تفجرت منه أنهار الفصاحة ... والبيان والعلم والآداب والحكم
كلامه معجز الله ميزه ... وهديه خير هدى للناس كلهم
قد خصه الله بالتقدير قدره ... فى سابق العلم قد والاه بالنعم
فكل فضل فمن فضل النبى وقل ... ما شئت فى فضل رب التاج والشمم
تعاظمت أشرقت أرجاء ساحته ... بنوره فى نواحى الأرض كالنجم
لله ما ناله المختار من شرف ... مقامه الفذ لم يدرك ولم يرم
أثنى الإله على أخلاقه وأتى ... فى سورة النون فى الفرقان والقلم
يكفى القرآن ثناء فى شمائله ... لله ما جاء فى القرآن من قسم
لله من قسم ما ناله أحد ... لا فخر أرفع من هذا لدى الأمم
وقد دعا أمم الدنيا بأجمعها ... وكان ذلك بعد الرعى للغنم
أخلاقه قط لم يظفر بها بشر ... رتل شمائله الحسناء بالنغم
أزكى البرية أخلاقًا وأنبلهم ... قصدًا وأوفاهم بالعهد والذمم
يسدى النوال بلا من يكدره ... يحنو على الناس من صحب ومن حشم
وأزهد الخلق فى الدنيا وزهرتها ... حول الملذات والزينات لم يحم
لم يمتلئ جوفه والله من شبع ... وساده حشوه ليف من الأدم

والمال وافاه لكن كان ينفقه     على المقلين من ذى الجوع والعدم
قد ارتضى بحياة الكد عن رغب     من يحذ حذو حياة الطهر يتسم
فكان ميلاده للناس مفخرة     أبان مولده الأسمى عن العظم
فكم غرائب كم من حادث عمم     كسرى رأى ما انجلى من أكبر الجسم
وكيف يرتج إيوان له عمد     وقد مضى وانقضى فى الوقت كالحلم
وقدرة الله إن حلت على شرف     دكته دكًا وهدت شامخ الأطم
وأطفئت نار أهل الشرك أطفأها     الرحمن لما عدت مشتدة الحدم
وساء ساوة قد سدت منابعه     فارتاعت الفرس من ذا الخارق العمم
وأيقنت أن أمر الملك منصرم     عنها فباتت تحيل الفكر فى غمم
وكان ذلك إرهاصًا لدعوة من     قد عمه الله بالآلاء والعصم
وانقضت الشهب فى الجن الذين لهم     نحو السماء صعود ليس بالكتم
طاحت مقاعدهم للسمع فارتعدوا     من ثاقب الشهب حاصوا حيصة النعم
كرامة لرسول الله قد ظهرت     هذى البشارات كانت مبدأ النعم
دعا إلى الله وسط العداة بلا     خوف وأظهره المولى على الخصم
لله من دعوة عظمى لها الأثر     الكبير لله من ذى دعوة قدم
قد أسمعت كل ذى سمع وذى صمم     حتى ربى قاع كل الأرض والقمم
والله يعصمه الله يحرسه     جبريل يخدمه من جملة الخدم
فأخرج الناس من ليل الظلام إلى     النور المبين الذى يهدى إلى اللقم
وفاز بالنجح إذ كانت دعايته     بحكمة فحلا تردادها بفم
وقد رعته عنايات مقدرة     والحمد لله ربى بارئ النسم
سلهم لماذا اجتمعتم حول منزله     عن التزام ولم توفوا بملتزم
حاولتم الفتك لكن خاب سعيكم     وأصبح الشمل منكم غير ملتئم
وسار "طه" وما أغنى تجمهركم     ولم يكن أحد منكم بمنتقم
ونام فى الفرش فرش المصطفى بطل     زوج البتول «على» بذ كل كمى
وطاردوه فلم يلفوا له أثرًا     وغار ثور بنسج العنكبوت حمى
فى الغار أحمد والصديق قد مكثا     ويمما بلد الأنصار عن رغم
فقوبلا بحفاوات وتكرمة     من معشر بصنوف الخير مزدحم
أكرم بهم وبمن قد فارقوا قدمًا     أوطانهم رغبة فى فضل ربهم
حب الرسول بقلب الصب ممتزج     بكل جزء سرى فى لحمه ودم

وقوله كله دين ومنفعة        فى كل مبتدأ منه ومختتم
يا أجود الخلق من يسقى بطلعته        صوب الغمام فيزهو النبت فى الأكم
أتيتنا بكتاب جل منزله        سبحانه منشئ الإنسان من عدم
يفنى الزمان ولا تفنى عجائبه        تفجر العلم من آذيه العرم
فيه الهدى ولأصناف العلوم حوى        يجرى بموج من العرفان ملتطم
بفضل أصحابك الأبطال قد جمعت        آياته وغدت مرعية الحرم
أرضاهم الله مولانا برحمته        قد ألفت آى مولانا بفضلهم
الله أنزله للناس تبصرة        لا ريب فيه يقى من زلة القدم
يشفى الصدور وينجى كل معتصم        به ويذهب كل الضيق والسأم
وقد أقر العدا إقرار معترف        بالعجز من غير تحكيم ولا حكم
والإنس والجن لم يقدر مصاقعهم        يأتون بالمثل-قلب القادحين عمى
يشوق الناس تشويقًا ويندبهم        إلى الجنان مع الهادى نبيهم
وتطمئن قلوب المؤمنين به        يجلو صداها كلام الله ربهم
وهو الشفيع لقاريه شفاعته        غدًا تنال يقود الناس بالخطم
والمصطفى ترك القرآن واعظنا        أشد آى لديه قوله "استقم"
ما فرط الله شيئًا جل خالقنا        في الذكر سبحان مبدى الخلق من عدم
هو الأمان هو الحرز المكين لنا        فاقصد إليه بصدق العقد واستلم
لقد سريت من البيت الحرام إلى        القدس المبارك فى وقت من الغسم
على البراق وقد تم المسير به        للقدس بشرى لـ«طه» خير مغتنم
هناك ألفيت رسل الله واقفة        فجئتهم قادمًا فى مظهر فخم
وقد تقدمت للمحراب فانتظمت        صفوفهم مثل در بان منتظم
صلوا وراءك والأفراح تغمرهم        لأن نورهم من نورك التمم
قد ارتقيت إلى السبع الطباق على        المعراج أكرم سريع الخط والرسم
ما زاغ قلبك يا ثبت الجنان لدى        تكليم ربك ذى الإفضال والكرم
رأيت آياته الكبرى التى بهرت        عيناك أعطاك فضلاً غير مقتسم
وقد حباك تعالى بالصلاة فطب        بقرة العين قد فزنا على الأمم
رسمت للناس دستورًا تكفل بـ        ـالفلاح فهو بربى خير مرتسم
يساير العصر فى أدوار نهضته        يدعو إلى وحدة الأفكار والسلم
أيدت بالرعب من رب الورى كرمًا        يلقاك كل العدا فى موكب سنم

عــصابة الــشــرك قــد حــارت من الــ ـقــمــر المنشق وهو دوامًــا غـيــر منقــسم
وكم رأت مــدهشــات منه واضــحــة مــا قــد رأته جليًا غــيـــر مـنبــهم
لكـنهـــا نفـــرت عن دينه حـــســـدًا كنافــر الـطيــر أو حــمــر من الـنعم
أدى الرســـالـة روح الكون كـــامـلة وقــد مـشـى للوغى بالـصـارم الخـذم
ضــحــى بما عـــز مــن نفس ومن نـشب بكل بـشـــر بـشــغــر منه مـبـتــسـم
وخـصـه الـله بالأصـحـاب خـيــر فــدا ئيــيــن فى كل إقـــدام ومـــصـطدم
بهـم أقـــام رســـول الـله ملتـــه لولا مــجـاهدة الأصـحـاب لــم تقم
من كل مــعـــتــزم بـالحــزم مــتــسم بالصــدق ملتــهم نـحـو العــدا قــرم
ينقض كـالبـاز فى الهـيـجـاء مـخـتطفًـا بـسـيــفـه كـل باغ غـيــر مــحــتكم
أســد كـــمـــاة مـــغــاويـر ذوو فطن كم من ذوى الزيغ قـد ألـقـوه فى الرجم
يـســتــرخـــصــون المنايا لا يهــولهم ورودهم مــــورد الأهوال والـقـــحـم
وكـــيــف لا ورســـول اللـه يقـدمـــهم فى سـاحــة الحـرب يأتى كل مـضطرم
لا بدع فى ذاك إن جـــادوا بأنفـــســهم قـــصـــد الدفـــاع عن الهـــادى ودينـهم
إن الوطيس إذا مـــا صـــار مـشــتـعـــلاً لاذوا بـه كلـواذ الأســـــد بالأجـم
فـــزاد إيمـــان أصـــحـــاب الرســـول به يـســتـصــبـحـون بنور المصطفـى الفـهم

**يحيى توفيق:**

سكت البابا، فقلت: لقد قرأت قبل أيام قصيدة جميلة لشاعر سعودى يسمى (يحيى توفيق) وهى تنهج نهج هذا النوع من الشعر الشريف.

قال: أعرفها.. وهى قصيدة تمتلئ رقة وعذوبة ومحبة.. فبورك فى قائلها.. اروها لى إن كنت تحفظها.

قلت: لقد قال هـذا الشاعـر الفاضل فى مـدح النبى ﷺ والشكوى لما حصـل للأمة بغيابه[1]:

عـــز الورود.. وطـال فـــيك أوام وأرقت وحـــدى..والأنـام نيـــام
ورد الجـــمـــيع ومـن سناك تزودوا وطردت عـن نبع الـسنى وأقـــامـوا
ومنعـت حـتى أن أحـوم..ولـم أكـد وتقطـعت نفـــسى عليك..وحـــامــوا
قـصـــدوك وامتـــدحـوا ودونـى أغلقت أبواب مــدحك..فــالحـروف عـقـام
أدنوا فـــأذكـــر مـــا جنيت فـــأنثنى خـــجـلا..تضـيق بحـملى الأقـدام

(1) ننبه أن هذه القصيدة نسبت خطأ فى بعض المواقع لنزار قبانى، انظر تصحيح الخطأ فى: جريدة الشرق الأوسط، الأحد 13 ذو القعدة 1427 هـ 3 ديسمبر 2006 العدد 10232.

أمن الحضيض أريد لمسا للذرى          جل المقام.. فلا يطال مقام
وزرى يكبلنى.. ويخرسنى الأسى          فيموت فى طرف اللسان.. كلام
يممت نحوك يا حبيب الله فى          شوق.. تقض مضاجعى الآثام
أرجو الوصول فليل عمرى غابة          أشواكها.. الأوزار.. والآلام
يا من ولدت فأشرقت بربوعنا          نفحات نورك.. وانجلى الإظلام
أأعود ظمآنا وغيرى يرتوى          أيرد عن حوض النبى.. هيام
كيف الدخول إلى رحاب المصطفى          والنفس حيرى والذنوب جسام
أو كلما حاولت إلمام به          أزف البلاء فيصعب الإلمام
ماذا أقول وألف ألف قصيدة          عصماء قبلى.. سطرت أقلام
مدحوك ما بلغوا برغم ولائهم          أسوار مجدك فالدنو لمام
ودنوت مذهولا.. أسيرا لا أرى          حيران يلجم شعرى الإحجام
وتمزقت نفسى كطفل حائر          قد عاقه عمن يحب.. زحام
حتى وقفت أمام قبرك باكيا          فتدفق الإحساس.. والإلهام
وتوالت الصور المضيئة كالرؤى          وطوى الفؤاد سكينة وسلام
يا ملء روحى.. وهج حبك فى دمى          قبس يضىء سريرتى.. وزمام
أنت الحبيب وأنت من أروى لنا          حتى أضاء قلوبنا.. الإسلام
حوربت لم تخضع ولم تخش العدى          من يحمه الرحمن كيف يضام
وملأت هذا الكون نورا فاختفت          صور الظلام.. وقوضت أصنام
والذل خيم فالنفوس كئيبة          وعلى الكبار تطاول الأقزام
الحزن.. أصبح خبزنا فمساؤنا          شجن.. وطعم صباحنا أسقام
واليأس ألقى ظله بنفوسنا          فكأن وجه النيرين.. ظلام
أنى اتجهت ففى العيون غشاوة          وعلى القلوب من الظلام ركام
الكرب أرقنا وسهد ليلنا          من مهده الأشواك كيف ينام
يا طيبة الخيرات ذل المسلمون          ولا مجير وضيعت.. أحلام
باتوا أسارى حيرة.. وتمزق          فكأنهم بين الورى.. أغنام
ناموا فنام الذل فوق جفونهم          لا غرو.. ضاع الحزم والإقدام
يا هادى الثقلين هل من دعوة          تدعى.. بها يستيقظ النوام

3 - **شعراء مسيحيون:**

ما انتهيت من رواية القصيدة حتى قال لى البابا: لم يقتصر مدح النبى ﷺ على المسلمين وحدهم.. حتى المسيحيون لهم نصيب من هذا.

قلت: المسيحيون!؟

قال: أجل.. ألم تعلم أن مسيحيى العرب أقرب إلى الإسلام من قربهم للمسيحية نفسها، حتى إنى سمعت بعضهم يدافع على انتمائه للحضارة الإسلامية، ويفخر بذلك.. ويعتبر الحضارة الغربية حضارة شذوذ[1].

قلت: فسم لى بعض هؤلاء الشعراء الأفاضل.

**وصفى قرنفلى:**

قال: منهم وصفى قرنفلى (1911 - 1978)، الذى كان فى طليعة رابطة الكتاب السوريين، وصدر له ديوان وحيد بعنوان (وراء السراب).

وقد خاف قرنفلى أن يوصف بمجاملة المسلمين أو مداهنتهم لحاجات فى نفسه، فبدأ بالدفاع عن نفسه، وتبرير مدحه رسول الله ﷺ، فأعلن أن طائف الحب طاف به، فأترع كؤوس الهوى، والإعجاب بالنبى اليعربى فقال:

قد يقولون: شاعرٌ نصرانى ... يرسل الحب فى كِذابِ البيانِ
يتغنى هوى الرسولِ.. ويهذى ... بانبشاق الهدى من القرآنِ
يتنحى الجبهة القويةَ يحدوها ... رياءً والشعر (لا وجدانى)
كذبوا - والرسولِ - لم يجرِ يومًا ... بخلاف الذى أكن لسانى
ما تراءيتُ بالهوى بل سقانى ... طائفٌ من الحب والهوى ما سقانى
أوَعارٌ على فتىً يعربى ... أن تغنى بالسيد العدنانى؟!
أوليس الرسول منقذَ هذا الشرق ... من ظلمة الهوى والهوانِ؟
أفكُنا لولا الرسول سوى العبدان ... بئست معيشة العبدان؟!
أو ليس الوفاء أن تخلص المنقذ ... حبا إن كنت ذا وجدان؟!
فالتحيات والسلام أبا القاسم ... تُهدى إليك فى كل آن!

**جورج صيدح:**

ومنهم جورج صيدح الكاتب المهجرى الذى كتب قصيدة رائعة فى مدح النبى ﷺ باسم (حراء يثرب) يستنهض فيها الأمة، مذكرًا إياها بما بعث النبى ﷺ من الحمية والهمة والأنفة، مشيرًا إلى تدنيس القدس الشريف ؛ حتى إنه ليقتبس آية من القرآن ـ من سورة الرحمن ـ يضمنها القصيدة، فيقول:

---

(1) انظر رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (حضارة).

يا من سريتَ على البراق | وجُزت أشواط العَنان
آن الأوان لأن تجدّد | ليلة المعراج.. آن
عرّج على القدس الشريف | ففيه أقداسٌ تهان
ماذا دهاهم؟هل عصوْك | فأصبح الغازى جبان؟
أنت الذى علمتهم | دفع المهانة بالسنان
ونذرت للشهداء جنات | وخيرات حسان
يا صاحبىّ: بأى آلاء | النبى تكذبان؟!

**جورج سلستى:**

ومنهم الشاعر المهجرى جورج سلستى الذى كتب قصيدة بعنوان (نجوى الرسول الأعظم) وهى قصيدة مليئة بالعاطفة الصادقة، وكأنما كتبها مسلم:

أقبلتَ كالحق وضّاحَ الأسارير | يفيض وجهُك بالنعماء والنور
على جبينك فجرُ الحق منبلجٌ | وفى يديك جرت مقاليدُ الأمور
فرحتَ فينا، وليل الكفر معتكر | تفرى بهديك أسداف الدياجير
وتمطر البيد آلاءً وتُمرعها يمنًا | يدوم إلى دهر الدهارير
أبيتَ إلا سموّ الحق حين أبى | سواك إلا سموًّ البُطل والزور!

وقال يصف الصحراء العربية التى أطلعت شمس المصطفى ﷺ:

ما أنتِ بالمصطفى يا بيدُ مجدبةٌ | كلا ولا أنتِ يا صحراءُ بالبور
أطلعتِ من تاهت الدنيا بطلعته | ونافستْ فيه حتى موئلَ الحور
بوركتِ أرضًا تبث الطهرَ تربتُها | كالطيب.. بثته أفواه القوارير
الدين ما زال يزكو فى مرابعها | والنبل ما انفك فيها جدّ موفور
والفضل والحلم والأخلاق ما فتئت | تحظى هناك بإجلال وتوقير

ويعتذر للنبى ﷺ عن تقصير شعره فى الوفاء بحقه، فيقول:

يا سيدى يا رسول الله معذرةً | إذا كبا فيك تبيانى وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة | وأنت تعلو على ظنى وتقديرى؟!
وأنت ربُّ الأداء الفذ فى لغة | تشأو اللُّغى حسنَ تنميقٍ وتصوير
على لسانك ما جن البيان به | فذلك الشعر يرنو شبهَ مسحور!
آى من الله.. ما ينفك مُعجزُها | يعيى على الدهرِ أعلام التحارير
تلوتَها فسرت كالنور مؤتلقًا | يطوى الدنا بين مأهولٍ ومهجور!

**محبوب الخورى الشرتونى:**

ومنهم محبوب الخورى الشرتونى، وهو من شعراء المهجر الشمالى، الذين كتبوا فى رسول الله ﷺ رافعًا إياه إلى مستوى النموذج البشرى الأتم، أو مثال البطولة الأوحد، وقد كتب قصيدة بعنوان (قالوا تحب العرب؟) يقول فيها:

قالوا تحب العُرْب؟قلت: أحبهم ... يقضى الجوارُ علىّ والأرحامُ
قالوا: لقد بخلوا عليك، أجبتهم ... أهلى وإن بخلوا علىّ كرام
قالوا الديانة؟ قلت: جيل زائل ... وتزول معْه حزازةٌ وخصامُ
ومحمد.. بطل البرية كلها ... هو للأعارب أجمعين إمام

**الشاعر القروى:**

ومن أشهر شعراء المهجر الجنوبى رشيد سليم الخورى الذى اشتهر بالشاعر القروى، وقد كتب قصيدة بعنوان (عيد البرية) يستحث فيها المسلمين لاستعادة مجدهم القديم منها، ويقرئ رسول الله ﷺ سلاماته وحبه، داعيًا إلى التحاب والتآخى بين المسلمين والنصارى، فيقول:

يا فاتح الأرض ميدانًا لدولته ... صارت بلادُك ميدانًا لكل قوى
يا قومُ هذا مسيحىٌّ يذكّركم ... لا يُنهِض الشرقَ إلا حبُّنا الأخوى
فإن ذكرتم رسول الله تكرمة ... فبلّغوه سلام الشاعر القروى

ويذكر الأندلس وبغداد ويحن إلى ما كان فيها من حضارة الإسلام، فيقول:

ياحبذا عهد بغداد وأندلسٍ ... عهد بروحى أفدّى عَودَهُ وذوى
من كان فى ريبةٍ من ضَخْم دولته ... فليتلُ ما فى تواريخ الشعوب رُوى

**خليل مطران:**

ومنهم خليل مطران الذى كتب قصيدة تسمى (رأس السنة الهجرية) يقول فيها:

عانى محمد ما عانى بهجرته ... لمآرب فى سبيل الله محمود
وكم غَزاةٍ وكم حربٍ تجشمها ... حتى يعود بتمكين وتأييد
صعبان راضهما: توحيدُ معشرهم ... وأخذُهم بعد إشراك بتوحيد
وبدؤه الحكم بالشورى يتم به ... ما شاءه الله من عدل ومن جود

وله قصيدة احتفالية أخرى شارك فيها المسلمين، عنوانها: (عظة العيد الهجرى)، يمدح فيها ويكبر الهلال رمز الإسلام، أو هو الرسول ﷺ نفسه فيقول:

سلام على هذا الهلال من امرئ ... صريح الهوى، والحر لا يتكتم
سلام وتكريم.. بحق كلاهما ... وأشرف من أحببتَه من تكرم
هويتك إكبارًا لمن أنت رمزه ... من المأرب العلوى لو كان يفهم

**مارون عبود:**

ومنهم مارون عبود الشاعر اللبنانى الذى كتب قصيدة مطولة فى مدح النبى ﷺ يقول فيها:

| | |
|---|---|
| لولا كتابُك ما رأينا معجزًا | فى أمة مرصوصة البنيان |
| حملت إلى الأقطار من صحرائها | قبسَ الهدى ومطارفَ العمران |
| هادٍ يُصورٌ لى كأن قوامه | متجسدٌ من عنصر الإيمان |

**إلياس فرحات:**

ومنهم الشاعر الشهير إلياس فرحات الذى يقول فى قصيدته (يا رسولَ الله):

| | |
|---|---|
| غَمَرَ الأرْضَ بأنْوارِ النُّبُوَّةْ | كَوْكَبٌ لَمْ تُدْرِكِ الشَّمْسُ عُلُوَّهْ |
| لَمْ يَكَدْ يَلْمَعُ حَتَّى أصْبَحَتْ | تَرْقُبُ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا دُنُوَّهْ |
| بَيْنَمَا الكَوْنُ ظَلامٌ دَامِسٌ | فُتِحَتْ فِى مَكَّةَ لِلنُّورِ كُوَّةْ |
| وَطَمَى الإسْلامُ بَحْرًا زَاخِرًا | بِأواذِىِّ المَعَالِى وَالفُتُوَّةْ |
| مَنْ رَأى الأعْرَابَ فِى وَثْبَتِهِمْ | عَرَفَ البَحْرَ وَلَمْ يَجْهَلْ طُمُوَّهْ |
| إنَّ فِى الإسْلامِ لِلْعُرْبِ عُلاً | إنَّ فِى الإسْلامِ لِلنَّاسِ أخُوَّةْ |
| فَادْرُسِ الإسْلامَ يَا جَاهِلَهُ | تَلْقَ بَطْشَ اللهِ فِيهِ وَحُنُوَّهْ |
| يَا رَسُولَ اللهِ إنَّا أُمَّةٌ | زَجَّهَا التَّضْلِيلُ فِى أعْمَقِ هُوَّةْ |
| ذَلِكَ الجَهْلُ الذِى حَارَبْتَهُ | لَمْ يَزَلْ يُظْهِرُ لِلشَّرْقِ عُتُوَّهْ |
| قُلْ لأتْبَاعِكَ صَلُّوا وَادْرُسُوا | إنَّمَا الدِّينُ هُدَىً وَالعِلْمُ قُوَّةْ |

**عبد الله يوركى حلاق:**

ومنهم الشاعر السورى عبد الله يوركى حلاق مؤسس مجلة الضاد فى حلب، فله قصيدة بعنوان (قبس من الصحراء)، يشيد فيها بالرسول ﷺ.. يقول فيها:

| | |
|---|---|
| بعث الشريعة من غياهب رمسها | فرعى الحقوق وفتَّح الأذهانا |
| أمحمدٌ.. والمجدُ نسج يمينه | مجَّدت فى تعليمك الأديانا |
| ولأنه داس الجهالة وانتضى | سيف الجهاد، وحطَّم الأوثانا |
| فلقد ربينا فى ظلال عروبة | عرباء.. تشرق عزة وأمانا |
| ما نحن إلا إخوةٌ نسعى إلى | إسعاد أمتنا.. وصونِ حمانا |

**جاك صبرى شماس:**

ومنهم الشاعر السورى جاك صبرى شماس الذى تشهد معظم دواوينه الشعرية، ومقالاته على محبته وولائه للعروبة وإشادته بالدين الإسلامى، وافتخاره بالرسول ﷺ.. يقول فى قصيدة له بعنوان (أوراق اعتمادى):

إنى مسيحىٌ أجلُّ محمدًا وأجلُّ ضادًا.. مهدُه الإسلامُ
وأجلُّ أصحاب الرسول وأهله حيث الصحابة صفوةٌ ومقام
كحَّلت شعرى بالعروبة والهوى ولأجل طه تفخر الأقلام
أودعت روحى فى هيام محمد دانت له الأعراب والأعجام

**إلياس قنصل:**

ومنهم الشاعر إلياس قنصل الذى يخاطب رسول الله ﷺ معتذرًا، مشيدًا بالقرآن ومن جاء به، فيقول:

رسولَ الله: عفوكَ؛ إن عذلى لتنبيه النفوس الغافلات
كتابك زينة الأجيال تزهو بمعجز آيهِ أمُّ اللغات
ودينُك نعمةٌ فى الكون ضاءت فنوَّرت النواحى المظلمات
تكرم يا إله العرش واجعل بلاد العُرب للعرب الأباة

**شبلى الملاط:**

ومنهم الشاعر اللبنانى شبلى الملاط، وهو أحد أبرز الشعراء العرب فى النصف الأول من القرن العشرين الذى ينفى عن الإسلام والقرآن دعوى تفريق الأمة، فيقول:

لمن البلاد؟ أليس من أصحابها أنتم ونحن؟فما لنا لا نهتدى؟
حتى متى لا نستفيق؟! وكلنا نحيا وندفن تحت جو أوحد؟
حتى متى التفريق يلعب دوره فينا ونصغى سامعين لمفسد؟
ويظل مَن بث المفاسد سيدًا والصالح الأعمال مغلولَ اليد
ويبيت من تدعو البلاد أئمة متشاغلين ببِيعةٍ وبمسجد
والله ما قال المسيح تباغضوا حتى نكون ولا كتاب محمد
لكنما أيدى الجهالة بدّلت أبناء هذا القطر شر مبدد

ثم يطالب بإنهاء التعصب الذى يوقع الأمة فى الهوان والمذلة، فيقول:

وتساهلوا عند الأمور وأعرضوا عمن يقول بعيسوِى ومحمدى
ودعوا التعصب إنه الداء الذى يقضى عليكم بالهوان السرمدى
ولتشعلوا هذى العواطف وليكن كل من الأعياد عيد المولد

**4 - أدباء أسلموا:**

قلبت دفتر البابا.. فرأيت أسماء غير عربية، فتعجبت من ذلك، فقلت: أرى فى الدفتر أسماء أخرى غير عربية.. من أين لها أن تتعلم العربية، وتكتب بها مدح النبى ﷺ!؟

قال: أصحاب تلك الأسماء أدباء من سائر الأمم جذبتهم أشعة شمس محمد ﷺ إلى الإسلام، فلذلك سجلتهم فى هذا الفصل.

قلت: فهل تعلم هؤلاء العربية؟

قال: الشعر موجود فى كل لغات العالم.. والحب موجود فى كل الكلمات نثرها وشعرها.. والمحب الصادق يعبر بكل الألسنة.

**ويليام بيكارد:**

كان من تلك الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ويليام بيكارد)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو المؤلف والروائى والشاعر البريطانى ويليام بيكارد، وهو حاصل على شهادة البكالوريوس فى الفنون والآداب (كانتاب)، والدكتوراه فى الأدب (لندن)، وهو مؤلفٌ واسع الشهرة، من أعماله: ليلى والمجنون، ومغامرات القاسم، والعالم الجديد، ومؤلَّفاتٌ أخرى.

قلت: هل التقيت به؟

قال: لا.. ولكنى قرأت رسالة له يتحدث فيها عن رحلته للإسلام، ومما ورد فيها: (لم أُدرك حقيقة أنِّى وُلدت على فطرة الإسلام إلاَّ بعد مضىِّ العديد من السنين. ففى المدرسة والجامعة كنت مشغولاً ـ وربما بقوَّة ـ بقضايا اللحظة الآنيَّة وشؤونها.. لم أكن أعتبر مهنتى فى تلك الأيام مهنةً لامعة، ولكنَّها كانت فى تطوُّر، ووسط محيط مسيحى تعلَّمت عن الحياة الطيِّبة، وكان الإيمان بالله تعالى والعبادة والحق من الأمور الَّتى تسرُّنى، وإن كنت أُقدِّس أىَّ شىءٍ فإنَّ ذلك كان هو النُّبل والشَّجاعة).

وفيها يقول: (أنا القادم من كامبريدج، ذهبت إلى أواسط أفريقيا، حيث حصلت على تعيينٍ فى إدارة الوصاية على أوغندا. كان وجودى هناك ممتعًا ومثيرًا أكثر مما كنت أحلم به فى بريطانيا، وكنت مجبرًا ـ تبعًا للظروف المحيطة ـ أن أعيش وسط الأخوَّة السوداء من الإنسانيَّة، ويمكننى القول بأنِّى تعلَّقت بهم بمحبةٍ بسبب بساطة نظرتهم السعيدة للحياة. لقد شدَّنى الشَّرق دائمًا. ففى كامبريدج قرأت (الليالى العربيَّة)؛ ووحيدًا فى أفريقيا قرأت (الليالى العربيَّة)؛ ووجودى فى تجوالٍ موحشٍ فى أوغندا لم يقلل من عزة الشرق فى نفسى.

ثم ـ وبعد تحطُّم حياتى الهادئة فى الحرب العالمية الأولى ـ عدت أدراجى مسرعًا تجاه الوطن فى أوروبا؛ وساءت صحَّتى. ومع استعادة صحَّتى تطوَّعت للجيش، لكنَّ طلبى رُفض على أسسٍ صحيَّة. لذلك عملت على تقليل الخسائر وسجِّلت فى (الجندرمة) ـ بعد أن عملت بطريقةٍ ما على اجتياز الفحص الطبِّى ـ وشعرت بالرَّاحة حين تسلَّمت بدلتى العسكريَّة كجندى فى فرقةٍ للمشاة. خدمت حينئذ فى الجبهة الغربيَّة فى فرنسا، واشتركت فى معركة السوم سنة 1917، حيث جُرحت وأُسرت. نُقلت عبر بلجيكا إلى ألمانيا حيث كنت فى المشفى. وفى ألمانيا

رأيت الكثير من المعـاناة الإنسانيَّة، وخاصَّةً الرُّوس المصابـين بالديزنطاريا. ووصلت إلى حافَّة الموت جوعًا. جُـرحى ـ وهو كسرٌ فى ساعدى الأيمن ـ لم يُشف بسـرعة، فكنت عديم النَّفع للألمان، فأُرسلت إلى سويسرا من أجل عمليَّة جراحيَّة.

أذكر جيِّدًا كم كان عزيزًا علىَّ حتى فى تلك الأيام حين كنت أفكِّر بالقرآن الكريم، فى ألمانيا كنت قد كتبت رسالةً للأهـل ليرسلوا لى نسخةً من القرآن الكريم. وعلمت فى السنوات اللاحقة أنَّهم أرسلوا لى نسخةً ولكنَّها لم تصلنى أبدًا.

فى سـويـسرا ـ وبعـد عمليَّـة فى ساعـدى ورجلى ـ تحسَّنت صحَّـتى، فكان بإمكانى الخروج بين الحين والآخر، فاشتريت نسخةً من التـرجمة الفرنسيَّة لمعانى القرآن الكريم ـ وهى اليوم من أعز ممتلكاتي ـ وعندئذ شـعرت بسعادة عظيمـة. كان ذلك وكأنَّ شعاعًا من الحـقيقة الخالدة قد أشرق علىَّ بالبـركة. كانت يدى اليمنى ما تزال غير ذات نفع، فتـمرَّنت على كتابة القرآن الكريم بيـدى اليسرى. وارتبـاطى بالقرآن الكريم يظهر بوضـوح أكبر عندمـا أقول بأنَّ واحدةً من أشدِّ الذكريات وضـوحًا وعزَّة لدىَّ من كتاب (الليالى العربيـة) كانت عن فتىً وُجد وحيدًا فى المدينة البائدة، جالسًا يقرأ القرآن الكريم، غافلاً عمَّا يحيط به.

فى تلك الأيام فى سويسرا، أعدت تسـجيل نفسى رسميا كمـسلم. وبعد توقيع الهدنة عدت إلى لنـدن، وذلك فى شهر كـانون الأول من سنة 1918، وبعد ذلـك ـ فى عام 1921 ـ سجَّلت لدراسة الأدب فى جامـعة لندن. وكان أحد المواضيع الَّتى اخترتهـا هى اللغة العربيَّة، وكنت أحضر محـاضراتها فى الكلية الملكيَّة. وكان فى يومٍ أن ذكر أستـاذى فى اللغة العربيَّة ـ السيِّد بلشا من العراق رحمـه الله تعالى ـ القرآن الكريم وقال: إن كنت تؤمن به أم لا، فإنَّك ستجد أنَّه أكـثر الكتب إثارةً وأنَّه يستحقُّ الدِّراسة. فأجـبت: أوه، ولكنِّى أُومن به. فاجأ هذا الجواب أستاذى بشدَّة وأثار اهتـمامه، وبعد حديثٍ قصيرٍ دعانى لأُرافـقه إلى مسجد لندن فى نوتينغ هيل جيت. وبعد ذلك كنت أحـضر للصلاة باستمرار فى هذا المسـجد لكى أتعلَّم أكثر عن تطبـيق الإسلام، إلى أن أعلنت ارتبـاطى بالأمَّة الإسـلاميـَّة فى رأس السنة الجديدة لـعام 1922.

كان هذا قبل ما يقـارب الربع قرن، ومنذئذٍ وأنا أعيش حياةً إسلاميَّـةً قولاً وعملاً بكلِّ ما فى استطاعتى، فقوَّة الله تعالى وحكمته ورحمته ليس لها حدود. وحقول المعرفة تمتدُّ أمامنا إلى ما وراء الأفق. وفى حجِّنا خلال هذه الحياة أشعـر بيقينٍ أقوى بأنَّ اللباس الوحيد المناسب الَّذى نستطيع لبسه هو الخضوع لله تعالى، وأن نعتمر على رؤوسنا عمامةً من الحمد، وأن نملأ قلوبنا حبا للخالق الواحد سبحانه وتعالى. والحمد لله ربِّ العالمين).

**فانسان مونتييه:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (فانسان مونتييه)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أديب فرنسى كان يشغل منصب أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامى بجامعة باريس، وشغل منصب رئيس (مؤسسة الدراسات الإسلامية فى داكار)... وله عدة مؤلفات منها: كتاب (الإرهاب الصهيونى)، و(المسلمون فى الاتحاد السوفيتى)، و(الإسلام فى إفريقيا السوداء)، و(مفاتيح الفكر العربى)، كما قام بترجمة ابن خلدون إلى الفرنسية، وقد أسلم وتسمى بـ (المنصور بالله الشافعى).

وقد تشرفت بالالتقاء بـه والحديث معه عن سبب اختياره الإسلام، فقال: لقد اخترت الإسلام دينًا، ألقى به وجه ربى لأسباب شتى، منها الأسباب الدينية، والأسباب الأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية والعاطفية.

ثم استطرد فى تفصيل ما أجمله قائلا: لقد اخترتُ دين الفطرة، وهو الإسلام، وكنت فيما مضى كاثوليكيا.. وفى الكاثوليكية أمور كثيرة لم أقتنع بها، ولم أفهمها، مثل كرسى الاعتراف، والوسيط لدى الإله، فضلاً عن اعتمادها على أسرار، وقربان، وغير ذلك من أمور لم أستطع الإيمان بها.. فى حين أن دين الإسلام برئ من هذا كله، فيكفى المسلم أن يتوجه إلى ربه مباشرة بدون وسيط، وبدون كرسى اعتراف، فيستجيب الله دعاءه.

لقد كانوا يُعلموننى كما يُعلمون غيرى أن عيسى إله ابن إله، وكانوا يزعمون أن محمداً ليس نبيا، وبالتالى ينكرون الإسلام.. ثم حدث أن وقع بين يدى ـ لأول مرة فى حياتى ـ ترجمة لمعانى القرآن الكريم، واستوقفتنى معانى كلماته، مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

واستوقفنى قول الله تعالى: ﴿... فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

كما أذكر أنى قرأت حديثًا لرسول الله ﷺ، شعرت تجاهه بأن الإسلام دين الفطرة بحق، وهو قول رسول الله ﷺ: «كل مولود يُولَدُ على الفِطْرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه، أو يُمَجِّسانه».

ولذلك كله آمنت برسالة محمد ﷺ ومصداقيتها، مثلما آمنتُ تمامًا بوحدانية الله.. إن محمداً رسول الله حقًا.. والقرآن الكريم مُوحىً به من عند الله وليس من إنشاء محمد أو صُنعه... ورسالته السماوية السمحاء ليست مقصورة على العرب.. وإنما هى للناس كافة.

لقد رأيت فى الإسلام تسامحًا مدهشًا، والأخلاق الرفيعة هدف كل مسلم.. كما

---

(1) انظر: صحيفة الاتحاد التى تصدر فى الإمارات العربية المتحدة، الصادرة فى العاشر من نوفمبر 1989 (بتصرف)، والجانب الخفى وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبدالصمد.

رأيت رفضًا للرهبنة التى تجافى طبيعة الإنسان البشرية، فالإسلام يحفظ للإنسان إنسانيته، فيمنع عليه الرهبنة، ويدفعه إلى التمتع بالحياة وطيباتها، ما لم تتعارض المتعة مع تعاليم الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿...وما جعل عليكم في الدين من حرج ... ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

سكت قليلا، وقد بدت على وجهه قسمات ألم لم يستطع كتمها، ثم قال: أعداء الإسلام يَدَّعُون أن المسلمين لا يرضون من غيرهم إلا أن يكونوا مسلمين، فإذا لم يكونوا مسلمين أشهروا عليهم سيف الجهاد.. في حين أنهم لو عقلوا ذلك جيدًا لعلموا أن الجهاد الإسلامى مفروض، ولكن من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

إنهم يتهمون الإسلام بالقسوة المفرطة، مع أن الإسلام دين السلام، والتسامح، والعفو، والمغفرة... لقد تناسى هؤلاء كل العقوبات النصرانية فيما مضى، والتى أفرطت فى القسوة، والتعذيب الذى وصل إلى حد الإحراق، وفصل أجزاء الجسد، فضلاً عن كثرة حالات الإعدام، وهو ما لم يشهده الإسلام فى تاريخه.

كما أنهم يتهمون الإسلام بظاهرة الرَقّ التى وُجِدَتْ قبل الإسلام وليس بعده، بل حين انتشر الإسلام وطُبقت تعاليمه كان يسعى لإلغاء الرِّق، بل إن أكثر الكفَّارات للذنوب التى يقدم عليها المرء هو تحرير الرقاب الذى عَدَّه الإسلام تقربًا وطاعة لله.

ثم يحاولون الإساءة إلى الإسلام من زاوية تعدد الزوجات، ولو عقلوا لوَجَدُوا أنه وإن سمح حقا بذلك، فإنه فى الوقت ذاته وضع شروطًا دقيقة أساسها العدل المطلق، والمعاملة الطيبة، كما نظر إلى النساء التى حالت ظروفهن دون الزواج، أو لمرض الزوجة، أو لأسباب أخرى.

إن الإسلام بعظمته وعمقه، وبنقائه ورقُيه، وبتسامحه ودعوته لكرامة الإنسان فى كل زمان ومكان لن يستطيع أحدٌ أن ينال منه.. لأن الإسلام فى ذاته قوى.. وتعاليمه تدعو إلى القوة بعدم ارتكاب المعاصى والذنوب التى تضعف القوة، مثل الزنّى، وشُرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وغير ذلك مما يحرمه الدين الحنيف.

ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة عذبة، وقال: لهذا اخترت الإسلام.. من أجل أن أشعر بالراحة فى رحابه وظلاله.. نعم، اعتنقتُ الإسلام لأشعر وأدرك أننى اعتنقت دينًا لا يفصل بين البدن والروح، بين النفس والجسد.. يكفينى أن الإسلام دين نقى، يدفع إلى الأخلاق والتحلى بها، وإلى الكرامة الإنسانية والتمسك بها، من أجل ذلك شهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.. وعلى ذلك ألقى ربى.

* * *

■■■■■■■

# رابعا - الفنانون

■■■■■■■

فتحت دفتر البابا على فصله الرابع، فوجدت عنوانه (الفنانون)، فقلت: من تقصد بالفنانين؟

قال: أولئك الذين تذوقوا الجمال وعاشوه وراحوا بما أوتوا من مواهب يحاولون تصويره وإمتاع الخلق به.

قلت: فما علاقة هؤلاء بأشعة محمد ﷺ؟

قال: أقرب الناس إلى النبى ﷺ هم الفنانون..

قلت: ما تقول؟

قال: إن المعانى النبيلة التى يوجهنا إليها الإسلام، والتى تتناسب مع الجمال الذى يمتلئ به الكون لا يتذوقه إلا صاحب حس مرهف، وذوق رفيع.

قلت: ولكنى أرى الفنانين أعظم الناس غفلة، فهم يجرون فى أودية الغواية أكثر من الشعراء.

قال: أولئك أحد ثلاثة: إما لا حظ لهم فى الفن، وإنما هم أدعياء فيه، وإما أن الإسلام عرض لهم بصورة مشوهة جعلتهم ينفرون منه، وإما أن الإسلام لم يعرض لهم أصلا.

قلت: أرأيت لو أن الإسلام عرض لهم بصورته سيقبلونه؟

قال: لا يقبلونه فقط.. بل يقبلون عليه بكل كيانهم، ويسخرون كل طاقاتهم فى سبيل خدمته.

قلت: ولكن البعض يأمرهم بتطليق الفن قبل اعتناق الإسلام.

قال: أولئك حجب بين الله وبين عباده.. الإسلام يطلق الطاقات ولا يعطلها.. والفنان المسلم هو الذى يعبد الله فى محراب فنه.. فيجعل فنه مرقى من مراقى الهداية ومعراجا من معارج الروح.

قلت: أراك وضعت أسماء كثيرة فى هذا الفصل.. فهل التقيت بهم جميعا؟

قال: هناك من التقيت به.. وهناك من حدثنى بحديثه الثقاة.. وهناك من قرأت له، أو قرأت عنه.

**ألفونس إيتان دينيه:**

كــان من أول الأسمــاء التى وضعت فى هذا الفـصل اسم (ألفـونس إيتان دينيـه)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذ الرجل من كبار الفـنانين والرسامين العالميين، وقد دُوِّنت أعماله فى معجم (لاروس)، ولا تزال جدران المعـارض الفنية فى فرنسا تزين بلوحاته الثمـينة، وفيها لوحته الشهيرة (غادة رمضان).

وقد أسلم، وألّف بعد إسلامه العديد من الكتب القيمـة، منها كتابه الفذ (أشعة خاصة بنور الإسلام)، و(ربيع القلوب)، و(الشرق كما يراه الغـرب)، و(محمد رسول الله)، و(الحج إلى بيت الله الحرام).. وغيرها.

وقد ذكر فى هذه الكتب أسرار انجذابه للإسلام، ومن أقواله فى ذلك:

(لقد أكد الإسلام من الساعـة الأولى لظهوره أنه دينٌ صالحٌ لكل زمان ومكان، إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختـلف فى إنسان عن آخر، وهو لـهذا صالح لكل درجـة من درجة الحضارة)[2].

(لقد حقق القرآن معجزة لا تسـتطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن للغة العربية فى الأرض بحـيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله إلينا اليـوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضـاد. وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معـاصرى (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذى هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصـعوبة فى مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيى اليوم)[3].

(أحسّ المشركون، فى دخيلة نفوسهم، أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعمـاق قلب الرسول الملهم، وكلـهم كثيـراً ما كـانوا على وشك الخضوع لتـلك الألفاظ الأخاذة التى ألهمها إيمان سماوى، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا)[4].

(إن معـجزة الأنبيـاء الذين سبقوا مـحمداً كـانت فى الواقع معجـزات وقتيـة وبالتالى معرضـة للنسيان السريع. بينمـا نستطيع أن نـسمى معـجزة الآيات القرآنية: (المعـجزة الخالدة) وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مسـتمر، ومن اليسير على المؤمن فى كل زمان وفى كل مكان أن يرى هذه المعـجزة بمجـرد التلاوة فى كـتاب الله، وفى هذه المعـجزة نجـد التعليل الشـافى للانتشـار الهائل الذى أحرزه الإسـلام، ذلك الانتشـار الذى لا يدرك سببـه الأوروبيون لأنهم

---

(1) ايتين دينيه (1861 - 1929) Et. Dinet تعلم فى فرنسا، وقصد الجـزائر، فكان يقضى فى بلدة بوسعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (1927)، وحج إلى بيت الله الحرام (1928).

(2) محمد رسول الله، ناصر الدين دينيه، ص (345).

(3) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 35.

(4) محمد رسول الله، ص 106.

يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعـرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحيـاة فضلاً عن أنها غير دقيقة)[1].

(إن كان سـحر أسلوب القرآن وجـمال معـانيه، يحدث مـثل هذا التأثيـر فى [نفوس علماء] لا يمـتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فـماذا ترى أن يكون من قوة الحـماسة التى تستهوى عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتـهم الجميلة؟.. لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون فى مكانهم وكأنهم قد سمّروا فيه. أهذه الآيات الخارقة تأتى من محمد ذلك الأمى الذى لم ينل حظًا من المعرفة؟.. كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وأنه لا مناص من الاعتـراف بأن الله العلى القدير هو الذى أملى تلك الآيات البينات)[2].

(لا عـجب أن نرى النبى الأمى يتـحـدى الشعـراء، ويعـتـرف لهم بحق نعـتـهم له بالكذب، أن ائتوا بعشر سور من مثله، فقد آمن بعجزهم عن ذلك)[3].

وتحدث عن تأثير دراسته لشخصية محمد ﷺ فى انجذابه للإسلام، ومن أقواله فى هذا قوله: (إن الشخصيـة التى حملها محمد بين برديه كانت خـارقة للعادة وكانت ذات أثر عظيم جدًا حـتى إنها طـبعـت شـريعـته بطابع قـوى جعل لهـا روح الإبداع وأعطاها صفـة الشىء الجديد)[4].

وقوله: (إن نبى الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذى لم يعتمد فى إتمام رسالته على المعجزات وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم)[5].

(إن سنة الرسـول الغرّاء باقـية إلى يومنا هذا، يـجلوها أعظم إخلاص دينى تفـيض به نفوس [مئات الملايين] من أتباع سنته منتشرين على سطح الكرة)[6].

(كان النبى يعنى بنفـسه عناية تامة، إلى حد أن عرف له نمط من التأنق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان ينظر نفسه فى المرآة.. ليتمشط أو ليسـوى طيات عـمامتـه.. وهو فى كل ذلك يريد من حـسن منظره البشـرى أن يروق الخالق سبحانه وتعالى)[7].

---

(1) محمد رسول الله، ص 118.
(2) محمد رسول الله، ص 119.
(3) محمد رسول الله، ص 121.
(4) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 15.
(5) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 16.
(6) محمد رسول الله، ص 51.
(7) محمد رسول الله، ص 312.

(لقد (دعا) عيسى إلى المساواة والأخوة، أما محمد فوفق إلى (تحقيق) المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته)[1].

وتحدث عن تأثير المناهج الإسلامية فى انجذابه للإسلام، فقال: (إن الأمم الإسلامية على اختلاف جنسياتها وبلدانها قد طبعها الإسلام بطابعه الواضح المحسوس. بل إن آثاره لا تزال باقية فى أهل أسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون)[2].

(إن الإسلام [هو] عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادئ السامية التى تقوم عليها تلك العقيدة. . [ونحن نطلب] من خصومنا أن يدلونا عليها فى الإنجيل أو فى كتاب مقدس آخر إن كانوا صادقين)[3].

(إن الإسلام منذ البداية فى أيامه الأولى قد أخذ فى محاربة الخرافات والبدع، وهو نفس العمل الذى يقوم به العلم إلى يومنا هذا)[4].

(كما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات. . وبينما تجد الإسلام يهيج من نفسه الرجل العملى فى أسواق لندن حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحانى، وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقى ذو التأملات. . إذ يهواه ذلك الغربى الذى أفناه الفن وتملكه الشعر)[5].

(عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام كان هذا الدين القويم قد تمّ تنظيمه نهائيًا، وبكل دقة، حتى فى أقل تفاصيله شأنًا)[6].

وتحدث عن إعجابه الشديد بسماحة الإسلام والمسلمين، فقال: (من الحقائق التاريخية أن النبى أعطى أهل (نجران) المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية. وها نحن أولاً نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيون فى الدعوى إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التى لا تتحملها النفس والتى يحبها الذوق السليم. وقد أنصف القس ميثون الحقيقة فى كتابه (سياحة دينية فى الشرق) حيث يقول: إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم)[7].

---

(1) محمد رسول الله، ص 323.
(2) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 15.
(3) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 15.
(4) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 18.
(5) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 38.
(6) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 315.
(7) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 18.

(ليس من فخار المسيحية أن تضم فى تعدادها أولئك الذين يباعون لها من ولدان العبيد ولا أولئك اليتامى الذين ينشأون فى مهادها نشأة دينية مسيحية. أما الذين يعتنقون الإسلام فى وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم فإنما هم الخاصة سواء كانوا من الهيئات الاجتماعية الأوروبية أو الأمريكية، كما أن إخلاصهم فى ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية)[1].

(إن الإسلام بلغ من تماسك بنائه، ومن حرارة إيمان أهله، ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التى لا نظن أن لها فى سجلات التاريخ مثيلاً، ففى أقل من مائة عام، ورغم قلة عددهم، استطاع العرب الأمجاد، وقد اندفعوا لأول مرة فى تاريخهم خارج حدود جزيرتهم أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم: من الهند إلى الأندلس)[2].

(المسلمون، على عكس ما يعتقده الكثيرون، لم يستخدموا القوة أبدًا خارج حدود الحجاز.. لإكراه غيرهم على الإسلام. وإن وجود المسيحيين فى أسبانيا لدليل واضح على ذلك، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التى ملك فيها المسلمون بلادهم وكان لبعضهم مناصب رفيعة فى بلاط قرطبة. ثم إذا بهؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان فى هذه البلاد فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تامًا على المسلمين)[3].

(إن القدوة الحسنة التى لا تقترن بمحاولة التبشير المتعصبة، لهى أقوى أثرًا فى النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين. ولقد اضطر العالم (دوزى)-رغم تعصبه ضد الإسلام- إلى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا فى إسبانيا (اعتنقوا الإسلام عن عقيدة)[4].

(وكيف لا يكون المسلم متسامحًا وهو يجل الأنبياء الذين يجلّهم اليهود والنصارى، فموسى بالنسبة إليه (كليم الله) وعيسى (روح الله) يجب تبجيله كما يجل محمد ﷺ حبيب الله): ﴿...لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ... ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة][5].

وتحدث عن المنجزات العظيمة التى أنجزها الإسلام مقارنة بغيره من الديانات والمذاهب والأفكار، فقال: (إن الفروسية ونبالة قصدها لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيرًا. وعلى يده دخلت أوروبا ووصلت إلينا نحن الغربيين. ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبتها إلى العرب)[6].

---

(1) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 39.
(2) محمد رسول الله، ص 315.
(3) محمد رسول الله، ص 332.
(4) محمد رسول الله، ص 333.
(5) محمد رسول الله، ص 333.
(6) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 28.

(نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الأولى في السعى إلى تحرير الفكر كانت أثرًا منطقيًا للمبادئ التى جاء بها محمد فإلى الفيلسوف المسلم ابن رشد يرجع الفضل فى إدخال حرية الرأى (التى يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد) فى أوروبا. وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحى بعقيدة الإيمان بالله وحده فى الإسلام، وتحمس أحرار الفكر فى العصر الوسيط الأوروبى لشروحه لأرسطو، وإن كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية. ويمكن أن نعتبر - بحق - أن التيار الفكرى الذى نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقى الحديث فضلاً عن كونه من أصول الإصلاح الدينى)[1].

(لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التى لا تغلب، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شؤون الحياة مثل ذلك الغرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة، فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء. على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقًا فى إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور حتى لقد سمى القرآن لذلك (بالهدى) لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكنا نأخذ بأشهرها وهو التساهل فى سبيل تعدد الزوجات.. فمما لا شك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق بل هو الحال الذى يستحيل تنفيذه. لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع، وهو دين اليسر، إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكمًا قاطعًا ولا يأمر به أمرًا باتا)[2].

(هل حقيقى أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة وتشديدها فى تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه؟ وإلا فهؤلاء مثلاً ملوك فرنسا - دع عنك الأفراد - الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام. وإن تعدد الزوجات قانون طبيعى وسيبقى ما بقى العالم، ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه.. إن نظرية التوحيد فى الزوجة [التى] تأخذ بها المسيحية ظاهرًا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء، تلك هى الدعارة، والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين. إن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف فى البلاد التى طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية)[3].

---

(1) محمد رسول الله، ص 324.

(2) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 31.

(3) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 32.

(جاء فى كتاب (الإسلام) تأليف (شمتز دوملان)(3) أنه (عندما غادر الدكتور مافروكو رداتو الأستانة سنة 1827 إلى برلين لدراسة الطب لم يكن فى العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة. كما لم يعرف فيها داء الزهرى - وهو السفلس المعروف بالشرق بالمرض الإفرنكى - فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين تبدل الحال غير الحال. وفى ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا فى حسرة موجعة: إننا نرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدنية الإفرنكية فيعودون إلينا مرضى بالداء الإفرنكى)[1].

(إننا نخشى أن تخرج المرأة الشرقية إلى الحياة العصرية.. فينتابها الرعب لما تشهده لدى أخواتها الغربيات، اللائى يسعين للعيش وينافسن فى ذلك الرجال، ومن أمثلة الشقاء والبؤس الكثيرة)[2].

(إن تعليم المرأة يساير كل المسايرة جميع تعاليم الدين، وقد كان فى عصر ازدهار الإسلام يفاض فيضًا على المسلمات، وكانت ثقافتهن حينذاك أرفع من ثقافة الأوروبيات دون جدال)[3].

(ليس من الجرأة أن يظن أنه إذا هدأت الزوبعة المروعة القائمة ضد الإسلام، وضمن هو الاحترام لكل الشعوب والديانات، أنه سيرى مستقبلاً حافلاً بأعظم الآمال وأعلاها شأنًا. فإذا ما دخل فى الحضارة الأوروبية بفضل اشتراكه العظيم فى الحوادث.. سيتضح سناه الحقيقى، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التى حجبت عنهم زمنًا، وسيمد الكل أيديهم لمحالفته متنافسين فى ذلك، لأن قيمته قد خبروها وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التى لا حد لها ولا نفاد. ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد وصاروا أمة لا تعرف الجور فى معاملتها لكل رعاياها.. وتبوأوا مكانهم الذى يليق بمجدهم إن شاء الله)[4].

**كات ستيفنس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كات ستيفنس)[5]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو الاسم القديم للمغنى الإنجليزى (يوسف إسلام).

(1) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 33.
(2) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 340
(3) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص341.
(4) محمد رسول الله، ص 345 - 346.
(5) ولد يوسف إسلام تحت اسم ستيفن ديمترى جورجيو فى شهر يوليو/ تموز 1947 لأم سويدية وأب من القبارصة اليونانيين. وتربى ستيفن فى حى ويست إند بلندن فى شقة تقع فوق المطعم المملوك لوالديه.
ونظرًا لأن والده كان من القبارصة اليونانيين، فإنه كان يعتنق مذهب الأرثوذكس اليونان لكنه تلقى تعليمه فى مدرسة كاثوليكية. وحصل ستيفنز على 8 ألبومات ذهبية متتالية، وحازت أغانيه على شهرة واسعة فى بريطانيا والولايات المتحدة.

قلت: أعرفه.. ويعلم الله شدة محبتى له.. فهل التقيته؟

قال: أجل.. لقد تشرفت بذلك، وقد جمعنى معه ـ ومعنا بعض الناس ـ مجلس من المجالس، وقد سأله بعضهم عن قصة إيمانه، فقال: أود أن أبدأ قصتى بما تعرفونه جميعًا، وهو أن الله قد استخلفنا فى الأرض وأرسل لنا الرسل وآخرهم رسولنا محمد ﷺ ليهدينا إلى الطريق القويم، وعلى الإنسان أن يلاحظ واجبه نحو هذا الاستخلاف وأن يسعى لتحضير نفسه للحياة الخالدة القادمة فمن تفوته الفرصة الآن لن تأتيه أخرى فلن نعود ثانية حيث يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة]، وقال: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر].

وقد نشأت فى بيئة مرفهة تملؤها أضواء العمل الفنى الاستعراضى المبهرة.. وكانت أسرتى تدين بالمسيحية، وكانت تلك الديانة التى تعلمتها، وقد تعلمت من خلالها أن الله موجود، ولكن لا يمكننا الاتصال المباشر به، فلا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق عيسى فهو الباب للوصول إلى الله، وبالرغم من اقتناعى الجزئى بهذه الفكرة إلا أن عقلى لم يتقبلها بالكلية.

وكنت أنظر إلى تماثيل النبى عيسى فأراها حجارة لا تعرف الحياة، وكانت فكرة التثليث أو ثلاثية الإله تقلقنى وتحيرنى، ولكنى لم أكن أناقش أو أجادل احترامًا لمعتقدات والدى الدينية.

ثم بدأت أنصرف عن الدين شيئا فشيئا.. لأنشغل بالموسيقى والغناء، فقد كنت أرغب فى أن أكون مغنيا مشهورا.

وقد أخذتنى تلك الحياة البراقة بمباهجها ومفاتنها فأصبحت هى إلهى، وأصبح الثراء المطلق هو هدفى تأسيًا بأحد أخوالى الذى كان واسع الثراء، وبالطبع كان للمجتمع من حولى تأثير بالغ فى ترسيخ هذه الفكرة داخلى حيث إن الدنيا كانت تعنى لهم كل شىء وكانت هى إلههم.

ومن ثم اخترت طريقى وعزمت أن يكون المال هو هدفى الأوحد، وأن تكون هذه الحياة هى مبلغ المنى ونهاية المطاف بالنسبة لى، وكان قدوتى فى هذه المرحلة كبار مطربى البوب العالميين، وانغمست فى هذه الحياة الدنيوية بكل طاقتى، وقدمت الكثير من الأغانى ولكن داخلى وفى أعماق نفسى كان هناك نداء إنسانى ورغبة فى مساعدة الفقراء عند تحقيقى للثراء المنشود.

ولكن النفس البشـرية ـ كما يخبرنا القرآن الكريم ـ لا تفى بكل مـا تعد به، بل تزداد طمعًا كلما منحت المزيد، وقد حققت نجاحًا واسـعًا، وأنا لم أتعد سنواتى التسعة عشرة بعد، واجتـاحت صورى وأخبارى وسـائل الإعلام المختلفـة، فجعلوا منى أسطورة أكـبر من الزمن وأكبر من الحياة نفسها، وكانت وسيلتى لتعدى حدود الزمن والوصول إلى القدرات الفائقة هى الانغماس فى عالم الخمور والمخدرات.

بعد مـضى عام تقريبًا من النجـاح المادى والحياة الراقيـة وتحقيق الشهـرة أصبت بالسل ودخلت المستشفى، وأثناء وجودى بالمستشفى أخذت أفكر فى حالى وفى حياتى: هل أنا جسد فقط، وكل ما علىّ فعله هو أن أسعد هذا الجسد؟ ومن ثم فقد كانت هذه الأزمة نعمة من الله حـتى أفكر فى حالى، وكـانت فـرصة من الله حـتى أفتح عـينى على الحـقيـقة وأعـود إلى صوابى.. لماذا أنا هنا راقد فى هذا الفراش؟

وأسئلة أخرى كثـيرة بدأت أبحث لها عن إجابة، وكان اعتناق عقائد شـرق آسيا سائدًا فى ذلك الوقت، فبدأت أقرأ فى هذه المعتقدات، وبدأت لأول مرة أفكر فى الموت وأدركت أن الأرواح ستنتـقل لحياة أخـرى، ولن تقتصـر على هذه الحياة، وشـعرت آنذاك أنى على بداية طريق الهداية، فبدأت أكتسب عادات روحـانية مثل التفكر والتأمل وأصبحت نباتيًا كى تسمو نفسى وأساعدها على الصفاء الروحى، وأصبحت أؤمن بقوة السلام النفسى وأتأمل الزهور.. ولكن أهم ما توصلت إليه فى هذه المرحلة هو إدراكى أنى لست جسدا فقط.

وفى أحد الأيام بينما كنت ماشيًـا إذا بالمطر يهطل، وأجدنى أجرى لأحتمى من المطر، فتذكرت مقولة كنت قد سمعتها قبل ذلك، وهى أن الجسد مثل الحمار الذى يجب تدريبه حتى يأخذ صاحبه أينما يريد، وإلا فإن الحمار سيأخذ صاحبه إلى المكان الذى يريده هو.

إذًا فـأنا إنسان ذو إرادة، ولـست مجـرد جـسد كـمـا بدأت أفهـم من خلال قـراءتى للمعـتقـدات الشرقيـة، ولكنى سئـمت المسيـحية بالكليـة، وبعد شـفائى عدت لعـالم الغناء والموسيقى ثانيـة، ولكن موسيقاى بدأت تعكس أفكارى الجديدة، وأتذكـر إحدى أغنياتى التى قلت فيها:

ليتنى أعلم
ليتنى أعلم من خلق الجنة والنار
ترى هل سأعرف هذه الحقيقة وأنا فى فراشى
أم فى حجرة متربة
بينما يكون الآخرين فى حجرات الفنادق الفاخرة.
وعندها عرفت أنى على الطريق السليم.

وفى ذلك الوقت كتبت أيضًا أغنية أخرى (الطريق إلى معرفة الله).

وقد ازدادت شهرتى فى عالم الموسيقى، وعايت من أوقات عصيبة لأن شهرتى وغناى كانتا تزدادان بينما كنت من داخلى أبحث عن الحقيقة.

وفى تلك المرحلة أصبحت مقتنعًا أن البوذية قد تكون عقيدة نبيلة وراقية ولكنى لم أكن مستعدًا لترك العالم والتفرغ للعبادة، فقد كنت ملتصقًا بالدنيا ومتعلقًا بها، ولم أكن مستعدًا لأن أكون راهبًا فى محراب البوذية وأعزل نفسى عن العالم.

وبعدها حاولت أن أجد ضالتى التى أبحث عنها فى علم الأبراج أو الأرقام ومعتقدات أخرى لكنى لم أكن مقتنعًا بأى منها.

ولم أكن أعرف أى شيء عن الإسلام فى ذلك الوقت وتعرفت عليه بطريقة أعتبرها من المعجزات، فقد سافر أخى إلى القدس وعاد مبهورًا بالمسجد الأقصى وبالحركة والحيوية التى تعج بين جنباته على خلاف الكنائس والمعابد اليهودية التى دائمًا ما تكون خاوية

وقد أحضر لى أخى من القدس نسخة مترجمة من القرآن، وعلى الرغم من عدم اعتناقه الإسلام إلا أنه أحس بشيء غريب تجاه هذا الكتاب وتوقع أن يعجبنى وأن أجد فيه ضالتى.

وعندما قرأت الكتاب وجدت فيه الهداية، فقد أخبرنى عن حقيقة وجودى والهدف من الحياة وحقيقة خلقى ومن أين أتيت، وعندها أيقنت أن هذا هو الدين الحق، وأن حقيقة هذا الدين تختلف عن فكرة الغرب عنه وأنها ديانة عملية وليست معتقدات تستعملها عندما يكبر سنك وتقل رغبتك فى الحياة مثل المعتقدات الأخرى.

ويصم المجتمع الغربى كل من يرغب فى تطبيق الدين على حياته والالتزام به بالتطرف، ولكنى لم أكن متطرفًا فقد كنت حائرًا فى العلاقة بين الروح والجسد فعرفت أنهما لا ينفصلان وأنه بالإمكان أن تكون متدينًا دون أن تهجر الحياة وتسكن الجبال، وعرفت أيضًا أن علينا أن نخضع لإرادة الله وأن ذلك هو سبيلنا الوحيد للسمو والرقى الذى قد يرفعنا إلى مرتبة الملائكة، وعندها قويت رغبتى فى اعتناق الإسلام.

وبدأت أدرك أن كل شيء من خلق الله ومن صنعه وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم، وعندها بدأت أتنازل عن تكبرى لأنى عرفت خالقى وعرفت أيضًا السبب الحقيقى وراء وجودى وهو الخضوع التام لتعاليم الله والانقياد له وهو ما يعرف بالإسلام.

وعندها اكتشفت أنى مسلم فى أعماقى، وعند قراءتى للقرآن علمت أن الله قد أرسل كافة الرسل برسالة واحدة، إذًا فلماذا يختلف المسيحيون واليهود؟ نعم، لم يتقبل اليهود المسيح لأنهم غيروا كلامه، وحتى المسيحيون أنفسهم لم يفهموا رسالة المسيح وقالوا إنه ابن الله، كل ما قرأته فى القرآن من الأسباب والمبررات بدا معقولاً ومنطقيًا.

وهنا يكمن جمال القرآن فهو يدعوك أن تتأمل وأن تتفكر وأن لا تعبد الشمس أو القمر، بل تعبد الخالق الذى خلق كل شيء، فالقرآن أمر الإنسان أن يتأمل فى الشمس والقمر وفى كافة مخلوقات الله. فهل لاحظت إلى أى مدى تختلف الشمس عن القمر؟ فبالرغم من اختلاف بعدهما عن الأرض إلا أن كلاً منهما يبدو وكأنه على نفس البعد من الأرض! وفى بعض الأحيان يبدو وكأن أحدهما يغطي الآخر! سبحان الله.

وعندما صعد رواد الفضاء إلى الفضاء الخارجي ولاحظوا صغر حجم الأرض مقارنة بالفضاء الخارجى أصبحوا مؤمنين بالله لأنهم شاهدوا آيات قدرته.

وكلما قرأت المزيد من القرآن عرفت الكثير عن الصلاة والزكاة وحسن المعاملة.. ولم أكن قد اعتنقت الإسلام بعد، ولكنى أدركت أن القرآن هو ضالتى المنشودة، وأن الله قد أرسله إلىّ، ولكنى أبقيت ما بداخلى سرًّا لم أبح به إلى أحد.

وبما أن فهمى يزداد لمعانيه عندما قرأت أنه لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا أولياء من الكفار تمنيت أن ألقى إخوانى فى الإيمان.

وفى ذلك الوقت فكرت فى الذهاب إلى القدس مثلما فعل أخى، وهناك بينما أنا جالس فى المسجد سألنى رجل: ماذا تريد؟ فأخبرته بأنى مسلم، وبعدها سألنى عن اسمى فقلت له: «ستيفنس»، فتحير الرجل، وانضممت إلى صفوف المصلين، وحاولت أن أقوم بالحركات قدر المستطاع.

بعد عودتى إلى لندن قابلت أختا مسلمة اسمها نفيسة، وأخبرتها برغبتى فى اعتناق الإسلام، فدلتنى على مسجد نيو ريجنت، وكان ذلك فى عام 1977 بعد عام ونصف تقريبًا من قراءتى للقرآن، وكنت قد أيقنت عند ذلك الوقت أنه علىّ أن أتخلص من كبريائى وأتخلص من الشيطان وأتجه إلى اتجاه واحد.

وفى يوم الجمعة بعد الصلاة اقتربت من الإمام وأعلنت الشهادة بين يديه.

سكت قليلا، ثم قال: رغم تحقيقى للثراء والشهرة إلا أنى لم أصل إلى الهداية إلا عن طريق القرآن، والآن أصبح بإمكانى تحقيق الاتصال المباشر مع الله بخلاف الحال فى المسيحية والديانات الأخرى.

لقد أخبرتنى سيدة هندوسية ذات مرة قائلة: «أنت لا تفهم الهندوسية، فنحن نؤمن بإله واحد، ولكننا نستخدم هذه التماثيل للتركيز».. ومعنى كلامها أنه يجب أن تكون هناك وسائط لتصلك بالله، ولكن الإسلام أزال كل هذه الحواجز. والشيء الوحيد الذى يفصل بين المؤمنين وغيرهم هو الصلاة، فهى السبيل إلى الطهارة الروحية.

وأخيراً أود أن أقول: إن كل أعمالى أبتغى بها وجه الله، وأدعو الله أن يكون فى قصتى عبرة لمن يقرؤها.. وأود أن أقرر أنى لم أقابل أى مسلم قبل اقتناعى بالإسلام، ولم

أتأثر بأى شخص، فقد قرأت القرآن ولاحظت أنه لا يوجد إنسان كامل، ولكن الإسلام كامل، وإذا قمنا بتطبيق القرآن وتعاليم الرسول ﷺ، فسوف ننجح فى هذه الحياة. أدعو الله أن يوفقنا فى اتباع سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام. آمين.

**ويل سميث:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ويل سميث)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا ممثل أمريكى وفقه الله، فأسلم بعدما أثار فضوله للبحث فى الإسلام تمثيله لفيلم (على)، الذى يحكى قصة حياة لاعب الملاكمة الأمريكى المسلم (محمد على كلاى)، فعندما قرأ قصة حياة محمد على، بدأ يتساءل حول ماهية هذه الديانة العظيمة، وبدأ يبحث فى أسرارها وكيف تزداد قوة يوما بعد يوم وكيف يزداد كذلك عدد معتنقيها يوما بعد يوم، وخاصة فى الولايات المتحدة أكثر منها فى أى بلد آخر.

واكتشف ويل سميث، بعد قراءة الكثير عن الإسلام، الحقيقة، التى تؤكد أن الإسلام هو الطريق الذى يجب اتباعه فى هذه الحياة، وكان قد اتصل ببعض الاتحادات والمراكز الإسلامية بالولايات المتحدة، وقرر اعتناق الإسلام.

وقد ذكر هذا الممثل العالمى أنه سوف يواصل الدراسة والبحث حول الإسلام لكى يستطيع أن يطبقه كما ينبغى أن يطبق.

وقد ذكر السيد سفيان زاكوت. . وهو مدير رابطة مسلمى أمريكا الشمالية. . أن محمد على هو مثل جيد للمسلمين، وكذلك هو متحدث جيد عن الإسلام فى الولايات المتحدة فى كافة المجالات، وإذا استطاع ويل سميث أن يقوم بنفس الدور فسوف يكون ذلك مفيد جداً للمسلمين فى أمريكا.

وكان ويل سميث قد ظهر فى برنامج فى التليفزيون الأمريكى لجمع التبرعات لحادث سبتمبر إلى جوار محمد على، وقد دافعا عن الإسلام، وقالوا عنه: إنه دين السلام والمحبة.

**جينو لو كابوتو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (جينو لو كابوتو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا فنان إيطالى، وقد كان يرأس مهرجان البحر الأبيض المتوسط فى مدينة بيشيله الإيطالية منذ عام 1996 وله اهتمامات عدة فى المسرح والسينما والشعر وكذلك فى ثقافة الأطفال وفنونهم بالإضافة إلى كونه رائد المهرجان الدولى شعر ـ موسيقى ـ مسرح الذى يقام فى مدينة كونفر سانو بجنوب إيطاليا.

وقد قدر الله أن ألتقى به بعد إعلان إسلامه فى عمان، وقد سألته عن سر اعتناقه للإسلام، فأجاب: منذ أكثر من عشرين سنة، وأنا أطوف فى بلدان عربية وإسلامية وأعيد مخزونى الثقافى متوغلاً فى تفاصيل الإسلام حيث تعلمت أركانه والأذان والصلاة فضلاً عن

اقترابه الشديد من الدين المسيحى وعـرفت أن الإسلام هو إلى الأبد، مدعومًا بنصائح ودروس كنت أتلقاها من صديقى الدكتور سلطان العويضة الملحق الثـقافى السعودى، إذ تفرغ لى كثيراً وأعطانى الكثير من المعلومات والقصص وسيـر المسلمين وأهمية القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبيـاء محمـد ﷺ لدرجة أنى شـعرت بانتصـار روحى فور دخولـى الدين الإسلامى، هذا وقررت تعلم اللغة العـربية وحفظ القرآن الكريم والمواظبة على حفظ حـدود الله بالإضافة إلى دراسة تاريخ الصحابة من المسلمين الأوائل.

وأضاف: لقد وجـدت أن كل الحضارات الإنسانيـة تستلهم قيمهـا من الدين الإسلامى نفسـه، وأن ابن خلدون وابن رشد همـا عربيـان وللأسف أن الغرب ينظر إلى الإسـلام نظرة خاطئة.

وقال: أرى أن الإسلام يحـمل المعانى السامية والنبيـلة ويهذب الذات ويعطى للإنسان أملاً وحـياة تنبض بالخيـر والعطاء والإيمان والسـلام، وأدركت أن الإنسـان لا يمكن أن يعيش لوحده من دون الله.

**جيرمان جاكسون:**

من الأسمـاء التى رأيتها فى دفتـر البابا فى هذا الفصل اسم (جـيرمان جاكـسون)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مغن أمريكـى.. وهو شقيق المغنى المعروف (مايكل جـكسون)، وقد قدر الله أن ألتـقى به لأسأله عن سر إسلامه، فكان من جـوابه لى: عند زيارتى إلى عدد من دول منطقة الشـرق الأوسط فى عام 1989 بصحـبة أختى الكبرى، حـيث زرنا خلال هذه المرحلة البحرين ورحب بنا الكثيرون.

وكنت مـرة أتبادل الحـديث مع الأطفـال فى المنامـة خلال تلك الرحـلة، فمن جـملة أسئلتهم البـريئة سؤال كان عن دينى، فأجـبتهم بأننى مسيـحى، وسألتهم بدورى عن دينهم، فأجابونى بصوت واحد أن دينهم الإسلام، وكانوا فخورين جدا بالانتماء لهذا الدين، وانطلقوا فى الحديـث عنه، وسألتهـم أكثر عنه، وصـار كل واحد منهم يحـدثنى عن الإسلام بطـريقة أدهشتنى، فهـؤلاء الأطفال الذين أحببتهم كـانوا فخورين جدا بدينهم ويتحـدثون عنه بسعادة غامرة.

بعـد عودتى من البـحرين والحـديث مع أولئك الأطفـال عن الإسلام تيـقنت من أننى سأصبح مسلمًا.. وتحدثت مع صديق لى اسمه على قنبر عن هذا الشعور الذى بدأ ينتابنى منذ فترة، وأفصحت له عن رغبتى فى تعلم المزيد عن الإسـلام، وسافرت معه إلى المملكة العربية السعودية لأتعرف على الإسلام أكثر فأكثر، وهناك أعلنت إسلامى.

---

(1) انظر قصة إسلامه فى حوار أجرته معه مجلة (المجلة) فى العدد 966.

سكت قليلا، ثم قال: سافرت مع صديقى على قنبر إلى مدينة الرياض لمعرفة المزيد عن الإسلام، ومن هناك سافرت إلى جدة واصطحبتنى أسرة سعودية كريمة بعد اعتناقى للإسلام إلى مكة المكرمة لأداء العمرة.

وقد وصف جاكسون أنه بعد إسلامه شعر بأنه ولد من جديد، يقول: كانت لدى العديد من الأسئلة الحائرة التى أبحث لها عن إجابات، خاصة الأسئلة المتعلقة بالمسيحية وعيسى عليه السلام، فوجدت إجابات جاهزة ومقنعة لكل هذه الأسئلة لحظة اعتناقى الإسلام.

وقد كنت فى حيرة من أمرى كمسيحى نشأ فى أسرة متدينة، إذ كان يحيرنى دائما أن الإنجيل مكتوب على أيدى اشخاص عاديين، وكان دائما يخطر ببالى أن هؤلاء بشر فكل واحد منهم سيراعى نفسه ومجموعته فى ما يكتب، بينما القرآن كتاب الله حفظه الله على مر السنين والأجيال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

وفى السعودية وجدت أشرطة جميلة جدا للمغنى البريطانى السابق والداعية الإسلامى يوسف إسلام، وفيها مناظرة حول الإسلام والمسيحية ومنها تعلمت الشيء الكثير.

وقد حدثنى فى لقائى معه عن الحملة الإعلامية الجائرة التى يتعرض لها الإسلام، وقد ذكر لى عجبه من أن الناس العاديين فى أمريكا يصدقون هذه الحملة الإعلامية الجائرة لجهلهم بحقيقة الإسلام وسماحة هذا الدين.

قال جاكسون: أن الحملة الإعلامية الجائرة فى أميركا ضد الإسلام والمسلمين لم تقتصر على أجهزة الإعلام المختلفة، بل إن هوليوود عاصمة صناعة السينما الأمريكية تحاول فيما تنتجه من أفلام أن تصور للناس أن المسلمين إرهابيون وقتلة وأشرار. ولقد عرفت من خلال تجربتى قبل اعتناقى الإسلام وبعده أن الناس عليهم ألا يصدقوا ما تنتجه هوليوود من أفلام تسيء إلى الإسلام والمسلمين، وأن هذا التشويه يؤلم كل مسلم ويجعله يتمنى لو أنه يستطيع تغيير هذه الصورة بصورة الإسلام الحقيقية، إسلام الحضارة والنور، إسلام التسامح والإخاء.

وقد ذكر لى تأثير الإسلام فيه، فقال: لقد قدم لى الإسلام حلا لكل مشكلاتى، فأصبحت إنسانا بلا أى مشاكل، وكنت من داخلى أتغير بشكل رائع، حيث امتنعت عن شرب الخمر تماما وغيرها من الأشياء المحرمة امتثالا لأوامر دينى الجديد.

**براين هوايت:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (براين هوايت)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم موسيقى بريطانى هداه الله للإسلام، وقد اختار أن يسمى بعد إسلامه (إبراهيم هويت).

---

(١) انظر: المسلمون الجدد -إعداد: إمام محمد إمام.

وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن سر إسلامه، ولست أدرى لم اختار أن يبدأ حديثه بقوله: من المحتمل أن أكون عنصريا متطرفا فى عنصريتى قبل اعتناقى للدين الإسلامى، الدين هو الذى علمنى معنى التسامح والتراحم بين الناس ونزع عنى شرور التطرف والكراهية والقسوة.

ثم أضاف: أعتقد أنه من فرط عنصريتى وتطرفى أننى لم أتحدث مع شخص غير أبيض لمدة 21 عاما من حياتى، فكنت شخصا معتدا بنفسه وبلون بشرته أكثر من اللازم، وأعيش حياة نظيفة وراقية، وأجتهد فى عملى كسائر أبناء الشمال البريطانى. وكنت أحسب أن العالم ينتهى عند مدينة ميدلسبره البريطانية، حيث تنشئتى وتربيتى هناك.

ثم حدثنى عن كون هذا هو سر إسلامه فيما بعد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد ذكر لى أنه ذهب إلى أحد المساجد فى مدينة جوهانسبرج بجنوب إفريقيا، وشاهد مصلين من مختلف الأجناس والألوان يصلون مع بعضهم بعضا، فاندهش لذلك اندهاشا كان مقدمة لإسلامه، قال لى: عندما رأيت ذلك المشهد الرهيب قلت لنفسى: ما هى حقيقة الإسلام؟ هذا الدين الذى يستطيع أن يجمع الناس فى جنوب أفريقيا من كل الأماكن ومن مختلف الأجناس والألوان؟ وعندما عدت إلى بريطانيا حرصت على البدء فى القراءة عن الدين الإسلامى.

ثم قررت إشهار إسلامى بعد دراسة عميقة للدين الإسلامى، وشعرت بارتياح وسعادة بالغتين، لأن الله سبحانه وتعالى هدانى إلى هذا القرار الخاص باعتناقى للإسلام. وسارعت إلى تعليق آلاتى الموسيقية وهجرت شرب الخمر وامتنعت عن الذهاب إلى الحانات والليالى الصاخبة.

**كريستيان باكر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كريستيان باكر)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم مغنية من قناة إم تى فى (MTV) الأوروبية، وقد ولدت فى عائلة بروتستانتية وعاشت فى هامبورج، بألمانيا، وقد حدثتنى عن نفسها قبل إسلامها، والألم يعتصرها، فقالت: عندما كنت فى سن الواحدة والعشرين اشتركت فى راديو هامبورج كمذيعة فى الراديو.. وعشت فى نوتينج هيل، وكنت البنت الجديدة فى المدينة، لقد دعيت إلى كل مكان، وصورنى المصورون وتابعتنى الصحافة.. التقيت بالكثير من المشاهير، واستمتعت بوقتى.. لقد أنفقت معظم مالى فى الملابس. وسافرت إلى كل أوروبا، وإلى أفضل الأماكن.

لقد كنت الفتاة الأولى فى قناة إم تى فى، وظهرت فى شاشة التلفاز طوال الوقت،

وعرفنى الناس فى أوروبا كلهـا، وفى وقت من الأوقات وقفت على المنصة أمام سـبعين ألف شخص. . لسبع سنوات قدمت برامج كثيرة، وقابلت الكثيرين من نجوم الغناء.

قلت: فكيف تحولت عن هذه الحياة إلى حياة الإيمان؟

قالت: لقد كنت ـ فى كل ذلك الضجيج ـ منجذبة نحو الحياة الروحية، ولكن لم أفعل أى خطوات عملية نحو تلك الحياة إلى أن التقيت فى عام 1992م بعمران خان، وهو من فريق لعبة الكريكت الباكستانى، وكانت تلك أول مرة ألتقى فيها بمسلم.

وقد كان عمران فى ذلك الوقت يبحث عن حقـيقة الإيمان، وقد دارت بيننا الكثير من النقاشات عن الإسلام، وقد أعطانى بعض الكتب عن الإسلام، وبدأت أقرأ عن دين الله.

وفى ذلك الحين بدأت فى تحـدى انحيازاتى، وبدأت أنظر بين السطور، وقـرأت القرآن وبدأ كل شىء يكون له معنى.

قلت: إن قومنا يشوهون موقف الإسلام من المرأة، ألم يؤثر ذلك فيك؟

قالت: كامرأة غربية عصرية وذات درجة علمية، احتجت لأن أنظر إلى رؤية الإسلام للمـرأة، لا يمكن أن أقبل بأن أظلم، فـاكتـشفت أن رسـالة الإسلام مـؤيدة للمرأة ومـؤيدة للرجل، فى الإسـلام كـان للمـرأة حق التصـويت فى عـام 600، الرجـال يلبـسون مـلابس محتشمة، والنساء يلبسن ملابس محتشمة، لا أحد من الجنسين يطلق العنان لنظره. . .بل كلا الجنسـين يغض بـصـره، لا أظن أنهـا ظاهرة صـحـيـة بأن يطلق الناس الـعنان لشـهـواتهم الجنسية. . إن ذلك يثير الشهوة الخاطئة مرة أخرى.

قلت: فبم اشتغلت بعد إسلامك؟

قالت: لقـد فتح الإسلام لى نوافـذ كثيـرة كانت مغلقـة فى وجهى. . أنا الآن أصلى الصلوات الخمس، وأصوم شـهر رمضان. . وكنت أشرب الخـمر فى باريس. .ولكنى الآن لا ألمسـها. . وفى عـام 2001 ذهبت إلى مكة. . وكـانت تجـربة رائعة. . لقـد عـدت بالسعـادة والطمأنينة. . وعندما عدت بدأت بالدراسة الجامعيـة فى جامعة ويست مينيستر، حيث درست الطب الطبيعى، والأعشاب، والطب الصينى. . لقد فتحت أمامى أبواب أخرى لعالم عجيب، النظرة الأخرى للإنسان والطبيعة، والصحة والمرض.

هذا ما حدثتنى به، وقد كـان آخر ما ذكرته لى قولها، والبشر يعلـو وجهها: الإسلام هو أكبر هدية حصلت عليها.

* * *

■■■■■■■

# خامسا - العلماء

■■■■■■■

فتحت دفتر البابا على فصله الخامس، فوجدت عنوانه (العلماء)، فقلت: من تقصد بالعلماء.. علماء الدين، أم علماء الدنيا.. أم كلاهما؟

قال: عندما وضعت هذا العنوان كنت لا أزال على دين قومى، ولهذا كنت أعتقد المفاصلة بين الدين والعلم.. فلهذا أطلقت اسم (الأحبار) على علماء الدين، وأطلقت هذا الاسم على علماء الدنيا.

قلت: فكيف أتيح لك أن تلقى من علماء الدنيا من يبثك نفحات صدقه.. وأنا لا أراهم إلا مشغولين بمخابرهم وبحوثهم وشهاداتهم وتنافسهم فى كل ذلك.

قال: ما تقوله صحيح.. ولكن من هؤلاء العلماء من كان يتيح المجال لعقله ليبحث فى أسرار الكون.. وهؤلاء عادة لا يجدون دينا يملؤهم بالقناعة غير الإسلام.

لقد ذكر القرآن الكريم تأثير الإيمان فى العلماء، فقال: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ... ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

وقد أخبر القرآن الكريم أن الذين أوتو العلم أقرب الناس إدراكا للحق، فقال: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ].

لقد حصل الكثير مما ذكر القرآن الكريم.. بل أنا أجزم أن المسلمين لو استطاعوا أن ينشروا تلك العجائب التى امتلأ بها القرآن لتحول جميع علماء الدنيا إلى مسلمين..

لقد سمعت مرة الدكتور زغلول النجار[1]، وهو يتحدث عن تأثير نواحى الإعجاز العلمى فى النصوص المقدسة.. فقال: دعيت مرة لحضور مؤتمر عقد للإعجاز فى موسكو، فكرهت فى بادئ الأمر أن أحضره، لأنه يعقد فى بلد كانت هى عاصمة الكفر والإلحاد لأكثر من سبعين سنة، وقلت فى نفسى: ماذا يعلم هؤلاء الناس عن الله حتى ندعوهم إلى ما نادى به القرآن الكريم!؟

فقيل لى: لابد من الذهاب، فإن الدعوة قد وجهت إلينا من قبل الأكاديمية الطبية الروسية.. فذهبنا إلى موسكو، وفى أثناء استعراض بعض الآيات الكونية، وبالتحديد عند قول الله عز وجل: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة] وقف أحد العلماء المسلمين وقال: إذا كانت ألف سنة تساوى قدرين من الزمان غير متكافئين دل ذلك على اختلاف السرعة. ثم بدأ يحسب هذه السرعة فقال: ألف سنة.. لابد أن تكون ألف سنة قمرية، لأن العرب لم يكونوا يعرفون السنة الشمسية،

(1) من كتاب (الذين هدى الله) للدكتور زغلول النجار.

والسنة القمرية اثنا عشر شهراً قمريًا، ومدة الشهر القمرى هى مدار القمر حول الأرض، وهذا المدار محسوب بدقة بالغة، وهو 2,4 بليون كم. . و2,4 بليون مضروب فى 12، وهو عدد شهور السنة، ثم فى ألف سنة، ثم يقسم هذا الناتج على أربع وعشرين، وهو عدد ساعات اليوم، ثم على ستين ـ الدقائق ـ ثم على ستين ـ الثوانى ـ فتوصل هذا الرجل إلى سرعة أعلى من سرعة الضوء.

فوقف أستاذ فى الفيزياء ـ وهو عضو فى الأكاديمية الروسية ـ وهو يقول: لقد كنت أظننى ـ قبل هذا المؤتمر ـ من المبرزين فى علم الفيزياء، وفى علم الضوء بالذات، فإذا بعلم أكبر من علمى بكثير، ولا أستطيع أن أعتذر عن تقصيرى فى معرفة هذا العلم إلا أن أعلن أمامكم جميعًا أنى (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

ثم تبعه فى ذلك أربعة من المترجمين، الذين ما تحدثنا معهم على الإطلاق، وإنما كانوا قابعين فى غرفهم الزجاجية يترجمون الحديث من العربية إلى الروسية والعكس، فجاءونا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ليس هذا فحسب وإنما علمنا بعد ذلك أن التلفاز الروسى قد سجل هذه الحلقات وأذاعها كاملة، فبلغنا أن أكثر من 37 عالمًا من أشهر العلماء الروس قد أسلموا بمجرد مشاهدتهم لهذه الحلقات.

التفت البابا إلى، وقال: هذه ثمرات مؤتمر أكاديمى واحد، فكيف لو اجتهد المسلمون للوصول إلى مخابر هؤلاء العلماء ومحادثتهم وجها لوجه!؟

**موريس بوكاى:**

كان أول اسم سجل فى هذا الفصل اسم (موريس بوكاى)، فقلت: من هذا الرجل. . وكيف أتيح لك أن تلتقى به. . وماذا قال لك. . وما!؟

قاطعنى البابا قائلا: هذا رجل عظيم، وهو من أكثر الشخصيات التى أحترمها. . وهو يمثل العالم المنصف، والباحث الواصل.

قلت: لم؟

قال: هو ـ أولا ـ طبيب فرنسى، بل هو رئيس قسم الجراحة فى جامعة باريس، وقد منحته الأكاديمية الفرنسية عام 1988م جائزة فى التاريخ. . ويُعتبر كتابه (التوراة والقرآن والعلم) من أهم الكتب التى درست الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، وله ـ بالإضافة إليه ـ كتاب (القرآن الكريم والعلم العصرى).

قلت: فكيف كان رحلته إلى الإسلام؟

قال: لقد ذكر ذلك فى كتبه. . وقد تشرفت بلقائه، فسمعت ذلك منه مشافهة، ومما ذكره لى قوله: (لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية

تامة باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن معرفتى كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أى سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا فى عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل.. فإننا نجد نصّ إنجيل متى يناقض بشكل جلى إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض)[1].

قلت: فقد اهتدى إلى الإسلام بسبب مقارنته بين القرآن الكريم والكتاب المقدس فى النواحى العلمية؟

قال: أجل.. لقد كان شديد الإعجاب بما فى القرآن الكريم من نواحى الإعجاز العلمى، وقد قال لى - فى لقائى معه -:(لقد أثارت الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك فى نصّ كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا.. فى البداية لم يكن لى أى إيمان بالإسلام.. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة)[2].

لقد (تناولتُ القرآن منتبهًا بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية.. لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهى تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا فى النص الأصلى، أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرة والتى لم يكن ممكنًا لأى إنسان فى عصر محمد أن يكون عنها أدنى فكرة)[3].

لقد كنت أقول لنفسى: (كيف يمكن لإنسان - كان فى بداية أمره أميًّا -.. أن يصرح بحقائق ذات طابع علمى لم يكن فى مقدور أى إنسان فى ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟)[4].

ليس ذلك فقط هو الذى جعل موريس بوكاى يمتلئ قناعة بالإسلام، هناك شىء آخر له أهميته الكبرى.

(1) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 150.
(2) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 145.
(3) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 145.
(4) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 150.

قلت: تقصد موقف الإسلام من العلم؟

قال: أجل.. فهو موقف مختلف كثيرا، بل مناقض لموقف الكنيسة، لقد قال لى ـ وهو الباحث المنصف ـ (إن الإسلام قد اعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ من الواجبات التى أمر بها الإسلام. وأن تطبيق هذا الأمر هو الذى أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم فى عصر الحضارة الإسلامية، تلك التى اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة فى أوروبا)[1].

وقال لى: (فى الإسلام كان الموقف إزاء العلم مختلفًا [عن المسيحية] إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبى ﷺ الذى يقول فيه: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» أو ذلك الحديث الآخر الذى يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» هناك أمر رئيسى: القرآن، إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوى أيضًا على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية وبتفاصيل توضيحية تتفق تمامًا مع معطيات العلم الحديث)[2].

وقد ذكر لى أن تلك المقارنات التى كان يجريها بين موقف المسلمين من العلم طيلة تاريخهم الطويل مقارنة بموقف الكنيسة كانت سببا من أسباب إسلامه، فهو يقول: (علينا أن نتذكر أنه فى عصر عظمة الإسلام، أى بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر من العصر المسيحى، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمى فى بلداننا المسيحية، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والاكتشافات بالجامعات الإسلامية.. فى ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة، ففى قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوى على أربعمائة ألف مجلد.. [وكان] الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوروبا للدراسة فيها، ولكن كم هى كثيرة تلك المخطوطات القديمة التى وصلت إلينا بواسطة الأدباء العرب ناقلة بذلك الثقافة إلى البلاد المفتوحة، ولكم نحن مدينون للثقافة العربية فى الرياضيات (فالجبر عربى) وعلم الفلك والفيزياء (البصريات) والجيولوجيا وعلم النباتات والطب إلى غير ذلك. لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة عالمية فى جامعات العصر الوسيط الإسلامية. فى ذلك العصر كان الناس أكثر تأثرًا بالروح الدينية مما هم عليه فى عصرنا، ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا فى آن واحد مؤمنين وعلماء. كان العلم الأخ التوأم للدين. لكم كان ينبغى على العلم ألا يكف عن أن يكون كذلك)[3].

قلت: أحسبنى.. بل أحسب كل من قرأ كتب موريس يعلم هذا.. ولكنى أبحث عن الشعاع الأول الذى أهتدى به إلى شمس محمد.

(1) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة، ص 14.

(2) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة، ص 140.

(3) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة، ص 140 - 141.

قال: لقد ذكر لى قصة ذلك[1].. بل أخبرنى عن حياته الشخصية فذكر لى أنه ولد من أبوين فرنسيين، وترعرع كما ترعرع أهله فى الديانة النصرانية، ولما أنهى تعليمه الثانوى انخرط طالبا فى كلية الطب فى جامعة فرنسا، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب، وارتقى به الحال حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة.

فكان من مهارته فى الجراحة قصة عجيبة قلبت له حياته وغيرت له كيانه.

التفت البابا إلى، وقال: أنت تعلم أن فرنسا من أكثر الدول اهتماما بالآثار والتراث، ولهذا عندما تسلم الرئيس الفرنسى (فرانسوا ميتران) زمام الحكم فى البلاد عام 1981 طلبت فرنسا من دولة (مصر) فى نهاية الثمانينيات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة..

فتم نقل جثمان فرعون من مصر.. وهناك وعلى أرض المطار اصطف الرئيس الفرنسى منحنيا هو ووزراؤه وكبار المسؤولين فى البلد عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك وكأنه مازال حيا.

وعندما انتهت مراسم الاستقبال الملكى لفرعون مصر على أرض فرنسا حملت مومياء فرعون بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص فى مركز الآثار الفرنسى، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار فى فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور موريس بوكاى.

لقد كان المعالجون ـ فى ذلك الموقف ـ مهتمين بترميم المومياء، بينما كان اهتمام رئيسهم (موريس بوكاى) مختلفا عنهم غاية الاختلاف.. فقد كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعونى.

وفى ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية..

لقد كانت بقايا الملح العالق فى جسده أكبر دليل على أنه مات غريقا، وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فورا، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه.

لكن ثمة أمرًا غريبًا مازال يحيره، وهو كيف بقيت هذه الجثة دون باقى الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها استخرجت من البحر..!

كان موريس بوكاى يعد تقريرًا نهائيا عما كان يعتقده اكتشافًا جديدًا فى انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم فى أذنه قائلا: لا تتعجل، فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.

---

(1) انظر فى هذا مقالا لـ د. محمد يوسف المليفى فى كتاب (لماذا أسلموا).

لكنه استنكر بشدة هذا الخبر، واستغربه، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة، فقال له أحدهم: إن قرآنهم الذى يؤمنون به يروى قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق.

فازداد ذهولا وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلا إلا فى عام 1898 ميلادية أى قبل مائتى عام تقريبا، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام.

وكيف يستقيم فى العقل هذا، والبشرية جمعاء وليس العرب فقط لم يكونوا يعلمون شيئا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط.

جلس (موريس بوكاى) ليلته محدقا بجثمان فرعون، يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق.. بينما الكتاب المقدس يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة.. وأخذ يقول فى نفسه: هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامى هو فرعون مصر الذى كان يطارد موسى!؟

وهل يعقل أن يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه!؟

لم يستطع (موريس) أن ينام، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ فى (سفر الخروج) من التوراة قوله (فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر لم يبق منهم ولا واحد).. وبقى موريس بوكاى حائرا.

حتى الكتاب المقدس لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه.

أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجى فاخر يليق بمقام فرعون.. ولكن (موريس) لم يهنأ له قرار ولم يهدأ له بال منذ أن هزه الخبر الذى يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة.

فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبى يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين.

وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق.. فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس].

لقد كان وقع الآية عليه شديدا.. بل رجت له نفسه رجة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: (لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن).

رجع (موريس بوكاى) إلى فرنسا بغير الوجه الذى ذهب به.. وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثا مع

القرآن الكريم، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة نص عليها قوله عز وجل: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

كان من ثمرة هذه السنوات التى قضاها موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هز الدول الغربية قاطبة ورج علماءها رجا، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة).

قلت: كيف كان تأثير هذا الكتاب على الأوروبيين؟

قال: لقد كان تأثيرا خطيرا.. فهو من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات.. ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسية) إلى العربية والإنجليزية والأندونيسية والفارسية والصربكرواتية والتركية والأوردوية والكجوراتية والألمانية، لينتشر بعدها فى كل مكتبات الشرق والغرب.

قلت: ألم يلق هذا الكتاب ردا من الدوائر الرسمية التى تعودت على بث الشبهات عن الإسلام؟

قال: بلى.. لقد بذلوا كل جهودهم للرد عليه.. ولكنهم لم يكتبوا غير تهريج جدلى، ومحاولات يائسة أملتها عليهم وساوس الشيطان.. وقد كان آخرهم الدكتور (وليم كامبل) فى كتابه المسمى (القرآن والكتاب المقدس فى نور التاريخ والعلم) فقد شرق وغرب ولم يستطع فى النهاية أن يحرز شيئا.

بل الأعجب من هذا أن بعض العلماء فى الغرب بدأ يجهز ردًا على الكتاب. فلما انغمس بقراءته أكثر وتمعن فيه زيادة.. أسلم ونطق بالشهادتين على الملأ.

**كيث مور:**

رأيت اسم (كيث مور)، فسألت البابا عنه، فقال: تعرفت على هذا الرجل فى بعض الجامعات حيث تقدم ليلقى محاضرة بعنوان (مطابقة علم الأجنة لما فى القرآن والسنة)، وقد قدمه مدير الجامعة[1] بقوله: محاضرنا اليوم هو الأستاذ كيث مور.. وهو أستاذ علم التشريح والأجنة فى جامعة تورنتو بكندا، وقد تدرج فيها حتى وصل إلى هذه المرتبة فى جامعات عديدة، منها جامعة تويناتك فى الغرب الكندى حيث كان هناك لمدة 11 سنة، ورأس العديد من الجمعيات الدولية، منها على سبيل المثال جمعية علماء التشريح والأجنة فى كندا وأمريكا، ومجلس اتحاد العلوم الحيوية الأخرى، كما انتخب عضواً بالجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكى لأطباء التشريح، وعضواً فى اتحاد

(1) المقدم هو الدكتور عبدالله نصيف مدير جامعة الملك عبدالعزيز فى ذلك الحين، وقد تولى منصب الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى بعد ذلك.

الأمريكتين فى التشريح أيضًا، وقد ألف العديد من الكتب، بعض هذه الكتب فى مجال التشريح الإكلينيكى وعلم الأجنة، وله ثمانية كتب تعتبر مرجعًا لطلاب كليات الطب، وقد ترجمت إلى ست لغات: الإيطالية، والألمانية، والبرتغالية، والإسبانية، واليونانية، والصينية».

بعد هذا التقديم تقدم الدكتور مور لإلقاء محاضرته، فقال: (لقد أسعدنى جدًا أن أشارك فى توضيح هذه الآيات والأحاديث التى تتحدث عن الخلق فى القرآن الكريم والحديث الشريف، ويتضح لى أن هذه الأدلة حتمًا جاءت لمحمد من عند الله لأن كل هذه المعلومات لم تكتشف إلا حديثًا، وبعد قرون عدة، وهذا يثبت لى أن محمدًا رسول الله)[1].

ثم قال: (إننى أشهد بإعجاز الله فى خلق كل طور من أطوار القرآن الكريم، ولست أعتقد أن محمدًا أو أى شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث فى تطور الجنين، لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا فى الجزء الأخير من القرن العشرين، وأريد أن أؤكد على أن كل شىء قرأته فى القرآن عن نشأة الجنين وتطوره فى داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه كعالم من علماء الأجنة البارزين).

لاحظت فى وجوه الجمع الحاضر سرورا عظيما، واهتماما كبيرا بما يقوله هذا الدكتور الباحث المنصف، ولاحظت فوق ذلك نفحات الصدق التى ذكرها لى معلم السلام.

حاولت أن أقترب منه لأستوضح أسرار ذلك التصريح الخطير، لكنى لم أتمكن، ولكنى مع ذلك رأيت الدكتور زغلول النجار الذى ذكر لى أنه قال فى مؤتمر موسكو للإعجاز العلمى (إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تكون الجنين فى الإنسان لتبلغ من الدقة والشمول ما لم يبلغه العلم الحديث، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا كلام الله، وأن محمدًا رسول الله).

فقيل له بعد انتهاء محاضرته: هل أنت مسلم؟.. فقال: لا.. ولكنى أشهد أن القرآن كلام الله.. وأن محمدًا مرسل من عند الله، فقيل له: إذًا.. فأنت مسلم، قال: أنا تحت ضغوط اجتماعية تحول دون إعلان إسلامى الآن[2]، ولكن لا تتعجبوا إذا سمعتم يومًا أن كيث مور قد دخل الإسلام.

---

(1) انظر شهادة كيث مور المصورة على الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم على الروابط التالية:

الجزء الأول: http://albakekah.com/aduio/moore-1-56k[1].ram

الجزء الثانى: http://albakekah.com/aduio/moore-2-56k[1].ram

(2) قد ذكرنا فى مناسبات مختلفة عدم اشتراط الإعلان بالطرق المعمول بها، بل قد يكون من الحكمة عدم هذا الإعلان، خاصة إذا ترتبت عليه مفاسد تتعلق بالمعلن عن إسلامه أو من يرتبطون به، وقد ذكر القرآن مؤمن آل فرعون الذي لم يعلن إيمانه إلا بعد أن رأى المناسبة الداعية لذلك، فقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) ﴾ [غافر].

قال زغلول النجار: ولقد وصلنا فى العام الماضى أنه قد أعلن إسلامه فعلاً، فلله الحمد والمنة.

حاولت أن أقترب منه فى مناسبة أخرى، لكنى لم أتمكن، وقد أخبرنى الشيخ الفاضل عبد المجيد الزندانى عن سر ذلك التوجه فقال: لقد كان النور الذى أطل منه هذا العالم الفاضل على الإسلام هو مراحل خلق الإنسان السبعة التى ذكرها القرآن فى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون].

فقد وجد هذا العالم أن علم الأجنة بأجهزته المتطورة يثبت هذه المراحل وتطابقها مع المراحل المذكورة فى القرآن.

ثم قال لى الشيخ الزندانى: تأمل ما قاله هذا الأستاذ الكبير من مشاهير علماء العالم فى الأجنة عندما درس الآيات المتعلقة بمجال اختصاصه فى هذا الكتاب تأمل ماذا قال: إنه لا بد أن يكون محمد رسولاً من عند الله. وعندما شاهد البروفيسور كيث مور العلقة التى توجد فى البرك، وقارن بينها وبين الجنين فى مرحلة العلقة وجد تشابها كبيراً بين الاثنين، ثم قال بعد ذلك: إن الجنين فى مرحلة العلقة يشبه هذه العلقة تمامًا. وتبنى هذه القضية وجاء بعد ذلك بصورة لهذه العلقة التى تعيش فى البرك ووضعها بجوار صورة أخرى للجنين وجمع بينهما فى شكل توضيحى وعرضه على الأطباء فى عدد من المؤتمرات.

وبين البروفيسور كيث مور أيضًا أن الجنين فى مرحلة العلقة يكون معلقًا فى رحم أمه. . وكذلك فإن العلقة فى لغة العرب تعنى الدم المتجمد.

وقد ذكر البروفيسور كيث مور أن الجنين فى مرحلة العلقة تكون الدماء فيه محبوسة فى العروق الدموية قبل أن تتم الدورة بين الجنين وبين المشيمة فيظهر شكل الجنين كشكل الدم المتجمد.

وهكذا تشمل كلمة (العلقة) جميع أوصاف الجنين فمن أخبر محمداً ﷺ بهذا؟

ثم تحدث البروفيسور كيث مور عن المضغة، وجاء بقطعة من الطين الصلصال ومضغها بفمه، ثم جاء بصورة من جنين وقارن بين الاثنين وقال: إن الجنين يشبه المضغة.

وقد نشرت بعض الصحف الكندية كثيراً من تصريحات البروفيسور كيث مور، وأخيراً قدم كيث مور ثلاث حلقات فى التلفزيون الكندى عن التوافق بين ما ذكره القرآن قبل 1400 عام وما كشف عنه العلم فى هذا الزمان، وعلى أثر ذلك وجه له هذا السؤال: يا أستاذ مور معنى ذلك أنك تؤمن بأن القرآن كلام الله؟ فأجاب: لم أجد صعوبة فى قبول هذا، فقيل له: كيف تؤمن بمحمد وأنت تؤمن بالمسيح؟ فأجاب: أعتقد أنهما من مدرسة واحدة.

وقد قال الشيخ الزندانى معقبا على هذا: (وهكذا يمكن لعلماء العالم فى عصرنا أن يعلموا أن هذا الكتاب قد نزل بعلم الله، كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء] فيعلمون إذًا أن محمدًا رسول الله ﷺ)

قال الشيخ الزندانى ذلك، ثم أخرج لى كتابا من محفظته، وقال: هذا كتاب The Developing Human أو أطوار خلق الإنسان.. وهو من أهم الكتب التى ألفها هذا العالم الفاضل.. وهو مرجع علمى عالمى، وعندما كونت لجنة فى أمريكا لاختيار أحسن كتاب فى العالم ألفه مؤلف واحد كان هذا الكتاب هو الفائز عند تلك اللجنة.

سكت قليلا، ثم قال: لى مع صاحب هذا الكتاب قصة أحب أن أعرضها عليك.. لقد التقيت بصاحب هذا الكتاب وعرضت عليه كثيرًا من الآيات والأحاديث المتعلقة بمجال تخصصه فى علم الأجنة، فاقتنع بما عرضت عليه، وقلت له: إنك ذكرت فى كتابك القرون الوسطى، وقلت إن هذه القرون لم يكن فيها تقدم لعلم الأجنة، بل لم يعلم فيها إلا الشىء القليل، وفى هذه العصور عندكم كان القرآن يتنزل عندنا، وكان محمد ﷺ يعلم الناس الهدى الذى جاء من عند الله سبحانه وتعالى، وفيه الوصف الدقيق لخلق الإنسان ولأطوار خلق الإنسان، وأنت رجل عالمى فلماذا لم تنصف وتضع فى كتابك هذه الحقائق؟

فقال: الحجة عندكم، وليست عندى، قدموها لنا.

قال الشيخ: ففعلنا، فكان هو كذلك عالمًا شجاعًا.. فوضع إضافة فى الطبعة الثالثة، وهى الآن منتشرة فى العالم بثمان لغات يقرؤها أكابر العلماء فى العالم الذين ينطقون باللغة الإنجليزية والروسية والصينية واليابانية والألمانية والإيطالية واليوغوسلافية والبرتغالية.

أكابر العلماء فى العالم الناطقون بهذه اللغات يقرؤون ما أضافه البروفيسور كيث مور فى هذا الباب.

فتح الشيخ الكتاب، ثم قال: اسمع ما يقول البروفيسور كيث مور فى هذا الكتاب تحت عنوان (العصور الوسطى).. لقد قال: (كان تقدم العلوم فى العصور الوسطى بطيئًا، ولم نعلم عن علم الأجنة إلا الشىء القليل، وفى القرآن الكريم الكتاب المقدس لدى المسلمين ورد أن الإنسان يخلق من مزيج من الإفرازات من الذكر والأنثى، وقد وردت عدة إشارات بأن الإنسان يخلق من نطفة من المنى، وبين أيضًا أن النطفة الناتجة تستقر فى المرأة كبذرة بعد ستة أيام، والمعروف أن البيضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت فى الانقسام تبدأ فى النمو بعد ستة أيام من الإخصاب، ويقول القرآن الكريم أيضًا: إن النطفة (المنى) تتطور لتصبح قطعة من دم جامد (علقة) وأن البُيضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت فى الانقسام، أو أن البُيضة الملقحة التى بدأت بالإنقسام أو الحمل المجهض تلقائيًا يمكن أن تشبه العلقة، ويمكن رؤية مظهر الجنين فى تلك المرحلة يشبه العلقة، ولا يختلف عن شكل العلقة أو ماص الدماء. ويكون

مظهر الجنين فى هذه المرحلة يشبه شيئًا ممضوغًا كاللبان أو الخشب، وكأن فيها آثار الأسنان التى مضغتها، ولقد اعتبر الجنين فى الشكل الإنسانى بعد مضى أربعين أو اثنين وأربعين يومًا ولا يشبه بعدها جنين الحيوان. لأن الجنين البشرى يبدأ باكتساب مميزات الإنسان فى هذه المرحلة، قال تعالى: ﴿ ...يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ... ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر] إن الجنين يتطور داخل ثلاثة حجب مظلمة. وهذا قد يشير إلى (جدار البطن الخارجى للمرأة، وجدار الرحم، والغشاء الداخلى الذى يحيط بالجنين مباشرة)، ولا يتسع المجال لمناقشة موضوعات هامة أخرى مشوقة وردت فى القرآن الكريم، وتتعلق بتطور الإنسان فى مرحلة ما قبل ولادته).

أغلق الشيخ الكتاب، ثم قال: هذا الذى كتبه د. كيث مور، وأصبح منتشرًا فى العالم اليوم ولله الحمد، هذا ما أملاه عليه البحث العلمى.

لقد اقتنع الأستاذ كيث مور أيضًا بأن التقسيم الذى تقسم إليه أطوار الجنين فى بطن أمه الآن فى العالم كله تقسيم صعب غير مفهوم ولا ينفع فى فهم مراحل تطور الجنين، ذلك لأنه يقسم المراحل تقسيمًا رقميًا أى المرحلة 1،2،3،4، أو المرحلة رقم 5 وهكذا بينما التقسيم الذى جاء بالقرآن لا يعتمد على الأرقام بل يعتمد على الأشكال المتميزة الجلية، فكانت التقسيمات فى كتاب الله (نطفة ـ علقة ـ مضغة ـ عظام ـ كساء العظام باللحم ـ النشأة خلقًا آخر)، وهناك تفاصيل متفاوتة فى كل منها.

عن هذه التقسيمات القرآنية التى تعتمد على الشكل المحدد المتميز عن الشكل الآخر قال البروفيسور كيث مور: هى تقسيمات علمية دقيقة، وتقسيمات سهلة ومفهومة ونافعة.

وقد وقف فى أحد المؤتمرات يعلن هذا فقال: (يحمى الجنين فى رحم الأم ثلاثة أحجبة أو طبقات موضحة فى الشريحة التالية (الجدار البطنى.. الجدار الرحمى.. الغشاء).. لأن مراحل تطور الجنين البشرى معقدة، وذلك بسبب التغيرات المستمرة التى تطرأ عليه فإنه يصبح بالإمكان تبنى نظام جديد فى التصنيف باستخدام الاصطلاحات والمفاهيم التى ورد ذكرها فى القرآن والسنة، ويتميز النظام الجديد بالبساطة والشمولية إضافة إلى انسجامه مع علم الأجنة الحالى.. لقد كشفت الدراسات المكثفة للقرآن والحديث خلال السنوات الأربعة الأخيرة جهاز تصنيف الأجنة البشرية الذى يعتبر مدهشًا حيث إنه سجل فى القرن السابع بعد الميلاد فيما يتعلق بما هو معلوم من تاريخ علم الأجنة لم يكن يعرف شيء عن تطور وتصنيف الأجنة البشرية حتى حلول القرن العشرين، ولهذا السبب فإن أوصاف الأجنة البشرية فى القرآن الكريم لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع، الاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد من الله، إذ ما كان له أن يعرف مثل هذه التفاصيل لأنه كان أميًا، ولهذا لم يكن قد نال تدريبًا علميًا.

سكت الشيخ الزندانى قليلا، ثم قال: قلت للدكتور مور: إن هذا الذى قلته صحيح، ولكنه أقل مما عرض عليك من حقائق الكتاب والسنة فى مجال علم الأجنة، فلم لا تكون منصفًا وتفسح المجال لبيان جميع الآيات والأحاديث التى وردت فى القرآن المتعلقة بمجال اختصاصك، فقال: لقد كتبت القدر المناسب فى المكان المناسب فى كتاب علمى متخصص، ولكنى أسمح لك أن تضيف إلى كتابى إضافات إسلامية تجمع فيها جميع الآيات والأحاديث التى تحدثنا عنها وناقشناها وتضعها فى مواضعها المناسبة من كتابى هذا، وبعد ذلك تقدم وتبين أوجه الإعجاز فى هذا الكتاب ففعلت ذلك.

ثم بعد ذلك وضع الدكتور كيث مور مقدمة هذه الإضافات الإسلامية.

أخرج الشيخ الزندانى نسخة أخرى من الكتاب، وقال: هذا الكتاب هو الذى اقترحه البروفيسور كيث مور مع الإضافات الإسلامية كما تراه.

ثم قال: لقد رجعنا إلى كل صفحة من الصفحات التى فيها حقائق من علم الأجنة فوضعنا فى مقابلها الآيات والأحاديث النبوية التى تبين وجه الإعجاز، إننا اليوم بإذن الله تعالى على موعد مع الإسلام فى فتح جديد للعقول البشرية المنصفة.

**تيجاتات تاجسن:**

رأيت اسم (تيجاتات تاجسن)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور (تيجاتات تيجاسون).. وهو رئيس قسم علم التشريح فى جامعة شيانك مى، وهو من تايلند.

وقد حدثنى حديثه الشيخ عبد المجيد الزندانى[1]، فقد قال لى: بدأت صلتى بالبروفيسور تاجات تاجاسون عندما عرضنا عليه بعض الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه فى مجال علم التشريح.

وعندما أجاب عليها قال لى: ونحن كذلك يوجد لدينا فى كتبنا المقدسة البوذية أوصاف دقيقة لأطوار الجنين.

فقلت له: أنا بشوق لكى أعرف هذه الأوصاف، وأريد أن أطلع على ما كتب فى هذه الكتب.

وعندما جاء ممتحنًا خارجيًا لطلاب الطب فى جامعة الملك عبدالعزيز بعد عام سألته، فاعتذر لى، وقال: كنت قد أجبتك دون أن أتثبت لهذا الأمر، ولما بحثت عنه وجدت أنه لا توجد النصوص التى ذكرتها لك.

عندئذ قدمت له محاضرة مكتوبة للدكتور (كيث مور)، وكان عنوان المحاضرة (مطابقة علم الأجنة لما فى القرآن والسنة)، وسألته عن الأستاذ كيث مور: هل تعرفه؟ فقال: إنه رجل من كبار علماء العالم المشهورين فى هذا المجال.

(1) انظر: إنه الحق، للشيخ الزندانى، ببعض التصرف، وانظر شهادته المصورة فى: http.//alhakekah.com/aduio/ tejasen-1-56k[1].ram

وبعد أن اطلع على هذه المحاضرة اندهش، وسألناه عدداً من الأسئلة فى مجال تخصصه كان منها ما يتعلق بالجلد، قلت له: هل هناك مرحلة ينعدم عندها الإحساس بألم الحرق؟

قال: نعم إذا كان الحرق عميقًا ودمر عضو الإحساس بالألم.

قلت: حسنًا ما رأيك إذن أن القرآن الكريم الذى عند تاريخ نزوله على محمد ﷺ لأكثر من ألف وأربعمائة عام قد أشار إلى تلك الحقيقة العلمية عندما ذكر الطريقة التى سيعاقب الله بها الكافرين يوم القيامة حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء].

فالقرآن هنا يقرر أنه عندما ينضج الجلد يخلق الله للكفار جلداً جديداً كى يتجدد إحساسهم بالألم وذلك تأكيد من جانب القرآن على أن الأطراف العصبية التى تجعل الإنسان يشعر بالألم موجودة فى الجلد.

قال: هذا أمر يدعو للدهشة والغرابة حقيقة، فتلك معرفة مبكرة جدًا عن مراكز الإحساس والأعصاب فى الجلد ولا أدرى كيف ذكر قرآنكم هذا؟

قلت: ترى أيمكن أن تكون هذه المعلومات قد استقاها محمد نبى الإسلام من مصدر بشرى؟

قال: بالطبع لا.. ففى ذلك الوقت لم تكن هناك معارف بشرية حول هذا الموضوع.

قلت: من أين إذن وكيف عرف ذلك؟

قال: المؤكد عندى هو استحالة المصدر البشرى، ولكنى أسألكم أنتم من أين تلقى محمد هذه المعلومات الدقيقة؟

قلت: من عند الله.

قال: الله!! ومن هو الله؟

قلت: إنه الخالق لهذا الوجود. إذا رأيت الحكمة، الحكمة تدل على الحكيم، وإذا رأيت العلم فى هذا الوجود دلك على أنه من صنع العليم، وإذا رأيت الخبرة فى تكوين هذه المخلوقات دلتك على أنها من صنع الخبير. وإذا رأيت الرحمة شهدت لك على أنها من صنع الرحيم، وهكذا إذا رأيت النظام الواحد فى هذا الوجود والترابط المحكم دلك ذلك على أنه من صنع الخالق الواحد سبحانه وتعالى.

بعد أن شرحت له المفهوم الإسلامى للفظ الجلالة الأعظم راقته تلك الرؤية، وعاد إلى بلاده ليحاضر عن هذه الظاهرة القرآنية التى عايشها، وتأثر بها حتى جاء موعد المؤتمر الطبى السعودى الثامن، واستمع فى الصالة الكبرى التى خصصت للإعجاز على مدى أربعة أيام لكثير من العلماء، ولا سيما غير المسلمين يحاضرون عن ظاهرة الإعجاز العلمى.

وفى ختام جلسات المؤتمر وقف البروفيسور (تاجاتات تاجاسون) يعلن: بعد هذه الرحلة الممتعة والمثيرة، فإنى أؤمن أن كل ما ذكر فى القرآن الكريم يمكن التدليل على صحته بالوسائل العلمية، وحيث إن محمداً نبى الإسلام كان أميًا، إذن لابد أنه قد تلقى معلومات عن طريق وحى من خالق عليم بكل شىء. . وإننى أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

**ألفريد كرونير:**

رأيت اسم (البروفيسور ألفريد كرونير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا من بلدى. . هو من ألمانيا. . وهو أحد أكبر جيولوجيى العالم المشاهير، وهو أستاذ علم طبقات الأرض، ورئيس قسم علم طبقات الأرض فى معهد جوسينيس، وجامعة يوهانز جوتينبيرج، مينز، بألمانيا.

وقد حدثنى حديثه من اتفق الجميع على توثيقه عبد المجيد الزندانى[1]، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابى، وعرضنا عليه عدداً من الآيات وأحاديث رسول الله ﷺ المرتبطة بمجال تخصصه، فأجاب عليها، وناقشناه فيها فقال: إن التفكير فى كثير من مسائل الجيولوجيا، ونشأة الأجرام يحتاج إلى علوم كثيرة وأجهزة حديثة، فمن أين جاء بكل ذلك محمد. . فقد كان بدويًا. على أية حال يجعلنا ذلك نعتقد أنه من المستحيل أن يكون قد عرفها بنفسه أو بمعارف عصره لأن العلماء اكتشفوا ذلك فقط خلال السنوات القليلة الماضية بوسائل معقدة جداً ومتقدمة جداً تكنولوجيًا.

قال الشيخ عبدالمجيد الزندانى: وقد اختار مثلاً للتدليل على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون قد جاء من عند محمد النبى الأمى، وهو المتعلق بوصف القرآن للبداية الواحدة لهذا الكون والمتعلقة بقول الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]، فـ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما أى أنهما كانتا ملتزقتين، ففصلتا[2].

وقد ضرب البروفيسور كرونر مثلاً بهذه الآية لبيان أن هذا لا يمكن أن يكون من عند محمد، ولا يمكن أن يكون من المعلومات البشرية فى عصره، فقال: وشخص لا يعرف عن الفيزياء النووية منذ 1400 سنة ما كان له فى رأيى أن يكون فى وضع يكشف فيه بعقله هو مثلاً أن الأرض والسماوات كانت لهما نفس الأصول أو كثيراً من المسائل الأخرى التى ناقشناها هنا.

---

(1) انظر: إنه الحق، وشهادته المصورة على هذا الرابط:

الجزء الأول: http://alhakekah.com/aduio/kroner-1-56k[1].ram

الجزء الثانى: http://alhakekah.com/aduio/kroner-2-56k[1].ram

(2) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذه الآية فى (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

قال الشيخ الزندانى: لقد كـان البروفيسور كرونر لا يترك لنا فـرصة يمكنه أن يفر منها إلا فر، سأذكر مثالاً على ذلك.

فعندما كنا نتناقش معه كيف كانت بلاد العرب سألناه: هل كـانت بلاد العرب بساتين وأنهارًا؟ فأجاب: نـعم، فقلنا: متى كان هذا؟ قال: فى العصـر الجليدى الذى مر بالأرض.. فالجليد يتراكم فى القطب المتجمد الشمالى، ثم يزحف نحو الجنوب، فـإذا اقترب من جزيرة العرب قريبًا نسبيًا طبعًا تغير الطقس وتكون بلاد العرب من أكثـر بلاد العالم بساتين وأنهارًا، قلنا له: وهل ستعود بلاد العرب بساتين وأنهارًا؟ قال: نعم، هذه حقـيقة علمية، فعجبنا كيف يقول هذه حقيقة علمية وهى مسألة تتعلق بالمستقبل. فسألناه: لماذا؟

فقال: لأن العصـر الجليدى قد بدأ، فهذه الثلوج تزحف من القطب المتجـمد الشمالى مرة ثانية نحو الجنوب وهى فى طريقها لتقترب من المناطق القريبة من بلاد العرب.

ثم قال: إن من أدلتنا على ذلك ما تسمعون عنه من العواصف الثلجية التى تضرب فى كل شتاء المدن الشمالية فى أوروبا وأمـريكا. هذه من أدلة العلماء على ذلك، لهم أدلة كثيرة، إنها حقيقة علمية.

فـقلنا له: إن هذا الذى تذكـره أنت لم يصل إليـه العلمـاء إلا بعد حـشـد طويل من الاكتشافات، وبـعد آلات دقيقة يسرت لهم مثل هذه الدراسات، لكنا قـد وجدنا هذا مذكوراً على لسان محـمد النبى الأمى قبل 1400 عام، فقد جاء فى الحـديث عن رسـول الله ﷺ فى الحـديث الصحـيح الذى رواه مسلم[1]: «لا تقـوم الساعـة حتى تعـود أرض العرب مـروجًا وأنهـارًا»، أى بساتين وأنهـارًا فقلنا لـه: من قال لمحـمد ﷺ إن بلاد العـرب كانت بسـاتين وأنهارًا؟ فأجاب على الفور قائلا: الرومان.

فتـذكرت قدرته على التخلص من المآزق، فـقلنا: إذًا نوجه له سؤالاً آخـر، فقلنا له: ومن أخبره بأنها ستعود مروجًا وأنهـارًا؟.. لقد كان يفر إذا أحرج وإذا وجد فرصة، ولكنه إذا وجد الحقيقة يكون شجـاعًا، ويعلن رأيه بصراحة، فقال: إن هذا لا يمكن أن يكون إلا بوحى من أعلى.

وبعد مناقشتنا معه علق على هذه المناقشة بكلمته هذه: (أعتقد أنك لو جمعت كل هذه الأشـياء، وجـمعت كل هـذه القضـايا التى بسطت فى القـرآن الكريم والتى تتـعلق بالأرض وتكوين الأرض والعلم عامة، يمكنك جوهريًا أن تقول: إن القضـايا المعروضة هناك صحيحة بطرق عديدة، ويمكن الآن تأكيدها بوسائل علمية، ويمكن إلى حد ما أن نقول: إن القرآن هو كتاب العلم المبسط للرجل البسيط وإن كثيـراً من القضايا المعروضة فيه فى ذلك الوقت لم يكن

---

(1) صحيح مسلم فى الزكاة باب 18 حديث 60.

من الممكن إثباتها. ولكنك بالوسائل العلمية الحديثة الآن فى وضع تستطيع فيه أن تثبت ما قاله محمد منذ 1400 سنة).

**على سليمان:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (على سليمان)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا دكتور فى الطب.. وهو ينتمى إلى أسرة فرنسية كاثوليكية.. وقد التقيت به فى فرنسا، وسألته عن سر إسلامه، فقال لى: كان لاختيارى لهذه المهنة أثره فى انطباعى بطباع الثقافة العلمية البحتة، وهى لا تؤهلنى كثيرا للناحية الروحية.. وهذا لا يعنى أننى لم أكن أعتقد فى وجود الله، إلا أننى أقصد أن الطقوس الدينية النصرانية عموما والكاثوليكية بصفة خاصة، لم تكن لتبعث فى نفسى الإحساس بوجوده، وعلى ذلك فقد كان شعورى الفطرى بوحدانية الله يحول بينى وبين الإيمان بعقيدة التثليث، وبالتالى بعقيدة تأليه عيسى المسيح.

ولهذا كنت قبل أن أعرف الإسلام مؤمنا بالقسم الأول من الشهادتين (لا اله إلا الله).. ومؤمنا معها بهذه الآيات من القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص].

لهذا فإننى أعتبر أن الإيمان بعالم الغيب وما وراء المادة هو الذى جعلنى أدين بالإسلام، على أن هناك أسبابا أخرى حفزتنى لذلك أيضا، منها مثلا، أننى لا أستسيغ دعوى الكاثوليك أن من سلطانهم مغفرة ذنوب البشر نيابة عن الله، ومنها أننى لا أصدق مطلقا ذلك الطقس الكاثوليكى عن العشاء الربانى والخبز المقدس، الذى يمثل جسد المسيح عيسى، ذلك الطقس الطوطمى الذى يماثل ما كانت تؤمن به العصور الأولى البدائية، حيث كانوا يتخذون لهم شعارا مقدسا، يحرم عليهم الاقتراب منه، ثم يلتهمون جسد هذا المقدس بعد موته حتى تسرى فيهم روحه.

ومما كان يباعد بينى وبين النصرانية، أنها لا تحوى فى تعاليمها شيئا يتعلق بنظافة وطهارة البدن، لا سيما قبل الصلاة، فكان يخيل لى أن فى ذلك انتهاكا لحرمة الرب، لأنه كما خلق لنا الروح فقد خلق لنا الجسد كذلك، وكان حقا علينا ألا نهمل أجسادنا.

ونلاحظ كذلك أن النصرانية التزمت الصمت فيما يتعلق بغرائز الإنسان الفسيولوجية، بينما نرى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى ينفرد بمراعاة الطبيعة البشرية.

أما مركز الثقل والعامل الرئيسى فى اعتناقى للإسلام، فهو القرآن.. فقد بدأت قبل أن أسلم فى دراسته.. وأنا مدين بالكثير للكتاب العظيم الذى ألفه مستر مالك بن نبى واسمه (الظاهرة القرآنية)، فاقتنعت بأن القرآن كتاب وحى منزل من عند الله.

---

(1) انظر: كتاب لماذا أسلمنا؟ تأليف: عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى.

إن من بين آيات هذا القرآن الذى أوحى الله به منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ما يحمل نفس النظريات التى كشفت عنها أحدث الأبحاث العلمية.

لقد كـان هذا كله كافيا لإقناعى وإيمـانى بالقسم الثانى من الشـهادتين (محمـد رسول الله).

وهكذا تقـدمت يوم 20 فبـراير سنة 1953 إلى المسـجد فى باريس، وأعلنت إيمـانى بالإسلام، وسجلنى مفتى مسجـد باريس فى سجلات المسلمين، وحملت الاسم الجديد (على سلمان).

قـال ذلك. . ثم ابتسم قـائلا: إننى أشعـر بالغبـطة الكاملة فى ظل عقـيدتى الجـديدة وأعلنها مرة أخرى (أشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله).

**مارشال جونسون:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتـر البابا اسم (مارشال جونسون)[1]، فسألت البابا عنه. فقال: هذا هو البروفيسور (مارشال جونسـون)، وهو رئيس قسم التشريح، ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد حدثنى حديثه الشيخ الثقة (عبد المجيد الزندانى)، فقال: لقد التقيت به مع نفر من أصحابنا فى المؤتمر الطبى السعودى الثامن، وقد خصصت لنا لجنة تبحث فى موضوع الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، فالتقينا به أول ما التـقينا فى هذه اللجنة، وقد بدأنا بالسؤال التالى: ما هو موضوع لجنتنا هذه؟

فقلنا له: موضـوعنا هو دراسة العلاقة بين ما ذكـر فى القرآن والسنة قبل 1400 عام وما ذكرته العلوم الحديثة.

فقال: مثل ماذا؟

قلنا: مثلاً ذكر العلم أن الإنسـان يخلق فى أطوار وذكر القرآن الكريم هذه الأطوار قبل 1400عام.

كان جالسًا فوقف يصيح: لا. لا. لا.

فقلنا: اجلس يا دكتور.

فقال: أجلس. . ما هذا الكلام الذى تقوله؟

قال الشيخ: لقد كنا ندرك أثر هذا عليه، وهو أحد العلماء المشهورين فى أمريكا، وهو يعلم أن البشرية بعد اكتشاف الميكروسكوب فى القرن السادس عشـر كان الأطباء طوال القرن السابع عشر يعـتقدون أن الإنسان يخلق خلقًا كاملاً فى الحـيوان المنوى أى فى نطفة الرجل أى فى السـلالة التى تخرج من الرجل، واستمر هذا الاعتقاد إلى القرن الثامن عشر، وبعد اكتشاف

(1) انظر: إنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزندانى.

البُيَيضة فى القرن 18 غير العلماء جميعًا آراءهم، فقالوا: إن الإنسان يخلق خلقًا كاملاً فى بُيضة المرأة لأنها أكبر، وأهمل دور الرجل بعد أن أهمل القرن السابع عشر دور المرأة، وفى منتصف القرن 19 فقط بدأ الإنسان، وبدأ العلماء يكتشفون أن الإنسان يخلق فى أطوار.

لذلك لما قيل للبروفيسور (مارشال جونسون) هذا مذكور فى القرآن قبل 1400 عام وقف يصرخ: لا لا لا، فقمنا إليه، وقدمنا له المصحف، وقلنا له: تفضل اقرأ وقرأنا عليه قوله عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح]، وقرأ ترجمة معناها باللغة الإنجليزية. ثم قرأنا عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ... ﴿٦﴾﴾ [الزمر].

فجلس، وقال: لكن هذا يمكن أن يكون له ثلاثة تفسيرات، الأول: أن يكون صدفة. فجمعنا له أكثر من خمسة وعشرين نصًا، ووضعناها بين يديه، وقلنا: كل هذه النصوص قد تكون صدفة؟ ثم إن القرآن الكريم قد أعطى لهذه الأطوار أسماء، هذا نطفة والذى بعده علقة والذى بعده مضغة والذى بعده العظام والذى بعده كساء العظام باللحم. إنه سمى هذه الأطوار بأسماء أيكون هذا صدفة؟ فقال: لا.

قلنا: فماذا بقى؟

قال: يمكن أن يقال: إن محمدًا كان عنده ميكروسكوبات ضخمة.

قلنا: أنت تعلم أن مثل هذه الأطوار والدقائق والتفاصيل وما عرفه العلم من تفاصيل هذه الأطوار وذكره القرآن كذلك، هذا لا يتيسر إلا بميكروسكوبات ضخمة جدًا والذى عنده هذه الميكروسكوبات الضخمة لا بد أن يكون له تقنية عالية جدًا وتنعكس على طعامه وشرابه وحربه وسلمه ولا بد أن يتلقى هذا من الجيل الذى قبله، ويسلمه للجيل الذى بعده.

فضحك بعد ذلك، وقال: لقد رأيت فى معرض من المعارض أول ميكروسكوب اخترع فى العالم، إنه لا يكبر أكثر من عشر مرات، ولا يستطيع أن يظهر الصورة واضحة.. لا.. لم يكن عند محمد أجهزة ولا مكروسكوبات، فما بقى إلا أن نقول هو رسول من عند الله.

ثم بعد ذلك تبنى هذه الأبحاث المتعلقة بالإعجاز العلمى، وركز فى بعض أبحاثه على أطوار الجنين، فبينما كان الدكتور كيث مور وغيره من الدكاترة يتكلمون عن الشكل الظاهرى أخذ يقدم بحثه هو عن وصف القرآن الدقيق لشكل الجنين الخارجى ولتركيبات الجنين الداخلية.

فقد قال: القرآن فى الواقع شرح المراحل الخارجية، ولكنه يؤكد أيضًا المراحل التى داخل الجنين أثناء خلقه وتطوره مؤكدًا على أحداث رئيسية تعرف عليها العلماء المعاصرون.

فالمضغة مثلا تعطينا الشكل الخارجى للجنين الذى يكون مقوسًا، كما يكون فى نهاية هذا القوس آثار وكأنها طبع الأسنان ليوحى بشكل المضغة ونرى انتفاخات وأخاديد ونرى سطحًا منفرجًا يعطى انطباع المضغة.

ولو أننا وضعنا قطاعًا منها، وجئنا نشرح الأجزاء الداخلية سنجد معظم الأجهزة قد تخلقت وسنرى فى هذا أن جزءًا من الخلايا قد تخلق، وجزءًا آخر لم يتخلق بعد.

فإذا أردنا أن نصف هذه المضغة ماذا نقول؟.. هل نقول هى مخلقة؟ هذا ينطبق على الجزء الذى تخلق.. أو نقول غير مخلقة؟.. وهذا سيصدق على الجزء الذى لم يخلق فقط.

قال جونسون: فلا بد لنا أن نصف المضغة فى تركيبها الداخلى بالوصف الذى وصفت به فى القرآن فنقول كما قال القرآن: ﴿... ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ... ﴿٥﴾﴾ [الحج] مخلقة وغير مخلقة.

ثم جاء بملخص لبحثه هذا فقال: (إننى كعالم أستطيع فقط أن أتعامل مع أشياء أستطيع أن أراها، بالتحديد أستطيع أن أفهم علم الأجنة وتطور علم الأحياء وأستطيع أن أفهم الكلمات التى تترجم لى من القرآن كما ضربت لكم أمثلة من قبل.

إننى لا أرى شيئًا لا أرى سببًا لا أرى دليلاً على حقيقة تفند مفهوم هذا الفرد محمد الذى لا بد وأنه يتلقى هذه المعلومات من مكان ما، ولذلك إننى لا أرى شيئًا يتضارب مع مفهوم أن التدخل الإلهى كان مشمولاً فيما كان باستطاعته أن يبلغه.

قال الشيخ الزندانى: هذا هو البروفيسور مارشال جونسون الذى بدأ رافضًا لما قلناه من أول وهلة وانتهى به الأمر متبنيًا لهذه الأبحاث فى عديد من المؤتمرات.

وعندما سئل عن رأيه فى تفسير هذه الظاهرة ـ ظاهرة ما كشفه العلم من تصديق لما جاء فى القرآن والسنة ـ أجاب بقوله: نعم، إنه الوحى.

**يوشيودى كوزان:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور يوشيودى كوزان)، فسألت البابا عنه، فقال: إنه البروفيسور يوشيودى كوزان مدير مرصد طوكيو، وقد حدثنى حديثه الشيخ الثقة عبد المجيد الزندانى، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابى، فعرضنا عليه عددًا من الآيات المتعلقة بوصف بداية الخلق وبوصف السماء وبعلاقة الأرض بالسماء، فلما قرأ معانى هذه الآيات، وسألنا عن القرآن، وعن زمن نزوله، فأخبرناه أنه نزل منذ 1400 عام، وسألناه نحن عن هذه الحقائق التى تعرضت لها هذه الآيات، فأجاب، وكان بعد كل إجابة يجيب بها نعرض عليه النص القرآنى.

لقد عبر عن دهشته فقال: إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة فى الوجود، فكل شىء أمامه مكشوف.. إن الذى قال هذا القرآن، يرى كل شىء فى هذا الكون، فليس هناك شىء قد خفى عليه.

سألناه عن الفترة الزمنية التى مرت بها السماء يوم أن كانت فى صورة أخرى فأجاب: لقد تظافرت الأدلة وحشدت وأصبحت الآن شيئًا مرئيًا مشاهدًا نرى الآن نجومًا فى السماء تتكون من هذا الدخان الذى هو أصل الكون.

ثم أخرج لنا صورة، وقال: هذه الصورة حصل عليها العلماء أخيرًا بعد أن أطلقوا سفن الفضاء.. إنها تصور نجمًا من النجوم وهو يتكون من الدخان.. انظروا إلى الأطراف الحمراء للدخان الذى فى بداية الالتهاب والتجمع وإلى الوسط الذى اشتدت به المادة وتكدست فأصبح شيئًا مضيئًا.. وهكذا النجوم المضيئة كانت قبل ذلك دخانًا وكان الكون كله دخانًا.

وعرضنا عليه الآية وهى قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]، فقال: إن بعض العلماء يتكلمون عن هذا الدخان، فيقولون إنه ضباب.. ولكن لفظ الضباب لا يتناسب مع وصف هذا الدخان، لأن الضباب يكون باردًا، وأما هذا الدخان الكونى فإن فيه شيئًا من الحرارة. نعم، الدخان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة، ويكون معتمًا وهذا وصف الدخان الذى بدأ منه الكون. قبل أن تتكون النجوم كان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة وكان معتمًا.. وكذلك كان حارًا، فلا يصدق عليه وصف الضباب، بل إن أدق وصف هو أن نقول: هو دخان.

وهكذا أخذ يفصل فيما عرض عليه من آيات، وأخيرًا سألناه: ما رأيك فى هذه الظاهرة التى رأيتها بنفسك، العلم يكشف بتقدمه أسرار الكون، فإذا بكثير من هذه الأسرار قد ذكرت فى القرآن، أو ذكرت فى السنة.. هل تظن أن هذا القرآن جاء إلى محمد ﷺ من مصدر بشرى؟

قال: قبلنا كان الفلكيون المعاصرون يدرسون تلك القطع الصغيرة فى السماء. لقد ركزنا مجهودنا لفهم هذه الأجزاء الصغيرة لأننا نستطيع باستخدام التلسكوب أن نرى كل الأجزاء الرئيسية فى السماء، ولذلك أعتقد أنه بقراءة القرآن وبإجابة الأسئلة أننى أستطيع أن أجد طريقًا فى المستقبل للبحث فى الكون.

وقال: إننا نحن العلماء نركز على جزء صغير فى دراستنا، أما من يقرأ القرآن فإنه يرى صورة واسعة لهذا الكون.

وقال: إننى عرفت منهجًا جديدًا فى دراسة الكون لا بد أن ننظر إليه نظرة شاملة لا أن ننظر إليه من هذه النقطة الضيقة الجزئية المحدودة.

وقال: إننى سأنهج هذا المنهج وقد عرفت بعد أن قرأت القرآن وهذه الآيات المتعلقة بالكون عرفت مستقبلى، أى إننى سأخطط أبحاثى على هذه النظرة الشاملة التى استفدتها من كتاب الله.

**جولى سمسون:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور جولى سمسون)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ أمراض النساء والولادة فى جامعة نورث وستون فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد حدثنى حديثه الشيخ الثقة عبد المجيد الزندانى، فقال: قصدته مع نفر من أصحابنا، وحدثناه عن مجال اختصاصه، وما ورد عنه فى القرآن الكريم.. فكان فى شك أول الأمر.. فقد كان يريد أن يتأكد هل هذه نصوص القرآن؟.. هل هذه نصوص السنة؟.. فلما اطمأنت نفسه، ورأى النصوص المتعلقة بالوراثة، والتى تحدث فى المراحل الأولى فى الجنين عندما يكون نطفة، وعرف دقة الأوصاف، وكيف أن القرآن يقرر أن الإنسان يخلق بعد أن تجمع النطفتان، فيتقرر خلق الإنسان، وبعد ذلك يقرر البرنامج الوراثى فى هذه الكروموزومات التى نشاهدها الآن.

هذه الكروموزومات فيها تفاصيل الإنسان الذى يولد: لون العينين، لون الجلد، لون الشعر، كثير من تفاصيل الإنسان مقررة هنا، فالإنسان فى هذه الكروموزمات مقدر، وهذه الكروموزمات فى مرحلة النطفة، إذًا فهذا الإنسان يقدر وهو فى مرحلة النطفة، كما قال عز وجل: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ [عبس]، والجنين قبل أربعين يومًا - خلال الأربعين يومًا الأولى - تجمع جميع أجهزته، فتكون جميع الأجهزة قد ظهرت، وإن كانت تظهر تباعًا، بدأت الأجهزة تتخلق وتجمع، والجنين يكون منحنيًا على نفسه، والرسول ﷺ يقول: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا».

تعرض البروفيسور جولى سمسون لهذا الحديث والحديث الآخر: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها»، وأخذ يقارن بين الحديثين والحد الفاصل بينهما، وبعد أن رأى هذه الدقائق والتفاصيل وقف فى أحد المؤتمرات يعلن رأيه حول هذا الموضوع، فقال: من هذين الحديثين يمكننا استخلاص جدول محدود حول التطور الرئيسى للجنين قبل أربعين يومًا.

ولم يكتف بهذه الشهادة، بل إنه قال: إن بإمكان الدين أن يقود العلم قيادة ناجحة.

وقال: وعليه أعتقد أنه لا يوجد خلاف بين المعرفة العلمية وبين الوحى، بل إن الوحى ليدعم أساليب الكشف العلمية التقليدية المعروفة حينئذٍ. وجاء القرآن قبل عدة قرون مؤيدًا لما تطرقنا إليه مما يدل على أن القرآن هو كلام الله.

**البروفيسور هاى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور هاى)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور من أشهر علماء البحار فى أمريكا، وقد حدثنى حديثه الشيخ

---

(1) انظر: إنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزندانى.

الثقة عبد المجيد الزندانى، فقال: ذهبت إليه مع نفر من أصحابنا، وسألناه عن كثير من الظواهر البحرية التى تتعلق بسطح البحر، والتى تتعلق بالحد الفاصل بين البحر السطحى وبين البحر العميق، والتى قد تتعلق أيضًا بقاع البحار وجيولوجيا البحار.. سألناه عن هذا كله، وسألناه عن الحواجز المائية بين البحار المختلفة، وعن الحواجز المائية بين مياه البحار والأنهار[1].

وقد كان يجيبنا عن هذا كله، وبتفصيل، وعندما تعرضنا لشرح الحواجز بين البحار المالحة وضح لنا أن البحار المالحة ليست كما تشاهدها العين بحرًا واحدًا، إنها بحار مختلفة، تختلف فى درجة الحرارة، والملوحة والكثافة، حيث نرى فيها خطوطًا بيضاء تمثل الحواجز بين الكتل البحرية، وكل حاجز يفصل بين كتلتين بحريتين مختلفتين فيما بينهما، فى الحرارة والملوحة والكثافة، والأحياء المائية وقابلية ذوبان الأوكسيجين.

وقد أخرج لنا من محفظته صورة توضح ذلك، ثم قال: هذه الصورة أول ما عرفت فى عام 1942 بهذا الشكل بعد أن أقام العلماء مئات المحطات المائية فى البحار لدراسة خصائص البحار.. وهى توضح حدًا فاصلاً بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الأطلنطى.. فى الوسط الذى فى الصورة مثلث هو عتبة جبل طارق أسفل.. وهذه منطقة جبل طارق نرى فيها كيف يوجد الحد الفاصل، وهو مبين باللون بين الكتلتين المائيتين يفصل بينهما.

ثم التفت إلينا، وقال: هذا أمر لا تشاهده الأبصار، ولكنه أصبح الآن حقيقة واضحة، وبتطور الأقمار الصناعية ودراستها واستشعارها من بعد تمكنت هذه الأقمار الصناعية أن تصور هذه المناطق البحرية، والحدود البحرية بين الكتل المختلفة.. كما نرى فى هذا الشكل الذى التقط بالأقمار الصناعية بالخاصية الحرارية فظهرت البحار بألوان مختلفة، كما نرى بعضها بلون أزرق فاتح وبعضها بلون أزرق قاتم وبعضها بلون أسود وبعضها بلون يميل إلى الأخضر.. هذه الألوان المختلفة السبب فيها اختلاف درجات الحرارة على سطح البحار، ولكنك لو وقفت على سطح البحر لا ترى.. لا ترى إلا ماءً أزرق فى كل هذه البحار والمحيطات.. إنها حواجز لا ترى إلا بالدراسة وبالتقنية الحديثة.

عندما عرض لنا ذلك، وشرحه لنا بالتفصيل قرأنا عليه من القرآن الكريم ما يدل عليه دلالة واضحة، وذلك فى قوله عز وجل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن]، ثم سألناه: ما رأيك فى هذه الظاهرة؟.. نصوص نزلت قبل 1400 عام تصف دقائق لا يمكن لبشر أن يعرفها فى ذلك الزمان، وجاء العلم اليوم شاهدًا بها مبينًا لدقائقها فما هو رأيك؟

---

(1) انظر الجوانب العلمية المرتبطة بهذا، وما ورد فى القرآن مما يقررها فى رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

فقال البروفيسور هاي: إننى أجد من المثير جداً أن هذا النوع من المعلومات موجود فى آيات القرآن الكريم، وليست لدى طريقة أعرف بها من أين جاءت، ولكننى أعتقد أنه من المثير للغاية أنها موجودة فيه، وأن العمل مستمر لكشف معانى بعض الفقرات.

فقلنا: إذن فقد أنكرت تماماً أنها من مصدر بشرى.. فممن إذن يأتى فى اعتقادك أصل أو مصدر هذه المعلومات؟

فقال: أعتقد أنه ولا بد أن يكون من الله.

**البروفيسور فان برسود:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور فان برسود)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور فان برسود، وهو رئيس قسم التشريح بكلية الطب بمينوتوبا بكندا، وقد حدثنى حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزندانى، فذكر أن الدكتور (كيث مور) الذى سبق الحديث عنه ذكر له أن هناك علماء أحرارا يهمهم البحث عن الحقيقة، ومنهم البروفيسور فان برسود.. وهو مؤلف مشهور له عدد من الكتب ألفها فى علم أمراض النساء، وهو ممن أضاف ـ بعد ذلك ـ إلى كتبه بعض ما جاء فى القرآن والسنة، وأشار إلى هذه الآيات والأحاديث فى كتبه، وقدم عدداً من البحوث فى عدد من المؤتمرات، وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه حول حديث رسول الله ﷺ الذى رواه مسلم وهو قول رسول الله ﷺ: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضى ربك ما شاء».

وقدم البروفيسور برسود أبحاثاً كثيرة حول علاقة القرآن والسنة بالعلوم الحديثة، وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه فى معنى حديث رسول الله ﷺ الذى رواه ابن ماجه والحاكم وهو قول رسول الله ﷺ: «ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم».

ومما قاله فى بحثه هذا: من المعترف به الآن على نطاق واسع أن هذه التغيرات الخبيثة فى عنق الرحم لها صلة بعمر النساء، وعدد مرات الجماع، وعدد مرات الولادة، فعديد من دراسات علم الأوبئة قد أظهرت بوضوح علاقة متبادلة هامة بين التعرض للعلاقات الجنسية المتعددة، والسرطان العرضى المحتمل الحدوث بدرجة عالية.

وقال: إن نتائج ومخاطر العلاقات الجنسية غير الشرعية، والممارسات الجنسية المنحرفة، قد ذكرت فى هذا الحديث منذ 1400 سنة وأرجو أن أكون مصيباً ـ مشيراً إلى مرض الإيدز ـ: «ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم»، فالفاحشة هى الخيانة والشذوذ الجنسى غير المعلن والبوهيمية، وكل

العلاقات الجنسية الأخرى، وليس من اتساع الخيال أن نعتبر الهربز والإيدز كأمثلة واضحة لأمراض جديدة فى الوقت الحاضر ليس لدينا العلاج لها.

وقد قال الشيخ الزندانى معلقا على هذا مخاطبا الحاضرين: انظروا إلى هذا الربط بين قول الرسول ﷺ: «ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم»، فلما أعلنت أوروبا وأمريكا إباحة الشذوذ وإباحة الزنا والفجور بأشكاله، ما إن أعلنوا هذا وأذاعوا به، حتى ظهرت بعد ذلك بأعوام هذه الأمراض التى تهز كيانهم هزًا.

وصدق رسول الله ﷺ، فهى أمراض جديدة، طاعون فشا، وأمراض تفشو وتسرى بين الناس وهم يخافونها.

وقد ذكر الشيخ أن البروفيسور برسود عندما سئل عن رأيه فى هذه الظاهرة التى اطلع بنفسه عليها وشارك بأبحاثه فيها قال: الطريقة التى شرح لى بها هو أن محمدًا ﷺ كان رجلاً عاديًا جدًا، ولم يكن يقرأ ولم يكن يكتب، بل كان فى الواقع أميًا، ونحن نتحدث عنه أنه كان منذ 1400 سنة رجلاً أميًا يدلى بتصريحات عميقة ودقيقة بصورة مدهشة، وذات طبيعة علمية، وأنا شخصيًا لا أستطيع أن أرى كيف يكون هذا مجرد مصادفة، هناك أشياء كثيرة دقيقة مثل دكتور كيث مور لا أجد صعوبة فى أن أوافق فى عقلى أن هذا إلهام إلهى أو وحى قاده إلى هذه البيانات.

**البروفيسور بالمار:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور بالمار)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من أشهر علماء الجيولوجيا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان رئيس اللجنة التى أشرفت على الاحتفال المئوى للجمعية الجيولوجية الأمريكية.

وقد حدثنى حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزندانى، فقال: عندما التقينا معه وعرضنا عليه أوجه الإعجاز العلمى للقرآن والسنة كان يندهش، وأذكر قصة لطيفة بدأت معه عندما قلنا له: إن القرآن يذكر أخفض منطقة فى الأرض وبين أنها قرب بيت المقدس، حيث دارت المعركة بين الفرس والروم، كما جاءت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم]، وأدنى تأتى بمعنى أقرب، وتأتى بمعنى أخفض.

وذكرنا له أنه عندما درسنا أخفض منطقة فى الأرض وجدنا أنها هى نفس المنطقة التى دارت فيها المعارك.. فلما قلنا هذا للبروفيسور بالمار، قال: لا... هناك مناطق كثيرة أخفض من هذه المنطقة.

قال ذلك، ثم أخذ يذكر لنا مناطق في أوروبا ومناطق في أمريكا، فقلنا له: يا دكتور نحن قد تأكدنا من ذلك.

كان معه مصور جغرافي مجسم فيه الارتفاعات والانخفاضات، فقال: إذًا الأمر بسيط، هذا هو المجسم يبين لنا أخفض منطقة، فأدار الكرة الأرضية بيده ـ وهي كرة مجسمة ـ ووجه نظره على المنطقة المحددة، وهي قرب بيت المقدس، فإذا به يرى سهمًا قد خرج من تلك الخريطة مكتوبًا عليه (أخفض منطقة على وجه الأرض)

ثم بعد ذلك تحول بسرعة، وقال: هذا كلام صحيح.

وقد رغبه هذا السبق القرآني في المزيد.. وقد ازداد اندهاشه عندما وجد القرآن يصف الماضي كيف بدأ، وخلق الأرض كيف بدأ، وخلق السماء، وكيف خرجت المياه من باطن الأرض، وكيف أرسيت الجبال، وكيف خرجت النباتات.. وغيرها كثير.

واندهش عندما رأى القرآن يصف هذه الأحداث، ثم كيف يصف سطح الأرض اليوم ويصف الجبال ويصف ما عليها من ظواهر، ثم يصف الأحوال التي تمر بها الأرض، كما حدث بالنسبة لجزيرة العرب، بل ويصف ما سيكون عليه حال بلاد العرب، وما سيكون عليه حال الأرض. فقال: (هذا الكتاب عجيب يصف لنا الماضي، ويصف لنا الحاضر، ويصف لنا المستقبل).

وقد قدم بحثًا في القاهرة حول الإعجاز في مجال علم الجيولوجيا، ثم ختم بحثه هذا بقوله: (أنا لا أعلم المستوى الثقافي الذي كان عليه الناس في زمن محمد.. ولا أدري في أي مستوى علمي كانوا، فإذا كان الأمر كما نعرف عن أحوال الأولين والمستوى العلمي المتواضع والذي ليس فيه هذه الإمكانيات، فلا شك أن هذا العلم الذي نقرؤه الآن في القرآن هو نور من العلم الإلهي قد أوحى به إلى محمد).

وقد أنهى بحثه بالتصريح التالي: (لقد قمت ببحث في تاريخ الحضارة المبكر للشرق الأوسط لأعرف إذا كان في الواقع قد وردت أنباء جادة كهذه، إذا لم يكن هناك سجل كهذا فإن هذا يقوى الاعتقاد بأن الله قد أرسل من خلال محمد مقادير ضئيلة من علمه اكتشفناها فقط في الأزمنة الحديثة، إننا نتطلع إلى حوار مستمر في موضوع العلم في القرآن في سياق الجيولوجيا).

وقد علق الشيخ الزنداني على تصريحه هذا تعليقًا هامًا، فقال: نعم، هذا علم من أعلام الجيولوجيا في عالمنا المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية لا يتردد في أن يعترف ويقدم ويبين ولكنه بحاجة إلى من يوضح له الحقيقة، لقد عاش الغربيون وكذلك الشرقيون معركة بين الدين والعلم، وكان لا بد أن تحدث هذه المعركة، لأن كل الأديان قد حرفت وما بعث الله محمداً ﷺ بالإسلام إلا لتصحيح ما أفسده هؤلاء.

وأذكر أن بعض الناس سأله حينها: كيف سيقبل منا هؤلاء الناس ونحن فى تخلف ونحن فى بعد عن ديننا؟

فأجاب: إن العلم يفتح بصائر أهله، إنهم ينظرون إلى الحقائق ولا ينظرون إلى الصور، إن رصيد الإسلام اليوم هو هذا العلم والتقدم العلمى. فإن هذا العالم يحنى رأسه إجلالاً لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ثم إن الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تطمئن إلا مع الإيمان.. إن الناس بدون إيمان فى قلق وضياع، ثم إن هذه الحرية التى يتمتع بها أهل الغرب تعين علماءهم على أن يقولوا الكلمة التى يعتقدونها، وهم لا يبالون ولا يحسبون أى حساب، وها هم كما سمعناهم فى كثير من هذه الحلقات، يقرون ويعترفون بالمعجزة القرآنية الحية المتجددة إلى قيام الساعة.

**البروفيسور سياويدا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور سياويدا)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد حدثنى حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزندانى، فذكر أنه من أشهر علماء جيولوجيا البحار فى اليابان، بل هو من العلماء المشاهير فى العالم فى هذا المجال.

وقد ذكر لى أنه ممن حجبوا عن الإسلام بسبب الشبهات الكثيرة التى يسوقها أعداؤه عنه كل حين.. بل ملئ رأسه بتشويشات وشبهات عن كل الأديان.

وقد ذكر لى حواره معه الذى حاول من خلاله تخليصه من تلك الشبهات، فقال: عندما التقينا معه أول مرة ـ أنا ونفر من أصحابنا ـ قال لنا: لا يصح أن تتحدثوا أنتم أهل الدين أبدًا.. يجب أن تسكتوا فى الدنيا كلها.

قال الشيخ: فقلت له: لماذا يا بروفيسور؟.. لماذا؟

قال: لأنكم إن تكلمتم أشعلتم الحرب بين الناس فى العالم كله.

فقلت له: وحلف وارسو.. وحلف الأطلسى.. لماذا يحشدون هذه الترسانات الهائلة من الأسلحة النووية فى الفضاء وفى البحار وعلى الأرض وتحت الأرض؟.. لماذا هذا؟.. أبسبب دينى؟

فلم يجد ما يجيب به، فقلنا له: على أى حال نحن نعلم أنك تتخذ موقفًا من الدين كله، ولكن نريد منك، وطالما أنت لا تعرف ما هو الإسلام أن تسمع أولاً، وأن نرى ما عندك.

قال الشيخ: فوجهنا له عددًا من الأسئلة فى مجال تخصصه، وعن الآيات والأحاديث التى تصف تلك الظواهر التى يتحدث عنها، وكان منها ما طلبنا منه أن يبينه فى موضوع الجبال، فقد سألناه: ما هو شكل الجبل؟.. هل هو فى شكل وتد؟

فأجاب: الجبال القارية والجبال المحيطية تتكون من مواد مناسبة، فالجبال القارية مكونة جوهريًا من مواد راسبة، بنيما الجبال المحيطية مكونة من صخور بركانية، والجبال القارية تكونت بواسطة قوى ضاغطة، بينما الجبال المحيطية تكونت بواسطة قوى تمديدية، ولكن النقاط المشتركة بين النوعين من الجبال هى: أن لها جذورًا لتدعم الجبال.

فى حالة الجبال القارية فإن المادة الخفيفة القليلة الكثافة التى تكون الجبل تمتد تحت الأرض كجذر. . وفى حالة الجبال المحيطية هناك أيضًا مادة خفيفة تدعم الجبل كجذور ولكن فى حالة الجبال المحيطية فإن مادتها الخفيفة مناسبة للتركيب الخفيف ولكنه ساخن ولذلك، فإنها ممتدة بطريقة رقيقة، ولكن من وجهة نظر الكثافة، فإنهما تؤديان نفس المهمة، وهو دعم الجبل، ولذلك فإن مهمة الجذور هى دعم الجبال وفق قانون أرشميدس عن الطفو.

قال الشيخ: ثم شرح لنا البروفيسور سياويدا شكل كل جبل سواء كان على اليابسة فى القارات أو فى قاع المحيطات، وذكر فى كل ذلك على شكل وتد، وهو يوافق تمامًا ما ذكره القرآن من وصف الجبال بكونها أوتادا.

قال الشيخ: وعندما سألنا البروفيسور سياويدا عن وظيفة الجبال: ألها دور فى تثبيت القشرة الارضية؟ فقال: إلى الآن لم يكتشف العلم هذا.

فأخذنا نبحث، ونسأل فوجدنا كثيرًا من علماء الجيولوجيا يجيبون علينا بنفس الجواب إلا القليل - ومن هؤلاء أصحاب كتاب (الأرض) وهو مرجع علمى فى كثير من الجامعات فى العالم. . ومن الذين كتبوه فرانك برس، وقد كان رئيس أكاديمية العلوم فى أمريكا فقد ذكر فى صفحة 435 عن وظيفة الجبال يقول: إن للجبال دورًا كبيرًا فى تثبيت قشرة الأرض.

فذكرنا ذلك لهذا البروفيسور وعرضنا عليه تقريرات القرآن المرتبطة بهذا، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات]، وقوله عز وجل: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ]، وقوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل].

وقلنا له: يا أستاذ. . ما رأيك فى هذا الذى رأيته من ظاهرة حديث القرآن والسنة عما فى هذا الكون من أسرار، الأمر الذى لم يكتشفه العلم إلا فى هذا الزمان.

فأجاب على سؤالنا بقوله: أعتقد أنه يبدو لى غامضًا جدًا جدًا غير معقول تقريبًا، إننى أعتقد حقيقة إن كان ما قلته صحيحًا، فإن هذا الكتاب جدير جدًا بالملاحظة، إننى أوافقك.

قال الشيخ: ماذا يستطيع العلماء أن يقولوا، لا يمكنهم أن ينسبوا هذا العلم الذى أنزله الله على محمد ﷺ فى هذا الكتاب، لا يمكنهم أن ينسبوا هذا العلم فى هذا الكتاب إلى مصدر بشرى، أو إلى جهة علمية فى ذلك العصر، فإن جميع العلماء ما كانوا يعلمون شيئًا عن هذه الأسرار. . إن البشرية كلها لم تعلم شيئًا عن ذلك، إنهم لا يملكون أن يجدوا تفسيرًا

إلا أن يقـولوا هذا من جهـة أخرى هى وراء هذا الكون. . نعم، إنه وحى من الـله سبحـانه وتعالى، أوحى به إلى عـبده النبى الأمى محمـد ﷺ، وجعله معجـزة باقية دائمة تسـتمر مع البشرية إلى قيام الساعة.

**البروفيسور آرمسترونج:**

من الأسماء التى رأيتهـا فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيـسور آرمسترونج)، فسألت البـابا عنه، فقال: هذا البروفـيسور آرمسـترونج، وهو أحد مشاهيـر علماء الفلك فى أمريكا، ويعمل فى وكالة الفضاء الأمريكية ناسا، وهو من مشاهير علمائها.

وقد حدثنـى بخبره الشيخ عبـد المجيد الزندانى، فقـال: قصدته مع نفر من أصـحابنا لنسأله عن عدد من الآيات الكونية المتعلقة بمجال تخصصه فى الفلك.

وكان من جـوابه لنا قوله: سـأحدثكم كـيف تكونت كل العناصر عـلى الأرض، لقد اكتشفناها. . بل لقد أقمت عددًا من التجارب لإثبات ما أقول لكم.

إن العناصر المختلفة تجتـمع فيها الجسيمات المختلفـة من إلكترونات وبروتونات وغيرها لكى تتحد هذه الجسيمات فى ذرة كل عنصر يحتاج إلى طاقة.

وعند حسابنا للطاقة اللازمة لتكوين ذرة الحديد وجدنا أن الطاقة اللازمة يجب أن تكون كطاقة المجموعـة الشـمسية أربع مرات، ليست طاقـة الأرض ولا الشمس ولا القمر ولا عطارد ولا زحل ولا المشترى كل هذه المجموعة الشمسية بأكملها لا تكفى طاقتها لتكوين ذرة حديد، بل تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات.

ثم قال هو من نفـسه بدون سؤال منا: ولذلك يعتـقد العلماء أن الحديد عنـصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها.

وهنا ذكرنا قول الله عز وجل: ﴿...وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ... ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد]، ثم سألناه: هل فى هذه السماء فروج وشقوق؟

فقـال: لا، إنكم تتكلمون عن فـرع من فروع علم الفضـاء اسمـه الكون التام، وهذا الكون التام ما عرفه العـلماء إلا أخيرًا، لو أخذت نقطة فى الفضاء وتحركت مـسافة معينة إلى اتجاه وتحركت بنفس المسافة فى اتجاه آخـر لوجدت أن وزن الكتلة فى كل الاتجاهات متـساو لأن هذه النقطة متـزنة فيجب أن تكون الضغوط علـيها من كل جانب متـساوية. والكتلة يجب أن تكون كذلك. ولو لم يكن هذا الاتزان لتحرك الكون وحدث فيه تصدع وشقوق.

قال الشيخ: فذكرت قول الله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق].

ثم تحدثنا معـه عن جهود العلماء فى محاولاتهم الوصـول إلى حافة الكون، وقلنا له: هل وصل العلم إلى معرفة حافة الكون؟

فقال: نحن فى معركة للوصول إلى حافة الكون.. إننا نكبر أجهزة، ثم ننظر من خلالها، فنكتشف نجومًا ونكتشف أننا ما زلنا بداخل هذه النجوم ما وصلنا إلى الحافة؟

قال الشيخ: وأنا أعلم من قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ... ﴿٥﴾﴾ [الملك] أن كل هذه النجوم هى زينة للسماء الدنيا.

قال البروفيسور: ولذلك نحن نفكر فى إقامة التلسكوبات فى الفضاء حتى لا يكون هذا الغبار والأشياء من الظواهر الجوية الموجودة على الأرض من العوائق التى تحول بيننا وبين هذه الرؤيا.. إن التلسكوبات البصرية التى تستعمل الضوء أو البصر عجزت ولم تستطع أن تتجاوز بنا مسافات كبيرة، فعوضنا عن هذه التلسكوبات البصرية بتلسكوبات لا سلكية فوجدنا مسافات جديدة، ولكن لا زلنا داخل الحدود.

قال الشيخ: فذكرت قول الله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

قال الشيخ: وهكذا بقى يذكر الحقائق العلمية، ونحن نذكر له الآيات المرتبطة بها، وهو يوافق على ذلك، ثم قلنا له: ها أنت ذا قد رأيت بنفسك حقائق علم الفلك الحديث بعد أن استخدم الإنسان هذه الأجهزة والصواريخ وسفن الفضاء واكتشفت هذه المعلومات، ها أنت ذا قد رأيتها ثم رأيت كيف جاءت فى نصوص القرآن الكريم قبل 1400 عام فما رأيك فى هذا؟

فأجاب: هذا سؤال صعب.. ظللت أفكر فيه منذ أن تناقشنا هنا.. وإننى متأثر جدًا كيف أن بعض الكتابات القديمة تبدو متطابقة مع علم الفلك الحديث بصورة ملفتة للأنظار، لست عالمًا وافيًا فى تاريخ البشرية، وفى صورة يعتمد عليها بحيث ألقى بنفسى تمامًا فى ظروف قديمة كانت سائدة منذ 1400 سنة، ولكنى بالتأكيد أود ألا أزيد على أن ما رأيناه جدير بالملاحظة، ومع ذلك قد لا يترك مجالاً للتفسير العلمى، قد يكون هناك شىء فيما وراء فهمنا كخبرة بشرية عادية ليشرح الكتابات التى رأيناها، ولكن ليس فى نيتى أو وضعى عند هذه النقطة أن أقدم إجابة على ذلك، لقد قلت كلمات كثيرة على ما أظن دون أن أعبر بالضبط عما أردتنى أن أعبر عنه.

إنه من واجبى كعالم أن أظل مستقلاً عن مسائل معينة، وأعتقد أن هذا عندما توقفت على أفضل وجه عند نقطة أقل قليلاً من إعطائك الإجابة التى قد ترغب فيها؟

قلت: ألا ترى فى إجابة هذا البروفيسور نوعا من الهروب؟

قال: نعم.. فهؤلاء العلماء ـ مع ما رزقوا من ذكاء حاد فى جميع علوم الدنيا ـ إلا أن لهم بلاهة عجيبة فيما يتعلق بحقائق الأزل.

سكت قليلا، ثم قال: ولكن مع ذلك.. هذه البداية.. والعقل سيبقى محاصرا لهؤلاء.. والحقائق تظل محاصرة لهم إلى أن يعرفوا الحق، ويشهدوا له.

**البروفيسور ج. س. جورنجر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور ج. س. جورنجر)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ فى كلية الطب قسم التشريح فى جامعة جورج تاون فى واشنطن، وقد حدثنى حديثه الشيخ عبد المجيد الزندانى، فقال: التقيت بهذا الأستاذ مع نفر من أصحابنا، وسألناه: هل ذكر فى تاريخ علم الأجنة أن الجنين يخلق فى أطوار؟ وهل هناك من الكتب المتعلقة بعلم الأجنة ما قد أشار إلى هذه الأطوار فى زمن الرسول ﷺ أو بعده بقرون، أم أن هذا التقسيم إلى أطوار لم يعرف إلا فى منتصف القرن التاسع عشر؟

فأجابنا بقوله: لقد كانت هناك عناية من اليونانيين بدراسة الجنين، وقد حاول عدد منهم أن يصف ما يدور للجنين وما يحدث فيه.

فقلنا له: نعم، نعلم هذا، إن هناك نظريات لبعض العلماء منهم أرسطو وغيره، ولكن هل هناك من ذكر أن هناك أطوارًا؟ لأننا نعلم أن الأطوار لم تعرف إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، ولم تثبت إلا فى أوائل القرن العشرين.

وبعد نقاش طويل، قال: لا.

قلنا: هل هناك مصطلحات أطلقت على هذه الأطوار، كالمصطلحات التى وردت فى القرآن الكريم؟

قال: لا.

قلنا: فما رأيك فى هذه المصطلحات التى تغطى أطوار الجنين؟

وبعد مناقشة طويلة معه قدم بحثًا، وألقاه فى المؤتمر الطبى السعودى الثامن عن هذه الأطوار التى وردت فى القرآن الكريم، وعن جهل البشرية بها، وعن شمول ودقة هذه المصطلحات التى أطلقها القرآن الكريم على هذه الأطوار لأحوال الجنين بعبارات موجزة وألفاظ مختصرة شملت حقائق واسعة.

وقد قال مصرحا بعد بحثه ذلك: إنه وصف للتطور البشرى منذ تكوين الأمشاج إلى أن أصبحت كتلاً عضوية، عن هذا الوصف والإيضاحات الجلية والشاملة لكل مرحلة من مراحل تطور الجنين فى معظم الحالات إن لم يكن فى جميعها يعود هذا الوصف فى قدمه إلى قرون عديدة قبل تسجيل المراحل المختلفة للتطور الجنينى البشرى التى وردت فى العلوم التقليدية العلمية.

قال الشيخ: وتطرق البحث مع البروفيسور جورنجر حول الظاهرة التى كشفت علميًا، وكشفت حديثًا لتزيل الإشكال الذى كان يثيره النصارى الذين يقولون: ها هو ذا عيسى عليه

السلام قد خلق من أم فمن هو أبوه؟ . . يشيرون هذا الإشكال ولا يتصورون أن يكون هناك خلق بدون أب.

ولكن العلم يكشف أن كثيرًا من الحيوانات الدنيا وكثيرًا من الكائنات الآن تتوالد وتنجب بدون تلقيح الذكور، فهذا النحل: جميع ذكوره عبارة عن بيض لم يلقح بماء الذكور والبيضة التى تلقح بماء الذكور تكون شغالة أنثى، أما الذكور فهى مخلوقة من بيض الملكة بدون ماء الذكور. . وغير ذلك من الحيوانات.

بل لقد حدث فى التقدم العلمى أن تمكن الإنسان أن ينبه بعض البيض لبعض الكائنات فتنمو هذه البيضة بدون حاجة إلى تلقيح الذكر.

وقد حدثنا البروفيسور جورنجر عن هذا الأمر، فقال: فى نوع آخر لتناول الموضوع فإن البيض غير المخصب لكثير من الحيوانات اللافقارية والبرمائية والثديية السفلى يمكن تنشيطه بوسائل ميكانيكية، كالوخز بالإبرة، أو بوسائل مادية كالصدمة الحرارية، أو بوسائل كيميائية بأى عدد من المواد الكيميائية المختلفة، ويستمر البيض إلى مراحل تطور متقدمة، فى بعض الأجناس يعتبر هذا النوع من التطور الجينى طبيعيًا.

**البروفيسور درجا برساد راو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور درجا برساد راو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ فى علم جيولوجيا البحار، وقد حدثنى حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزندانى، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابنا، وعرضنا عليه عددًا من الآيات المتعلقة بالإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، فاندهش لما سمع ولما رأى وهو يقرأ معانى آيات القرآن فى بعض الكتب المخصصة لذلك.

وكان مما تعرض لشرحه قول الله عز وجل: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (40)﴾ [النور].

وقد قال فى تفسيرها: نعم، هذه الظلمات عرفها العلماء الآن بعد أن استعملوا الغواصات، وتمكنوا من الغوص فى أعماق البحار، لا يستطيع الإنسان أن يغوص بدون آلة أكثر من عشرين إلى ثلاثين مترًا، فالذين يغوصون من أجل اللؤلؤ فى مناطق الخليج يغوصون فى مناطق قريبة لا تزيد على هذا العمق، فإذا غاص الإنسان إلى أعماق شديدة حيث يوجد الظلام على عمق 200 متر لا يمكن أبدًا أن يبقى حيًا.

وهذه الآية تتحدث عن ظاهرة توجد فى البحار العميقة، ولذلك قال عز وجل: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ . . ليس فى أى بحر وصفت هذه الظلمات بأنها متراكمة بعضها فوق

بعض، والظلمات المتراكمة والتى تتراكم فى البحار العميقة تنشأ بسببين، وكلا السببين يكونان نتيجة اختفاء الألوان فى طبقة بعد طبقة.

فالشعاع الضوئى مكون من سبعة ألوان، فإذا نزل الشعاع الضوئى إلى الماء توزع إلى الألوان السبعة.

أخرج لنا صورة طبقات مقسمة من مقطع عرضى لقاع البحر، وقال: نرى فى هذا الشكل الذى أمامنا الشعاع فى الماء، فالجزء الأعلى قد امتص اللون الأحمر فى العشرة أمتار السطحية العليا، فلو أن غواصًا يغوص على عمق ثلاثين مترًا وجرح جسمه وخرج الدم وأراد أن يراه فلا يرى اللون الأحمر لأن الأشعة الحمراء غير موجودة، وبعده يمتص اللون البرتقالى، وكما نرى فى هذا الشكل الشعاع الضوئى وهو ينزل فى أعماق الماء على مسافة 50 مترًا يبدأ امتصاص اللون الأصفر، وعلى عمق 100 متر يكون امتصاص اللون الأخضر وهكذا.

ونرى تحت مائتى متر يكون الامتصاص للون الأزرق، فإذًا ظلمة اللون الأخضر عند عمق 100 متر وظلمة الأصفر تكون على عمق 50 مترًا، وقبلها ظلمة اللون البرتقالى وظلمة اللون الأحمر، فهى ظلمات بعضها فوق بعض.

وأما السبب الثانى فيكون بسبب الحواجز التى تحجب الضوء، فالشعاع الضوئى الذى نراه هنا ينزل من الشمس فتمتص السحب بعضه وتشتت بعضه فتنشأ ظلمة تحت السحب، وهذه الظلمة الأولى، فإذا نزل الشعاع الضوئى إلى سطح البحر المتموج انعكس على سطح الموج فأعطى لمعانًا، ولذلك نرى أنه إذا حدث موج فى البحر كان اللمعان شديدًا على حسب ميل سطح الموج.

فالموج إذًا يسبب عكسًا للأشعة أى يسبب ظلمة ثم ينزل الشعاع الضوئى إلى أسفل، ونجد البحر هنا ينقسم قسمين، قسم سطحى وقسم عميق، أما السطحى فهو الذى يوجد فيه الظلام والبرودة.

ويختلف البحران فى خصائصهما وصفاتهما ولكن يوجد موج فاصل بين البحر السطحى والبحر العميق، وهذا الموج الداخلى لم يكتشف إلا عام 1900م، تحت الموج العميق الذى يفصل بين البحرين يوجد البحر العميق، ويبدأ الظلام حتى إن الأسماك فى هذه المناطق لا ترى بأعينها بل لها مصدر للضوء يصدر من جسمها فى هذه الظلمات التى تراكمت بعضها فوق بعض، وقد جاء ذكر هذا فى قوله عز وجل: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ وإذا نظرنا أسفل الشكل نرى الظلام ونرى فوق الموج الأول الذى يفصل بين البحر السطحى والبحر العميق ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أى من فوق هذا الموج موج آخر، هو الذى يكون على سطح البحر: ﴿مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ فوقهم: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمات هذه الحواجز

وظلمات الألوان فى طبـقات بعضهـا فوق بعض ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ فى هذه المناطق ظلام شديد، والغـواصات تنزل إلى هذه المسافات فـلا ترى شيئًا، وتسـتخدم مصـادر للضوء والإضاءة حتى ترى طريقها. فمن أخبر محمداً ﷺ عن هذه الآيات؟

قال الشـيخ: فكان هذا مما حدثنا عنه البـروفيسور راو، ثم اسـتعرضنا مـعه كثـيراً من الآيات المتعلقـة بالبحار وفى مجـال تخصصه، ثم قلنا له: مـا هو تفسيرك يا أسـتاذ راو لهذه الظاهرة؟.. ظاهرة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، أو بعبارة أخرى كيف أخبر محمد ﷺ بهذه الحقائق منذ 1400 عام؟

فقـال: من الصعب أن نفترض أن هذا النـوع من المعرفة كان مـوجودًا فى ذلك الوقت منذ 1400سنة هجـرية، ولكن بعض الأشـياء تتناول فكرة عـامـة، ولكن وصف هذه الأشيـاء بتفصيل كبير أمر صعب جـدًا، ولذلك فمن المؤكد أن هذا ليس علمًا بشريًا بسيطًا، لا يستطيع الإنسان العادى أن يشـرح هذه الظواهر بذلك القدر من التفصيل، ولذلك فـقد فكرت فى قوة خارقة طبيعة خارجُ الإنسان، لقد جاءت المعلومات من مصدر خارق للطبيعة.

**البروفيسور شرويدر:**

من الأسمـاء التى رأيتها فى دفـتر البابا فى هذا الفصـل اسم (البروفيسـور شرويدر)، فسألت البـابا عنه، فقال: هو من علمـاء البحار فى ألمانيا الغـربية، وقد حدثنا حديـثه الشيخ الصالح الثـقة عبـد المجيد الزندانى، فـقال: التقيت بـه مع نفر من أصحابـنا فى ندوة لعلماء البحـار نظمتها جـامعة الملك عبـدالعزيز بجدة، وقـد طلب منى حينها أن ألقى محـاضرة عن الظواهر البـحرية بين الكشـوف العلميـة والآيات القرآنيـة، وبعد أن ألـقيت المحاضـرة وقف البروفيـسور شرويدر فى اليوم الثانى يعقب على هذه المحاضرة فكان مما قاله: أود أن أعلق على المحاضرة التى ألقاها علينا الشيـخ الزندانى بالأمس، وأود أن أقول: إننى أقدر هذه المحاضرة، فى إطار اجتماع علمى كـهذا لا يحتاج المرء أن يكون مسلمًا، حتى بالنسبـة لى كمسيحى من المهم أن أرى العلم ليس فقط كـما هو عليه، ولكن أيضًا أن أراه بصـورة أوسع وأقابله بالدين أى أن أراه فى إطار الدين.

قال الشيخ: ثم أخذ البروفيـسـور شرويدر يبين العلاقة بين الأديان والعلم، إنه يتحدث عن تلك الفـجوة الهـائلة بين الأديان كلهـا وبين العلم، فهـناك تنافر واضح بين قـادة العلوم الدينية وقـادة العلوم الكونية، ولكنه اندهش عندما سـمع آيات القرآن الكريم وسمع الحـقائق التى ذكرها هذا الكتاب الكريم قبل 1400 عام، فعلق على ذلك وقال: فى أديان كـثيرة نجد أن القادة يظنون أن العلم يستطيع أن يأخذ شيئًا من الدين، إذا كان العلم يتقدم فإن على الدين أن يتقهقر. هنا لدينا تناول مختلف تمامًا، لقـد أرانى الشيخ الزندانى أن العلم فى الحقيقة يؤكد ما يقوله القرآن، ومـا ورد بالفعل منذ عديد من السنين فى القرآن هو حـقيقة ما يكتشـفه العلماء

اليوم، أعتقد أنه من المهم بالنسبة لندوة كهذه أن تبلغ إلى العلماء من جميع الأمم، وإننى واثق أننا جميعًا سنعود إلى أوطاننا ونحن نفكر أكثر فى العلاقة بين الدين وعلوم البحار، ليس هناك علم فى جانب ودين فى جانب آخر.

**آرثر أليسون:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (آرثر أليسون)، فسألت البابا عنه، فقال: هو رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية بجامعة لندن، ورئيس جمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية.. وقد سمعت حديثه من بعض الثقاة، فقد ذكر لى بأن هذا الأستاذ الفاضل زار القاهرة عام 1985 ليشارك فى أعمال المؤتمر الطبى الإسلامى الدولى حول الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم، كان يحمل معه بحثه الذى ألقاه، وتناول فيه أساليب العلاج النفسى والروحانى فى ضوء القرآن الكريم، بالإضافة إلى بحث آخر حول النوم والموت والعلاقة بينهما فى ضوء الآية القرآنية الكريمة: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر].

ولم يكن حينها قد اعتنق الإسلام، وإنما كانت مشاعره تجاهه لا تتعدى الإعجاب به كدين من الأديان.

ولكنه ما إن جلس يشارك فى أعمال المؤتمر، ويستمع إلى باقى البحوث التى تناولت الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم، حتى تملكه الانبهار، وازداد يقينه بأن هذا هو الدين الحق.. فكل ما يسمعه عن الإسلام يدلل بأنه دين العلم ودين العقل.

لقد رأى ذلك الحشد الهائل من الحقائق القرآنية والنبوية، والتى تتكلم عن المخلوقات والكائنات، والتى جاء العلم، فأيدها، فأدرك أن هذا لا يمكن أن يكون من عند بشر.. وما جاء به محمد من أربعة عشر قرنًا يؤكد أنه رسول الله حقًا.

وأخذ أليسون يستفسر من كل مَن جلس معه عن كل ما يهمه أن يعرفه عن الإسلام كعقيدة ومنهج للحياة فى الدنيا..

وفى الليلة الختامية للمؤتمر، وأمام مراسلى وكالات الأنباء العالمية، وعلى شاشات التليفزيون، وقف البروفيسور (آرثر أليسون) ليعلن أمام الجميع أن الإسلام هو دين الحق، ودين الفطرة التى فطر الناس عليها، ثم نطق بالشهادتين أمام الجميع بصوت قوى مؤمن.

وفى تلك اللحظات كانت تكبيرات المسلمين من حوله ترتفع، ودموع البعض قد انهمرت خشوعًا ورهبة أمام هذا الموقف الجليل.

ثم أعلن البروفيسور البريطانى عن اسمه الجديد (عبد الله أليسون)، وأخذ يحدث الحضور عن قصته مع الإسلام فقال: (إنه من خلال اهتماماتى بعلم النفس، وعلم ما وراء

النفس، حيث كنت رئيسًا لجمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية لسنوات طويلة، أردت أن أتعرف على الأديان، فدرستها كعقائد، ومن تلك العقائد عقيدة الإسلام، الذى وجدته أكثر العقائد تمشيًا مع الفطرة التى ينشأ عليها الإنسان، وأكثر العقائد تمشيًا مع العقل، من أن هناك إلهًا واحدًا مهيمنًا ومسيطرًا على هذا الوجود، ثم إن الحقائق العلمية التى جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية من قبل أربعة عشر قرنًا قد أثبتها العلم الحديث الآن، وبالتالى نؤكد أن ذلك لم يكن من عند بشر على الإطلاق، وأن النبى محمد ﷺ هو رسول الله).

ثم تناول (عبد الله أليسون) جزئية من بحثه الذى شارك به فى أعمال المؤتمر، والتى دارت حول حالة النوم والموت من خلال الآية السابقة، فأثبت (أليسون) أن الآية الكريمة تذكر أن الوفاة تعنى الموت، وتعنى النوم، وأن الموت وفاة غير راجعة فى حين أن النوم وفاة راجعة.. وقد ثبت ذلك من خلال الدراسات الباراسيكولوجية والفحوص الإكلنيكية من خلال رسم المخ، ورسم القلب، فضلاً عن توقف التنفس الذى يجعل الطبيب يعلن عن موت هذا الشخص، أم عدم موته فى حالة غيبوبته أو نومه.

وبذلك أثبت العلم أن النوم والموت عملية متشابهة، تخرج فيها النَّفسُ وتعود فى حالة النوم، ولا تعود فى حالة الموت.

ثم قرر هذا العالم المسلم البروفيسور (عبد الله أليسون) أن الحقائق العلمية فى الإسلام هى أمثل وأفضل أسلوب للدعوة الإسلامية، ولا سيما للذين يحتجون بالعلم والعقل

وقد أعلن البروفيسور أنه سيقوم بإنشاء معهد للدراسات النفسية الإسلامية فى لندن على ضوء القرآن المجيد والسنة النبوية.

وأعلن أنه سيظل مهتما بدراسات الإعجاز الطبى فى الإسلام، وذلك لكى يوصل تلك الحقائق إلى العالم الغربى الذى لا يعرف شيئًا عن الإسلام.

كما وعد بإنشاء مكتبة إسلامية ضخمة باللغتين العربية والإنجليزية للمساعدة فى إجراء البحوث العلمية على ضوء الإسلام.

**جفرى لانج:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفسور جفرى لانج)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ الرياضيات فى الجامعات الأمريكية، وهو مؤلف كتاب بعنوان (حتى الملائكة تسأل)، وقد سطر فى هذا الكتاب قصة إسلامه.

وقد تشرفت باللقاء معه، والاستماع لتلك القصة منه مشافهة، ومما ذكره لى من ذلك قوله: (لقد كانت غرفة صغيرة، ليس فيها أثاث ما عدا سجادة حمراء، ولم يكن ثمة زينة على جدرانها الرمادية، وكانت هناك نافذة صغيرة يتسلل منها النور... كنا جميعًا فى صفوف، وأنا فى الصف الثالث، لم أكن أعرف أحدًا منهم، كنا ننحنى على نحو منتظم

فتلامس جباهنا الأرض، وكان الجو هادئًا، وخيم السكون على المكان، نظرت إلى الأمام فإذا شخص يؤمّنا واقفًا تحت النافذة، كان يرتدى عباءة بيضاء... استيقظت من نومى!رأيت هذا الحلم عدة مرات خلال الأعوام العشرة الماضية، وكنت أصحو على أثره مرتاحًا.

فى جامعة (سان فرانسيسكو) تعرفت على طالب عربى كنت أُدرِّسُهُ، فتوثقت علاقتى به، وأهدانى نسخة من القرآن، فلما قرأته لأول مرة شعرت كأن القرآن هو الذى (يقرأنى).

وفى يوم عزمت على زيارة هذا الطالب فى مسجد الجامعة، هبطت الدرج ووقفت أمام الباب متهيبًا الدخول، فصعدت وأخذت نفسًا طويلاً، وهبطت ثانية لم تكن رجلاى قادرتين على حملى!مددت يدى إلى قبضة الباب فبدأت ترتجف، ثم هرعت إلى أعلى الدرج ثانية... شعرت بالهزيمة، وفكرت بالعودة إلى مكتبى.. مرت عدة ثوانٍ كانت هائلة ومليئة بالأسرار اضطرتنى أن أنظر خلالها إلى السماء، لقد مرت علىّ عشر سنوات وأنا أقاوم الدعاء والنظر إلى السماء!أما الآن فقد انهارت المقاومة وارتفع الدعاء: (اللهم إن كنت تريد لى دخول المسجد فامنحنى القوة)، نزلت الدرج، دفعت الباب، كان فى الداخل شابان يتحادثان. ردا التحية، وسألنى أحدهما: هل تريد أن تعرف شيئًا عن الإسلام؟ أجبت: نعم، نعم.. وبعد حوار طويل أبديت رغبتى باعتناق الإسلام فقال لى الإمام: قل أشهد، قلت: أشهد، قال: أن لا إله، قلت: أن لا إله ـ لقد كنت أؤمن بهذه العبارة طوال حياتى قبل اللحظة ـ قال: إلا الله، رددتها، قال: وأشهد أن محمدًا رسول الله، نطقتها خلفه.

لقد كانت هذه الكلمات كقطرات الماء الصافى تنحدر فى الحلق المحترق لرجل قارب الموت من الظمأ.. لن أنسى أبدًا اللحظة التى نطقت بها بالشهادة لأول مرة، لقد كانت بالنسبة إلىّ اللحظة الأصعب فى حياتى، ولكنها الأكثر قوة وتحررًا.

بعد يومين تعلمت أول صلاة جمعة، كنا فى الركعة الثانية، والإمام يتلو القرآن، ونحن خلفه مصطفون، الكتف على الكتف، كنا نتحرك وكأننا جسد واحد، كنت أنا فى الصف الثالث، وجباهنا ملامسة للسجادة الحمراء، وكان الجو هادئًا والسكون مخيمًا على المكان!! والإمام تحت النافذة التى يتسلل منها النور يرتدى عباءة بيضاء!صرخت فى نفسى: إنه الحلم!إنه الحلم ذاته... تساءلت: هل أنا الآن فى حلم حقًّا؟! فاضت عيناى بالدموع، السلام عليكم ورحمة الله، انفتلتُ من الصلاة، ورحت أتأمل الجدران الرمادية! تملكنى الخوف والرهبة عندما شعرت لأول مرة بالحب، الذى لا يُنال إلا بأن نعود إلى الله)[1].

وقد انهالت الأسئلة على الدكتور جيفرى لانغ باحثة عن سر إسلامه فكان يجيب: (فى لحظة من اللحظات الخاصة فى حياتى، منّ الله بواسع علمه ورحمته علىّ، بعد أن وجد فىّ ما أكابد من العذاب والألم، وبعد أن وجد لدى الاستعداد الكبير إلى مَلء الخواء الروحى فى

(1) باختصار عن كتابيه (الصراع من أجل الإيمان) و(حتى الملائكة تسأل).

نفسي، فأصبحت مسلمًا. . . قبل الإسلام لم أكن أعرف في حياتي معنى للحب، ولكني عندما قرأت القرآن شعرت بفيض واسع من الرحمة والعطف يغمرني، وبدأت أشعر بديمومة الحب في قلبي، فالذي قادني إلى الإسلام هو محبة الله التي لا تقاوَم)[1].

وكان من إجاباته قوله: (الإسلام هو الخضوع لإرادة الله، وطريق يقود إلى ارتقاء لا حدود له، وإلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة. . إنه المحرك للقدرات الإنسانية جميعها، إنه التزام طوعي للجسد والعقل والقلب والروح)[2].

وكان يجيب بقوله: (القرآن هذا الكتاب الكريم قد أسرني بقوة، وتملّك قلبي، وجعلني أستسلم لله، والقرآن يدفع قارئه إلى اللحظة القصوى، حيث يتبدّى للقارئ أنه يقف بمفرده أمام خالقه، وإذا ما اتخذت القرآن بجدية فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة، فهو يحمل عليك، وكأن له حقوقًا عليك!وهو يجادلك، وينتقدك ويُخجلك ويتحداك. . . لقد كنت على الطرف الآخر، وبدا واضحًا أن مُنزل القرآن كان يعرفني أكثر مما أعرف نفسي. . . لقد كان القرآن يسبقني دومًا في تفكيري، وكان يخاطب تساؤلاتي. . . وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت أكتشف الإجابة في اليوم التالي. . . لقد قابلت نفسي وجهًا لوجه في صفحات القرآن. . )[3].

وكان يقول: (بعد أن أسلمت كنت أُجهد نفسي في حضور الصلوات كي أسمع صوت القراءة، على الرغم من أني كنت أجهل العربية، ولما سُئلت عن ذلك أجبت: لماذا يسكن الطفل الرضيع ويرتاح لصوت أمه؟ أتمنى أن أعيش تحت حماية ذلك الصوت إلى الأبد)[4].

وكان يقول: (الصلاة هي المقياس الرئيسي اليومي لدرجة خضوع المؤمن لربه، ويا لها من مشاعر رائعة الجمال، فعندما تسجد بثبات على الأرض تشعر فجأة كأنك رُفعت إلى الجنة، تتنفس من هوائها، وتشمّ تربتها، وتتنشق شذا عبيرها، وتشعر وكأنك توشك أن ترفع عن الأرض، وتوضع بين ذراعي الحب الأسمى والأعظم)[5].

وكان يقول: (وإن صلاة الفجر هي من أكثر العبادات إثارة، فثمة دافع ما في النهوض فجرًا - بينما الجميع نائمون - لتسمع موسيقى القرآن تملأ سكون الليل، فتشعر وكأنك تغادر هذا العالم وتسافر مع الملائكة لتمجّد الله عند الفجر)[6].

قلت: أراه شديد التعظيم للصلاة مدركا لقيمتها.

---

(1) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ: 211.
(2) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ: 75.
(3) حتى الملائكة تسأل، : 209.
(4) الصراع من أجل الإيمان: 34.
(5) حتى الملائكة تسأل: 366.
(6) الصراع من أجل الإيمان: 111.

قال: أجل.. وقد حدثني عن أول صلاة صلاها، والصراع الذى حصل بينه وبين نوازع نفسه، فقال: فى اليوم الذى اعتنقت فيه الإسلام، قدم لى إمام المسجد كتيبًا يشرح كيفية أداء الصلاة، غير أنى فوجئت بما رأيته من قلق الطلاب المسلمين، فقد ألحوا علىَّ بعبارات مثل: (خذ راحتك) (لا تضغط على نفسك كثيرًا) (من الأفضل أن تأخذ وقتك) (ببطء.. شيئًا، فشيئًا).

وتساءلت فى نفسى (هل الصلاة صعبة إلى هذا الحد؟). لكنى تجاهلت نصائح الطلاب، فقررت أن أبدأ فورًا بأداء الصلوات الخمس فى أوقاتها.

وفى تلك الليلة، أمضيت وقتًا طويلاً جالسًا على الأريكة فى غرفتى الصغيرة بإضاءتها الخافتة، حيث كنت أدرس حركات الصلاة وأكررها، وكذلك الآيات القرآنية التى سأتلوها، والأدعية الواجب قراءتها فى الصلاة.

وبما أن معظم ما كنت سأتلوه كان باللغة العربية[1]، فقد لزمنى حفظ النصوص بلفظها العربى، وبمعانيها باللغة الإنجليزية، وتفحصت الكتيب ساعات عدة، قبل أن أجد فى نفسى الثقة الكافية لتجربة الصلاة الأولى، وكان الوقت قد قارب منتصف الليل، لذلك قررت أن أصلى صلاة العشاء.

ودخلت الحمام ووضعت الكتيب على طرف المغسلة مفتوحًا على الصفحة التى تشرح الوضوء، وتتبعت التعليمات الواردة فيه خطوة خطوة، بتأن ودقة، مثل طاهٍ يجرب وصفة لأول مرة فى المطبخ.

وعندما انتهيت من الوضوء، أغلقت الصنبور وعدت إلى الغرفة والماء يقطر من أطرافى، ووقفت فى منتصف الغرفة، متوجهًا إلى ما كنت أحسبه اتجاه القبلة.

نظرت إلى الخلف لأتأكد من أننى أغلقت باب شقتى، ثم توجهت إلى الأمام، واعتدلت فى وقفتى، وأخذت نفسًا عميقًا، ثم رفعت يدى، وبراحتين مفتوحتين ملامسًا شحمتى الأذنين بإبهامى، ثم بعد ذلك، قلت بصوت خافت (الله أكبر).

كنت آمل ألا يسمعنى أحد، فقد كنت أشعر بشىء من الانفعال، إذ لم أستطع التخلص من قلقى من كون أحد يتجسس علىَّ.

وفجأة أدركت أننى تركت الستائر مفتوحة، وتساءلت: ماذا لو رآنى أحد الجيران؟ تركت ما كنت فيه، وتوجهت إلى النافذة، ثم جلت بنظرى فى الخارج لأتأكد من عدم وجود أحد.

---

(1) ذكرنا فى المسائل الفقهية المرتبطة بهذا الجانب أنه لا ينبغى التشدد فى هذا الباب، فيمكن للمصلى أن يصلى باللغة التى يعرفها، وفى الفقه الإسلامى الأدلة الكثيرة المبينة لجواز هذا، ولعل أقواها قوله عز وجل: ﴿... وأقم الصلاة لذكري ﴿١٤﴾﴾ [طه]، فالغرض من الصلاة هو ذكر الله، وهو يتحقق بأى لغة من اللغات.

وعندما رأيت الباحة الخلفية خالية، أحسست بالارتياح، فأغلقت الستائر، وعدت إلى منتصف الغرفة.

ومرة أخرى، توجهت إلى القبلة، واعتدلت في وقفتي، ورفعت يدى إلى أن لامس الإبهامان شحمتي أذني، ثم همست (الله أكبر)... وبصوت خافت لا يكاد يسمع، قرأت فاتحة الكتاب ببطء وتلعثم، ثم أتبعتها بسورة قصيرة باللغة العربية، وإن كنت أظن أن أى عربى لم يكن ليفهم شيئًا لو سمع تلاوتى تلك الليلة.

ثم بعد ذلك تلفظت بالتكبير مرة أخرى بصوت خافت وانحنيت راكعًا حتى صار ظهرى متعامداً مع ساقى واضعًا كفى على ركبتى وشعرت بالإحراج، إذ لم أنحن لأحد فى حياتى، ولذلك فقد سررت لأننى وحدى فى الغرفة.

وبينما كنت ما أزال راكعًا، كررت عبارة (سبحان ربى العظيم) عدة مرات، ثم اعتدلت واقفًا وأنا أقرأ (سمع الله لمن حمده) ثم (ربنا ولك الحمد).... أحسست بقلبى يخفق بشدة، وتزايد انفعالى عندما كبرت مرة أخرى بخضوع فقد حان وقت السجود.. وتجمدت فى مكانى، بينما كنت أحدق فى البقعة التى أمامى، حيث كان على أن أهوى إليها على أطرافى الأربعة وأضع وجهى على الأرض.

لم أستطع أن أفعل ذلك، لم أستطع أن أنزل بنفسى إلى الأرض، لم أستطع أن أذل نفسى بوضع أنفى على الأرض، شأن العبد الذى يتذلل أمام سيده.. لقد خيل لى أن ساقى مقيدتان لا تقدران على الانثناء... لقد أحسست بكثير من العار والخزى، وتخيلت ضحكات أصدقائى ومعارفى وقهقهاتهم، وهم يراقبوننى وأنا أجعل من نفسى مغفلاً أمامهم، وتخيلت كم سأكون مثيراً للشفقة والسخرية بينهم، وكدت أسمعهم يقولون: (مسكين جفرى فقد أصابه العرب بمس فى سان فرانسيسكو).

وأخذت أدعو: (أرجوك، أرجوك، أعنى على هذا). أخذت نفسًا عميقًا، وأرغمت نفسى على النزول.. الآن صرت على أربعتى، ثم ترددت لحظات قليلة، وبعد ذلك ضغط وجهى على السجادة.. أفرغت ذهنى من كل الأفكار، وتلفظت ثلاث مرات بعبارة (سبحان ربى الأعلى)، (الله أكبر) قلتها ورفعت من السجود جالسًا على عقبى وأبقيت ذهنى فارغًا رافضًا السماح لأى شىء أن يصرف انتباهى. (الله أكبر) ووضعت وجهى على الأرض مرة أخرى. وبينما كان أنفى يلامس الأرض، رحت أكرر عبارة (سبحان ربى الأعلى) بصورة آلية. فقد كنت مصممًا على إنهاء هذا الأمر مهما كلفنى ذلك. (الله أكبر) وانتصبت واقفًا، فيما قلت لنفسى: لا تزال هناك ثلاث جولات أمامى. وصارعت عواطفى وكبريائى فى ما تبقى لى من الصلاة.

لكن الأمر صـار أهون في كل شوط. حتى إنني كنت في سكينة شبه كـاملة في آخر سجدة، ثم قرأت التشهد في الجلوس الأخير، وأخيرًا سلمت عن يميني وشمالي. . .

وبينما بلغ بي الإعيـاء مبلغه. بقيت جالسا على الأرض، وأخـذت أراجع المعركة التي مررت بها، لقد أحسـت بالإحراج لأنني عاركت نفسي كل ذلك العراك في سبيل أداء الصلاة إلى آخرها، ودعوت برأس منخـفض خجلاً: (اغفر لي تكبري وغبـائي، فقد أتيت من مكان بعيد ولا يزال أمامي سبيل طويل لأقطعه).

وفي تلك اللحظة، شـعـرت بشيء لم أجربه من قـبل، ولذلك يصـعب عليّ وصفـه بالكلمات، فقد اجتاحتني موجة لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها كالبرودة، وبدا لي أنها تشع من نقطة ما في صدري، وكـانت موجة عارمـة فوجئت بها في البداية حـتى إنني أذكر أنني كنت أرتعش، غير أنها كانت أكـثر من مجرد شعور جسدي، فقـد أثرت في عواطفي بطريقة غريبة أيضا.

لقد بدا كأن الرحمة قد تجسدت في صـورة محسوسة، وأخذت تغلفني وتتغلغل فيّ. . ثم بدأت بالبكاء من غير أن أعرف السبب، فقـد أخذت الدموع تنهمر على وجهي، ووجدت نفـسي أنتحب بشـدة. . . وكلمـا ازداد بكائي، ازداد إحسـاسي بأن قـوة خارقـة من اللطف والرحمة تحـتضنني. ولم أكن أبكي بدافع من الشعـور بالذنب، رغم أنه يجدر بي ذلك، ولا بدافع من الخزي أو السرور. . لقد بدا كأن سدًا قد انفتح مطلقًا عنان مخزون عظيم من الخوف والغضب بداخلي.

ظللت لبـعض الوقت جالسًـا على ركبـتي، منحنيًا إلى الأرض، منـتحبًـا ورأسي بين كفي. وعندما توقـفت عن البكاء أخيرًا، كنت قد بلغت الغاية في الإرهاق، فـقد كانت تلك التجربة جارفة وغير مألوفة إلى حد لم يسمح لي حينئذ أن أبحث عن تفسيرات عقلانية لها. . وقد رأيت حينها أن هذه التجربة أغرب من أن أستطيع إخبار أحد بها.

أما أهم مـا أدركته في ذلك الوقت فهـو أنني في حاجة ماسـة إلى الله وإلى الصلاة، وقبل أن أقوم من مكاني، دعوت بهذا الدعاء الأخـير: «اللهم، إذا تجرأت على الكفر بك مرة أخرى، فاقتلني قبل ذلك، خلصني من هذه الحياة. . ومن الصعب جدًا أن أحيا بكل ما عندي من النواقص والعيوب لكنني لا أستطيع أن أعيش يومًا واحدًا آخر وأنا أنكر وجودك»[1].

**محمد أكويا:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (محمد أكويا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستـاذ بإحدى الجامعات الأمريكيـة، وقد ذكر لي قصة إسلامـه، فقال: قبل أربع سنوات، ثارت عندنا بالجـامعة زوبعـة كبـيرة، حيث التـحقت للدراسـة طالبة أمـريكية

(1) حتى الملائكة تسأل: 234.

مسلمة، وكانت محجبة، وقد كان من بين مدرسيها رجل متعصب يبغض الإسلام ويتصدى لكل من لا يهاجمه، فكيف بمن يعتنقه ويظهر شعائره للعيان؟

وقد كان هذا الأستاذ يحاول استثارتها كلما وجد فرصة سانحة للنيل من الإسلام، وشن حربا شعواء عليها، ولما قابلت هي الموضوع بهدوء ازداد غيظه منها، فبدأ يحاربها عبر طريق آخر، حيث الترصد لها بالدرجات، وإلقاء المهام الصعبة فى الأبحاث، والتشديد عليه بالنتائج، ولما عجزت المسكينة أن تجد لها مخرجا تقدمت بشكوى لمدير الجامعة مطالبة فيها بالنظر إلى موضوعها.

وكان قرار الإدارة أن يتم عقد لقاء بين الطرفين المذكورين الدكتور والطالبة لسماع وجهتى نظرهما والبت فى الشكوى.

ولما جاء الموعد المحدد، حضر أغلب أعضاء هيئة التدريس، وكنا متحمسين جدا لحضور هذه الجولة التى تعتبر الأولى من نوعها عندنا بالجامعة.

بدأت الجلسة التى ذكرت فيها الطالبة أن المدرس يبغض ديانتها، ولأجل هذا يهضم حقوقها العلمية، وذكرت أمثلة عديدة لهذا، وطلبت الاستماع لرأى بعض الطلبة الذين يدرسون معها، وكان من بينهم من تعاطف معها وشهد لها، ولم يمنعهم اختلاف الديانة أن يدلوا بشهادة طيبة بحقها.

حاول الدكتور على إثر هذا أن يدافع عن نفسه، واستمر بالحديث، فخاض بسب دينها، فقامت تدافع عن الإسلام، وأدلت بمعلومات كثيرة عنه، وكان لحديثها قدرة على جذبنا، حتى إننا كنا نقاطعها، فنسألها عما يعترضنا من استفسارات، فتجيب، فلما رآنا الدكتور المعنى مشغولين بالاستماع والنقاش خرج من القاعة، فقد تضايق من اهتمامنا وتفاعلنا.

فذهب هو ومن لا يرون أهمية للموضوع، وبقينا نحن مجموعة من المهتمين نتجاذب أطراف الحديث، وفى نهايته قامت الطالبة بتوزيع ورقتين علينا كتب فيها تحت عنوان (ماذا يعنى لى الإسلام؟)، وفيها ذكرت الدوافع التى دعتها لاعتناق هذا الدين العظيم، ثم بينت ما للحجاب من أهمية وأثر، وشرحت مشاعرها الفياضة صوب هذا الجلباب وغطاء الرأس الذى ترتديه، والذى تسبب بكل هذه الزوبعة.

لقد كان موقفها عظيما.. ولأن الجلسة لم تنته بقرار لأى طرف، فقد قالت إنها تدافع عن حقها، وتناضل من أجله، ووعدت أنها إن لم تظفر بنتيجة لصالحها أن تبذل المزيد حتى لو اضطرت لمتابعة القضية وتأخير الدراسة نوعا ما، لقد كان موقفا قويا، ولم نكن أعضاء هيئة التدريس نتوقع أن تكون الطالبة بهذا المستوى من الثبات، ومن أجل المحافظة على مبدئها.

وكم أذهلنا صمودها أمام هذا العدد من المدرسين والطلبة، وبقيت هذه القضية يدور حولها النقاش داخل أروقة الجامعة، أما أنا فقد بدأ الصراع يدور فى نفسى من أجل تغيير الديانة، فما عرفته عن الإسلام حببنى فيه كثيرا، ورغبنى فى اعتناقه، وبعد عدة أشهر أعلنت إسلامى، وتبعنى دكتور ثان وثالث فى نفس العام، كما أن هناك أربعة طلاب أسلموا.

وهكذا فى غضون فترة بسيطة أصبحنا مجموعة لنا جهود دعوية فى التعريف بالإسلام والدعوة إليه، وهناك الآن عدد من الأشخاص فى طور التفكير الجاد، وعما قريب إن شاء الله ينشر خبر إسلامهم داخل أروقة الجامعة. والحمد لله وحده.

**آلا أولينيكوفا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (آلا أولينيكوفا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه أستاذة بالجامعية الروسية، وقد درست الطب فى ثلاث جامعات، وقد أخبرتنى عن قصة اعتناقها للإسلام، فقالت: أنا روسية، ولدت فى مدينة (لينين غراد).. وهى مدينة تنتسب إلى لينين ذلك الشيوعى الذى قتل آلاف المسلمين فى الجمهوريات المسلمة فى الاتحاد السوفييتى السابق.

وقد تعلمت وواصلت الدراسة فى أسرة فقيرة لم يكن لها من زاد سوى صيد الأسماك التى عمل بها والدى من قديم.

وقد درست الطب فى موسكو وتخرجت، ثم حصلت على الماجستير فالدكتوراه، ودرست بعدها فى جامعات موسكو وكييف ولينين غراد.

حياتى فى ظل الشيوعية كانت سيئة جدا، لا تتفق وفطرة الإنسان فى العيش بحرية وأمان ورفاه.

كنت فى داخلى ثائرة على الوضع، لكننى لم أكن أستطيع الكلام، مثل سائر الناس، وإلا كان المصير هو القتل، أو النفى لسيبيريا، أو السجن أو التعذيب.

كانت حياتنا جحيما مستعرا، ظلما واستعبادا وقهرا، وإجبارا على حياة لا توافق فطرة البشر، ومنعا من العبادة، وإجبارا على الكفر والإلحاد.

نحن نعلم عن الإسلام أكثر مما يعرفه الغربيون لأسباب أهمها قربنا من المجتمعات المسلمة، ولأن الاتحاد السوفييتى كان يضم قرابة 60 مليون مسلم، وهؤلاء يعملون معنا فى مختلف مراكز الدولة.

عرفت الإسلام من بعض المسلمين العاملين معنا، ولاحظته فى تصرفات الطلبة الوافدين من الدول الإسلامية مثل: سورية والكويت وليبيا واليمن والعراق.

وتعرفت على الإسلام أكثر من خلال طالب سورى من حمص كان يدرس الطب فى جامعة كييف، إذ لم يكن يشرب الخمر، ولا يأكل لحم الخنزير، ولا يقيم علاقات مع النساء،

وكانت أخلاقه عالية جدا، فقد كان أمينا وصادقا، وكان يسكن منزلا متواضعا يقول عنه: هذا منزلى ومسجدى.

شدنى هذا الطالب المسلم بأخلاقه، وتعامله المهذب، ليؤكد أن هذه هى أخلاق الإسلام، ولقد أهدانى كتبا عن الإسلام قرأتها جيدا فزادت معرفتى به.

وفى عام 1992 م تركت العمل مؤقتا، وسافرت إلى سورية حيث التحقت بكلية الدعوة، ودرست الإسلام فيها، وتخرجت عام 1995 لأعلن إسلامى.

وقد ذكرت لى فضائل الإسلام ومزاياه.. وهى التى جعلتها تقتنع به وتعتنقه، فقالت: الإسلام دين عظيم، وهو فى بلادنا من قبل ألف عام، بينما لم تعش الشيوعية أكثر من سبعين عاما.. لاحظت الأخوة والمحبة بين المسلمين وتبادل النصح.. يزداد تجلى الإسلام فى رمضان حيث النظام والصبر والمودة التى تفتقدها المجتمعات غير المسلمة على إطلاقها.. الإسلام يراعى الدنيا والآخرة، وهذا يلائم الطبيعة البشرية.. بعد ارتدائى الحجاب أحاول عدم الاختلاط بالرجال قدر المستطاع.

ولو عرف مجتمعنا الإسلام جيدا وطبقه لأنقذه من الجريمة والفساد والمافيا والمخدرات والدعارة والبطالة.. لأن الإسلام يحرم ويحارب كل ما يضر بالنفس وبالآخرين.

الإسلام هو الخلاص للبشرية، والشافى لها من أمراض العصر، وفيه الحل لمشكلات المجتمعات المختلفة.

لقد سقطت الشيوعية فى مزبلة التاريخ على الرغم من كل ما أحاطوها به من دعايات.

بقى الإسلام الذى حاول الشيوعيون طمسه، بل تعاظم دوره واتسعت رقعته اليوم فى روسيا وغير روسيا، وفى هذا درس وعبرة لمن أراد أن يعتبر.

وقد قالت لى فى آخر حديثى معها: أنا الآن بصدد وضع كتاب عن الإسلام بالروسية، وسوف أحاول تعريف الجميع بهذا الدين العظيم، الذى رأيت من خلاله النور.

**صوفى بوافير:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (صوفى بوافير)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذه عالمة كندية تحمل درجة الماجستير فى تعليم الفرنسية والرياضيات، وقد حدثتنى حديث إسلامها، فقالت: ولدت فى مونتريال بكندا عام 1971 فى عائلة كاثوليكية متدينة، فلذلك اعتدت الذهاب إلى الكنيسة، إلى أن بلغت الرابعة عشرة من عمرى، حيث بدأت تراودنى تساؤلات كثيرة حول الخالق وحول الأديان، وكانت هذه التساؤلات منطقية، ولكنها سهلة، ولكنى تعجبت من صعوبتها على الذين كنت أسألهم.

---

(1) انظر: كتاب (ربحت محمدا ولم أخسر المسيح)، د. عبد المعطى الدالاتى.

ومن هذه الأسئلة: إذا كان الله هو الذى يضر وينفع، وهو الذى يعطى ويمنع، فلماذا لا نسأله مباشرة!؟.. ولماذا يتحتم علينا الذهاب إلى الكاهن كى يتوسط بيننا وبين من خلقنا!؟.. أليس القادر على كل شيء هو الأولى بالسؤال!؟

أسئلة كثيرة كهذه كانت تُلحُّ على، فلمّا لم أتلق الأجوبة المقنعة عنها توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة، ولم أعد للاستماع لقصص الرهبان غير المقنعة، والتى لا طائل منها.

لقد كنت أؤمن بالله وبعظمته وبقدرته، لذلك رحت أدرس أديانًا أخرى، دون أن أجد فيها أجوبة تشفى تساؤلاتى فى الحياة، وبقيت أعيش الحيرة الفكرية حتى بدأت دراستى الجامعية، فتعرفت على شاب مسلم تعرفت من خلاله على الإسلام، فأدهشنى ما وجدت فيه من أجوبة مقنعة عن تساؤلاتى الكبرى.

وبقيت سنة كاملة وأنا غارقة فى دراسة هذا الدين الفذ، حتى استولى حبه على قلبى، والمنظر الأجمل الذى جذبنى إلى الإسلام هو منظر خشوع المسلم بين يدى الله فى الصلاة، كانت تبهرنى تلك الحركات المعبرة عن السكينة والأدب وكمال العبودية لله تعالى، فبدأت أرتاد المسجد، فوجدت بعض الأخوات الكنديات اللواتى سبقننى إلى الإسلام، وهو ما شجعنى على المضى فى الطريق إلى الإسلام، فارتديت الحجاب أولاً لأختبر إرادتى، وبقيت أسبوعين حتى كانت لحظة الانعطاف الكبير فى حياتى، حين شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

إن الإسلام الذى جمعنى مع هذا الصديق المسلم، هو نفسه الذى جمعنا من بعد لنكون زوجين مسلمين، لقد شاء الله أن يكون رفيقى فى رحلة الإيمان هو رفيقى فى رحلة الحياة.

**اسبر إبراهيم شاهين:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (اسبر إبراهيم شاهين)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هو الدكتور اسبر ابراهيم شاهين.. وهو اسم معروف فى الولايات المتحدة الأمريكية التى يحمل جنسيتها وتربطه علاقة صداقة حميمة مع رؤسائها، بل يعتبر أحد الشخصيات ذوى الإنجازات فى دول الغرب.

وقد عرف بمؤلفاته ومقالاته التى حققت رواجًا بين أوساط القراء، بل إن بعضها أدرج ضمن الكتب الأكثر رواجًا وخصوصًا تلك التى لها علاقة بالتكنولوجيا.

وهو بالإضافة إلى هذا خطيب بارع، ومتحدث لبق يجيد فن الحديث، وقد نال جائزة قيمة فى مجال تطوير المهارات المتخصصة، وهو مصنف ضمن رجال العلم الأمريكان، وضمن أحد الشخصيات ذوى الإنجازات فى دول الغرب. كما أنه مواطن فخرى لمدينة تكساس، وأحد

(١) أجرى معه الحوار فى مجلة (الشرق الأوسط)، أجرى الحوار فى الرياض: بدر الخريف.

الأساتذة البارزين في أمريكا. وقد نال جائزة رواد الخطابة العالمية للباقته في الحديث، كما حصل على شهادة تقدير وسجل اسمه في سجل الشرف التذكاري الرئاسي.

وقد التقيت به في أمريكا، وحدثني عن قصة إسلامه، فقال: ولدت في لبنان عام 1937، وأنا - في أصلي - مسيحي أرثوذكسي، درست في لبنان وأكملت دراسة الثانوية فيها، ومن خلال حبي لروح المغامرة كشاب في مقتبل العمر وطموحي وتعطشي للمعرفة هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1957 طلبًا للعمل والبحث عن فرص وظيفية، وكنت أعمل أثناء الدراسة لأنفق على نفسي، وقد درست بجامعة تكساس في أوستن لمدة سنتين، وحصلت على درجة البكالوريوس في العلوم من قسم الهندسة الكيميائية من جامعة ولاية أوكلاهوما ثم درست بعد ذلك بجامعة أريزونا في توسون، وحصلت على درجة الماجستير في العلوم، كما حصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة تينيسي في نوكسفيل.

وأثناء دراستي هناك كنت ناشطًا في شرح القضايا العربية والدفاع عنها، ففي جامعة أوكلاهوما انتخبت رئيسًا لمنظمة الطلبة العرب.

قلت: فكيف أقبلت على الإسلام، واقتنعت به، واعتنقته؟

قال: أصارحك القول.. أنا منذ صغري أشعر بميل شديد إلى الإسلام.. وفي مراحل التعليم المختلفة، ومن خلال ما اطلعت عليه في صغري عن الحضارة العربية والإسلامية والتاريخ العربي اتضح لي أن الإسلام دين عظيم، وقد انبعث من الجزيرة العربية لينتشر في جميع أنحاء المعمورة، ومن خلال صداقاتي مع كثير من المسلمين التي امتدت إلى عدة عقود لمست فيهم سلوكيات في غاية الكمال وممارسات تجبرك على احترامهم، فمثلاً أنا مسيحي لم أجد من أصدقائي المسلمين أي شيء يشعرني بالبعد عنهم، بل إن الاحترام هو ديدن هذه الصداقة.

إن المعاملة والوعي لب روح الإسلام تجبرك على احترام هذا الدين، كما أن صداقاتي للدكتور ناصر بن إبراهيم الرشيد التي امتدت لأكثر من 33 عامًا كان لها تأثير إيجابي على حياتي، فالإسلام دين واقعي ودين يدعو للعدالة والرحمة وتقدير الإنسان وتكريمه.

قلت: هذا السبب العام، فما السبب الخاص الذي أجبرك على إعلان إسلامك؟

قال: لقد قلت لنفسي (العمر يمشي ونحن نمشي، ولم يبق من الزمن مثل ما مضى).. إضافة إلى ما كانت ذاكرتي تختزنه من حب للإسلام، فقد مررت بظروف صعبة جدًا منذ سنتين ونصف حيث خضعت لعملية استئصال ورم سرطاني حول البنكرياس، وذلك في إحدى المستشفيات الأمريكية، واتضح لي أن العملية ونتائجها خطرة وأن نسبة نجاحها تعد من النوادر.

وفى ليلة العملية تلقيت اتصالات من أصدقاء ومحبين كلهم يدعون لى بنجاح العملية، بل إن البعض منهم أشار إلى أنهم دعوا لى فى الحرم بخروجى سالمًا معافى من هذا الظرف، ولأننى مولع بالقرآن الكريم، وبصوت المقرئ الراحل عبد الباسط عبد الصمد الذى كنت أتلذذ بالاستماع إليه، ويتتابنى عند سماعه شعور غريب أشعر بعده بالطمأنينة، فقد استمعت ليلة إجراء العملية إلى آيات من القرآن الكريم، وبعد العملية شعرت بطمأنينة عميقة وروح هادئة، وحينها قررت أن أعلن إسلامى، وبالفعل حصل ذلك بحمد الله.

كانت الظروف السياسية التى أعلن فيها إسلامه صعبة جدا، فقلت: ألا ترى أن تزامن إسلامك مع هذه الظروف الصعبة وأنت ضمن الشخصيات الأمريكية البارزة وتربطك علاقة بصناع القرار السياسى فى أمريكا، إضافة إلى أنك استشارى دولى ورئيس لمعهد تكنولوجى دولى، هل ترى أن توقيت إسلامك فيه نوع من التحدى؟

قال: نعم، إعلان إسلامى فى ظل هذه الظروف هو نوع من التحدى، ولكننى لا أخشى أحدًا، فقد اتخذت قرار الدخول فى الدين الإسلامى عن قناعة تامة.

قلت: ألا تخاف أن توجه لك انتقادات بسبب إسلامك؟

قال: بالتأكيد سأواجه انتقادات.. ولكن كما قلت لا أعبأ بذلك.

قلت: فهل ستعرض الإسلام على أسرتك؟

قال: نعم، ولكن بأسلوب الإقناع، ودخول أفراد أسرتى للإسلام وخصوصًا زوجتى الأمريكية يعتمد على القناعة، وأنا أرى أننى قدوة لأسرتى سابقًا، والآن سأكون أفضل بعد إسلامى.

قلت: أنت ترى ما يفعل قومى وقومك من التشهير بالإسلام والمسلمين والعرب فى الغرب؟

قال: ليس هناك ما يبرر مثل هذا الهجوم، وقد تابعت ذلك ووجدت أن ما طرح لا يعدو أن يكون حقدًا وكراهية ولا يصور الواقع، واقع الدين الإسلامى المشهور بالعدل والحق وواقع المسلمين والعرب، والغريب أن هذه الحملة تأتى من أشخاص فى مراكز قوى تؤثر على الملايين من المواطنين.

والإعلام الأمريكى وخصوصًا بعد أحداث 11 سبتمبر أصبح طوفانا من الدعاية السيئة، ومن المستحيل أن يقف أمامه من يسعون إلى إيضاح الحقيقة بسبب سيطرة الصهاينة عليه، وهذا يتطلب آلية من العرب والمسلمين لإيضاح الصورة وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن دينهم وعن واقعهم.

قلت: من خلال دراستك للإسلام ومخالطتك للمسلمين، هل لمست أن صراعًا ظهر بين الإسلام والمسيحية؟

قال: المسيحية ـ فى أصلها وحقيقتها ـ لا تعادى الإسلام، والعكس كذلك، لكن ظهرت مؤخراً أصوات من مبشرين تتناول إعلان الحرب على الإسلام مثل ما ذهب إليه فرانك جراهام ـ وهو نجل المبشر الكبير بل جراهام ـ حيث قال: يجب أن يعلن الحرب على الإسلام، فإله الإسلام ليس بإلهنا، والإسلام هو دين عنف وكراهية لأقصى الدرجات.

تصور، هل مثل هذا الكلام يطرح، وتتناقله بعض وسائل الإعلام، وهل مثل هذا الشخص يمكن أن يقال إنه يدين بالمسيحية، لا أعتقد ذلك، فالمسيحية تقول: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر).. إنه بذلك يحرض العالم على الحرب وهذا شيء مؤلم، فكيف تنتقد دينًا أو تبدى رأيًا فيه دون أن تعرف حقيقته أو أن تقرأ عنه.

المشكلة أن البعض فى الغرب يقارن الإسلام النبيل بالمتطرفين من المسلمين، ومن قبل متطرفين مسيحيين، رغم أن الإسلام والمسيحية براء من هذه النماذج.

قلت: ما هى الآلية التى تراها مناسبة لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام؟

قال: من خلال إيضاح حقيقة الإسلام، من خلال الحوار مع الآخر، من خلال المراكز الإعلامية بأساليب نبيلة ومحترمة توضح الحقيقه وتراعى شعور الآخرين.

**مورى ديفيد كيل:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (مورى ديفيد كيل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث كندى شاب، وقد التقيت به فى بعض رحلاتى إلى كندا، وقد سألته أن يحدثنى عن سر اختياره الإسلام دينا دون سائر الأديان، فقال: كنت أنتمى إلى عائلة مسيحية، وأتردد على الكنيسة حتى الثانية عشرة من عمرى، وكنت أغنى مزامير وتراتيل الكنيسة، ولكن ترددى على الكنيسة بدأ يقل كثيرا أو شعرت بأن وجودى هناك لا يعالج حالة الفراغ الروحى التى أشعر بها، وكانت مشكلة الدين تثير اهتمامى بشكل كبير فى ذلك الوقت.

ورغم أننى كنت أعرف شيئا قليلا عن الإسلام من خلال ما تذكره وسائل الإعلام، إلا أنى لم أكن أعلم أن الإسلام دين توحيدى، بل لم أكن أعلم أن الإسلام تربطه أى علاقة بدين إبراهيم أو غيره من الأديان.. لكنى بدأت ألتفت إلى الإسلام بقوة عندما علمت أن أحد علماء الإسلام فى سويسرا وصف الإسلام بأنه نقطه تلاقى بين الله كما هو وبين الإنسان كما هو.

بعدها بدأت رحلة البحث والدراسة والتفكير، وبدأ يتكشف أمامى الكثير من تعاليم الدين الإسلامى، وكانت كل مشكلتى تتمثل فى عدم وجود من يشجعنى على دخول الإسلام، خاصة وأن المجتمع الغربى ككل يتخذ موقفًا معاديًا للإسلام.

ولكنى لم أتراجع عن الإسلام.. لقد وجدت فى الإسلام التوازن الذى كنت أنشده، وهو الذى هدانى إلى الغاية الحقيقية من الحياة، وقد وجدت فيه علاجًا وحلاً لمشكلة الروح فى هذا الزمان والتى بحثت كثيرًا عنها فى مختلف الأديان، لكنى لم أجد دينًا يعالج هذه القضية بشكل شامل وواسع سوى الإسلام.

لقد أعلنت إسلامى رغم علمى بالصعوبات التى سوف تواجهنى.. وسميت نفسى عبد الصمد.

قلت: ما هى الصعوبات التى واجهتك بعد إسلامك؟

قال: عندما أعلنت إسلامى لم ألق معارضة من قبل أصدقائى، ولكن بمرور الوقت اكتشفت أننى فقدتهم جميعًا، أما بالنسبة لعائلتى، فقد أخفيت إسلامى عنهم طويلا، وعندما اكتشفوا ذلك توترت علاقتى بهم، وأصيبوا بحالة من خيبة الأمل والحزن، ولمدة عام كامل، وهم يتعاملون معى بحساسية شديدة.

ورغم أن موقفهم من إسلامى كان يعذبنى إلا أننى اقتديت بالصحابى الجليل مصعب بن عمير الذى فضل الإيمان على أمه التى كان بارًا بها..

لكن بمرور الوقت تحسنت علاقتى بالأسرة، ولكنهم ما يزالون حتى اليوم يحرصون على إخفاء نبأ إسلامى، ويعتبرون ذلك فضيحة.

**أحمد نسيم سوسه:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (أحمد نسيم سوسه)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مهندس باحث من العراق، وهو عضو فى المجمع العلمى العراقى، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الرى فى العراق، كان يهوديًا فاعتنق الإسلام متأثرًا بالقرآن الكريم، وقد توفى قبل سنوات تاركا الكثير من الدراسات فى مختلف المجالات، وخاصة فى تاريخ الرىّ، وقد فنّد فى عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة (مفصل العرب واليهود فى التاريخ)، و(فى طريقى إلى الإسلام) الذى تحدث فيه عن سيرة حياته.

وقد تشرفت بالالتقاء به، فحدثنى عن رحلته إلى الإسلام، وعن إعجابه الشديد بالإسلام، وسأنقل لك من كلامه ما تستطيع أن تكتشف به سر انجذابه إلى الإسلام، فمن أقواله:

(يرجع ميلى إلى الإسلام.. حينما شرعت فى مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى.. فولعت به ولعًا شديدًا.. وكنت أطرب لتلاوة آياته)[1].

(1) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 51.

(الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أثر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب. وقد جاء ذلك تأييدًا علميًا للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنًا على لسان النبي العربي الكريم. أما الفرقان المجيد.. فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقًا الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب.. الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيرًا ما يصوبون أسهمهم الناقدة السامة نحو الإسلام. والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو تحوير وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه دون أن يتغير فيه حرف واحد)[1].

(ورد في القرآن أنه جاء مهيمنًا على ما بين يديه من الكتاب، ويستدل من ذلك أن التعاليم الإلهية المقدسة الأصلية قد ضمن القرآن المحافظة عليها بما أوضحه من الحقيقة بإظهار الصحيح والدخيل في الكتب الرائجة في زمان نزوله، وعليه فيكون بهذا البيان والإيضاح قد جاء خير مهيمن على كتب الله الحقيقية وخير حافظ إياها من التلاعب)[2].

(الواقع أنه يتعذر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربية ولم يضطلع بآدابها أن يدرك مكانة هذا الفرقان الإلهي وسموه وما يتضمنه من المعجزات المبهرة، ولما كان القرآن الكريم قد تناول كل أنواع التفكير والتشريع فقد يكون من العسير على إنسان واحد أن يحكم في هذه المواضع كلها. وهل من مناص للمرء من الانجذاب إلى معجزة القرآن بعد تمعنه في أمية نبي الإسلام ووقوفه على أسرار حياة الرسول.. فقد جعل الله تعالى معجزة القرآن وأمية محمد برهانًا على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له)[3].

(إن معجزة القرآن الكريم هي أكثر بروزًا في عصرنا الحالي، عصر النور والعلم، مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والخمول)[4].

(يستحسن بأتباع موسى وعيسى عليهما السلام أن يراجعوا التاريخ الإسلامي ليقفوا على ما يأمر به الإسلام بشأن الرفق بالأطفال والنساء والشيوخ وغير المقاتلين بصورة عامة. ويثبت لنا التاريخ عدا ذلك أن المسلمين ساروا وفق شريعتهم القاضية بوجوب عدم مس الأطفال والنساء والشيوخ بكل أمانة وحرص حتى في الظروف التي كان فيها العدو المقابل يقتل الأطفال والنساء وغير المحاربين من المسلمين)[5].

(1) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 86.
(2) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 87.
(3) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 182 - 183.
(4) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 185.
(5) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 94.

(وجد اليـهود تحت راية الإسلام أمنًا وعدلاً اتقوا به شـر الاضطهاد والاعتـداء، وقد مضت عليهم قرون عديدة وهم في خير وثراء)[1].

(من جملة ما حمله الصليبيون إلى بلادهم تلك الخلـة الإسلامية الشريفة، خلة احترام الأديان وإطلاق الحـرية لأهل الدين في تأدية فـرائضـهم مع احـترام مـا يجلّونه من العـادات والتعاليم الروحية)[2].

(إن الإسلام شريعة العـدل والإنسانية وأنه ينطوى على مبادئ تفوق الـسيف في قوتها واستقامتهـا، وأن منهج اللطف في دعوته إلى حقيقة التوحيد يجتـذب القلوب ويسحر العقول ويأسر الناس بلا سيف ولا قتال)[3].

(يجب ألا يغرب عن البال أن المرأة لم تكن قد حازت حقـوقًا تتمتع بها إلا بعد ظهور الإسلام؛ لأن الإسلام هو أول من رفع قدر المرأة وأعطاها حقها في الحياة كحق الرجل)[4].

(لقد حرمت المسيحية الطلاق ولكن في الوقت نفسه نجد أنظمة البلاد المسيحية وقوانينها الرسمـية تنصّ على إباحته. إن المسـيحيين أنفـسهم قد ضـربوا بتعاليم ديانتهم عـرض الحائط ووضعوا القوانين التي تنقضها من الأساس، وما كان ذلك كرهًا لديانتهم ولكن رغبة في وضع ما تتطلبه نفسية المجتمع البشري من نظام يضمن الاطمئنان في علاقات الجنسين ويكفل السعادة البشرية. ولو صحا المسيحيون من غفلتهم وتأملوا في الأمر لاتضح لهم بأن الإسلام قد سبقهم في هذا المضمار من قبل ثلاثة عشر قرنًا)[5].

(من الغريب أن يصبح الطلاق اليوم عند المسلميـن إلى جانب القلة ويكثر عند الغربيين الذين كـانوا ينكرونه أشـد الإنكار، وما فـتئ يزداد مع الزمن انتـشارًا مـطردًا، فإنه يحـصل بالولايات المتـحدة الأمريكيـة كل سنة ما ينيـف على المائتي ألف طلاق، وفي أوروبا يبت في عشرات الألوف من قضايا الطلاق وعلى الأخص في فرنسا. ولا يغيب عن الذهن أن الإسلام مع إباحته الطلاق للضرورة فإنه يعد أبغض الحلال عند الله، كما أنه ورد في القرآن الكريم ما يحتم الرفق بالمرأة ويفرض المحـافظة على حقوقها ويقـصي الرجل عن الإقدام على الطلاق ما أمكن)[6].

(كانت المرأة في ديار العـرب قـديمًا محـض متـاع، مجـرد ذكـــرها أمرٌ ممتهن. هكذا كان الوضـع حـينما جاء محـمد فرفع مقـام المرأة في آسيا من وضع المتـاع الحقير إلى مـرتبة

---

(1) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 130.
(2) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 133.
(3) في طريقي إلى الإسلام: 2 / 38.
(4) في طريقي إلى الإسلام: 1/ 187.
(5) في طريقي إلى الإسلام: 2/ 30 - 31.
(6) في طريقي إلى الإسلام: 2/ 31 - 32.

الشخص المحترم الذى له الحق فى الحياة حياة محترمة، كما أن له الحق فى أن يملك ويرث المال)[1].

(مما يدل على أن الإسلام هو دين أبدىّ قد أنزل لكل وقت ومكان نجد أن عادة تعدد الزوجات لم تعد تتبع فى كثير من الأنحاء الإسلامية إلا ما ندر وقل، وذلك لسبب التطور الذى طرأ فى حياة معظم الجماعات بحيث جعل العسر الاقتصادى والظروف الحالية تعدد الزوجات متعذراً تطبيقه.. هذا وإذا دققنا كم هى النسبة المئوية من المؤمنين بالدين الإسلامى الذين يطبقون عادة تعدد الزوجات فى الوقت الحاضر نجد فعلاً أنها نسبة جدّ قليلة)[2].

(إنى أعتقد بأنه لو كان للإسلام فى أمريكا بعض ما كان للمسيحية من الدعاية والتبشير، لكان علمه يخفق اليوم فى معظم أصقاع هذه البلاد الواسعة ولكان لقى فيها من التشجيع بخلاف ما هو معروف من فشل التبشير النصرانى)[3].

(إن البلاد العربية تجتاز اليوم دوراً عصيباً هو دور الانتقال والتطور، وهذا الانتقال السريع مخيف ومريع، فقد تضيع فيه الوجهة والمبدأ إن لم نتدارك الأمر بالتحلى بالصفات الإسلامية السامية التى تمدنا بالإيمان والقوة قبل أن تتغلب علينا مادة الغرب فتفرقنا وتنتزع من أبناء يعرب يقينهم وأمانيهم)[4].

(لابدّ للشباب المتعلمين أن يضعوا نصب أعينهم الحقيقة التاريخية، ألا وهى أن حرب الغرب ضد الإسلام لم تنته، تلكم الحرب التى أضرمها الغربيون المسيحيون بقصد قطع دابر المسلمين، ومحو شوكة الإسلام من البسيطة. وقد وجد الغربيون فى نظرياتهم الإلحادية التى يبثونها فى علومهم ويشجعونها بين المسلمين بوسائط مختلفة غير العلم خير دسيسة بل أنجع وسيلة لمحو الإيمان بالدين الإسلامى، ونعنى بذلك قوة الإسلام التى يتربص لها الغرب باغياً إخمادها واضمحلالها. ويا ليت الشباب المسلمين يتروون فى مسلكهم ويدرسون الحقائق الدينية التاريخية قبل أن يبيعوا عواطفهم الدينية رخيصة للعدو المترصد)[5].

(إنه يجب ألا ننسى أن العالم الغربى يخشى بأس الإسلام إذا اتّحد أنصاره.. إذ يرى الغربيون فى اتحاد المسلمين خطراً على كيانهم ومدنيّتهم ولا يخفون شعورهم فى هذا الصدد بل هم يسعون بكل الوسائل لوضع العراقيل فى سبيل التفاهم والاتحاد بين البلاد الإسلامية)[6].

---

(1) فى طريقى إلى الإسلام: 2/ 42.
(2) فى طريقى إلى الإسلام: 2/ 144 - 145.
(3) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 53.
(4) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 62.
(5) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 62 - 63.
(6) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 133 - 134.

(لابدّ من القـول إن المناوأة التى أحدثتـهـا البابوية ضـد الإسلام وأضـرمت بها نيـران الحروب الصليبية لا تزال متأصلة فى نفوس الغربيين)[1].

(أى غاية أسـمى وأقرب إلى الإنسانيـة ودين الله من تلكم الغاية التى كان يرمى إليـها الرسول فى توحيد القلوب وإظهار الحقيقة؟ لنتصور محمداً وهو يملى على أهل الكتاب وحى الله قائلا: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران][2].

(إن نبى الإسلام شخصية تاريخية مبجلة. ما حياة الرسول سوى سلسلة وقائع تاريخية عظيمة الشأن نبيلة المرمى يتجلى فيها مقامه السامى من الحلقة الإنسانية)[3].

(كان محمد أنموذجًا للحياة الإنسانية بسيرته وصدق إيمانه ورسوخ عقيدته القويمة، بل مثالاً كاملاً للأمانة والاستقامة، وإن تضحياته فى سبيل بث رسالته الإلهية خير دليل على سمو ذاته ونبل مقصده وعظمة شخصيته وقدسية نبوته)[4].

(إن التاريخ ينبئنا أن محـمداً ضحى بكل شىء من أجل رسـالته إذ أتيـحت له مرات فرصة الاختيار بين أمرين أولهما حياة راحة وهناء وغنى على أن ينبذ دعوته وثانيهما حياة عسر واضطهاد مقرونة بنشـر رسالته، وقد فضل الأمر الثانى لأن إيمـانه برسالته كان قويًا وكان قد أوحى إليه بأنه قد اختاره ربه لبث هذه الرسالة على الإنسانية جمعاء فكان ما أراد الله له)[5].

(على المرء الذى وقف على حقيقة الإسلام أن يعـترف بأن الإسلام هو فى الحقيقة دين الحرية والفطرة بعيدًا عن قيود الكنيسـة واستبدادها فى المسيحية وغريبًا عن العـصبية وتقاليدها الثقيلة فى اليهودية)[6].

(إن المرء الذى تغلغل فى أعمـاق الحضارة الغربية وأدرك منطوياتهـا ومحصها تمحـيصًا دقيقًا نظريًا وعمليًا لابد له من الانقياد بقوة نفـسية كمينة إلى منهل العقيدة الإسـلامية ليروى غليله منها)[7].

(ما أعظم سـرورى الآن حين جاء الاسـتدلال العلمى الصـحيح مؤيداً للـميل الفطرى فانتـميت إلى الدين الإسلامى بدافع طبيـعى غريزى وبتأييـد علمى تمحيصى فأصـبحت بذلك مسلمًا شعوراً وموطنًا وديناً)[8].

---

(1) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 134- 135.

(2) فى طريقى إلى الإسلام: 1/ 72-73.

(3) فى طريقى إلى الإسلام: 1/ 174.

(4) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 174 - 175.

(5) فى طريقى إلى الإسلام: 2 / 130.

(6) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 52.

(7) فى طريقى إلى الإسلام. 1/ 52 - 53.

(8) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 55.

(جاء الإسلام بعد الديانتين التوحيديتين منقحًا موضحًا للحقيقة، معترفًا بجوهر الديانتين السابقتين، مشيراً إلى التحوير والأخطاء التى طرأت عليهما. . مضيفًا كثيراً من الإرشادات والتعاليم الروحية التى أرادها الله لعباده المؤمنين. . واضعًا شريعة تحتوى على كل ما يتعلق بالمجتمع من أمور اجتماعية دينية اقتصادية سياسية. ومن ذلك يتضح أن الإسلام لم يظهر لهداية القبائل الوثنية فحسب وإنما جاء أيضًا لتوحيد الأديان ورفع الشكوك والارتباكات التى انطوت عليها الديانتان اليهودية والمسيحية وإرشاد أتباعهما إلى الدين الجديد، ولكن تأصل جذور الديانتين ونفوذ الأحبار والساسة والعصبية اليهودية بصورة خاصة كل هذه كانت من العوامل التى حالت دون تحقيق التوحيد المنشود. ولو أن هؤلاء كانوا من المهتدين إلى الإسلام دين الحقيقة لكان انقشع ضباب الضلال والكراهية والارتباط وانبثق نور السعادة على البشرية جمعاء فى جو مشبع بالصفاء والولاء)[1].

(الواقع أنه ليس من دين من أديان العالم البشرى حافظ على جوهره وقاعدة تعاليمه كالدين الإسلامى، وهذا ما يمتاز به الإسلام عن الديانتين اليهودية والمسيحية)[2].

(إذا كان يصح ما يقال بأن خير الأمور أوسطها، فإن الديانة الإسلامية هى التى تستحق أن تحتل المكانة السامية بين الديانات العالمية لأنها جاءت مشبعة بروح الطبيعة والفطرة معتدلة فى طقوسها. . متوسطة فى مسلكها. . فهى الشريعة الوسط التى تدعو إلى العمل للدنيا والآخرة فى آن واحد)[3].

(إن الإسلام هو الدين الصافى الذى أراده الله للإنسانية، صفى بمصفاة وحيه الإلهى ليكون دينًا صالحًا لكل إنسان ولكل زمان ومكان)[4].

(لو أدرك هذا العالم التائه جوهر المبادئ الإسلامية لوجد فيها خير كفيل لحلّ معظم الأدواء البشرية الحالية ولما احتاج إلى عصبة أمم أو نظائرها من الاتجاهات لنشر مبادئ السلم والتعاون لأن الإسلام يضم بين تعاليمه أنبل مبدأ وأمتن أساس لتوطيد عرى العلاقات السلمية بين الأمم)[5].

(للإسلام فضل كبير على التاريخ نفسه من غير الوجهة الدينية. ذلك أنه جاء موضحًا بعض الحوادث التاريخية الغامضة بحيث فتح بابًا واسعًا للتدقيق والبحث بل جاء حافزًا للعلماء للتنقيب وسبر أغوار البحوث التاريخية لاستنباط الحقائق التى أوردها القرآن الكريم. ومن ثم

(1) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 71 - 72.
(2) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 74 - 75.
(3) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 77.
(4) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 80.
(5) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 69.

فإن خدمة الإسلام للتاريخ والعلم بل خدمته للإنسانية بصورة عامة بتشجيعه العلم الصحيح ونبذ التقليد الأعمى مما يسجلها له التاريخ ما دام تاريخ فى الوجود)[1].

(إن النزعة العامة للكنيسة المسيحية تجاه الفلسفة والعلم هى نزعة عدائية.. ويرجع الفضل للإسلام فى محافظته على الروح العلمية الفلسفية وإرجاعها إلى المجتمع الأوروبى، إذ كان الإسلام حاميًا للكثير من المعلمين والفلاسفة الذين هجروا أوطانهم نتيجة اضطهاد المسيحية إياهم. والواقع أن العلم لم يرجع إلى أوروبا إلا بواسطة الإسلام الذى امتد سلطانه إلى الأندلس.. وأن هذا العلم الذى انتشر فى أوروبا عن طريق الإسلام أخذ يعمل فى عقول المفكرين شيئًا فشيئًا حتى كانت النتيجة أن أحدث صراعًا عنيفًا بين الكنيسة وساسة الشعوب المفكرين فكان نصيب الكنيسة التسليم بمعظم ما كانت تتمتع به من سلطان)[2].

(لا يخفى أن الحضارة الإسلامية أنتجت ضحى التبصير والتيقظ نابذة التقليد ومتجنبة الظن فكانت التجربة والبرهان قاعدة البحث فيها وبذلك تمّ للمسلمين وضع الأسس الثابتة للعلوم الصحيحة فجعلوا التجربة والملاحظة أساس المباحث العلمية ودعامة التنقيب، الأمر الذى لم يكن قد اهتدى إليه اليونان مدى اشتغالهم بالبحث والفلسفة، فكوّن المسلمون بذلك ثقافة خاصة بهم وفلسفة إسلامية مستقلة بعد أن اقتبسوا محسنات ما فى الفلسفة اليونانية ونبذوا الآراء الوثنية منها، كما أنهم وضعوا الأسس للعلوم الطبيعية والرياضية بأنواعها المختلفة وعن طريقهم وصلت هذه العلوم إلى أوروبا)[3].

(تمتاز الحضارة الإسلامية بكونها تخضع فى معظم إنتاجها إلى التعاليم الإسلامية. فالقيام بالصناعات والأخذ بالعلوم متصل بروح الأمة وعقيدتها، لأن العمل بذلك فى نظر الإسلام فرض على الأمة وهذا نظام يربط الإنتاج البشرى بالدين.. وذلك بخلاف المدنية الغربية فإنها جعلت القيام بشؤون الحياة من اختصاص الاقتصاد المادى وحده، فأمست مدنية مادية محضة لا يعين الفرد فيها صاحبه ولا ينصر أحد رفيقه)[4].

(يجب أن لا يغرب عن البال أن المدنية الغربية الحديثة خابت فى إرضاء النفوس وأخفقت فى إيجاد السعادة البشرية فهبطت بالناس فى هاوية الشقاء والارتباك لأن جهود العلم الحديث موجهة إلى التدمير والإفناء.. فهو بعيد والحالة هذه من أن يتصف بالكمال أو أن يكون واسطة لخدمة الإنسانية كما كان فى عهد الإسلام)[5].

* * *

---

(1) فى طريقى إلى الإسلام: 1/ 102.

(2) فى طريقى إلى الإسلام: 1 / 188 - 189.

(3) فى طريقى إلى الإسلام: 2 / 112.

(4) فى طريقى إلى الإسلام: 2 / 112 - 113.

(5) فى طريقى إلى الإسلام: 2 / 114.

■■■■■■■

## سادسا - الأولياء

■■■■■■■

فتحت دفتر البابا على فصله السادس، فوجدت عنوانه (الأولياء)، فقلت: من تقصد بالأولياء؟

قال: أولئك الذين فتحت لهم أبواب السماء، وانكشفت لهم الحجب، واتسع لهم من الحقائق ما ضاق على غيرهم، ورأوا من ملكوت الله ما راحوا يبشرون به عباد الله.

قلت: فما علاقة هؤلاء بشمس محمد ﷺ؟

قال: هؤلاء هم المستقبل الأعظم لأشعة شمس محمد ﷺ.. ولهذا فإنهم أقرب الخلق إليه، وأعرف الخلق به، وأكثر الخلق أدبا معه.

قلت: بم استفادوا ذلك القرب، وذلك الأدب؟

قال: بالسير على قدمه.. فمن سار على قدم رسول الله ﷺ.. ومن وحد وجهته إليه ظفر بالأنوار التي لا ينعم بها إلا المخلصون المخلّصون من شوائب الأنا.

قلت: لا أرى أسماء في هذا الفصل.. بل أرى كلمات.

قال: الأولياء كلمات وليسوا أسماء.. وحقائق وليسوا حروفا.

قلت: لم أفهم..

قال: الولي الذي يعيش الحقائق تتبناه الحقائق، وتصبح هي المعبرة عنه، فالولي الحيي يعبر عنه الحياء.. والولي المحب يعبر عنه الحب.. والولي المتوكل يعبر عنه التوكل.. وهكذا.

قلت: أعلم بعض هذا.. فقد ذكروا لطريق الله معارج ومقامات ومنازل.. ولكلٍّ حظه منها.

قال: الأولياء هم الذين ظفروا بكل ذلك.. ولهذا كانت الكلمات هي المعبر عنهم لا الأسماء.

قلت: أرى كلمات كثيرة.

قال: سأكتفي لك في هذا المقام بأربعة منها.. فإني أرى الجدل في عصرنا شديدا.. ولن أذكر لك إلا ما يطيقون.

**المحبة:**

قلت: فما الكلمة الأولى؟

قال: الكلمة التي توله القلوب، وتملؤها بالأشواق اللذيذة التي لا تعرف الحزن.

قلت: تقصد محبة الله والشوق إليه!؟

قال: وأقصد محبة رسوله والشوق إليه.. فيستحيل على من أحب الله أن لا يحب رسوله.

قلت: فكيف بدا لك أن تسجل هذه الكلمة؟

قال: لذلك قصة.. كنت فى بلاد من بلاد الله.. وكنت مشتت الفؤاد ممتلئا بالأكدار إلى أن سمعت غناء عذبا من أحد البيوت يردد قول محمد إقبال:

قد كان هذا الكون قبل وجودنا ... روضا وأزهارا بغير شميم
والورد فى الأكمام مجهول الشذى ... لا يرتجى ورد بغير نسيم
بل كانت الأيامُ قبل وجودنا ... ليلا لظالمها وللمظلوم
لما أطل محمدٌ زكت الربًا ... واخضر فى البستان كُلُّ هشيم
وأذاعت الفردوس مكنون الشذى ... فإذا الورى فى نضرة ونعيم

فاقتربت من الباب، فوجدته مفتوحا، فدخلت من غير استئذان، فلم أجد نفسى إلا فى حلقة كهالة الشمس تمتلئ بالأنوار.. كانوا سبعة نفر، وكان كل فرد منهم شمسا لا تختلف عن الشمس.

لم يرونى وأنا أدخل، ولم يسمعونى وأنا أسلم، بل ظلوا على حالهم غارقين فى تأملاتهم، فجأة نطق أحدهم يقول:

عبد بنار الشوق فيك معذب ... لكنه أبدا له يستعذب
جودوا بوصل منكم وبعطفة ... تشفى سقاما لا أراه يذهب
لى فيكم عشق وفرط صبابة ... وفؤادى منكم فيه نار تلهب
يا سعد من خصصتموه بودكم ... وبمذهب لكم غدا يتمذهب
ولقد نأيت عن المنى بخطيئتى ... وحاشاكم أن تطردوا من يذنب
فتمام قصدى من نداتكم نفحة ... تجلوا الصدا عنى كى لا أحجب

التفت إليه، وقلت: أى محبوب هذا الذى ملأ عليك كيانك، فرحت تصرح فى الوقت الذى يكتم المحبون فيه حبهم؟

لم يلتفت إلى، ولم يجبنى، بل نطق ثانيهم، وقال:

من مثل أحمد فى الكونين نهواه ... بدر جميع الورى فى حسنه تاهوا
من مثله وإله العرش شرفه ... فى الخلق والخلق إن الله أعطاه
الشمس تخجل من أنوار طلعته ... حارت عقول الورى فى وصف معناه
تبارك الله ما أحلى شمائله ... حاز الجمال فما أبهى محياه

يا ربع وادى النقا يا أهل كاظمة — فى حيكم قمر فى القلب مأواه
صلى عليه إله العرش ما طلعت — شمس وما حدا الحادى مطاياه

قلت: أنتم تتغنون بحب محمد إذن.. لا بحب ليلى ولبنى!؟

قال ثالثهم:

إذا مدح الشعراء أرباب عصرهم — مدحت الذى من نوره الكون أبهج
وإذا ذكروا ليلى ولبنى فإننى — بذكر الحبيب الطيّب الذكر ألهج
أما ومحل الهدى تدمى نحورها — ومن ضمّه البيت العتيق المدجج
لقد شاقنى زوّار قبر محمد — فشوقى مع الزوّار يسرى ويدلج
تظلّ الهوادى بالهوادج ترتمى — وما لى فى ركب المحبّين هودج
وتمى بروق الأبرقين ضواحكا — فتغرى غرامى بالبكا وتهيّج
وأرتاح من أرواح أطيب طيبة — إذا المسك فى أرجائها يتأرّج
بلاد بها جبريل يسحب ريشه — وينزل من جوّ السماء ويعرج
نبى تغار الشمس من نور وجهه — بهىّ نقىّ الثغر أحور أدعج
تزيد به الأيام حسنا ويزدهى — به الدين والدنيا به تتبرّج
مكارم أخلاق وحسن شمائل — وشيمة جود بحره متموّج
غياث للملهوف وغوث لرائد — وليث إذا صال الكمى المدجج

قلت: بالله عليكم إلا حدثتمونى كما يحدث الناس بعضهم، فإنى غريب فى هذا البلاد، ولا أفهم من الشعر ما أفهمه من النثر، فانثروا نثر الله عنكم الآلام والأحزان.

قال أحدهم: إن أردت أن ينثر الله عنك الهموم والأحزان، فتعلق بحبل النبى ﷺ.. فلا يحزن من حل بساحته، ولا يعطش من شرب من يده.

قلت: فبأى حبل أتعلق؟

قالوا جميعا: بحبل الحب.

قلت: وما حبل الحب؟

قال أحدهم: ليس هناك حبل فى الدنيا غير حبل الحب.

قلت: أنا لم أسأل عن غير حبال الحب، ولكنى سألت عن حقيقة هذا الحبل، وعن مدى جدواه.

قال أحدهم: حب محمد ﷺ هو الذى يربطك بمنبع النور والجمال.

قلت: وحب الله؟

قال: لا يكمل حب الله حتى تمتلئ النفس بحب المعرّف بالله والدال عليه والهادى إليه والمعرف بمراضيه.

قلت: من هذا الذى اكتمل له هذا؟

قال: لم يكتمل هذا فى أحد كما اكتمل فى رسول الله ﷺ، فبه عرفنا الله، وبه عبدناه، وبه أشرقت شموس الحقائق على هذا الكون، وبه انبلجت أنوار الحكم على العقل البشرى.

قال آخر: هو الخلاصة التى اجتمعت فيها جميع الخيرات، والشمس التى صدرت منها جميع الأشعة، والبذرة التى أنبتت شجرة الجمال فى الكون.

قال آخر: كما أن الحياة هى خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هى الجوهر الخالص الصافى للحياة، فهى ذاتها الثابتة المستقلة. كذلك الحياة المحمدية - المادية والمعنوية - مترشحة من الحياة ومن روح الكون، فهى خلاصة خلاصتها والرسالة المحمدية مترشحة من حسّ الكون وشعوره وعقله، فهى أصفى خلاصته[1].

قال آخر: إن جمال الكائنات وحياتها ونورانيتها التى يعيش المؤمن فى أكنافها لم تكن لتتحقق لولا رسالة رسول الله ﷺ والمعانى الجميلة التى تحملها.

قال آخر: إن حياة محمد ﷺ - المادية والمعنوية، بشهادة آثارها - حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحى القرآنى بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. فاذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة[2].

قال آخر: لنتصور الأرض والكون والبشر لولا التعاليم التى جاءنا بها رسول الله ﷺ، ولنتأمل قيمة الحياة لو خلت من الحياة التى بثها رسول الله ﷺ.

قال آخر: إن رسول الله ﷺ هو النافذة التى نتطلع بها إلى الحقائق، وهو العين التى نبصر بها أسرار الكون والحياة، وقد قال بعض السلف: «رأيت الجنة والنار حقيقة»، فقيل له: «وكيف رأيتهما وأنت فى الدنيا؟»، فقال: «رآهما رسول الله ﷺ فرأيتهما بعينيه، ورؤيتى لهما بعينى رسول الله ﷺ آثر عندى من رؤيتهما بعينى، فإن بصرى قد يزيغ عند رؤيتهما أو يطغى، أما بصر الرسول ﷺ فما زاغ وما طغى».

---

(1) هذا القول لبديع الزمان النورسى فى بيان حقيقة الجمال المحمدى.

(2) هذا القول لبديع الزمان النورسى..

قلت: إنكم تذكرون أوصافا كثيرة يعتبرها بعض قومهم من المبالغات فى حق نبيكم.

قال أحدهم: لو ظللنا طول دهرنا نصف أفضال نبينا علينا ما انتهينا.

قال آخر: كيف يقولون هذا.. ونحن لم نخرج عن قوله عز وجل فى وصفه: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ [الأعراف].

قال آخر: إن تعمقك فى معانى هذه الكلمات يهديك إلى بحور من العلم بحقيقة محمد ﷺ لا يطيقها الجامدون.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد وصف القرآن محمدا ﷺ بأنّه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، واعتبره مبشرا ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، فأى إحسان أجل قدراً وأعظم خطرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين، وأى إفضال أعمّ منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين، إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربّهم وشفيعهم والمتكلم عنهم والشاهد لهم والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمدى.

قال آخر: فإذا كان الإنسان يحب من منحه فى دنياه مرة أو مرتين معروفًا أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذّى بها قليل منقطع، فمن منحه ما لا يبيد من النعيم ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب، وإذا كان يحب بالطبع ملكًا لحسن سيرته أو حاكمًا لما يؤثر من قوام طريقته أو قاص بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته فمن جمع هذه الخصال كلها على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل.

قلت: وعيت هذا.. ولكن الحريصين على صفاء التوحيد من قومكم يخافون على التوحيد فى أقل من هذا.

قال أحدهم: فخاطبهم بقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة].

قلت: فما فى هذه الآية؟

قال: هذه الآية الكريمـة جمعت أصناف ما يحـبه الناس ويؤثرونه وتتوجه به حـياتهم على أساسه، ووضعته فى كفة ووضعت حب الله ورسوله فى كفة أخرى، ثم أنذرت من قدم أهواءه ومَحَابّه على الله، واعتبرته من الفاسقين.

قال آخر: أمـا من خالف ذلك وقدم الله ورسوله على من سواه، فـقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة].

ففى الآية الكريمة من أصناف الثـواب والجزاء لمن ضحى بكل محبة وهوى أمـام محبة الله ورسوله ما يقصر عنه الوصف.

قلت: هم يذكرون السنة أكثر من ذكرهم للكتاب.

قال: فاذكر لهم منها قوله ﷺ: «والذى نفـسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1]، فقد جمع ﷺ فى هذا الحديث أصناف المحبة، وأمر بتقديم محبة رسول الله ﷺ عليها.

قال آخـر: وعندما قال عـمر بن الخطاب ﷺ لرسول الله ﷺ: «واللّـه يا رسول اللّه لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى»، قال له رسول اللّه ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسـه»، فقال عمر ﷺ: «فأنت الآن واللّه أحب إلىّ من نفـسى»، فقال رسول اللّه ﷺ: «الآن يا عمر»[2].

قال آخر: وأخبر ﷺ أن حلاوة الإيمان لا تتـحقق إلا لمن قدم محبة الله ورسوله على من سواهما، قال ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيـه وجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سـواهمـا، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبـهُ إلا لله، وأن يكرَهَ أن يعود فى الكفر كـما يكره أن يُقذف فى النار»[3].

قال آخر: هذا الحديث أصل من أصول الإسـلام، وكله حديث عن الحب، وإخبار بأن الحب وما ينتج عنه من مشاعر هو أعمق أعماق الإسلام.

قلت: ابتعدوا عن النصوص.. وحدثوا عقلى ببراهين العقول[4].

---

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) رواه البخارى.

(3) رواه البخارى ومسلم.

(4) حاول العلماء ـ كما فعلوا مع محبة الله ـ أن يبحثوا فى الأسباب الدافعة لحب رسول الله ﷺ، وهى كما نرى لا يمكن حدها بأسباب معينة، فلكل شخص دوافعه الخاصة، والتى تختلف باختلاف درجة حبه لرسول الله ﷺ ودرجة قربه منه ودرجة تعرفه عليه ودرجة ترقيه فى مقامات الإيمان. =

= وأقل هذه الدرجات ما يبالغ فيه البعض من وصف الصورة الخلقية لرسول الله ﷺ في مدحه والثناء عليه بذلك والمبالغة فيه إلى درجة لا نرى أن رسول الله ﷺ يرضى عنها.

فرسول الله ﷺ مع ما أوتي من حسن الخلقة، والذي ذكره واصفوه، وأثنوا عليه به ليس هو الأصل الدافع للحب، فالحب المؤسس على الجسد قد يليق بالغواني ولا يليق برسول الله ﷺ.

فالترغيب الحقيقي في رسول الله ﷺ لا يكون بذكر صورته وشكله، وإنما بذكر خلقه وكمالاته، ومع ذلك لا نرى مانعا من ذكر صورته الخلقية لتكون مكملا لصورته الحقيقية لا أصلا لها.

وانطلاقا من هذا نرى بعض التشويه في شخص رسول الله ﷺ، والذي يمارسه البعض باسم إحياء السنة، فيتصور أن السنة هي طول اللحية وقصر القميص مع تجهم الوجه والتشدد في محله وغير محله.

وعلاج هذه الظاهرة بالوصف الشامل لرسول الله ﷺ، انطلاقا من قربه من ربه، وانتهاء بعلاقته التي شملت كل ما يمكن أن يؤسسه الإنسان من علاقات.

وهذا الوصف وحده ـ والذي يعتمد القرآن الكريم والسنة الصحيحة ـ كاف وحده لملء القلوب بمحبة رسول الله ﷺ، والتفاني في حبه.

ويمثل هذه المبالغة في وصف الهيئة الشكلية لرسول الله ﷺ نرى في المقابل بعض المبالغة في وصف مقاماته ﷺ الروحية وقربه من ربه وعلاقته بالخلق، حتى تحول رسول الله ﷺ بذلك إلى سر غامض، وتحولت رسالته إلى مجموعة ألغاز لا يفهمها إلا خاصة الخاصة، وكأن رسالة رسول الله ﷺ العامة الشاملة خاصة بهذه الثلة القليلة التي تفردت بالتعمق في حقيقتها.

وإلى هذين المعنيين، وإلى هذين الفريقين أشار ﷺ بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم وقولوا: عبدالله ورسوله».

وهذا نهي صريح منه ﷺ عن وصفه بما ليس فيه من الصفات التماسا لمدحه، كما وصفت النصارى عيسى عليه السلام بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلوا.

ويدخل فيه أيضا وصفه ببعض ما هو فيه مما ينتج خللا في التعرف عليه ﷺ، كمن يقتصر على وصف خلقته الجسدية، أو مقاماته الروحية، أو حياته في بيته، أو حياته مع صحابته، أو غزواته.

ولهذا استغل المستشرقون ما ورد في غزواته ﷺ لتصويره بصورة المحارب الذي لا يهدأ، والذي لا يكون له الوقت الكافي للتوجيه والتربية.

بل وقع في ذلك بعض المسلمين حين تصور الدين سيفا مرفوعا على كل هامة، وتصور الدعوة إلى الله وفتح القلوب على دينه حروبا وغزوات لا تنتهي.

وقد غفل هؤلاء عن الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في القرآن الكريم، أو التي تناقلها أهل الكتاب في كتبهم، وكلها ترجع إلى الرحمة واللطف وحسن المعاملة مع جميع الخلق.

فهذه هي أوصاف رسول الله ﷺ في القرآن الكريم، قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

فالله عز وجل في هذه الآية الكريمة ذكر له اسمين من أسمائه الحسنى، قال الحسين بن الفضل: «لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ؛ فإنه قال: ﴿...بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وقال: ﴿...إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

وفي آية أخرى يمن عليه بالرحمة التي ملأ بها قلبه، قال عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]

فالرحمة هي خلق رسول الله ﷺ الذي تنبع منه كل أخلاقه، كما قال الحسن البصري رضي الله عنه: «هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به»، بل كما قال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»، بل كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

ولهذا عندما قيل له ﷺ: «يا رسول الله ادع على المشركين»، قال ﷺ: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة».

قلت: فما قال؟

قال: لقد قال: «إن محبوب الإنسان إما نفسه وإما غيرها، أما نفسه فهو أن يريد دوام بقائها سالمة من الآفات، وهذا هو حقيقة المطلوب وأما غيرها فإذا حقق الأمر فيه فإنما هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المختلفة حالا ومالا فإذا تأمل النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ الذى أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إما بالمباشرة وإما بالسبب علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدى فى النعيم السرمدى وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره لأن النفع الذى يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره ولكن الناس يتفاوتون فى ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه»[1].

قلت: عرفت دلالة العقل على هذا الحب.. فما ثمراته؟

قال أحدهم: هذا الحب هو المحرك لكل خير، الدافع لكل كمال.

قال آخر: ولهذا كان الاتباع الحقيقى لسنة رسول الله ﷺ هو الاتباع الصادر عن المحبة.

قال آخر: ويدل على هذا قوله ﷺ لأنس بن مالك: «يا بنىَّ إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس فى قلبك غشٌ لأحدٍ فافعل»، ثم قال له: «يا بُنَىَّ وذلك من سنتى، ومن أحيا سنتى فقد أحبنى، ومن أحبنى كان معى فى الجنة»، فقد أخبر ﷺ أن علامة حبه له ﷺ إحياء سنته، فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله.

قال آخر: ويدل على هذا كذلك كل الأحاديث التى تبين مواصفات القريب من رسول الله ﷺ، وهى فى مجموعها تدل على الخصال الكبرى التى كان يتصف بها رسول الله ﷺ من الأخلاق الفاضلة التى مدحه بها ربه، فقال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

قال آخر: الخلق العظيم هو السنة التى كان عليها رسول الله ﷺ، وهى التى أخبر بالأجر الجزيل لمن أحياها، ودليل ذلك الأحاديث التى تبين موصافات القريب منه ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ فى هذا الحديث الصحيح الصريح: «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون».

(1) فتح البارى: 1/60.

قال آخــر: وفى أحاديث أخـرى يجعل القريب منـه هو القريب من المستـضعـفين من الناس، كقوله ﷺ ترغيـبا فى الاهتمام بتربية البنات: «من عـال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه»، وقوله ﷺ فى كفالة الأيتام: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى».

قال آخر: وفى حديث آخر يذكر فضل المرأة التى تحبس نفسها على أيتامها، قال ﷺ: «أنا وامرأة سـفعاء الخـدين كهاتين يوم القـيامة وأومـأ يريد بالوسطى والسبـابة امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا».

قلت: أرى قوما يقصرون المحبة على ما يتصورونه إحياء السنة.

قال أحدهم: عـلامة إحياء السنة الحـقيقى هو أن يعيش حـياة رسول الله ﷺ بقيـمها ومبـادئها وسموهـا، وهو يستحضـر رسول الله ﷺ فى كل حركـة من حركاته. حـتى كأنه يشـاهده عيـانا، وبذلك يكون رســول الله ﷺ هو دليله الأعظـم على الله، وعلى الأدب مع الله.

قال آخـر: وهذا ما كان يعـيشه الربانيـون ويستشـعرونه، وهو المراد من إخـبارهم عن اجتماعهم برسول الله ﷺ، يقول الشيخ عبد الوهاب الشعرانى: «سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: لا يكمل عبد فى مقام العـرفان حتى يصير يجتمع برسول الله ﷺ أى وقت شاء».

قـال آخر: لقـد ذكر الشـيخ جـلال الدين السيـوطى ذلك ثم قـال: «رأيت النبى ﷺ واجتمعت به نيفا وسبعين مرة».

قال آخر: ويذكـر عن الشيخ إبراهيم المتبـولى أنه كان لا يحصى اجتـماعه به ﷺ لأنه كان يراه فى أحواله كلها ويقول: «ليس لى شيخ إلا رسول الله ﷺ».

قال آخر: ويذكر عن الشيخ أبى العباس المرسى أنه كان يقول: «لو احتجب عنى رسول الله ﷺ ساعة ما عددت نفسى من جملة المؤمنين».

قلت: كيف هذا؟

قال أحدهم: هذا الاجـتماع ـ الذى لا ينكره إلا معـاند ـ دليل على الحب المتغلغل فى الصدر لـرسول الله ﷺ لأن عـين القلب والروح لا ترى إلا ما تحـبه، وقـد كان خيـال ليلى يرتسم فى عين قلب المجنون فى كل محل.

لم أجد ما أقول، فراح أحدهم ينشد بصوت عذب قصيدة البرعى التى يقول فيها:

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا ... فليس لي معدلٌ عنهم وإن عدلوا
هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا ... والمالكون لقلبي كيفما فعلوا
فليعلموا أن ودي ما يغيرهم ... تغير من سجاياهم ولا ملل
وكل شيء سواهم لي به بدلٌ ... عنهم وما لي بهم من غيرهم بدلُ
إني وإن فتتوا في حبهم كبدي ... باقٍ على وُدِّهم راضٍ بما فعلوا
شربت كأس الهوى العذري من ظمأ ... ولذّ لي في الغرام العلُّ والنهلُ
فليت شعري والدنيا مفرقةٌ ... بين الرفاق وأيام الورى دُوَلُ
هل ترجع الدارُ بعد البعد آنسةً ... وهل تعودُ لنا أيامُنا الأوَلُ
يا ظاعنين بقلبي أين ما ظعنوا ... ونازلين بقلبي أين ما نزلوا
ترفقوا بفؤادي في هوادجكم ... راحت به يوم راحت بالهوى الإبلُ
فوالذي حَجّت الزوارُ كعبتَه ... ومن ألمَّ بها يدعو ويبتهلُ
لقد جرى حُبُّكم مجرى دمي قدمي ... بعد التفرقِ في أطلالكم طَلَلُ
لم أنس ليلة فارقت الفريق وقد ... عانوا الحبيب عن التوديع وارتحلوا
لما تراءت لهم نار بذي سلم ... ساروا فمنقطعٌ عنها ومتصلُ
لا درَّ درُّ المطايا أينما ذهبت ... إن لم تُنخ حيث لا تثني لها العُقلُ
في روضة من رياض الجنة ابتهجت ... حسنا وطاب بها للنازل النزل
حيث النبوة مضروبٌ سرادقها ... وطالع النور في الآفاق يشتمل
وحيث من شرّف اللهُ الوجودَ به ... فاستغرق الفضلَ فردًا ما له مثلُ
محمد سيد السادات من مضرٍ ... سرُّ السرارة شمسٌ ماله طَفَل
شوارد المجد في مغناه عاكفة ... وريف رأفته غصنُ الجَنَى الخضِلُ
تثني عليه المثاني كلما تليت ... كما استنارت به الأقطار والسُّبُلُ
بحرٌ طوارقه برٌّ ومكرمةٌ ... بدرٌ على فَلَك العلياء مكتملُ
ما زال بالنور من صلب إلى رحمٍ ... من عهد آدم في السادات ينتقلُ
حتى انتهى في الذُّرى من هاشمٍ وسَمَا ... فتىً وطفلاً، توفّى وهو مكتهلُ
فكان في الكون لا شكلٌ يُقاسُ به ... ولا على مثله الأقطار تشتملُ
به الحنيفةُ مُرساةٌ قواعدُها ... فوق النجوم ونهج الحق معتدلُ
ومنه ظلُّ لواء الحمد يشملنا ... إذا العصاةُ عليهم من لظى ظُلَلُ
وإنه الحكم العدل الذي نُسخت ... بدين ملّته الأديان والمللُ
يا خير من دفنت في الترب أعظمه ... فطاب من طيبهن السَّهلُ والجبلُ

نفسى الفداء لقبرٍ أنت ساكنه | فيه الهدى والندى والعلم والعملُ
أنت الحبيب الذى نرجو عواطفه | عند الصراط إذا ما ضاقت الحيلُ
نرجو شفاعتك العظمى لمُذنبِنا | بِجَاهِ وَجْهِك عنا تغفَرُ الزّلَلُ
يا سيدى يا رسول الله خذ بيدى | فى كل حادثة ما لى بها قِبَلُ
قالوا نزيلك لا يؤذى وها أنا ذا | دمى وعرضى مباحٌ والحمى هَمَلُ
وذا المسمى بك اشتد البلاء به | فارحم مدامعه فى الخدِّ تنهملُ
وحُلَّ عقدة هَم عنه ما برحت | واشرح به صدر أم قلبُها وَجِلُ
وَصِلْ بمرحمةِ عبدالرحيم وَمن | يليه لا خاب فيه الظنُّ والأملُ
صلى وسلم ربى دائمًا أبدا | عليك يا خير من يَحْفَى وينتعلُ
والآل والصحب ما غنّت مطوقةٌ | وما تعاقبت الأبكارُ والأُصُلُ

وأنشد آخر يقول:

لطيبة عرج إن بين قبابها | حبيب لأدواء القلوب طبيب
إذا لم تطب فى طيبة عند طيب | به طابت الدنيا فأين تطيب؟

تركتهم على تلك الحال، وانصرفت، لأسجل هذه الكلمة فى هذا المحل.

قلت: ألا تعرف أسماءهم؟

قال: لو عرفتها لسجلتها، ولكنى كلما قلبت هذا الدفتر على هذا المحل رأيتهم وسمعتهم كعهدى بهم أول مرة.

**التعظيم:**

قلت: حدثتنى عن الكلمة الأولى، فحدثنى عن الثانية.

قال: الكلمة الثانية هى التعظيم. . انظر فى الدفتر إنها تلى كلمة الحب مباشرة.

قلت: لم كانت كذلك؟

قال: لأنه لا يعظم فى عين الحبيب إلا محبوبه.

قلت: فهل تروى قصة عن هذه الكلمة؟

قال: أروى فى ذلك قصصا، لكنى سأقتصر لك على واحدة منها.

قلت: فحدثنى عنها.

قال: فى بلد من بلاد الله رأيت رجلا عليه سيما الوقار، وعلى جبينه نور يملأ النفس هيبة وجمالا، وكان فى طريقة يسير كما يسير سائر الناس، ولكنه فجأة انحنى على ورقة مرمية على الأرض، فمسح عنها الأذى، ثم قبلها، ثم وضعها فى جيبه، فحدثت نفسى بأن أتبعه لأرى سر تلك الورقة.

فى طريقى خلفه رأيته يدخل حانوت عطار، ويشترى بعض المسك، ثم يخرج تلك الورقة، ويعطرها بذلك المسك، فلم أجد نفسى إلا بجانبه، ولم أجد لسانى إلا وهو يقول له: ما شأن هذه الورقة التى لقيت منك كل هذا التعظيم.

لم يحتج إلى وقت يفكر فيه، بل أجاب مباشرة: هذه ورقة فيها اسم لحبيب غال، واسم الحبيب لا ينبغى أن يهان.. بل ينبغى أن يعظم ويقدس، ويعطر بكل مسك.

قلت: من حبيك هذا الذى ملأته تعظيما ورفعة.

فأجابنى على الفور: محمد..

قلت: تقصد نبى المسلمين؟

قال: أجل.. وهل هناك من حمدته السماء والأرض غيره، فصار محمود الكل.

قلت: لقد ذكرتنى بقول الشاعر:

المصطفى ما زال يعلو قدرُهُ ... حتَّى غدا فى الكون مِسكًا عاطِرًا

ما قلت هذا حتى شعرت بجميع أعضائه ترتعد هيبة، ثم راح يقول بصوت امتزج فيه الحب بالتعظيم بالأشواق:

(المصطفى ما زال يعلو قدرُهُ) ... فسما الزمانَ أوائلا وأواخرا
طهِّر فؤادك من شوائب غيِّه ... حتَّى تقابلهُ فؤادًا طاهرًا
يا سيدى ولقد غدوتُ مناجيًّا ... عمرى وبتُّ مع الجلال مسامرا
كم من صغير جاء حبَّك تائبا ... أضحى يسودُ من الرِّجال أكابرا
والله ما طرأ العناءُ وسامنى ... إلا وأذكُرهُ فأُصبِحُ ظافراَ
فاذا نهَلتُ نهلتُ من نور الهدى ... وإذا سكِرتُ سكرتُ علمًّا ذاخراَ
واذا غفوتُ غفوتُ صبًّا مُغرمًا ... وإذا أفَقتُ رأيتَهُ لىَ ناظِراَ
وإذا خشيتُ من العدوِّ وكيده ... كان النبىُّ هو الملاذَ الناصراَ
عوَّدتنا منكَ الجميلَ فهب لنا ... منك الوصولَ ولا تردَّ الزائراَ
أنا إن أكُن جسما بعيداً إنَّما ... رُوحي من النجوى تفيضُ سرائراَ
أرسلتُها بِفَمِ النسيمِ شهيدةً ... وتَزِفُّ باسمِكُمُ السَّلامَ العاطِراَ
فلكم فقيرٍ عزَّ باسمكَ جاهُهُ ... أمسى يُساجِلُ فى الملوك القياصراَ
ولَكَم ذليلٍ نَالَهُ من جاهِكُم ... قَدرٌ فأصبحَ بالمذلَّة قاهِراَ
ولَكم عَيِىٌّ قَد نظرتَ لروُحه ... فَروَى المعارفَ ناثرًا أو شاعراَ
قَولى هُو الحَقُّ الصَّريحُ فَلَم أكُن ... أرجو بمَدحك أن أسُودَ مَظَاهِراَ
لم أنسَ حُبَّكَ ما حَييتُ وإن أمُت ... أجِدُ الغرامَ علىَّ مُدَّ منابِراَ

إن كنتُ صبًّا أكتمُ الوجدانَ في ... قَلبي يظنّوني بحُبِّكَ فاترا

أنا هائمٌ ومن المحبّةِ هائجٌ ... كالرِّيحِ قد أزجى السَّحابَ الماطرا

فأصبُّ في الاحساسِ من مُهَجِ الوَرَى ... حِكَمًا تُقَلِّبُهَا القُلُوبُ مَزاهرا

يا هَذه الأيّامَ انّي ليس لي ... إلا رسُولُ الله سِرًّا ظاهرا

أنا كُلُّ شيءٍ في الحياةِ تركتُهُ ... ووَقَفتُ نفسي للنَّبيِّ مُثابرا

والوقفُ لا يُشرَى وليسَ يُباعُ في ... حالٍ يدومُ إلى القيامةِ حاضرا

أنا باسمِكُم وإلى اسمِكُم ولِوَسمِكُم ... في رَسمِكُم قَلبي علَى الشِّعرى سَرَى

لم أنسَ أيّامَ الطُّفولَةِ حَيثُما ... كُنتَ المُؤمَّلَ لي كُنتُ الظافرا

مَا زالَ حُبُّكَ باقيًا في مُهجتي ... يُضفي عليَّ من اليقينِ سرائرا

ولقد غسلتُ بواطني وظواهري ... في حُبِّهِ حتى نُسِبتُ الطّاهرا

نُورُ النَّبيِّ إذا تمكن من فتىً ... لم يُبقِ فيه صغائرًا وكبائرا

نُورُ النَّبيِّ إذا تمكن من فتىً ... ألفيتَه بينَ البرية ظاهرا

فاذا رُزقتُ محبةً فبفضله ... واذا كَسَبتُ فقد كَسَبتُ جواهرا

قُل لي عليكَ صلاتُنا وسَلامُنا ... حتّى أعُود على المَحبَّةِ شاكرا

أرضَيتَني كَرَمًا وصَاحَبَني الرِّضا ... حتّى وصلتُ فلستُ أسلُكُ حائرا

ما زالَ فضلُكَ في البريَّةِ سائرًا ... يسمو ويزكو بالنفوسِ ضمائرا

ولكم أراهُ في العوالِمِ صاعِدا ... حتّى غدا في الكونِ مِسكًا عاطرا)

تعجبت من حضور بديهته، وانصياع الشعر له، فسألته: من أنت؟

قال: على عقل.

قلت: ذلك القطب الربانى، صاحب الفيوضات الصمدانية، والعلوم اللدنية. ذلك الملهم الذى ينساب الشعر من فمه كما ينساب الماء الزلال.

قال: هم يقولون هذا.

قلت: بأى بركة نلت هذا؟

قال: ببركة الحبيب..

قلت: وبأى بركات الحبيب نلت ذلك؟

قال: ببركة التعظيم..

قلت: لا يعظم إلا الله.. فكيف رحت تشرك بالله؟

قال: أرأيت لو أن فنانا مبدعا أراك لوحة من لوحاته فى منتهى الجمال، فرحت تهينها وتحتقرها، فإذا سألك عن ذلك قلت له: أنا أهينها حتى لا يبقى عظيما فى عينى غيرك.. أترى هذا عين العقل؟

قلت: بل أراه عين الحمق.. ولن أنال من هذا الفنان إلا الازدراء.

قال: لم؟

قلت: لأنى احتقرت صنعته.. ولا يمكن أن أشعره بتعظيمى له إلا من خلال تعظيمى لصنعته.

قال: وهكذا الأمر مع محمد ﷺ.. فهو عصارة الجمال التى أمرنا الله بعبوديته من خلال التأمل فيها وتعظيمها وامتلاء قلوبنا بمحبتها.. فلو أهناها لأهننا الله.

قلت: ولكن الحريصين على صفاء التوحيد يخالفونك فى هذا.. ويعتبرون كل هذا شركا.

قال: فاقرأ عليهم قوله عز وجل للنبى ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح].

قلت: فما فى هذه الآيات؟

قال: فى هذه الآيات يأمر الله الأمة بتعظيم محمد، ويربط الفلاح بذلك.

قلت: فما الفرق بين المسلمين والمسيحيين فى هذا.. ما دام المسيحيون يعظمون المسيح، والمحمديون يعظمون محمدا.

قال: الفرق بينهما عظيم.. فالمحمديون يعظمون محمدا عبودية لله، وتحقيقا لأمر الله، وفيضا من فيوضات تعظيم الله.. بينما المسيحيون يعظمون المسيح لذات المسيح.. فيجعلون للمسيح شركة فى الألوهية.

قلت: وتعظيم المسلمين؟

قال: أرأيت لو أنك أرسلت رسولا برسالة لقوم من الناس، فأهانوا رسولك، واحتقروه مع علمهم بأنه رسولك؟

قلت: هم يحتقروننى بذلك ويهينوننى.

قال: فلذلك ربط الله عز وجل طاعته بطاعة رسوله، وتعظيمه بتعظيم رسوله، ومحبته بمحبة رسوله.

لقد قال الله عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء].

قلت: فرق عظيم بين الطاعة والتعظيم.

قال: فقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ

شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴿٦٢﴾ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴿٦٣﴾﴾ [النور]

قلت: فما فى هذه الآية مما نحن فيه؟

قال: فيها كل ما نحن فيه.. فالله عز وجل فى هذه الآيات يأمر بتعظيم النبى ﷺ، وعدم التعامل معه كما يتعامل الناس بعضهم مع بعض.

لقد قال ابن عباس فى تفسير الآيات: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل، عن ذلك، إعظامًا لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبى الله.

وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يُبجَّل وأن يعظَّم وأن يسود[1].

بل إن الله عز وجل نهى المؤمنين عن كل سلوك لا ينسجم مع الأدب مع رسوله، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].. وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴿١﴾ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴿٢﴾ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴿٣﴾ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴿٤﴾ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم ﴿٥﴾﴾ [الحجرات].

بل إن الله عز وجل شرع لمناجاة النبى ﷺ من باب التعظيم له تقديم صدقة على ذلك، فقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة].

قلت: وعيت كل ما ذكرته من القرآن.. ولكن هؤلاء الحريصين على صفاء التوحيد لا يرجعون للقرآن بل يرجعون لهدى السلف.

قال: ومن السلف؟

قلت: الصحابة.. ومن بعدهم من القرون الأولى.. فهم يعتبرون فهمهم هو الفهم.. وتفسيرهم هو التفسير.

---

(1) هذا هو المعنى الأول فى تفسير قوله عز وجل: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا... ﴿٦٣﴾﴾ [النور]، والمعنى الثانى: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصرى، وعطية العوفى.

وهذا المعنى أيضا من التعظيم، وهو من أقوى الأدلة على جواز التوسل بالنبى ﷺ بل استحبابه، باعتبار التوسل نوعا من طلب الدعاء من المتوسل إليه.

قال: فأخبـرهم عن قول ذلك الصحابي في حديثه الطويـل: «وما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيقُ أن أملأ عيني منهُ إجلالاً له، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه».

وأخبـرهم عن قول أنس أن رسـول الله ﷺ كان يخرج على أصـحابه من المهـاجرين والأنصـار، وهم جلوس فيـهم أبو بكر وعمـر، فلا يرفع أحـدٌ منهم إليه بصـره إلا أبو بكر وعمرُ، فإنهما كانا ينظران إليه، وينظر إليهما، ويبتسمان إليه، ويبتسمُ لهما.

وأخبرهم عما حصل لما أذنت قريش لعـثمان في الطواف بالبيت حين وجهه النبي ﷺ إليهم في القضية، فأبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وقد وصف حـال الصحابة رضي الـله عنهم في جلوسهم أمام رسـول الله ﷺ بأنهم «وكأنهم على رؤوسـهم الطير»[1]، وفي روايات أخرى: «إذا تكلم أطرق جلسـاؤه وكأنما على رؤوسهم الطير» وهو كناية عن «السكون والوقار وأنهم لم يكن فيهم طيش ولا خفة لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شيء ساكن»[2].

وقد كانوا رضي الله عنهم ـ لحبهم الشديد له ـ يتبركون بآثاره وكل ما يرتبط به، فكان ﷺ لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليـه، ولا يبصق بصاقًا إلا تلقوه بأكفهم، فدلكوا به وجوههم وأجـسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا أمـرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّونَ إليه النظر تعظيمًا له.

وعندما رأى بعض المشركين ذلك منهم قال لقومه «يا مـعشر قريش، إني جئتُ كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجـاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه، وقد رأيت قومًا لا يسلمونه أبدًا».

وعن أنس قال: رأيت النبي ﷺ والحلاق يحلقه، وقـد أطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[3].

وعنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن رسول الله ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب عليه بحجـفة له، وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع لقد كسـر يومئذ قوسين أو ثلاثة، قال: وكـان الرجل يمر مـعه الجـعبة من النبل فـيقـول: انثرها لأبي طلحـة، قال: فأشـرف النبي ﷺ ينظر إلى القـوم، فقـال له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي يا رسـول الله، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك[4].

---

(1) وقد رويت في ذلك أحاديث كثـيرة، انظر: البخاري: 3/ 1045، ابن حبان: 16/ 185، الحاكم: 1/ 208، أبو داود: 4/ 3 وغيرها.

(2) عون المعبود: 10/ 239.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه البخاري.

سكت قليلا يستجمع أنفاسه، ثم قال: أخبـرهم بحديث أبى جحيفة عندما قال: خرج رسول اللـه ﷺ بالهاجرة فـأتى بوضوء فـتوضـأ، فجعل الـناس يأخذون من فضـل وضوئه فيتمسحون به[1].

وأخبرهم بحديث أنس عندما قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم أهل المدينة بآنيتهم فيـها الماء فلم يؤت بإناء إلا غمس يده فيه فربما فى الغداة جـاؤوا الباردة فيغمس يده فيها.

وأخبرهم بما روى أن أبا محذورة كانت له قصة فى مقدم رأسه يرسلها فتبلغ الأرض إذا جلس فقلنا له: ألا تحلقها؟ فقال: إن رسول الله ﷺ مسح عليها بيده، فلم أكن لأحلقها حتى أموت، فما حلقها حتى مات[2].

وأخبرهـم بما حدث به أبو سعيـد الخدرى عندما قال: كنت يومـا عند رسول الله ﷺ فأتى بتمر يفرقـه علينا وكنا ندنيه منـه ليمسه لما نرجو من بركة يده، فإذا رآه قـد اجتمع فرقه بيننا[3].

وروى البـخـارى عن عروة عن الـسـائب بن يـزيد ـ رضى الله عنه ـ قـال: ذهبت بى خالتى إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسـول الله، إن ابن أختى وقع فمسح رأسى، ودعا لى بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه. . الحديث.

وأخبرهم بما حدث به خـالد بن الوليد عندما قال: اعتمـرنا مع رسول الله ﷺ فحلق شعره فاستبق الناس إلى شـعره، فسبقت إلى الناصية فأخذتها فاتخـذت قلنـسوة فجعلتها فى مقدمة القلنسوة فما وجهت فى وجه إلا فتح لى[4].

وأخبرهم بما فعله مالك بن سنان لما أصيب رسول الله ﷺ فى وجهه يوم أحد. . حيث مص دم رسول الله ﷺ وازدرده فـقال له: (أتشـرب الدم؟) قال: أشـرب دم رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ: (من خالط دمى دمه لا يضره الله)[5].

قلت: هم لا يكتفون بالصحابة. . بل يشترطون أن يوافقهم على ذلك التابعون.

قال: فحـدثهم عن أخبار مالك بن أنس. . لقـد قال عنه مصعب بن عـبد الله: «كان مالك إذا ذكر النبى يتغير لونه وانحنى حـتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوما فى ذلك فقال: لو رأيتم مـا رأيت لما أنكرتم علىّ ما ترون لقد كنت أرى محمد بن المنـكدر وكان سيد القراء لا نكاد نسأله عن حديث أبدا إلا يبكى حتى نرحمه.

---

(1) رواه البخارى ومسلم.
(2) رواه أبو القاسم البغوى.
(3) رواه أبو سعيد بن الاعرابى.
(4) رواه أبو الحسن بن الضحاك وأبو يعلى بسند صحيح.
(5) رواه أبو على بن السكن.

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كـثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبى ﷺ اصفر لونه وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على طهـارة، ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليا، وإما صامتا، وإما يقرأ القرآن ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله.

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبى ﷺ، فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه فى فمه هيبة لرسول الله ﷺ.

ولقد كنت آتى عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذكر عنده النبى ﷺ بكى حتى لا يبقى فى عينيه دموع.

ولقد رأيت الزهرى، وكـان لمن أهنأ الناس وأقربهم فإذا ذكـر عنده النبى ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتى صفـوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهـدين، فإذا ذكر النبى ﷺ بكى فلا يزال يبكى حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

لم أجد ما أقول، فقلت له: هم لا يبالون إلا بالمحدثين.

قال: فأخبرهم عن تعظيم المحدثين لرسول الله ﷺ.. لقد حدث عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود فكان مما قال: وما سمعته قط يقول: قال رسول الله ﷺ إلا مرة، فنظرت إليه وقـد حل إزاره وانتفـخت أوداجه، واغرورقت عـيناه، فقـال: «أو نحو ذلك أو دون، أو قريبًا من ذلك، أو شبه ذلك».

وقال ضـرار بن مرة: «كـانوا يكرهون أن يحدثوا عن رســول الله ﷺ وهم على غـير وضوء»، قال إسحاق: فرأيت الأعمش إذا أراد أن يتحدث وهو على غير وضوء تيمم.

وكان مالك يلبس أحـسن ثيابه، ويتطيب، ويأخذ زينته للتحـديث بحديث رسول الله ﷺ.

وقال ابن أبى الزناد: كان سـعيد بن المسيب، وهو مريض، يقول: «أقـعدونى ؛ فإنى أكره أن أحدث حديث رسول الله ﷺ وأنا مضطجع».

ومرّ مالك بن أنس على أبى حازم ـ وهو يحدث ـ فجازه، وقال: «إنى لم أجد موضعًا أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم».

وكان محمد بن سيرين يتحدث فيضحك، فإذا جاء الحديث خشع.

وقال سـعيد بن عامـر: «كنا عند هشام الدستـوائى فضحك رجل منا، فقـال له هشام الدستوائى: تضحك وأنت تطلب الحديث!؟

بينما نحن كـذلك إذا بنا نرى رجلين يتشاجـران، وأخذ أحدهما يسب الآخـر، وكان اسمه محمدا. فـتغير صاحبى تغيرا شديدا، واحمر وجهـه، وسقطت دموع حارة من عينيه،

ثم اندفع إليهمـا ينهرهما، ويحذرهما من سب النبى ﷺ، فقـال الساب: أنا لم أسب نبينا.. ولكنى سببت هذا الرجل الذى لم يحفظ حرمة اسمه.

فتوجه إلى المشتوم، وقال: إن لم تترك ما أنت فيه فدع عنك هذا الاسم العظيم.

قال: هو اسم سمانى به أبى، وما كنت لأدعـه لقولك، أو لقول أحد من الناس، فمن سبنى باء بإثمى.

قال صاحبى: ألم تعلم ما روى من نهى عمر عن التسمى باسم محمد؟

قال الرجل: لا أعلم إلا أنه يستحب التسمية بأسماء الأنبياء والصالحين.

قال: لمن حفظ حرمتـهم.. لقد ذكر أن عمر رضي الله عنه سمع رجلاً يقول لمحمد بن زيد بن الخطاب: «فعل الله بك يا محمد» فدعاه فقال: «أرى رسول الله ﷺ يسب بك والله لا تدعى محمداً ما بقيت» وسماه عبد الرحمن.

وقد ورد فى هذا المعنى حـديث جاء فيه: «يسمونهم محمدا ويلعنونهم»[1].

قال ذلك، ثم انصرف، وهو يقول: عذرك يا رسول الله.. عذرك يا حبيب الله.. لا تؤاخذنا بفعل السفهاء.

ندم الرجلان، وأخـذا يعتـذران إليه.. تركتـهمـا كذلك، وانصرفت وفـى نفسى ألم عظيم.. فالمسـيح بين قومنا يهان ويحتـقر وتمثل الأفلام التى تسىء إليه، ولا أحـد من أدعياء حب المسيح يتحرك أو تأخذه الغيرة.

**الالتجاء:**

قلت: فما الكلمة الثالثة؟

قال: الالتجاء.

قلت: ما تقصد بالالتجاء؟

قال: المحب الشـغوف بحبـيبه لا يصـبر على فراقـه، ولهذا تراه يحن إليـه كل حين، ويلتجئ إليه فى كل مناسبة.

قلت: ذاك قد يصح مع حبيب حى.. ولكنه لن يصح أبدا مع حبيب ميت.

قال: إن المحبوب يموت عند جميع الناس إلا عند من يحب.. فإنه يظل حيا، ولذلك لا حرج عليه أن يلتجئ إليه.

قلت: ولكن الناس يضحكون عليه حينذاك، وقد يرمونه بالجنون.

قال: المحب الصادق يستلذ جنونه فى محبوبه.

قلت: عـد بنا إلى هذه الكلمـة وعلاقـتهـا برسول الله ﷺ.. وعـلاقـتـها بعـد ذلك بالأولياء.

---

(1) قال الطبرى: وهو ضعيف لأنه من رواية الحكم بن عطية عن ثابت عنه.

قال: لقد لاحظت من خلال معايشتي لبعض هؤلاء أولياء، أو كتاباتهم، أنهم لا يتعاملون فى علاقتهم برسول الله ﷺ إلا كما يتعامل الأحياء مع الأحياء.

قلت: ألا يعتقدون موته!؟.. فإن كان ذلك، فاقرأ عليهم قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر].

قال: قد قرأت عليهم قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

قلت: ما علاقة هذا بذاك؟

قال: ألم يخبر الله عز وجل عن موت الشهداء؟

قلت: بلى.. فقد قال عز وجل: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران]، وقال عز وجل: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران].

قال: ألا ترى أن الله عز وجل الذى أخبر بموتهم هو الذى أخبر بحياتهم؟

قلت: بلى..

قال: فكذلك الأمر مع رسول الله ﷺ..

التفت إلى، وقال: ثم ألا تعجب أن نقول بحياة الشهداء، ثم لا نقول بحياة سيد الشهداء.

قلت: فلنفرض أنى وعيت ما ذكرت، فما ينتج عنه؟

قال: ألم تقرأ قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء]!؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: سأقص عليك قصة تعلق بها أولياء الله، فراحوا يعيشونها.

قلت: حدثنى عنها.

قال: ذكر الحافظ السمعانى عن على ـ رضى الله عنه ـ قال: قَدِمَ علينا أعرابى بعدما دفنّا الرسول ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبى ﷺ، وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله، قُلتَ فسمعنا قولك، ووعيتَ عن الله ما وَعينا عنك، وكان فيما أنزلَ عليك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء]، وقد ظلمت نفسى، وجئتك تستغفر لى، فنودى من القبر: أنه قد غُفِر لك[1].

---

(1) ورواها بنحو لفظها: الإمام البيهقى فى شعب الإيمان 3/ 495، وانظر: سبل الهدى والرشاد 12/ 380، وفاء الوفا 4/ 1361، وأبو اليمن ابن عساكر فى إتحاف الزائر ص 68/ 69، وابن النجار فى الدرة الثمينة، ص224، وابن حجر الهيتمى فى تحفة الزوار ص55.

وفى رواية أخرى عن أبى شبل محمد بن النعمان بن شبل الباهلى قال: دخلتُ المدينة فانتهيتُ إلى قبر النبى ﷺ، فإذا أعرابى يُوضع على بعيره، فأناخه وعقَله، ثم دخل إلى القبر الشريف، فسلَّم سلامًا حسنًا، ودعا دعاءً جميلاً ثم قال: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنّ الله خصّك بوحيه وأنزل عليك كتابًا جمع لك فيه علم الأولين والآخرين، وقال فى كتابه وقوله الحق: ﴿...وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء]، وقد أتيتك مقرًا بالذنوب، مستشفعا بك إلى ربك، فهو ما وعد.

ثم التفت إلى القبر، وقال:

يا خير من دفنت بالقاع أعظُمُه ... فطاب من طيبهنّ القاعُ والأكمُ
أنت النبى الذى تُرجى شفاعته ... عند الصّراط إذا ما زلّت القدمُ
نفسى الفداء لقبرٍ أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكَرَمُ

ثمّ ركب راحلته فما أشكُّ ـ إن شاء الله ـ إلا أنه راحَ بالمغفرة، ولم يُسمَع بأبلغ من هذا قط.

وذكر محمد بن عبد الله العُتبى هذا، وزاد فى آخره: فغلبتنى عيناى، فرأيت النبى ﷺ فى النوم، فقال لى: «يا عُتبى، الحق الأعرابى وبشّره أنّ الله قد غفر له»(1).

قلت: إن الفقهاء ينكرون مثل هذا.

قال: إن سيد الفقهاء مالك.. وكان يشعر هذه المشاعر فى مدينة رسول الله ﷺ وأمام قبره ﷺ.. وقد روى بالأسانيد الصحيحة أنه لما ناظر الخليفة أبو جعفر المنصور مالكًا فى مسجد رسول الله ﷺ، قال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك فى هذا المسجد، فإنّ الله عزّ وجلّ أدّب قومًا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات]، ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات]، وذم آخرين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات]، وإنّ حُرمته ميتًا كحُرمته حيًا.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، أستقبلُ القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟

فقال الإمام مالك: ولمَ تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلةُ أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به، فيشفّعك الله(1).

---

(1) رواها الإمام النووى فى (الإيضاح) ص454، وابن بشكوال فى (القربة إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين ﷺ) الورقة (16/ أ).

(2) ذكر هذه القصة: القاضى عياض بسنده فى الشفا: 2/ 41، والقسطلانى فى المواهب اللدنية، وأبو اليمن ابن عساكر فى إتحاف الزائر، ص153، والعز بن جماعة فى هداية السالك: 3/ 138 وقال الإمام الزرقانى=

قلت: أحسبنى وعيت ما ذكرته من هذا.. فما لازمه؟

قال: لازمه كل ما سمعته من مخاطبات الأولياء لرسول الله ﷺ وشكواهم إليه، فهم لا يشكون لميت.

قلت: إن من قومى من يعتبر ذلك شركا، وقد قال بعضهم[1] عن قول البوصيرى:

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

«هذا الشاعر يستغيث بالرسول ﷺ، ويقول له: لا أجد من ألتجئ إليه عند نزول الشدائد العامة إلا أنت، وهذا من الشرك الأكبر الذى يُخلد صاحبه فى النار إن لم يتب منه، لقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس]، أى المشركين، لأن الشرك ظلم عظيم، وقوله ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار»[2].

ابتسم، وقال: ما أعجب هؤلاء.. وما أسرعهم فى اتهام المؤمنين، بل الأولياء من المؤمنين بالكفر والشرك، ألم يسمعوا ما ورد فى التحذير من ذلك.

قلت: بلى.. سمعوا.. ولكنهم يعتقدون أن ما يذكرونه هو الحق الذى لا حق غيره.

قال: أفتراهم إذا جثوا بين يدى الطبيب يشكون حالهم إليه مشركون بذلك؟

قلت: لم يقل بهذا أحد من الناس.

قال: فكيف يزعمون إذن بأن من شكى لحبيبه وطبيبه حاله، يكون مشركا.

سكت قليلا، ثم قال: الشرك معروف، وهو ما يعتقده قومى حين يعتبرون المسيح إلها أو أقنوما من إله.

قلت: ولكنهم يتصورون مخاطبة رسول الله ﷺ ودعائه شركا، لأنه لا يُدعى إلا الله.

قال: ولم أر المسلمين يدعون غير الله عوامهم وخواصهم، فلا أحد منهم يعتقد إلها غير الله..

قلت: وهذا الخطاب الذى يتوجهون به لرسول الله ﷺ، وكأنهم يستغيثون به!؟

قال: هم يفعلون ذلك كما يفعل كل البشر مع الأطباء حين يستلقون أمامهم كما يستلقى الميت بين يدى الغسال ينتظرون منهم أن يكونوا واسطة للشفاء الذى يتزله الله، فالله هو الشافى، والطبيب واسطة.

---

=فى شرحه على المواهب اللدنية: 4/580 ردًا على من أنكرها: هذا تهوّر عجيب، فإنّ الحكاية رواها أبو الحسن على بن فهر فى كتابه (فضائل مالك) بإسناد حسن، وأخرجها القاضى عياض فى الشفا من طريقه عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه. فمن أين أنها كذب؟! وليس فى إسنادها وضّاعٌ ولا كذّاب.

(1) انظر: كتاب (معلومات مهمة من الدين) للشيخ محمد جميل زينو ص160 ـ 166.

(2) رواه البخارى.

ومثل ذلك محمد.. فالله هو الرحيم الرحمن.. وقد جعل من خلقه وسائط لرحمته.. ومنهم محمد.

قلت: هم يعتبرون ما تقوله شركا.

قال: ألا يؤمن هؤلاء بالشفاعة العظمى؟

قلت: بلى.. هم يؤمنون.. بل إنى أراهم يبدعون منكرها.

قال: فهى واسطة من الوسائط ووسيلة من الوسائل.

سكت، فقال: ألم يقرأوا حديث الأعمى؟

قلت: ابن أم مكتوم!؟

قال: لا.. الأعمى الذى حدث حديثه عثمان بن حنيف، حيث ذكر أن رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ، فقال: «ادع الله أن يعافنى»، فقال: «إن شئت أخرت ذلك وهو خير، وإن شئت دعوت»، قال: «فادعه» قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن، ثم يصلى ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء، فيقول: «اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى، اللهم شفعه فى وشفعنى فيه»[1].

قلت: بلى.. قرأوه.. ولكنهم قيدوه بصنوف من التأويلات جعلته خاصا بهذا الأعمى.

قال: ولكن ظاهره لا يحتمل أى تقييد.

قلت: لقد أول ابن تيمية هذا الحديث بصنوف من التأويلات وصرفه عن ظاهره، فقال: «وهذا الأعمى شفع له النبى ﷺ فلهذا قال فى دعائه: «اللهم فشفعه فى»، فعلم أنه شفيع فيه».

واستشهد بقوله ﷺ: «إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك» فقال: «ادع لى»، بأنه طلب من النبى ﷺ أن يدعو له، فأمره النبى ﷺ أن يصلى ويدعو هو أيضا لنفسه، ويقول فى دعائه: «اللهم فشفعه فى»، فدل ذلك على أن معنى قوله: «أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد»، أى بدعائه وشفاعته.

واستشهد بقول عمر ﷺ: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا»، وقال: «فالحديثان معناهما واحد فهو علم رجلا أن يتوسل به فى حياته، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه».

ومن استشهاده بحديث عمر ﷺ قوله: «فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء والمتوسل به الذى دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول لم يعدلوا عن التوسل به وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه وأقربهم إليه وسيلة إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله».

(1) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ابتسم، وقال: لا أرى أى تناف بين الجمع بين دعاء رسول الله ﷺ ودعاء غيره، فإن الدعاء كلما كثر، واشتد الإلحاح فيه، كلما ازداد اليقين بتحقق إجابته.

أما إخبار عمر رضي الله عنه بأنهم كانوا يستشفعون فى حياته ﷺ به ﷺ فى ذلك الموقف، فلأنه كان يريد الاستشفاع بالعباس رضي الله عنه، وهو حى أمامه، وهو لا يتنافى مع التوسل، فالاستشفاع أو طلب الدعاء قد يحتاج إلى اشتراط الحياة بخلاف التوسل الذى لا يحتاج إلى هذا الشرط.

قلت: ومما أول به ابن تيمية الحديث قوله: «وكذلك لو كان كل أعمى توسل به، ولم يدع له الرسول ﷺ بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره وهم فى وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه».

ابتسم، وقال: سأجيبك على هذا من من جهتين:

الأولى هى أن من الصحابة رضي الله عنهم من رضى بحاله، ولم يسأل الله تغييره رضىً بقسمة الله، بل فى حديث الأعمى دليل على استحباب ذلك، وقد ورد فى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبى ﷺ، وبها طيف، فقالت: «يا رسول الله إنى أصرع، وأتكشف، فادع الله أن يشفينى»، فقال: «إن شئت دعوت لك أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة»، فقالت: «بل أصبر ولى الجنة، ولكن ادع الله لى أن لا أتكشف»، فدعا لها فكانت لا تتكشف[1].

والثانية: أن اشتراط تأيد كل ما ورد من الأحاديث القولية أو الفعلية لرسول الله ﷺ بالآثار الدالة على الفعل به من الصحابة رضي الله عنهم يكلفنا شططا، بل يلغى أكثر السنن.

فلذلك يكتفى العلماء كلهم ـ بما فيهم ابن تيمية ـ بما ورد من الأحاديث، بل يرون أن فى خلاف الصحابة رضي الله عنهم للأحاديث دليل على عدم بلوغ الحديث للصحابة، لا دليلا على ضعف الحديث أو صرفه عن حقيقة معناه.

وقد جعل ابن تيمية نفسه ـ هذا المعنى ـ من أسباب الخلاف الفقهى فى كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، بل اعتبره أول الأسباب، فقال: «السبب الأول أن لا يكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالما بموجبه، وإذا لم يكن قد بلغه وقد قال فى تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر أو بموجب قياس أو موجب استصحاب فقد

---

(1) رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

يوافق ذلك الحديث تارة ويخالفه أخرى وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفا لبعض الأحاديث فإن الإحاطة بحديث رسول لله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة».

ثم ذكر أن النبي ﷺ كان يحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل الشيء، فيسمعه أو يراه من يكون حاضرا ويبلغه أولئك أو بعضهم لمن يبلغونه، فينتهي علم ذلك إلى من يشاء الله من العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ثم في مجلس آخر قد يحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل شيئا ويشهده بعض من كان غائبا عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن أمكنهم، فيكون عند هؤلاء من العلم ما ليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء ما ليس عند هؤلاء.

ثم ذكر أن تفاضل العلماء من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم بكثرة العلم أو جودته لا بالإحاطة بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لا يمكن ادعاؤه.

ثم ذكر نموذجا على هذا بالخلفاء الراشدين الذين هم أعلم الأمة بأمور رسول الله ﷺ وسنته وأحواله، فإن عمر رضي الله عنه - والذي استدل ابن تيمية بحديثه على إنكار التوسل برسول الله ﷺ بعد موته - لم يكن يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى، واستشهد بالأنصار، ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها، بل يرى أن الدية للعاقلة حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان وهو أمير لرسول الله ﷺ على بعض البوادي يخبره أن رسول الله ﷺ ورث امرأة اشيم الضبابي من دية زوجها، فترك رأيه لذلك وقال: «لو لم نسمع بهذا لقضينا بخلافه»، ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب».

ولما قدم سرغ وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ثم مسلمة الفتح فأشار كل عليه بما رأى ولم يخبره أحد بسنة حتى قدم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فأخبره بسنة رسول الله ﷺ في الطاعون وأنه قال: «إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه».

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على احتمال أن ما ذكره عمر رضي الله عنه ناتج عن عدم سماعه لحديث الأعمى.

قلت: فلم لم ينكر عليه.. ولم لم يخبر بالحديث كما خبر في الآثار السالفة؟

قال: لأن ما قاله عمر لا يريد به التوسل بمعناه الاصطلاحي، وإنما يريد به طلب الدعاء من الحي، أما عدم إخباره بما ورد في حديث الأعمى، فقد لا يكون الراوي حاضرا، حتى يبلغه.

قلت: مما استدل به ابن تيمية في التفريق بين حياته وموته ﷺ أنه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر، بل هو خير بلا شر، وليس في ذلك محذور ولا

مفسدة، فإن أحدا من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم يعبد في حياته بحضوره، فإنه ينهى من يعبده ويشرك به، ولو كان شركا أصغر كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له، أما بعد موته، فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح والعزير وغيرهما.

قال: إن هذا يختلف باختلاف المتوسل واعتقاده، فإن كان يعتقد الوساطة الشركية، فهو حرام، بل قد يكون كفرا، أما إن أراد به التوسل الإيماني الذى هو استشعار محبة رسول الله ﷺ وشفقته على أمته والتوسل بهما إلى الله، فإن فى ذلك من المصالح الإيمانية والتربوية ما لا يصح طرحه من أجل هذه المفسدة المشكوكة.

ثم لو طرحت أحكام الشريعة بهذا الأسلوب، فإن الكثير من الأحكام قد تتعرض للإلغاء خوفا من المفاسد التى قد تنجر عنها.

قلت: وعيت كل هذا.. ولكن لم لم يكن هذا النوع من الوساطة شركا.

قال: إن ذلك ينبع من معين اسم عظيم من أسماء الله الحسنى هو اسم الشكور.

قلت: الشكور!؟.. أجل هو اسم من أسماء الله الحسنى.

قال: فما يفعله الأولياء فى هذا الباب من التعامل مع النبى ﷺ ينبع من معين هذا الاسم.

قلت: لم أفهم.. كيف ذلك؟

قال: إن اسم الله الشكور يقتضى مجازاة الله عباده على أعمالهم الصغيرة بالعوض الكبير المجانس لأعمالهم ورغباتهم[1].

ومن هذه النافذة تفهم النصوص المجيزة للتوسل بأنواعه: التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين والأعمال الصالحة وغيرها مما ورد النصوص بجوازه.

فالتوسل بالعمل الصالح ـ مثلا ـ إن اعتقد أنه واسطة صحيحة، وأن الله يجب أن يجازى المكلفين، كان سوء أدب مع الله، فالله عز وجل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء]، والله غنى عن أعمال عباده.

لكن إن نظر إليه من باب اسم الله الشكور، فذكر العمل، وطلب الجزاء كما تطلب المنن لم يكن فى ذلك حرج على الداعى، بل قد ورد فى النصوص الكثيرة ما يدل عليه.

ولعل أشهر ما ورد من ذلك حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار، فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله، فهذا سأل ببره لوالديه، وهذا سأل بعفته التامة، وهذا سأل بأمانته وإحسانه، وكل ذلك مما يحبه الله ويرضاه، ومحبة الله لذلك العمل تقتضى إجابة صاحبه.

وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول وقت السحر: «اللهم أمرتنى فأطعتك، ودعوتنى فأجبتك، وهذا سحر فاغفر لى» وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول على الصفا: «اللهم

---

(1) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا فى رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام) للمؤلف.

إنك قلت وقولك الحق: ﴿...ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...﴾ [غافر: ٦٠]، وإنك لا تخلف الميعاد، ثم ذكر الدعاء المعروف.

ومن هذا الباب شرعت الصلاة على رسول الله ﷺ، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

بل إن الله عز وجل وصانا بالشكر للوالدين، وهما سبب حياتنا الطينية المجازية، فقال عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان] فكيف لا يستحق رسول الله ﷺ منا الشكر، وهو سبب حياتنا الروحية الحقيقية.

ولهذا اعتبر ﷺ من لم يصل عليه بخيلا، فقال ﷺ: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي».

ومن هذا الباب ما ورد من الآثار فى ربط الصلاة على رسول الله ﷺ بأشياء، لولا الوساطة الشرعية لرسول الله ﷺ لم تتحقق، مثل قول القائل عند الدخول إلى المسجد: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، الحمد لله، اللهمّ صلّ وسلم على محمد وعلى آل محمد؛ اللهمّ اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك».

قلت: فما علاقة التوسل والشكوى والاستغاثة باسم الله الشكور؟

قال: إن الله برحمته وفضله وشكره لعباده جعل من جزاء الرسول ﷺ الذى امتلأ قلبه بالرحمة لأمته بل للخلق جميعا، الشفاعة العظمى يوم القيامة، والتوسل باب من أبوابها، كلاهما يطل من نافذة هذا الاسم.

زيادة على أن المتوسل برسول الله ﷺ يستحضره ويشعر بمنة الله به عليه، وفى ذلك الشعور توسل لاستجابة الدعاء، فللدعاء شروطه التى إن توفرت لا يخطئ أبدا.

وانطلاقا من هذا، فإن التوسل برسول الله ﷺ هو نوع من الحضور معه، والشعور بمعيته، وله تأثير كبير فى ربط القلب بمحبته، وهو السبيل الصحيح لسلوك سنته.

فالتوسل بذلك، والذى يستحضر فيه قلب السائل رسول الله ﷺ، ثم يستشفع به إلى الله، مع الخلو من اعتقاد الوساطة الشركية، والامتلاء بالشعور بالمنة، يملأ القلب شعورا برسول الله ﷺ.

أما اعتقاد أن هذا خاص بحياة رسول الله ﷺ، فلا دليل صريح عليه من النصوص، بل قد يكون فهما من عمر رضي الله عنه، مع أن قوله رضي الله عنه لا يدل على حرمة الاستشفاع به ﷺ بعد موته.

والقول بذلك يحرم الأمة جميعا من هذا الخير الجزيل، فلا يتمتع به على مقتضى هذا القول إلا المصاحبون لرسول الله ﷺ.

زيادة على ذلك، فإنا نتوسل برسول الله ﷺ فى كل الأحكام الشرعية، فنرجع إليه لنعلم أحكام الله، بل إن الله هو الذى أمرنا بالرجوع إليه مطلقا حيا أو ميتا، كما قال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء]، وليس هناك من يقول بأن هذا خاص بحياته ﷺ.

ثم من قال بأن موت رسول الله ﷺ يغاير حياته، فإن كان الشهداء، وهم أدنى بآلاف آلاف الدرجات من رسول الله ﷺ قد نفى الله موتهم، ونهى عن اعتقاد ذلك، فقال عز وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران]، فكيف برسول الله ﷺ وهو سيد الشهداء والعارفين والنبيين؟

ثم، إن رسول الله ﷺ أخبر بأن أعمال أمته تعرض عليه، وأنه يدعو لهم، فقال ﷺ: «حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم، تعرض على أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله تعالى وإن رأيت شرا استغفرت لكم».

فإن شك في هذا الحديث، فقد قال عز وجل: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة].

قلت: قد يقال بأن هذه رؤية وليست دعاء أو شفاعة؟

قال: إن كان الله عز وجل أخبر بدعوة الملائكة ـ عليهم السلام ـ للمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر]، فإن كان هذا مع حملة العرش، فكيف برسول الله ﷺ، ومع أمته التى كلف بها، وهو أحرص الخلق عليها؟

وقد أخبر ﷺ أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ، فقال ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»[1].

فإن جاز هذا للعشائر والأقارب، وهم أفراد من الأمة، فكيف لا يجوز لرسول الله ﷺ، وهو أحن على أمته من آبائهم، وأمهاتهم، وقد قال عز وجل: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ... ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

**الألم:**

قلت: فما الكلمة الرابعة؟

قال: الألم.

---

(1) رواه أحمد والطيالسى.

قلت: الألم!؟

قال: أجل..

قلت: عهدى بأولياء الله أسعد الخلق حياة، وأهنأهم نفسا، حتى وكأن الجنة عجلت لهم.

قال: لكن بعض الآلام تعتريهم.

قلت: القلب الذى يعرف الله لا يعرف الألم.

قال: هو ألم أشبه بألم يعقوب لفقد يوسف.. فمقام يعقوب العظيم عند الله، ومقام يعقوب العظيم فى درجات السلوك إلى الله لم يمنعاه من ذلك الحزن الذى عبر عنه الله عز وجل بقوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف].

ومقام رسول الله ﷺ فى سلم الولاية لم يمنعه من قوله عندما توفى ابنه إبراهيم «وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

قلت: فما الحزن الذى يعترى الأولياء.. فيشعرهم بالألم.

قال: فقد رسول الله ﷺ..

قلت: ألم تخبرنى قبل الحين أنهم يستشعرون حياته؟

قال: الحياة مراتب.. فقد يكون شخصا حيا، ولكنك تستشعر ألما لبعده عنك.

قلت: ولكن الأولياء كما ذكرت لى لا يغيبون عن رسول الله.. ولا يغيب رسول الله عنهم..

قال: ذلك لقاء الأرواح.. والأولياء يتلهفون على لقاء الأشباح..

التفت إلى، وقال: ألم تسمع حديث ثوبان وغيره من الصحابة وشكواهم لرسول الله ﷺ ألم الفراق؟

قلت: بلى..

قال: ولهذا كانت أعظم المصائب التى حلت بالمؤمنين فقدانهم لرسول الله ﷺ.. قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه ـ فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان، وبقى آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون.. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته.. وعلى فيمن أقعد.. وعثمان فيمن أخرس.

فخـرج عمـر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لـم يمت، وليرجعنه الـله تعالى، وليقطعن أيدى وأرجل رجـال من المنافقين يتمنون لرسول اللـه ﷺ الموت، إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم».

وذكر مكي عن عبـد الله أنه لما مات النبي ﷺ قال: «اللهم أعمنى حتى لا أرى شـيئا بعده؛ فـعمى مكانه»، وروى أنه قال: «الـلهم أعمنى فلا أرى شـيئا بعـد حبيـبى حتى ألقى حبيبى؛ فعمى مكانه».

ولم يكن قويا فى هذا الموقف الشديد إلا أبا بكر رضي الله عنه الذى ربط الله على قلبه ليواسى المسلمين فى نبيهم ﷺ، ولكنه مع ذلك ظل باطنه يحترق فلا يكاد يمسك نفسه، فقد روى أنه لما بلغه الخبر دخل بـيت رسول الله ﷺ، وهو يصلى على النبـى ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجـرّة، وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال، فأكب عليه فكشف عن وجـهه وقبل جبـينه ومسح وجهه وجعل يبكى ويقول: «بأبـى وأنت وأمى ونفسى وأهلى، طبت حيًا وميتًا، انقطع لموتك مـا لم ينقطع لموت أحد من الأنبـيـاء والنبوّة، فـعظمت عن الصفـة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صـرت مسلاة وعممت حتى صرنا فـيك سواء، ولولا أن موتك كان اختيـارًا منك لجدنا لحزنك بالنفـوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك مـاء العيون، فأما مـا لا نستطيع نفيه عنا فـكمدا وادّكارا محالفـان لا يبرحان، اللهم فأبلغـه عنا، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا».

وقد استـمر هذا الحزن بالصحابة رضي الله عنهم أمـدا طويلا، عن أنس قال: قال أبو بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمـر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، قال: فلمـا انتهينا إليـها بكت، فقـالا لها: «ما يبكيك فـما عند الله خيـر لرسوله» قالت: «إنى لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله، ولكنى أبكى لكون الوحى انقطع من السماء» قال: فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها»[1].

وقد كانت حرقة حب رسول الله ﷺ هى سبب وفاة أبى بكر رضي الله عنه، فعن عبد الله بن عمـر رضي الله عنهما قال: «كـان سبب موت أبى بكر وفـاة رسول الله ﷺ كمد، فـما زال جسمه يحرى حتى مات».

ولهذا كانت وفاة رسول الله ﷺ هى عزاء المؤمن عن كل مصـيبة، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أصيب أحدكم بمصيبة، فليذكر مصيبته بى ليعزه ذلك عن مصيبته»[2].

سكت قليلا، ثم قال: ألا ترى شـغف الأولياء بالقبر الشريف.. فهم يعـتبرون أشرف بقعة فى الأرض.

---

(1) رواه مسلم.

(2) مصنف عبد الرزاق: 3/ 564، المعجم الأوسط: 4/ 365.

قلت: بلى.. وقد أنكر عليهم البعض ذلك.

قال: لا ينبغى أن ينكر عليهم.. فـأحب تراب الله لأهل الله التراب الذى ضم رسول الله.. إنه عطرهم الذى يـستنشـقـون أريجه، ودواؤهم الذى يحـمـيهم مـن العلل ويملؤهم بالصحة.

قلت: فهل لك قصة مع القبر الشريف؟

قال: أجل.. وهى قصة لن أنساها ما حييت.

قلت: كيف أذن لك فى دخول الحرم، والحرم لا يدخله إلا مسلم؟

قال: أتحسبنى زرتك قبل أن أزور حبيبى ﷺ.. لـقد كان أول ما فعلته بعد إسلامى أن زرت قبر رسول الله ﷺ.. وفى الطريق إليه رأيت وليا من أولياء الله يردد:

أتيتُك راجـلاً وَوَددْتُ أنى ... مَلَكْتُ سَوَاد عينى أمتَطيهِ
وما لى لا أسيرُ على المآقى ... إلى قـبرِ رسـولُ الله فيهِ

فأسـرعت إليه، وقلت له: رويدك.. احـذر أن يسـمعك بعض المتشـددين، فيـرميك بالشرك.

قـال: فليـفعلوا بى مـا يشـاءون.. فـأنا لم أخـرج عن هدى السلف، ولا عن أدب الخلف.

قلت: ما تقول؟

قال: لقد كان حسان بن ثابت من سلف الأمة، ومن صحابة رسول الله ﷺ، وقد قال مخاطبا قبره ﷺ:

فـبوركت يا قـبـر الرسـول وبوركت ... بلاد ثوى فـيــهـا الرشـيــد المسـدد
وبورك لحــد منك ضــمن طيــبــا ... عليــه بـناء من صــفــيح منضــد
تهــيل علـيــه التــرب أيد وأعــين ... عليــه وقـد غــارت بذلك أســعـد
لقـد غـيـبوا حلـما وعلـما ورحـمـة ... عــشـيــة علوه الثـرى لا يوسـد
وراحـوا بحـزن ليس فـيـــهم نبـيـهم ... وقـد وهنـت منهم ظهـور وأعــضـد
يبكون مـن تبكى الســمـوات يومــه ... ومن قـد بكته الأرض فـالناس أكمـد
وهل عـــدلـت يومـــا رزية هـالك ... رزية يوم مــات فــيــه مــحـمــد؟

وقد روى عن ابن المنكدر رضي الله عنه أنه كان يجلس مع أصحابه فكان يصيبه صمات، فكان يقوم كـما هو حـتى يضع خده على قـبر النبى ﷺ ثم يرجع، فـعوتب فى ذلك، فـقال: إنه يصيبنى خطر، فإذا وجدت ذلك استعنت بقبر النبى ﷺ.

وكان يأتى موضعا من المسجد يتمرغ فيه، ويضطجع، فقيل له فى ذلك فقال: إنى رأيت النبى ﷺ فى هذا الموضع[1].

قلت: هذا السلف.. فما فعل الخلف؟

قال: لقد ورث السلف حسان وغيره أمة من الصالحين أنتجوا تراثا عريضا من معانى الحب ولدت أمام قبر رسول الله ﷺ، فهذا أحدهم يقول:

قف عند قبر التهامى والثم الجدثا وانشق عبير الهدى ممن به مكثا
واجثُ احترامًا بداع الوجد مدّكرًا فجر النبوة وامدح خير من بُعثا
محمدٌ سيد الأكوان قاطبة إذ مجده كابرًا عن كابر ورثا
ما أنجب الدهر ذا خلق وذا خلقٍ فى الفضل يشبهه مذ جاءنا حدثا

* * *

(1) ابن المنكدر ليس من الصحابة، ولهذا تحمل الرؤية على الرؤية المنامية، أو على رؤى اليقظة التى أجمع عليها الأولياء.

## سابعا - الأحبار

فتحت دفتر البابا على فصله السابع، فوجدت عنوانه (الأحبار)، فقلت: أليس الأحبار هم رجال الدين؟

قال: أجل.. هم رجال الدين من اليهود والمسيحيين.. وقد يقصد به غيرهم.

قلت: من الصعب أن يسلم مثل هؤلاء الرجال لمحمد ﷺ.

قال: أجل.. فما هم فيه من السلطان والجاه والتعصب يقف حائلا بينهم وبين الإسلام.. ولكن مع ذلك هناك من هؤلاء من تغلب على هواه، وطلق جاهه، وجميع الدنيا العريضة التي أتيحت له، ليتمتع بجمال شمس محمد ﷺ.

قلت: لقد ذكر الله عز وجل هؤلاء، وأثنى عليهم ثناء حسنا في القرآن الكريم، فقال عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾ [المائدة].

وقال فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾ [آل عمران].

وقال فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص].

قال: ولهذا تراني اهتممت في هذا الدفتر بالبحث عن هؤلاء.. فهم ـ بالنسبة لنا معشر رجال الدين ـ من أعظم الشهود على صدق النبي ﷺ..

**1 - أحبار من عصر النبوة:**

قلت: أراك وضعت أسماء كثيرة من غير عصرنا.. بل هي من عصر النبوة، فكيف التقيت بها؟

قال: لقد التقيت بها في أسانيد الثقاة.. فهذه الجموع الكثيرة التي امتلأت قلوبها تعظيما لرسول الله ﷺ وحبا للإسلام يستحيل أن تجتمع على الكذب.

قلت: فهل ترى نبدأ بهؤلاء.. أم نعرج إلى المعاصرين؟

قال: ليس من الأدب أن نتخطى رقاب الصديقين.. فلنبدأ بهؤلاء.

**سلمان الفارسي:**

كان من أول الأسماء التى وُضعت فى هذا الفصل اسم (سلمان الفارسى)، فسألت البابا عن سر اختياره لسلمان، فقال: سلمان ليس فردا.. بل هو معنى.. ومعنى عظيم يشير إلى الصادقين من رجال الدين.

قلت: ما تعنى؟

قال: لقد أمضى سلمان شطرا من عمره ليس له من هم غير البحث عن الحقيقة.. فلذلك صار رمزا للباحث عن الحقيقة.

قلت: صدقت فى هذا.. وقد ألف بعضهم رواية بهذا الاسم، وكان موضوعها سلمان.

قال: لقد كان سلمان أول من وضع رواية الباحث عن الحقيقة.. أو مذكرات الباحث عن الحقيقة.. فهلم نسمع له..

قلت: وكيف نسمع له، وقد رمم.

قال: آذان الروح يمكن أن تسمع كل شىء..

ثم التفت إلى، وقال: حاول أن تتخلص من جلباب جسدك.. ولترحل إلى ذلك الزمن الجميل الذى جلس فيه سلمان يحدث عن نفسه.

أصابنى نوع من الغيبة اللذيذة، رحت خلالها أسمع البابا، وهو يحدثنى بلسان سلمان، وكأنى كنت جالسا فى تلك اللحظة مع سلمان نفسه.

قال سلمان: كنت رجلا من أهل فارس من أصبهان، من جى، ابن رجل من دهاقينها، وكان أبى دهقان أرضه، وكنت أحب الخلق إليه، فأجلسنى فى البيت كالجوارى، فاجتهدت فى المجوسية ـ فكنت فى النار التى توقد فلا تخبو، وكان أبى صاحب ضيعة، وكان له بناء يعالجه فى داره، فقال لى يوما: يا بنى، قد شغلنى ما ترى فانطلق إلى الضيعة، ولا تحتبس فتشغلنى عن كل ضيعة بهمى بك، فخرجت لذلك، فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون، فملت إليهم وأعجبنى أمرهم، وقلت: هذا والله خير من ديننا، فأقمت عندهم حتى غابت الشمس، لا أنا أتيت الضيعة، ولا رجعت إليه، فاستبطأنى وبعث رسلا فى طلبى، وقد قلت للنصارى حين أعجبنى أمرهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت إلى والدى، فقال: يا بنى، قد بعثت إليك رسلا، فقلت: مررت بقوم يصلون فى كنيسة، فأعجبنى ما رأيت من أمرهم، وعلمت أن دينهم خير من ديننا.

فقال: يا بنى، دينك ودين آبائك خير من دينهم، فقلت: كلا والله.

فخافنى وقيدنى.

فبعثت إلى النصارى وأعلمتهم ما وافقنى من أمرهم، وسألتهم إعلامى من يريد الشام، ففعلوا فألقيت الحديد من رجلى، وخرجت معهم، حتى أتيت الشام، فسألتهم عن عالمهم، فقالوا: الأسقف، فأتيته، فأخبرته، وقلت، أكون معك أخدمك وأصلى معك؟قال: أقم.

فمكثت مع رجل سوء فى دينه، كان يأمرهم بالصدقة، فإذا أعطوه شيئا أمسكه لنفسه، حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، فتوفى، فأخبرتهم بخبره، فزبرونى، فدللتهم على ماله فصلبوه، ولم يغيبوه ورجموه، وأحلوا مكانه رجلا فاضلا فى دينه زهد ورغبة فى الآخرة وصلاحا، فألقى الله حبه فى قلبى، حتى حضرته الوفاة، فقلت: أوصى، فذكر رجلا بالموصل، وكنا على أمر واحد حتى هلك.

فأتيت الموصل، فلقيت الرجل، فأخبرته بخبرى، وأن فلانا أمرنى بإتيانك، فقال: أقم، فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة، فقلت له: أوصى، قال: ما أعرف أحدا على ما نحن عليه إلا رجلا بعمورية.

فأتيته بعمورية، فأخبرته بخبرى، فأمرنى بالمقام وثاب لى شيئا، واتخذت غنيمة وبقيرات، فحضرته الوفاة، فقلت: إلى من توصى بى؟ فقال: لا أعلم أحدا اليوم على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك نبى يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، مهاجره بأرض ذات نخل، وبه آيات وعلامات لا تخفى، بين منكبيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت فتخلص إليه، فتوفى.

فمر بى ركب من العرب، من كلب، فقلت: أصحبكم وأعطيكم بقراتى وغنمى هذه، وتحملونى إلى بلادكم؟فحملونى إلى وادى القرى، فباعونى من رجل من اليهود، فرأيت النخل، فعلمت أنه البلد الذى وصف لى، فأقمت عند الذى اشترانى، وقدم عليه رجل من بنى قريظة فاشترانى منه، وقدم بى المدينة، فعرفتها بصفتها، فأقمت معه أعمل فى نخله، وبعث الله نبيه ﷺ، وغفلت عن ذلك حتى قدم المدينة، فنزل فى بنى عمرو بن عوف، فإنى لفى رأس نخلة إذ أقبل ابن عمٍّ لصاحبى، فقال: أى فلان، قاتل الله بنى قيلة، مررت بهم آنفا وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة، يزعم أنه نبى، فوالذى ما هو إلا أن سمعتها، فأخذنى القر ورجفت بى النخلة، حتى كدت أن أسقط، ونزلت سريعا، فقلت: ما هذا الخبر؟فلكمنى صاحبى لكمة، وقال: وما أنت وذاك؟ أقبل على شأنك، فأقبلت على عملى حتى أمسيت، فجمعت شيئا فأتيته به، وهو بقباء عند أصحابه، فقلت: اجتمع عندى، أردت أن أتصدق به، فبلغنى أنك رجل صالح، ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة، فرأيتكم أحق به، فوضعته بين يديه، فكف يديه، وقال لأصحابه: كلوا.

فأكلوا، فقلت: هذه واحدة، ورجعت.

وتحولت إلى المدينة، فجمعت شيئا فأتيته به، فقلت: أحببت كرامتك فأهديت لك هدية، وليست بصدقة، فمد يده فأكل، وأكل أصحابه، فقلت: هاتان اثنتان، ورجعت.

فأتيته، وقد تبع جنازة فى بقيع الغرقد، وحوله أصحابه، فسلمت، وتحولت أنظر إلى الخاتم فى ظهره، فعلم ما أردت، فألقى رداءه، فرأيت الخاتم، فقبلته، وبكيت، فأجلسنى بين يديه، فحدثته بشأنى كله كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجبه ذلك، وأحب أن يسمعه أصحابه، ففاتنى معه بدر وأحد بالرق، فقال لى: كاتب يا سلمان عن نفسك، فلم أزل بصاحبى حتى كاتبته، على أن أغرس له ثلثمائة ودية وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقال النبى ﷺ: (أعينوا أخاكم بالنخل)، فأعانونى بالخمس والعشر، حتى اجتمع لى، فقال لى: (فقر لها ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدى)، ففعلت، فأعاننى أصحابى حتى فرغت، فأتيته، فكنت آتيه بالنخلة فيضعها، ويسوى عليها ترابا، فانصرف، والذى بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة، وبقى الذهب، فبينما هو قاعد إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة، من ذهب أصابه من بعض المعادن، فقال: (ادع سلمان المسكين الفارسى المكاتب)، فقال: (أد هذه) فقلت: يا رسول الله، وأين تقع هذه مما على؟ وروى أبو الطفيل، عن سلمان، قال: أعاننى رسول الله ﷺ ببيضة من ذهب، فلو وزنت بأحد لكانت أثقل منه[1].

**عبد الله بن سلام:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (عبد الله بن سلام)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل من كبار أحبار اليهود، وهو من ذرية يوسف الصديق عليه السلام، وكان اسمه الحصين، فغيره النبى ﷺ، وكان عالم أهل الكتاب، وكان إسلامه فى اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ دار أبى أيوب أول ما قدم[2].

وقد حدث عن نفسه بخبر إسلامه، فقال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذى كنا نتوكف له[3]، فكنت مسرا بذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما قدم نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة.

فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت عمتى حين سمعت تكبيرى: «لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت»، فقلت لها: «أى عمة هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به».

(1) رواه ابن إسحق وغيره.

(2) كما فى رواية عبد العزيز بن صهيب عند البيهقى.

(3) توكف الخبر: إذا انتظر، انظر: النهاية: 5 / 221.

ثم قالت: «يا ابن أخى، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟»، فقلت لها: «نعم»، قالت: «فذاك إذا».

قال: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شىء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[1].

وقد أخبر أنس عن السر الذى جعله يقبل على الإسلام، فقال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبى ﷺ فأتى النبى ﷺ فقال: إنى سائلك عن خلال لا يعلمهن إلا نبى: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ وما هذا السواد الذى فى القمر؟

فقال ﷺ: أخبرنى بهن جبريل آنفا.

فقال عبد الله: جبريل؟ قال ﷺ: نعم، فقال عبد الله: عدو اليهود من الملائكة، ثم قرأ أنس: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة].

قال ﷺ: أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق (تسوقهم) إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، وأما السواد الذى فى القمر: فإنهما كانا شمسين[2]، قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ... ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء] فالسواد الذى رأيت هو المحو.

فقال عبد الله: أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أنى سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى، وقالوا فى ما ليس فى، فأحب أن تدخلنى بعض بيوتك.

فأدخله رسول الله ﷺ بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه، فقال: «يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا».

فقالوا: ما نعلمه.

---

(1) رواه البخارى والبيهقى عن أنس، وابن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام، وأحمد، ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سلام، والبيهقى عن موسى بن عقبة وعن ابن شهاب.

(2) أشرنا إلى الحقيقة المرادة فى هذا فى رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

فقال: أى رجل فيكم الحصين بن سلام؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا.

فقال: أرأيتم إن أسلم.

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فقال ﷺ: «يا ابن سلام اخرج إليهم».

فخرج عبد الله فقال: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقا، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه».

قالوا: كذبت أنت شرنا وابن شرنا، وانتقصوه.

قال: هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟

قال عبد الله: وأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها[1].

**2 - أحبار من عصرنا:**

قلبت بعض الصفحات، بحثا عن أسماء لأحبار من عصرنا، أو قريبين من عصرنا.

**القس إسحق هلال مسيحه:**

وكان من الأسماء التى وجدتها (القس إسحق هلال مسيحه)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تشرفت بالالتقاء به بعد ما سمعت بإسلامه فى إطار الوظيفة التى أخبرتك عنها، وكان من تصريحاته لى قوله: حين بدأت أدرس حياة الأنبياء بدأ الصراع الفكرى فى داخلى وكانت أسئلتى تثير المشاكل فى أوساط الطلبة مما جعل البابا (. . !؟)[3] يصدر قرارًا بتعيينى قسيًّا قبل موعد التنصيب بعامين كاملين، لإغرائى وإسكاتى فقد كانوا يشعرون بمناصرتى للإسلام، مع أنه كان مقررًا ألا يتم التنصيب إلا بعد مرور 9 سنوات من بداية الدراسة اللاهوتية.

ثم عيّنت رئيسًا لكنيسة المثال المسيحى بسوهاج ورئيسًا فخريًا لجمعيّات خلاص النفوس المصريّة ـ وهى جمعيّة تنصيريّة قويّة جدا ولها جذور فى كثير من البلدان العربية وبالأخص دول الخليج ـ وكان البابا يغدق علىّ الأموال حتّى لا أعود لمناقشة مثل تلك الأفكار لكنّى مع

---

(1) رواه البيهقى.

(2) هو القس المصرى السابق إسحاق هلال مسيحه، رئيس لجان التنصير بأفريقيا، وهو راعى كنيسة المثال المسيحى، ورئيس فخرى لجمعيات خلاص النفوس المصرية بإفريقيا وغرب آسيا.

(3) كما تعودنا فى هذه السلسلة، فلن نذكر هنا جميع الأسماء المرتبطة بالمعاصرين إلا ما لا بد منه.

هذا كنت حريصًا على معرفة حقيقة الإسلام، ولم يخبُ النور الإسلامى الذى أنار قلبى فرحًا بمنصبى الجديد بل زاد.

قلت: فكيف بدأت علاقتك بالمسلمين؟

قال: بدأت علاقتى مع بعض المسلمين سرًا، حيث بدأت أدرس وأقرأ عن الإسلام، وقد طُلب منّى إعداد رسالة الماجستير حول مقارنة الأديان، وأشرف على الرسالة أسقف البحث العلمى فى مصر سنة 1975، واستغرقت فى إعدادها أربع سنوات، وكان المشرف يعترض على ما جاء فى الرسالة حول صدق نبوة الرسول محمد ﷺ وأميته وتبشير المسيح بمجيئه.

وأخيرًا تمّت مناقشة الرّسالة فى الكنيسة الإنكليكيّة بالقاهرة، واستغرقت المناقشة تسع ساعات وتركزت حول قضيّة النّبوّة والنّبى ﷺ علمًا بأن الآيات صريحة فى الإشارة إلى نبوّته وختم النّبوّة به.

قلت: فهل منحوك هذه الرسالة مع هذا؟

قال: نعم منحونى الرسالة بيد، وأخذوها منى باليد الأخرى.. لقد صدر قرار البابا بسحب الرسالة منّى وعدم الاعتراف بها.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: أخذت أفكر فى أمر الإسلام تفكيرًا عميقًا حتّى تكون هدايتى عن يقين تام، ولكن لم أكن أستطيع الحصول على الكتب الإسلامية، فقد شدّد (..!؟) الحراسة علىّ وعلى مكتبتى الخاصّة.

قلت: فكيف وصلت إلى أشعة محمد مع هذا التضييق؟

ابتسم، وقال: أصدقك القول.. إنهم كلما ضيقوا على الإسلام، كلما اتسع وازداد انتشاره..

فى يوم من أيام عام 1978م كنت ذاهبًا لإحياء مولد العذراء بالإسكندريّة، وأثناء ركوبى فى الحافلة بملابسى الكهنوتية، وبصليب يزن ربع كيلو من الذهب الخالص وعصاى الكرير صعد صبىّ صغير يبيع كتيبات صغيرة، فوزعها على كلّ الركّاب ماعدا أنا.

عندما انتهى من التوزيع والجمع، فباع ما باع وجمع الباقى، قلت له: «يا بنىّ لماذا أعطيت الجميع بالحافلة إلا أنا»، فقال: «لا يا أبونا أنت قسيس».

وهنا شعرت، وكأنّنى لست أهلاً لحمل هذه الكتيّبات مع صغر حجمها.. فألححت عليه ليبيعنى منها، فقال: «لا هذه كتب إسلاميّة» ثم نزل.

وبنزول هذا الصّبي من الحافلة شعرت وكأنّني جوعان، وفي هذه الكتب شبعي، وكأنّني عطشان وفيها شربي. . نزلت خلفه، فجرى خائفًا منّي، فنسيت من أنا وجريت وراءه حتّى حصلت على كتابين.

عندما وصلت إلى الكنيسة الكبرى بالعبّاسيّة (الكاتدرائيّة المرقسيّة) ودخلت إلى غرفة النّوم المخصّصة بالمدعوّين رسميا كنت مرهقًا من السفر، ولكن عندما أخرجت أحد الكتابين، وهو (جزء عم) وفتحته وقع بصرى على سورة الإخلاص، فأيقظت عقلي وهزت كياني. .

لقد بدأت أرددها حتى حفظتها، وكنت أجد في قراءتها راحة نفسية واطمئنانًا قلبيًا وسعادة روحية، وبينا أنا كذلك إذ دخل عليّ أحد القساوسة وناداني: «أبونا إسحاق»، فخرجت وأنا أصيح في وجهه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] دون شعور منّي.

بعد ذلك ذهبت إلى الإسكندريّة لإحياء أسبوع مولد العذراء يوم الأحد. . وأثناء صلاة القداس المعتاد، وفي فترة الراحة ذهبت إلى كرسي الاعتراف لكي أسمع اعترافات الشعب الجاهل الذي يؤمن بأن القسيس بيده غفران الخطايا.

ومن ضمن من جاء امرأة تعض أصابع الندم، وهي تقول: «إني انحرفت ثلاث مرات، وأنا أمام قداستك الآن أعترف لك رجاء أن تغفر لي، وأعاهدك ألا أعود لذلك أبدًا». . ومن العادة المتبعة أن يقوم الكاهن برفع الصليب في وجه المعترف ويغفر له خطاياه.

وما كدت أرفع الصليب لأغفر لها حتى وقع ذهني على العبارة القرآنية الجميلة: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، فعجز لساني عن النطق، وبكيت بكاءً حارا، وقلت: «هذه جاءت لتنال غفران خطاياها منّي فمن يغفر لي خطاياي يوم الحساب والعقاب».

هنا أدركت أن هناك كبير أكبر من كل كبير، إله واحدٌ لا معبود سواه.

ذهبت على الفور للقاء الأسقف وقلت له: «أنا أغفر الخطايا لعامة الناس، فمن يغفر لي خطاياي»، فأجاب دون اكتراث: «البابا»، فسألته: «ومن يغفر للبابا»، فانتفض جسمه ووقف صارخًا وقال: «أنت قسيس مجنون، والذي أمر بتنصيبك مجنون حتّى وإن كان البابا، لأنّنا قلنا له لا تنصّبه لئلاّ يفسد الشعب بإسلاميّاته وفكره المنحل»، بعد ذلك صدر قرار البابا بحبسي في دير (ماري مينا) بوادي النطرون.

قلت: أحصل هذا!؟

قال: حصل ما هو فوق هذا. . لقد أخذوني معصوب العينين، وهناك استقبلني الرهبان استقبالاً عجيبًا، كالوا لي فيه صنوف العذاب علمًا بأنّني حتّى تلك اللحظة لم أسلم، كل منهم يحمل عصا يضربني بها وهو يقول: «هذا ما يصنع ببائع دينه وكنيسته».

استعملوا معي كل أساليب التعذيب الذي لا تزال آثاره موجودةً على جسدي، وهي خير شاهدٍ على صحّة كلامي حتّى إنّه وصلت بهم أخلاقهم اللاإنسانيّة أنهم كانوا يدخلون

عصا المقشّة فى دبرى يوميا سبع مرّات فى مواقيت صلاة الرهبان لمدّة سبعة وتسعين يومًا، وأمرونى بأن أرعى الخنازير.

وبعد ثلاثة أشهر أخذونى إلى كبير الرهبان لتأديبى دينيًا وتقديم النصيحة لى، فقال: «يا بنىّ.. إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، اصبر واحتسب. ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب»، قلت فى نفسى ليس هذا الكلام من الكتاب المقدس ولا من أقوال القديسين.

وما زلت فى ذهولى بسبب هذا الكلام حتى رأيته يزيدنى ذهولاً على ذهول بقوله: «يا بنىّ نصيحتى لك السر والكتمان إلى أن يعلن الحق مهما طال الزمان».

لقد احترت فى المعنى الذى يشير إليه هذا الرجل، وهو كبير الرهبان، ولم يطل بى الوقت حتى فهمت تفسير هذا الكلام المحيّر.

لقد دخلت عليه ذات صباح لأوقظه فتأخر فى فتح الباب، فدفعته ودخلت، وكانت المفاجأة الكبرى التى كانت نورًا لهدايتى لهذا الدين الحق دين الوحدانيّة عندما شاهدت رجلاً كبيرًا فى السنّ ذا لحية بيضاء، وكان فى عامه الخامس والستّين، وإذا به قائمًا يصلى صلاة المسلمين (صلاة الفجر).

تسمرتُ فى مكانى أمام هذا المشهد الذى أراه، ولكنّى انتبهت بسرعة عندما خشيت أن يراه أحد من الرهبان، فأغلقت الباب.

جاءنى بعد ذلك وهو يقول: «يا بنىّ استر علىّ ربّنا يستر عليك»، ثم أضاف: «أنا منذ 23 سنة على هذا الحال.. غذائى القرآن.. وأنيس وحدتى توحيد الرحمن.. ومؤنس وحشتى عبادة الواحد القهّار.. الحقّ أحقّ أن يتّبع يا بنىّ».

بعد أيّام صدر أمر البابا برجوعى لكنيستى بعد نقلى من سوهاج إلى أسيوط، لكن الأشياء التى حدثت مع سورة الإخلاص وكرسى الاعتراف والراهب المتمسّك بإسلامه جعلت فى نفسى أثرًا كبيرًا، لكنى كنت محتارا ماذا أفعل، وأنا محاصر من الأهل والأقارب وممنوع من الخروج من الكنيسة بأمر (..!؟)

بعد مرور عام، جاءنى خطاب يأمرنى بالذهاب كرئيس للّجنة المغادرة إلى السودان فى رحلة تنصيريّة، فذهبنا إلى السودان فى الأوّل من سبتمبر 1979م وبقينا به ثلاثة شهور، وحسب التعليمات البابويّة بأن كلّ من تقوم اللجنة بتنصيره يسلّم مبلغ 35 ألف جنيه مصرىّ بخلاف المساعدات العينيّة، فكانت حصيلة الذين غرّرت بهم اللجنة تحت ضغط الحاجة والحرمان خمسة وثلاثين سودانيا من منطقة واو فى جنوب السودان.

وبعد أن سلّمتُهم أموال المنحة البابويّة اتّصلت بالبابا من مطرانيّة أم درمان فقال: «خذوهم ليروا المقدسات المسيحيّة بمصر (الأديرة)»، وتم خروجهم من السودان على أساس

أنهم عمّال بعقود للعمل بالأديرة لرعى الإبل والغنم والخنازير وتم عمل عقود صوريّة حتّى تتمكّن لجنة التنصير من إخراجهم إلى مصر.

بعد نهاية الرحلة، وأثناء رجوعنا بالباخرة فى النّيل، قمت أتفقّد المتنصرين الجدد وعندما فتحت بعض الأبواب على الباخرة، فوجئت بأن المتنصر الجديد الذى أطلقنا عليه عبد المسيح (وكان اسمه محمّد آدم) يصلّى صلاة المسلمين.

تحدّثت إليه فوجدته متمسكًا بعقيدته الإسلاميّة، فلم يغره المال، ولم يؤثّر فيه بريق الدنيا الزائل.. ومما أذكره أنى قلت له: «يا عبد المسيح لماذا تصلّى صلاة المسلمين بعد تنصّرك؟!»، فقال: «بعت لكم جسدى بأموالكم، أمّا قلبى وروحى وعقلى فملك الله الواحد القهّار لا أبيعهم بكنوز الدنيا وأنا أشهد أمامك بأن لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله».

بعد هذه الأحداث التى أنارت لى طريق الإيمان، وهدتنى لأعتنق الإسلام وجدت صعوبات كثيرة فى إشهار إسلامى نظرًا لأنّنى قس كبير ورئيس لجنة التنصير فى إفريقيا، وقد حاولوا منع ذلك بكل الطرق لأنه بالنسبة لهم فضيحة كبيرة.

ذهبت لأكثر من مديريّة أمن لأشهر إسلامى، وخوفًا على الوحدة الوطنيّة أحضرتْ لى مديريّة الشرقيّة فريقًا من القساوسة والمطارنة للجلوس معى، وهو المتّبع بمصر لكل من يريد اعتناق الإسلام.

هدّدتنى اللجنة المكلّفة من 4 قساوسة و3 مطارنة بأنها ستأخذ كلّ أموالى وممتلكاتى المنقولة والمحمولة والموجودة فى البنك الأهلى المصرى ـ فرع سوهاج وأسيوط والتى كانت تقدّر بحوالى 4 مليون جنيه مصرىّ، وثلاثة محلات ذهب، وورشة لتصنيع الذهب بحارة اليهود وعمارة مكوّنة من أحد عشر طابقًا بالقاهرة ـ فتنازلت لهم عنها كلّها، فلا شيء يعدل لحظة الندم التى شعرت بها، وأنا على كرسى الاعتراف.

بعدها كادت لى الكنيسة العداء، وأهدرت دمى فتعرضت لثلاث محاولات اغتيال من أخى وأولاد عمّى، فقاما بإطلاق النّار علىّ فى القاهرة، وأصابونى فى كليتى اليسرى والّتى تم استئصالها فى مستشفى القصر العينى والحادث قيّد بالمحضر رقم 1762/ 1986 بقسم قصر النّيل مديريّة أمن القاهرة بتاريخ 11/ 11/ 1986م.

ليس هذا فقط.. بل إن أبواى لما علما بإسلامى أقدما على الانتحار، فأحرقا نفسيهما، والله المستعان.

**إبراهيم خليل فلوبوس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (إبراهيم خليل فلوبوس)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أشهر من نار على علم. كان أستاذا بكلية اللاهوت الإنجيلية.. وقد نشأ فى الكنيسة.. وترقى فى مدارس اللاهوت.. وتبوأ مكانة مرموقة فى سلم التنصير..

قلت: فحدثنى عن لقائك به، وحديثك معه.

قال: لقد تشرفت بالالتقاء به، والحديث معه عن سر إسلامه، وكان مما ذكره لى قوله: ولدت فى الإسكندرية عام 1919.. ونشأت فيها نشأة نصرانية ملتزمة وتهذبت فى مدارس الإرسالية الأمريكية، وتصادف وصولى مرحلة (الثقافة) المدرسية مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتعرض مدينة الإسكندرية لأهوال قصف الطائرات.. فاضطررنا للهجرة إلى أسيوط حيث استأنفت فى كليتها، وقد دفعتنى أخبار الحرب والنكبات لأن أنظر إلى العالم نظرة أعمق قادتنى للاتجاه إلى دعوة السلام وإلى الكنيسة.. التى كانت ترصد رغباتى وتؤجج توجهاتى.. فالتحقت بكلية اللاهوت سنة 1945م وأمضيت فيها ثلاث سنين.

قلت: الأصل فى مثل هذه الكلية أن تعمق فيك التوجه للمسيحية..

قال: أجل.. ذلك صحيح.. لقد درسنا مقدمات العهد القديم والجديد، والتفاسير والشروحات وتاريخ الكنيسة.. ولكنا لم نكتف بذلك، فنظام الكلية يدرس تاريخ الحركة التنصيرية وعلاقتها بالمسلمين، ولهذا درسنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وتركزت دراستنا على بعض الفرق التى انحرفت عن الإسلام أمثال الإسماعيلية، والعلوية، والقاديانية، والبهائية...

قلت: أكانت هذه الدراسة لمجرد الاطلاع العلمى؟

قال: لا.. لا يمكن أن تهدف كلية مثل تلك الكلية لهذا الهدف النبيل.. لقد كانوا يهيئوننا للحوار المستقبلى مع المسلمين، لنستخدم معرفتنا لنحارب القرآن بالقرآن، والإسلام بالنقاط السوداء فى تاريخ المسلمين.

---

(1) إبراهيم خليل أحمد قس مبشر من مواليد الإسكندرية عام 1919، يحمل شهادات عالية فى علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية. عمل أستاذًا بكلية اللاهوت بأسيوط. كما أرسل عام 1954 إلى أسوان سكرتيراً عامًا للإرسالية الألمانية السويسرية. وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام. لكن تعمقه فى دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين وأشهر إسلامه رسميًا عام 1959. كتب العديد من المؤلفات، أبرزها ولا ريب (محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن)، (المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى)، و(تاريخ بنى إسرائيل)، و(المسيح إنسان لا إله) و(الإسلام فى الكتب السماوية) و(اعرف عدوك اسرائيل) و(الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية) و(الغفران بين المسيحية والإسلام).

لقد كنا نحاور الأزهريين وأبناء الإسلام بالقرآن لنفتنهم، فنستخدم الآيات مبتورة عن سياقها، لنخدم أهدافنا.. لقد كان لدينا فى هذا كتب ننهل منها..

قلت: منها..!؟

قال: هى كثيرة.. لعل أهمها كتاب (الهداية) وهو فى 4 أجزاء، و(مصدر الإسلام).. إضافة إلى استعانتنا واستفادنا من كتابات علماء الاستشراق أمثال طه حسين الذى استفادت الكنيسة من كتابه (الشعر الجاهلى) مائة فى المائة، وكان طلاب كلية اللاهوت يعتبرونه من الكتب الأساسية لتدريس مادة الإسلام.

وعلى هذا المنهج كانت رسالتى فى الماجستير تحت عنوان (كيف ندمر الإسلام بالمسلمين) سنة 52 والتى أمضيت 4 سنوات فى إعدادها من خلال الممارسة العملية للوعظ والتنصير بين المسلمين من بعد تخرجى عام 48.

قلت: أنا أعجب لك.. كيف يمكن لرجل يكتب مثل هذه الرسالة، ويتوجه هذا التوجه أن ينقلب ذلك الانقلاب الذى انقلبته.

قال: لا تعجب.. فالهداية من الله وبالله.. لقد منّ الله علىّ، فتعرضت لشمس النبوة التى نسخت تلك الأحقاد التى ملأتنا بها الكنيسة.

قلت: فحدثنى كيف أشرقت عليك أنوار الهداية.

قال: فى مؤتمر تبشيرى دعيت للكلام، فأطلت الكلام فى ترديد كل المطاعن المحفوظة ضد الإسلام، وبعد أن انتهيت من حديثى بدأت أسأل نفسى: لماذا أقول هذا وأنا أعلم أننى كاذب؟! واستأذنت قبل انتهاء المؤتمر، خرجت وحدى متجهًا إلى بيتى، كنت مهزوزًا من أعماقى، متأزمًا للغاية، وفى البيت قضيت الليل كله وحدى فى المكتبة أقرأ القرآن، ووقفت طويلاً عند الآية الكريمة: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر].

فى تلك الليلة اتخذت قرار حياتى فأسلمت، ثم انضم إلىّ جميع أولادى، وكان أكثرهم حماسًا ابنى الأكبر (أسامة) وهو دكتور فى الفلسفة، ويعمل أستاذًا لعلم النفس فى جامعة السوربون.. وبإسلامهم زادت بيوت الإسلام بيتًا.

قلت: تلك النهاية التى انتهيت إليها، وأنا أسألك عن البداية.

قال: فى شهر يونيو تقريبًا عام 1955م استمعت إلى قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن].. هذه الآية الكريمة من الغريب أنها رسخت فى القلب، ولما رجعت إلى البيت سارعت إلى المصحف وأمسكته وأنا فى دهشة من هذه السورة..

قلت: لقد كنت تقرأ القرآن من قبل، بل تستخدمه لحرب القرآن والإسلام، فكيف أثرت فيك هذه الآيات خصوصا؟

قال: لست أدرى.. ربما كنت حينها فى لحظة من لحظات الصدق.. أو ربما أشرقت علىّ حينها شمس الهداية..

فى ذلك الحين تحولت إلى إنسان آخر.. لقد عدت لأقرأ القرآن بغير النية التى كنت أقرؤه بها.. فاستوقفنى قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

هذه النصوص جعلتنى أرجع للكتاب المقدس لأتأكد مما يذكره القرآن..

قلت: فماذا وجدت؟

قال: لقد ظللت لعدة سنوات أدرس هذه التنبؤات إلى أن وجدتها حقيقة لم يمسها التبديل والتغيير، لأن بنى إسرائيل ظنوا أن النبوة لن تخرج عن دائرتهم..

على سبيل المثال جاء فى (سفر التثنية) وهو الكتاب الخامس من كتب التوراة (أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به)[1] توقفت أولاً عند كلمة (إخوتهم) وتساءلت: هل المقصود هنا من بنى إسرائيل؟ لو كان كذلك لقال (من أنفسهم) أما وقد قال (من وسط إخوتهم) فالمراد بها أبناء العمومة، ففى سفر التثنية (إصحاح 2 عدد 4) يقول الله لسيدنا موسى عليه السلام: (أنتم مارون بتخم إخوتكم بنى عيسو...) و(عيسو) هذا الذى نقول عنه فى الإسلام (العيص) هو شقيق يعقوب عليه السلام، فأبناؤه أبناء عمومة لبنى إسرائيل، ومع ذلك قال (إخوتكم) وكذلك أبناء (إسحق) وأبناء (إسماعيل) هم أبناء عمومة، لأن (إسحق) شقيق (إسماعيل) عليهما السلام ومن (إسحق) سلالة بنى إسرائيل، ومن (إسماعيل) كان (قيدار) ومن سلالته كان سيدنا محمد ﷺ، وهذا الفرع الذى أراد بنو إسرائيل إسقاطه وهو الذى أكدته التوراة حين قالت (من وسط إخوتهم) أى من أبناء عمومتهم.

وتوقفت بعد ذلك عند لفظة (مثلك) ووضعت الأنبياء الثلاثة: موسى، وعيسى، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ للمقابلة فوجدت أن عيسى عليه السلام مختلف تمام الاختلاف عن موسى وعن محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وفقًا للعقيدة النصرانية ذاتها

---

(1) انظر تفاصيل الاستدلال بهذه النبوة فى رسالة (أنبياء يبشرون بمحمد) من هذه السلسلة.

والتى نرفضها بالطبع، فهو الإله المتجسد، وهو ابن الله حقيقة، وهو الأقنوم الثانى فى الثالوث، وهو الذى مات على الصليب.. أما موسى عليه السلام فكان عبدالله، وموسى كان رجلاً، وكان نبيًا، ومات ميتة طبيعية ودفن فى قبر كباقى الناس وكذلك سيدنا رسول الله محمد ﷺ، وإذًا فالتماثل إنما ينطبق على محمد ﷺ، بينما تتأكد المغايرة بين المسيح وموسى ـ عليهما السلام ـ ووفقًا للعقيدة النصرانية ذاتها! فإذا مضينا إلى بقية العبارة: (وأجعل كلامى فى فمه..) ثم بحثنا فى حياة محمد ﷺ فوجدناه أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ثم لم يلبث أن نطق بالقرآن الكريم المعجزة فجأة يوم أن بلغ الأربعين.. وإذا عدنا إلى نبوءة أخرى فى التوراة سفر أشعيا إصحاح 79 تقول: (أو يرفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة ولا الكتابة ويقول له اقرأ، يقول ما أنا بقارئ..) لوجدنا تطابقًا كاملاً بين هاتين النبوءتين وبين حادثة نزول جبريل بالوحى على رسول الله ﷺ فى غار حراء، ونزول الآيات الخمس الأولى من سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

قلت: هذا عن التوراة، فماذا عن الإنجيل؟

قال: إذا استثنينا نبوءات برنابا الواضحة والصريحة ببعثة محمد ﷺ بالاسم، وذلك لعدم اعتراف الكنيسة بهذا الإنجيل أصلاً، فإن المسيح عليه السلام تنبأ فى إنجيل يوحنا تسع نبوءات، و(البرقليط) الذى بشر به يوحنا مرات عديدة... هذه الكلمة لها خمسة معانى: المعزّى، والشفيع، والمحامى، والمحمد، والمحمود، وكل هذه المعانى تنطبق على سيدنا رسول الله ﷺ تمام الانطباق فهو المعزّى المواسى للجماعة التى على الإيمان وعلى الحق من بعد الضياع والهبوط، وهو المحامى والمدافع عن عيسى ابن مريم عليه السلام وعن كل الأنبياء والرسل بعدما شوه اليهود والنصارى صورتهم وحرفوا ما أتوا به وهو الإسلام.. ولهذا جاء فى إنجيل يوحنا [14 / 16 و17] (أنا أصلى إلى الله ليعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق).. وقال فى نبوءة أخرى [16 / 13 ـ 14] (وأما متى جاء ذاك الروح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به. ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدنى).

لقد وجدت أن هذه النبوءة تنطبق تماما على قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

قلت: فقد كانت البشارات التى وردت فى الكتاب المقدس هى دليلك إلى الإسلام.

قال: لقد كانت بعض أدلتى.. وإن شئت قل: لقد كانت هى منبهى الأول الذى جعلنى أبحث عن الحقيقة.. فقد انطلقت منها إلى مقارنات جادة بين الإسلام والمسيحية.. وقد كات تلك المقارنات هى الأساس الذى بنى عليه إسلامى.

قلت: فحدثنى عن بعض مقارناتك.

استجمع ذهنه قليلا، ثم قال: لقد قرأت بتأمل قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]. . ثم قارنت بينها وبين ما ورد فى الإنجيل عن الغفران: (بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) وبالقول: (هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية).

قارنت بين العقيدتين. . فعرفت أن المغفرة فى عقيدتنا مقيدة بقيود: من جانب الله ببذل ابنه الحبيب، ومن جانب المرء بضرورة الإيمان بهذا الابن.

ومن هذه العقيدة نشأت فريضة كنيسية تعرف بسرّ الشكر، وفيها يؤمن المسيحى باستحالة الخبز إلى جسد المسيح واستحالة الخمر إلى دم المسيح حقيقة، وبتناولهما تصير فيه حياة أبدية، ومن هذه العقيدة نشأت صكوك الغفران. . إنها بدعة وخروج عن الحق الإلهى الذى ندّد به زعماء الإصلاح فى القرن الخامس عشر. . فحمدت الله على رحمته الواسعة ومغفرته اليقينية بدون قيد ولا شرط مادى، بل بتوبة صادقة وعزم على الحياة الطاهرة[1].

قلت: هل هناك مقارنة غيرها جعلتك تؤثر الإسلام؟

قال: كثيرة هى مقارناتى. . منها أنى قرأت قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، ثم قارنته بما جاء بالإنجيل: (إذن لسنا أولاد جارية، بل أولاد حرة).

لقد زال عنى بتلك المقارنة العجب عن التفرقة العنصرية عند الأمريكيين فى أيامنا هذه بين البيض والسود، وزاد إعجابى وإجلالى للمسلمين. . فسيد القوم عندهم يقف بجانب المواطن العامل والمزارع والتاجر والموظف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، راكعين ساجدين، يخشون ربهم ويرجونه الرضا والعفو، فأيقنت أن مجد الإسلام والمسلمين فى هذا التساند الجميل والتآخى الحبيب[2].

بالإضافة إلى هذا، فقد استوقفنى كثيرًا نظام التوحيد فى الإسلام، وهو من أبرز معالم الإسلام. . إن التوحيد يجعلنى عبدًا لله وحده لست عبدًا لأى إنسان، التوحيد فى الإسلام يجرِّد الإنسان ويجعله غير خاضع لأى إنسان، وتلك هى الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده.

بالإضافة إلى هذا، فإن الإسلام دين المنطق والعقل، لم يجعل وساطة بين الله والإنسان، ولم يترك مقادير الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة.

---

(1) انظر: محمد فى التوراة، ص 10 - 11، بتصرف.

(2) محمد فى التوراة، ص 11.

قلت: ألا تزال تذكر اللحظة التى أعلنت فيها عن إسلامك؟

قال: لن أنسى ذلك ما حييت..

قلت: فحدثنى عنها..

قال: بعد أن وصلت إلى اليقين وتلمست الحقائق بيدى كان علىّ أن أتحدث مع أقرب الناس إلى.. وكان أقربهم إلى زوجتى.. لكن الحديث تسرب عن طريقها إلى الإرسالية للأسف، وسرعان ما تلقفونى ونقلونى إلى المستشفى وتحت مراقبة صارمة مدعين أنى مختل العقل.. ولأربعة شهور تلت عشت معاناة شديدة جداً، ففرقوا بينى وبين زوجتى وأولادى، وصادروا مكتبتى وكانت تضم أمهات الكتب والموسوعات... حتى اسمى كعضو فى مجمع أسيوط، وفى مؤتمر (سنودس) شُطب، وضاع ملفى كحامل ماجستير من كلية اللاهوت... ومن المفارقات العجيبة أن الإنجليز فى هذه الآونة كانوا قد خلعوا الملك طلال من عرش الأردن بتهمة الجنون... فخشيت أن يحدث معى الأمر ذاته.. لذلك التزمت الهدوء والمصابرة وصمدت حتى أطلق سراحى، فقدمت استقالتى من الخدمة الدينية، واتجهت للعمل فى شركة أمريكية للأدوات المكتبية، لكن الرقابة هناك كانت عنيفة جداً، فالكنيسة لا تترك أحداً من أبنائها يخرج عليها ويسلم، إما أن يقتلوه أو يدسوا عليه الدسائس ليحطموا حياته.. وفى المقابل لم يكن المجتمع المسلم حينذاك يقدر على مساعدتى... ففى حقبة الخمسينيات والستينيات كان الانتماء للإسلام والدفاع عنه لا يعنى إلا الضياع!

لذلك كان علىّ أن أكافح قدر استطاعتى، فبدأت العمل التجارى، وأنشأت مكتباً تجارياً هرعت بمجرد اكتماله للإبراق إلى (د. جون تومسون) رئيس الإرسالية الأمريكية حينذاك، وكان التاريخ هو الخامس والعشرين من ديسمبر 1959 والذى يوافق الكريسماس، وكان نص البرقية: (آمنت بالله الواحد الأحد، وبمحمد نبيًا ورسولاً) لكن إشهار اعتناقى الرسمى للإسلام كان يفترض علىّ وفق الإجراءات القانونية أن ألتقى بلجنة من الكنيسة التى أنا منها لمراجعتى ومناقشتى.

وفى الوقت الذى رفضت جميع الشركات الأوروبية والأمريكية التعامل معى تشكلت اللجنة المعنية من سبعة قساوسة بدرجة الدكتوراه.. خاطبونى بالتهديد والوعيد أكثر من مناقشتى! وبالفعل تعرضت للطرد من شقتى لأننى تأخرت شهرين أو ثلاثة عن دفع الإيجار، واستمرت الكنيسة تدس على الدسائس أينما اتجهت.. وانقطعت أسباب تجارتى.. لكنى مضيت على الحق الذى اعتنقته... إلى أن قدر الله أن تبلغ أخبارى وزير الأوقاف حينذاك عبدالله طعيمة، والذى استدعانى لمقابلته وطلب منى بحضور الأستاذ الغزالى المساهمة فى العمل الإسلامى بوظيفة سكرتير لجنة الخبراء فى المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

ولما بلغت الستين، بدأت عملى كداعية إسلامى متفرغ، وكان أول ما نصرنى الله به أن التقيت مع الدكتور جميل غازى ـ رحمه الله ـ بـ 13 قسيسًا بالسودان فى مناظرة مفتوحة انتهت باعتناقهم الإسلام جميعًا، وهؤلاء كانوا سبب خير وهداية لغرب السودان حيث دخل الألوف من الوثنيين وغيرهم دين الله على أيديهم.

**يوسف استس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (يوسف استس)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد التقيت به فى رحلاتى التى وصفتها لك، وقد دار بينى وبينه هذا الحوار:

قلت له: من أنت؟

قال: كنت جوزيف إدوارد إستس، وأنا اليوم يوسف استس..

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: عظيم.. عظيم جدا.. إنه كالفرق بين القرآن والكتاب المقدس.. وكالفرق بين المسجد والكنيسة.. وكالفرق بين الحق والباطل.

قلت: أنا لم أنطق إلا باسمك الذى سماك به أبوك وأمك.

قال: ذلك فى ولادتى الأولى.

قلت: فهل ولدت ولادة ثانية؟

قال: لا يدخل الملكوت من لم يولد ولادة ثانية تخرجه من ربقة التقليد لتدخل فى حضرة الله..

قلت: كيف ولدت الولادة الثانية.. وما مخاضها؟

قال: تلك قصة طويلة سأختصرها لك اختصارا.

أصخت بسمعى، فراح يحدثنى بحرارة مشوبة بإيمان عظيم قائلا: أنا من الغرب الأوسط لأمريكا.. ولدت لعائلة نصرانية شديدة الالتزام بالنصرانية.. فآباؤنا وأجدادنا لم يبنوا الكنائس والمدارس فحسب، بل وهبوا أنفسهم لخدمة النصرانية.

بدأت بالدراسة الكنسية عندما اكتشفت أنى لا أعلم كثيرًا عن دينى، وبدأت أسأل أسئلة دون أن أجد أجوبة مناسبة لها، فدرست النصرانية حتى صرت قسيسًا وداعيًا من دعاة النصرانية، ومثل ذلك والدى..

وقد كنا بالإضافة إلى ذلك نعمل بالتجارة فى الأنظمة الموسيقية، وبيعها للكنائس، وعلى مدى 30 سنة لاحقة، عملت أنا وأبى معًا فى مشاريع تجارية كثيرة، وكان لدينا برامج

(1) انظر: عنوان موقعه: www.todayislam.com لقاء صوتى معه: الجزء الأول: http://www alhakekah.com/converts/ yousef1.mp3 الجزء الثانى: http://www.alhakekah. com/converts/yousef2.mp3

ترفيه وعروض كثيرة جذابة، وقد عزفنا البيانو والأورج فى تكساس وأوكلاهما وفلوريدا، وجمعت العديد من ملايين الدولارات فى تلك السنوات.

قلت: فهل اقتصرت دراستك على النصرانية؟

قال: لا.. لقد درست الهندوسية واليهودية والبوذية..

قلت: والإسلام!؟

قال: لقد كنت أبغض الإسلام والمسلمين بغضا شديدا.. فالصورة المشوهة التى وصلتنى، وارتسمت فى ذهنى عن المسلمين من أنهم أناس وثنيون لا يؤمنون بالله وأنهم يعبدون صندوقًا أسودًا فى الصحراء وأنهم همجيون وإرهابيون يقتلون من يخالف معتقدهم.. كل ذلك ملأ قلبى بغضا للإسلام والمسلمين.

قلت: فكيف تمكن الإسلام من قلبك وقد وصدت دون هدايته قلبك بحجب البغض؟

قال: مفاتيح القلوب بيد الله.. وقد شاء الله أن يفتح قلبى للإسلام، ويخلصنى من تلك الأحقاد التى كانت تملأ قلبى.

قلت: كيف كان ذلك؟

قال: كان ذلك فى عام 1991، عندما بدأ والدى عملاً تجاريًا مع رجل من مصر وطلب منى أن أقابله، طرأت لى هذه الفكرة وتخيلت الأهرامات وأبو الهول ونهر النيل وكل ذلك، ففرحت فى نفسى وقلت: سوف نتوسع فى تجارتنا، وتصبح تجارة دولية تمتد إلى أرض أبى الهول.. ذلك الضخم الجاثى على أرض مصر، ليملأ القلوب منها بالمهابة.

لكن والدى - وهو يعلم بغضى للإسلام - صارحنى بأنه من الضرورى أن نلتقى مع رجل أعمال مصرى مسلم.. فقلت منزعجًا: مسلم!! لا.. لن أقابله.

فقال والدى: لابد أن تقابله.

قلت: لا.. أبدًا.

لم يكن من الممكن أن أصدق أو أقبل أن أحاور مسلما.. ولهذا ذكرت أبى بما سمعنا عن هؤلاء المسلمين، وأنهم يعبدون صندوقًا أسود فى صحراء مكة.

لكن والدى أصر على أن أقابله، وأخبرنى أنه شخص لطيف جدًا، لذا استسلمت ووافقت على لقائه، ومع ذلك لما حضر موعد اللقاء أردت أن أغيظه، فلبست قبعة عليها صليب، ولبست عقدًا فيه صليب، وعلقت صليبًا كبيرًا فى حزامى، وأمسكت بنسخة من الإنجيل فى يدى، وحضرت إلى طاولة اللقاء بهذه الصورة.

لكنى عندما رأيته ارتبكت.. فلم تكن هيئته هيئة ذلك المسلم الذى كان يخطر على بالى.. لقد بدأ مرحبًا بنا وصافحنا، ولكن ذلك لم يعنِ لى شيئًا، فمازالت صورة المسلم الإرهابى تطغى على موقفى.

تطرقنا فى الحديث عن ديانته، وتهجمت على الإسلام والمسلمين حسب الصورة المشوهة التى كانت لدى، وكان هو هادئًا جدًا وامتص حماسى واندفاعى ببرودته. . وقد كان ذلك السلوك هو البدايه لإسلامى.

بادرت إلى سؤاله: هل تؤمن بالله؟

قال: أجل. .

قلت: ماذا عن إبراهيم. . هل تؤمن به؟. . وهل تؤمن بمحاولته التضحية بابنه لله؟

قال: نعم. .

قلت فى نفسى هذا جيد سيكون الأمر أسهل مما اعتقدت. .

ثم ذهبنا لتناول الشاى فى محل صغير، والتحدث عن المعتقدات. . فهى موضوعى المفضل. . وبقينا نتحدث لساعات. . وقد كان معظم الكلام لى، وقد وجدته لطيفًا جدًا، وهادئا وخجولاً، استمع بانتباه لكل كلمة، ولم يقاطعنى أبدًا.

وفى يوم من الأيام كان هذا الرجل، واسمه محمد عبد الرحمن، على وشك أن يترك المنزل الذى كان يتقاسمه مع صديق له، وكان يرغب أن يعيش فى المسجد لبعض الوقت.

حدثت أبى إذ كان بالإمكان أن ندعو محمدا للذهاب إلى بيتنا الكبير فى البلدة ويبقى هناك معنا. . ثم دعاه والدى للإقامة عندنا فى المنزل، وكان بالمنزل أنا وزوجتى ووالدى، ثم جاء هذا المسلم المصرى، واستضفنا كذلك قسيسًا آخر لكنه يتبع المذهب الكاثوليكى، فصرنا خمسة. . أربعة من علماء ودعاة النصارى، ومسلم مصرى عامى.

أما أنا ووالدى، فكنا من المذهب البروتستانتى. . والقسيس الآخر كان كاثوليكيا. أما زوجتى، فكانت من مذهب البورنجين، وهو مذهب متعصب له ميول صهيونية.

وكان لكل منا ثقافته الكنسية القوية. . فوالدى قرأ الإنجيل منذ صغره، وصار داعية وقسيسًا معترفا به فى الكنيسة، والقسيس الكاثوليكى له خبرة 12 عامًا فى دعوته فى القارتين الأمريكيتين، وأنا نفسى درست الإنجيل والمذاهب النصرانية واخترت بعضًا منها أثناء حياتى وانتهيت من حصولى على شهادة الدكتوراة فى العلوم اللاهوتية.

وهكذا انتقل للعيش معنا، وكان لدى الكثير من المنصرين فى ولاية تكساس، وكنت أعرف أحدهم، كان مريضًا فى المستشفى، وبعد أن تعافى دعوته للمكوث فى منزلنا أيضًا، وأثناء الرحلة إلى البيت تحدثت مع هذا القسيس عن بعض المفاهيم والمعتقدات فى الإسلام، وأدهشنى عندما أخبرنى أن القساوسة الكاثوليك يدرسون الإسلام، وينالون درجة الدكتوراه أحيانًا فى هذا الموضوع.

بعد الاستقرار فى المنزل بدأنا نتجمع حول المائدة بعد العشاء كل ليلة لمناقشة الديانة، وكان بيد كل منا نسخة إنجيل تختلف عن الأخرى، وكان لدى زوجتى إنجيل من نسخة جيمى

سواجارت للرجل المتدين الحديث، وكان لدى القسيس بالطبع الكتاب المقدس الكاثوليكى، كما كان عنده 7 كتب أخرى من الإنجيل البروتستانتى. وقد كان مع والدى فى تلك الفترة نسخة الملك جيمس وكانت معى نسخة الريفازد إيديشن (المُراجع والمكتوب من جديد) التى تقول: إن فى نسخة الملك جيمس الكثير من الأغلاط. . حيث إن قومنا لما رأوا كثرة الأخطاء فى نسخة الملك جيمس اضطروا إلى كتابته من جديد وتصحيح ما رأوه من أغلاط كبيرة، لذا قضينا معظم الوقت فى تحديد النسخة الأكثر صحة من هذه الأناجيل المختلفة، وركزنا جهودنا لإقناع محمد ليصبح نصرانيًا.

وكنا ـ نحن النصارى فى البيت ـ يحمل كل منا نسخة مختلفة من الإنجيل ونتناقش عن الاختلافات فى العقيدة النصرانية وفى الأناجيل المختلفة على مائدة مستديرة، والمسلم يجلس معنا ويتعجب من اختلاف أناجيلنا.

من جانب آخر كان القسيس الكاثوليكى لديه ردة فعل من كنيسته واعتراضات وتناقضات مع عقيدته ومذهبه الكاثوليكى، فمع أنه كان يدعو لهذا الدين والمذهب مدة 12 سنة، لكنه لم يكن يعتقد جازمًا أنه عقيدة صحيحة ويخالف فى أمور العقيدة المهمة.

ووالدى كان يعتقد أن هذا الإنجيل كتبه الناس وليس وحيًا من عند الله، ولكنهم كتبوه وظنوه وحيًا.

وزوجتى تعتقد أن فى إنجيلها أخطاء كثيرة، لكنها كانت ترى أن الأصل فيه أنه من عند الرب.

أما أنا فكانت هناك أمور فى الإنجيل لم أصدقها لأنى كنت أرى التناقضات الكثيرة فيه، فمن تلك الأمور أنى كنت أسأل نفسى وغيرى: كيف يكون الرب واحدًا وثلاثة فى نفس الوقت، وقد سألت القسس المشهورين عالميًا عن ذلك وأجابونى بأجوبة سخيفة جدًا لا يمكن للعاقل أن يصدقها، وقلت لهم: كيف يمكننى أن أكون داعية للنصرانية وأعلّم الناس أن الرب شخص واحد وثلاثة أشخاص فى نفس الوقت، وأنا غير مقتنع بذلك فكيف أقنع غيرى به.

بعضهم قال لى: لا تبيّن هذا الأمر ولا توضحه، قل للناس: هذا أمر غامض ويجب الإيمان به. . وبعضهم قال لى: يمكنك أن توضحه بأنه مثل التفاحة تحتوى على قشرة من الخارج ولب من الداخل وكذلك النوى فى داخلها، فقلت لهم: لا يمكن أن يضرب هذا مثلاً للرب، التفاحة فيها أكثر من حبة نوى فستتعدد الآلهة بذلك ويمكن أن يكون فيها دود فتتعدد الآلهة، وقد تكون نتنة وأنا لا أريد ربًا نتنًا.

وبعضهم قال: مثل البيضة فيها قشر وصفار وبياض، فقلت: لا يصح أن يكون هذا مثلاً للرب، فالبيضة قد يكون فها أكثر من صفار فتتعدد الآلهة، وقد تكون نتنة، وأنا لا أريد أن أعبد ربًا نتنًا.

وبعضهم قال: مثل رجل وامرأة وابن لهمـا، فقلت له: قد تحمل المرأة وتتعدد الآلهة، وقد يحصل طلاق فتتفرق الآلهة وقد يموت أحدها، وأنا لا أريد ربًّا هكذا.

وأنا منذ أن كنت نصرانيًا وقسـيسًا وداعية للنصرانية لم أستطع أن أقتنع بمسألة التثليث ولم أجد من يمكنه إقناع الإنسـان العاقل بها.

أتذكر أننى فى ذلك الحين سألت محمـدًا: كم نسخة من القرآن ظهرت طوال السنوات 1400 سنة الماضية؟

فأجابنى أنه ليس هناك إلا مصحف واحد، وأنه لم يتـغير أبدًا، وأكد لى أن القرآن قد حفظ فى صدور مئات الآلاف من الناس، ولو بحـثت على مدى قرون لوجدت أن الملايين قد حفظوه تمامًا وعلموه لمن بعدهم.

وهذا لم يبد ممكنًا بالنسبة لى.. كيف يمكن أن يحفظ هذا الكتاب المقدس ويسهل على الجميع قراءته ومعرفة معانيه.

كان بيننا حوار متـجرد واتفقنا على أن ما نقتنع به سندين به ونعتنقه فـيما بعد، وهكذا بدأنا الحوار معه، ولعل ما أثار إعجابى أثناء الحوار أن مـحمدًا لم يتعرض للتجريح أو التهجم على معتقداتنا أو إنجيلنا وأشخاصنا، وظل الجميع مرتاحين لحديثه.

وعلى العمـوم.. لما كنا نجلس فى بيتنا ـ نـحن النصارى الأربعة المتـدينين ـ مع المسلم المصرى (مـحمد) ونناقش مـسائل الاعتـقاد حرصنا أن ندعـو هذا المسلم إلى النصرانيـة بعدة طرق.. فكان جوابه محـددًا بقوله: أنا مستعـد أن أتبع دينكم إذا كان عندكم فى دينكم شىء أفضل من الذى عندى فى دينى.

قلنا: بالطبع يوجد عندنا.

فقال المسلم: أنا مستعد إذا أثبتم لى ذلك بالبرهان والدليل.

فقلـت له: الدين عندنا لم يرتبط بالبرهـان والاستدلال والعـقلانيـة.. إنه عندنا شىء مسلّم وهو مجرد اعتقاد محض! فكيف نثبته لك بالبرهان والدليل؟!

فقال المسلم: لكن الإسلام دين عقيدة وبرهان ودليل وعقل ووحى من السـماء.

فقلت له: إذا كـان عندكم الاعتماد عـلى جانب البرهان والاستـدلال، فإنى أحب أن أستفيد منك وأن أتعلم منك هذا وأعرفه.

بعدها تطرقنا لمسألة التثليث، وكل منا قرأ ما فى نسخته ولم نجد شيئًا واضحا[1]، سألنا محمدًا: ما هو اعتقادكم فى الرب فى الإسلام؟

(1) سترى فى رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة عدم وجود أى نص فى الكتاب المقدس عن التثليث أو ألوهية المسيح.

فقرأ سورة الإخـلاص، تلاها بالعربية ثم ترجم لنا معانيهـا.. وكأن صوته حين تلاها بالعـربيـة دخل فى قلبى.. بل إن صـوته لا زال يرن صداه فـى أذنى، ولاأزال أذكره.. أمـا معناها فلا يوجد أوضح ولا أفضل ولا أقوى ولا أوجز ولا أشمل منه إطلاقًا.

لقـد كان هذا الأمـر مثل المفـاجأة القـوية لنا.. مع مـا كنا نعيش فـيه من ضـلالات وتناقضات فى هذا الشأن وغيره.

ولما أردت دعـوته للنصـرانيـة قـال لى بكل هدوء ورجـاحـة عـقل: إذا أثبت لى بأن النصرانية أحق من الإسلام سأتبعك على دينك الذى تدعو إليه.

فقلت له: متفقين.

فقال: أين الأدلة التى تثبت أفضلية دينكم وأحقيته؟

قلت: نحن لا نؤمن بالأدلة، ولكن بالإحسـاس والمشاعر، ونلتمس ديننـا وما تحدثت عنه الأناجيل.

قال محمد: لـيس كافيًا أن يكون الإيمان بالإحساس والمشاعـر والاعتماد على علمنا، ولكن الإسلام فيه الدلائل والأحاسيس والمعجزات، التى تثبت أن الدين عند الله الإسلام.

طلبت هذه الدلائل من محمد، والتى تثبت أحقية الدين الإسلامى، فقال: إن أول هذه الأدلة هو كتـاب الله سبحـانه وتعالى القرآن الكريم الذى لم يطرأ عليـه تغييـر أو تحريف منذ نزوله على سيـدنا محـمد ﷺ قبل مـا يقرب من 1400 سنة، وهذا القرآن يـحفظه كثـير من الناس، إذ ما يقرب من 12 مليون مسلم يحفظون هذا الكتاب، ولا يوجد أى كتاب فى العالم على وجه الأرض يحفظـه الناس كما يحفظ المسلمون القـرآن الكريم من أوله لآخره.. وهذا مصدق لقوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)﴾ [الحجر]، وهذا الدليل كاف لإثبات أن الدين عند الله الإسلام.

من ذلك الحـين بدأتُ البـحث عن الأدلة الكافـية، التى تثـبت أن الإسـلام هو الدين الصحيح، وذلك لمدة ثلاثة شهـور بحثًا مستمرًا.. بعد هذه الفتـرة وجدت فى الكتاب المقدس أن العقيدة الصحيحة التى ينتمى إليها سيـدنا عيسى عليه السلام هى التوحيد وأننى لم أجد فيه أن الإله ثلاثة كما يدعون، ووجدت أن عيسى عبـدالله ورسوله وليس إلهًا، مثله كمثل الأنبياء جميعـا جاء يدعو إلى توحيد الله عز وجل، وأن الأديان السمـاوية لم تختلف حول ذات الله سبحانه وتعالى، وكلها تدعو إلى العقيـدة الثابتة بأنه لا إله إلا الله بما فيها الدين المسيحى قبل أن يفترى عليه بهتانا، ولقد علمت أن الإسلام جاء ليختم الرسالات السماوية ويكملها ويخرج الناس من حياة الشرك إلى التوحيد والإيمان بالله تعالى، وأن دخولى فى الإسلام سوف يكون إكمالا لإيمانى بأن الدين المسيحى كان يدعـو إلى الإيمان بالله وحده، وأن عيسى هو عبدالله ورسوله، ومن لا يؤمن بذلك فهو ليس من المسلمين.

ثم وجدت أن الله سبحانه وتعالى تحدى الكفار بالقرآن الكريم أن يأتوا بمثله أو يأتون بثلاث آيات مثل سورة الكوثر فعجزوا عن ذلك.

ومن المعجزات التى رأيتها والتى تثبت أن الدين عند الله الإسلام التنبؤات المستقبلية التى تنبأ بها القرآن الكريم مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم]، وهذا ما تحقق بالفعل فيما بعد.. وأشياء أخرى ذكرت فى القرآن الكريم مثل وصول الإنسان إلى الفضاء بالعلم، وهذا تفسير لمعنى الآية التى تقول: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ۝٣٣﴾ [الرحمن]، وهذا السلطان هو العلم الذى خرق به الإنسان الفضاء، فهذه رؤية صادقة للقرآن الكريم.

ومن المعجزات التى تركت أثرًا فى نفسى (العلقة)، التى ذكرها الله فى القرآن الكريم، والتى وضحها العالم الكندى (كوسمر)، وقال: إن العلقة هى التى تتعلق برحم الأم، وذلك بعدما تتحول الحيوانات المنوية فى الرحم إلى لون دموى معلق. وهذا بالفعل ما ذكره القرآن الكريم من قبل أن يكتشفه علماء الأجنة فى العصر الحديث، وهذا بيان للكفار والملحدين.

وبعد كل هذا البحث الذى استمر ثلاثة شهور، قضاها معنا محمد تحت سقف واحد، بسبب ذلك اكتسب ود الكثيرين، وعندما كنت أراه يسجد لله ويضع جبهته على الأرض، أعلم أن ذلك الأمر غير عادى.

قلت: أراك قد تأثرت كثيرا بشخص محمد.

قال: أجل.. لقد كان باب هدايتى بسلوكه الرفيع، وخلقه العظيم..

وفى يوم من الأيام طلب صديقى القسيس من محمد أن نذهب معه إلى المسجد، لنتعرف أكثر عن عبادة المسلمين وصلاتهم، فرأينا المصلين يأتون إلى المسجد يصلون ثم يغادرون دون أى خطب أو غناء.

مضت أيام وسأل القسيس محمداً، أن يرافقه إلى المسجد مرة ثانية، ولكنهم تأخروا هذه المرة حتى حل الظلام.. قلقنا بعض الشىء.. وأخيراً وصلوا، وعندما فتحت الباب.. عرفت محمدا على الفور لكنى لم أعرف من معه، وكان شخصا يلبس ثوبًا أبيض وقلنسوة.

لقد كان ذلك الشخص هو صاحبى القسيس.. فقلت له: هل أصبحت مسلمًا؟

قال: نعم أصبحت من اليوم مسلمًا!

ذهلت.. كيف سبقنى هذا إلى الإسلام.. ثم ذهبت إلى أعلى للتفكير فى الأمور قليلاً، وبدأت أتحدث مع زوجتى عن الموضوع، فقالت لى: أظن أنى لن أستمر بعلاقتى معك طويلاً.

فقلت لها: لماذا؟ . . هل تظنين أنى سأسلم؟

قالت: لا . . بل لأنى أنا التى سوف تسلم!

فقلت لها: وأنا أيضًا فى الحقيقة أريد أن أسلم.

قال: فخرجت من باب البيت، وخررت على الأرض ساجدًا تجاه القبلة وقلت: يا رب. . اهدنى.

ذهبت إلى أسفل، وأيقظت محمدًا، وطلبت منه أن يأتى لمناقشة الأمر معى. . مشينا وتكلمنا طوال تلك الليلة، وحان وقت صلاة الفجر. . وعندها أيقنت أن الحقيقة قد ملأت قلبى، وأصبحت الفرصة مهيأة أمامى. . أذن الفجر، ثم استلقيت على لوح خشبى ووضعت رأسى على الأرض، وسألت إلهى أن يرشدنى. . وبعد فترة رفعت رأسى إلى أعلى فلم ألحظ شيئًا، ولم أر طيوراً أو ملائكة تنزل من السماء، ولم أسمع أصواتًا أو موسيقى، ولم أر أضواء.

أدركت أن الأمر أصبح مواتيًا والتوقيت مناسبًا، لكى أتوقف عن خداع نفسى، وأنه ينبغى أن أصبح مستقيمًا مسلمًا. . عرفت ما يجب على فعله.

وفى الحادية عشرة صباحًا وقفت بين شاهدين: القسيس السابق، والذى كان يعرف سابقًا بـ (الأب بيتر جاكوب)، ومحمد عبدالرحمن، وأعلنت شهادتى، وبعد لحظات قليلة أعلنت زوجتى إسلامها بعد ما سمعت بإسلامى.

وكان أبى أكثر تحفظًا على الموضوع، وانتظر شهوراً قبل أن ينطق بالشهادتين.

قلت: أرى أن محمدا ذلك الرجل المسلم قد أثر فيكم كثيرا.

قال: أجل. . فإسلامنا جميعًا كان بفضل الله، ثم بالقدوة الحسنة فى ذلك المسلم الذى كان حسن الدعوة، وكان قبل ذلك حسن التعامل. . لقد نفذ بحرفية ما يقال عندنا: لا تقل لى. . ولكن أرنى.

لقد دخلنا ـ نحن الثلاثة المثقفين ثقافة دينية واسعة. . ومن ثلاث طوائف مختلفة ـ الإسلام دفعة واحدة، وسلكنا طريقًا معاكسًا جدًا لما كنا نعتقد. .ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل فى السنة نفسها دخل طالب معهد لاهوتى معمد من (تينسى) يدعى (جو) فى الإسلام بعد أن قرأ القرآن، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل رأيت كثيرًا من الأساقفة والقساوسة، وأرباب الديانات الأخرى يدخلون الإسلام ويتركون معتقداتهم السابقة.

قلت: فماذا تعمل الآن؟

قال: لقد تعلق قلبى بحب الإسلام وحب الوحدانية والإيمان بالله تعالى، وأصبحت أغار على الإسلام أشد من غيرتى قبله على النصرانية.

ولم أكتف بهـذا التعلق، بل بدأت رحلة الدعوة إلى الإسـلام وتقديم الصورة النقـية، التى عرفتها عن الدين الإسلامى، الذى هو دين السماحة والخلق، ودين العطف والرحمة.

**الدكتور وديع أحمد:**

من الأسمـاء التى رأيتها فى دفـتر البابا فى هذا الفـصل اسم (الدكتور وديع أحـمد)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان شماسا، وقد التقيت به فى مصر.. وقد حدثنى عن رحلته إلى الإسلام، وكيفية تخلصه من الشبهـات الكثيرة التى وضعت فى طريقه، فقال: لقد مررت برحلة طويلة قاربت 40 عاما إلى أن هدانى الله للإسلام..

فى البداية.. كـنت من عائلة متـدينة، وقد أصـر أبى ـ وقد كان واعظا فـى جمعـية أصدقاء الكتاب المقدس، وكانت مهنته التبشير فى القرى المحيطة والمناطق الفقيرة لمحاولة جذب فقراء المسلمين إلى المسـيحية ـ أن أنضم إلى الشمامسـة منذ أن كان عمرى ست سنوات، وأن أنتظم فى دروس مدارس الأحد.

وفيها تلقيت أخطر الشبهات عن الإسلام والمسلمـين، ومنها أن المسلمين اغتصبوا مصر من المسيحـيين وعذبوا المسيحيـين.. ومنها أن المسلمين يضطهدون النصارى لكى يتـركوا مصر ويهاجروا.. ومنها أن المسلم أشد كفرا من البـوذى وعابد البقر.. ومنها أن القرآن ليس كتاب الله ولكن محمدًا اختـرعه.. وغير ذلك من الشبهات التى تزرع الحقـد الأسود ضد المسلمين فى القلوب.

لكن الله شاء أن يقيض لنا فى هذه الفترة من يقف فى وجه هذه الشبهات.. وقد كان أبى هو ذلك النور المبدد لظلمات الشبهات.. لقد كـان فى هذه الفترة المحرجة يتكلم معنا سرا عن انحراف الكنـائس عن المسيحـية الحقـيقيـة التى تحرم الصور والتـماثيل والسـجود للبطرك والاعتراف للقساوسة.

قلت: كـيف يكون ذلك، وقـد ذكـرت لى أنـه هو الذى أصر علـى أن تكون من الشمامسة؟

قال: لسـت أدرى.. ولكـنى لا أزال محتـارا فى شأنه.. لقد كـان يمارس فى حـياته أشياء كثيرة لا تدل إلا على أنه مسلم يكتم إسلامه.. وقد كان ذلك من أهم أسباب هدايتى.

فقـد هجر الكنائس والوعظ والجمـعيات التـبشيـرية تماما.. وكان يرفض تقـبيل أيدى الكهنة (وهذا أمر عظيم عند النصـارى).. وكان لا يؤمن بالجسد والدم (الخبـز والخمر) أى لا يؤمن بتجسيد الإله.. وبدلاً من نزوله صباح يوم الجـمعة للصلاة أصبح ينام ثم يغتسل وينزل وقت الظهر.. وكان ينتحل الأعذار للنزول وقت العصر والعودة متأخرا وقت العشاء.

ومما قوى هذا الموقف عندى أنـه صار ينطق بألفاظ جـديدة لم يكن يقولها مـثل (أعوذ بالله من الشيطان) (لا حول ولا قوة إلا بالله)..

وقد وجدت بعد موته عام 1988 بالإنجيل الخاص به قصاصات ورق صغيرة يوضح فيها أخطاء موجودة بالأناجيل وتصحيحها.. بل عثرت على إنجيل جدى (والد أبى) طبعة 1930 وفيها توضيح كامل عن التغيرات التى أحدثها النصارى فيه منها تحويل كلمة (يا معلم) و(يا سيد) إلى (يا رب) ليوهموا القارئ أن عبادة المسيح كانت منذ ولادته.

قلت: إن كل ما ذكرته أدلة قوية تشير إلى إسلامه.. ولكن لم كان يكتمه؟

قال: ألم تسمع بقول اللورد هدلى؟

قلت: تقصد قوله: «إننى أعتقد أن هناك آلافًا من الرجال والنساء أيضًا، مسلمون قلبًا، ولكن خوف الانتقاد والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم».

قال: أجل.. ولو أن هذه الحواجز النفسية رفعت لرأيت غير ما ترى، وسمعت غير ما تسمع.

قلت: فكيف أزلت أنت هذه الحواجز النفسية؟

قال: ذلك فضل الله.. وتلك هدايته التى ملأ بها قلبى، مع أنى تعرضت لحواجز كثيرة اجتمعت على أن تحول بين قلبى وبين الإيمان.. لكن الله بفضله وكرمه رفعها عنى.

لقد صرت أستاذًا فى مدارس الأحد ومعلما للشمامسة، وكان عمرى 18 سنة، وكان على أن أحضر دروس الوعظ بالكنيسة والزيارة الدورية للأديرة (خاصة فى الصيف) حيث يتم استدعاء متخصصين فى مهاجمة الإسلام والنقد اللاذع للقرآن ومحمد ﷺ.

لقد كانوا فى تلك الاجتماعات يذكرون لنا أن القرآن مليء بالمتناقضات، ثم يذكرون نصف آية مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ ... ﴿٤٣﴾﴾ [النساء] ويقطعونها لتتوهم أن القرآن ينهى عن الصلاة.

بل كانوا ـ أكثر من ذلك ـ يذكرون أن القرآن مليء بالألفاظ الجنسية ويفسرون كلمة (نكاح) على أنها الزنا أو اللواط.

وكانوا يذكرون لنا يقولون أن النبى محمدًا ﷺ قد أخذ تعاليم النصرانية من (بحيرا) الراهب، ثم حورها واخترع بها دين الإسلام، ثم قتل بحيرا حتى لا يفتضح أمره[1]..

وقد كنت فى تلك الفترة أسمع أسئلة محيرة من الشباب الحاضر كانت ـ هى الأخرى ـ من أهم أسباب هدايتى.

من ذلك أن شابا سأل أحد القساوسة قائلا: ما رأيك بمحمد؟

فقال القسيس: هو إنسان عبقرى وذكى.

(1) ذكرنا الجدليات الكثيرة التى يبثها المبشرون، والمرتبطة بهذا فى الرسالة السابقة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود).

فقال الشاب: هناك الكثير من العباقرة مثل (أفلاطون، سقراط، حامورابى. . . .) ولكن لم نجد لهم أتباعا ودينا ينتشر بهذه السرعة إلى يومنا هذا؟ لماذا؟

فيتهرب القسيس من الإجابة. . أو يغالطه بطريقة ذكية تصرفه عن سؤاله.

ومنها أن شابا سأل قسيسا: ما رأيك فى القرآن؟

فأجاب القسيس: كتاب يحتوى على قصص للأنبياء ويحض الناس على الفضائل ولكنه ملىء بالأخطاء.

فقال الشاب: لماذا تخافون أن نقرأه، وتكفرون من يلمسه أو يقرأه؟

فيصر القسيس أن من يقرأه كافر دون توضيح السبب.

ومنها أن آخر سأل: إذا كان محمد كاذباً فلماذا تركه الله ينشر دعوته 23 سنة؟ بل ومازال دينه ينتشر إلى الآن مع أنه مكتوب فى كتاب موسى (كتاب ارميا) أن الله وعد بإهلاك كل إنسان يدعى النبوة هو وأسرته فى خلال عام؟

فيجيب القسيس: لعل الله يريد أن يختبر المسيحيين به.

بالإضافة إلى هذا. . فقد مررت فى حياتى بمواقف كثيرة محيرة. . كلها كانت أشعة اهتديت بها إلى شمس محمد.

منها أن البطرك (. . !؟) أصدر فى عام 1971 قرارا بحرمان الراهب (. . !؟) ـ وهو راهب بدير مينا ـ من الصلاة لأنه لم يذكر اسمه فى الصلاة، وقد حاول إقناعه الراهب (. . !؟) بالصلاة فإنه يصلى لله، وليس للبطرك ولكنه خاف من البطرك أن يحرمه من الجنة أيضا.

وقد تساءل هذا الراهب: هل يجرؤ شيخ الأزهر أن يحرم مسلما من الصلاة؟

لقد كان أشد ما يحيرنى هو معرفتى بتكفير كل طائفة مسيحية للأخرى، فلهذا سألت القمص (. . !؟)، وهو أب اعترافى، فأكد هذا وأن هذا التكفير نافذ فى الأرض والسماء.

فسألته متعجبا: هل معنى هذا أننا كفار لتكفير بابا روما لنا؟

أجاب: للأسف. . نعم.

سألته: وباقى الطوائف كفار بسبب تكفير بطرك الإسكندرية لهم؟

أجاب: للأسف. . نعم.

سألته: وما موقفنا إذا يوم القيامة؟

أجاب: الله يرحمنا!!!

وفوق هذا كنت كلما دخلت الكنيسة، ووجدت صورة المسيح وتمثاله يعلو هيكلها سألت نفسى: كيف يكون هذا الضعيف المهان الذى استهزأ به اليهود وعذبوه ربًا وإلهًا!؟

المفروض أن أعبد رب هذا الضعيف الهارب من بطش اليهود، وتعجبت حين علمت أن التوراة قد لعنت الصليب والمصلوب عليه وأنه نجس وينجس الأرض التى يصلب عليها، كما فى (تثنية 21: 22 - 23).

وفوق هذا كله فقد كان لى جار مسلم وكنت كثير الجدل معه، وذات يوم كلمنى عن العدل فى الإسلام (فى الميراث، فى الطلاق، القصاص. . .) ثم سألنى هل عندكم مثل ذلك؟ فأجبت: لا. . لا يوجد. .

وبدأت أسأل نفسى: كيف أتى رجل واحد بكل هذه التشريعات المحكمة والكاملة فى العبادات والمعاملات بدون اختلافات؟. . وكيف عجزت مليارات اليهود والنصارى عن إثبات أنه مخترع؟

بالإضافة إلى هذا كله كنت أسمع أحاديث الدكتور محمد الشاطبى ـ وقد كنت حينها طبيبا فى مستشفى (صدر كوم الشقافة) ـ وقد كان دائم التحدث مع الزملاء عن أحاديث محمد ﷺ، وكنت فى بداية الأمر أشعر بنار الغيرة، ولكن بعد مرور الوقت أحببت سماع هذه الأحاديث التى كانت قليلة فى ألفاظها كثيرة فى معانيها، جميلة الألفاظ والسياق. . وقد شعرت وقتها أن محمدا نبى عظيم.

وكان بالقرب من عيادتى مسجد. . أقترب منه، وأخذت أنظر بداخله، فوجدته لا يشبه الكنيسة مطلقا (لا مقاعد - لا رسومات - لا ثريات ضخمة - لا سجاد فخم - لا أدوات موسيقى وإيقاع - لا غناء لا تصفيق) ووجدت أن العبادة فى هذه المساجد هى الركوع والسجود لله فقط، لا فرق بين غنى وفقير يقفون جميعا فى صفوف منتظمة وقارنت بين ذلك وعكسه الذى يحدث فى الكنائس فكانت المقارنة دائما لصالح المساجد.

ثم حبب الله إلىَّ القرآن. . فاشتريت مصحفا، وتذكرت أن صديقى أحمد الدمرداش ذكر أن القرآن: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة] فاغتسلت[1] ولم أجد غير ماء بارد وقتها، ثم قرأت القرآن، وكنت أخشى أن أجد فيه اختلافات (بعد ما ضاعت ثقتى فى التوراة والإنجيل)، وقرأت القرآن فى يومين ولكنى لم أجد ما كانوا يعلموننا إياه فى الكنيسة عن القرآن.

بل رأيت أن من يكلم محمدا ﷺ يخبره أنه سوف يموت. . ولا يجرؤ أن يتكلم هكذا إلا الله. .

---

(1) ذكرنا فى مناسبات كثيرة أن هذا ليس شرطا فى قراءة القرآن، ومن اشترطه فقد بعد كثيرا عن الصواب. ذلك أن الاغتسال يتطلب نية بالصفة الشرعية، والنية المرادة هى التقرب إلى الله، وذلك لا يكون إلا بالإسلام.

وقد فصلنا المسألة بتفاصيلها فى السلاسل الفقهية خاصة (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد).

بعد كل هذا دعوت الله أن يهدينى ويرشدنى . .

وذات يوم غلبنى النوم، فوضعت المصحف بجوارى . . وقرب الفجر رأيت نورا فى جدار الحجرة، وظهر رجل وجهه مضىء اقترب منى، وأشار إلى المصحف، فمددت يدى لأسلم عليه لكنه اختفى . . وقد وقع فى قلبى أن هذا الرجل هو النبى محمد ﷺ يشير إلى أن القرآن هو طريق النور والهداية .

وقد كان ذلك من الأسباب الكبرى لإسلامى .

قلت: لم تكتف بما يفعل الكثير من التكتم على إسلامهم .

قال: أجل . . لقد سألت أحد المحامين عن كيفية دخول الإسلام، فدلنى على قسم الشئون الدينية لمديرية الأمن . . ولم أنم تلك الليلة التى امتلأت فيها بوساوس الشياطين .

لكنى لم أهتم لها . . خرجت فى السادسة صباحا ودخلت كنيسة ( . . !؟) وكانت الصلاة قائمة، وكانت الصالة مليئة بالصور والتماثيل للمسيح ومريم والحواريين وآخرين إلى البطرك السابق ( . . !؟) فكلمتهم: «لو أنكم على حق وتفعلون المعجزات كما كانوا يعلموننا فافعلوا أى شىء . . أى علامة أو إشارة لأعلم أننى أسير فى الطريق الخطأ» . . وبالطبع لم أجد أى إجابة .

لقد بكيت ـ حينها ـ كثيرا على عمر طويل ضاع فى عبادة هذه الصور والتماثيل . . وبعد البكاء شعرت أننى تطهرت من الوثنية، وأننى أسير فى الطريق الصحيح، طريق عبادة الله حقا .

ذهبت إلى المديرية وبدأت رحلة طويلة شاقة مع الروتين، ومعاناة مع البيروقراطية وظنون الناس، وبعد عشرة شهور تم إشهار إسلامى من الشهر العقارى فى أغسطس 1992 .

**أبو بكر موايبوبو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (أبو بكر موايبوبو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مارتن جون موايبوبو . . اسمه الأصلى (مارتن جون موايبوبو)، وقد أصبح بعد إعلانه الإسلام معروفًا باسم (الحاج أبو بكر جون موايبوبو)، وهو رئيس الأساقفة اللوثرىّ التنزانىّ .

قلت: فهل التقيت به؟

قال: أجل . .

قلت: كيف تم ذلك؟ . . وماذا قال لك؟

قال: كنت فى ذلك اليوم الذى أعلن فيه هذا الرجل إسلامه فى تنزانيا . . لقد كان ذلك فى الثالث والعشرين من شهر كانون الأوّل لعام 1986 . . أى قبل يومين من أعياد الميلاد . .

لقد كنت في الكنيسة مع حشد من المصلين نستمع إليه، وهو يعزف آلاته الموسيقيَّة بطريقةٍ تثير مشاعر الجميع. . ولم نكن نعرف ذلك الحين ما يجول في خاطر الأسقف.

فجأة نهض، وأعلن إسلامه بقوة لا نظير لها، وكأنه يتحدانا، أو كأنه يتحدى نفسه التي كانت تحول بينه وبين ذلك الإعلان. . أو كأنه يتذكر يوم الزينة الذي فاجأ فيه السحرة فرعون والناس جميعا بإعلان إسلامهم لله.

ما إن فعل ذلك حتى وقع حشد المصلِّين في حالة شللٍ تام للصدمة الَّتي أصابتهم لسماع هذا الخبر، إلى درجة أنَّ مساعد الأسقف قام من مقعده فأغلق الباب والنوافذ، وصرَّح لأعضاء الكنيسة بأنَّ رئيس الأساقفة قد جُنّ.

وفورا اتَّصلوا بقوات الأمن لأخذ الرَّجل المجنون. . فجاءوا، وتحفَّظوا عليه في الزنزانة حتَّى منتصف الليل، إلى أن جاء الشَّيخ أحمد شيخ ـ وهو الرَّجل الَّذي حثَّه على دخول الإسلام ـ وكفله لإطلاق سراحه.

ولم يكن ذلك إلا بداية للآلام الكثيرة التي تعرض لها. .

لقد تعرفت هناك على صحفي اسمه (سيمفيوى سيسانتي)، وهو صحفيٌّ من صحيفة القلم، وقد أخبرني بلقائه به، وقد ذكر لي أن هذا الأسقف لم يكن رجلا عاديا، ولا رجل دين بسيط. .

فهو لم يحصل فقط على شهادتي البكالوريوس والماجستير في اللاهوت، بل لديه شهادة الدكتوراه في اللاهوت والتي حصل عليها من الإدارة الكنسيَّة في إنجلترا، بالإضافة إلى باقي الدَّرجات العلميَّة التي حصل عليها من برلين في ألمانيا.

ولهذا المستوى العلمي نصب أمينا عاما لمجلس الكنائس العالميّ لشؤون إفريقيا ـ والتي تشمل تنزانيا وكينيا وأوغندا وبوروندي وأجزاء من أثيوبيا والصُّومال ـ وكان منصبه في مجلس الكنائس يفوق الرئيس الحاليّ للجنة حقوق الإنسان الجنوب إفريقيَّة بارني بيتيانا، ورئيس لجنة المصالحة الوطنيَّة الأسقف ديسموند توتو.

وذكر لي أن الرجلٍ وُلد قبل 61 عامًا في بوكابو، وهي منطقةٌ على الحدود مع أوغندا من عائلة اهتمت بتنشئته تنشئة دينية، فبعد سنتين من ولادته قامت عائلته بتعميده؛ وبعد خمس سنواتٍ كانت تراقبه بفخرٍ وهو يصبح خادم المذبح في القُدَّاس.

وقد أخبر أبو بكر عن رغبة والده في انضمامه للكنيسة، وقد حصل هذا في الخامسة والعشرين من عمره، حيث استسلم لرغبة والده الذي كان يقول له: «يا بنيّ، قبل أن أغمض عيني (أموت)، سأكون مسرورًا إنْ أصبحتَ راهبًا».

وهذا القرار هو الَّذى قاده إلى إنجلترا عام 1964 للحصول على الدبلوم فى إدارة الكنائس؛ وبعد ذلك بسنة سار إلى ألمانيا للحصول على البكالوريوس، وبعودته بعد عامٍ أصبح أسقفًا عاملاً، وفيما بعد رجع ليحصل على الماجستير.

وقد كان إلى هذا الوقت مقلدا محضا، ولكنه فى أثناء تحضيره للدكتوراه بدأ يخرج من ربقة التقليد، وقد ذكر لى أنه قال له: «بدأت أتساءل باندهاش، فهناك المسيحيَّة والإسلام واليهوديَّة والبوذيَّة، وكلُّ دينٍ منها يدَّعى أنَّه الحقّ؛ فما هى الحقيقة؟ كنت أريد الحقيقة».

وهكذا بدأ بحثه حتى اختزله إلى الأديان الرئيسيَّة الأربعة.. ثم حصل على نسخةٍ من القرآن الكريم..

وقد ذكر موايبوبو ذلك قائلاً: «حين فتحت القرآن الكريم، كانت الآيات الأولى الَّتى أقرأها هى سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾.

وقد كانت هذه الآيات هى البذور التى نبتت بها بعد ذلك شجرة إسلامه.. وفى ذلك الوقت اكتشف بأنَّ القرآن الكريم هو الكتاب المقدَّس الوحيد الَّذى لم يحصل له أى تشويه.

قال: «وهذا ما قُلْته كخاتمة فى رسالتى للدكتوراه. ولم يكن يهمُّنى إنْ كانوا سيمنحون الدكتوراه أم لا، لأنَّ هذه هى الحقيقة؛ وأنا كنت أبحث عن الحقيقة».

وفى حالته الذهنيَّة هذه، ذهب إلى أستاذه المحبوب فان بيرغر، وقد أخبر عن نص الحوار الذى جرى بينهما، فقال: «أغلقت الباب، ثمَّ نظرت إليه فى عينيه، وسألته: من كلِّ الأديان الَّتى فى الدُّنيا، أيُّها هو الدِّين الحقّ؟ فأجابنى: «الإسلام»، فسألته: «فلماذا أنت إذًا لست مسلمًا؟» فقال لى: «أولاً: أنا أكره العرب؛ وثانيًا: هل أنت ترى كلَّ هذا الترف الَّذى أنعم فيه؟ فهل تعتقد بأنِّى سأتخلَّى عن كلِّ ذلك من أجل الإسلام؟» وعندما تفكَّرت بجوابه، بدأت أتفكَّر بحالتى الخاصَّة أيضًا».

فمنصب موايبوبو، وسياراته، كلُّ ذلك خطر على باله.. ولذلك لم يستطع إعلان إسلامه.. وهكذا ظل لسنةٍ كاملةٍ ممتلئا بهذه المخاوف إلى أن استطاع أن يقف فى وجهها فى تلك اللحظة الحرجة.

وقد ذكر لهذا الصحفى عن فضل الله الذى تداركه برؤى بدأت تلاحقه، وآياتٌ من القرآن الكريم دوامت على الظُّهور أمامه، وأُناسٌ موشحون بالبياض يأتون إليه، خاصَّةً فى أيَّام الجُمَع، حتَّى لم يستطع أن يقاوم أكثر.

قلت للصحفى: ألم تكن تلك الرؤى.. ومخاوفه منها ترجع للطَّبيعة الخُرافيَّة للأفارقة؟

قال لى الصحفى: لقد سألت موايبوبو هذا السؤال، فأجابنى: لا؛ لا أظنُّ بأن كلَّ الرُّؤى سيِّئة.. فإنَّ هناك تلك الرُّؤى الَّتى تهديك للاتجاه الصَّحيح، وتلك الَّتى لا تفعل ذلك.. أمَّا هذه -على وجه الخصوص- فقد قادتنى إلى الطَّريق الصَّحيح، إلى الإسلام».

بعد فترة سمعت بما حصل لهذا الأسقف نتيجة إشهار إسلامه، فقد علمت بأن الكنيسة قامت بتجريده من بيته وسياراته، ولم تستطع زوجه تحمُّل ذلك، فحزمت حقائبها وأخذت أولادها وتركته، وذلك على الرغم من تأكيد موايبويو لها بأنَّها ليست مُلزمةً بدخول الإسلام. وعندما ذهب إلى والديه، اللَّذيْن كانا أيضًا قد سمعا بقصَّته، وقد طلب منه أبوه انتقاد الإسلام علانيةً، ومثل ذلك أمه، ولكنه ظل ثابتا على موقفه.

بعد أن أصبح وحيدا اضطر إلى الرحيل إلى حيث تنتمي عائلته أصلاً، على الحدود بين تنزانيا ومالاوى. . وخلال رحلته جنَح إلى بروسيل حيث التقى بزوجته، وهى راهبةٌ كاثوليكيَّةٌ اسمها الأخت (جيرترود كيبويا)، وهى تُعرف الآن باسم الأخت زينت، ومعها سافر إلى كايلا، حيث أخبره العجوز الَّذى منحه المأوى فى الليلة السَّابقة بأنه هناك سيجد مسلمين آخرين، ولكن قبل ذلك، وفى صباح ذلك اليوم رفع الأذان للصَّلاة، وهو الشىء الَّذى جعل القرويِّين يخرجون من منازلهم سائلين المضيف كيف يؤوى رجلاً مجنونًا.

لكن الراهبة ـ التى تزوج بها بعد ذلك ـ هى التى صرفت عنهم هذه النظرة، وقد كانت هى الَّتى ساعدته فيما بعد على دفع النَّفقات العلاجيَّة لمشفى الإرساليَّة الأنجليكانيَّة حين كان مريضًا جدا.

وأخبرنى أنه سألها: لماذا ترتدى الصَّليب فى سلسلة على صدرها، فكان أن أجابت بأنَّ ذلك لأنَّ المسيح قد صُلب عليه، وقد رد عليها بأنه (لنَقُلْ إن أحدهم قتل أباك ببندقيَّة، فهل كنت ستتجولَّين حاملةً البندقيَّة على صدرك؟).

لقد جعل ذلك الراهبة تفكِّر. . وحين عرض عليها الأسقف الزواج لاحقًا، كان جوابها بالإيجاب، فتزوَّجا سرا، وبعد أربعة أسابيع كتبت إلى مسؤوليها تُعلِمهم بأنَّها تركت الرَّهبنة.

وقد سمع الشَّيخ الَّذى قدَّم لهما المأوى ـ وهو خال الرَّاهبة ـ بهذا الزواج؛ وفى لحظة وصولهما إلى بيته نُصحا بالهرب، لأنَّ الشَّيخ كان يُعبِّئ بندقيَّته، وكان والد الرَّاهبة غاضبًا ومتوحِّشًا كالأسد.

انتقل موايبويو من رفاهية منزل رئيس الأساقفة ليعيش فى بيتٍ مبنى من الطِّين، وبدلاً من راتبه الكبير كعضوٍ فى المجلس الكنسىِّ العالمىِّ كأمينٍ عام لشرق إفريقيا، بدأ بكسب قوته كحطَّابٍ، وحرَّاثٍ لأراضى الآخرين.

وفى الأوقات الَّتى لم يكن يعمل فيها كان يدعو إلى الإسلام علانية، ممَّا قاده إلى سلسلةٍ من الأحكام القصيرة بالسِّجن لعدم احترام المسيحيَّة.

وحين كان يؤدِّى فريضة الحجِّ فى عام 1988، حدث بلاء آخر، حيث فُجِّر بيته، وترتب على ذلك قتل أطفاله التوائم الثلاثة.

وقد ذكر أن من المتسببين فى ذلك الأسقف ـ الذى هو ابن خالته ـ ويذكر أنَّه بدلاً من أن يحبطه ذلك فقد فعل العكس، لأنَّ عدد الَّذين كانوا يعلنون إسلامهم كان يزداد، وهذا يشمل حماه أيضًا.

وفى عام 1992 اعتُقِل لمدَّة عشرة أشهرٍ مع سبعين من أتباعه، اتُّهموا بالخيانة، وكان ذلك بعد تفجير بعض محلات بيع لحم الخنزير الَّتى كان قد تحدَّث ضدَّها[1]، وبعد ذلك مباشرةً هاجر إلى زامبيا منفيا؛ وذلك بعد أن نُصِحَ بأنَّ هناك مؤامرة لقتله.

وذكر بأنَّه فى كلِّ يومٍ كان يُطلق فيه سراحه، كانت الشرطة تأتى لتعتقله مُجدَّدًا، يقول موايبوبو: «لقد قالت النِّساء بأنَّهن لن يسمحن بذلك! وبأنَّهم سيقاومن اعتقالى من قبل قوات الأمن بأجسادهن، وكانت النِّساء أيضًا هنَّ اللواتى ساعدننى على الهرب عبر الحدود مُتخفيًا؛ فقد ألبسننى ملابس النِّساء!».

وهذا هو أحد الأسباب التى جعلته يُقدِّر دور النِّساء: «يجب أن تُعطى النِّساء مكانةً رفيعةً، وأن يُمنحن تعليمًا إسلاميا جيِّدًا، وإلا فكيف يمكن للمرأة أن تتفهَّم لماذا يتزوَّج الرَّجل أكثر من امرأةٍ واحدة.. لقد كانت زوجتى زينب هى من اقترحت علىَّ بأنِّى يجب أن أتزوَّج بزوجتى الثَّانيةِ ـ صديقتها شيلا ـ حين كان يتوجَّب عليها السَّفر إلى الخارج من أجل الدِّراسات الإسلاميَّة».

وقد صادف أن لقيته مرة بعد هذا، وهو يخطب فى جمع من المسلمين، وهو يقول لهم ناصحا: «إنَّ هناك حربًا على الإسلام.. وقد أغرقوا العالم بالمطبوعات.. والآن بالتحديد يعملون على جعل المسلمين يشعرون بالعار بوصفهم لهم بالأصوليِّين، فيجب على المسلمين ألا يقفوا عند طموحاتهم الشَّخصيَّة، ويجب عليهم أن يتَّحدوا، فعليك أن تدافع عن جارك إن كنت تريد أن تكون أنت فى أمان».

سمعته يقول ذلك، وهو يحضُّ المسلمين على أن يكونوا شجعانًا، مُستشهدًا بالمركز الإسلامىِّ العالمىِّ للدَّعوة وبدور الشَّيخ أحمد ديدات الذى كان شديد الإعجاب به، وقد سمعته يقول عنه يخاطب المسلمين: «ذلك الرَّجل ليس مُتعلِّمًا، لكن انظر إلى الطَّريقة الَّتى ينشر بها الإسلام».

**الراهب ماركو كوريس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (الراهب ماركو كوريس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من الفلبين، وقد صادفته فى رحلة من رحلاتى، فرأيته

(1) لا نرى من النصح للإسلام أن يتحدث المسلم فى الأرض التى فيها غير مسلمين عن مثل هذه المواضع، فذلك يشوه صورة الإسلام من جهة، ويعرض المسلمين الذين قد يشكلون أقلية للأذى من جهة أخرى.
وقد نصح ﷺ معاذا عن مواضيع الدعوة وتدرجها.. وذلك هو الأسلوب النبوى الأمثل، انظر فى هذا رسالة (النبى الهادى) من هذه السلسلة.

شديد الحماس للإسلام، متألما لما مضى من عمره بعيدا عنه، وقد لاحظت فى حديثه نفحة الصدق التى حدثنى عنها معلم السلام، فرحت أسأله عنه، وعن سر ذلك الحرص على الدعوة للإسلام، فقال:

كنت من طائفة وثنية.. وكان جدى وعمتى مُعالِجَيْن روحانيَّين يعبدان الأصنام والأرواح، وقد شهدت الكثير من المرضى الَّذين جاءوا إليهما من أجل العلاج، وكيف كانوا يبرأون، ولذلك فقد تسبَّبا فى اتباعى ما يؤمنان به.

وعندما وصلت السابعة عشرة من عمرى، لاحظت بأنَّ هناك الكثير من الأديان، والَّتى تحوى أنواعًا مختلفةً من التعاليم، وكلٌّ منها يدَّعى بأنَّه الدِّين الحقّ.

عندها تساءلت: «هل يتوجَّب علىَّ أن أبقى على دين عائلتى، أم أنِّى يجب أن أُجرِّب الاستماع إلى الأديان الأخرى؟»

وفى أحد الأيام دعانى ابن عمى لحضور عيد الخميس فى الكنيسة، وكان دافعى هو مشاهدة ما يفعلونه داخل الكنيسة، فشاهدتهم يغنُّون، ويصفِّقون، ويرقصون، ويبكون رافعين أيديهم فى دعائهم ليسوع.. ثم قام الراهب بالوعظ بخصوص الإنجيل.. ثم ذكر الفقرات الأكثر شيوعًا، والَّتى يقتبسها كلُّ المبشِّرين، وهى تلك الَّتى تتعلَّق بألوهيَّة المسيح مثل ما فى (يوحنا 1:12، ويوحنا 3:16، ويوحنا 8:31-32)، وفى ذلك الوقت، ولدت من جديد كمسيحىّ، وقَبِلْتُ يسوع المسيح إلها ومُخلِّصا.

كان أصدقائى يزورونني كلَّ يومٍ للذهاب إلى الكنيسة، وبعد شهرين تمَّ تعميدى، فأصبحت عضوًا منتظمًا فى صلاتهم، وبعد مرور خمسة أعوام، أقنعنى راهبنا بالعمل فى الكهنوت كعاملٍ متطوِّع، ثم أصبحت المنشد الرئيسى، ثم القائد فى الصَّلاة، ثم معلِّمًا فى مدرسة الأحد، ثم أصبحت أخيرًا راهبًا رسميا فى الكنيسة.

وكان عملى خاضعًا لبعثة التبشير الإنجيليَّة القرويَّة الحرَّة (..!؟) وهى بعثةٌ تبشيريَّة مثل بعثة (يسوع هو الله)، و(الناصرى)، و(خبز الحياة).. وغيرها من الجمعيات.

بدأت تعليم الناس الإنجيل وتعاليمه، وأجبرت نفسى على حفظ أجزاءٍ وآياتٍ منه عن ظهر قلبٍ من أجل الدِّفاع عن الدِّين الَّذى كنت أُومن به.

وقد أصبحت فخورًا بنفسى لهذا المنصب الَّذى حظيت به، وكنت غالبًا ما أرى أنِّى لا أحتاج إلى أىِّ تعاليم أو نصوص أخرى عدا الإنجيل، ولكن مع ذلك، كان هناك فراغٌ روحىٌّ فى داخلى.

صلَّيت، وصُمْت، واجتهدت لإرضاء مشيئة الإله الَّذى كنت أعبده، ولم أكن أجد السعادة إلاَّ عندما كنت أتواجد فى الكنيسة.. لكن هذا الشعور بالسعادة لم يكن مستمرا، وحتى عندما كنت أتواجد مع عائلتى.

وبما زاد في آلامي هذه أنَّ بعض أصدقائي من الـرُّهبان ماديُّون، فهم يغمســون أنفسهم في الشهوة الجسديَّة والفساد، والتعطُّش للشهرة.

وعلى الرغم من كلِّ ذلك فقـد واصلت مقلدا اعتناقي الـدِّين بقوَّة، وذلك لأنني كنت أعرف ـ حسب ما تقوله التعاليم ـ بـ (أنَّ الكثيرين يُدْعَوْن، ولكنَّ القليل منهم يُخْتارون).

كنت دومًا أُصلِّي ليسوع المسيح ليغـفر لي ذنوبي، وكذلك ذنوبهم، فقد كنت أظنُّ بأنَّه هو الحلُّ لكلِّ مشكلاتي، ولذلك فإنَّه يستطيع الاستجابة لكلِّ دعائي.

مع ذلك ـ وبالنظر إلى حياة زملائي من الرُّهبان ـ لا تسـتطيع أن تجد بينهم أمثلةً جيِّدةً مُقارنةً بالرعيَّـة الَّتي يعظونها، وهكذا بدأ إيماني يخفت، وناضلت بصعـوبة بالغة على العمل في خدمة الصَّلاة الجماعيَّة.

في أحد الأيام، فكرت في السفر إلى الخارج، وليس ذلك من أجل العمل فقط، بل ـ وأهم من ذلك ـ من أجل نشر اسم يسوع كـإله ـ بناء على قناعتي في ذلك الوقت ـ وكان في خطتي الذهاب إمَّـا إلى تايوان أو كوريا، إلاَّ أنَّ مـشيئة الله تعالـى كانت في حصـولي على تأشيرة عملٍ في بلد مسلم، ووقَّعت في الحال عقدًا لمدَّة ثلاثة أعوام للعمل فيه.

بعد أسبوعٍ من وصولي لاحظت أُسلوب الحياة المخـتلف، كاللغة، والعادات والتقاليد، حتى الطعام الَّذي يأكلونه، فقد كنت جاهلاً تمامًا بثقافات الآخرين.

والحـمد لله، فـقد حـدث أن كان لديَّ زمـيلٌ فلبـينيٌّ في المصنع، وهو مـسلمٌ يتكلَّم العربـيَّة، لذلك، ومع أنِّي كنت مـتوتِّرًا، إلاَّ أنِّي حـاولت سؤاله عن المسلمـين، وعن دينهم ومعتقداتهم. فـقد كنت أعتقد بأنَّ المسلمين من عُتاة القَتَلة، وأنَّهـم يعبدون الشيطان والفراعنة ومحمَّدًا كآلهةٍ لهم. وحدثَّته عن إيماني بالمسيح، وكردِّ فعلٍ على ذلك أخبرني أنَّ دينه يختلف تمامًا عن ديني، واقتبس لي آيتيْن من القرآن الكريم كانتا المفتاح الأول لإسلامي:

أما الأولى، فمن سورة المائدة، وهي الآية الَّتي جـاء فيها: ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ③﴾ [المائدة].

وأما الثانيـة، فمن سورة يوسف: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ④⓪﴾ [يوسف].

لقد أصابتني هاتان الآيتان بصدمةٍ قويَّة.. كانت هي البداية لإسلامي.

بعـد ذلك بدأت بملاحظة حيـاة صـاحبي المسلم.. وكلَّ يـومٍ كنَّا نتحـدث.. كلٌّ منا يتحدث عن دينه، حتى أصبحنا في النِّهاية صديقيْن حميميْن.

وفي إحدى المناسـبات ذهبنا إلى البلد لإرسال بعض الرسـائل. وهناك حدث أن رأيت جمهرةً من أُناسٍ كثيرين يشاهدون فيلمًا لمناظرةٍ لأحد أفضل المبشِّرين لديَّ.

وقد أخبرني صديقي المسلم بأنَّ هذا الَّذى أدعوه بأفضل مبشِّرٍ لدىَّ كان الشيخ أحمد ديدات، وهو داعيةٌ إسلاميٌّ مشهور، فأخبرته بأنَّ رهباننا فى الوطن جعلونا نعتقد بأنَّه مبشِّرٌ عظيمٌ فقط؛ وأخفوا عنَّا شخصيَّته الحقيقيَّة بأنَّه داعيةٌ مسلم، ومهما كانت نيَّتهم، فإنَّها بالتأكيد كانت لإبعادنا عن معرفة الحقيقة.

على الرغم ممَّا عرفته، فقد اشتريت أشرطة الفيديو، وبعض الكتب أيضًا لأقرأ عن الإسلام.

وفى مكان إقامتنا، حدَّثنى صديقى عن قصص الأنبياء، وكنت حقيقةً مُقتنعًا، لكنَّ كبريائى أبقانى بعيدًا عن الإسلام.

وبعد مُضىٍّ سبعة أشهر، حضر إلىَّ فى غرفتى صديقٌ آخر، وهو مسلمٌ من الهند، وأعطانى نسخةً من ترجمة معانى القرآن الكريم بالإنجليزيَّة. وفيما بعد قادنى إلى البلد، ثم اصطحبنى إلى المركز الإسلامىِّ.

هناك قابلت أحد الإخوة الفلبينيِّين؛ ودار بيننا نقاشٌ حول بعض المسائل الدينيَّة، وقام بربط ذلك بمقارنةٍ لحياته قبل الإسلام - حين كان مسيحيا - وبعده؛ ثم شرح لى بعض تعاليم الإسلام.

وفى تلك الليلة المباركة، دخلت الإسلام، وأعلنت دخولى الإسلام بترديد الشهادتين».

سرد لى قصته، ثم قال: كنت سابقًا أتَّبع دينًا أعمى، أمَّا الآن فإنِّى أرى الحقيقة المطلقة، وهى أنَّ الإسلام هو الطريقة الأفضل والكاملة للحياة المصمَّمة لكلِّ البشريَّة.

**الدكتور جارى ميلر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (الدكتور جارى ميلر)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا (جارى ميلر).. أو كما يحب أن يسمى (عبد الأحد عمر).. وهو كندى الأصل.. وقد كان قسيسًا نشيطا يدعو للمسيحية، بالإضافة إلى اهتمامه بالرياضيات.. بل كونه عالما فيها.

---

(1) هو الدكتور جارى ميلر (عبد الأحد عمر) عالمٌ فى الرياضيات واللاهوت المسيحىِّ ومُبشِّرٌ سابق، وقد كان الدكتور ميلر فى إحدى فترات حياته نشطًا فى التبشير المسيحىِّ، ولكنَّه بدأ مبكِّرًا باكتشاف تناقضات كثيرة فى الإنجيل.

وفى سنة 1978، حصل أن قرأ القرآن الكريم مُتوقِّعًا بأنَّه أيضًا سيحوى خليطًا من الحقيقة والزَّيف. لكنَّه ذهل باكتشافه أنَّ رسالة القرآن الكريم كانت مُطابقةً لنفس جوهر الحقيقة الَّتى استخلصها من الإنجيل. فدخل الإسلام، ومنذئذ أصبح نشطًا بتقديمه للناس، بما فى ذلك استخدام المذياع والبرامج التلفازيَّة. وهو أيضًا مؤلِّفٌ للعديد من المقالات والنشرات الإسلاميَّة، نذكر منها: «ردٌّ موجزٌ على المسيحيَّة - وجهة نظر المسلم»، و«القرآن العظيم»، و«خواطر حول (براهين) ألوهيَّة المسيح»، و«أُسُس عقيدة المسلم»، و«الفرق بين الإنجيل والقرآن»، و«المسيحيَّة التبشيريَّة - تحليلٌ لمسلم».

وقد كـان أول لقاء لى مـعه أنى كنـت فى ساحـة (. . !؟) أستمع إلـيه، وهو يتـوجه بخشـوع للملتفين حـوله يقول لهم: أيها المسلمـون، لو أدركتم فضل مـا عندكم على ما عند غيركم لحمدتم الله أن أنبتكم من أصلاب مـسلمة ورباكم فى محاضن المسلمين وأنشأكم على هذا الدين العظيم.

ثم أضاف: إن معنى النبوة، ومعنى الألوهية، ومعنى الوحى، ومعنى الرسالة، ومعنى البعث، ومعنى الحساب. . كل تلك المعانى ليـست إلا عندكم. . والفرق بين ما عندكم فيها، وما عند غيركم، كالفرق ما بين السماء والأرض.

بعدما انتهى من خطابه الذى يفيض من قلب ممتلئ بالخشوع الصادق اقتربت منه لأتنسم سر رائحة الصدق التى نبعت من كلامه.

قال لى: لقـد جذبنى لهـذا الدين وضوح العقـيدة، ذلك الوضـوح الذى لا أجده فى عقيدة سواها.

قلت: هذه الجملة. . فما التفاصيل؟

قال: لقد كنت أحب الرياضيات حبا شـديدا. . وقد كان سر حبى لها هو حب المنطق أو التسلسل المنطقى للأمور. .

قلت: فهل قادتك الرياضيات للإسلام؟

قـال: تسـتطيع أن تقـول ذلك. . فى يوم من الأيام أردت أن أطبق المنـهج المنطقى مع القـرآن. . لقد قـرأته بحـثا عن بعض الأخـطاء التى تعزز مـوقـفى عند دعوتى لـلمسلمـين للمسيـحية. . . وكنت أتوقع أن أجد القـرآن كأى كتاب بشـرى تلوح عليه آثار المؤلف، وآثار البيئة التى أبدع فيها.

قلت: فما وجدت؟

قال: وجدت ما بهرنى. . لقد وجدت أن القرآن ذلك الكتاب القديم الذى كتب منذ 14 قرنا لا يتكلم عن الصحـراء ولا عن البيئة العربية. . بل ولا عن مـحمد وحياة محـمد كشأن الكتاب المقدس عندنا. . بل هو كـتاب يحتوى على أشياء لا توجـد فى أى كتاب آخر فى هذا العالم.

كنت أتوقع أن أجد بعض الأحداث العصيبة التى مرت على النبى محمد ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة رضى الله عنها أو وفاة بناته وأولاده. . لكنى لم أجد شيئا من ذلك.

بل وجدت فوق ذلك. . وهو ما أوقعنى فى حيـرة عظيمة. . أن هناك سورة كاملة فى القرآن تسـمى سورة مريم، وفـيها تشريف لمريم ـ عليها السلام ـ ولا يوجد مـثيل لها فى كتب المسيحيـين ولا فى أناجيلهم. . وفى نفس الوقت لم أجد سورة باسم عائشـة أو فاطمة رضى الله عنهما.

ومثل ذلك وجدت أن عيسى عليه السلام ذكر بالاسم 25 مرة فى القرآن فى حين أن النبى محمد ﷺ لم يذكر إلا 4 مرات فقط.

ثم أخذت أقرأ القرآن بتمعن أكثر لعلى أجد مأخذا عليه.. لكنى لم أجد إلا ما يبهرنى:

لقد قرأت مرة قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، فملأتنى بالحيرة.. فمن المبادئ العلمية المعروفة فى الوقت الحاضر مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصى الأخطاء فى النظريات إلى أن تثبت صحتها Falsification test.. والعجيب أن القرآن الكريم يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولن يجدوا.

ومع كثرة بحوثى ومطالعاتى لم أجد مؤلفا فى العالم يمتلك الجرأة، ليؤلف كتابا، ثم يقول عنه (هذا الكتاب خالى من الأخطاء).. ولكن القرآن على العكس تماما لا يقول لك (لا يوجد أخطاء) فقط، بل يعرض عليك أن تجد فيه أخطاء، ولن تجد.

ومن الآيات التى استوقفتنى، وبهرتنى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء].

لقد وجدت أن هذه الآية هى بالضبط موضوع البحث العلمى الذى حصل على جائزة نوبل فى عام 1973، وكان عن نظرية الانفجار الكبير، وهى تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب.. فالرتق هو الشىء المتماسك فى حين أن الفتق هو الشىء المتفكك[1].

ومن الآيات التى استوقفتنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء]، وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل].

التفت إلى، وقال: أرأيت.. هل هذه طريقة الشيطان فى كتابة أى كتاب.. يؤلف كتابا، ثم يقول قبل أن تقرأ هذا الكتاب يجب عليك أن تتعوذ منى.

إن هذه الآيات من الأمور الإعجازية فى هذا الكتاب المعجز.. وفيها رد منطقى لكل من قال بهذه الشبهة.

ومن السور التى استوقفتنى سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد].

---

(١) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذه الآية فى (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

لقد علمت أن هذا الرجل أبا لهب كان يكره الإسلام كرها شديدا، لدرجة أنه كان يتبع محمدا ﷺ أينما ذهب ليقلل من قيمة ما يقوله الرسول ﷺ. . فإذا رأى الرسول ﷺ يتكلم إلى أناس غرباء، فإنه ينتظر حتى ينتهى الرسول من كلامه ليذهب إليهم ثم يسألهم ماذا قال لكم محمد؟. . لو قال لكم أبيض، فهو أسود، ولو قال لكم ليل فهو نهار.

وقبل 10 سنوات من وفاة أبى لهب نزلت هذه السورة، وهى تقرر أن أبا لهب سوف يذهب إلى النار، أى بمعنى آخر أنه لن يدخل الإسلام.

وخلال عشر سنوات كاملة كل ما كان على أبى لهب أن يفعله هو أن يأتى أمام الناس ويقول: «محمد يقول أنى لن أسلم وسوف أدخل النار، ولكنى أعلن الآن أنى أريد أن أدخل فى الإسلام وأصبح مسلما. . الآن ما رأيكم هل محمد صادق فيما يقول أم لا؟هل الوحى الذى يأتيه وحى إلهى؟»

لكن أبا لهب لم يفعل ذلك، مع أن كل أفعاله كانت هى مخالفة الرسول ﷺ لكنه لم يخالفه فى هذا الأمر.

لقد كانت لديه عشر سنوات ليهدم الإسلام بكلمة واحدة، ولكن لأن هذا الكلام ليس كلام محمد ﷺ ولكنه وحى ممن يعلم الغيب ويعلم أن أبا لهب لن يسلم فإن أبا لهب لم يسلم.

كيف لمحمد ﷺ أن يعلم أن أبا لهب سوف يثبت ما فى السورة إن لم يكن هذا وحيا من الله؟. . بل كيف يكون واثقا خلال عشر سنوات كاملة أن ما لديه حق لو لم يكن يعلم أنه وحى من الله؟

لكى يضع شخص هذا التحدى الخطير ليس له إلا معنى واحد. .هذا وحى من الله(1).

وقد ذكر لى هذا الدكتور الفاضل أن من المعجزات الغيبية التى استوقفته، وجعلته يراجع نفسه التحدى القرآنى للمستقبل بأشياء لا يمكن أن يتنبأ بها الإنسان وهى خاضعة لنفس الاختبار السابق ألا وهو Falsification tests أو مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشىء المراد اختباره.

فالقرآن ـ مثلا ـ يذكر أن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين، وهذا مستمر إلى وقتنا الحاضر، فأشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود.

وهذا يعتبر تحديا عظيما، ذلك أن اليهود لديهم الفرصة لهدم الإسلام بأمر بسيط ألا وهو أن يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين، ويقولون عندها: «ها نحن نعاملكم معاملة طيبة، والقرآن يقول إننا أشد الناس عداوة لكم، إذن القرآن خطأ!»، ولكن هذا لم يحدث

---

(1) انظر المزيد من النبوءات الغيبية وتفاصيلها فى رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

خـلال 1400 سنة!! ولن يحـدث، لأن هـذا الكلام نزل من الذى يعلم الـغـيب وليس كـلام إنسان».

التفت إلى، وقـال: هل رأيت أن الآية التى تتكلم عن عداوة اليهـود للمسلمين تعتـبر تحديا للعقول، فـالله عز وجل يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة].

ومن الآيات التى ذكر لى هذا الدكتور الفاضل أنها استوقفته تلك الآيات التى تنبئ عن وحى الله لرسوله ﷺ بما فى القرآن من الغيوب.. فالله عز وجل يقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]، ويقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود]، ويقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف].

لقد قـال لى الدكتور مـيلر بعد أن قرأ علـى هذه الآيات: «لا يوجد كتـاب مما يسمى بالكتب الدينيـة المقدسة يتكلم بهـذا الأسلوب، كل الكتب الأخرى عبـارة عن مجمـوعة من المعلومات التى تخـبرك من أين أتت هذه المعلومات، على سـبيل المثال الكتاب المقـدس عندما يناقش قصص القدماء فـهو يقول لك الملك فلان عاش هنا وهذا القائد قاتل هنا مـعركة معينة وشخص آخر كان له عدد كذا من الأبناء وأسماؤهم فلان وفلان..

والكتاب المقدس دائما يخبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومات يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلانى أو الكتاب الفلانى لأن هذه المعلومات أتت منه.

وهذا كله بعكس القـرآن الذى يمـد القـارئ بالمعلومـة. ثم يقول لك: هـذه معلومـة جديدة.. بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت مـترددا فى صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكون من عـقل بشر.. والمذهل فى الأمـر هو أهل مكة فى ذلك الوقت ـ أى وقت نزول هذه الآيات ـ ومرة بعد مرة كانوا يـسمعونها ويسمعون التحـدى بأن هذه معلومات جديدة لم يكن يعلمها مـحمد ﷺ ولا قومه، بالرغم من ذلك لم يقولوا: هذا ليس جـديدا بل نحن نعرفه، أبدا لم يحدث أن قالوا مثل ذلك ولم يقولوا: نحن نعلم من أين جاء محمد بهذه المعلومات، أيضا لم يحدث مثل هذا، ولكن الذى حدث أن أحدا لم يجرؤ على تكذيبه أو الرد عليه لأنها فعـلا معلومات جـديدة كليا، وليست من عـقل بشر، ولكنها من الله الـذى يعلم الغيب فى الماضى والحاضر والمستقبل».

قلت: أرى أن النبوءات هى التى ملأتك بالانبهار بالقرآن؟

قال: ليست وحدها.. بل كل القرآن بهرني.. كل آية من آياته، بل كل كلمة من كلماته..

أذكر أنه قبل بضع سنوات، وصلتنا قصةٌ إلى تورونتو بكندا عن رجلٍ كان بحّارًا في الأسطول التجاريّ، ويكسب رزقه من عمله في البحر، وقد أعطاه أحد المسلمين ترجمةً لمعاني القرآن الكريم ليقرأها، ولم يكن هذا البحّار يعرف شيئًا عن تاريخ الإسلام، لكنّه كان مهتما بقراءة القرآن الكريم. وعندما أنهى قراءته، حمله وعاد به إلى المسلم الّذي أعطاه إياه، وسأله: «محمّدٌ هذا.. أكان بحّارًا؟»، فقد كان الرجل مندهشًا من تلك الدقّة الّتي يصف بها القرآن العاصفة على سطح البحر. وعندما جاءه الردّ: «لا، في الحقيقة لم يكن. فمحمّدٌ عاش في الصّحراء».

لقد كان هذا كافيًا له ليُعلن إسلامه على الفور، لقد كان متأثّرًا جدا بالوصف القرآنيّ للعاصفة البحريّة، لأنّه بنفسه كان مرّةً في خضمّها، وكان لذلك يعلم أنّه أيا من كان الّذي كتب هذا الوصف، فإنّه لا بدّ وقد عاش هذه العاصفة بنفسه، فالوصف الّذي جاء في القرآن عن العاصفة لم يكن شيئًا يستطيع أن يكتبه أيّ كاتبٍ من محض خياله، والموج الّذي من فوقه موجٌ من فوقه سحاب لم يكن شيئًا يمكن لأحدهم تخيُّله والكتابة عنه، بل إنّه وصفٌ كتبه من يعرف حقا كيف تبدو العاصفة البحريّة.

التفت إلى، وقال: هذا مثلٌ واحدٌ على أنّ القرآن ليس مرتبطًا بزمان أو مكان، ومن المؤكد أنّ الإشارات العلميّة الّتي يُعبّر عنها لا يمكن أن يكون أصلها من الصّحراء قبل أربعة عشر قرنًا مضت.

لقرون عدّة قبل ظهور رسالة محمّد ﷺ، كانت هناك نظريّةٌ معروفةٌ عن الذرّة وضعها الفيلسوف اليوناني ديموقريتوس، فهذا الفيلسوف والّذين جاءوا من بعده افترضوا أنّ المادّة تتكوّن من دقائق صغيرة غير مرئيّة وغير قابلة للانقسام تسمى الذرّات. وكان العرب أيضًا قد ألفوا هذا المفهوم، فكانت في الواقع كلمة (ذرّة) في العربيّة تعني أصغر جزء كان معروفًا للإنسان.

أمّا الآن فإنّ العلم الحديث قد اكتشف بأنّ هذه الوحدة الأصغر للمادّة ـ وهي الذرّة الّتي تحمل نفس خصائص المادة الّتي تنتمي إليها ـ يمكن تقسيمها إلى مكوّناتها.

وهذه حقيقةٌ جديدةٌ تُعدُّ نتاجًا للتطوُّر في القرن الماضي، فمن المثير جدا للاهتمام أنّ هذه المعلومة كانت قد وثّقت فعلاً في القرآن الكريم قبل ذلك بأربعة عشر قرنًا، والّذي يقول الله تعالى فيه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس].

فبلا أدنى شك أنَّ مثل هذا التصريح لم يكن شيئًا مألوفًا حتَّى للعربىِّ فى ذلك الوقت، فبالنسبة له كانت الذرَّة هى أصغر شىء موجود، وهذا دليلٌ على أنَّ القرآن لم يعف عليه الزَّمن.

قلت: أرى لك اهتماما آخر بالإعجاز العلمى الذى يذكر المسلمون بأنه موجود فى القرآن؟

قال: أجل.. إنَّ فهم القرآن الكريم بطريقة علميَّة حقيقيَّة ممكنٌ للغاية، وذلك لأنَّ القرآن الكريم يقدِّم شيئًا لا تقدِّمه الكتب السماويَّة الأخرى خاصَّة أو الأديان الأخرى عامَّة. إنَّ فى القرآن ما يطلبه العلماء. هناك الكثير فى هذه الأيَّام ممَّن لديهم نظريَّات عن طريقة عمل الكون، إنَّهم فى كلِّ مكان من حولنا، لكنَّ مجتمع أهل العلم لا يكلِّف نفسه حتَّى بالاستماع إليهم. وذلك لأنَّ المجتمع العلمىَّ -وخلال القرن الماضى- وضع شرطًا لقبول مناقشة النظريَّات الجديدة، وهو ما يُسمَّى (اختبار الزَّيف) فهم يقولون: «إن كانت لديك نظريَّة، فلا تزعجنا بها حتى تحضر لنا مع هذه النظريَّة طريقةً ما تُثبت إن كنت على صوابٍ أم على خطأ».

مثل هذا الاختبار كان بالتأكيد هو السَّبب الَّذى جعل العلماء يستمعون لإينشتاين فى مطلع هذا القرن. لقد جاء بنظريَّة جديدة، وقال: «أنا أعتقد بأنَّ الكون يعمل بهذه الطَّريقة، وها هى ثلاث طُرُق لتُثبت إنْ كنتَ مخطئًا!» بعدئذ وضع العلماء نظريَّته تحت الاختبار لمدَّة ستِّ سنوات، فَنَجَحَتْ فى اجتياز الاختبارات، وبالطُّرق الثَّلاث كلِّها.

طبعًا، هذا لم يثبت أنَّه كان عظيمًا، بل أثبت فقط أنَّه يستحقُّ أنْ يُستمع له، لأنَّه قال: «هذه هى نظريَّتى، وإنْ أردتم إثبات أنِّى مخطئٌ فافعلوا هذا أو جرِّبوا ذاك».

وهذا هو بالضَّبط ما يقدِّمه القرآن الكريم.. بعض هذه الاختبارات أصبحت مفروغًا منها حيث إنَّها أثبتت صحَّتها، والبعض الآخر ما زال قائمًا إلى يومنا هذا. إنَّ القرآن يشير أساسًا إلى أنَّه إذا لم يكن هذا الكتاب هو ما يدَّعيه، فما عليكم إلاَّ أن تفعلوا هذا أو ذاك لتثبتوا أنَّه مُزيَّف، وخلال ألفٍ وأربعمائة سنة مرَّت لم يستطع أحد بالطبع أن يفعل هذا أو ذاك فيثبت ذلك، لذلك ما زال يعتبر صحيحًا وأصيلاً.

ولهذا أنا أقترح على من يريد أن يدخل فى مناظرة حول الإسلام مع أحد من غير المسلمين - الَّذين يدَّعون أنَّ لديهم الحقيقة وأنَّ المسلمين على الباطل - أن يضع بدايةً كلَّ الحُجَج الأخرى جانبًا وأن يسأله ما يلى: «هل يوجد أىُّ اختبارٍ للزَّيف فى دينك؟ هل يوجد فى دينك ما يمكن أن يُبيِّن أنَّكم على خطأ إن استطعت أنا أن أُثبت ذلك؛ هل يوجد أىُّ شىء؟!

التفت إلي، وقال: أستطيع أن أعدك منذ الآن أنَّه لن يكون لدى أى منهم أىُّ اختبار أو إثبات؛ لا شيء! وذلك لأنَّهم ليس لديهم أدنى فكرة أنَّه يتوجَّب عليهم حين عرضهم ما يؤمنون به على النَّاس أن يقدِّموا لهم الفرصة لإثبات أنهَّم مخطئون إن استطاعوا.

ومع هذا، فإنَّ الإسلام يقدِّم لهم ذلك. ومثالٌ رائعٌ على كيفيَّة تزويد القرآن الكريم الإنسان بفرصة ليتثبَّت من أصالته، وأن (يثبت زيفه) جاء في السُّورة الرابعة. وأقول بصدق أنِّي كنت مندهشًا حين اكتشفت هذا التحدِّى لأوَّل مرَّة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء].

فهذا يمثِّل تحدِّيًا واضحًا لغير المسلمين، لأنَّه (وبطريقة غير مباشرة) يدعوهم لإيجاد أىِّ خطأ. وحقًّا -إن وضعنا الجديَّة أو الصُّعوبة فى هذا التحدِّى جانبًا- فإنَّ تقديم مثل هذا التحدِّى -فى المقام الأوَّل- ليس حتَّى من طبيعة البشر، فهو يتعارض مع تكوين الشخصيَّة البشريَّة. فالإنسان لا يتقدَّم لاختبار فى المدرسة، ثمَّ بعد إنهاء الاختبار يكتب ملحوظةً للمُصَحِّحِ يقول فيها: «هذه الإجابات مثاليَّة، ولا يوجد فيها أىُّ خطأ. فجد خطأ واحدًا إن استطعت!» فالإنسان ببساطة لا يفعل ذلك. فذاك المعلِّم ما كان ليذوق طعم النَّوم حتى يجد خطأ ما! ومع ذلك فإنَّ هذه هى الطَّريقة الَّتى يصل بها القرآن إلى النَّاس.

سكت قليلا، ثم قال: موقفٌ آخرٌ مثيرٌ للدَّهشة يتكرَّر فى القرآن كثيرًا، ويتعامل مع نُصح القارئ، فالقرآن يُعْلِمُ القارئ عن حقائق مختلفة ثمَّ يُعطيه النَّصيحة بأنَّه إن كان يريد أن يعرف أكثر عن هذا أو ذاك، أو إن كان يشكُّ فيما قيل، فما عليه عندئذ إلاَّ أن يسأل أولئك الَّذين يملكون العلم والمعرفة. وهذا موقفٌ مدهش، فمن غير المعتاد أن يُؤلَّف كتابٌ من قِبَلِ إنسانٍ لا يملك أىَّ خلفيَّة جغرافيَّة، أو نباتيَّة، أو أحيائيَّة، ويبحث فيه مثل هذه الموضوعات، وبعدئذ ينصح القارئ بأن يسأل أهل العلم إن كان فى ريْب من شىء. يقول اللـه تعالى فى القرآن العظيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء].

فى كلِّ عصرٍ من العصور السابقة ـ وحتَّى الآن ـ كان هناك علماء مسلمون يتتبَّعون إرشادات القرآن، وقد توصَّلوا إلى اكتشافات مذهلة، فإذا نظر أحدنا إلى أعمال العلماء المسلمين لعصورٍ عديدة مضت، فسيجد أنَّهم كانوا ممتلئين بالاستشهادات القرآنيَّة، فأعمالهم تُبيِّن أنَّهم قاموا بالبحث فى مكان ما عن شىء ما، وقد أكَّدوا أنَّ سبب بحثهم فى مثل هذا المكان أو ذاك بالذَّات لأنَّ القرآن أرشدهم فى ذلك الاتجاه.

فمثلاً يشير القرآن إلى خلق الإنسان، ثمَّ يحثُّ القارئ على البحث فى ذلك، فهو يعطى القارئ لمحةً اين يبحث، ويخبره بأنَّه سيجد معلوماتٍ أكثر عن ذلك، وهذه هى نوعيَّة الأشياء الَّتى يبدو أنَّ المسلمين اليوم يبحثونها بتوسُّع.

سأضرب لك مثلا على ذلك.. قبل عدَّة سنوات، قام بعض المسلمين بجمع كلِّ الآيات القرآنيَّة الَّتى تتحدَّث عن علم الأجنَّة، وهو العلم الَّذى يدرس مراحل نموِّ الجنين فى الرَّحم؛ ثمَّ قالوا: «هذا ما يقوله القرآن الكريم. فهل هو حقٌّ؟»

فى الحقيقة، لقد أخذوا فى هذا بنصيحة القرآن الكريم: ﴿...فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل].. وحصل أن اختاروا أستاذًا جامعيا فى علم الأجنَّة من جامعة تورونتو فى كندا، ولم يكن مسلمًا. هذا الأستاذ يُدعى (كيث موور)، وهو مؤلِّفٌ للعديد من الكتب فى علم الأجنَّة، ويُعدُّ من الخبراء العالميِّين المُبرِّزين فى هذا المجال، وجَّهوا له الدَّعوة، ثمَّ قالوا له: «هذا ما يقوله القرآن الكريم فيما يخصُّ تخصُّصكم. فهل هو صحيح؟.. ماذا تستطيع أن تخبرنا عن ذلك؟».. وأثناء إقامته فى بلاد المسلمين، قدَّموا له كلَّ المساعدة الَّتى احتاجها فى الترجمة وكلَّ العون الَّذى كان يطلبه.

لقد كان مذهولاً جدا بما وجد بحيث إنَّه غيَّر بعض النُّصوص فى كتبه، فقد قام فى الطبعة الثانية من (تاريخ علم الأجنَّة) بإضافة بعض المواد الَّتى لم تكن موجودة فى الطبعة الأولى، وذلك لما وجده فى القرآن الكريم، وحقا فإنَّ هذا يُصوِّر بوضوح أن القرآن الكريم سابقٌ لزمانه، وأنَّ أولئك الَّذين يؤمنون به يعرفون ما لا يعرفه الآخرون[1].

ابتسم، ثم قال: لقد كان من دواعى سرورى أنِّى أجريت لقاءً تلفازيا مع الدكتور كيث موور، وتحدَّثنا مُطوَّلاً حول هذا الموضوع، وكان ذلك بالاستعانة بالصور التوضيحيَّة وغيرها، وقد ذكر بأنَّ بعض الأشياء الَّتى ذكرها القرآن الكريم عن نموِّ الإنسان لم تكن معروفةً إلى ما قبل ثلاثين عامًا، لقد ذكر فى الواقع موضوعًا مُعيَّنًا بشكل خاص، وهو وصف القرآن الكريم للإنسان بالعلقة فى إحدى مراحل نموِّه، وأنَّ هذا الوصف كان جديدًا بالنسبة إليه، ولكنَّه عندما تفحَّص الأمر وجده حقيقة، وهكذا أضافه إلى كتابه. لقد قال: «لم يخطر ببالى ذلك أبدًا من قبل»، ولهذا فقد ذهب إلى قسم علم الحيوان وطلب صورةً للعلقة، وعندما وجد أنَّها تشبه الجنين تمامًا فى هذه المرحلة من النموِّ، قرَّر أن يضع الصورتين فى أحد كتبه (صورة الجنين وصورة العلقة).

بعد ذلك قام الدكتور موور أيضًا بتأليف كتاب عن علم الأجنَّة السريرىِّ، وعندما نشر هذه المعلومات فى تورونتو سبَّبت ضجَّةً كبيرةً فى كلِّ أنحاء كندا.

لقد كانت فى بعض الصُّحف على الصَّفحات الأولى وفى جميع أنحاء كندا، وبعض العناوين الرئيسيَّة كانت شديدة الطَّرافة. فمثلاً، كان أحد العناوين الرئيسيَّة يقول: «شىءٌ مدهشٌ وُجِدَ فى كتابٍ قديم!».

(1) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذا، وبأقوال هذا الدكتور فى رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

ويبدو واضحًا من هذا المثل أنَّ النَّاس لم يفهموا بوضوح حول ماذا كانت كلُّ تلك الضجَّة، وأحد الأمور الَّتى حدثت حقا أنَّ أحد الصحفيين سأل الدكتور موور: «ألا تعتقد أنَّ العرب ربَّما كانوا يعرفون هذه المعلومات عن هذه الأشياء، أى عن وصف الجنين، وعن شكله وكيف يتغيَّر وينمو؟ فربَّما لم يكن هناك علماء، ولكنَّهم ربَّما قاموا بشيء من التشريح الوحشىِّ - على طريقتهم - أى قاموا بتقطيع النَّاس وتفحُّص هذه الأشياء».

فأشار له الدكتور على الفور بأنَّه نسي شيئًا فى غاية الأهميَّة، وهو أنَّ كلَّ صور الجنين الَّتى عُرضت فى الفيلم قد جاءت من صور أُخِذت عن طريق المجهر؛ وأضاف قائلاً: «ليست المسألة هى إنْ كان أحد النَّاس قد حاول اكتشاف علم الأجنَّة قبل أربعة عشر قرنًا مضت، ولكنَّها فى أنَّه لو حاول ذلك فإنَّه لم يكن باستطاعته رؤية شيء على الإطلاق!».

فكلُّ ما يصفه القرآن الكريم عن شكل الجنين هو عندما يكون صغيرًا جدا ولا يُرى بالعين المجرَّدة، لذا فالمرء بحاجةٍ إلى مجهرٍ ليرى ذلك، إلاَّ أنَّ مثل هذه الآلة لم تُكتشف إلاَّ قبل أكثر من مائتى عامٍ بقليل.

وأضاف الدكتور موور ساخرًا: «ربَّما كان لدى أحدهم ـ قبل أربعة عشر قرنًا مضت ـ مجهرًا سريًا، فقام بعمل هذه الأبحاث، ولم يرتكب أثناء ذلك أىَّ خطأ يُذكر، ثمَّ علَّم محمَّدًا ذلك بطريقةٍ ما، وأقنعه بأن يضع هذه المعلومات فى كتابه؛ وبعدئذٍ حطَّم مجهره، واحتفظ بسرِّه للأبد. فهل أنت تصدِّق ذلك؟! يجب عليك حقا ألاَّ تفعل، حتَّى تحضر دليلاً للإثبات، لأنَّ مثل هذه النظريَّة ما هى إلاَّ سخافة!».

وعندما سُئل الدكتور موور: «كيف تفسِّر إذًا وجود مثل هذه المعلومات فى القرآن؟» كان ردُّه: «لم يكن هذا ممكنًا إلاَّ بوحيٍ من الله».

ومع أنَّ هذا المثل عن بحث الإنسان عن معلوماتٍ مُحتواة فى القرآن الكريم قام به عالمٌ غير مسلم، إلاَّ أنَّه يعتبر صحيحًا، وذلك لأنَّ هذا الرَّجل واحدٌ من أهل الذِّكر فى هذا المجال، فلو ادَّعى شخصٌ عاديٌّ بأنَّ ما يقوله القرآن حول علم الأجنَّة صحيح، لما كان لزامًا علينا قبول كلامه.

على أيَّة حال فإنَّ المركز المرموق والاحترام والتقدير الَّذى يكنُّه المرء للعلماء تجعل الإنسان يفترض تلقائيا صحَّة النتائج الَّتى يتوصَّلون إليها نتيجة البحث فى موضوعٍ ما.

وهذا ما دفع أحد زملاء الدكتور موور ـ يُدْعى مارشال جونسون، ويعمل بشكلٍ مُكثَّف فى مجال علم الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) فى جامعة تورونتو ـ لكى يصبح مُهتما جدا بالقرآن الكريم، لأنَّ الحقائق الَّتى ذكرها عن علم الأجنَّة كانت دقيقة، ولذلك سأل المسلمين أن يجمعوا له كلَّ شيءٍ فى القرآن الكريم ممَّا له علاقة بتخصُّصه، ومرَّةً أخرى كان النَّاس مندهشين جدا من النتائج.

التفت إلى، وقال: إنَّ عدداً كبيراً من الموضوعات مذكورٌ فى القرآن الكريم، ممَّا يتطلَّب بالتأكيد وقتًا طويلاً لتفصيل كلِّ موضوعٍ على حدة، فيكفى من أجل الهدف من هذا النِّقاش أن أقول بأنَّ القرآن الكريم يضع تصريحاتٍ واضحةً ودقيقةً حول موضوعاتٍ متنوِّعة، وأثناء ذلك ينصح القارئَ بالتثبُّت من صحَّتها بالبحث عند العلماء، وكلُّ ما صوَّر فى القرآن أثبت صحَّته بوضوح.

سكت قليلا، ثم قال: هناك أمرٌ فى القرآن الكريم لا نجده فى أىِّ كتابٍ آخر!

قلت: ما هو؟

قال: من المثير للاهتمام أنَّ القرآن الكريم حين يزوِّد القارئ بالمعلومات، فإنَّه كثيرًا ما يخبره بأنَّه لم يكن يعلم ذلك من قبل.

اسمع قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء]. واسمع قوله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة].

وطبعًا لا يوجد أىُّ كتابٍ مقدَّسٍ يقوم بتقديم مثل هذا الزَّعم، فكلُّ الكتب المقدَّسة والمخطوطات القديمة الَّتى يملكها النَّاس تحوى بالفعل معلوماتٍ كثيرة، ولكنَّها تذكر دومًا من أين جاءت تلك المعلومات.

فمثلاً، عندما يناقش الإنجيل التاريخ القديم، فإنَّه يذكر بأنَّ هذا الملك عاش فى المنطقة الفلانيَّة، وأنَّ ذاك خاض المعركة الفلانيَّة، وأنَّ الآخر كان له أبناء كثيرون.

وهو دائمًا ينصُّ على أنَّك إنْ أردت الحصول على المزيد من المعلومات، فما عليك إلاَّ أن تقرأ الكتاب الفلانى أو العلاَّنى، لأنَّه من هناك جاءت المعلومات. وباختلافٍ كبيرٍ عن هذا الأسلوب، فإنَّ القرآن الكريم يزوِّد القارئ بالمعلومات، ثمَّ يقول له إنَّ هذه المعلومات شىءٌ جديدٌ لم يكن يعرفه أحدٌ حين نزوله.

وطبعًا كان هناك دائمًا دعوةٌ للبحث فى هذه المعلومات، للتأكُّد من صحَّتها وأصالتها (إنَّها وحىٌ من الله تعالى).

ومن المثير للدَّهشة أنَّ مثل هذا الطَّرْح لم يستطع أبداً أنْ يتحدَّاه أحدٌ من غير المسلمين قبل أربعة عشر قرنًا مضت، فالواقع أنَّ أهل مكَّة الَّذين كانوا يكرهون المسلمين كرهًا شديدًا، وكانوا يستمعون لهذا الوحى المرَّة تلو المرَّة وهو يدَّعى بأنَّ ما يسمعونه شىءٌ جديدٌ لم يعرفوه من قبل، لم يستطع أحدٌ منهم أن يرفع صوته قائلاً: «لا، ليس هذا بجديد. فنحن نعلم من أين جاء محمَّدٌ بهذه المعلومات، فقد تعلَّمناها فى المدرسة».

إنَّهم لم يستطيعوا أبدًا تحدِّى أصالة القرآن الكريم، لأنَّه فعلاً كان شيئًا جديدًا.

سكت قليلا، وكأنه يسترجع ذكرياته، ثم قال: فى إحدى المرأت جاءنى رجلٌ بعد أن أنهيت محاضرةً ألقيتها فى جنوب إفريقيا، لقد كان غاضبًا جدا لما قلتهُ، ولذلك ادَّعى قائلاً: «سأذهب إلى بيتى الليلة ولا بُدَّ أن أجد خطأ ما فى القرآن»، فأجبته طبعًا: «أهنِّئك. فهذا هو الشىء الأكثر ذكاءً فيما قلته».

بالتأكيد، هذا هو الموقف الَّذى يجب أن يتَّخذه المسلمون مع أولئك الَّذين يشكُّون فى أصالة القرآن الكريم، لأنَّ القرآن الكريم نفسه يُقدِّم هذا التحدِّى، فحتمًا بعد القبول بهذا التحدِّى، والاكتشاف بأنَّ القرآن حقّ، فإنَّهم سيؤمنون به لأنَّهم لم يستطيعوا أن يجرِّدوه من صحَّته؛ بل سيكتسب احترامهم لأنَّهم تأكَّدوا من أصالته بأنفسهم.

والحقيقة الأساسيَّة الَّتى يجب أن تُكرَّر كثيراً بخصوص التثبّت من أصالة القرآن الكريم، هى أنَّ عدم قدرة أحدهم على توضيح أىّ ظاهرةٍ بنفسه لا يلزمه بقبول وجود هذه الظاهرة، أو قبول تفسير شخصٍ آخر لها.

وهذا يعنى أنَّ عدم قدرة الإنسان على تفسير شىء ما لا يعنى أنَّه يجب بالضرورة أن يقبل بتفسير الآخرين. ومع ذلك فإنَّ رفض الإنسان لتفسير الآخرين يعود بالعبء عليه نفسه ليجد جوابًا مُقْنعًا. هذه النظريَّة العامَّة تنطبق على العديد من المفاهيم فى الحياة، ولكنَّها تتناسب بشكلٍ كبيرٍ مع التحدِّى القرآنى، لأنَّها تشكِّل صعوبةً كبيرةً لمن يقول: «أنا لا أؤمن بالقرآن»، ففى اللحظة الَّتى يرفضه فيها، يجد الإنسان نفسه ملزمًا بأن يجد التفسير لذلك بنفسه، لأنَّه يشعر بأنَّ تفسيرات الآخرين ليست صحيحة.

فى الحقيقة، وخاصةً فى إحدى الآيات القرآنيَّة الَّتى اعتدت أن أرى أنَّها تُرجمت خطأ إلى الإنجليزيَّة، يذكر الله تعالى رجلاً كان يسمع آيات الله تتلى عليه، إلاَّ أنَّه كان يغادر دون أن يتفحص حقيقة ما سمع، أى أنَّ الإنسان ـ بطريقةٍ أو بأخرى ـ مذنبٌ إذا سمع شيئًا ولم يبحثه أو يتفحَّصه ليرى إن كان صحيحًا.

وهذا جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان].

فالإنسان يُفترض منه أن يُعْمِل عقله بكلّ المعلومات الَّتى ترده، وأن يقرِّر ما هو الهراء منها ليُلْقيه بعيداً، وما هو المفيد ليحتفظ به ويستفيد منه فيما بعد. فلا يستطيع المرء أن يترك الأمور على اختلاف أنواعها تزدحم فى ذهنه هكذا فقط. بل يجب أن توضع الأمور فى فئاتها المناسبة وأن تُفهم حسب ذلك.

فمثلاً، إذا كانت المعلومات ما تزال فى حاجةٍ إلى تأمُّلٍ، فعندئذٍ يجب أن يُميِّز المرء إن كانت أقرب إلى الصواب، أم هى إلى الخطأ أقرب. ولكن إذا كانت كلُّ الحقائق قد عُرِضَت، فإنَّه عندئذٍ يجب عليه أن يُقرِّر تمامًا بين هذين الأمرين. وحتَّى عندما لا يكون المرء إيجابيا

بخصوص أصالة المعلومة، إلاَّ أنَّه ما زال مطلوبًا منه أن يُعْـمِل عقله فى كلِّ المعلومات ليعترف بأنَّه فقط لا يعرف ذلك على وجه الدقَّة.

ومع أنَّ هذه النقطة الأخيرة تبدو وكأنَّها غير ذات قيـمة واقعيا، إلاَّ أنَّها مفيدةٌ للوصول إلى نتيجة إيجابيَّة فيما بعد، وذلك لأنَّها تُرغم المرء على الأقلِّ بأن يتعرَّف ويبحث ويعيد النظر فى الحقائق. وهذا التآلف مع المعلومـات سيزوِّد الإنسان بالحد الفاصل عندما تتمُّ الاكـتشافات المستـقبليَّة وتُعـرض معلوماتٌ إضـافيَّة، فالـشيء المهمُّ هو أن يتعامل المرء مع الحـقائق، لا أن ينبذها ـ هكذا وببساطة ـ وراء ظهره بدافع العاطفة أو اللامبالاة.

سكت قليلا، ثم قال: اليقين الحقيقيُّ بخصوص صحَّة القرآن الكريم واضحٌ من خلال الثِّقـة الَّتى تُهَيْـمِنُ خلال آياته، وهى الـثِّقة الَّتى تأتـى بطريقة مـختلفة، ألا وهى (اسـتنزاف البدائل)، فـالقرآن الكريم أساسًـا يؤكِّد أنَّه وحىٌ يوحى، فإن كـان هناك من لا يصدِّق ذلك، فليثبت له مصدرًا آخر! وهذا هو التحدِّى.

لدينا هنا كتـابٌ مصنوعٌ من الورق والحبر، فـمن أين أتى؟ وهو يقول إنَّه وحىٌ إلهى؛ فإن لم يكن كذلك، فما هو مصدره؟ والحقـيقة المثيرة هى أنَّه لا يوجد أحدٌ على الإطلاق لديه تفسيرٌ يصلح ليناقض ما جاء فى القرآن الكريم.

فى الواقع، لقد تمَّ استنزاف كلِّ البدائل، وحـيث إنَّ هذا الفكر قد أُسِّس من قِبَلِ غير المسلمين فقد اختزلت هذه البدائل لتصبح مقصورةً على مدرستين فكريَّتيْن تبادليا، مُصرِّين فى ذلك على إحداهما أو على الأخـرى. فمن ناحيةٍ توجد مـجموعةٌ كبيـرةٌ من الَّذين بحثوا فى القرآن الكريم لمئات الـسنين والَّذين يدَّعون قائلين: «نحن متـأكِّدون من شىء واحد، وهو أن ذلك الرَّجل محمَّـدًا كان يتوهَّم أنَّه نبى.. فقد كـان مجنونًا»، فهم مقتنعون بأنَّ مـحمَّدًا ﷺ كان مخدوعًا بطريقة ما.

ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ هناك مجموعة أخرى تدَّعى: «بوجود هذا الدَّليل (الجنون)، فإنَّنا يقينًا نعرف شيئًا واحدًا، وهو أنَّ ذلك الرَّجل محمَّدًا كان كاذبًا».

وما هو مدعاةٌ للسخرية أنَّ هاتين المجموعتـين لا يبدو أبدًا أنَّهما تجتمعان دون تناقض، وفى الواقع، فإنَّ العديد من المراجع الَّتى كُـتبت عن الإسلام عادةً تدَّعى النظريَّتين مـعًا. فهم يبدأون بالقول بأنَّ محمَّدًا ﷺ كان مجنونًا، وينتهون بأنَّه كان كاذبًا.

ويبدو أنَّهم لا يدركون أبدًا بأنَّه ﷺ لم يكن بالإمكان أن يكون الاثنين معًا! لكنَّ الكثير من المراجع فى العادة تذكر هذيْن الأمريْن معًا.

فمـثلاً، إذا جُنَّ أحد النَّاس وظنَّ حقـا أنَّه نبىّ، فإنَّه لن يقضى الـليل بطوله مُخطِّطًا: «كيف سأخدع النَّاس غدًا ليظنُّوا أنِّى نبىّ؟»، فـلأنَّه يؤمن فعلاً بأنَّه نبىّ، هو واثقٌ بأنَّ الإجابة على أىِّ تساؤلٍ ستأتيه عن طريق الوحى.

وفى واقع الأمـر، فـإنَّ جـزءًا كبـيـرًا من القـرآن الكريم نزل عـلى شكل ردود على تساؤلات، فكان أحدهم يسأل رسول الله محـمَّدًا ﷺ سؤالاً، فينزل الوحى بالإجابة. ومؤكَّدٌ أنَّ أحد النَّاس إن كان مجنونًا ويعتقد بأنَّ مـلاكًا سوف يلقى الإجابة فى أُذُنه، فإنَّه عندئذ حين يسأله أحـد النَّاس سؤالاً سيظنُّ بأنَّ مـلاكًا سيـأتيه بالإجابة. فـلأنَّه مجنون، هو حقـا سيظنُّ ذلك. ولن يطلب من السائل الانتظار بُرهةً، ثم يذهب إلى أصحـابه ليسألهم: «هل يعرف أىٌّ منكم الإجابة؟» فهذا النَّوع من السُّلوك هو ميزةٌ لغير المؤمن بأنَّه نبى.

ما يرفض قبوله غير المسلمين هو أنَّ الإنسـان لا يستطيع أن يكون الاثنين معًا، فهو إمَّا أن يكون متـوهِّمًا وإمَّـا كاذبًا. وبطريقةٍ أخـرى، فهو إمَّـا أن يكون واحدًا منهـما أو لا يكون كلاهمـا؛ وقطعًا لا يمكنه أن يكون الاثنين مـعًا! ويجب التـأكيد هنا على حـقيـقة أنَّ هاتين الصفتـين ـ بديهيا ـ هما سمتـان شخصيَّتان تبـادليَّتان. . أى حيث توجد إحداهمـا فلا وجود للأخرى.

التفت إلى، وقـال: سأذكر لك حـوارا يمثل هذه الحلقـة المفرغة الَّتى يدور فـيها غـير المسلمين بشكلٍ دائم. فإذا سألت أحدهم: «ما هو مصـدر القرآن الكريم؟»، فإنَّه سيجيبك بأنَّ مصدره هو عقل رجلٍ كان مصابًا بالجنون، وعندئذ تسأله: «إن كان قد جاء به من رأسه، فمن أين حصل على المعلومات المحتواة فيه؟ فمن المؤكَّد أنَّ القرآن الكريم يذكر أشياء كثيرة لم يكن العرب يعرفونهـا»، ولكى يستطيع أن يفسر الحقيقة الَّتى قـدَّمتها له فإنَّه سيغيِّـر موقفه ويقول: «حسنًا، ربَّما لـم يكن مجنونًا، بل ربَّما كان بعض الأعـاجم يعطونه تلك المعلومات، وهكذا كذب على النَّاس وأخبرهم بأنَّه كان نبيا».

وعند هذه النقطة يجب أن تسـأله: «إذا كان محمـدٌ كاذبًا، فمن أين حصل على ثقـته بنفسه؟ ولماذا كان يتصرَّف وكأنَّه كان نبيا فعلاً؟»

وفى النِّهاية ـ وعندمـا يكون قد حُشِر فى الزاوية ـ فـإنَّه كالقطَّة سيندفع فجـأةً وبسرعةٍ بأوَّل رد يخطر على باله ـ ومتناسيًا أنَّه قبل ذلك استثنى ذاك الاحتمال ـ ليدَّعى: «حسنًا، ربَّما لم يكن كاذبًـا. ربَّما كان مـجنونًا وحقا كـان يعتـقد أنَّه نبىّ»، وهكذا يبدأ دورانـه فى الحلقة المفرغة من جديد.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا، واعـتبره من أساليب الكفار فى جحد الحـقائق، فالله عز وجل يقول: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ [الدخان].

سكت قليـلا، وكأنه يستـرجع ذكرياته مع أمـثال هؤلاء الجـاحدين الذين مـلأوا الدنيا بالشبهات الجوفاء، ثم قال: قبل سـبع سنواتٍ تقريبًا، زارنى أحد الرُّهبان فى بيتى، وفى تلك

الحجـرة الَّتى كنَّا نجلس فيـها كـان هناك قرآنٌ على الطاولة ووجـهه إلى الأسفل، فـلم يعرف الرَّاهب أىّ كتابٍ هو.

وفى منتصف نقاشنا، أشرت إلى الكتاب قائلاً: «أنا لدىَّ الـثِّقة بهذا الكتاب»، فأجاب ناظرًا إلى القرآن الكريـم من غير أن يعـرف ما هو: «حسنًا، وأنا أقـول لك بأنَّه إن كان ذلك الكتاب ليس الإنجيل، فقد أُلِّف من قِبَلِ الإنسان»، فكان ردِّى عليـه: «دعنى أُحدِّثك شيئًا عمَّا جاء فى هذا الكتـاب»، وخلال ثلاثٍ أو أربع دقـائق فقط ذكرت له مـا يتعلَّق ببـعض الأمور الموجودة فى القرآن الكريم.

وبعـد تلك الثَّلاث أو الأربع دقـائق فقط غـيَّر مـوقفـه تمامًا وقـال: «أنت على حقّ، فالإنسان لم يؤلِّف هذا الكتاب، بل الشيطان هو الَّذى ألَّفه!».

طبعًا، اتِّخاذ مثل هذا الموقف هو غايةٌ فـى سوء الطَّالع، وذلك لأسبابٍ عدَّة، منها أنَّه عُذْرٌ مُتسرِّعٌ ورخيصٌ كمَخْرَجٍ فورى من ذلك الوضع المزعج.

وفيما يتعلَّق بهذا الأمر، هناك قصَّةٌ مشهورةٌ فى الإنجيل تذكر كيف أنَّ بعض اليهود فى أحد الأيَّام كانوا شهـودًا حين أقام يسوع رجلاً من الموت، كان ذلك الرَّجل مـيتًا لأربعة أيَّام، وعندما وصل يسوع، قال ببساطة: «انهض»، فـقام الرَّجل ومشى فى طريقه. وحين رأوا هذا المشهد، قال بعض الشُّهود من اليهود مُنْكِرِين: «هذا هو الشيطان. الشيطان هو الَّذى ساعده».

وهذه القصَّـة تُكرَّر الآن كثـيرًا فى الكنائس فى جمـيع أنحاء العـالم، والنَّاس يذرفون دموعًا غزيرةً لسمـاعها قائلين: «آه، لو كنت هناك، فما كنت لأكون غبـيا مثل اليهود!»، ويا للسخـرية، فمع هذا فإنَّ هؤلاء النَّاس يفـعلون ما فعله اليهـود تمامًا حين تعـرض عليهم ـ فى ثلاث أو أربع دقائق ـ جزءًا صغيرًا فقط من القـرآن الكريم؛ وكلُّ ما يستطيعون قوله هو: «آه، الشيطان فعل ذلك.. الشيطان هو الَّذى ألَّف هذا الكتاب!» لأنَّهم حقا يكونون قد حُشروا فى الزَّاوية؛ وحين لا يملكون أىَّ إجابةٍ مقـبولة، فإنَّهم يلتجئون إلى أسرع وأرخص حُـجَّةٍ مُتاحةٍ لهم.

ومثلٌ آخرُ على استخدام النَّاس لهذا الموقف الضَّعيف يمكن إيجاده فى تفسير كفَّار مكَّة لمصدر رسـالة محمَّد ﷺ فـقد اعتـادوا القول بأنَّ الشيطان هو الَّذى يُملى عليـه القرآن! لكنَّ القرآن ـ كعـادته مع أىِّ حُجَّةٍ لهم ـ يقدِّم الإجابة على ذلك: فيـقول الله عز وجل: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير]

وهكذا فـإنَّ القـرآن يعطى ردا جليـا على هذا الادِّعـاء. فى الواقع، هناك العـديد من البراهين فى القـرآن الكريم جاءت كرد على الادِّعـاء بأنَّ الشيطان هو الَّذى أملى على محـمَّد ﷺ رسالته، فمثـلاً فى سورة الشعراء: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء].

وفى مكانٍ آخرٍ فى القرآن الكريم يعلِّمنا الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل].

فهل بهذه الطريقة يكتب الشيطان كتـابًا؟.. وهل يقول للإنسان: «قبل أن تقرأ كتابى، اسأل الله أن يحفظك منِّى؟» فما هذا إلاَّ افتراءٌ كبير، كبيرٌ جدا.

سكت قليلا، ثم واصل حديثـه عن الأساليب التى يمارسها أعـداء الإسلام فى عرض شبهاتهم، فقال: بالإضافة إلى الحجج الَّتى يقدِّمهـا غير المسلمين فى محاولاتهم التافهة لتبرير وجود الآيات الَّتى لا يفهمونها فى القرآن الكريم، فإنَّ هناك هجومًا آخر غالبًا ما يظهر كمزيجٍ من النظريَّتين معًـا، وهو أنَّ محمدًا ﷺ كان مـجنونًا وكاذبًا، فأولئك النَّاس يقترحـون أساسًا بأنَّه ﷺ كان مخبولاً، وكنتيجةٍ لتوهُّمه فقد كذب وضلَّل النَّاس.

ولهذا اسمٌ فى علم الـنَّفس، وهو الميثومـانيا Mythomania أو المسُّ الأساطيرىّ، وهو نزوعٌ مفـرطٌ أو غيـر سوى إلى الكذب والمبـالغة، وهو يعنى ببـساطة أنَّ الإنسـان يكذب، ثمَّ يصدِّق ما كذب.

وهذا هو ما يدَّعيه غـير المسلمين عمًّا كان يعانى منه محـمَّدٌ ﷺ إلاَّ أن المشكل الوحيد الَّذى يواجهونه بخصوص هذه الحُجَّة هو أنَّ الإنسان الَّذى يعانى من الميثومانيا لا يمكنه التعامل مع الحقائق مطلقًا، مع أنَّ القرآن الكريم كلّه قائمٌ تمامًا على الحـقائق، فكلُّ ما فيه يمكن بحثه والتثبُّت من صحَّته، فى حين أنَّ الحقائق تعتبر مشكلاً كبيرًا للمصاب بالميثومانيا.

فعندما يحاول الطبيب النفسىُّ علاج أحـد الَّذين يعانون من هذا المرض، فإنَّه باستمرار يواجهه بالحقائق، فمثلاً، إذا كان أحـدهم مريضًا نفسيا ويدَّعى قائلاً: «أنا ملك إنجلترا»، فإنَّ الطبيـب النفسىَّ لا يقول لـه: «لا، أنت لست كذلك، بل أنت مـجنون!» فالطبيـب لا يفعل ذلك، بل بدلاً من ذلك يواجهه ببعض الحقـائق قائلاً: «حسنًا، أنت تقول بأنَّك ملك إنجلترا، لذا قل لى أين هى الملكة اليوم؟ وأين رئيس وزرائك؟ وأين هم حرَّاسك؟».

وعندما يكون لدى هذا المريض مشكلٌ فى محاولته التـعامل مع هذه الأسئلة، سيحاول إيجاد الأعذار: «آه... الملكة... ذهبت إلى بيت أُمِّها.. آه... رئيـس الوزراء.... حسنًا، لقد مات».

وفى النِّهاية سيـشفى من مرضه تمامًا لأنَّه لم يسـتطع التعامل مع الحقائق، فإذا استمرَّ الطبيب النفسىُّ بمواجـهته بحقائق كافـية، فإنَّه بالنِّهاية سيـواجه الواقع قائلاً: «أظنُّ بأنِّى لست ملك إنجلترا».

والقرآن يصل إلى كلِّ إنسانٍ يقرأه بنفس الطريقة الَّتى يعـالج بها الطبيب النفسىُّ مريضه بالميثومانيـا. يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

للوهلة الأولى قد يبدو هذا التصريح غامضًا، ولكنَّ المعنى لهذه الآية يتَّضح عندما يُنظر إليها على ضوء المثل السابق، فالإنسان يُشفى أساسًا من أوهامه بقراءة القرآن الكريم. فهو فى جوهره علاجٌ يشفى الضَّالِّين تمامًا وذلك بمواجهتهم بالحقائق.

سكت قليلا، ثم قال: فى الواقع، يوجد مرجعٌ مشيرٌ للاهتمام بخصوص هذا الموضوع فى الموسوعة الكاثوليكيَّة الجديدة. ففى فقرة بخصوص موضوع القرآن الكريم تُصرِّح الكنيسة الكاثوليكيَّة: «عبر القرون الماضية قُدِّمت نظرياتٌ كثيرةٌ عن أصل القرآن.. واليوم لا يوجد إنسانٌ عاقل يقبل بأى منها».

فها هى الكنيسة الكاثوليكيَّة المُعمِّرَة، والماثلة هنا وهناك لقرونٍ عديدة، تنكر تلك المواقف التافهة لدحض أصل القرآن الكريم.

القرآن الكريم بالطبع يمثِّل مشكلاً للكنيسة الكاثوليكيَّة، فهو يصرِّح بأنَّه وحىٌ من الله تعالى، ولذلك هم يدرسونه، ومن المؤكَّد أنَّهم يودُّون إيجاد برهانٍ على أنَّه ليس كذلك، ولكنَّهم لا يستطيعون، فهم لا يستطيعون إيجاد تفسيرٍ مقبول، لكنَّهم على الأقلِّ شرفاء فى بحثهم، ولا يقبلون بأوَّل تفسيرٍ غير مدعومٍ بدليلٍ يأتى إليهم.

فالكنيسة تصرِّح بأنَّه ـ وخلال أربعة عشر قرنًا ـ لم يُقدَّم بعد تفسيرٌ معقول، فهى بذلك على الأقلِّ تعترف بأنَّ القرآن الكريم ليس موضوعًا سهل الإنكار.

لكن هناك بالتأكيد آخرون ممَّن هم أقلُّ شرفًا حين يقولون على عَجَل: «آه، لقد جاء القرآن من هنا، أو من هناك».

وهم حتَّى لا يتفحَّصون مصداقية ما يصرِّحون به فى معظم الأحيان. وطبعًا، فإنَّ مثل هذا التصريح من الكنيسة الكاثوليكيَّة يسبِّب للمسيحىِّ العادىِّ شيئًا من الصُّعوبة، وذلك لأنَّه ربَّما يكون لديه أفكاره الخاصَّة عن أصل القرآن، ولكنَّه كعضوٍ فى الكنيسة لا يستطيع التصرُّف حقا حسب نظريَّته. فمثل هذا التصرُّف قد يكون مناقضًا للخضوع والإخلاص والولاء الَّذى تطلبه الكنيسة. فبموجب عضويَّته فى الكنيسة، يتوجَّب عليه قبول ما تعلنه الكنيسة الكاثوليكيَّة دون سؤال، وأن يجعل تعاليمها كجزء من روتينه اليومىِّ. لذا، فجوهريا إذا كانت الكنيسة الكاثوليكيَّة فى عمومها تقول: «لا تستمعوا لتلك التقارير غير المؤكَّدة حول القرآن»، فما يمكن أن يقال حول وجهة النَّظر الإسلاميَّة؟ فحتَّى غير المسلمين يعترفون بأنَّ هناك شيئًا فى القرآن ـ شيئًا كان يجب أن يكون معترفًا به ـ إذًا فلماذا يكون النَّاس عنيدين، وهجوميِّين، وعدائيِّين، حين يقدِّم المسلمون نفس النظريَّة؟ هذا بالتأكيد شىءٌ لأولى الألباب ليتأمَّلوا فيه.. شىءٌ للتأمُّل لأولئك الَّذين يعقلون!

قام حديثًا واحدٌ من المفكِّرين القياديِّين فى الكنيسة الكاثوليكيَّة ـ يدعى هانز ـ بدراسة القرآن الكريم، وأدلى برأيه فيما قرأ. هذا الرَّجل أثبت حضوره القوى على الساحة ولزمنٍ

طويل، وهو ذو منزلة رفيعة فى الكنيسة الكاثوليكيّة، وبعد تفحُّص دقيقٍ نشر ما وجده مستنتجًا: «إنَّ الله قد كلَّم الإنسان من خلال الإنسان، محمَّد».

ومرّةً أخرى يأتى هذا الاستنتاج من مصدرٍ غير مسلم - وهو مفكّرٌ قياديٌّ كبيرٌ فى الكنيسة الكاثوليكيّة نفسها! أنا لا أظنُّ بأنَّ البابا يتّفق معه، ولكن على الرغم من ذلك فإنَّ رأى مثل هذه الشخصيّة العامّة ذائعة الصِّيت وذات السُّمعة الحسنة يجب أن يكون له وزنه فى الدِّفاع عن الموقف الإسلامىّ، ويتوجَّب التَّصفيق له لمواجهته الواقع بأنَّ القرآن الكريم ليس شيئًا يمكن أن يلقى بعيداً بسهولة، وبأنَّ الله تعالى حقا هو مصدر كلماته.

التفت إلى، وقال: يتّضح من كلِّ ما تقدَّم سابقًا بأنَّ كلَّ البدائل قد استنزفت، ولذا فالفرصة لإيجاد إمكانيّة أخرى لإنكار القرآن الكريم لا وجود لها، لأنَّ هذا الكتاب إن لم يكن وحيًا، فإنّه عندئذٍ خداع؛ وإن كان خداعًا، فإنَّ على الإنسان أن يتساءل: «فما هو مصدره؟ وفى أىِّ جزءٍ منه يقوم بخداعنا؟».

وطبعًا فإنَّ الإجابات الصحيحة على هذه التساؤلات تُلقى الضَّوء على أصالة القرآن الكريم، وتُسكت ادعاءات الكفّار اللاذعة وغير القائمة على دليل.

ومن المؤكَّد أنَّه إذا استمرَّ أولئك النَّاس بالإصرار على أنَّ القرآن الكريم ما هو إلاَّ خداع، فإنَّه يتوجَّب عليهم تقديم البرهان الَّذى يدعم ادعاءهم. فعبء إيجاد البرهان يقع على عاتقهم، وليس على عاتقنا! فلا يُفترض من أحدهم أبدًا أن يقدِّم نظريّةً بدون حقائق كافية تعزِّزها؛ لذا فأنا أقول لهم: «أرونى خداعًا واحدًا؟! أرونى أين يخدعنى القرآن الكريم؟! أرونى ذلك، وإن لم تفعلوا، فلا تقولوا لى بأنَّه خداع!».

**فوزى صبحى سمعان:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (فوزى صبحى سمعان)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: التقيت به فى مصر، وقد ذكر لى أن سبب إسلامه: هو تلك الألغاز الكثيرة التى تمتلئ بها الكنيسة، ولا يطيق العقل أن يجد لها أى تفسير.

لقد ذكر لى أن هذه الخواطر المملوءة بالشبهات بدأته منذ صغره، حيث كان يخدم كاتدرائية كنيسة (مارى جرجس) فى مدينة الزقازيق المصرية.

فخلف أسوار تلك الكاتدرائية كان يجلس فوزى الشاب - وهو يحلم بأن يحصل على رتبة (القس) - يستمع إلى القس الأكبر.

ولكنه لم يكن منفعلاً لما يسمع؛ بل كان شارداً تتنازعه أفكار ثقيلة كلما انتبه لصوت قسيس الكنيسة مناجيًا المسيح: (يا ابن الله، يا مخلصنا وإلهنا)

وقد ذكر لى أنه كان ينتفض طارداً الفكرة، لكنها تلح عليه مرة أخرى.

---

(1) انظر: مجلة الفيصل فى عددها الصادر فى أكتوبر 1992.

لقد كان يقول لنفسه، أو كانت نفسه تقول له: «لقد قالوا لنا أن المسيح صلب وعذب، ولم يكن قادراً على تخليص نفسه من الصلب والتعذيب المبرح؛ فكيف يتأتى له أن يخلصنا؟!».

ولم تتوقف مثل هذه الخواطر عند ذلك العمر وعند ذلك الحد.

لقد امتدت خواطره أو وساوسه إلى الأسرار السبعة متعجبًا منها:

السر الأول: وهو (التعميد) ببئر داخل الكنيسة، صلى عليها فحل بها الروح القدس، الطفل يغمس فيها فيصبح مسيحيًا بكل بساطة.

السر الثاني: وهو (الاعتراف) إذ يجلس النصراني المذنب أمام نصراني أكبر منه رتبة (قس - مطران - بطريك - بابا) ليعترف أمامه بكل شيء ويضع الأخير عصاه على رأسه ويتمتم ببعض الكلمات مانحًا إياه صك الغفران!

وقد أخبرني عن حوار دار بين بعض القس، وبين طبيب نصراني، يقول الطبيب: القس يغفر لي، فمن يغفر للقس؟! قال: البابا، قال: ومن يغفر للبابا؟! قال: الله. قال: فلماذا لا نعترف لله مباشرة ليغفر لنا؟! لماذا نفضح أنفسنا أمام الناس وقد سترنا الله؟!

السر الثالث: هو الشرب من دم المسيح هكذا، حيث يأتي النصراني بالنبيذ ليصلي عليه القس، فيتحول إلى دم مبارك هو دم المسيح ليشربه النصراني بِولَه وخشوع.

ويتساءل صاحبنا: إذا كان المسيح مخلصنا، فلماذا نشرب من دمه؟! فنحن نشرب من دم عدونا فقط.

السر الرابع: هو أكل لحم المسيح، قرابين تصنع من الدقيق ليرتل عليها القس، فتتحول إلى جزء من جسد المسيح يأكلونه، وتساءلت النفس المتمردة: لماذا نأكل لحم المسيح وهو إلهنا وأبونا؟!.

والأسرار الثلاثة الأخيرة هي الأب والابن والروح القدس، ويقولون: تثليث في توحيد. وكل ذلك لا يمكن أن يقبله عقل.

وأخبرني أن نفسه كانت تتألم، وهو يسمع صوت القس ومعه جموع المخدوعين بقانون الإيمان.. وهم يقولون: (بالحقيقة نؤمن).. بـ (إله واحد)، الأب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يرى وما لا يرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق، إله حق، مولود غير مخلوق، تساوى الأب في الجوهر، هذا الذي كان به كل شيء.. هذا الذي كان من أجلنا - نحن البشر - نزل من السماء فتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء.. وصلب وقبر عنا، وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتاب.. و.. و..!

لقد كـان يتعجب من ذلك التناقض، فـهم يقولون: إله واحد، ثم يقـولون المسيح ابن الله الوحيد؟!.. كيف وكل مولود مخلوق!!

ويقولون: صلب وقـبر من أجلنا.. فكيف يليق بالرب خالق الكون أن يصلبـه ويعذبه أحد خلقه؟!

وأخبرني عن كيفية دخوله الإسلام، فـذكر أنه مضى إلى الهيكل مباشرة حيث لا يرى من بداخله، وسجد مثلما يسجد المسلم، وبكى بحرقة، وابتهل إلى رب الخلق أجمعين الواحد الأحد، وقال: ربي.. أنت تعلم أنني في حيرة شديدة، فإن كانت النصرانية هي الحق فاجعل روح القدس تحل عليّ الآن، وإن كان الإسلام هو الحق فأدخله في قلبي.

وقد أخبرني أنه ما إن قال ذلك حتى انشرح صدره للإسلام.

وقبل أن يخرج من الكنيـسة عرج على القس وألقى عليه بعض التسـاؤلات، لم يجبه ولكن سأل: هل تقـرأ القرآن؟ فقال: نعم، اكفـهر وجه القس وصرخ: نحن فـقط الذين نقرأ القرآن أما أنت والعامة فلا! وخرج ولم يعد للكنيسة.

وأخبرني بالبـلاء الذي تعرض له بعد إسلامه، وبأنواع الفـضل التي وهبها الله له هدية لإسلامه:

فقد اجـتمع إخوته وتشاوروا واتخذوا القـرار ووضعوا طريقة التنفـيذ، لا بد أن يقتل، لقد عصى الرب وأهان الكنيسة، وجاء من يخبره ويـشير عليه، وهرب الفتى من قريته، وقلبه على إخوته، يدعو لهم بالهداية.

واستجاب الله دعاءه، فأسلمت أختـه، ولم يمض وقت طويل حتى أشهر أبوه إسلامه ليموت على الإسلام بعد عام ونصف.

**رحمة بورنومو:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (رحمة بورنومو)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان قبل إسلامه قسًا وورئيسًا للتبشير في كنيسة (بيتل إنجيل سبينوا)[2]. وهو من عائلة دينية[3]؛ فقد كان جده قسيسًا ينتمي إلى مذهب البروتستانت، وكان أبوه قسيسًا على مذهب بانتي كوستا، وكانت والدته معلمة الإنجيل للنساء.

وقد كان حديثـه ـ في بحثه عن الحق ـ يشبه حديث سلمـان الفارسي، وسأورده عليك كما ذكره لي:

---

(1) انظر: مجلة الفيصل في عددها الصادر في أكتوبر 1992.

(2) انظر: كتاب (علو الهمة) للشيخ محمد بن إسماعيل ص (239-254) بتصرف.

(3) ينتسب إلى أب هولندي وأم إندونوسية مـن مدينة (أمبون) الواقعة في جزيرة صغـيرة في أقصى الشرق من جزر إندونيـسيا، والمسيحية هي الدين الموروث لأسرته أبًا عن جد.

لقد ذكر لى أنه فى البدء كـان قد امتلأ بما يمتلئ به الكثير من رواد الكنيـسة والقائمين عليها من حقد على الإسلام، قال: لم يخطر ببالى ولو للحظة واحدة أن أكون من المسلمين، إذ أننى منذ نعومـة أظفارى تلقيت التعليم من والـدى الذى كان يقول لى دائمًا: «إن مـحمداً رجل بدوى صـحراوى ليس لـه علم ولا دراية، ولا يقرأ وأنه أمـى»، هكذا علمنى أبى، بل أكثر من ذلك فقد قرأت للبروفسور الدكتور ريكولدى النصرانى الفرنسى قوله فى كتاب له بأن محمـدًا رجل دجال يسكن فى الدرك التاسع من النار، وهكذا كـانت تساق المفتريات الـكثيرة لتشويه شخصية الرسول ﷺ، ومنذ ذلك الحين تكونت لدى فكرة مغلوطة راسخة تدفعنى إلى رفض الإسلام، وعدم اتخاذه دينًا!

وقد كانت هذه الشبـهات هى السبب فى تأخر إسلامه. . فـهو لم يكتشف الإسلام إلا بعد أن مر على مذاهب مختلفة، وديانات مختلفة.

قلت: ما الذى جعله يفكر فى تغيير دينه؟

قال: لقد ذكر لى قـصة ذلك، فقال: «فى يوم من الأيام أرسلتنى قيادة الكنيـسة للقيام بأعمال تبشيرية لمدة ثلاثة أيام ولياليها فى منطقة (دايرى) التى تبعد عن عاصمة (ميدان) الواقعة فى شمـال جزيرة (سومطرة) بضع مـئات من الكيلومتـرات، ولما انتهيت من أعـمال التبشـير والدعوة أويت إلى دار مسئول الكنيسـة فى تلك المنطقة، وكنت فى انتظار وصول سيارة تقلنى إلى موقع عـملى، وإذا برجل يطلع علينا فجـأة، لقد كان مـعلمًا للقرآن، وهو مـا يسمى فى إندونيسيا مطوعًـا فى الكُتّاب، وهو المدرسة البسيطة التى تعلم القرآن، لقـد كان الرجل ملفتًا للأنظار، كان نحيف الجسم، دقيق العود يرتدى كوفية بيضاء بالية خلقة، ولباسًا قد تبدل لونه من كثرة الاستعمال، حتى أن نعله كان مربوطًا بأسلاك لشدة قدمه، اقترب الرجل منى، وبعد أن بادلنى التحية بادرنى بـالسؤال التالى، وكان سؤالاً غريبًا من نوعـه، قال: (لقد ذكرت فى حديثك أن عيسى المسيح إله، فأين دليلك على ألوهيته؟!)، فقلت له: (سواء أكان هناك دليل أم لا فالأمـر لا يهمك، إن شـئت فلتؤمن، وإن شـئت فلتكفر) وهنا أدار الرجـل ظهره لى، وانصرف، ولكن الأمـر لم ينته عند هذا الحـد، فقد أخـذت أفكر فى قرارة نفـسى، وأقول: هيهـات هيهـات أن يدخل هذا الرجل الجنة، لأنها مـخصصـة فقط لمن يؤمن بألوهيـة المسيح فحسب، هكذا كنت أعتقد جازمًا آنذاك.

ولكن عندما عدت إلى بيتى وجـدت أن صوت الرجل يجلجل فى روعى، ويدق بقوة فى أسماعى، مما دفعنى إلى الرجوع إلى كتب الإنجيل بحثًا عن الجواب الصحيح على سؤاله».

ثم ذكر لى أنه أخـذ يدرس الأناجيل الأربعة ليبـحث فيها عن الدليل. . قـال: «فماذا وجدت؟ هذا إنجيل متّى مـاذا يقول عن المسيح عيسى عليه السلام؟ إننا نقـرأ فيه ما يلى: (إن عيسى المسيح ينتسب إلى إبراهيم وإلى داود. . إلخ) (1-1) إذن من هو عيسى؟ أليس من بنى

البشر؟ نعم إذن فهو إنسان، وهذا إنجيل لوقا يقول: (ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية) (1-33)، وهذا إنجيل مرقس يقول: (هذه سلسلة من نسب عيسى المسيح ابن الله) (1:) وأخيراً ماذا يقول إنجيل يوحنا عن عيسى المسيح عليه السلام؟ إنه يقول: (فى البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله) (1:1)، ومعنى هذا النص هو فى البدء كان المسيح، والمسيح عند الله، والمسيح هو الله.

قلت لنفسى: إذن هناك خلافا بارزا بين هذه الكتب الأربعة حول ذات المسيح عيسى عليه السلام أهو إنسان أم ابن الله أم ملك أم هو الله؟! لقد أشكل علىَّ ذلك، ولم أعثر على جواب.

ثم واصلت البحث، فوجدت فى إنجيل يوحنا نصوصًا تشير إلى دعاء المسيح عليه السلام وتضرعه إلى الله سبحانه وتعالى. فقلت فى نفسى: لو كان عيسى هو الله القادر على كل شىء فهل يحتاج إلى هذا التضرع والدعاء الذى ورد فى إنجيل يوحنا؟!، هذا هو نص الدعاء: (هذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك، ويسوع المسيح الذى أرسلته، أنا مجدتك على الأرض، العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته) (17-3-4) وهو دعاء طويل يقول فى نهايته: (أيها الرب البار، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتنى وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذى أحببتنى به) (17-25-26).

هذا الدعاء يمثل اعترافًا من عيسى عليه السلام بأن الله هو الواحد الأحد، وأن عيسى هو رسول الله المبعوث إلى قوم معينين، وليس إلى جميع الناس، فأى قوم هم هؤلاء يا ترى؟ نقرأ جواب ذلك فى إنجيل متّى (15-24) حيث يقول: (لم أرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)، إذن لو ضممنا هذه الاعترافات إلى بعضها لأمكننا أن نقول: (إن الله الواحد الأحد، وإن عيسى عليه السلام هو رسول الله إلى بنى إسرائيل).

ثم واصلت البحث، فتذكرت أننى حين أكون فى صلاتى أقرأ دائمًا العبارات التالية: (الله الأب، الله الابن، الله الروح القدس، ثلاثة فى أقنوم واحد)، قلت لنفسى: أمر غريب حقًا، فلو سألنا طالبًا فى الصف الأول الابتدائى (1+1+1=3؟)، لقال: (نعم)، ثم إذا قلنا له: (ولكن أيضًا 3=1!)، لما وافق على ذلك، إذ إن هناك تناقضًا صريحًا فيما نقول، لأن عيسى عليه السلام يقول فى الإنجيل كما رأينا بأن الله واحد، لا شريك له.

لقد حدث تناقض صريح بين العقيدة التى كانت راسخة فى نفسى منذ أن كنت طفلاً صغيراً، وهى: ثلاثة فى واحد، وبين ما يعترف به المسيح عيسى نفسه فى كتب الإنجيل الموجودة الآن بين أيدينا؛ وهى أن الله واحد أحد لا شريك له، فأيهما هو أحق؟!

لم يكن بوسعي أن أقرر آنذاك، والحق يقال، بأن الله واحد أحد، فأخذت أبحث في الإنجيل من جديد لعلي أقع على ما أريد، لقد وجدت في سفر أشعياء النص التالي: (اذكروا الأوليات منذ القديم، لأني أنا الله وليس آخر الإله، وليس مثلي) (46:9) ولشد ما كانت دهشتي عظيمة حين اعتنقت الإسلام فوجدت نفس هذا المعنى مطروقا في سورة الإخلاص! نعم، مادام الكلام كلام الله فهو لا يختلف حيثما وجد، هذا هو التعليم الأول أو البديهية الأولى في ديانة المسيحية السابقة، إذن (ثلاثة في واحد) لم يعد لها وجود في نفسي».

هذا هو السبب الأول الذي جعله يعيد نظره في ديانته..

أما السبب الثاني: فهو البديهية الثانية في المسيحية، والتي تنص على أن هناك ما يسمى بالذنب الوراثي أو الخطيئة الأولى، ويُقصد بها أن الذنب الذي اقترفه آدم عليه السلام عندما أكل الثمرة المحرمة عليه من الشجرة في الجنة، هذا الذنب سوف يرثه جميع بني البشر حتى الجنين في رحم أمه يتحمل هذا الإثم ويولد آثمًا!

قال: «لقد أخذت أبحث عن حقيقة ذلك، فلجأت إلى العهد القديم فوجدت في سفر حزقيال ما يلي: (الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون، فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقًا وعدلاً، فحياة يحيا ولا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه) (حزقيال 18:20-21).

وهذا المعنى يتفق تمامًا مع ما ورد في القرآن الكريم الذي ينص على هذا في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر]، وقوله ﷺ: «يُولد ابن آدم على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

هذه هي القاعدة في الإسلام، ويوافقها ما جاء في الإنجيل، فكيف يقال: (إن خطيئة آدم تنتقل من جيل إلى جيل، وأن الإنسان يولد آثمًا؟!)».

أما السبب الثالث الذي دعاه إلى مراجعة معتقداته! فهي البديهية الثالثة في التعاليم المسيحية، والتي تقول: إن ذنوب بني البشر لا تغفر حتى يصلب عيسى عليه السلام، يقول: «لقد أخذت أفكر في هذه البديهية، وأتساءل: (هل هذا صحيح؟) وكان الجواب الذي لا مفر منه: بالطبع لا، لأن النص الآنف الذكر من العهد القديم ينفي مثل هذا الاعتقاد بقوله: (فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقًا وعدلاً، فحياة يحيا ولا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه)، أي أن الله يغفر ذنوبه دون حاجة إلى أية وساطة من أحد.

بالإضافة إلى هذا، فقد راوده ـ بناء على هذا ـ شك عظيم فى المعنى الذى يفهمه المسيحيون من الخلاص المسيحى، قال: «من التعاليم البديهية فى الديانة المسيحية أن عيسى عليه السلام هو المنقذ المخلِّص للعالم، أى أنك إذا آمنت بألوهية عيسى فسوف تنجو، وهذا يعنى أنَّه يمكنك أن تفعل ما تشاء غيرَ آبهٍ بالذنوب والمعاصى ما دمت تؤمن بعيسى كمنقذ لك، شريطة أن تكون على يقين بأنك من التابعين! قلت لنفسى: لا بد أن أبحث فى الإنجيل وأعرف الحق من الباطل فى ذلك، فى سفر أعمال الرسل ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس يقول: الله قد أقام الرب وسيُقيمنا نحن أيضًا بقوته (6:14)، والقصة كما وردت فى التعاليم المسيحية فيه كالآتى: أنه لما قبضوا على السيد المسيح عرضوه أمام العدالة فحكم عليه بالصلب، ثم دُفن فهنا تأتى الآية مناسبة لتلك القصة.

لقد علق (رحمة بورنومو) على هذا بقوله: «لقد تأملت هذه الآية طويلاً ثم قلت: إذا لم يتدخل الله فى إقامة المسيح من القبر لبقى مدفونًا تحت التراب إلى يوم القيامة، إذن ما دام المسيح لم يستطع إنقاذ نفسه فكيف يكون بوسعه إنقاذ الآخرين؟! هل يليق بإله ـ كما يزعمون ـ أن يكون عاجزًا عن ذلك؟!».

قلت: كل ما ذكرته أسباب قوية يمكنها أن تزحزح أى مسيحى عن دينه.. فهل أنتقل نتيجة لهذا إلا الإسلام؟

قال: لقد ذكرت لك ما امتلأ به الرجل من الشبهات.. ولهذا جعل الإسلام آخر تطوافه الباحث عن الحق.

لقد قال لى: «عند ذلك عزمت على الخروج من الكنيسة وعدم الذهاب إليها، كان ذلك فى عام 1969 حيث خرجت فعلاً ولم أعد أتردد على الكنيسة، وليس معنى ذلك أننى خرجت ذلك الحين من الديانة النصرانية نفسها، لأنه كما هو معلوم، هناك كنائس ومذاهب شتى فى الديانة النصرانية، فهناك الكاثوليك، والبروتستانت، والميثوديست، والبلاى كسلامتن، واليونيتاريان، وغيرها كثير، حتى أننى أستطيع أن أقول بأن هناك أكثر من 360 مذهبًا فى الديانة النصرانية!

وذات يوم لقيت صديقًا لى فدعانى إلى الكاثوليكية، وأخذ يعدد مميزات لهذا المذهب لم أجد مثلها فى مذهبى البروتستانتى، قال صديقى: (فى هذا المذهب توجد حجرة الغفران، وهى عبارة عن غرفة فى الكنيسة يجلس فيها قس ذو لحية كثيفة يرتدى لباسًا أسود، ويقعد على كرسى عال، ومن طلب العفو والغفران ذهب إليه، وردد بعض الألفاظ الغير المفهومة، وما أن يكاد يفرغُ من قراءتها حتى يقال له بأنه برئ من ذنوبه، ويرجع كيوم ولدته أمه! هكذا قال لى صديقى، وأضاف قائلاً: كل ما تقترف يداك من الذنوب خلال أيام الأسبوع كفيل بأن يُغفر لك عند ذهابك إلى الكنيسة يوم الأحد، وحصولك على الغفران. فأنت لا تحتاج إلى

الصلاة، ولا إلى العبادة، ولكن إذا تركت ذلك كله وذهبت إلى القس، واعترفت أمامه، غُفرت ذنوبك!).

قال رحمة بورنومو: «لقد تذكرت ما يقرره الإسلام فى ذلك، وهو أن البشر مهما علت رتبة أحدهم لا يمكن أن يُوكَلَ إليه غفران ذنوب العباد، كما أن التوبة والمغفرة لا تُسقط التكاليف والفرائض، بل لا بد للتائب من أن يؤدى الصلوات الخمس اليومية فى أوقاتها، فإذا تركها فلا قيمة لتوبته وعليه إثم كبير لا يمكن أن يتحمله عنه غيره من الناس.

ثم يقول: لقد رأيت الداخلين إلى حجرة الغفران فى الكنيسة عليهم أمارات الحزن والكآبة لثقل الذنوب، بينما رأيت من يخرج منها وقد علت وجهه ابتسامة الفرح لاعتقاده بأن ذنوبه قد غفرت له، أما أنا فحين جربت تلك الغرفة دخلتها حزينًا وخرجت منها حزينًا، لأننى كنت أفكر وأتساءل: (هذه ذنوبنا يتحملها القس، ولكن من يتحمل ذنوبه هو؟!) وهكذا لم أقتنع بالكاثوليكية فتركتها، وبحثت عن دين آخر.

بعد ذلك تعرفت على طائفة مسيحية أخرى تسمى (شهود يهوه) وهى مذهب آخر من مذاهب المسيحية، لقيت رئيسهم، وسألته عن تعاليم مذهبه، وقلت له: (من تعبدون؟)، قال: (الله)، قلت: (ومن هو المسيح؟) فقال: (عيسى هو رسول الله)، فصادف ذلك موافقة لما كنت أومن به، وأميل إليه، ودخلت كنيستهم فلم أجد فيها صليبًا واحدًا، فسألته عن سر ذلك، فقال: (الصليب علامة الكفر! لذلك لا نعلقه فى كنائسنا)

لقد وصف هذه الفترة من حياته، فقال: لقد أمضيت ثلاثة أشهر كاملة أتلقى تعاليم ذلك المذهب، وفى نهايتها كان لى الحوار التالى مع رئيس الكنيسة، وكان هولنديا، قلت له: (يا سيدى، إذا توفيت على هذا المذهب، فإلى أين مصيرى؟) قال: (كالدخان الذى يزول فى الهواء!)، فقلت متعجبًا: (ولكنى لست سيجارة، بل أنا إنسان ذو عقل وضمير)، ثم سألته: (وأين أتجه بعد الممات؟)، فقال: (تُوضع فى ميدان واسع)، قلت له: (وأين ذلك الميدان؟) قال: (لا أعلم)، قلت: (سيدى إذا كنت عبداً مطيعًا ملتزمًا بهذا المذهب، فهل أدخل الجنة؟) قال: (لا)، قلت: (فإلى أين إذن؟!) قال: (الذين يدخلون الجنة عددهم 144 ألف شخص فقط، أما أنت فسوف تسكن الأرض مرة أخرى)، وهنا قاطعته قائلاً: (ولكن يا سيدى قد وقعت الواقعة، فالدنيا خربت)، قال: (أنت لا تفهم حقيقة القيامة، لو كان لديك كرسى وفوقه حشرات مؤذية، هل تحرق الكرسى لتخلص من الحشرات؟) قلت: (لا)، قال: (بل تقتل الحشرات ويبقى الكرسى سليمًا، وهكذا تبقى الأرض سليمة بعد تطهيرها من الدنس والخطايا، وعندها ينتقل إليها الناس من ذلك الميدان، فليس هناك ما يسمى بالنار!).

وهنا أعملت فكرى جيداً، ودرست الأمر وقلبته، حتى اتخذت القرار الأخير بترك المسيحية بجميع مذاهبها رسميًا، كان ذلك فى عام 1970، وفى أحد الأيام بينما كنت أسير فى

طريقى بحثًا عن الحق، رأيت معبدًا بوذيًا جميلاً ضخمًا، اقتربت منه، فوجدت فيه عدة تماثيل وصور، وفى السقف تمثال لتنين، وعلى الجدران مثل ذلك، كما شاهدت أمام البوابة تمثالين على شكل أسد صامت، وما أن دخلت من البوابة حتى جاءنى رجل فأوقفنى، وسأل: (إلى أين؟) قلت: (أريد أن أدخل)، قال: (اخلع نعليك قبل أن تدخل، هذا معبد لنا فاحترم مكان عبادتنا)

ثم يقول: (لقد جربت الديانة البوذية فترة من الزمن، ولكن سرعان ما تركتها لإحساسى بأننى لم أجد الحق الذى أنشده، ثم اتصلت بالديانة الهندوسية التى بدأت ونشأت فى الهند، والتى انتشرت تعاليمها حتى وصلت إلى بعض الجزر الإندونيسية، فأخذت أتنقل بين تلك الجزر التى يوجد فيها نشاط لأتباع هذا الدين، ومكثت معهم فترة من الزمن تعلمت فيها الكثير، وقد نجحت فى المرحلة الأولى إلى درجة أننى أخذت أجرى الخوارق كالعبور فى النار، والمشى على المسامير الحادة، وإدخال المسامير فى أعضاء الجسم إلى غير ذلك! ولكن أيضًا ليس هذا هو ما كنت أبحث عنه)

ثم يضيف: وذات يوم سألت رئيس المعبد الهندوسى: (ماذا تعبدون؟)، قال: نعبد (برهما، ويشنو، وشيوا)، برهما: إله الخلق، ويشنو: إله الخير، وشيوا: إله الشر، ثلاثة آلهة تجلت فى جسد إنسان واحد اسمه كريشنا الذى يعتبر المنقذ للعالم عند الهندوس، قلت لنفسى: (إذن فلا فرق فى أمر الألوهية بين الهندوسية والنصرانية، ولو اختلفت الأسماء فهما يناديان ثلاثة فى واحد).

قلت للكاهن الهندوسى: (اشرح لى نشأة كريشنا)، فقال: كان فى الهند سنة ألفين قبل الميلاد ملك جبار ظالم لا يرحم حتى أبناءه، فيقتل مولده الذكر خوفًا من أن يحتل عرشه غصبًا، وفى إحدى الليالى الظلماء كان الملك جالسًا أمام قصره، وإذا بكوكب مضئ يطلع فى السماء فوق رأسه، وكان يسير بسرعة مذهلة، ثم توقف فى الفضاء وأرسل نوره الباهر على حظيرة الأبقار، فلما سأل الملك رجال العلم والدين، راجعوا كتبهم المقدسة، فقالوا: إن ذلك دليل على تجلى الآلهة فى جسم إنسان اسمه سرى كريشنا، فقلت فى نفسى: هذه القصة بحذافيرها مع تغيير الأشخاص موجودة فى الديانة المسيحية، وكنت أحدث بها الناس وأنا قس، والفرق أن القرية المشار إليها هى بيت لحم، والإنسان عندنا هو المسيح، فلا فرق إذن بين القصتين ولا بين العقيدتين فى قضية أساسية هى قضية الألوهية، وقضية هوية المنقذ للعالم.

لقد واصلت حوارى مع الكاهن الهندوسى فقلت له: (يا سيدى إذا توفيت وأنا على دينكم، فإلى أين مصيرى؟) قال: (لا أعلم، ولكن عليك أن تمتنع عن قتل الحشرات من أمثال النمل والبعوض وغيرها)، وقال: (قد تكون هذه الحشرات آباءك وأجدادك الموتى!).

ثم يقول: (وفى النهاية قررت أن أترك كل تلك الديانات، ولم يكن أمامى إلا الإسلام الذى لم أكن أريد اعتناقه؛ لما غُرس فى نفسى منذ طفولتى من نفور وكراهية لهذا الدين الذى لم أكن أعرف عنه إلا الشبهات، كنت أريد البحث عن الحق المجهول وهذا البحث يلزم الجهد والصبر، وذات يوم قلت لزوجتى: اعتباراً من هذه الليلة لا أريد أن يزعجنى أحد، أريد أن أصلى وأتضرع إلى الله، وهكذا أقفلت باب حجرتى ورفعت يدى إلى الله خاشعًا متضرعًا قائلاً: (يا رب.. إذا كنت موجوداً حقًا فخذ بناصيتى إلى الهدى والنور، واهدنى إلى دينك الحق الذى ارتضيته للناس)

لقد ذكر لى أنه استمر على ذلك زمنًا طويلاً، حوالى ثمانية أشهر، قال: وفى ليلة الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر عام 1971م الموافقة للعاشر من رمضان من نفس العام، وبعد أن فرغت من دعائى المعتاد رحت فى نوم عميق، وعندها جاءنى نور الهدى من الله عز وجل، إذ رأيت العالم حولى فى ظلام دامس، ولم يكن بوسعى أن أرى شيئًا، وإذا بجسم شخص يظهر أمامى، فأمنعت النظر فيه، فإذا بنور حبيب يشع منه، يبدد الظلمة من حولى، لقد تقدم الرجل المبارك نحوى، فرأيته يلبس ثوبًا أبيض وعمامة بيضاء، له لحية جعدة الشعر، ووجه باسم لم أر قط مثله من قبل جمالاً وإشراقًا، لقد خاطبنى الرجل بصوت حبيب قائلاً: (ردد الشهادتين)، وما كنت حينئذٍ أعلم شيئًا اسمه الشهادتين، فقلت مستفسراً: (وما الشهادتان؟) فقال: (قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله) فكررتهما وراءه ثلاث مرات، ثم ذهب الرجل عنى.

ولما استيقظت من نومى وجدت جسمى مبللاً بالعرق، وسألت أول مسلم قابلته: (ما هما الشهادتان، وما قيمتهما فى الإسلام؟)، فقال: (الشهادتان هما الركن الأول فى الإسلام، ما أن ينطقهما الرجل حتى يصبح مسلمًا)، فاستفسرت منه عن معناهما فشرح لى المعنى.

وبعد عشرين يومًا من ذلك الحادث وكانت ليلة عيد الفطر سمعت صيحات التكبير يرددها المسلمون من المساجد القريبة من دارنا، فاقشعر بدنى واهتز قلبى، ودمعت عيناى لا حزنًا على شىء، بل شكراً لله على هذه النعمة، فالحمد لله الذى هدانى أخيراً إلى ما كنت أبحث عنه منذ سنين، لقد تم ذلك فى عام 1971م وقد خَيَّرتُ زوجتى بين الإسلام والمسيحية، فاختارت الإسلام، والجدير بالذكر أنها كانت فى طفولتها مسلمة ومن عائلة مسلمة تنصرت بسبب إغراءات المبشرين، وتبعًا لجهلها بأمور دينها الحنيف، كما تبعنا أبناؤنا فاعتنقوا الإسلام، ومنذ الثانى من شهر فبراير عام 1972م ونحن مسلمون والحمد لله.

**عزت إسحاق معوض:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عزت إسحاق معوض)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد التقيت به في مصر.. وقد لاحظت في كلامه نفحات الصدق التي أخبرني عنها معلم السلام، فسألته عنه، فقال لي: كنت عزت إسحاق معوض، وأنا الآن محمد أحمد الرفاعي، وكنت قُمُصًا مسيحيا لا أهدأولا أسكن عن الدعوة إلى المسيحية، وأنا الآن بحمد الله مسلم لا أمارس إلا حرفة واحدة هي الدعوة إلى الله، وإلى الإسلام العظيم الذي شرفني الله به.

قلت: فما قصة إسلامك؟

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: نشأت في أسرة مسيحية مترابطة، والتحقت بقداس الأحد وقد كان عمري حينها أربع سنوات.. وفي سن الثامنة كنت أحد شمامسة الكنيسة، وتميزت عن أقراني بإلمامي بالقبطية وقدرتي على القراءة من الكتاب المقدس على الجماهير.

ثم تمت إجراءات إعدادي للالتحاق بالكلية الأكليريكية، لأصبح بعدها كاهنًا، ثم قُمُصًا، ولكنني عندما بلغت سن الشباب بدأت أرى ما يحدث من مهازل بين الشباب والشابات داخل الكنيسة وبعلم القساوسة[2]! وبدأت أشعر بسخط داخلي على الكنيسة، وتلفت حولي، فوجدت النساء يدخلن الكنيسة متبرجات ويجاورن الرجال، والجميع يصلي بلا طهارة وهم يرددون ما يقوله القس بدون أن يفهموا شيئًا على الإطلاق، وإنما هو مجرد تعود على سماع ذلك الكلام.

وعندما بدأت أقرأ أكثر عن المسيحية وجدت أن ما يسمى (القداس الإلهي) ـ الذي يتردد في الصلوات ـ ليس له دليل من الكتاب المقدس.

بالإضافة إلى هذا الخلافات الكثيرة بين الطوائف المختلفة، بل وداخل كل طائفة على حدة،وذلك حول تفسير (الثالوث) وغيره، وكنت أشعر بنفور شديد من مسألة تناول النبيذ وقطعة القربان من يد القسيس؛والتي ترمز إلى دم المسيح وجسده!

قلت: فكيف انجذبت إلى الإسلام؟

قال: بينما كان الشك يراودني في المسيحية بسبب طقوسها وعقائدها وانحرافاتها؛ كان يجذبني شكل المسلمين في الصلاة والخشوع والسكينة التي تحيط بالمكان؛ برغم أنني كنت لا أفهم ما يرددون.. وكنت عندما يُقرأ القرآن يلفت انتباهي، وأحس بشئ غريب داخلي برغم أنني نشأت على كراهية المسلمين.. وكنت معجبًا بصيام شهر رمضان وأجده أفضل من صيام

---

(1) انظر: صحيفة (المسلمون) ـ الصادرة في 4 / 10 / 1991 (بتصرف).

(2) انظر بعض الشهادات المرتبطة بهذا في الرسالة السابقة.

الزيت الذى لم يرد ذكره فى الكتاب المقدس، وبالفعل صمت أيامًا من شهر رمضان قبل إسلامى.

ثم بعد ذلك.. بدأت الشعور بأن المسيحية دين غير كامل ومشوه يشتد على، غير أننى ظللت متأرجحًا بين المسيحية والإسلام ثلاث سنوات انقطعت خلالها عن الكنيسة تمامًا، وبدأت أقرأ كثيراً وأقارن بين الأديان، وكانت لى حوارات مع إخوة مسلمين كان لها الدور الكبير فى إحداث حركة فكرية لدىّ، وكنت أرى أن المسلم غير المتبحر فى دينه يحمل من العلم والثقة بصدق دينه ما يفوق ما لدى أى مسيحى، حيث إن زاد الإسلام من القرآن والسنة النبوية فى متناول الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً، فى حين أن هناك بعض الأسفار بالكتاب المقدس ممنوع أن يقرأها المسيحى قبل بلوغ سن الخامسة والثلاثين، ويفضل أن يكون متزوجًا حين قراءتها[1]!

قلت: فكيف بدأت نقطة التحول فى حياتك؟.. أو كيف استطعت أن تقهر تلك السدود والحجب التى كانت تحول بينك وبين الإسلام؟

قال: كانت نقطة التحول فى حياتى فى أول شهر سبتمبر عام 1988، عندما جلست إلى شيخى وأستاذى (رفاعى سرور) لأول مرة وناقشنى وحاورنى لأكثر من ساعة، وطلبت منه فى آخر الجلسة أن يقرئنى الشهادتين ويعلمنى الصلاة، فطلب منى الاغتسال، فاغتسلت ونطقت بالشهادتين وأشهرت إسلامى وتسميت باسم (محمد أحمد الرفاعى) بعد أن تبرأت من اسمى القديم (عزت إسحاق معوض)[2]، وألغيته من جميع الوثائق الرسمية، كما أزلت الصليب المرسوم على يدى بعملية جراحية[3].

قلت: فهل ابتليت فى دينك كما ابتلى الكثير ممن أعلنوا إسلامهم؟

قال: لقد كان أول بلاء لى فى الإسلام هو مقاطعة أهلى لى، ورفض أبى أن أحصل على حقوقى المادية وعن نصيبى فى شركة كانت بيننا، ولكننى لم أكترث، ودخلت الإسلام صفر اليدين، ولكن الله عوضنى عن ذلك بأخوة الإسلام، وبعمل يدر علىّ دخلاً طيبًا.

قلت: فما الذى ترجو؟

قال: كل ما آمله من حياتى ألا أكون مسلمًا إسلامًا يعود بالنفع علىّ وحدى فقط، ولكن أن أكون نافعًا لغيرى وأساهم بما لدىّ من علم بالمسيحية والإسلام فى الدعوة لدين الله تعالى.

---

(1) انظر فصل (الأدب) من رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

(2) لقد ذكرنا أنه ليس ضروريا تغيير المنتمى للإسلام اسمه، فالنبى ﷺ لم يغير أسماء الكثير من الصحابة، والذين غير أسماءهم لم يغيرها إلا بإذنهم، بل هناك من الصحابة من لم يرض بتغيير اسمه.. فلا ينبغى على المسلمين التشدد فى هذا، لأنه قد يكون حجابا من الحجب عن الإسلام.

(3) وهذا أيضا ليس شرطا.. بل إنه يحرم إذا أدى ذلك إلى ضرر فى بدنه.

قال ذلك بروحانية أحسست تأثيرها فى قلبى، ثم انصرف بعد أن منحنى أشعة جديدة من شمس محمد.

**القس عيسى بياجو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (القس عيسى بياجو)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تشرفت بالالتقاء به فى رحلة لى إلى الفلبين فى مهمة تبشرية، وقد تعجبت من كثرة من يدخل الإسلام من الفلبينيين، وقد جرى لى معه هذا الحديث:

قلت: لقد سمعت أنك كنت قسًا كاثوليكيًا؟

قال: أجل، أنا كريسانتو بياجو، هذا هو اسمى الأصلى، وقد درست فى المعهد اللاهوتى، وحصلت على درجة الليسانس فى اللاهوت، وعملت كقس كاثوليكى.

قلت: إن الإسلام يتعرض فى هذه البلاد لتشويهات كثيرة، فما الذى جعلك تنصرف عن تلك الشبهات؟.. أو ما الذى جعل الشبهات يضعف تأثيرها فيك؟

قال: صدقت، وقد أثرت فى تلك الشبهات تأثيرا كبيرا جعلت إسلامى يتأخر كثيرا، لقد كنت أسمع عن المسلمين كمجموعة من الناس، ولم تكن عندى فكرة عما يدينون به، وفى ذلك الحين كنت لا أطيق حتى مجرد سماع اسمهم نظرًا للدعاية العالمية التى توجه ضدهم، وحتى المسلمون المتمون إلى (..!؟) فى الفلبين؛ كان يُعطى الإيحاء بأنهم قراصنة وهمجيون، يسهل عليهم العدوان وسفك الدماء.

ولم يكن هذا الشعور خاصا بى؛ بل كان يشاركنى فيه معظم مسيحيى الفلبين الذين يمثلون 90٪ من السكان.

وذات يوم حضرت محاضرة ألقاها منصّر أمريكى اسمه (بيتر جوينج) عن الإسلام، فأخذتنى الرغبة فى التعرف على هذا الدين، وانطلقت لأقرأ بعض الرسائل عن أركان الإيمان، وأركان الإسلام، وعن قصص الأنبياء، فدهشت من أن الإسلام يؤمن بالأنبياء الذين من أهمهم المسيح عليه السلام، وقد كانت تلك المحاضرة هى بداية الشوق الذى وضعه الله فى قلبى للبحث عن الإسلام.

وقد كانت مشكلتى نقص الكتب التى تتكلم عن الإسلام وعن القرآن ولكنى لم أيأس، لأننى كنت أستحضر من كلام المبشر الأمريكى قوله (إن التوراة فيها أخطاء)، مما أدخل الشك فى نفسى، فبدأت أكوّن فكرتى عن الدين الحق الذى أومن به.

ولم أجد الإجابات عن الأسئلة التى جالت آنئذٍ فى صدرى حول الإنجيل، وكلما حللت مشكلة أو أجبت عن سؤال، ظهرت مشاكل كثيرة وأسئلة أكثر، فلجأت إلى تفريغ ذهنى من كل فكرة مسبقة، ودعوت الله أن يهدينى إلى الحق.

وكان من المفارقات العجيبة أننى كقسيس كنت أعلّم الناس ما لا أعتقده، فمثلاً لم أكن على الإطلاق مقتنعًا بفكرة الخطيئة الأصلية، والصّلب، إذ كيف يحمّل الله إنسانًا ذنوب الآخرين؟! هذا ظلم، ولماذا لا يغفرها الله ابتداءً؟! وكيف يفعل الأب هذا بابنه؟! أليس هذا إيذاءً للأبناء بغير حق؟! وما الفرق بين هذا وبين ما يفعله الناس من إساءة معاملة الأطفال؟!

بدأت أبحث عن الوحى الحقيقى، فتأملت نص التوراة فلم أجد إلا كلامًا مليئًا بالأخطاء والتناقضات لا ندرى من كتبه ولا من جمعه، فأصل التوراة مفقود، وهناك أكثر من توراة.

اهتزت عقيدتى تمامًا، ولكننى كنت أمارس عملى، لئلا أفقد مصدر دخلى وكل امتيازاتى.. ومرت ستتان وأنا على هذا الحال حتى جاء يوم لقيت فيه جماعة من المسلمين يوزعون كتيبات عن الإسلام، فأخذت منهم واحدًا قرأته بشغف، ثم سعيت إلى مناقشة تلك الجماعة التى كانت توزع تلك الكتيبات، فقد كنت أحب الجدال والمناظرة، وهذا ليس غريبًا، ففى الفلبين جماعات مسيحية متصارعة يقارب عددها 20 ألف جماعة؛ وكثيرًا ما كنت أمارس الجدال والمناظرة مع بعض تلك الجماعات.

فلما جلست مع ذلك الفريق المسلم فى إحدى الحدائق فوجئت بأن الذى يحاورنى كان قسيسًا كبيرًا دخل الإسلام، فأخذت أنصت لكلامه عن النظام السياسى فى الإسلام، فأعجبنى لأننى كنت أحب المساواة التى لم أجدها فى النظم البشرية، ولكنى حينئذٍ وجدتها فى دين مبنى على كلام الله ووحيه إلى خلقه.

سألت المتحدث عن سبب اعتناقه للإسلام، ثم عن الفرق بين القرآن والإنجيل فأعطانى كتابًا لرجل اسمه أحمد ديدات.. قرأت الكتاب فوجدت فيه الإجابة عن كل تساؤلاتى حول الإنجيل واقتنعت تمامًا، ثم أخذت أقابل ذلك الرجل كل يوم جمعة بعد الظهر لأسأله عن كل شىء، وكان من فضولى أن سألته عن محمد ﷺ، وهل هو من نسل إسماعيل؟ فذكر لى أن فى التوراة الموجودة حاليًا ذكر محمد ﷺ! وأعطانى مقاطع كثيرة من التوراة فى هذا الصدد.

أخذت أبحث لأقتنع، وكان من دواعى اطمئنانى أن إيمانى بعيسى عليه السلام يجعلنى أقبل الإيمان بمحمد ﷺ، واستمر بحثى شهرين، شعرت بعدهما ببعض التردد، لخوفى على مستقبلى لأننى أعلم يقينًا أننى لو أسلمت فسأخسر كل شىء: المال، ودرجتى العلمية، والكنيسة، وسأخسر والدىّ وإخوتى، وكان الشىء الذى هزنى هو عجزى عن تدريس الناس العقيدة المسيحية إذ أصبحت باردًا جدًا وغير مقتنع بما أقول.

تركت قراءة التوراة حتى لاحظ والداى ذلك، ثم لقيت صديقى المسلم، وسألته عن الصلاة، فقال لى: الشهادة أولاً، فرفعت أصبعى بتلقائية وقلت خلفه: أشهد أن لا إله إلا

الله، وأن محمداً رسول الله، ولم أكن أعرف معنى هذا القول حتى شرحه هو لى بعد ذلك، وقلت: وأشهد أن عيسى رسول الله.

كان فى المجلس مسلمون كثيرون من جنسيات مختلفة فقام الجميع وعانقونى وهنأونى، فقلت فى نفسى: كل هؤلاء مسلمون رغم اختلاف جنسياتهم وألوانهم، لقد جمعهم الإسلام بلا تمييز، فلماذا التمييز فى المسيحية حتى تجد جماعات مسيحية للبيض وجماعات مسيحية للسود؟

فرجعت إلى بيتى ونطقت بالشهادة باللغة الانجليزية بينى وبين الله تعالى فليس يهمنى الناس، بقيت على إسلامى من غير أن يعلم أحد من معارفى، وكنت أدخل الكنيسة لمدة ستة أسابيع، لأنزع بعد ذلك فتيل القنبلة وأعلن إسلامى، فغضب والداى أشد الغضب.

وجاء الكاهن الاكبر إلى المنزل ليناقشنى، فعرضت عليه ما عندى من تناقضات الإنجيل، فكلمنى عن بعض الشبهات التى تثار حول الإسلام فقلت له: أقنعنى أولاً أن محمداً ليس رسولاً من عند الله، فوعدنى ولكن لم يرجع، وسمعت بعد ذلك أن الكنيسة كلها تصلى من أجلى لأرجع إلى عقلى، وكأننى صرت مجنونًا!

بدأت بعد ذلك أثبّت قدمى فى الإسلام ـ دراسة وتعلمًا ـ وكنت ألقى بعد ذلك برامج إسلامية فى التليفزيون والإذاعة المحلية التى تمولها الجهات الإسلامية.

واعتنق الإسلام بعد ذلك أبى وأمى وأختى وزوجها وابن أخى وبنت أختى.. وأحمد الله على أن كنت سبب هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

سألته عن المدى الذى ينتشر فيه الإسلام فى الفلبين، فقال لى: يدخل فى الإسلام كل شهر أكثر من أربعمائة من مسيحيى الفلبين حسب السجلات الرسمية، أما العدد الحقيقى فالمرجح أنه أكثر من ذلك.. ومعظم أهل الفلبين مسيحيون بالاسم فقط ولايجدون من يدعوهم إلى الإسلام، ومنهم من يقتنع بالإسلام، ولكن يعوقه عن اعتناقه عامل الخوف من المستقبل لأنه سيفقد الأسرة وسيفقد العمل، فالناس هناك لا تقبل توظيف من ترك المسيحية.

سألته عن السر فى هذا الإقبال الشديد على الإسلام فى هذه البلاد، فقال: إنها المعاملة الطيبة، إنها أخلاق الإسلام، فكثير ممن أسلموا كان دافعهم إلى الاقتراب من عقيدة التوحيد معاملة المسلمين الحسنة لهم، كأن يكون صاحب العمل مسلمًا حسن المعاملة، أو زميلاً لمسلم حسن الصحبة ودمث الأخلاق، وكثير ممن أسلموا فى الفلبين لم يسلموا إلا بعد أن عادوا إلى بلادهم بعد العمل فى بلد إسلامى، إذ أحسوا بالفرق عندما فقدوا المناخ الإسلامى، فتبخرت كل أوهامهم وشكوكهم حول الإسلام، فأعلنوا إسلامهم بعيداً عن كل ضغط أو تأثير.

وقد ذكر لى أن من أسباب ذلك الإقبال الشديد على الإسلام هو تأثر الناس برؤية منظر المسلمين وهم يصلّون.

وقد سألته عن سر انتشار الإسلام بين المثقفين ثقافة دينية؟ فقال: من السهل دعوة هؤلاء.. فيكفى مثل هذا أن نأخذ بيده، وندعوه إلى مقارنة أسفار الكتاب المقدس، ودراسة مقارنة الأديان، فتلك أفضل الوسائل لإقناعه.

وقد سألته عن العقبات التى تحول دون دخول الناس فى الإسلام، فقال: أول ما يصد الناس هو الفكرة الخاطئة التى تعشش فى أذهانهم عن الإسلام، بالإضافة إلى سلوكيات كثير من المسلمين، الذين يعطون صورة سيئة عن الإسلام، ثم الفتاوى الجاهلة التى تصدر من بعض المسلمين من غير علم، وأخيرا الشبهات التى تثار حول الإسلام من كونه يدعو إلى الإرهاب، ويسىء معاملة المرأة، فيدعو الرجل إلى طلاقها، وإلى الزواج بغيرها، وأنه يحرمها من حقوقها ويقهرها ولا يعطيها حريتها.

**مارى واتسون:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (مارى واتسون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه اسم امرأة أمريكية المولد، عاشت معظم شبابها بين لوس أنجلوس والفلبين، وقد التقيت بها - هى الأخرى - فى الفلبين، وقد لاحظت فى كلامها نفحات الصدق التى حدثنى عنها معلم السلام، فسألتها عنها، فأجابت: لقد كنت مارى واتسون، وأنا الآن خديجة، إن السيدة خديجة - رضى الله عنها - كانت أرملة، وكذلك أنا كنت أرملة، وكان لديها أولاد، وأنا كذلك، وكانت تبلغ من العمر 40 عامًا عندما تزوجت من النبى ﷺ، وآمنت بما أنزل عليه، وكذلك أنا كنت فى الأربعينيات، عندما اعتنقت الإسلام، كما أننى معجبة جدًا بشخصيتها، لأنها عندما نزل الوحى على محمد ﷺ آزرته وشجعته دون تردد، لذلك فأنا أحب شخصيتها.

قلت: فكيف رحلت من مارى إلى خديجة؟

قالت: لقد كانت رحلة قصيرة جدا.. تكاد فى قصرها تشبه رحلة السحرة الذين أرادوا أن يتحدوا موسى ورب موسى، فلم يملكوا إلا أن يسجدوا لله.

قلت: فقد أسلمت تقليدا إذن؟!

قالت: لا.. بل لم أسلم إلا عن قناعة تامة، لقد ابتدأت هذه القناعة من دراستى المعمقة للمسيحية.. فقد كان لدىَّ ثلاث درجات علمية: درجة من كلية ثلاث سنوات فى أمريكا، وبكالوريوس فى علم اللاهوت بالفلبين، ومعلمة اللاهوت فى كليتين.. فقد كنت لاهوتية وأستاذًا محاضراً وقسيسة ومنصِّرة، كذلك عملت فى الإذاعة بمحطة الدين المسيحى لإذاعة الوعظ المسيحى، وكذلك ضيفة على برامج أخرى فى التلفاز، وكتبت مقالات ضد الإسلام.

قلت: فكيف بدأ ذلك التحول المفاجئ من مختصة فى المسيحية إلى مؤمنة بالإسلام؟

قالت: كنت فى إحدى الحملات التنصيرية إلى الفلبين لإلقاء بعض المحاضرات، فإذا بأستاذ محاضر فلبينى جاء من إحدى الدول العربية، لاحظت عليه أموراً غريبة، فأخذت أسأله وألحّ عليه حتى عرفت أنه أسلم هناك، ولا أحد يعرف بإسلامه وقتئذ.

بعدما سمعت عن الإسلام من هذا الدكتور الفلبينى مقالته، راودتنى أسئلة كثيرة: لماذا أسلم؟ ولماذا بدل دينه؟ لابد من أن هناك شيئًا فى هذا الدين وفيما تقوله المسيحية عنه.. ففكرت فى صديقة قديمة فلبينية أسلمت، وكانت تعمل بالجزيرة، فذهبت إليها، وبدأت أسألها عن الإسلام، وأول شىء سألتها عنه معاملة النساء، لأن المسيحية تعتقد أن النساء المسلمات وحقوقهن فى المستوى الأدنى فى دينهن، وهذا غير صحيح طبعًا، كما كنت أعتقد أن الإسلام يسمح للأزواج بضرب زوجاتهم، لذلك هن مختبئات وكائنات فى منازلهن دائمًا[1].

بعد ذلك ذهبت إلى المركز الإسلامى، فاندهشوا جداً من معلوماتى الغزيرة عن المسيحية ومعتقداتى الخاطئة عن الإسلام، وصححوا ذلك لى، وأعطونى كتيبات أخذت أقرأ فيها كل يوم، وأتحدث إليهم ثلاث ساعات يوميًا لمدة أسبوع، كنت قد قرأت بنهايته 12 كتابًا، وكانت تلك المرة الأولى التى أقرأ فيها كتبًا لمؤلفين مسلمين، والنتيجة أننى اكتشفت أن الكتب التى قد كنت قرأتها من قبل لمؤلفين نصارى ممتلئة بسوء الفهم والمغالطات عن الإسلام والمسلمين، لذلك عاودت السؤال مرة أخرى عن حقيقة القرآن الكريم، وهذه الكلمات التى تُقال فى الصلاة.

وفى نهاية الأسبوع عرفت أنه دين الحق، وأن الله وحده لا شريك له، وأنه هو الذى يغفر الذنوب والخطايا، وينقذنا من عذاب الآخرة، لكن لم يكن الإسلام قد استقر فى قلبى بعد، لأن الشيطان دائمًا يشعل فتيل الخوف والقلق فى النفس، فكثف لى مركز التوعية الإسلامى المحاضرات، وابتهلت إلى الله أن يهدينى.

وفى خلال الشهر الثانى شعرت فى ليلة ـ وأنا مستلقية على فراشى وكاد النوم يقارب جفونى ـ بشىء غريب استقر فى قلبى، فاعتدلت من فورى وقلت: يا رب أنا مؤمنة لك وحدك، ونطقت بالشهادة، وشعرت بعدها باطمئنان وراحة تعم كل بدنى، والحمد لله على الإسلام، ولم أندم أبدًا على هذا اليوم الذى يعتبر يوم ميلادى.

قلت: ألم تلاقى أى ضغوط بعد إسلامك؟

قالت: بعد إسلامى تركت عملى كأستاذة فى كليتى، وبعد شهور عدة؛ طلب منى أن أنظم جلسات أو ندوات نسوية للدراسات الإسلامية فى مركز إسلامى بالفلبين حيث موطن

---

(1) انظر الشبهات المرتبطة بحقوق المرأة فى الإسلام فى (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

إقامتى، وظللت أعمل به تقريبًا لمدة سنة ونصف، ثم عملت بمركز توعية الجاليات بالقصيم فى القسم النسائى كداعية إسلامية خاصة متحدثة باللغة الفلبينية بجانب لغتى الأصلية.

قلت: وأهلك؟

قالت: لدىَّ سبعة أبناء من زوج فلبينى.. وقد استعملت كل الوسائل لدعوتهم إلى الله، فعندما كنت أعمل بالمركز الإسلامى بالفلبين كنت أحضر للبيت بعض الكتيبات والمجلات وأتركها بالمنزل على الطاولة متعمدة عسى أن يهدى الله ابنى كريستوفر إلى الإسلام، إذ أنه الوحيد الذى يعيش معى، وبالفعل بدأ هو وصديقه يقرآنها ويتركانها كما هى تمامًا، كذلك كان لدىَّ منبه آذان، فأخذ يستمع إليه مرارًا وتكرارًا وأنا بالخارج، ثم أخبرنى بعد ذلك برغبته فى الإسلام، ففرحت جدًا وشجعته، ثم جاء إخوة عدة من المركز الإسلامى لمناقشته فى الإسلام وعلى أثرها أعلن الشهادة.

قلت: وسائر أهلك؟

قالت: بناتى جميعهن متزوجات فى أمريكا، وعندما أسلمت كان رد ثلاث من بناتى عنيفًا إزاء اعتناقى الإسلام، والباقيات اعتبرنه حرية شخصية، كما أن بيتى وتليفونى روقبا، فقررت الاستقرار فى الفلبين، لكن تنكر لى أهل زوجى، لأنى من قبل كنت مرتبطة بهم لكون أبى وأمى ميتين، لذلك بكيت ثلاثة أيام، وعندما كنت أظهر فى الشارع بهذا الزى كان الأطفال ينادون علىَّ بالشيخة أو الخيمة، فكنت أعتبر هذا بمثابة دعوة إلى الإسلام، كما تجنبنى كل من يعرفنى تمامًا.

قلت: فلم يسلم من أهلك إلا ابنك؟

قالت: أجل.. ذلك هو ابنى الوحيد الذى اعتنق الإسلام فى الوقت الحالى، وسمى نفسه عمر، وأدعو الله أن يمنَّ على باقى أولادى بنعمة الإسلام.

قلت: ذكرت لى سرعة انجذابك للإسلام.. فما الذى جذبك إليه؟

قالت: لقد رأيت أن الإسلام هو الطريق الأكمل والأمثل للحياة؛ بل رأيت أنه البوصلة التى توجه كل مظاهر الحياة فى الاقتصاد والاجتماع وغيرها حتى الأسرة وكيفية التعامل بين أفرادها.

قلت: عهدى بكل داخل إلى الإسلام ينجذب إلى آيات معينة، فما الآيات القرآنية التى جذبتك؟

قالت: كل القرآن جذبنى، ولكن آية خاصة امتلكتنى، وهى تعنى لى الكثير، وقد ساعدتنى وقت الشدة.

قلت: ما هى؟

قالت: قوله عز وجل: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران].

قلت: هل حاولت استخدام قناعتك لنشر الدعوة إلى الإسلام؟

قالت: لقد من الله على، فألقيت العديد من المحاضرات عن الإسلام فى الجامعات والكليات بالفلبين، وقد دعيت من قبل رؤساء بعض الدول لإجراء محاورات بين مسلمة ومسيحية لكن لا أحب هذه المحاورات لأن أسلوبها عنيف فى النقاش، وأنا لا أحب هذه الطريقة فى الدعوة، بل أفضل الأسلوب الهادئ لا سيما اهتمامنا بالشخص نفسه، أولاً ثم دعوته ثانيًا.

قلت: لقد سمعت عن خطة عمرها ربع القرن المقبل لتنصير المسلمين؟

ابتسمت، وقالت: بعد قراءتى عن الإسلام علمت سر اضطهاد الإسلام من جميع الديانات..

قلت: ما ذاك؟

قالت: لأنه أكثر الديانات انتشارًا على مستوى العالم، وأن المسلمين أقوى أناسٍ لأنهم لا يبدلون دينهم ولا يرضون غيره بديلاً، ذلك أن دين الإسلام هو دين الحق، وأى دين آخر لن يعطيهم ما يعطيه لهم الإسلام.

قلت: فجهودهم إذن ستخيب فى تنصير المسلمين؟

قالت: كما خابت جهود كل من سبقهم.

قلت: لم؟

قالت: ألم يحدثك (جابريلى فرانشيسكو)[1] عن صمود الإسلام[2]؟

قلت: بلى.. وكيف عرفت ذلك؟

قالت: لقد أجابك، وحسبك بإجابته.

قلت: قد سألتك كيف عرفت ذلك؟

قالت: ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة].

قالت ذلك، ثم انصرفت، لتتنزل على بعد انصرافها أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

---

(1) هو فى الأصل abrieli Francesco. (1904 - 1997) مستشرق إيطالى، وقد اشتهر بمواقفه المعتدلة من التاريخ الإسلامى حتى إنه كتب عن صلاح الدين الأيوبى بوصفه بطلاً وشخصية عظيمة بالرغم مما تعرضت له هذه الشخصية من تشويه فى الكتابات الغربية.

(2) انظر الرسالة السابقة فصل (صمود).

**كرست راجا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كرست راجا)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هو رجل قرأ القرآن ليجعله وسيلة لبث الشبه عن الإسلام، ولكن الله هداه بتلك القراءة، فتحول إلى الإسلام.

وقد التقيت به فى ولاية (تملنادو) بأقصى جنوب الهند ـ وذلك فى فترة تواجدى بالهند، والتى حكيت لك بعض أخبارها ـ وقد وجدته عميق المعرفة بالكتاب المقدس، ومما ذكره لى من قصة إسلامه قوله: كنت فى ولادتى الأولى أحمل اسم (كرست راجا).. وقد ولدت فى عائلة مسيحية فى قرية من ولاية تلمنادور، ولغتى التاميلية وأعرف عددًا من اللغات، منذ صغر سنى كنت أحب المسيحية، وأحب المسيح حبًا شديدًا.. وقد كنت أدعو الله دائما أن يحول المسلمين جميعا إلى المسيحية.

وفى أحد الأيام التقيت بعالم مسلم، فاعتبرتها فرصة عظيمة، لكى أناقشه فى بعض الأمور المتعلقة بالإسلام والمسيحية، لكنه سرعان ما تحدانى قائلا: لن تجد شيئًا فى القرآن يخالف العقل، أو يخالف الفطرة.

لقد كان هذا التحدى سببًا لأقرأ القرآن الكريم، فقرأت ترجمة المعانى فى اللغة التاميلية مرتين، فعرفت أن الإسلام هو الدين الصحيح، وأن المسيحية محرفة، فقبلت الإسلام دينًا.

قلت: بهذه السهولة!؟

قال: أجل.. القرآن الكريم هو كتاب الدعوة الأكبر.. لقد قال عز وجل فيه: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان].

قلت: فهل تعرضت للبلاء كما تعرض الكثير من إخوانك ممن أسلموا؟

قال: البلاء سنة الله لتمحيص الصادقين، وقد تعرضت بفضل الله لبعض البلاء الذى تجاوزته بحول الله وقوته، فالناس كانوا ينظرون إلىّ نظرة السخرية، وكانوا يقولون لى: إنك صرت مجنونا، وقد ضحكوا علىّ لأننى أطلقت اللحية بعد أن كنت متعودا على حلقها[2]، وتحملت جميع هذه المشاكل من قومى، وصبرت عليها لأننى كنت أقرأ فى القرآن قصص الدعاة والمصلحين من الأنبياء والرسل؛ وتحملهم الأذى والمصائب فى سبيل التبليغ الدعوة إلى الله.

قلت: وأهلك، أقرب الناس إليك؟!

قال: لقد من الله عليهم، فأسلموا.. لقد أسلمت زوجتى، وثلاثة من أولادى، وقد أسلم على يدى بالإضافة إليهم بعض الأخوة الآخرين.

---

(1) انظر: المجلة الخيرية، العدد: 74، محرم 1417 هـ.

(2) لقد ذكرنا أنه لا ينبغى التشدد مع من أسلم فى هذه الأمور، حتى لا تكون سببا فى حجاب الناس عن الإسلام.

قلت: فما الحرفة التى اتخذتها بعد إسلامك؟

قال: أنت تعلم جيدا أن أحبار النصارى وعلماءهم ودعاتهم يتمتعون بكل نعيم فى الدنيا، ويعيشون عيشة رضية بما يحصلون عليه من المعونات الهائلة من الدول المسيحية.

وقد تركت كل ذلك طمعا بما أعد الله لى فى الآخرة من نعيم فى الجنة، والآن أتجول فى القرى والمدن ماشيا، وألتقى بالناس أفرادًا وجماعات أوجه الدعوة إليهم، وأدعوهم إلى الإسلام، وأبين لهم أباطيل دينهم، وأبذل جهدى لإيصال ترجمة معانى القرآن الكريم إلى كل شخص من غير المسلمين، لأننى على يقين أنهم إذا قرأوا القرآن مرة واحدة من أوله إلى آخره فسيدخلون فى دين الله.

قلت: فأنت تابع لبعض المراكز الإسلامية إذن؟

قال: أجل.. فأنا أشتغل ـ بحمد الله ـ كداعية فى مركز الدعوة للمسلمين الجدد التابع لجمعية أهل القرآن والحديث فى ولاية تملنادوا جنوب الهند، والتى تبذل جهدها فى نشر الدعوة إلى الله بين المسلمين وغيرهم.

قلت: هل ترضيك جهود المسلمين الدعوية؟

نظر إلى بحزن، ثم قال: إن آلاف القلوب فى هذه المنطقة تنتظر الفرصة للدخول فى الإسلام، وعلى المسلمين مسئولية كبرى، يجب عليهم أن يتمثلوا صورة الإسلام الصحيحة أولا، ثم يقوموا بالدعوة المستمرة، ويبذلوا جهدهم فى تعريف الإسلام لغير المسلمين من النصارى والهندوس وغيرهم، وعلى المؤسسات والهيئات الإسلامية فى داخل البلاد وخارجها التى تهتم بالشئون الدينية أن تقوم بتوزيع ترجمة معانى القرآن بكمية كبيرة.

وأعتقد أن المسلمين هم المسئولون أمام الله لتأخر دخولى فى الإسلام، فقد كنت جاهلا به أكثر من ثلاثين سنة، وذلك بسبب تقصير المسلمين فى دعوتى للإسلام وبيان معانيه، وإننى أخشى أن يقول الناس جميعًا يوم القيامة أمام الله تعالى مثل قولى هذا.

**سيف الإسلام التهامى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (سيف الإسلام التهامى)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد التقيت به فى القاهرة.. وهو شاب مسيحى كان أبوه من أرمن كاثوليك وكانت أمه إنجيلية، وقد سألته عنه، فقال: نشأت نشأة مسيحية بحتة، فمنذ نعومة أظافرى، وأنا أذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد، وفى الأعياد، وفى كل وقت أشاء حيث لم يكن على رقيبٌ فيما يخص ذهابى للكنيسة، فقد أحببت الذهاب إليها، والاستمتاع بكل ما فيها من شعائر وصلوات وألعاب ومعسكرات ورحلات.

ثم التحقت بمدرسة (نوباريان) الأرمنية وهى مدرسة لا تقبل إلا النصارى الأرمن، فقد كان عدد طلاب المدرسة من حضانة إلى ثانوى ما يقرب من 125 طالبا فقط فى جميع مراحل التعليم بها.

وكان أول ما نفعله صباحًا فى طابور المدرسة هو الصلاة، ونحن واقفون فى صفنا، وكانت بالمدرسة كنيسة، وكان أكثر المدرسين فى المدرسة نصارى.

ولم يكن لدى أى إختلاط بالمسلمين إلا القليل من أصدقائى فى الحى أو جيرانى، بل كانت معظم أوقاتى أقضيها بالكنيسة . وكنت أخدم كشماس فى الكنيسة أساعد القسيس فى مراسم القداس والصلاة.

استمر بى الحال على ذلك حتى وصلت المرحلة الثانوية، وفى هذه المرحلة بدأت أرتبط بالكنيسة والقساوسة أكثر من ذى قبل، وكنت سعيدًا جدًا بهذه العلاقة لأنى كنت من المقربين لديهم، وأصبحت أقوم بمعظم شعائر القداس من قراءة للإنجيل ورد على القسيس عندما يتلو أى شيء منه، بالإضافة إلى تحضير القربان والخمر للقداس.

وفى يوم من الأيام كنت جالسا مع أحد أصدقائى المسلمين، وكان من العوام البسطاء، فقال لى: ألن تسلم؟

فقلت له: ولم أسلم؟! ولم لا تتنصر أنت؟!

فقال لى عبارة كانت هى أشد ما سمعت، وكانت ـ مع شدتها ـ هى سبب إسلامى بعد ذلك. . لقد قال لى: (أنتم كلكم فى النار!).

لقد نزلت على هذه الكلمة كالصاعقة!

قلت: لماذا أدخل أنا والنصارى جميعًا النار، وأنتم المسلمون تدخلون الجنة؟

فقال: لأنكم تقولون ثالث ثلاثة، وأن المسيح ابن الله وغيرها من الافتراءات على المسيح!

فقلت له: وكيف عرفت كل هذه الأشياء. .هل قرأت الإنجيل؟

قال: لا. . بل قرأتها عندنا فى القرآن.

كان هذا من الأشياء العجيبة التى سمعتها أيضًا، فكيف يعرف القرآن ما هو فى ديننا (سابقًا)؟! وكيف يقر بأن هذه الأشياء التى نقولها على المسيح كلها كفر وتؤدى إلى النار؟!

عندئذ احترت فى أمرى، وبدأت أفكر مليا فى هذا الأمر، ثم بدأت أقرأ الإنجيل، ولأول مرة أقرؤه على بصيرة، فقد كان على قلبى عمى، وبدأت أجد الاختلافات الشديدة فى ذكر نسب المسيح، وادعاء ألوهيته تارة ونبوته تارة أخرى.

وقد جعلنى كل ذلك أتساءل من هو المسيح إذن. . أهو نبى، أم ابن الله، أم هو الله؟

وبدأت أضع بعض الأسئلة، ثم أذهب بها إلى القسيس؛ لكى أحصل على الإجابة الشافية، ولكنى لم أجد ما يثلج صدرى فى أى إجابة.

أتذكر أنى ذات مرة سألت القسيس: لماذا الكتاب المقدس يذكر أن المسيح جالس على جبل الزيتون، وهو يدعو الله؟! فإن كان هو الله حقًا فلمن يدعو؟! ولمن يسجد؟!

فأجابنى إجابات لم أفهم منها شيئًا.

ثم بدأت أفكر فيما كنا نفعله فى الكنيسة من اعتراف بالخطايا والذنوب للقسيس، وأخذت أفكر فى المناولة، ذلك الجلاش الطرى الذى يوضع فى الخمر، ليذكر القسيس أن هذين الشيئين صارا دم وجسد المسيح، ومن يأخذها يغفر له ويطهر من الداخل!

وقد تساءلت ـ حينها ـ كيف يغفر ذنوبى بشر مثله مثلى، وهو لمن يعترف؟! ومن يغفر له؟! وكيف يحل دم وجسد المسيح فى هذه الكأس؟! وهل هذه خرافة أم حقيقة؟! وكيف يطهر ما فى داخلى ويغفر ذنوبى[1]؟!

بدأت الأسئلة تكثر داخلى، ولم أجد لها إجابة، فبدأت آخذ قراراتى من نفسى: مثل عدم الاعتراف للقسيس لأنه بشر مثلى، وأيضًا عدم أخذ المناولة،وآمنت أن المسيح عليه السلام نبىٌ لأنه بشر..

والإله له صفات الكمال الخاصة التى تتنافى مع صفات البشروبدأت أقرأ الإنجيل بدون أن أقول (ربنا يسوع المسيح)، ولكن أقول يسوع المسيح (فقط)، ولكن مع هذا لم أشعر بالراحة التى أريدها، ولم أشعر أن هذا هو الحل فى هذا الدين الذى أعتنقه.

وأثناء ذلك، وفى تلك الحقبة من حياتى، كنت ذات يوم أراجع دروسى فى غرفتى داخل منزل الأسرة الذى يقع خلفه تمامًا مسجد، وكنا فى شهر رمضان، وكانت مكبرات الصوت تعمل من بعد صلاة العشاء خلال صلاة التراويح، وكان صوت الإمام الذى يقرأ القرآن يصل إلى غرفتى..

لقد كان صوتا خافتا جميلا.. وكنت أشعر فيه بحلاوة تمس قلبى، ولم أكن قد علمت بعد أن هذه التلاوة هى القرآن الكريم.

ثم جاءت اللحظة التى شرح الله فيها صدرى للإسلام، وكان ذلك يوم الأحد بالقداس داخل الكنيسة، عندما كنت أقرأ الإنجيل قبل القداس استعدادًا لقراءته على الناس خلال الصلاة.

وأثناء استعدادى سألت نفسى: هل سأقول ربنا يسوع المسيح؟.. أم يسوع المسيح فقط لأنه نبى وليس بإله؟ ولكن إذا قلت ذلك سوف يدرك الحاضرون أنى تجاوزت عن تلك الكلمة، ولكن كيف سأخالف ضميرى..

وفى النهاية قررت أنى سأقرأ الإنجيل كما هو دون تغيير مادمت أمام الناس، وأن أجعل هذا التغيير عندما أقرأه بمفردى.

وجاء ميعاد قراءتى للإنجيل خلال القداس، وبدأت أقرأ بثبات كما هو مكتوب تمامًا حتى وقفت عند كلمة: (ربنا يسوع المسيح).. فأبى لسانى أن ينطق بها، ولم أشعر بنفسى

(١) انظر ما يتعلق بهذه الطقوس وانصرافها عن المسيحية الحقيقية فى الرسالة السابقة من هذه السلسلة.

إلاوأنا أتجاوز كلمة (ربنا) خلال القراءة بالكلية، وتعجب القسيس من ذلك الموقف، فأشار إلىَّ بالجلوس، فتوقفت عن القراءة، ثم جلست، ولكننا أكملنا الصلاة بشكل طبيعى، حتى إذا انتهت الصلاة توجهت للغرفة الخاصة بنا..

وهنالك سألنى القسيس: لم فعلت ذلك؟.. لماذا لم تقرأ الإنجيل كما هو؟

فلم أجبه، وقلت له: إنى أريد أن أذهب إلى البيت لأستريح!

وذهبت إلى غرفتى وأنا فى غاية الدهشة لما فعلت.

منذ ذلك اليوم، صرت أنام قبل إتمام قراءة الإنجيل يوميًا، كما كنت معتادًا من قبل، وأصبحت لا أشعر بالراحة لا فى صلاة، ولا قراءة، ولا حتى فى الذهاب إلى الكنيسة.

وظللت أفكر فى حالى، وظلت (كلكم فى النار..) تلك الكلمة القاسية التى قالها لى صديقى المسلم تخترق أذنى.

بعدها، أقبلت على القراءة الجادة فى كتب المقارنات والكتب الإسلامية التى تتناول حياة المسيح، فعرفت من هو المسيح فى الإسلام، وعلمت أيضًا مالم أكن أعلم، وهو ذكر النبى ﷺ فى العهدين القديم والحديث..

واكتشفت أن المسيح وأمه مريم (عليهما السلام)، مكرمان غاية التكريم فى القرآن، وأن المسيح (نبىّ)، قال الله له كن، فكان، وهو (روح منه)، فتأكدت حينئذٍ أن الإنجيل الذى بين يدىّ محرف، ويكثر فيه اللغط.

ثم علمت أن (الإسلام) هو دين الحق، وأن الله لا يرضى غير الإسلام دينًا، وأنه هو الطريق إلى الجنة والنجاة من النار.

فذهبت بعدها إلى إحدى المكتبات واشتريت مصحفًا، وعندما قرأته لم أكن ـ حينها ـ أفهم منه شيئًا، ولكنى أحسست براحة غريبة فى صدرى.

لقد انشرح صدرى لهذا الدين الذى ارتضاه الله لعباده وكرمهم به، وأرشدهم إليه، فالحمد لله أولاً، والحمد لله آخرًا، والحمد لله أبدًا أبدًا، الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

قلت: وأهلك، ألم يقاطعوك بسبب إسلامك؟

قال: من المدهش أنى عندما أخبرت أخواتى بالإسلام وجدتهن قد سبقانى إليه، ولم يعارضنى منهن أحد، فالحمد لله الذى منّ علينا جميعًا بالإسلام..

فاليوم الذى نطقت فيه بالشهادتين ولدت من جديد.. فما أجمله من دين، وما أعظمه من إله واحد أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

فلك الحمد يا إلهى، أنت عزى وأنت جاهى، فمن لا يستعين بسؤالك وأنت لا تخيب من رجاك.

**جى ميشيل:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (جى ميشيل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من أهل بلدى، وهو طبيب التقيت به فى الصومال، ولاحظت فى كلامه نفحات الصدق، فسألته: من أنت؟

قال: كنت جى ميشيل.. وأنا اليوم عبد الجبار.

قلت: فحدثنى عن رحلة جى ميشيل إلى عبد الجبار؟

قال: تبدأ قصتى عندما اختارتنى منظمة تنصيرية بألمانيا الغربية لكى أكون رئيسًا للبعثة التنصيرية فى الصومال، بجانب عملى كطبيب لأمراض العيون.

وقد كانت هذه البعثة اتخذت فى خطتها مشروع تنصير القرن الافريقى، على أن تكون الصومال هى نقطة الانطلاق لعمليات التنصير.. وقد اتخذت هذه البعثة مشروعًا خيريا كستار تخفى من ورائه نشاطها التنصيرى، وكان هذا المشروع هو علاج أمراض العيون كى تنفذ من خلاله إلى المواطنين، والتأثير عليهم بترغيبهم فى المسيحية.

وبعد خمسة أشهر تلقت المنظمة تقارير تفيد بتفانىٍّ فى عملى كطبيب، وإهمالى للشق الآخر من مهمتى؛ وهو التنصير! ونتيجة لذلك تلقيت برقية من رئاسة المنظمة تطلب منى ضرورة ذهابى إلى إنجلترا لقضاء فترة تدريبية لمدة شهر، ثم السفر منها إلى تنزانيا.

وفى إنجلترا تعرّفت على صديق مسلم من الصومال يدعى (محمد باهور) الذى وطد صداقته معى، وحدث أن دعانى ذات يوم لزيارة منزله، فلبيت دعوته، وكان الترحيب من أسرته، وأثناء الزيارة فوجئت برجل يتكلم الإنجليزية بطلاقة مدهشة، وعلمت أنه والد صديقى محمد، وفرحت به، وتمنيت أن أجذبه إلى الدين المسيحى حتى تتحقق عملية التنصير، وبدأت مع هذا الرجل عملية جذبه للمسيحية بالحديث عنها معه، وهو ينصت إلىّ بإصغاء تام، توقعت اقتناعه بما أقول، وبالتالى سيكون مفتاح التنصير فى المنطقة كلها.

وبعد أن أسهبت فى الكلام عن المسيحية كدين لا يرقى فى مكانته أية ديانة أخرى، وأنا أتعرض لعظمة الإنجيل والمسيح عيسى ابن الله، فوجئت بوالد صديقى ممسكًا بنسخة من القرآن فى يديه، وسألنى: أتعرف هذا الكتاب؟.. فابتسمت ولم أجب، خشية إثارته أو التلميح له بمهمتى، ولكنى أحسست أن هذا الرجل يدرك ما يدور بعقلى، فمنحنى فرصة الخروج من المأزق، وبدأ هو يتحدث عن الإنجيل وعن المسيح.. ومن خلال حديثه أدركت تمامًا أن المسلمين جميعًا يحبونه ويعترفون به، وخصوصًا أن الإسلام ذاته يدعو إلى الإيمان به وبغيره من الرسل والأنبياء، بل جعل ذلك من دعائم الإيمان بالإسلام.

ثم طلب منى والد صديقى أن أوجه له أى سؤال فى الإنجيل أو فى القرآن، فقلت له: كيف؟! قال: فى القرآن كل شىء.

صمت برهة يستعيد ذكرياته، ثم قال: وتعددت زياراتى لوالد صديقى، وكنت مُراقبًا من أفراد البعثة الذين طلبوا منى عدم الذهاب إلى هذا المنزل، وفوجئت بعد ذلك بقرار نقل صديقى، ثم اعتقاله بدون سبب! أما بالنسبة لى فقد طلبوا منى الانتقال إلى كينيا لقضاء إجازة ممتعة على حد تعبير منظمة التنصير، ووصلتنى رسالة ساخنة من والدى يطالبنى فيها بالعودة إلى ألمانيا بأسرع ما يمكن.

ولكنى ـ وأنا رئيس بعثة التنصير ـ رفضت الاستجابة لتعليمات رئاستى فى ألمانيا، كما رفضت الاستجابه لطلب والدى، بل كتبت برقية إلى كل منهما أقول فيها (اطمئنوا تمامًا، كل شىء على ما يرام، وسأعتنق الإسلام)

بعدها عكفت على دراسة الإسلام وتفهم تعاليمه وأركانه التى حث عليها، ثم أعلنت اعتناقى للإسلام.

قلت: فهل عدت لبلدنا؟

قال: لا، لقد صممت أن أبقى فى الصومال أؤدى رسالتى كطبيب مسلم يعرف حق الله وحق مرضاه.

**آرثر ميلاستنوس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (آرثر ميلاستنوس)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: وهو دكتور فى اللاهوت، وكان الرجل الثالث فى مجمع كنائس قارة آسيا، وقد التقيت به فى بعض رحلاتى، فلاحظت فى كلامه نفحات الصدق، فسألته عن سرها، فقال: فى أثناء عملى بالتنصير عام 1983 خطر على بالى خاطر يقول لى: أى ضير فى قراءة القرآن من أجل الرد على المسلمين؟

وتلبية لهذا الخاطر توجهت إلى أحد المسلمين سائلاً إياه أن يعيرنى كتابهم المقدس، فوافق المسلم مشترطًا على أن أتوضأ قبل كل قراءة[2].

وعندما قرأت القرآن أول مرة، شعرت بصراع عنيف فى أعماقى، فثمة صوت ينادينى ويحثنى على اعتناق هذا الدين، الذى يجعل علاقة الإنسان بربه علاقة مباشرة، لا تحتاج إلى وساطات القسس، ولا تباع فيها صكوك الغفران.

وفى يوم توضأت، ثم أمسكت بالقرآن فقرأت: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، فأحسستُ بقشعريرة، ثم قرأت: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

---

(1) انظر: ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح، د. عبدالمعطى الدالاتى.

(2) ذكرنا فى المباحث الفقهية المرتبطة بهذا أنه لا ينبغى التشدد مع غير المسلمين فى مثل هذا إلا إذا رأينا ذلك فى مصلحة الدعوة الإسلامية كتعريفهم بحرص الإسلام على الطهارة.

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾ [المائدة]، فحلَّت السكينة فى روحى الحيرى، وشعرت أنى قد خُلقت من جديد.

فى تلك الليلة لم أصبر حتى تطلع الشمس، بل اتجهت حالاً إلى منزل صديقى المسلم لأسأله عن كيفية الدخول فى الإسلام، وبين حيرة الصديق ودهشته نطقت بالشهادتين.

**عبدالأحد داود:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (عبدالأحد داود)، فسألت البابا عنه، فقال: لم ألتق به، ولكنى التقيت بعض أحفاده، وقد حدثنى عنه، فذكر أن اسمه قبل إسلامه كان (دافيد بنجامين الكلدانى)[1]. وكان أستاذا فى علم اللاهوت، وكان قسيس الروم الكاثوليك لطائفة الكلدانيين الموحدة، وكان يتكلم عدة لغات.

وقد ولد عام 1868م، فى أروميا من بلاد فارس، وتلقى تعليمه الابتدائى فى تلك المدينة، وبين عامى 1886 - 1889م كان أحد موظفى التعليم فى إرسالية أساقفة (كانتر بورى) المبعوثة إلى النصارى النسطوريين فى بلدته. . وفى عام 1892م أرسل إلى روما حيث تلقى تدريبا منتظما فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية فى كلية (بروبوغاندافيد)، وفى عام 1895م تم ترسيمه كاهنا، وفى هذه الفترة شارك فى كتابة سلسلة من المقالات التى تم نشرها فى بعض الصحف المتخصصة، وبعد عودته من روما توقف فى إستانبول عام 1895م، وأسهم فى كتابة ونشر بعض المقالات عن الكنائس الشرقية فى الصحف اليومية الإنجليزية والفرنسية.

لم يمكث طويلا فى استانبول، بل عاد فى نفس العام إلى بلدته، وانضم إلى إرسالية (لازارست) الفرنسية، ونشر لأول مرة فى تاريخ الإرسالية منشورات فصلية دورية باللغة السريانية.

وبعد ذلك بعامين انتدب من قبل اثنين من رؤساء أساقفة الطائفة الكلدانية فى بلده لتمثيل الكاثوليك الشرقيين فى مؤتمر (القربان المقدس) الذى عقد فى مدينة (بارى لو مونيال) فى فرنسا، وفى عام 1898م عاد إلى قريته ديجالا وافتتح مدرسة بالمجان.

وفى عام 1899م أرسلته السلطات الكنسية إلى سالماس، لتحمل المسئولية، حيث يوجد نزاعات بين بعض القياديين النصارى هناك، وفى عام 1900م ألقى موعظة بليغة شهيرة، حضرها جمع غفير من طائفته وغيرها، وكان موضوعها (عصر جديد ورجال جدد) انتقد فيها توانى بنى قومه عن واجبهم الدعوى.

وقد أخبرنى حفيده هذا، بأنه كتب رسالة يجيب فيها من سأله عن دوافع إسلامه، وقد رأيت تلك الرسالة، ومما ورد فيها قوله: إن اهتدائى للإسلام لا يمكن أن يعزى لأى سبب

(1) انظر: (محمد فى الكتاب المقدس) عبد الأحد داود ص (162) - (عظماء ومفكرون يعتنقون الإسلام) محمد طماشى.

سوى عناية الله عز وجل بى، وبدون هداية الله فإن كل القراءات والأبحاث، ومختلف الجهود التى تبذل للوصول إلى الحقيقة لن تكون مجدية، واللحظة التى آمنت فيها بوحدانية الله، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه، أصبحت نقطة تحولى نحو السلوك النموذجى المؤمن.

ومن الأسباب التى ذكرها فى تلك الرسالة، والتى جعلته يعلن عصيانه على الكنيسة، ما تطلبه ممن يؤمن بها من الشفاعة بين الله وبين خلقه فى عدد من الأمور، كالشفاعة للخلاص من الجحيم، وكافتقار البشر إلى الشفيع المطلق بصورة مطلقة، وأن هذا الشفيع إله تام وإنسان تام، وأن رهبان الكنيسة أيضا شفعاء مطلقون، كما تأمره الكنيسة بالتوسل إلى شفعاء لا يمكن حصرهم.

وقد ذكر فيها أنه من واقع دراسته لعقيدة الصلب وجد أن القرآن ينكرها والإنجيل المتداول يثبتها، وكلاهما فى الأصل من مصدر واحد، فمن الطبيعى ألا يكون بينهما اختلاف، ولكن وقع بينهماالاختلاف والتضاد، فلا بد من الحكم على أحدهما بالتحريف، فاستمر فى بحثه وتحقيقه لهذه المسألة حتى توصل إلى الحقيقة، حيث يقول: «ولقد كانت نتيجة تتبعاتى وتحقيقى أن اقتنعت وأيقنت أن قصة قتل المسيح عليه السلام وصلبه ثم قيامه من بين الأموات قصة خرافية».

ومن الأسباب التى ذكرها: اعتقاد النصارى بالتثليث، وادعاؤهم أن الصفة تسبق الموصوف!

بالإضافة إلى هذا كله فقد ذكر أنه التقى بعدد من العلماء المسلمين، وبعد مواجهات عديدة معهم اقتنع بالإسلام واعتنقه.

وقد ذكر أنه نتيجة لذلك اعتزل الدنيا فى منزله شهرًا كاملاً، يعيد قراءة الكتب المقدسة بلغاتها القديمة وبنصوصها الأصلية مرة بعد مرة، ويدرسها دراسة متعمقة مقارنة ضمّن بعضها فى كتابه الفذ (محمد فى الكتاب المقدس).

وقد أدته تلك العزلة الباحثة إلى اعتناق الإسلام فى مدينة استانبول.. وقد ذكر فى ختام رسالته قوله (فى اللحظة التى آمنت فيها بوحدانية الله، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه، بدأت نقطة تحولى نحو السلوك النموذجى المؤمن.. فـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هذه العقيدة سوف تظل عقيدة كل مؤمن حقيقى بالله حتى يوم الدين... وأنا مقتنع بأن السبيل الوحيد لفهم معنى الكتاب المقدس وروحه، هو دراسته من وجهة النظر الإسلامية)

**محمد فؤاد الهاشمى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (محمد فؤاد الهاشمى)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: وهو صاحب كتاب (الأديان فى كفة الميزان).. وقد ذكر لى سبب

(1) عن (الإسلام) الدكتور أحمد شلبى ص (288).

إسلامه، فقال: «لقد كان قصدى من البحث فى الإسلام استخراج العيوب التى أوحى إلىَّ بها أساتذتى، لكن وجدت أن ما زعـموه فى الإسلام عيوبًا هو فى الحقيقـة مزايا، فأخذ الإسلام بلبى، فانقدت إليه، وآمنت به عن تفكّر ودراسة وتمحيص، وبـها كلها رجحت كفة الإسلام، وطاشت كفة من سواه».

**فردريك دولامارك:**

من الأسمـاء التى رأيتـها فى دفتـر البابا فى هذا الـفصل اسم (فـردريك دولامارك)، فسألت البـابا عنه، فقال: لقد كـان هذا الرجل كبير أساقـفة جوهانسبـرج، وقد اهتزت دوائر التبشير العالمية بعد إسلامه، فـقد أعلن فى صحن المركز الإسلامى الكبير بجنيف عن إسلامه، مؤكدًا إستعداده للبدء فورًا فى قيامه بالتعـريف بحقيقة الإسلام، والعمل على نشر تعاليمه فى أنحاء القارة الإفريقية.

وسادت الدهشـة والذهول أركان الكنيسـة الكاثوليـكية، بعد أن أعلن أنـه عندما درس الإسلام وجد صورة أخرى مختلفة للمسيح عليه السـلام مما أحدث فى نفسه أعمق الأثر.

وقد خشيت الكنيسـة من تأثر عدد كبير من قادة العمل التبشـيرى بتلك المفاجأة، حيث اشتهر (فردريك) برجاحة عقله وإنصافه للحقيقة.

والمثيـر للانتبـاه أن (فردريك) قـد وصلت غيـرته على الإسلام إلى حـد التأكيـد على ضرورة تطوير أساليب الدعوة والاهتمام بدعمـها، حيث إن هناك قصورًا فى هذا الصدد ينبغى معالجتـه.. وقد صرح بهذا المعنى فى قوله: «من المؤسف حقًا أن الجـهود التنصيرية لا تشكو من أى نقص تنظيمى أو حركى أو مالى أو معنوى، وهذا ما نفـتقده عند دعاة الإسلام، فضلاً عن المصاعب السياسية والاقتصادية والاجتماعية».

**مصطفى مولانى:**

من الأسمـاء التى رأيتهـا فى دفتـر البابا فى هذا الفـصل اسم (مصطفـى مولانى)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: لقيت هذا القس الأيرلندى فى مـصر، ولم يذكر لى اسمه الحقيقى، أو لست أذكر اسمه الحقيقى، ولكنه كان عالما من علمـاء المسيحية، وقد وفد إلى مصر بعد أن استـقال من منصبه كـأسقف فى إحدى الولايات الأمـريكية، ليدرس الإسلام على يد شـيوخ الأزهر وعلمائه.

وقد جمـعنى وإياه مجلس طويل حدثنى فيه عن رحلتـه للإسلام، والتى بدأها بقوله: «أنا إيرلندى الأصل، نشأتُ فى بيئة كاثوليكية متـمسكة بعقيدتها، وكل الآباء هناك يتمنون أن يكون من أبنائهم قسيس يخدم الدين المسيحى، لأن هذا شرف كبير للعائلة، لذلك درست فى

---

(1) انظر: الجانب الخفى وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد.

مدرسة ثانوية دينية، ثم التحقت بكلية خاصة بالقسس بجامعة (سانت باتريك) لدراسة الفلسفة واللاهوت لمدة ست سنوات. . وخلال فترة دراستى لم أسمع كلمة واحدة عن الإسلام.

وبعد تخرجى بشهرين فقط، أى عام 1971، ذهبت إلى أمريكا للتبشير، حيث تُخرج الكلية مائتى قسيس كل عام، ويأتى الأساقفة الأمريكيون فيأخذون أغلبهم إلى أمريكا للعمل بالتبشير فى مناطق مختلفة. وقد أتيح لى أن أعمل أسقفًا بولاية (نيو جيرسى)، وأصبحت مسئولاً عن إعداد برامج التوجيه الدينى لكل المستويات وتدريب القائمين بهذا العمل، وإلى جانب ذلك عملت مدرسًا للمواد الدينية بالمدرسة الثانوية الكاثوليكية، وكنت شغوفًا بالبحث والدراسة حتى أستطيع أن أؤدى واجبى تجاه إرشاد الناس.

ولكنى كنت كلما تعمقت فى البحث والدراسة انتابنى شعور غريب بالشك فى عقيدتى! ولم أستطع أن أكتم شكوكى، فقررت مفاتحة رئيس الأساقفة، وقلت له: لدى شك فى عملى، بل وفى إيمانى بالله حسب عقيدتنا، فنصحنى بالتريّث والتفكير، وأعطانى مهلة لمدة عام ريثما أفكر فى الموضوع بهدوء.

وخلال هذا العام عكفتُ على البحث والدراسة، وتوجت بحثى بالحصول على درجتين للماجستير، إحداهما فى التربية الدينية، والأخرى فى اللاهوت والكتاب. ولكن هذه الدراسات والبحوث لم تزدنى إلا شكًا فى عقيدتى وعملى! وعدت إلى رئيس الأساقفة ومعى استقالتى من عملى فوافق.

قلت: هل معرفتك بالإسلام هى السر فى هذا الشك الذى عرض لك نحو المسيحية؟

قال: لا. . فلم أكن إلى تلك اللحظة قد عرفت أى شىء عن الإسلام.

قلت: فما أسباب ذلك الشك إذن؟

قال: هناك اسباب كثيرة، فقد كان انتقالى من (إيرلندا) حيث المجتمع الريفى المتماسك، إلى أمريكا حيث المجتمع الصناعى المادى، وما يتسم به من أمور غريبة، من ذلك مثلاً عدد المذاهب المسيحية الذى يربو على ثلاثمائة مذهب، كل واحد منها يزعم أنه على الحق دون غيره، مما جعلنى أشك فى صدق هؤلاء.

كما أن هناك أشياء أخرى لم أكن مقتنعًا بها، مثل السلطة البابوية المطلقة على الناس، والتعسف فى معالجة الأمور، مثلما حدث من جدال طويل قد ثار حول موقف البابا من تنظيم النسل، فهم يرفضون التنظيم مع أنه لا يوجد فى الأناجيل ما يمنع ذلك.

كما أننى لم أكن مقتنعًا بفكرة الرهبنة، حيث كثير من رجال الدين فى المسيحية ممنوعون من الزواج بأمر البابا! وهذا شىء ضد طبيعة الإنسان وفطرته.

هذه هى بعض الأسباب التى ضاعفت شكوكى، وجعلتنى أعيش فى حيرة، كيف أعظ الناس وأنا غير مقتنع بما أقول؟! لذلك قررتُ الاستقالة دون أن أعرف شيئًا عن الإسلام.

وبعد أن استقلت من عملي قررت أن أستأنف دراستي للحصول على الدكتوراه من جامعة هارفارد، وذلك بعد أن اشتغلت فى الكنيسة تسع سنوات.

وفى فترة دراستى تلك كانت توافينى معلومات وبيانات عن الإسلام، فأردت أن أعرف المزيد منها، فدرست تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، كما حرصت على حضور بعض المحاضرات لعدد من علماء المسلمين الذين يحاضرون فى القرآن والحديث وأركان الإسلام، وكل ما يتصل به؛ وذلك من باب حب الاستطلاع.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: أذكر فى ذلك الوقت أننى قد سمعتُ عن مصر والأزهر ودوره الإسلامى الكبير.. والغريب الذى أعجب منه كلما استرجعه؛ أن بداية معرفتى بالأزهر جاءت بعد رؤيتى لعرض تقدّمه شيخان من الأزهر بزيهما الدينى المميز اعترافًا وتقديراً لدور الأزهر كأقدم جامعة فى العالم، وذلك فى أثناء الاحتفال بمرور ثلاثمائة عام على إنشاء جامعة هارفارد، حضره مندوبون من جامعات العالم العريقة.

وهذه الصورة محفوظة فى سجل الجامعة هناك، ولذلك قررت أن يكون موضوع رسالتى للدكتوراه عن (علماء الدين الإسلامى: ودورهم فى المجتمع المصرى من أيام الشيخ عبد المجيد سليم وحتى الآن)

وحتى ذلك الوقت لم أكن قد قررت اعتناق الإسلام، وإنما كان اهتمامى منصبا على الدراسة فقط، والتى كانت تستدعى منه مجيئى إلى مصر لأقوم بدراسة الإسلام من كليات الأزهر المتخصصة، مثل كلية أصول الدين، والتقائى بأساتذتها، وعلماء الإسلام، فضلاً عن قراءاتى المستفيضة لعدد كبير من الكتب الإسلامية.

وعندما حضرت إلى مصر وشاء قَدَرُ الله أن يكون ذلك فى شهر رمضان، استرعى انتباهى ظاهرة غريبة بالنسبة لى كأجنبى، حيث شاهدت المجتمع المصرى منتظمًا فى أسلوب حياته القائم على أساس من الدين، فالناس يذهبون إلى المسجد عند سماع الأذان، ويتطهرون بماء الوضوء، ثم يقفون فى صفوف منتظمة، وعند الإفطار تخلو الشوارع من المارة.

ابتسم قليلا، ثم قال: ظننت فى بداية الأمر أن هناك قانونًا يقضى بحظر التجوال بعد الغروب، ولكننى عرفت السبب بعد ذلك.

ومما شد انتباهى، رؤيتى للمسلمين وهم يُصلُّون العشاء والتراويح، ويذهب بعضهم إلى أعمالهم ومتاجرهم حتى ساعة متأخرة، يقال عنها (السحور)، ثم يصلون الفجر وينامون.

قلت: ما الذى شدك فى كل هذا؟

قال: لقد رأيت المجتمع المصرى مجتمعا منظما على أساس من الدين، يكفى أنه قد شد انتباهى أن الأمن والأمان سائدان فى شوارع القاهرة بشكل لم أرهما من قبل فى أى مكان.. فالناس يسيرون فى الشوارع ليلاً فى أمنٍ واطمئنان بدون أن يتعرضوا للاعتداء عليهم

بالقتل أو غيره. . في حين أنّ عندنا في نيويورك مثلاً يوجد كل يوم ثمانية قتلى في الشوارع، مع أن الأمريكيين لا يسيرون في الشوارع والطرقات ليلاً خوفًا على حياتهم! ليس ذلك في نيويورك وحدها، بل في باقي الولايات الأمريكية، فبرغم القوانين والعقوبات تنتشر الجرائم والانحرافات انتشارًا مخيفًا، ولكن الأمر يختلف في المجتمع المسلم، كما هو الحال في مصر، فإيمان الناس بدينهم يجعلهم يطبقون تعاليمه بدون خوف من عقوبة أو قانون، بل احترامًا لمبادئهم وعقيدتهم، وهذا هو الفرق بين المجتمع هنا والمجتمع في الغرب حيث لا أمن ولا أمان.

سكت قليلا، ثم قال: ولكنى برغم اقتناعى بالإسلام كمنهج حياة ينظم للبشر أسلوب معيشتهم وسلوكياتهم، وبرغم قراءاتى فى الكتب الإسلامية المترجمة، ولا سيما ترجمة معانى القرآن الكريم وغيرها من كتب، وبرغم مقابلاتى مع شيوخ وعلماء الأزهر. . برغم ذلك كله لم أعلن إسلامى على الفور. . وليس ذلك عن عناد فكرٍ وغشاوة قلب؛ وإنما لسبب آخر. .

قلت: ما هو؟

قال: برغم اقتناعى الكامل بالإسلام كدين خاتم يجب أن يؤمن به الناس جميعًا، فإننى ترددت أربعة أشهر قبل أن أعلن إسلامى، لأدرس القرار فى تأن من جميع جوانبه؛ لأنه من الصعب على الإنسان أن يغير دينه. .

بعدها شرح الله صدرى للإسلام، فدخلت فى دين الله الحق، وسميت نفسى مصطفى مولانى تيمنًا باسم الرسول محمد ﷺ.

قلت: فكيف شعرت عندما دخلت للإسلام؟

قال: فى لحظة اعتناقى للإسلام شعرتُ أننى أدخل عالمًا نورانيًا يسمو بالروح والنفس، وحينما تسلمت شهادة إشهارى الإسلام، شعرت بأننى حصلت على أعلى شهادة فى الدنيا، وأحسست فى الوقت ذاته أننى ألقيتُ عن كاهلى عبئًا ثقيلاً من الهموم والقلق والشكوك والشقاء. نعم، شعرت بسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل.

قلت: ومحمد، لقد سمعت بأنك كلت له بعض الهجوم عندما كنت قسيسًا؟!

قال: لقد اقتنعتُ تمامًا بأن محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، واقتنعت بسنته وتشريعاته التى اتخذها الغرب مدخلاً للطعن فى رسالته مثل تعدد الزوجات التى اقتنعت تمامًا بحكمتها[1].

سكت قليلا، ثم قال: لقد قمت بأداء عُمرة، وزُرتُ البيت الحرام، والروضة الشريفة، وفاضت عيناى بالدموع أمام قبر المصطفى ﷺ، وقلت لنفسى حينئذ: من أنا حتى أقف أمام قبر أعظم إنسان عرفته البشرية، وشكرت الله تعالى أن هدانى للإسلام.

(1) سنرى التفاصيل المرتبطة برد هذا النوع من الشبهات فى رسالة (النبى المعصوم) من هذه السلسلة.

**أشوك كولن يانج:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (أشوك كولن يانج)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو الكاردينال أشوك كولن يانج.. وقد كان أمين عام مجلس الكنائس العالمى لوسط وشرق إفريقيا، وقد احتفظ باسمه، وذكر لى أن سبب ذلك يعود إلى ما ذكره الفقهاء من أنه لا حرج فى احتفاظ المسلم باسمه القديم ما لم يحتوِ على دلائل الكفر.. والثانى، هو تحقيق أهداف دعوية، تجعل المسيحيين يثقون فيه، ويقبلون قوله.

وقد التقيت به بعد اعتناقه الإسلام، وسألته عن رحلته للإسلام، فقلت: تغيير الإنسان عقيدته ليس أمرًا سهلاً، خاصة إذا كان هذا الإنسان يحتل قمة الهرم الذى يدعو إلى هذه العقيدة.. فما الذى قادك إلى التغيير، ومن ثم اعتناق الإسلام؟

تأمل قليلا فيما ذكرته له، ثم قال: الإنسان ـ مهما علا شأنه ـ إذا كان صادقًا وجادًا فى البحث عن الحقيقة، فإنه حتمًا سيصل إليها يومًا ما، وهذه الحقيقة التى سيصل إليها إما أنها تعزز ما يؤمن به، أو تهديه إلى سبيل آخر.

قلت: أعلم تأثير الصدق ودوره الخطير فى الوصول إلى النتائج العظيمة.. وقد قال الصالحون (من صدق وجد)، ولكنى أسألك عن طريق ذلك الصدق؟

قال: تلك قصة طويلة..

قلت: من أين تبدأ؟

قال: من الأناجيل، فمن صدق فى قراءة الإنجيل، فستهديه لا محالة إلى القرآن.

قلت: هذه الأناجيل التى بين أيدينا؟!

قال: أجل، هذه الأناجيل التى بين أيدينا.. فقد كانت هى النور الأول الذى وصلت به إلى شمس محمد!

قلت: كيف تم ذلك؟

قال: من خلال أقوال المسيح التى وردت فى الأناجيل، فقد جاء فى إنجيل يوحنا فى الإصحاح الثامن فقرة 40 عندما همّ اليهود بقتله: «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله».. لقد لاحظت أن المسيح فى هذا النص يخبر أنه إنسان اختاره الله وحمّله رسالة وجعله نبيًا، ولذلك يقول ـ كما جاء فى الإصحاح الثامن فقرة 42 ـ: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى، لأنى خرجت من قبل الله وأتيت، لأنى لم آت من نفسى بل ذلك أرسلنى، لماذا لا تفهمون كلامى؟»

بل صرحت بعض الأناجيل بنبوة عيسى كما جاء فى لوقا ـ الإصحاح السابع فقرة 16 ـ: «فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبى عظيم»، وجاء فى متى ـ

(1) انظر: مجلة المجتمع العدد 1644.

الإصحاح الحادى والعشرين فقرة (9، 10، 11) ـ: «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا النبى الذى من ناصرة الجليل»[1].

وهذه النصوص تتفق مع قوله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾ [المائدة]

قلت: فأنت ترى أن هذه النصوص التى وردت فى الأناجيل كفيلة بتغيير عقيدة المسيحيين من المسيحية إلى الإسلام؟

قال: ذلك صحيح لمن صدق فى البحث، ولم يتوقف عند هذا.

قلت: لم أفهم ما تقصد.

قال: الإيمان برسالة سيدنا عيسى عليه السلام يكون بتصديقه فيما أخبر، فلا نرد خبره ولا نكذب قوله ولا نخالفه.

قلت: كل المسيحيين يزعمون أنهم يعتقدون هذا.

قال: لقد جاء المسيح عليه السلام لأمرين مهمين، كلاهما غفل عنه إخواننا المسيحيون.

قلت: ما هما؟

قال: أما أولهما: فهو تعلم الأمة التى بعث إليها كيف تتقرب إلى الله وتعبده، أما معرفة الله فيذكر المسيح عليه السلام أن الله واحد لا شريك له ولا نظير له ولا شبيه له، فقد جاء فى إنجيل (مرقص:12/30) لما سأله الكتبة: أى وصية هى أول الكل؟ فأجابه يسوع: «إن أول كل الوصايا هى: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هى الوصية الأولى، وثانية مثلها، هى أن تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين فقال له الكاتب: صحيح يا معلم حسب الحق تكلمت، فإن الله واحد لا آخر سواه»، وتتأكد هذه الحقيقة عن ذات الله بما جاء فى إنجيل (متى: 23 / 8) حيث يقول المسيح عليه السلام: «وأما أنتم فلا تدعوا لكم أبًا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السماء».. وجاء فى يوحنا فى (20 / 18) قال المسيح: «إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم»، وكلمة الأب (أبى وأبيكم) تعنى فى لغة الإنجيل الرب أى ربى وربكم.

التفت إلى، وقال: ولهذا تجدنى أخاطب دائما محبى المسيح قائلا لهم: ألم تتضمن وصايا المسيح عليه السلام تعريفًا واضحًا لذات الله العلى الكبير المتفرد، وهو يوافق تماما ما جاء فى القرآن، فالله عز وجل يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

(1) سنرى النصوص الكثيرة المثبتة لبشرية المسيح ونبوته فى رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]، كما جاء فى القرآن الكريم أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

قلت: علمت المهمة الأولى، فما المهمة الثانية؟

قال: المهمة الثانية للمسيح عيسى عليه السلام هى: أن يهدى الأمة التى بعث إليها إلى عبادة الله، وهى أمة بنى إسرائيل، أما غيرهم من الأمم فلا تعنيهم شريعة عيسى، وهذا ما تقرره الأناجيل المسيحية، فقد جاء فى إنجيل متى (15 / 5) قول يسوع: «لم أرسل إلا لخراف بنى إسرائيل الضالة»، وجاء فى متى (10 / 5): «هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: «إلى طرق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة».

قلت: فما تفيد هذه المعرفة؟

قال: هذه المعرفة تجعل كل مسيحى يبحث عن الرسول الخاتم الذى أرسل للبشر جميعا، وكل من بحث عن هذا الرسول، فلن يجد غير محمد، فهو الوحيد الذى جاء فى كتابه المقدس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ]، وجاء فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

قلت: حدثنى عن تلك اللحظة الخطيرة التى اتخذت فيها أخطر قرار يمكن أن يتخذه إنسان؟

سكت قليلا يسترجع ذكرياته، ثم قال: حينما قررت اعتناق الإسلام، ذهبت إلى الكنيسة وتقدمت بطلب إجازة لكى أقضيها مع أسرتى، فطلب منى أن أنتظر حتى تعتمد لى الكنيسة من 50 إلى 100 ألف دولار، لكى أنفقها على أولادى، فقلت لهم أنا لا أريد مالكم، وكانت عندى للكنيسة عمارتان وأموال تبلغ مليونين و400 ألف دولار أمريكى، و320 مليون جنيه سودانى، فقمت بتسليمها إلى راعى ميزانية التنصير، فكانت مفاجأة كبيرة للكنيسة!

وبعد ذلك قضيت يومين مع أسرتى نفكر فى هذا الأمر ونناقشه، وقد كانت أسرتى المكونة من زوجتى وأربعة أبناء تدرك أننى أفكر فى اعتناق الإسلام، وحينما أبلغتهم أن الوقت قد حان، كان ردهم أنت أعلم منا ونحن نثق بك وقرارك قرارنا، وبالفعل ذهبنا إلى أحد المساجد المجاورة، وهو مسجد النور، وأشهرنا الإسلام.

قلت: فهل خسرت جميع تلك الثروة؟

قال: صحيح أننى خسرت أموالاً كثيرة غير أننى كسبت الإيمان والراحة النفسية بعد 40 سنة قضيتها فى الباطل.

قلت: فما فعلت الكنيسة بعد علمها بإسلامك؟

قال: لقد فعلت ما تعودت أن تفعله مع أمثالى.

قلت: ألم تكتف بما أخذته منك من مال؟

قال: لقد رمتنى بالجنون! وهذه سنة قديمة أخبر القرآن أنها ديدن جميع الغافلين.

قلت: أنت إلى الآن لم تحدثنى عن الطريق الذى سلكته للتعرف على الإسلام.. أم أنك تتهرب من ذكر ذلك؟

ابتسم، وقال: أنا لا أتهرب، ولكن تلك الذكريات المريرة التى كنت فيها بعيدا عن الإسلام من الصعب اجترارها.

قلت: فحدثنى عنها؟

قال: لقد شاء الله أن أدرس مقارنة الأديان، وكان الهدف منها أن أتعرف على الأديان السماوية وغير السماوية من أجل ممارسة التنصير بعلم وخبرة ومنهجية، لكن الله أراد شيئًا آخر، فقد درست الأديان السماوية وهى معروفة، كما درست غير السماوية وهى البوذية والهندوسية وعبادة النار والشمس والشيطان والأصنام.

وخلال مرحلة الدراسة كانت تتكشف أمامى الحماس عن الإسلام أولاً بأول، وبدأ تكوينى الدينى يتشكل وأفكارى تتغير وتتداخل.

وفى إحدى مراحل الدراسة أيقنت أن الإسلام هو الدين الصحيح، فكنت حينما أسمع الأذان أتوقف عن إلقاء المحاضرة احترامًا للنداء الإلهى، وحينئذ أصبحت شخصًا بوجهين، وجه يرى أن الإسلام الدين الحق، وأن الله واحد لا شريك له، ووجه يغالط نفسه ويواصل انخراطه فى الأعمال الكنسية والتمتع بأموالها الطائلة!

ولما بدا تعاطفى مع الإسلام اجتمع مجالس القساوسة والرهبان والكاردينالات، واجتمع رأيهم على أننى أميل للإسلام، وهنا مارس مجلس الكنائس ضغوطًا كثيرة علىَّ. ولما فشل قرر إيقافى عن العمل بالكنيسة، وصدر قرار الكنائس بأن الجنون قد أصابنى! قلت لهم: إننى لست مجنونًا، فأنا أخاف الله الواحد ربى وربكم ورب محمد وعيسى، إننى أخاف من عذاب الله، إننى أخاف من الله، وعلمت بعد ذلك أن تقرير الأطباء أثبت أننى لست مجنونًا، ولكننى أتطلع إلى اعتناق الإسلام.

قلت: لقد وصلت فى الكنيسة إلى درجة كاردينال، كما احتل والدكم هذا المنصب، فماذا يعنى هذا المنصب، وما وظيفته فى الكنيسة؟

قال: لقد تقلدت مناصب كبيرة فى الكنيسة، ومن بين ذلك أنى كنت كاردينالاً كما كان والدى كذلك، وهذا المنصب فى الكنيسة الكاثوليكية يوازى وظيفة المفتى فى الإسلام.

قلت: هذا منصب رفيع.

قال: ولـهذا. . فـأنا أتحدى أيًا كـان من كبـار القسـاوسة الشـرقيـين أو الغربيـين أن يحاجـجنى، بل أنا على استعداد لمنـاظرة صاحب أى درجة عاليـة فى الكنيسة لإثبات صـحة الإسلام وأحقـيته بالاتبـاع، فأنا لم أسلم عاطفيًـا أو عبثًا، وإنما أسلمت بـعد دراسة معـمقة للأديان، وصلت فى نهـاية الدراسـة إلى أن الإسلام هـو الدين السمـاوى الذى خـتم الله به الرسالات السماوية، وأن النبى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن عيسى عليه السلام إنسان من البشر وهو نبـى ورسول وليس أكثر من ذلك، قال تعـالى فى القرآن الكريم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة].

وأنا لست أول من يسلم من القسـاوسة، فـقد سـبقنى إلى الإسـلام عدد كـبيـر من القساوسة والمبشرين، وعلى رأسهم الأمين العام لمجلس مؤتمر المطارنة فى الكنيسة الكاثوليكية، ورئيس القساوسة فى الولاية الشرقية.

قلت: ما الفرق بين وظيفـتك الجديدة كداعية للإسلام، وبين وظفيتك السـابقة كداعية للمسيحية؟

قال: فى السابق كـان كل همى تنصير المسلمين أو إبعادهم عن دينهم حـتى لو فسدوا وارتكبوا كل الموبقات، فلم يكن مهمًا أن يكون المسلم إنسـانًا صالحًا أو سويًا فى المجتمع حتى بعد تحـوله عن الإسلام، والكنيسة لا تهـتم بدعوة النصارى إلى الالتـزام، فجل اهتمامـها أن يحمل الإنسـان كلمة مـسيحى! وليس شـرطًا أن يكون متدينًـا أو ملتزمًا، أمـا الآن فالمرء فى الإسلام مـحاسب على كل صغيـرة وكبيـرة، وكل من يعتنق الإسلام عليـه أن يكون صاحب عقيدة سليمة وعبادة صحيحة.

قلت: ألا ترى ازدواجية فى معايير المسلمين الذين ينتـقدون أعمال المبشرين، بينما هم يمارسون الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين؟

قال: هناك فرق كبير بين الدعوة للإسلام والدعوة للمسيحية، فدعاة الإسلام يوضحون مبادئه وتعاليمـه ويعكسـون الصورة الصحيحة للإسلام، ولا يجبـرون أحدًا على الدخول فيه، لأن الإنسان إذا لم يعبد الله عن قناعة واعتقاد لا ريب فيهما؛ فلا قيمة لإسلامه.

أما المبـشرون، فهم للأسف ينـتهزون حاجـة الفقراء والمـعوزين ويقدمـون لهم الغذاء والدواء أو فرص التعليم مقابل اعتناق المسيحيـة، فهؤلاء المنصرون لا يقنعون أحدًا بعقيدة لأنه لا توجد تعـاليم مسـيحية مـقنعة، وكل ما هـنالك أن هؤلاء لديهم ميزانيـات كبيـرة، راحوا يستغلونها فى هذه المهمة.

قلت: ما دورك الآن فى مجال الدعوة الإسلامية؟

قال: نحن نرعى عشرات الآلاف من الذين اعتنقوا الإسلام من خلال نشاطاتنا فى (. . !؟) ومن بينهم مثقفون وضباط ومسؤولون فى قطاعات مختلفة، حيث نقيم لهم المدارس والخلاوى القرآنية، فهناك أكثر من 12 ألفًا من المسلمين؛ الجدد من النساء والرجال ينتظمون فى خلاوى تحفيظ القرآن الكريم، وتضم كل واحدة منها من 300 -400 رجل وامرأة يحفظون القرآن ويدرسون السيرة والحديث الشريف والفقه الإسلامى.

ونحن نهتم بقيادات القبائل والسلاطين، فهؤلاء يتمتعون باحترام أتباعهم وأنصارهم فإذا أسلموا، أسلم من خلفهم، وقد لاحظنا أن الكثير من النصارى فى الجنوب ينحدرون من أسر مسلمة، وكان الإنجليز أثناء احتلالهم للسودان قد نصروهم، ومن ثم فنحن نعمل على إعادتهم إلى أصولهم الإسلامية.

**ثانى أكبر قسيس فى غانا:**

شد انتباهى فى هذا الفصل عنوان يحمل اسم (ثانى أكبر قسيس فى غانا)، فسألت البابا عنه، فقال: لا أذكر اسم هذا الرجل، ولكنى أذكر جيدا الوظيفة الخطيرة التى كان يتولاها. وقد التقيت به فى غانا، ولم أعلم منه، أو من الجمع الذين كانوا يتحدثون عنه إلا أنه كان ثانى أكبر قسيس فى غانا كلها، وقد حدثنى عن قصته مع الكنيسة والإسلام، فقال: فى صغرى كنت طفلاً فقيراً معدمًا ألبس الرث من الثياب، وبالكاد أجد لقمة يومى، وقد أخذنى بعض المبشرين، وربونى فى ملاجئهم، ودرسونى فى مدارسهم، وما إن لحظوا منى نباهة حتى جعلونى من أولويات اهتماماتهم.

تعلمت فى مدارسهم حتى نلت أكبر الشهادات، وكان ذلك مقابل دينى الذى أعرف انتمائى له، لكنى تلفت يمنةً ويسرةً فى وقت العوز والحاجة، فما وجدت أحدًا إلا المبشرين!

بعد مدة أصبحت قسيسا لامعا فى بلدى، لى - كما يقولون - لسان ساحر وأسلوب جذاب ومظهر لامع، وبريق عينىً يقود من رآنى لا محالة إلى المسيحية!

وفى ذلك اليوم الذى أراد الله فيه هدايتى أخذت أتساءل بينى وبين نفسى، وأقول: أنا لم أترك دينى لقناعة فى الديانة المسيحية، وإنما الجوع هو الذى قادنى، والحاجة هى التى دفعتنى، والعوز هو الذى ساقنى، وعلى الرغم من رغد العيش الذى أنا فيه، والرفاهية التى أتمتع بها إلا أننى لم أجد الانشراح ولم أشعر وأنعم بالراحة والسعادة والطمأنينة إذ ما فتئت أقلق من المصير بعد الموت، ولم أرس على بر أمان أو قاعدة صلبة تريح الضمير حول ما فى الآخرة من مصير.

لماذا لا أتعرف على الإسلام أكثر؟. . لماذا لا أقرأ القرآن مباشرة، بدلا من الاكتفاء بمعلوماتى عن الإسلام من المصادر المسيحية التى ربما لم تعرض الإسلام بصورته الحقيقية؟

وهنا شرعت أقرأ القرآن، وأتأمل وأقارن، فوجدت فيه الانشراح والاطمئنان، وانفرجت أساريرى وعرفت طريق الحق وسبيل النور: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

وهنا اتخذت قرارى الحاسم، وعزمت على التصدى لكل عقبة تحول دون إسلامى.. لقد ذهبت إلى الكنيسة، وقابلت الرجل الأول فيها القسيس الأوروبى الكبير، وأخبرته بقرارى، فظن أننى أمزح، لكنى عندما أكّدت له أنى جاد فى رغبتى هذه، جن جنونه وأخذ يزبد ويرعد ويهدد! ثم لما هدأ، أخذ يذكرنى بما كنت عليه، وما صرت إليه، وما فيه أنا الآن من نعمة ويسر، وحاول إغرائى بالمال، وأنه سيزيد راتبى، ويعطينى منحة حالا، ويزيد من المنحة السنوية، ويزيد من صلاحياتى، وغيرها كثير.

ولكن دون جدوى، فجذوة الإيمان قد تغلغلت فى شغاف القلب، واستقرت فى سويداء الضمير، وكذلك بشاشة الإيمان إذا خالطت القلب استقرت.

لم يجد كبير القسس إلا أن قال لى: إذن تُرجع لنا كل ما أعطيناك وتتجرد من كل ما تملك.

فقلت: أما ما فات فليس لى سبيل إرجاعه، وأما ما لدى الآن فخذوه كله، وكان تحت يدى أربع سيارات لخدمتى، وفيلا كبيرة وغيرها، فوقعت تنازلاً عن كل ما أملك، لقد كنت أقتدى فى هذا بصهيب الرومى الذى قال له الرسول الكريم ﷺ: «ربح البيع أبا يحيى»، وذلك عندما استوقفه مشركو قريش فى طريق هجرته، وقالوا له: جئتنا معدما فقيرا، ثم استغنيت فوالله لا ندعك حتى تخرج من مالك، فاشترى نفسه منهم بأن دلهم على ماله على أن يدعوه.. وقد أنزل الله فيه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

اغتاظ القسيس الكبير وجردنى حتى من ملابسى، وطردنى من الكنيسة شر طردة، وظن أنّنى سأكابد الفقر يومين، ثم أعود مستسمحا، كيف لا يظن ذلك وهم الماديّون حتى الثمالة؟!

لكنى خرجت من الكنيسة، وأنا لا ألبس سوى ما يستر عورتى، ولا أملك سوى هذا الدين العظيم الإسلام، وشعرت حينئذٍ أننى أسعد مخلوق على هذه البسيطة.

سرت ماشيا باتجاه المسجد الكبير وسط البلد، وفى الطريق أخذ الناس يمشون بجانبى مستغربين، ويقول بعضهم: لقد جن القسيس! وأنا لا أرد على أحد حتى وصلت المسجد،

فلما هممت بالدخـول حاولوا منعى متسائلين: إلى أين؟ وإذا بالجواب الصاعقة: جئت أُعلن إسلامى!

فتعجب الجميع قائلين (القسيس الأشهر فى البلاد الذى تنصر على يديه المئات، الذى يظهر فى شاشة التلفاز مرتين أسبوعيا، الذى يمثل المسيحية فى البلد، يأتى اليوم ليُعلن إسلامه! إنها سعادةٌ لا توصف، وفرحة لا تعبر عنها الكلمات، ولا تقدر على تصويرها الجمل والعبارات، إنه أنسٌ غامر، وإشراقة منيرة)

لقد فرح المسلمون فرحا شديدًا بإسلامى، ثم أعطونى من الألبسة ما دخلت به المسجد، وألقيت بالمسلمين المتواجدين خطبة أعلنت فيها إسلامى، وقد انطلقت على إثرها صيحات التكبير، وارتفعت خلالها أصوات التهليل والتسبيح، استبشارًا وفرحًا بإسلام مَن طالما دعاهم إلى الضلال، إذا به اليوم يدعوهم إلى الهداية والإسلام.

وخلال يومين؛ رجع الكثير ممن تنصروا إلى واحة دينهم الإسلام الوارفة الظلال، حيث ينعمون فى ظله وكنفه بآثار الهداية وطمأنينة سلوك السبيل القويم وراحة البال والضمير والخير العميم: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد].

بعد يومين من إعلان إسلامى بدأ الحاقدون من المسيحيين يبحثون عنى ليقتلونى، وتهددوا وتوعّدوا، فقام المسلمون بتهريبى إلى سيراليون سرا، حيث أُعلن عبر الإذاعة التى تملكها لجنة مسلمى أفريقيا الكويتية أنى سألقى خطابا للأمة بمناسبة إسلامى، وأخذ الجميع يترقّب هذا الخطاب والكنيسة كانت ضمن المترقبين، وقد توقعت أن أقوم بمهاجمتها أشد المهاجمة وإخراج كثير من أسرارها أمام الملأ والتجنى عليها، هذا ما كانت تتوقعه، وقد أعدّت قبل خطابى مسودة لبيان سوف تنشره، وكان يرتكز على أنها وجدتنى معدما فقيرا، وقامت بمساعدتى وتربيتى، وتكفلت بتعليمى حتى بلغت أعلى المستويات العلمية، ثم ها أنا أقوم بنكران الجميل وخيانة الأمانة ورد المعروف بالإساءة.

لكن الله خيّب فألهم وأغلق عليهم الطرق، حيث قمت بإلقاء خطاب خلاف توقعهم بدأ فيه بشكرهم على كل ما قدّموا له، وذكرت ما قدّموا لى من رعاية ومأوى وتعليم وغيرها بالتفصيل، ودنت لهم بعد الله بالفضل، إلا أنى أشرت بطريقة لبقة إلى أن العقيدة وحرية الدين لا تسير وفق العواطف، وفضل الله تعالى فوق كل فضل، ونعمة الله تعالى فوق كل نعمة، وذلك بصياغة تجعل كل مَن خَدَمَتهُ الكنيسة يُعيدُ النظرَ فى هذه الخدمة والرعاية وأنها ليست مقياسا لصحة العقيدة، وليست العامل المرجّح لاختيار الدين.

بعد الخطاب بيومين كان هناك حفل افتتاح مسجد الجامعة، حيث حضر هذا الحفل فى باحة الجامعة رئيس جمهورية سيراليون وجمع من المسئولين وبعض رجال الكنيسة الذين دعتهم الجامعة لتكريس التسامح الدينى ولتلطيف الجو بعد الخطاب الذى ألقاه القس الذى أسلم.

وفى الحفل بعد تلاوة القرآن الكريم قام الشيخ طايس الجميلى ممثل لجنة مسلمى إفريقيا التى تكفلت ببناء المسجد؛ بألقاء كلمة أشار فيها إلى إسلامى وضمنها قوله عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة].

وعندما شرع فى شرح هذه الآية ووصل بشرحه عند الآية ترى أعينهم تفيض من الدمع والمترجم يترجم على الفور، رأيت القساوسة الذين حضروا أخرجوا مناديلهم يمسحون دموعهم.

وقد قال أحد القساوسة لزميله الذى بجانبه: أقسم أن هذا هو من أرشد ذلك القسيس ليجعل خطابه بالصورة التى ظهر عليها وأحرجنا.

* * *

■■■■■■■

## ثامنا - المفكرون

■■■■■■■

فتحت دفتر البابا على فصله الثامن، فوجدت عنوانه (المفكرون)، فقلت: أليس المفكرون هم العلماء؟

قال: لا يكون العالم عالما حتى يكون مفكرا.

قلت: فقد تحدثنا عن العلماء.

قال: أولئك هم الذين انصرف تفكيرهم إلى العمران.

قلت: والمفكرون؟

قال: من انصرف تفكيرهم إلى الإنسان.

قلت: تقصد العلماء بالعلوم الإنسانية؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك، ويمكن أن يمزج هؤلاء بين علوم العمران وعلوم الإنسان.

قلت: فكيف يهتدى هؤلاء إلى الإسلام؟

قال: يهديهم الله بواسطة عقولهم التى لم يضيعوها.

قلت: أعلم أن الفكر يحتل فى الإسلام منزلة رفيعة، فلا يعبد الله بأفضل من الفكر، بل إن الله عز وجل حث العقول على استعمال الفكر للتعرف على حقيقة ما جاء به رسول الله ﷺ، فقال عز وجل: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام]، وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف]، وقال عز وجل: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ]، وقال عز وجل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر]

قال: العبرة بالفكر الصادق، لا بأى فكر.

قلت: ماذا تعنى؟

قال: هناك من يفكر كما يفكر الشياطين.

قلت: تقصد أنه يستعمل عقله فى الغواية والإضلال؟

قال: ويستعمله فى الخداع والتمويه وتزييف الحقائق.

قلت: وهل يمكن للعقل أن يؤدى هذا الدور الرذيل؟

قال: العقل آلة مطيعة لصاحبها.. وهى تتحرك بتحركه، وتسكن بسكونه.

قلت: لقد ذكرتنى بقوله (إخبارا عن هذا النوع من المفكرين): ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر].

قال: هذه الآيات نزلت فى ماركس وفرويد ودوركايم..

قاطعته قائلا: بل نزلت فى الوليد بن المغيرة.

قال: لم يكن الوليد إلا وليدا مع هؤلاء، أما هؤلاء، فهم الذين فكروا ودبروا، ثم راحوا يتلاعبون بإنسانية الإنسانية ويحولونها إلى أسفل سافلين.

قلت: عرفنا خبر هؤلاء فى الرحلة الماضية، فهلم بنا إلى خبر الذين قال فيهم الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

**عبدالكريم جرمانيوس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (عبدالكريم جرمانيوس)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا عالم من علماء المجر الكبار، وصفه العقاد بأنه (عشرة علماء فى واحد)

وقد وُلد فى بودابست، وتعلّم اللّغات الغربيّة: اليونانيّة، واللّاتينيّة، الإنجليزيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة، والمجريّة، ومن اللّغات الشرقيّة: الفارسيّة والأورديّة، وأتقن العربيّة والتركيّة على أستاذيه: فامبيرى، وغولد زيهر اللّذين ورث عنهما ولَعهما بالشرق الإسلامىّ، ثمّ تابع دراستهما بعد عام 1905م فى جامعتى استانبول وفينّا. وصنّف كتابًا بالألمانيّة عن الأدب العثمانىّ (1906)، وآخر عن تاريخ أصناف الأتراك فى القرن السابع عشر، فنال عليه جائزة مكّنته من قضاء فترة مديدة فى لندن، حيث استكمل دراسته فى المتحف البريطانىّ.

وفى عام 1912م عاد إلى بودابست، فعُيِّن أستاذًا للّغات العربيّة والتركيّة والفارسيّة، وتاريخ الإسلام وثقافته فى المدرسة العليا الشرقيّة. ثمّ فى القسم الشرقىّ من الجامعة الاقتصاديّة، ثمّ أستاذًا ورئيسًا للقسم العربىّ فى جامعة بودابست (1948)، وظلّ يقوم فيه بتدريس اللّغة العربيّة، وتاريخ الحضارة الإسلاميّة، والأدب العربى قديمه وحديثه، محاولاً

(1) انظر: مقالة عنه من كتاب الإسلام والغرب، الوجه الآخر - حسن السعيد.

إيجاد حلقات اتصال بين نهضات الأمم الإسلاميّة الاجتماعيّة والسيكولوجيّة، حتى أُحيل على التقاعد (1965).

وقد دعاه طاغور إلى الهند أستاذًا للتاريخ الإسلاميّ، فعمل في جامعات دلهي، ولاهور، وحيدر آباد (1929-1932)، وهناك أشهر إسلامه في مسجد دلهي الأكبر، وألقى خطبة الجمعة، وتسمّى بـ (عبد الكريم)، وقدم القاهرة وتعمّق في دراسة الإسلام على يد شيوخ الأزهر، ثمّ قصد مكّة حاجا وزار قبر الرسول ﷺ، وصنّف في حجّته كتابه: الله أكبر، وقد نُشر في عدّة لغات (1940)، وقام بتحرّيات علميّة (1939-1941) في القاهرة والسعوديّة نشر نتائجها في مجلّدين: شوامخ الأدب العربي (1952)، ودراسات في التركيبات اللّغوية العربيّة (1954)

وربيع عام 1955 عاد ليقضي بضعة أشهر في القاهرة والإسكندريّة ودمشق بدعوة من الحكومة ليحاضر بالعربيّة عن الفكر العربيّ المعاصر، وعن صور من الأدب المجريّ، ثمّ رجع إلى الشرق العربيّ في شتاء 1958، لاستكمال مصادر كتابه الجديد عن أدبائه المعاصرين والذي صدرت بعض فصوله، وفيها قصص الكتّاب المعاصرين. وقد انتخب عضوًا في المجمع الإيطالي(1952)، ومراسلاً للمجمع اللّغويّ بالقاهرة (1956)، وفي المجمع العلميّ العراقي (1962)

وقد ترك تراثًا علميا زاخرًا بالعمق والتنوّع، منه: قواعد اللّغة التركيّة (1925)، والثورة التركيّة، والقوميّة العربيّة (1928)، والأدب التركيّ الحديث (1931)، والتيّارات الحديثة في الإسلام (1932)، واكتشاف الجزيرة العربيّة وسوريا والعراق وغزوها (1940)، ونهضة الثقافة العربيّة (1944)، ودراسات في التركيبات اللّغويّة العربيّة (1954)، وابن الروميّ (1956)، وبين المفكّرين (1958)، ونحو أنوار الشرق، ومنتخب الشعراء العرب (1961)، وفي الثقافة الإسلامية، وأدب المغرب (1964)، وكان يعدّ ثلاثة كتب عن: أدب الهجرة، والرحّالة العرب وابن بطّوطة، وتاريخ الأدب العربيّ.

وقد شرفني الله بالالتقاء به والحديث معه عن سر إسلامه، ومما ذكره لي قوله: «كان ذلك في عصر يوم مطير، وكنتُ ما أزال في سنّ المراهقة، عندما كنتُ أقلّب صحائف مجلّة مصوّرة قديمة، تختلط فيها الأحداث الجارية مع قصص الخيال، مع وصف لبعض البلاد النائية؛ بقيت بعض الوقت أقلّب الصحائف في غير اكتراث إلى أن وقعت عيني فجأة على صورة لوحة خشبيّة محفورة استرعت انتباهي، كانت الصورة لبيوت ذات سقوف مستوية تتخلّلها هنا وهناك قباب مستديرة ترتفع برفق إلى السماء المظلمة التي شقّ الهلال ظلمتها.

ملكت الصورة عليّ خيالي، وأحسستُ بشوق غلاّب لا يقاوم إلى معرفة ذلك النور الذي كان يُغالب الظّلام في اللّوحة، بدأتُ أدرس اللّغة التركيّة، ومن ثمّ الفارسيّة فالعربيّة،

وحاولتُ أن أتمكّن من هذه اللّغات الثلاث حتّى أستطيع خوض هذا العالم الروحيّ الذى نشر هذا الضوء الباهر على أرجاء البشريّة.

وفى إجازة صيف قدر الله أن أُسافر إلى البوسنة وهى أقرب بلد شرقىّ إلى بلادى. وما كدت أنزل أحد الفنادق حتّى سارعت إلى الخروج لمشاهدة المسلمين فى واقع حياتهم، وقد خرجت بانطباع مُخالف لما يُقال حول المسلمين.. وكان هذا هو أوّل لقاء لى مع المسلمين. ثمّ مرّت سنوات وسنوات فى حياة حافلة بالأسفار والدراسات، وكان مع مرور الزّمن تتفتّح عيونى على آفاق عجيبة وجديدة.

ورغم تطوافى الواسع فى دنيا الله، واستمتاعى بمشاهدة روائع الآثار فى آسيا الصغرى وسوريا، وتعلّمى اللّغات العديدة وقراءاتى لآلاف الصفحات من كتب العلماء، رغم كلّ ذلك فقد ظلّت روحى ظمأى.

سكت قليلا يسترجع ذكرياته، ثم قال: أثناء وجودى فى الهند، وفى ذات ليلة رأيت - فيما يرى النائم - كأنّ محمدًا رسول الله ﷺ يخاطبني بصوت عطوف: لماذا الحيرة؟ إنّ الطريق المستقيم أمامك مأمون ممهّد مثل سطح الأرض، سرْ بخطى ثابتة وبقوّة الإيمان.. وفى يوم الجمعة التالية، وقع الحدث العظيم فى مسجد الجمعة فى دلهىّ، حينما أشهرت إسلامى على رؤوس الأشهاد!

ابتسم، وقال: كان التأثّر والحماس يعمّان المكان، ولا أستطيع أن أتذكّر ماذا كان فى ذلك الحين.. وقف الناس أمامى يتلقّفونني بالأحضان، كم من مسكين مجهد نظر إلىّ فى ضراعة، يسألني الدعوات، ويريد تقبيل رأسى، فابتهلتُ إلى الله أن لا يدع هذه النفوس البريئة تنظر إلىّ وكأنّى أرفع منها قدرًا، فما أنا إلاّ حشرة من بين حشرات الأرض، أو تائه جادّ فى البحث عن النور، لا حول لى ولا قوة، مثل غيرى من المخلوقات التعيسة.. لقد خجلتُ أمام أنّات وآمال هؤلاء الناس الطيّبين. وفى اليوم التالى وما يليه كان الناس يفدون علىّ فى جماعات لتهنئتى، ونالنى من محبّتهم وعواطفهم ما يكفينى زادًا مدى حياتى.

ومن أقواله التى قد تدلك على سر اعتناقه للإسلام قوله: (حبّب لى الإسلام أنه دين الطهر والنظافة: نظافة الجسم والسلوك الاجتماعى والشعور الإنسانى، ولا تستهن بالنظافة الجسمية فهى رمز ولها دلالتها)[1].

ومنها: (كم ألفيت فى قلوب المسلمين كنوزًا تفوق فى قيمتها الذهب، فقد منحونى إحساس الحب والتآخى، ولقّنونى عمل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وعلى المسلمين أن يعضّوا بالنواجذ على القيم الخلقية التى يمتازون بها، ولا ينبهروا ببريق الغرب، لأنه ليس أكثر من بريقٍ خاوٍ زائف)[2].

---

(1) النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومى: 2 / 421.

(2) هؤلاء المثقفون اختاروا الإسلام، محمد عثمان ص 35.

ومنها: (لا يوجد فى تعاليم الإسلام كلمة واحدة تعوق تقدم المسلم، أو تمنع زيادة حظه من الثروة أو القوة أو المعرفة.. وليس فى تعاليم الإسلام ما لا يمكن تحقيقه عمليا، وهى معجزة عظيمة يتميز بها عن سواه، فالإسلام دين الذهن المستنير، وسيكون الإسلام معتقد الأحرار).

ومنها: (لقد تمنيت أن أعيش مائة عام، لأحقق كل ما أرجوه لخدمة لغة القرآن الكريم، فدراسة لغة الضاد تحتاج إلى قرن كامل من الترحال فى دروب جمالها وثقافتها)[1].

**مارتن لنجز:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (مارتن لنجز)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكر إنجليزى أشهر إسلامه على يد شيخ جزائرى اسمه الشيخ أحمد العلوى، التقى به فى سويسرا التى كان يعمل بها مدرسًا، بعدها قام بتغيير اسمه من (مارتن لنجز) إلى اسم (أبى بكر سراج الدين).

وقد التقيت به فى رحلة لى إلى سويسرا، وقد كان أول سؤال سألته: كيف رحلت من (مارتن لنجز) إلى (أبى بكر سراج الدين)؟

نظر إلى متعجبا من هذا السؤال، ثم قال: كنت أدين بالمسيحية، كما تدين بها أسرتى التى لا تعرف عن الدين شيئًا إلا أنها مسيحية بالوراثة. وهكذا نشأت خالى النفس من أى عقيدة يؤمن بها حق الإيمان.

لكن.. وبعد حصولى على شهادة الـ (A-B) فى الآداب الإنجليزية - حيث كنت أدرس الأدب الإنجليزى فى جامعة أكسفورد إنجلترا - أخذت أنقب فى كتب التراث عن الديانات المنتشرة فى العالم لأقرأ عنها جميعًا.

وكان من أهم ما استوقفنى دين الإسلام كشريعة لها منهاج يتفق مع المنطق والعقل، وآداب تستسيغها النفس والوجدان.

سكت قليلا، ثم قال: (لقد وجَدتُ فى الإسلام ذاتى التى افتقدتها طوال حياتى، وأحسست وقتها أنى إنسان لأول مرة، فهو دين يرجع بالإنسان إلى طبيعته حيث يتفق مع فطرة الإنسان).

ثم أردف قائلاً وقد امتلأت أساريره بابتسامة عذبة: (شاء الله لى أن أكون مسلمًا، وعندما يشاء الله فلا رَادَّ لقضائه.. وهذا هو سبب إسلامى أولاً وقبل كل شىء).

قلت: هل هناك من العقول من ملأ عقلك بالفكر الذى هداك إلى الإسلام؟

قال: لابد من ذلك..

---

(1) هؤلاء المثقفون اختاروا الإسلام، محمد عثمان ص 36.

قلت: من هو؟

قال: إن ما أثر عليَّ، وجعلني أهتم بالإسلام، هو كتب مؤلف كبير كان مثلي اعتنق الإسلام وأصبح من قمم المتصوفة، إنه الشيخ عبد الواحد يحيى.. لقد تأثرت بكتبه التي صنفها عن الإسلام، حتى أنني لم أقرأ كتبًا من قبل في مثل عظمة كُتُبِه، مما دفعني لأن أسعى لمقابلة مَن كان سببًا في إسلامي، فجئت إلى مصر حيث كان يعيش فيها وقتئذ.

لقد استفدت منه كثيرًا؛ فقد كان بحق عالمًا عاملاً بعلمه، وأكثر ما تعلمته منه الزهد في الدنيا، وهو ما تسمونه أنتم (التصوف)

قلت: هل أنت متصوف؟

قال: نعم.. ولكن مفهومي للتصوف أنه ليس انعزالاً عن الدنيا، ولكنه أخذٌ بأسباب الحياة في الظاهر، والإعراض عنها بالقلب.

إن الرسول محمد ﷺ لخص معنى التصوف كله في حديثه الشريف: (كُن في الدُّنيا كأنَّك غَريبٌ أو كعابر سبيل).. أو ما قاله في حديث شريف آخر: (إنَّما أنا والدنيا كَراكب استظل تحت شجرة ثمَّ راح وتركها).. هذا هو مفهوم التصوف الذي تعلمته من الشيخ عبد الواحد يحيى.

قلت: إلى أي شيء قَادَك التصوف؟

نظر إلى الأفق البعيد بعمق، ثم قال بكل هدوء: إلى العبودية الخالصة لله.

**الدكتورحامد ماركوس:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتورحامد ماركوس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لعالم وصحفي ومؤلف ألماني، وقد التقيت به في بلدي ألمانيا، وكان من حديثه لي عن سر إسلامه قوله: منذ طفولتي، وأنا أشعر بدافع في داخل نفسي لدراسة الإسلام ما وجدت إلى ذلك سبيلا، وعنيت بقراءة نسخة مترجمة للقرآن في مكتبة المدينة التي نشأت فيها، وكانت هي الطبعة التي حصل منها جوته على معلوماته عن الإسلام.

أخذ مني الإعجاب كل مأخذ لما رأيته في هذا القرآن من أسلوب عقلي رائع، في نفس الوقت الذي يفرض فيه التعاليم الإسلامية، كما أدهشتني تلك الروح الثابرة الوثابة العظيمة التي أثارتها وأذكتها هذه التعاليم في قلوب المسلمين الأوائل.

ثم أتيحت لي في برلين فرصة العمل مع المسلمين، والاستمتاع إلى الأحاديث الحماسية المثيرة التي كان يقدمها مؤسس أول جمعية إسلامية في برلين ومنشئ مسجد برلين، عن القرآن الكريم، وبعد سنوات من التعاون العملي مع هذه الشخصية الفذة لمست فيها ما يبذله من ذات

نفسه وروحه؛ آمنت بالإسلام، اذ رأيت فى مبادئه السامية والتى تعتبر القمة فى تاريخ الفكر البشرى، ما يكمل آرائى شخصيا.

قلت: ما المبادئ التى أثارت اهتمامك، أو رأيت أنها تتوافق مع طريقة تفكيرك؟

قال: أولها الإيمان بالله، فهو عقيدة أصيلة فى الإسلام، ولكن الإسلام فى سبيل تقريرها لا يدعوا إلى مبادئ أو عقائد تتنافى مع العلم الحديث، وعلى هذا فليس ثمت تناقض ما بين العقيدة من جانب وبين العلم من الجانب الآخر، وهذه ولا شك ميزة عظيمة فريدة فى نظر رجل أسهم بكل طاقته فى البحث العلمى.

وميزة أخرى يمتاز بها الإسلام، تلك أنه ليس مجرد تعاليم نظرية صماء تسير على غير بصيرة وعلى هامش الحياة، انما هو يدعو إلى نظام تطبيقى يصبغ حياة البشر، وقوانين الإسلام ليست بالتعاليم الجبرية التى تحتجز الحريات الشخصية، ولكنها توجيهات وارشادات تؤدى إلى حرية فردية منظمة.

ومع توالى السنين كنت أزداد اقتناعا بما يتبين لى من الأدلة على أن الإسلام يسلك أقوم سبيل فى الملائمة بين شخصية الفرد وشخصية الجماعة، ويربط بينهما برباط قوى متين.

إنه دين الاستقامة والتسامح، إنه دائم الدعوة إلى الخير، يحض عليه ويرفع من شأنه فى جميع الأحوال والمناسبات.

**روجيه دوباكييه:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (روجيه دوباكييه)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكر سويسرى اعتنق الإسلام، التقيت به فى سويسرا، وقد سألته عن رحلته إلى الإسلام، فقال: نشأت فى بيئة مسيحية بروتستانتية، غير أنى لم أكن مهتما بها.. بل كنت متأثرا بالفلسفة الحديثة، ولا سيما الفلسفة الوجودية، ولهذا فقد كنت أعتقد أن الأديان مجرد معتقدات خرافية!

وعندما اشتغلت بالصحافة بدأت أسافر إلى أكثر من بلد، فسافرت إلى السويد، وعملت بها مراسلاً صحفيا فى نهاية الحرب العالمية الثانية لأكثر من خمس سنوات، لكنى اكتشفت أن الناس تعساء، برغم التقدم والرخاء الذى يعيشون فيه، على حين اكتشفت عكس ذلك عندما سافرت إلى بعض الدول الإسلامية فى الشرق، فقد وجدت المسلمين - رغم فقرهم الشديد - يشعرون بسعادة أكثر، وأن حياتهم لها معنى، وهذه الملاحظة جعلتنى أفكر مليا فى معنى الحياة، وأتأملها من خلال هذين النموذجين.

لقد كنت أسأل نفسى: لماذا يشعر المسلمون بسعادة تغمر حياتهم برغم فقرهم وتخلفهم؟!.. ولماذا يشعر السويديون بالتعاسة والضيق برغم سعة العيش والرفاهية والتقدم

(1) انظر: اللواء الإسلامى: من حديث أجراه محمد صبره ورضا عكاشة فى إحدى أعدادها الأسبوعية.

الذى يعيشون فيه؟! حتى بلدى (سويسرا) كنت أشعر فيه بنفس ما شعرت به فى السويد، برغم أنه بلد ذو رخاء، ومستوى المعيشة فيه مرتفع!

وأمام هذا كله وجدت نفسى فى حاجة لأن أدرس ديانات الشرق.. وبدأت بدراسة الديانة الهندوكية فلم أقتنع كثيراً بها، حتى بدأت أدرس الدين الإسلامى فشدنى إليه أنه لا يتعارض مع الديانات الأخرى، بل إنه يتسع لها جميعًا، فهو خاتم الأديان.

وهذه حقيقة كانت تزداد يقينًا عندى باتساع قراءاتى، حتى رسخت فى ذهنى تمامًا بعد ما اطلعت على مؤلفات الفيلسوف الفرنسى المعاصر رينيه جينو الذى اعتنق الإسلام.

لقد اكتشفت كما اكتشف الكثيرون ممن تأثروا بكتابات الفيلسوف الفرنسى الذى أسلم وتحولوا إلى الإسلام، اكتشفت أن الإسلام يعطى معنى للحياة، على عكس الحضارة الغربية التى تسيطر عليها المادية، ولا تؤمن بالآخرة، وإنما تؤمن بهذه الدنيا فقط.

قلت: لقد كان فكر الفيلسوف الفرنسى رينيه جينو الذى أسلم، هو حاديك إلى الإسلام؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك، بالإضافة إلى أنى ـ كما ذكرت لك ـ تأثرت بزياراتى للدول الإسلامية، فبرغم الظروف المادية السيئة فى تلك الدول فإن أهلها يتمتعون بقدر كبير من الإيمان الراسخ فى نفوسهم، ولا توجد عندهم أزمات أخلاقية كالتى توجد بالغرب، وجعلت كثيراً من الشباب ينتحر أو يهرب من الحياة بتعاطى المخدرات، مما يعنى فى نظرهم أن الحياة ليس لها معنى أو قيمة.

قلت: فهل رأيت أن الإسلام هو الذى يقف خلف تلك السكينة النفسية التى يعيشها المسلمون؟

قال: أجل.. لقد تبينت أن الإسلام بمبادئه يَبْسُط السكينة فى النفس، أما الحضارة المادية فتقود أصحابها إلى اليأس، لأنهم لا يؤمنون بأى شىء! كما تبينت أن الأوربيين لم يدركوا حقيقة الإسلام، لأنهم يحكمون عليه بمقاييسهم المادية.

قلت: أهذا ما جذبك إلى الإسلام؟

قال: أول ما جذبنى إلى الإسلام هو شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله. فقد اكتشفت أن الإسلام دين متكامل، وكل شىء فيه مرتبط بالقرآن والسنة. وفى اعتقادى أن الإنسان يمكن أن يتأمل فى هذه الشهادة طيلة الحياة.

الشهادة تقول لا إله إلا الله.. وهذا يعنى أنه ليس هناك حقيقة نهائية ودائمة سوى الله.. أما الفلسفة الحديثة فتقول إنه ليس هناك حقيقة سوى هذه الدنيا، ذلك ما تقوله الفلسفة الوجودية وغيرها.

وقد دهشت لأن الإسلام يعبر عن الحقيقة التى تناساها العلم والفلسفة الحديثة.

سكت قليلا، ثم قال: لقد تأثرتُ بالقرآن الكريم كثيراً عندما بدأت أدرسه، وتعلمتُ وحفظتُ بعض آياته. والحمد لله فأنا أستطيع أن أقرأ فيه، وتستوقفنى كثيراً الآية الكريمة التى يقول فيها الله عز وجل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وقوله عز وجل: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة].

سكت قليلا، ثم قال: والسنة النبوية الشريفة قرأتها أيضًا، وتأثرت بما فيها من حِكَم وبيان دقيق.

قلت: فكيف واجهت قومك وتحديت أعرافك ورحت تعلن إسلامك؟

قال: لما عُدتُ إلى سويسرا لم يكن هناك مبرر لأن أخفى إسلامى، لذلك فقد نشرتُ مقالات كثيرة عن الإسلام فى (جورنال دى جنيف)، وصحيفة (جازيت دى لوزان)، وهى صحف غير إسلامية. كما ترجمت بعض الكتب التى تتناول موضوعات إسلامية، ودافعتُ فى كتاباتى كلها عن قضايا الإسلام كمسلم وَجَدَ طريقه فى دين الإسلام.

وأنا أحاول - الآن - أن أكثف كتاباتى عن الإسلام، وأشرح للقراء الغربيين ما يدور فى العالم الإسلامى. وأنا أركز على مسألة أن الإسلام يُقدم حُلولاً لمشاكل كثيرة وصلوا معها إلى طريق مسدود، فى حين فتح الإسلام لها أبوابًا كثيرة.

قلت: إن الكثير من قومنا يعتبرون الإسلام قومية لا أيديولوجية، ويحكمون عليه على أساس ذلك.. و..

قاطعنى قائلا: أنا أختلف مع بعض الأشخاص الذين ينظرون إلى الإسلام باعتباره قومية - وهذا اعتقاد خاطىء لدى كثير من المسلمين.. إنهم يعتبرون الإسلام أيديولوجية وهو خطأ؛ إنّما الإسلام طريق إلى الله، وأفضل طريقة للوصول إلى معرفة الله والتصالح والوئام بين الخالق والخلق.

قلت: إن البعض يذكر أن الإسلام دين تخلّف لا يقود إلى التقدم.

ابتسم، وقال: الحمد لله، أن الإسلام ليس متقدمًا بمعنى التقدم الذى يعيشون فيه ويقودهم إلى الهاوية. والحمد لله، أن الإسلام لم يتجه إلى هذا التقدم المادى الذى يقصدونه، ولو كان كذلك لما أثار انتباهى ولا انتباه هؤلاء المفكرين الذين وجدوا فيه الخير والسعادة للبشرية، أمثال (رجاء غارودى) وغيره.

إن الإسلام يعبر عن شىء خالد، ومن السخف أن نقول إنه متخلف، ولذلك يجب تغييره أو استبداله. إن التقدم الذى ينادون به قادهم إلى اليأس والضياع. الحضارة والمدنية

الحديثة تعبر عن صراع الإنسان مع المادة والحياة، فى حين يعبر الإسلام عن الحقيقة، ولذلك فلا داعى لأن يتجه الإسلام نحو التقدم بالمعنى الذى يريدونه، وهو الفوضى والدمار واليأس.

قلت: هناك من يفرق بين الإسلام كدين، والمسلمين كأشخاص.. فهل ذلك صحيح.. أم..

قاطعنى قائلا، والابتسامة تملأه فمه: هناك قصة فيها رد على ذلك، فأنا أعرف صديقًا منذ فترة اعتنق الإسلام فى السادسة والعشرين من عمره اسمه محمد أسد[1]، كان يهوديا واعتنق الإسلام عام 1926، وألف كتابًا بعنوان (الطريق إلى مكة)، وأصبح من علماء الإسلام، وله مؤلفات أخرى كثيرة.. قابلته منذ فترة فى باكستان حيث يعيش هناك، وسألته نفس هذا السؤال: هل هناك فرق بين الإسلام كدين والمسلمين كأشخاص؟

فقال لى: إذا كنا قد اعتنقنا الإسلام فليس هذا بسبب المسلمين؛ ولكن السبب أن الإسلام حقيقة لا ينكرها أحد.

ثم نظر إلىَّ، وقال: صحيح أن هناك تدهورا فى حال المسلمين، ولكنى أصارحك القول بأن التدهور فى حال أصحاب الأديان الأخرى أكثر مما هو فى المسلمين. إن الإسلام آخر تعبير عن الرحمة الإلهية.. وما زال قادرًا على العطاء؛ عطاء كل ما يُخَلِّص الإنسان من شقاء الحياة وآلامها ومتاعبها. إن الإسلام يجدد الصلة بين المرء وربه التى قطعها إنسان اليوم.

حتى إذا كان المسلمون فى حالة تدهور أو انهيار، فإن دينهم قادر على منحهم الحياة السعيدة المطمئنة التى تعينهم على التغلب على تلك الأزمات الأخلاقية التى يعيشها الغرب.

قلت: كيف تفسر ظاهرة الإقبال على اعتناق الإسلام من جانب الأوربيين؟

قال: السبب ـ كما قلت ـ الأزمة التى قادتهم إليها الحضارة والمدنية الحديثة.. لقد أصبح الأوربيون يعيشون فى حالة يأس لأنهم لا يؤمنون بشىء؛ ولذلك فهم يبحثون عن معنى لحياتهم، وقد وجدوا هذا المعنى فى الإسلام فأقبلوا عليه.

**الكولونيل دونالدس روكويل:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (الكولونيل دونالدس روكويل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لكاتب أمريكى اعتنق الإسلام، وقد التقيت به فى بعض المؤتمرات، وقد بادرنى بالحديث عن الدوافع التى جعلته يختار الإسلام، فقال يعددها: ثمانية أمور فى الإسلام دفعتنى إليه دفعا لم أتمكن من التفلت منه.

قلت: فما أولها؟

قال: البساطة، إن بساطة الإسلام، ومساجد المسلمين بجاذبيتها، وبما فى أجوائها من روعة وجلال ووقار، وما يتميز به المسلمون المؤمنون من ثقة باعثة على اليقين تجعلهم

---

(1) ستتحدث عنه فى هذا الفصل.

يستجيبون لنداء الصلاة خمس مرات في اليوم، كل هذه الأمور ملكت عليَّ مشاعري منذ البداية.

قلت: فما الثاني؟

قال: ذلك الإدراك الناضج للحياة، والذي هو من ثمار السنة المحمدية التي تجمع بين الرأي السديد، والقدوة العملية، في أسلوب من التوجيه الحكيم في أمور كثيرة تدلل على واقعية هذا الدين، وحكمة أخَّاذة سديدة في أقوال محمد ﷺ،.. خُذْ مثلاً قوله ﷺ: «اعقلها وتوكل».. لقد قرر في هاتين الكلمتين نظامًا دينيا في أعمالنا المعتادة، فلم يطلب إلينا التصديق الأعمى بوجود قوى غيبية تحفظنا برغم تقصيرنا وإهمالنا، بل يدعونا إلى الثقة في الله، والرضا بإرادته في عاقبة أمرنا، إذا نحن طرقنا الأمور من أبوابها الصحيحة، وبذلنا في ذلك قصارى جهدنا.

قلت: فما الثالث؟

قال: سماحة الإسلام مع الأديان الأخرى، والذي هو نابع من اتساع الأفق الفكري، تجعله قريبًا إلى قلوب أولئك الذين يتعشقون الحرية، فقد دعا محمد ﷺ أتباعه إلى أن يحسنوا معاملة المؤمنين بالتوراة والإنجيل، وإلى الإيمان بأن إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام رُسُلٌ من عند الله الواحد الأحد.. هذه سماحة يمتاز بها الإسلام عن الأديان الأخرى.

قلت: فما الرابع؟

قال: التحرر الكامل من عبادة الأوثان، وهو دليل على سلامة دعائم العقيدة الإسلامية، وعلى نقائها، فالتعاليم الأصلية التي جاء بها محمد ﷺ لم يغيرها المشرعون بتعديلات أو إضافات، فها هو ذا القرآن الكريم على الحالة التي أنزل بها على محمد ﷺ لهداية المشركين والكفار في بداية دعوته ظل ثابتًا راسخًا حتى الآن.

قلت: فما الخامس؟

قال: الاعتدال والتوسط في كل شيء، فهما دعامتان أساسيتان في الإسلام، قد استحوذتا على كل إعجابي وتقديري.

لقد آمنت أن الرسول محمداً ﷺ كان حريصًا على صحة قومه، فأمرهم بالتزام النظافة إلى أبعد الحدود، كما أمرهم بالصوم والسيطرة على الشهوات الجنسية - وأذكر أنني كنت - عندما أقف في مساجد أسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة وغيرها من المدن - أحس شعوراً عميقًا بقدرة الإسلام في بساطته، على الارتفاع بروح البشر إلى الآفاق العليا، بدون حاجة إلى زخارف أنيقة، أو تماثيل، أو صور، أو موسيقى، أو طقوس رسمية.. فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرى، في ذكر الله الأحد.

قلت: فما السادس؟

قال: ديمقراطية الإسلام، فقد أثار إعجابي تساوي الحقوق بين الملك صاحب السلطان، وبين الفقير المتسول داخل جدران المسجد، فهم يسجدون جميعًا لله، ليست هناك مقاعد تستأجر، ولا أماكن تحجز لفئة دون أخرى.

قلت: فما السابع؟

قال: لا يؤمن المسلم بوسيط بينه وبين ربه، بل يتجه رأسًا إلى الله، خالق الخلق، وواهب الحياة، وهو لا يراه دون التجاء إلى صكوك غفران، أو إلى أحد لمنحه منحة الخلاص.

قلت: فما الثامن؟

قال: الأخوة العالمية الشاملة في الإسلام، بغض النظر عن اختلاف العنصر أو المذهب السياسي أو اللون أو الإقليم فقد ثبت ذلك عندي بكل يقين واقتناع مرات ومرات..

**رينيه جينو:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (رينيه جينو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الاسم الأصلي للعالم والفيلسوف والحكيم عبدالواحد يحيى، الذي درس الأديان عامة، ثم اعتنق الإسلام، فأحدث إسلامه ضجة كبرى في أوروبا وأمريكا، وكان سببًا في دخول الكثيرين إلى الإسلام.

وقد ألف الكثير من الكتب التي ساهمت مساهمة كبيرة في نشر الإسلام، منها (أزمة العالم الحديث) و(الشرق والغرب) و(الثقافة الإسلامية وأثرها في الغرب)، كما أصدر مجلة سماها (المعرفة)، وقد ترجمت كتبه إلى كثير من اللغات الحية.

وبسبب قدرة أفكاره على الاكتساح فقد حرَّمت الكنيسة قراءة كتبه، ولكن ذلك لم يمنع من انتشار كتبه في جميع أرجاء العالم.

وممن تأثر بكتاباته الكاتب الفرنسي المشهور أندريه جيد الذي كتب يقول: «لقد علمتني كتب جينو الكثير، وإن آراءه لا تُنقَض».

قلت: أعرفه جيدا، وأعرف احترام شيخ الأزهر عبد الحليم محمود له، فهل التقيت به؟

قال: أجل، ولكن على عجل، فلم يكن له من الوقت ما يحادثني فيه.

قلت: فما قال لك؟

قال: لقد قال لي بعد سؤالي عن سبب إسلامه: (أردت أن أعتصم بنص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم أجد بعد دراسة عميقة، سوى القرآن)، وقال لي: (لقد ابتعدت أوروبا عن طريق الله فغرقت في الانحلال والدمار الخلقي والإلحاد، ولولا علماء الإسلام لظل الغربيون يتخبطون في دياجير الجهل والظلام)

**حمزة يوسف:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (حمزة يوسف)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أمريكى ولد فى واشنطن لأسرة أرثوذكسية عام 1960، وهو من عائلة مثقفة؛ فوالده أستاذ لمادة الإنسانيات فى جامعة هارفارد، وأمه خريجة جامعة بيركلى العريقة، أما جده فكان عمدة لإحدى مدن كاليفورنيا.

فجأة قرر فى السابعة عشرة من عمره أن يسلم، فترك دراسته الجامعية التى كان قد أوشك على الانتهاء منها ليذهب فى جولة لعشر سنوات فى المنطقة العربية، تعلم الفقه فى الإمارات، وحفظ القرآن الكريم فى المدينة المنورة، ودرس اللغة والشعر العربى فى المغرب والجزائر، وعاش التصوف مع مرابطى موريتانيا.

أمضى عشر سنوات كاملة فى التعلم قبل أن يعود لوطنه أمريكا، ليحصل على البكالوريوس فى التمريض من Imperial Valley College ودرجة علمية أخرى فى الدراسات الدينية من جامعة San Jose State.

فى بدايات 1990 بدأ التدريس لبعض التجمعات الإسلامية فى سان فرانسيسكو، وفى 1996 أسس معهد الزيتونة الذى يقول عنه: إن من رسالته إحياء العلوم الإسلامية، وكذلك طريقة التعليم القديمة (الشيخ والتلميذ). يصدر معهد الزيتونة الكتب والمواد الصوتية التى تتحدث فى القضايا المعاصرة التى تواجه الأمريكيين.

يدرس بها ألف طالب، ولها فروع فى 6 مدن أمريكية، منها نيويورك وفيلادلفيا وهى مجموعة ثمار زيتونة يوسف. كما أن لدروسه ومواعظه الدينية تأثيرا كبيرا على مستمعيه؛ فقد وزع آلاف النسخ من دروسه التى ألقاها حول سيرة الرسول ﷺ التى شرحها فى 24 ساعة، بالإضافة لذلك فهو يسافر إلى عواصم كثيرة فى دول مختلفة فى أمريكا الشمالية وأوربا ليخاطب المسلمين وغير المسلمين معا.

وقد سألته عن سبب اختياره لاسم الزيتونة، فأجابنى: إنها شجرة غريبة جدا، فليس لها سحر معين فى مظهرها، فهى ليست سامقة ولا وارفة الظلال ولا تتميز بوفرة الخشب، ولها مظهر ذابل مما يعطى إحساسا بالشيخوخة. لكن على الرغم من كل ذلك، تمتد جذورها تمتد عشرين قدما تحت الأرض، وفى الوقت الذى تموت فيه الأشجار الأخرى تبقى الزيتونة حية نابضة، أما الثمار فإنها مفيدة جدا للإنسان، كما أن هذه الشجرة تظل تثمر مئات السنين.

قلت: لقد التقيت به إذن؟

---

(1) انظر: مقال لأحمد زين، بعنوان (حمزة يوسف.. الداعية الأمريكى المزدوج)، ولتفاصيل أكثر انظر موقع: http://www.zaytuna.org

قال: أجل.. لقد شرفنى الله بـذلك، وفور لقائى به سألته عن سر استـعجاله باعتناق الإسلام، فقد أسلم كما ذكرت لك صغيرا، فقال لى: أنا لا أدرى، سئلت هذا السؤال كثيرا، وكانت إجاباتى ليست هى الواقع دائما، وهذا يحيرنى، كل ما أستطيع قوله: إننى سمعت عن الإسلام فانشرح صدرى، وبدأت الطريق.

قلت: لقد سمعت أن بعض المسلمين اتهمك بانحيازك للغرب؟

قال: أنا منحاز لما أعـتقد أنه صائب وعادل، إذا كان ذلك على جـانب المسلمين، فأنا مع المسلمين، وإذا كان مع الغرب فأنا مع الغرب. أنا مسلم ولست قبليًا.

وفى حديث الشيخ حـمزة ـ كما صار يسمى ـ تكـثر استشهاداته بالفـلاسفة والمفكرين الغربيين، فيتحدث عن أرسطوطاليس وتعـريفه للسعادة، وأفلاطون وآرائه فى المدينة الفاضلة، وبرنارد شو وآرائه فى الإسلام، وآرنولد توينبى حين يتحدث عن فرضيته بأن أزمة حادة ستقع فى العالم بين نصفه الشمالى ونصفه الجنوبى.

وهو يهاجم المسلمين بقدر ما يهاجم أمريكا، فـهو أمريكى ثائر على مساوئ مواطنيه، ومسلم ثائر على مساوئ أهل دينه. سـمعته مرة يقول: إذا كان الناس فى أمـريكا يعتقدون أن أمريكا هى المجـتمع المثالى، فلا أعـتقد أنهم يطالعـون نفس المصادر التى أطالعها، مـعدلات الاكتـئاب والانتـحار والاغتـصاب والجريـمة ووضع المدارس والإجهـاض والتفـسخ الأسرى والطلاق.

وقد عمل مستشارا للبيت الأبيض، لكن ذلك لم يمنعه من مهاجمة بوش، فقد سمعته يقول على الملأ: الناس يظـنون أننا فى أمريكا نعيش فى ديمـقراطية، هذه كلهـا أكاذيب، من الذى أوصل بوش لكرسى الرئاسة؟! الشركات الاحتكارية الكبرى هى التى أوصلته.

وعندما سـأله فرانك جاردنر مـراسل البى بى سى قائلا: برأيك هل كان بوش صـائبا حين حارب الإرهاب؟

فأجاب حمزة: أعتقد أنه إرهاب دولة مقارنة بإرهاب الأفراد.

وبشجـاعة يعيد حـمزة تعريف الحـرب على الإرهاب، فيقـول: الحرب على الإرهاب ينبغى أن تكون حربا على الحرب. ويهز رأسه قائلا: هذا كل شىء.

لكنه فى ذات الوقت لا ينافق المـسلمين ولا يجـاملهم تخـديرا لمشاعـرهم، فهـو يرى بوضوح أن (العقـبة الأساسية أمـام الدعوة الإسلامية فى هذه الأراضى هم المسلمـون أنفسـهم بسـلوكياتهم)

ويشخـص مرضهم فـيقـول: صراحـة إن الذين هاجروا هاجـروا بمشاكلهم، وعـمروا مساجدهم بها، والمسلم الجديد يتعب جدا من هذه التناقضات.

وقد رأيت ألمه الشديد بعد أحداث 11 سبتمبر التى صدمته تماما، وكان أقرب إلى المفجوع حتى إنه أخذ قرارا بإغلاق معهد الزيتونة مؤقتا؛ ليتفرغ لمخاطبة صناع القرار والمسئولين المحليين، والظهور فى القنوات التلفزيونية لمحاولة توضيح الحقائق عن الإسلام.

وهو يحب التجديد ويجيد مخاطبة الجمهور، وهو صاحب فكرة برنامج (يللا شباب) الذى يذاع على mbc، وهو البرنامج الذى نجح فى مخاطبة جماهير الشباب من خلال محتوى دينى جذاب. وهو ما أكده خالد طاش أحد معدى البرنامج لجريدة الوطن السعودية، حيث أشار إلى أن فكرة البرنامج نبعت من نصيحة قدمها الشيخ حمزة يوسف أشار فيها إلى ضرورة البحث عن وسيلة إعلامية جادة تتصل بالشباب المسلم، وتقدم له جرعات ثقافية ومعرفية، بعيدا عن الإعلام الاستهلاكى.

ومن المعروف أن الشيخ حمزة يقدم برنامجا اسمه (رحلة مع حمزة يوسف)، واشترك فى بعض حلقات (يللا شباب)، حيث تجول مع فريق البرنامج فى عدد من المدن الإسبانية للحديث عن حضارة المسلمين ومعالمها. وكذلك التقى مع عدد من الشخصيات المؤثرة فى مسلمى الغرب، مثل يوسف إسلام الفنان البريطانى.

ورغم هذا التجديد فى الخطاب، فهو يقول: ليس من حق الجاهل أن يتكلم فى الدين، لا بد أن يتعلم المسلم على يد الشيوخ، الآن كل واحد يفتح كتابا ويفتى، أنا لا يمكن أن أذهب إلى الطبيب وأسأله أين تعلمت الطب فيقول من الكتب، هذا لا يمكن أن أسلمه بدنى، لا بد أن يتعلم على يد أطباء حتى يتعلم كيف يجرى العملية، كل علم لا بد أن يؤخذ عن الشيوخ، الآن الإسلام يؤخذ من الكتب فقط.

ويدافع عن رأيه بقوله: هذا ليس احتكارا، وإنما بحكم: ﴿...فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل]، بين الصحابة قليل جدا من كان يفتى مع أنهم تربوا عند رسول الله، هذا لم يكن احتكارا.

والجانب الملفت فى شخصية الشيخ يوسف هو صوفيته، فللتصوف تأثير كبير عليه، يظهر ذلك فى استشهاداته بكثير من آراء أهل التصوف، كما أن أحد مشروعاته المهمة التى أنجزها بعد سنوات من العمل المتحمس ترجمة بردة البوصيرى إلى الإنجليزية، والتى تمت فى يونيو 2002.

وهو يرد على من ينكر التصوف فيقول: التصوف كعلم، علم السلوك والأخلاقيات من لب الإسلام، أما الطرق والشيوخ فهذا شىء آخر.

ويرد على الشبهات التى تثار حول هذا، فيقول: يقولون ما من أحد من الصحابة كانوا يعرفون كلمة تصوف، وهل كان منهم من يعرف النحو، أو التجويد، أو أصول الدين أو أصول الفقه؟! كلها مصطلحات ومسميات استجدت لتقنين العلوم.

**جان مونرو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البـابا فى هذا الفصل اسم (جان مونرو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ الأدب الإنجليزى فى الجـامعة الأمريكية ببيروت، والذى درس فى جامعات (نورث كاروليـنـا) و(لندن) و(تورنتو)، ووضع خمسة عشر كتابًـا معظمها يدور حول المواضع التى يدرسها، فضلاً عن أنه كـتب حول موضوعات متنوعة تتعلق بالحيـاة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى منطقة الشـرق الأوسط، وآخر كتبه هو (التجارة والإسلام فى منطقة الشرق الأوسط).

وقـد عاش بين المسلـمين فى لبنان عـشـرين عامًا بحكم عـمله رئيسًا لقـسم الأدب الإنجليزى فى الجامعة الأمريكية فى بيروت. . عـرف فى أثنائها طبيعة وسلوك المسلمين، وتبين له خطأ التصوّر الذى كان يحمله معه عند ذهابه إلى لبنان، فقد كان يسيطر على مخيلته بعض الأضاليل والافتراءات على الإسلام والمسلمين، والتى كانت منتـشرة بصورة كبيرة فى الغرب، مثـال ذلك أن الحرب المقدسـة عند المسلـمين هى العـدوان على كل من لا يؤمن بعقـيدتهم الإسلامية[1].

لكنه بعـد أن قـرأ بإمعـان التـاريخ الإسلامى، اتـضح له بجلاء أن الإسـلام عـقيـدة متسامحة، ودين لا يُفرض على الآخرين بالإكراه.

قلت: فهل التقيت به؟

قال: أجل. . لقد التقيت به فى بيروت، وكـان من جوابه لى عن سر اعتناقه للإسلام قوله: أريد القـول: إن حظّى كان كـبيرًا، لأن الفـرصة قد أتاحت لى الـدراسة، ولكن ليس بطريقـة أكاديميـة، وإنما عن طريق اتصـالات الصداقـة مع مجمـوعة من الناس الذيـن كانت مهمتهم تنوير الناطقين بالإنجليزية بحقيقة طبيعة العقيدة الإسلامية، فضلاً عن ذلك أننى قرأت كل ما وصلت إليـه يداى. كما أننى ناقـشتُ مع الذين أعمل مـعهم بعض القضـايا التى يُثار الجدل حولها، وبهـذه الطريقة توصلت إلى طبيعة وحقيـقة الإسلام، ليس على أنه نظام يجب دراسته ـ وهى الطريقة التى يـتبعها معظم الغربيـين فى معرفة الإسلام ـ ولكن كعقـيـدة فعالة، ومنهج وطريق للحـياة، وكنت فى بداية الأمـر مهتـمًا بهـذه الأمور، أمّا الآن فـإننى أُكنُّ كل احترام وتقدير للإسلام وأتعاطف معه.

قلت: فما أثر الإسلام فى حياتك؟

قال: إننى أعتقد أن تجربتى المشتركة مع المسلمين قد جعلتنى أكثر تسامحًا من قبل. كما أن تلك التجربة قد جعلتنى مدركًا لبعض الأمور التى تحيط بى أكثر من الماضى.

---

(1) انظر تفاصيل الرد على الشبهات المرتبطة بهذا فى رسالة (سلام للعالمين)، ورسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

بالإضافة إلى هذا، أصبحتُ متفهمًا لوضع المرأة فى الإسلام، على عكس ما يعتقد الغربيون ـ بصورة خاطئة ـ من أن المسلمين يعتبرون النساء كائنات دنيا ووضيعة، فى حين أن الحقيقة أن النساء فى ظل الإسلام يتمتعن بتلك الحقوق والامتيازات التى يجب أن يتمتعن بها، يكفى أن هناك سُوَرًا عديدة فى القرآن الكريم تثبت وجهة نظرى هذه.

قلت: فما أهم الدروس التى تعلمتها من الإسلام؟

قال: كثيرة جدا، لا يمكننى إحصاؤها.

ثم تأمل قليلا، وقال: لعل أهم درس تعلمته من الإسلام هو عدم الجدوى من التذمر من أمور هى فوق طاقتنا لتغييرها أو تبديلها. فالإنسان ليس قادراً على كل شىء، مع أنه يتمتع بصفات خارقة تميزه عن بقية المخلوقات، ولكن عليه إدراك ضرورة الإذعان إلى قوة خارج طاقته، وأن التذمر من ذلك يؤدى إلى الفشل والإخفاق والحزن، فى حين أن الإنسان الذى يدرك مكانه الحقيقى فى هذا الكون يكون هادئًا مطمئنًا يشعر بالراحة مع نفسه وعالمه المحيط به.

سكت قليلا، ثم قال: إنَّ فَهمَ الإسلام لا يكون إلا بمعايشته، وما يؤخذ على الأوربيين هو أنهم لا يُعايشونه، لذلك فإنهم عندما يصلون إلى مرحلة التقييم الفكرى للإسلام فإنهم يصلون إلى ذلك بواسطة طريقة أكاديمية، ولذلك فإن العديد من علماء الغرب الذين يعتنقون الإسلام يعتبرهم زملاؤهم شواذًا، لأن الأوربى العادى يعتبر الإسلام دينًا دخيلاً وغريبًا أكثر من اعتباره عقيدة حيوية.

**ميجيل بيرو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ميجيل بيرو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ جامعى إسبانى كره الحرية المنفلتة فى أوروبا، والانحلال، وعدم الترابط الأسرى، وكثرة الجرائم والانحرافات التى سادت المجتمعات الغربية، وأتيح له أن يقرأ عن وضع الإسلام لضوابط السلوك وللمعايير الأخلاقية فى المعاملات.

وأتيح له بعد ذلك أن يلتقى بمجموعة من الإسبانيين المسلمين، وعن طريقهم أتيح له إمكانية قراءة ترجمة معانى القرآن بالأسبانية، فاستشعر بميل قوى تجاه الإسلام، فواصل قراءاته المكثفة عنه حتى اقتنع تمامًا بتعاليمه ومنهاجه، بعدها قرر أن يشهر إسلامه، ويختار لنفسه اسم (نصر الدين)

قلت: فهل التقيته؟

قال: أجل.. لقد التقيت به فى القاهرة التى كان يعمل أستاذا بجامعتها، وقد سألته عن سر إسلامه، فقال: لقد التقيت بمجموعة من الإسبانيين المسلمين، وعن طريقهم أتيحت

لى إمكانية قراءة ترجمة معانى القرآن، كما قرأت عن التراث العربى القديم فأعجبت به، بعدها قررت أن يكون الإسلام دينى.

وقد قام أحد أصدقائى بترجمة كتاب (المحظورات) للشيخ (ياسين رشدى) واستفدت منه كثيرًا، وسمعت صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد فى قراءة القرآن وأحببته كثيرًا.

وبالرغم من القليل الذى عرفته عن الإسلام؛ فإننى أتمنى من كل قلبى أن يهتدى إليه الناسُ أجمعون، وسأعمل على الدعوة إلى الإسلام، وسوف ابتدىء بعائلتى والمقربين إلىَّ إن شاء الله.

سكت قليلا، ثم قال: إننى أحافظ على أداء الفروض فى مواقيتها، وعلى صلاة الجمعة التى أشعر براحة نفسية كبيرة عند أدائها، وإننى أعرف أهمية خطيب المسجد، والدور الكبير الذى يقوم به تجاه المسلمين، مثل مساعدتهم على فهم القرآن الكريم، وشرح الأحاديث النبوية، بجانب إرشادهم وتجميعهم على طريق الخير والصلاح.

وعند سؤالى له عن أحلامه المستقبلية قال: إننى حريص على تعلم اللغة العربية وإتقانها حتى يتسنى لى قراءة القرآن بلغته الأصلية، وبالتالى محاولة فهم معانيه، لأن ترجمته إلى اللغات المختلفة تؤدى إلى تضارب المعنى وعدم الوضوح.

وبهذه المناسبة أنبه إلى أن الكتب التى تُرجمت إلى الإسبانية عن الإسلام ليست دقيقة فى مضمونها، خصوصًا بعد ما ترجم أحد الأسبان ـ وهو مسيحى يدعى (جان فونت) ـ معانى القرآن إلى الإسبانية بطريقة بعيدة كل البعد عن النص القرآنى أو معناه، مما جعل الذين اطلعوا على هذه الترجمة من الأسبان يقولون: إن الإسلام دين غريب! ومما يدعو للأسف والأسى ما جاء فى تلك الترجمة الأسبانية على يد ذلك المترجم، وعلى الأخص (سورة الناس) التى ترجمها إلى (سورة الرجال) وأخلَّ بمعناها وبمضمونها[1].

وعن سؤال حول المسلمين فى إسبانيا أجابنى بقوله: بالرغم من أن المسيحية هى الديانة المنتشرة فى إسبانيا، فإن حرية الأديان متاحة للجميع، ولكن الإسلام ـ كما فى كثير من الدول الأوربية ـ يظل محدود الانتشار، مما يتطلب تنشيط حركة الدعوة الإسلامية ودعم أنشطتها ووضع كافة الإمكانيات فى سبيلها.

---

(1) نتعجب من هيئات الرقابة على المصاحف فى الدول الإسلامية من اهتمامها الشديد بالنسخ العربية مع الإهمال الشديد للترجمات المختلفة، وكأنها لا تمت بصلة للقرآن.

وبهذه المناسبة ندعو أولياء الأمور إلى أن يخضعوا تراجم القرآن إلى هيئات رقابة مشددة بحيث تصادر كل الترجمات التى لا تتوافق مع ما جاء فى القرآن الكريم، مثلما تصادر النسخ العربية التى تحتوى على أخطاء.

وهذا لا يصطدم مع حرية التعبير، لأنه لم يتكلف أحد من المسلمين بترجمة الكتاب المقدس، بل تركوه للمسيحيين، احتراما لهم.

**فيلى بوتولو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (فيلى بوتولو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لعالم نفس ألمانى، وهو أستاذ علم النفس بجامعة (ميونيخ) بألمانيا الغربية، وقد اختار أن يسمى بعد إسلامه باسم (أبى الحسن) لحبه لأبى الحسن الشاذلى.

وقد درس القرآن الكريم، وتعمق فى دراسة التصوف الإسلامى بحكم تخصصه كباحث فى الظواهر المختلفة فى الأديان، وقد التقيت به وسألته عن سر إسلامه، وكان من جوابه لى قوله: إننى وجدتُ فى الإسلام راحة نفسية، لم تفتقدها ألمانيا الغربية فحسب، وإنما تفتقدها أوربا كلها.

ثم قال لى: إن شعورى بانجذاب للإسلام كان منذ فترة طويلة، ولكن أراد الله تعالى أن يكون عملى كأستاذٍ لعلم النفس بجامعة (ميونيخ) مدخلاً لاعتناقى دين الإسلام، فمن خلال عملى بدأت مرحلة البحث والدراسة حول الأديان كافة لمختلف دول العالم، والظواهر الغريبة فى كل الأديان.

وعند دراسة الإسلام شد انتباهى ما وجدته فى القرآن أولاً، وفى كتب التصوف ثانيًا، من شرح لأصول العقيدة ومناهج الإسلام، فعكفت على دراسة التصوف فترة غير قصيرة، حتى انتهيت إلى حقيقة مهمة؛ وهى أن الإسلام يهتم بعلاج الإنسان ظاهراً وباطنًا، فهو دين يدعو إلى نظافة الظاهر وطهارة الباطن، ويربى فى الإنسان حب الأخوة والترابط والتآلف، بعكس ما نجده فى المجتمعات الغربية، حيث يعيش كل إنسان فى عالمه الخاص، لا تربطه بالمجتمع روابط روحية أو علاقات دينية، كما يحدث عند المسلمين.

وعرفت من خلال دراستى للتصوف أن المتصوفة يجتمعون لذكر الله، ويلتقون على حبُّه، ويسيرون فى طريق النقاء الروحى والوجدانى، ويتلون أورادًا معينة بعد كل صلاة، مما يجعلهم مشدودين دائمًا إلى تعاليم السماء.

قلت: ألم تجد فى مجتمع الكنيسة مثل هذا المجتمع؟

قال: من الصعب أن تجد فى أوربا مجتمعًا يتسم بهذه الصفات، ولهذا وجدتُ نفسى مدفوعًا إلى اعتناق الإسلام. . ولكننى رأيت من الضرورى والضرورى جدًا ـ أن أظل مسلمًا فى السر لمدة عام كامل، لأنك إن أردت أن تدخل الإسلام فى بلد كل وسائل الإعلام فيه موجهة ضد هذا الدين الحنيف، لكان ذلك صعبًا جدًا، ولكن بعد أن رسخت العقيدة فى نفسى أعلنت إسلامى بصراحة، ولم أخش الذين يُحاربون الإسلام.

ثم اختتم قوله بحماس ـ وهو يشير بأصبعه إلى بعيد ـ: إننى أؤكد أنه بدون القرآن، وبدون التصوف الذى يُعَدُّ فرعًا من علم النفس الذى أدرسه فى الجامعة؛ لم يكن بمستطاعى أن أُغيرَ دينى؛ ولذا فلقد غيرت دينى عن ثقة واقتناع تام.

قلت: فما أثر الإسلام فيك؟

قال: لقد تغيرت حياتى اليومية بعد الإسلام تمامًا، وانتظمت انتظامًا عجيبًا، فقد كانت في الماضي بلا هدف، أما الآن فقد أصبح لها معنى، ولها هدف ولها حلاوة. لقد أصبحتُ أخاف الله فى كل تصرفاتي، وأعرف أن لى ربا سوف يُحاسبنى فيما أفعله فى أى وقت.

**عبد الله كويليام:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هـذا الفصل اسم (عبد الله كويليام)، فسألت البابا عنه، فقـال: هذا اسم مفكر إنجليزى، ولد سنة 1856، وأسلم سنة 1887، وتلقب باسم: (الشيخ عبد الله كويليام). من آثاره: (العقيدة الإسلامية)، و(أحسن الأجوبة).

قلت: لا شك أنك لم تلتق به؟

قال: لا شك في ذلك، ولكنى من خلال كتبـه استطعت أن أتعرف على سر إسلامه، فمن مقـولاته في كتبه: (من الوجـه العلمى، بصرف النظر عن أنه كتاب مـوحى به، فالقرآن أبلغ كتاب فى الشرق، وهو حافل بالمنجزات السامية ملىء بالاستعارات الباهرة)[1].

ومنها قوله: (أحكام القـرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبيـة والدينية؛ إنه القانون العام للعالم الإسلامى، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائيـة. ثم هو قانون دينى يدار عـلى محوره كل أمـر من الأمور الدينيـة إلى أمور الحـياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقـوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتـماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص فى هذه الدنيا إلى القصاص فى الآخرة. وعلى ذلك فالقرآن يختلف ماديًا عن الكتب المسيحية المقدسة التى ليس فيها شىء من الأصول الدينية بل هى فى الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم فى الأمور التعبدية. . وهى غير معقولة وعديمة التأثير)[2].

ومنها قوله: (لقد عثرت فى دائرة المعارف العامة popular Encyclopedia على نبذة نصها كمـا يأتى (أن لغة القرآن مـعتبرة بأنـها من أفصح ما جـاء فى اللغة العربيـة، فإن ما فـيه من محاسن الإنشاء، وجمـال البراعة، جعله باقيًا بلا تقليد ودون مثيل. أما أحكامـه العقلية فإنها نقية زكية إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية)[3].

ومنها قـوله: (هذا القرآن الذى هو كتاب حـكمة فمن أجال طرف اعـتباره فيـه وأمعن النظر فى بدائع أسـاليبه ومـا فيها من الإعـجاز؛ رآه وقد مـر عليه من الزمـان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول فى هذا العصر، إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع ومع إيجازه مفيد للمرام

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص 119 - 120.

(2) العقيدة الإسلامية، ص 122 - 123.

(3) العقيدة الإسلامية، ص 138.

بالتمام. وكـما أنه كان يرى مطابقًا للكلام فى زمن ظهـوره لهجة وأسلوبًا كذلك يرى مـوافقًا لأسلوب الكلام فى كل زمن ولهـجة، وكلمـا ترقّت صناعة الـكتابة قـدرت بلاغته وظـهرت للعقول مزاياه. وبالجـملة فإن فصاحته وبلاغتـه قد أعجزت مصاقع البلغاء، وحيـرت فصحاء الأولين والآخرين، وإذا عطفنا النظر إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجده جامعًا لجـميع ما يحتاجه البشـر فى حياته وكماله وتهذيب أخلاقه. وكـذا نراه ناهيًا عما ثبت بالتجارب العديدة خـسرانه وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخـلاق. وكم فيه ما عدا ذلك أيضًا مـا يتعلق بسـياسة المدن وعـمارة الملك، وما يضـمن للرعية الأمـن والدعة من الأحكام الجليلة التى ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلاً عن القول)[1].

ومنها قـوله: (إن من ضمن محـاسن القرآن العديدة أمـرين واضحين جدًا؛ أحـدهما علامـة الخشوع والوقار التى تـشاهد دائمًا على المسلمـين عندما يتكلمون عن المولى ويشـيرون إليه، والثانى خـلوّه من القصص والخرافات وذكر العـيوب والسيئـات وإلى آخره، الأمر الذى يؤسف عليه كثيرًا لوقوعه بكثرة فيما يسمـيه المسيحيون (العهد القديم)[2].

ومنها قـوله: (كان مـحمـد على أعظم ما يكون من كـريم الطباع وشـريف الأخلاق ومنتهى الحياء وشدة الإحـساس. وكان حائزًا لقوة إدراك عجيبة وذكاء مـفرط وعواطف رقيقة شريفـة. وكان على خلق عظيم وشـيم مرضيـة مطبوعًا على الإحـساس)[3] ومنها قوله: (إن بعض كتـاب هذا العصـر الحاضـر كادوا أن يعرفـوا بأن الطعن والقدح والشـتم والسب ليس بالحجة ولا البرهان، فسلموا بذكر كثير من صفات النبى السامية وجليل أعماله الفاخرة)[4].

ومنها قوله: (ما اهتدى مئات الملايين إلى الإسلام إلا ببركة محمد الذى علمهم الركوع والسجود لله، وأبقى لهم دستورًا لن يضلوا بعده أبدًا وهو القـرآن الجامع لمصالح دنياهم وخير أخراهم)[5].

ومنها قوله: (لما شرف مـحمد ساحة عالم الشـهود بوجوده الذى هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى؛ إلى اعتلاء النوع الإنسانى وترقيه فى درجـات المدنية أكمل ما يحتاجه البشر من اللوازم الضرورية؛ على نـهج مشروع، وأوصل الخلق إلى أقصـى مراتب السعادة بسـرعة خارقة، ومن نظر بعـين البصيرة فى حال الأنام قـبله عليه الصلاة والسلام ومـا كانوا عليه من الضلالة، ونـظر فى حالهم بعد ذلـك وما حصل لهم فى عـصره من التـرقّى العظيم رأى بين الحالين فرقًا عظيمًا كما بين الثريا والثرى)[6].

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص 139 - 140.

(2) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبة، ص 23 - 26.

(3) العقيدة الإسلامية، ص 96 - 97.

(4) العقيدة الإسلامية، ص 113 - 114.

(5) العقيدة الإسلامية، ص 38 (عن لوزون فى خطبته المذكورة).

(6) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص 21 - 22.

ومنها قـوله: (امتدت أنوار المدنيـة بعد محـمد فى قليل من الزمان سـاطعة فى أقطار الأرض من المشرق إلى المغـرب حتى إن وصول أتباعـه فى ذلك الزمن اليسيـر إلى تلك المرتبة العلية من المدنيـة قد حيّر عقـول أولى الألباب. وما السـبب فى ذلك إلا كـون أوامره ونواهيه موافقة لموجب العقل ومطابقة لمقتضى الحكمة)[1].

ومنها قوله: (ليـس بين الأديان أقـرب للفهم من الدين الإسلامى للذين يفقهـونه، كما أنه ليس بينها أثبت ولا أرفق منه. فهو بقاعـدتيه: وحدانية الله والجزاء الآجل؛ يمنح القلوب حقوقها من السكينة والارتياح ويذهب بالإرادة المذهب الذى يلائمها وتحتاج إليه بدون أن تسوم العقل قـيود هو بالطبع يأباها. وليس فى الاكتـشافات العلمـية الحديثـة، ولا فى المسائل التى انتهى حلهـا والتى تحت الحلّ ما يغاير مـثل هذه الحقائق الإسـلامية الوضاءة والسـهلة المأخذ. ولهذا فإن التوفيق الذى نبذل كل جهدنا معاشر المسيحيين لإيجاده بين العقل والاعتقاد فى ديننا المسيـحى هو سابق موجود فى الديانة الإسـلامية. وإننى بكلامى هذا عن الدين المسـيحى إنما أشير إلى تلك الزيادات الموافقة وغيـر الموافقة التى أدخلت على نصرانية الإنجيل؛ التى هى فى الحقيقة كإسلام القرآن).

ومنها قوله: (إن الشريعـة المحمدية تشمل الناس جميعًـا فى أحكامها، من أعظم ملك إلى أقلّ صـعـلوك فهـى شريعـة حيكت بـأحكم وأعلم منوال شرعـى لا يوجد مـثله قط فى العالم)[2].

ومنها قوله: (إن الأساس المهم والمبدأ العظيم فى الإسـلام؛ هو الاعتقاد بإله واحد فى وحدانيته، ونبذ الخرافات بأى وجه كانت)[3].

ومنها قولـه: (مهما ارتقى العقل فى درجـات الكمال فليرتقِ، فإنـه لا يخرج عن حدّ تلك الأحكام الجليلة، أعنى الأحكام التى انطوت عليهـا الشريعة الإسلامية، فـاتباعها فى كل زمان ضرورى لا محيص للعقل عنه)[4].

ومنها قوله: (إن سرعة انتشار الإسلام فى العصر الحديث يرجع إلى عدم الخلط والخبط فى أصوله وبنيانه؛ الأمر الذى جـعل له مكانًا ثابتًا فى قلوب أهله وكل من تدين به. بخلاف النصرانية فإنها مزعـزعة الأركان قلّما يكون لها ثبات عند الإنسـان لما فيها من التـبديل والتغيير والتحريف والتحوير. لقد أفاد الإسلام التمـدن أكثر من النصرانية ونشر راية المساواة والأخوة، وهذه الأدلة نذكرها نقـلاً عن تقارير الموظفـين من الإنجليز. وعن ما كـتبه أغلب السـيّاح عن النتائج الحـسنة التى نتجت من الدين الإسلامى، فـإنه عندما تتدين به أمة من الأمم السـودانية

(1) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص 22- 23.

(2) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 62، (عن لوازون فى خطبته المذكورة)

(3) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 123، (عن كتاب شكوى وارن هاستنج، لإدماند بورك)

(4) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 129 - 30.

الإفريقية تختفي من بينها في الحال عبادة الأوثان واتباع الشيطان والشرك، وتحرم أكل لحم الإنسان وقتل الرجال ووأد الأطفال وتضرب عن الكهانة، ويأخذ أهلها في أسباب الإصلاح وحبّ الطهارة اجتناب الخبائث والرجس، والسعي نحو إحراز المعالي وشرف النفس، ويصبح عندهم قِرى الضيف من الواجبات الدينية، وشرب الخمر ولعب الميسر من المحرمات، والرقص القبيح ومخالطة النساء دون تمييز منعدمة، يحسبون عفة المرأة من الفضائل ويتمسكون بحسن الشمائل)[1].

ومنها قوله: (زعم عدد من الكتاب الغربيين أن الإسلام في شرقي أفريقيا قائمة قواعده الأساسية على التجارة في الرقيق وجميع وسائل القسوة والانحطاط. إن روايات كهذه مجردة بالمرة عن الحقيقة، لا يمكن تصديقها وتصور وقوعها وإني بدون تردد أثبت وأقول عن سعة خبرة واطلاع عن شرقي أفريقيا وأواسطها بما ليس في إمكان أولئك الكتاب أن يأتوا بمثله: أنه لو كان للنخاسة وجود في هذه البقاع فما ذلك إلا لأن الإسلام لم يدخل فيها وبرهان ذلك أن الإسلام من خصائصه إبطال النخاسة إبطالاً دائمًا)[2].

ومنها قوله: (لنزدلف الآن إلى غربي أفريقيا والسودان الأوسط - حيث أتاحت لي الفرص زيارة هذه الجهات - فأقول إننا إذا قلبنا الطرق وأجلنا النظر نجد الإسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط وتتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام كما كان في أيامه الأولى. فترى الناس تدخل فيه أفواجًا أفواجًا وتقبل عليه بإقبال عجيب يشبه أيامه السالفة. وأن دعاة الدين المسيحي يحاولون قلب الحقائق، وإلقاء تبعة آثام النخاسة على عاتق الإسلام. وتراهم لقصورهم عن إدراك مزايا هذا الدين المبين يصفون انتشاره بداهية دهماء على الأفريقيين ويقولون - كما لقن إليهم في حداثتهم - بأن دين محمد لم تقم له قائمة إلا بقوة النار والسيف. هذه هي التخيلات المطبوعة في أذهانهم والتي يشيعونها عن انتشار الإسلام، وهي على ما أظن تصورات توارثوها جيلاً عن جيل)[3].

ومنها قوله: (على هذا المنوال انغرست بذور المدنية بين عدة قبائل همجية في أفريقيا؛ ونما فيه الإسلام نموًا هائلاً إلى حد رنّ فيه صدى هذه البلاد وملأ الآفاق، وهاهو يقام فيها في الصباح والظهر وما يلي ذلك من الأوقات كلمة النداء في الإسلام - الأذان - فبعد ما كان الناس يسجدون للأشجار ويعبدون الأحجار صاروا يسجدون الآن لله الواحد القهار)[4].

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص 15 - 17 عن: (كانن إسحاق تيلي في خطبة له بمؤتمر الكنيسة الإنجليزية بتاريخ 7 أكتوبر سنة 1887، نشرت بجريدة التايمس في اليوم التالي).

(2) العقيدة الإسلامية، ص 26 - 27 عن: المستر جوزيف تومبسن J Tompson الرحالة الإنجليزي الشهير، جريدة التايمز، 14 نوفمبر 1887).

(3) العقيدة الإسلامية، ص 29 - 30 (عن مقال تومبسن المذكور).

(4) العقيدة الإسلامية، ص 32 - 33 (عن مقال تومبسن المذكور).

ومنها قوله: (أضاء نور الحضارة الإسلامية على العالم من سماء بغداد ومن قرطبة. إذ من المعلوم أنه فى ذلك العهد الذى بلغت فيه تلك الحضارة إلى الغاية التى لا تدرك كانت أوروبا فى دياجى الجهالة، وكان الرهبان يرحلون لأخذ العلم للبلاد الأندلسية.. وبالجملة فديانة الرجل الذى يقول (اطلب العلم ولو فى الصين) تحرص على السعى لا على السكون)[1].

ومنها قوله: (هاهى الحوادث والأحوال قد برهنت على ما للقرآن أمام أعين الذين يفقهونه من صفات القابلية للعلم والترقى والحضارة، حيث قامت فى العالم الإسلامى حضارات فاخرة باهرة مثل حضارة بغداد وتمدن قرطبة الذى فات بكثير ما كان يعاصره من تمدن الغرب - إن صحّ أن لا نسمّى ما كانت عليه حالة الغرب وقتئذ بالهمجية - وحينذاك لم يهدم المسلمون آثار اليونان العلمية بحريق مكتبة الإسكندرية الموهوم، بل هم نقلوا إلى لغتهم آثار أرسطو التى عادت بأحسن الفوائد على مدارسنا الغربية فى القرون الوسطى؛ التى لم تصلنا إلا بواسطة المسلمين وعن أيديهم، فضلاً عن أن علماء العرب كانوا أساتذتنا فى سائر أنواع المعارف من الجبر (والاسم نفسه يرشد لذلك) إلى الطب، حتى إن أحد أعاظم باباواتنا (سلفستر) رحل إلى الأندلس، فحصل فيها من العلوم والمعارف ما أدهش وبهر سائر معاصريه)[2].

ومنها قوله: (إن زعماء النصرانية أبدلوا دين المسيح بما كانت ترمى إليه أهواؤهم، وأوجدوا عقائد أخرى من تلقاء ذاتهم، وتظاهروا فى مقاومة الشهوات البشرية بالرهبنة والعزوبية.. واتخذوهما ستارًا للفسق، ولأعمالهم التضليلية؛ حتى ضل الناس وأشركوا بالواحد القهار، واتخذوا لفيفًا من هؤلاء القديسين والرهبان أربابًا من دون الله، فلما جاء الإسلام استأصل شأفة هذه الخزعبلات، وقضى على جميع الأباطيل والترهات، وأقيمت الحجة الثابتة على استهجان العزوبية، واعتبار الزواج كدليل للتقوى الحقيقة، وأنه من أوليات القواعد الدينية، إذ فيه بيان قدره الخالق ووحدانيته وجلاله. فالإسلام هو الذى حضّ على الزواج وأبطال الرهبنة)[3].

ومنها قوله: (أما تعدد الزوجات فإن موسى لم يحرمها، وداود أتاها وقال بها ولم تحرم فى العهد الجديد (أى الإنجيل) إلا من عهد غير بعيد. ولقد أوقف محمد الغلوّ فيها عند حدّ معلوم. وعلى كل حال فإن مسألة تعدد الزوجات أمر شاذ كثيراً عن الدستور المعمول به فى

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص 40، عن (لوازون فى خطبة القاها بتونس ونشرت بجريدة الحاضرة التى تصدر فى تونس بتاريخ 3 ديسمبر سنة 1895).

(2) العقيدة الإسلامية، ص 62 - 63.

(3) العقيدة الإسلامية، ص 19، (كان إسحق تيلر فى خطبة له بمؤتمر الكنسية الإنجليزية بتاريخ 7 أكتوبر سنة 1887، نشرت بجريدة التايمس فى اليوم التالى).

البلاد الإسلامية المتمدنة. وهو بكل ما قيل فيه من القول الهراء لا يخلو من الفائدة فقد ساعد على حفظ حياة المرأة، وأوجد لها في الشريعة حسن المساعدة. وتعدد الزوجات في البلاد الإسلامية أقلّ إثمًا وأخفّ ضرراً من الخبائث التي ترتكبها الأمم المسيحية تحت ستار المدنية. فلنخرج الخشبة التي في أعيننا أولاً ومن ثم نتقدم لإخراج القذى من أعين غيرنا)[1].

ومنها قوله: (جاء في القرآن ﴿ ...فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً... ﴿٣﴾ ﴾ [النساء]. فيما يتعلق بمسألة تعدد الزوجات التي تنتقدون فيها المسلمين ظلمًا وعدوانًا. إذ لا شك في أنكم تجهلون عدل النبي بين أزواجه (رضوان الله عليهن) وحبه لهنّ حبا مساويًا، مما علم المسلمين الانتماء والإنصاف بينهن. على أن القرآن لم يأمر بتعدد الزوجات بل جاء بالحظر مع الوعيد لمن لا يعدل في الآية المتقدمة، ولذلك ترى اليوم جميع المسلمين منهم القليل لا يتزوجون إلا امرأة واحدة خوف الوقوع تحت طائلة ما جاء من الإنذار في القرآن المجيد. وإذا سلّمنا على العموم بأن عدم تعدد الزوجات أوفق للمعاشرة الدنيوية من تكرارهن، فلا نسلم بالاعتراف بذلك على الوجه المتعارف اليوم بأوروبا من حصر الزواج في امرأة واحدة إذعانًا للقانون، واتخاذ عدة زوجات أخرى غير شرعيات من وراء الجدار)[2].

ومنها قوله: (ورد في القرآن نصوص كثيرة تثبت أن النساء لا يعاقبن في الدار الآخرة فقط على ما أتين من سيئ الأعمال؛ بل كذلك يجازين خير الجزاء على ما يعملنه من طيب أعمالهن بمثل ما يكون للرجال. وعلى ذلك نرى أن الله سبحانه لا تمييز عنده في الإسلام بين الأجناس)[3].

**مارك شليفر:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارك شليفر)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ لعلم الصحافة بجامعة (نيويورك)، وقد عمل فترة بالمغرب مراسلاً للإذاعة الأمريكية، ولعدد من المجلات في (نيويورك).. وقد اعتنق الإسلام، وقد سألته - في لقائي به - عن سر اعتناقه للإسلام، فكان من جوابه لي قوله: لم أكن ملتزمًا بدين معين، مع أنني أنتمي إلى أسرة مسيحية كاثوليكية.. وكانت فترة إقامتي بالمغرب مفتاح السعادة لي ولأسرتي، فقد رأيتُ عالمًا جديداً يختلف كليةً عن العالم الذي تركته خلفي في الولايات المتحدة الأمريكية، وما لمسته عن كثب من جمال وروعة السلوك الإسلامي شدني إلى شريعة الحق.

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص22 - 23 عن (تيلر في خطبته المذكورة).

(2) العقيدة الإسلامية، ص 38 - 39 عن (لوازون في خطبة ألقاها بتونس، ونشرت في جريدة الحاضرة التي تصدر في تونس بتاريخ 3 ديسمبر سنة 1895)

(3) العقيدة الإسلامية، ص 143.

لقد تعثرت قـدمى فى حفرة ذات يوم حينما خرجت لأول مـرة إلى سُوق شعبى بمدينة الرباط، وعلى الفـور وجـدتُ عدداً من المغـاربة يسـارعـون إلىَّ لمساعـدتى على النهـوض، ويسألوننى فى لهفة عمّا إذا كنت قد أُصبت بسوء.

ومرضتُ ذات مرة، فوجدت عشرات من جيرانى ومعارفى يأتون لزيارتى، ويحاول كل منهم أن يصنع لى شـيئًـا، فدهشت لهـذا السلوك الإنسـانى الذى لم أجد له نظيـراً فى بلدى أمريكا، حـيث الكل لا يهتم إلا بنفـسه، وطابع الحيـاة المادية البحتـة هناك يصبغـهم جميـعًا بالأنانية، ولهذا لايكترثون بما يصيب الآخرين. فـالمرء عندنا يكون محظوظًا إذا ساعده أحدٌ أو زاره أهله فى أثناء مرضه، أو حتى سألوا عنه!

ولذا فإننى حـين سألتهم عن الدافع الذى يحـملهم على صنع كل هذا من أجلى بدون مقـابل أجابوا جميـعًا: إن هذا هو ما يفرضـه عليهم دينهم الإسلامى، ويأمـرهم به رسولهم العظيم محمد ﷺ.

قلت: لقد كان سلوك المسلمين الطيب هو الذى جذبك إلى الإسلام إذن؟

قال: لقد كان ذلك دافعا، ولـم أكتف به، بل رحـت أبحث عن الحقيقة من مصادرها. وبعد مناقشـات طويلة واسعة مع عشرات من علـماء الإسلام تعلمت خلالها الكثـير من أمور الإسلام، ازداد إعجابى به أكثر، ومع مرور الوقت وجدت عـقيدة التوحيد تملأ عقلى وقلبى؛ ومن ثم انكببت أدرس ترجـمة لمعانى القـرآن الكريم، وأستوعب مـا بها حتى وجـدت نفسى تتوجه إلى الله أن يهدينى إلى الطريق المستقيم.

وبينما أنا أقلب صفحات القرآن الكريم ذات يوم إذا بى أطالع تفسير الآيتين الكريمتين: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام].

عندئذ لـم أتمالك نفـسى، ووجدت الدمـوع تنهـمر من عـينى، ومن ثم أيقنت أن هذه إشارة صـريحة من الله عز وجل ترشـدنى إلى الإسراع فى اعتنـاق الدين الإسلامى الحنيف، واللحاق بركب الموحدين. وعلى الفـور حزمت حقائبى، وسافرت إلى أمـريكا حيث أشهرتُ إسلامى أنا وزوجتى وولدى بالمسجد الكبير فى نيويورك.

**ليوبولد فايس:**

من الأسماء التـى رأيتها فى دفتر البـابا فى هذا الفصل اسم (ليوبولد فـايس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو الاسم الذى ولد به محمد أسد.

قلت: أعرفـه، لقد ولد سنة 1900، وتوفى سنة 1992م. وهو صحفى نمـساوى يهودى وُلد بإقليم من أقـاليم بولندا كان تابعـا آنذاك للإمبـراطورية النمسـاوية، وكان يسمى لـيوبولد فايس، ثم دخل فى الإسلام سنة 1926م بعد أن رحل إلى الجزيرة العربية أيام الملك عبد العزيز

آل سعود، ثم انتقل بعد ذلك إلى شبه القارة الهندية حيث توثقت بينه وبين العلامة إقبال عُرى الصداقة. وظل يساعد فى إذكاء نهضة الإسلام فى تلك البلاد إلى أن انفصلت الباكستان عنها، فانتقل إلى الإقامة فى الدولة المسلمة الجديدة، واكتسب جنسيتها، وأصبح مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة حتى عام 1953م.

وقد ترك عدة كتب تُرْجِم بعضها إلى العربية، منها (الطريق إلى مكة)، و(الإسلام فى مفترق الطرق)، و(منهاج الحكم فى الإسلام)، وله ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم، اسمها The Message of the Quran، وله ترجمة لقسم من صحيح البخارى بعنوان Sahih al-Bukhari- The Early Years of Islam، وبقية سيرته الذاتية، وعنوانها Coming Home of the Heart

قال: فلا تحتاج إلى أن نتحدث عنه إذن؟

قلت: لا، بل أحتاج إلى ذلك، فليس الخبر كالعيان، فهل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد التقيت به فى باكستان، وقد سألته عن طريقه للإسلام، فسرد لى أكثر ما ذكره فى كتابه (الطريق إلى مكة)[1].

لقد بدأ بأفغانستان شتاء 1926.. قال: كنت فى طريقى راكبا من هرات لكابول بصحبة إبراهيم، ودليل أفغانى الجنسية، نسير خلال جبال مدفونة مغطاة بالجليد، ووديان وطرق فى (هندو- كش) فى وسط أفغانستان، كان الطقس باردا والجليد يتألق، وتقف على كل الجوانب جبال بيضاء، وأخرى سوداء.

كنت حزينا، وفى نفس الوقت بشكل غريب كنت سعيدا هذا اليوم! أما حزنى، فقد كان لأن من كنت أعيش معهم فى الشهور السابقة، كانوا محجوبين ببلادة، عن حقيقة النور، والقوة، والتقدم، الذى يعطيه لهم إيمانهم، وفى نفس الوقت كانت سعادتى، بأن هذه الحقيقة والنور، والقوة والتقدم، فى متناول يدى تقريبا الآن، وأمام عينى، كهذه الجبال الشامخة البضاء والسوداء التى أمامى.

بدأ حصانى يعرج وكأن شيئا فى حافره، ووجدت أن الحدوة الحديدية أصبحت معلقة فقط بمسمارين.

سألت رفيقنا الأفغانى، هل هناك قرية قريبة نجد فيها حدادا؟

فقال: نعم، قرية (ديهزانجى) التى تقع على بعد أقل من ثلاثة أميال، يوجد بها حداد هناك، وبها قصر حاكم (هزرجات)

وهكذا اتجهنا إلى هذه القرية، وتمهلنا فى المسير حتى لا نرهق الحصان. لقد كان حاكم المنطقة قصير القامة، وكان مرح الطلعة، ودودًا، وكان سعيدا أن يستضيف أجنبيا عنده فى قصره البعيد عن العمران، والمتواضع. وقد كان هذا الحاكم قريبا للملك (أمان الله)، ومن

(1) ما نذكره هنا منقول من كتابه (الطريق إلى مكة) من صفحة 295 إلى 311 بتصرف يقتضيه المقام.

المقربين له، وقد كان من أكثر من قابلت تواضعا فى أفغانستان، وقد أصر على بقائى فى ضيافته ليومين.

وفى مساء اليوم الثانى، جلسنا كالعادة لعشاء دسم، وبعد العشاء حضر رجل من القرية ليطربنا بأغان شعبية، مصطحبا قيثارة بثلاثة أوتار، وكان يغنى بلغة الباشتو التى لم أفهمها، ولكن بعض الكلمات الفارسية كانت تتخللها بوضوح. فى الغرفة الدافئة المغطاة بالسجاجيد، بينما وميض الثلج البارد يظهر من خلال النوافذ، أتذكر أنه كان يغنى عن المعركة بين داوود وجالوت، وبدأها بنغمة متواضعة، ثم تدرجت إلى بعض العنف، وانتهت بروح الانتصار.

وبعد أن انتهت، قال الحاكم: إن داوود كان شابًا، ولكن إيمانه كان قويا.

ولم أتمالك من التعليق، فقلت: كذلك أنتم.. كثيرون، ولكن إيمانكم ضعيف!

نظر إلىَّ المضيف بدهشة، وارتباك لما تطوعت وذكرته، فأسرعت لأوضح قولى، وأخذ توضيحى شكل سيل من الأسئلة.. لقد قلت: لماذا فقدتم أنتم المسلمون ثقتكم بأنفسكم، التى فى القديم ساعدت على نشر الإيمان بالإسلام فى أقل من مائة عام، من الجزيرة العربية غربا إلى المحيط الأطلسى، وشرقا فى العمق إلى الصين، والآن تستسلمون بضعف إلى الأفكار والعادات الغربية؟.. لماذا لا تستطيعون أنتم - يا من كان أباؤكم الأوائل هم من أناروا العالم بعلمهم وفنهم، بينما كانت أوروبا تغض فى بربرية وجهل مدقع - أن تقملوا على أن تعودوا لإيمانكم الخلاق؟.. كيف أن هذا الأتاتورك التافه، الذى ينكر كل قيم الإسلام قد أصبح عندكم رمزا لإحياء الإسلام؟

استمر مضيفى فى صمته، وبدأ الجليد ينهمر فى الخارج، ومرة ثانية غمرنى الشعور المزدوج بالحزن والسعادة، الذى انتابنى حينما اقتربت من (ديهزانجى).. لقد أحسست بالفخار لما قد كان، وبالخجل لما عليه أبناء حضارة عظيمة.

قلت لمضيفى: هل لك أن تدلنى كيف أن الإيمان الذى دلكم عليه نبيكم، وكل هذا الوضوح والبساطة، قد دفنت تحت أنقاض الثرثرة المتحزلقة، والشجار بين علمائكم؟.. كيف أن أمراءكم والإقطاعيين يعيشون فى رفاهية، بينما إخوانهم من المسلمين، يذوقون الفاقة والفقر المدقع، فى حين أن نبيكم يقول أنه (لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع)؟.. هل لك أن تشرح لى كيف نبذتم النساء خلفكم، بينما نساء الرسول ﷺ وصحابته كن يشاركن الرجال فى أمورهم الهامة؟.. كيف وصل الحال بكم أنتم المسلمين إلى الجهل والأمية، فى حين يقول نبيكم أن (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، و(فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر النجوم)؟!

ظل مضيفى يحملق فىَّ دون كلام، وابتدأت أشعر أن ملحوظاتى قد أحبطته، أما الرجل ذو القيثارة الذى كان لا يعرف الفارسية بدرجة تجعله يتتبع كلامى، فقد أخذ يتعجب

من هذا الغريب الذى يتكلم بهذه النغمة مع الحاكم!

وفى النهاية، أخذ الحاكم رداءه المصنوع من جلد الغنم وتدثر به، كما يكون قد أحس بالبرد! وهمس لى: «لكنك أنت مسلم».

أخذنى الضحك، وأجبت: لا، أنا لست مسلما، ولكنى ألممت ببعض القيم فى الإسلام التى تجعلنى اغضب فى بعض الأحيان، كيف أنكم أنتم أيها المسلمون تضيعونها، اعذرنى إذا كنت قد أسأت فى الكلام، أنا لا أتكلم معك كعدو.

لكن مضيفى هز رأسه قائلا: «لا.. فكما قلت لك، أنت مسلم، ولكنك لا تعرف نفسك.. لماذا لا تنطق الآن، وهنا بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وتصبح مسلما فى حقيقة الأمر، فإنك مسلم قلبيا.. قلها يا أخى، قلها الآن، وسأصطحبك غدا لكابول لملاقاة الأمير، الذى سيستقبلك بذراعين مفتوحتين كشخص مثلنا، سيمنحك منازل وحدائق وأغنامًا، وسيحبك، قلها يا أخى..».

قلت: إذا قلت ذلك، سيكون نتيجة لأن عقلى قد استراح، وليس نتيجة لأن الأمير منحنى المنازل والحدائق.

لكن مضيفى أصر قائلا: أنت تعرف كثيرا عن الإسلام، ربما أكثر من بعض المسلمين، ما هو الذى ما زلت تريد أن تعرفه؟

قلت: المسألة ليست مسألة فهم، إنها مسألة إقتناع، الإقتناع بأن القرآن الكريم هو فعلا كلمة الله، وليس مجرد كلمات من شخص نابه ذكى ذى عقلية متفوقة.

لكن كلمات صديقى الأفغانى أخذت تراودنى ولم تتركنى لشهور عدة.

أكملت رحلتى عبر أفغانستان عائدا مرة ثانية إلى هرات التى كنت قد ابتدأت منها، وكنا نقترب من الشتاء عام 1926، وهكذا تركت هرات فى المرحلة الأولى لطريق العودة للوطن، مستقلا القطار من الحدود الأفغانية إلى (ماف) فى التركستان الروسية، ثم إلى سمرقند، ثم إلى بخارى ثم إلى طشقند.. ومن ثم مارًا بسهول التركمان إلى جبال الأورال، ثم موسكو.

وهالنى الدعاية والمعلقات التى تهاجم الدين والألوهية أينما أحل أو أرتحل[1]، وسأتوقف عن ذكرها لأنها مقززة!

وبشعور بالراحة، عبرت الحدود البولندية بعد أسابيع أمضيتها فى آسيا، وروسيا الأوروبية، واتجهت مباشرة لفرانكفورت حيث الجريدة التى أعمل بها لأستلم عملى.

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه أثناء غيابى، أصبح اسمى مشهورا، وأنى الآن أعتبر من المراسلين المرموقين فى وسط أوروبا، فبعض مقالاتى ـ خصوصا تلك التى تناولت

(1) كتب ذلك فى عهود الشيوعية.

النفسية الدينية المعقدة للإيرانيين ـ والتى قد جاءت نتيجة لملاحظات علماء شرقيين بارزين، واستقبلت أكثر من أنها معارف عابرة.

ونتيجة لأهمية هذا الإنجاز، فقد دعيت لإلقاء مجموعة من المحاضرات فى أكاديمية الجغرافيا السياسية ببرلين - حيث قيل لى أنه لم يسبق أن حدث من قبل أن شخصا فى حداثة السن مثلى ـ حيث كنت حينئذ فى السادسة والعشرين ـ قد منح هذا الإمتياز، كما قمت بتدبيج مقالات أخرى عامة بتصريح من مجلة (فرانكفورت زيتنج)، فى صحف أخرى ؛ وقد أعيد طبع إحدى المقالات - كما أعلم - ثلاثين مرة تقريبا، وبمعنى آخر، فإن رحلاتى الإيرانية قد أثمرت.

وفى هذا الوقت تزوجت (إلسا) . . فالسنتان اللتان أمضيتهما فى الخارج، لم يضعفا من حبنا البعض، بل زادته قوة، وبسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل، استقبلت تعليقاتها على الفرق الكبير فى السن بيننا.

بدأت فى النقاش معى متسائلة: كيف تتزوجنى؟، أنت لم تصل بعد للست والعشرين عاما، وأنا فوق الأربعين، ألا تفكر فى ذلك، حينما تصل للثلاثين، سأكون أنا فى الخامسة والأربعين، وحينما تصل أنت للأربعين، سأكون امرأة عجوزا؟

أخذت فى الضحك، وقلت: وما فى ذلك؟، إننى لا أرى مستقبلا بدونك.

وأخيرا سلمت للأمر.

لم أبالغ حينما قلت لها: إننى لا أرى مستقبلا بدونك. . جمالها. . ورقتها الفطرية، جذبانى إليها بحيث لا أرى أى امرأة أخرى؛ وحساسيتها فى فهم ماذا أريد من الحياة أضاء أمالى.

فى إحدى المناسبات - بعد حوالى أسبوع من زواجنا، أبدت لى هذه الملاحظة، لقد قالت لى: كم أنت غريب الأطوار عن كل الناس؟ يجب عليك أن تخفض من الروحانيات فى الدين. أنت صوفى النزعة، حساس فى صوفيتك، تشير بأصابعك إلى ما حولك فى الحياة، ولك رؤية متعمقة روحانية فيما يدور حولك يوميا من أشياء، بينما تمر مثل هذه الأشياء على الآخرين بلا اكتراث. ولكنك حينما تتجه إلى الدين، فكلك تركيز مع الآخرين. فالوضع بالعكس تماما.

لكن إلسا لم تكن فى حيرة، فهى تعلم عما أبحث حينما أتكلم معها عن الإسلام. وبالرغم من أنها لم تكن فى نفس درجتى من الاضطراب، إلا أن حبها لى جعلها تشاركنى تساؤلاتى.

كثيرًا ما كنا نقرأ القرآن سويا، ونتناقش أفكاره؛ وكانت إلسا كما كنت أنا، معجبة بالتماسك الداخلى بين تعاليمه الأخلاقية، وإرشاداته العملية. واستنادا إلى القرآن الكريم، فإن

الله لم يدع الإنسان إلى أن يتضرع إليه معصوب العينين، بل لابد له أن يعمل عقله، لم يتنح الله بعيدا عن الإنسان، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد، لم يخط الله خطا فاصلا بين الإيمان والسلوك الاجتماعى.

والشئ الذى يعتبر فى غاية الأهمية، أن الإسلام لم يبدأ من بديهية أن الحياة محملة بالصراع بين الروح والجسد، وأن النجاة هى فى تحرير الإنسان من قيود الجسد.. كل مظهر من مظاهر إنكار الحياة، وتحقير الإنسان لنفسه، أدانها الإسلام فى أحاديث لرسول الله ﷺ.. مثل ما ورد فى حديث الثلاثة الذين قال لهم رسول الله ﷺ: «من رغب عن سنتى فليس منى».

فالإنسان مطالب بأن يعيش حياته كاملة وبشكل إيجابى، فما منحت غرائزه إلا لتؤدى ثمرتها، ولكن ليستخدمها بطهر وأخلاق وفى محلها الصحيح. ومن التعاليم للإنسان: أنه ليس لك فقط أن تعيش حياتك، بل المفروض عليك أن تعيشها بكل أبعادها.

صورة متكاملة للإسلام تنبثق فى ذهنى، وبشكلها النهائى وبتحديد، وذلك ما أدهشنى. أحيانا كانت تتشكل فى عملية من الممكن أن أسميها تفاعلات ذهنية، وبدون وعى منى، فقد بدأت تتجمع من أجزاء متفرقة ومنتظمة، فإذا وضعت هذه المتناثرات بعضها إلى بعض، رأيت نظاما هندسيا دقيقا، أخذ ذهنى يجمعه فى السنوات الأربع الماضية. لأرى بناء كل عناصره متناسقة منسجمة، تتجمع لتتمم وتعاضد بعضها البعض، لا شئ فيه ينقصه، ولا شىء يزيد عن متطلباته، متزن وهادئ، يعطى الإنطباع بأن مسلمات الإسلام كلها فى وضعها الصحيح.

منذ ثلاثة عشر قرنا مضت[1]، وقف رجل يقول: «ما أنا إلا رجل هالك، ولكن الذى خلق الكون أوحى إلى أن أحمل رسالته لكم، حتى تعيشوا منسجمين مع كل خلقه، وقد أمرنى بأن أذكركم بوجوده. إلها له كل القدرة وكل العلم، وقد وضع لكم منهاجا للسلوك الصحيح، إذا قبلتموه فلتتبعونى.. هذا كان هو الرسول محمد ﷺ، وهذه كانت رسالته.

النظام الاجتماعى الذى أعلنه، كان من البساطة التى تربط مفرداته بالعظمة الحقيقية، بدأ بالتسليم بأن الإنسان كائن حى له متطلبات حيوية، وهذه المتطلبات تخضع للحل والحرمة اللذان يقرهما الله سبحانه وتعالى، وأن الإنسان اجتماعى بطبعه يحتاج إلى مجتمع يحيط به، ولكى يحقق احتياجاته الثقافية والأخلاقية والطبيعية، فلابد أن يعتمد كل على الآخر.

إن ازدهار القوام الروحى للإنسان ـ وهو هدف كل الأديان ـ يعتمد عما إذا كان يتلقى دعما وتشجيعا وحماية له ممن حوله.

---

(1) بناء على الوقت الذى يؤرخ له المؤلف.

هذا التكافل الاجتماعي يظهر سبب اهتمام الإسلام بالنواحي العامة الاقتصادية والسياسية، ولا ينفصل عنها، ولتنظيم علاقات إنسانية بطريقة عملية بحيث لو قابل أي فرد بعض العقبات، يجد التشجيع اللازم لتنمية شخصيته، هذا، ولا شئ آخر، يبدو أنه هو مفهوم الإسلام للوظيفة الحقيقة للمجتمع.

وهكذا كان من الطبيعي أن التشريع الذى أتى به سيدنا محمد ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاما من مبعثه لا يرتبط فقط بالنواحي الروحية، بل يمتد ليشمل الإطار لكل الأفراد وللمجتمع أيضا. يشمل ليس فقط مفهوم النقاء الفردى، ولكن يتضمن المجتمع العادل الذى يؤدى هذا النقاء إليه، كذلك يتضمن الخطوط العريضة للمجتمع السياسى، أما التفاصيل فمتروكة للتطورات التى تحدث مع الزمن المتغير، كما يحدد حقوق الأفراد وواجباتهم نحو المجتمع الذى يعيشون فيه آخذا بعين الاعتبار حقيقة ما يجد من أمور.

الشريعة الإسلامية تتضمن كل مناحى الحياة، أخلاقية، طبيعية، فردية، اجتماعية، العلاقة بين الجسد والروح والعقل، الجنس، الاقتصاد، كل ذلك جنبا إلى جنب، مع اللاهوت والعبادة، كل أمر من الأمور له وضعه فى تعليمات النبى ﷺ، ولا شئ يخص الحياة ينظر إليه على أنه تافه ليخرج من دائرة التصور الدينى. ليس حتى مثل هذه القضايا الدنيوية، كالتجارة، والميراث، وحق الملكية، وامتلاك الأراضى.

كل مفردات الشريعة وضعت للانتفاع المتساوى بين أفراد المجتمع، بدون تمييز بين مكان المولد والأعراق والجنس أو ولاء اجتماعى سابق. لا منافع خاصة حجزت لمؤسس المجتمع أو أحفاده، لا توجد طبقات عليا وطبقات دنيا فى المفهوم الاجتماعى، ليست من مفردات القاموس الإسلامى، ولا أثر لها فى الشريعة الغراء. كل الحقوق والواجبات والفرص؛ موزعة بين أفراد المجتمع المؤمن بالتساوى.

لا يوجد كهنة بين الله والإنسان، لأن الله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، لا ولاء إلا لله ورسوله، وبأمر من الله للوالدين، وللمجتمع المسلم المنوط بتحقيق مملكة الله على الأرض. وبذلك فلا يجوز الذى يعلى كلمة (بلادى أو أمتى)، ولتوضيح هذا المفهوم، فإن رسول الله ﷺ فى أكثر من مناسبة، قال بوضوح: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية».

كل المنظمات قبل الإسلام، حتى الدينية أو شبه الدينية، كانت تنهج المفهوم الضيق للعصبية القبلية والعشائرية، فمثلا الملوك المتألهون، الفراعنة فى مصر، لا يفكرون إلا فى أضيق الحدود التى يعيش فيها المصريون ؛ وحتى إله بنى إسرائيل فهو إله فقط للشعب المختار، بالعكس فالمفاهيم المستقاة من القرآن الكريم ترفض رفضا باتا التمسك بالعشيرة أو القبيلة.

الإسلام افترض مجتمعا سياسيا بعيدا عن الانقسامات العرقية والقبلية، وفى هذا المجال فإن الإسلام والنصرانية يتفقان فى الدعـوة العالمية بعيدا عن القبلية[1]، وفى حين أن النصرانية قد حددت نفسـها فى مفهوم (اعطوا ما لقيـصر لقيصر، وما لله لله)، إلا أن مـفهوم الإسلام أوسع من ذلك، فقد دعا كل الأمم أن يكون الولاء لله فقط.

وبذلك، لتحقيق مـا لم تحققه النصرانية.. فقـد أضاف الإسلام منظورا آخر فى تطوير الإنسان. لقد دعا إلى مجتمع مفتوح عقائديا، بالمقارنة مع المجتـمعات المغلقة التى نشأت فى الماضى، عرقيا، وجغرافيا.

لقد أعطت رسالة الإسلام تصـورا ومنحت البشرية حضارة لا مكان فيهـا للقومية، لا مصالح شخصية، لا طبقية، لا كنيسـة، لا كهنة، لا طبقة نبلاء متوارثة، فى الحقيقة، لا شئ متوارث على الإطلاق.

ومن أهم المميـزات فى هذه الحضـارة؛ ميزة لـم توجد فى أى تحركـات للإنسان عـبر التاريخ.. إنها نشأت عن قناعة واتفاق تطوعى بين معتنقيها وبين ربهم.

هنا التقدم الاجتـماعى، مخالف عمـا حدث فى المجتمعات الأخرى، فـهو لم يحدث نتيجة لضغوط، ومقاومة لهذه الضغوط، نتيجة للمصالح المتعارضة، ولكن كجزء لا يتجزأ من تعليمـات أصيلة. وبكلمات أخرى، هناك عـقد اجتمـاعى متأصل فى النفـوس، يسيطر على جذور الأعمال، ليس نتيجـة أوامر صاغها من بيدهم الأمر دفاعا عن مكتسـباتهم، بل حقيقة متأصل جذورها فى الحضارة الإسلامية.

فقد ذكر القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

عرفت من تتبعى لقراءة الحضارة الإسلامية أن هذا العقد الذى سجله التاريخ، قد تحقق لفترة وجيزة جدا، أو بالأحـرى فخلال فترة وجيزة جدا كانت هناك محاولات جـادة لتحقيقه فيـما أقل من قرن بعد مـوت النبى ﷺ، إلا أن هذا النظام النقى للإسلام بدأ يتناوشه الفـساد

(1) هذا من حيث الواقع.. أما فى الجانب النظرى فإن النصرانية فى أصلها دين خاص ببنى إسرائيل كما ورد فى النصوص الكثيرة فى الكتـاب المقدس، فالمسيح عندما أرسل تلاميذه لينشروا دعـوته بين اليهود كرر لهم الوصيـة فى أن يقصروا الدعوة على اليـهود، بل إنه حذرهم من دخول مـدن الأمم الأخرى، ولو كانـوا جـيرانًا لليهـود، وقد ذكر إنجـيل متى (10: 5) ذلك، فقال: «هؤلاء الاثنا عـشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة».

ليس ذلك فقط.. بل إن المسيح لما بدأ الدعوة إلى الله أعلن أنها قاصرة على بنى إسرائيل، ولا تمتد إلى غيرهم، لذلك تجـده يقول فى متى (15: 24): «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة». فـ (إلا) أداة للحصر، وهى تدل على انحصار رسالة المسيح ضمن الشعب الإسرائيلى.

السياسى، حيث ظهرت التطلعات العشائرية لامتلاك القوة بديلا عن الرأى الحر للرجال والنساء، الملكية الوراثية بديلا عن المفهوم السياسى فى الإسلام كنوع من الشرك فى المفهوم الإسلامى.

ومع هذا أيضا ظهرت الدسائس والصراعات القهبلية والظلم، واضمحلال الوازع الدينى، والمهانة فى خدمة من بيده السلطة. باختصار حلت المصالح الشخصية التى عرفت فى التاريخ.

ولوقت من الزمن حاول علماء ومفكرون عظام، أن يعيدوا للإسلام رونقه ويذكروا الناس بمفاهيمه النقية، ولكن جاء من بعدهم أقوام دأبوا على تقليد الأجيال السابقة، وانتكسوا بعد قرنين أو ثلاثة قرون، وتوقفوا عن التفكير لأنفسهم متناسين أن كل عصر يختلف عن سابقه، وكل عصر له احتياجاته الخاصة التى تحتاج إلى التجديد.

لقد كان الدفع الأصلى للإسلام فى بدايته عظيما، ورفع الأمة الإسلامية إلى مستويات عالية من الثقافة والحضارة العظيمة، حتى أن المؤرخين يسمون ذلك العصر الذى تحقق، بالعصر الذهبى للإسلام، من الناحية الأدبية، والفنية، والعلمية، والثقافية، ولكن بعد ذلك العصر بقرون بسيطة خمد الحافز الإيمانى الذى كان يغذى هذا التقدم، وأصبحت الحضارة الإسلامية راكدة، ومجردة من قوتها المبدعة.

سألته: ألم تتأثر بالتاريخ الإسلامى إذن، وما حصل فيه من نكسات؟!

قال: مثلما لم أتأثر بالتاريخ لم أتأثر بالوضع الحالى للعالم الإسلامى. فالسنوات الأربع التى قضيتها فى البلدان الإسلامية، أوضحت لى، بأنه بالرغم من أن الإسلام ما زال حيا، كما هو فى عيون العالم، يؤثر من الناحية الأخلاقية فى أتباعه، غير أنهم قد أصابهم الشلل، بحيث لم يترجموا مبادئه إلى عمل مثمر.

لكن ما شد انتباهى، بعيدا عن حالة المسلمين فى عهدنا هذا، هو القوة الكامنة فى تعاليم الإسلام نفسه، لقد كان كافيا لى أن أعلم أنه فى مدة قصيرة فى بداية التاريخ الإسلامى، محاولة ناجحة قد تمت لتطبيق هذا النظام إلى عمل. وبالتالى، ما كان ممكنا فى وقت من الأوقات، يظل ممكنا فى غيره من الأوقات. قلت لنفسى ماذا يهم.. إن كان المسلمون قد انحرفوا عن تعاليم دينهم الأصلية، وركنوا إلى الكسل والجهل؟.. ماذا يهم إذا كانوا لا يأخذون بالتعاليم المثالية التى أمامهم، والتى جاءت على لسان النبى ﷺ منذ ثلاثة عشر قرنا مضت.. إذا كانت هذه التعاليم ما زالت متاحة للجميع ولكل من يرغب ليستمع إليها؟

ربما نكون. أخذت أفكر، نحن المتأخرين أشد حاجة لهذه الرسالة من المسلمين فى عهد رسول الله ﷺ. لقد عاشوا هم فى مناخ أبسط بكثير من المناخ الذى نعيش نحن فيه، وكانت

مشاكلهم والصعوبات التى يواجهونها أبسط من تلك التى نواجهها، وتحتاج إلى حلول غير معقدة كما نواجه.

العالم الذى أعيش فيه كل العالم الآن يتململ لعدم وجود أية قواعد روحانية تفصل بين الخير والشر، وبالتالى، اقتصاديا واجتماعيا.

لا أعتقد أن الإنسان الفرد فى حاجة إلى خلاص، بل المجتمع هو الذى فى حاجة إلى مخلص[1].

أكثر من أى وقت مضى، أخذت أشعر بيقين متزايد، أن وقتنا هذا فى أشد الحاجة إلى قاعدة أيدلوجية، وإلى عقد اجتماعى جديد، فى حاجة إلى الإيمان بالله، وتفهم مدى الفراغ الذى يحدثه التقدم المادى فقط، ومن ثم نعطى الحياة حقها. كيف نوازن بين احتياجات الروح والجسد، ويكون فى ذلك الإنقاذ من كارثة محققة نسرع إليها متهورين.

سكت قليلا، ثم قال: غنى عن القول أن الإسلام - شكلا - أمرٌ ذو أهمية كبيرة لى فى ذلك الوقت، بحيث شغل تفكيرى أكثر من أى شىء آخر.

وفى ذلك الحين عهدت إلى جريدتى بكتابة كتاب له علاقة بوظيفتى.. لكنى بسبب سيطرة التفكير فى الإسلام على عقلى وكيانى لم أستطع إكمال ما بدأته من الكتاب.

فى البداية كانت نظرة دكتور سيمون ـ مديرى ـ متساهلة، لترددى فى الاستمرار فى إنهاء الكتاب، فقد عدت من رحلة طويلة تستحق نوعا من الأجازة، وزواجى الحديث يعطينى بعض الحق فى التراخى فى الكتابة الروتينة، ولكن حينما تماديت فى التراخى، ونظرا لأن دكتور سيمون يتحمل المسئولية عن الكتاب، فقد طلب منى أنه قد حان الوقت لأنزل إلى الأرض.

فى الماضى، كنت أرى أنه متفهم للوضع، ولكنى الآن أرى غير ذلك. ملاحظاته المستمرة، وتساؤلاته اللحوحة عن تقدمى فى تحرير الكتاب، أدت أثرها المعاكس لما كان ينشده، فقد شعرت بأن الأمر مفروض على مما جعلنى أمقت فكرة الكتاب نفسها.

فى نهاية الأمر قال لى دكتور سيمون هذه الملاحظة: أعتقد أنك لن تنتهى من الكتاب البتة، أنت تعيش فى داخلك فى رعب ما!

وكالملدوغ رددت عليه: ربما المرض الذى أعانيه أكثر من الرعب.

قال لى بحدة: إذن فما دمت فى هذا العناء، فهل تعتقد أن الصحيفة هى المكان المناسب لك؟

كلمة منه وكلمة منى، تحول الأمر إلى شجار، وفى نفس اليوم قدمت استقالتى من الصحيفة، وبعد أسبوع سافرت أنا وإلسا إلى برلين.

---

(1) وطبعا لا يمكن تخليص المجتمع إلا بتخليص الفرد.

لم أكن بالطبع أنوى ترك الصحافة، فقد كانت جزءا من راحتى النفسية، وسعادتى فيها وفى الكتابة بعدت عنهما مؤقتا نتيجة للكتاب.. وكيف لا؟ وهى التى أعادتنى للعالم الإسلامى، وهذه العودة كنت حريصا عليها بأى ثمن.

ولكن بالنسبة للشهرة التى اكتسبتها فى الأعوام الأربعة الماضية، لم يكن من الصعب علىَّ العودة إلى الصحافة ثانيا، فبسرعة جدا حصلت على عقد مجز ومريح مع ثلاثة صحف بزيورخ، وبالرغم من أنها لم تكن فى مستوى الصحيفة السابقة إلا أنها كانت من الصحف الشهيرة بأوروبا.

ومنذ ذلك الحين، بقيت أنا وإلسا فى برلين، لأكمل محاضراتى عن الإسلام فى أكاديمية الجغرافية السياسية.

أصدقائى الأدباء السابقون فرحوا بعودتى لهم، ولكن لم تكن العلاقة الجديدة فى نفس المتانة التى تركتهم بها قبل سفرى للشرق الأوسط، فقد صارت لغتنا الثقافية مختلفة عما سبق. وبالتحديد، لم أكن أستطيع استخراج أية معلومات من مناقشاتى معهم عن الإسلام. كانوا يهزون رؤوسهم، بحيرة حينما كنت أقول لهم أن الثقافة الإسلامية يمكنها أن تنافس أيدلوجيات أخرى.

وبالرغم أنه فى بعض الحالات، كانوا يوافقون على رأى من هنا أو هناك من مفاهيم الإسلام، إلا أنهم فى العموم يقولون أن الأديان الماضية هى جزء من الماضى، وأننا فى حاجة إلى تجديد فى المفاهيم، ونظرة إنسانية جديدة.

وحتى أولئك الذين لا ينكرون أهمية المؤسسات الدينية لم يكونوا مستعدين للتخلى عن النظرة الأوربية للإسلام، بأنه يفتقد إلى الوضوح الذى يتوقع من الأديان.

وقد أدهشنى أن سمة الإسلام التى اكتشفتها من أول لحظة، وهى عدم وجود فصل بين الروح والجسد، وأن التأكيد على أن العقل هو الطريق للإيمان.. وذلك ما لم يكن واضحًا عند المثقفين، الذين ما فتئوا يقولون بأن العقل هو المهيمن على كل شئ فى الحياة، فالعقلانية والواقعية ليس لهما مكان فى مجال الدين عندهم، وفى هذا الخصوص لم أجد فرقا بين هؤلاء المتدينين، وهؤلاء الذين طرحوا الدين وراءهم.

مع الوقت، فهمت أين تكمن فيهم هذه الصعوبة، فقد بدأت أدرك أنه فى عيون أولئك الذين يدورون فى مدار النصرانية بضغوطها على عالم (ما وراء الطبيعة) المتأصلة زعما فى كل تجربة دينية حقيقية. فإنه من الدرجة الأولى فكل نظرة عقلانية، تكون سببا فى الانتقاص من القيمة الروحية، وذلك ليس خاصا بمؤمنى النصارى فقط.

وذلك يرجع لطول العهد بالأوروبيين فى ظل النصرانية، فمن حيث لا يدرون وبلا شعور، تعلموا أن ينظروا للدين من خلال المنظار النصرانى، ومفاهيم النصرانية، ويعتبرون فقط أنها صحيحة إذا كانت مصحوبة بآثار الرهبنة والخشوع، بعيدا عن الفهم الثقافى.

الإسلام لا يحقق هذه الفرضية، فالإسلام يصر على التعاون بين السمات الروحانية والمادية للحياة، وذلك على قاعدة متينة طبيعية من المنهاج، فنظرته للحياة تختلف جذريا عن مفاهيم النصرانية، وهذه المفاهيم هى التى اعتمدها الغرب كأساس للحياة، وبذلك يقيسيون صلاحية الآخر بهذه المقاييس.

أما بالنسبة لى، فقد كنت أعرف أننى منجذب إلى الإسلام لا محالة، ولكن التردد جعلنى أؤجل القرار الأخير، القرار الذى لا رجعة فيه، فكرة إعتناق الإسلام، هى كرحلة على جسر طويل جدا بين عالمين مختلفين، جسر إذا وصلت لنهايته، فلن ترى بدايته.

كنت على بينة، بأننى لو أسلمت، فسأفصل نفسى عن العالم الذى نشأت فيه، لأدخل عالما آخر وأعيش فيه، فلا يمكن لمن يجيب حقيقة دعوة الرسول ﷺأن يبقى صلة داخلية مع المجتمع الذى يعيش على مفاهيم مغايرة.

فى أحد الأيام - كان ذلك فى سبتمبر 1926 - كنت أنا وإلسا نستقل مترو الأنفاق فى برلين، كنا فى الدرجة الأولى. وقعت عينى بالصدفة على رجل أنيق، يظهر أنه من رجال الأعمال، ويحمل حقيبة جميلة على رجليه، وبيده خاتم كبير الحجم من الماس.

ولم يكن هذا المنظر للرجل غريبا فى هذه الأيام، وهو يعكس الرخاء الذى حل بوسط أوروبا، بعد سنوات التضخم التى قلبت الموازين رأسا على عقب، معظم الناس الآن يلبسون ثيابا جيدة، ويأكلون الطيب من الطعام، ولذلك فالرجل الجالس قبالتى ليس بدعا فى ذلك.

لكنى عندما تحققت فى وجهه، وجدت الكآبة عليه!كان يظهر عليه القلق، وليس فقط القلق، بل التعاسة أيضا، عيونه تحملق إلى أعلى، وزوايا فمه تتحرك كأن به ألما، ليس ألما جسمانيًا، وحتى لا أتهم بالوقاحة فقد صرفت عينى عنه، لتقع على سيدة أنيقة، فوجدت أيضا التعاسة على وجهها، وكأنها عانت من شيء ما، ولكن الابتسامة على وجهها كانت ابتسامة متكلفة.

وهكذا بلا وعى أصبحت أتلفت حولى فى الوجوه التى بالمقصورة، لأرى أن الغالبية من الوجوه، تعكس عن معاناة مخبوءة فى العقل الباطن لهم، وهم لا يشعرون بذلك.

فى الحقيقة كان شيئا غريبا بالنسبة لى، لم أر من قبل مثل هذا العدد من التعساء، وربما لأنه لم يسبق لى أن تفحصت مثل هذه الوجوه، لأجد هذه الظاهرة تصرخ بأعلى صوت فى وجوههم، الانطباع كان قويا فى داخلى، حتى أننى ذكرته لإلسا، والتى بدأت هى الأخرى تجول فى الوجوه التعسة بعناية، وهى الرسامة المتعودة على كشف تعبيرات الوجوه البشرية.

التفتت نحوى مستغربة قائلة: أنت على حق، كلهم يظهر عليهم كأنهم يعانون من عذاب الجحيم. أتساءل هل ياترى هل يدرون ما يدور فى نفوسهم؟

أنا أعرف أنـهم بالطبع لا يعلمون شـيئـا عن ذلك، وإلا لأنقذوا أنفـسـهم من تضـييع حياتهم فيما يتـعـسها بلا إيمان، وبعيدا عن الحقيقة بلا هدف غـير جمع الأموال والثروة والجاه ورفع مستـوى معيشتهم، بلا أمل غـير امتلاك وسائل للراحـة أكثر وأمور مادية أكثـر وامتلاك للقوة أكثر.

حينما عدنا للمنزل، ألقيت نظرة على مكتبى، وعليه نسخة من القرآن الكريم، فأردت أن أضعـها فى المكتبـة، ولكنى بطريقة تلقائيـة فتحـته لأقرأ فيـه، فوقعت عـينى على سورة التكاثر، فأخذت أقرأها: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ [التكاثر].

فى تلك اللحظة انعـقـد لسانى عن الكلام، واهتـز الكتـاب فى يدىى، وناولته لإلسـا قائلا: اقرئى هذا. . أليست هذه هى الإجابة على ما شاهدناه فى مترو الأنفاق؟!

نعم، إنهـا الإجابة. نعم إنهـا الإجابة الـقاطعـة، والتى أزالت أى شك عندى أن هذا الكتاب الذى بين يدى الآن هو وحى من عند الله العليم بالنفوس، فـمنذ ثلاثة عشر قرنا أنزل على رجل لا يعلم دخـائل النفـوس، ولا يتـوقع هذه الصـورة التى رأيناهـا اليوم فى مـتـرو الأنفاق، والوضع المعقد الذى نعيشه الآن.

فى كل الأوقات كان الجشع موجودا، ولكنه لم يكن فى وقت من الأقات من قبل بمثل هذه البشاعة. . كان مجرد رغبـة فى امتلاك الأشياء. . ولكن أن يصبح ذلك هوسا يغطى على كل شئ آخر: شهوة لا تقاوم، لتعمل ولتدبر أكثر فأكثر، اليوم أكثر من أمس، والغد أكثر من اليوم. . شيطان يلوى أعناق الرجال ويلهب قلوبهم بالسياط لينفذوا مآربهم التى تبرق أمامهم، ولكن حين يصلوا إليها لا يـجدوها إلا شيئا حقيرا، ومـا إن تقع فى أيديهم حتى يتطلعوا إلى مآرب جديدة أخرى براقة، ذات إغراء أكثر، سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شـيئا. . هذا الجـوع، والجوع النهم سيظل دائمـا موجودًا، لن يصلوا إلى الشـبع مطلقا ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ [التكاثر].

الآن رأيت أن هذه ليست حكمة رجل فى التـاريخ الغابر فى الجزيرة العربية مـهما كان من الحكمة، فهو لن يتنبأ بالجحيم الذى نعايشه فى القرن العشرين.

لقد وجدت أن القرآن يتكلم بصوت أكبر من صوت محمد ﷺ.

سكت قليلا يستعيد ذكرياته، فجأة راح يقول بنشوة عظيمة: فى ذلك الحين بحثت عن صديق لى مسلم، كان هنديا، رئيسا لمجموعة مسلمة فى برلين، وذكـرت له أننى أريد اعتـناق

الإسلام، مد يديه فى اتجاهى، فوضعت يدى فيهما، ونطقت بالشهادتين، وبعد بضعة أسابيع أعلنت زوجتى إسلامها.

لقد اختصر للسائلين الكثيرين الذين طلبوا منه أن يحدثهم عن سر إسلامه، بقوله: (يجب أن أعترف بأنّنى لا أعرف جوابًا شافيًا. لم يكن الذى جذبنى تعليمًا خاصا من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب المتراصّ بما لا نستطيع له تفسيرًا من تلك التعاليم الأخلاقيّة بالإضافة إلى منهاج الحياة العمليّة. ولا أستطيع اليوم أن أقول أى النواحى قد استهوتنى أكثر من غيرها، فإنّ الإسلام على ما يبدو لى، بناء تام الصّنعة، وكلّ أجزائه قد صيغت ليتمّم بعضها بعضًا ويشدّ بعضها بعضًا. فليس هناك شىء لا حاجة إليه، وليس هنالك نقص فى شىء، فنتج عن ذلك كلّه ائتلاف متّزن مرصوص. ولعلّ هذا الشعور من أنّ جميع ما فى الإسلام من تعاليم وفرائض قد وُضعت مواضعها؛ هو الذى كان له أقوى الأثر فى نفسى، وربّما كانت - مع هذا كلّه - أيضًا مؤثّرات أخرى يصعب علىّ الآن أن أحلّلها).

ومنذ ذلك الحين سعى إلى أن يتعلّم من الإسلام كلّ ما يقدر عليه. لقد درس القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، ودرس لغة الإسلام، وتاريخ الإسلام، وكثيرًا ما كُتبَ عنه أو كُتبَ فى الردّ عليه. وقد قضى أكثر من خمس سنوات فى الحجاز، ونجد ـ وأكثر ذلك فى المدينة ـ ليطمئنّ قلبه بشىء من البيئة الأصليّة للدّين الذى قام النبىّ ﷺ بالدعوة اليه فيها.

وبما أنّ الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار، فقد تمكّن من المقارنة بين أكثر من وجهات النظر الدينيّة والاجتماعيّة التى تسود العالم الإسلامىّ.

بعد سنوات من الانقطاع لدراسة الإسلام، صار علمًا من أعلام الإسلام فى العصر الحديث، وبعد قيام باكستان اشتغل مديرًا لدائرة (إحياء النظم الإسلامية) فى البنجاب الغربيّة، ثمّ صار فيما بعد مندوبًا مناوبًا لباكستان فى الأمم المتّحدة، وفى عام 1953م استقال من منصبه، لينكبّ على الكتابة والتأليف. ومنذ عام 1964 حتّى عام 1980 يكون قد أنجز مشروع العمر، وهو ترجمة معانى القرآن، بأسلوب عصرىّ خاطب فيه العقل الأوروبى مباشرة بلغة يفهمها.

وقد أنشأ بمعاونة (وليم بكتول) الذى أسلم هو الآخر، مجلّة الثقافة الإسلامية فى حيدر آباد الدكن (1927)، وكتب فيها دراسات وافرة فى تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، كما ترجم صحيح البخارى (1935)، وألّف أصول الفقه الإسلامىّ، والطريق إلى مكّة، والإسلام على مفترق الطّرق، ومنهاج الإسلام فى الحكم، وشريعتنا هذه، وعودة القلب إلى وطنه (مذكّرات).. وغيرها[1].

---

(1) انظر: الإسلام والغرب، الوجه الآخر، حسن السعيد.

**روجيه جارودى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (روجيه جارودى)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم المفكر الفرنسى المعروف، وأحد كبار زعماء الحزب الشيوعى الفرنسى، سابقًا، وهو رجل تتميز ثقافته بالعمق والشمولية، والرغبة الجادة فى البحث عن الحق مهما كان الثمن الذى يكلفه.

وقد أتيح له منذ مطلع الأربعينات أن يحتك بالفكر الإسلامى والحياة الإسلامية، وقد ازداد هذا الاحتكاك بمرور الوقت، وتمخض عن اهتزاز قناعاته المادية وتحوله بالتدريج إلى خط الإيمان، الأمر الذى انتهى به إلى فصله من الحزب الشيوعى الفرنسى، كما قاده فى نهاية الأمر (أواخر السبعينات) إلى اعتناق الإسلام، حيث تسمى بـ(رجاء جارودى).

وقد كتب العديد من المؤلفات منها: (حوار الحضارات)، (منعطف الاشتراكية الكبير)، (البديل)، (واقعية بلا ضفاف)، وبعد إسلامه أنجز سيرة ذاتية خصبة وعددًا من المؤلفات، أبرزها: (وعود الإسلام)، فضلاً عن العديد من المحاضرات التى ألقاها فى أكثر من بلد.

قلت: لا شك أنك التقيت به، فقد كان له - مثلك - رحلات كثيرة، وهو يحضر المؤتمرات والندوات، ولا يقصر فى ذلك؟

قال: أجل، لقد التقيت به مرات عديدة.. وفى كل مرة كنت أسمع شيئا جديدا، ولم أكن السائل بل كنت المستمع المتنصت.

فى أحد تلك المؤتمرات سأله بعضهم قائلا: نسمع كلاما كثيرا عن الإسلام.. فما هو الإسلام؟

التفت روجيه إلى السائل، وقال: (إن الإسلام لم يعد ذلك (الكافر) فى زمن الصليبيين أو الـ (إرهابى) فى حرب التحرير الجزائرية، ولم يعد ذلك الأثر فى المتحف الذى يتفحصه المستشرق بعين العالم الاختصاصى بعاديات الحضارات، انطلاقًا من الحكم السبقى بامتيازية الغرب.. بل لم يعد أكثر من هذا، ذلك الانفجار العلمى المذهل الذى كان، عند الخروج من العصور الوسطى قد فتح الطريق ببساطة لعلومنا (الحديثة).. إنما الإسلام هو تلك الرؤية لله وللعالم وللإنسان، التى تنيط بالعلوم وبالفنون وبكل إنسان وبكل مجتمع مشروع بناء عالم إلهى وإنسانى لا انفصام فيه باقتضاء البعدين الأعظمين،المفارقة والجماعة، التسامى والأمة)[1].

ثم استغرق فى خشوع عظيم، وقال: (إن الله أكبر من أعظم الملوك، وإليه وحده يدان بالإجلال المطلق، فها هنا المبدأ بحق لا يجوز التصرف فيه، بالصمود فى وجه كل طغيان وبمعارضة كل سلطة. الأساس الإلهى للمساواة بين جميع الناس من وراء أى تسلسل فى المراتب الاجتماعية)[2].

---

(1) دعوة الإسلام، ص 22

(2) دعوة الإسلام، ص 31.

ثم قال: (بفضل مبدأى الإسلام الأساسيين: مبدأ السلطة لله وحده وهو الذى يجعل كل سيادة اجتماعية نسبية، ومبدأ الشورى الذى يستبعد أية وساطة بين الله والشعب، يزال، فى آن واحد، أى استبداد مطلق يضفى القداسة على السلطة، ويصبو إلى أن يجعل من القائد إلهًا على الأرض)[1].

فى مؤتمر آخر سأله بعضهم عن موقفه من الجهاد فى الإسلام، فقال: (إن الجهاد الأكبر فى الإسلام هو كفاح ضد الذات، ضد الميول التى تجذب الإنسان بعيدًا عن مركزه. وهو ما يقوده، باجتذابه نحو رغبات جزئية، إلى أن يصطنع لنفسه (أوثانًا) وبالنتيجة يمنع عن الاعتراف بوحدانية الله. والانتصار على هذه (الوثنية) الداخلية أصعب كثيرًا أيضًا من الانتصار على المشركين فى الخارج. ومازلنا نجد اليوم فى هذا درسًا عظيمًا لكثير من (الثوريين) الذين يطمعون بتغيير كل شىء إلا أنفسهم. كما كان، فيما مضى، شأن الكثير من (الصليبيين)، الذين كانوا فى القدس وفى أسبانيا (المراد استردادها)، أو ضد هنود أمريكا، يريدون أن يفرضوا على الآخرين مسيحية يهزؤون منها بكل عمل من أعمالهم)[2].

سأله آخر عن اتهام الغرب للفتوح الإسلامية بكونها هجمات بربرية، فقال: (أسطورة أخرى ينبغى القضاء عليها: تلك التى أراد الاستعمار الفرنسى فرضها حين صوّر التوسع العربى بدءًا من القرن الميلادى الثامن على أنه تدفق (الهمجية الآسيوية) على الغرب)[3].

ثم قال: (إن ما يطلقون عليه اسم (غزو إسبانية) لم يكن غزوًا عسكريًا. لقد كان عدد سكان إسبانية فى ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة ولم يزد عدد الفرسان العرب فى الأراضى الإسبانية البتة على سبعين ألفًا وإنما لعب التفوق الحضارى دورًا حاسمًا)[4].

(إن ما حققه العرب فى إسبانيا يجعلنا نفكر فى الحرب الثورية التى نهض بها ماو فى الصين، فقد جلبوا معهم نظامًا اجتماعيًا أعلى جدًا من النظام الراهن، وسرعان ما ظهروا بمظهر محررين. أولاً بإنقاذ الأقنان من وصاية ملوك القوط فى عصر انحطاطهم. ثم بعدم امتلاكهم الأراضى - والقرآن يمنع ذلك - ولكن بالاكتفاء بالخراج)[5].

(لماذا هبّ هذا الإعصار القادم من الشرق وانتشر بمثل هذه السرعة العظمى من بحر الصين إلى المحيط الأطلسى؟ إن العامل الحاسم هو أن (العربى) قد جلب معه أشكالاً أعلى فى مجالات التنظيم الاجتماعية وحتى الاقتصادية، ولذا نجده يحظى بقبول الجماهير فى عالم يقر نظام الرق وهو فى حالة تفسّخ تام)[6].

---

(1) دعوة الإسلام، ص 36.

(2) دعوة الإسلام، ص 45.

(3) حوار الحضارات، ص 96.

(4) حوار الحضارات، ص 97.

(5) حوار الحضارات، ص 97.

(6) حوار الحضارات، ص 101.

وعندما سئل عن سر انتشــار الإسلام بقوة تفوق انتشار المسيحية، قــال: (حدثنى مبشر فى الكاميرون وهو يائس فقال: (إن بعثاتنا تقدم المسيحية على نحو كما لو أن الله لم يظهر فى صورة إنسان وإنما ظهر فى صورة غربى). فكيف ندهش أمـام تقدم الإسلام المذهل فى أفريقية السوداء فى عصر الاستقلال إعرابًا عن رفض المستعمر؟)[1].

وعن الحضـارة الإسلاميـة التى أعجب بها كـثيرا قـال: (افترى الاسـتعمـار الإنجليزى والإسبانى والفرنســى، على نتيجة الدور الذى قام به فى أرض الإسلام خـلال أكثر من قرن، افتراءً منهجيًا لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية)[2].

(يقول (أناتول فـرانس) فى (الحياة الجمـيلة): سأل السيد (دوابوا) السـيدة (نوزير) عن أشأم يوم فى تاريخ فرنسـا. ولكن السيدة (نوزير) لم تكن تعرف. فقال السيد (دوبوا): أنه يوم معركة (بواتيـه) عندما تراجع العلم العربى، والفن العربى، والحضــارة العربية، سنة 732 أمام همجية الفرنجة)[3].

(إن ذاكرتى ستحتفظ دومًا بهذا النصّ الذى سبّب طردى من (تونـس) سنة 1945 بذريعة الدعاوى المضادة لفرنسا! فقد كان من المحظور تأكـيد أن الحضارة العربية كانت تسيطر إلى حدّ كبير على الحضارة الأوروبية حتى القرن الرابع عشر)[4].

(إننا نصطدم براى – مـبيّت استـعمارى قديم – وجـدت خلاصة كـاريكاتورية عنه فى كتاب كان متوافـرًا فى جميع مكتبات الجزائر سنة 1945 وعنوانه: (كتاب السياسة الإسلامية)، وهو أشبه شيء بـكتاب صلاة كامل للمــستعمرين ومما جـــاء فيها خاصــة: (إن العلم العربى الذى بلى ومات ميتة لا رجعة لها إنما قام على اقتباسات من مؤلفات يونانيين اختارها يهود فى العصر الوسيط!)[5].

(يوضح الكاتب (بلاسكو إيبانز) فى كـتابه (فى ظل الكاتدرائية) أن انتعاش إسـبانيا لم يأت من الشمــال، حيث القبـائل البربرية، بل من الجنوب مع العـرب الغزاة.. لقد اسـتولى العرب خــلال ستين على ما بذل الآخـرون لاسترجاعـه منهم سبعـة قرون. إن ذلك لم يكن فتحًا يفرض ذاته بقوة السلاح، بل كان مجتمعًا جديدًا يمدّ من كل جانب جذوره القوية)[6].

(إنما يدين (الغرب) بعـصر النهضة للــ(غزو) العربى الذى عرف كـيف يخلق الشروط الفكرية اللازمة لتفتحه. وهذا الغزو قد جعل من الممكن – أولاً – ابنثاق الثقافات القديمة بدءً

---

(1) حوار الحضارات، ص 267.

(2) حوار الحضارات، ص 96.

(3) حوار الحضارات، ص 98.

(4) حوار الحضارات، ص 99.

(5) حوار الحضارات، ص 101.

(6) حوار الحضارات، ص 102 – 103

من الثقافة الهلينية.. بيد أن العرب لم يقتصروا على ذلك وإنما أسهموا إسهام إبداع ضخم فى الثقافة العالمية)[1].

وفى أحد المؤتمرات النسوية سألته بعض النساء عن موقف الإسلام من المرأة، فقال: (إن القرآن، من وجهة نظر اللاهوتية، لا يحدّد بين الرجل والمرأة علاقة من التبعية الميتافيزيقية: فالمرأة فى القرآن توأم وشريكة للرجل لأن الله خلق البشر ككل شئ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات] والقرآن لا يحمّل المرأة المسؤولية الأولى للخطيئة)[2].

(إذا نحن قارنّا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة فإنها تسجل تقدّمًا لا مراء فيه، ولا سيما بالنسبة لأثينا ولروما، حيث كانت المرأة قاصرة بصورة ثابتة)[3].

(فى القرآن تستطيع المرأة التصرف بما تملك، وهو حق لم يعترف لها به فى معظم التشريعات الغربية ولا سيما فى فرنسا إلا فى القرن التاسع عشر والعشرين. أما فى الإرث فصحيح أن للأنثى نصف ما لذكر، إلا أنه بالمقابل تقع جميع الالتزامات وخاصة أعباء مساعدة أعضاء الأسرة الآخرين على عاتق الذكر. المرأة معفاة من كل ذلك. والقرآن يعطى المرأة حق طلب الطلاق وهو ما لم تحصل عليه المرأة فى الغرب إلا بعد ثلاثة عشر قرنا)[4].

(فى القرآن إقرار بتعدّد الزوجات. إلا أن هذا التعدد لم يؤسسه هو، كان موجودًا من قبل (وهو موجود كذلك فى التوراة وفى الأناجيل)، وقد فرض عليه، على العكس، حدودًا مثل العدل التام بين مختلف الزوجات فى الإنفاق والمحبة والمعاشرة الجنسية، وهى قواعد إذا ما جرى تطبيقها بحرفيّتها تجعل تعدد الزوجات مستحيلا)[5].

(يحسن ألا ننسى بأن جميع ألوان الرقّة فى الحب والشفافية فيه - على نحو ما ظهر فى الغرب لدى شعراء التروبادور، وفى قصائد دانتى - من أصول عربية إسلامية)[6].

**بربارا براون:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (بربارا براون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لكاتبة أمريكية اعتنقت الإسلام فى التسعينات.

قلت: فهل التقيت بها؟

(1) حوار الحضارات، ص 103.
(2) وعود الإسلام، ص 78.
(3) وعود الإسلام، ص 78.
(4) وعود الإسلام، ص 78-79.
(5) وعود الإسلام، ص 80.
(6) وعود الإسلام، ص 79.

قال: أجل.. لقد تشـرفت بذلك، ومن جوابها لى عن سر اعتناقهـا الإسلام، قالت: لقد نشـأتُ كمسـيحيّـة وترعرعتُ فى كنف طائفـة بروتستانتـيّة تُعـرف بـ (عقيـدة المسيحـية الاصلاحية) Christian Reformed Faith.

ورغم الخلفية الدينيّة الشاملة من صلاة فى الكنيسة مرتين كلّ يوم أحد وفى العطلات، وتعليم مسـيحى خاص يوم الأحـد، ومدارس صيـفيّة لدراسـة الكتاب المقدّس، ومـعسـكرات دينيّة، ودروس عقائديّة كنسـيّة ومجموعات شبـاب مسيحيّة، فقد وجـدتُ نفسى أواجه أسئلة عديدة، بخصوص أُسس عقيدتى، لم يستطيع أى شخص ولا أيّة طريقة من التعليم الدينىّ أن تجيب عليها.

ولمدّة سبع وثلاثين سنة، كنتُ تائهـة فى ضباب هذا الارتياب بخصـوص الله والطريقة الصحيحة لعبادته حتّى استطعت فى عام 1991م أن أكتشف الإسلام.

سكتت قليلا تسترجع ذكرياتها، ثم قالت: لقد كان نزاع (عاصفة الصحراء) فى الشرق الأوسط على أشدّه. وبجوار كتب استراتيجيّـة الحروب والأسلحة فى مكتبة محليّة، كان هناك كتاب صغـير عنوانه (فَهمُ الإسلام) (Understanding Islam)، وتصفّحت الكتـاب بنفس فضول البعض، فى ذلك الوقت، حـول هذا الدّين (الغامض) من الشرق الأوسط، وتحـوّل الفضول بسرعـة إلى اندهاش، عندمـا عرفتُ من خـلال صفحـات ذلك الكتاب أنّ الإسـلام أعطانى الأجوبة لتلك الأسئلة التى كانت تنتابنى طيلة تلك السنين.

لم أضيّع كـثيـراً فى الوقت، لقد أصبـحتُ مسلمـة، وأخيراً فلقـد توصّلتُ إلى ذلك الهدف، وهو أن أكون فى سلام داخلى نفسى بخصوص علاقتى مع الله.

التفت البابا إلىّ، وقال: وبما أنّ الله قد وهب هذه المرأة الفاضلة الإمكانيّة لأن تُعبّر عن نفـسها وأفكـارها ببلاغـة، فإنّهـا حاولت أن تُخـاطب الآخرين الذين يعـانون من نفس تلك الشكوك التى تطوف فى مخيّلاتهم بخصوص الدّين؛ وكان الأمل الذى يحدوها هو كما ذكرت لى: (إنّنى ربّما أستطيع أن أوجّـههم نحو بعض الأجوبة. إنّ المادّة التى أقـدّمها هنا يمكن أن تفاجىء البـعض وربما تصدمـهم عندما يقـرؤونها، ولكن البـحث عن الحقيـقة ليس سـهلاً، وخصوصًا فى مواجهة العقائد والمبادىء التى اعتنقناها لآماد طويلة)

وفى هذا الاتجاه، بدأت عملها بكتـابة بعض المقالات، وأبرزها مقالة بعنوان (ثلاثة فى واحد: نظرة إلى العـقيدة المسيحيّـة فى التثليث)، وقد طُبـعت فى بداية عام 1993، من قِبَل مدرسة شيكاغو المفتوحة The Open School Of Chiago.

ومنها مقـالة عنوانها (نظرة عن قرب نحو الدّيانة المسـيحيّة)، وهى دراسـة عن العقائد المسيحيّة.

ومنهـا مقالة عنوانـها (حالة في الـفساد)، وهي دراسـة في تحريف النص في الـكتاب المقدّس.

وفـي آذار (مارس) 1993م، أقدمت هذه الكاتبـة الفاضلة علـى تجـميـع المقالات الآنفة الذكـر مـع بحوث اضافـية، وطبعتها في كـتاب صـدر بالانجليزيّة عـام 1993م تحت عنوان: A Closer Look At Christianity وتُرجم إلى العـربيـة عـام 1995م، بعنوان (نظـرة عن قـرب في المسيحيّة).

وقد صدرت كتـابها القيم بقولها: (أن نكون في سلام مع أنفـسنا بخصوص الله: هذه ببساطة، هي الفكرة وراء هذا البحث كلّه).

ثم تقول: (إنّ الكثير منّا يعيش حياته راضيًا بقـبول الأشياء (كما هي)، فنضرب صفحًا عن الأسئلة الصغيـرة المنكّدة والشكوك التي تتوارد على أذهاننا وخصوصًا في القـضايا المتعلّقة بالدّين. نعم إنّنا نستطيع أن نمضي هكذا في رحلة الحـياة، ولكنّنا لا نستطيع أبدًا أن نصل إلى تلك الحالة من السّلام داخل نفوسنا.

والبعض منّا، مع ذلـك لا يكتفون أن يأخـذوا الأشياء بسطحـيّة، فيـبحثـون بجدّ عن أجوبة تلك الأسـئلة التي تعترضنا فـي طريق الحياة. فنحن نضع مـوضع التساؤل عـقائد آبائنا ولسنا مـستعدّين لأن نقتنع بالقبـول الأعمى. وهذا الطريق ليس من السّهل أن نسيـر عليه بأي حال، ولكن المكافأة هي التي تستأهل منّا هذا الجهد).

وتختتم بقولها: (إنّي لآمل في الصفحات التاليـة أن تُتاح الفرصة للقرّاء ليُبصروا وجهة النظر حول المسيحيّة كما تيسّر لي أن أفهمها).

وفي حديـثها عن مـرحلة ارهاصات ظهـور المسيح، قـالت: (لأجل أن نفهم الـرسالة الحقيقيـة للمسيح، يجب علينا أن نعود إلى التاريخ قبل ظهـور المسيح لنجد لماذا أُرسل المسيح أصلاً؟ لنخلص إلى أنّ اليـهود قد انحرفوا، مـرّة أخرى، عن التوحيد، ولكـنّ انحرافهم عن التوحيد في هذه المرّة قـد تمّ تحت غطاء كثيف من الطقوس والشعائـر المعقّدة. انّ هذا كان هو الموقف السائد في العالم عندما تلقّى عيسى دعوته من الله).

وعن رسالة المسيح السماويّة، وكـيف طرأ عليها التغيير أو التحـريف فجأة عندما ظهر على المسرح واعظ ادّعى بأنّه يتكلّم بـاسم المسيح، بعد سنوات قليلة فقط من رحـيل المسيح. ذلك هو الشـاب اليهـوديّ شاؤول المـولود في طرطوس، والعضـو في طائفـة يهوديّة تسـمّى الفريسيـين التي تتميّز بتمسّـكها الأعمى بالمظاهر والطقوس: (وبالرغم من أنّ الديانة المسـيحيّة تأخذ اسمـها من عيسى المسـيح، فانّ شاؤول الذي غيّـر اسمه إلى بولس يجب أن يُعـتبر هو مؤسّـسها الحقيقيّ. والمسيـحيّون لا ينكرون ذلك أيضًا، ولكن هناك مشكلة كـبيرة.. وهي أنّ تعاليم بولس ـالمؤسس الحـقيقي للمسـيحيّة ـ لا يمـكن العثور عليهـا في أيّ مكان من تعاليم

عيسى أو فى تعاليم الأنبياء الذين سبقوه. ليس هذا فقط؛ ولكنّ بولس لم يكن له إلاّ اتصال قليل مع الحواريين الحقيقيين لعيسى والذين كان من الممكن أن يوجّهوه إلى الطريق الصحيح. فهؤلاء لم يكونوا على وفاق مع تعاليم بولس المبتكرة وأخبروه بذلك كلّما كان ذلك ممكنًا.

وفى النهاية، على أيّ حال، فإنّ نوع المسيحيّة التى نادى بها بولس إنّما أحرز فيها النجاح بفضل شخصيّته السّاحرة، إضافة إلى حقيقة أنّه وأصحابه غلبوا الحواريين الحقيقيين لعيسى فى أمور مهمّة كالوجاهة الاجتماعيّة والثروة والتعليم، ولذلك حصل على أتباع كثيرين من بين السكّان غير اليهود. فالمسيحيّة ـ اليهوديّة، أى عقيدة حواريى عيسى لم تكن لها أيّة فرصة للنهوض)

وفى حديثها عن البدع التى أدخلها بولس فى ديانته المسيحيّة كالتثليث، والخطيئة، وإلوهيّة عيسى وموته، والخلاص، انتهت إلى أنّ الإسلام هو الدين الحق، فهو دين بسيط ليس مدفونًا تحت تعقيدات غامضة وغير منطقيّة من العقائد، وليس فى الإسلام كهنوت ولا قدّيسون ولا مراتب دينيّة ولا قرابين مقدّسة.. فاللاهوت لا مكان له فى الإسلام[1]، لأنّ الإسلام طريقة حياة وليس حفنة من الكلمات.

**ماريا ألاسترا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ماريا ألاسترا)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكرة إسبانية، ولدت فى الأندلس عام 1949م، وحصلت على إجازة فى الفلسفة وعلم النفس من جامعة مدريد، واعتنقت الإسلام عام 1978م، وكانت تدير مركز التوثيق والنشر فى المجلس الإسلامى، وقد كتب الله أن تختم حياتها بالشهادة فى غرناطة عام 1998م على يد حاقد إسبانى بعد لحظات من إنجاز مقالها (مسلمة فى القرية العالمية).

وكان مما كتبته فى هذا المقال الذى ختمت به حياتها: (إننى أؤمن بالله الواحد، وأؤمن بمحمد نبيًا ورسولاً، وبنهجه نهج السلام والخير... وفى الإسلام يولد الإنسان نقيًا وحرًا دون خطيئة موروثة ليقبل موقعه وقَدره ودوره فى العالم).

وورد فيه: (إن الأمة العربية ينتمى بعض الناس إليها، أما اللغة العربية فننتمى إليها جميعًا، وتحتل لدينا مكانًا خاصًا، فالقرآن قد نزل بحروفها، وهى أداة التبليغ التى استخدمها الرسول محمد ﷺ).

وفيه: (تُعد التربية اليوم أكثر من أى وقت آخر، شرطًا ضروريًا ضد الغرق فى المحيط الإعلامى، فصحافتنا موبوءة بأخبار رهيبة، لأن المواطن المذعور سيكون أسلس قيادًا، وسيعتقد خاشعًا بما يُمليه العَقَديّون).

---

(1) بمعناه المسيحى.

(2) انظر: مقال (مسلمة فى القرية العالمية) ترجمة صلاح يحياوى، مجلة (الفيصل) العدد (291) عام 2000م.

**مارجريت ماركوس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (مارجريت ماركوس)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم مفكرة أمريكية من أصل يهودى، أسلمت، وتسمت بعد إسلامها مريم جميلة، وقد وضعت كتبًا منها (الإسلام فى مواجهة الغرب)، و(رحلتى من الكفر إلى الإيمان) و(الإسلام والتجدد) و(الإسلام فى النظرية والتطبيق)

وقد ذكرت فى هذه الكتب سر اعتناقها للإسلام، ومما جاء فيها: (لقد وضع الإسلام حلولاً لكل مشكلاتى وتساؤلاتى الحائرة حول الموت والحياة وأعتقد أن الإسلام هو السبيل الوحيد للصدق، وهو أنجع علاج للنفس الإنسانية).

وفيها: (منذ بدأت أقرأ القرآن عرفت أن الدين ليس ضروريًا للحياة فحسب، بل هو الحياة بعينها، وكنت كلما تعمقت فى دراسته ازددت يقينًا أن الإسلام وحده هو الذى جعل من العرب أمة عظيمة متحضرة قد سادت العالم).

وفيها: (كيف يمكن الدخول إلى القرآن الكريم إلا من خلال السنة النبوية؟! فمن يكفر بالسنة لا بد أنه سيكفر بالقرآن).

وفيها: (على النساء المسلمات أن يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين الذى جاءت أحكامه صائنة لحرماتهن، راعية لكرامتهن، محافظة على عفافهن وحياتهن من الانتهاك ومن ضياع الأسرة).

**روبرت بيرجوزيف:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (روبرت بيرجوزيف)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لأستاذ سابق للفلسفة بالجامعات الفرنسية، وله العديد من الكتب فى مجال الفلسفة والتوحيد، وقد اعتنق الإسلام بعد دراسة جادة مضنية أوصلته إلى اقتناع كامل به كدين قائم على التوحيد.

قلت: هل التقيت به؟

قال: أجل، لقد من الله على بذلك، وكان من جوابه لى عن سر إسلامه قوله: بلا شك أن الإسلام ـ وهو دين العلم والمعرفة ـ يدعو معتنقيه إلى التزود بالعلم به، ولا غَرْوَ فى ذلك، فإن أول آية من القرآن الكريم هى قوله تعالى لرسوله الكريم: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (العلق: 1)، والنبى الكريم يقول: «اطلبوا العِلمَ من المهد إلى اللحد».

قلت: فما علاقة هذا بإسلامك؟

قال: من تجاربى الشخصية وصلت إلى إيمان لا يتزعزع بأن الفرد الذى يخلص فى أبحاثه للحصول على العلم فى أى فرع من فروعه لخدمة المجتمع، ولخير البشرية جمعاء؛ فإن

---

(1) مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندى (مجلد6/ ص199).

الله سبحانه وتعالى سيجازيه خير الجزاء على كل ما يقدمه من خير لمجتمعه، فالله يقول فى سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة]، وبالنسبة لى فإننى لم أكتف بدراستى الخاصة فى الفلسفة، بل إننى حاولت فى شتى فروع المعرفة، وخاصة فى إثبات وحدانية الله خالق كل شىء، ومدبر كل شىء فى هذا الكون، الذى تهدده الحضارة المادية الإلحادية التى تكاد تقضى على كل ما توارثته الأجيال الماضية والحاضرة من تقدم وازدهار. فسلاح العلم وحده لا يُستخدم إلا فى الخير والبناء، لا فى الدمار والخراب، وذلك هو الأمل لأبناء البشرية جمعاء للوصول إلى الحقيقة الكبرى، وإلى خلاص العالم من مشاكله.

فالعلم والبحث كانا سببًا فى انبثاق إشراقة الأمل ونور الحق، وإنارة الطريق أمامى؛ ليهدينى ربى إلى الصراط المستقيم، ويرشدنى إلى بر الامان، وينقذنى من العذاب الشديد الذى كنت أعانيه نتيجة الصراع العنيف الذى كان يدور فى نفسى، ولا ريب فى هذا الكلام، فإننى أعتقد بأن الإسلام ـ وهو شريعة الله والحق ـ معناه السلام، بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معانٍ كبيرة، وأولها السلام بين الشخص ونفسه.

فالنفس ـ وهى الأمارة بالسوء ـ لا تستطيع أن تسيطر عليها وتوجهها إلى خير الفرد والمجتمع، إلا الشريعة الإسلامية ومبادئها السمحاء.

فالشهادة تعنى أن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، تعنى أن الناس جميعًا متساوون، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى.

واتصال العبد مباشرة بخالقه خمس مرات يوميا ـ فى صلاته ـ زادٌ يومى يُذَكِّرُهُ بوجود الخالق، ويدعوه إلى إتباع ما دَعَا إليه، واجتناب ما نَهى عنه، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠﴾ [آل عمران].

والزكاة تُوحدُ بين القلوب، وتقضى على الحقد والبغض والحسد، فتقرب بين المسلمين وتجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

وصيام رمضان يعتبر تدريبًا للنفس لكبح جماحها.

وخروج الفرد من زينة الدنيا فى الحج يذكره بيوم الحشر والحساب.

فهذه المبادىء تستطيع إقامة المجتمع المثالى الذى ظللت أبحث عنه منذ نشأتى.

ولذا فإننى أدعو كل إنسان أن يبحث عن حقيقة الإسلام ومبادئه المختلفة، ولا يتأثر بالادعاءات الكاذبة التى يرددها المغرضون وأصحاب الأغراض الشخصية، فالطريق مفتوح أمام كل إنسان للنظر فى كتاب الله وسنة رسوله، وليحكم بعد ذلك بما يمليه عليه ضميره.

قلت: فماذا فعلت بعد إسلامك؟

قال: أول ما فعلته بعد اعتناقى للإسلام، هو محاولة زيارة الدول الإسلامية لدراسة أحوال معيشتهم، والتعرف عليهم، ولقد سعدت كثيرًا بزيارة المملكة العربية السعودية، والكويت، ومصر وغيرها. وكنت دائمًا أحس بالبيئة الإسلامية التى أفتقدها ويفتقدها كل مسلم يعيش فى بلاد الغرب.

قلت: فهل تنوى خدمة الإسلام بما تعلمته من علوم؟

قال: لا بد من ذلك، إننى الآن أقوم بمحاولة إعداد كتاب باللغة الفرنسية عن الشريعة الإسلامية، وتاريخ الإسلام والمسلمين، ودور علماء المسلمين الأوائل فى العلوم والفنون المختلفة.

قال ذلك، ثم توجه لبعض المستمعين من المسلمين يقول: أود أن أطلب من المسلمين أن يفتخروا بأنهم مسلمون، وأن يكونوا خير مثل لهذه الشريعة الخالدة، وأن يكونوا جديرين بأن يحملوا هذه العقيدة.

وأحب أن أذكر هنا مثلاً يبين لهم أهمية تمسكهم بدينهم دون التأثر بما يجرى من حولهم، وهو أن أصحاب الأعمال هنا يفضلون المسلمين المتمسكين بدينهم، نظرًا لأنهم يكونون على خُلُق طَيّب، وإخلاص تام للأعمال التى يقومون بها، فضلاً عن أن سلوكهم الاجتماعى يجبر الجميع على احترامهم وتقديرهم، واحترام وتقدير عقيدتهم.

كما أطلب من الدول الإسلامية ـ وخاصة مصر ـ أن تتحمل المسئولية الكبرى لخدمة الإسلام والمسلمين فى العالم أجمع، كأن تهتم مثلاً بتوزيع المطبوعات الإسلامية التى تتناول الأسس والمبادىء الإسلامية بالأسلوب العلمى المبسط، وباللغات المختلفة، وأن تهتم بالقرآن الكريم وترجمته للشعوب غير الناطقة بالعربية، والاهتمام أيضًا بأسطوانات وتسجيلات تعليم الصلاة للمسلمين فى الدول الغربية بصفة عامة، وفى فرنسا بصفة خاصة، حتى يمكننا ـ نحن الأوربيين ـ دراسة هذا الدين الحنيف.. كما يمكننا نحن الذين أسلمنا أن نُعَرِّف إخواننا غير المسلمين به، ولكل طالب علم ومعرفة، والله يهدى من يشاء من عباده.

***

## تاسعا - الأصدقاء

فتحت دفتر البابا على فصله التاسع، فوجدت عنوانه (الأصدقاء)، فقلت: ما الذى تقصده بالأصدقاء؟

قال: هذا مصطلح أردت به قوما من الناس أحبوا الإسلام، أو أحبوا أشياء فى الإسلام، ولكنهم قصروا عن أن يكونوا أتباعا له.

قلت: فكيف صاروا أصدقاء إذن ما داموا لم يتنعموا بنعيمه؟!

قال: لقد فتح الله بسببهم عيونا عميا، وأسماعا صما، فلذلك خدموا الإسلام.. والإسلام لا يعادى من يخادمه.

قلت: ولكنى عرفت أن من ركائز الإسلام ما يسمى بالولاء والبراء. والناس بذلك إما مسلمون نكن لهم كل المودة، وإما كفار نكن لهم كل العداوة.

قال: من قال ذلك؟

قلت: كلهم يقولون ذلك.

قال: أخطأ من قال ذلك..

قلت: هم يقرؤون لذلك قرآنا.

قال: وما يقرؤون؟

قلت: يقرؤون قوله عز وجل: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾ [آل عمران]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤)﴾ [النساء]، وقبل ذلك بآيات قوله عز وجل: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ [النساء]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾ [المائدة].

قاطعني، وقال: وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ [التوبة]، وقوله عز وجل: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فيها رضي اللهُ عَنْهُمْ ورضُوا عنهُ أُولَئك حزبُ الله ألا إنَّ حزبَ الله هُمُ الْمُفْلحُون ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]، وقوله عز وجل: ﴿ يا أيُّهَا الَّذينَ آمنُوا لا تَتَّخذُوا عدُوِّي وعدُوَّكُمْ أوْلياءَ تُلْقُونَ إلَيْهِم بالْمودَّة وقدْ كفرُوا بما جاءكُم مِّنَ الْحقِّ يُخْرجُونَ الرَّسُولَ وإيَّاكُمْ أن تُؤْمنُوا باللَّه ربّكُمْ إن كُنتُمْ خرجْتُمْ جهادًا في سبيلي وابْتغاء مرْضاتي تُسرُّون إلَيْهم بالْمودَّة وأَنَا أعْلَمُ بما أخْفيْتُمْ وما أعْلنتُمْ ومن يفْعلْهُ منكُمْ فقدْ ضلَّ سواء السَّبيل ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة].

قلت: أجل.. ألا تكفى هذه الآيات لتضع بيننا وبينهم أسوارا من العداوة لا نلتقى بعدها أبدا؟

ابتسم، وقال: أرأيت لو أن كل أولئك الذين أخبرتك عن إسلامهم لاقوا أجلافا غلاظا لا يعرفون منهم إلا العداوة؛ هل تراهم يقبلون على الإسلام بذلك الشغف الذى أقبلوا به؟

سكت قليلا، ثم قال: ولماذا نذهب بعيدا.. هو ذا أنا أمامك، لو أنى لاقيت مثل هؤلاء الناس لما فعلت بهم إلا ما فعل سلفى من البابوات. إن الحرب لا تجر إلا الحرب، والعداوة لا تجر إلا إلى العداوة.

قلت: ولكن كيف نفعل بالنصوص التى كنا نقرؤها؟

قال: نفهمها..

قلت: على ضوء كلام المفسرين، أم على ضوء كلام الفقهاء؟

قال: على ضوء القرآن الكريم.. فخير ما فسر القرآن القرآن، وعلى ضوء كلام رسول الله، فخير من فهم كلام الله رسول الله.

قلت: فأين تفسير تلك الآيات؟

قال: فى قوله عز وجل ـ وهو يضع الضابط الذى تفسر من خلاله جميع ما يسمونه نصوص الولاء والبراء ـ: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتلُوكُمْ في الدّينِ ولَمْ يُخْرجُوكُم مّن ديَاركُمْ أَن تَبرُّوهُمْ وتُقْسطُوا إلَيْهمْ إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسطينَ ﴿٨﴾ إنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ قَاتَلُوكُمْ في الدّينِ وأَخْرَجُوكُم مّن ديَاركُمْ وظَاهرُوا عَلَىٰ إخْرَاجكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ومَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة].

فهاتان الآيتان تضعان إطار العداوة والصداقة.

قلت: ما هو هذا الإطار؟

قال: أن نصادق من صادقنا، وأن لا يوالى من يعاديه.

قلت: ما معنى عدم موالاته؟

قال: أن لا تمده بالمعونة التى تجعله يحاربك بها.. هذا هو وحده إطار البراء الذى يرسمه القرآن. وهو لا يمنعك من أن تدعوهم، وتحب لهم من الخير ما تحبه لكل مؤمن، بل تحزن لهم إن ماتوا وهم لا يعرفون الله.

قلت. إنك تقضي بهذا على مفهوم البراء الذي ينشره كثير من قومنا.

قال: بسوء فهمهم، وببعدهم عن القرآن، وعن شمس محمد.

قلت ولكن محمدا حارب الكفار

قال: ولكنه كان يحب لهم كل الخير، بل يحزن عليهم، بل كاد يقتله الحزن عليهم! ألم تقرأ قوله عز وجل: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴿٦﴾﴾ [الكهف]، وقوله عز وجل: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]. . وهو في حربه لهم كان يدافع عن دينه، وكم تمنى أن لا يريق دما من دمائهم، ولولا أنهم اضطروه لذلك ما حمل عليهم سيفا.

قلت: صدقت في هذا. وفي القرآن الآيات الكثيرة الدالة على ما ذكرت، وفي حياة الرسول ﷺ النصوص الكثيرة المؤيدة لذلك.

قال: فاقتدوا بمحمد. . ولا تقتدوا بأولئك المجرمين الذى امتلأت قلوبهم ظلمة، فراحوا يرمون بها الإسلام.

قلت: عد بنا إلى الأصدقاء، إن من قومي من يرفض هذه التسمية.

قال: عندما أرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى النجاشي. . هل كان النجاشي مسلما أو كافرا؟

قلت: لم يكن النجاشي حينها مسلما.

قال: فماذا قال لهم رسول الله ﷺ؟

قلت: قال لهم: «إن بها ملكًا لا يظلم الناس ببلاده في أرض صدق فتحرزوا عنده يأتيكم الله عز وجل بفرح منه، ويجعل لي ولكم مخرجًا»[1].

قال: فقد أثنى عليه رسول الله ﷺ ثناء حسنا، واعتبر أرضه أرض صدق؟

قلت: أجل. .

قال: فاعتبروا بهذا، وحولوا العالم كله أصدقاء لكم، فلا خير فيمن يبحث عن العداوة، وينشر عقيدة العداوة.

قلت: اقتنعت بما ذكرت. فهلم بنا إلى سفرك؛ لتقص عليَّ أنباء هؤلاء الأصدقاء.

قال: قبل أن أذكر لك شهاداتهم[2] أريد أن أخبرك بأن هؤلاء صنفين:

---

(1) رواه ابن إسحق.

(2) اعتمدنا في أكثر الشهادات الواردة في هذا الفصل الطويل على ما أعده الدكتور عماد الدين خليل من جمع للشهادات الكثيرة التي شهد بها المستشرقون وغيرهم حول القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية، والذى جمع فيما بعد في كتاب واحد تحت عنوان (قالوا عن الإسلام).

وقد جمع هذا الكاتب الفاضل تلك النقول الكثيرة بطلب من الندوة العالمية للشباب. =

قلت: فما الصنف الأول؟

قال: قوم امتلأوا بحب الإسلام، فلم يدعوا مناسبة يثنون بها عليه إلا فعلوا.. وهؤلاء أرى أن نكل أمرهم إلى الله؛ فقد يكونون من المسلمين الذى كتموا إسلامهم، فلذلك يستحقون منا كل الاحترام.

قلت: صدقت.. وقد عرفنا فى رحلتك السابقة خبر بعضهم.. فما الصنف الثانى؟

قال: قوم مذبذبون.. فمرة يغلبهم الصدق، فينطقون بالحق، شعروا أو لم يشعروا.. ومرة يحنون إلى حياتهم وأقوامهم ومذاهبهم، فينطقون بالباطل.

قلت: فهؤلاء أعداء وليسوا أصدقاء.

قال: لا.. هؤلاء أصدقاء فى الحق الذى نطقوا به، ألم تقرأ قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... (40)﴾ [النساء]، وقوله عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7)﴾ [الزلزلة].

---

= وقد بدأت فكرة هذا الكتاب عندما أعدت الندوة عددًا من النشرات باللغة الإنجليزية للتعريف بالإسلام لغير المسلمين كان من بينها ثلاث مطويات هى: (ماذا قالوا عن الإسلام)، و(ماذا قالوا عن القرآن)، و(ماذا قالوا عن الرسول)

وقد لاقت تلك النشرات استحسانًا كبيرًا، كما تذكر الندوة، بل أصبحت مادة الدعوة للإسلام داخل المملكة وخارجها، وترجمت إلى عدد كبير من اللغات الحية، ومن هنا نشأت فكرة تأليف كتاب جامع لهذه الشهادات.

وتذكر الندوة أنها فكرت طويلاً فى الفكرة ثم أعدت ورقة العمل التى توضح أمرها واستشارت فيها عددًا من العلماء فى الداخل والخارج فجاءت الردود مشجعة جدًا، مما يدل على أن هذا الكتاب المقترح سوف يسد ثغرة يحتاج المسلمون إلى سدها.

فطلبت الندوة من الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل أن يقوم بتحمل هذا العبء الكبير، فقام به خير قيام.

وهذا الكتاب يقدم مجموعة من الشهادات المنصفة فى حق الإسلام، وقرآنه الكريم ونبيه العظيم، وتاريخه وحضارته ورجاله، وهذه الشهادات صدرت عن أعلام معظمهم من غير المسلمين، فيهم السياسى والأديب والشاعر والعالم، والعسكرى، والرجل والمرأة.

ومع هذه النقول الكثيرة، فإن الكاتب اقتصر على الاستشهاد بأقوال الغربيين الذين سبقوا العشر سنوات الماضية، كما اقتصر على الرجوع للترجمات العربية.

وتذكر الندوة أن المؤلف جمع مادة ضخمة من الشهادات والنقول التى رأت جمال الإسلام وكماله، ولكن الندوة تريد أن يحقق الكتاب هدفه بأيسر الطرق فاقترحت على المؤلف أن يختصر اختصارًا لا يخل بالمنهج وذلك بالإبقاء على عدد محدود من الشهادات لكل صاحب شهادة يفى بالهدف الذى اختيرت الشهادات من أجله وهذا الذى كان.

ولذلك فإن الكتاب ـ الذى استفدنا منه هذه النقول ـ هو الطبعة المختصرة من المشروع الأصلى للكتاب.

ونحب أن ننبه هنا إلى أنا سنذكر فى الهوامش المصادر الأصلية التى ذكرت فيها تلك النقول ثقة منا بالذى جمعها، وقد أشرنا إلى هذا هنا حتى لا نضطر كل مرة إلى الإيعاز إليه.

قلت: ولكن الله عز وجل قال: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة].

قال: نحن نبحث عن الخير لنبشر به.. أما الدينونة، فندعها لله.. ألم يعلمك معلم السلام هذا؟

قلت: بلى، جزاه الله خيرا، وجزاك الله كل خير. لقد أضر بنا الصراع، فصرنا لا نرى إلا الصراع.

فتحت الدفتر.. فرأيت أسماء لدول مختلفة، فقلت: ما هذه الأسماء؟

قال: لقد وفقني الله، فقمت برحلات مختلفة إلى كثير من دول العالم، أحضر مؤتمراتها وندواتها، وقد سجلت في كل رحلة من تلك الرحلات بعض ما سمعته من شهادات.

قلت: ألم تسجل كل الشهادات؟

قال: يستحيل ذلك!! فسمعة الإسلام ـ بحمد الله ـ في قمة الطيبة بين العلماء والمثقفين رغم ما تمارسه وسائل الإعلام من حملات تشويه.

## ١ - أصدقاء من العرب

كان أول ما رأيته فى هذا الفصل عنوان (أصدقاء من العرب)، فسألت البابا قائلا: من تقصد بأصدقاء الإسلام من العرب؟

قال: رجال من أهل الكتاب، ولدوا فى أرض العرب، وعاشوا بين المسلمين.

قلت: ألا تعتبر شهادة هؤلاء مرفوضة عند غير المسلمين؟

قال: لا.. بل هذه الشهادات أشرف الشهادات، لأنها جاءت من قوم معايشين للمسلمين، وبالتالى تكون أحكامهم فى منتهى الوثوق والدقة.

قلت: صدقت.. فأعظم ما يدل على تسامح المسلمين هو وجود أهل الكتاب بينهم من قديم العصور. فهم بذواتهم وبيوتهم وممتلكاتهم من أعظم الشهادات على مصداقية الإسلام ورقيه.

قال: ولهذا أوصى رسول الله ﷺ بأهل الذمة، وبمثل ذلك أوصى من بعده.

### د. فيليب حتى:

كان (د. فيليب حتى)[1] هو أول الأسماء المثبتة فى قائمة العرب، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من مسيحيى لبنان، وقد درس فى كبريات جامعات العالم، وله مصنفات ترتبط بالإسلام.

قلت: فهل ستذكر لى بعض شهاداته؟

قال: شهاداته كثيرة.. وسأذكر لك منها ما تقر به عينك.

كنا فى لبنان، وكان الجمع يتحدث عن اللغة العربية وأساليبها وجمالها، وفجأة نطق د. فيليب حتى يقول[2]: (إن الأسلوب القرآنى مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا فى أساسه، هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى)[3].

---

(1) د. فيليب حتى P. Hitti ولد عام 1886م، لبنانى الأصل، أمريكى الجنسية، تخرج من الجامعة الأمريكية فى بيروت (1908م)، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (1915م)، وعين معيداً فى قسمها الشرقى (1915-1919)، وأستاذاً لتاريخ العربى فى الجامعة الأمريكية ببيروت (1919-1925)، وأستاذاً مساعداً للآداب السامية فى جامع برنستون (1926-1929م)، وأستاذاً ثم أستاذ كرسى ثم رئيساً لقسم اللغات والآداب الشرقية (1929-1954م)، حين أحيل على التقاعد، انتخب عضواً فى جمعيات ومجامع عديدة.

من آثاره: (أصول الدولة الإسلامية) (1916م)، (تاريخ العرب) (1927م)، (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) (1951م)، (لبنان فى التاريخ) (1961م)، وغيرها.

(2) الشهادات المذكورة فى هذا الفصل هى الموضوعة فقط بين قوسين، وما عداها تصرف من المؤلف ليقرب المعنى، وترتبط الشهادة بأحداث الرواية.

(3) الإسلام منهج حياة، ص 62.

ثم أضاف يقول: (إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهرًا على الأدب العربى. أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التى نقلت فى عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذى تركته على اللغة الإنجليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذى تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذى حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات)(1).

وهو يعتبر القرآن الكريم السبب المباشر الذى حفظ اللغة العربية، وحفظ الأمة الإسلامية، فقال: (إن اللغة العربية هى لغة القرآن التى كانت الأساس الذى قامت عليه أمة جديدة أخرجت للناس، أمة جاءت بها بعثة محمد من قبائل متنافرة متنازعة لم يقدّر لها من قبل أن تجتمع على رأى واحد. وهكذا استطاع رسول الإسلام أن يضيف حدًا جديدًا (رابعًا) إلى المأثرة الحضارية ذات الحدود الثلاثة من الدين والدولة والثقافة، ذلك الحد الرابع الجديد كان (إيجاد أمة ذات لغة فوق اللغات)(2).

وفى مناسبة أخرى كان الحديث فيها عن العلاقات الاجتماعية قال: (إن إقامة الأخوة فى الإسلام مكان العصبية الجاهلية (القائمة على الدم والقرابة) للبناء الاجتماعى كان فى الحقيقة عملاً جريئًا جديدًا قام به النبى العربى)(3).

وفى مناسبة أخرى تحدث ناقدا الذين يستعملون أساليب مشبوهة فى تحليل شخصية رسول الله ﷺ، فقال: (فى الكتاب المعاصرين لنا نفرٌ يحاولون أن يكتشفوا الأعمال الباهرة (التى حققها محمد) أو أن يعالجوا حياته الزوجية على أساس من التحليل النفسى، فلا يزيدون على أن يضيفوا إلى أوجه التحامل وإلى الآراء الهوائية أحكامًا من زيف العلم)(4).

وقد أرشد إلى النظر إلى الرجوع إلى القرآن الكريم للتعرف من خلاله على رسول الله ﷺ، فقال: (صفات محمد مثبتة فى القرآن بدقة بالغة فوق ما نجد فى كل مصدر آخر. إن المعارك التى خاضها والأحكام التى أبرمها والأعمال التى قام بها لا تترك مجالاً للريب فى الشخصية القوية والإيمان الوطيد والإخلاص البالغ وغير ذلك من الصفات التى خلقت الرجال القادة فى التاريخ. ومع أنه كان فى دور من أدوار حياته يتيمًا فقيرًا، فقد كان فى قلبه دائمًا سعة لمؤاساة المحرومين فى الحياة)(5).

وهو يثنى ثناء عطرا على رسول الله ﷺ فيقول لمن سأله عن تقييمه للدور الذى قام به رسول الله ﷺ: (إذا نحن نظرنا إلى محمد من خلال الأعمال التى حققها، فإن محمدًا الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحدًا من أقدر الرجال

---

(1) الإسلام منهج حياة، ص 287 - 288.
(2) الإسلام منهج حياة، ص 19 - 20.
(3) الإسلام منهج حياة، ص 51.
(4) الإسلام منهج حياة، ص 54.
(5) الإسلام منهج حياة، ص 54.

فى جميع أحقاب التاريخ. لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هى الخلافة، ووضع أساس حضارة هى الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هى الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة فى حياة الملايين من البشر)[1].

وهو يثنى على الإسلام ثناء عطرا، بل يعتبره منهج حياة، فيقول: (الإسلام منهج حياة. وهو - بهذا النظر - يتألف من ثلاثة جوانب أساسية، الجانب الدينى والجانب السياسى والجانب الثقافى. هذه الجوانب الثلاثة تتشابك وتتفاعل، وربما انقلب بعضها إلى بعض مرة بعد مرة من غير أن نلحظ ذلك)[2].

وهو يتحدث عن انتشار الإسلام بمؤسساته المختلفة محافظا على أصالته، فيقول: (الإسلام - بما هو دولة - وحدة سياسية تضمّ مجموعًا من المؤسسات القائمة على الشريعة، على المبادئ القرآنية، أنشأها محمد فى المدينة، ثم تطورت فى أيام خلفائه على أنقاض الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ثم بلغت هذه الدولة الإسلامية ذروة لم تبلغ إليها دولة فى العصور الوسطى، ولا فى العصور القديمة)[3].

وذات مرة سمعته مع بعض القسس يتحدث عن المقارنة بين المسيح ومحمد، وكان من ضمن أقواله هذه الشهادة: (لا سبيل إلى الموازنة بين محمد رسول الإسلام وبين عيسى مؤسس النصرانية (فى رأى النصارى). إن محمدًا لم يكن فيه صفة ذاتية غير طبيعية ولا جاء مسيطرًا على البشر بقوة خارقة، ولكنه كان مبلغًا لرسالة ربه. ويجب أن نذكر أن هذا الرأى هو الرأى الشرعى العلمى فى الإسلام. من أجل هذا كله نجد المسلمين يأبون أن يسموا (محمديين) بالمعنى الذى يسمى به النصارى (مسيحيين)، وهؤلاء المستشرقون المتأخرون الذين لا يزالون يطلقون هذه التسمية غير المقبولة (الخاطئة) على المسلمين إطلاقًا هينًا يجب أن يعلموا أنه لا يحق لهم أن يسمّوا أمة باسم لا تحبه. إن المسلم، فى اللغة، هو الذى (أسلم نفسه لله) (خضع لإرادة الله)، فالإسلام - من أجل ذلك - ليس دينًا محمديًا ولكنه دين التسليم بإرادة الله)[4].

وفى مناسبة أخرى جرى الحديث فيها عن مزايا الشريعة الإسلامية، قال: (الشريعة [الإسلامية] لا تفرّق بين ما هو دينى وبين ما هو دنيوى. إنها تنص على صلات الإنسان بالله وعلى واجباته نحو الله وتنظّمها كما تفعل فى شأن صلات الإنسان بأخيه الإنسان. وجميع أوامر الله ونواهيه - فيما يتعلق بالأمور الدينية والمدنية وسواها - مثبتة فى القرآن. وفى القرآن ستة آلاف آية أو تزيد يتعلق نحو ألف آية منها بالتشريع)[5].

---

(1) الإسلام منهج حياة، ص 56.
(2) الإسلام منهج حياة، ص 9.
(3) الإسلام منهج حياة، ص 10.
(4) الإسلام منهج حياة، ص 53.
(5) الإسلام منهج حياة، ص 95 - 96.

وفى مناسبة أخرى جرى فيها الحديث عن مدى أصالة الفقه الإسلامى قال (الفقه يمكن أن ينظر إليه على أنه علم إسلامى خالص. وهو - بخلاف عدد كبير من العلوم كالرياضيات والطب والفلسفة - كله نتاج البيئة الإسلامية نفسها. ثم إننا لا نكاد نلحظ فى تطوره أثرًا من الفكر الهندى الإيرانى أو الفكر الهندى الأوروبى. ومؤسس علم الفقه فى الإسلام لم يلتفت إلى الاستعانة بالقانون الرومانى ولا بالفلسفة اليونانية)[1].

وفى مناسبة أخرى كان الحديث فيها عن الفتوحات الإسلامية وصلتها بالاستعمار سمعت منه هذه الشهادات: (إن المدهش حقًا أن دولة تدعو إلى دين غريب تظهر فى شبه جزيرة العرب التى كانت مغمورة فى التاريخ، استطاعت أن تجرد إحدى الإمبراطوريتين العالميتين من أغنى مقاطعاتها فى آسيا وأفريقيا، وأن تقضى على الأخرى، قضاء مبرمًا، فى مدى عشر سنين. . أما كيف اتفق هذا الحدث المذهل ولماذا اتفق، فذلك لأن وراءه قصة من أروع القصص فى العصور الوسطى كلها)[2].

(إن أبرز ما يلفت النظر فى الفتوح العربية ليس تلك السرعة وذلك النظام اللذين تمت بهما - بغير دمار لا مبرر له إلا قليلاً - ولكن تلك السهولة التى انتقلت بها البلاد المفتوحة من حال الحرب إلى حال السلم، ومن التغلّب إلى الإدارة)[3].

(لقد ساعد فتح البلاد الإسلامية ودخول عدد كبير من سكان البلاد المفتوحة فى الإسلام على ازدهار العلم وزيادة ثقافته. وقد امتازت هذه الثقافة بأنها ظلت منذ أواسط القرن الثامن للميلاد (الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة) إلى آخر القرن الثانى عشر للميلاد (وآخر القرن السادس للهجرة) لا تدانيه ثقافة أخرى فى الازدهار ولا يفوقه فى النتاج الأدبى والعلمى والفلسفى نتاج آخر)[4].

وفى مناسبة أخرى جرى الحديث فيها عن الحضارة الإسلامية، قال: (إن فترة النقل تلك (فى العصر العباسى) قد استمرت نحو قرن من الزمن وانتهت فى نحو عام 850 للميلاد (236هـ). ولكن تبعها دور من الابتكار، دور عبر فيه العرب عن فكرهم الأصيل وازدهر فى بغداد ثم امتد قرنين كاملين. وكثر الابتكار فى عدد من ميادين المعرفة كعلم الكلام والفقه وفقه اللغة والبحوث اللغوية الأخرى والفلسفة والطب والعلوم الطبيعية. ذلك كان دورًا لا مثيل له فى جميع أدوار التاريخ العربى. بل إنه بإمكاننا أن نقول أكثر من ذلك: إننا على ثقة من أن العلماء الذين برعوا فى الرياضيات والفلك، والأطباء من الذين عاشوا فى بغداد فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد (الثالث والرابع للهجرة) لم يكن لهم مثيل (يومذاك) فى قارتى

(1) الإسلام منهج حياة، ص 100 - 101.
(2) الإسلام منهج حياة، ص 153 - 154.
(3) الإسلام منهج حياة، ص 162.
(4) الإسلام منهج حياة، ص 10 - 11.

أوروبا وآسيا. لقد جعل هؤلاء من مدينتهم عاصمة للعلم في العالم، كما كانت (من قبل) أثينا عاصمة الفلسفة، وروما عاصمة التشريع، والقدس عاصمة الأديان. وخلقوا حضارة ذات هبات غنية يغلب فيها عنصر الابتكار، وأقاموا في الإسلام عصرًا ذهبيًا (في العلوم الكونية)[1].

وقال: (لم يدرك العرب وجود المعارف العلمية إلا بعد أن جاءهم الإسلام وبعد أن احتكوا بأهل الثقافات القديمة. إن الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام هي التي أدّت إلى هذا الاحتكاك الحيوي للعرب بالتراث الثقافي النفيس الذي خلّفه اليونان والسريان والفرس والمصريون القدماء.. لقد كان من أفضال [العرب] أنهم شجعوا كل جماعة من رعاياهم على أن تحافظ على تراثها القومي وعلى أن توسعه ما دام هذا التراث ليس مخالفًا للإسلام)[2].

وقال: (فيما كان بناء المساجد ينتشر شرقًا حتى بلغ الصين وغربًا حتى وصل إلى الأندلس؛ كان نمط البناء يتأثر بعناصر محلية من غير أن تتبدل خطته الأساسية تبدلاً يذكر. وبما أنّ المسجد كان مكانًا للعبادة فإن بناءه عمومًا ظل على بساطة وجلال. ومع أنه استعار من أنماط البناء الأخرى فإنه ظل معبرًا عن الإسلام تعبيرًا عظيمًا. وأما في أثناء تطوره في التاريخ، من ناحية العمارة، فإنه كان صورة مصغرة لتطور الثقافة الإسلامية: تلك الثقافة التي كان المسجد تعبيرًا صحيحًا عنها - فيما يتعلق بالأمم المختلفة وبأعراق البشر المختلفة - إذ هو يمثل بصورة ملموسة ذلك التفاعل بين الإسلام وبين جيرانه. والمؤمن ذو الاتجاه الروحي، على كل حال، لا يقلقه ذلك التطور. إنه ما يكاد يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء والذي تحيط به الأروقة حتى يجد في نفسه ميلاً شديدًا إلى الانعتاق من البيئة المادية التي حوله ثم نزوعًا، في الوقت نفسه، إلى السّموّ نحو الملأ الأعلى. وهذه المئذنة الطويلة الرشيقة فإنها أشبه بالإصبع التي تنتصب مشيرة إلى السماء، وأما في جوف المسجد فإن القبة المتلألئة بالمصابيح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء. وكذلك المحراب المزخرف (بالأشكال والأغصان والمزين بالآيات الكريمة) فإنه يوجه القلب إلى مصدر الهدى والإيمان. والأعمدة التي تتوالى في صفوف لا تكاد العين أن ترى آخرها توحي بأنها لا تتناهى. وهؤلاء المصلون حولك (معًا أو فرادى، في كل مكان من المسجد) يولّدون في النفس شعورًا بمشاركة في أخوة تسع العالم كله)[3].

(أنه جاء يوم بلغت فيه الثقافة الإسلامية درجة من السّموّ والتقدم لم يقابلها فيها غيرها من الثقافات الهندية والصينية في الشرق أو اليونانية واللاتينية في الغرب. والذي نعنيه بالثقافة الإسلامية تلك المجموعة من العلوم والفنون والفلسفات التي نشأت في ظل الإسلام.. تمتعت

---

(1) الإسلام منهج حياة، ص 189.

(2) الإسلام منهج حياة، ص 209 - 210.

(3) الإسلام منهج حياة، ص 306 - 308، ونحب أن ننبه هنا إلى أن هذا المستشرق كسائر المستشرقين وقع في بعض الأوهام.. وقد كتب الباحثون في الرد على تلك الأوهام، انظر كتاب. عبد الكريم علي باز، افتراءات فيليب حتّي وكار بروكلمان على التاريخ الإسلامي. (جدة: تهامة للنشر. 1403-1983).

هذه الثقافة بعصرها الذهبى من منتصف القرن الثامن للميلاد إلى مطلع القرن الثالث عشر يوم كانت اللغة العربية أداة التعبير عنها، ويوم كانت الشعوب العربية اللسان - وبينهم السورى والعراقى والمصرى والفارسى والتركى وغيرهم - فى مقدمة مشعل الحضارة فى العالم قاطبة، وجاء عدد المؤلفات فى هذه اللغة فى تلك الحقبة، المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والفلكية والجغرافية والرياضية واللغوية، أكثر من عددها بأى لغة أخرى من آسيوية أو أوروبية. والغريب فى أمر العربية التى كانت إلى أواسط القرن الثامن لغة شعر ودين فحسب، أنها فى خلال قرن واحد تطورت وتقدمت إلى أن أصبحت أداة صالحة لنقل دقائق الفلسفة وحقائق العلوم ومصطلحات الفنون. وربما لم يكن من مثيل لهذه الظاهرة الغريبة فى تاريخ نشوء اللغات وبفضل جهود أبناء هذه اللغة.. تسنى لعلوم الأقدمين، من هنود وساميين ويونان ولاتين، مضافًا إليها ما ابتكره هؤلاء الأبناء، على اختلاف عناصرهم القومية، أن تنتهى بعد أجيال عديدة إلى غربى أوروبا، وذلك عن طريق سوريا الصليبية وصقلية وإسبانيا المسلمتين، فتصبح أساس العرفان الذى دان له الفكر الأوروبى فى القرون الوسطى، ورائد السبل لنشوء النهضة الحديثة فى أوروبا الغربية التى لا يزال إلى اليوم أبناء أوروبا وأمريكا ينعمون ببركاتها. فبينا كان الأوروبى يتخبط فى ديجور العصور - التى أطلقوا عليها بحق العصور المظلمة - كان كتبة العربية - وهم يومئذ يشملون معظم المجتمع الإسلامى - يرتعون فى عصرهم العلمى الذهبى)[1].

**د. جورج حنا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (د. جورج حنا)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مسيحيى لبنان، وهو صاحب الكتاب المعروف (قصة الإنسان).. وقد سمعت له بعض الشهادات، منها قوله: (إنه لابد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير فى ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، فى بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هى نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضًا بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعًا، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة)[3].

ومنها قوله: (كان محمد يخرج من سويعات [لقائه مع جبريل] بآيات تنطق بالحكمة، داعيًا قومه إلى الرجوع عن غيّهم، والإيمان بالإله الواحد الكلىّ القدرة، صابًا النقمة على

(1) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، جمع وتقديم، محمد خلف الله، ص550-551.

(2) الدكتور جورج حنا (John G. Hanna) مسيحى من لبنان، من كتبه (قصة الإنسان).

(3) قصة الإنسان، ص 79 - 80.

الآلهة الصنمية، التى كان القوم يعبدونها فكان طبيعيًا أن يحقد عليه أشراف العرب ويضمروا له الشر، لما كان فى دعوته من خطر على زعامتهم، وهى ما كانت قائمة إلا على التعبد للأصنام التى جاء هذا الرجل يدعو إلى تحطيمها. لكن محمدًا لم يكن يهادن فى بث دعوته، ولم يكن يسكت عن اضطهاد أشراف قريش له، بل كان يتحداهم، فيزدادون حقدًا عليه وتآمرًا على حياته. فلم تلبث دعوته حتى تحولت من دعوة سلمية إلى دعوة نضالية. إنه لم يرض بأن يحوّل خدّه الأيسر لمن يضربه على خدّه الأيمن. . بل مشى فى طريقه غير هيّاب، فى يده الواحدة رسالة هداية، يهدى بها من سالموه، وفى يده الثانية سيف يحارب به من يحاربوه. لقد آمن به نفر قليل فى بداية الدعوة، وكان نصيب هذا النفر مثل نصيبه من الاضطهاد والتكفير. . كان هؤلاء باكورة الديانة الإسلامية، والشعلة التى انطلقت منها رسالة محمد)[1].

ومنها قوله: (كان محمد فى المدينة أكثر اطمئنانًا على نفسه وعلى أتباعه ورسالته مما كان فى مكة. . كانت يثرب مدينة العامة التابعة، لا مدينة الخاصة المتبوعة. والعامة دائمًا أقرب إلى اقتباس كلمة الحق من الخاصة، لا سيما إذا كانت كلمة الحق هذه، تحررها من عبوديتها للخاصة)[2].

ومنها قوله: (محمد بن عبد الله كان ثائرًا، عندما أبى أن يماشى أهل الصحراء فى عبادة الأصنام وفى عاداتهم الهمجية وفى مجتمعهم البربرى. فأضرمها حربًا لا هوادة فيها على جاهلية المشركين وأسيادهم وآلهتهم. فكفره قومه واضطهدوه وأضمروا له الموت. فهاجر تحت جنح الليل مع نفر من أتباعه، وما تخلى عن النضال فى نشر دعوته، وما أحجم عن تجريد السيف من أجلها. فأخرج من جاهلية الصحراء عقيدة دينية واجتماعية تجمع بين مئات الملايين من البشر فى أقطار المعمورة)[3].

ومن شهاداته العظمى التى يحترم عليها شهادته على مدى تسامح المسلمين مع جيرانهم المسيحيين، فيقول: (أن المسلمين العرب لم يعرف عنهم القسوة والجور فى معاملتهم للمسيحيين بل كانوا يتركون لأهل الكتاب حرية العبادة وممارسة طقوسهم الدينية، مكتفين بأخذ الجزية منهم[4])[5].

وقال: (لم يرو المؤرخون المسيحيون أنفسهم مثل هذه الوحشية [التى مارسها الصليبيون] على المسلمين. لم يكن هؤلاء وحشيين فى معاملة الأسرى المسيحيين. فإذا انتصروا كانوا يكتفون بضرب الجزية على أعدائهم ولا يفظّعون بهم. بعد معركة طبرية التى انتصر فيها

(1) قصة الإنسان، ص 76.

(2) قصة الإنسان، ص 77.

(3) قصة الإنسان، ص 252.

(4) انظر الشبهات المرتبطة بالجزية فى رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة، وغيرها من الرسائل.

(5) قصة الإنسان، ص 89 - 90.

صلاح الدين الأيوبى على خصمه الملك (غى ده لوسينيان).. عف صلاح الدين عن التفظيع بالأسرى الذين نجوا من الموت المريع أثناء المعركة، وجردهم من السلاح وضرب عليهم الجزية وأطلق سراحهم مع قائدهم الملك (غى). وليست هذه الحادثة وحدها هى الدليل على الفرق الكبير بين معاملة الغزاة لأعدائهم، وبين معاملة أعدائهم.. هى واحدة من المئات التى جاءت فى كتب التاريخ عن الحروب الصليبية ومعظمها من تأليف المؤرخين المسيحيين من الفرنج بالذات)[1].

ومن شهاداته شهادته بعظم الحضارة الإسلامية، وفضلها على البشرية، يقول: (لم تنحصر الفتوحات العربية فى الناحية العسكرية فقط، بل تعدّتها إلى الناحية الثقافية. لقد كان فى العرب علماء وفلاسفة وحكماء، درسوا الفلسفة اليونانية وعلومها ونبشوا منها ما كان الحكم الرومانى قد أقفل عليه الأبواب. فكان للعلماء والفلاسفة العرب الفضل فى إعادة الثقافة اليونانية إلى رونقها. فعندما كانت السلطات الغربية فى القرون الوسطى المظلمة، فى خضوعها المطلق للكنيسة الرومانية، تنصاع، مسيّرة أو مخيّرة لأحكامها، وتنفذ إرادة الكنيسة دونما بحث أو جدل، وعندما كانت محاكم التفتيش تحكم بالموت والإحراق والتشريد على كل من نازع السلطة البابوية تعاليمها وعقائدها. وعندما كان الجهل مخيّمًا على ربوع وحياة الغرب، كان علماء العرب يبحثون عن المعرفة أينما وجدت. وكان خلفاء العرب يسهّلون لهؤلاء العلماء مهماتهم، ويقدمون لهم المساعدات. فعكف الباحثون على إخراج العلوم اليونانية من مدفنها ونقولها إلى العربية، وزادوا عليها من اختباراتهم ونظرياتهم ومشاهداتهم، ووضعوا كتبًا قيمة فى الفلسفة والطب والجبر والكيمياء والرياضيات والفلك، وقام منهم رحالون إلى بلاد المغرب والشرق، ودرسوا اللغات المنتشرة فيها وترجموا من كتبها ما لا يزال إلى يومنا هذا يدرس للطلاب)[2].

ويتحدث عن الدور الكبير الذى قام به العرب فى حفظ التراث الإنسانى وتهذيبه، فيقول: (لولا العرب لبقيت الثقافة اليونانية مطموسة، ولما أخرجت هذه الثقافة من مدفنها الذى زجها فيها الرومانيون.. فما إن أخذت الإمبراطورية الرومانية فى الانحلال حتى عادت الثقافة اليونانية إلى الظهور مرة ثانية، ولم يكن ظهورها فى الغرب بل فى الشرق.. وإذا كان النسطوريون هم الذين كشفوا عنها الغطاء فالعرب هم الذين نشروها فى الشرق ثم بعثوها إلى الغرب)[3].

ويتحدث عن العصور الزاهرة التى مر بها العرب فى ظل الإسلام، فيقول: (إن الحقبة التاريخية الواقعة بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر [الميلادى] هى بحق عصر العرب

(1) قصة الإنسان، ص 92 - 93.
(2) قصة الإنسان، ص 81.
(3) قصة الإنسان، ص83.

الذهبي. ففي هذه الحقبة كان العرب حاملي مشعل الثقافة الوحيدين. وعلى الرغم من أن فتوحات العرب العسكرية نحو الغرب، لم تمتد إلى أكثر من مائة سنة، وانتهت بهزيمتهم في موقعة (بواتييه) على يد شارل مارتل فإن التوسع الثقافي العربي استمر في امتداده نحو الغرب، وبقي الفكر العربي يصدر إنتاجه الخصب من الأندلس وشواطئ أفريقيا إلى سواحل أوروبا الجنوبية، ومن هناك يغزو أوروبا كلها، ويضع أساسًا لنهضتها)[1].

وهو يرد على المكابرين المتكبرين الذين أرادوا أن يلغوا الحضارة الإسلامية ودورها العظيم في حياة البشرية، فيقول: (لا يسعنا إلا أن نسجل استغرابنا مما يدّعيه بعض المكابرين، الذين ينكرون قيام حضارة عربية في التاريخ، فإذا كانت البحوث العلمية والفلسفية والثقافية مضافًا إليها الأعمال الفنية، وما تنطوي عليه كل هذه الشؤون من قيم، لا تشكل حضارة ذات شأن، فماذا تكون إذن الدعائم التي تقوم عليها الحضارات؟ صحيح أن العرب نقلوا عن اليونان والفرس والهنود والرومان، ولكن هل ينكر عليهم ما رادوه على ذلك باكتشافاتهم في الطب والكيمياء والجبر والفلك والرياضيات، وفي الفن أيضًا؟ وهل من الإنصاف أن ينكر على فلاسفتهم وحكمائهم، نظرياتهم في الاجتماع والاقتصاد والإدارة؟ ثم ماذا يضير العرب إذا كانوا نبشوا ما كان دفينًا من فلسفة اليونان وحضارتهم وأظهروه إلى النور؟ إن من يطالع الكتب الغربية التي أنتجها عصر النهضة، يجد فيها أثر علماء العرب واضحًا فما جاء به (مونتسكيو) و(باكون) وعلماء الاجتماع في القرن السادس عشر والسابع عشر، تجده، أو تجد له تمهيدًا على الأقل، في مقدمة ابن خلدون، هذه المقدمة التي لم تترك حقلاً من حقول البحث الاجتماعي إلا وطرقته، حتى شهد علماء الغرب أنفسهم أنها أعظم مؤلف علمي واجتماعي. وكتب الفلك الغربية محشوة بالكلمات العربية التي لم يجد علماء الفلك الغربيون بدًا من تبنيها.. والأرقام الغربية ليست إلا أرقامًا عربية. كل هذا إنما يدل على مدى اقتباس العلوم الغربية من العلوم العربية. إن ما تحويه المؤلفات العلمية والفلسفية الغربية من أمثال هذه الشواهد لدليل على أن النضج الفكري والعلمي الذي نقرأ عنه في عصر النهضة الغربية وبعدها، إنما كان متأثرًا إلى حد بعيد بالنضج الفكري والعلمي عند العرب، بل كان مؤسسًا عليه ومقتبسًا منه)[2].

ويتحدث عن جسر من الجسور المهمة التي انتقلت بها الحضارة الإسلامية للغرب، فيقول: (لقد دهش الصليبيون من التقدم العلمي والفكري في الشرق. فكانوا عندما يعودون إلى بلادهم، يروون لمواطنيهم الروايات المختلفة عنه، ويشوقونهم للاقتداء بالنهضة الفكرية فيه.. وعندما عاد الإمبراطور [النورماني] فردريك الثاني إلى بلاده، أسس جامعة نابولي

(1) قصة الإنسان، ص 84.

(2) قصة الإنسان، ص 86 – 87.

وجامعة ساليرنو الطبية، واعتمد فى هاتين الجامعتين الدروس التى وضعها ابن سيناء والرازى وابن رشد وابن خلدون وسائر أقطاب العلم والفلسفة العرب. . وهو الذى أدخل الأرقام العربية وعلم الجبر إلى أوروبا. إن جامعتى نابولى وساليرنو كانتا النافذة الأولى التى تسرّبت منها النهضة الفكرية إلى أوروبا، ووضعت أساسًا للنهضة الفكرية فيها، فى العهد الذى عرف بعهد الانبعاث)[1].

**نصرى سلهب:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (نصرى سلهب)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مسيحى من لبنان، يتميز بنظرته الموضوعية وتحريه للحقيقة المجردة، كما عرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمى بين الإسلام والمسيحية فى لبنان، سواء على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع.

وعبر الستينات كتب العديد من الفصول، وألقى العديد من المحاضرات فى المناسبات الإسلامية والمسيحية على السواء، متوخيًا هذا الهدف.

وقد التقيت به فى بعض تلك المناسبات، وكان من شهاداته فيها قوله: (إن الآية التى أستطيب ذكرها هى التى تنبع سماحًا إذ تقول: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ [العنكبوت] ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم. إنها لعبارات يجدر بنا جميعًا، مسيحين ومسلمين، أن نرددها كل يوم، فهى حجارة الأساس فى بناء نريده أن يتعالى حتى السماء، لأنه البناء الذى فيه نلتقى والذى فيه نلقى الله، فحيث تكون المحبة يكون الله. والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتب المنزلة واحدة، وأن أصلها عند الله، وهذا الأصل يدعى حينًا (أم الكتاب) وحينًا آخر (اللوح المحفوظ) أو (الإمام المبين)[3].

وعبر عن إعجابه الشديد برسول الله ﷺ، فقال: (إن محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب. فإذا بهذا الأمى يهدى إلى الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذى أنزله الله على رسوله هدى للمتقين)[4].

وقال: (فى مكة. . أبصر النور طفل لم يمرّ ببال أمه، ساعة ولادته، أنه سيكون أحد أعظم الرجال فى العالم بل فى التاريخ، ولربما أعظمهم إطلاقًا)[5].

---

(1) قصة الإنسان، ص 96.

(2) من مؤلفاته: (لقاء المسيحية والإسلام) (1970)، و(فى خطى محمد) (1970).

(3) لقاء المسيحية والإسلام، ص 22.

(4) لقاء المسيحية والإسلام، ص 22.

(5) فى خطى محمد، ص 42.

وقال: (هنا عظمة محمد. لقد استطاع، خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، أن يحدث شريعة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحد فى التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة)[1].

وقال: (هذا الرجل الذى ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخضم الهائج، أن يرسى قواعد دولة، وأن يشرّع قوانين ويسنّ أنظمة، ويجود بالتفسير والاجتهادات.. ولم ينس أنه أب وجد لأولاد وأحفاد، فلم يحرمهم عطفه وحنانه، فكان بشخصيته الفذة الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات، المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كله، عالمًا قائمًا بنفسه)[2].

وقال: (تراثك يا ابن عبد الله ينبغى أن يُحيا، لا فى النفوس والقلوب فحسب، بل فى واقع الحياة، فى ما يعانى البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب. كل مشكلة مهما استعصت وتعقدت، نجد لها فى آثارك حلاً)[3].

وقال: (لم يكن النبى رسولاً وحسب، يهدى الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيمًا وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أمة أخرجت للناس. وكان له ما أراد)[4].

وتحدث عن القيم النبيلة التى يمتلئ بها الإسلام، فقال: (الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة. ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوى عليه من ثروة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذى بوسعنا أن نتعلم منه الكثير)[5].

وقال: (انطلاقًا من وجوب قول الحقيقة، أرى لزامًا علىّ أن أعلن أننا - نحن المسيحيين بصورة عامة - نجهل الإسلام كل الجهل، دينًا وحضارة)[6].

وقال: (ليس كالإسلام دين يكرم الأنبياء والرسل الذين سبقوا النبى العربى، وهو يفرض على المؤمنين به إكرام هؤلاء والإيمان بهم، وليس كالإسلام دين يحترم الأديان الأخرى المنزلة الموحى بها التى سبقته فى النزول والوحى)[7].

وقال: (الإسلام دين الأزمنة جميعها، وقد أعدّ لجميع الشعوب. فهو ليس للمسلمين فحسب، ولا لعرب الجزيرة الذين عايشوا النبى وعاصروه فحسب، وليس النبى نفسه نبى

---

(1) فى خطى محمد، ص 196.
(2) فى خطى محمد، ص 273 - 274.
(3) فى خطى محمد، ص 396.
(4) فى خطى محمد، ص 409.
(5) لقاء المسيحية والإسلام، ص 121.
(6) لقاء المسيحية والإسلام، ص 20.
(7) لقاء المسيحية والإسلام، ص28.

العرب والمسلمين فحسب، بل هو نبي كل مؤمن بالله واليوم الآخر والنبيين و بكتبه المنزلة)[1].

وقال: (في الدين الإسلامي من الشمول والرحب ما يجعله يفتح ذراعيه لجميع البشر دون أن يؤثر في قوميتهم وولائهم لأمة إليها ينتسبون)[2].

وتحدث عن القرآن وحفظ الله له، فقال: (لم يقدّر لأي سفر، قبل الطباعة، أيًا كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفر له ما توفر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب)[3].

وتحدث عن القيمة البلاغية للقرآن، فقال: (تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله)[4].

وتحدث عن قيمة العلم في الإسلام، فقال: (أولى الآيات البيّنات.. كانت تلك الدعوة الرائعة إلى المعرفة، إلى العلم عبر القراءة.. (اقرأ).. وقول الله هذا لم يكن لمحمد فحسب، بل لجميع الناس، ليوضح لهم، منذ الخطوة الأولى، بل منذ الكلمة الأولى أن الإسلام جاء يمحو الجهل وينشر العلم والمعرفة)[5].

وكانت له أحاديث كثيرة في أسرار التسامح الذي تمتلئ به نفوس المسلمين نحو جيرانهم من المسيحيين، كان منها قوله: (إن المسيح وأمه والمسيحيين يحتلون في آيات القرآن الكريم منزلة فريدة وبالتالي في نفوس المسلمين وقلوبهم. ذلك أن المسلمين يحفظون كلام الله في كتابه ويؤمنون به كل الإيمان، وربما كانوا في إيمانهم العميق هذا أكثر تكريمًا للمسيح ولأمه من بعض المسيحيين أنفسهم، وإذا كان التاريخ قد سجل في صفحاته نزاعات وحروبًا مؤسفة وقعت بين مسيحيين ومسلمين، فليس من المحتوم أن تكون الأسباب العميقة والخفية لتلك الحروب ذات طابع ديني.. ومهما يكن من أمر فإن حروبًا أخرى أوسع نطاقًا وأعمق أثرًا وأكثر عددًا وأبلغ ضررًا قد وقعت مسيحيين ومسيحيين، وهي - كما لا نجهل - أفظع الحروب على إطلاقها وأكثرها هولاً)[6].

ومنها قوله ـ وهو يقارن بين موقف عمر الخليفة، وموقف الصليبيين ـ: (خاضت المسيحية الحروب الصليبية ضد الإسلام لإنقاذ الأماكن المقدسة كما يحلو للمؤرخين أن يرددوا،

---

(1) لقاء المسيحية والإسلام، ص 403.
(2) لقاء المسيحية والإسلام، ص 403.
(3) لقاء المسيحية والإسلام، ص 337.
(4) لقاء المسيحية والإسلام، ص 342.
(5) لقاء المسيحية والإسلام، ص 92.
(6) لقاء المسيحية والإسلام، ص 41.

والحروب الصليبية هذه كانت إحدى الأخطاء التاريخية العظمى . فالأماكن المقدسة لم تكن في خطر ولم يحاول واحد من الحكام المسلمين أن يمحوها أو أن يزيلها من الوجود. بل على العكس من ذلك فقد تجنب الخليفة عمر رضى الله عنه، فى فجر الإسلام، الصلاة فى كنيسة القيامة بغية الحفاظ على طابعها المسيحى. وكذلك فعل الآخرون، على مرّ الزمن)[1].

ويقول: (العهدة العمرية التى منحها ابن الخطاب لأهل بيت المقدس هل تعدلها عهدة فى التاريخ نبلاً وعدلاً وتسامحًا: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل القدس من أمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم. . لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم. .). أى خاسر حربًا من حروب التاريخ حظى بمثل هذه العهدة من غالب منتصر؟. . ويبقى المسلمون فى الشرق، وفى فلسطين بالذات، ثلاثمائة سنة وألفًا. فلا يمس فيها للمسيحى أثر، بل تستمر الكنائس والأماكن المقدسة فى حرمة ومنعة)[2].

ومن شهاداته المرتبطة بالحضارة الإسلامية قوله: (لابد من الإشارة إلى المداميك الكثيرة التى رصفها الإسلام فى بناء الحضارة، وبتعبير آخر إلى إسهام الإسلام فى تراث البشرية الحضارى، فى حقلى الفكر والعلم بمختلف فروعهما من فلسفة وشعر وموسيقى وطب وكيمياء وفيزياء ورياضيات وهندسة إلى آخر سلسلة معطيات وعناصر جعلت الإنسانية ترتفع إلى مستوى خليق بها وجعلتها تنعم بما تنعم به اليوم. إن ذلك ضرورى. . لأن كثيرين من المسيحيين يجهلون مدى وأهمية إسهام الإسلام، كدين ودولة، فى الحضارة. . وأن الغرب فيما ينعم به اليوم من أسباب الحضارة والرقى والتفوق مدين به لنفسه، أى للفكر الغربى دون سواه. وذلك خطأ كبير. . لأن الغرب مدين لهذا الشرق - وبتعبير آخر - أن المسيحية مدينة للإسلام بأشياء كثيرة مهمة، وأن الشرق اليوم ليس سوى دائن يستوفى دينه من مدين قديم. . تلك إرادة الله وسنة الوجود)[3].

ويقارن بين التقدم العلمى للمسلمين بالتخلف الذى كانت تعيشه أوروبا، فيقول: (فيما كان البيرونى، فى نهاية القرن العاشر الميلادى يضع مؤلفاته فى علوم الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ والفلسفة، وينشئ النظريات العلمية ويقوم بالاختراعات، كانت أوروبا، مذعورة قلقة، خائفة، تنتظر نهاية العالم فى حلول العام الألف)[4].

ويتحدث عن أثر الحضارة الإسلامية فى الغرب، فيقول: (متى ذكرنا أن عشرات الكلمات الفرنسية هى من أصل عربى صريح، بل تكاد تكون منقولة بحرفيّتها، فيصبح

(1) لقاء المسيحية والإسلام، ص 54.

(2) لقاء المسيحية والإسلام، ص 331.

(3) لقاء المسيحية والإسلام، ص 44.

(4) لقاء المسيحية والإسلام، ص 50.

باستطاعتنا أن ندرك تأثير الإسلام فى الغرب.. وتلاحظ أن هذه الكلمات لها طابع علمى أو فكرى، وهى، على كل حال، لم تنتقل إلى أوروبا كمجرد كلمات فقط بل كأسماء لمسميات انتقلت هى أيضًا معها)[1].

وهو لا ينسى أن ينسب الحضارة الإسلامية إلى مصدرها الأكبر، وهو الدين بمصادره الكبرى، فيقول: (أية قمة شمساء بلغ إليها العقل الإسلامى والعربى فى حقبة من حقب تاريخه، بل من حقب التاريخ على إطلاقه؟ ذلك كله كان نتيجة طبيعية محتومة لما أوصى به القرآن الكريم.. ومحمد رسول الله إلى العالمين)[2].

ويقول: (حضارة الإسلام - التى سيطرت على العالم مئات خمسًا من السنين - كانت وليدة الإيمان، والإيمان وحده)[3].

بعد أن أنهى البابا حديثه عن هذا الرجل الفاضل، قلت من غير شعور: لقد أسلمت شهادات هذا الرجل..!

قال: صدقت.. فلا يقول مثل هذا إلا من امتلأ قلبه بالإسلام.

**نظمى لوقا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (د. نظمى لوقا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من مسيحى من مصر، وهو يتميز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق.

وقد كان ـ رغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبيًا ـ مقبلا إقبالا عظيما على الإسلام، ولهذا كان كثيراً ما يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمع بشغف إلى كتاب الله وسيرة الرسول ﷺ، بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره.

وقد ألف ـ نتيجة هذا الاهتمام ـ عدداً من الكتب أبرزها (محمد: الرسالة والرسول)، و(محمد فى حياته الخاصة)

وقد التقيت به.. ومن شهاداته ـ التى سمعتها منه ـ والمرتبطة بمحمد ﷺ قوله: (ما كان محمد كآحاد الناس فى خلاله ومزاياه، وهو الذى اجتمعت له آلاء الرسل عليهم السلام، وهمة البطل، فكان حقًا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيّى فيه الرجل)[4].

وقوله فى الفرق بين نظرة المسلمين إلى رسول الله ﷺ ونظرة المسيحيين إلى المسيح: (لا تأليه ولا شبهة تأليه فى معنى النبوة الإسلامية.. وقد درجت شعوب الأرض على تأليه

---

(1) لقاء المسيحية والإسلام، ص 51052.

(2) فى خطى محمد، ص 469.

(3) فى خطى محمد، ص 470.

(4) محمد الرسالة والرسول، ص 28.

الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضًا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا فى الرسول أو النبى أنه ليس بشرًا كسائر البشر وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء. ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواترًا مكررًا فى آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ... ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، وفى تخيير كلمة (مثلكم) معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال. بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ... ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى]، وظاهر فى هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التى كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها)[1].

ويتحدث بإعجاب شديد عن تواضع رسول الله ﷺ وعبوديته، فيقول: (رجل فرد هو لسان السماء. فوقه الله لا سواه. ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين. ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر. بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو فى سريرته، قبل أن يحاربه فى سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادى، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتزّ، لما كان عليه جناح من أحد، لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة. يطريه أصحابه بالحق الذى يعلمون عنه، فيقول لهم: لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله. ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيمًا له، فينهاهم عن ذلك قائلاً: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا)[2].

ويتحدث عن نزاهة رسول الله ﷺ، وكونه فوق كل الشبهات التى يزعمها الزاعمون، فيقول: (ماذا بقى من مزعم لزاعم؟ إيمان امتحنه البلاء طويلاً قبل أن يفاء عليه بالنصر وما كان النصر متوقعًا أو شبه متوقع لذلك الداعى إلى الله فى عاصمة الأوثان والأزلام.. ونزاهة ترتفع فوق المنافع، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع. لم يفد، ولم يورث آله، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها. وحرم على نفسه ما أحلّ لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس فى الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش. لم يمكن لنفسه ولا لذويه. وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوّى ذلك كله بالأرض أى قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذ المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق

(1) محمد الرسالة والرسول، ص 85 - 86.

(2) محمد الرسالة والرسول، ص 179 - 180.

الصادق؟ لا خيرة في الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى، وما ضل وما غوى .. ما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين)[1].

ويتحدث عن الأثر العظيم الذى خلفه رسول الله ﷺ، فيقول: (أى الناس أولى بنفى الكيد عن سيرته من (أبى القاسم) الذى حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام؟)[2].

ويتحدث عن عظم شخصية رسول الله ﷺ، فيقول: (كان محمد يملك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه. فهى قوة له تحسب فى مزاياه، وليست ضعفًا يعد فى نقائصه. لم يكن معطل النوازع ولكنها لم تكن نوازع تعصف به، لأنه يسخرها فى كيانه فى المستوى الذى يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل فى الصورة الجميلة الجليلة التى لا تهدر من قدره بل تضاعف من تساميه وعفته وطهره. وبيان ذلك فى أمر بنائه بزوجاته التسع)[3].

وفى مناسبة من المناسبات أساء فيها بعضهم الحديث عن الشريعة الإسلامية، وكان حاضرا، فغضب غضبا شديدا، وقال: (ما أرى شريعة أدعى للإنصاف، ولا أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول: ﴿...ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى... ⑧﴾ [المائدة]، فأى إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بدين أقل منه تساميًا واستقامة؟)[4].

وقال: (عقيدة الإسلام عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف، ويبعث الطمأنينة فى كل نفس. وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان، لا يصدّ عنها أحد بسبب جنسه أو لونه.. وهكذا يجد كل إنسان له مكانًا فى ظل هذه العقيدة الإلهية على أساس من المساواة العادلة، التى لا تفاضل معها إلا بالتقوى، تقوى الله رب (العالمين)[5].

ويقارن بين عقيدة المسلمين وعقيدة المسيحيين، فيقول: (كان لابدّ من عقيدة ترفع عن كاهل البشر لعنة الخطيئة الأولى، وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرىء بالمجرم، أو تحمّل الولد وزر الوالد، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة. ويحسم القرآن هذا الأمر.. حين يجعل المسؤولية أساس الكرامة الإنسانية، وأساس كل حرية، وكل أخلاق ممكنة. وهذا ما قطع به الإسلام ووضع به حجر الأساس لكرامة بنى آدم.. والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة

(1) محمد الرسالة والرسول، ص 183 - 186.
(2) محمد فى حياته الخاصة، ص 12.
(3) محمد فى حياته الخاصة، ص 39 - 40.
(4) محمد الرسالة والرسول، ص 26.
(5) محمد الرسالة والرسول، ص 72 - 73.

خاليـة من أعباء الخـطيئة الأولى الموروثة إلا من نشـأ فى ظل تلك الفكرة القاتمة، الـتى تصبغ بصبغـة الخجل والتأثم من كل أفعال المرء، فـيمضى فى حياته مـضىّ المريب المتردّد، ولا يقبل عليهـا إقبال الواثق بسبب مـا أنقض ظهره من الوزر الموروث. إن تلك الفكرة القاسيـة تسمّم ينابيع الحياة كلها. ورفـعها عن كاهل الإنسان منّة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حـياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقًا، وردّ اعـتبار لا شك فيه. إنه تمزيق صحيـفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه)[1].

ويتحدث عن البناء الإسلامى للشـخصية الإنسانية مقارنة بغيـره، فيقول: (هكذا يكون الإنسان فى الإسلام متكامل الجوانب، لا يشكو فصام الروح والجسد، ذلك الفصام الذى عانى منه الكثيرون. ولا يعرف (الفصم) إلا من يكابده. وبهـذا يكون الإنسان سيد الأرض حقًا، لا ينظر إلى طيّباتها نظرة الحسير، ولا يمشى فى جنباتها مشية الأسير، ولا يثقل كاهله الخزى من نوازعه، فى يده زمام نفسه. وقد أحل له ما لم يرد فـيه تحريم، تقرّ به عينه فى غير حرج ولا غضاضة)[2].

ويتحدث عن أهميـة الصلاة فى الإسلام، فيقول: (نظام واحـد يمسك الدين والدنيا، ويسلك المعـاش والعـبادة والمعـاد، ولهـذا قلما يرد ذكـر الصـلاة فى القـرآن من غيـر آثارها العملية.. إن الصـلاة التى تتكرر فى اليوم جملة مرات، لا يلهى عنهـا بيع ولا شراء، سبب قـوى بين الإنسان والله.. ولكن أين تكـون تلك الصلاة؟ هل لابدّ فـيهـا من وساطة رجـال الدين؟ هنا تبـرز خصـوصيـة الإسـلام.. فكل مكان فى أرض الله الطاهرة يصلح مـسجـدًا ومحرابًا لا هياكل ولا كهانة ولا وسطاء بين الله والإنســان بعد اليوم! ولا وصاية على ضمائر الناس! فكلهم أمام الرحـمن سواء. والصلة بينهم وبين ربهم صلة مـباشرة لا أمت فيـها ولا التواء.. وليس من حق أحد كـائنًا من كان أن يتدخل بين المرء وربه، أو يدعى لنفســه القوامة على ضميره وعقيدته)[3].

وفى مناسـبة من المناسـبات جـرى فيـهـا الحديث عن المرأة، نهض يقـول: (المرأة فى الإسلام إنسان له حـقوق الإنسان وكل تكاليفـه العقلية والروحيـة، فهى فى ذلك صنو الرجل تقع عليها أعبـاء الأمانة التى تقع عليه، أمانة العقيدة والإيمان وتزكـية النفس.. وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور. ولكنه لم يكن كذلك فى العالم القديم، فى كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحيـانًا كثيرة كمـا تباع السلعة.. وكانت فى كـثير من الأحيان منقـوصة الأهلية لا تمارس التصرفات الماليـة والقانونية إلا عن طريق وليها الشرعى أو بموافـقته، بل لم تكن تملك

(1) محمد الرسالة والرسول، ص 76 - 78.

(2) محمد الرسالة والرسول، ص 84.

(3) محمد الرسالة والرسول، ص 147 - 149.

تزويج نفسها على الخصوص، وإنما الأمر في ذلك لوليها يجريه على هواه. وأكثر من هذا، كانت قبائل العرب في الجاهلية تئد البنات كراهة لهن وازدراء لشأنهن، ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقًا شديدًا)[1].

وقال: (في سور القرآن أشار إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق في التكليف أو الجزاء، وإشارة صريحة مساواة المرأة والرجل في ثمرات الأعمال والجهود.. وفي بعض الأمم القديمة، والحديثة، كانت المرأة تحرم غالبًا من الميراث، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش)[2].

وقال: (ليس الإسلام - على حقيقته - عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين في القيمة. بل إن المرأة في موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة. لا يفضلها إلا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه في غير مطل أو مراء، وما من امرأة سوية تستغني عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال. وذلك حسب عقيدة لتكون صالحة لكل طور اجتماعي على تعاقب الأطوار والعصور، على سنة العدل التي لم يجد لها عصرنا اسمًا أوفق من (تكافؤ الفرص)، الذي يلغي كل تفريق، ويسقط كل حجة، ويقضي على كل تميّز إلا بامتياز ثابت صحيح)[3].

وتحدث عن سمو العلاقة الزوجية في الإسلام، وكما يصورها القرآن، فيقول: (العلاقة الزوجية في الإسلام ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى، على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزي بين جنسي النوع البشري. لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً... ﴿٢١﴾﴾ [الروم] هكذا جاء في سورة الروم، وإني لأرى في قوله (من أنفسكم) لمسة تمس شغاف القلب وتذكر بما في الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن، وما أقرب السكن في هذا الباب من سكينة النفس لا من مساكنة الأجساد! بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة.. وتلك عليا مناعم المعاشرة الإنسانية، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء. فالزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان، وليس مطلبًا شهويا جسديا وإن كان له أساس جسدي)[4].

وقال: (كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان وبين نفسه التي بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا، وقد نهض بهذا الإسلام، وكانت سنته في الزواج كفاء خطته في جوانب

(1) محمد الرسالة والرسول، ص 95 - 96.

(2) محمد الرسالة والرسول، ص 96.

(3) محمد الرسالة والرسول، ص 100-101.

(4) محمد الرسالة والرسول، ص 115 - 116.

الهداية البشرية الفطرية، لتحرير البشر من الذعر والخزى وعقدة الإثم الشوهاء التى كبّلته ولم تزل تكبل الكثيرين عن انطلاقة الحياة وسوء الفطرة).

قلت: إن نفحات الصدق التى نطق بها هذا الرجل أعظم من أن تنحصر فى كونها مجرد شهادات عالم موضوعى.

قال: أجل.. فغيرته على الإسلام وحبه له ودفاعه عنه لا يمكن إلا أن يكون من قلب ذاق طعم الإسلام، وعقل قد امتلأت به معانيه.

* * *

## 2 - أصدقاء من فرنسا

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصـدقاء من فرنسا)، تحته أسماء كثيرة، فقلت: كيف تعـتبر الفرنسيين أصدقاء لنا، وقد استعـمروا أرضنا، وقهروا شعبنا، ولم يتركوا مناسبة يسيئوا فيها إلينا إلا فعلوا؟

نظر إلى البابا، وقال: ألم تقرأ قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة].

قلت: بلى. . فما فيها مما نحن فيه؟

قال: أجبنى أولا. . ألم تعلن قريش لرسول الله ﷺ العداوة منذ بدأت دعوته؟

قلت: بلى، حصل ذلك.

قال: فهل امتلأت قلوب المسلمين حقدا على كل قرشى بسبب ذلك؟

قلت: لا. . بل توجهت الأحقاد إلى المحاربين.

قال: بل لم تكن للمسلمين أحقاد أصلا، فحتى المحاربون ما إن كفوا عن حربهم حتى استقبلهم المسلمون بالأحضان.

قلت: صحيح ذلك. ولكن. .

قال: فهمت قصدك. لا ينبغى أن ينسى العاقل عداوة عدوه. . ولكن مع ذلك لا ينبغى أن تحمله عداوة عدوه على أن يتوجه بالعداوة لغيره. . هذا ما نطق به القرآن.

قلت: تقصد أن العداوة تنحصر فى الأعداء؟

قال: وتنحصر فى وقت العداوة. . فإن تحول العدو إلى صديق زال عنه اسم العداوة.

قلت: صدقت فى هذا. . فهلم بنا إلى أصدقائنا من الفرنسيين.

### كوستاف لوبون:

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كوستاف لوبون)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا طبيب، ومؤرخ فرنسى، عنى بالحـضارات الشرقية، من آثاره: (حضارة العرب)[2] (باريس 1884)، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب فى الأندلس).

---

(1) كوستاف لوبون Dr. G. Lebon ولد عام 1841م.

(2) نرى أن كوستـاف لوبون يعبر فى الشهادات الـتى نذكرها عن المسلمين باسم (العرب)، باعـتبار أن اللقب الشائع عن المسلمين فى ذلك الوقت هو العرب. . وخاصة عند الفرنسيين.

ولا زال عندنا فى الجزائر هذا التـعبير حـتى أن العامة عندنا يسـمون المسلمين ـ ولو كانوا من غـير العرب ـ بالعرب.

وليس مقصده ـ كما قد يتوهم ـ هو نسبة الحـضارة الإسلامية للعرب بدل الإسلام، بدليل ما يذكره عن الإسلام من شهادات.

وقد أخبرتك خبره في الرحلة الماضية[1]، وسأذكر لك اليوم بعض شهاداته التي نطق بها حول الإسلام والحضارة الإسلامية.

فمنها قوله، وهو يقارن بين أصول الأخلاق في القرآن وأصولها في كتب سائر الديانات: (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى عليه السلام.. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدًا، وقد لا تجد دينًا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدقّ شؤون الحياة)[2].

ويتحدث عن عظمة القرآن وتأثيره الممتد في التاريخ الإسلامي، فيقول: (إن هذا الكتاب القرآن تشريع ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون)[3].

وله أحاديث كثيرة طيبة عن رسول الله ﷺ وتأثيره في العرب والعالم من النواحي المختلفة، منها قوله: (جمع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى.. ومما لا ريب فيه أن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك كان فضله على العرب عظيمًا)[4].

ويتحدث عن المكانة الرفيعة التي يحتلها محمد ﷺ بين العظماء، فيقول: (إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله)[5].

ويتحدث عن المثل العليا التي أشاعها رسول الله ﷺ، فيقول: (استطاع محمد أن يبدع مثلاً عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص..ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى)[6].

ويتحدث عن الاستراتيجية المثلى التي استعملها النبي ﷺ في توحيد الجزيرة العربية، فقال: (لا شيء أصوب من جمع محمد لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة

(1) انظر الحوار الافتراضي الذي أجريناه معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (الحضارة).
(2) حضارة العرب، ص 431 - 432.
(3) النتائج الأولى للحرب (عن: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، 1/74).
(4) دين الإسلام، ص 16.
(5) حضارة العرب، ص 115.
(6) حضارة العرب، ص 116.

أيام كانت جزيرة العرب مجزأة ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد)[1].

وهو يقارن مقارنة موضوعية بين الإسلام والمسيحية على المستويات المختلفة، فيقول: (إن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيّما في التوحيد المطلق الذى هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد الذى دعا إليه الإسلام مهيمن على كل شيء، ولا تحفّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسه، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم. إن سهولة الإسلام العظيمة تشتق من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرّ قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم، غالبًا، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله. . وأنك، إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك عكس النصراني الذى لا يستطيع حديثًا عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت)[2].

وهو يتحدث عن القابلية التي يتمتع بها الإسلام، بحيث تجعل الكل مقبلا عليه، فيقول: (الإسلام يعدّ من أشد الأديان تأثيرًا في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة. . إلخ، يعلّم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلاً عن ذلك، أن يصبّ في النفوس إيمانًا ثابتًا لا تزعزعه الشبهات)[3].

ويتحدث عن أسرار تلك القابلية، فيقول: (تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال الأعراف المختلفة التي اتحدت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا)[4].

ويقول: (ساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصّر أي أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة)[5].

---

(1) حضارة العرب، ص 393 - 394.

(2) حضارة العرب، ص 125.

(3) حضارة العرب، ص 125 - 126.

(4) حضارة العرب، ص 417.

(5) حضارة العرب، ص 125

ولهذا، فهو يشهد بأن الإسلام لم ينتشر بالقوة على عكس ما يذكر المغرضون، فيقول: (إن القوة لم تكن عاملاً فى انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا فى أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم يعرفوها من قبل)[1].

ويتحدث عن علاقة الإسلام بالعلم مقارنة بغيره من الديانات، فيقول: (الإسلام من أكثر الأديان ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبًا للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح)[2].

ويتحدث عن الأخوة التى أشاعها الإسلام بين الشعوب المختلفة، فيقول: (ليس المسلمون أجانب فى نظر بعضهم إلى بعض مهما اختلفت الشعوب التى ينتسبون إليها، ولا فرق فى دار الإسلام بين الصينى المسلم والعربى المسلم فى التمتع بجميع الحقوق، وبهذا تختلف الحقوق الإسلامية عن الحقوق الأوروبية اختلافًا أساسيًا)[3].

وهو يتحدث بتفاصيل كثيرة عن تأثير الحضارة الإسلامية وعلاقتها بالإسلام، وعلاقتها بعد ذلك بالشعوب المختلفة، فيقول: (ثبتت أصول شريعة الرسول وفنون العرب ولغتهم أينما حلت، ولم يدر فى خلد أحد من الفاتحين الكثيرين الذين قهروا العرب إقامة حضارة مقام حضارة العرب، وانتحلوا كلهم دين العرب وفنونهم، واتخذ أكثرهم العربية له لغة، وتقهقرت أمام الإسلام فى الهند ديانات قديمة، وجعل الإسلام مصر الفراعنة القديمة، التى لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل، عربية تامة العروبة، وعرفت أقوام الهند والفرس ومصر وأفريقية لهم سادة غير أتباع محمد فيما مضى ولم يعرفوا لهم سادة غير المسلمين بعد أن رضوا بالإسلام دينًا)[4].

ويقول: (لو وفق موسى بن نصير فى اجتياز أوربا لجعل أوربا مسلمة، ولحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية، ولأنقذ أوربا، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذى لم تعرفه إسبانيه بفضل العرب)[5].

ويقول: (كلما أمعنا فى دراسة حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل فى معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا

---

(1) حضارة العرب، ص 127 - 128

(2) حضارة العرب، ص 126.

(3) حضارة العرب، ص 389

(4) حضارة العرب، ص 27

(5) حضارة العرب، ص 267

علميًا سـوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مـدّنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقًـا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقهم قوم في الابتداع الفني)[1].

ويقول: (تأثير العرب عظيم في الغرب، وهو في الشـرق أشد وأقوى، ولم يتفق لأمة ما اتفق لـلعرب من النفوذ، والأمم التـي كانت لها سـيادة في العـالم، كالآشوريـين والفرس والمصـريين واليونان والرومـان، توارت تحت أعفـار الدهر ولم تترك لنـا غير أطـلال دارسة، وعادت أديانها ولغـاتها وفنونها لا تكون سوى ذكـريات. والعرب، وإن تواروا أيضًا، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حية)[2].

ويقول: (وسّعت دائرة التعليم العام، واستـدعى الأساتذة من مخـتلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجة رفـيعة من التقدم، وانتـهى إلى نتائج لم ينته إليـها الأوروبيون إلا في العصر الحاضـر.. ونقلت إلى العربية كتب علماء اليونان واللاتـين وصارت تدرس في جميع المدارس، وبحث العرب في آثا 'القـدماء فسـبقوا الأوروبييـن إلى ذلك ببضعة قـرون. وأقدم العرب على تلك المبـاحث، التي لم يكن لهم عهد بهـا، بشوق: ونشاط، وأكثـروا من إنشاء المكتبـات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان، وكانت لهم اكـتشافـات مهمة في أكـثر العلوم)[3].

ويقول: (كلـما تقدمنا فـي الكتاب بدا لنا، بوضـوح، أمران جوهريـان.. وهما: أن العرب اسـتطاعوا أن يبـدعوا حـضارة جـديدة مسـتعيـنين بما استـعاروا من الفرس والـيونان والرومان، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها. وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشـرق الكثيرة.. أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب، وأن أممًا قديمة قدم العالم، كالمصريين والهنود، اعتنقت ما جاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة)[4].

بل إنه يتجرأ، فيـصرح بهذا التصريح الخطير: (لنفرض جـدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب في جنوب فرنسـا فماذا كان يصيب أوروبا؟ كان يصيب أوروبا النصـرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيا مـن الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوروبا التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية ومظالم محاكم التفتيش، وكل ما لم يعـرفه المسلمون من الوقـائع التي ضرّجت أوروبا بالدماء عـدة قرون. ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضـارة العرب جهلاً مطبـقًا ليوافق على ما زعمـه المؤرخ هنري مارتن في كتابه عن (تاريخ فـرنسا الشعبي) من (أن أوروبا واندنيا كانت تخـسـران مستقبلهـما). فمزاعم

(1) حضارة العرب، ص 26.
(2) حضارة العرب، ص 26 - 27.
(3) حضارة العرب، ص 173.
(4) حضارة العرب، ص 27.

مثـل هذه ليست مما يقف أمـام سلطان النقد عـندما يُعلم أن التـمدن اللامع حلّ بالبـلاد التى خضعت لأتبـاع الرسول محل الهمجـية، وأن النشاط الذى يحفز الإنسـان إلى التقدم لم يكن قويًا فى أمة مثل قوته فى العرب)[1].

وهو يتـحدث عن مكانة المرأة فى الإسـلام، ويرد بذلك على الشـبهـات التى يثيـرها المغرضون، ومن تلك الشهادات قوله: (تعد مبادئ المواريث التى نصّ عليها القرآن بالغة العدد والإنصاف. . ويظهر من مقابلتى بينها وبين الحقوق الفـرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات، اللائى يُزعم أن المسلمـين لا يعاشروهن بالمعروف، حـقوقًا فى المواريث لا تجد مثلها فى قوانيننا)[2].

ومنها قوله: (لم يقتصر الإسلام على إقرار مبدأ تعدد الزوجات الذى كان موجودًا قبل ظهـوره، بل كـان ذا تأثيـر عظيم فى حـال المرأة فى الشـرق، والإسلام قـد رفع حـال المرأة الاجتمـاعى وشأنها رفعًا عظيـمًا بدلاً من خفضهـما خلافًا للمزاعـم المكررة على غير هدى، والقرآن قـد منح المرأة حقـوقًا إرثية أحـسن مما فى أكثـر قوانيننا الأوربيـة. . أجل أباح القرآن الطلاق كـما أباحتـه قوانين أوروبا التى قـالت به، ولكنه اشتـرط أن يكون ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقـرة]. . وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسـلام فى أحوال النساء فى الشرق هو أن نبحث فى حالهن قبل القرآن وبعده)[3].

ومنها قولـه: (إذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن فى أمـر النساء وجب علينا أن ننظر إليهن أيام ازدهار حضارة العرب، وقد ظهر مما قـصّه المؤرخون انه كان لهن من الشأن ما اتفق لأخواتهن حديثًا فى أوروبا. إن الأوربيـين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية ومـا اقتضته من احترام المرأة. فالإسلام، إذن، لا النصرانية، هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه، وذلك خـلافًا للاعتقاد الشائع. وإذا نظـرت إلى نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئًا من الحرمة للنسـاء، وإذا تصفحت كتب التاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك فى هذا الأمر، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظًا نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى)[4].

ومنها قـوله: (إن حالة النساء المسلمـات الحاضرة أفضل من حـالة أخواتهن فى أوروبا حتى عند التـرك. وأن نقصان شأنهن حدث خـلافًا للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال. . إن الإسلام، الذى رفع المرأة كثيراً، بعيداً من خفضها، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأى، فقد سبقنا إليه كثيرون)[5].

---

(1) حضارة العرب، ص 180.

(2) حضارة العرب، ص 389.

(3) حضارة العرب، ص 401.

(4) حضارة العرب، ص 403.

(5) حضارة العرب، ص 404 - 405.

ومنها قـوله: (إن تعدد الزوجـات المشروع عند الشرقـيين أحسن من تـعدد الزوجـات الرياثى عند الأوروبيـين، وما يتبعه من مواكب أولاد غير شرعيين)[1].

ومنها قوله: (إن النسـاء المسلمات قد أخرجن فى الدهر الغابر من المشـهورات العالمات بقدر ما تخرج مدارس الإناث فى الغرب اليوم)[2].

ويتحـدث عن صمـود الإسلام فى وجـه كل التيارات الـتى حاولت أن تقضـى عليه، فقال: (مع مـا أصاب حضارة العـرب من الدثور، كالحضارات التى ظهرت قـبلها: لم يمس الزمن دين النبى الذى له من الـنفوذ مـا له فى الماضى، والذى لا يزال ذا سلطان كـبيـر على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التى هى أقدم منه تخسر كل يوم شيئًا من قوتها. . وتجمع بين مختلف الشعوب التى اتخذت القرآن دستوراً لهـا وحدة اللغة والصلات التى يسفر عنها مجىء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامى. وتجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة الـعربية بقـدر الإمكان، واللغة العـربية هى لذلك أكـثر لغات العـالم انتشـاراً على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلاميـة من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد فى أحد الأيام)[3].

ويقول: (كان سلطان الإسلام السياسى والدينى قـويًا فى بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسـلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الـدينى قائمًا فى بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسى عنها، وهو يمضى قدمًا نحو الاتسـاع)[4].

ويقول: (دخلت حضارة العـرب فى ذمة التاريخ منذ زمن طويل، ولا نقول، مع ذلك أنهم ماتوا تمامًا، فنرى الآن ديانتهم ولغـتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انـتـشاراً مما كانتا عليه فى أنضر أدوارهم. . ولا يزال الإسلام جاداً فى تقدمه. . واليوم يدرس القرآن، فيما عدا جزيرة العرب، فى مصر وسوريا وتركيا وآسيا الصـغرى وفارس وقسم مهم من روسيا وأفريقيا والصين والهند، وتناول القرآن مدغشقر وإفريقيا الجنوبية، وعرف فى جزر الملايو، وعلمه أهل جاوة وسومطرة وتقدم إلى غـينيا الجديدة، ودخل أمريكا مع زنوج أفريقيـا. . ويتقدم الإسلام فى الصين تقـدمًا يقضى بالعـجب! حيث اضطر المبشـرون الأوروبيون إلى الاعتـراف بالحدود وسيقـوم الإسلام - كما يقول وازيلـيف - مقام البوذية، ومسلمـو الصين لا يشكون فى ذلك وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية. فإذا اعتنقت الصين دين الإسلام؛ تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيراً عظيمًا، وأمكن دين محمد أن يهدّد النصرانية من جديد)[5].

---

(1) روح السياسة، عن (محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية: 1/ 83).

(2) روح السياسة، عن (محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية: 1/ 83).

(3) حضارة العرب، ص 126.

(4) حضارة العرب، ص 186.

(5) حضارة العرب، ص 616 - 617.

قلت: هذا رجل فاضل.. وشهاداته تعبر عن الموضوعية العلمية التى أوتيها.

قال: ولذلك تلقاه الكل بالقبول.. وقد رأيت فى عينيه من الصدق ما يحيل أن تكون تلك الشهادات مجرد شهادات.

**مارسيل بوازار**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (مارسيل بوازار)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مفكر وقانونى فرنسى معاصر، وقد أولى اهتمامًا كبيرًا لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان وكتب عددًا من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين.

وله كتاب يسمى (إنسانية الإسلام)، وهو من أهم الكتب، ويعتبر علامة مضيئة فى مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التى لا يأسرها التحيز والهوى، فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها.

ولهذا، فإن شهاداته تعد بمثابة واحدة من أكثر الشهادات الغربية عمقًا وموضوعية ووضوح رؤية للإسلام.

قلت: عرفته.. لقد سبق أن حدثتنى عنه فى رحلتك السابقة[1].

قال: وسأحدثك اليوم عن بعض شهاداته الصادقة التى شهد بها للإسلام ونبى الإسلام.

فهو يتحدث عن رسول الله ﷺ رادا على ذلك التشويه المتعمد، فيقول: (سبق أن كتب كل شىء عن نبى الإسلام، فأنوار التاريخ تسطع على حياته التى نعرفها فى أدق تفاصيلها. والصورة التى خلفها محمد عن نفسه تبدو، حتى وإن عمد إلى تشويهها، علمية فى الحدود التى تكشف فيها وهى تندمج فى ظاهرة الإسلام عن مظهر من مظاهر المفهوم الدينى وتتيح إدراك عظمته الحقيقية)[2].

ويتحدث عن الأعمال التى حوتها رسالة رسول الله ﷺ مقارنة بغيره، فيقول: (لم يكن محمد على الصعيد التاريخى مبشرًا بدين وحسب بل كان كذلك مؤسس سياسة غيّرت مجرى التاريخ، وأثرت فى تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق)[3].

ويتحدث عن الكثير من خصائص رسول الله ﷺ، فيقول: (منذ استقر النبى محمد فى المدينة، غدت حياته جزءًا لا ينفصل من التاريخ الإسلامى. فقد نقلت إلينا أفعاله وتصرفاته فى أدق تفاصيلها.. ولما كان منظمًا شديد الحيوية، فقد أثبت نضالية فى الدفاع عن

---

(1) انظر الحوار الافتراضى الذى أجريناه معه فى رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (إنسانية).

(2) إنسانية الإسلام، ص 40 - 41.

(3) إنسانية الإسلام، ص 42.

المجتمع الإسلامى الجنينى، وفى بث الدعـوة.. وبالرغم من قتاليته ومنافحته، فـقد كان يعفو عند المقـدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسـامح مع أعداء الدين. ويبـدو أن مزايا النبـى الثلاث، الورع والقتالية والعـفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامى فى إبان قـيامه وجسّدت المناخ الروحى للإسلام.. وكما يظهـر التاريخ الرسول قائدًا عظيمًا ملء قلبـه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحًا قوى الشكيمة له سياسـتـه الحكيمة التى تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطى كل صاحب حق حقه. ولقد استطاع بدبلوماسيـته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامـية عن طريق المعـاهدات فى الوقت الذى كان النصر العـسكرى قد بدأ يحـالفه. وإذا تذكرنا أخـيرًا على الصعـيد النفسانى هشـاشة السـلطان الذى كان يتـمتع به زعيم من زعـماء العرب، والفضائل التى كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلى بها، استطعنا أن نستخلص أنه لابدّ أن يكون محمد الذى عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به إنسانًا فوق مستوى البشر حقًا، وأنه لابد أن يكون نبيًا حقيقيًا من أنبياء الله)[1].

بل إنه لا يكتـفى فى ذلك، فهـو يشهد لمحـمد بالنبـوة، رادا بذلك على من يزعم أن محمـدا هو مجرد مصلح اجـتماعى، فيـقول: (لقد كان محـمد نبيًا لا مـصلحًا اجتمـاعيًا. وأحدثت رسـالته فى المجتـمع العربى القائم آنذاك تغـييرات أسـاسية مـا تزال آثارها ماثلة فى المجتمع الإسلامى المعاصر)[2].

ويقول: (مما لا ريب فيه أن محمداً قد اعتبر، بل كان فى الواقع، ثائرًا فى النطاق الذى كان فيه كل نبى ثائرًا بوصفه نبيًا، أى بمحاولته تغيير المحيط الذى يعيش فيه)[3].

ويعرف القرآن الكريم، ويتـحدث عن مزاياه وآثاره. فيقـول: (لابدّ عند تعريف النصّ القدسى فى الإسلام من ذكـر عنصرين، الأول أنه كتاب منزل أزلى غيـر مخلوق، والثانى أنه (قرآن) أى كلام حى فى قلب الجـماعة.. وهو بين الله والإنسانيـة (الوسيط) الذى يجعل أى تنظيم كهنوتى غير ذى جدوى، لأنه مرضى به مرجعًا أصليًا، وينبوع إلهام أساسى.. وما زال حتى أيامنا هذه نموذجًا رفيـعًا للأدب العربى تستحيل محاكاته. إنـه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبى الأمثل وحـسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العـربى والإسلامى الذى أبدعه لأن الدين الذى أوحى به هو فى أساس عـدد كبير من المنـاهج الفكرية التى سوف يشتهـر بها الكتاب)[4].

---

(1) إنسانية الإسلام، ص 46.

(2) إنسانية الإسلام، ص 61.

(3) إنسانية الإسلام، ص 66.

(4) إنسانية الإسلام، ص 52 - 53.

ويتحدث عن النظام الاجتماعى الذى جاء به القرآن، فيقول: (لقد أثبت التنزيل برفضه الفصل بين الروحى والزمنى أنه دين ونظام اجتماعى.. ومن البديهى أن التنزيل والسبيل الذى ظن إمكان استخدامه فيه قد طبعا المجتمع بعمق)[1].

ويتحدث عن الخصائص الكثيرة للنظم التى جاء بها القرآن، والتى تنفى عنه ارتباطه بزمن معين، فيقول: (إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية فى كل الأزمنة)[2].

ويقول: (يخلق الروح القرآنى مناخ عيش ينتهى به الأمر إلى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية بأكثر مما تفترض التصريفات السياسية والطوابع الإيديولوجية التى تسند إلى الدول. ولا يكفى قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى فى (الذهنية الإسلامية) المعاصرة، فهو ما يزال مصدر الإلهام الفردى والجماعى الرئيسى، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير)[3].

بل إنه يصرح تصريحا خطيرا، فيقول: (إن الأدوات التى يوفرها التنزيل القرآنى قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث)[4].

وهو يدعو المؤرخين ـ بدل بذل الجهد فى تفاصيل الأحداث ـ إلى البحث عن الأصول الحقيقية التى ينبنى عليها الإسلام من خلال مصادره الأصلية ليعرف مدى انسجام الإسلام مع المعاصرة[5]: (إن من حق المؤرخ أن يعرف أسس ثقافة هذا الدين وسمت تطور الإنسانية، والتى لم تزل حتى اليوم مرجعًا خلقيًا وسياسيًا لملايين البشر. ومن الأهمية بمكان تحليل أفكارها الأساسية وتطور هذه الأفكار المحتمل، والكشف عن الطريقة التى حدّد بها ذلك الدين العالمى الطموح مكانة الفرد فى المجتمع، وتصوّر تنظيم العلاقات بين الشعوب.. إن تقديم الإسلام على أنه مجرد خصم متصارع من النظريات والبنى التشريعية المعاصرة، أمر غير معقول)[6].

---

(1) إنسانية الإسلام، ص 206 - 207.

(2) إنسانية الإسلام، ص 109.

(3) إنسانية الإسلام، ص 343.

(4) إنسانية الإسلام، ص 345.

(5) وهو اقتراح أصيل، وفكرة رائدة، لأنه لا ينبغى أن يحمل الإسلام مواريث الأخطاء التى ارتكبت فى تاريخه الطويل.

(6) إنسانية الإسلام، ص 14، 15.

ويتحدث بإعجاب عن الاقتران بين التوجيه والتشريع فى الإسلام، فيقول: (لا تمييز فى العقيدة الإسلامية[1] بين الموجب القانونى والواجب الخلقى.. وهذا الجمع المحكم بين القانون والخلق يؤكد قوة النظام منذ البداية)[2].

ويتحدث ـ على عكس العلمانيين من المسلمين ـ عن واقيعة وتقدمية الشريعة الإسلامية، فيقول: (أليس من الواقعية والتقدمية أن يؤمن المرء بقيمة الإنسان وحريته وإرادته، وأن يتخيل إنشاء قانون تستطيع كل الشعوب الانضواء تحت لوائه؟ لسوف يسهم الإسلام فى إنشاء ذلك القانون)[3].

ويقول: (لقد أظهرت الرسالة القرآنية وتعاليم النبى أنها تقدمية بشكل جوهرى، وتفسّر هذه الخصائص انتشار الإسلام السريع بصورة خارقة خلال القرون الأولى من تاريخه)[4].

ويتحدث عن صلاحية الإسلام لكل الأزمان، فيقول: (إن القضية تتمثل فى استرجاع فكرة صلاح الإسلام لكل حين من خلال تجلياته الأبدية والماضية والمستقبلية)[5].

ويرد على الغربيين الذين يرمون الإسلام بالعجز عن تنمية نظام سياسى صالح، فيقول: (من نوافل الأمور رفض الادّعاء المتكرر آلاف المرات فى الغرب عن عجز الإسلام عن تنمية نظام سياسى دايناميى. فالتاريخ يكذبه تكذيبًا مرًا وقاطعًا)[6].

ويتحدث عن الوظيفة التصحيحة التى جاء بها الإسلام، ومارسها مع الكتب السماوية، فيقول: (لم يكن من ضمن رسالته أن يبطل مـا أنزل من قبله، بل أن يصدّقه ناقضًا ما لحق الكتب السماوية من تحريف وانتهاك. وكلف تطهير تعاليم الرسل السابقين من كل مخالفة، والتوسع فيها وتتميمها لتغدو ملائمة للبشرية جمعاء فى كل زمان ومكان)[7].

ويتحدث عن سماحة الإسلام مع الديانات والأمم الأخرى، فيقول: (فتح الإسلام الباب للتعايش على الصعيد الاجتماعى والعرقى حين اعترف بصدق الرسالات الإلهية المنزلة من قبل على بعض الشعوب.. لكنه بدا أنه يرفض الحوار فى الوقت ذاته على الصعيد اللاهوتى حين أزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفًا مخالفًا للتوحيد بالمعنى الدقيق للكلمة. وأتاح منطق تعاليمه القوى وبساطة عقيدته وما يرافقها من تسامح، أتاح كل هذا للشعوب التى فتح بلادها حرية دينية تفوق بكثير تلك التى أتاحتها الدول المسيحية نفسها)[8].

---

(1) يقصد بالعقيدة الإسلامية هنا على حسب ما يبدو الإسلام جميعا، لا عقيدته وحدها.

(2) إنسانية الإسلام، ص 18، 19.

(3) إنسانية الإسلام، ص 24.

(4) إنسانية الإسلام، ص 74.

(5) إنسانية الإسلام، ص 28.

(6) إنسانية الإسلام، ص 365.

(7) إنسانية الإسلام، ص 43.

(8) إنسانية الإسلام، ص 184.

ويقول: (لقد تألفت (أمم) من نوع معين، واتحدت، وخضعت لنظامها الدينى الخاص وانخرطت فى البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامى الذى يحميها)[1].

ويذكر مدى نجاعة الحلول الإسلامية التى وضعها للأقليات[2]، فيقول: (حاول الإسلام منذ القرن السابع للميلاد أن يقدم حلاً لمشكلة الأقليات فريدًا فى نوعه. وتستحق جماعة غير المسلمين على أرض الإسلام أن تتناول بالتحليل، لأنه ثبت أنها نهج لا مثيل له، فى الوقت الذى كان فيه الغرب على أهبة الخروج من العصور الوسطى وإدراك ضرورة وضع الأنظمة المحدودة للعلاقات مع الغرباء)[3].

ويتحدث عن التسامح الذى تحلى به المسلمون فى تاريخهم الطويل، فيقول: (منذ بدء الفتح العربى الإسلامى، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحًا من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب المغلوبة. وفى زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعًا ولا عاطفة، أصدر أبو بكر أول خليفة للنبى إلى جنوده التعليمات المشهورة المرنة كثيرًا التى تختصر الروح الخلقى للقانون الإسلامى)[4].

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية، وامتدادها الزمانى والمكانى، فيقول: (أن الموضوعية التاريخية - بل مجرد العدل - تدفع إلى التذكير بأن الحضارة التى تعهّدت الثقافة المتوسطة خلال القرون السبعة التى تتألف منها العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية ويعترف معظم المؤلفين اليوم بهذا الواقع)[5].

ويقول: (ألم يكن العالم الإسلامى هو الذى جمع أعمال العصور القديمة وترجمها وعلّق عليها تاركًا فى أثنائها بصمات عبقريته الخاصة، قبل أن ينقلها إلى الغرب المسيحى؟ ألم يكن ابن رشد وابن سينا وغيرهما أساتذة الفكر لعدّة أجيال أوروبية؟ ألم تتخلص الفلسفة العبرية على يد الثقافة الإسلامية، من وطأة العقيدة التلمودية التى كانت قد سحقتها زمنًا طويلاً؟)[6].

ويتحدث عن بعض مزايا الحضارة الإسلامية التى أهلتها لذلك الدور العظيم الذى قامت به، فيقول: (يبدو الإسلام واقعًا سياسيًا واجتماعيًا متناغمًا، وظاهرة تاريخية جديرة بالملاحظة، وبالاختصار حضارة قدّمت مفهومًا خاصًا بالفرد، وبيّنت مكانته فى المجتمع،

---

(1) إنسانية الإسلام، ص 186.

(2) انظر تفاصيل أخرى عن هذه الحلول فى رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، و(سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

(3) إنسانية الإسلام، ص 187.

(4) إنسانية الإسلام، ص 278.

(5) إنسانية الإسلام، ص 12.

(6) إنسانية الإسلام، ص 12 - 13.

ودفعت قدمًا ببعض المسلّمات التى تنظم اتصال الشعوب بعضها ببعض. ولم يكن من شأن هذه الحضارة، من جهة ثانية، أن أسهمت إسهامًا تاريخيًا فى الثقافة الكونية وحسب، بل كان أن طمحت كذلك، وبحق، إلى تقديم حلول لأهم المعضلات الفردية والاجتماعية والدولية التى تزعج العالم المعاصر وتقلقه)[1].

ويتحدث عن ربانية المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية، فيقول: (يدل التاريخ على وجود ثابتة مطلقة فى الحضارة الإسلامية كانت متمحورة منذ البدء تمحوراً تامًا حول الله، وما تزال كذلك. وهذه الظاهرة التى غالبًا ما تخفى على الفكر والتحليل الغربيين الحديثين تضفى على الإسلام طابع الديمومة)[2].

ويتحدث عن الأصول التى تقوم عليها الحضارة الإسلامية، فيقول: (ما كان الإسلام يستقر، متأثراً بالمبادئ القرآنية الخلقية الجوهرية ومفيداً من الثقافة المرهفة لبعض الشعوب المفتوحة بلادها، حتى ظهر على أنه مشعل حضارة)[3].

وفى مؤتمر من المؤتمرات كان الحديث عن المرأة، وقد وقف بعض المحاضرين موقفا سيئا من موقف الإسلام من المرأة، فقام هذا الأستاذ الفاضل ليعقب عليه، وقد سجلت من تعقيباته قوله: (ليس فى التعاليم القرآنية ما يسوّغ وضع المرأة الراهن فى العالم الإسلامى. والجهل وحده، جهل المسلمة لحقوقها بصورة خاصة، هو الذى يسوّغه)[4].

وقوله: (أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد أنها حامية حمى حقوق المرأة التى لا تكل)[5].

وقوله: (كانت المرأة تتمتع بالاحترام والحرية فى ظل الخلافة الأموية بإسبانيا، فقد كانت يومئذ تشارك مشاركة تامة فى الحياة الاجتماعية والثقافية، وكان الرجل يتودّد لـ(السيدة) للفوز بالحظوة لديها.. إن الشعراء المسلمين هم الذين علموا مسيحى أوروبا عبر إسبانيا احترام المرأة)[6].

وقوله:(إن الإسلام يخاطب الرجال والنساء على السواء ويعاملهم بطريقة (شبه متساوية)، وتهدف الشريعة الإسلامية بشكل عام إلى غاية متميزة هى الحماية، ويقدّم التشريع للمرأة تعريفات دقيقة عما لها من حقوق ويبدى اهتمامًا شديدًا بضمانها. فالقرآن والسنة يحضّان على معاملة المرأة بعدل ورفق وعطف، وقد أدخلا مفهومًا أشد خلقية عن الزواج،

---

(1) إنسانية الإسلام، ص 33.
(2) إنسانية الإسلام، ص 36 - 37.
(3) إنسانية الإسلام، ص 253.
(4) إنسانية الإسلام، ص 114.
(5) إنسانية الإسلام، ص 140.
(6) إنسانية الإسلام، ص 108.

وسعيًا أخيرًا إلى رفع وضع المؤمنة بمنحها عـددًا من الطموحات القانونية. وتشمل حقوق المرأة - وهى (مقدسـة) وفقًا لحديث نبوى - بشكل أسـاسى: المساواة أمام القانون والملكيـة الخاصة الشخصية، والإرث)[1].

وقـوله: (لقد خـلقت المرأة فى نظر القـرآن من الجوهر الـذى خلق منه الرجل. وهى ليست من ضلعـه، بل (نصفه الشقـيق) كما يقول الحـديث النبوى (النسـاء شقـائق الرجال)[2] المطابق كل المطابقة للتعاليم القـرآنية التى تنص على أن الله قد خلق من كل شى زوجين. ولا يذكر التنزيل أن المرأة دفـعت الرجل إلى ارتكاب الخطيئة الأصليـة، كما يقول سـفر التكوين. وهكذا فإن العقيدة الإسلامـية لم تستخدم ألفاظًا للتقليل من احترامهـا، كما فعل آباء الكنيسة الذين طالما اعتبروها (عميلة الشـيطان). بل إن القرآن يضفى آيات الكمال على امرأتين: امرأة فرعون ومريم ابنة عمران أم المسيح)[3].

وفى موقف آخـر جرى الحديث فيـه عن انتشار الإسـلام وصموده، قال فـيه: (هاهو الإسلام يؤكـد طموحه السيـاسى على المستوى العالمى ويتـابع انتشاره بانتظام، ولا سيـما فى إفريقيا السـوداء. وإذا نُظر إلى قيام الإسلام ووحدته، تبين أنه ليس مجـرد جسم ميّت نقشت عليه ذكرى ماضى مجيد، وإنما هو واقع حىّ حقًا)[4].

وهو يبين حقيقة أن الإسلام هو وراء حـفظ المسلمين، وحفظ البلاد الإسلامية من كل دخيل، فيقول: (ثبت أن الإسلام روح كل مقاومة يبـديها شعب مغلوب سياسيًا، ومحكّ كل مقاومة. . وفى إفريقـيا ساهم الدين فى إقامة مجتمع جديد خـارج النطاق القبلى أكثر جدارة بمقاومة التـأثير الأجنبى. وفى آسيا تماسك الإسـلام المرن ونما فى وجه النفوذ الاستـعمارى. . وقد حمل الإسلام فى أكثر الأحيان راية الصراع مع الاستعمار)[5].

ويتحدث عن ضروة قيام الإسلام بالنهضة الإسـلامية، فيقول: (هو ما يتمثل فى قدرة العالم الإسلامى المعاصر على إيجاد الوسائل اللازمة لـتحقيق (نهـضة) فـكرية وسـياسية، ولا يمـكن أن تقوم هذه النهضة من دون الإسلام)[6].

ويقول: (يظهر أن التـغيير السيـاسى - الاجتماعى اللازم للتكيف مع العـالم العصرى يظل مشروطًا، بشكل واسع، بقيام (نهـضة) دينية، لأن الإسلام الراشد يرفض فصل الروحى عن الزمنى)[7].

---

(1) إنسانية الإسلام، ص 109-110.

(2) رواه أحمد وأبو داود والترمذى.

(3) إنسانية الإسلام، ص 113.

(4) إنسانية الإسلام، ص 35.

(5) إنسانية الإسلام، ص 300 - 301.

(6) إنسانية الإسلام، ص 75.

(7) إنسانية الإسلام، ص 78.

وهو يبرئ الإسلام من الجمود الذى يقع فيه المسلمـون، فيقول: (إن هناك إجماعًا على الجهـر بأنه لا يمكن اعتبـار الإسلام مسؤولاً عـن جمود العالم الإسـلامى الطويل وانحطاطه الواضح. بل تعزى الأمراض الحاضرة على العكس من ذلك إلى المسلمين الذين أهملوا العيش وفق مبادئ دينهم. وإذا كانوا قـد فقدوا الرخاء المادى الذى كانوا ينعمـون به تاريخيًا، فلأنهم بالتحديد أهمـلوا التقيد بـ (نصف الشريعـة الإلهية) ولكشف النقاب الذى انسـدل على العالم الإسلامى ينـبغى أن نلحّ على الطابع العـقلانى الكامل للتنزيـل، وعلى الطاقات اللامـحدودة الكامنة فى السّنّة النبوية. فـحين كان المسلمون يحيـون حسب إرشادات الدين التى تحضّ على التفكير وتشجع الروح النقدى، أثبت الإسلام أنه حامل مشعل التقدم والرقى)[1].

قلت: مـا أصدق هذا الرجل، ومـا أعظم فهـمه للإسـلام.. إن كثـيرا من المسلمـين يحتاجون إلى التتلمذ عليه ليعرفوا قيمة دينهم.

قال: صدقت.. لقد رأيت من المسلمين من يناقـشه مناقشة شديدة، حتى خلت المسلم كافرا والكافر مسلما.

قلت: الإسلام والكفـر حكمان لله.. ولعل فضل الله قـد تدارك هذا الرجل الفاضل ليكتب ما فى قلبه من الإيمان الذى عاش يدافع عنه.. وقد قال ﷺ: «إن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النـار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حـتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فـيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة»[2].

**ريجيس بلاشير:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ريجيس بلاشير)[3]، فسألت البابا عنه، فـقال: هذا باحث فرنسى اهتم باللغـة العربية وبالأدب الإسلامى، وقـد قاده ذلك إلى الاهتمام بالقـرآن، وقد سمعت له بعض الشـهادات الطيبة عن القرآن وحـفظه وإعجازه، سأكتفى بأن أسردها لك سردا:

---

(1) إنسانية الإسلام، ص 305.

(2) رواه البخارى ومسلم، وهذه رواية من روايات الحديث.

(3) بلاشير R. L. Blachere (1900-1973)، ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية فى الدار البيـضاء، وتخرج بالعربية فى كلية الآداب بالجزائر (1922)، وعين أستاذًا لها فى معهد مولاى يوسف بالرباط، ثم انتدب مديرًا لمعـهد الدراسات المغربيـة العليا بالرباط (1924-1935)، واستدعـته مدرسة اللغات الشـرقية بباريس أستاذًا لكرسى الأداب العربى (1935-1951)، ونال الدكتوراه (1936)، وعين أستاذًا محاضرًا فى السوربون (19389، ومشرفًا على مجلة (المعرفة)، التى ظهرت فى باريس باللغتين العربية والفرنسـية، من آثاره: دراسات عديدة عن تاريخ الأدب العـربى فى أشهر المجلات الاستشراقـية، وكتاب (تاريخ الأدب العربى) (باريس 1952)، وترجمة جديدة للقرآن الكريم فى ثلاثة أجزاء (باريس 1947-1952)، وغيرها.

(إن الفضل يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان لإسهامه قبل سنة 655هـ فى إبعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، وإليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نصّ كتابهم المنزل، على مدى الأجيال القادمة)[1].

(لا جرم فى أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني اللفظى والجرس الإيقاعى فى الآيات المنزلة فى ذلك العهد.. إن خصوم محمد قد أخطئوا عندما لم يشاءوا أن يروا فى هذا إلا أغانى سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم - استقرائيًا فقط - بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التى أعاد الرسول ذكرها فى هذه السور اندفاعًا وألقًا وجلالة تخلّف وراءها بعيدًا أقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التى وصلتنا)[2].

(إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضًا - ويمكنه أن يكون قبل أى شيء آخر - تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجّلته من التحف.. إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب المعارض الفظ فى البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن. وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهى بالنص القرآنى بعد أن رتّله المؤمنون)[3].

(الإعجاز هو المعجزة المصدقة لدعوة محمد الذى لم يرتفع فى أحاديثه الدنيوية إلى مستوى الجلال القرآنى)[4].

(فى جميع المجالات التى أطللنا عليها من علم قواعد اللغة والمعجمية وعلم البيان، أثارت الواقعة القرآنية وغذت نشاطات علمية هى أقرب إلى حالة حضارية منها إلى المتطلبات التى فرضها إخراج الشريعة الإسلامية. وهناك مجالات أخرى تدخل فيها (الواقعة القرآنية) كعامل أساسى.. ولا تكون فاعليتها هنا فاعلية عنصر منبه فقط، بل فاعلية عنصر مبدع تتوطد قوته بنوعيته الذاتية)[5].

(إن معجزة النبى الحقيقية والوحيدة هى إبلاغه الناس رسالة ذات روعة أدبية لا مثيل لها، فمن هو ذلك الرجل المكلّف بالمهام الثقيلة العبء وهى حمل النور إلى عرب الحجاز فى أوائل القرن السابع؟ إن محمدًا لا يبدو فى القرآن إطلاقًا، منعمًا عليه بمواهب تنزهه عن الصفات الإنسانية، فهو لا يستطيع فى نظر معاصريه المشركين أن يفخر بالاستغناء عن حاجات هى حاجاتهم، وهو يصرّح بفخر أنه لم يكن سوى مخلوق فإن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ...

---

(1) تاريخ الأدب العربى 2/ 22.
(2) تاريخ الأدب العربى، 2 / 31.
(3) القرآن الكريم، ص 102 - 103 .
(4) القرآن الكريم، ص 104 - 105 .
(5) القرآن الكريم، ص 104.

﴿١١٠﴾ [الكهف] وهو لم يتلق أى قدرة على صنع المعجزات، ولكنه انتخب ليكون منذراً ومبشراً للكافرين. إن نجاح رسالته مرتبط إذن فى قيمتها الإحيائية وإلى شكلها المنقطع النظير. ولم يكن محمد رغم ذلك، صاحب بيان ولا شاعراً، فإن الأخبار التى روت سيرته لم تحسن الاحتفاظ بذكرى مفاخراته الشخصية، وثمة عوامل تحملنا على الشك فيما إذا كان عرف استعمال السجع، أو أنه تلقى من السماء فنّ ارتجال الشعر. وعندما قال عنه المكّيون المشركون أنه شاعر، أو حين عرّضوا بأن مصدر الوحى جنّى معروف أزال الله عنه هذه التهمة: ﴿وما علَّمْناهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس] وهكذا يطرح هذا الوحى البالغ جماله حد الإعجاز، الواثق بحمل الناس بقوة بيانه على الهداية، كظاهرة لا علاقة لها بالفصاحة ولا الشعر)[1].

(أما عن انتصار الإسلام فثمَّة أسباب تداخلت وفى طليعتها القرآن والسنة وحالة الحجاز الدينية، ونصح وبيان وأمانة الرجل المرسل لإبلاغ الرسالة المنزلة عليه)[2].

**إميل درمنغم:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (إميل درمنغم E. Dermen-ghem فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسى، عمل مديراً لمكتبة الجزائر إبان الاستعمار، من آثاره: (حياة محمد) (باريس 1929) وهو من أدق ما صنّفه مستشرق عن النبى ﷺ، و(محمد والسنة الإسلامية) (باريس 1955م)، ونشر عدداً من الأبحاث فى المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الإفريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية) وغيرها.

ولهذا الرجل الفاضل شهادات قيمة عن القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية سأبث لك منها ما يسمح به الوقت:

فهو يشهد بالاحترام العظيم الذى ناله المسيح فى المصادر الإسلامية، وخاصة القرآن الكريم، فيقول: (للمسيح فى القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذى خاطب الله جهراً عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اختصار على الوحى وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يَذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح، ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله، وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية صحيحة، ولا يسع النصرانى إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم)[3].

---

(1) تاريخ الأدب العربى: 2 / 14 - 15.
(2) تاريخ الأدب العربى: 2 / 50.
(3) حياة محمد، ص 131 - 132.

وهو يرد على المقولة التى كانت تردد فى ذلك الوقت عن كـون الدين أفيون الشعوب، بقوله: (سيكون القرآن حافزًا للجهاد يردده المؤمنون كما يردد غيرهم أناشيد الحرب، محرضًا على القتال جامعًا لشؤونه، محركًا لفاترى الهـمم، فاضحًا للمخلّفين مخربًا للمنافقين، واعدًا الشهداء بجنات عدن)[1].

ويتحدث عن القـرآن ومدى الجدية التى نالت حفظه، فيـقول: (كان محمد يعـد نفسه وسيلة لتـبليغ الوحى، وكان مبلغ حـرصه أن يكون أمينًا مصـغيًا أو سجـلاً صادقًا أو حاكـيًا معصومًا لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوى، لكلام الله الذى هو أم الكتاب، للكلام الذى تحفظه ملائكة كـرام فى السماء السابعة. . ولابد لكل نبى من دليل على رسالته، ولابد له من معجزة يتحـدى بها. . والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة[2]، فأسلوبه المعجز وقوة أبحـاثه لا يزالا - إلى يومنا هذا - يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان مـحمد يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدى أقوم دليل لمحمـد على صدق رسالته. . ولا ريب أن فى كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة فى حياة الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب فى أن هناك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه)[3].

ويتحـدث عن مظاهر الصدق التى تدل على أن القرآن الكريـم ليس افتراء من محـمد ﷺ، فيقول: (كـان لمحمد بالوحى آلام كبيرة. . وحالات مؤثـرة كره أن يطلع الناس عليها، ولاحظ أبو بكر ذات يوم، والحـزن ملء قلبـه، بدء الشـيب فى لحـية النبى فـقـال له النبى: (شيّبتنى هود وأخواتها: الواقعة والحاقة والقارعة). وكان النبى يشعر بعد الوحى بثقل فى رأسه فيطبـه بالمراهم، وكان يدثر حـين الوحى فيـسمع له غطيط وأنين. وكان إذا نزل الـوحى عليه يتحلر جبينه عرقًا فى البرد)[4].

ويقول: (كان محمد، وهو البعيد من إنشاء القرآن وتأليفه ينتظر نزول الوحى إليه أحيانًا على غير جدوى، فيألم من ذلك، ويود لو يأتيه الملك متواترًا)[5].

ويتحدث عن بعض مواقف رسول الله ﷺ الدالة على صدقـه بإعجاب، فيقول: (ولد لمحمد، من مارية القبطية ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيرًا ولحده بيده وبكاه، ووافق موته كسوف الشمس فقال المسلمون: إنهـا انكسفت لموته، ولكن محمدًا كان من سموّ النفس

(1) حياة محمد، ص 195.

(2) وهذا لا يعنى أنه ليس لرسول الله ﷺ مـعجزات حسية، وقـد سبق تفصيل ذلك والمقارنة بين مـعجزات النبى ﷺ ومعجزات المسيح فى رسالة (معجزات حـسية) من هذه السلسلة.

(3) حياة محمد، ص 289 - 280.

(4) حياة محمد، ص 283.

(5) حياة محمد، ص 285.

ما رأى به ردّ ذلك فقال: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد..)[1] فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال)[2].

ويقول: (إن محمداً الذى خلق القيادة لم يطلب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلّغهم رسالات الله، فهو بذلك واسطة بين الله رب العالمين والناس أجمعين. وكان ينهى عن عدّه ملكًا ولقد نال السلطان والثراء والمجد، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم، ومما كان يمضه عجز كثير من الناس عن إدراك كنه رسالته)[3].

ويتحدث عن الجهد العظيم الذى بذله رسول الله ﷺ فى سبيل نجاح الدعوة، فيقول: (تجلت بهذه الرحلة الباهرة [حجة الوداع] ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبى الذى أنهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبى الذى جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة)[4].

ويقول: (الحق أن النبى لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحى إليه فى غار حراء، فقضى حياة يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت فى رمال الحجاز الجدبية حبة سوف تجدد - عما قليل - بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطى. وليس لدينا ما نعرف به أن محمداً أبصر، حين أفاض من جبل عرفات، مستقبل أمته وانتشار دينه، وأنه أحسّ ببصيرته أن العرب الذين ألّف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وإفريقيا وإسبانيا)[5].

ويتحدث عن الأسباب الحقيقية التى جعلت الإسلام ينتشر بدل خرافة السيف، فيقول: (إن الذى أدى إلى تنافر الإسلام والنصرانية وتغلّب الإسلام على النصرانية هو ما كانت عليه النصرانية من الفساد فى القرن السابع من الميلاد، وفرق النصرانية الضالة هى التى كان محمد شاهداً عليها، وهو الذى لم يعرف غيرها، والمسائل المشكوك فيها الكثيرة التى مصدرها ما أدخله اليهود على التلمود وغيره)[6].

ويقول: (لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف، ففى القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة]، والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال وبأن لا يبدءوا بالاعتداء)[7].

---

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) حياة محمد، ص 318.

(3) حياة محمد، ص 360.

(4) حياة محمد، ص 359.

(5) حياة محمد، ص 368 - 369.

(6) حياة محمد، ص 137.

(7) حياة محمد، ص 196

ويقول: (كتب الفـوز للعرب لأنهم كانوا أهلاً للفوز، وتمَ النـصر للإسلام لأنه عنوان رسالة كان الشـرق كثير الاحتيـاج إليها، واحتـمل المسلمون ضروب العذاب قـبل الهجرة ولم يستطيعـوا لها ردًا، فلما كانت الهجرة وكـان ما أبدوه من المقاومة، والنصر، اتخـذوا التسامح الواسع دستورًا لهم. أجل لم يبق للمشركين مقام فى دار الإسلام، ولكنه أصبح لأهل الكتاب من اليهود والنصـارى فيها حق الحمـاية وحرية العبادة ومـا إليهما وصاروا من المجـتمع إذا ما أعطوا الجزية. قال النبـى: (من آذى ذميًا فأنا خصــمه)، وما أكثر مـا فى القرآن والحديث من الأمر بالتسامح، وما أكثر عمل فـاتحى الإسلام بذلك ولم يرو التاريخ أن المسلمين قتلوا شعبًا، وما دخول الناس أفواجًا فى الإسلام إلا عن رغبة فيه، وهنا نذكر أن عمر بن الخطاب لما دخل القدس فـاتحًا أمر بأن لا يمسّ النصـارى بسوء وبأن تترك لهم كنائسـهم، وشمل البطرك بكل رعاية ورفض الـصلاة فى الكنيسـة خوفًـا من أن يتخـذ المسلمين ذلك ذريعـة لتحويـلها إلى مسجد. وهنا نقول ما أعظم الفرق بين دخول المسلمين القدس فاتحين ودخول الصليبيين الذين ضربوا رقـاب المسلمين فـسار فرسـانهم فى نهر من الدمـاء التى كانت من الغزاة مـا بلغت به ركبهم. وعقد النية على قتل المسلمين الذين تفلتوا من المذبحة الأولى)[1].

ويتحـدث عن عدالة الشريـعة الإسلامـية ورحمـتها وآثارها، فـيقول: (كـان للدعوة المحمدية فى جزيرة العرب أثر عظيم ثابت فى تقدم الأسـرة والمجتمع وفى تقدم الصحة أيضا، فقد حسن بهـا مصير المرأة، وحرّم بها الزنا والمتـعة وحياة الغرام، ومنع بها إكـراه القيان على البغاء لإثراء سادتهن. والإسلام، وإن أباح الرق، نظم أحكامـه فعدّ فك الرقاب من الحسنات ومكفرًا لبعض السـيئات)[2].

ويقارن بين موقف الإسلام من الـغرائز مع موقف المسيحية، فـيقول: (تُعارض الآداب الإسلامية بالنسك النصرانى أحيانًا معارضـة مصنوعة، فالإسلام وإن بدا أكثر تسامحًا فى الميل الجنسـى، لم يكلف نفسًا إلا وسعها، ويرى كمـال العبادة فى نيل الجسم حقه الشرعى، ولكن زهد الصوفـية المسلمين يعـدل زهد نسـاك جميـع الأديان، ولكن الإسلام حرم الخمـر وفرض الصوم الصارم الذى لم تعرف مثله ديانة أخرى، ولكـن المسلمات ملزمات بهندام وزى يبتعدان كثيرًا عن الأزياء الأوروبية العصرية، فـمن العبث إذن أن يزعم وجود فروق كبيرة بين الأدبـين مع اخـتلاف فى النـظر والعمل وتباين فى النظريات نفـسها)[3].

ويقول: (كان كثير من المسلمين يكثرون من التـوبة والاستغفار والصلاة والصوم، فرأى محمد أن القصد أولى من الإفراط. فأشـار بالاعتدال فى التقشف وبترك كل ما يميت النفس،

(1) حياة محمد، ص 369 - 370.

(2) حياة محمد، ص 290.

(3) حياة محمد، ص 292.

وحدث أن بعضهم قادوا أنفسهم إلى الحج بربط أنوفهم بأرسان الجمال فقطع محمد هذه الأرسان لأن الله ليست له حاجة بجدع الأنوف)[1].

ويتحدث عن امتزاج الدنيا بالآخرة والعبادة بالحياة فى القرآن الكريم، فيقول: (على ما تراه فى دعوة النبى من المبادئ الأخروية لم يأل النبى جهدًا فى تنظيم المجتمع الإسلامى تنظيمًا عمليًا، فكان القرآن كتاب شريعة كما كان مثل كتاب الزبور)[2].

ويتحدث عن تأثير الفتوحات الإسلامية فى التنوير الذى حصل لأوروبا والمسيحية[3]، فيقول: (كانت الفتوح الإسلامية جزاءً مقدرًا وخزيًا كبيرًا على النصرانية الشرقية المتفرقة المنحطة.. وكان سلطان العرب غلاً أكرهت به أوروبا على الصواب، فكان ظهور العرب ووعيدهم حافزين للنصرانية إلى سلوك سبيل الإصلاح والترقى)[4].

ويتحدث عن الخلاص الذى قدمه الإسلام للبشرية، فيقول: (إن العرب إذ صار لهم سيد دان له الجميع، وصارت لهم روح عامة ومبدأ واحد، أصبحوا من القوة ما استطاعوا به أن يكونوا ذوى شأن فى العالم.. وكانوا مستعدين ليرثوا الدول العالمية المتحضرة. [وهم] على خلاف الجرمان والوندال والبرابرة بدوٌ وارثون مستعدون لتمثيل دورهم فى التاريخ والصعود توًا فى سلّم الحضارة. وكان ظهورهم فى الوقت المناسب.. فأنقذوا العالم من الانهيار، وأخذوا المصباح من أيدى البيزنطيين والفرس العاجزة فكان دور خلفاء بنى أمية وبنى العباس الذى يعد من أنضر أدوار التاريخ، وذلك قبل أن ينتقل هذا المصباح فى القرن الثالث عشر إلى ما بين البارتنون وشارتر. والعرب لو تركت حبالهم على غواربهم ما قاموا بغير التخريب.. ولكنهم جلبوا معهم الإسلام والمروءة حين قبضوا على زمام المدنيات القديمة التى كادت تنحلّ فازدهرت بفضلهم)[5].

وفى حديث له عن المرأة قال: (مما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة فى بلاد العرب وحسّن حالها، قال عمر بن الخطاب: «ما فتئنا نعد النساء من المتاع حتى أوحى فى أمرهن مبينًا لهن»، وقال النبى: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم). أجل، إن النبى أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق بهن ونهى عن تزويج الفتيات كرها وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق: ولم يكن للنساء نصيب فى المواريث أيام الجاهلية.. فأنزلت الآية التى تورّث النساء. وفى القرآن تحريم لوأد البنات، وأمرٌ

---

(1) حياة محمد، ص 297 - 298.

(2) حياة محمد، ص 297 - 298.

(3) انظر ما يثبت ذلك فى رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص) من هذه السلسلة.

(4) حياة محمد، ص 144.

(5) حياة محمد، ص 369.

بمعاملة النساء والأيتام بـالعدل، ونهى محمد عن زواج المتعة وحـمل الإماء على البغاء: وأباح تعدد الزوجـات، ولم يوصى الناس به، ولم يأذن فـيه إلا بشرط العـدل بين الزوجات فـيهب لإحداهن إبرة دون الأخـرى. . وأباح الطلاق أيضًا مع قـوله: (أبغض الحلال إلى اللـه تعالى الطلاق). وليس مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة من الحـقوق الطبيعية مع ذلك، ولم يفرضه كتاب العهد القديم على الآباء، وإذا كان هذا قد أصبح سنة في النصرانية فذلك لسابق انتشاره في بلاد الغرب، وذلك من غـير أن يحمله رعايـا نيرون إلى بلاد إبراهيم ويعقوب. . وأيهـما أفضل: تعـدد الزوجات الشـرعى أم تعدد الزوجات السِّرِّى؟. . إن تعدد الزوجـات من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر»[1].

ويرد على بعض الشبه المرتبطة بهذا، فـيقول: (من المزاعم الباطلة أن يقال إن المرأة فى الإسلام قد جردت من نفوذها زوجة وأما كما تُذم النصرانية لعدّها المرأة مصدر الذنوب والآثام ولعنها إياها، فعلى الإنســان أن يطوف فى الشرق ليرى أن الأدب المنزلى فيه قـوى متين، وأن المرأة فيـه لا تحسد بحكم الضرورة نسـاءنا ذوات الثياب القـصيرة والأذرع العارية، ولا تحـسد عـاملاتنا فى المـصانع وعـجائـزنا، ولم يكن العـالم الإسلامى ليـجـهل الحب المنزلىّ والحب الروحى، ولا يجهل الإسلام ما أخذناه عنه من الفروسية المثالية والحب العذرى)[2].

وهو يتحدث عن تأثير غياب الإسلام عن المجـتمع الإسلامى، فيقول: (كان الانحطاط السياسى والاجتماعى موازيًا لنسيان مبادئ الإسلام الصحيح مع أنه لم ينشأ عنها، واليوم يظهر أن الأمم الإسـلاميـة تنهض وهى تسـتطيع أن تمثل دورًا كبـيـرًا فتكون أداة وصل بين الغـرب والشرق الأقصى وتكون ذخرًا من أذخار العالم القديم)[3].

قلت: ما أصدق هذا الرجل. . وما أروع شهاداته.

ثم أضفت أقول: هذا مع تخلفنا عن ديننا. . فكيف لو عدنا إليه؟

قال: لو عدتم إليه كما طلب منكم لرأيتم العالم كله بين أيديكم يتتلمذ عليكم.

قلت: العالم الآن كله يحاربنا.

قال: لأنكم حلتم بينه وبين شمس الحقيقة؛ فلذلك ترونه ينتقم منكم، وأنتم تتوهمون أنه ينتقم من الإسلام.

---

(1) حياة محمد، ص 329-331.

(2) حياة محمد، ص 331.

(3) حياة محمد، ص 371 372.

**الكونت هنرى دى كاسترى:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الكونت هنرى دى كاسترى)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل من من أكثر المستشرقين إنصافًا للإسلام، وله في هذا كتاب سماه (الإسلام خواطر وسوانح)، وقد ذكر في هذا الكتاب غايته من تأليفه، فقال: (إن غاية ما يرمى إليه هو إطلاع مواطنيه على صورة صحيحة للإسلام حتى يحاطوا بأصدق المعلومات عن العقيدة التي يعتنقها بعض رعاياهم في القارة الافريقية، مما يسهل لهم التفاهم معهم والسيطرة عليهم)

وقد ذكر في مقدمته الظروف التي دعته إلى تأليفه، فقال: (ذات يوم عندما كنت ضابطًا في الجيش الفرنسي بالجزائر خرجت أجوب الصحراء في ولاية وهران وخلفي ثلاثون من الفرسان العرب.. وعندما حان وقت الصلاة ترجلوا عن جيادهم واصطفوا لأداء صلاة العصر جماعة، وجعلتُ أشاهد حركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله أكبر، الله أكبر، فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذًا لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين، وكنت أشعر بأنهم في صلاتهم تلك أرفع مني مقامًا وأعزّ نفسًا، وهم يكررون إلى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقًا وإيمانًا، فأحسست أنني منجذب بحلاوة الإسلام كأنني أول مرة شاهدت في الصحراء قومًا يعبدون خالق الأكوان)[2].

وقد وصف شعوره ـ عندما أضطر أن يتنحى جانبًا حتى يفرغوا من أداء صلاتهم ـ فقال: (كنت أود لو أن الأرض انشقت فابتلعتني، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثنى وتنفرج بحركات المصلين، وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع (الله أكبر. الله أكبر) فكان لهذا الاسم الإلهي أثر عجيب في نفسي، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظًا يعبر عنه بسبب الحياء والانفعال.. كنت أحس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامي قبل هذه اللحظة، يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفع مني مقامًا وأعز نفسًا)

ثم ذكر كيف دفعته تلك الخواطر إلى الاستزادة من التعرف على مبادئ الإسلام، فكان من أهم ما لفت نظره الأسلوب الذى انتشر به الإسلام.. وكيف قاومه العرب في البداية، ثم استجابوا له فرادى وأفواجا، فقال: (لو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء الفتوحات الإسلامية مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء العالم).

---

(1) الكونت هنرى دى كاسترى (1850-1927)، مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي ردحًا من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (1950)، (الأشراف السعديون) (1921)، (رحلة هولندى إلى المغرب) (1926)، وغيرهما.

(2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 2 - 3.

ثم ضرب مثلا على ذلك بوجود عدة ملايين من المسلمين فى الصين، مع أن الفتوحات الإسلامية لم تبلغ تلك البلاد، كما ضرب المثل بانتشاره بين الملايين من سكان القارة الافريقية!

ثم قال: (وهكذا جلب الإسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس)

وتحدث كاسترى عن تعذر إخراج المسلمين عن دينهم؛ عندما تناول الصعوبات العديدة التى اعترضت سبيل المبشرين الفرنسيين فى مستعمراتهم الإفريقية؛ ومنها الجزائر ـ لحمل المسلمين على نبذ دينهم ـ فقال: (إن الإسلام ليس فى أهله من يمرق عنه إلى غيره، وبعيد عن فكر المسلمين تصور هذا الأمر، حتى أنهم لا يجدون لفظًا يعبرون به عن صفات من يأتيه، كما أنهم تحيروا فى وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية، لأن فيها معنى من معانى الردة).

بعدها قارن (كاسترى) بين العجز عن حل المسلمين على ترك دينهم، وما يلقاه المسلمون – فى الوقت نفسه – من يسر فى إقناع غيرهم باعتناق دينهم.

ثم اختتم كاسترى كتابه بقوله: (لو لم يكن للإسلام من فائدة إلا تحويل عبدة الاصنام من وثنيين إلى موحدين، وترقية أخلاقهم ومكانتهم، لكفى بذلك داعيا إلى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال، جريا على قاعدة العمل بأخف الضررين).

سكت الباب قليلا، ثم قال: هذا عرض مختصر لما جاء فى كتابه، وسأذكر لك الآن بعض شهاداته التى أهلته لأن يصادق الإسلام:

فمنها شهادته عن الإعجاز القرآنى، والتى يقول فيها: (إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أُمّىٍّ وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنى. آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار فى جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت «عين نجاشىّ الحبشة» بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبى طالب سورة زكريا وما جاء فى ولادة يحيى وصاح القسس أن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى.. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معانى القرآن كما هى لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغى أن يكون ذلك سببًا فى معارضة تأثيره فى عقول العرب. ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول: (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمدًا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذى يطرب الآذان ويؤثر فى القلوب.. لخر ساجدًا على الأرض وناداه: أيها النبى رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار).. وكيف يعقل

أن النبى ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها فى الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون.. ولو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب)[1].

ويقول: (أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار التى تعذر فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله)[2].

ويتحدث عن مواضع الاتفاق بين القرآن والكتاب المقدس، ويفسره التفسير الصحيح[3]، فيقول: (قد نرى تشابهًا بين القرآن والتوراة فى بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة.. إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبى خاتم الأنبياء والمرسلين)[4].

وفى موضع آخر يعلل ذلك الاتفاق بقوله: (إن دين الأنبياء كان كله واحدًا فهم متحدون فى المذهب منذ آدم إلى محمد وقد نزلت ثلاثة كتب سماوية وهى الزبور والتوراة والقرآن. والقرآن بالنسبة إلى التوراة كالتوراة بالنسبة إلى الزبور وإن محمدًا بالنظر إلى عيسى كعيسى بالنظر إلى موسى، ولكن الأمر الذى تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوى ينزل للناس، وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً. إذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد كعيسى قال إنه بعث ليتم رسالة من قبله لا ليبيدها، فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله.. على أن بعض المشابهات لا تحتاج إلى مثل هذا التفسير إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بنى إسرائيل، وكان يعبد الله الذى عبدوه فلا عجب أن تشابهت ألفاظ التضرّعات وتجانست أصوات الدعاء)[5].

ويتحدث عن العقيدة الإسلامية ومدى انسجامها مع العقل، واستحالة أن يكون مصدرها يهوديا أو نصرانيا، فيقول: (لا إله إلا الله) ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوره وهو اعتقاد قوى يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب، أولئك حقًا هم المؤمنون.. ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبى من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه، فظهور هذا الاعتقاد

---

(1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 18 - 20.

(2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 20.

(3) انظر الأدلة على هذا فى رسالة (كلمات مقدسة) من هذه السلسلة.

(4) الإسلام: خواطر وسوانح ص 22 - 23.

(5) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 23 - 24.

بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه فى رسالته وأمانته فى نبوته)[1].

ويتحدث عن انسجام الإسلام مع الفطرة، فبينما نرى تشدده فى نواحى العقيدة نرى تساهله فيما يرتبط بالغرائز التى تقتضيها الفطرة، فيقول: (لقد كان فكر النبى فى الألوهية من أرفع الأفكار وأسماها، ولكنه تسامح للناس كثيراً فى رغباتهم وما كانوا إليه يميلون. نعم يجب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله، ولكن لا يجب عليه أن يحارب نفسه ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها.. ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبى عنه وأمر بمجاهدة النفس فيه. فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله، وقد بالغ المسلمون فى العمل بهذا النهى، فكان من وراء ذلك أن نجت الأمم الإسلامية من مرض المسكرات وهى الداهية التى تفجع اليوم أممًا كثيرة من المسيحيين، وكانت إحدى الأسباب فى اضطراب المجتمع الإنسانى وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الإسلامية. هكذا جذب الإسلام قسمًا عظيمًا من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس مرات فى كل يوم، وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئًا مما يشتهون)[2].

ويتحدث عن العلاقات الاجتماعية التى أسسها الإسلام بين المسلمين، فيقول: (إن الرابط عند المسلمين هى أشد قوة منها لدى غيرهم من الأمم التى تدين بدين واحد، لأن القرآن شريعة دينية وقانون مدنى وسياسى)[3].

ويتحدث عن الأخلاق التى كانت تحكم الفتوحات الإسلامية، فيقول: (إن [أتباع] محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم وهذه المحبة هى التى دفعت العرب فى طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة إذا أغاروا على الشام وساروا سير الصواعق إلى إفريقيا الشمالية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى. ولم يتركوا أثرًا للتعسف فى طريقهم إلا ما كان لابد منه فى كل حرب وقتال، فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.. فكلما التقى المسلمون بأمة خيروها بين واحد من ثلاثة الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها. هكذا كانت الأوامر التى زود بها أبو بكر الصديق خالد بن الوليد من أنفذه إلى الشام)[4].

ويتحدث عن سماحة الإسلام، فيقول: (إذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظمًا رأيناه أكثر محاسنة وأنعم ملمسًا بين مسيحيى الشرق على

(1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 17 - 18.
(2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 13.
(3) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 105 - 106.
(4) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 35 - 36.

الإطلاق. فما عرض العرب أبداً شعائر الدين المسيحى بل بقيت روما نفسها حرّة فى المراسلات مع الأساقفة الذين ما زالوا يرعون الأمة الخالية. وكان الوئام مستحكمًا بين المسلمين والمسيحيين. ومع هذه المسالمة العظيمة من جانب المنتصر مع المغلوب، ضعفت الديانة النصرانية جدًا ثم زالت بالمرة من شمال إفريقيا، ولم يكره أحد على الإسلام بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع فى القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب. نعم قد اعتنق الإسلام قوم مشوا وراء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من أسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح.. وصار من اللازم أن يثبت الإسلام لمن أراده على يد القاضى ويحرر بذلك محضرًا يذكر فيه أن المسيحى اعتنق الإسلام عن اعتقاد تام غير خائف ولا مكره، إذ لا يجوز أن يكره أحد على تغيير دينه)(1).

ويقول: (قرأت التاريخ وكان رأيى بعد ذلك أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عن الغلظة وعلى حسن مسيرة ولطف مجاملة وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين آنذاك)(2).

ويرد على خرافة انتشار الإسلام بالسيف، فيقول: (إن الدين الإسلامى لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال أن كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا سببًا فى سقوط المملكة العربية. ومن المظنون أن المسلمين لو عاملوا الأندلسيين مثل ما فعل المسيحيون بالأمم الساكسونية، لأخلدت إلى الإسلام واستقرت عليه، لأنها مع تمتعها بحرية دينها المسيحى كانت كثيرة الانشقاق والأحزاب. وما لنا ولهذه الظنون والتخمينات وأمامنا أمر واحد ينبغى الوقوف عنده؛ وهو أن ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الأمم اليهودية والمسيحية والوثنية فى إفريقيا الشمالية وفى قسم عظيم من آسيا، حتى إنه وجد فى بلاد الأندلس من المسيحيين المتنورين من تركوا دينهم حبًا فى الإسلام، كل هذا بغير إكراه؛ إلا ما كان من لوازم الحروب وسيادة حكومة الفاتحين ومن دون أن يكون للإسلام دعاة وقوّام مخصصون وهو ما يقنعنا بأن للإسلام جاذبية وقوة انتشار.. لأنه لا يزال ينتشر حتى الآن)(3).

ويقول: (إننا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين فى العصر الحاضر لا يبقى أثرًا لما زعموه من أنه إنما انتشر بحدّ الحسام. ولو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه فى جميع أرجاء المسكونة)(4).

---

(1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 39 - 40.
(2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 44.
(3) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 86.
(4) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 48 - 50.

ويرد على الشبه الكثيرة المثارة حول موقف الإسلام من تعدد الزوجات، فيقول: (إن الناس بالغوا كثيرًا فى مضار تعدد الزوجات عند المسلمين إن لم نقل أن ما نسبوه إليه من ذلك غير صحيح. فما تعدد الزوجات هو الذى ولد فى الشرق تلك الرذائل الفاضحة، بل المعقول أنه من شأنه تلطيفها، على أننى لست أدرى إن كانت تلك الرذائل أكثر منها فى الغرب، بل تلك وصمة ألصقت بالإسلام بواسطة السّواح الذين يرون أمرًا فى فرد فيجعلونه عاما من غير تثبُت منه ولولا هذا التعميم السطحى لما وجدوا شيئًا يملأون به مؤلفاتهم. والواقع أن الرذائل الفاضحة موجودة فى كل أمة ولقد يقع منها فى باريس ولندن وبرلين أكثر مما يحث فى الشرق بأجمعه لأن النبى بالغ فى تحريمها ولم يعدها من الذنوب الخفيفة)[1].

ويقول: (لم يقتصر القرآن فى التضييق على تعدد الزوجات على عددهن، بل حرم ما كان معروفًا عند العرب قبله من الزواج لزمن محدد وفى ذلك شبه تحريم للطلاق لكونه لا يتأتى إلا بشروط مخصوصة)[2].

ورد على الشبهات التى يثيرها المغرضون حول عقد الزواج فى الإسلام، فيقول: (من الخطأ الفاضح والغلو الفادح قولهم أن عقد الزواج عند المسلمين عبارة عن عقد تباع فيه المرأة فتصير شيئًا مملوكًا لزوجها؛ لأن ذلك العقد يخول للمرأة حقوقًا أدبية وحقوقًا مادية من شانها إعلاء منزلتها فى الهيئة الاجتماعية)[3].

ويتحدث عن قيم العفاف التى اهتمت التشريعات الإسلامية بنشرها، فيقول: (إننا لو رجعنا إلى زمن النبى ومكان ظهوره لما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثر مما أتاه فهن مدينات لنبيّهن بأمور كثيرة وفى القرآن آيات ساميات فى حقوقهن وما يجب لهن على الرجال.. ويرى القارئ من جميع تلك الآيات مقدار اهتمام الإسلام بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين لكى يجعل الأزواج والآباء فى راحة ونعيم.. ولقد أصبحت للمسلمين أخلاق مخصوصة، عملاً بما جاء فى القرآن أو فى الحديث، وتولدت فى نفوسهم ملكات الحشمة والوقار، وجاء هذا مغايرًا لآداب الأمم المتمدنة اليوم على خط مستقيم، ومزيلاً لما عساه كان يحدث عن ميل الشرقيين إلى الشهوات لولا هذه التعاليم والفروض. والفرق بين الحشمة عند المسلم وبينها عند المسيحى كما بين السماء والأرض)[4].

ويتحدث عن استمرار نشر الإسلام فى العالم رغم المكايد الكثيرة التى يتعرض لها، فيقول: (إن للمسلمين فى الصين منزلة علية.. ويخمّن (وازيليف) - وهو من الذين اشتغلوا

---

(1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 56.
(2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 57 - 58.
(3) الإسلام: خواطر وسوانح، ص57.
(4) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 58 - 59.

بالإسلام فى تلك النواحى - أن مصيره القيام مقام مذهب (بوذا) وأن لمسلمى الصين اعتقاداً جازمًا بأن الإسلام لابدّ أن يسود حتى تزول به تلك الديانة القديمة البوذية، وهى مسألة من أهم المسائل، إذ الصين آهلة بثلث العالم أو تزيد، فلو صاروا كلهم مسلمين لأوجب ذلك تغييراً عظيمًا فى حالة تلك البلاد بأجمعها، فيمتد شرع محمد من جبل طارق إلى المحيط الأكبر الهادى ويخشى على الدين المسيحى مرة أخرى. ومعلوم أن أمة الصين أمة عاملة وإن هدأت أخلاقها، وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها، فلو جاءها التعصب الإسلامى ذو البأس القوى لخشيت بقية الأمم من السقوط تحت سلطانها. وقال (مسيو مونتيه) لقد صار من المحقق أن الإسلام ظافر لا محالة على غيره من الأديان التى تتنازع البلاد الصينية)[1].

ويقول: (قال (مسيو مونتيه): أن أكثر انتشار الإسلام فى أفريقيا فهو يتقدم فيها تقدمًا سريعًا وينجح نجاحًا كليًا لأن أزر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المكنة فى الجهة الشمالية.. فلا ينازع الدين الإسلامى دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام)[2].

ويقول: (إن الإسلام يبرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين فى أواسط إفريقيا وتجنيدهم تحت راية القرآن. وله كذلك فى الشمال الشرقى من بلاد الزنج وفى السودان ما يدل على قوته الغريبة وسيره المدهش. إذ قامت مملكتان قويتان: مملكة المهدى ومملكة إمام جغبون [السنوسية] منذ خمسين سنة؛ على هيئة حكومات تشخص الحكومة الدينية التى أرادها النبى الإسلامى. كذلك توجد فى الزاوية المقابلة لهاتين المملكتين مملكة ثالثة فى شمال إفريقيا وهى على نسقها ولا تزال تقاوم هجمات الديانات المسيحية ظافرة عليها ونعنى بها مملكة مراكش)[3].

ويتحدث عن الصمود الذى يبديه المسلمون تجاه حملات التنصير، فيقول: (إن استعصاء المسلمين على التنصّر بواسطة المرسلين واستحسانه إخضاعهم بالقوة، هما السببان اللذان يعترضان تنصّرهم. والمرسلون من الكاثوليك هم أول المعترفين بوجوب العدول عن الوعظ مباشرة، ولكنهم مع ذلك متمسكون برسالتهم، فلم يملوا من الجهاد فى سبيلها أمام صلابة الإسلام.. ولكنهم لم يحوموا حول مسألة الدين مطلقًا، وهم إنما يزرعون البعد عن الدين مع كونهم من الأحبار، وعلى الرغم من أنهم لم ينجحوا فى إدخال الإنجيل بين العرب؛ فقد كانوا من أحسن الوسائل لنشر نفوذ الدولة الفرنسية)[4].

---

(1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 87 - 88 (عن مسيو دابرى: الديانة المحمدية فى الصين وتركستان الشرقية، باريس 1878).

(2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 88 - 89.

(3) الإسلام. خواطر وسوانح، ص 100.

(4) الإسلام. خواطر وسوانح، ص 104.

(مضى على الإسلام في الجزائر نصف قرن لم يؤثر فيه الاحتلال الفرنساوي، بسبب مقاومة الطوائف الدينية في تلك البلاد، ولو أن تلك الطوائف تعرف من نفسها اقتدارًا على قذفنا في البحر لتقيم بعدنا مملكة إسلامية جامعة (بين السلطتين الدينية والسياسية) لاقتحمت الأخطار وقلبت الحكومة المسيحية ولكنهم يرون الغرض بعيدًا لذلك هم يقصرون مساعيهم على إحياء روح البغضاء في نفوس تابعيهم.. وأكبر الطوائف وأشدها تمسكًا بمبدئها هي طائفة السنوسية وهي التي يخشى منها أكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر إليه البعض كجامع وحدة الإسلام، وهو رجل رأى أنه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنسية في الجزائر مقاومة صريحة فعدل عن فتح الجزائر إلى فتح أرض غيرها للإسلام، وعلم سيدي السنوسي ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين.. فناداهم أن اخرجوا من دياركم إن أرض الله واسعة، وانتقل إلى صحراء ليبيا الشاسعة حيث لحق به الواردون من كل مكان رغم جفاء الصحراء)(1).

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وما كان يتحلى به من الصدق والأمانة معتبرا ذلك محل اتفاق. فيقول: (إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي، ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية، علّني أجد في هذا البحث دليلاً جديدًا على صدقه وأمانته المتفق تقريبًا عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحي)(2).

ويتحدق عن أصالة رسالة النبي ﷺ، فيقول: (ثبت إذن أن محمدًا لم يقرأ كتابًا مقدسًا ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه)(3).

ويقول: (لو رجعنا إلى ما وضحه الحكماء عن النبوة ولم يقبل المتكلمون من المسيحيين لأمكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الإسلام وجزمنا بأنه لم يكن من المتدعين.. ومن الصعب أن تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل عليه السلام.. إلا أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسألة لأن الصدق حاصل في كل حال)(4).

ويقول: (لا يمكن أن ننكر على محمد في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاص صدقه، فأما الإيمان فلن يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني الدور المدني وما أوتيه من نصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغًا لا محل للزيادة فيه.. وما كان يميل إلى الزخارف ولم يكن شحيحًا.. وكان قنوعًا خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته.. تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى

(1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 113 - 114.
(2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 6.
(3) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 16.
(4) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 21.

فى بلاد العرب ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشما، وقد احتقر المال)[1].

ويتحدث عن الآلام الكثيرة التى تحملها رسول الله ﷺ فى سبيل تعليم الناس حقائق الإسلام، فيقول: (ولقد نعلم أن محمداً مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلامًا نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحّضت للدين ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكى يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذى ابتدعه المسيحيون، وكان بغضهما متمكنًا من قلبه، وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة فى جسمه، ولعمرى فيم كان يفكر ذلك الرجل الذى بلغ الأربعين وهو فى ريعان الذكاء ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا فى العقل بحدة التخيّل وقوة الإدراك.. إلا أن يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات (الله أحد الله أحد). كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد)[2].

قلت: هذه شهادات صادقة تحيل أن يكون صاحبها مجرد متحدث عن الإسلام.

قال: صدقت.. عسى الله أن ينفعه بما قال، فالله لا يضيع عنده شيء.

### جاك. س. ريسلر

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (جاك. س. ريسلر)[3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث فرنسى.. بحث فى الإسلام، وصدق فيما بحث.. فلذلك أنطقه الله بشهادات كثيرة، سأذكر لك بعضها:

منها شهادته عن لغة القرآن وجمالها، بحيث يستحيل ترجمتها، فيقول: (لما كانت روعة القرآن فى أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب، أن تقرأه فى لغته التى كتب بها لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع سحراً مؤثراً فى النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحرى وسموه الروحى يسهمان فى إشعارنا بأن محمداً كان ملهمًا بجلال الله وعظمته)[4].

ويتحدث عن معارف القرآن، وتأثيرها الممتد، فيقول: (كان فى القرآن فوق أنه كتاب دينى خلاصة جميع المعارف.. وظل زمنًا طويلاً أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذى شكل فيه وحدة كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذى تقوم عليه أسس التعليم فى الجامعات الإسلامية. ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية (إذ يذبل جمال

(1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 24.

(2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 16 - 17.

(3) جاك. س. ريسلر J. S Restler باحث فرنسى معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامى بباريس.

(4) الحضارة العربية، ص 30 - 31.

اللغة فى الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها) ولذلك يجب أن يقرأ القرآن فى نصه الأصلى)[1].

ويتحدث عن النظام الذى جاء به القرآن، والذى يحل جميع الإشكالات التى قد تعرض للفرد والمجتمع، فيقول: (إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الدينى والقانون الأخلاقى، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى على الأخذ بيد المستضعفين، ويوصى بالبر، ويأمر بالرحمة.. وفى مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومى، ونظم العقود والمواريث، وفى ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ..)[2].

ويتحدث عن امتداد الشريعة التى جاء بها القرآن ورسوخها، فيقول: (حقًا، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسى لحياة المسلم، ولم يتعرض ما جاء فى القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات ولا لتبديلات بعيدة الغور)[3].

ويتحدث عن امتداد التأثير القرآنى فى الحياة، فيقول: (يظل القرآن طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية، فهو يضم بين طرافة الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات فى الفكر)[4].

وبجانب القرآن وتأثيره تحدث عن السنة النبوية المطهرة، وتأثيرها فى حياة المسلمين، فيقول: (القرآن يكمله الحديث الذى يعد سلسلة من الأقوال تتعلق بأعمال النبى وإرشاداته. وفى الحديث يجد المرء ما كان يدور بخلد النبى، العنصر الأساسى من سلوكه أمام الحقائق المتغيرة فى الحياة، هذه الأقوال، أو هذه الأحاديث التى يشكل مجموعها السنة دونت مما روى عن الصحابة رضى الله عنهم، أو نقل عنهم مع التمحيص الشديد فى اختيارها، وهكذا جمع عدد كبير من الأحاديث.. والسنة هى المبينة للقرآن التى لا غنى عنها للقرآن)[5].

ويتحدث عن بعض ثمار النبوة، فيقول: (كان لزامًا على محمد أن يبرز فى أقصر وقت ممكن تفوّق الشعب العربى[6] عندما أنعم الله عليه بدين سام فى بساطته ووضوحه، وكذلك بمذهبه الصارم فى التوحيد فى مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية. وإذا ما عرفنا أن هذا

---

(1) الحضارة العربية، ص 45.

(2) الحضارة العربية، ص 51.

(3) الحضارة العربية، ص 75.

(4) الحضارة العربية، ص 212.

(5) الحضارة العربية، ص 32.

(6) من المعلوم أن رسول الله ﷺ خاطب البشر جميعا، ولم يخاطب العرب وحدهم، ولكن العرب هم الواسطة التى توجه من خلالها الخطاب لسائر البشر.

العمل العظيم أدرك وحقق فى أقصر أجل أعظم أمل لحياة إنسانية فإنه يجب أن نعترف أن محمدًا يظل فى عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان)[1].

وهو يتحدث عن صعوبة فهم الغرب للروح الإسلامية، باعتبار الاختلاف فى طريقة التفكير، فيقول: (إن هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن يتصفحونه أن يدركوا على أفضل وجه ما الروح الإسلامية، وكيف صيغت هذه الروح على مر العصور. لقد وقف الرجل الغربى تجاه العالم العربى فى حيرة وكأنه أمام سرّ غامض، فلم يكن مألوفًا له أى رد فعل من ردود الفعل الإسلامية، ولم يدرك كل نهج فى وجود هذه الروح وفى الإحساس بها وفى قوتها الدافقة)[2].

ويقارن بين القرآن والمسيحية، فيقول: (فى سعى الإسلام إلى (المطلق) نبذ - لشدة عنايته بوحدة الله ووحدانيته - عقيدة الثالوث المقدس مبتعدًا فى ذلك عن المسيحية التى كان يتهمها بنوع من الشرك لاعتقادها فى ألوهية ثلاثة أشخاص. ولقد احترم الإسلام احترامًا نادر المثال تاريخ الأديان فاعترف بأن الكتب المقدسة لليهود والنصارى منزلة قبل أن يمسها التحريف.. وقد أشار النبى - للدلالة على صدق رسالته - إلى ما بين القرآن والكتاب المقدس من توافق وحَثّ بكل تسامح وقوة إدراك فى الوقت نفسه، اليهود على إطاعة شريعتهم، والمسيحيين على إطاعة أناجيلهم، وعلى أن يرتضوا القرآن، خاتم الكتب المقدسة والدين الإسلامى خاتم الأديان المنزلة)[3].

ويتحدث عن عدم وجود كهنوت فى الإسلام مثلما هو الحال فى المسيحية، وهذا انسجاما مع عقيدته التوحيدية، فيقول: (الدين الإسلامى ليست له قرابين مقدسة ولا طقوس، والصلاة صلته المباشرة بين الله والمؤمنين.. وفى المسجد ينبض قلب الإسلام، وفى أرجائه يحس المرء إحساسًا حيًا أنه بحضرة الله. الحق أنه لا شىء فى المسجد إلا البساطة، والجمال والتجانس)[4].

ويتحدث عن قيمة الزكاة، ودورها فى التكافل الاجتماعى، فيقول: (كانت الزكاة قبل كل شىء عملاً تعاونيًا حرًا وإداريًا ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى. وفى تنظيم جماعة (المدينة) اعتد النبى هذا العمل الخير كضريبة شرعية إجبارية لصالح الفقراء والمعوزين. وسيتحول فيما بعد هذا النظام وسيتولد عنه هيئة من موظفين وبيت مال.. لكن إذا كانت الدولة قد صنعت هذا العمل الخيّر مصدرًا لمواردها، فإن مبدأ الزكاة ظل - بفضل القرآن - فضيلة مارسها

---

(1) الحضارة العربية، ص 37.

(2) الحضارة العربية، ص 1 (مقدمة الكتاب).

(3) الحضارة العربية، ص 7 - 8.

(4) الحضارة العربية، ص 36.

المسلمون تلقائيًا بوصفه واجبًا دينيًا. وينبغى أن نزجى الثناء لمحمد فقد كان أول من شرع ضريبة تجبى من الأغنياء للفقراء، هكذا أوجد القرآن الرحمة الإجبارية)[1].

ويتحدث عن العلاقات الاجتماعية التى أسسها الإسلام، فانطبع بها المجتمع الإسلامى فى فترات طويلة من تاريخه، فيقول: (على الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التى تشكل الإسلام، كان المسلمون يبينون سلفًا عن خصائص متشابهة، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرّق بين حضر وبدو، أغنياء وفقراء، كانوا يسلكون تقريبًا مسلكًا واحدًا. ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة. وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس، وخلق الجو المعنوى للحياة، حتى تغلغل شيئًا فشيئًا فى الأفكار فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق. كما كان تأثير الدين عظيمًا بسبب انتشار اللغة، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة، وكذلك بسبب نتائج نظام اجتماعى معمّم)[2].

ويتحدث عن النظام الشمولى الذى جاء به الإسلام، فيقول: (إن اسم الإسلام يمكن أن يؤخذ على ثلاثة معان مختلفة: المعنى الأول دين، والثانى دولة، والثالث ثقافة، وبالاختصار حضارة فريدة)[3].

ويتحدث عن أسرار انتشار الإسلام، وأخلاقية الفتوحات الإسلامية، فيقول: (قامت الانتصارات المدوية للعرب على أسباب متنوعة يتجلى أهمها فى الخلق السامى الذى كان قد تشرّبه العرب عن الدين الجديد، فقد طبعهم هذا الخلق على جرأة واحتقار للموت، جعلهم لا يغلبون)[4].

ويقول: (كان الفتح العربى يملك الرضا الضمنى من السكان الذين كانوا يكرهون الإغريق والفرس ويكرهون استبدادهم الدينى والسياسى، ونظام ضرائبهم الفادحة ولم يعد الوطنيون قادرين على أن يتحملوا أخيرًا هذا الاستبداد المتغطرس من حكام أصبح تفوقهم ضربًا من الذكريات. تلك هى الأسباب التى من أجلها استقبلت هذه الشعوب المتاخمة جيرانها ذوى التاريخ الطويل كأنهم ذوو قربى قد أقبلوا لتحريرهم من ظلم الغاصبين الأجانب الممقوت)[5].

ويقول: (لا نزاع فى أن اللغة والدين اللذين انتشرا معًا قاما بدور خطير فى هذا العمر الضخم لتقريب هذه الإمبراطورية الشاسعة وتحويل أبنائها إلى الإسلام. وحطمت هاتان القوتان الحواجز التى كانت تفرق بين الفاتحين وأهل البلاد وحولوا بعض الأجانب إلى عقيدتهم أكثر مما كان لروما فى العصر القديم فى هذا الميدان والأنجلوساكسون فى الفترة

---

(1) الحضارة العربية، ص 34.
(2) الحضارة العربية، ص 50.
(3) الحضارة العربية، ص 67.
(4) الحضارة العربية، ص 39.
(5) الحضارة العربية، ص 39 - 40.

المعاصرة. فالذى كان يدين بالإسلام وكان يتحدث ويكتب اللغة، يسمح له أن يعد عربيًا، وهذا حدث خطير فى تاريخ الحضارة الإسلامية. ولقد ألغت تلك القوة الموحدة بهذا الأسلوب الحدود السياسية، ومنحت بنحو ما شكلاً موحدًا لبلاد مترامية الأطراف فى ثلاث قارات وأصبحت فيما بعد خالية من القيود. وكان المسلم يجد فى كل مكان نفس الدين ونفس الصلوات، ونفس الشرائع)[1].

ويتحدث عن قدرة الإسلام على التغلغل فى النفوس والشعوب، بحيث يحول الغالبين إلى دين المغلوبين، فيقول: (أن المنتصرين سيعتنقون دين المغلوبين الذين نهكوهم، وسوف يجعل من أنفسهم مدافعين بحماسة عن هذا الدين. وتثير هذه الظاهرة العجب، لكنها ليست من الندرة فى تاريخ العالم الإسلامى. لقد كان هذا بالنسبة للأتراك السلجوقيين ثم بالنسبة لأبناء عمومتهم المغول بعد ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى وأخيرًا بالنسبة للأتراك العثمانيين فى القرن الرابع عشر، وسيظفر الدين الإسلامى بألمع انتصار طيلة الأزمنة الممعنة فى ظلال الفشل والغزو)[2].

ويتحدث عن سماحة الإسلام، فيقول: (كانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة فى عبادتها، وكان اليهود المطاردون لديهم مطلق الحرية فى اقتناء الثروات ووصلوا أحيانًا إلى مراكز سامية، واختلط المسيحيون مع المسلمين.. وحدث أنهم احتفلوا بأعيادهم معًا فى المسجد وفى الكنيسة، ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد شوهد بعض المسيحيين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوج على الرغم من تحريم الكنيسة).

ويتحدث عن سر تفوق الحضارة الإسلامية فى عهودها الطويلة، فيقول: (سيطر الإسلام أثناء خمسمائة عام من 700 إلى 1200م على العالم بالقوة وبالعلم، وبتفوق حضارته)[3].

ويتحدث عن تأثير الإسلام فى الحضارة، فيقول: (لقد ورث الإسلام تراث اليونان من الفلسفة والعلوم، ثم بعد أن نمّاها، نقلها إلى أوروبا الغربية. كما أنه استطاع أن يوسع الأفق الفكرى للعصر الوسيط وأن ينفذ بعمق إلى الفكر والحياة الأوروبيتين)[4].

ويتحدث عن الحضارة التى كانت تمتلئْ بها المجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى مقارنة بمثيلاتها فى أوروبا وغيرها (إن ما يشاهده المرء من القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر[5]

(1) الحضارة العربية، ص 241.

(2) الحضارة العربية، ص 154.

(3) الحضارة العربية، ص 82.

(4) الحضارة العربية، ص 83.

(5) يقصد التأريخ الميلادى، وذلك فى العصور الزاهرة من الحضارة الإسلامية.

لم يكن له مثيل قبل ذلك. ففى كل مكان كلف لا حدّ له بالكتب. وآلاف المساجد تهتز بفصاحة العلماء، ومائة بلاط رائع تدوى بمباريات شعرية أو فلسفية، وطرقات غاصة بعلماء الجغرافية، وعلماء التاريخ، وعلماء الدين للبحث عن المعرفة. وهذه أهم يقظة فكرية فى التاريخ الإسلامى)[1].

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية فى الغرب، فيقول: (عندما بهرت الحضارة الإسلامية المشرقة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوروبا المسيحية كلها، أخذوا يزحفون، حبًا فى الحرية التى تميزت بها هذه الحضارة إلى قرطبة وطليطلة وإشبيلية، لكى يحضروا دروس الجامعات الإسلامية ومحاضراتها)[2].

ويقول: (لكى نقيم حسابًا كاملاً لإسهامات الشرق الفكرية تجاه الغرب، كان يجدر بنا أيضًا أن ننسب إلى العرب ما للعرب من تطبيقات صناعية نجمت عن المعرفة الإسلامية.. ويكفى أن يتصور المرء القارة الأوروبية فى فجر العصور الحديثة من غير أن تملك تحت تصرفها هذه الهبات الثلاث: البارود، والبوصلة، والكتاب، رمز المعاونة الإسلامية فى بناء الإنسانية)[3].

ويتحدث عن حقوق المرأة فى الإسلام، فيقول: (لقد وُضعت المرأة على قدم المساواة مع الرجال فى القضايا الخاصة بالمصلحة؛ فأصبح فى استطاعتها أن ترث، وأن تورث، وأن تشتغل بمهنة مشروعة، لكن مكانها الصحيح هو البيت. كما أن مهمتها الأساسية هى أن تنجب أطفالاً.. وعلى ذلك رسم النبى واجبها (أيما امرأة مات زوجها، وهو راضٍ عنها، دخلت الجنة)[4].. وفى الحق أن تعدد الزوجات، بتقييده الانزلاق مع الشهوات الجامحة، قد حقق بهذا التشريع الإسلامى تماسك الأسرة، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزانى)[5].

ويتحدث عن الأسرة فى الإسلام، فيقول: (كانت الأسرة الإسلامية ترعى دائمًا الطفل، وصحته، وتربيته، رعاية كبيرة. وترضع الأم هذا الطفل زمنًا طويلاً، وأحيانًا لمدة أكثر من سنتين، وتقوم على تنشئته بحنان وتغمره بحبها وباحتياطات متصلة. وإذا حدث أن أصاب الموت بعض الأسرة، وأصبحوا يتامى، فإن أقرباءهم المقربين لا يترددون فى مساعدتهم وفى تبنّيهم)[6].

---

(1) الحضارة العربية، ص 100.
(2) الحضارة العربية، ص 154.
(3) الحضارة العربية، ص 191 - 192.
(4) نص الحديث هو (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة)
(5) الحضارة العربية، ص 52.
(6) الحضارة العربية، ص 53.

ويقول: (يقـوم تعليم البنات على تلقـينهن تربية دينيـة قويمة، وعلى تعـويدهن على الصلاة، وجعلهن فى وقت مبكر صالحات للأعـمال المنزلية. وبعد سنوات أيضًا يعلمن قرض الشعر والفنون)[1].

نظر البابا إليّ، وقال: هذه بعض شهادات هذا الرجل الفاضل.

قلت: بورك فيه.. لقد قال كلاما كثيرا قد لا نجد من قومنا من يجرؤ على قوله.

قال: من رزقه الله الصدق فتح عليه من الجرأة ما يتناسب مع ذلك الصدق..

قلت: صدقت.. فبقدر الصدق تكون الجرأة.

**لويس سيديو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتـر البابا فى هذا الفصل اسم (لويس سيديو)[2]، فسألت البابا عنـه، فقال: هذا مـستشـرق فرنسى.. له شـهادات كثـيرة تبين مـدى صدق بحـثه فى الإسلام، وفى مصادر الإسلام، وسأسرد لك ـ باختصار ـ بعضه هذه الشهادات:

فمنهـا شهادته التى يتـحدث فيهـا عن كون القرآن مـدرسة روحيـة وتربوية متكاملة، فيقـول: (لا تجد فى القرآن آية إلا توحى بمحـبة شديدة لله.. وفيـه حث كبير على الفـضيلة خلال تلك القواعـد الخاصة بالسلوك الخلقى.. وفيـه دعوة كبيرة إلى تبـادل العواطف وحسن المقاصد والصـفح عن الشتائم، وفيه مـقت للعجب والغضب، وفيـه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفـيه حض عـلى الإيفاء بالعـهود حـتى مع الكافرين، وتحـريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى اسـتغفار الناس لمن يـسيئون إليـهم، لا لعنهم، ويكفى جميع تلك الأقوال الجـامعة المملوءة حكمـة ورشدًا لإثبات صفـاء قواعد الأخـلاق فى القرآن.. إنه أبصر كلّ شىء)[3].

ويتحدث عن النواحى البلاغية للقـرآن، فيقول: (صلح القرآن ليكون نموذجًا للأسلوب وقواعـد النحو.. فأوجب ذلك نشـوء علم اللغة، فظهور علم البـيان الذى درس فيـه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع وأوجه البلاغة. وأضـحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره أكثر من مئة فرع، فأدى هذا إلى ما لا حصر له من التأليف فى كلّ مـنها، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة من الفساد بمخالطة اللغة الأخرى)[4].

---

(1) الحضارة العربية، ص 54.

(2) لويس سيديو (1808 – 1876) L. Sedillot مستشـرق فرنسى عكف على نشر مؤلفات أبيه جـان جاك سيديو الذى توفى عام 1832 قبل أن تتاح له فرصـة إخراج كافة أعماله فى تاريخ العلوم الإسلامـية. وقد عين لويس أمينًا لمدرسة اللغات الشرقية (1931) وصنف كتابًا بعنوان (خلاصة تاريخ العرب) فضلاً عن (تاريخ العرب العام)، وكتب العديد من الأبحاث والدراسات فى المجلات المعروفة.

(3) تاريخ العرب العام، ص 89، 98 – 99، 100، 117.

(4) تاريخ العرب العام، ص 458

ويتحدث عن تأثير القرآن فى التوحيد بين شعوب وأعراق مختلفة، فيقول: (مما يجدر ذكره أن يكون القرآن، بين مختلف اللغات التى يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية فى آسيا حتى الهند، وفى إفريقيا حتى السودان، كتابًا يفهمه الجميع، وأن يربط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابط اللغة والمشاعر)[1].

ويتحدث عن معجزة تأسيس الأمة الإسلامية.. ويرجع الفضل فى تأسيسها إلى محمد ﷺ، فيقول: (لقد حلّ الوقت الذى توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التى كانت مجهولة الأمر فى زاوية من آسيا فارتقت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون. ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد)[2].

ويتحدث عن عبودية محمد ﷺ مقارنة بما ينسبه المسيحيون للمسيح، فيقول: (لم يعد محمد نفسه غير خاتم لأنبياء الله عليهم السلام وهو قد أعلن أن عيسى بن مريم كان ذا موهبة فى الاتيان بالمعجزات، مع أن محمدًا لم يعط مثل هذه الموهبة[3]، وما أكثر ما كان يعترض محتجًا على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!)[4].

ويتحدث عن القيم التى تحملها عقيدة اليوم الآخر التى جاء بها الإسلام، فيقول: (إن محمدًا أثبت خلود الروح.. وهو مبدأ من أقوم مبادئ الأخلاق. ومن مفاخر محمد أن أظهره قويًا أكثر مما أظهره أى مشرّع آخر)[5].

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وكونه قدوة صالحة جعلته يحقق كل الأهداف التى وكلت له، فيقول: (ما أكثر ما عرض محمد حياته للخطر انتصارًا لدعوته فى عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال فى واقعة أحد حتى بعد أن جرح جبينه وخده وسقطت ثنيتاه.. وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله فى معركة حنين، ومن الحق أن عرف العالم كيف يحيى قوة إرادته ومتانة خلقه، وبساطته، ومن يجهل أنه لم يعدل، إلى آخر عمره، عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش؟ وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض.. وكان حليمًا معتدلاً، وكان يأتى بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودّون سؤاله، فيسحر كلماءه بما يعلو وجهه الرزين الزاهر من البشاشة، وكان لا يضج من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلاً فلا ينمّ ما يقول على كبرياء أو استعلاء، وكان يوحى فى كل مرة باحترام القوم له.. ودلّ على أنه سياسى محنّك)[6].

---

(1) تاريخ العرب العام، ص 458.

(2) تاريخ العرب العام، ص 15.

(3) ذكرنا الرد على هذه الشبهة بالأدلة المفصلة فى رسالة (معجزات حسية)

(4) تاريخ العرب العام، ص 90

(5) تاريخ العرب العام، ص 93.

(6) تاريخ العرب العام، ص 102 - 103.

ويتحدث عن تأثير محمد ﷺ في البيئة التي ولد فيها، فيقول: (بدت في بلاد العرب أيام محمد حركة غير مألوفة من قبل، فقد خضعت لسلطان واحد قبائل العرب الغيرى على استقلالها والفخورة بحياتها الفردية، وانضم بعض هذه القبائل إلى بعض فتألفت أمة واحدة)[1].

ويتحدث عن قيمة التوحيد وأهميته في الإسلام، فيقول: (من شأن مبدأ التوحيد الجليل، الذي نشر بين قوم وثنيين، أن يضرم الحمية في النفس المتحمسة العالية، ويسود هذا المبدأ القرآن، وإليه يعود إبداعه، ويجعل محمد هذا المبدأ أساس دينه، وإليه يرجع سبب سموه على جميع الأديان. ويبدو هذا التوحيد المحض جازمًا تجاه علم اللاهوت الذي تورّط في الفرق النصرانية بعد أن زاد عددها بفعل البدع، ولا مراء في أن عظمة الله العلي وقدرته وحكمته وعدله وحمله أمور تستوقف أنظار ذوى النفوس المثقلة بالأباطيل، و(أحد، أحد) كان وعى المسلمين ببدر، ولا تخلو سورة في القرآن من قول: . . بالتوحيد)[2].

ويتحدث عن عقيدة القضاء والقدر، ودورها الإيجابي في الحياة، فيقول: (إن المبدأ الذي يحتويه القرآن لم يكن من نوع قضاء القدماء، ولا من نوع قدر بعض المذاهب الحديثة، فليس في القدر الإسلامي ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدي إلى فتور همته، فهذا القدر مرادف لسنة الكون التي تهيمن على جميع الناس وتضع حدًا لأعمالنا. . وهنالك من المبادئ ما يؤدي إلى أسوأ النتائج عند سوء فهمها، فما أعظم الفرق بين تأثير مبدأ القضاء والقدر في قوم حطهم الاستعباد وتأثيره في قوم حمس مقاديم لا يبتغون غير الحرب والفتوح)[3].

ويتحدث عن الصلاة في الإسلام، وعدم حاجتها إلى وسطاء، فيقول: (الصلاة تمسك الإسلام بغير هياكل وتضمن دوامه بغير كهّان)[4].

ويقول: (لا ترى في الإسلام سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية ولا طبقات ذات امتيازات)[5].

ويتحدث عن النظام السياسي الإسلامي في فترته الراشدة، فيقول: (اختار المسلمون بعد وفاة محمد زعيمًا ليحمل الناس على احترام الشريعة، فأبدعوا سلطانًا ساميًا خضع له العرب بلا جدال. ولا يعني هذا أن العرب أحدثوا نظامًا استبداديًا يقوم به فرد، وإنما أقاموا حكومة شعبية مستندة إلى شريعة إلهية يديرها ولي أمر منتخب مقيد في سلطته، فحُصر عمل

---

(1) تاريخ العرب العام، ص 123.
(2) تاريخ العرب العام، ص 88.
(3) تاريخ العرب العام، ص 92.
(4) تاريخ العرب العام، ص 104.
(5) تاريخ العرب العام، ص 117.

ولى الأمر هذا فى وضع نظم للأمن ولوظائف الدولة وواجباتها ولشؤون الحرب دون سنّ القوانين ما دام القرآن قد قيد أمراء المسلمين بربطه النظام الاجتماعى بالدين)[1].

ويتحدث عن تأثير الإسلام فى أوروبا، ومن ثم فى الحضارة الغربية، فيقول: (إن مغازى العرب وإقامتهم بين القرنين الثامن والحادى عشر الميلاديين بجنوب فرنسا أسفرت، لا ريب، عن آثار لا تزول من لغتنا، وأن نفوذ العرب كان باديًا فى مختلف أدوار تاريخنا، لا فرق فى ذلك بين زمن الغزوات الأولى وزمن الحرب الصليبية.. وأن لهجات هذه الولايات مملوءة بالكلمات العربية وأن أسماء الأعلام فيها تبدى شكلاً عربيًا فى كل خطوة كما تبديه اصطلاحاتنا العلمية أيضًا، وما يأتيه علماء اللغة المعاصرون عندنا من اشتقاقات يقف لها شعر الرأس!.. ولا ينكر فضلاً عن ذلك، أن الخلفاء كانوا فى القرن التاسع من الميلاد سادة إمبراطورية واسعة رائعة لامعة مدهشة، وأن خلفاء بغداد كانوا يرسلون وفودًا وهدايا إلى الإمبراطور شارلمان وإلى عاهل الصين وأنهم كانوا مثال العظمة الحقيقة بنظمهم الصالحة وعنايتهم بالآداب والعلوم، وأن ما شيد من المدارس فى أرجاء دولتهم كان يوقد مصباح الحضارة فيما بين الشرق الأقصى وعمد هركول على الساحل الأطلسى ناشرًا آثار الفن العربى الرائعة فى كل مكان، عاملاً على تجديد الدم فى عروق العالم الهرم)[2].

ويقول: (لم يكن هينًا، فى تقدم العلوم، تأثير مدرسة بغداد التى كانت متوسطة بين مدرسة الإسكندرية والمدرسة الحديثة، فهيات لهذه المدرسة الحديثة اكتشافاتها ونحن مدينون للعرب فى الحقل العلمى، ونعترف، مع ذلك، بأن مترجمينا كانوا يتلهون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويهًا غريبًا، فينمّ ما اتخذ من الاصطلاحات على الجهل والارتباك)[3].

ويقول: (وظاهرة مدرسة بغداد فى بدء أمرها هى الروح العلمية التى كانت سائدة لأعمالها، فكانت مبادئ أساتذتها تقوم على الانتقال من المعلوم إلى المجهول، وعلى ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجاوزة المعلولات إلى العلل، وعلى عدم التسليم بما لا يستند إلى التجربة، وكان العرب فى القرن التاسع الميلادى أصحابًا لهذا المنهاج الخصيب فأضحى، بعد زمن طويل، أداة بيد علماء الزمن الحديث للوصول إلى أجمل اكتشافاتهم)[4].

ويقول: (نحن إذ نرى شوق العرب إلى العلم قد حفزهم إلى النهوض بمختلف فروع المعارف البشرية طلبًا للحقيقة وحدها لا يسعنا سوى الإعجاب المطلق بجهود الشعب العربى الذى أدى بمثاله النبيل إلى بعث الآداب والفنون فى أوروبا)[5].

(1) تاريخ العرب العام، ص 123 - 124.
(2) تاريخ العرب العام، ص 12 - 14.
(3) تاريخ العرب العام، ص 14.
(4) تاريخ العرب العام، ص 392.
(5) تاريخ العرب العام، ص 403.

ويقول: (قدّر تأثير مدرسة بغداد البالغ في المشرق والمغرب، وكان عند العرب معظم الأفكار والمبادئ التي تباهي بها أوروبا الحديثة، والعرب، فضلاً عن ذلك، ربطوا دورين كبيرين أحدهما بالآخر: ربطوا عصر اليونان بعصر النهضة محافظين على تراث الدور الأول معدّين ظهور الدور الثاني، ووجد من حاولوا خفض منزلة العرب. بيد أن الحقيقة تبدو يومًا بعد يوم، ولابد من حلول الزمن العاجل أو الآجل الذي ينصفون فيه فيستردون حقهم)[1].

ويقول: (هكذا تجلى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوروبية الحديثة، وظهرت، بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادي، آداب تعد من أعظم ما عرف، وتشهد الإنتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب، وبما كان لهم من الأثر البالغ في أوروبا النصرانية فجاء هذا مسوّغًا للرأي القائل إن العرب كانوا أساتذة لنا، وما أتى به العرب من الموارد التي لا تقدر بثمن عن تاريخ القرون الوسطى ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحية، وما جاءوا به من صناعة منقطعة النظير ومن مبانٍ دالة على تفكير عظيم وتنفيذ جسيم، ومن اكتشافات مهمة في الفنون من ناحية أخرى، كلها أُمور يجب أن ترفع في أعيننا شأن الأمة العربية)[2].

ويعجب بقدرة الإسلام على قهر همجية المغول التي سيطرت على العالم في فترة من الفترات، فيقول: (حقًا إنه لمنظر رائع أن نرى انتصار سلطان حضارة العرب على همجية المغول أولئك الذين انقضوا على آسيا الغربية والجنوبية)[3].

ويتحدث عن موقف القرآن من المرأة، وتكريمه لها، فيقول: (إن القرآن، وهو دستور المسلمين، رفع شأن المرأة بدلاً من خفضه.. فجعل حصة البنت في الميراث تعدل نصف حصة أخيها[4] مع أن البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية.. وهو وإن جعل الرجال قوّامين على النساء بيّن أن للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها. وأراد ألا تكون الأيامى جزءًا من ميراث رب الأسرة فأوجب أن يأخذن ما يحتجن إليه مدة سنة وأن يقبض مهورهن وأن ينلن نصيبًا من أموال المتوفى)[5].

ويتحدث عن احترام الإسلام لحقوق الطفل، فيقول: (لا شيء أدعى إلى راحة النفس من عناية محمد بالأولاد. فهو قد حرم بأمر الله عادة الوأد، وشغل باله بحال اليتامى على الدوام.. وكان يجد في ملاحظة صغار الأولاد أعظم لذة. ومما حدث ذات يوم أن كان محمد يصلي فوثب الحسين بن علي رضي الله عنهما فوق ظهره فلم يبال بنظرات الحضور فانتظر

(1) تاريخ العرب العام، ص 480.
(2) تاريخ العرب العام، ص 490 - 491.
(3) تاريخ العرب العام، ص 408.
(4) سنرى العدالة التي يحملها هذا الحكم في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.
(5) تاريخ العرب العام، ص 110.

صابراً إلى حين نزوله كما أراد! وما ألطف أقوال محمد عن حنان الأم وحبّ الوالدين، وما أجمل ما في كلمته (الجنة تحت أقدام الأمهات) من تكريم الأمهات. فيمكن أن يكتب فصل رائع من حياة محمد حول هذا الموضوع)[1].

ويتحدث عن التشريعات المرتبطة بالطلاق في الإسلام، وما يحويه من الحكمة، فيقول: (أُحلّ الطلاق في الإسلام، ولكنه جعل تابعًا لبعض الشروط فيمكن الرجوع عنه عند الطيش والتهوّر. والطلاق، لكي يكون باتا، يجب أن يكرر ثلاث مرات.. والمرأة إذا ما طلقت الطلقة الثالثة لا تحل لزوجها الأول إلا بعد أن تنكح زوجًا آخر فيطلقها هذا الزوج، وهذا الحكم على جانب عظيم من الحكمة لما يؤدى إليه من تقليل عدد الطلاق ولا يحق للمرأة أن تطلب الطلاق إلا عند سوء المعاملة)[2].

ويتحدث عن تشريع العقوبات المرتبطة بالأعراض، وأثرها، فيقول: (جزاء الزنا صارم في الإسلام.. ولا بدّ من أربعة شهود لإثباته. ولم يقصّر محمد في منع انتشار الفجور، وله نصائح غالية بهذا الصدد وهو يأمر المؤمنين بالاحتشام، وينظم أمورهم نحو أُجرائهم وأبنائهم وآبائهم وأمهاتهم، برفق أبوى ممزوج بلسان المشرّع الوقور الجليل)[3].

نظر إلى، وقال: هذه بعض شهادات هذا الرجل الفاضل.

قلت: بورك فيها من شهادات.. وبورك هو من رجل، فقد أنطقه الله بالحكمة.

**هنرى سيرويا:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هنرى سيرويا)[4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من المستشرقين الذين وفقهم الله، فرأوا من معاني الصدق في الإسلام ما لم يلاحظه الكثير، ومن شهاداته التي لا أزال أحفظها وأقدرها قوله في القرآن وما اشتمل عليه من حقائق، وما انتظم فيه من أسلوب: (القرآن من الله بأسلوب سام رفيع لا يدانيه أسلوب البشر، وهو في الوقت عينه، ثورة عقيدية، هذه الثورة العقيدية لا تعترف - لا بالبابا ولا بأى مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة، حيث لم يشعر الإسلام يومًا بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلى الفلسفى، فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية نجد بعض الخطوط المميزة والتي لا تبدو مطابقة تمامًا خاصة مع المسيحية.. فالنظام المسيحى اليهودى يخالف الإسلام حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشرى، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين مليء بالواسطة.. ولا شيء من هذا يتفق مع الإسلام. فمحمد مع كونه

(1) تاريخ العرب العام، ص 110-111.

(2) تاريخ العرب العام، ص 111.

(3) تاريخ العرب العام، ص 111-112.

(4) هنرى سيرويا H. Serouya مستشرق فرنسى. من آثاره: (موسى بن ميمون: ترجمته وآثاره وفلسفته) (1921)، (الصوفية والمسيحية واليهودية)، (فلسفة الفكر الإسلامى).

مبعوثًا ورسولاً من لدن الله لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كل مجهوده انحصر فى تنقيتهما على ما جاء فى القرآن، الذى وضع فى العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية منبهًا إلى أن عيسى ليس سوى رجل ابن مريم وليس بابن الله والقول بأن الله له ولد، هذا شرك كبير تنشق له السماء وتنفتح له الأرض وتنسحق له الجبال. أما روح القدس فما هو إلا بمثابة ملاك مثل جبريل دوره هو أن ينقل إلى عيسى ومحمد الدعوة المقدسة، أما مريم فهى مريم العذراء وليست بأم الله)[1].

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وأثره فى العقيدة والحياة، فيقول: (ومحمد لم يغرس فى نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضًا المدنية والأدب)[2].

ويتحدث عن بعض صفات النبى ﷺ وأخلاقه العالية، فيقول: (محمد شخصية تاريخية حقة، فلولاه ما استطاع الإسلام أن يمتد ويزداد، ولم يتوان فى ترديد أنه بشر مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفو والمغفرة من الله عز وجل. وقبل مماته أراد أن يظهر ضميره من كل هفوة أتاها فوقف على المنبر مخاطبًا: أيها المسلمون، إذا كنت قد ضربت أحدًا فهاكم ظهرى ليأخذ ثأره، أو سلبته مالاً فمالى ملكه. فوقف رجل معلنًا أنه يدينه بثلاثة دراهم، فردّ الرسول قائلاً: أن يشعر الإنسان بالخجل فى دنياه خيرٌ من آخرته. ودفع للرجل دينه فى التو. وهذا التذوق والإحساس البالغ لفهم محمد لدوره كنبى يرينا بأن (رينان) كان على غير حق فى نعته العرب قبل الإسلام بأنها أمة كانت تحيا بين براثين الجهل والخرافات)[3].

وهو يرجع الأمر إلى أهله حين ينسب الحضارة الإسلامية، وما تفتقت عنه من عبقرية إلى رسول الله ﷺ، فيقول: (إن المحاولة الإسلامية فى التاريخ ذات أثر كبير، والعبقرية العربية تجد فى محمد منشئًا لحضارة التوحيد التى تعتبر ذات أهمية كبيرة، إذا فكرنا فى القيمة الفلسفية للتوحيد، وفى تفوقها الكبير الذى جعل كل الشعوب الآرية تمارس أفكار تلكم الفلسفة. وهذه الثروة الروحية الغزيرة فى الأمة العربية، راجعة إلى الغريزة النبوية والتى تعد واضحة لدى الشعوب السامية، فاليهود الذين يستطيعون الفخر بأنبيائهم الكبار، يقرون بأن روح النبوة قد اختفت لديهم بعد هدم معبدهم الثانى، وهذا ما يفسر بمعنى أكيد العداوة العنيفة والكثيرة التكرار فى القرآن بالنسبة إليهم)[4].

(1) فلسفة الفكر الإسلامى، ص 32 - 33.
(2) فلسفة الفكر الإسلامى، ص 8.
(3) فلسفة الفكر الإسلامى، ص 17.
(4) فلسفة الفكر الإسلامى، ص 31

ويقول: (إن الحضارة الفكرية الذهنية الحقيقية لم تظهر وتوجد - لدى العرب - إلا لدى وصول محمد)[1].

نظر إلى البابا يتأمل تأثير هذه الشهادات فى نفسى، فقلت: لقد أسلمت كلمات هذا الرجل..

قال: صدقت.. فمثل هذه الكلمات لا تصدر إلا فى لحظات الصدق والإيمان والقرب.

**إدوار بروى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (إدوار بروى)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث فرنسى كان أستاذا فى السربون، وقد سمعته يذكر شهادات للإسلام يستحق التقدير عليها:

منها قوله مختصرا رسالة رسول الله ﷺ، وما أحدثته فى بدايتها من تأثير: (جاء محمد بن عبد الله، النبى العربى وخاتم النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة فى دعوته لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضًا الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد المشركين.. ونشر الدين الحنيف.. وعندما قبض النبى العربى، عام 632م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعى يسمو كثيراً فوق النظام القبلى الذى كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم فى وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل)[3].

ويتحدث عن الانتصارات العسكرية المعجزة التى حققها المسلمون فى فترة وجيزة من تاريخهم، فيقول: (بين أوروبا الغربية الآخذة مدنيتها بالقهقرى، وبين العالم الآسيوى الذى يستجمع بعد نشاطه ويسترجع عافيته.. ظهر الإسلام كالشهاب الساطع، فحيّر بفتوحاته السريعة القاصمة، وباتساع رقعة الإمبراطورية الجديدة التى أنشأناها نحن أمام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم، مغمور الذكر، فإذا به يتّحد ويتضامّ فى بوتقة الإسلام، هذا الدين الجديد الذى انطلق من الجزيرة العربية اكتسحت جيوشه ببضع سنوات الدولة الساسانية وهدت منها الأركان، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية فى آسيا وأفريقيا ولم تلبث جيوشه أن استولت بعد قليل على معظم إسبانيا وصقلية، وأن تقتطع لأمد من الزمن، يقصر أو يطول، بعض المقاطعات الواقعة فى غربى أوروبا وجنوبها ودقت جيوشه

---

(1) دفاع عن الإسلام، ص 24.

(2) إدوار بروى Edourd Perroy باحث فرنسى معاصر، وأستاذ فى السربون.

(3) تاريخ الحضارات العام: 3 / 112.

بعنف شديد أبواب الهند والصين والحبشة والسودان الغربى وهددت فرنسا والقسطنطينية.. وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربى الإسلامى كالأكر، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم وذابت الأديان التى سيطرت على الشعوب والأقوام كما يذوب الشمع أمام النار بعد أن أطلّ على الدنيا دين جديد)[1].

ويتحدث عن السماحة التى صاحبت تلك الانتصارات العسكرية، فيقول: (قلما عرف التاريخ، والحق يقال، فتوحات كان لها، فى المدى القريب، على الأهلين، مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربى لهذه الأقطار فمن لم يكن عربيًا من الأهلين لم يشعر بأى اضطهاد قط. فاليهود والنصارى الذين هم أيضًا من أهل الكتاب، حق لهم أن يتمتعوا بالتساهل وأن لا يضاموا. وكان لابدّ من الوقوف هذا الموقف نفسه من الزرادشتية والبوذية والصابئة.. وغيرها من الملل والنحل الأخرى. والمطلوب من هؤلاء السكان أن يظهروا الولاء للإسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه، وأن يؤدوا له الرسوم المفروضة على أهل الذمة تأديتها.. وفى نطاق هذه التحفظات التى لم تكن لتؤثر كثيرًا على الحياة العادية، تمتع أهل الذمة بكافة حرياتهم)[2].

ويقول متحدثا عن سماحة المسلمين التى غرسها فيهم الإسلام: (انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الأصليين بسهولة كلية وفقًا لروح القانون المعمول به فى البلاد.. وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على الشؤون الدينية عندها باستثناء ما كان منها تابعًا للحق العام.. ونلاحظ تطورًا ملحوظًا يطرأ على وضع النصارى بعد أن احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة فى الأمم الخاصة.. وهكذا برز البطاركة والأساقفة، الرؤساء الأعلون لطوائف تعلو سلطتهم سلطة الموظفين الإداريين المحليين، حتى إن اليهود أنفسهم لم يجدوا بأسًا فى الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبربابنتهم وبحاخامهم الأكبر)[3].

ويتحدث عن الدوافع الحقيقية للحروب الصليبية، فيقول: (انتشرت، حوالى السنة 1000م، عادة القيام بالحج، تزايد السفر إلى الأرض المقدسة لأنه اعتبر أعظم الممارسات النصرانية نفعًا للخلاص الأبدى، وقلما ضايقه العرب، الذين كانوا متساهلين جدًا، كما يبدو من جهة ثانية أن الغزو التركى لم يجعل الدخول إلى معابد فلسطين أكثر صعوبة إلا أن فرسان الغرب، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة، أخذوا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، يؤدون فريضة الحج جماعات صغيرة مسلحة كما أخذوا بعد عودتهم يسطون شعورهم

(1) تاريخ الحضارات العام، 3 / 109.
(2) تاريخ الحضارات العام، 3 / 116.
(3) تاريخ الحضارات العام، 3 / 116.

بأن الفتح ليس أمرًا مستحيلاً.. وجاء الاندماج التركى أخيرًا يهدد بيزنطية آنذاك تهديدًا جديًا خطيرًا، ففكر الغرب بوجوب وقاية المسيحية من جهة الشرق)[1].

ويقارن بين سماحة سلاطين العثمانيين فى العصور المتأخرة مقارنة بما تفعله دواوين التفتيش فى أوروبا، فيقول: (ما لابدّ من التنويه به عاليًا أن هؤلاء السلاطين العثمانيين لم يظهروا أى تحرج أو تعصب تجاه المسيحيين، فى وقت وزمان كان فيه ديوان التفتيش يبطش بالناس بطشًا وينزل بهم الهلع.. وفى عهد كان اليهود والمسلمون يطردون، دونما رحمة أو شفقة، من إسبانيا.. وبالرغم من إسكان عدد كبير من الجاليات الإسلامية فى البلقان، واعتناق بعض الجماعات البلقانية الإسلام فلم يأت العثمانيون شيئًا مهمًا ليمنعوا السواد الأكبر من سكان البلاد البلقانية من الاحتفاظ بنصرانيتهم)[2].

ويتحدث عن عظمة الحضارة الإسلامية، وتميزها مقارنة بسائر الحضارات، فيقول: (انجلى غبار الفتح الإسلامى عن إمبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة ولا أسطع، وعن مدنية ولا أروع، عول عليها الغرب فى تطوره الصاعد ورقيه البناء، بعد أن نفخ الإسلام فى قسم موات من التراث الإنسانى القديم روحًا جديدة عادت معه إلى الحياة، فنبض وشع وأثرى. ولهذه الأسباب، كان لابدّ أن يحتل تاريخ العالم الإسلامى محلاً مرموقًا فى ثقافة رجل العصر، كما كان لابدّ لرجل العصر هذا من أن يفهم جيدًا أن المدنية لا يقتصر مدلولها على شعب أو بلد متحيز فى الزمان، وأن يعرف جيدًا أن قبل توما الإكوينى الذى رأى النور فى إيطاليا، طلع ابن سينا المولود فى إحدى مقاطعات التركستان، وأن مساجد دمشق وقرطبة ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتردام فى باريس بزمان، وألا ينتقص من شأن العالم الإسلامى اليوم فى ما يعانى من غمرة ستنقشع بأسرع مما يظن، وألا ينظر إلى التاريخ الإسلامى من خلال مرثيات ألف ليلة وليلة.. بل علينا اعتبار هذا التاريخ قطعة من صميم التاريخ الإنسانى المتنوع بتنوع الأزمنة والأمكنة، والذى لا يزال، بالرغم من جزئياته وخصوصياته، تاريخ هذه البشرية الواحدة الجمعاء)[3].

ويقول: (فى هذا العالم الإسلامى القلق، الجيّاش بعظائم الأحداث.. ليس ما يلفت النظر ويستبد بالخواطر مثل الرواج الذى بلغته الآداب، والازدهار الذى آلت إليه الحركة الفكرية.. واتساع هذه الحركة التى عمت مشارق العالم الإسلامى ومغاربه، فتحت الباب على مصراعيه أمام التنوع لظهور مجار فكرية عامة وتلقيح الأفكار والأذهان فى كل مكان.. وقد بلغ من غنى التأليف فى العالم الإسلامى ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض

(1) تاريخ الحضارات العام، 3 / 312.

(2) تاريخ الحضارات العام، 3 / 589 - 590.

(3) تاريخ الحضارات العام 3 / 109 - 110.

ويعرف به فى فهارس علمية.. وقامت فى بعض حواضر البلاد الإسلامية الكبرى دور للكتب غصّت بعشرات الألوف من الكتب جرى تصنيفها على نظم فنية خاصة روعى فيها تصنيف العلوم على أبواب ومطالب، وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين.. كل هذا كان يفترض عددًا كبيرًا من القراء والمطالعين وطائفة كبيرة من الكتاب وحملة الأقلام والمفكرين)[1].

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية فى الحضارة الغربية عبر جسر الحروب الصليبية، فيقول: (أفضت الحملات الصليبية بسرعة أخيرًا، بإقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافيًا، إلى تهذيب أخلاق الفرسان، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغربية وإدخال التقنيات الجديدة.. واطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والآداب فى العالمين العربى واليونانى: فجاءت هذه الأشكال والمفاهيم والطرائق والعادات، التى حصل عليها أحيانًا فى إمارات فلسطين وإيطاليا الجنوبية، وشبه الجزيرة الأيبيرية، وانتشرت بفضل العائدين من الحج، تنمى التراث الثقافى فى أوروبا المسيحية)[2].

وفى موضع آخر يتحدث عن جسر صقلية الذى انطلقت منه الحضارة الإسلامية لأوروبا، فيقول: (امتدت الثقافة الإسبانية إلى ما وراء حدود السيطرة الإسلامية المنكمشة. ففى صقلية المخصصة للنورمنديين، حيث عومل المسلمون المقيمون بتساهل قل نظيره، تألق مركز إشعاع ثان، دون إسبانيا شأنا، على أنه أعظم أهمية، إلى حد بعيد، من الشرق اللاتينى، انتقلت بواسطته الثقافة الإسلامية إلى الغرب)[3].

ويتحدث عكس هذا عن الأثر السلبى الذى فعله الأوروبيون بالمسلمين، فيقول: (بعد زمن قصير توقفت حركة التطور فى البلدان الأفريقية على أثر العبث الذريع الذى أحدثه فى تلك الأرجاء تجار النخاسة والرق من الأوربيين هذه الحركة التطورية التى بعثها الإسلام فى تلك البلاد، قبل أن تطأ أقدام البرتغاليين، بزمن طويل)[4].

نظر إلى البابا، وقال: حسبك بهذه الشهادات منه..

قلت: بورك فيه.. فما أصدقه.. لم يمنعه دينه ولا مركزه ولا قومه من أن ينسب الحق لأهله.

**كلود كاهن:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كلود كاهن)[5]، فسألت

---

(1) تاريخ الحضارات العام: 3 / 224 - 225.

(2) تاريخ الحضارات العام: 3 / 315.

(3) تاريخ الحضارات العام: 3 / 335.

(4) تاريخ الحضارات العام: 3 / 564.

(5) كلود كاهن Cl. Cahen ولد عام 1909، وتخرج باللغات الشرقية من السوربون ومدرسة اللغات الشرقية ومدرسة المعلمين العليا، وعين محاضرًا فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس (1938)، وأستاذًا لتاريخ الإسلام فى كلية الآداب بجامعة ستراسبورغ (1945)، وفى جامعة باريس. =

البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقى فرنسا الكبار، وله شهادات صادقة جعلتنى أضعه فى هذا الدفتر.

قلت: فاذكر لى منها ما تراه.. فإن مثل هذه الشهادات تملأ النفس رضى، وتقرب إلينا عقولا كنا نظن أنفسنا أبعد الناس عنها.

قال: شهاداته مثل شهادات غيره ذات مناحٍ مختلفة.. منها ما يتعلق بالرسول ﷺ، ومنها ما يتعلق بالإسلام وشرائع الإسلام.. ومنها ما يتعلق بالحضارة الإسلامية، والمجتمع المسلم..

قلت: فحدثنى عن شهاداته عن رسول الله ﷺ

قال: منها اعتباره رسول الله ﷺ أعظم الشخصيات العالمية، فقد قال: (اصطبغت شخصية محمد بصبغة تاريخية قد لا تجدها عند أى مؤسس آخر من مؤسسى الديانات الكبرى)[1].

ويذكر القيم النبيلة التى كان يتحلى بها رسول الله ﷺ، فيقول: (يبدو للمؤرخ المنصف أن محمداً كان فى عداد الشخصيات النبيلة السامية التى سعت فى كثير من الحماس والإخلاص إلى النهوض بالبيئة التى عاش فيها أخلاقيًا وفكريًا، كما استطاع فى الوقت نفسه أن يكيف رسالته حسب طباع الناس وتقاليدهم بمزيد من الفهم والتنظيم بحيث كفل البقاء والخلود للرسالة التى بشر بها.. وحتم علينا أن نلقى محمداً بعواطف الإجلال والاحترام لما تحلى به من سمو الإلهام ومن قدرة على تذليل العقبات الإنسانية عامة والتغلب على مصاعبه الشخصية خاصة. وربما أثارت فينا بعض جوانب حياته شيئًا من الارتباك تبعًا لعقليتنا المعاصرة. فقد أكدت المهاترات على شهوات الرسول الدنيوية وألحت إلى زوجاته التسع اللائى اتخذهن بعد وفاة خديجة، لكن الثابت أن معظم هذه الصلات الزوجية قد طبعت بطابع سياسى، وأنها استهدفت الحصول على ولاء بعض الأشراف وبعض الأفخاذ[2].. ثم إن العقلية العربية تقرّ الإنسان إذا استخدم طبيعته على نحو ما خلقها الله)[3].

ويتكلم عن بعض المنجزات الكبرى لرسول الله ﷺ، فيقول: (نشأ الرسول فى مجتمع بلا دولة، فكان، على نحو لا تتبينه إلا العقول العصرية مبشراً بدين، ومنظمًا لمجتمع دنيوى. ونتج عن ذلك أن القانون الاجتماعى صار جزءاً متماسكًا مع القانون الدينى، كما كان احترام القانون الاجتماعى جزءاً مكملاً لطاعة الله تعالى. كان الوحى بذاته - إذن - هو الأساس

= من آثاره: عدد كبير من الدراسات والأبحاث فى المجلات الشهيرة، وحقق العديد من النصوص التاريخية المهمة، كما أنجز عدداً من المؤلفات عن الحروب الصليبية.

(1) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 14.

(2) سنرى التفاصيل المرتبطة بالرد على هذه الشبهة فى رسالة (النبى المعصوم) من هذه السلسلة.

(3) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 18.

المشترك للعقيدة وللتنظيم الزمنى. فكان المجتمع نفسه هو الدولة والدين، ولم يتسنَّ لأحدهما أن يبقى وحده نظامًا قائمًا بذاته.. لقد كان هذا التوجيه حاسمًا، ولم تستطع العقول أن تتخلى عنه إلى مدة غير قصيرة، وكان من نتائجه فى العصور التالية أن الرجل المسلم أصبح يطلب من نظامه السياسى أن يكون على جانب من الكمال، فإن فقد ذلك فقد أيضًا مبدأ الطاعة المحتمة عليه إزاء هذا النظام)[1].

ويشيد بعلم الحديث، وقدرته التمحيصية، باعتباره العلم المصفى لكل ما ورد عن رسول الله ﷺ، فيقول: (الحق أننا نتجاوز النقد العلمى الصحيح إذا نحن أنكرنا على كل حديث صحته أو قدمه. ولقد باشر العلماء بمثل هذا التمحيص منذ عهد بعيد فوجدوا أن التحريف أو التلفيق قد لا يعمّان على نسق واحد واستندوا فى ذلك إلى بعض الأحاديث التى يمكن اعتبارها سابقة أو حجة يعتد بها. بمعنى أن الموقف النقدى مفروض على الباحث المنصف. وفقهاء المسلمين أنفسهم هم قدوة لنا فى هذا المضمار لأنهم - على طريقتهم - قد التزموا بذلك الموقف منذ العصر الوسيط)[2].

قلت: فحدثنى عن شهاداته عن الإسلام.

قال: يتحدث كلود كاهن عن ميزة اجتماع الدين والدنيا فى الشريعة الإسلامية، وهى الميزة التى تفتقدها سائر الأديان، فيقول (تملى شريعة الإسلام فرائض على الناس تجاه خالقهم، وتجاه أنفسهم فيما بينهم. فهى إذن - على حد تعبيرنا الحديث - شريعة دينية اجتماعية، والتمييز بين الدين والدنيا أمر غريب على الإسلام. على أن أهم فريضة تجاه الخالق هى الإيمان به والإذعان لمشيئته وذلك هو المقصود من كلمة (الإسلام). والمسلم هو من يدين بالإسلام. كذلك أوجب على الناس أعمالاً محددة لا قيمة لها إلا بالنية الحسنة)[3].

ويتحدث عن مبدأ (الحكم بالشريعة)، الذى يفرضه المجتمع المسلم على نفسه، وعلى السلطة التى تحكمه، فيقول: (من المقتضيات الأساسية للمجتمع الإسلامى إنشاء نظام اجتماعى يقوم على أساس مستمد من الشريعة الإلهية.. بمعنى أن الإسلام لم يعهد مبدئيًا ذلك المفهوم الرومانى - الذى قبلت به المسيحية - قبولاً جزئيًا - والذى يعترف بشرعية دولة قائمة بحدّ ذاتها تملك القدرة على التشريع تشريعًا قيمًا مقبولاً - ولو تحت إشراف من الإله - دون اللجوء فى كل حالة من الحالات إلى توجيه إلهى. فالقاعدة الثابتة - من حيث المبدأ - هى الشرع الحنيف الذى أوحى به للناس دفعة واحدة ولابد من وضعه موضع التنفيذ. بل إن الخليفة لا يملك سلطة معنوية إلا بقصد تطبيق هذا الشرع)[4].

(1) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص 200 - 201.
(2) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 95.
(3) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 19.
(4) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 91.

ويتحدث عن خاصية (العقلانية) فى العقيدة الإسلامية مقارنا لها بالعقيدة المسيحية، فيقول: (قد ندعو علماء الكلام المسلمين بعلماء الدين مع تحفظ واحد وهو أن ندرك أن الإيمان عند المسلم - من الناحية المبدئية - أمرٌ عقلى صرف، فلم يوجد إذن نظريًا انفصام يباعد بين الإيمان والعقل على نحو ما عهدته مثلاً الفلسفة المسيحية)[1].

ويتحدث عن المساواة التى فرضها الإسلام على المجتمع المسلم، فيقول: (إن الإسلام لا يعترف بأى تمييز بين الأفراد. ولا يخص المدينة - بوصفها مجموعة - بأى خاصة نوعية، كما لا يقر أى نظام لسكانها (البورجوازيين)[2].

قلت: فحدثنى عن شهاداته المرتبطة بالحضارة الإسلامية.

قال: تحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية التى تمكنت من أن تحتوى أكثر العالم فى مدة قصيرة جدا، فقال: (يبدو لنا نشوء الإسلام مع فتوحاته الخاطفة وكأنها من الأمور الخارقة. ثمة شعب خامل الذكر - حتى تلك الفترة من الزمن - استطاع أن يجمع كلمته بدافع عقيدة جديدة. وما هى إلا سنوات حتى بسط سلطانه على الإمبراطورية الساسانية قاطبة وكذلك على جميع الأقاليم الآسيوية والأفريقية التابعة للدولة البيزنطية باستثناء غربى آسيا الصغرى، ثم لم يلبث أن ضمّ إليه الجزء الأكبر من إسبانيا بالإضافة إلى جزيرة صقلية، واستولى مؤقتًا على مواقع أخرى فى قارة أوروبا. وهو فى الوقت نفسه قد طرق أبواب الهند والصين والحبشة والسودان الغربى وبلاد غالية ومدينة القسطنطينية. فتداعت أمامه أعرق الدول، وخضعت لهذا الدين الجديد جميع الديانات التى استقرت فى البلاد المترامية الأطراف من نهر سيحون حتى السنغال)[3].

وتحدث عن السماحة التى تعامل بها المسلمون مع من فتحوا أراضيهم، فقال: (حافظت الأقوام المغلوبة على حرية إقامة شعائرها لا يحدّها فى ذلك سوى الامتناع عن تلك التظاهرات العامة التى تؤذى المسلمين فى المناطق الآهلة بهم. كما حافظت تلك الأقوام على شرائعها الخاصة. . ورأى المسلمون فى أداء الضريبة لهم اعترافًا بالسيادة العليا للأمة الإسلامية ولقاء ذلك استبقى الأهالى ما يملكون من عقارات ونزل العرب خارج ممتلكاتهم. . وكان على المغلوبين أيضًا واجب الوفاء والإخلاص للفاتحين، وبخاصة فى فترات الحروب كإيواء المسلمين وتزويدهم بالأخبار والامتناع عن إفشاء المعلومات للعدو)[4].

ويرد على بعض الشبهات المتعلقة بهذا الجانب، فيقول: (حقيق بنا أن نبدد بعض الأخطاء التى دامت قرونًا عديدة. فقد قاتل الصليبيون الأتراك فى العهود اللاحقة ونظمت فى

(1) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 104.
(2) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 188.
(3) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 5 - 6.
(4) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 28.

الغرب الدعوة لمكافحتها فاستنتجوا من ذلك أن النظام السياسى السلجوقى الجديد قد وصم بتعصب من نوع خاص، وهذا أمر باطل.. لأن الاضطهاد الوحيد الذى سجله التاريخ وقتئذ هو ذلك الذى أمر به الخليفة (الحاكم) فى مصر. وهو حادث شاذ تم خارج الإمبراطورية التركية وقبل قيامها. ولم يميّز المؤرخون الغربيون بين آسيا الصغرى (وفيها كان التركمان سببًا فى قيام الاضطراب..) وبين كافة العالم السلجوقى. وبين أيدينا العديد من الشهادات والقرائن التى تنهض دليلاً على أن المسيحيين من أهل البلاد كانوا على العكس من ذلك قد هلّلوا فرحًا لحكومة السادة الجدد عقب عودة النظام بمجىء السلاجقة ولم يخطر لهم مطلقًا أن يستنجدوا بالغرب لينقذوهم)[1].

ويقول: (لا تعنى السمة الإسلامية الواضحة للدول السلجوقية أنها تضم فقط الرعايا المسلمين، كما لا تعنى أن الذميين قد ضاقوا بها ذرعًا. وحقيق بنا - هنا أيضًا - أن نبدد كثيرًا من الأخطاء الصادرة أحيانا عن نية حسنة. قلنا إن الفتح التركمانى كان قاسيًا وإنه أدى فى بعض الظروف إلى كوارث فاجعة. لكن الوضع القانونى للنصارى المحليين لم يختلف عما كان عليه فى الدول الإسلامية العريقة بعد أن استقر النظام السياسى فى البلاد، ولو أن المناوشات استمرت على الحدود بصورة متقطعة، بل غالبًا ما كان وضعهم فى آسيا الصغرى أفضل من الناحية الفعلية بحكم غالبيتهم العددية الثابتة. وهكذا تقدم لنا الدولة السلجوقية تداخلاً لعناصر متباينة جدًا، ولا نرى فيها أناسًا متذمرين حقًا، أو أناسًا يعاودهم الحنين فعلاً إلى استرجاع الماضى أو استعادة السيادة البيزنطية مثلاً، وهى لم تترك فى أذهان الناس ذكريات سعيدة فقط فى مجال الفدائية والمنازعات الطائفية)[2].

ويتحدث عن الصمود الإسلامى، فيقول: (استطاع الإسلام أن يعوض عن الخسائر التى تكبدها فى البحر المتوسط بمكاسب حصل عليها فى أفريقيا السوداء وآسيا الجنوبية الشرقية. ففى السودان كانت القوافل المغربية قد نشرت الإسلام منذ زمن بعيد.. أما الزعماء الزنوج المحليون فقد وجدوا فى الإسلام مبادئ وتعاليم تساعدهم على إنشاء مؤسسات سياسية أرسخ بنيانًا من تلك التى عهدوها قديمًا فى بلادهم. وامتدت سيادة إمبراطورية (مالى) (القرن الرابع عشر) مع حاضرتها (تومبوكتو) فى المركز، وكذلك سيادة إمبراطورية (غاوا) التى خلفتها فى القرن الخامس عشر من الغابات العذراء حتى الواحات الصحراوية المغربية. وانتشرت الثقافة الإسلامية فى تلك البقاع على يد العلماء المغاربة ومختلف النازحين (الأندلسيين). وفى بلاد (تشاد) التقت تأثيرات مغربية ومصرية. ثم لم يلبث أن قدم النخاسون الأوروبيون فأوقفوا هذا التقدم الثقافى الذى أحدثه الإسلام-ولو من بعض الوجوه-قبل مجىء الغربيين بأمد بعيد)[3].

---

(1) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 355.

(2) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 367.

(3) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 404.

ويقول: (ثمة ظاهرة تسترعى الانتباه فى كل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى، ألا وهى قدرة المسلمين على النهوض من كبوتهم. ذلك لأن التاريخ الذى صنعه فى بداية الأمر نفر قليل من أناس منعزلين قد أصبح العمل المشترك لمجموعة من الشعوب انتسبت للإسلام على مرّ الزمن وظلّت مخلصة له إخلاصًا مطلقًا، ويعلم المبشرون المسيحيون أنهم لا يقدرون على تغيير عقيدة المسلم)[1].

ويتحدث بإعجاب شديد على الحضارة الإسلامية، فيقول: (أما الحضارة الجديدة التى انبثقت عن هذه الفتوح الإسلامية فقد كانت من أزهى الحضارات، فهى قد أفادت الغرب من علومها وفى شتى الميادين، بعد أن حضنت النصيب الأكبر من التراث القديم وأمدته بالحياة. ثم امتزج التاريخ الإسلامى منذ ثلاثة عشر قرنًا بالتاريخ الغربى امتزاجًا مستمرًا سواء فى الحرب أم فى السلم، ونهلت الحضارتان من معين واحد. ولئن تطورتا فيما بعد وتباعدتا تباعدًا عميقًا، فلا بد أن تعيننا الموازنة بينهما على الوصول إلى تفاهم أفضل. ولا يسع المرء فى القرن العشرين أن يبقى بمعزل عن أى أسرة من الأسر التى يتألف منها المجتمع الإنسانى. . لهذه الأسباب جميعًا كان خليقًا بتاريخ العالم الإسلامى أن يشغل مكانة مرموقة فى ثقافتنا الغربية. وكان حقيقًا بنا أن نطرح جانبًا تلك الفكرة الخاطئة التى تجعل الحضارة ملكًا لبعض الشعوب وبعض الأقاليم المنفردة بمثل هذا الامتياز، حتى ندرك أن ابن سينا المولود فى آسيا الصغرى قد وجد قبل القديس توما المولود فى إيطاليا، وأن مساجد دمشق وقرطبة قد أنشئت قبل كاتدرائيات فرنسا وألمانيا. وبالتالى لا مناص لنا من التخلى عن هذا الازدراء الذى نبديه للشعوب الإسلامية المعاصرة لنا بحكم تضاؤل شخصيتها تضاؤلاً قد يكون عابرًا أمام قارة أوروبية استطاعت أن تخطو خطوات حثيثة فى مضمار الثقافة والسلطان)[2].

ويتحدث عن تفتح المسلمين على تراث الأمم المختلفة والاستفادة منه، فيقول: (تقوم الأهمية التاريخية للعلوم العربية على احتضانها التراث القديم، مما أتاح للغرب أن يتقبل هذا التراث بدوره وفى عهد لاحق. لكنه من الحيف أن نقصر هذه الأهمية على مجرد دور الوسيط السلبى. ولعلنا لا نشاهد مطلقًا فى التاريخ مثل ذلك الحماس الفكرى الذى نشاهده عند العرب، ولم تتجمع قط المعلومات المتوفرة لأمة من الأمم بمثل ذلك الاتساع. فقد أضافوا إلى العلم الإغريقى كل ما أسهمت فيه المدنيات الشرقية الأخرى. وتيسر عرض ذلك فى لغة ذات حضارة واحدة. وإن صحّ أنهم انطلقوا من النصوص القديمة، فإنهم قاموا بمقارنة هذه النصوص وانتقادها وضبطها، ولابد من أن ينجم عن ذلك كله تقدم على أقل تقدير فى بعض الميادين. وإذا كان علماء المسلمين - رغم نزعتهم الفكرية - أقل قوة فى التجريد من اليونان،

---

(1) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 405.

(2) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 6.

لكنهم عوّضـوا عن ذلك بميلهم الشديد إلى التجـربة. ولقد بين التقدم العلمى اللاحق أهـمية هذا الميل. فالعلم الذى خلفه العـرب هو علم مارسوه فى حياتهم اليومـية، ولهذا السبب ظل على قيد الحيـاة وقدّر له البقاء. وكان الرازى (وهو أحد كـبار العلماء) قد عبر تعبـيرًا واضحًا جدًا عن إمكانية استمرار التقدم العلمى، وذلك مبدأ غريب على معظم مفكرى العصر الوسيط الذين نأوا بعبء الحكمة القديمة)(1).

ويبين مدى الفاعلية التى تعامل بها المسلمون مع تراث الأمم المختلفة، بحيث لم يكونوا ناقلين فقط، فيقول: (كان العرب، بطبيعة الحـال، ينظرون فيما يترجمون، بل كانوا يترجمون بغية النظر فى هذه الكتب)(2).

ويقارن بين العلوم الإسلامية فى العصور الوسيطة بالعلوم التى كانت تنتشر فى أوروبا، فيقول: (لا بدّ لنا من القـول بأن المؤلفات العربية، رغم ما نلحظ فيـها من تكرار، تشهد على حيوية فكرية بالغة. وهى إذا قورنت بالمؤلفات الأوروبية الصادرة بعد العهد (الكارولنجى)، أو بالآثار التى وضعت إبان النهضة البيزنطية، أثارت فى نفوسنا الدهشة والإعجاب)(3).

ويتحدث بحزن عـما أصاب الحضارة الإسلاميـة من انحطاط، فيقول: (لا يسع المؤرخ أن ينفض يده من حضارة فـى حال انحطاطها دون أن تعتريه عـاطفة من الكآبة التى لا تتنافى مع الموضوعية. فقد كانت هذه الحضارة مدة طويلة من الزمن ورغم اضطراباتها ونقاط الضعف فيهـا، إنجازًا رائعًا من منجزات الإنسـان، وفترة حاسمـة من وجوده. . إن الحضارات جميـعًا عرضة للفناء. ذلك أمـرٌ لا ريب فيه. لكنها تنهض دليلاً على أن الشـعوب التى أوجدت هذه الحضارات قـادرة على إبداع غيرها أو بعثهـا من جديد. ومهما يكن من أمـر، فإن الغرب لا يسعه أن يتجاهل بأنه أخذ العلم والتفكيـر عن ابن سينا وابن رشد، وأنه لولا مسجد قرطبة لما شيدت كاتدرائية (بوى) بالذات فى قلب فرنسا على النحو الذى شيدت به)(4).

سكت البابا، فقلت: لقد أنطق الله هذا الرجل بما عجز كثير من الرجال عن قوله.

قال: لابد لكل باحث منصف صادق أن يقول ما قال.

**مكسيم رودنسن:**

من الأسـماء التى رأيتـها فى دفـتر البـابا فى هذا الفصل اسم (مكسـيم رودنسن)(5)،

(1) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 329 - 330.
(2) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 6.
(3) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 336.
(4) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 405 - 406.
(5) مكسيم رودنسن، ولد عام 1915، من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بباريس، ثم مديرها.
من آثاره: (مـباحث فى فن الطبخ عند الـعرب) (1949). ونشر عـددًا من الدراسات فـى المجلات المعروفـة من مثل (دانتى والإسلام)، و(حيـاة محمد والمشـكلة الاجتماعـية المتعلقة بأصـول الإسلام)، و(دراسة الصلات بين الإسلام والشيوعية).

فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من علماء فرنسا، وله شهادات عن رسول الله ﷺ، والحضارة الإسلامية، وجميعها تتعلق بما اكتشفه المؤرخون الأوروبيون ـ بعد البحث والتمحيص ـ من أخطاء.

منها قوله، وهو يذكر ما اكتشفه المؤرخون الأوروبيون من صفات رسول الله ﷺ: (بظهور عدد من المؤرخين الأوروبيين المستنيرين فى القرن الثامن عشر بدأت تتكامل معالم صورة هى صورة محمد الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع)(1).

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية، وامتدادها العالمى، فيقول: (هكذا أظهرت الترجمات اللاتينية لمؤلفات المسلمين تدريجيًا وانتشرت ثروة العرب العلمية بحيث وصلت إلى إنجلترا واللورين وساليرنو وخصوصًا إلى إسبانيا حيث كان الاتصال يجرى بسهولة أكثر)(2).

ويقول: (فى عام 1180م، اكتملت المجموعة الأولى من مؤلفات ابن سينا الفلسفية وأخذت تروج فى أوروبا وكان تأثيرها بالغًا، وتبعها ترجمات لفلاسفة آخرين بتلاحق سريع.. وقد أخذت تتشكل فى أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامى بوصفه مهدًا لفلاسفة عظام. وكانت تلك صورة مضادة تمامًا للصورة السابقة، صورة الكيان السياسى الذى يسيطر عليه دين معاد ومغلوط، وهى الصورة التى خلقتها الخرافات السخيفة والكريهة فى أذهان الناس.. واستطاع علماء اللاهوت الفلاسفة أن ينقلوا إلى المسيحية ما كان يذكره ابن سينا عن الحضارة الإسلامية.. بل لقد جاء وقت كان لفظ (الفيلسوف) يعنى فعليًا (المسلم)(3).

ويقول: (من وجهة النظر الفكرية نجد أن كبار المؤلفين المسلمين الذين كان اكتشافهم قوة تجديدية أصبحوا يتمثلون (ويهضمون) بصورة تدريجية ويدمجون ضمن الثقافة العامة. وخلال عدة قرون نجد أن ابن سينا وابن رشد والغزالى فى الفلسفة، وابن سينا وعلى بن العباس والرازى فى الطب، ومؤلفين آخرين فى العالم الإسلام نجد هؤلاء يقلدون وتعاد طباعة أعمالهم ويعلق عليها وتدرس)(4).

ويتحدث عن انتشار مثل هذا الوعى بين العامة، فيقول: (أصبح الناس - فى الوقت الذى نتكلم عنه - يستطيعون رؤية الدين الذى كان ينافس المسيحية، بنظرة محايدة بل بشىء من التعاطف، ولعلهم كانوا يبحثون فيه بصورة لا شعورية (ويجدون فيه بالطبع) نفس قيم الاتجاه العقلانى الجديد الذى كان مخالفًا للمسيحية. ففى القرن السابع عشر انبرى كثير من الكتاب للدفاع عن الإسلام ضد الإجحاف الذى ناله فى العصور الوسطى وضد مجادلات المتنقصين من قدره، وأثبتوا قيمة وإخلاص التقوى الإسلامية.. وانتقل الجيل التالى من

(1) تراث الإسلام، (تصنيف شاخت وبوزوث)، 1 / 67 - 68.
(2) تراث الإسلام: 1 / 36.
(3) تراث الإسلام، 1 / 40 - 41.
(4) تراث الإسلام، 1 / 52.

الموضوعية إلى مرحلة الإعجاب.. فكان ينظر إلى الإسلام كدين عقلانى بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية المخالفة للعقل.. ثم إنه وفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس والحياة فى المجتمع. وخلاصة القول فهو كدين كان قريبًا جدًا من الدين الطبيعى الذى كان يعتقد به معظم (رجال عصر التنوير)[1].

ويتحدث عن تراجع بعض اليساريين عن موقفهم من الإسلام، فيقول: (ظهر الإسلام لبعض أولئك اليساريين الأوربيين على أنه فى جوهره عامل (تقدمى) بطبيعته، بل اعتنق بعضهم ذلك الدين الإسلامى)[2].

بل يتحدث عن تراجع الكنيسة نفسها عن بعض مواقفها الخاطئة من الإسلام، فيقول: (فى أكتوبر 1965 أشاد مجلس الفاتيكان المسكونى (بالحقائق) التى جاء بها الإسلام والتى تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين عليهم السلام.. ولقد أعجب بعض المسيحيين بالقيمة الروحية الدينية الإسلامية وأزعجتهم مواقف الظلم التاريخية التى وقفتها شعوبهم من الإسلام)[3].

سكت البابا، فقلت: لكأن هذا الرجل الفاضل يدعو إلى مراجعة جميع مواقف الغرب من الإسلام والمجتمعات الإسلامية.

قال: أجل.. ذلك ما يهدف إليه.. وما تلك الأمثلة إلا نماذج عن هذه الدعوة العظيمة.

قلت: لكأنى به ينادى بما نادى به قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ... ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ].

قال: أجل.. فما نفع القلب مثل مراجعة تمحو ظلمات الوهم، لتستنير بنور العلم.

### هنرى ماسيه:

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (هنرى ماسيه)[4]، فسألت البابا عنه، فقال: من شهادات هذا الرجل التى جعلتنى أضعه هنا حديثه عن منجزات رسول الله ﷺ الكبرى، فيقول: (بفضل إصلاحات محمد الدينية والسياسية، وهى إصلاحات

---

(1) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزوث)، 1 / 64 - 66.

(2) تراث الإسلام، 1 / 94.

(3) تراث الإسلام، 1 / 95.

(4) هنرى ماسيه H. Masse ولد عام 1886، عمل مديراً للمعهد الفرنسى بالقاهرة، وعين أستاذًا فى جامعة الجزائر (1916-1927)، وعضواً فى مجمع الكتابات والآداب وفى المجمع العلمى العربى بدمشق، وانتدبته الحكومة لعديد من المهام الثقافية واختارته اليونسكو فى لجنة المستشرقين.

من آثاره: نشر كتابًا عن الشاعر (سعدى) (1919)، وصنف كتابًا بعنوان: (الإسلام) (1957)، كما ترجم وحقق العديد من النصوص العربية، ونشر العديد من الأبحاث فى المجلات الاستشراقية الشهيرة.

موحدة بشكل أساسي، فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى ليعدّوا دخلوهم النهائى إلى تاريخ المدنية)[1].

ويتحدث عن بعض صفاته ﷺ، فيقول: (كان محمد هو المشرّع الملهم والمحرك الأول للوحدة الدينية بين جميع الأقوام، . . وكان بسيطًا وحازمًا)[2].

ويتحدث عن علاقة الإسلام بالملة الحنيفية، فيقول: (فى القرآن يظهر إبراهيم عدة مرات مع عنوان الحنيف، ويبدو أن هذه العبارة السابقة لعصر محمد كانت تدل على أناس لا يعتنقون المسيحية ولا اليهودية، ويتطلعون بغموض إلى دين أكثر تجردًا من العقائد والمذاهب، إلى توحيد كامل. . ولكن محمد سينتهى إلى التوحيد، إلى دين أساسى وفطرى ليست الأديان الأخرى سوى دلالات عليه، توحيد يبلور نهائيًا أحلام الحنفاء الغامضين، بحيث يجب أن نرى بهم مبشرين بمحمد[3])[4].

ويتحدث عن ربانية الإسلام، ورجوعه إلى مصادره الأصلية، فيقول: (تضاعفت فجأة أهمية النصوص المقدسة لأن دراستها لم تكن قضية تديّن فقط بل قضية تطبيق عملى. وبدأ الفقه ينتظم ولكن بوفاق تام مع القانون السماوى)[5].

**ألدو ميلى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ألدو ميلى)[6]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقى فرنسا، متخصص فى تاريخ العلوم، وقد رأيت له شهادات رائعة ترتبط بتخصصه، وترتبط بالحضارة الإسلامية، منها قوله ـ وهو يتحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية ـ: (فى عصر الانحطاط العميق بالبلدان التى كانت من قبل تعد قسمًا من إمبراطورية دقلديانوس القديمة، نهض فجأة فى قلب الصحارى العربية خصم من الخصوم تابع تلك الإمبراطورية العجوز المترنحة، كما هو من ألدّ خصوم الممالك الجديدة التى

---

(1) الإسلام، ص 55.

(2) الإسلام، ص 59.

(3) هذه الشهادة تحمل على وجوه مختلفة، وقد حملناها هنا على أحسن وجوهها، وهكذا سائر ما نذكره من شهادات.

(4) الإسلام، ص 39 – 40.

(5) الإسلام، ص 123.

(6) ألدو ميلى A.Mieli مستشرق فرنسى، تفرغ لتاريخ العلوم. تولى وكالة المجمع الدولى لتاريخ العلوم وأسس مجلة (آركيون) التى تسجل نشاطه.

من آثاره: (تاريخ العلوم) (باريس 1935)، (العلم العربى وأثره فى التطوير العلمى العالمى) (1938)، (علم الفلك فى العالم الإسلامى) (1941)، (علم النبات عند العرب) (1941)، (علم الجغرافيين العرب) (1941)، (العلم الإسلامى) (19429، (الرياضيات العربية) (1942)، (التشريح العربى) (1942). وغيرها.

كانت ناشئة فـي الغرب. وظل هذا الخصم يزداد عظمة فى مرأى العين، كـما لو كانت عناية الله الدائمة هى التى تقود عـساكره المخلصين إلى الجهاد والنصر المبـين، حتى تلا فتح سورية ومصـر بعد قليل تقوّض إمبـراطورية الساسانيـين، وأصبح أخلاء قسطـنطين - الذين اقتطعت منهم فعلاً أقاليم كثيرة - مهددين بمثل ذلك المصير)[1].

ويتحدث عن دوافع الفتوحات الإسلامية، فيقول: (بباعث من تلك الدوافع القوية التى تشمل أحيانًا جميع الناس، وتكاد تبدو مـتعذرة الفهم للمراقب الخارج عن دائرتها أو الذى لم يشهد مثلها من قبل، فاض أولئك العرب. . من شبه الجزيرة، التى هى موطنهم الأول فأسسوا الإسلام، أو أقاموا سلطان الإسلام على قسم عظيم من العالم المتـحضر القديم، تحدوهم رغبة جدّ عنيفة فى الدعوة الدينية)[2].

ويتحدث عن الدور التحررى الذى قام به المسلمـون، فيقول: (إن السكان الساميين فى سوريا ومصر، الذين قاسوا كل صنوف الضغط والهول - على الأخص بسبب الضرائب - من قبل الحكومات الأجنبية التابعة للدولة البيـزنطية أو المملكة الساسانية، لم يستطيعوا أن يروا فى العرب إلا محررين مـخلصين، كما أن المسيحيـين القائلين بوحدة الطبيعة (طبـيعة المسيح) فى الشرق استطاعوا أن يعتمدوا على التسامح الإسلامى، بعد أن كانوا يخشون الاضطهاد من قبل نصارى القسطنطينية)[3].

ويتحدث عن تسامح المسلمين بإعجاب، فيقول: (كانت شروط الفتح الإسلامى تسمح ببقاء بذور الحضارات القديمة عند طوائف كـبيرة من الأهالى، الذين واصلوا التمتع بعاداتهم، وقوانينهم، ولغاتهم، على شريطة أن يعطوا بانتظام قيم الجزية المفروضة على من لا يدخل فى جماعة المسلمين. وكان طبيعيًا مع ذلك أن تتأسس الروابط والعلاقات بين الفاتحين وأهل البلاد فى وقت مبكر، سواء أكان ذلك بسبب الجوار، أم بسبـب اعتناق الأهالى كثيرًا وقليلاً للإسلام بوجه خاص)[4].

ويقول: (التسامح العظيم الذى تحلى به الخلفاء الأمويون، وملوك الطوائف. . لم يمتد لواؤه على ما حكموه من شعوب، أو على المسلمين القادمين من إفريقية والمشرق فحسب، بل انبسط ظله أيضًا على العلماء المسيحيين الذين أقبلوا مهطعين من أبعد الأقطار لتلقى العلوم فى المدن المزدهرة التى لا تحصى، فى ذلك القطر الساحر الأندلس الآخذ بمجامع الألباب)[5].

---

(1) العلم عند العرب، ص 74.
(2) العلم عند العرب، ص 75.
(3) العلم عند العرب، ص 81.
(4) العلم عند العرب، ص 123.
(5) العلم عند العرب، ص 454

ويتحدث فى مجال تخصصه عن الدور العظيم الذى قام المسلمون من وصل التراث الإنسانى القديم بالتراث الجديد: (إن مقام العلم العربى.. لهو بالمكانة الأولى من الأهمية فى تاريخ العلوم، لأن هذا العلم العربى يكوّن حلقة الاتصال والاستمرار بين الحضارة القديمة وبين العالم الجديد. وإذا نحن لم نواجه ذلك العلم العربى ولم نتفهمه فسنجد فراغًا يتعذر تفسيره بين الحضارات القديمة وبين حضارتنا الحديثة. وإذن ينبغى أن نجتهد فى دراسته بعناية)[1].

ويرد على شبهة انحصار دور علماء المسلمين فى نقل التراث القديم، فيقول: (ينبغى ألا نظن أن العرب لم يضيفوا شيئًا جديدًا إلى العلم الذى كانوا أوصياء عليه. بل على النقيض من ذلك، وإذا كانت خطوات التنمية والإنتاج التى خطوها فى هذا السبيل، كثيرًا ما ضاعت وتفرقت فى الحشد الكبير من الكتب التى تركوها، فليست تلك الخطوات أقل أصالة وأبعد عن الواقع من أجل ذلك. وليس لأحد أن يقول - كما يقرر ذلك بعض المؤلفين - أن دور العرب ينحصر ببساطة فى المزج والنقل لمعارف الأقدمين التى لولاها لذهبت أدراج الرياح، الأمر الذى هو فى ذاته عنوان فخر عظيم، وشرف لا يستهان به)[2].

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية فى الأسس التى قامت عليها الحضارة الغربية، فيقول: (ترك كتاب (المناظير) لابن الهيثم تأثيراً عميقًا، بل كان - فيما بعد - باعثًا إلى البحوث والأعمال التى قام بها روجير بيكون Roger Bacon.. ولعل الأثر الذى تركته مؤلفات هذا العالم العربى فى البصريات والذى يبدو فى أعمال بيكون.. هو السبب فى أن كتب ابن الهيثم لم تنتشر مبكرة فى عصر النهضة، كما أنها بعد ذلك لم تنتشر كثيرًا)[3].

ويتحدث عن جسور التواصل بين المسلمين والغرب، والتى يسرت للغرب الاستفادة من التراث الإنسانى القديم، فقال: (على الرغم من أن البناء على أسس المعارف اليونانية واللاتينية القديمة لم يكن أمرًا مستحيلاً، وأنه قد حصلت فى الغرب فعلاً محاولات فى هذه النواحى فإن هذا البناء لم يتحقق مع ذلك، لأن العالم الغربى كان فى ذلك العصر على اتصال بالعالم العربى بوساطة طرق كثيرة الاختلاف، وكان يستطيع أن يغترف منه المادة العلمية، ويستمد النواة الروحية التى سرعان ما حملت عجيب الثمار)[4].

ويتحدث عن جسر (الترجمة) باعتباره من أهم جسور تواصل الغرب مع الإسلام، فيقول: (إن ذلك العمل، أى الترجمة عن العربية الذى يعد بحقّ نتاجًا عظيمًا بالغ الأهمية من

---

(1) العلم عند العرب، ص 10 - 11.

(2) العلم عند العرب، ص 144.

(3) العلم عند العرب، ص 206 - 207.

(4) العلم عند العرب، ص 424.

قبل المترجمين الأوروبيين جعل أصول العلم العربى تنفذ إلى أوساط العالم المسيحى فى الغرب، كما لقح العلم الحديث الذى أخذ فى التولد والنشوء)[1].

سكت البابا، فقلت: إن هذا الرجل يكن احتراما عظيما للحضارة الإسلامية.

قال: ولو وجد من يحدثه عن الإسلام بعمق وصفاء لشهد أعظم شهادة يمكن أن يشهدها إنسان.

قلت: تقصد إسلامه؟

قال: أجل.. فما أكثر ما حجب الناس عن الإسلام بسبب سلوك المسلمين، وتصويرهم الخاطئ للإسلام.

**ليفى بروفنسال:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ليفى بروفنسال)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين الفرنسيين، أبرز اهتماماته تاريخ الأندلس، ومن خلال هذا الاهتمام شهد شهادات صدق عن الحضارة الإسلامية.

منها حديثه عن تسامح المجتمع المسلم وحبه للسلام، قال: (إن الهدف الذى نبتغيه هو إلقاء الضوء على تداخل Interpenetration الإسلام والمسيحية فى شبه الجزيرة الإيبيرية وهو تداخل حقيقى مستمر فى إسبانيا فى العصور الوسيطة سواء فى داخل الحدود الإسلامية أم فى خارجها. وكذلك هو فى أن نظهر الأندلس على أنها لم تكن حتى فى ذات الوقت الذى تعرف بأنها لا تقهر، لتمتشق الحسام فى وجه جيرانها، وإنما كانت هناك سنوات طويلة لهدنات حقيقية أعطت الأندلس خلالها أكثر مما أخذت، كما برهنت فى أغلب الأحيان على عقل متسامح إزاء رعاياها المسيحيين لم يعد أحد يمارى فيه اليوم)[3].

ويقول: (ما من مكان كانت العلاقات الدائمة ضرورية فيه بين الإسلام والمسيحية، أكثر منها فى أسبانيا العربية، فإن معظم سكانها قد احتفظوا، على الأقل فى القرن الأول من حكم

---

(1) العلم عند العرب، ص 479.

(2) ليفى بروفنسال (1894-1956) F. Levi - Proven Cal ولد فى الجزائر ونال الليسانس من كلية الآداب فيها (1913) واشترك فى الحرب. وفى سنة 1919 انتدب للعمل فى معهد الدراسات العليا المغربية فى الرباط. وعين أستاذًا فيه (1920)، ثم مديرًا له (1926-1935) وفى تلك الأثناء قدم رسالة دكتوراه. وفى سنة 1928 انتدبته كلية الآداب بالجزائر أستاذًا لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية. كما كان يحاضر فى السوربون. وتقلب فى الوظائف العلمية والإدارية والسياسية، وشارك فى الحرب الثانية، وأنشأ مجلة أرابيكا Arabica للدراسات العربية عام 1954. وقد عد المرجع الأول فى الغرب لتاريخ الأندلس، وانتخب عضوًا فى عدد من المجامع العلمية.

كتب المئات من الأبحاث والدراسات، نشر بعضها فى مصنّفات مستقلة، ونشر بعضها الآخر فى أشهر المجلات والحوليات الاستشراقية، وانصبّ معظمها على تاريخ وحضارة المغرب والأندلس.

(3) حضارة العرب فى الأندلس، ص 70 - 71.

الإسلام، بالديانة القـديمة فى دولة الفيزيقـوت (القوات الغربيون)، وفـيما بعد، حـتى عقب اعتناق أعداد غفيرة من الرعايا النصارى أهل الـذمة للإسلام، للاستفادة من نظام مالى أفضل، بقيت نـسبة ضخمـة من الرعايا المسيـحيين تشكل فى المدن الأنـدلسية وحدات مـزدهرة، لها كنائسها وأديرتها ورئيـسها المسؤول (Depensar) وجابيها الخاص (Censor) وقاضيها الذى يطبق فى محكمـته، تحت إشراف الإدارة الأمـوية، القانون القـوطى القديم من Liber Judicrum أما الاضطهادات التى عانتها فقد كـان يسببها دومًا مسيحيون متهـوّسون يرفضون أن يتراجعوا عن القدح فى مـعتقد سـادة البلاد. . وكان أمراء الأندلس وخلفـاؤها يقرون بصورة دائمة تقـريبًا اختيار أصحـاب الرتب الكهنوتية: مطران طليطلة وأسقف قرطبة. حتى إنهم كـانوا يستعملون هؤلاء الأحبـار فى سفـارات أو مهـمات سـياسـية سريـة فى الوقت المناسب. فلم تكن رؤية الإيكليريكيين الأسبان يتضلعون فى معرفة اللغة العربية وآدابها من الأمور النادرة مطلقًا. وهذا ما يجعلنا نفـترض وجود اختلاط ودّى، واثق ومتصل بين مـختلف عناصر السكان. بل نملك على هذه الناحية شهادة معاصرة لا نـستطيع الارتيـاب فى قيمتها، ذلك لأنها صادرة عن واحد من أنشط أبطال المقاومة ضد الإسلام فى شبه الجزيرة فى القرن التاسع ألا وهو الفارو القرطبى Le Cardouan Alvaro. فبـينما يحزن لفتـور مـسيـحيى أسبانيـا وجهلهم باللاتينية، نراه يمـجد بفصاحة نادرة الثقافة الإسلامية الإسبانية التى كانت فى طور التكوين)[1].

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية فى الحضارة الغربية عبر جسر الأندلس، فيقول: (إن تعبير (الغرب الإسلامى) قد لا يجد خصومًا له من أجل تعريفه الخاص فحـسب، بل إن له خصومًا آخرين، مازالوا كثيرين جـدًا فى أوروبا، حتى بين الأخصائيين المرموقين فى دراسات العصـور الوسطى. يرون أن أفريقـيا الصغـرى وإسبـانيا، كليهـما، لا يشكلان مطلقـًا سوى امتدادات شاسعة وظلال شاحبـة للشرق الإسلامى، هذا الشرق الذى يجب الاعتراف بأنهم لا يزالون يجهلونه تمام الجهل ولا يقدّرون حق التقدير الدور الراجح الذى لعبه خلال العصور فى اقتصاد حوض البحر الأبيض المتوسط منذ انهيـار العالم القديم حتى الفترة التى شهدت غروب القرون الوسطى وأولى تباشير النزعة الإنسانية الناشئة. وترى أن الحكم الـسابق نفسه الذى كان يجعل مـؤرخين كثـيرين جدًا يـقدرون بيزنطة (بالمقـارنة بذكريات روما المـظفرة) يدفع هؤلاء المؤرخين إلى أن لا يروا فى المغرب والأندلس، فى العصر الوسيط، سوى استمرار هزيل، فى انحطاط سياسى عميق، لعصر الإسلام الذهبى فى الشرق الذى دونت وقائعه فى سوريا ومصر وبلاد ما بين النهرين. ولا يخطر لهؤلاء المؤرخين لحظة واحدة، لا سيمـا فيما يتعلق بإسبانيا، أن يحاولوا إظهار قـسطها الهائل فى تطور العالم الأوروبى الغربى، منذ القـرن الحادى عشر، وفى تحسين بعض نـواحى الحياة المادية، وبخاصة فـيما فرضت عليـه رويدًا رويدًا، من شعور

(1) حضارة العرب فى الأندلس، ص 71 - 72.

بجمـال للحيـاة جديد، هذه الحيـاة التى كـانت تسيطر عـليها حـتى ذلك الحين، وفـى رهبة المجهول، صوفية ثقيلة التشاؤم)[1].

ويتحدث عن بعض مظاهر تأثير الحـضارة الإسلامية فى الحضارة الغربـية، فيقول: (إن دراسة الاستعارات (اللغـوية) التى تنفح القشتالية والبرتغالية والقطالونيـة وهى اللغات القومية الحالية فى شـبه الجزيرة عبيراً من العـربية جد نفاذ ومدعاة للبـحث، هذه الدراسة لا تقدم لنا قيمة فى فقه اللغة فحسب بل إنها تكتسى طابع الأهمية الخاصة حالما نتوسع فيها لتشمل وقائع الحضارة التى بردت هذه الاستعارات اللغوية، فهى تقدم الدليل الضمنى، ولكن الذى لا جدال فيه، على الأثر العميق الذى مارسته الثقافة العربية الأندلسية على السكان المسيحيين فى الكتلة الإيبيـرية بكاملها. . لقد وجـد هؤلاء أنفسهم مضطريـن لأن يأخذوا عن العربية كل مـا كان ينقصهم حتى ذلك الوقت للتعـبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة فى مضمـار المؤسسات والحياة الخاصة. وهذا التحقق هو غنى بالمعلومات بصورة فريدة)[2].

ويقول: (على الرغم من أن فرنسـا كانت فى العصور الوسطى فى عزلة عمـيقة بسبب من وضعها الجغرافى، إلا أن هذا، مع ذلك، لم يحل دون معاناتها من بعض النواحى، عاقبة تلك المؤثرات التى أثرتهـا حضـارة الإسلام فى الأندلس علـى الممالك المسـيحـية فى شـمال إسبانيا. . وقـد رأينا أن غالبية الكلمات المشتقـة من العربية فى اللغة الفرنسيـة قد دخلت إليها عن طريق الإسبانية. ومن المحتمل أن يكون هذا هو شـأن كثير من المؤثرات التى قدرت فرنسا على تقـبلهـا من الإسلام قـبل زمن من الحـملات الصليـبـية إلى الشـرق أو حـتى أثناء هذه الحمـلات. . وقد أخذ ذهاب الرهبان الفـرنسيين وإيابهم المتـواتر بين أديـرتهم وبين طليلطة، يزيد أيضـًـا فى تسهيل التبادل الثقافى بين البلدين)[3].

ويتحدث عن الفـترة الزاهرة التى مرت بها الأندلس إبان حكم المسلمين لهـا، فيقول: (يجب أن نبادر فى الحـال إلى استبـعاد بعض الإثبـاتات لأنها نفسـها تستـحق ذلك إذ أنها لا تعتمد فـيما تزعم على مستندات خالية الغـرض دائمًا، لا سيما وأن لهجتهـا الخشنة، الحاقدة معًا، تجـعلها فى محل شبـهة إلى حد بعيـد منذ البداية. . وهى تصدر من ناحـية أخرى عن كتاب ليـسوا من الأسبان كما أنهـم ليسوا مؤرخين أو مخـتصين بإسبانيـا، وأكثر من هذا كله فإنهم غير مخـتصين بالإسلام. فإنهم يلقون على المسلمين تبعة (إجداب) إسـبانيا و(إخلائها) من السكان وأنهم جعلوها (صحراء مـثل أفريقيا الشمالية). ويقـسم المرء لدى قـراءته ما كتبوا

---

(1) حضارة العرب فى الأندلس، ص 8 - 9.

(2) حضارة العرب فى الأندلس، ص 80-81، وعن حشود المفردات العربية التى اقتبسها الإسبان فى مجالات النظم العسـكرية والمدنيـة، وأسماء الأمكنة، والأنشطة الزراعيـة والصناعية وغيرها، انـظر المرجع نفسه، ص 81-85.

(3) حضارة العرب فى الأندلـس، ص 87 - 88.

على أنهم لم يسمعوا أبدًا خرير نوافير الماء فى قصر الحمراء ولم يستنشقوا أبدًا العبير الرقيق المعطر فى الكزار إشبيلية. وهم يرون، وأنا أنقل هنا حرفيًا رأيهم، بأنه (أقل ما يمكن أن يقال هو أن السيطرة الإسلامية كانت مصابًا جسيمًا حل على إسبانيا). فما من أحد مثقف فى إسبانيا اليوم يجرؤ على أن يكون حكمًا مفرطًا فى المبالغة إلى هذا الحد.. ولكن إسبانيا قد عرفت أن تعيد إلى إسلام الأندلس ألقابه فى مراتب الشرف وادعت وهى مرفوعة الرأس علنًا بأنه يعتبر زهرة فى تراثها التاريخى والفكرى)[1].

ويقول: (كان العالم السياسى الإسبانى السيد Cl. Sanchez-Albornoz رئيسًا لجامعة مدريد فسفيرًا لبلاده ثم وزيرًا لشؤونها الخارجية، إلا أنه كان ويبقى، قبل كل شىء، مؤرخًا على مستوى عال.. أنه يعرف، أكثر من أى شخص آخر، كيف أشرف الإسلام على هذه البلاد وماذا كان تراثه الرئيسى فيها: تأثير عميق على الفكر الإسبانى لا يمكن إنكاره.. لنترك له الكلام ونردد معه كلمة هذا الاعتراف المؤثر العضوى: المسألة اليوم ليست مسألة ظلمات العصور الوسطى، ولكن علينا أن نرى مقابل أوروبا التى تنمو فى التعاسة والانحطاط، حضارة إسبانيا المسلمة الرائعة. فإن أساتذة الدراسات العربية يفتحون لنا كل مرة آفاقًا جديدة عن مدى تألق هذه الثقافة الإسبانية المغربية وعمقها. فقد ادعوا أن لها مقامًا حاسمًا فى تكوين الفلسفة والعلم والشعر وجميع ثقافة أوروبا المسيحية. وبرهنوا على أن تأثيرها قد بلغ حتى ذرى الفكر الوسيط. بلغ القديس توماس ودانتى. كثيرون ولا شك، فى كل ناحية من ناحيتى جبال البيرنيه والبحر المتوسط الذين ينفرون حتى الآن من الإقرار لها بهذا التفوق وذلك الدور الموجه. ومع ذلك فإن براهين وافية للغاية تؤكد ذلك منذ الآن. ومن يوم إلى يوم تنبجس أخرى جديدة. وقد انقضت عدة قرون قبل أن تعمل النهضة من جديد على تفجير ينابيع كادت تنضب، كان نهر الحضارة الذى ينهمر فى قرطبة يحفظ جوهر الفكر القديم وينقله إلى العالم الجديد)[2].

سكت البابا، فقلت: ليت بعض قومنا يقرؤون هذه الشهادات ليروا من تاريخهم وحضارتهم ما عميت أبصارهم عن رؤيته.

**روبرت برنشفك:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (روبرت برنشفك)[3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقى فرنسا، له شهادات ترتبط بالإسلام،

---

(1) حضارة العرب فى الأندلس، ص 99 - 100.

(2) حضارة العرب فى الأندلس، ص 102-103، وعن الدور الذى لعبته الترجمة إلى اللغات الإسبانية فى نقل مؤثرات الحضارة الإسلامية إلى المغرب، انظر: المرجع نفسه ص 96 - 97. وعن إنجازات المسلمين فى الآداب والفنون انظر المرجع نفسه، ص 88-90، 97-98.

(3) روبرت برنشفك R.Brunschvig ولد عام 1901، أستاذ اللغة والحضارة العربيتين بجامعة بوردو ثم فى كلية الآداب بجامعة باريس 1955، وتولى مع شاخت الإشراف على مجلة الدراسات الإسلامية Studia Islamica. =

وبالحضارة الإسلامية، منها قوله فى الميادين التى مارستها الحضارة الإسلامية: (إن تأثير الدين الإسلامى تتجلى قوته.. فى عدد كبير من عناصر الثقافة الإنسانية: فى اللغة والفنون والأدب والأخلاق والسياسة والتركيب الاجتماعي ونشاطه والقانون، بحيث لا نستطيع إذا أخذنا الوضعية كلاً، أن نرفض ملاحظة مدنية مستقلة فيها، لا تتميز (بالعنصر الإسلامى) فحسب، بل (بالعامل) الإسلامى أيضًا)[1].

ويتحدث عن شمولية العقيدة الإسلامية لكل ميادين الحياة، فيقول: (أصبحت العقيدة الإسلامية خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين نظامًا نما بصورة واسعة فى نواح مختلفة، وكان شديد الرغبة فى إظهار تماسكه فى كل مدرسة أو نزعة تتضح فى نطاقه.. وهكذا أخذ الإسلام مكانة عملية قدرت له فى عدة ميادين ثقافية، وهو دور المؤثر والمتأثر، وهو مظهر مزدوج لا يصح الفصل بين جزئيه غالبًا إلا بطريقة مصطنعة)[2].

ويتحدث عن أسلمة المسلمين للحياة بجميع ميادينها، فيقول: (من الأصحَ دون ريب أن نعتبر العقيدة الإسلامية عاملاً، لا فى الحالات التى يحدث أن تستمد منها حلاً جديداً من مواردها الخاصة بها فحسب، أو تأتى بحل جديد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ولكن فى كل حالة تستوعب فيها حلاً داخليًا أو أجنبيًا فى نظامه ويلوّنه بطريقته الخاصة وبذلك تساعد على اقتباسه أو الاحتفاظ به. فكم من عمل لم تكن به من ناحية المبدأ صبغة إسلامية، طبعه الإسلام بطابعه إلى الحدّ الذى أصبح فيه عملاً مميزًا للإسلام، وذلك بفضل إسناد التربية الإسلامية المأثورة.. ومن الممكن أن الصفة الإسلامية الخاصة لعنصر ثقافى فى أكثر من حالة واحدة، لا يدين بشيء إلى الأصل الذى نشأت عنه بل يعبر فقط عن الحقيقة أن الإسلام باقتباسه العنصر المذكور طبعه بطابعه أو أراد اقتباسه وتمثيله)[3].

**البروفيسور فورغ:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (البروفيسور فورغ)[4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا طبيب فرنسى له اهتمام بتاريخ الطب، وله شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية، منها قوله ـ عن تأثير الإسلام فى الحالة النفسية عند الإسبانيين ـ: (إن إسبانية.. أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها، وهى تمتاز بميزات لا يشاركها فيها

---

= نشر عدد من الأبحاث فى المجلات الاستشراقية الشهيرة، كما ألف (بلاد البربر الشرقية تحت حكم الحفصيين) فى جزأين (باريس 1940).

(1) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص 74.

(2) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، ص 79 - 80.

(3) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، ص 80 - 81.

(4) البروفيسور فورغ Prof. Forgue جراح فرنسى شهير، يعد من أشهر جراحي فرنسا فى النصف الأول من هذا القرن، إن لم يكن أشهرهم. وله اهتمامات بتاريخ الطب.

غيرها، وأن فيها قـوة حيوية قومية غير معهودة لكثـير من الأمم، وأن لتلك الأدمغة الحارة من سرعة الفكر.. ما يجـعل هذه الأمة فريدة فى بابها. ولأجل أن نفهم هذه الحالـة النفسية عند الإسبانيول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهى استيلاء العرب على إسبانيا.. التى بقيت تحت حكمهم زهاء ثمانية قرون. وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الأمة الإسبانية بالمدنية الإسلاميـة، هذه المدنية التى كانت حلقة الاتـصال بين العالم الإسلامى وأوروبا الغـربية. قال ليبرى Libri: احـذف العـرب من التـاريخ يتأخـر عصـر التجـدد فى أوروبا عدة قـرون إلى الوراء)[1].

ويقول عن الحضارة الإسلامية فى الأندلس: (كـانت طليطلة قد عادت للإسبانيول سنة 1085م فصارت مركز الاتصال بين المدنيتين الإسلامية والمسيحية. وسنرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبـادل للبضائع العقلية وكمكتب للترجـمة يحج إليه طلاب العلوم من كل فجّ.. وفى يناير سنة 1492 كان سقوط غرناطة وجلاء العرب الأخير فتركوا.. من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فـيه القرون والحقـب دهرًا طويلاً، كما أن طليطلة بقـيت خزانة كتب تغـذّى بترجمتـها الفكرة البـشرية عصـورًا مديدة. لا جـرم أن هناك تاريخًا نادر المثال لم ينقصـه شىء لا من العظمة ولا من طول المدة)[2].

وينظر بعجب إلى الرجال الذين أسسوا الحضارة الإسلامية فى الأندلس، فيقول: (إنك ترى شعـبًا من القبائل الرحل، رعـاة الإبل، بسائق دعوة دينية يحـملون على الأمم فيفـتحون نصف العالـم فى مدة قرن واحـد، ثم يكون أعظم هممهم، بعـد أن وطّدوا هذا الملك الطويل العريض، أن يضمّوا إلى عظمة الفتح عظمة العلم)[3].

**البارون كارادى فو:**

من الأسمـاء التى رأيتها فى دفـتر البابـا فى هذا الفصل اسم (البارون كـارادى فو)[4]، فسـألت البابا عنه، فقـال: هذا رجل من كبار المستـشرقين الفـرنسيين، من شـهاداته المرتبطة بالحضارة الإسـلامية قوله: (أنجـز العرب أعظم المكتشفـات العلمية فعـلاً. فعلمونا استـعمال الصفر وجعلوا (الجبر) علمًا متقنًـا وتقدموا به، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية وهم بلا منازع موجدو علمى المثلثات المستوية والكروية اللذين لم يكن للإغريق فضل فى وجودهما إذا

---

(1) مجلة المـستشفـيات الفرنسـية Gazette des Hopilaux عدد 19 مارس، 1932، عن (حاضر العـالم الإسلامى 1/ 128-129).

(2) حاضر العالم الإسلامى، 1 / 129.

(3) حاضر العالم الإسلامى، 1 / 130.

(4) البارون كارادى فو (1868 - 1930) Baron Carra De Vaux مسـتشرق فرنـسى معروف من المعـهد الكاثوليكى بباريـس، درس العربية ودرّسهـا فى المعهد المذكور، وألف فى الرياضيات والفلسفـة كما حقق عددًا من المصادر. ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه عن ابن سينا (1900) والغزالى (1902) و(مفكرو الإسلام) فى خمسة أجزاء (1921-1926). كما ترجم كتبًا عديدة أخرى.

ما توخينا الحقيقة والإنصاف كما أنهم عملوا في الفلك أرصاداً عديدة قيّمة، وحفظوا لنا بترجماتهم عدداً كبيراً من كتب الإغريق التي ضاعت أصولها. . والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على الغرب. إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها. ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعداً كانت مراكش والشرق محط أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه. في هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق. وهكذا كانوا همزة وصلٍ بين الثقافة القديمة والمدنية الجديدة، عندما عادت النفس الإنسانية في عهد الإحياء العلمي لتمتلئ ثانية بحب المعرفة والاستقصاء ولتتنبه بوميض من العبقرية العلمية. فإن هي أفلحت في سلوك السبيل الأقوم للعمل، وإن أتيح لها الإنتاج والابتكار فما ذلك إلا لأن نفسية العرب قد حفظت وأكملت مختلف فروع العلم وصانت روح البحث العلمي حيّة تائقة للتحرر والحركة، متهيئة للمكتشفات المقبلة)[1].

**هيلين كارير دانكوس:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هيلين كارير دانكوس)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد ذكرت لك هذه المرأة الفاضلة من قبل. . ألا تذكره؟

قلت: بلى. . تلك المرأة الفاضلة. . صاحبة المزرعة العجيبة. . تلك التي كانت تبحث عن النظام الأمثل. . فلم تجده إلا في الإسلام[3].

قال: أجل. . فلها شهادات رائعة عن الإسلام بثتها في كتابها (القوميات والدولة السوفياتية)، وهي في مجملها تدل على مدى الصمود الإسلامي، ومدى استغناء المسلمين بالنظام الإسلامي عن كل نظام مستحدث.

منها قولها: (إن استمرار الشعور الديني في الاتحاد السوفيتي، أو تجدّده، حقيقة اجتماعية ثقافية، تُقرّ بها السلطات السوفيتية ويلحظها المراقبون الأجانب والسلطة تنظر إلى هذه الحقيقة من وجهتين، فهي تارة تعتبرها مدعاة للافتخار على أنها الدليل الملموس على موقفها

(1) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس أرنولد)، ص 563-565. وعن إنجازات المسلمين في ميدان الفلك والرياضيات والعلوم التطبيقية، انظر: المرجع نفسه، ص563-565، 569-571، 573-580، 582، 584-592.

(2) هيلين كارير دانكوس Helene Carrere d' Encansse باحثة فرنسية معاصرة، وهي واحدة من أبرز الخبراء في شؤون (الماركسية الأسيوية)، وقد صدر كتابها (القوميات والدولة السوفياتية) في باريس عام 1987 فأثار ضجة ما تزال مستمرة وترجم فوراً إلى عدد من اللغات الحية.

وقد سبق الحديث معها في الجزء السابق.

(3) انظر الرسالة السابقة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل(نظام).

المنفتح والديمقراطى تجاه جميع المعتقدات الخاصة، وطوراً تبدى تجاهها بعض القلق، وحينها تجنّد أجهزتها المختصة فى الدعاية المعادية للدين، وتشتد الحملات الإلحادية، وتتضاعف فى الصحف الدعوة إلى التيقظ والحذر، ويعاد إلى أذهان المربين أن المهمة الأولى للمدرسة هى فى إنشاء شيوعيين، أى فى إبعاد مواطنى المستقبل السوفيتيين عن الأفكار الرجعية!! الخطرة والمعادية للشيوعية، التى تنقلها الديانات. وتؤكد النشرات المعادية للدين بصورة متزايدة، قابلية الديانات للاستمرار والتأقلم مع المجتمع الذى بدلته الاشتراكية، بعد أن كانت هذه النشرات تكتفى فى الماضى القريب، بمهاجمة الديانات وتتنبأ بزوالها الحتمى!! وقد بدأت السلطة السوفيتية تدرك مدى جاذبية الطقوس الدينية فى مجتمع تسود فيه الرتابة، وكيف بدأت الأخلاق الدينية تخطط لنفسها طريقًا إلى جانب الأخلاق الاشتراكية، لا بل فى محلها فى مجتمع ما زاده التحضر إلا ميلاً إلى الجنوح)[1].

ومنها قولها: (إن جميع المعلومات السوفيتية الرسمية تتضافر لتوحى بأن الإسلام يحتضر ببطء فى الاتحاد السوفيتى، مع احتضار الجيل الذى لم ينشأ على الأيديولوجية السوفيتية. ولكن معلومات مضادة لا تلبث أن تناقض هذه الصورة، فالتحقيقات الاجتماعية المتزايدة فى الاتحاد السوفيتى حول هذا الموضوع، تبين أن المجتمع الإسلامى لا يزال متعلقًا بمعتقداته، وأن ما يقارب نصف الأشخاص الذين جرى استجوابهم فى الوسط الريفى صرحوا بتمسكهم بالإيمان. وعلى سبيل المثال نورد تحقيقًا أجرى عام 1972 بجمهورية كاراكالبك الملحقة بأزبكستان، وقد دلّ هذا التحقيق على أن 23٪ من الرجال و20٪ من النساء يعلنون عن إلحادهم، فيكون 77٪ من الذكور و80٪ من الإناث مؤمنين. . وفى شمال القوقاس أعلن 20٪ فقط من السكان عن كونهم ملحدين (عام 1974). . هذا رغم أن الباحثين فى الأوساط الإسلامية يلحظون غالبًا تحفظًا من قبل السكان فى الكشف عن حقيقة إيمانهم)[2].

ومنها، قولها: (هنالك خاصية ثانية للإسلام تزيد الوضع فى الاتحاد السوفيتى تعقيداً، فهو على نقيض المسيحية التى تفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، يجمع بين المجالين. فالعقيدة الإسلامية، وهى ثمرة القرآن والسنة، تفرض على المؤمنين وجود مؤسسات خاصة، مهمتها الإشراف على الحياة الاجتماعية. والدولة السوفيتية، فى برنامجها التأحيدى الذى يستهدف فرض أيديولوجية واحدة لم يكن باستطاعتها أن توافق على وجود نظام خاص للطائفة الإسلامية، فألغت فى أوائل سنى استلامها السلطة، العناصر الأساسية فيه، أى النظام القانونى والمؤسسات الشرعية والأسس المالية المعتمدة. وبعد أن جعلت الديانة الإسلامية ديانة أفراد معينين لا ديانة طائفة، وبعد أن حرمت من مؤسساتها، ونزعت منها أمور الدنيا، هل

(1) القوميات والدولة السوفيتية، ص 143.
(2) القوميات والدولة السوفيتية، ص 147.

بقى لها وجود منظم أم هى أضحت هيكلاً لا يلبث أن يتفتت مع غياب آخر فوج من المؤمنين؟ هنالك وقائع كثيرة وساطعة تشهد بأن التشاؤم فيما يتعلق بمستقبل الإسلام كان يمكن القبول به فى الماضى القريب، ولكنه اليوم لم يعد لـه من أساس، بل على العكس، فهذه الوقائع توحى بأن الإسلام يبعث من جديد، وفى ظروف جديدة، وأن هذا البعث المرتكز إلى وجود واع وإرادى لا إلى وجود استمرارى، تدعمه وتوجهه المراجع الإسلامية العليا)[1].

ومنها قولها: (نجد فى صحف الجمهوريات الإسلامية عدة إشارات.. يفهم منها أن التضامن الإسلامى فى الاتحاد السوفيتى بات فى ازدياد، وأن المؤمنين أضحى لهم تأثير متصاعد على السكان غير الممارسين لدينهم)[2].

**جورج مارسيه:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (جورج مارسيه)[3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسى اهتم بمدى تغلغل الإسلام فى الحياة، ومن شهاداته فى هذا الباب قوله: (إن الحج المتوجب على كل مسلم يستطيع إليه سبيلاً أن يؤديه مرّة فى حياته، لا يقل أهمية عن المبادلات التجارية فى ترابط أبعد أجزاء العالم الإسلامى.. أما الصلاة، وهى فعل العبادة وخضوع الإنسان لخالقه، فيؤديها المؤمن خمس مرات يوميًا وفى ساعات معينة بعد أن يطهر نفسه بالوضوء، متوجهًا نحو مكة المكرمة، حيث الكعبة المشرفة، مرددًا الصيغ الدينية، وهو يقوم بحركات السجود والركوع المنتظمة بدقة. ويمكن تأدية الصلاة بصورة منفردة وفى أى مكان يجد المرء نفسه فيه، على أن تكون الأرض بعيدة عن كل نجاسة، على أن صلاة الجماعة هى المستحبة.. وتكون الصلاة المشتركة فى المسجد، والمسجد أساسًا هو بيت الصلاة، ومخطط بنائه منسجم مع ممارسة العبادة، فمن أجل الصلاة يقف المسلمون جنبًا إلى جنب يؤلفون جبهة عريضة وتنتظم خلف هذا الصف صفوف أخرى بنفس النظام، ويقف الإمام الذى يؤم الصلاة فى مقدمة المصلين، وقد أدار ظهره لهم ووجهته ووجهة المصلين، الذين يقومون بنفس الحركات التى يقوم بها ويرددون التلاوات نفسها، هى القبلة، أى اتجاه مكة، حيث الكعبة قطب الإسلام وبيت الله على الأرض)[4].

ومنها قوله: (على أية حال، يكاد لا يوجد فى البلاد الإسلامية منشآت عامة أو خاصة

---

(1) القوميات والدولة السوفيتية، ص 149.

(2) القوميات والدولة السوفيتية، ص 151.

(3) جورج مارسيه (1905-1946) G. Marcy مستشرق فرنسى، كتب العديد من الدراسات والأبحاث فى الشريعة واللغة، نشرها فى عدد من المجلات الشهيرة مثل (المجلة الجزائرية)، و(المجلة الأفريقية)، و(حولية معهد الدراسات الشرقية)، وغيرها.

(4) الفن الإسلامى، ص 12 - 13.

لا تحمل طابع الدين. فلقد تغلغل الإسلام فى الحياة البيتية كما دخل حياة المجتمع وصاغت الطبائع التى نشرها شكل البيوت والنفوس)[1].

ومنها قوله: (إن العقيدة الأساسية فى الإسلام هى الوحدانية المطلقة، فلا إله إلا الله، ولقد ظهرت تعاليم الرسول محمد كرد فعل قوى ضد تعدّد الأرباب والأنصاب التى كان يقدسها العالم العربى، وضد الوثنية الإغريقية الرومانية ولمجابهة الثالوث الذى يؤمن به المسيحيون، فليس لله شريك ولم يلد ولم يولد، ولا يمكن أن يشبه بأى مظهر إنسانى، ولئن كان القرآن قد حرم عبادة الأصنام بجمال، فإن الحديث الشريف (السنّة) فعّل ذلك وتوسّع فيه.. وليس من الممكن أن ننكر أن هذا المنع احتفظ بكل قوته فى تزيينات العمارة الدينية ولوازم العبادة، وأنه أثر على تطور الفن الإسلامى بأسره.. وهكذا فإن الإسلام وضع طابعه على إطار الحياة اليومية. وحتى عندما يكون الفن مطبقًا فى أمور دنيوية فإن من البلاد الإسلام يبقى فنًا مسلمًا)[2].

**فولتير:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (فولتير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم الفيلسوف الفرنسى المعروف.

قلت: لقد كنت أسمع بعداوته الشديدة للأديان، بما فيه الإسلام.

قال: ذلك صحيح.. ولكن المؤسف أن الأضواء لا تسلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة، والتى تراجع فيها عن أقواله السابقة، فتكاد لا تذكر.

قلت: هل تراجع عن تصريحاته المسيئة للإسلام؟

قلت: أجل.. لقد ذكر ذلك، فقال: (قد هدم محمد الضلال السائد فى العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائمًا من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ).

ويقول فى قاموسه الفلسفى: (أيها الأساقفة والرهبان والقسيسون إذا فُرض عليكم قانون يحرم عليكم الطعام والشراب طوال النهار فى شهر الصيام.. إذا فرض عليكم الحج فى صحراء محرقة.. إذا فُرض عليكم إعطاء 2.5 ٪ من مالكم للفقراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمور ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثمانى عشرة زوجة أحيانًا، فجاء من يحذف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الادعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذّات)[3].

---

(1) الفن الإسلامى، ص 15.

(2) الفن الإسلامى، ص 16 - 17.

(3) القاموس الفلسفى(6/ 4).

ويقول متحدثا عن الصمـود الإسلامي: (لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسـان أن يقوم به على الأرض... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قـد جاء بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)[1].

**لامارتين:**

من الأسماء التي رأيتهـا في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لامارتـين)، فسـألت البابا عنه، فقال: هذا اسم شاعـر فرنسا الكبير، وقد قال في الإسـلام: (الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يفي بمطالب البـدن والروح معًا، دون أن يُعـرِّض المسلم لأن يعيش في تأنيب الضمـير... وهو الديـن الوحـيد الذي عـباداته بلا صور، وهو أعلى مـا وهبه الخـالق لبني البشر)[2].

**أناتول فرانس:**

من الأسماء الـتي رأيتها في دفتـر البابا في هذا الفصل اسم (أناتول فرانس)، فـسألت البابا عنه، فـقال: هذا اسم لكاتب فرنسي.. قال في كـتابه (الحياة الجمـيلة): (أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي).

وقال: (حين نتـذكر كم كان العرب بدائيين في جاهـليتهم يصبح مدى التقـدم الثقافي الذي أحرزوه خـلال مئتي سنة، وعمق ذلك التـقدم، أمرًا يدعو إلى الذهول حـقًا، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيـضًا أن النصرانية احتـاجت إلى نحو من ألف وخمسمـائة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُولّ كل من العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثًـا على العلم، وإن الحضارة الغربية مـدينة للحضارة الإسلامية بشيء كـثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية)[3].

---

(1) نقلاً عن (غوته والعالم العربي)كاتارينا مومزن (181و355).

(2) السفر إلى الشرق: لامارتين (47).

(3) المستشرق روم لاندو في (الإسلام والعرب)، ص(9-246).

## 3 - أصدقاء من الإنجليز

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من الإنجليز)، تحته أسماء كثيرة، فقلت: أفي الإنجليز أيضا أصدقاء لنا؟

قال: في كل بلاد الله أصدقاء للمسلمين.. العداوة ليست هي الأصل الذي يتحكم في البشرية.

قلت: ولكنهم يعمرون برنا وبحارنا وجونا بألوان العداوة؟

قال: فاعمروا قلوبهم بالإيمان والمحبة التي تحميهم من نزغات الشياطين التي توسوس لهم بحربكم.

قلت: أنى هذا.. وهم الغالبون، ونحن المغلوبون؟

قال: هذا ليس بعيدا.. ألم يتمكن المسلمون من تحويل دين الغالب إلى دين المغلوب؟

قلت: لقد حصل هذا.. وخير دليل على ذلك التتار.

قال: ما حصل من قبل يمكن أن يعاد في كل وقت..

ثم نظر إلى الأفق البعيد، وقال: إنكم إن فعلتم ذلك انتصرتم عليهم.. لا بأرواح تزهق، ولا بدماء تسيل.

**سير توماس أرنولد:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سير توماس أرنولد)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين البريطانيين، وله شهادات علمية كبرى ترتبط بانتشار الإسلام، وقد سبق أن حدثتك عنه[2].

قلت: أجل.. فاذكر لي اليوم بعض شهاداته.

قال: من شهاداته المرتبطة بالقرآن وأسلوبه قوله: (إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار Alvar [الإسباني] الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به)[3].

---

(1) سير توماس أرنولد (1864 - 1930) Sir Thomas Arnold، من كبار المستشرقين البريطانيين. صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير البحث والاستشراق الغربي. وقد أشرف أرنولد على تنسيقه وإخراجه. تعلم في كمبردج وقضى عدة سنوات في الهند أستاذًا للفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية. وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن. وصفه المستشرق البريطاني المعروف (جب) بأنه "عالم دقيق فيما يكتب، وأنه أقام طويلاً في الهند وتعرف إلى مسلميها، وأنه متعاطف مع الإسلام، وكل هذه أمور ترفع أقواله فوق مستوى الشهادات" (دراسات في حضارة الإسلام ص244). ذاع صيته بكتابيه: (الدعوة إلى الإسلام) الذي ترجم إلى أكثر من لغة، و(الخلافة). كما أنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن الإسلامي.

(2) انظر الحوار الافتراضي معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص).

(3) الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ص 162.

وتحدث عن توفر خصائص القدوة في رسول الله ﷺ، فقال: (لعله من المتوقع، بطبيعة الحال، أن تكون حياة مؤسس الإسلام ومنشئ الدعوة الإسلامية، هي الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين. وإذا كانت حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين، فإنها كذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام. لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئًا عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها. ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجئ في تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكر، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها. وفي هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك وكيف كان النبي محمد يعد نموذجًا للداعي إلى الإسلام)[1].

ويتحدث عن استمرار الدعوة النبوية رغم التمكين الذي مكن الله به المسلمين في المدينة، وما بعدها: (من الخطأ أن نفترض أن محمداً في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين)[2].

ويتحدث عن بعض أساليب الدعوة التي مارسها المسلمون، فيقول: (إن المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكاياتهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التي أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين، كل ذلك جعل اسمه مألوفًا لديهم، كما جعل صيته ذائعًا في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيدًا عظيمًا ورجلاً كريمًا. وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعيًا إلى الإسلام جادًا في تحويل إخوانه إليه)[3].

ويتحدث عن بعض أسباب الإقبال على الإسلام في المدينة المنورة، فيقول: (نرى من أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجًا لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها، وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية)[4].

ويتحدث عن الثورة التي كان يحملها الإسلام ضد أوضاع الجاهلية، فيقول: (لا يغرب عن البال كيف ظهر جليًا أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضًا تامًا. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص 34.
(2) الدعوة إلى الإسلام، ص 54.
(3) الدعوة إلى الإسلام، ص 54.
(4) الدعوة إلى الإسلام، ص 43.

العربى لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابًا كاملاً لمثل الحياة التى كانت من قبل. وأصبح النبى بذلك رمزًا لأسلوب جديد)[1].

ويتحدث عن خاصية العقلانية التى تتميز بها العقيدة الإسلامية، فيقول: (يعبر الشطر الأول من هذه العقيدة [لا إله إلا الله، محمد رسول الله] عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لابد منه، على حين يقوم الشطر الثانى منها على فكرة علاقة الناس بالله وهى مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك بمعنى أن الله تعالى، فى فترات من تاريخ العالم، قد وهب بعض تجليه على الخلق، على لسان أنبياء ملهمين. ولا يستطيع أى فرد أن يوضح الطابع العقلى للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة فى نشر الدعوة، توضيحًا يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفيسور مونتيه فى العبارات التالية: (الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية. فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق عليها تمام الانطباق.. إن [للإسلام] كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد التى قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين فى الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه، فنعتقد فى الله وفى الحياة الآخرة، وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغى للاعتقاد الدينى، وهما أمران يستقران فى نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن، وأن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام.. وعلى الرغم من التطور الخصب، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، لتعاليم النبى حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية فى عظمة وجلاء وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وأن هذا الإخلاص لمبدأ الدين الأساسى، والبساطة الجوهرية فى الصورة التى يصاغ فيها هذا الدين والدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التى تفسّر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محدودة كل التحديد خالية كل الخلوّ من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هى تبعًا لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى، أن تمتلك - وإنها لتمتلك فعلاً - قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس)[2].

---

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص 61.

(2) الدعوة إلى الإسلام، ص 454 - 456. أما عبارات مونتيه (Montet) فيستمد المؤلف من كتاب La propagande (chretienne et ses adversaires musulmans. pp 17-18 (Paris. 1890)

ويتحدث عن الآثار السلوكية للشعائر الإسلامية، فيقول: (كذلك نجد أن أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء فى جذب الناس، أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن منتسكيو فى قوله: [فى كتابه المعروف: روح القوانين]: (أن المرء الأشد ارتباطًا بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأى دين آخر أقل منه احتفالاً بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التى تسيطر دائمًا على تفكيره). إن دين المسلم يتمثل دائمًا فى مخيلته، وفى الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين فى طريقة نسكية خاشعة مؤثرة لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين.. فإذا استطاع رينان أن يقول: (ما دخلت مسجدًا قط، دون أن تهزنى عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبنى أسف محقق على أننى لم أكن مسلمًا)[1]، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم فى صلاته، وسجداته الكثيرة، وعبادته للإله الذى لا يراه، فى سكينة واستغراق، قد يؤثر فى الأفريقى الوثنى الذى وهب إدراكًا قويًا للقوى الخفية.. وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال)[2].

ويتحدث عن علاقة الدين بالحياة، فيقول: (إن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم، أو تجعلهم مغمورين فى الحياة، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع تعبيرًا ظاهرًا فى حياة المؤمن، ومن ثم نجدها، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية، تشابكًا لا سبيل إلى الفكاك منه، تجعل المسلم الفرد إمامًا ومعلمًا لعقيدته، أكثر إلى حد بعيد مما هى الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى. إن تحدد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج فى نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه، فإذا أدى هذه الواجبات، اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد إلى حد بعيد، فى هذه الوحدة التى تربط بين النظامين العقلى والطقسى فى هذا الدين، سرّ السيطرة التى أحدثها الإسلام على عقول الناس. (فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس، لقنهم الحقيقة فى صورة حماسية، دقيقة واضحة، وفى أسلوب مرئىّ محسن)[3].

ويتحدث عن الدوافع الحقيقية وراء انتشار المسلمين فى الأرض، فيقول: (إن الذى دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التى دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكانًا بين ما نسميه أديان الرسالة لهى حماسة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم. وليس موضوع هذا الكتاب: (الدعوة إلى الإسلام)، إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة فى تبليغ الدعوة ودواعى وألوان نشاطها. وأن انتشار مائتى مليون من

---

(1) Ernest Renan: L'islamisme et la Science, p. 19 (Paris, 1883)..

(2) الدعوة إلى الإسلام، ص 458 - 460.

(3) الدعوة إلى الإسلام، ص 460، والعبارة الأخيرة ينقلها عن: B. Kuenen: National Religions and universal Religions, p. 25, (London, 1882)..

المسلمين فى الوقت الحاضر[1] لهو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرنًا التى تلت ظهور الإسلام)[2].

ويتحدث عن الأسباب الحقيقية لانتشار الإسلام، فيقول: (يرجع انتشار هذا الدين فى تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسية ودينية، على أن هنالك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التى أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هى الأعمال المطردة التى قام بها دعاة المسلمين، ووقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدى الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة)[3].

ويتحدث عن تأثير الفتوحات الإسلامية المعجزة فى الإقبال على الإسلام، فيقول: (إن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظير، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التى أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم فى الدنيا وبين التوفيق الإلهى، وأن [الله] لم يجعل النصر إلا فى أيدى عباده المختارين. وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم)[4].

ويتحدث عن سماحة المسلمين مع الطوائف المختلفة، فيقول: (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أى اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحى. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرود وإيزابلا دين الإسلام من إسبانيا، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتى مذهبًا يعاقب عليه متّبعوه فى فرنسا أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين عن إنكلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًا عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحائه أحد يقف إلى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم)[5].

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية التى نقلها المسلمون إلى الأندلس، والتى امتد تأثيرها إلى جميع أوروبا، فيقول: (أدخل العرب الظافرون الإسلام فى أسبانيا سنة 711م وفى سنة 1502م أصدر فردناند وإيزابيلا مرسومًا يقضى بإلغاء شعائر الدين الإسلامى فى جميع أنحاء

---

(1) كان ذلك زمن تأليف توماس آرنولد لكتابه (الدعوة إلى الإسلام) فى أواخر القرن الماضى، أما الآن فقد زاد هذا العدد إلى أكثر من خمسة أضعافه.

(2) الدعوة إلى الإسلام، ص 25.

(3) الدعوة إلى الإسلام، ص 27.

(4) الدعوة إلى الإسلام، ص 94.

(5) الدعوة إلى الإسلام، ص 98 - 99.

البلاد. ولقد كتبت إسبانيا الإسلامية فى القرون التى تقع بين هذين التاريخين، صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى. وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس Provance إلى الممالك الأوروبية الأخرى، وأتت بنهضة جديدة فى الشعر والثقافة، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيين من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار فى نفوسهم النشاط العقلى حتى جاء عصر النهضة الحديثة)[1].

ويتحدث عن تأثير تسامح المسلمين فى نشر الإسلام، فيقول: (إن عدم وجود التعصب الطائفى ليكوّن القوة الحقيقية للإسلام فى الهند، ويمكن له أن يجذب إليه عددًا كبيرًا جدًا من الهندوكية)[2].

ويتحدث عن استمرار الإسلام فى قوته وانتشاره رغم الظروف الخطيرة التى مر بها، فيقول: (فى سنة 1867 عبر كاتب روسى، فى كتاب هام كتبه عن الإسلام فى الصين[3] عن الفكرة التى تقول بأن الإسلام مهيأ لأن يصبح الدين القومى للإمبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعًا لذلك الأوضاع السياسية فى العالم الشرقى رأسًا على عقب)[4].

ويتحدث عن تأثير الحرية فى انتشار الإسلام، فيقول: (كان اعتناق أى دين يخالف ديانة الكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا، أمرًا محرمًا فى القانون الروسى، ومن ثم توقف الإسلام عن أى تقدم جديد، إلى أن صدر مرسوم التسامح الدينى سنة 1905. ومن النتائج التى ترتبت على صدور هذا المرسوم فى بلاد القوقاز، أن دخلت جموع كثيرة فى الإسلام بين طوائف الأبخاز Abkhazes الذين كانوا قد ظلوا فترة طويلة يدينون بالمسيحية اسمًا فقط، ولكنهم الآن قد أصبحوا مسلمين، فى جموع بلغ من ضخامتها أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد أخذ الخوف منهم كل مأخذ حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بينهم، أملاً فى مناهضة النفوذ الإسلامى)[5].

**سير هاملتون جب:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (سير هاملتون جب)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا (سير هاملتون الكساندر روسكين جب)[6] وهو من كبار

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص 154، وعن إنجازات المسلمين فى ميدان الفنون انظر: تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص 223 - 226.

(2) الدعوة إلى الإسلام، ص 327.

(3) Vasiper(V.P.): Spread of Mohammedan Faith in China, PP. 3, 5, 14, 17 (Petesburg, 1867).

(4) الدعوة إلى الإسلام، ص 347.

(5) الدعوة إلى الإسلام، ص 122.

(6) سير هاملتون الكساندر روسكين جب 1895 - 1967 يعد إمام المستشرقين الإنجليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية فى جامعة لندن سنة 1930، وأستاذ فى جامعة أكسفورد منذ سنة 1937، وعضو مؤسس فى المجمع العلمى المصرى، تفرغ للأدب العربى وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن. =

المستشرقين الإنجليز، بل يمكنك أن تعتبره إمامهم. وبالرغم من بعض سوء الفهم الذى عرض له، كما عرض لسائر المستشرقين نحو بعض قضايا الإسلام، إلا أن له بعض المواقف الطيبة والشهادات الصادقة، وقد قمت بتسجيل بعضها، وسأسردها عليك.

منها شهادته على ما يحويه القرآن من القيم النبيلة، قال: (إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر فى تلك الآية العظيمة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة] فالبر إذن تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيرًا أن الله شاهد أبدًا، ويستجيب لشهوده فى كل أفكاره وأعماله)[1].

ومنها شهادته حول التواصل بين الدين والدنيا فى الإسلام، يقول: (هذه، إذن، هى الرسالة التى بلغها القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين وظل يبلغها إلى جميع الأجيال منذ ذلك العهد. فالقرآن سجل لتجربة حية مباشرة فى ميدان الألوهية، تجربة ذات طرفين: واحد مطلق وآخر متصل بشؤون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كى ينظم حياته ليتمكن من الأخذ بنصيب فى تلك التجربة. وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليستكنه روح تعاليمه، لا بفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التى كانت للرسول الحبيب. ويعظم فى عينيه مغزى كل آية فيه، لإيمانه بأنه كلام الله. ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حى للإلهام والاستبصار الدينى)[2].

ومنها شهادته حول تميز الإسلام على غيره من الأديان، قال: (مهما يكن أمر استمداد الإسلام من الأديان التى سبقته[3] فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضًا وهى: أن المواقف الدينية التى عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناء دينيًا جديدًا متميزًا)[4].

ويتحدث عن صمود عقائد الدين لدى العامة بالرغم من الجدل الذى مرت به بعض فترات التاريخ الإسلامى، فيقول: (على الرغم مما قام به العلماء المتأخرون من تطوير لعلم

= من آثاره: (دراسات فى الآداب العصرية) (1926)، (الفتوحات الإسلامية فى آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين)، (رحلات ابن بطوطة)، (اتجاهات الإسلام المعاصرة)، وهو أحد محررى دائرة المعارف الإسلامية.

(1) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 254.

(2) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 254.

(3) ذكرنا الرد على هذه الشبهة فى مواضع مختلفة من هذه السلسلة. وبالنسبة لمصادر هذا الدين رددنا عليه فى رسالة (الكلمات المقدسة).

(4) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 254 - 255.

كلام إسلامى منهجى، يبقى صحيحًا ما ذكرناه سابقًا وهو: أن جمهور الجماعة الإسلامية كان يتألف من شعوب أحدثت لديها ممارسة حقائق الدين ممارسة حدسية أثرًا أقوى وأسرع من كل أثر خلفه أى قدر من الجدل العقلى أو من حذاقته وبراعته)[1].

ويتحدث عن حيوية العقيدة الإسلامية وتأثيرها، فيقول: (إننا نخطئ خطأ فاحشًا إذا اقتصرنا على النظر إلى هذه العقيدة نظرتنا لمذهب لاهوتى أتقن بشكل وراثى من جيل إلى جيل منذ ألف وثلاثمائة سنة. إنها على العكس من ذلك يقين وإيمان حى يتجدد ويتأكد باستمرار فى قلوب المسلمين وأرواحهم وأفكارهم، ولدى العربى بشكل خاص[2]، حين يدرس النصّ المقدس. لقد عارض المذهب السنى المتمسك بشكل عام ترجمة القرآن إلى اللغات الإسلامية الأخرى[3] على الرغم من أن النص العربى يظهر فى بعض الأحيان مقترنًا بترجمة تركية أو فارسية أو أُردية وغيرها من اللغات. إن هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها إلى حد ما بشكل عقلانى مستندة فى ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلانى. والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسى كما هو الحال بالنسبة للشعر الرفيع. إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ. والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده، لأن كلماته تعد بسحرها أفكار الشخص الذى يصغى إلى القرآن لتلقى تعاليمه. ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يشوهها ويحول الذهب النقى إلى فخار)[4].

ويتحدث عن مدى الجهد الذى بذله العلماء فى حفظ السنة، فيقول: (اقتضى الأمر نشوء علم جديد غايته جمع الحديث ونقده وتصنيفه وتنسيقه والحصول فى النهاية - بقدر الإمكان - على مجموعة متفق عليها يتقبلها الجميع. وقد استأثرت هذه المهمة بالكثير من طاقات الفقهاء والعلماء فى القرن الثالث، ولكن القائمين عليها أحرزوا نجاحًا حتى أصبح حديث الرسول يعتبر مرجعًا ثانيًا معتمدًا للفقه والعقيدة)[5].

ويقول: (إن بدايات التاريخ العلمى بالعربية تقترن بدراسة سيرة الرسول ودراسة أعماله. وعليه فإننا نجد مصدر هذه الدراسة فى جمع الحديث النبوى وبخاصة الأحاديث المتعلقة بمغازى الرسول. وكان موطن هذه الدراسة هو المدينة. . ويفسر لنا ارتباط المغازى

(1) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 255.

(2) هذا ليس صحيحا، فالإسلام دين الشعوب جميعا، وكل الشعوب تأثرت به سواء كانوا عربا أو غير عرب.

(3) وهذا ليس صحيحا، إنما الاعتراض على تسمية الترجمة قرآنا، بل هى ترجمة لمعانى القرآن، أو لبعض الفهوم حول القرآن.

(4) الاتجاهات الحديثة فى الإسلام، ص 30 - 31.

(5) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 20.

بالحديث، هذا الارتباط الذى ترك طابعًا لا يمحى فى المنهج التاريخى باستخدام هذا المنهج للإسناد، ما طرأ من تغير هائل ظهر منذ هذه اللحظة فى طبيعة الأخبار التاريخية عند العرب، ودقتها المؤسسة على النقد. ويمكننا أن نشعر لأول مرة بأننا نستند إلى أساس تاريخى قويم حتى وإن اعترفنا بوجود بعض العناصر المشكوك فيها فى أخبار الفترتين، المدنية والمكية، من حياة الرسول)[1].

ويتحدث عن الانسجام التام بين القرآن والحديث النبوى الشريف مما يؤكد سلامة الحديث النبوى ودقة نقله، فيقول: (يكاد يكون من المؤكد أن الآراء التى تعبر عنها الأحاديث التى تم جمعها فى القرن الثالث تمثل تعاليم القرآن ومبادئه الخلقية تمثيلاً صادقًا)[2].

ويتحدث عن الأهمية الكبرى التى تكتسبها أحاديث النبى ﷺ، فيقول: (لولا الحديث لأصبح لمحمد فى أقل تقدير صورة معممة - إن لم نقل بعيدة - فى أصولها التاريخية والدينية. أما الحديث فقد صور وجوده الإنسانى فى مجموعة وفيرة من التفصيلات الحية المحسوسة، وبذلك قدم للمسلمين حين ربط بين المسلمين وبين نبيهم بنفسه الروابط الذاتية الوثيقة التى كانت تصله بأصحابه الأولين، وهى روابط نمت على مر القرون وكانت أقوى من أن تصاب بالضعف. ولم يصبح شخص محمد أبدًا ذا صبغة مرسومة مقررة، ويكاد لا يكون من الغلو أن نقول إن حرارة ذلك الشعور الشخصى نحو الرسول الحبيب كانت أبدًا أقوى عنصر حيوى فى دين الجماهير الإسلامية أو كانت كذلك بين أهل السنة، على الأقل)[3].

ويتحدث عن الاحترام العظيم الذى تكنه الأمة الإسلامية لنبيها من غير غلو، فيقول: (ومهما نقل فى قوة النزعة الإسلامية نحو محمد وفى آثارها فإنا لا نوصف بالغلو. فقد كان إجلال الرسول شعوراً طبيعيًا محتومًا فى عصره وفيما بعده، غير أن ما نومئ إليه بشىء يتجاوز الإجلال. فإن العلاقات الشخصية من الإعجاب والحب اللذين بعثهما فى نفوس صحابته ظل صداها يتردد خلال القرآن، والفضل فى ذلك يعود إلى الوسائل التى أقرّتها الأمة لتستثير بهما مجددين فى كل جيل)[4].

ويتحدث عن حب الأمة فى جميع أجيالها، وتقديرها لنبيها، فيقول: (ما تزال الاحتفالات العائلية تختتم بأدعية وأناشيد فى تمجيد الرسول وكل الأمة تراعيها وتشهدها بحماسة فى ذلك اليوم المجيد، يوم مولد النبى فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول. هنالك ترى المجددين والمقلدين والصوفية والسلفية والعلماء وأفراد الجمهور يلتقون جميعًا معًا على

---

(1) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 147.

(2) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 21.

(3) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 257 - 258.

(4) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 257.

بقعة واحدة، وقد يكون بين نزعـاتهم العقلية تنوع واسع متباين، ولكنهم جميعًـا وحدة متآلفة فى إخلاصهم وحبهم محمد)[1].

ويتحدث عن البناء الإسلامى للمجتمع، فيقـول: (كانت التعاليم الاجتماعية التى جاء بها محـمد فى أساسها، إعادة لإحـقاق المبادئ الأخلاقية الـتى تشترك فيها ديانات التـوحيد، فازداد ترسـيخ معنى الأخوة بين جـميع أفراد الجمـاعة الإسلامـية، وأنهم سواسيـة من حيث القيمة الشـخصية الفطرية دون نظر إلى ما فى مكانتهم الدنيـوية ووظائفهم وثرواتهم من تباين واختلاف. وتعـمقت جميع العلائق والواجـبات المتبادلة التى تسـتتبعهـا هذه المبادئ. وقد تم ترسيخ ذلك كله وتعميـقه حين وضعه الإسلام على أساس مـن الولاء الخفى والخضوع العلنى لإله واحد.. وكانت لتعاليم الرسول نتائج اجتماعية ملموسة تحدّدت صيغتها كما هو الحال فى جميع الحركات الدينية بما تركته من آثار فى البيئة التاريخية الواقعية)[2].

ويتحـدث عن استـقلال الدبن بنظمه المخـتلفة عن سلطة السـاسة مما وقى الإسـلام ما حصل للمسيحية من تدخل الساسة، فيقول: (ومنذ البداية نشأ تيار فقهى يعارض بعض مظاهر المفهوم الرسمى، ويعارض سيطرة الدولة على الأمور الدينية، كما تجلى إصرار الفقهاء على أن الفقيه مسؤول تجاه نفسه فـقط. وقد وقع النزاع علنًا عندما قام المأمون وخلفاؤه يحاولون فرض المبادئ ذات الصبغة اليـونانية التى نادى بها فريق المعتزلة (مذهبًا رسمـيًا)، ويضطهدون زعماء السنة المعارضين. وانتهى الصراع بانتصار السنة، وكان برهانًا قاطعًا على استقلال النظام الدينى الإسلامى عـن الخلافة وغـيرها من المؤسـسات السـياسـية، وعلى أن الحكام السـياسـيين لا يستطيعون الإشراف على مصادر سلطان الدين لأنهـا ملك لجماعة ولا علاقة لأحد بها، وأن الخلافة ذاتها نابعـة من ذلك السلطان وأنها رمز سياسى له وكـانت هذه الأحداث ذات أهمية أساسية فى مستقبل الإسـلام كله، ذلك أنها حاولت دون أن ترتبط بأى نظام سياسى، وأمدت النظام الدينى والجماعـة معه بالحرية اللازمة لـلتطور على أساس ما يحويه الإسلام من طبـيعة ومنطق ذاتيين)[3].

ويتحدث عن صمود الفكر الإسلامى، فيقول: (إن الفكر الإسلامى يأبى أن يقيد بقيود الصيغ الخارجية. ويظل هذا الفكر يحدث ضغطًا مستمرًا يظهر أثره فى تجديد التشكيل للنظرية على نحـو هادئ، وهذا التشكيل المتـجدد، تحـت ذلك الظاهر المتشـدد، هو الذى يميـز كل ضروب النشاط التأملى فى الإسلام، حيث ظل الإسلام بناء ديناميًا حيًا)[4].

---

(1) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 259.
(2) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 6.
(3) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 15.
(4) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 195.

ويتحـدث عن تعاون جميع أجـيال الأمة، وجـميع أهل الاختصـاص فيها فى خـدمة الإسلام، واستنباط حقـائقه ونظمه، فيقول: (ومظهر آخر بارز يمـيز التشريع الإسلامى، وهو أن مهمة التـعريف والتصنيف استغرقت، خلال القـرون الثلاثة الأولى، الطاقات الفكرية لدى الأمة الإسلاميـة، إلى حد لا نظير له. إذ لم يكن المسهمـون فى هذا الميدان هم علماء الكلام والمحدثون والإداريون فحسب، بل إن علماء اللغة والمؤرخـين والأدباء أسهموا بأنصبة فى هذه المجموعة من المؤلفات التشريعية، وفى مناقشة القضايا التشريعية، وقلما تغلغل الشرع فى حياة أمة وفى فكرها هذا التغلغل العميق مثلما فعل فى الأدوار الأولى من المدنية الإسلامية)[1].

ويتحدث عن أعماق التوحيد الـتى نادى بها القرآن، والتى تنفى كل الوسائط، فيقول: (إن المبدأ المحورى فى القرآن هو - يقينًا - مبدأ وحدة لا هوادة فيها، وهو يرفض فكرة وجود وسطاء بين الله والإنسان، على الأقل فى هذا العالم. فالإسـلام حين وضع الإنسان أمام الله دون عناصر وسائطيـة روحية أكد بالضرورة مدى التـباين بين الله والإنسان. وعلى الرغم من وجود آيات قرآنية ذات حدس روحى، فإن العنصر العـقائدى المستمد من القرآن لا يستطيع إلا أن يصدر من افتراض التعارض بين الألوهية والإنسانية ومن تساوى الناس جميعًا (وهذه نتيجة ضرورية للموقف الأول) فى علاقتهم بالله من حيث إنهم مخلوقات. وفى هذه المفارقة الكلية يقع التوتر الدينى الذى يمثل - فى الواقع - المظهر الأصيل المميز للإسلام)[2].

ويتحدث عن التسامح الإسلامى، فيقـول: (جدير بالقول أن الإسلام.. يتمتع بخاصة جوهرية هامة، وهى تسامحه فى وجود وجهات مختلفة ضمن الطائفة، بل إنه يستمد من ذلك مجـده وفخره. وأبرز مثل على هذا التـسامح هو وجود المدارس المذهبـية باسم فقهـاء القرنين الثانى والثالث الهجريين)[3].

ويتحدث عن الانتشار المعـجز للإسلام، فيقول: (انبثق الإسلام انبثاقًـا مفاجئًا فى بلاد العرب، وأقام بسرعة تكاد تعزّ على التصديق، فى أقل من قرن من الزمن، إمبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطئ البحر المتوسط الجنوبية والغربية)[4].

ويتحدث عن إنسانية الفتوحات الإسلامية، فيقول: (لقد تمت الفتوحات الإسلامية دون أن تزعزع اقتصاديات البلاد المفتوحة، وعلى أثرها أقام الفاتحون توًا سلطة مركزية منظمة)[5].

(1) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 263.
(2) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 270.
(3) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 40.
(4) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 4.
(5) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 8.

ويقول: (في التاريخ أمثلة على توسّع الدول لا سبيل إلى تعليلها، لكن ليست هناك سوى أمثلة قليلة جدًا على دولة تكونت على هذا النحو واستطاعت أن تبلغ ما بلغته الدولة الإسلامية من استمرار واستقرار نسبيين)[1].

ويتحدث عن الأسرار التي وقفت وراء الحيوية التي انتشر بها الإسلام، وتمت بها الفتوحات، فيقول: (لنأخذ بعين الاعتبار المظاهر الخارجية للحيوية التي برهن عليها الإسلام خلال الحقبة التالية من الزمن مثل قيام الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأدنى وإمبراطورية المغول في الهند.. ازدهار إندونيسيا، ماليزيا، ازدياد عدد المسلمين في الصين، طرد الإسبانيين والبرتغاليين من مراكش، امتداد المنطقة الإسلامية في أفريقيا الغربية والشرقية. كان من السهل واليسير على المؤرخين القدامى أن ينظروا إلى جميع هذه الأحداث أو أغلبها نظرتهم إلى حركات عسكرية صرفة. ولا يمكن بالطبع أن يغيب عن الذهن هذا العنصر المتعلق بالقوة العسكرية الغازية التي وضعها الإسلام بتلك الفترة. ومع ذلك فإن أية عقيدة غازية تنمو وتمتد هي عقيدة حية. إنها تبين منذ ذلك الوقت أنها أكثر من مجموعة من المعتقدات والتطبيقات الجافة. نحن كذلك نعرف في الوقت الحاضر أكثر من أي وقت مضى الإيمان الذي تلعبه هذه العقيدة الحية التي مهدت الطريق بل كل شيء لهذه القوة العسكرية وساعدتها بعد ذلك على التشكل وتكييف التركيب الداخلي وتنظيم الإمبراطورية، كما ساعدت على ترميم التخريبات الناتجة عن الحروب، وإعادة تنظيم التركيب الاجتماعي)[2].

ويتحدث عن قدرة الإسلام على التماشي مع الطبائع والأعراق والعصور المختلفة، فيقول: (ظهرت للإسلام ملامح مختلفة في مختلف الأزمنة والأمكنة بتأثير العوامل المحلية الجغرافية والاجتماعية والسياسية فيه، وبقوة استجابته لها. ولنمثل على ذلك بما تم في الغرب. أعني في شمال غربي أفريقيا وفي إسبانيا أثناء العصور الوسطى. ففي تلك المناطق اتخذ الإسلام لنفسه خصائص فارقة على الرغم من الصلة الوثيقة بين تلك المناطق وقلب العالم الإسلامي في غرب آسيا، وعلى الرغم من أن الثقافة فيها كانت فرعًا من الثقافة السائدة في قلب العالم الإسلامي. وكان لبعض تلك الخصائص الفارقة أثرها في الإسلام نفسه في غربي آسيا. ومثل هذا نفسه تم أيضًا في مناطق أخرى جغرافية واسعة قليلة الاتصال بغيرها كشبه القارة الهندية وإندونيسيا وأراضي السهوب الممتدة في جنوبي روسيا إلى تخوم الصين. ففي تلك المناطق أنتجت العوامل المشابهة أشكالاً وصوراً مميزة فارقة. على أن هذه المناطق تحتفظ مجتمعة ومنفردة، بطابع إسلامي معين مشترك يمكن تبيّنه بسهولة)[3].

---

(1) دراسات في حضارة الإسلام، ص 45.

(2) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص 28 - 29.

(3) دراسات في حضارة الإسلام، ص 3 - 4.

ويتحدث عن السبق الإسلامى للمنهج التجريبى، فيقول: (إن العرب والمسلمين بصورة عامة اضطروا إلى الحذر من المفاهيم العامة الشاملة المجردة مثل مفهوم (قانون الطبيعة) أو (العدالة) المثالى وقد اتهموا هذه المفاهيم (وهم فى ذلك على صواب) بأنها مستمدة من (الفلسفة الازدواجية) أو من (المادية) التى ترتكز على طرائق مغلوطة فى التفكير لا ينتج عنها سوى قليل من الخير وكثير من الشر. . وعلى الرغم من أن أنصار المدرسة الإسلامية اعتبروا بعض العلوم مساعدة مفيدة، كالمنطق والرياضيات، وتبنوا بهذا المقدار طريقة التفكير (العلمى) وشجعوه، فإنهم تمسكوا بإعطائها دوراً ثانويًا. وإذا أتيح لى أن أستطرد فى القول فإنى أقول بأن تمركز التفكير العربى حول الأحداث الفردية حمل العلماء المسلمين إلى توسيع الطريقة التجريبية العلمية إلى أبعد مما فعل أسلافهم اليونان وعلماء الإسكندرية. . وأعتقد أن الجميع متفقون بصورة عامة على الاعتراف بأن الملحوظات التفصيلية للباحثين المسلمين أسهمت ماديًا فى تقدم المعرفة العلمية، وأنهم أصحاب الفضل فى إدخال أو إعادة اعتبار الطريقة التجريبية فى أوروبا خلال القرون الوسطى)[1].

ويتحدث عن تكريم المصادر الأصلية للإسلام للمرأة، فيقول: (حين ننتهى من حذف الانحرافات الفقهية المتأخرة وشجبها، تعود تعاليم القرآن والرسول الأصلية إلى الظهور فى كل نقائها ورفعتها وعدالتها المتساوية إزاء الرجل والمرأة معًا. عندئذ نجد أن هذه التعاليم تعود إلى المبادئ العامة وتحدد الفكرة التى يجب أن يوضع ويطبق القانون بمقتضاها أكثر من أن تعين صيغًا حقوقية حاسمة. وهذه الفكرة، فيما يخص المرأة، لا يمكنها إلا أن تكون نابضة بالو[...] الإنسانى وبشعور الاحترام لشخصيتها والرغبة فى محو الأضرار التى ألحقها بالمرأة سير المجتمع سيراً قاسيًا وناقصًا فيما مضى. وبعدما ننتهى من استخلاص هذه الفكرة وهضمها، يمكننا أن نفهم التشريع الخاص بالقرآن فهمًا صحيحًا. حالما نتوصل إلى ذلك نرى أن الموقف الإسلامى تجاه المرأة، والطريقة الإسلامية فى فهم شخصيتها ونظامها الاجتماعى، وطريقة حماية التشريع الإسلامى لها، تفوق كثيراً ما هى عليه فى الديانات الأخرى)[2].

ويتحدث عن النظام السياسى الإسلامى، وضرورته، فيقول: (إذن فإذا قام أحد ينكر الشريعة من حيث صلاحيتها كان عمله هذا كفراً ومروقًا، وهذه حقيقة تفسر الهزة التى شعر بها المسلمون فى جميع أرجاء العالم، عندما أقدمت الجمهورية التركية على إلغاء الشريعة جملة. ولعلنى غير مخطئ فى اعتقادى، وإن كان اعتقادى صادراً عن التصور والحدس، أن احترام الشريعة لا يزال لب التفكير الاجتماعى الإسلامى، وأن الإبقاء على الشريعة يرتبط به

(1) الاتجاهات الحديثة فى الإسلام، ص 34-35.

(2) الاتجاهات الحديثة فى الإسلام، ص 123.

بقاء الإسلام أو زواله من حيث هو نظام مؤصل. أما الاحترام الذى أتحدث عنه فليس من الضرورى أن يعنى التقدير لكل تفسير ومبنى من تفسيرات القرون الوسطى ومبانيها)[1].

ويتحدث عن اهتمام المسلمين بشريعتهم رغم تطاول العصور، فيقول: (ليس بين البلاد الإسلامية بلد أعلن عن رغبته الصريحة فى الاستغراب أو (التغرّب) باستثناء البلاد التركية، ولكن البلاد التركية أيضًا لا تعلن هذه الرغبة اليوم بتلك الثقة التى أعربت عنها منذ عشرين سنة[2]، وفيما عدا هذا الاستثناء الضعيف يغلب على أبناء العصر من المسلمين الذين ينقمون على مساوئ العصر الحاضر أن يحملوا الغرب أوزار هذه المساوئ ولا يعلّقوا آمالهم فى الإصلاح بمشابهة الغرب والاقتداء بأممه فى جملة أحوالها)[3].

**برنارد لويس:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (برنارد لويس)[4]، فصحت:

(1) دراسات فى حضارة الإسلام، ص 265 - 266.

(2) ويوشك أن تلغى تركيا العلمانية، وتقبل على الإسلام كما كانت، وما ذلك ببعيد.

(3) الشرق الأدنى الإسلامى (بإشراف جامعة تورنتو)، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 61.

(4) برنارد لويس B. Lewis ولد عام 1916، تلقى تعليمه الأول فى كلية ولسون والمدرسة المهنية حيث أكمل دراسته الثانوية، ولا تذكر المراجع أية معلومات عن تلقيه تعليمًا دينيًا يهوديًا خاصًا. التحق بجامعة لندن لدراسة التاريخ ثم انتقل إلى فرنسا للحصول على دبلوم الدراسات السامية (1937)متلمذا على المستشرق الفرنسى ماسنيون وغيره. ثم عاد إلى جامعة لندن: مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية وحصل على الدكتوراه عام 1939 عن رسالته القصيرة حول أصول الإسماعيلية.

استدعى فى أثناء الحرب العالمية الثانية لأداء الخدمة العسكرية وأعيرت خدماته لوزارة الخارجية من 1941حتى عام 1945. عاد بعد الحرب إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية لتدريس التاريخ الإسلامى وأصبح أستاذ كرسى التاريخ الإسلامى عام 1949 ثم أصبح رئيسًا لقسم التاريخ عام 1957، وظل رئيسًا لهذا القسم حتى انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1974.

دُعِى للعمل أستاذ زائرًا فى العديد من الجامعات الأمريكية والأوربية منها جامعة كولمبيا وجامعة انديانا وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس وجامعة أكلاهوما وجامعة برنستون التى انتقل إليها والعمل فيها من 1974حتى تقاعده عام 1986. وهنا عيّن مديرًا مشاركًا لمعهد أنانبرج اليهودى للدراسات اليهودية والشرق أوسطية فى مدينة فيلاديلفيا بولاية بنسلفانيا.

يعد لويس من أغزر المستشرقين إنتاجًا، وقد تنوعت اهتماماته من التاريخ الإسلامى حيث كتب عن الإسماعيلية وعن الحشاشين وعن الطوائف المختلفة فى المجتمع الإسلامى،إلى الحديث عن المجتمع الإسلامى ولكنه فى السنوات الأخيرة قبل تقاعده بقليل بدأ الاهتمام بقضايا العالم العربى والإسلامى المعاصرة فكتب عن الحركات الإسلامية (الأصولية) وعن الإسلام والديموقراطية.

قدم خدماته واستشاراته لكل من الحكومة البريطانية التى كلفته القيام برحلة إلى العديد من الجامعات الأمريكية وإلقاء الأحاديث الإذاعية والتلفازية عام 1954، كما قدم استشاراته للكونجرس الأمريكى أكثر من مرة. وفى إحدى المرات (8مارس 1974) ألقى محاضرة فى أعضاء لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكى حول قضية الشرق الأوسط ولأهمية هذه المحاضرة نشرتها وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد أسبوعين من إلقائها. (نقلاً عن رسالة الدكتوراه التى أعدها د.مازن مطبقانى، بعنوان (منهج المستشرق برنارد لويس فى دراسة الاتجاهات الفكرية فى التاريخ الإسلامى)، ونشرت لدى مكتبة الملك فهد=

كيف تضع هذا المستشرق الحاقد فى هذا المحل. . ألا تعلم أنه يهودى، وأنه يعرض الإسلام بطريقة ترعب جمهوره الغربى، فيجعله يرفض أن يتنازل قدر بوصة للإسلام؟

قال: ربما تكون صادقا فيما ذكرت. . ولكنى عندما جمعت هذا الدفتر لم يكن فى عقلى إلا هدف واحد.

قلت: ما هو؟

قال: الهدف الذى ذكره لى معلم السلام فى لقائى به فى أول هذه الرحلة. . ألا تذكر ذلك؟

قلت: بلى. . لقد أوصاك بأن تبحث عن الكلمات الصادقة، ولا يهمك من أى وعاء خرجت.

قال: أجل. . فمن الحق ما شهدت به الأعداء.

قلت: ولكن. . هل يمكن أن يقول مثل هذا كلاما صادقا؟

قال: كل إنسان لابد أن يعود إلى فطرته فى لحظة من اللحظات لينطق بالصدق. . ومن الخلق من يستمر على ذلك. . ومن الخلق من تأسره الشياطين.

قلت: صدقت. . فحدثنى عن شهادات هذا الرجل.

قال: من ذلك حديثه عن نظام الإسلام الشامل فى قوله: (لم تنشأ أمام محمد وأصحابه مشكلة الاختيار بين الله وقيصر، أعنى ذلك الفخ الذى لم يقع المسيح به وإن وقع فى حبائله الكثير من المسيحيين. ففى الإسلام لا يوجد (قيصر) بل يوجد الله وحده، وكان محمد رسوله الذى يعلم ويحكم باسمه. فكانت السلطة نفسها، الصادرة عن المصدر نفسه، تدعم الرسول فى كلتا المهمتين (مهمة الدين والدولة) وكان الوحى ذاته يقدم محتوى المهمة الأولى وأساس الثانية. وعندما توفى محمد كانت مهمته الروحية والنبوية - وهى نشر رسالة الله - قد تمت، وبقى عمله الدينى، ومعه العمل السياسى. وكان قوام هذا العمل هو نشر شريعة الله بين البشر وذلك عن طريق توسيع عضوية وسلطة الجماعة التى تعترف بذلك القانون وتؤيده[1]، وكان لابد من وكيل أو خلف للرسول لقيادة هذه الجماعة. وتجمع الكلمة العربية (الخليفة) بين المعنيين)[2].

ويتحدث عن نظام الحكم فى الإسلام ووظيفة الخليفة، فيقول: (أصبح من التجديدات الشائعة حديثًا التمييز بين (نظام الحكم) و(النظام الدينى) فى الإسلام. ولكن مهما كان مدى

---

=الوطنية بالرياض عام 1416بعنوان (الاستشراق والاتجاهات الفكرية فى التاريخ الإسلامى)، ص 69 وما بعدها).

(1) والقصد من ذلك التحرير لا الاستعمار أو السيطرة والاستبداد، انظر رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص).

(2) تراث الإسلام، (تصنيف شاخت وبوزورث) 1 / 230.

انطباق هذا التمييز على الإمبراطورية الإسلامية اللاحقة - وحتى هذا كان موضع تساؤل - فإنه لم يكن على الإطلاق منطبقًا على صدر الإسلام. ففى عـهد الخلفاء الراشدين نجد أن الحكومة هى المؤسسة الدينية ولا يوجد غيرها. . والواقع أنـه لم يكن يوجد فى المفهوم الإسلامى مقابل حقيـقى لمثل تلك الأضداد: دينى ودنيوى، روحى وزمنى، كهنوتى وعلمـانى، وحتى المقدس المدنّس، ولم يظهر مثل هذا التضاد إلا بعد وقت طويل جدًا، حيث استحدثت كلمات جديدة للتعبير عن مفاهيم جديدة، أمـا فى العهد الأول للإسلام فلم تكن الثنائية التى تدل عليها تلك الكلمات المعروفة لذا لم يكن هنالك من كلمات للتعبـير عنها. ولقد قيل إن الخليفة يجمع فى آن واحد بين شخصيتى البابا والإمبراطـور، على أن التشبيه مضلّل. فلم تكن للخليفة وظائف بابوية أو حتى كهنـوتية، ولـم يكن يتلقى التعليم الرسمى لرجـال الدين من العلماء. ولم يكن واجبه عـرض الدين ولا تفسيره بل كان واجـبه هو دعمه وحمايـته، وإيجاد الظروف التى من شأنها أن تمكن الناس من الـعيش حياة إسلاميـة صالحة فى هذه الدنيا وبذلك يعـدون أنفسهم ضمن حدود الإسلام، وأن يدافع عن هذه الحدود ضد الهجمات الخارجية. وكان من واجبه - ما أمكنه ذلك - توسيع تلك الحدود، حتى يصل العالم كله، عندما يحين الوقت، إلى اعتناق الإسلام)[1].

ويتحدث عن صـمود الإسلام، فيـقول: (رغم زوال الخلافة وتجزئـة عالم الإسلام إلى عدد كبيـر من الكيانات السياسية المستـقلة المنفصلة والمتحاربة فى كثير من الأحـيان، فقد بقى الشعور بالهوية والتماسك، وبأن المسلمين (أمة واحدة من دون الناس) قويًا وفعالاً)[2].

ويتحدث عن قدرة الإسلام على الانتشار، والطرق التى انتشر بها، فيقول: (الواقع أن الذى غزا أتراك آسيـا الوسطى، لم يكن المسلمين بل كان الإسـلام دانه. فقد كان المتـصرفون والمبشرون المتـجولون. . يتنقلون بين القبائل التى لم يتم إخـضاعها فيمـا وراء النهر، ينشرون الدين البسيط، دين الكفاح الذى ازداد على الحدود بين الإسلام والوثنية)[3].

ويتحدث عن سـماحة المسلمين، فـيقول: (هروب اليهـود الإسبان إلى تركيـا معروف للجميع، لكنه ليس الحـالة الوحيدة على الإطلاق. وعندما انتهى الحكم العـثمانى فى أوروبا، كانت الأمم المسيحية التى حكمها العثمـانيون خلال عدة قرون لا تزال هناك، بلغاتها وثقافاتها ودياناتها - إلى حد ما - بمؤسساتها. . أما إسبانيا وصقلية فليس فيها اليوم مـسلمون أو ناطقون باللغة العربية)[4].

---

(1) تراث الإسلام: 1 / 232 - 233.

(2) تراث الإسلام: 1 / 252.

(3) تراث الإسلام: 1 / 279.

(4) تراث الإسلام: 1 / 286 - 287.

ويقول: (لم يكن اللاجئون المسلمون واليهود، ولا المسيحيون من ذوى الآراء الدينية والسياسية المنشقة، هم الأوربيين الوحيدين الذين استفادوا من الحكم العثمانى، إذ إن الفلاحين فى المناطق التى غزيت قد تمتعوا - بدورهم - بتحسّن كبير فى أوضاعهم. فقد جلبت الحكومة الإمبراطورية العثمانية الوحدة والأمن مكان الصراع والفوضى.. وأصبح الفلاحون يتمتعون بقدر من الحرية فى حقولهم أكبر بكثير من ذى قبل، وكانت الضرائب التى يدفعونها تقدّر بصورة مخففة وتجمع بطريقة إنسانية، وذلك بالمقارنة بما كان يجرى فى أنظمة الحكم السابقة والمجاورة.. فحتى القرن التاسع عشر كان الأوربيون الذين يزورون البلقان يعلقون على أوضاع فلاحى البلقان الحسنة وعلى رضاهم عن هذه الأوضاع، وكانوا يجدونه أفضل من الأوضاع السائدة فى بعض أنحاء أوروبا المسيحية. وكان الفرق أوضح بكثير فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فى عصر حركات التمرد الكبيرة التى كان يقوم بها الفلاحون فى أوروبا. وحتى عملية الداوشرمة Deushrime وهى عملية الجمع القسرى للأولاد من بين الفلاحين المسيحيين من أجل تجنيدهم فى الجيش العثمانى وفى خدمة الدولة لم تخل من نواح إيجابية. فبهذه الوسيلة كان أقل القرويين شأنًا يستطيع أن يرتقى إلى أعلى المراكز وأكثرها نفوذًا، وقد ارتقى الكثيرون بالفعل وأحضروا أسرهم معهم، وهو شكل من أشكال المرونة الاجتماعية كان مستحيلاً فى المجتمعات الأرستقراطية للعالم المسيحى المعاصر للعثمانيين)[1].

ويتحدث عن صمود الإسلام، فيقول: (إن الإسلام التركى نفسه الذى أظهر حديثًا، برغم فترة من الخفوت قوة متجددة فى تركية، لا يزال بوضوح عنصرًا رئيسًا، إن لم يكن الرئيس الوحيد فى الوعى الجماعى لنسبة عظيمة من الأمة التركية)[2].

ويقول: (إن الأفكار التى يعبر عنها بالإنجليزية والفرنسية للأجانب ليست لها علاقة بالحياة الحقيقية للبلاد الإسلامية. ومن جهة أخرى حينما تتجه العواطف الشعبية لمكافحة الكفار، كما وقع فى منطقة القنال 1951 - 1952، تلاقى استجابة قوية)[3].

**روم لاندو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (روم لاندو)[4]، فسألت

---

(1) تراث الإسلام: 1 / 287 - 288.

(2) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص 465.

(3) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، ص 520.

(4) روم لاندو R. Landau. نحّات وناقد فنى إنجليزى، زار زعماء الدين فى الشرق الأدنى (1937)، وحاضر فى عدد من جامعات الولايات المتحدة (1952-1957)، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمالى أفريقيا فى المجمع الأمريكى للدراسات الأسيوية فى سان فرنسيسكو (1953).

من آثاره: (الله ومغامراتى) (1935)، (بحث عن الغد) (1938)، (سلم الرسل) (1939)، (دعوة إلى المغرب) (1950)، (سلطان المغرب) (1951)، (فرنسا والعرب) (19539، (الفن العربى) (1955).. وغيرها

البابا عنه، فقال: هذا مستشرق إنجليزى جمع بين الفن والاهتمام بالشرق، وقد كان له شهادات قيمة تمتلئ صدقا وإخلاصا، سأذكر لك بعضها.

منها شهادته عن جمال الأسلوب القرآنى إلى درجة استحالة وجود ترجمة كاملة معبرة عن القرآن تعبيرا حقيقيا، قال: (بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية، إلى لغة أخرى، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئًا من روح الوحى المحمدى. والواقع أن كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض. ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن فى شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقى الآسر، على الوجه الذى يرتلها به المسلم. وليس يستطيع الغربى أن يدرك شيئًا من روعة كلمات القرآن وقوّتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية)[1].

ومنها شهادته عن حفظ الله للقرآن، فلم يصبه أى تحريف، قال: (كلف كاتب الوحى، زيد بن ثابت، جمع الآيات القرآنية فى شكل كتاب وكان أبو بكر قد أشرف على هذه المهمة. وفيما بعد، إثر جهد مستأنف بذل بأمر من الخليفة عثمان اتخذ القرآن شكله التشريعى النهائى الذى وصل إلينا سليمًا لم يطرأ عليه أى تحريف[2])[3].

ومنها شهادته عن التأثير الوجدانى للقرآن، قال: (إن بين آيات قصار السور ترابطًا باهرًا له تأثيره الوجدانى برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامى. وفى الحق إن سماع السور تتلى فى الأصل العربى، كثيرًا ما يخلف فى نفس المرء تأثيراً بليغًا. لقد أريد بالقرآن.. أن يتلى فى صوت جهير. ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلاً لكى يحكم عليه حكمًا عادلاً ويقدره حق قدره.. وبوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزاً لا سبيل إلى محاكاته، ولم يكن ثمة، بكل بساطة، أيما شىء من مثله)[4].

ومنها شهاداته عن رسول الله ﷺ وصفاته التى لا تدل إلا على نبوته، قال: (لم ينسب محمد فى أيّما يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى أعجوبية. على العكس، لقد كان حريصًا على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحى للناس)[5].

---

(1) الإسلام والعرب، ص 36 - 37.

(2) القرآن جمع فى عهد رسول الله ﷺ كاملا، والجهد الذى قام به الخلفاء الراشدون هو جزء من الحفظ الذى قامت به الأمة طوال تاريخها، انظر: رسالة (الكلمات المقدسة) فصل (الحفظ) من هذه السلسلة.

(3) الإسلام والعرب، ص 296.

(4) الإسلام والعرب، ص 296 - 297.

(5) الإسلام والعرب، ص 32.

وقال: (كان محمـد تقيا بالفطرة، وكان من غير ريب مهيّـأ لحمل رسالة الإسلام التى تلقاها. . وبالإضـافة إلى طبيعـته الروحيـة، كان فى سرّه وجهـره رجلاً عمليًا عـرف مواطن الضعف ومواطن القوة فى الخلق العربى، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغى أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطًا وإلى المدنيين الوثنيين، وفى آن معًا، على نحو تدريجى. وفى الوقت نفـسه كان مـحمـد يملك إيمانًا لا يليـن بفكرة الإله الواحد. . وعـزمًا راسخًـا على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التى كانت سائدة بين الوثنيين العرب)[1].

وقال: (كانت مهمة محمد هائلة. كانت مهمة ليس فى ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية (وهو الوصف الذى رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكريـن الرسول العربى) أن يرجو النجاح فى تحقيقهـا بمجهوده الشخصى، إن الإخلاص الذى تكشّف عنه محـمد فى أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمـان كامل فى ما أنزل عليه من وحى، واختبـار الأجيال والقرون، كل ذلك يجعل من غير المعقول اتهام محمـد بأىّ ضرب من الخداع المتعمد. ولم يعرف التاريخ قط أى تلفيق (دينى) متعمد استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب، فى كل عام، أتباعًا جددًا. وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحدًا على محتال كان لرسالته الفضل فى خلق إمبراطورية من إمبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلاً)[2].

وتحدث عن الثمار العظيـمة التى حققها محـمد ﷺ، فقال: (كانت مهمـة محمد هى القضاء على النظام القبلى القوى الذى كان مـسؤولاً عن اندلاع نار الحرب، على نحو موصول تقريبًا، بين العـرب، والاستعاضة عنه بولاء لـله يسمو على جميع الروابط الأسـرية والأحقاد الصغيرة. كان علـيه أن يعطى الناس قانونًا كليًا يستطيع حتى العرب المتـمردون قبوله والإذعان له، وكان عليـه أن يفرض الانضـباط على مجـتمع عـاش على العنف القبلى والثـأر الدموى لضـروب من المظالم بعضـها واقـعى وبعضـها مـتوهم. كـان عليه أن يحلّ الإنسـانية مـحل الوحشية، والنظام محل الفوضى، والعدالة محل القوة الخالصة)[3].

وقال: (عندمـا توفى محمـد عام 632م كان فى نجـاح الإسلام ما زكى إيمان خـديجة رضى الله عنها بالوحى الذى تلقاه زوجهـا، وكانت العقيدة التوحيدية الجـديدة فى سبيلها إلى القيام بفتح روحى ومادى لا يضارعه أى فتح فى التاريخ البشرى)[4].

---

(1) الإسلام والعرب، ص 33.
(1) الإسلام والعرب، ص 33 – 34.
(2) الإسلام والعرب، ص 34.
(4) الإسلام والعرب، ص 35.

وتحدث عن الثمار السلوكية لشعيرة الصيام، فقال: (حين يكون صيام رمضان في البلاد العربية الحارة صيفًا، يصبح الامتناع عن الطعام والشراب خلال ساعات النهار الطويلة امتحانًا حقيقيًا للإيمان. . إن الصوم ولّد ضبطًا ذاتيًا عند شعب كان بطبيعته انفعاليًا شديد العناد)[1].

وقارن بين السلوك الإسلامي المبنى على مراعاة الفطرة، والسلوك المسيحى القائم على تعذيب الجسد، فقال: (إن التوكيد النصرانى التاريخى على الألم وإماتة الجسد يكاد يكون مفقودًا بالكلية فى الإسلام. والثنائية المسيحية، ثنائية الجسد والروح، هى فى نظر المسلم شىء غير معقول، أو فى أحسن الأحوال شىء غير واقعى)[2].

وتحدث عن مرونة الشريعة الإسلامية، فقال: (الإسلام فى أساسه دين عملى. فالقواعد والأنظمة التى ينصّ عليها القرآن ليست جامدة، ولقد كيّفت وفقًا لما قضت به الأحوال والظروف. وهذه السياسة إنما يؤيدها كثير من المسلمين عندما يستشهدون بالآية القرآنية التى مفادها أن الله يريد أن ييسّر السبيل للناس. إن المسلم ليجد أن فى ميسوره التزام أحكام دينه، وهكذا ينعم بالأمن وطمأنينة النفس . إن هدف النصرانية الممعن فى الروحية، ذلك الهدف الذى هو الانتصار على ضعف الجسد، يكاد يكون متعذر التحقيق فى هذه الحياة، ولولا محبة الله إذن لكان خليقًا بحياة المسيحى أن تكون سلسلة من ضروب الإخفاق والخيبة التى لا سبيل إلى التغلب عليها. إن فى إمكان المسلم أن يبلغ مثل دينه الأعلى هنا على سطح الأرض، ولكن النصرانى يتطلع إلى الاتحاد بالمسيح فى المستقبل بوصفه غاية الغايات فى حياته الدينية)[3].

وتحدث عن الموقف الإيجابى للإسلام من العلم، فقال: (فى الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقًا معاكسة، لا، والواقع أن الأول كان باعثًا من البواعث الرئيسية للثانى)[4].

وتحدث عن التكامل بين علوم الدين وعلوم الدنيا فى الإسلام، فقال: (العلم الإسلامى لم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففى الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية) ولكن لتفسيرها عقليًا، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها. . إن المسلمين وفّقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة فى مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه، وأنهم وجدوا فى ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط)[5].

---

(1) الإسلام والعرب، ص 49.

(2) الإسلام والعرب، ص 51.

(3) الإسلام والعرب، ص 52.

(4) الإسلام والعرب، ص 246.

(5) الإسلام والعرب، ص 280 - 281.

وتحدث عن الفتـوحات الإسلاميـة مقارنا لها بما كـان يحصل فى ذلك الزمن من أنواع الاستعمار، فـقال: (فى عصر كان (السلب والنهب) هو القاعدة التى يتبعـها كل جيش منتصر لدى دخوله مدينـة ما، يبدو العهد الذى أعطاه خـالد بن الوليد لأهل دمشق إنسـانيًا إلى أبعد الحدود ومعتدلاً إلى أبعد الحدود. ويبدو جليًا، فى الواقع، أن الكتـائب العربية اعتبرت نفسها محـررة للشـعب المضطهد وحـاملة رسالة الإسـلام إليه فى آن مـعًا. وقـد اتخذ مـن شروط الاستـسلام هذه نموذج احتذى فى ما بعد عند فتح المدن السـورية والفلسطينية الأخرى)[1].

وتحدث عن بشاعة الحروب الصليـبية مقارنا لها بسماحة الإسلام، فـقال: (إذا اعتبرت القرون الوسطى عصر إيمان وحرب فالحرب الصليبـية هى أكمل تعبير عنها وأشنعه. والذى لا ريب فيه أن العقل الأوروبى الوسيطى Medieval قد اعتبر الحروب الصليـبية حروبًا مقدسة من أجل قضية مقدسة. ففى الإسلام لم يعلن أى (جهاد) عام ضد الصليبيين، ولم يوجّه الخليفة، دفّة هذه الحـروب. أما فى الغرب فقـد فنى البابا فى تلك القضـية واعتبـرها قضيتـه الذاتية. والواقع أن الحروب الصليبية، كحركة ديـنية كشفت - من طريق التعصب والتطرف الدينيين - عن أسوأ مظاهر النصرانية الوسـيطية كلها. لقد نجحت الحروب المقدسة فى خـلق شقة واسعة تفصل مـا بين الشرق والغرب بدلاً من أن يعيـد تدعيم الجسر الرابط مـا بين ثقافتين تجـمع ما بينهما فى نهاية المطاف مفاهيم إيمانية مشتركة، ومصالح ثقافية تمتنع على الإحصاء)[2].

وتحدث عن سـماحة الإسلام مـقارنا إياه بالمسيحـية، قال: (على نقيض الإمـبراطورية النصرانية التى حاولت أن تفرض المسيحية على جميع رعاياها فرضًا، اعترف العرب بالأقليات الدينية وقبلوا بوجودها. كان النصارى واليهـود والزرادشتيون يعرفون عندهم بـ (أهل الذمة)، أو الشعوب المتمتـعة بالحماية. لقد ضمنت حرية العـبادة لهم من طريق الجزية. . التى أمست تدفع بدلاً من الخدمة العسكرية. وكانت هذه الضريبة مضافـًا إليها الخراج، أقل فى مجموعها من الضرائب التى كـانت مفروضـة فى ظل الحكم البيـزنطى. كانت كل فرقـة من الفرق التى تعامل كملّة، أى كطائفة نـصف مستقلة استقلالاً ذاتيًا ضـمن الدولة. وكانت كل ملّة تخضع لرئيسـها الدينى)[3].

وقال: (كان الإسبان قـد نعموا، فى ظل الحكم الإسلامى، بمعاملة متسـامحة تحررية، ولكنهم لم يكونوا الآن بعد انتـصارهم النهائى فى وضع نفـسى يساعدهم على تبنى السـياسة المتدينة نفـسها فراحوا يحشـون، فى حرارة دينية متـعصبة، بالعهـود الغليظة التى أخذوا على أنفسـهم باحترام الدين الإسـلامى والممتلكات الإسـلامية. فإذا بـهم يحرقون الكتب العـربية

(1) الإسلام والعرب، ص 60.

(2) الإسلام والعرب، ص 115.

(3) الإسلام والعرب، ص 119.

ويلقـون معظـم الآثار التى كانت عـنوان تفوق الثـقـافة الإسـلامـية. وفى عـام 1499م دشن الكاردينال كزميتز برنامـجًا للتنصير الإجبـارى شعاره: إما المعمودية وإمـا الإخراج من البلاد. ونشطت محاكم التفتـيش نشاطًا رهيبًا. وأكره كثير من المسلمين واليهـود على مغادرة إسبانيا. وعام 1556م أجبر الملك فـيليب الثانى من بقى من المسلمين فى البلاد على التـخلى عن لغتهم ودينهم ومؤسـسـاتهم. حـتى إذا كانت سنة 1609 أمضى مـرسوم ملكى نهائـى إلى ترحيلهم ترحيلاً كـاملاً. ودوّن المؤرخون عدد المسلمـين الذين أبعدوا أو قتلوا، ما بين سـقوط غرناطة ومطلع القرن السـابع عشر، بثلاثة ملايين ونيف)[1].

وتحدث عن الأحقاد الصليبية التى آثرت المغـول على المسلمين، فقال: (من وجهة نظر منطقية وعقلانية نستطيع أن نفترض أنه كـان خليقًا بالنصارى أن يتحالفوا مع المسلمين النّزاعين إلى الوفاء بالمعاهدات لكى يدفعوا عن الإنسانيـة بلاء المغول. والواقع أنه كان فى ميسورهم أن ينهجوا هذا النهج، ومع ذلك فنحن نجد أن ما حدث كـان هو العكس تقريبًا. فقد وجه زعيم العالم المسيـحى، البابا أنوسنت الرابع، بعثـتين إلى منغوليا. وكان القـديس لويس الورع، قد أبى على نحو موصول أن يتفاوض مع المسلمين بأية حال، ومع ذلك فإنه لم يجد أية غضاضة على معتقداته الدينية أن يوجه موفدين لمفاوضات المغول الوثنى)[2].

وتحدث عن آثار الحضارة الإسلاميـة على العالم، فقال: (على الرغم من أن أثر الشرق الأدنى اليومى بعيد المدى إلى حد بالغ، فالواقع أن الإسلام على العموم، والحضارة الإسلامية (أو العربية) علـى الخصوص، يتمتـعان بأهمية أعظم بكثـير. إن الحضارة الغـربية - ابتداءً من الفلـسفة والرياضيـات إلى الطب والزراعة - مدينة لتلك الحضارة بشىء كثيـر إلى درجة نعجز معها عن فهـم الأولى (الغـربية) إذا لم تتمّ لنا معرفة ما بالأخرى (الإسلامية أو العربية))[3].

وتحدث عن بعض مظاهر الحضارة الإسلامية فى الأنـدلس مقارنا لها بما كان عليه الحال فى أوروبا، فقال: (بينما كانت سائر بلدان أوروبا تتـمرغ فى القذر والحطة نعمت إسبانيا بمدن نظيفة منظمة ذات شوارع معبدة ومضاءة. وكان فى ميسور قرطبة وحدها أن تعتز بنصف مليون من السكان، وسبعمائة مسجد، وثلاثمائة حمام عمومى، وسبعين مكتبة عامة، وعدد كبير من دكاكين الورّاقين (المكتبات التجارية))[4].

ويتحدث بإعجاب عن السرعة التى تكاملت فيها الحضارة الإسلامية مقارنا لها بالحضارة الغربية، فيقول: (حين نتذكر كم كان العرب بدائيـين فى جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافى الذى أحرزوه خلال مئتى سنة انقضت على وفاة الرسـول ليس غير، وعمق ذلك التقدم، أمراً

(1) الإسلام والعرب، ص 130.
(2) الإسلام والعرب، ص 130.
(3) الإسلام والعرب، ص 9.
(4) الإسلام والعرب، ص 177.

يدعو إلى الذهول حقًا. ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضًا أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمائة سنة لكى تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة (مسيحية)[1]، فما هى إذن الدوافع الرئيسية إلى منجزات العرب العلمية؟ إن فى استطاعتنا أن نلخص هذه الدوافع فيما يلى: رغبة متقدة فى اكتساب فهم أعمق للعالم كما خلقه الله، قبول للعالم المادى، لا بوصفه دون العالم الروحى شأنًا ومقامًا، ولكن بوصفه صنواً له فى الصحة والرسوخ؛ واقعية قوية تعكس فى صدق وإخلاص طبيعة العقل العربى اللاعاطفى، وأخيراً فضولهم النهم الذى لا يعرف الشبع. كان كل ما فى الوجود صادراً عن الله، ابتداء من الاستغراق فى العبودية لله إلى حنان الأم وحبها، إلى انطلاق السهم والطاعون الذى يقضى على بلاد برمتها وقرصة البعوضة. إن كلاً من هذه ليكشف عن قدرة الله، ومن هنا فهو جدير بالتأمل والدرس. ففى الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقًا معاكسة. لا، والواقع أن الأول كان باعثًا من البواعث الرئيسية للثانى)[2].

ويقارن بين موقف الإسلام من العلم مع موقف الكنيسة، فيقول: (منذ عصر النهضة انفصل العلم فى الغرب، انفصالاً أشد وضوحًا عن الدين، أو بتعبير آخر، تابع العلم سبيله غير ملتفت إلا قليلاً إلى مطالب الأخلاق وعلم الأخلاق. ففيما كان الإنسان فى الغرب يكتسب معرفة متنامية أبدًا بالكون الطبيعى وسيطرة متعاظمة عليه كان تقدمه الأخلاقى يتخلف متلكئًا. وبتحرير العلم فى القرون الوسطى من سلطان الكنيسة، لم يفصل الغرب العلم عن العقائد الدينية فحسب بل فصله عن مفاهيم الإيمان والقيود الأخلاقية الملازمة لها أيضًا. أما العلم الإسلامى فلم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففى الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية)، ولكن لتفسيرها عقليًا، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها. ومن هنا فليس عجيبًا أن يكون العلم الإسلامى لم يجرّد فى أيما يوم من الأيام من الصفات الإنسانية - كما حدث فى الغرب - ولكنه كان دائمًا فى خدمة الإنسان. وبينا أكره العلم الغربى فى عهد مبكر نسبيًا على اتخاذ سبيل التخصص، بحيث أمسى كل فرع من فروعه يعمل - كثيرًا أو قليلاً - فى عزلة، ظل العلم الإسلامى شموليًا، يجهد من أجل الوحدة، وهى وحدة يلعب فيها كل من الكون المادى والله والإنسان دوره الحاسم)[3].

ويتحدث عن تفوق المسلمين العلمى، فيقول: (والحقيقة التاريخية التى لا ريب فيها هى أن المسلمين وفقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة فى مختلف العلوم

(1) الحضارة الحديثة - طبعا - ليست حضارة مسيحية، بل إن أوروبا لم تصل إليها إلا بعد أن رفضت المسيحية، انظر: رسالة (ثمار من شجرة النبوة).

(2) الإسلام والعرب، ص 246.

(3) الإسلام والعرب، ص 280 - 281.

من غير أن يـديروا ظهورهم للدين وحقائقـه، وأنهم وجدوا فى ذلك الانصهار عـامل تسريع وإنجاح، لا عامل تعويق وإحباط)[1].

ويتحدث عن تكريـم الإسلام للمرأة، فيقـول: (يوم كانت النسوة يعتـبرن، فى العالم الغربى، مجـرد متاع من الأمتـعة، ويوم كان القوم هناك فى ريب جـدّى من أن لهن أرواحا، كان الشرع الإسـلامى قد منحهن حق التملـك. وتلقت الأرامل نصيبًا من مـيراث أزواجهن، ولكن البنات كان عليـهن أن يقنعن بنصف حصة الذكـر. . إلا أن علينا أن لا ننسى أن الأبناء الذكور وحدهم كانوا، حتى فترة حديثة نسبيا، ينالون فى الديار الغربية حصة من الإرث)[2].

سكت البابا، فقلت: إن هذا رجل فاضل حقا. . إنه يحمل تقديرا عظيما للإسلام يندر أن نجد مثله.

قال: صدقت. . ففي كلماته من نفحات الصدق ما يدل على أن علاقته بالإسلام أعمق من أن تنحصر فى تلك الشهادات.

**آرنولد توينبى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفـتر البابا فى هذا الفصل اسم (آرنولد توينبى)[3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من عقلاء الغرب. . ولشهاداته قيمة عليا، باعتبارها تنبع من نظرة تاريخية عميقة، فالرجل لم يكن يسرد الأحداث فقط، أو يكتفى بتحليلها تحليلا سطحيا، وإنما يحاول سبر أغوارها.

قلت: أسمع بهذا الرجل كثيـرا. . ولكنى لم أكن أعلم أن له من الفهم فى الإسلام ما يتيح له أن يتحدث عنه.

قال: كـيف يكون لعالم بالحضـارات أن لا يعرف أعمق الحضـارات وأشملها وأكـثرها إنسانية، وأطولها عمرا.

قلت: صدقت. . لقد بث فينا من الإحباط ما جعلنا ننزل من التواضع إلى الذلة.

قال: سأذكر لك بعض شهادات هذا الرجل. . وهى ـ كغيرها ـ يختلط فيها الحق بسوء الفهم. .

---

(1) الإسلام والعرب، ص 281.

(2) الإسلام والعرب، ص 203.

(3) آرنولد توينبى Arnold Toynbee المؤرخ البـريطانـى المعـاصـر، الذى انصـبت مـعظم دراسـاتـه على تاريخ الحضارات، وكـان أبرزها – ولا ريب – مؤلفه الشهيـر (دراسة للتاريخ) الذى شرع يعمل فـيه منذ عام 1921 وانتهى منه عام 1961، وهو يتكون من اثنى عشر جزءًا عرض فيها توينبى لرؤيته الحضارية للتاريخ. ولقد وضع المستر سومر فيل – تحت إشراف توينبى نفسه – مختصراً فى جزأين لهذا العمل الواسع بسط فيه جميع آراء المؤلف مـستخدمًا عباراته الأصلية فى معظم الأحيـان، وحذف الكثير من الأمثلة والآراء دون إخلال بالسـياق العام للكتـاب، وهذا المختصـر هو الذى ترجم إلى العربية فى أربعـة أجزاء، وهو المعتمد فى هذه النقول.

فمن تلك الشهادات قوله فى بيان كون النظام الإسلامى بما تميز به من شمولية هو السبب فى انتشار الإسلام: (لقد كرّس محمد حياته لتحقيق رسالته فى كفالة هذين المظهرين فى البيئة الاجتماعية العربية وهما الوحدانية فى الفكرة الدينية، والقانون والنظام فى الحكم. وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذى ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معًا.. فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السورى بأسره من سواحل الأطلسى إلى شواطئ السهب الأوراسى)(1).

وقد تحدث عن امتداد تأثير النبى ﷺ باعتباره قدوة محبوبا فى الأجيال البعيدة للأمة الإسلامية، فقال: (لقد أخذت سيرة الرسول العربى بألباب أتباعه، وسمت شخصيته لديهم إلى أعلى علّيين، فآمنوا برسالته إيمانًا جعلهم يتقبلون ما أوحى به إليه وأفعاله كما سجّلتها السنة، مصدرًا للقانون، لا يقتصر على تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وحدها، بل يرتب كذلك علاقات المسلمين الفاتحين برعاياهم غير المسلمين الذين كانوا فى بداية الأمر يفوقونهم عددًا)(2).

وتحدث عن سر صمود الإسلام وانتشاره، فأرجع ذلك إلى المعانى التى ينتظمها، فقال: (ما هو سر قوة الإسلام على البقاء، بقاؤه بعد وفاة رسوله، ثم زوال بناة إمبراطوريته من العرب، وانهيار من حلوا محلهم من الإيرانيين وانهزام الخلافة العباسية، وتداعى الدول التى قامت فترة على أنقاض الخلافة العباسية، يكمن التفسير فى التجربة الروحية التى مرّ بها المهتدون إلى الإسلام من رعايا الخلافة الأموية من غير العرب، لقد تأصلت جذور الإسلام فى قلوبهم فأولوه أهمية تفوق نظرة العرب إليه. وإن كان منهم من أقبل على اعتناقه فى بداية الأمر، تحقيقًا لمنافع عاجلة. ولا جرم أن عقيدة دينية توفق التوفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية فى الفوز بولاء الناس لها، عقيدة لا يستند بناؤها (أو زوالها) على أهواء تلك النظم السياسية التى تنشد استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافى مبادئها، ليعتبر انتصارها الروحانى، أعجب مثال يبين أنه وإن حلّت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التى سمت إلى تحقيق غايات سياسية، إلا أن الإسلام - عكسها - لم يؤثر فيه هذا الاتجاه، وهذا ما يبديه استقراء اتجاهه السياسى منذ عهد الرسول نفسه ثم فى عهد خلفائه رضى الله عنهم من بعده. فإن هجرة النبى العربى من مكة إلى المدينة، قد جعلت منه سياسيًا ناجحًا لامعًا، عوضًا عن بقائه بمكة.. قليل الحظ من الأتباع والأنصار)(3).

---

(1) مختصر دراسة للتاريخ: 10 / 381.

(2) مختصر دراسة للتاريخ: 3 / 98.

(3) مختصر دراسة التاريخ. 3 / 54 - 55.

وتحدث عن صفاء التوحيد الإسلامى مقارنة بما حصل للمسيحية، فقال: (إن الإسلام قد أعاد توكيد وحدانية الله، فى مقابل الضعف البادى فى تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية)[1].

وتحدث عن التنوير الإسلامى المرتبط بالتوحيد، فقال: (فى غضون القرن السابع الميلادى، جدّ فى النقاش عامل جديد، كأنه ممثل جديد ظهر على مسرح الأحداث التاريخية على نحو رائع ومثير. فقد نشأ حينئذ دين جديد مكتمل النموّ. كان الإسلام يتعصب للتوحيد ويناهض التصوير مثلما يبتغى أى يهودى، وبفضل ما حققه أنصاره فى الميدان الحربى من نجاح متوال - وبعد ذلك بقليل فى المجال التبشيرى كذلك - واجه المسيحيون أمراً خطيراً جديداً يشغل تفكيرهم.. إن انتصارات العرب المسلمين الأولين قد ألقت وقوداً جديداً على المجادلات التى ظلت تدور أمدًا طويلاً حول (وثنية) المسيحية)[2].

وتحدث عن الدور التحريرى الذى قام به الإسلام لحماية المستضعفين. فقال: (فى القرن السابع الميلادى حرّر العرب المسلمون سلسلة من الدول الشرقية من سطوة إغريقية - رومانية مسيحية: من سوريا شرقًا إلى إسبانيا غربًا عبر شمال أفريقيا، وكانت هذه الدول تحت حكم يونانى أو رومانى مدة ألف عام تقريبًا.. بعد ذلك، وبالتحديد ما بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر الميلاديين استمر الفتح الإسلامى متدرجًا فشمل تقريبًا جميع بلاد الهند وانتشر الإسلام بصورة سلمية فى مناطق أبعد وأوسع، فى إندونيسيا والصين شرقًا، وفى أفريقيا الاستوائية شرقًا وجنوبًا، وكذلك روسيا خضعت، وقتيًا، فى أواخر القرون الوسطى، وكل ما تبقى من العالم المسيحى الأرثوذكسى الشرقى فى آسيا الوسطى وجنوب شرقى أوروبا خضع فى القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين لحكم المسلمين العثمانيين، وحاصر الأتراك فيينا للمرة الثانية فى أواخر القرن السابع عشر (1682-1683م)، ورغمًا عن أن فشل هذا الحصار أرّخ بداية تحول فى التيار لمصلحة الغرب ومواجهته للدولة العثمانية الغازية، فقد بقى علم (الهلال) يرفرف فوق السواحل الشرقية (لبحر الأدرياتيك) مقابل (كعب) إيطاليا حتى عام 1912م)[3].

وتحدث عن معجزة انتشار الإسلام مفسرا لها بأنها لا يمكن أن تكون من صنع بشر، فقال: (أصبحت يثرب بعد انقضاء ثلاثين سنة على الهجرة، عاصمة إمبراطورية شملت لا مجرد الممتلكات الرومانية فى سوريا ومصر، بل ضمت كذلك أملاك الإمبراطورية الساسانية

(1) مختصر دراسة التاريخ: 3 / 164.

(2) مختصر دراسة التاريخ: 4 / 64، وانظر فى هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (الخلاص).

(3) الإسلام والغرب والمستقبل، ص 16 - 17.

بأسرها. . وتستمد يثرب حقها فى بقائها مقر الحكومة إلى كونها النواة التى انبثقت منها إمبراطورية العالم العربى فى اندفاع جارف يوحى حقًا بأنه من الأفعال الربانية)[1].

وتحدث بإعجاب عن تسامح المسلمين مع المخالفين، فقال: (ثمة حالة. . نابهة الذكر لهذا التسامح المنشود، يفرضها نبى على أتباعه وهو فى موضعه الجليل. فإن محمدًا قد أمر أتباعه بالتسامح الدينى تجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسيًا للحكم الإسلامى. فقدم محمد بذلك لقاعدة التسامح، تفسيراً قوامه أن أفراد هاتين الجماعتين الدينيتين غير المسلمين، هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم. وليس أدل على روح التسامح التى بعثت الحياة فى الإسلام منذ بدايته، من أن المسلمين قد طبقوا مبدأ التسامح الدينى على أتباع زرادشت الذين خضعوا للحكم الإسلامى وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه)[2].

وقال: (لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الحرية وتلك سياسة مستنيرة، أجمعت الآراء على امتداحها. . لقد سلك الإسلام طريقة بين رعايا الخلافة غير العرب، مستندًا على مزاياه وفضائله الذاتية، وكان انتشاراً بطيئًا، لكنه كان مؤكدًا. . ويحتمل أن الهداية إلى الإسلام بصورة جماعية لم تبدأ قبل القرن التاسع الميلادى - أو تصل نهايتها - حتى حلول فترة اضمحلال الإمبراطورية العباسية من القرن الثالث عشر. ويمكن القول بالتأكيد، إن هذه الغلات التى حصدت من حقل التبشير الإسلامى، كانت حصيلة حركة شعبية تلقائية، ولم تنجم قط عن ضغط سياسى)[3].

وقال: (إن المسلمين قد سبقوا بناة الإمبراطورية من الإسبانيين والبرتغاليين فى إظهار إخلاصهم لمعتقداتهم الدينية. فإن المسلمين قد تزاوجوا منذ البداية مع من تولوا هدايتهم إلى دينهم، دون اعتبار لاختلاف الجنس. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك. فإن المجتمع الإسلامى قد ورث عن نص وارد فى القرآن، إقراراً بطائفة من الأديان (عدا الإسلام) هى - رغم ما بها من قصور - أديان سماوية أصيلة، نزل بها الوحى، وهذا الإقرار، أسبغ على اليهود والمسيحيين أولاً، ثم اتسع فشمل بعد ذلك الزرادشتيين والهندوس)[4].

وتحدث عن الخطأ الكبير الذى وقع فيه أتاتورك عندما نادى بالعلمانية، فقال: (أما حركة التغريب المتطرفة التى قادها مصطفى كمال أتاتورك، فإننا نشك فيما إذا كان بعد نظر أتاتورك الخيالى، وقدرته الشيطانية الموجهة قادرين وحدهما على زحزحة الأتراك من وضعهم المحافظ القديم، لو لم يواجه الأتراك بعد الحرب العالمية الأولى اختياراً صعبًا لا يمكن الهروب

---

(1) مختصر دراسة التاريخ، 3 / 73 - 74.

(2) مختصر دراسة التاريخ، 3 / 42.

(3) مختصر دراسة التاريخ، 2 / 355، 356، 357.

(4) مختصر دراسة التاريخ، 3 / 418.

منه: إما تغريب بدون تحفظ، وإما فناء محقق! والحقيقة أن الهجوم الغربي المعاكس على العالم الإسلامي.. قد تأثر إلى حد كبير بالذكريات المرة التي كان يحملها الغربيون عن البسالة العسكرية المشهودة عند الأتراك والشعوب الإسلامية الأخرى)[1].

وتحدث عن المؤامرات التي قسمت العالم الإسلامي، والتي حرمته من وحدته التي استمرت قرونا طويلة، فقال: (الآن، بعد أن طويت المسافات بتقدم التقنية الغربية، وفي الوقت الذي تتنافس فيه طرق الحياة الغربية مع طريقة الحياة الروسية لكسب ولاء البشرية كلها، الآن يظهر أن التقليد الإسلامي في أخوة الإنسان للإنسان هو مثل أعلى يوافق حاجات العصر الاجتماعية وهو أفضل من التقليد الغربي الذي أدى إلى قيام عشرات الدول الصغيرة ذات السيادة. وفي الواقع الحاضر الذي يجد الغرب نفسه فيه منذ الحرب العالمية الثانية، نرى أن تجزئته إلى أكثر من أربعين دولة مستقلة ذات سيادة يهدّد بانهيار البيت كله على من فيه، بسبب انقسامه هكذا على نفسه. ومن المأمول أن يستطيع العالم الإسلامي، على كل حال، إيقاف انتشار هذا الداء السياسي الغربي.. وذلك عن طريق الشعور الإسلامي القوي بالوحدة)[2].

ويقول في نفس الموضوع موجها نصحه للبلاد الإسلامية عموما، والعربية خصوصا: (ليس من الضروري للدول الإسلامية الأخرى أن تتبع تمامًا الطريق التي سلكها (الروّاد) الأتراك. هناك مثلاً الدول الإسلامية الناطقة بالعربية حيث اللغة المشتركة المتكلمة بلهجات مختلفة ولكنها تكتب بأسلوب أدبي لغوي واحد من شواطئ المحيط الأطلسي في مراكش إلى الحدود الغربية لإيران، ومن حلب والموصل في الشمال إلى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار في الجنوب.. لأن اللغة العربية هي لغة الدين حتى في البلاد الإسلامية التي لا تتكلم العربية كلغة أصلية. فهل من الضروري حقًا أن يتفتت العالم العربي كما تفتت الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا.. إلى عشرين دولة مستقلة عن بعضها تعيش في قوالب ضعيفة (غربية النمط؟!).. هذا هو الوجه الثاني الكالح لحضارتنا الغربية، ومن المؤسف حقًا أن تقلده الشعوب الناطقة بالعربية تقليدًا تامًا)[3].

بل هو فوق هذا يتنبأ بأن العالم الإسلامي المفتت يمكنه في أي لحظة أن يستعيد وحدته، مستشهدا لذلك بالتاريخ، فيقول: (صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة، ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا العالمية للعالم المتغرّب ضد السيطرة الغربية، ونادت بزعامة معادية للغرب، فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لا حصر لها في إيقاظ الروح النضالية للإسلام، حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف، إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولي للإسلام. وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما

(1) الإسلام والغرب والمستقبل، ص 18.
(2) الإسلام والغرب والمستقبل، ص 28.
(3) الإسلام والغرب والمستقبل، ص 29 - 30.

رمز سموّ المجتمع الشرقى فى انتصاره على الدخيل الغربى: ففى عهد الخلفاء الراشدين، بعد الرسول حرّر الإسلام سوريا ومصر من السيطرة اليونانية التى أثقلت كاهلهما مدة ألف عام تقريبًا. وفى عهد (نور الدين) و(صلاح الدين) و(المماليك) احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول. فإذا سبّب الوضع الدولى الآن حربًا عنصرية، يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى)(1).

ويتحدث عن القيم الاجتماعية النبيلة التى يحملها الإسلام، والتى تجعل له الريادة فى حل أعوص المشاكل الاجتماعية، فيقول: (إن باستطاعتنا أن نميز بعض مبادئ الإسلام التى إذا طبقت فى الحياة الاجتماعية للبروليتاريا العالمية الحديثة، يمكن أن تأتى بنتائج حسنة مفيدة لهذا المجتمع الكبير فى المستقبل القريب. هناك مصدران ظاهران من مصادر الخطر، الأول نفسى والثانى مادى فى العلاقات الحاضرة بين البروليتاريا العالمية وبين الفئة الحاكمة فى مجتمعنا الغربى، ومصدرا الخطر هذان هما (1) التمييز العنصرى، (2) الخمر. وفى مجال الصراع ضد هذين الشرّين نجد للفكر الإسلامى دورًا يؤديه ويبرهن فيه - إذا سُمح له بتأدية هذا الدور - عن قيم اجتماعية وأخلاقية سامية. فعدم وجود التمييز العنصرى بين المسلمين هو أحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام، والعالم المعاصر فى وضعه الراهن بحاجة ماسة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية.. إن قوى التسامح العنصرى ذات أهمية ضخمة للإنسانية وهى الآن، على ما يظهر، تخوض معركة خاسرة على الصعيد الفكرى إلا أنها قد تتمكن من الغلبة إذا ساندها ونزل إلى جانبها فى المعركة رصيد من النفوذ القوى المناضل الذى لم يزل حتى الآن احتياطيًا. والذى أتصوره أن روح الإسلام ستكون التعزيز المناسب الذى سيقرر مصير هذه المعركة لمصلحة التسامح والسلام)(2).

وتحدث عن تأثير الإسلام فى الحضارة الغربية عبر جسر الحروب الصليبية، فيقول: (لقد أسر الإسلام (المغلوب فى الحروب الصليبية (غالبيه)، وأدخل فنون الحضارة إلى حياة العالم المسيحى، وقد كانت حياة (لاتينية) صدئة وفى بعض حقول النشاط الإنسانى، كهندسة البناء مثلاً، تغلغل التأثير الإسلامى فى العالم المسيحى كله طيلة قرونه الوسطى، أما فى صقلية والأندلس، فقد كان تأثر الدولة الغربية الجديدة فيهما بالإمبراطورية العربية القديمة أوسع شمولاً وأبعد غورًا)(3).

وقال: (لعلنا نعجب لهذه الدرجة من الاحترام المتبادل التى أصبح كل من المتحاربين من الفريقين الإسلامى والمسيحى يكنها للآخر. كما نعجب لهذا القدر من الزاد الثقافى الذى

---

(1) الإسلام والغرب والمستقبل ص 739.

(2) الإسلام والغرب والمستقبل، ص 62، 64.

(3) الإسلام والغرب والمستقبل، ص 34.

نشر به مسيحيو الغرب الوسيط عن هذا الطريق السـوري. . حيث أصبحت فتوحات الصليبيين المؤقتة في سوريا، وفتوحاتهم الدائمة في صقلية والأندلس - على حساب دار الإسلام - محطات (إرسال) متعددة، أمكن عن طريقها نقل الكنوز الروحية إلى العالم المسيحي الغربي في العصور الوسطى. إن الجو النظيف القائم على التسامح الديني والتطلع الفكري الذي أسر - بعض الوقت - ألباب فاتحي بالرمو وطليطلة من مسيحيي الغرب، بمقارنته بروح التعصب التقليدية فيهم، هذا الجو النظيف، كان أصيلاً في الإسلام في عهده الأول. . لقد تلقى مسيحي١و القرون الوسطى في الغرب من معاصريهم علماء المسلمين، نتائج البحث الإسلامي)[1].

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب عبر جسر الأندلس، فقال: (ساهم علماء إسبانيا الإسلامية - عن غير قصد - في تشييد الصرح الفلسفي الذي أقامه فلاسفة المسيحية الغربية المدرسيون إبان العصور الوسطى. كما وصلت بعض مؤلفات الفيلسوف الهليني أرسطو، العالم المسيحي الغربي للمرة الأولى، عن طريق التراجم العربية. وصحيح كذلك أن كثيراً من المؤثرات الشرقية على الثقافة الغربية. . إنما وفدت في الحقيقة من إيبريا الإسلامية)[2].

وتحدث عن عالمية الحضارة الإسلامية، وتفتحها على الحضارات المختلفة، فقال: (وفق الإسلام فيما فضل فيه سابقوه، لأنه استكمل عملية طرد الهلينية من العالم السوري. كما عاد فأدمج في الخلافة العربية، الدولة العالمية السورية التي اختزل الإسكندر الأكبر حياتها بقسوة قبل أن تستكمل رسالتها. . وأخيراً منح الإسلام المجتمع السوري بعد طول الانتظار، عقيدة دينية عالمية أصيلة. فعاود بذلك المجتمع السوري - بعد انقضاء قرون من توقف حيويته - على أن يسلم الروح وهو متأكد أنه لن يزول دون أن يخلف عقبا. إذ غدت العقيدة الإسلامية اليرقة التي بزغت عنها في حينها الحضارتان العربية والإيرانية)[3].

ويتحدث عن اعتبار الحضارة الإسلامية ـ رغم تخلف المسلمين ـ منافسا خطيرا للحضارة الغربية، فيقول: (إننا لنجد للتقويم المسيحي وقت كتابة هذه السطور، السيادة على جميع العالم، ولا ينازعه مكانته سوى منافس خطير هو التقويم الهجري الإسلامي وما يزال اليهود بعنادهم المعروف يحسبون تقويمهم رسميًا على أساس تقديرهم بداية الخليقة)[4].

قلت: بورك في هذا الرجل. . فهذه الشهادات لا يمكن أن تصدر إلا من عارف بالإسلام صادق في البحث عنه.

---

(1) مختصر دراسة للتاريخ، 3 / 354، 355، 356.
(2) مختصر دراسة للتاريخ، 1 / 266 - 267.
(3) مختصر دراسة للتاريخ، 1 / 241.
(4) مختصر دراسة للتاريخ، 3 / 104.

قال: صدقت.. وعسى الله أن ينفعه بها.. فالله لا يضيع عنده شيء.

**توماس كارلايل:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (توماس كارلايل)(1)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا كاتب إنجليزى.. وهو أشهر من نار على علم.. وقد كتب عن رسولنا ﷺ كلاما يستحق عليه كل الثناء.

فمن ذلك قوله في إثبات نبوة رسول الله ﷺ.. وهو منطق لا يقل عن منطق أى متكلم فى العقيدة الإسلامية: (هل رأيتم قط.. أن رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا عجبًا.. إنه لا يقدر أن يبنى بيتًا من الطوب! فهو إذًا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد، وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنًا يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن. وإنى لأعلم أن على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته.. كذب ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيّلوه حقًا.. ومحنة أن ينخدع الناس شعوبًا وأممًا بهذه الأضاليل)(2).

ويقول مؤكدا عدم وجود أى مصدر يمكن أن يستند إليه رسول الله ﷺ غير مصدر الوحى الإلهى: (إن محمداً لم يتلق دروسًا على أستاذ أبدًا وكانت صناعة الخطّ حديثة العهد آنذاك فى بلاد العرب، ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمدًا لم يكن يعرف الخط والقراءة(3)، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية.. أنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسّر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه فى ظلمات صحراء العرب، ولم يضره.. أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك. ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء - أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور - من كان بين

---

(1) توماس كارلايل (1795 - 1881) Th. Carlyle الكاتب الإنجليزى المعروف، من آثاره: (الأبطال) (1940)، وقد عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبى، (الثورة الفرنسية) وغيرها.

(2) الأبطال، ص 43.

(3) وهى حقيقة تدل عليها كل الأدلة، فالله عز وجل وصف النبى بالأمية، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)﴾ [الأعراف]، وقال عز وجل: ﴿...فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)﴾ [الأعراف].. ولو لم يكن ﷺ أميا لواجهه الجميع مكذبين هذا الزعم، وهو لم يحصل.

محـمد وبينه أدنى صلة وإنما نشـأ وعاش وحـده فى أحـشاء الصحـراء. . بين الطبيـعة وبين أفكاره)[1].

ويتحدث عـن أوصاف رسول الله ﷺ والتى تحيل أن يكون مـدعيا أو كاذبا، فـيقول: (لوحظ على محمـد منذ صباه أنه كان شابًا مـفكرًا وقد سمّاه رفقـاؤه الأمين - رجل الصدق والوفاء - الصدق فى أفـعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تـخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة. وإنى لأعرف عنه أنه كـان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لبّ. . وقد رأيناه طول حيـاته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريمًا برا رؤوفًا تقـيًا فاضلاً حرًا، رجلاً شديد الجدّ مـخلصًا، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، جمّ البشـر والطلاقة حميد العشـرة حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان على العمـوم تضيء وجهه ابتـسامة مـشرقة من فـؤاد صادق. . وكان ذكى اللب، شـهم الفؤاد. . عظيمًا بفطرته، لم تـثـقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنى عن ذلك. . فـأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء)[2].

ويتحـدث عن دليل آخر لنبـوة رسول الله ﷺ فى غاية العـمق، فيـقول: (ومما يبطل دعوى القائلين أن محـمدًا لم يكن صادقًا فى رسالته. . أنه قضى عنفوان شـبابه وحرارة صباه فى تلك العيـشة الهادئة المطمـئنة مع خديجـة لم يحاول أثناءها إحداث ضـجة ولا دوى، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة. . ولـم يكن إلا بعـد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجعًا وثار يريد أمرًا جليلاً وشأنًا عظيمًا)[3].

ويتحـدث عن إخلاص رسول الله ﷺ وعفـافه وزهده، وهو من أكبر دلائل صـدقه، فيقول: (لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفوات العظيم النفس، المملوء رحمة وخيـرًا وحنانًا وبرًا وحكمة وحـجى ونهى، أفكار غيـر الطمع الدنيوى، ونوايـا خلاف طلب السلطة والجـاه. وكيف وتلك نفس صـامتة كـبيـرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؟ فـبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيـرون طبق اعتبارات باطلة. إذ ترى محمدًا لم يرض أن يلتفع بالأكاذيب والأباطيل. لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سرّ الوجود يسـطع لعينيه بأهواله ومخاوفه ومباهره، ولـم يكن هنالك من الأباطيل ما يحـجب ذلك عنه، فكأنه لسان حال ذلك السرّ يـناجيه: هاأنذا، فمـثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهى مـقدس، وما كلمة مـثل هذا الرجل إلا صوت

(1) الأبطال، ص 5.
(2) الأبطال، ص 50 - 51.
(3) الأبطال، ص 51.

خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية. وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء)[1].

وهو لا يكتفى بتلك الشهادات، بل يصرح بحبه لرسول الله ﷺ. . وهو يعتبر ذلك الحب ضروريا، فما فى محمد ﷺ من صفات الكمال لا يحمل القلوب إلا على الحب، يقول: (إنى لأحب محمدًا لبراءة طبعه من الرأى والتصنّع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه ولم يكن متكبرًا ولكنه لم يكن ذليلاً، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراده، يخاطب بقوله الحرّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة. وكان يعرف لنفسه قدرها. . وكان رجلاً ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد)[2].

وهو يرد بشدة وصدق وإخلاص على الذين يتصورون كذب رسول الله ﷺ، فيقول: (لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمدًا، وحاشاه، خدّاع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنًا لنحو مائتين مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذى خلقنا. أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء، كذبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدًا، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق)[3].

ويتحدث عن تصوره لحقيقة الإسلام، فتجد له من فهم حقيقة الإسلام ما يملؤك بالعجب، فيقول: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له) هو الحق، وكل ما خلاه باطل، خلقنا ويرزقنا. . إن الإسلام هو أن نسلم الأمر لله، ونذعن له، ونسكن إليه، ونتوكل عليه، وأن القوة كل القوة هى فى الاستقامة لحكمته، والرضا بقسمته أيًا كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة، ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو. ولقد قال شاعر الألمان (غيته): (إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون). نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو متخلق بأخلاق الإسلام، وإن لم يكن مسلمًا. . إن من السخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزانًا للعالم وأحواله.

---

(1) الأبطال، ص 51 - 52.

(2) الأبطال، ص 64.

(3) الأبطال، ص 42 - 43.

بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونًا عادلاً، وإن غاب عن إدراكه، وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود. . عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكون وتقوى)[1].

ويتحدث عن إعجابه بالقيم التى جاء بها الإسلام، فيقول: (فى الإسلام خلّة أراها من أشرف الخلال وأجلّها وهى التسوية بين الناس. وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى. فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس فى الإسلام سواء. والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضًا حتمًا على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل. . جميل والله هذا، وما هو إلا صوت الإنسانية، صوت الرحمة والإخاء والمساواة)[2].

وهو يحث قومه وغيرهم ليعرفوا قيمة الإسلام، والمعانى النبيلة التى يحملها، فيقول: (هذا الدين الإسلام فيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه. ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم الصراط المستقيم لخمس العالم. وما يزال فوق ذلك دينًا يؤمن به أهله من حبّات أفئدتهم. ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم، إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد. . وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترنّ آناء الليل وأطراف النهار فى إرواء تلك الملايين الكثيفة. وأن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاى ماليزيا فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام، ونعم ما يفعلون)[3].

ويتحدث عن الثمار العظيمة التى حققها الإسلام فى فترة وجيزة، فيقول: (لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة. . وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيًا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقًا، ووسع نوره الأنحاء. . وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقبًا عديدة ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة. وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة، ومازال للأمة رقى فى درج الفضل. . مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان)[4].

---

(1) الأبطال، ص 53 - 54.

(2) الأبطال، ص 65.

(3) الأبطال، ص 66.

(4) الأبطال، ص 66 - 67.

أصابنى انبهار شديد لما ذكره البابا عن هذا الرجل الفاضل من هذه الشهادات، فقلت: إن هذا ليس مجرد صديق.. إنه يكاد يكون أخا لنا فى الدين.. بل لا أشك أنه كذلك.. ولعله تأثر بمؤمن آل فرعون، فراح يكتم إيمانه ليتمكن من نصرة الإسلام، كما تمكن مؤمن آل فرعون من نصرة موسى.

قال البابا: صدقت.. فهو فى نصائحه لقومه يحمل أريج تلك النفحات التى تحدث بها مؤمن آل فرعون.

وقد أخبر مونتجومرى وات عن تأثير تلك النصائح فى الغرب، فقال: (منذ أن قام كارليل بدراسته عن محمد فى كتابه (الأبطال وعبادة البطل) أدرك الغرب أن هناك أسبابًا وجيهة للاقتناع بصدق محمد. إذ إن عزيمته فى تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامى للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيراً عظمة عمله فى منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد باستقامته التى لا تتزعزع. فاتهام محمد بأنه دجال Imposteur يثير من المشاكل أكثر مما يحلّ. ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة فى التاريخ حط من قدرها فى الغرب كمحمد. فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد وكلما ظهر أى تفسير نقدى لواقعة من الوقائع ممكنًا قبوله. ولا يكفى، مع ذلك، فى ذكر فضائل محمد أن نكتفى بأمانته وعزيمته إذا أردنا أن نفهم كل شىء عنه. وإذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضى بصدده فيجب علينا فى كل حالة من الحالات، لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسك بصلابة بصدقه. ويجب علينا أن لا ننسى عندئذ أيضًا أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكنًا وأنه فى مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه)[1].

**لايتنر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (لايتنر)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من الباحثين الصادقين، وهو لا يقل عن صاحبنا السابق، فكلاهما انتدب ليدعو قومه إلى الإسلام.

وسأذكر لك من شهاداته ما يثبت لك ذلك:

لقد تحدث عن أصالة رسالة النبى ﷺ.. بل هو يصرح أن ما كان يتلقاه محمد ﷺ وحى يوحى، فقال: (بقدر ما أعرف من دينىْ اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا بل قد (أوحى إليه به) ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحى من لدن عزيز عليم. وإنى بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتى، وأمانة المقصد،

---

(1) محمد فى مكة، ص 94.

(2) لايتنر Lightner باحث إنجليزى، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه فى الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام 1854، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالاتها وعلمائها.

والإيمان القلبى الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد وأنه قد أوحى إليه)[1].

وتحدث عن الدور التصحيحى الذى جاء به رسول الله ﷺ للأديان المحرفة، فقال: (إن الديانة النصرانية التى ودّ محمد إعادتها لأصلها النقى كما بشر بها المسيح تخالف التعاليم السّرية التى أذاعها بولس والأغلاط الفظيعة التى أدخلها عليها شيع النصارى. . ولقد كانت آمال محمد وأمانيه أن لا تخصص بركة دين إبراهيم لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعًا، ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى فى التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به فى دين الإسلام)[2].

ويرد بصدق وإخلاص على شبهة تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فيقول: (لما بلغ السنة الخامسة والعشرين من العمر تزوج امرأة عمرها (أربعين عامًا، وهذه تشابه امرأة عمرها خمسين عامًا فى أوربا، وهى أول من آمن برسالته المقدسة. . وبقيت خديجة معه عشرين عامًا لم يتزوج عليها قط حتى ماتت. ولما بلغ من العمر خمسًا وخمسين سنة صار يتزوج الواحدة بعد الأخرى. لكن ليس من الاستقامة والصدق أن ننسب ما لا يليق لرجل عظيم صرف كل ذاك العمر بالطهارة والعفاف فلا ريب أن لزواجه بسن الكبر أسبابًا حقيقية غير التى يتشدق بها كتاب النصارى بهذا الخصوص، وما هى تلك الأسباب يا ترى؟ولا ريب هى شفقته على نساء أصحابه الذين قتلوا)[3].

وتحدث عن دلائل صدق النبوة، فقال: (مرة، أوحى الله تعالى إلى النبى وحيًا شديد المؤاخذة لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنيًا من ذوى النفوذ، وقد نشر ذاك الوحى، فلو كان كما يقول أغبياء النصارى بحقه لما كان لذاك الوحى من وجود)[4].

وهو يدعو قومه لاحترام محمد ﷺ، بل الإيمان به. . فيقول: (إنى لأجهر برجائى بمجىء اليوم الذى به يحترم النصارى المسيح احترامًا عظيمًا وذلك باحترامهم محمدًا، ولا ريب فى أن المسيحى المعترف برسالة محمد وبالحق الذى جاء به هو المسيحى الصادق)[5].

وهو يتحدث عن عدم وجود الوسائط فى الإسلام بين الله وعباده، فيقول: (كل مسلم قيم ومهيمن على دينه مباح له التكلم بخصوص الأمور الدينية فليس هو رقيقًا للمشايخ. يعبد

(1) دين الإسلام، ص 4 - 5.

(2) دين الإسلام، ص 5.

(3) دين الإسلام، ص 12 - 13، وسنرى تفاصيل الرد على هذه الشبهة فى رسالة (النبى المعصوم) من هذه السلسلة.

(4) دين الإسلام، ص 132 - 133.

(5) دين الإسلام، ص 6.

الله وحده لا يحتاج إلى وسيط، وإنما كان متى أدركته أوقات الصلاة فهنالك محل لعبادته، ولعلماء المسلمين الحرية التامة للاحتراف والاشتغال ولكن أكثر علمائهم يتعاطون تعليم الدين للناس. وأى مسلم يستطيع أن يقول: (إنى بتسليم نفسى لإرادة الله) نائب عن الدين الذى علمه محمد. والحق يقال بأن كافة المسلمين فى الدنيا مرشدون بهذا الهدى الاجتماعى)(1).

ويتحدث عن مزايا الشعائر الإسلامية المختلفة، فيقول: (الصلاة عمادها الطهارة والنظافة، ومعلوم أن النظافة من الإيمان والوضوء والصلاة لهما أعمال دقيقة جدًا وليس بإمكان أحد القسيسين أن يقول بحق أحد النصارى بأننا نستطيع تعلمها من أى مسلم نصادفه. وأما الزكاة فيحق لها أن تدعى (الصلاة النقدية).. ولكى تكون مقبولة عند الله فمن الواجب على المزكين أن يبيّنوا ملكيتهم لما وهبوه شرعًا ولا يجوز أن يكون فيه ما حرم كسبه.. وكل من يعطى فوق فريضة الزكاة فأجره على الله. والحج إلى مكة (المشرفة) مهم جدًا لأنه يتكون منه اجتماع المسلمين من كافة أقطار العالم ويتأتى عنه التعارف والاتحاد، وهذا شىء ليس للنصارى فيه من نصيب. وفوق هذا فإنه من أقوى العوامل والأسباب على نشر العلم والآداب.. أما الصوم فهو تمرين يعتاده الإنسان وله نفع عظيم، كما أن الطهارة والنظافة معقولان، كذلك الصوم المتمّم للأحوال الصحية التى يطلبها الطبيب)(2).

ورد على شبهة (الاسترقاق)، فيقول: (إنا نرى الأغبياء من النصارى يؤاخذون دين الإسلام كأنه هو الذى قد سنّ الاسترقاق، مع أن محمدًا قد حضّ على عتق الرقاب وهذه أسمى واسطة لإبطاله حقيقة)(3).

وتحدث عن مزايا التشريعات الإسلامية المختلفة، فقال: (الحق يقال إن الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب المسكر واللحم الذى لم يحسن ذبحه، وإزالة كل مضرّ، وغير ذلك من الأشياء التى نهى عنها الإسلام، لمن أعظم الأمور النافعة للعاملين بها وليست لإتعابهم)(4).

وقال: (فى المساجد ترى المساواة التامة بين المصلين فلا يوجد فيها مقاعد خاصة بأحد، وأى إمام يمكنه أن يؤم المصلين. ولا يوجد منظر أبهج من منظر جماعة المسلمين يصلون وهم خاشعون صامتون)(5).

وقال: (إن الزواج عند المسلمين يجلّ عما رماهم به كُتّاب النصارى. والقول بأنه لا يوجد حد للزواج والطلاق عند المسلمين فغير صحيح، والطلاق عندهم ليس هو بالأمر الهين، فعدا عن وجود المحكمين فعلى الرجل أن يدفع صداقها المسمى عند إجراء العقد وهذا

---

(1) دين الإسلام، ص 6.

(2) دين الإسلام، ص 7 - 8.

(3) دين الإسلام، ص 7، وسترى الرد المفصل على هذه الشبهة فى رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

(4) دين الإسلام، ص 8.

(5) دين الإسلام، ص 9.

غالبًا يكون فوق ما يقدر زوجها على إيفائه بسهولة، فمركز المرأة بالإسلام قوى مؤمن من الطلاق. إن النصارى والبوذيين يرون الزواج أمرًا روحيا ومع ذلك نرى عقدة النكاح محترمة عند المسلمين أكثر مما هى محترمة فى البلاد المسيحية.. ويسوءنى أن أذكر ما ليس لى مناص من ذكره وهو أننى سكنت بين المسلمين أربعة وخمسين عامًا ابتداؤها سنة 1848 فمع وجود التساهل فى أمر الطلاق عندهم وعسره عند النصارى، فقد وقع حوداث طلاق عند النصارى أكثر مما وقع عند المسلمين بكثير. وإنى أقول الحق بأن الشفقة والإحسان عند المسلمين نحو عيالهم والغرباء والمسنّين والعلماء لمثال مجد يجب على النصارى أن يقتدوا به)[1].

ويرد على شبهة تعدد الزوجات، فيقول: (أما تعدد الزوجات.. فإنّا بقطع النظر عن منافعه الحقيقية، لأنه يقلّل النساء الأماكن التى هن فيه أكثر من الرجال، وبقطع النظر عن أنه يقلل وجود المومسات وأضرارهن، ويمنع مواليد الزنا، فلا يمكننا أن ننكر بأن أكثر المسلمين ذو زوجة واحدة؛ والسبب فى ذلك هو تعليم دين الإسلام. لقد أتى محمد بين أمة تعد ولادة الأنثى شرا عظيمًا عليهم وهكذا كانوا يئدونها، ولم يكن للرجال حد يقفون عنده من جهة الزواج وكانوا يعدون النساء من جملة المتاع ويرثونها من بعد موت بعلها. فجعل لهذه الحالة حدا فلا يقدر الرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء بشرط المساواة بينهن فى كل شىء حتى بالمحبة والوداد، فإن لم يكن قادرًا على كل ذلك فلا يباح له بأن يتزوج غير واحدة. ومن يتدبر شريعته يرى أنه قد حضّ على الزواج بامرأة واحدة، ولقد رفع مقام المرأة ورقاها رقيا عظيمًا، فإنها بعد ما كانت تعد كمتاع مملوك صارت مالكة، وحكمها مؤيد وحقوقها محفوظة)[2].

ويتحدث عن الآثار الصحية للشرائع المرتبطة بالزواج فى الإسلام، فيقول: (أما بخصوص الرهبانية فليس لها وجود فى الإسلام، وتكاد لا ترى امرأة غير متزوجة، وقصاص الزنا متساوٍ فيه الرجل والمرأة.. والشريعة الإسلامية لا تسمح بإهانة أولاد المملوكة، وهم يرثون أبناءهم مع أولاد السيدة.. وليس فى الإسلام محلات للفاجرات ولا قانون يبيح انتشار المومسات. ومسامرات المسلمين العمومية خير مما هى فى أوروبا. ومسامرات شبان المسلمين فى المدارس خير وأطهر من مسامرات شباننا.. والحق أولى أن يقال فإن كثيرًا من كلام شبان الإنجليز لو قاله أحد فى بلاد المسلمين لنال قائله القصاص الصارم. وللمرأة المسلمة مركز شرعى خير من مركز المرأة الإنجليزية بكثير)[3].

سكت البابا، فلم أملك إلا أن أقول: ما هذا إلا مؤمن آخر من آل الإنجليز يكتم إيمانه!

---

(1) دين الإسلام، ص 10 - 11.

(2) دين الإسلام، ص 11.

(3) دين الإسلام، ص 14 - 15.

قال: صدقت.. فالحب الذى تمتلئ به هذه الشهادات يستحيل أن يكون منبعه اللسان المجرد.

**هربرت جورج ولز:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (هربرت جورج ولز)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل لا يقل عن أخويه (كارلايل) و(لابتنز) حماسة وصدقا، فقد مارس هو الآخر ما يمارسه كل متكلم مسلم من الدفاع عن نبيه وإسلامه.

فمن شهاداته قوله فى بيان دليل عميق من أدلة نبوة رسول الله ﷺ: (هل تراك علمت قط أن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذك صديقًا؟ ذلك أن من عرفوا محمدًا أكثر من غيرهم، كانوا أشد الناس إيمانًا به. وقد آمنت به خديجة كل حياته على أنها ربما كانت زوجة محبة. فأبو بكر شاهد أفضل، وهو لم يتردد قط فى إخلاصه. كان يؤمن بالنبى ومن العسير على أى إنسان يقرأ تلك الأيام إلا يؤمن بأبى بكر، وكذلك على، فإنه خاطر بحياته من أجل النبى فى أحلك أيامه سوادًا)[2].

ومن شهاداته شهادته حول سمو القيم التى نادى بها رسول الله ﷺ: (حجّ محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة، قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة.. إنّ أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجى المؤمن عدلاً للخليفة.. إنها أسست فى العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ فى الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة، ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعى، عما فى أى جماعة أخرى سبقتها)[3].

ومن شهاداته شهادته حول الثمار العظيمة التى حققها الإسلام على مستوى العالم أجمع: (لقد منح العرب العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية فى العالم أما الرجل الذى أشعل ذلك القبس العربى فهو محمد)[4].

---

(1) هربرت جورج ولز (1866 - 1946) H. G. Wells الكاتب والأديب البريطانى المعروف. حصل على بكالوريوس العلوم سنة 1888، تولى التدريس بضع سنين ثم انصرف للتأليف. اشتهر بقصصه الذى يعتمد الخيال العلمى من مثل (آلة الزمن) و(الرجل الخفى)، فضلاً عن رواياته النفسية والاجتماعية من مثل (ميكا فيللى الجديد) و(الزواج). ولم يغفل ولز البحث فى التاريخ فأنجز عام 1920 (معالم تاريخ الإنسانية) وأعقبه بـ(موجز تاريخ العالم). وكان آخر كتاب أصدره هو (العقل فى أقصى تواتراته) (1944). ولولز كتاب فى السيرة الذاتية بعنوان: (تجربة فى كتابة السيرة الذاتية).

(2) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 639.

(3) معالم تاريخ الإنسانية: 3 / 640 - 641.

(4) موجز تاريخ العالم، ص 200 - 201.

ومن شهـاداته، شهادته حـول عمليـة التصحـيح التى قام بهـا الإسلام نحو غـيره من الديانات: (ناهض الإسـلام مسـيحـية القـرن السابع الفـاسدة، وتقـاليد المجـوس الزرادشت المنحلّة. . فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يتميز بصفات كثيرة نبيلة)[1].

ومن شهاداته، شهادته حول مصادر قـوة الإسلام مقارنا لها بغيرها من الديانات: (هذا الإلحاح على الرفق والرعاية فى الحياة اليوميـة إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه. ويعادل هذا فى الأهمـية التوحيد الذى لا هوادة فيه، والذى يتجرد من كل اعتـزال يهودى، وهو توحيـد يدعمه القـرآن الكريم. وكان الإسلام منذ البـداية قوى المقاومة إلى حدّ بعيد لعمليات الصقل والتفاخـر اللاهوتية التى أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وقضت على روح عيسى. وكان مصدر قوته الثـالث فى وصفه الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة وبيانه الصريح عن المغزى المحدود العـرفى للأهمية المنسوبة إلى مكة. وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان، ولم يترك سم خياط مفتوحًا ينفـذ منه كاهن القربان فى الغفران القديم إلى مسرح العقيدة الجـديدة. . ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء ومـعلمون ووعاظ، ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة)[2].

ومن شهاداته شهـادته حول تسامح الإسلام: (كان الإسلام مليـئًا بروح الرفق والمساحة والأخوة، وكان عقيـدة سهلة يسيرة الفهم. . وقد وقفت ضـده اليهودية وهى التى أخذت من الرب كنزًا تكتنزه بيمينهـا، ثم المسيحية، وهى تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهـاية بالتثليث والمبادئ والهرطقات التى لم يكن ليستطيع أى رجل عادى أن يميـز فيها الرأس من الذنب، كما حاربته المزدكيـة نحلة المجوس الزرادشـتيين الذين أوحـوا بصلب مانى. ولم تكن كـتلة الناس الذين جاءتهم دعـوة الإسلام وتحديه، يهـتمون إلا بشىء واحـد هو أن ذلك الرب (الله) سبـحانه، الذى كان يبشـر به الرسول، كان بشهـادة الضمير المنطوية عليـه قلوبهم، رب صلاح وبرّ وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه - فى عالم تقلقل وخيانة وانقسامات لا تسامح فيها - على أخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة فى الأرض. . وقد أوصل محمد مبادئه الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية، دون أى رمزية مبهمة ودون أى تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس)[3].

ومن شـهاداته؛ شهـادته حول صـفاء التـوحيـد فى الإسلام، وخلوه من كل شـوائب الشرك: (يحتوى الإسلام. . الشىء الكثير من القوة والإلهام. فمن خصائصه التوحيد الذى لا هوادة فيـه، وإيمانه البسـيط المتحمّس بحكم الله للناس. . وخلوه من الـتعقيـدات اللاهوتية.

(1) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 640.

(2) معالم تاريخ الإنسانية، ص 3 / 642.

(3) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 642.

ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كاهن القرابين ومعبدها، وهو بمأمن حصين من كل انزلاق نحو القرابين الدموية. والقرآن حين يذكر طبيعة الحج إلى مكة بصورة محددة واضحة الشعائر، إنما يجعلها بمأمن من كل احتمال للنزاع فى شأنها. كما أن النبى اتخذ كل احتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته. وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن فى إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعًا متساوون تمامًا أمام الله، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم. هذه هى الأمور التى جعلت الإسلام قوة فعالة فى الشئون الإنسانية)[1].

ومن شهاداته شهادته حول أخلاقية الفتوحات الإسلامية: (أنشأ أبو بكر بذلك الإيمان الراسخ الذى يزحزح الجبال، ينصب نفسه فى بساطة وحسن تبصّر، لتنظيم إخضاع العالم بأسره لله، بجيوش صغيرة من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف عربى، بناء على تلك الرسائل التى بعث بها النبى من المدينة إلى ملوك العالم.. والحملات العسكرية التى بدأت عند ذاك، من ألمع ما خلد تاريخ العالم.. وكان المسلمون فى كل مكان يخيرون الناس بين أشياء ثلاثة: فإما أن تدفع الجزية، وإما أن تسلم بالله الحق وتنضمّ إلينا، وإما أن تقاتل.. ولم يحدث فى أى مكان شيء اسمه المقاومة الشعبية.. فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسى وبين العرب، كان العرب - أعنى عرب السنين العظيمة - أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهر، وكانوا أكثر عدالة وأوسع رحمة. وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من اليهود. وكما كان الحال فى الغرب كان كذلك فى الشرق إذا استمر الجهاد الإسلامى لنشر الإسلام)[2].

ومن شهاداته، شهادته حول الدور التحريرى الذى قام به الإسلام: (استطاع الجنس السامى فى بضع سنين باسم الله ورسوله أن يسترد تقريبًا كل الأملاك التى خسرها للفرس الآريين قبل ذلك بألف سنة، وسقط بيت المقدس مبكرًا.. وكان النصارى ينعمون بالتسامح فى مقابل دفع الجزية فقط، وتركت الكنائس بأسرها والآثار المقدسة بأجمعها فى حوزتهم)[3].

ومن شهاداته شهادته حول سر انتشار الإسلام، وتمكين الله له فى الأرض: (لقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه. وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوبًا بليدة سياسيًا، تسلب وتظلم وتخوّف ولا تعلم ولا تنظم، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أى شعب أصالة. كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب بنى الإنسان نظامًا أفضل من أى نظام آخر. وكان النظام الرأسمالى الاسترقاقى فى الإمبراطورية

---

(1) موجز تاريخ العالم، ص 202.

(2) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 643، 644 - 645.

(3) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 647.

الرومانية، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية فى أوروبا قد انحلت انحلالاً تامًا وانهارت قبل أن ينشأ الإسلام)(1).

ومن شهاداته شهادته حول المنجزات العظيمة التى حققها رسول الله ﷺ فى فترة وجيزة: (كان الذهن العربى قبل محمد بيضعة أجيال متقدًا بنار تسرى تحت الرماد، فكان يخرج الشعر والشىء الكثير من الجدل الدينى، وما لبث ذلك العقل.. حتى تأجّج فى تألق لا يفوقه إلا ما كان للإغريق فى أزهى عصورهم. فأحيا من جديد تأثر الإنسان للعلم. فلئن كان الإغريقى أبًا للطريقة العلمية، فقد كان العربى «شبينًا» لها وشريكًا له فى أبوتها. فمن العرب، وليس بوساطة الأرومة اللاتينية، تلقى العالم العصرى تلك المنحة من النور والقوة)(2).

وقال: (جاء من الصحراء العقل العربى الغفل، متوقدًا مستطلعًا، فاستوعب كثيرًا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرًا وتحسينه نوعًا. تعلم كثيرًا واستوعب كثيرًا)(3).

وقال: (سبق العالم الإسلامى الغرب بقرن أو ما يقاربه، إذ نمت به سلسلة من الجامعات العظيمة، فأضاء نورها تلك الجامعات خارج العالم الإسلامى إلى مسافات بعيدة، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب)(4).

وقال: (لقد قذفت المقادير بالذكاء العربى فى طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليونانى قبل ذلك بألف سنة خلت. لذا عظمت إلى أقصى حدّ الاستثارة الفكرية التى أحدثها وجودهم للعالم أجمع غربى بلاد الصين، كما اشتدّ تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة.. وكان العلم يثب على قدميه وثبًا فى كل موضع وطئته قدم الفاتح العربى)(5).

وقال: (عثر علماء العرب من الكيميائيين على مناهج العلم التجريبى الذى يوشك فى خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطانًا لا حدّ له على العالم كله، بل وعلى مصائره هو نفسه)(6).

سكت البابا، فقلت: إن هذا الرجل لا تنقصه إلا شهادة واحدة ليصبح من المسلمين.

ابتسم البابا، وقال: ومن ذكر لك بأنه لم ينطقها.

قلت: هل أشهر إسلامه، فى أى بلد تم ذلك، وأمام أى إمام؟

---

(1) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 649.
(2) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 662.
(3) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 663.
(4) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 664.
(5) معالم تاريخ الإنسانية، ص 209.
(6) موجز تاريخ العالم، ص 206.

قال: قد يكون أشهر إسلامه فى حقل من الحقول، أو جبل من الجبال، أو واد من الأدوية . .

قلت: والإمام؟!

قال: الملائكة، والجن الصالحون، وكل ذرة فى تراب الأرض، وفى جو السماء، ألا يكفى هؤلاء جميعا شهودا على الإيمان؟

**د. لويس يونغ:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (د. لويس يونغ)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل عنى بثمرات النبوة ومنجزاتها، وله شهادات صادقة فى ذلك:

منها شهادته حول التأثير العظيم الذى أحدثه الإسلام فى نفوس العرب، وفى حياتهم. . قال: (لقد كان ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية خيراً عظيماً ساقه الله إلى العرب قاطبة. ولكنه لم يشكل انفصالاً عن ماضى هذه الجزيرة. لقد غير فى ثقافة معاصريه بشكل فورى، ولكنه لم يطمس تمامًا تلك الثقافة)[2].

وقال: (فجر الإسلام فى العرب طاقات حماس كامنة، وجدت متنفسها فى إقامة إحدى الإمبراطوريات العظمى فى العالم)[3].

وتحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية، فقال: (بدأ القانون كتطبيق عملى للدين وللعلاقات الاجتماعية التى سنها النبى محمد، وهى لا تفرق بين موضوعى الدين والدنيا، ودراسة القانون عند المسلمين تعرف بالفقه (حرفيًا: الفهم). وتعتمد هذه الدراسة أساسًا على القرآن. ثم الحديث (كلام النبى محمد وأفعاله) ويصف السير هاملتون جب[4] بنيان هذا القانون بأنه (أحد الأبحاث الفذة للفكر البشر)[5].

وتحدث عن التسامح الإسلامى، فقال: (على الرغم من سجل أوروبا الطافح بالتزمت الفكرى واللاتسامح الدينى، على النقيض من المسلمين، فإنها ظلت ترفض الاعتراف بما للعرب من يد طولى على حضارتها وتتجاهل دورهم الحضارى وتقلل من شأنه)[6].

وقال: (إن التسامح الدينى الذى مارسه الإسلام فى القرون الوسطى، يفوق التسامح الدينى الذى مارسته المسيحية فى القرون الوسطى، حيث كاد ألا يكون هناك أى تساهل دينى مع اليهود أو المسلمين والآخرين الذين خضعوا لسلطان المسيحية)[7].

---

(1) د. لويس يونغ Lewis Young باحث إنجليزى، معاصر، وأستاذ جامعى، له العديد من المؤلفات والأبحاث، أبرزها كتاب: (العرب وأوروبا).

(2) العرب وأوروبا، ص 29 - 30.

(3) العرب وأوروبا، ص 32.

(4) Mohammedanism, P. 90 (London, 1953)

(5) العرب وأوروبا، ص 37 - 38.

(6) العرب وأوروبا، ص 9.

(7) العرب وأوروبا، ص 51.

وقال: (فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين نشأ مظهر آخر للتمثيل الدبلوماسى بين العرب وأوروبا تجلى فى منح الامتيازات وحق السكن للأجانب، وليس هذا بغريب على العرب. وكان هؤلاء الأجانب يستثنون من الأنظمة والقوانين المعمول بها محليًا. كما يسمح لهم بالعيش وفق أنظمتهم فى بلادهم. يقولون إن القانون يطبق على الأفراد وليس بحسب وجودهم فى الأرض الإسلامية وإنما بحسب انتمائهم القومى والدينى. فالشريعة الإسلامية تطبق على المسلمين. وهذا ما يفسر التسامح الدينى للمسلمين تجاه الأقلية المسيحية واليهودية التى سمح لها بممارسة حياتها الخاصة)[1].

وقال: (إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تمييزهم فروق الدين والعرق واللون)[2].

وتحدث عن تأثير الإسلام فى نهضة أوروبا، فقال: (نحن حينما نسلم اليوم أن آسيا وأفريقيا تتمثلان أوروبا قدوة لهما، يجب ألا ننسى الوجه الآخر للصورة فى العصور الوسطى عندما عكفت أوروبا على علوم العرب من طب وفلسفة وطبيعة واستمر ذلك لفترة طويلة. حتى إذا كان القرن الثامن عشر قبست منهم نار الرومانطيقية، وفى القرن التاسع عشر سلبتهم أراضيهم، ثم بترولهم فى القرن العشرين)[3].

وقال: (ما الذى تركته حضارة العرب والمسلمين فى أوروبا؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداء بالفولكلور.. وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل السمت Asimuth وسمت الرأس Senith. وهناك فى خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليها أسماء لبعض العلماء العرب كالزركلى والبستانى وأبى الفداء. إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية)[4].

وقال: (نفذ المسلمون بمعارفهم عن العالم القديم إلى الأوروبيين ونقلوا إليهم كشوفهم واختراعاتهم التى أضافوها إلى تلك المعارف)[5].

وقال: (إن تطوير المسلمين للتراث اليونانى هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافى فى العالم. وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة. ويجب ألا تغيب عن ذهننا - إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية - تلك الأفكار المبدعة التى جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليونانى فيصنعوا من ذلك لونًا جديدًا سبّاقًا فريدًا)[6].

(1) العرب وأوروبا، ص 161.
(2) العرب وأوروبا، ص 10.
(3) العرب وأوروبا، ص 9.
(4) العرب وأوروبا، ص 10.
(5) العرب وأوروبا، ص 12.
(6) العرب وأوروبا، ص 36.

وقال: (هناك أدلة واضحة تشير إلى أن مؤسسة (الجامعة) هى من المبتكرات الخالصة للحضارة العربية، وخلافًا لهذه الأدلة يحجم الكثير من المؤرخين الغربيين عن الإقرار بأن وجود الشبه بين الجامعات فى البلاد العربية وأوروبا لم يكن مجرد صدفة. رغم أن أحدًا منهم لا يجادل فى الحقيقة الثابتة القائلة بأن أكثر الكتب الجامعية التى كانت تدرس فى جامعات أوروبا إنما هى كتب مترجمة عن العربية فى القرون الوسطى. وإذا لم يكن هناك برهان آخر على التأثير الثقافى للحضارة الإسلامية فى أوروبا المسيحية فيكفى أن ننوّه بالارتباط الوثيق جدًا بين الجامعات الأوروبية نفسها وبين الثقافة الإسلامية، تلك الثقافة التى أمدت الجامعات الأوروبية بالكتب الدراسية. وتدل بعض الحقائق على أن القرون الوسطى للإسلام مهّدت لنشوء الجامعات فى أوروبا الوسطى. فقد نشأت الجامعات العربية وعملت قبل قيام الجامعات فى أوروبا بأكثر من قرن.. وقد لعبت الأخيرة حين ظهورها دورًا مماثلاً لمثيلاتها فى البلاد العربية.. ومازالت بقايا هذا النظام الجامعى متبعة فى جامعات أوكسفورد ولينكن واستر وهارتفورد.. إلخ.. ووجه الشبه الآخر بين الجامعات العربية والأوروبية تمثل فى التقليد القاضى بلباس أردية خاصة للأساتذة خلال المحاضرات، أو لبعض الأعمال الإدارية، وأن الرداء الجامعى المميز عادة متبعة فى أهم مراكز التعليم فى البلاد العربية قبل أن يصبح عادة فى الجامعة الأوروبية)[1].

**مونتجومرى وات:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (مونتجومرى وات)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين.. وقد كتب كتبا كثيرة عن رسول الله

---

(1) العرب وأوروبا، ص130.

(2) مونتجومرى وات Montgomery, Watt ولد فى كريس فايف فى1909 درس فى كل من أكاديمية لارخ 1914-1919 وفى كلية جورج واتسون بإدنبرة وجامعة ادنبره1927-1930وكلية باليول بأكسفورد 1930-1933 وجامعة جينا بألمانيا 1933وبجامعة أكسفورد وجامعة أدنبرة فى الفترة من 1938-1939و1940-1943 على التوالى.

عمل راعيًا لعدة كنائس فى لندن وفى أدنبره ومتخصص فى الإسلام لدى القس الأنجليكانى فى القدس، وعمل رئيسًا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة أدنبره فى الفترة من 1947-1979. نال درجة الأستاذية عام 1964. دعى للعمل أستاذًا زائرًا فى كل من الجامعات الآتية: جامعة تورنتو 1963و1978 وكلية فرنسا فى باريس عام 1970وجامعة جورجتاون بواشنطن عام 1978 -.1979

أصدر العديد من المؤلفات من أشهرها: (محمد فى مكة و(محمد فى المدينة) و(محمد نبى ورجل دولة) و(الفلسفة الإسلامية والعقيدة) و(الفكر السياسى الإسلامى) و(تأثير الإسلام فى أوروبا القرون الوسطى) و(الأصولية الإسلامية والتحديث) و(العلاقات الإسلامية النصرانية) ومن آخر كتبه (حقيقة الدين فى عصرنا) (1996) وكتاب (الفترة التكوينية للفكر الإسلامى) (1998) و(موجز تاريخ الإسلام) (1995) وغيرها كثير.

وقد ختم حياته بأن عمل راعيًا لإحدى الكنائس فى منطقة إدنبرة.

ﷺ. . وهو ـ ككثير من المستشرقين ـ قد تغلب عليه نفحات الصدق، فينطق بالحكمة، وقد تغلب عليه رياح الأهواء. . فينطق بما يرضى قومه.

قلت: فاذكر لى من صدقه ما نقلته عنه.

قال: من ذلك شهادته حول القرآن وما فى القرآن من الحكمة، لقد قال: (يعتبر القرآن قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء. وإنه لمن الجرأة الشك فى حكمة القرآن نظراً لنجاح محمد فى تبليغ الرسالة التى أمره الله بتبليغها)[1].

وقد تحدث عن استحالة المصدر البشرى للقرآن، فقال: (يجب علينا فى رأيى، مهما كان موقفنا الدينى، أن نعتبر رسالة القرآن انبثاقًا خلاقًا فى الوضع المكى. ولا شك أنه كانت توجد مشاكل تتطلب الحلّ، وأزمات حاول البعض تخفيفها، ولكن كان يستحيل الانتقال من هذه المشاكل وتلك الأزمان إلى رسالة القرآن بواسطة التفكير المنطقى. . ولا شك أن رسالة القرآن تحل مشاكل اجتماعية وأخلاقية وفكرية، ولكن لا تحلّها جميعًا دفعة واحدة وليس بصورة بديهية. ولربما قال مؤرخ دنيوى أن محمداً وقع صدفة على أفكار كانت بمثابة المفتاح لحل المشاكل الأساسية فى زمان ليس هذا ممكنًا. ولا يمكن للمحاولات التجريبية ولا للفكر النافذ أن يفند لنا كما يجب رسالة القرآن)[2].

وتحدث عن قوة الدواعى المثبتة لصدق رسول الله ﷺ، فقال: (هناك – على العكس – أسباب قوية تؤكد صدق (محمد) ونستطيع فى مثل هذه الحالة الخاصة أن نبلغ درجة عالية مّن اليقين، لأن النقاش حول هذه المسألة. .يعتمد على وقائع ولا يمكن أن يتضمن خلافًا فى التقدير حول الأخلاقية)[3].

وتحدث عن الصفات التى استطاع بها رسول الله ﷺ أن يحقق كل تلك المنجزات، فقال: (ليس توسع العرب شيئًا محتومًا أو آليًا وكذلك إنشاء الأمة الإسلامية. ولولا هذا المزيج الرائع من الصفات المختلفة الذى نجده عند محمد لكان من غير الممكن أن يتم هذا التوسع، ولاستنفذت تلك القوى الجبارة فى غارات على سوريا والعراق دون أن تؤدى لنتائج دائمة. ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أُوتيها محمد. وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد بأكمله. لقد أوتى أولاً موهبة خاصة على رؤية المستقبل. فكان للعالم العربى بفضله، أو بفضل الوحى الذى ينزل عليه حسب رأى المسلمين، أساس فكرى (إيديولوجى) حلت به الصعوبات الاجتماعية، وكان تكوين هذا الأساس الفكرى يتطلب فى

(1) محمد فى مكة، ص 135.
(2) محمد فى مكة، ص 135 – 136.
(3) محمد فى مكة، ص 497 – 498.

نفس الوقت حدسًا ينظر في الأسباب الأساسية للاضطراب الاجتماعي في ذلك العصر، والعبقرية الضرورية للتعبير عن هذا الحدس في صورة تستطيع إثارة العرب حتى أعمق كيانها. . وكان محمد ثانيًا رجل دولة حكيمًا. ولم يكن هدف البناء الأساسي الذي نجده في القرآن، سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية. ولقد ألححنا خلال هذا الكتاب غالبًا على استراتيجية محمد السياسية البعيدة النظر على إصلاحاته الاجتماعية، ولقد دلّ على بعد نظره في هذه المسائل الانتشار السريع الذي جعل من دولته الصغيرة إمبراطورية، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية على الظروف المجاورة واستمرارها خلال أكثر من ثلاثة عشر قرنًا. وكان محمد - ثالثًا - رجل إدارة بارعًا، فكان ذا بصيرة رائعة في اختيار الرجال الذين يندبهم للمسائل الإدارية. إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئًا مترددًا. وكانت الدولة التي أسسها محمد عند وفاته، مؤسسة مزدهرة تستطيع الصمود في وجه الصدمة التي أحدثها غياب مؤسسها، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد وتتسع بسرعة خارقة اتساعًا رائعًا)[1].

وقال: (كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام، تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل. ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصًا للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تمامًا. فلو لم يكن نبيًا ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله، لما كتب فصلاً مهمًا في تاريخ الإنسانية. ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام، من جديد، برجل هو أعظم رجال أبناء آدم)[2].

وتحدث عن النظام التوحيدي للمجتمع الذي جاء به الإسلام، فقال: (إن فكرة (الأمة) كما جاء بها الإسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق إليها ولم تزل إلى هذا الزمن ينبوعًا لكل فيض من فيوض الإيمان يدفع بالمسلمين إلى (الوحدة) في (أمة) واحدة تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة. وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها، بل كان المنشقّون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم إلى تعزيز وحدتها ولمّ شملها ونفي الغرباء عنها)[3].

وتحدث عن التأثير الإيجابي للعقيدة الإسلامية، فقال: (إن عقيدة الإسلام تزوّد أبناءه في كل عصر (بالصورة المحركة) التي ينظرون إليها ويترسّمونها (Dynamic Image) أي الطيف

(1) محمد في مكة، ص 510 - 511.

(2) محمد في مكة، ص 512.

(3) الإسلام والجماعة المتحدة، عن: العقاد، ما يقال عن الإسلام، ص 183.

أو المثال الذى يحفز السائر إلى الحركة والتقدم ويهوّن عليه مشقة الطريق.. وسرّ هذه القوّة فى العقيدة الإسلامية أنها منحت الفرد مقياسًا للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والمنعة وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة، وأنها - مع هذا الاستقلال الفردى - لم تترك الجماعة بغير وجهة تصمد عليها، فأبدعت لها فكرة (الأمة) وحررت هذه الفكرة من ربقة العصبية وحدود الوراثة، فأصبح معنى (الأمة) قابلاً للتطور مع الحوادث و(الظروف)[1].

وتحدث عن تسامح الإسلام، فقال: (يعنى التأكيد - على إخضاع مشركى الجزيرة للإسلام - أن الإسلام قد انتشر بحدّ السيف. حقًا أن القبائل الوثنية فى الجزيرة العربية كان عليها أن تختار الإسلام أو السيف[2]، إلا أن تعامل المسلمين كان مختلفًا تجاه اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وغيرهم ممن اعتبرت دياناتهم شقيقة للإسلام، رغم الدعوى القائلة بأن الأتباع المعاصرين لتلك الديانات قد ابتعدوا عن جوهرها. ومهما كان الأمر فقد كان بالإمكان قبولهم نوعًا من الحلفاء للمسلمين فى معظم الأقطار التى فتحتها العرب. لذلك فإن غرض الجهاد لم يكن يهدف إلى تحويل أولئك السكان نحو الإسلام بقدر ما كان يهدف إلى اعترافهم بالحكم الإسلامى وبمنزلة أناس يحميهم الإسلام. وبعامة فإنهم (أهل الذمة). وكانت الطائفة الذمية مجموعة من الناس تعتنق ديانة واحدة لها استقلالها الداخلى برعاية رئيس دينى كالبطريك أو الرابى، وكان على كل فرد من أفراد المجموعة الذمية دفع ضريبة شخصية إلى الحاكم المسلم، إضافة على مبالغ مختلفة أخرى تحدد استنادًا على شروط الاتفاقية مع المجموعة. وكانت تلك الضرائب أحيانًا أقل وطأة من الضرائب التى كانت تدفع للحكام السابقين. وكانت حمايتهم بصورة فعالة بالنسبة للدولة الإسلامية تمثل كلمة شرف تلتزم بها الدولة وتنفذها ثم إن وضع أهل الذمة لم يكن سيئًا رغم بعض القيود المفروضة عليهم)[3].

وتحدث عن الأسباب الحقيقية وراء انتشار الإسلام، فقال: (كانت هناك مناطق مثل شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا انتشر الإسلام فيها نتيجة نشاط رجال الأعمال إذ لم يكن للمسلمين فى تلك المناطق الوثنية أية سرية فى ممارسة الصلاة خمس مرات يوميًا، وأن إخلاص هؤلاء المسلمين والتزامهم المتزن بالإسلام الحنيف أذهل الوثنيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع المسلمين مما أدى إلى اعتناق الإسلام والاختلاط عن طريق الزواج إلى تكوين مجتمعات إسلامية صغيرة وسط المناطق الوثنية ونمت تلك المجتمعات بصورة تدريجية)[4].

---

(1) الإسلام والجماعة المتحدة، عن: العقاد، ما يقال عن الإسلام، ص 184.

(2) سترى التفاصيل المرتبطة بهذه الشبهة فى رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

(3) تأثير الإسلام على أوروبا فى العصور الوسطى، ص 13 - 14.

(4) تأثير الإسلام على أوروبا فى العصور الوسطى، ص 30.

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية فى العالم، فقال: (درس الباحثون مختلف الطرق التى أثر العالم الإسلامى من خلالها على أوروبا فى العصور الوسطى، وقد نشرت نتائج دراساتهم هذه فى العديد من المقالات والكتب العلمية، إلا أنه من النادر أن نجد محاولة للنظر فى التأثير الإسلامى هذا بصورة إجمالية ولتقييم أهمية أثره على أوروبا ومدى استجابة أوروبا له. لذلك فإن الغرض من هذه السلسلة من المحاضرات هو إعطاء نظرة شاملة لهذه التأثيرات ولردود الفعل عليها. . إن وجهة نظرى ستختلف عن وجهة نظر المؤرخ الأوروبى، فأنا لا أفكر فى المسلمين كأجانب غزوا أوروبا بل سأنظر إليهم باعتبارهم أصحاب حضارة ذات إنجازات عظيمة عمت بفضلها جزءًا كبيرًا من العالم وامتدت فوائدها إلى الأقاليم المجاورة)[1].

وقال: (إنه لمن المناسب أن تصدر دراسة عن التأثيرات الإسلامية على أوروبا فى هذا الوقت الذى يزداد فيه ترابط المسلمين والمسيحيين العرب مع الأوروبيين فى هذا العالم الواحد. وقد لوحظ فى وقت ما أن الكتاب المسيحيين فى أوروبا خلال العصور الوسطى قد كونوا صورة مشوهة عن الإسلام من عدة جوانب إلا أنه بفضل محاولات الباحثين فى القرن الماضى. بدأت تتكون صورة أكثر موضوعية فى أذهان الغربيين إذ ليس لدينا نحن الأوربيين - على أية حال - القدرة على استيعاب فضل المسلمين على ثقافتنا، إذ أننا نقلّل أحيانًا من قيمة التأثيرات الإسلامية ومقدار أهميتها على تراثنا وأحيانًا نغض الطرف عنه كليًا. ومن أجل علاقات طيبة مع العرب والمسلمين علينا الاعتراف بكامل فضل المسلمين علينا، أما محاولاتنا إنكار ذلك فما هو إلا علامة من علامات الغرور الكاذب)[2].

وتحدث عن الأسباب الحقيقية تشويه الإسلام فى أوروبا فى العصر الوسيط، فقال: (إن تشويه صورة الإسلام بين الأوروبيين كان ضروريًا لتعويضهم عن الشعور بالتّخلّف)[3].

وتحدث عن إيجابية تشريع (تعدد الزوجات)، فقال: (إن الفكرة الرائدة فى القرآن، هى أنه إذا تبنى المسلمون تعدد الزوجات، فإن جميع الفتيات اللواتى هن فى سن الزواج يمكنهن الزواج بصورة حسنة)[4].

وقال: (كان تعدد الزوجات عادة غريبة على تفكير أهل المدينة. وقد عالج هذا التغيير المساوئ التى نتجت عن ازدياد النزعة الفردية. إذ أن تعدد الزوجات يسمح للنساء الكثيرات بالزواج الشريف، كما يضع حدا لاضطهاد الأرامل اللواتى تحت الوصاية، كما يخفف من

(1) تأثير الإسلام على أوروبا فى العصور الوسطى، ص 5.
(2) تأثير الإسلام على أوروبا فى العصور الوسطى، ص 5 - 6.
(3) تأثير الإسلام على أوروبا فى العصور الوسطى، ص 131
(4) محمد فى المدينة، ص 422.

إغـراء الزواج المؤقت الذى يسـمح به مجـتمع عـربى ذو عـوائد أميـة. ويجب اعـتبـار هذا الإصلاح، بالنظر لبعض العادات السائدة آنذاك، تقدمًا مهمًا فى تنظيم المجتمع)[1].

وتحدث عن مزايا النظم الإسلامـية المرتبطة بالأسرة، فقال: (لقد قام محـمد فى ميدان الزواج والعلاقات العـائلية، بتنظيم عميق وواسع للبنـاء الاجتماعى. وقد وجـدت قبله نزعات جديدة فردية، ولكن أثرها كان هدامًا أكثر منه بناء. وكـان عمل محمد بهذا الصدد يقوم على استـخدام هذه النزعات الـفردية لتكون بناء جديدًا. فـقد انهارت عـادات المجتـمعات القـبلية وتقاليـدها، فأنقذ مـحمد منهـا ما يمكن إنقاذه وحـوله إلى المجتمع الفـردى الجديد. وهكذا استطاع توليد نظام عائلى ظهر مرضيًا ومغريًا فى مجتمع ينتقل من مرحلة الجماعية إلى مرحلة الفردية)[2].

وتحدث عن أهداف أحكام المواريث فى الشريعـة الإسلامية، فقال: (كانـت التشريعات القرآنية تهدف إلى أن لا يتعدى الوصىّ على حقوق أى قاصر أو امرأة فى الميراث الطبيعى)[3].

وتحدث ناصحا المسلمين أن يقدموا صورة حسنة عن الإسلام ترفع الشبهات الكثيرة التى ينشرها المغـرضون حوله، فـقال: (لا تزال - للمسلمـين - إمكانية فى تقديم دفـاعهم بشكل أفضل وأكمل لسائر العالم. فهل بإمكانهم الالتفات إلى حياة محمد، واستخلاص القيم العامة بعد فصلها عن التأثيرات الخـاصة، واكتشاف مبادئ أخلاقية تكون إضافة فـعلية لتحسـين حالة العالم اليوم؟ أو هل يستطيعون، على الأقل، أن يظهروا أن نبيهم يقدم، بحياته، أحد النماذج الممكنة للإنسان المثـالى الذى يعيش فى عالم موحد القـيم الأخلاقية؟ إذا قدم المسلمـون دفاعًا بارعًا، فهناك مسيحيون على استعداد للاستماع إليهم والأخذ عنهم كل ما يمكن أخذه)[4].

ويتحـدث عن قدرة المسـلمين إذا مـا رجعوا للإسـلام على قيـادة العالم فـى الجوانب القيمية، فقال: (لسوف ينجح المسلمون بصـعوبة فى جهدهم للتأثير على الرأى العام العالمى، على الأقل فيما يتعلق بالمبادئ الأخـلاقية. وربما أمكنهم، فى ميدان الأفكار الدينية الأوسع أن يساعدوا على إغـناء العالم لأنهم احتفظوا بقـوة كبرى فى التعبـير عن بعض الأفكار كحقـيقة الله، تلك الأفكار التى أهملت ونسيت فى كثير من الطوائف والأديان الأخرى الموحدة)[5].

قلت: بالرغم مما وقع الـرجل فيـه من أخطاء، فـإن هذه الشهـادات تنبئ عن صـدق عظيم..

---

(1) محمد فى المدينة، ص 423 - 424.
(2) محمد فى المدينة، ص 441.
(3) محمد فى المدينة، ص 443.
(4) محمد فى المدينة، ص 508 - 509.
(5) محمد فى المدينة، ص 509.

قال: ولو أن الرجل وجد تمثيلا صحيحـا للإسلام، ودفاعا صادقا عنه ـ كما طلب ـ لما وقع فيما وقع فيه.

**ج. ن. د. اندرسن:**

من الأسماء التى رأيـتها فى دفتر البـابا فى هذا الفصل اسم (ج. ن. د. اندرسن)(1)، فسألت البابا عنه، فـقال: لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير الإسلام فى الأفارقـة، فقال: (لقد تكررت ملاحظة الآثار العمـيقة التى أحدثهـا مجىء الإسلام فى حياة الزنوج فى أفـريقيا وفى ثقافتهم. وهكذا يذهب (ميك) إلى حد القول: إنه (يعنى الإسلام) لم يؤدّ إلى تغييرات عميقة فى التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحـسب، وإنما أتى معه بحضارة جديدة، أعطت الأجناس الزنجية المولدة الطابع الثقافى المـميز الذى يحملونه اليوم ومازال مسيطرًا على حيـاتهم السياسية ومؤسساتهم الاجـتماعية.. إن الإسلام جاء بالحـضارة إلى القبائل البربرية (الهمـجية) وحول جماعات منفصلة من الوثنيـين إلى أمم، إنه جعل الخطوة مع العالم الخارجى ممكنة، إنه وسع النظر. ورفع مستوى المعيشـة بإنشائه جوًا اجتماعيًا راقيًا، وأسـبغ على أتباعه الوقار، واحترام النفس، واحـترام الناس. إن الإسـلام أدخل فن القراءة والـكتابة، وبفـضله تم تحريم تعـاطى المسكرات.. والثأر والعادات البربرية الأخرى وجعل من الزنجى السودانى مواطنًا عالميًا)(2).

وقال: (هناك مـدارس فى كل بلدة مسلـمة فى نيجـيريا الشـمالـية يقوم بها المـعلمون (المالام) خاصة فـيرسل الوالدون أطفالهم فى سن مـبكرة جدًا.. وفى المراكز الكبرى يـحضر الأطفال إلى الصف ساعة فى الصباح وساعة فى المساء. والإناث يتلقين التعليم أيضًا)(3).

**ريشار وود:**

من الأسـماء التى رأيتها فى دفتـر البابا فى هذا الفصل اسم (ريشار وود)(4)، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الـرجل شهادات صاقة عن سماحة الإسلام، منهـا قوله: (ميز صاحب الشريعـة الإسلاميـة بين أهل الكتاب - وهم النصارى واليـهود - وبين المشركـين من العرب الذين تعرضـوا لما أنزل الله على رسوله. ولقد وقع بين الخليـفة الثانى عـمر بن الخطاب وبين بطريق بيت المقدس اتفاق يضمن حماية النصـارى ومنحهم امتيازات، وفى بها. ثم تولى الأمر بعده خلفاؤه إلى زمن السلاطين الآن. وبهـذا بقيت طوائف نصرانية متعددة آمنة ناميـة مترفهة

---

(1) ج. ن. د. اندرسن S. N. D. Anderson مـستشرق بريطانى. من آثاره: (الشـرع والفقه الإسلامى)، (صحيح القانون المقارن، 1949)، و(جريمة القتل فى الإسلام، 1951. وغيرها.

(2) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص 405 - 406.

(3) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص 407 - 408.

(4) السـير ريشار وود R. Wood قائد عـسكرى، ورجل دبلوماسى بريطانى، عـمل قنصلاً لدولته فى دمشق فى سـتينات القـرن الماضى، ثم نقل إلى تونس لكى يكون وكـيل بلاده السيـاسى هناك، كانت لـه صلات عديدة بعلماء المسلمين وشيوخهم.

تحت حكم المسلمين، بل كانت فى بعض الأحيان تمتاز حالتها الاجتماعية على حالة مواطنيها من المسلمين)[1].

وقال: (إن الذى يبحث بحثًا دقيقًا عن أسباب الفتن التى سفكت فيها الدماء فى المشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو إصبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوى الأحقاد. ولم يكن أولئك المفسدون يحسبون أن هذه الفتن تجر إلى القتل والفظائع. ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة، وواقعة الصقالبة والبلغاريين، فقد تبين أن الاعتداء إنما كان يبتدئ من جانب النصارى)[2].

وقال: (إن القرآن قد سمح للذميين بحرية ممارسة شعائر دينهم، وأوجب مساواتهم فى الحقوق المدنية والجنائية مع سائر الأهالى، ولم يمنع من استشارتهم فى مصالح الوطن)[3].

وقال: (إن النصارى فى الدولة العثمانية متمتعون بالحرية التامة.. ونحن لم ننفرد بهذا القول فإن كثيرين من علماء الإنجليز والروس ألفوا كتبًا أكدوا فيها أن أرباب الفلاحة خارج البلاد العثمانية يحسدون البلغار العثمانية على حسن حالهم وأمنهم فى منازلهم وبساتينهم الخصبة وما تحت يدهم من الأطيان والمواشى، وصوامع كنائسهم مشرفة على كل الجهات. بل يقول هؤلاء المؤلفون أن البلغار العثمانيين أحسن حظًا من المسلمين العثمانيين)[4].

وقال: (للرؤساء الروحيين والأساقفة فى الدولة العثمانية أن يتوسطوا لدى رجال الحكومة فى حماية أبناء طوائفهم، وهذا زيادة فى الاحتياط لكيلا ينال غير المسلمين حيف أو ظلم.. وقد زالت تمامًا الموانع التى كانت موجودة فى سبيل تشييد الكنائس والمجامع اليهودية، وأبيح لغير المسلمين من عثمانيين وأجانب إنشاء ما يشاءون من المعابد. والواقع أن الكنائس كثر عددها جدًا وقد اعترف بذلك القسس الأميركيون. ومما يبرهن على تساهل الحكومة العثمانية فى ذلك إعفاؤها كل ما يجىء برسم الكنائس والأديار والمستشفيات وغيرها من الضريبة الجمركية.. وهذا أمر لا نعلم أنه يوجد فى بلاد أخرى. وزيادة فى عناية الدولة العثمانية بحماية غير المسلمين صدر أمر سلطانى ينذر بالعقاب كل من يصدّهم عن عبادتهم.. ولا ريب فى أن الدولة العثمانية قد صرفت جهد الطاقة لإرضاء رعاياها النصارى واليهود، وإزالة الفروق التى كانت موجودة بينهم وبين المسلمين، ومشاركتهم فى الإدارة العامة، وتقليدهم المناصب الرفيعة، وإعلاء شأنهم وإثبات حقوقهم. وفوق ذلك كله فهى قد أذنت لهم بعقد جمعيات تتفاوض فيما تراه صالحًا لدينهم ودنياهم.. حتى صار النصارى يتعلمون من دولة إسلامية ما يرمى إليه الدين من الحضّ على الرفق واللين والتساهل والصبر.. أما

(1) الإسلام والإصلاح، ص 19 - 20.
(2) الإسلام والإصلاح، ص 20.
(3) الإسلام والإصلاح، ص 21.
(4) الإسلام والإصلاح، ص 22.

اعتـراض المعترضين بأن المسـاواة بين الطوائف غير كـاملة - ما دام النصارى لم يشتـركوا فى الجندية العـثمانيـة - فجوابنـا عليه أن الذنب فى ذلك على النصـارى أنفسهـم لا على الباب العالى، إذ النصارى مع حـرصهم على نوال كل الحقوق لم يقبلوا أن يدخلوا تحت مـا يقابلها من الواجبات)[1].

**آرثر ستانلى تريتون:**

من الأسماء الـتى رأيتها فى دفتـر البابا فى هذا الفصل اسم (آرثر ستـانلى تريتون)[2]، فسـألت البابا عنه، فـقال: لقد تحـدث هذا الرجل بصدق عن تسامـح المسلمين، فقـال: (أما النواحى الشرقـية القصوى من الدولة الإسـلامية فإن الشعـوب المحكومة كانت تعامل مـعاملة تنطوى على مثل هذا العطف الذى حظيت به فى النواحى الأخرى)[3].

وقـال: (ولما تدانى أجل (عمـر بن الخطاب) أوصى من بعـده وهو على فـراش الموت بقوله: (أوصى الخليـفة من بعدى بأهل الذمـة خيرًا، وأن يوفى لهم بعهـدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فـوق طاقتهم)[4] وفى الأخبـار النصرانية شهـادة تؤيد هذا القول، وهى شهادة (عـيشويابه) الذى تولى كرسى البطريـركية من سنة 647 على 657م إذ كتب يقول: (إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، إنـهم ليسوا بأعداء للنصرانـية بل يمتـدحون ملّتنا ويوقـرون قسيـسينا وقدّيسـينا، ويمدون يد المعـونة إلى كنائسنا وأديرتنا). والظاهر أن الاتفاق الذى تم بين (عيشـويابه) وبين العرب كان من صالح النصارى، فقد نصّ على وجوب حمايتهم من أعدائهم، وألا يحملوا قسرًا على الحرب من أجل العرب، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعـاداتهم وممارسة شعائرهم، وألا تزيد الجزية المجبـاة من الفقير على أربعة دراهم، وأن يؤخذ من التاجر والغنى اثنا عشـر درهما، وإذا كانت أمة نصرانية فى خدمة مـسلم فإنه لا يحق لسيدها أن يجـبرها على ترك دينها أو إهمال صلاتـها والتخلى عن صيامها)[5].

---

(1) الإسلام والإصلاح، ص 25 - 27.

(2) آرثر ستانلى تريتون A S Tritton ولد عام 1881 وتعلم فى عدد من الكليات البريطانية وعـين مساعد أستاذ للعربيـة فى أدنبرا (1911) وكلاسكو (1919) وأستـاذ فى عليكرة فى الهند (1921) ومدرسـة الدراسات الشرقية والأفـريقية بلندن (1931-38-47) وقد وجه جل اهتـمامه إلى الفقـه وطوّف فى عدد من البلدان العربية.

من آثاره: (أئمة الزيدية بصنعـاء واليمن) (1925)، (الخلفاء ورعـاياهم من غيـر المسلمين) (1930)، (علم الكلام فى الإسلام) (1947)، (الإسلام إيـمان وشعـائر) (1950)، (مواد فـى التربيـة الإسلامـية) (1957). كمـا نشر عـددًا من الأبحاث فى المجـلات الاستـشراقـية وبخـاصة (مـجلة الجمـعية الملـكية الآسيوية).

(3) أهل الذمة فى الإسلام، ص 43.

(4) يحيى بن آدم: كتاب الخراج، ص 54.

(5) أهل الذمة فى الإسلام، ص 158 - 159.

وقال: (كان العرب فى أيامهم الأولى يلتزمون جادة الصبر والأناة، إذ كثيراً ما نقرأ عن مدن استسلمت بشروط، ثم ثارت وتمردت على العرب، ثم استسلمت مرة أخرى فأعادوا لها عهودها الأولى)[1].

وقال: (ومن الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية فى معاملتها الذميين ما جاء فى الأمر الذى وجد بين أوراق البردى اليونانية المحفوظة فى (المتحف البريطانى)، وعلى الرغم من فساد قسم منه فقد جاء فى الباقى "خوفًا من الله، وحفظًا للعدالة والحق فى توزيع القدر المفروض عليهم.. ولكن تجب معاملة الجميع بالعدل، وأخذ الشىء من كل منهم بقدر طاقته)[2].

**سرارنست باركر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (سرارنست باركر)[3]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير المسلمين فى الحضارة الغربية، فقال: (وصلت حضارة المسلمين درجة متقدمة فى إسبانيا وصقلية لا بل تسامت إلى الجوزاء، حتى انتقل تأثيرها منهما إلى فرنسا وإيطاليا. وامتدت فلسفة قرطبة وعلى رأسها معلمها الأعظم (ابن رشد) حتى دخلت جامعة باريس، وازّينت بالرموز بمعان: عربية وحفلت بجغرافيين وشعراء عرب إبان حكم ملوكهم النورمان.. قصد القائل أن ثمار الثقافة التى كسبها الغرب من العناصر الإسلامية التى لم تبق طويلاً كانت، على الأقل، تعادل بأهميتها التأثير الذى خلفه الشرق فى الغرب أثناء الحروب الصليبية)[4].

وقال: (علينا أن نذكر ونعيد القول بأن الإسلام قد سبق فثبتت أصوله فى الغرب واستطاع أن يخلف آثاره فى إسبانية وصقلية.. وبالإمكان أن نرى أن تأثير الإسلام فى الغرب المسيحى فى قاعدتيه هاتين كان أشد مما هو فى مراكزه (الموصل وبغداد والقاهرة)[5].

وقال: (الحق يقال إن الغرب ما زال يستخدم مصطلحات عربية فى عالم التجارة.. وكذلك ثبتت مصطلحات بحرية ملاحية وأخرى منزلية.. هذه الكلمات مازالت تستعمل أو أنها كانت دارجة الاستعمال فيما مضى)[6].

(1) أهل الذمة فى الإسلام، ص 160.

(2) أهل الذمة فى الإسلام، ص 163 - 164.

(3) سرارنست باركر (1874-1960) Prof. Sir Ernest Barker من كبار الباحثين، كان أستاذًا للعلوم السياسية فى كمبردج 1928-1939، وأستاذًا لنفس المادة فى جامعة كولون 1927-1928.

من آثاره: (الفكر السياسى لأفلاطون وأرسطو) (1906)، (الفكر السياسى فى إنكلترا منذ أيام هربرت سبنسر حتى الآن) (19159)، (نظرات فى الحكم) (1942)، (مبادئ النظرية الاجتماعية والسياسية) (1951)، (التراث الأوروبى).. إلخ.

(4) تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص 79.

(5) تراث الإسلام، ص 91.

(6) تراث الإسلام، ص 97 - 98.

وقال: (كان عرب إسبانيا.. هم الذين أهدوا إلى الغرب اللاتينى هباتهم النفسية فى ميادين العلم والفلسفة.. وكان الطب كالرياضيات ومن مفاخر العلوم العربية وأركانها الوطيدة)[1].

**ستانلى لين - بول:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ستانلى لين - بول)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن اهتمام الإسلام بالعلم، فقال: (لم يحدث فى تاريخ المدنية حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائى بالثقافة الذى حدث فى جميع أنحاء العالم الإسلامى. فكان كل مسلم، من الخليفة إلى الصانع، يبدو كأنما قد اعتراه فجأة شوق إلى العلم وظمأ إلى السفر وكان ذلك خير ما قدّمه الإسلام من جميع الجهات. وكان تهافت طلاب العلم على مركز مثل بغداد، ومن بعدها على المراكز الأخرى التى كانت مهدًا للآداب والعلوم، شبيهًا بذلك التيار الحديث من العلماء الأوروبيين الذين كانت تموج بهم الجامعات بحثًا وراء العلم الجديد بل لقد كن أكثر منه روعة!)[3].

وقال: (أما المساجد، وهى التى كانت - ومازال بعضها - جامعات الإسلام، فإنها عجّت بالطلبة الذين ملأتهم الرغبة فى العلم وقد جاءوا للاستماع إلى محاضرات العلماء فى علوم الدين والشريعة والفلسفة والطب والرياضة. وقد جاء العلماء أنفسهم من جميع أرجاء العالم الذى كان يتكلم باللغة العربية.. وكان يرحب بكل طالب مهما كانت جنسيّته)[4].

وتحدث عن تأثير العلوم الإسلامية فى الغرب، فقال: (كان كل ما عرفته أوروبا فى العصور الوسطى من فلسفة إغريقية ومن علوم رياضية وكيمياء وفلك وطب مأخوذًا فى الأصل من المؤلفات والرسائل العربية المترجمة إلى اللغة اللاتينية وقد احتفظت هذه المؤلفات بمكانتها فى المدارس الأوروبية حتى القرن السادس عشر بل والسابع عشر كذلك)[5].

وتحدث عن دور المسلمين فى حفظ التراث الإنسانى، فقال: (إن القوة الموحدة للغة واحدة وديانة واحدة قد جعلت من الممكن أن يحفظ العصر الذهبى لثقافة العرب تراث الإغريق والرومان وينقله إلى العالم الحديث. إن اللغة العربية أدبها الهائل الخالد، إلا أن

---

(1) تراث الإسلام، ص 105.

(2) د. ستانلى لين - بول (1832-1895) Stanley Lane - Pool أستاذ اللغة العربية فى كلية ترينتى بدبلن (1898-1904). عالم فى الآثار المصرية. عين سنة 1877 حافظًا للنقود فى المتحف البريطانى حتى وفاته.

من آثاره: (فهرس النقود الشرقية فى المتحف البريطانى) (1875-1890) فى عشرة أجزاء، (الخلافة فى الشرق)، (الأسر الصغيرة الحاكمة فى الشرق)، (المغول)، (العثمانيون)، (صلاح الدين وسقوط مملكة القدس).. إلخ.

(3) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن) 4/ 607.

(4) تاريخ العالم: 4 / 607 - 608.

(5) تاريخ العالم: 4 / 608 - 609.

فضلها الكبير على العالم يتركز فيما قدمته له من خدمة جليلة فى حفظ الحضارة العظيمة القديمة ونشرها فى وقت كانت فيه أوروبا تتخبط فى ظلمات الجهل والأمية. إن سحر اللغة العربية وحماسة طلابها هما اللذان مهدا الطريق لحركة إحياء العلوم)[1].

**إدوارد كيبون:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (إدوارد كيبون)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن صمود الإسلام، فقال: (إن ما يثير دهشتنا هو ثبات الإسلام لا انتشاره، فإن نفس الطابع النقى الكامل، الذى كان له فى مكة والمدينة، ما زالت تجيش به صدور المسلمين فى الهند وأفريقيا وتركيا)[3].

وتحدث عن المنجزات العظيمة التى حققها رسول الله ﷺ، فقال: (إن فى عبقرية النبى العربى، وفى خلال أمته وفى روح دينه، أسباب انحلال الدولة الرومانية الشرقية وسقوطها، وأن أبصارنا لتتجه دهشة إلى ثورة من أعظم الثورات التى طبعت أمم الأرض بطابع خالد)[4].

**برنارد شو:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (برنارد شو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل يتربع على قمة قمم الصادقين.. وهو لذلك يحظى باحترام كبير لدى جميع المسلمين:

فمن شهاداته حديثه عن حيوية الإسلام بقوله: (لقد وضعت دائمًا دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته العظيمة، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز على أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذابًا لكل زمان ومكان، لقد صور (أكليروس القرون الوسطى) الإسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل وإما بسبب التعصب)

وتحدث متأسفًا على الأباطيل التى تنتشر بين قومه عن الإسلام، فقال: (مضت على الغرب القرون وهو يقرأ كتبًا ملأى بالأكاذيب على الإسلام)

وله أحاديث عذبة صادقة عن رسول الله ﷺ.. منها قوله: (لقد درست محمداً باعتباره رجلاً عظيمًا فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى (منقذ البشرية)،

---

(1) تاريخ العالم: 4 / 618.

(2) إدوارد كيبون (1737 - 1794) Edward Gilbbon ولد فى بلدة بتنى بجنوب إنكلترا، من أسرة غنية. كان أبوه عضواً فى البرلمان الإنجليزى، درس فى جامعة أكسفورد، وفى لوزان بسويسرا سافر إلى أكثر من بلد، وفاز بمقعد فى مجلس العموم البريطانى. يعد كتابه: (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) الذى صدر فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، واحداً من أهم الأسفار التاريخية. وقد أعيد طبعه مراراً، وترجم إلى معظم اللغات الأوروبية.

(3) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، (عن محمد عبد الله عنان- مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص 11)، وانظر الأدلة الكثيرة المثبتة لهذا فى رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود)

(4) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص 12)

وإننى لأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى حكم العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما، وفى الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومى من أهل أوروبا فى دين محمد حتى ليمكن أن يقال إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ، لقد بدأت أوروبا الآن تعشق الإسلام، ولن يمضى القرن الحادى والعشرون حتى تكون أوروبا كلها قد بدأت تبتعين به فى حل مشاكلها)

ومنها قوله: (إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينًا واضحًا قويًا، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم)

ومنها قوله: (لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحدًا، سوى محمد، كان صاحب رسالة وبانى أمة، ومؤسس دولة... هذه الثلاثة التى قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التى توحدها على مدى التاريخ)

وفى مقابل هذا تحدث عن المخاطر التى يحملها الكتاب المقدس على القيم، فقال بأسلوبه الساخر: (الكتاب المقدس من أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، فاحفظوه فى خزانة مغلقة بالمفتاح، احفظوه بعيداً عن متناول الأطفال)

سكت البابا، فقلت: إنى كلما قرأت كلمات هذا الرجل عن رسول الله ﷺ أشعر بأن له من الأحاديث ما لم تفطن لها الكتب، ولم يفطن لها المؤرخون.

قال: الأمر كذلك.. فما أكثر غفلة الكتب عن أحاديث القلوب، وما أكثر غفلة المؤرخين عنها.

* * *

## 4 - أصدقاء من أمريكا

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من أمريكا).. فقلت: أتكتب اسم أمريكا فى كتاب يبحث عن القلوب التى تحب محمدا؟

قال: وما يمنعنى من ذلك؟

قلت: إن أمريكا هى السيف الذى سلط على رقاب المسلمين، وهى القنبلة النووية التى يوشك أن تبيدهم.

قال: ألم تر فى ثمار النبوة صمود شجرة الإسلام؟

قلت: بلى.. ولكن الحرب التى توجه له فى هذا العصر أعتى من كل الحروب.. والوسائل التى تستخدم فيها لم تحلم بها الشياطين.

قال: ومع ذلك، فسيخرج الإسلام كشأنه كل مرة مرفوع الهامة، عالى الراية.

قلت: متى ذلك؟

قال: أنتم الذين تحددون ذلك.. عندما تصدقون مع الله لن تؤذيكم بعوضة.

قلت: إن من قومنا من يحملون أسلحة كثيرة.. وهى من أعظم دلائل الصدق.

قال: الصدق لا يحتاج إلى أسلحة.. الصدق لا يحتاج إلا للقلوب الطاهرة الممتلئة بألحان السلام..

قلت: فهل فى أمريكا من يسمع للسلام؟

قال: فى أمريكا من يسمع للسلام وللإسلام.. وهم كثيرون، بل لا يكادون يحصون.

قلت: لقد ذكرتنى، فقد قرأت قبل فترة، فى مجلة (تايم) تحقيقًا بعنوان (الأمريكيون يولون وجوههم خمس مرات نحو مكة) قالت فيه: (إن المسلمين فى أمريكا أصبح صوتهم مسموعًا، وأصبحت لهم كلمة أكثر من أى وقت مضى بعد أن كان اللوبى الصهيونى له اليد العليا، وكان الأمريكيون منذ أكثر من عشرين عامًا ينظرون إلى الإسلام على أنه من الديانات المتخلفة، ولكن بعد دخول عدد كبير من المسلمين المهاجرين إلى الإسلام سواء من السود أو البيض، بدأ الأمريكيون يغيّرون نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين فى أمريكا)[1].

قال: لقد بدأت النبوءة تتحقق، فقد ذكرت صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية أن الإسلام ينتشر بسرعة فائقة وبصورة لافتة للنظر، وأضافت أن مدن نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو وديترويت أصبحت مراكز كبرى للدين الإسلامى.

---

(1) انظر جريدة المسلمون، العدد 279.

**ول ديورانت:**

من الأسمـاء التى رأيتها فى دفتـر البابا فى هذا المحل اسم (ول ديورانت)(1)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل هو مؤرخ الحضارات الأكبر..

قلت: أعلم ذلك.. ولكنى أسألك عن شهاداته عن الإسلام؟

قال: لهذا الرجل شهادات صادقة عن الإسلام، سأذكر لك منها ما تقر به عينك.

فقـد تحدث عن القيم النبـيلة التى يحملهـا القرآن الكريم، والتى ظل تأثيـرها ممتدا فى جمـيع العهود، فقـال: (ظل القرآن أربعة عـشر قرنًا من الزمان مـحفوظًا فى ذاكـرة المسلمين يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال. والقرآن يبعث فى النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضًا، وأبعـدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحررًا من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له أكبر الفـضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى، وهو الذى أقام فـيهم قواعد النـظام الاجتماعي والوحـدة الاجتمـاعية، وحرّضـهـم على اتباع القواعـد الصحيـة، وحرر عقـولهم من كثيـر من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقـسوة، وحسّن أحوال الأرقاء، وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين.. درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير فى أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض)(2).

وتحدث عن معـجزة الأمية فى رسـول الله ﷺ، فقال: (يبدو أن أحـدًا لم يعن بتعليم محمـد القراءة والكتابة، ولم يعرف عنه أنه كـتب شيئًا بنفـسه، ولكن هذا لم يحل بينه وبين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفًا قلّما يصل إليه أرقى الناس تعليمًا)(3).

وتحدث عن معـجزة القيادة، فـقال: (كان النبى من مهرة القـواد، ولكنه كان إلى هذا سياسيًا محنكًا، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم)(4).

وتحدث عن المنجزات العظيمة التى حققهـا رسول الله ﷺ، والتى لم يدانيه فى تحقيقها أحد من البـشر، فقال: (إذا مـا حكمنا على العظمة بما كـان للعظيم من أثر فى الناس قلنا إن مـحمـدًا كان من أعظـم عظماء التـاريخ، فلقـد أخذ على نفـسـه أن يرفع المستـوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت بـه فى دياجير الهمجـية حرارة الجو وجدب الصـحراء، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أى مـصلح آخر فى التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنسانًا غيره

---

(1) ول ديورانت W. Durant مؤلف أمريكى معاصر، يعد كتـابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلدًا، واحدًا من أشهر الكتب التـى تؤرخ للحضارة البشرية عـبر مـساراتها المـعقدة المتشابكة، عكف على تألـيفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام 1935، ثم تلته بقية الأجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك (قصة الفلـسفة).

(2) قصة الحضارة: 13 / 68 - 69.

(3) قصة الحضارة: 13 / 21 - 22.

(4) قصة الحضارة: 13 / 38.

حقق ما كان يحلم به.. ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه.. وكانت بلاد العربى لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، دينًا سهلاً واضحًا قويًا، وصرحًا خلقيًا قوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع فى جيل واحد أن ينتصر فى مائة معركة، وفى قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم فى نصف العالم)[1].

وتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ بالمستضعفين، فقال: (لسنا نجد فى التاريخ كله مصلحًا فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء)[2].

وتحدث عن اهتمام النبى ﷺ بالعلم، فقال: (تدل الأحاديث النبوية على أن النبى كان يحث على طلب العلم ويعجب به، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين)[3].

وتحدث عن قدرة العقيدة الإسلامية على توحيد الأمم المتباينة، فقال: (تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة فى قارات الأرض فجعلت منها شعبًا واحدًا، وهى لعمرى أعظم معجزة للمسيحية والإسلام)[4].

وتحدث عن الأخلاق الإسلامية، وتميزها، فقال: (إن الذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية.. وليس فى التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يفلح فى هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام)[5].

وقال: (كانت مبادئ المسلمين الأخلاقية، وشريعتهم، وحكومتهم، قائمة كلها على أساس الدين. والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله)[6].

وتحدث عن مراعاة الإسلام للفطرة البشرية، فقال: (أحِلّ للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها. ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو

---

(1) قصة الحضارة: 13 / 47.
(2) قصة الحضارة: 13 / 59.
(3) قصة الحضارة: 13 / 167.
(4) قصة الحضارة: 13 / 66.
(5) قصة الحضارة: 13 / 67 - 68.
(6) قصة الحضارة: 13 / 116.

المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة، ولتصحّ به أجسامهم من جهة أخرى)[1].

وتحدث عن المعانى النبيلة التى ينتظمها الحج، فقال: (لفريضة الحج العظيمة أغراض وفوائد كثيرة. فهى تقوى إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفى الجماعى بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين.. فالحج وما ينطوى عليه من مناسك التقى والورع يجمع أبناء الشعوب الإسلامية كافة، يرتدون كلهم ثيابًا بسيطة واحدة، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهى اللغة العربية، ولعل هذا هو السبب فى ضعف حدة الفوارق العنصرية فى الإسلام)[2].

وتحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية، فقال: (الحق أن حادث الفتوحات الجلل الذى تمخضت عنه جزيرة العرب، والذى أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد فى ربوعه، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية فى العصور الوسطى)[3].

وتحدث عن تسامح المسلمين، فقال: (كان أهل الذمة المسيحيون، والزردشتيون، واليهود، والصابئون يستمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد نظيرًا لها فى المسيحية فى هذه الأيام. فلقد كانوا أحرارًا فى ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم.. وكانوا يتمتعون بحكم ذاتى يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم)[4].

وتحدث عن تأثير تسامح المسلمين فى انتشار الإسلام، فقال: (على الرغم من خطة التسامح الدينى التى كان ينتهجها المسلمون الأولون أو بسبب هذه الخطة، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين، وجميع الزردشتيين والوثنيين إلا عددًا قليلاً جدًا منهم، وكثيرون من اليهود.. وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى، فإن هذه الأقاليم كلها انتشرت فيها العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصًا واستمساكًا أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين وحتى الأندلس، وتملك خيالهم وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والأنفة، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به فى هذه الأيام

---

(1) قصة الحضارة: 13 / 123.

(2) قصة الحضارة: 13 / 127 - 128.

(3) قصة الحضارة، 13 / 7.

(4) قصة الحضارة، 3 / 130 - 131.

مئات الملايين من الأنفس، يوحد هذا الدين بينهم، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية)[1].

وتحدث عن إقبال المسيحيين على الإسلام بمحض رغبتهم، فقال: (في وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام 1311م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف، كلهم ما عدا 500 منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام. وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين)[2].

وتحدث عن أخلاق المسلمين في الحروب، فقال: (إن المسلمين - كما يلوح - كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين، فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام 1099م)[3].

وتحدث عن النظم العادلة التي تمتعت بها الرعية في فترة طويلة من الحكم الإسلامي. فقال: (إن الخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله. ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء أو أن يخربوا كل شيء، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوروبيين لكنهم لم يفعلوا هذا.. كانت العراق قبل الفتح الإسلامي صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جناناً فيحاء، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة، فأصبحت خصبة غنية عامرة بالسكان.. لقد أمن الخلفاء الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم، وهيأوا الفرص لذوي المواهب، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون في أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم، وازدهرت العلوم، والآداب، والفلسفة، والفنون ازدهاراً جعل آسيا الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة)[4].

وتحدث عن اهتمام المسلمين بالعلم، فقال: (في وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامي إذا عرف أن الكتب التي ذكرها - ابن النديم في الفهرست - على ما نعلم لم يبق منها الآن واحد في الألف)[5].

(1) قصة الحضارة، 13 / 133.
(2) قصة الحضارة، 13 / 297.
(3) قصة الحضارة، 13 / 383.
(4) قصة الحضارة: 13 / 170 - 171.
(5) قصة الحضارة: 13 / 172.

وقال: (إن العلوم العربيـة نمّت فى علم الكيمياء الطريقـة التجريبيـة العلمية وهى أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخـره. ولما أن أعلن روجر بيكون هذه الطريقة إلى أوروبا بعد أن أعلنها جابر ابن حيان بخمسمـائة عام، كان الذى هداه إليها هو النور الذى أضاء له السبيل من عرب الأندلس وليس هذا الضياء نفسه إلا قبسًا من نور المسلمين فى الشرق)[1].

وقال: (ليس هذا الجزء الباقى من تراث المسلمين إلا قسمًـا ضئيلاً مما أثمرته قرائحهم، وليس ما أثبتناه فى هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم. وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسى فـأكبـر ظنّنا أننا سنضع القرن العـاشر من تـاريخ الإسـلام فى الشـرق بين العـصور الذهبية فى تاريخ العقل البشرى)[2].

وتحـدث عن تكريم الإسـلام للمرأة، فـقـال: (رفع الإسلام من مـقـام المرأة فى بلاد العـرب.. وقضى على عـادة وأد البنات وسوّى بـين الرجل والمرأة فى الإجراءات القـضائيـة والاستقلال المالى، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها، وأن ترث، وتتصرف فى مالها كما تشاء، وقضى علـى ما اعتاده العرب فى الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيـما ينتقل لهم من متاع، وجـعل نصيب الأنثى فى الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن)[3].

وقال: (كـان مركز المرأة المسلمـة يمتاز عن مـركز المرأة فى بعض البـلاد الأوروبية من ناحية هامة، تلك هى أنهـا كانت حرة التصرف فيمـا تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه فى شىء من أملاكها)[4].

وقال: (كانت الـبنات يذهبن إلى المدارس سواء بسواء، ونبغ عدد من النسـاء المسلمات فى الأدب والفن)[5].

وتحدث عن مراعاة الإسلام للفطرة فيما يرتبط بالزواج، فقال: (المسلم لا يرى الامتناع عن إشبـاع الغريزة الجنسيـة حالاً طبيـعة أو مثـالية، وقد كـان لمعظم الصالحيـن من المسلمين زوجات وأبناء. وحـدود الزواج أوسع فى الإسلام منه فى كثـير من الأديان، وتفتح الشـريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغـريزة الجنسية ولهذا قلّ البغاء فى أيام النبى والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم)[6].

سكت البابا، فقلت: ما أصدق شهادات هذا الرجل!

---

(1) قصة الحضارة: 13 / 196.

(2) قصة الحضارة: 13 / 213.

(3) قصة الحضارة. 13/ 60.

(4) قصة الحضارة: 13/ 140.

(5) قصة الحضارة: 13/ 306.

(6) قصة الحضارة: 13/ 135.

قال البابا: وهى تكتسب قيمتها من اطلاعه الواسع على الحضارات الإنسانية، فهو لا يتكلم من قوقعة ضيقة، بل يتكلم من رحاب واسعة.

**واشنجتون ايرفنج:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (واشنجتون ايرفنج)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق أمريكى، له آثار ترتبط بالإسلام والحضارة الإسلامية، وله فيها شهادات صدق يستحق عليها كل التقدير.

فقد تحدث عن شمولية القرآن وهيمنته على سائر الكتب المقدسة، فقال: (كانت التوراة فى يوم ما هى مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلَّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شىء، وحوى جميع القوانين، إذ إنه خاتم الكتب السماوية)[2].

وتحدث عن القيم النبيلة التى جاء بها القرآن، فقال: (يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء وإلى مذاهب أخلاقية سامية)[3].

وتحدث عن رسول الله ﷺ.. بل اعتبره خاتم النبيين، فقال: (كان محمد خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعوا الناس إلى عبادة الله)[4].

وتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ ودلالتها على صدق نبوته، فقال: (كانت تصرفات الرسول فى [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبى مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح فى مركز قوى. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو)[5].

وتحدث عن الجهد العظيم الذى بذله رسول الله ﷺ فى سبيل دعوته، وهو من أعظم دلائل الصدق، فقال: (لقى الرسول من أجل نشر الإسلام كثيرًا من العناء، وبذل عدة تضحيات. فقد شك الكثير فى صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحًا كبيرًا، وتعرض خلال إبلاغ الوحى إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك وتخلى عن كل متع الحياة وعن السعى وراء الثراء من أجل نشر العقيدة)[6].

---

(1) مستشرق أمريكى، أولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين فى الأندلس. من آثاره: (سيرة النبى العربى) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (1849)، و(فتح غرناطة) (1859)، وغيرها.

(2) حياة محمد، ص 72.

(3) حياة محمد، ص 304.

(4) حياة محمد، ص 72.

(5) حياة محمد، ص 72.

(6) حياة محمد، ص 300.

وتحـدث عن خصـال رسول الله ﷺ، والتي تحـيل أن يكون مـدعيـا، فقـال: (برغم انتصارات الرسول العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فـقد كان يحارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحـتى في أوج مجده حافظ الرسول على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له أو يبالغوا في الترحيب به وإن كان قد هدف إلى تكويـن دولة عظيمة، فإنها كـانت دولة الإسلام، وقد حكم فيـها بالعدل، ولم يفكر أن يجعل الحكم فيها وراثيًا لأسرته)[1].

وقال: (كان الرسول ينفق ما يحـصل من جزية أو ما يقع في يديه من غنائم في سبيل انتصار الإسلام، وفي معاونة فقراء المسلمين، وكثيرًا ما كان ينفق في سبيل ذلك آخر درهم في بيت المال، وهو لم يخلف وراءه دينارًا أو درهمًا أو رقـيقًا. . وقد خيره الـله بين مفاتيح كنوز الأرض في الدنيا وبين الآخرة فاختار الآخرة)[2].

وتحدث عن صـفاء التوحـيد في الإسلام، فـقال: (ينهى الإسلام عن الوثنيـة تمامًا في جميع صورها. فقد نهى الإسلام عن جميع الطقوس الدينية في الجـاهلية التي تتعلق بالوثنية، ودعا إلى توحيد الله، ولكنه احتفظ من بين هــذه الطقوس بما هو بعيد عن الوثنية، مثل الحج إلى مكة والطواف بالكعبة)[3].

وتحدث عن بعض أسـرار انتشار الإسلام، فقـال: (عند قدوم محمـد إلى المدينة اعتنق بعض أهلها من المسـيحيـين الإسلام. فقـد وجدوا تشابهًـا بين التعاليم الإنسـانية في كل من الإسلام والمسيحية، ولم يلمسوا أي تعارض بين الدينين، وبخاصة أن الإسلام يضع المسيح في مقدمة الأنبياء. . أما باقي المسيحيين فلم يُبـدوا أي عداء للإسلام فقد اعتبروه أفضل بكثير من الوثنية. ولا شك أن الخلافات العديدة التي كانت قد نـشبت بين الطوائف المسيحية في الشرق قد مهدت الطريق أمام المسيحيين ليعتنقوا الإسلام)[4].

سكت البابا، فقلت: إن هذه شهادات مسلم. . لا مجرد شهادات صديق.

قال: صدقت. . فقـد يسلم المرء من غير أن يشعر، ولو أنه وجـد من يأخذ بيده لكان اسمه غير اسمه، ولكنت ذكرته في غير هذا الفصل.

**لوثروب ستودارد:**

من الأسمـاء التي رأيتهـا في دفتر البـابا في هذا الفصل اسم (لوثروب سـتودارد)[5]،

---

(1) حياة محمد، ص 302 - 303.

(2) حياة محمد، ص 303.

(3) حياة محمد، ص 75.

(4) حياة محمد، ص 133 - 134.

(5) لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard مؤلف أمـريكي يتميـز بسعة اطلاعـه على معطيات العـالم الإسلامي الحديث. ويعد كتابه: (حاضر العالم الإسلامي) من أهم المؤلفات الحديثة التي عالجت قضايا هذا العالم ومجـريات أحداثه عبر النصف الأول مـن هذا القرن. وقد زادته قيـمة علميـة، التعليقات والإضـافات الخصبة التي ألحقها الأمير شكيب أرسلان بطبعته العربية.

فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل ممتلئ صدقا، وقد تحدث بشهادات كثيرة كانت محل احترام جميع الصادقين، وسأذكر لك من شهاداته ما ينبئك عن فهمه العميق للإسلام، وحبه العظيم له.

لقد اعتبر الإسلام من أعجب حوادث التاريخ، فقال: (كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذى دوّن فى تاريخ الإنسان. ظهر الإسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان، وبلاد منحطة الشأن، فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الأرض ممزقًا ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف، وهادمًا أديانًا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال، ومغيرًا ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانيًا عالمًا حديثًا متراص الأركان، هو عالم الإسلام)[1].

وتحدث عن انتشار الإسلام من غير دعم أى سلطة غير سلطة الحق الذى يحمله، قال: (كلما زدنا استقصاءً باحثين فى سرّ تقدم الإسلام وتعاليمه، زادنا ذلك العجب العجاب بهرًا، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير فى سبيلها سيرًا بطيئًا ملاقية كل صعب، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ فى تأييده والذب عنه حتى رسخت أركانه.. إنما ليس الأمر كذلك فى الإسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته فى جهات الأرض مجتازًا أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود. وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الإسلام نصرًا مبينًا عجيبًا، إذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين، حتى باتت راية الإسلام خفاقة من (البرانس) حتى (هملايا) ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقيا)[2].

وتحدث عن الوحدة الإسلامية التى عمقها الإسلام فى نفوس المسلمين، فلم تزدها الأيام إلا قوة، قال: (الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هى الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها من جميع المؤمنين فى المعمور الإسلامى. وهى قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة، أى منذ شرع الرسول يجاهد فالتف حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعصبية الإسلام لقتال المشركين. وقد أدرك محمد خطورة الجامعة وعلو منزلتها فى المسلمين حق الإدراك، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن.. فغرس غرستها بيديه فى نفوسهم، فنمت وتغلغلت وامتدت جذورها وبسقت أغصانها.. فقد كرّ عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الإسلامية جانبًا ولا

(1) حاضر العالم الإسلامى: 1 / 1.

(2) حاضر العالم الإسلامى: 1 / 1 - 2.

ضعضع لها كيانًا، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت شدة وقوة ومنعة واعتزازًا. حقًا إن الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصرانى والنصرانى.. ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الإسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر إلى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكى يعلم سرّ الجامعة ومكانتها فى نفوس المسلمين وفى الواقع ليس من دين فى الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروقها كدين الإسلام)[1].

وتحدث عما تميزت به العهود الأولى للإسلام ـ وهى العهود المتمسكة بالدين ـ من حرية وعدالة، فقال: (الإسلام فى عهده الأول، إنما كانت شمس الحرية مشرقة وهاجة، ودينًا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الإسلامى فيما بعد من الوهن والتدنى بحاجب المنصف عن جوهر الإسلام وحقيقة صفائه، فالشريعة الإسلامية كما قال العلامة ليسبار: (إنما هى ديمقراطية شورية جوهرًا وأصلاً، وعدو شديد للاستبداد). وقد أجمل قامبارى هذه الحقيقة فى شأن الإسلام بقوله: (ليس الإسلام ولا تعاليمه السبب المفضى بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب فى ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم.. وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة والخلفاء الراشدين.. وناصبوا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداء)[2].

وتحدث عن الأخوة العميقة التى ربط الإسلام بها بين شعوب مختلفة، فقال: (ليست الولادة فى البلاد ولا التجنّس على الأصول الرسمية شرطًا لمن يريد أن يكون فردًا من أفراد الأمة الإسلامية فى قطر من الأقطار، متمتعًا حق التمتع بحقوق الجنسية الإسلامية. فوطن المسلم هو العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه لذلك يستطيع الهابط أية بلاد إسلامية أن ينال للحال - أى وقتٍ شاء - حقوق الوطنى المكرم ذى المقام والمنزلة بين ظهرانى القوم. فالعبارة (مصر للمصريين) مثلاً لا تعنى ذلك المعنى بعينه الذى نتصوره نحن فى الجارى المعتاد. فإذا ما أقام مسلم جزائرى أو دمشقى فى القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره (مصريًا وطنيًا حرًا) بصحيح معنى العبارة. والسبب فى ذلك أن من منازع الإسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين والوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية. فجميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين (بدور الإسلام) وضدها (دار الحرب) وهى المواطن التى يقطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة، الذبّ عن سياجها والذود عن حياضها، وهذا هو السبب فى أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبى طرفًا من

(1) حاضر العالم الإسلامى: 1 / 287 - 288.

(2) حاضر العالم الإسلامى: 4 / 43 - 44

العالم الإسلامى، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد، على غير أن يكون هناك اشتراك فى المصلحة المادية يحمله على ذلك، كأنما المعمور الإسلامى جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء)[1].

وقال: (الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هى الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين فى المعمور الإسلامى.. لقد كر أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الإسلامية جانبًا ولا ضعضع لها كيانًا، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت الجامعة شدة وقوة ومنعة واعتزازًا. حقًا أن الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصرانى والنصرانى. ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالاً شديدًا، بيد أن هذا ليس له من الشأن أكثر مما ينشأ بين أفراد الأسرة الواحدة المشتبكة الأرحام، إذ لا حقد فى الإسلام، فعند الشدائد تذهب الأحقاد بين المسلمين، فيعملوا على الأمر الذى فيه يختلفون ويتألبون جموعًا متراصة متماسكة لقتال العدو المهاجم وردّ الخطر الداهم. ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الإسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر إلى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكى كى يعلم سرّ الجامعة ومكانتها فى نفوس المسلمين وفى الواقع ليس من دين فى الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض، موحد لشعورهم، دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروقها كدين الإسلام)[2].

وقال: (أى شىء أدل على هياج الإسلام وغليان مراجل عقده من ذلك الثوران الهائل الذى يقوم به السبعون مليونًا من المسلمين فى الهند احتجاجًا على تجزئة الدولة العثمانية، والأمر الأخطر أن هذا الثوران الإسلامى ليس مقصوراً على الهند فحسب، بل إنه شامل المعمور الإسلامى)[3].

وقال: (لا يغرب عن البال أن الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية التى تجمع بين المسلم والمسلم ما انفكت تزيد فى تواثق المسلمين وتآلفهم، وتعاطفهم وتضامنهم، كأنهم فى المعمور الإسلامى أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر. دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للتنقل والتواصل المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم)[4].

وتحدث عن أسرار انتصار الإسلام، فقال: (كان لنصر الإسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه، أكبرها أخلاق العرب، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته والحالة

---

(1) حاضر العالم الإسلامى: 4 / 122.

(2) حاضر العالم الإسلامى، 1 / 287 - 288.

(3) حاضر العالم الإسلامى، 1 / 324.

(4) حاضر العالم الإسلامى، 1 / 327.

العامة التى كان عليها الشرق المعاصر فى ذلك العهد.. لقد استطاع محمد، وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عاريًا عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حق الاستثارة من نفوس العرب الغيرة الدينية الكامنة.. وإذ هبوا لنصرة دعوة ابن عبد الله - من بعد ما ذهبت من صدورهم الأحقاد المزمنة والعداوات الشديدة التى كان من شأنها من قبل الذهاب بحولهم وقوتهم - وانضم بعضهم على بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة فى رأسها نور للناس وهدى للعالمين، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم فى شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الواحد)(1).

وقال: (لم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من الأمم المغلوبة قد دخل فى دين النبى العربى أفواجًا، إيثاراً له.. على دينك الدينيين الذين صارا غاية فى الانحطاط والتدنّى.. ولم يكن العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب فى الاستلاب والتدمير، بل كانوا، على الضدّ من ذلك، أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا)(2).

وقال: (عند اعتبار شأن انتشار الإسلام هذا الانتشار يجب أن تعلم العلم اليقين أن كل مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعلى ذلك أن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم.. بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج على اختلاف الأجناس. ولا يؤخذن من هذا أنه لم يقم فى المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام فى سبيل الدعوة الإسلامية فعدد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير، وذلك ظاهر بين فى أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان.. وهذه الأعمال التى قام بها المبشرون المسلمون فى غربى إفريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لعجيب من العجائب الكبرى، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر. فقد قال أحد الإنجليز فى هذه الصدد منذ عشرين سنة (إن الإسلام ليفوز فى أواسط إفريقيا فوزاً عظيمًا، حيث الوثنية تختفى من أمامه اختفاء الظلام من حلول الصباح، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات). وقال مبشر بروتستنتى فرنسى (ما برح الإسلام يتقدم منذ نشوئه حتى اليوم فلم يعثر فى سبيله إلا القليل، وما زال يسير فى جهات الأرض حتى بلغ قلب إفريقيا مذللاً أشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب، غير واهن العزم، فالإسلام حقًا لا يرهب فى سبيله شيئًا، وهو لا ينظر إلى النصرانية، منازعته الشديدة، نظرة المقت والازدراء، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر، إذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح أفريقيا فى نومهم، فتح المسلمون جميع بقاع القارة فى يقظتهم)(3).

---

(1) حاضر العالم الإسلامى: 1 / 2.

(2) حاضر العالم الإسلامى، 1 / 3 - 4.

(3) حاضر العالم الإسلامى، 1 / 301 - 302.

وقال: (العرب لم يكونوا قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا، على الضدّ من ذلك، أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسّجايا توّاقة إلى ارتشاف العلوم، محسنة في اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة. وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج وتلقيح الأفكار، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعًا وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة - الحضارة العربية، وهي جماع متجدد للتهذيب اليوناني والروماني والفارسي، ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحًا جديدة، فنضر وأزهر، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامية، فاتحد وتماسك بعضه ببعض فأشرق وعلا علوًا كبيرًا. وقد سارت الممالك الإسلامية القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (650-1000م) أحسن سير، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيًا، وتقدمًا وعمرانًا، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة، والمساجد الفخمة، والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم، يشعان إشعاعًا باهرًا. طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الإسلامي يضيء على الغرب النصراني نورًا)[1].

وتحدث عن سماحة المسلمين، فقال: (كان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره، فلا ضيّقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من فجاج العالم النصراني)[2].

وتحدث عن صمود الإسلام عبر التاريخ، فقال: (لا شيء أدل على هذه النهضة الإسلامية الحديثة الكبرى من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية، الناشئة والمنتشرة خلال مائة السنة الأخيرة ولا غرابة في ذلك فقد كان الإسلام على الدوام دين هداية للناس وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، هذا التاريخ شاهد حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الإسلام من الأعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين. ولا ننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام، على انحطاط الممالك الإسلامية وتدنيها. فلذلك ما انفك الإسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين، وبينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر في نائي تلك الأصقاع، كان الترك ينشرونها ويرفعون أعلامها في شبه جزيرة البلقان، وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربي أفريقيا، وجزائر الهند الهولندية، وجزائر الفيلبين فتحًا دينيًا مبينًا)[3].

---

(1) حاضر العالم الإسلامي، 1/ 3 - 4.

(2) حاضر العالم الإسلامي، 1/ 13 - 14.

(3) حاضر العالم الإسلامي، 1/ 300 - 301.

وقال: (لقد تحرك (الشرق الجامد) أخيراً حتى القرارة القصوى من أعماقه وهو اليوم فى أشد ما يكون من الانفعال والهياج والفوران. وجميع ذلك قائم فيه وبالغ منه أكثر مما يخال الخائل ويتصور المتصورّ. فالعالم الإسلامى الذى ظلت قواه العقلية والروحية هاجعة ما يقرب من ألف سنة، قد استيقظ مرة أخرى وطغت قواه تعمل عملها العجيب، وغدا المسلمون يعظمون شأنًا من جديد ويعلون منزلة فى الأرض).

وتحدث عن الحضارة الإسلامية، فقال: (الإسلام، وهو هذا الدين البيّن الصريح، ما كان ليقيّد عقل العربى ويلقى عليه سجوفًا فوق سجوف. والعربى كان قد أدرك حالاً ثار فيه جده واشتعلت غيرته، فبات توّاقًا إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها والتبسط فى شؤون الحياة وتوفير أحوالها، والتكيف على حديث مقتضياتها، والخروج بها عما ألفه أزمانًا فى فيافى الصحراء.. لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التنعّم بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات أن أُخرج للناس تهذيب عربى سام. فأضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان فخر الحضارة العربية ودرة تاجها. وكان ردح من الزمن، كانت فيه الحضارة مشرقة الشموس، يانعة الثمار، وارفة الظلال. فسادت الحرية العقلية، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية، ووضعت القواعد والأصول، واستنبطت الأحكام. بيد أن هذا لم يكن من صنع العرب وحدهم، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا فى عهد ملوكهم قبل الفتح الإسلامى يذوقون الأمرّين، ويسامون خسفًا شديداً فى سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التى كانوا يخالفون فيها النصرانية البيزنطية والمجوسية الفارسية)(1).

وقال: (إن الشعوب الآسيوية التى يتألف منها سواد المسلمين.. ذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالى، حضارة هى نتاج إسلامى صرف، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم. ومتى أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الإسلامية من تشييد المعالى، وبلوغ ذروات المجد فيما مضى، أمنّا الخطل بقولنا الآن أننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل فى العالم الإسلامى تجدداً حقيقيًا، صحيحًا رائعًا، ولا غرابة فى ذلك، أن عاد الإسلام يستعيد من عزّه الغابر وعلاه السالف، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من الحضارة والعمران)(2).

قلت: إن كلمات هذا الرجل تكاد تسلم.

قال: بل إنها أسلمت.. فهذه الكلمات لا يقولها إلا مسلم معتز بإسلامه.

---

(1) حاضر العالم الإسلامى، 1 / 8.

(2) حاضر العالم الإسلامى، 4 / 2.

**هارولد ب. سمث:**

من الأسمـاء التى رأيتها فى دفـتر البابا فى هذا الفـصل اسم (هارولد ب. سمث)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل اهتم بالنظم الإنسانية، وقد رأى فى الإسلام من الصلاحية ما لم يره بعض المسلمين أنفسهم، وقد دعاه ذلك إلى أن يشهـد شهادات صادقة تنم عن فهمه العميق للإسلام.

فقد تحدث بفـهم عميق عن نظرة الإسلام لمسؤولية الإنسـان عن تصرفاته، والتى تقوم على أساسها النظم الأخلاقية، فقال: (كـل إنسان ذو أخلاقية حرة، وهو مسؤول أمام الله عن أفكاره وأحكامه وأعـماله. . والله يرشد الإنسـان عن طريق الوحى إلى مـبادئ أخلاقيـة عامة منبعثة عن إرادته الأبدية المقدسة. إلا أن فى الإنسان قـوة كامنة، إذ أن فى استطاعته أن يتقبل هدى الله أو يتحول عنه. وهناك آية هامة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب] لا يتحقق معناها إلا على أساس التسليم بالحرية الإنسانية، فقد عرض الـله على جميع مخلوقاته مسؤولية المحافظة على الإيمان، وإدارة العالم باسم الله، فقبل الإنسان أن يحمل هذا العبء، على حين رفضته سائر المخلوقات خـوفًا وإشفاقًا. ومع أن الإنسـان لم يرع ذلك الإيمان، ولم يدر العالم إدارة ذات قيمـة، وسلك مسلك الظلم والجهل، فإن فى هذا سر عظمـته وخطيئته جميعًا. فلو لم يكن الإنسان حرًا ما ارتكب الخطيئة، ولو لم يكن حرًا ما ساغ أن يحمل الأمانة)[2].

وتحدث عن أصل الإجمـاع، وعلاقته بالديمقـراطية، فقال: (لما تطور التـشريع، وجد مبدأ يمكن أن يكون له القدرة على إخماد النزعات الاستبدادية لبعض الحكام أو الفقهاء، ذلك هو مبـدأ الإجماع الذى يعـتبر مظهـرًا للإرادة العامة. وعلى الرغم من أن الإجـماع، فى نظر الدقة الـفقهـية، مـقصور عـلى ذوى الدراية من الفقـهاء، فإنه يـحمل فى طواياه بذرة مـبدأ ديمقراطى، وكـان له أحيانًا عند التطبيـق. . أثر كبير فى التعـبير عن إجمـاع أعم من إجماع صفوة قليلة. أمـا ما يقع من الأفراد من إساءة استـعمال للقوانين، أو من عثـرات أخـلاقية، فإن الإرادة العـامة تقومه، أو من شأنها أن تقومه مع مرور الزمن)[3].

ويتحدث عن جـمع الإسلام بين الفردية والجماعـية، فيقول: (يعـد الفرد فى الإسلام مهمًا لأنه وحدة من القوة الأخلاقية وفى العرف الإسلامى تصور آخر يتعلق بالفرد فى الجماعة ويمنح الناس وسيلة للترابط، وإحساسًا بالاتحاد لا يوجد أحـيانًا فى التصورات الغربية الحديثة للإنسان. هذه الشخصية المتحـدة يعمل على تكوينها التصور الخاص (بدار الإسلام) أى تآخى

---

(1) د. هارولد ب. سمث Harold B. Smith أستاذ، ونائب رئيس قسم الديانات بكلية (ووستر)، بولاية أوهايو، وكان رئيسًا لقسم الفلسفة والأخلاق (بالجامعة الأمريكية) بالقاهرة.

(2) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 60 - 61.

(3) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 63.

المؤمنين. وليس هذا التصور مجرد تفكير نظرى، إنه واقع غير محسوس يضفى على كل مسلم شعورًا بالترابط الوجدانى فى سمع كل مسلم آخر، كما يهبه إحساسًا بالأمن. فهو ينتمى إلى كل يعلو على فروق اللون، والطبقة، والجنسية (بالمعنى الغربى للكلمة)، ونظم الدولة. إنه يستطيع أن يحس بأنه فى داره فى أرض شاسعة متناثرة من الساحل الأطلنطى لإفريقيا إلى قلب المحيط الهادى، حيثما كان الإسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة. كل هذا يخلق، أو هو قادر على أن يخلق، روحًا جماعيًا، ووحدة بين شعوب لها أهمية بالغة.. وينبغى أن نذكر أن هذه الأخوة تظهر أقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الإسلامى، أو أى قسم من أقسامه، مصدر غير إسلامى.. إن هذه الرابطة قوة حقيقة وفى الإمكان أن تصبح عامل تقوية فى العالم الإسلامى كله)[1].

ويقول: (إن فى التصور الإسلامى للإنسان اتجاهًا جمعيًا. فإدراك الإنسان أنه ينتمى إلى كل أكبر، وارتباطه بغيره ممن ينتمون إلى نفس الجماعة التى تؤمن إيمانه، يهيئان للحياة الفردية وضعًا اجتماعيًا ليس له فى الغالب وجود فى الغرب الذى ينزع إلى الفردية. فالأخوة فى الإسلام تهب قوة، وأمنًا ومجالاً من الوعى المشترك قد ينتج عنها ذلك النوع من الترابط الذى يتجاوز حدود الأوطان والأجناس، والذى يعمل الناس متلهفين فى سبيل تحقيقه فى سائر بلاد العالم)[2].

وهو يعتبر رد الإسلام على الشيوعية بمفاهيمها الفلسفية ردا منطقيا، فيقول: (إن الإسلام لا يمكن إطلاقًا أن يتفق والجبرية الاقتصادية أو التفسير المادى للتاريخ.. فالإنسان لا تتحكم فيه المادة أو القوى الاقتصادية، إذ إنه فى جوهره موجود روحى، ذو صلة بالله، ومن ثم كان كائنًا أخلاقيًا حرًا. وأن الله - لا المادة - هو المتصرف فى الحركات التاريخية)[3].

ولهذا يرى أن العالم الإسلامى يمكنه الاستغناء بنظامه عن الشيوعية، قال: (إن العالم الإسلامى فى وضع يسمح له أن ينمّى فلسفته الخاصة المتميزة دون أن يدفعه التقليد الأعمى إلى اتباع الأشكال الشيوعية، أو النظرية السياسية الغربية التى تتجه إلى الفردية.. لقد رأينا أن الإسلام يعترف بالقيمة الذاتية للأفراد، باعتبارهم مدينين بوجودهم لله، ومسؤولين أمامه عن أعمالهم. وهذا يعنى أنه لا يمكن لأى فرد أن يندمج اندماجًا كاملاً فى بناء إجماعى قاهر مثل البناء الشيوعى. إن الشيوعية - من الوجهتين النظرية والعملية - تستغنى عن الفرد إن لم يخدم غرض الدولة.. دون نقاش، وهذا لا يمكن أن يكون فى مجتمع إسلامى)[4].

---

(1) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 63 - 64.
(2) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 75.
(3) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 75.
(4) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 75.

ويتحدث عن (تآلف المستضعفين) الذى نادى به القرآن[1]، فقال: (إنه لو أمكن إثارة التماسك الإسلامى فى سبيل أغراض إيجابية، وتكتيل الأمم الإسلامية الكثيرة المختلفة فى وحدة حية، لأمكن أن تصير هذه الوحدة قوة إيجابية فى العالم.. بل إن هذه الوحدة لتكون أكثر فاعلية إذا أدخلت فى نطاقها من سواها، وإذا بلغ من سماحتها أن تشرد فى وجدانها وفى أخوتها كل مخلوقات الله. ما أروع أن تحتج باكستان على مظالم حلّت بأمة أخرى، شديدة البعد عنها جغرافيًا، لأن تلك الأمة تنتمى إلى جماعة الأمم الإسلامية! وأروع منه وأجدر أن يضىء طرقًا جديدة فى عالمنا الذى مزقته الحرب، أن تنهض أمة إسلامية - باسم المقاصد الحقّة التى يوجه إليها الله الواحد، وباسم الرابطة التى تربط بنى الإنسان - محتجة على ظلم أصاب أى شعب ولو كان خارج الكتلة الإسلامية)[2].

ويقول: (من حيث العلاقات الدولية، فإن الأمم الإسلامية، أو الجماعة الإسلامية الكبرى، يجب أن تكون فى طليعة المنتصرين لخلق نوع من المجتمع العالمى من الأمم، ومن العاملين على إيجاد مثل ذلك المجتمع الذى ينظمه ويسيطر عليه قانون دولى)[3].

قلت: لقد نصح المسلمين، فليتهم سمعوا له!

قال: لقد انشغلوا بسماع كلمات الأعداء عن كلمات الأصدقاء.

**سدنى فيشر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (سدنى فيشر)[4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من المستشرقين له شهادات صادقة:

منها شهادته حول تأثير القرآن الكريم فى النفوس والأسماع، قال: (إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، واعتمادًا على أثره البليغ فى قلوب قرّائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع)[5].

---

(1) وذلك فى قوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾ [النساء]، انظر فى هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل(خلاص) من هذه السلسلة.

(2) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 75 - 76.

(3) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 77.

(4) الدكتور سدنى فيشر Sydney Fisher أستاذ التاريخ فى جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعددة فى شؤون البلاد الشرقية التى يدين الأكثرون من أبنائها بالإسلام. مؤلف كتاب (الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى) والذى يناقش فيه العوامل الفعالة التى يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث فى هذه البلاد وأولها الإسلام.

(5) الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 54.

ومنها شـهادته عن القـيم التى جاء بهـا القرآن الكريم، قال: (إن القـرآن كتـاب تربية وتثقـيف، وليس كل ما فيـه كلامًا عن الفـرائض والشعائر، وإن الـفضائل التى يحث عليـها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحهـا فى موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب فى نواهيه كما تتجلى فى أوامره)[1].

وتحدث عن الجمال والمصداقـية التى تتسم بها العقيدة الإسلاميـة، فقال: (إن الوحدانية المنزهة هى أجل مطالب الإيمان عند السنبى ويوصف الإله مع الوحدانية بصفـات العلم المحيط والقدرة المحـيطة والرحمة والكرم والغفـران.. إن توكيد صفـات البأس والجبروت فى كـتاب الإسلام إنما تقدم فى أوائل الدعوة التى واجه بها النبـى جماعة الكفار الملحدين من الملأ المكى المتغطرس المستطيـل بالجاه والعزة، ولكن المسلم يعلم من صفات الـله أنه واسع الرحمة، وأنه أقرب إلى الإنسـان من حبل وريده، وأنه هو نـور السماوات والأرض، وهى الصـفة.. التى كان لهـا أبعد الأثر فى اجتذاب العقول إلى معانيه الخفية)[2].

ومنها شهادته عن الثـمرات العظيمة التى حققهـا رسول الله ﷺ، قال: (إننا إذا نظرنا إلى مجال الإسلام الواسع فى شـؤون العقائد الدينية والواجبات الدينيـة والفضائل الدينية، لم يكن فى وسع أحد إلا أن يحب محـمدًا نبيًا مفلحًا جـدًا ومصلحًا موفقًا لأنه كـما قال بعض الكتاب وجد مكة بلدة مادية تجارية تغلب عليها شـهوة الكسب المباح وغير المباح ويمتلئ فراغ أهلها بمعاقرة الخمر والمقـامرة والفحشاء، ويعامل فيها الأرامل واليتـامى وسائر الضعفاء كأنهم من سقط المتاع. فإذا بمحمد وهو فقير من كل ما يعتز به الملأ قد جاءهم بالهداية إلى الله وإلى سبل الخلاص، وغيّر مقاييس الأخلاق والآداب فى أرجاء البلاد العربية)[3].

قلت: إن شهادات هذا الرجل لا تقل عن الشهادة التى ينطق بها من أسلم.

قال: صـدقت.. فمـثل هذه الشـهادات لا يمكن إلا أن تصـدر من لحظة من لحظات الإيمان الصادق.

**مايكل هارت:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفـتر البابا فى هذا الفصل اسم (مايكل هارث)[4]، فـسألت البابا عنه، فقال: هذا كاتب منصف أراد أن يصنف الأبطال، فوجد محمدا على رأسهم، وقد

(1) الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 54.

(2) الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 54.

(3) الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 54 - 55.

(4) الدكتـور مايكل هارث Michael Hart أمريكى، حـصل على عدة شـهادات فى العلوم وعلى الدكـتوراه فى الفلك من جامعة برنستون، عام 1972، عمل فى مراكز الأبحاث والمراصد، وهو أحد العلماء المعتمدين فى الفيزياء التطبيقية

ذكر سر هذا التصنيف، فقال: (إن اختيارى لمحمد ليكون رأس القائمة التى تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمى فى مختلف المجالات، ربما أدهش كثيرًا من القراء، . . ولكن فى اعتقادى أن محمدًا كان الرجل الوحيد فى التاريخ الذى نجح بشكل أسمى وأبرز فى كلا المستويين الدينى والدنيوى)[1].

وقال: (لقد أسس محمد ونشر أحد أعظم الأديان فى العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام. ففى هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرنًا تقريبًا على وفاته، فإن تأثيره لا يزال قويًا وعارمًا)[2].

وقال: (من وجهة النظر الدينية الصرفة يبدو أن محمدًا كان له تأثير على البشرية عبر التاريخ كما كان للمسيح)[3].

وقال: (إن محمدًا يختلف عن المسيح بأنه كان زعيمًا دنيويًا فضلاً عن أنه زعيم دينى، وفى الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمدًا يصبح أعظم قائد سياسى على مدى الأجيال)[4].

وقال: (إن هذا الاتحاد الفريد لا نظير له للتأثير الدينى والدنيوى معًا يخول محمدًا أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير فى تاريخ البشرية)[5].

**جورج كمبل:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (جورج كمبل)[6]. فسألت البابا عنه، فقال: لقد ذكر هذا الرجل الإسلام، فقال: (لا يقتصر نفور الأفريقى من السير على المنهاج الغربى، بل يتعداه إلى وجوب البحث عن منهاج آخر أوفق للعقل الأفريقى والظروف الأفريقية، مع تفضيل الإسلام - لتسليمه بمواطن الضعف الانسانى وإغضائه عن فوارق الألوان - على المسيحية بما تدعو إليه من الدقة وتشتمل عليه من الكهنوتية المعقدة والاعتراف بالفوارق الكثيرة، فضلاً عن الارتباط بين وجودها ووجود الطبقات الحاكمة)[7].

---

(1) دراسة فى المائة الأوائل، ص 19.

(2) دراسة فى المائة الأوائل، ص 19.

(3) دراسة فى المائة الأوائل، ص 23.

(4) دراسة فى المائة الأوائل، ص 24.

(5) دراسة فى المائة الأوائل، ص 25.

(6) جورج كمبل G. Kimble رئيس قسم الجغرافية بجامعة إنديانا الأمريكية، مؤلف كتاب (أفريقية الاستوائية) فى مجلدين.

(7) إفريقية الاستوائية، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام ص 112 - 113.

**د. ميلر بروز:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (د. ميلر بروز)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن اهتمام الإسلام بالعلم ابتداء من مصادره الأصلية.

ومن شهاداته المرتبطة بهذا ذكره لتوجيه القرآن للاهتمام بالعلوم المختلفة، قال: (إنه ليس هناك شيء لا دينى فى تزايد سيطرة الإنسان على القوى الطبيعية، (هناك آية فى القرآن يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية لفت نظر الإنسان لكى يدرس علم الفلك ويستخدمه فى حياته: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس] وكثيرًا ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان باعتباره إحدى الآيات التى تبعث على الشكر والإيمان: ﴿...وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾ [الزخرف]، ويذكر القرآن - لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب - ولكن يذكر السفن أيضًا.. فإذا كان الجمل والسفينة من نعم الله العظيمة، أفلا يصدق هذا أكثر على سكة الحديد والسيارة والطائرة؟»[2].

ومنها استنتاجه من القرآن الكريم ما يحمله العلم من نواحى النفع والضرر، قال: (إن أعظم نتائج العلم يمكن أن تستخدم فى أغراض هدمية أو بنائية. وربما كان هذا هو المقصود بما ورد فى القرآن خاصًا باستخدام الحديد: ﴿...وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ... ۝٢٥﴾ [الحديد]، وأظهر مثال من هذه الآية بالضرورة هو استخدام النشاط الذرى - الذى نشطت بحوثه - لضرورة حربية)[3].

ومنها حديثه عن سبق المسلمين لأسس العلم الحديث، وحوارهم مع غيرهم من أهل الأديان، قال: (فى العصر الذهبى للثقافة الإسلامية، حينما كان علماء المسلمين يفهمون أسس العلم الحديث، كان المفكرون من المسلمين والمسيحيين يبحثون معًا معضلاتهم الفلسفية واللاهوتية المشتركة، ويفيد بعضهم من بعض كثيرًا من ضروب المعرفة)[4].

---

(1) د. ميلر بروز، هو رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه وأستاذ الفقه الدينى الإنجيلى فى جامعة (ييل). وعمل أستاذًا بجامعة براون، وأستاذًا زائرًا بالجامعة الأمريكية فى بيروت، ومديرًا للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس، ومن مؤلفاته:

. Founders of Great Religions. 1931

. What means these Stones. 1941

. Palestine our Business. 1941

(2) الثقافة الإسلامية، ص 51.

(3) الثقافة الإسلامية، ص 54.

(4) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 42.

ومنها حديثه عن اهتمام المسلمين بالطب، وخدمتهم له: (هل يستطيع العلم حقيقة أن يخدم أغراض الدين؟ صحيح أن العلم قد قام بنصيب كبير فى إسعاد الإنسان، ويظهر هذا أكثر ما يظهر فى ذلك العلم الذى خدمه علماء الإسلام خدمة ظاهرة، وهو علم الطب)[1].

**فرانز روزنثال:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (فرانز روزنثال)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل اهتم بالمآثر الحضارية الإسلامية، وخاصة ما ارتبط منها بالتاريخ.

فقد أرجع اهتمام المسلمين بالتاريخ إلى توفر المادة التاريخية فى القرآن، قال: (من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية فى القرآن مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه. وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية، على مر الزمن، أحد فروع المعرفة التى تمت بالارتباط بالقرآن. وإذا كان الرسول قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة فى ترجماتها العربية. لقد وردت فى القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعى اليهود وجوده فى التوراة[3]، وقد ذكر الرسول أن اليهود والنصارى حرفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء فى القرآن. . لقد أشار القرآن إلى كثير من الأحداث التى أحاطت بالرسول. . وكان لذلك أهمية فى التاريخ الإسلامى لأن الأحداث التى أشارت إليه الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية)[4].

ومثل ذلك ما ورد فى الأحاديث النبوية، فهى أيضا من دوافع الاهتمام بالتاريخ لدى المسلمين، قال: (إن أفكار الرسول التى تلقاها وحيًا أو التى أدى إليها اجتهاده نشّطت دراسة التاريخ نشاطًا لا مزيد عليه، فقد أصبحت أعمال الأفراد وأحداث الماضى وحوادث كافة شعوب الأرض أمورًا ذات أهمية دينية، كما أن شخصية الرسول كانت خطًا فاصلاً واضحًا فى كل مجرى التاريخ، ولم يتخط علم التاريخ الإسلامى هذا الخط قط)[5].

بل هو ينسب تأسيس الاهتمام بالتاريخ للرسول ﷺ، فيقول: (تبقى حقيقة، هى أن الرسول نفسه وضع البذور التى نجنى منها اهتمامًا واسعًا بالتاريخ. . لقد كان التاريخ يملأ تفكير الرسول لدرجة كبيرة، وقد ساعد عمله من حيث العموم فى تقديم نمو التاريخ

---

(1) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 51.

(2) فرانز روزنثال F. Rosenthal من أساتذة جامعة ييل، من آثاره: العديد من الدراسات والأبحاث فى المجلات الشهيرة مثل (الثقافة الإسلامية)، (الشرقيات)، (صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية). كما ألف عددًا من الكتب من أشهرها: (مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى)، و(علم التاريخ عند المسلمين).

(3) انظر فى هذا: رسالة (الكلمات المقدسة) فصل (ربانية) من هذه السلسلة.

(4) علم التاريخ عند المسلمين، ص 41 - 42.

(5) علم التاريخ عند المسلمين، ص 40.

الإسلامى فى المستقبل، رغم أن الرسول لم يتنبأ بالنمو الهائل للمعرفة والعلم الذى سيتم باسم دينه)[1].

وتحدث عن وضوح الإسلام مقارنة باليهودية والنصرانية، قال: (عندما ظهر الرسول كانت اليهودية والنصرانية منتشرين فى الجزيرة ولهما آراء متشابهة فى التفسير التاريخى للحياة الإنسانية، غير أن الدين الإسلامى الذى بشر به الرسول كان يتميز بالوضوح والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جدًا ومن غير تعسّف. والواقع أن مفاهيم الإسلام أوضح وأقل جمودًا من ناحية العقيدة، ومن مفاهيم اليهود والنصارى الدينية)[2].

وتحدث عن إعجابه بالحضارة الإسلامية، فقال: (إن نمو المدنية الإسلامية من أروع الأحداث فى تاريخ الفكر الإنسانى وسيبقى مثار أعظم الإعجاب. ولكن لا يمكن اعتبار هذه المدنية أمرًا غامضًا أو معجزة، ولعلها كانت معجزة من حيث حدوثها بسرعة عجيبة لدرجة أنها كملت بعد بدئها بوقت قصير. وقد يمكن أن نعتبرها غامضة من حيث إن كل عمل من الإبداع الفكرى، وكل ازدهار فى أية مدنية هما أمران لا يحصرهما الإدراك الإنسانى التام، أما فى الإسلام فإننا نجد أن الأسباب والظروف التى أوجدت المدنية الإسلامية أشد وضوحًا من الأسباب والنتائج التى أوجدت معظم المدنيات الأخرى)[3].

وقال: (لقد استطاع الإسلام بفضل الله ثم بفضل أنظمته العسكرية والظروف التاريخية الملائمة أن يكتسح فى زمن قصير بلادًا كانت تتمثل فيها جميع المنجزات الفكرية القائمة آنذاك، وسرعان ما أخذت حضارته تتبنى لنفسها هذه المنجزات بقيامها بحركة ترجمة واسعة واقتباس كبير. ونظرًا لأنها حركة روحية جديدة فقد اضطرت إلى عرض معتقداتها لخصومها، وإلى أن تدافع عن علّة وجودها وكان عليها باعتبارها طريقة جديدة فى الحياة، أن تصلح المؤسسات الإدارية التى وجدتها فى مختلف الأقاليم، وفوق كل هذا فبتقدم الإسلام تهاوت الحواجز القديمة من اللغة والعادات، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة وبروح من المنافسة الحرّة. وقد تمت فى القرن التاسع الميلادى الفترة التكوينية لهذه العمليات وصار كل فرع من فروع المعرفة فى الإسلام تتحكم فيه منذ ذلك الوقت قوانين وتقاليد المدنية الإسلامية المستقلة)[4].

وقال: (يقول فون كريمر عند وصفه النشاط العلمى عند المسلمين: (إن أعظم نشاط فكرى قام به العرب يبدو لنا جليًا فى حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم. فإنهم كانوا يبدون نشاطًا واجتهادًا عجيبين حين يلاحظون ويمحّصون وحين

---

(1) علم التاريخ عند المسلمين، ص 45.

(2) علم التاريخ عند المسلمين، ص 39.

(3) علم التاريخ عند المسلمين، ص 45 - 46.

(4) علم التاريخ عند المسلمين، ص 46.

يجمعون ويرتبـون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتـقليد. ولذلك فإن أسلوبهم في البحث أكـبر ما يكون تأثيـراً عندما يكون فى نطاق الرواية والوصف. ولذا يحـتل التاريخ والجغرافيا المقام الأول فى أدبهم وبصفتهم أصحاب مـلاحظة دقيقة، وبصفتهم مفكرين مبدعين فإنهم قـد أتوا بأعمـال رائعة فى حـقلى الرياضيـات والفلك. وللسبب ذاته نجح الـعرب فى التشريع وفى وضع قواعد اللغة من صرف ونحو فى شكل شامل محكم)[1].

وهو يرد على تشويه بعض المستشرقين للمنهج العـلمى الذى مارسه المسلمون، فيقول: (وكثيراً ما يشوه آراء الغربيين فى البحث العلمى عند المسلمين شعورهم بالتفوق والعلوّ شعوراً لا يرتكز على منطق. فمن العجيب حقّـا أن نسمع عالمًا أوروبيًا يقول عن ياقوت الذى يرفض تصديق إحـدى القصص: (يندر جدًا أن يبدو ياقـوت بهذا التعـقل وهذه الرصانة) فى الوقت الذى نعلم فيه أن هذا المؤلف الغربى، بقطع النظر عن مؤهلاته العلمية، يبدو قزمًا إذا ما قيس بياقوت الحموى)[2].

وهو يذكر اهتـمام المسلمين بالكتب، فيـقول: (كانت المكتبـة الخاصة، بالنسبـة للعالم المسلم، أعزّ ما يملكه، وكان فقدها كارثة تتـرك فى نفسه ألمًا أشد من اللم الذى يشعر به عالم اليوم إذا ما فقد كتبه)[3].

**مارتن بلسنر**

من الأسماء التى رأيتـها فى دفتر البابا فى هذا الفـصل اسم (مارتن بلسنر)[4]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات عن امتداد تأثير العلوم الإسلامية فى الغرب، من قوله: (لا يكاد يوجـد شىء من جـهود المسـلمـين فى ميدان العلوم لم يتـأثر به الغـرب بطريق أو بآخر)[5].

وقال: (أصـبح تأثير الـعلوم عند المسلمين على الغـرب ممكنًا فى المقـام الأول نتيـجة للفتوح العربيـة فى غرب البحر الأبيض المتوسط. فقد ترك وجود العـرب حوالى ثمانمائة عام فى شـبه جـزيرة إيبريا عـلامات لا تمحى على الأرض الإيبـرية وعلى الفنون، واللغـات التى يتكلمها الناس هناك.. وبالرغم من أن فترة حكم العرب فى صقلية وأجزاء من جنوب إيطاليا

(1) مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى، ص 15.

(2) مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى، ص 18 - 19.

(3) مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى، ص 49.

(4) مارتن بلسنر M. Plessner محاضـر فى معهد العلوم الشرقيـة بجامعة فرانكفـورت. وقد وقف نشاطه على إحصاء ما عرّب من الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية لدى اليونان فى العصور الوسطى.

من آثاره: كتب العديد من الدراسات فى المجـلات الاستشراقية المعروفـة ومنها (المخطوطات العربية فى استنبـول وقونية ودمشق) و(ترجمـة العلوم اليونانية إلى العـربية) كما كتب العـديد من المفردات فى دائرة المعارف الإسلامية.

(5) تراث الإسلام، (تصنيف شاخت وبوزوث)، 3 / 79.

كانت قصيرة، وأن استمرار التأثير الثقافى للعرب كان أقصر عمراً، فإن هذا التأثير لم يكن فى جملته، أقل شدة مما كان عليه فى شبه جزيرة إيبريا)[1].

وقال: (لم تكن علوم المسلمين بطبيعة الحال العامل الوحيد الذى أدى إلى إحياء العلم فى الغرب، فتقاليد العلوم القديمة لم تتلاش تمامًا وسط الفوضى التى عمّت خلال عصر غزوات البرابرة لأوروبا. ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوروبى قوة دفع جديدة. والأهم من ذلك أن هذا العلم الغربى قد اكتسب مادة أدّت إلى إثرائه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمى المستقلّ للمسلمين أنفسهم)[2].

وقال: (أضحت اللغة العربية أداة العلم الإسلامى الرئيسية وقامت فى المشرق بالدور الذى قامت به اللغة اللاتينية فى الغرب.. ولم تحتل اللغة العربية هذه المكانة الرفيعة بذاتها ولكن الموقع المركزى لها بوصفها لغة الدين الإسلامى والإدارة هو الذى أدى إلى تطويعها لتلائم المتطلبات العلمية)[3].

***

(1) تراث الإسلام، 3 / 79.

(2) تراث الإسلام، 3 / 81.

(3) تراث الإسلام، 3 / 82، وعن إنجازات المسلمين فى ميدان الطب والصيدلية، انظر: المرجع نفسه 3/ 100-102، 118-119، 121-128، 141-148.

# 5 - أصدقاء من ألمانيا

قلبت بعض الصفحات، فرأيت عنوان (أصدقاء من ألمانيا)، فقلت: هذه بلدك ومسقط رأسك، وهى بلد الفلاسفة والعلوم، وبلد القوة والبطش، آلنا فيها أصدقاء؟!

قال: أجل.. فيها أصدقاء كثيرون، وإخوان كثيرون، وفيها إلى جانبهم كثير من الذين ينتظرون عناوينكم ليبادلوكم الصداقة.

قلت: مرحبا بكل صديق..

قال: رحبوا بأفعالكم، لا بأقوالكم.. فقومى يؤمنون بالقوة ويدينون لها.

قلت: قوة السلاح.

قال: لا.. فتلك أضعف القوى.

قلت: فما القوة التى نحتاجها؟

قال: قوة الإيمان والصدق والإخلاص، وقوة الحضارة والرقى، وقوة السلوك والترفع.

قلت: هذه قوى عظيمة؟

قال: لن تنتصروا إلا بها.

**زيغريد هونكه:**

كان من أول الأسماء التى رأيتها فى هذا المحل (زيغريد هونكه)[1]، فقلت: هذه هى المرأة التى حدثتنى حديثها فى رحلتك السابقة[2].

قال: أجل.. وهى صديقةطيبة، وأخت فاضلة..

قلت: أخت فى الدين؟!

قال: يمكنك أن تقول ذلك[3].. وشهاداتها لا تنطق إلا بذلك.

---

(1) دكتورة زيغريد هونكه Dr. Sigrid Hunke مستشرقة ألمانية معاصرة، وهى زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألمانى المعروف الذى تعمق فى دراسة آداب العرب والاطلاع على آثارهم ومآثرهم. وقد قضت هونكه مع زوجها عامين اثنين فى مراكش، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية.

من آثارها: (أثر الأدب العربى فى الآداب الأوروبية) وهو أطروحة تقدمت بها لنيل الدكتوراه من جامعة برلين، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانبًا من الحضارة الإسلامية (1995)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذى ترجم بعنوان: (شمس العرب تسطع على الغرب)، وهو ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة. وقد سبق الحديث معها فى الجزء السابق.

(2) أجرينا الحوار الافتراضى معها فى رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (علوم).

(3) ذكرنا فى هامش الرسالة الماضية أن هناك من أخبر عن إسلامها، ولا بأس من إعادة ما ذكرناه هنا.. فقد ورد فى مقال بعنوان (مستشرقون أعلنوا إسلامهم) قول مؤلفه ـ لم أجد اسمه ـ : «ويطيب لى هنا أن أثلث بثالثة الأثافى، قصة العالمة الألمانية زيغريد هونكة صاحبة الكتاب الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب) والذى بينت فيه، كما هو معلوم، فضل حضارة المسلمين وتمدنهم على الغرب ونهضته الأخيرة بعد عصور الظلام التى غطت أوروبا فى غطيطها قرونا طويلة.. زيغريد هونكة التى تملك=

قلت: فحدثنى أحاديثها. . فما أعذب أحاديثها؟

قال: إن معظم شهاداتهـا ترتبط بالثمرات العظيمة التى حققتـها النبوة. . فهى من قوم يزنون النجاح والفشل بالمنجزات.

ومن ذلك مقـارنتها بين دعـوة الإسلام للعلم واهتمـامه به، بالمسيـحية التى احتـقرت العلم، قالت: (لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًـا. وكان يرى فى تعمق أتباعه فى دراسة المخـلوقات وعجائبها وسـيلة التعرف على قـدرة الخالق. وكـان يرى أن المعـرفـة تنير طريـق الإيمان. . ويلفـت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مـصدرها ولو نطق بالعلم كافـر. وعلى النقيض تمامًا يتسـاءل بولس الرسول Paulus مقـرًا: (ألم يصف الرب المعرفـة الدنيوية بالغـباوة)؟ مفـهومان مـختلفـان، بل عالمان منفصلان تمامًا، حـددا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر فى الشـرق والغرب وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربيـة الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة فى أوروبا حـيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها)[1].

وقالت: (لم تكن المساجد مـجرد أماكن تؤدى فيها الصلوات فـحسب، بل كانت منبراً للعلوم والمعـارف، كما ارتفـعت فيـها كلمات الرسـول فوق مـجد التديّن الأعـمى. ألم يقل

---

=حبُّ العرب وثقـافتـهم ومجدهم شَغاف قلبـها بما لا يكاد أن يكون له مـثيل بين الأوربيـين وأحبتْ الإسلام لحبها لهم ولَعلمها بأنه هَو الذى أخرجهم بين الأمم خير أمة أخرجت للناس.

وقد حدثنى بخبرها الدكتور على الدفاّع عالم الرياضيات المعروف فى جامعة البترول بالظهران بنفسه مشافـهة قال: كنت فى أحد المؤتمرات العلمـية فى أوربا وقد تحدثتُ إلى الدكتـورة هونكة وكنت مطلعا على كتاباتها وإنصافها لعقيدتنا وحضارتنا ورأيتُـها وقد كبرتْ سنُها قلت لها: إن لى حلما جميلا أرجو له أن يتحقق!! فـقالت لى: وما هذا الحلم. . قال فأجـبتُها: بأن حيـاتك العلمية والثقـافية الطويلة فى الدفاع عن مـآثر العرب والمسلمين وتـاريخهم أرجو أن يكون لهـذه الحياة الحـافلة وهذه السـيرة العلمـية المميزة تكملة جمـيلة وأن تختم بأحسن ختام وذاك بأن تدخلى فى الإسلام!! قـال محدثى: وقد رأيتُ عينيها اغرورقتا بالدموع ثم قالت لى بالعربيـة الفصيحة: «بينى وبين ذلك قاب قوسين أو أدنى» قال فما مر عام أو أكثر حتى سمعتُ خبر اعتناقها للإسلام وسمعتُ خبر وفاتها بعد ذلك بمدة رحمها الله.

وعندما سُئلتْ فى أحد المؤتمرات الإسلامية ما نصـيحتها للمرأة العربية التى تريد طى الماضى وخلع الحجاب، قالت زيغريد هونكة: «. . لا ينبغى لها أن تتـخذ المرأة الأوربية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدى بفكر عقدى مـهما كان مصدره، لأن فى ذلك تمكينا جديدا للفكر الدخيل المؤدى إلى فقدها مقومات شخصيتها، وإنما ينبغى عليها أن تستمسك بهدى الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السـلف الصـالح، اللاتى عشنه منطلقات من قانون الفطرة التى فُطرنَ عليـها، وأن تلتمس العربيةُ لديهن المعـايير والقيم التى عشن وفقا لهـا، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلـبات العصر الضرورية وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة المثلة فى كونها أم جيل الغد العربى، الذى يجب أن ينشأ عصاميا يعتمد على نفسه».

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 369.

أقوالاً، كان يكفى لأن يقولهـا فى روما حتى يحاكم عليها بتهمـة الهرطقة؟ أو ليس هو القائل بأن حبر الطالب أقدس من دم الشهيد؟)[1].

وتحدثت عن الثراء الفكرى لـلإسلام، والذى حصل بسبب مناقشـته للأديان الأخرى، فالإسلام لم يسـتفد من مناظرته لمخـالفيه إلا قوة، قالت: (لم تـلبث الديانة الإسلامية الفـتية السائرة فى طريقـها بعزم وثـبات، أن اصطدمت بالديانات الأخرى فى كل مـكان. فهنا يقف رجال المذاهب المسيحية وجهًا لوجه أمام رجال المذاهب الإسلامية على أتم استعداد للمجادلة، وهنا تقسم هذه المجـادلات واختلاف وجهـات النظر المسلمين أنفهسم إلى مـدارس ومذاهب، وكان من الممكن أن يؤدى هذا إلى نهاية النهضة العربيـة الإسلامية وهى فى مهدها. ولكن ما حدث كان على خـلاف ذلك تمامًا، فإن إكراه الإسلام للفتـى على أن يجرب قواه الفكرية مع ديانات وفلسـفات أخـرى فى محـاجات فكرية وفلسـفية قد أفـاده أكبر إفـادة وأكسبه خـبرة ومرانًا)[2].

وتحدثت بإعجـاب عن صفاء التوحـيد فى الإسلام، وخلو العبـودية فيه من الاستـعباد للوسـائط، قالت: (الإسـلام لا يعرف وسـيطًا بين العـبد والرب، ولـم يكن لديه طبقـة من الكهنة.. وعلى العـموم فـإن مجـال حرية الرأى كـان أوسع مما هو عليه الحـال فى الديانات الأخرى)[3].

وقارنت فى هذا المجال بين المسجد والكنيسة، فقالت: (لم يكن المسجد تقليدًا للكنيـسة بالمرة، حتى ولو ارتفـعت سقوفه فـوق عمد، كانت يومًـا ما، تحمل سقف كنـيسة. فمـفهوم المسجد يختلف عند المسلمين تمام الاختلاف منذ البداية عن مـفهوم المسيحيين للكنيـسة. فليس المسجد بيت الله المقدس الذى يتقرب فـيه المؤمن من الله عن طريق وساطة الكاهن. فمن قبيل التبرك، أصبح بناء الكنيسة يرمز حرفـيًا، وليس معنويًا، إلى مملكة السماء التى يحكمها المسيح وإلى البيت المقدس الذى هبط من السمـاء إلى الأرض. وظلت الكنيسة تحمل هذا المعنى على مر العصور.. أما المسـجد فقد تحرر من تلك الأفكار، وكان هدفه بـسيطًا واقـعيًا. فالعالم كله مسجد كبير بنى لله.. ولم يفرض عليه الإسلام ضـرورة الصلاة فى مسجد أو معبد. وعبادته ليست مرتبطة بوجود كاهن مبـارك يمثل دور الوسيط بينه وبين ربّه، فكل إنسان فى نظره عبد لله قـادر على أن يؤم المصلين فى المسجـد.. فالجـامع هو الذى يجمع المسلمـين. وهو ليس بالمكان الخاص الذى يرتفع ببـركاته وقدسيته، كـالكنيسة، على بقية مـنازل الناس ومساكنهم.

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 396.

(2) شمس العـرب تسطع على الغرب، ص 372، وهذا ما يدعـو إلى الاستـفادة من تراث المسلميـن جميـعا بمدارسهم جمـيعا، فلا يمكن أن يمثل الإسـلام فى وظيفته الدعوية مـدرسة واحدة، فالعقـول المختلفة تستدعى تنوعا فى الطرح.

(3) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 373.

ولهذا لم يهتمّ المسلمون كثيراً بمظهر المساجد الخارجي. والصلاة للجميع على قدم المساواة فيقف العالم بجوار السقاء وقائد الجيش بجوار الجندى، والإمام بملابسه العادية لا يميزه شيء عن الآخرين.. فالكل سواسية كأسنان المشط. وقد كان هذا الأساس الديمقراطى للإسلام هو الذى جعل المساجد تتسع ولا ترتفع لتضم مزيداً من الأروقة للمؤمنين المتساوين فى الحقوق والواجبات.. والمسجد لا يحاول التأثير على الفرد موضوعيًا أو حسيًا فهو بيت الله، والله واحد لا شريك له ولم يكن له كفواً أحد)[1].

وتحدثت عن سماحة المسلمين رغم قوتهم، واعتبرت ذلك من أهم عوامل الانتصار: (لعلّ من أهمّ عوامل انتصارات العرب ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم فى معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة. والتاريخ لا يقدم لنا فى صفحاته الطوال إلا عدداً ضئيلاً من الشعوب التى عاملت خصومها والمخالفين لها فى العقيدة بمثل ما فعل العرب. وكان لمسلكهم هذا أطيب الأثر مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف ولا الحضارة الرومانية بعنفها فى فرض إرادتها بالقوة)[2].

وقالت: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة] هذا ما أمر به القرآن الكريم، وبناء على ذلك فإن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول فى الإسلام. فالمسيحيون والزرادشتيون واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الدينى وأفظعها، سمح لهم جميعًا دون أى عائق يمنعهم، بممارسة شعائر دينهم. وترك لهم المسلمون بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى. أو ليس هذا منتهى التسامح؟! أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟! ومن ذا الذى لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطى الصارخ وبعد فظائع الإسبان واضطهادات اليهود؟ إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم فى شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريرك بيت المقدس يكتب فى القرن التاسع الميلادى لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: (أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أى عنف)[3].

وقالت: (إن الإنسانية والتسامح العربى هما اللذان دفعا الشعوب ذات الديانة المختلفة إلى أن تعيش فى انسجام مدهش.. وأن تبدأ نموها وتوسعها وازدهارها ولأول مرة يتحرر أصحاب المذاهب المسيحية.. من اضطهاد كنيسة الدولة فتنتشر مذاهبهم بحرية ويسر..

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 477 - 479.

(2) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 357 - 358.

(3) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 364.

واستطاع العربى بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعيـة لديانته، لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلقه الكريم وسلوكه الحـميد. فكسب بذلك لدينه عددًا وفيرًا لم تكن أية دعـاوى مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله)[1].

وقـالت: (إن الأديرة المسيـحيـة فى سوريا، الـتى كادت أن تنمـحى فى عصـر الحكم المسيحى وصلت إلى ذروة عظمتها فى الدولة الإسلامية، أو ليس هذا بغريب؟)[2].

وقالت: (أو ليس من العجـيب أن نتساءل لماذا نفسر كمـا يحلو لنا، والعرب المسلمون قد فتحوا فـعلاً جزءًا من أوروبا هو الأندلس، فلم يقضوا على المسيحـية التى يزعمون أن شار مارتل قد حماها، ولم يقضوا على المدنية الغربية التى لم يكن لها وجود؟!)[3].

وتحدثت عن الإجحاف الذى قـابل به الغرب الحضارة الإسلامية، والثقـافة الإسلامية، فقالت: (يخيّل إلىّ أن الوقت قد حان للتحـدث عن شعب قد أثّر بقوة على مجرى الأحداث العالمية، ويدين له الغـرب، كما تدين له الإنسانية كافـة بالشىء الكثير. وعلى الرغم من ذلك فإن من يتصفح مائة كتاب تاريخى، لا يجد اسمًا لذلك الشعب فى ثمانية وتسعين منها)[4].

وتحدثت عن تأثير الحضـارة الإسلامية فى أوروبا، فقالت: (إن فى لغـتنا كلمات عربية عديدة، وإننا لندين - والتاريخ شاهد على ذلك - فى كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخـرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواءً باهرة جميلة على عالمنـا الرتيب، الذى كان يومًا من الأيام قاتمًا كالحًا باهتًا وزركـشته بالتوابل الطيبة النكهـة، وطيّبته بالعـبير العابق، وأحيـانًا باللون السـاحر، وزادته صحة وجـمالاً وأناقة وروعة)[5].

وقالت: (إن أرقـام العرب وآلاتهم التى بلـغوا بها حـدًا قريبًـا من الكمال وحـسابهم وجبرهم وعلمهم فى المثلثات الدائرية، وبصرياتهم الدقيقة، كل ذلك أفضال عربية على الغرب ارتقت بأوروبا إلى مكانة، مكنتهـا عن طريق اختراعاتها واكـتشافاتها الخـاصة، من أن تتزعم العالم فى ميادين العلوم التطبيقية منذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه)[6].

وقالت: (إن التأثير العربى فى أوروبا ظل حتى القـرن التاسع عشر وإن اختفى شكلاً، فتغلغل فى أعـماق الحياة الأوروبية، ورآه من يرغب فى رؤيته، وأغفلـه من حجب بصره كره أرعن أو تعصب أعمى)[7].

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 366.
(2) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 368.
(3) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 540.
(4) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 10.
(5) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 20.
(6) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 163.
(7) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 334.

وتحدثت عن تكريم الإسلام للمرأة، فقالت: (ظلت المرأة فى الإسلام تحتل مكانة أعلى وأرفع مما احتلته فى الجاهلية. ألم تكن خديجة رضى الله عنها زوجة النبى الأولى، التى عاش معها أربعة وعشرين عامًا، أرملة لها شخصيتها ومالها ومكانتها الرفيعة فى مجتمعها؟ لقد كانت نموذجًا لشريفات العرب، أجاز لها الرسول أن تستزيد من العلم والمعرفة كالرجال تمامًا؛ وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع ويلقين المحاضرات فى المساجد ويفسرن أحكام الدين. فكانت السيد تنتهى دراستها على يد كبار العلماء، ثم تنال منهم تصريحًا لتدرّس هى بنفسها ما تعلمته، فتصبح الأستاذة الشيخة. كما لمعت من بينهن أديبات وشاعرات، والناس لا ترى فى ذلك غضاضة أو خروجًا على التقاليد)[1].

وقالت: (إن النساء فى صدر الإسلام لم يكن مظلومات أو مقيدات، ولكن هل دام هذا طويلاً؟! لقد هبت على قصور العباسيين رياح جديدة قدمت من الشمال فغيرت الأوضاع، وقدم الحريم من الجاريات الفارسيات واليونانيات. وكان أن حرمت المرأة العربية من مكانتها الرفيعة فى المجتمع وقيدت حرياتها حين سيطرت على المجتمع العادات الفارسية القديمة. والإسلام برىء من كل ما حدث، والرسول لم يأمر قط بحجب النساء عن المجتمع. لقد أمر المؤمنين من الرجال والنساء على حد سواء، بأن يغضوا الطرف وأن يحافظوا على أعراضهم وأمر النساء بألا يظهرن من أجسادهن إلا ما لا بد من ظهوره، وألا يظهرن محاسن أجسادهن إلا فى حضرة أزواجهن)[2].

وقالت: (إن احترام العرب لعالم النساء واهتمامهم به ليظهران بوضوح عندما نرى أنهم خصّوه بفيض من العطور وبأنواع الزينة، التى وإن لم تكن غير مجهولة قبلهم، إلا أنها فاحت بثروة الشرق العطرية الزكية، وبالأساليب الفائقة فى تحضيرها. كذلك فإن العثنون الذى كان يزين الوجوه الحليقة، منذ حملات الصليبيين، على طريقة النبى محمد قد أصبح نموذجًا يقلده الرجال)[3].

وقالت: (قاوم العرب كل التيارات المعادية للمرأة واستطاعوا القضاء على هذا العداء للمرأة والطبيعة، وجعلوا من منهجهم مثالاً احتذاه الغرب ولا يملك الآن منه فكاكًا، وأصبح الاستمتاع بالجمال جزءًا من حياة الأوروبيين شاءوا أم أبوا)[4].

وقالت: (الإسلام قدّس الزواج وطالب بالعدل بين الزوجين أو الثلاث أو الأربع فى المعاملة ﴿ ...فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ... ﴿٣﴾ ﴾ [النساء] أليس هذا نصا صريحًا يطلب فيه من المؤمنين ألا يتزوجوا بأكثر من واحدة إلا إذا كان فى استطاعتهم تحرى العدل بين النساء؟

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 470.
(2) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 470 - 471.
(3) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 53.
(4) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 468.

والمشكلة لم تكن اقتصادية فحسب، فمؤرخو العرب يذكرون أن العربى الأصيل المؤمن لم يكن يتخذ إلا زوجة واحدة يبقى مخلصًا لها وتبقى هى مخلصة له حتى يفرق بينهما الموت)[1].

**إلس ليختنستادتر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (إلس ليختنستادتر)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذه امرأة فاضلة رأيت فى كلماتها نفحة من نفحات الصدق، فسجلتها.

لقد تحدثت عن عقيدة المسلمين فى القرآن الكريم، فقالت: (إن المسلم العصرى يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له، بل يوجب عليه، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت إليها علوم زمنه.. وإن مزية القرآن - فى عقيدة المسلم - أنه متمم للكتب السماوية ويوافقها فى أصول الإيمان، ولكنه يختلف عنها فى صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضى مع مضى عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها. وكل ما يراد به الدوام، ينبغى أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان)[3].

وتحدثت عن دور القرآن فى إشاعة القيم الفاضلة، فقالت: (إنه من الضرورى لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب دينى وكتاب اجتماعى أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساسًا لإدراك الحكم المعقدة التى تعالج مشكلات المجتمع الحديث. فإن النبى يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله فى كماله الإلهى وبين خليقته التى يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الإنسان. وإن واجب الإنسان أن يعمل بمشيئة الله للتنسيق بين العالم الإلهى وبين عالم الخلق والشهادة، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه جماعة إنسانية تتحرى أعمق الأوامر الإلهية وألزمها وهى أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان. وتلك هى الوسائل التى يضعها الله فى يد الإنسان لتحقيق نجاته، فهو ثم مسؤول عن أعماله ومسؤول كذلك عن مصيره)[4].

وردت على الشبه التى يثيرها الغرب من انتشار الإسلام بالسيف مبينة سماحة الإسلام، فقالت: (لقد جسمت العداوة المسيحية خطر الحرب المقدسة فى إخضاع البلاد التى لا تدين بالإسلام للسيطرة الإسلامية، إذ أن القتال لم يكن له كل هذا العمل فى انتشار الفتوح حتى

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 472.

(2) الدكتورة إلس ليختنستادتر Ilse Lictenstadter سيدة ألمانية، درست العلوم العربية والإسلامية فى جامعة فرانكفورت، ثم فى جامعة لندن، وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرقين الأدنى والأوسط، وعنيت عناية خاصة بدعوات الاجتهاد والتجديد والمقابلة بين المذاهب. من مؤلفاتها (الإسلام والعصر الحديث).

(3) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 19.

(4) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 19.

في إبان القرن الأول بعد الدعوة، وإنما تم معظم هذا الفتوح بالتسليم ومعاهدات الصلح، ووردت في هذه المعاهدات فقرات تبيح لأهل الكتاب من أبناء البلاد المفتوحة أن يحتفظوا بعقائدهم وشعائرهم بشروط ليست على الجملة بالمرهقة. فليست فكرة النار والمدن بالفكرة الصحيحة التي يؤيدها الواقع، ومن الميسور كما يقول المؤرخ توينبي أن يسقط الدعوة التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوًا في تجسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية، إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف وإنما كان تخييرًا بين الإسلام والجزية وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الإنجليزية على عهد الملكة اليصابات)[1].

وتحدثت عن النظام السياسي الإسلامي، وما يحويه من قيم العدالة، فقالت: (إن تاريخ الحكم الإسلامي يدحض ظنون بعض الغربيين من أن الإسلام لا يصلح لإقامة دولة تساس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين، وأن مفكري الإسلام في جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية وأخرجوا لأممهم مذاهب في السياسة والولاية تسمو إلى الطبقة العليا)[2].

**آدم متز:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آدم متز)[3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من أهل بلدنا، وله شهادات طيبة ترتبط بالجانب الحضاري والأخلاقي في الإسلام رد بها على التشويه الذي يثيره بعض قومنا.

ومن ذلك شهادته بتكريم الإسلام للرقيق، قال: (جرت العادة منذ العصر الأول للإسلام بأن لا يسمى العبيد عبيدًا، بل يسمى العبد فتى والأمة فتاة؛ وقد نسب هذا - كما نسب كثير غيره إلى أمر النبي. وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجل عبده، ويروى عن النبي أنه قال: «شر الناس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده»، وهذا الشعور النبيل عبر عنه أبو الليث السمرقندي (المتوفى سنة 387هـ-997م) بروايته هذا الحديث. وفي القرن الرابع الهجري اتخذ بعضهم من قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] نقدًا يوجهونه لمن يضرب عبده)[4].

---

(1) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 22 - 23.

(2) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 23 - 24.

(3) آدم متز (1869-1917) A. Metz تخرج من جامعات ألمانيا، وعين أستاذًا للغات السامية، في جامعة بازل بسويسرا، وقد تخصص بالأدب العربي في العصر العباسي.

من آثاره: (أبو القاسم وتقاليد بغداد في عصره) (1902)، (نهضة الإسلام في القرن الرابع الهجري) (1922)، وقد ترجم إلى العربية بعنوان: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري).

(4) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: 1 / 288 - 289.

وقال: (كان فى الإسلام مبدأ فى مصلحة الرقيق، وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشترى حريته بدفع قدر من المال، وقد كان للعبد أو الجارية الحق فى أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذى يريده. . وكذلك كان من البر والعادات المحمودة أن يوصى الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم)[1].

وتحدث عن الحرية التى كانت تسود الأقطار الإسلامية إبان الحكم الإسلامى، فقال: (كان المسلم يستطيع أن يرتحل فى داخل حدود المملكة (الإسلامية) فى ظل دينه وتحت رايته، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذى يعبده، ويصلون كما يصلى، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفًا واحداً، وعادات واحدة. وكان يوجد فى هذه المملكة الإسلامية قانون عملى يضمن للمسلم حق المواطن، بحيث يكون آمنًا على حريته الشخصية أن يمسّها أحد، وبحيث لا يستطيع أحد أن يسترقّه على أى صورة من الصور. وقد طوّف (الرحالة المعروف) ناصر خسرو فى هذه البلاد كلها فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) دون أن يلاقى من المضايقات ما كان يلاقيه الألمانى الذى كان يتنقل فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر للميلاد)[2].

وتحدث عن سماحة المسلمين مع أهل الديانات المختلفة، فقال: (إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التى كانت كلها على المسيحية فى العصور الوسطى وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين وأولئك هم (أهل الذمة) الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية. . واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج فى المسلمين وقد كان وجودهم سببًا لظهور مبادئ التسامح التى ينادى بها المصلحون المحدثون وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعًا من التسامح الذى لم يكن معروفًا فى أوروبا فى العصور الوسطى ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أى دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم)[3].

وقال: (ولم يكن فى التشيع الإسلامى ما يغلق دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخًا فى الصنائع التى تدرّ الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء. بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة

(1) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى: 1 / 290، وسنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا فى رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

(2) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى: 1 / 4.

(3) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع: 1 / 57.

فى الشام مثلاً يهوداً، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى. وكان رئيس النصارى فى بغداد هو طبيب الخليفة، وكان رواد اليهود وجهابذتهم عنده)[1].

وقال: (كانت حياة الذمى عند أبى حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم، ودية المسلم، وهى مسألة مهمة جداً من حيث المبدأ.. ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل فى الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم.. وكذلك ازدهرت الأديرة بهدوء)[2].

وقال: (ومن الأمور التى نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرّفين غير المسلمين فى الدولة الإسلامية)[3].

وقال: (كان تسامح المسلمين فى حياتهم مع اليهود والنصارى، وهو التسامح الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى، سببًا فى أن لحق بمباحث علم الكلام شىء لم يمكن قط من مظاهر العصور الوسطى، وهو علم مقارنة الملل)[4].

**د. ج. كامبفماير:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (د. ج. كامبفماير)[5]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل عاقل من أهل بلدنا عرف قوة المسلمين وسلامهم، فلذلك خاطب فراعنة قومنا بما خاطب به مؤمن آل فرعون فرعون وزبانيته، فقال: ﴿... أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ... ﴿٢٨﴾﴾ [غافر].

أما هذا الرجل الفاضل، فقال: (إن الاعتداء على الإسلام لا ترجى منه فائدة.. ولن يرد المسلمين عن دينهم ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقوّيها)[6].

وقال: (إن فى الشرق العربى الأدنى على وجه التأكيد نهضة إسلامية قوية خلقية ودينية واجتماعية، ستكون أساس الحياة القومية الجديدة، وإذا عرفنا هذا تجلت حقيقة مهمة هى أن تنصير المسلمين مستحيل الآن.. فهل سيعارض المبشرون فى جعل الدين - ولو كان الإسلام - أساسًا للحياة القومية الصحيحة؟ وإذا كان تنصير المسلمين فى الظروف الحاضرة مستحيلاً

---

(1) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع: 1 / 68 - 69.

(2) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع: 1 / 69 - 70.

(3) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع: 1 / 87.

(4) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع: 1 / 366.

(5) د. ج. كامبفماير (1864 - 1936) G. Kampffmeryer تخرج باللغات الشرقية فى ليبزغ، وتخصص فى الإسلام الحديث والعربية المعاصرة من معهد اللغات الشرقية ببرلين (1907)، ورأس تحرير مجلة (عالم الإسلام) التى نشر فيها دراسات عن المؤلفات الحديثة فى الآداب المعاصرة.

من آثاره: (النصوص والأعمال فى تاريخ الأمة العربية الحديثة) (1924)، (دراسات فى الأدب العربى المعاصر) (1925-1926) و(شعراء العرب فى العصر الحاضر).. إلخ.

(6) وجهة الإسلام، ص 103.

فلم يبق أمام هذه الشعوب الإسلامية إلا أحد أمرين: إما النهضة الإسلامية وإما المادية والفساد الخلقى.. فأيهما خير للشعوب الإسلامية؟)[1].

وتحدث عن بعض أسباب الوحدة الإسلامية التى تجعلها جدارا حصينا ضد كل محاولات الاختراق، فقال: (إن العربية، وهى لسان الإسلام غير مدافع، تدرس وتعرف حق المعرفة فى العالم الإسلامى كله من المحيط الأطلسى إلى الهند وجاوة، وبذلك تسهل انتشار الحركات الروحية انتشاراً يتجاوز بكثير حدود البلاد التى تنشأ فيها ويعين على انتشارها عوامل أخرى أكبرها الصحافة العربية.. ويلعب الحج دوره أيضًا فى المزج الروحى بين مختلف شعوب الإسلام، وأن تجاور البلاد فى الشرق الأدنى الناطق بالضاد، وبوجه أدق فى المساحة التى تشغلها مصر وجزيرة العرب والعراق وسوريا وفلسطين ورقى وسائل المواصلات إلى جانب الصحافة تعمل بوجه خاص على إنماء العواطف والأمانى الإسلامية العامة)[2].

وتنبأ بنهضة الإسلام، فقال: (أستطيع أن أؤكد أن البلاد الناطقة بالضاد ولا سيّما مركزها العظيم الذى يتكون من الكتلة المتماسكة التى قوامها مصر وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا والعراق ستلعب دوراً غاية فى الأهمية وربما كان دوراً حاسمًا.. ونهضة الإسلام فى هذه البلاد أمر واقع لا سبيل إلى ردّه، ولن يحدث فى البلاد العربية شىء يشبه ما حدث فى تركيا فلن يقطع العرب الصلة بتاريخهم الإسلامى والأدبى المجيد، بل إن ذكرى هذا الماضى من عوامل النهضة الوطنية والدينية ولن تستبدل هذه الشعوب الكتابة اللاتينية بالكتابة العربية.. ولن ينبذوا هذه الوسيلة المدهشة التى تمكنهم من الاتصال بالعالم الإسلامى كله، ولن يقوى أحد على إيقاف حركة النهضة الإسلامية فى هذه البلاد لأنها الأساس الذى يحتاج إليه الناس لتقوم عليه نهضتهم الوطنية.. وستصير كل من القاهرة والقدس بالتدريج مركزاً عظيمًا للحياة الإسلامية بعد مكة وسيفد طلبة العلم (كما حدث فعلاً) من البلاد الناطقة بالضاد فى المغرب شطر مصر وفلسطين.. ثم سيعودون إلى بلادهم ليزيدوا نهضة الشرق شيئًا فشيئًا وسيحدث مثل هذا الأثر فى الأصقاع الأخرى من العالم الإسلامى.. ولن يقوى الانحلال السياسى على تغيير شىء من خصائص الحاجات الوطنية والدينية العامة)[3].

**رودى بارت:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (رودى بارت)[4]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد أنطق الله هذا الرجل بشهادات صدق، كان منها شهادته عن موقف

---

(1) وجهة الإسلام، ص 102.

(2) وجهة الإسلام (بإشراف كب)، ص 69.

(3) وجهة الإسلام، ص 99.

(4) رودى بارت Rudi. Part عالم ألمانى معاصر، ولد عام 1901، درس فى جامعة توبنجن اللغات السامية والتركية والفارسية فى الفترة من 1920 حتى 1924 وتخرج على يد المستشرق الألمانى ليتمان. امضى=

بعض ممثلي حركة التنوير من رسول الله ﷺ، قال: (كان من بين ممثلي حركة التنوير من رأوا في النبي العربي أدلة الله، ومشرعًا حكيمًا، ورسولاً للفضيلة، وناطقًا بكلمة الدين الطبيعي الفطري، مبشرًا به)[1].

وتحدث عن بعض ثمار النبوة، فقال: (كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيثون فيها فسادًا. حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس)[2].

وقال: (إن العالم الواسع المترامي الأطراف ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالإسلام إلى عامل من عوامل القوة السياسية، ويصبحوا بذلك ذوي أهمية إن صح هذا التعبير)[3].

وتحدث عن شمولية الإسلام، فقال: (الشريعة الإسلامية بمعناها الواسع الذي يشمل تنظيم الشعائر كذلك، هي المضمون الحقيقي للروح الإسلامية الأصيلة، وهي التعبير الحاسم عن التفكير الإسلامي، إنها النواة الجوهرية للإسلام على الإطلاق)[4].

**ج. ك. بيرغ:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ج. ك. بيرغ)[5]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من قومنا أراه الله بعض محاسن الإسلام، فراح يبشر بها.

فقد تحدث عما يختزنه النظام الإسلامية من حرية وعدالة ومساواة، فقال: (لا حاجة بنا إلى الإطناب في بيان المميزات الخاصة بالإسلام ولا في بيان اختلافه العظيم عن الهندوكية.. إن نظام الطوائف الذي تحيا به الهندوكية أو تموت لا أثر له في الإسلام، دين الديمقراطية، وقد استمد قوته على الدوام من حبّ الجماهير له حبًا حماسيًا. إن الإسلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكانًا وأن معتنقيه ليفخرون به.. وليس هناك كاهن

---

=ستين في القاهرة (1925-1926)، كان اهتمامه في البداية بالأدب الشعبي ولكنه تحول إلى الاهتمام باللغة العربية والدراسات الإسلامية وبخاصة القرآن الكريم.

تولى العديد من المناصب العلمية منها مدرّس في جامعة توبنجن وأستاذًا بجامعة هايدلبرج ثم عاد إلى توبنجن أستاذًا لـلغة العربية والإسلاميات من عام 1951-1968. ومن أهم مؤلفاته (محمد والقرآن) وترجم معاني القرآن الكريم إلى الألمانية وله كتاب عن القرآن بعنوان(القرآن تعليق وفهرست).

(1) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 15.

(2) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 20.

(3) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 20.

(4) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 49، والعبارة المذكورة وردت في مقدمة كتاب جوتتهلف برجبشتر (المميزات الأساسية للشريعة الإسلامية)، (برلين، 1935م).

(5) ج. ك. بيرغ J K Birge عمل أستاذًا في جامعة ليدن، وانصب اهتمامه على تاريخ الصوفية في الإسلام، وكتب أبحاثًا عديدة عن جلال الدين الرومي وغيره.

يشرف على الحياة الدينية. وإن إجماع المسلمين على اختلاف الرأى رحمة من الله، هذا الإجماع الذى يستلفت النظر بلينه وتسامحه ويبرهن لنا برهانًا جديرًا بالذكر على حاجة المسلمين السائدة إلى توحيد الكلمة، يؤيده عدم وجود سلطة معينة ترغم الناس على رأيها)(1).

وتحدث عن أثر الحج فى وحدة المسلمين، فقال: (إن الحج المفروض على كل مسلم أن يقوم به مرة فى حياته إن استطاع إليه سبيلا.. وأثر اللغة العربية فى العمل على الوحدة، وتشابه طرق التعليم فى كل العالم الإسلامى، كل هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقيةً فى المكان الأول، حتى بعد أن تم تمزق إمبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة)(2).

وتحدث عن الأثر العظيم الذى قام به الإسلام فى التأليف بين الأمم المختلفة، فقال: (إن النزعة التى تصبغ كل شىء بصبغة الدين والتى امتاز بها الإسلام منذ أيامه الأولى، جعلته مدة تزيد على اثنى عشر قرنًا دينًا متمكنًا فى إمبراطوريات انمحت فيها القوميات وكان هو فيها أكبر قوة تعمل على تماسكها.. لقد حاز الإسلام فضلاً لا سبيل لإنكاره بأنه عمل على حل مشكلة التفاهم بين الأمم وهو فضل لا يجحده حتى غير المسلم ممن يتبع دينًا آخر ويعتنق فكرة أخرى فى الحياة)(3).

وقال: (مما يعنى الباحثين فى الإسلام فى إندونيسيا عناية خاصة أن تأثير شعور الوحدة الإسلامية القديم يمكن أن يتجلى أيضًا فى حركات كثيرة وأظهر ما يكون هذا فى حركة شعبية مثل (شركة إسلام) التى زاد عدد أعضائها على مليونين فى بعض الأحيان، وإن تاريخها ليبيّن أنها تكونت من عناصر غير متجانسة وأن هذه العناصر لم تشعر قط بما بينها من اختلاف)(4).

وتحدث عما جنته أفكار الغرب على العالم الإسلامى، فقال: (إن أفكارًا أوروبية مخالفة فى جوهرها للأفكار التى كانت سائدة قبل ذلك وجدت لها مكانًا خفيًا فى مراكز العالم الإسلامى.. وأحدثت عملية انحلال انتهت فى ميدان السياسة بتكوين ممالك صغرى مشربة بالروح الأوروبية.. وأصبحت الأمة الإسلامية على وشك التمزق)(5).

وقال: (إن التعليم على الأسلوب الأوروبى الجديد - وهو غريب عن روح الإسلام غرابته عن روح المسيحية - يضع وهو صامت بذور انحلال أكثر مما حدث)(6).

---

(1) وجهة الإسلام (بإشراف كب). ص 160 - 161.

(2) وجهة الإسلام، ص 161.

(3) وجهة الإسلام، ص 199 - 200.

(4) وجهة الإسلام (بإشراف كب)، ص 14.

(5) وجهة الإسلام، ص 200.

(6) وجهة الإسلام، ص 201.

**جوزيف شاخت:**

من الأسمـاء التى رأيتهـا فى دفتـر البابا فى هذا الـفصل اسم (جوزيـف شاخت)[1]، فسألت البـابا عنه، فقال: هذا رجل من قومنا اهتم بالشريعـة والقانون، ولذلك فإن له بعض الشهادات المرتبطة بهذا الجانب . . وهى فى عمومها شهادات صادقة، ولكن تخللها بعض سوء الفهم، وقد وجد من علماء المسلمين من يرد عليه.

فقد تحـدث عن أهمية الشريعة الإسـلامية وتميزها، فقـال: (من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتـحضّر قانونه الديـنى الذى يسمى (بالشريعة) والـشريعة الإسلامـية تختلف اختـلافًا

(1) جوزيف شاخت J. S. Shecht ولد عام 1902، وتخرج من جامعتى برسلا وليبزج، وعين أستاذًا فى عدد من الجامعات الألمانية (1927-1934)، وفى الجامعة المصرية (1934)، ومحاضرًا للدراسات الإسلامية فى جامعة أكسـفورد (1948)، وليدن (1954)، وكولـومبيا (1957-1958)، وانتخب عـضوًا فى عـدد من المجامع والجمعيات العلمية. وقد اشتهر بدراسة التشريع الإسلامى وبيان نشأته وتطوره.

من آثاره: حقـق العديد من النصـوص الفقهـية، وألف عـددًا من المصنفات مـثل: (دين الإسلام) (1931)، و(نشأة الفقه فى الإسلام) (1950)، و(خلاصة تاريخ الفقه الإسلامى) (1952).

وقد حاول (جوزيف شاخت) أن يأتى بنظرية جديدة حول أسس الفقه الإسلامى، ونشر لبيانها عدة كتب ومـقالات بالإنجليزية، والفـرنسية، والألمانـية، ووضع كتـاب (المدخل إلى الفقه الإسـلامى) لهذا الغرض.

وإن كان كتابه (أصول الشـريعة المحمـدية) يعد من أشهـر مؤلفاته على الإطلاق، كما عـبر عنه المستشرق جب بأنه (سيصبح أساسًا فى المستقبل لكل دراسة عن حضارة الإسلام، وشريعته، على الأقل فى العالم الغربى)

وقد أثرت نظريات (شاخت) تأثيرًا بالغًا على جميع المـستشرقين تقريبًا، مثل (أندرسون) و(روبسون) و(فيزجـرالد) و(كولـسون) و(بوزورث) كـما أن لهذه النظريات تأثيرًا عـميقًا على مَن تـثقفوا بالـثقافات الغربية من المسلمين.

وقد ذكـر الدكتـور الأعظمى فى رده على شـاخت فى بحث بعنوان: (المستـشرق شـاخت والسنة النبوية) أن كـتاب شـاخت يحاول أن يقلع جـذور الشريعة الإسـلاميـة، ويقضى على تاريخ التـشريع الإسلامى قضاءً تامًـا. . فهو يزعم أنه (فى الجزء الأكبر من القرن الأول لـم يكن للفقه الإسلامى - فى معناه الاصطلاحى - وجود كما كان فى عهد النبى، والقانون - أى الشريعة - من حيث هى هكذا كانت تقع خارجة عن نطاق الدين، وما لم يكن هناك اعـتراض دينى أو معنوى روحى على تعامل خاص فى السلوك، فقد كانت مسألة القانون تمثل عملية لا مبالاة بالنسبة للمـسلمين، حيث صرح شاخت بأنه (من الصعوبة اعتبار حديث ما من الأحاديث الفقهية صحيح بالنسبة إلى النبى).

وقد أسـهمت هذه الدعـوى التى أطلقهـا شاخت، فى تأسـيس مقولات وأفكـار، رددها عدد من الكتاب المتغربين فى بلادنا، فتعرضت السنة الشريفة إلى اتهامات ظالمة، وهوجم الفقه الإسلامى هجومًا عنيفًا، وكأن الفقه لا علاقة له بالكتاب والسنة.

وقد سعى الدكتور الأعظمى فى بحثه هذا، لـدحض هذه الفرية، من خلال جداول إحصائية برهن فيهـا على أن تشريعات القرآن الـكريم شملت عموم جـوانب الحياة كلها، وأكد عـلى أن الإسلام جاء بعقيدة فى مجال التشريع، تنص على أن التـحريم والتحليل من حق الله سبحانه وتعالى وأنه طلب من المسلمين الخـضوع التام لأوامر الله سـبحانه وتعالى، وانـه أنزل لهم من أصول التشريع مـا يكفى لـسد حاجاتهم، وتمثيلاً لأوامر الله سبحانه وتعالى كان رسول الله ﷺ يقضى بين الناس.

واضحًا عن جميع أشكال القانون إلى حدّ أن دراستها أمر لا غنى عنه لكى نقدر المدى الكامل للأمور القانونية تقديرًا كافيًا . . إن الشريعة الإسلامية شىء فريد فى بابه، وهى جملة الأوامر الإلهية التى تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهى تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية)[1].

وقال: (تعتبر الشريعة الإسلامية مثالاً له مغزاه على نحو خاص لما يمكن أن يسمى قانونًا دينيًا. بل إن التشريعين المقدسين الآخرين اللذين يعتبران نماذج من القانون الدينى، وهما أقرب ما يكونان إلى الشريعة الإسلامية من الناحيتين التاريخية والجغرافية، وهما الشريعة اليهودية والقانون الكنسى، يختلفان عن الشريعة الإسلامية اختلافًا ملموسًا. ذلك لأن الشريعة الإسلامية أكثر تنوعًا فى صورتها مما فى التشريعين المذكورين، لأنها جاءت نتيجة نظر وتدقيق من الناحية الدينية فى موضوعات للقانون كانت بعيدة عن أن تتخذ صورة واحدة)[2].

وقال: (فى منتصف القرن الثانى للهجرة تقريبًا أخذ القانون الدينى الإسلامى شكله الجوهرى وقد أصبح على ما هو عليه الآن ليس مجرد تلك الطريقة الآلية فى إدخال اعتبارات مادية ذات صفة خلقية أو دينية فى ميدان القانون؛ ولكن بعدّه عملية أخرى ألطف وأدق، وهى تنظيم هذا الميدان وترتيبه بعدّه جزءًا من الواجبات الدينية للمسلمين. وتحوى الشريعة مبدءًا موحدًا فرض نظامًا تركيبيًا عقليًا على مختلف المواد الأولية التى بنى منها، غير أن هذا المبدأ غير شكلى أو مستقل، أنه هو مادى إسلامى)[3].

(المسلمون لا يستطيعون أن يتخلصوا من السلطان الروحى والتأثير العميق المتأصل لقانونهم الدينى. وأن فك القانون الدينى - بمعنى أن القانون له شأن العلاقات الإنسانية الأخرى، يجب أن يخضع للدين أصبح جزءًا أساسيًا من النظرة الإسلامية. ولنذكر عرضًا أن هذا ينطبق أيضًا على السياسة وحتى على الاقتصاد)[4].

وتحدث عن تأثير الشريعة الإسلامية على شرائع الديانات الأخرى، فقال: (فى الطرف المقابل من البحر المتوسط نجد التشريع الإسلامى قد أثّر تأثيرًا عميقًا فى جميع فروع القانون. . وهناك تأثير التشريع الإسلامى على قوانين أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا فى الدولة الإسلامية. . وليس هناك شك فى أن الفرعين الكبيرين للكنيسة المسيحية الشرقية وهما اليعاقبة والنسطوريون؛ لم يترددوا فى الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامى. وهذا الاقتباس كان فى كل تلك الموضوعات التى يمكن أن يتصور المرء أنها تدخل فى نظر القاضى المسلم)[5].

---

(1) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، 3 / 9.

(2) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، 3 / 10.

(3) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونبادم)، ص 107.

(4) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية (تحرير كرونبللوم)، ص 119.

(5) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، 3 / 27 - 29.

قلت: إن هذه كلمات طيبة من رجل مثله.. فما لا يدرك كله لا يترك كله.

**ادوين كالفرلى:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ادوين كالفرلى)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من قومنا أنطقه الله بالصدق فى بعض المحال.. فكان صدقه من شهادات الصدق التى يهتدى بها.

فقد تحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية للحياة بجميع تفاصيلها، فقال: (يفصل كثير من الناس، بتأثير ميراثهم الثقافى وظروفهم الاجتماعية وتعليمهم، بين الدين والدولة، ويأخذ البروتستانت الغربيون هذا الفصل قضية مسلمة. ولكن الواقع أن هذا الفصل بين الدين والدولة أمر جديد فى المسيحية ابتدعته فيها أقلية مذهبية، ولم يعرف الإسلام أو سواه من الأديان العالمية مبدأ الفصل)[2].

وتحدث عن القيم الروحية التى تميز بها الإسلام، فقال: (لنضرب مثلاً على الدراسة النزيهة بمقال كتبه الأستاذ آرثر جيفرى -Arthur Jeffery فى مجلة "عالم الإسلامى، عدد يناير، سنة 1940، يعرف فيه إحدى الترجمات الإنجليزية للقرآن.. فقد اعترف اعترافًا صريحًا بالقيم الروحية الممتازة فى دين لا يدين هو به)[3].

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية فى الحضارة العالمية، فقال: (لقد رأينا كيف أن الإسلام أمدّ أوروبا الجنوبية الغربية بالعلم والثقافة وكيف أن ترجمة القرآن إلى اللاتينية، ودراسة اللغة العربية مكنتا دول أوروبا الغربية من الوصول إلى المعرفة الدقيقة بالدين الإسلامى ولكن المسيحيين قد أخذوا عن المسلمين أمورًا كثيرة أخرى.. فقد كانت الثقافة الإسلامية والعربية الغذاء الأول للعلماء المسيحيين فى القرون الوسطى.. ولم يمضِ حين قليل على حركة الترجمة حتى ظهر علماء وأساتذة مسلمون تمثلوا الثقافة الإغريقية وجعلوها جزءًا لا ينفصل من ثقافة المسلمين وحضارتهم. وقد نقل كل ذلك فيما بعد إلى الغرب. ومما يعنينا فى هذا الصدد عناية خاصة أن نذكر أن المسلمين قد هضموا العلم والفلسفة الهيلينية ثم حوروا فيهما ليلائموا بين معرفتهم الجديدة وبين روح العقيدة القرآنية)[4].

---

(1) ادوين كالفرلى E. Calverley ولد عام 1882م، تخرج باللغات الشرقية من جامعة برنستون، وعين عضواً فى البعثة العربية التى نظمتها الكنيسة فى الولايات المتحدة (1909-1930)، ومحاضرًا فى مدرسة كنيدى للبعثات (1930-1932) وأستاذًا للعربية والإسلاميات فيها (1932-1951) ومحررًا لمجلة عالم الإسلام. (1947-1952) وأستاذًا زائرًا فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة (1944-1945).

من آثاره: (القرآن) (1924)، (العبادة فى الإسلام) (1925)، (محمد) (19369)، (الإسلام (1938).. وغيرها.

(2) الشرق الأدنى: مجتمعة وثقافية (بإشراف كويلر يونغ)، ص 173.

(3) الشرق الأدنى، ص 186.

(4) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص 174 - 175.

وقال: (أخذ المسلمون عقيدتهم معهم حيثما استقر بهم غزواتهم. وفى البلاد الجديدة التى استوطنوها علموا ما اكتسبوا من معارف وعلوم انتقلت فيما بعد إلى أوروبا الغربية وسواها من أقطار الأرض وكانت النتيجة أن أصبح علم العرب والإسلام لباب الثقافة فى أوروبا)[1].

وقال: (من الطبيعى أن يحاول بعض علماء المسيحية اليوم، أن يقلل من أهمية تأثير التفكير الفلسفى الدينى الإسلامى فى علم اللاهوت المسيحى. والحق أن محاولتهم هذه هى فى ذاتها دليل على وجود هذا التأثير وعلى أهميّته)[2].

وتحدث عن سماحة المسلمين مع مخالفيهم، فقال: (لم يحمل المسلمون أثناء غزواتهم المنتصرة أحدًا يجبر المسيحيين أو اليهود على اعتناق الإسلام. فقد أقر الإسلام لأهل الكتاب بحرية ممارسة شعائر دينهم بشرط دفع الجزية. وكل ما طالبهم به هو أن يسلموا للدين الجديد بالسيادة المدنية والسياسية التى تمثلت فى الدولة الإسلامية)[3].

وقال: (احتفظ المسلمون للأقليات غير المسلمة فى البلاد التى فتحوها بحقوقهم وامتيازاتهم الدينية)[4].

وتحدث عن منطلق التسامح عند المسلمين بإعجاب، فقال: (فى القرآن آية كريمة تفيض بالصدق والحكمة يعرفها المسلمون جميعًا ويجب أن يعرفها غيرهم، وهى تقول بأن: ﴿لا إكراه في الدين ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة][5].

**كويلر يونغ:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كويلر يونغ)[6]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل صادق من قومنا. وقد ختمه الله بشهادات تمتلئ صدقًا. سأورد لك بعضها:

فمنها حديثه عن أثر الإسلام فى تقدم المجتمعات البشرية، قال: (إن الإسلام قد أسهم بصفة فعالة فى تقدم الجماعة الإنسانية، وقد استبدل بالنظام القبلى الذى ورثه - والذى يقوم على رابطة الدم - نظام الجماعة المشتركة فى العقيدة والتى يقوم ترابطها الاجتماعى على أساس من الأخوة والمساواة)[7].

(1) الشرق الأدنى، ص 175 - 176.

(2) الشرق الأدنى، ص 176.

(3) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص 163 - 164.

(4) الشرق الأدنى، ص 164.

(5) الشرق الأدنى، ص 182.

(6) كويلر يونغ Prof. T. Guyler Young أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية بها، كان مساعد أستاذ اللغات السامية بجامعة تورنتو. من أهم مؤلفاته: Near Eastern Culture and Society. 1951.

(7) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، 242 - 243.

وتحدث عن ربانية الشريعة الإسلامية، فقال. (إن النظرية القانونية الإسلامية وما جرى عليه العمل فى صدر الإسلام يستمد قاعدة الوحدة والنظام من الله لا من (المدينة) ولا من الدولة والمسلم إلى اليوم يحسّ إحساسًا واضحًا بحكم الله فى الحياة اليومية)[1].

وتحدث عن صفاء التوحيد فى الإسلام مقارنة بالمسيحية، فقال: (الإسلام يختلف عن المسيحية الرومانية فى أنه لا يتخذ لنفسه نظم الكنيسة والقسيسين والقرابين. ولقد تبدو البروتستانتية الخالصة دينًا كهنوتيًا إذا وازناها بالإسلام الذى يحرص على التوحيد الخالص والذى لا يحتمل أى تدخل بين الإنسان وخالقه)[2].

وتحدث عن العقلية العلمية التى تميز بها المسلم، فقال: (إن المسلم يملك المقدرة على استعمال طريقة التجربة فى كل الأوضاع الممكنة لنموذج ما، ليأخذ من الحياة أقصى ما تستطيع أن تعطيه)[3].

وتحدث عن تأثير الإسلام فى البناء الحضارى، فقال: (كلمة (الإسلام) ثقافيًا تستعمل بالمعنى الواسع لتدل على تلك المدنية المتجانسة - رغم تنوعها - والتى وجهها وسيطر عليها الدين الإسلامى منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا)[4].

وتحدث عن تأثير الإسلام فى الحضارة العالمية، فقال: (عندما انتقلت عاصمة الإسلام إلى بغداد فى منتصف القرن الثامن الميلادى كان عصر الفتوح قد انتهى، وأصبح ما جاء به القرآن من لغة وقانون ودين يحكم من حدود الصين على أعمدة (هرقل). وفى خلال خمسمائة السنة التى حكم فيها العباسيون نمى الإسلام نظامه الفكرى وثقافته المتجانسة على أساس من الإحياء البارع للمعارف الكلاسيكية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى وهو (الرنيسانس) الشرقى. هذا الإحياء الثقافى فى ذينك القرنين - وفى القرن الذى تلاهما حيث بلغت الثقافة الإسلامية قمة تطورها - هو الذى نقل إلى العالم اللاتينى.. وأصبح أساس (الرنيسانس) الغربى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر)[5].

وقال: (كان الفارابى وابن سينا معروفين جيدًا فى أوروبا، وكان (بيكون) يستشهد بأقوالهما)[6].

وقال: (ليس هناك من شك فى أن روح البحث العلمى الجديد وطريقة الملاحظة والتجربة اللذين أخذت بهما أوروبا إنما جاءا من اتصال الطلاب الغربيين بالعالم الإسلامى)[7].

(1) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 243.
(2) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 243.
(3) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 257.
(4) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 232.
(5) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 234.
(6) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 242.
(7) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 247.

وقال: (عندما جاء محمد وظهر الإسلام تحول التيار الثقافى إلى عكس الاتجاه الذى كان يسير فيه. وقد بدأ هذا التحول مفاجئًا فى مظهره بالرغم من أنه يمكن للمؤرخ أن يتعرف على الأسباب التى تجمعت رويدًا رويدًا حتى أنتجت هذا الانعكاس فى اتجاه التيار الثقافى. ومن جزيرة العرب اندفعت حماسة هؤلاء الساميين بهم، ومعهم دينهم ولغتهم إلى حدود الصين فى الشرق وإلى جبال البرانس فى المغرب. وفى العصر الإسلامى الذهبى، عصر العباسيين، آتت البذور الثقافية التى جلبها العرب من الإغريق والفرس والهند أكلها، وخلقوا هم أنفسهم ثقافة حية، سيطرت وسادت فى العصور الوسطى، وكان لها تأثيرها الواضح فى أنحاء أوروبا المختلفة، فنهضت بها على مر الزمن. . وظل تيار الثقافة فى العصور الوسطى مندفعًا من الشرق إلى الغرب فبلغ قمته فى القرن الثالث عشر)[1].

وقال: (لقد قدم العلم الإسلامى للإنسانية خدمات عظيمة، وأضاف إلى تراثها الثقافى القديم والكلاسيكى الشىء الكثير، وظل يلعب دوره حتى تسلّم العلم الغربى منه القيادة)[2].

وقال: (ليس من المعقول لثقافة حية كثقافة الإسلام، يدين بها ثلاثمائة مليون من الأنفس[3]، ألا يكون لها تأثير - بالفعل أو بالقوة - فى الحضارة العالمية التى أخذت فى الظهور والتكامل فى العصر الحديث)[4].

وتحدث عن تأثير الإسلام فى الوحدة بين الشعوب الإسلامية، فقال: (إن الوحدة الإسلامية قد أصيبت بالعطل، والمسؤول عن ذلك هو الحضارة الغربية وعناصرها الدنيوية. . ومع ذلك فإن بين شعوب الإسلام المتعددة المختلفة مثالاً مشتركًا، وأصولاً عقدية تقوم عليها وحدة فى الثقافة، ومن واجب المسيحية أن تقدر هذه الظاهرة وتقلدها. إن عالمنا هذا الذى مزقته الجماعات المتحاربة، والذى لا يعرف حكمًا أعلى بيده مصير الإنسانية، ليجدر به أن يتدبر تصوّر الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسها الإسلام، ولا شك أن هذه الوحدة - فى أحسن صورها - سيكون لها أثرها - بالقوة إن لم يكن بالفعل - فى الحاجات الروحية للناس فى أيامنا الحاضرة)[5].

وتحدث عن سماحة الإسلام مع غيره، فقال: (للإسلام نصيب آخر من الفضل متفرع عن سابقه، وهو ما حققه من التسامح بين أجناس البشر. . أن الإسلام - فى إطار الأخوة الإسلامية - يستطيع أن يرى المسيحية نجاحًا حقيقيًا فعليًا فى ميادين التسامح البشرى)[6].

---

(1) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص 7.

(2) الشرق الأدنى، ص 10.

(3) ذلك فى عصره. . أما اليوم، فيدين بالإسلام أكثر من مليار نسمة.

(4) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 255.

(5) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 256.

(6) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 256.

وتحدث عن معاداة الإسلام للاستبداد، فقال: (الفصل الثالث من أفضال الإسلام ذلك الروح الحقيقى من الديمقراطية فى عالم - لا شك - محتاج إلى أن يطابق فعله قوله فى هذه الناحية)[1].

**بارتولد شبولر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (بارتولد شبولر)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد نطق هذا الرجل بالصدق عندما قال ـ متحدثا عن سماحة الإسلام مقارنة بالمسيحية ـ: (إن المسيحية والإسلام يقفان موقفين مختلفين فى موضوع الأقليات الدينية. أن المسيحية لم تسمح بوجود الأديان الغربية فى أراضيها (باستثناء الدين اليهودى) أما فى الإسلام فكان يوجد تبادل ثقافى بين المسلمين وغير المسلمين.. وهذا الفرق الملحوظ يمكن تفسيره بأن المسيحية شهدت قيام دين منافس لها (وهو الإسلام الذى كان ظهوره، إذا تكلمنا من الناحية الواقعية مناقضًا لادعاء المسيحية بأنها آخر وحى منزل). أما الإسلام فقد اعترف نظامه الدينى منذ البداية بالعقائد الأخرى التى كانت تعيش معه جنبًا إلى جنب.. وبهذه الطريقة أصبح من الممكن أن ينقل النساطرة الثقافة الكلاسيكية وأن يقوم اليهود بدورهم فى بلاد الأندلس الإسلامية)[3].

**أرنست بانرث:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (ارنست بانرث)[4]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية:

---

(1) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 256.

(2) بارتولد شبولر b. Spuler تخرج من الجامعات الألمانية، وعين معيداً للدراسات الإسلامية دفعة لغات الشرق الأدنى (1939) فى جامعة جوتنجن، وأستاذ كرسى فى جامعة ميونخ (1942) وعدد من الجامعات الأخرى كما عمل أستاذًا زائرًا فى جامعتى أنقرة واستنبول (1955-1956 يجيد العديد من اللغات، وتخرج عليه عدد من المتخصصين من البلدان الإسلامية.

من آثاره: (مغول إيران) (1939) و(المغول فى روسيا) (1943) و(تاريخ البلدان الإسلامية) (1952-1953).

(3) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص 239.

(4) أرنست بانرث E. Baunerth. ولد فى مدينة ليبزج، سنة 1895، ودرس اللاتينية واليونانية ثم العربية، كما تعلم الفارسية والتركية، أسره الإنجليز فى الجبهة سنة 1917، وانتقل إلى الهند فاستقر فيها حتى عام 1925، وتعلم الأردية، ثم عاد إلى ألمانيا، فتابع دروسه ونال الدكتوراه فى اللغات الإسلامية من جامعة فينا. وعين أستاذًا للفلسفة والتاريخ والآداب الألمانية. وقد تولى مناصب عديدة وطوف فى عدد من البلدان.

من آثاره: (الإسلام اليوم وغدًا) (1958)، (التفاهم بين الشرق والغرب) (بتكليف من اليونسكو)، وله دراسات عن الفلاسفة المسلمين، كما حقق العديد من النصوص، وكتب العديد من الأبحاث فى المجلات المختلفة.

منها حـديثه عن موقف المسلمـين من العلم، وتواصلهم مع الثقـافة العالميـة، وتحليهم بالمنهج العلمي، قـال: (إن العرب لم يخربـوا ما وجدوه من عناصـر ثقافيـة، بل اهتمـوا بها وبذلوا جهـدهم لهضـمها ومن ثم تطويرهـا. ونرى هنا أن العرب فتـحوا باب التـعرف على الحضارة اليونانية منذ عصر الأمويين والعباسيين بواسطة المترجمين، وعلى هذه الطريقة تطورت الثقافة تحت حـماية الإسلام بالعربية التى هى واسطة ممتازة للتعـبير عن الأفكار العليا والتى لا تفوقها فى هذا لغة من لغـات الدنيا. ولا أرانى بحاجة إلى ذكر أسماء الفلاسـفة الذين فتحوا آفاقًا جديدة لفهم أسرار الطبيعة والوجود، ومـا يهمنا هنا هو استعداد العرب لاستعمال الطرق العلميـة التى تعلموها من أرسطو طـاليس. والتى كانت أولاها: مراقـبة الطبـيعة والتـجربة، وثانيتها: قواعد المنطق الشديدة. ولا شك أن الحـضارة الإسلامية ارتفعت فى القرون الوسطى إلى علوّ لم ينته إليه قوم آخرون. ولا يخفى أن هذا الاعتلاء كان ثمرة الاجتهاد فى كل نواحى الثقافة وتطبيق الطرق العلمية. وأما الغـرب الأوروبى فلم يستطع حينئذ فهم الثقافة وتطويرها. وكذلك دولة بيزنطية فقد تجمدت، والآن نرى كيف تعجبت الأقوام الأوروبية من جمال الثقافة العربية التى امتدت من حدود الصين والهند إلى جبال البرانس)[1].

ومنها حديثـه عن سبق المسلمين للمنهج التجريبى، وتصـديره إلى أوروبا، قال: (كان أول من قلد العرب فى التـجربة الراهب (روجر بيكون) فى إنكلترا. وحـتى الآن يشكر علماء الطبيعة فى أوروبا العرب على إدخال طريقة التجربة العلمية التى دلّت على التطور الحديث فى جميع الميادين)[2].

ومنها حديثـه عن تأثير المسلمين فى الحضارة الغربيـة، قال: (لم يزل العلماء يواصلون الكشف عن العناصر العربيـة المؤثرة فى الفكر الأوروبى خلال القرون الوسطى، وفى كل سنة تظهر آثار منشورة تشهد بأننا لا نقدر الآن ما أخذه الأوروبيون من العرب)[3].

وقال: (انتـشرت فى أوروبا الرغبـة العظيمـة لدراسة اللغة اليـونانية منذ تعـرفوا على الفلسفة اليونانية بواسطة العرب، وأدى هذا الاهتمام الجـديد بالتدريج إلى تلك الحركة الثقافية فى أوروبا فى القرن الخامس عشر المسماة بـحركة إحياء العلوم القديمة (Renaissance) ولم يزل الاهتمام فى أوروبا بعلوم العـرب خلال تلك الدورة، بل لقد أدى إلى الاشتغـال بالعربية من جديد فى القرن السابع عشر)[4].

(1) تأثير الفلسفة الإسلامية فى تطور الفكر الأوروبى، ص 8 - 9.
(2) تأثير الفلسفة الإسلامية فى تطور الفكر الأوروبى، ص 10 - 11.
(1) تأثير الفلسفة الإسلامية فى تطور الفكر الأوروبى، ص 11.
(2) تأثير الفلسفة الإسلامية فى تطور الفكر الأوروبى، ص 11.

**ماكس مايروهوف:**

من الأسمـاء التى رأيتهـا فى دفتر البـابا فى هذا الفصل اسم (مـاكس مايروهوف)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهـادات طبية ترتبط باهتمام المسلمين بالعلم، منها قوله عن حرية التعليم ومـراكزه ومناهجه: (كانت حرية التـعليم مكفولة مؤمنة للجمـيـع فى معاهد بغداد ومـساجدها. . وكان لكل مـسجد كبـير - وما يزال - مكتـبته الخاصـة لا فى المواضيع الدينية وحدها بل فى الأبحاث الفلسفية والعلمـية أيضًا. . وكان الحج إلى مكة المكرمة فريضة على كل مسلم مما سـاعد على انتشار العلم، إذ لا مـفرّ للتلاميـذ القادمين من الهند وإسـبانيا وآسيـا الصغرى وأفريـقيا من المرور ببلاد مـختلفة فـتتاح لهم زيارة المسـجد والمعاهد العلمـية والاتصال بمشاهير العلماء. . وكانت الطريقة العملية فى التـدريس آنذاك شبيهة بالطريقة المتبعة اليوم)[2].

وتحدث عن بعض مظاهر التـقدم العلمى الذى وصل إليه المسلمون، فـقال: (إن عظمة العلم الإسلامى تتجلى فى ميدان البصريات. هـا هنا نكشف مقدرة (ابن الهيثم وكمال الدين) الرياضية ضيـاء (بطليموس واقليدس). أن هذا النوع من العلوم مدين للمسلمين بتـقدم حقيق باقٍ مقرون إلى اسمهم على مر الدهور)[3].

وتحدث عن اسـتفادة الحضـارة الغربية من العلوم الإسـلامية، فقـال: (فى عام 1085م سقطت طليطلة أعظم مركز للثقافة الإسلامية فى الغرب بأيدى الإسبان المسيحيين وصار تلاميذ اللاتين يفدون إلى العاصمة الجديدة ليظهروا إعـجابهم بما يرون من بقايا حضارة المغرب ولكى يدرسوا الفنون العربية)[4].

وقال: (ثمة تراجم عديدة عن الـعربى استخدمت بصورة واسعـة فى التدريس الجامعى على الأخص فى فرنسا وشمالى إيطاليا. بهـذا الطريق انتقلت مئات من تراجم التراث العربى - الإغريقى العلمى إلى تربة أوروبا المجـدبة وكانت النتيجة زخـات من المطر الوابل أحيا تلك الأرض الموات)[5].

وقال: (كانت العلوم الإسلامـية وهى فى أوج عظمتها تضىء كما يضىء القـمر فتبدّد غيـاهب الظلام الذى كان يلف أوروبا فى القـرون الوسطى. . ولما كان لتلك العلـوم سهمـها

---

(1) د. ماكس مايروهوف Dr. Max Meyerhof مسـتشرق ألمانى وكـحال شهيـر، مارس طبه فى مـصر زهاء ربع قرن، ثم ألم بجانب مهم من اللغات، واطلع خـلال إقامته الطويلة فى الشرق على كنوز المخطوطات، ونشر وأحـيا عددًا من المصادر العـربية، هذا علاوة على العديد مـن الرسائل بالفرنسـيـة والإنجليزية فى مواضيع تاريخ الطب العربى نشرها فى مختلف المجلات العلمية المشهورة.

(2) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص 458، 482 - 483.

(3) تراث الإسلام، ص 494.

(4) تراث الإسلام، ص 496.

(5) تراث الإسلام، ص 502.

الأوفى فى توجيه عهد (إحياء العلوم) وحث خطواته، فعلينا أن نقرّ مذعنين بأن التراث العربى الإسلامى مازال يعيش فى علومنا حتى الآن)[1].

**كولد تسيهر:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كولد تسيهر)[2]، فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد أثار شبها كثيرة ملأتنا عداوة له.

قال: لا ينبغى لقلب المؤمن أن يمتلئ عداوة.

قلت: ولكنه هرف بما لا يعرف، فوقع فى شبه كثيرة أوقع فيها غيره.

قال: وهل صححتم أخطاءه؟

قلت: أجل.. لقد انتدب لذلك علماء فحول ردوا عليه أبلغ الردود.

قال: فقد خدمكم إذن.

قلت: كيف يخدمنا، وقد عادانا؟

قال: لولا أنه استفزكم ما تحركتم، وما كتبتم، وما توجهتم للعالم تعرفونه بدينكم.

قلت: صدقت فى هذا.. فإن استفزازات هؤلاء تسيل حبرا كثيرا.

قال: إن شبه هؤلاء كالفيروسات التى تنزل بفنادق الأجسام، فإن وجدت مناعة وقوة أكسبت هذه الأجسام مناعة وقوة، وإن وجدت ضعفا وهوانا أكسبتها ضعفا وهوانا.

قلت: صدقت فى هذا.. ولكن هذا يهودى؟

قال: ما يضرك أن يكون يهوديا أو مسيحيا أو لادينيا.. أليس الكفر ملة واحدة؟

قلت: ولكن اليهود يستعمرون أرضنا.

---

(1) تراث الإسلام، ص 506.

(2) إجناز جولدزيهر Ignaz Goldziher (1850-1921) ولد لأسرة يهودية، درس فى بوادبست ثم برلين، ثم انتقل إلى جامعة ليبسك والتحق فيها بقسم الدراسات الشرقية.

رحل إلى القاهرة وسوريا وحضر بعض الدروس فى الأزهر. عمل فى جامعة بودابست فى مجال الدراسات العربية والإسلامية. أصبح أستاذاً للغات السامية عام 1894.

كتب سيلاً من المقالات والأبحاث فى المجلات الأسيوية والغربية بأكثر من لغة. وكتاب (العقيدة والشريعة فى الإسلام) (باريس 1920)، و(درس فى الإسلام) فى جزأين كبيرين. كما حقق العديد من النصوص القديمة.

وكان له تأثير فى الدراسات الاستشراقية حتى يومنا هذا حيث انتشرت كتبه فى مختلف اللغات الأوروبية. وما تزال جامعة برنستون ـ مثلاً ـ تقرر كتابه دراسات إسلامية فى مناهج قسم دراسات الشرق الأدنى حيث قامت الجامعة بنشر ترجمة جديدة لهذا الكتاب مع تعليقات المستشرق برنارد لويس.

وقد رد على بعض الشبه التى أثارها كثير من المسلمين ومن أبرزهم الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه (السنّة ومكانتها فى التشريع الإسلامى).

قال لا ينبغى أن تخلطوا الأمور. فالحرب العسكرية لا ينبغى أن تدخل مجالس العلم والدعوة.. ألم يكن رسول الله ﷺ يتعامل مع كل قبيلة من قبائل اليهود بحسب ما تتطلبه، فيجلى هذه، ويناظر هذه، ويقاتل هذه؟

قلت: صدقت.

قال: فهكذا افعلوا.. قابلوا العلماء بسلاح العلم، وقابلوا العامة بسلاح الإيمان والدعوة والسلام، وقابلوا الجيوش بسلاح الاستعداد.

قلت: فهل لهذا الرجل شهادات عن الإسلام؟

قال: أجل.. فالقلب مهما انحرف لابد أن يوجه وجهته يوما للحقيقة.

لقد تحدث هذا الرجل عن الصدق العظيم الذى أبداه رسول الله ﷺ فى دعوته، فقال: (إن محمداً قد بشر بمذهبه للمرة الأولى بحماس لم يفتر ولم تعوزه المثابرة، وبعقيدة ثابتة بأن هذا المذهب يحقق صالح الجماعة الخاصة، وقد كان فى ذلك كله مظهراً لإنكار الذات برغم سخرية الجمهور)[1].

واعتبر رسول الله ﷺ مصلحا.. بل أول مصلح عربى، فقال: (الحق، أن محمداً كان بلا شك أول مصلح حقيقى فى الشعب العربى من الوجهة التاريخية)[2].

وتحدث عن الحكمة التى تحلى بها رسول الله ﷺ فى مواجهته لخصومه، فقال: (فى هذا العصر نرى النبى يستخدم حنكته المفكرة ورويته الدقيقة وتبصره العالمى، فى مقاومة خصومه الذين شرعوا فى معارضة مقاصده وغاياته فى داخل موطنه وخارجه)[3].

وتحدث عن القيم الخلقية الرفيعة التى جاء بها الإسلام، فقال: (علينا إن أردنا أن نكون عادلين بالنسبة إلى الإسلام، أن نوافق على أنه يوجد فى تعاليمه قوة فعالة متجهة نحو الخير، وأن الحياة طبقًا لتعاليم هذه القوة يمكن أن تكون حياة طيبة لا غبار عليها من الوجهة الأخلاقية. هذه التعاليم تتطلب رحمة جميع خلق الله، والأمانة فى علاقات الناس بعضهم ببعض، والمحبة والإخلاص، وقمع غرائز الأثرة، كما تتطلب سائر الفضائل التى أخذها الإسلام عن الأديان السابقة، والتى يعترف محمد بأنبيائها أساتذة له، ونتيجة هذا كله أن المسلم الصالح يحيا حياة متفقة مع أدق ما تتطلبه الأخلاق)[4].

وتحدث عن آداب الاختلاف التى كانت سائدة بين السلف من الفقهاء، فقال: (وقد اقتنع هؤلاء الرجال الفقهاء العمليون من أول الأمر بأنهم جميعًا على الحق، وأنهم يخدمون

---

(1) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 12 - 13.

(2) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 13.

(3) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 21 - 22.

(4) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 29.

مبـدءًا واحدًا، وعلى هذا الأســاس كانوا يتبـادلون الاحتـرام الواجب. . ولم يظهر التـعصب المذهبى إلا عندما ازداد العجـب عند الفقهاء، الأمر الذى كـان موضع لوم أهل الجد منهم. . وقد بقى إلى يومنا هذا الاعتقاد السائد بأن الأعمال المخـالفة للمذاهب الفقهية يجب الاعتراف بأنها كلها مستحقة للتصديق على التساوى ما دامت ترجع إلى تعاليم الأئمة وأعمالهم، أولئك الذين أجمع المسلمون على الاعتراف بإمامتهم وحدها)[1].

وتحدث عن أصل (الإجماع) وما يحمله من معـانى التحرر، فقال: (وسنلاحظ حقًا أن هذا المبدأ الفـقهى وهو الإجـماع بالنسبـة للإسلام يحـمل فى طياته بذور التـحرر والتطورات المستطاعة، فهو يقدم، ضد ديكتاتورية الجمود وقـتل الشخصية، قوة للتعادل، وقد حقق على الأقل فى الماضى كعـامل مهم مطابقـة الإسلام للعصـر وقتـئـذ، فماذا عـسى يمكن أن يكون باسـتعمـاله فى المسـتقـبل؟ وفى الحق أن هذا المبدأ المتـبع ملحوظ عنـد مجددى الإسـلام فى عصرنا، فهو الباب الذى يجب بواسطته أن تنفذ إلى بناية الإسلام عوامل القوى الشابة)[2].

وتحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية، فـقال: (والحياة فى الفقه ليست مقصورة على أمور الـعبادات وحـدها، فالـفقه الإسـلامى ضمّ فـروع الحيـاة والحقوق المـدنية والسـياسـية والعقـوبات. ولا يفلت فصل من فـصول الفقـه من أن يدخل تحت قاعـدة مبنيـة على أساس دينى، وكل الأمور المتعلقة بالحياة الشخصية أو العامة داخلة فى الواجبات الدينية وبواسطة هذا يعتقد الفقهاء أن كل حياة المؤمنين موافقة لطلبات الدين)[3].

وتحدث عن ثراء الفـقه الإسلامى، فقـال: (ومعرفة الأقـوال المتفرعة الكثيـرة فى دائرة الفقه الإسـلامى، من الأدلة التى يسوقها أصحـاب المذهب لتأييد مذاهبـهم عند الاختلاف فى الرأى أو العمل فى مـذهب آخر، وكذلك نقـد هذه الأدلة من وجهة نظر المذهب نفـسه، كل ذلك يصور لنا فراغًا عاليًا من الفقه فى الإسـلام، ويقدم فرصة دائمة لمعرفة الذكاء العلمى فى هذه الدائرة التى هى لـلإسلام فى أوطـانه ذات فائـدة وأهميـة خـاصـة، نظرًا لأهمـيـة هذه الأبحـاث، فى هذه الدائـرة، قد ظهـرت فيها منذ العـصور القديمة للـمدارس الفقهيـة كتب كثيرة)[4].

وتحدث عن سمـاحة المسلمين، فقال: (إنه مما لا يمكن إنكاره أن الأوامـر القديمة التى وضعت للمـسلمين الفـاتحين إزاء أهل الكتـاب الخاضعـين لهم، أثناء هذه المرحلة الأولى من التطور الفقهى كانت قائمة على روح (التسامح) وعـدم التعصب. وأن ما يشاهد اليوم مما يشبه أن يكون تسامحًا دينيًا فى علاقات الحكومات الإسلامية، ونجد ظواهر هذا التشريع فى الإسلام

(1) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 59.
(2) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 63.
(3) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 65.
(4) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 66.

فى كتب الرحالة فى القرن الثامن عشـر، يرجع إلى ما كان فى النصف الأول من القرن السـابع من مبادئ الحرية الدينية التى منحت لأهل الكتاب فى مباشرة أعمالهم الدينية)[1].

وقال: (روح التسـامح فى الإسـلام قديمًا، تلك الروح التى اعـترف بهـا المسيحـيون المعاصـرون أيضًا، كان لها أصلهـا فى القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقـرة]، وقد جاءت الأخـبار عن السنـين العشـر الأولى للإسلام بمثل التـسامح الدينى للخلفـاء، إزاء أهل الأديان القديمة، وكثـيرًا ما كانوا يوصون فى وصاياهم للفاتحين بالتـعاليم الحكيمة، ومن المثل لذلك عهد النبى مع نصارى نجران، الذى حوى احترام منشآت النصارى، ثم هذه القواعد التى أعطاها لمعاذ بن جـبل عند ذهابه إلى اليمن (لا يزعج يهودى فى يهـوديته). وفى هذه الدائرة العالـية كانت أيـضًا عهـود الصلح التى أعطيت للنصـارى الخاضـعين للدولة البـيزنطيـة التى اندمجت فى الإسـلام وبموجبها كانوا - فـى مقابل دفع الجزية -يسـتطيعون مباشـرة شؤونهم الدينية من غير إزعاج لهم)[2].

وقال: (وكما أن مبـدأ التسامح كان جاريًا فى الأعمال الدينيـة، كذلك من جهة أخرى كان يراعى فقهيًا، فيما يتعلق بالمعامـلات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الكتاب مبدأ الرعاية والتساهل، فـظلم أهل الذمة، وهم أولئك المحتمـون بحمى الإسلام من غير المسـلمين، كان يحكم عليه بالمعصية وتعدى الشريعة. ففى بعض المرات عامل حاكم إقليم لبنان الشعب بقسوة عندما ثار ضد ظـلم أحد عمال الضرائب، فـحكم عليه بما قاله الرسول: (من ظـلم معاهدًا، وكلفه فوق طاقتـه فأنا حجيجه يوم القيامة). وفى عـصر أحدث من هذا ما رواه بورتر Porter فى كتـابه (خمس سنين فى دمشق) من أنه رأى بـالقرب من بصرى (بيت اليـهود) وحكى أنه كان فى هذا الموضع مـسجد هدمـه عمر لأن الحاكم قـد اغتصـبه من يهودى ليـبنى عليه هذا المسجد)[3].

وتحدث عن تكامل الشخصـية الإسلامية، بمزجها ـ مثـلا ـ بين العلم والبطولة، فقال: (إن تاريخ الإسلام زاخر بالأمثلة الكثيرة التى تبين اجتماع مواهب العلم الدينى بصفات البطولة الحربيـة، وذلك فى شخصـيات قوية قادرة على الـتوجيه والتنظـيم. . وإليك البطل الإسلامى الحديث: الأمير عبد القادر الجزائرى الذى قاوم الفرنسيين مقاومة حربية باسلة عندما أخذوا فى إخضـاع بلاده الجزائر، ولما انتهى جـهاده جمع حـوله فى منفاه بدمشق طـلابه ومريديه الذين تابعوا فى إصغاء واجتهاد دروسـه فى الفقه المالكى والعلوم الدينية الأخرى فى الإسلام. وممن يمـثل هذه الظاهرة الفذة فى تـاريخ الإسلام الحـديث (شامل) بطل الاسـتقـلال القوقـازى، والمهديون الحربيون الذى ظهـروا فى السـودان والصومال والذين سمعنا كثـيرًا من أخبارهم فى أيامنا هذه. . وقد برز هؤلاء المجاهدون أيضًا من صفوف طلاب العلوم الدينية الإسلامية)[4].

(1) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 45.
(2) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 46.
(3) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 46 - 47.
(4) العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص 265 - 266.

## 6 - أصدقاء من دول شتى

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من دول شتى)، تحته أسماء دول كثيرة، فقلت: ما هذا؟ . . إني أرى قاموسا لدول العالم فى هذا المحل.

قال: لقد ذكرت فى هذا المحل دولا كثيرة مررت بها. . وسمعت من أهلها بعض كلمات الصدق . .

**1 - إسبانيا:**

من الدول التى رأيتها فى هذا الفصل (إسبانيا)، فأصابنى ألم شديد، فقلت: هذه الأندلس! وقد ضاعت من أيدينا.

قال: عندما أسأتم تمثيل الإسلام فيها ضاعت من أيديكم. . وما كان لها أن تبقى. . لقد أراد الله بفتحها عليكم أن تملأوا الأرض إيمانا وصلاحا ومحبة وسلاما. . فلما انشغلتم بأودية الهوى، وزخارف الحياة الدنيا، وتصورتموها إقطاعا من إقطاعاتكم التى تتنازعون عليها سلبها منكم.

قلت: فهل يمكن أن تعود إلينا؟

قال: لتملكوها، أم لترشدوها؟

لم أجد ما أجيب به، فقال: أما إن قصدتم ملكها، ليحكمها سلاطين بنى الأحمر؛ فلا أرجعها الله لكم. . وأما إن أردتم أن ترشدوها، فها هى بين أيديكم. . إن لم تملكوا أن ترحلوا إليها بأجسادكم فلترحلوا إليها بالدعوة الصادقة والقدوة الطيبة.

لم أجد ما أجيبه به، فقال: يخطئ قومك حين يربطون الفتوح بالسيوف. . الفتح فتح القلوب، لا فتح السيوف، فالسيوف أضعف من أن تمتد لما تمتد له القلوب.

قلت: صدقت فقد قال الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر]، ثم عقب عليها مباشرة بقوله: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر].

**جون براند ترند:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (جون براند ترند)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات صادقة ترتبط بتاريخ المسلمين وحضارتهم.

---

(1) جون براند ترند (1887 - 1958) J. Brand Trend رائد من رواد تاريخ إسبانيا. أستاذ فى جامعة كمبردج. قام بعدة رحلات فى إسبانيا والبرتغال ومراكش ومكسيكو واشتغل فى معهد الدراسات الشرقية بلندن.
من آثاره (صورة لإسبانيا الحديثة)(1921)، (موسيقى تاريخ إسبانيا) (1925)، (لغة إسبانيا وتاريخها) (1953)، وكثير من الكتب الأخرى فى هذا المجال.

منها شهادته على تسامح المسلمين، قال: (فى القرن العاشر الميلادى تردّى معظم أوروبا فى همجية ووحشية مريعة، على حين أن المسلمين فى إسبانيا ضربوا مثلاً رائعًا بما كفلوه لغيرهم من ذوى العقائد المخالفة لمذهبهم من سعة العيش والتسامح)[1].

وقال: (آثر الغزاة المسلمون أن يشتروا من السكان المسيحيين بقرطبة جانبًا من الكاتدرائية القديمة. ورأوا أن ذلك خير لهم من أخذها عنوة واغتصابًا، وهذا شاهد ينطق بما اشتهروا به من التسامح مع أصحاب العقائد المخالفة لعقيدتهم)[2].

وفى مقابل ذلك ما لقى العرب من غلظة وشدة من طرف المسيحيين بعد خروج المسلمين، قال: (إن العرب المتنصرين التعساء المعروفين بالموريسكو Moriscos لقوا من المسيحيين من المعاملة السيئة مالا يقابله إلا ما لقيه المسيحيون من المسلمين من التسامح فى مرحلة سابقة من تاريخ إسبانيا الإسلامية والمسؤول عن كل ذلك الأمر من بدايته إلى نهايته هم رجال الكنيسة)[3].

ومنها شهادته التقدم الذى وصل إليه المسلمون فى الأندلس، قال: (الشىء الذى لا يمكن نكرانه هو أن عرب إسبانيا خلقوا مدنية زاهرة وأتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية فى الوقت الذى كانت تنوء أغلب أصقاع أوروبا تحت نير الشقاء والأغلال مادية كانت أم روحية. أجل فقد لعب عرب إسبانيا دورًا خطيرًا فى تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها إلى أعلى قمم الفكر المسيحى فى القرن الثالث عشر بظهور توما الأكوينى ودانتى)[4].

وقال: (إن قرطبة فاقت كل حواضر أوروبا مدنية أثناء القرن العاشر، كانت فى الحقيقة محط إعجاب العالم ودهشته. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التى تحوى سبعين مكتبة وتسعمائة حمام عمومى. فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراح أو مهندس معمارى أو خائط ثياب أو موسيقى فلا يتوجهون بمطلبهم إلا إلى قرطبة)[5].

ومنها شهادته عن تأثير الحضارة الإسلامية فى الأندلس فى الحضارة الأوروبية، قال: (ترينا أسماء الأمكنة والألفاظ الشائعة التى بقيت فى اللغة الإسبانية حتى الآن مدى تأثيرها باللغة العربية فى خير أوقات نموّها. إذ ما أهل القرن العاشر، حتى كانت بسائط الحياة الإسبانية قد تأثرت بالإسلام أعمق تأثير. هذا التأثير امتد بسقوط طليطلة فشمل سائر أنحاء أوروبا. . ثم وإن كان بلاط الملك الفونسو بلاطًا مسيحيًا بالاسم؛ كما تأثر خطاه فى هذا

(1) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ هامرتن)، المجلد الخامس، ص 29.
(2) تاريخ العالم (نشره السير جون أ. هامرتن)، 5 / 737.
(3) تاريخ العالم (نشره السير جون أ. هامرتن)، 5 / 755
(4) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص 22
(5) تراث الإسلام، ص 27.

المضمار بلاط فردريك الثانى فى بالرمو بعد ذلك الزمن بمائتى عام تقريبًا) فقد كانت مسحة المدنية الإسلامية تغلب عليه.. ولقد كانت مدارس طليطلة تجتذب طلاب العلم من جميع أنحاء أوروبا، وبضمنها إنكلترا)(1).

وقال: (يذهب الناس أحيانًا إلى أن تراث العصور الوسطى ليس إلا تراثًا مسيحيًا خالصًا، وأن المسيحية.. إنما هى السبيل الوحيد لتعرف تاريخ العصور الوسطى. على أن هذا القول ينطوى على إغفال أهم ما ظفرت به النهضة الأوروبية من أثر هام قام بالجانب الأكبر منه مسلمو إسبانيا، ولم يكن حظ مسلمى صقلية وبلاد البرتغال منه قليلاً)(2).

وقال: (اجتذبت مدارس طليطلة إليها الدارسين من سائر أنحاء أوروبا، واستطاع هؤلاء الدارسون بفضل ما تعلموه من اللغة العربية.. أن يتوفروا على ترجمة الكتب من العربية إلى اللاتينية فأسهموا بذلك فى تقديم الحركة العلمية فى العالم.. فمن مدارس سالرنو وبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة ومالقة تلقى العالم ثقافة المسلمين وعلومهم)(3).

**جوان فيرنيه:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (جوان فيرنيه)(4)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير المسلمين فى الحضارة الغربية، فقال: (فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى، اكتسبت حركة الترجمة قوة غير عادية، إذ أصبح عدد الكتب المترجمة فى صقلية وبخاصة فى إسبانيا، يثير الإعجاب، وتدفق علم الإغريق والرومان على الأديرة الأوروبية من خلال العقول العربية، وأدمجت الكشوف التى توصل إلى العرب ضمن رصيد من الثقافة الغربية.. وتوافد على (طليطلة) عدد كبير من العلماء الأوروبيين المتلهفين إلى الحصول على المعارف العلمية الشرقية.. وبالرغم من أن هؤلاء العلماء لم يعملوا معًا كأصحاب مدرسة إلاّ أن إنتاجهم المكثف والغزير قد غيّر شكل المجتمع الأوروبى لكن أولئك العلماء وإن كانوا قد استطاعوا أن يتمثلوا بسهولة النصوص التى وصلت إليهم، أخفقوا فى إدخال أى تطوير يذكر عليها)(5).

---

(1) تراث الإسلام، ص 54 - 55.

(2) تاريخ العالم، (نشره السير جون. أ. هامرتن): 5/ 729

(3) تاريخ العالم: 5/ 759، وعن إنجازات المسلمين فى ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية والإنسانية، انظر: المرجع نفسه، 5/730، 745-746، 749-752، 758-759

(4) جوان فيرنيه J. Gines Vernet تخرج من جامعة برشلونة، وسمى أستاذًا للعربية فيها عام 1954م.

من آثاره: ترجم القرآن الكريم إلى الإسبانية (1953)، و(الف ليلة وليلة)، وحقق عددًا من النصوص. كما كتب العديد من المقالات فى الفلك والجغرافية.

(5) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزوث) 3 / 214 - 215.

وقال: (فى بداية القرن العشرين بدأت حقبة جديدة من الترجمات العلمية تقدم من العالم الغربى إلى عالم الإسلام، شأنها شأن تلك الحركة التى قدمت من القرن الثانى إلى القرن الرابع الهجرى (الثامن إلى العاشر الميلادى)[1].

**2 - إيطاليا:**

من الدول التى رأيتها فى هذا الفصل (إيطاليا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

**لورا فيشيا فاغليرى:**

قلت: من هى (لورا فيشيا فاغليرى)[2]؟.. وما شهاداتها؟

قال: هذه امرأة إيطالية تمتلئ صدقا، وتفيض محبة، وقد دافعت عن الإسلام وكأنها أحد أبنائه.

قلت: شوقتنى إليها، وإلى أحاديثها، فأخبرنى عنها.

قال: لهذه المرأة الفاضلة شهادات كثيرة لا يمكننى ذكرها جميعا هنا.. ولكنى سأذكر لك خمسة أنواع من الشهادات.

قلت: فما أولاها؟

قال: شهادتها المرتبطة بالقرآن الكريم.. فقد تحدثت عن القرآن الكريم بصدق عظيم، فاعتبرته معجزة بكل المقاييس، قالت: (إن معجزة الإسلام العظمى هى القرآن الذى تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته. إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغى، وليس بالقصير أكثر مما ينبغى. أما أسلوبه فأصيل فريد. وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب فى الأدب العربى تحدر إلينا من العصور التى سبقته. والأثر الذى يحدثه فى النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عوض عرضى أو إضافى من خلال سموه السليقى. إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر فى نَفَسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهى وما إليها. إنه يكرر قصص الأنبياء عليهم السلام وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة

---

(1) تراث الإسلام، 3/218، وعن إنجازات المسلمين فى ميادين الرياضيات والفلك والبصريات، انظر: المرجع نفسه 3/ 168، 170، 172-174، 176-183، 188-194، 196-213، 216-218.

(2) لورا فيشيا فاغليرى L. Veccia Vaglieri باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ الإسلامى قديمًا وحديثًا، وإلى فقه العربية وآدابها.

من آثارها: (قواعد العربية) فى جزئين (1937 - 1941)، و(الإسلام) (1946)، و(دفاع عن الإسلام) (1952)، والعديد من الدراسات فى المجلات الاستشراقية المعروفة.

لا تضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع إلى موضـوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معًا - وهما صفتان لا تجتمعان عادة - حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقًا كاملاً فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد، وهو العربى الأمىّ الذى لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينمّ أى منها عن أدنى موهبة شعرية؟)[1].

وهى تستدل بحـفظه من التحريف على مصـدره الإلهى، قالت: (لا يزال لدينا برهان آخر على مصـدر القرآن الإلهى فى هذه الحقيقـة: وهى أن نصّه ظل صافيًا غيـر محرف طوال القرون التى تراخت مـا بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصه سـوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، مادام الكون)[2].

وقـالت: (من حسن الطالع أن الجـمـود مرض لابدّ أن يزول، بل إنه فى الواقع شـرع يزول فى ما يبدو. فإلى الكتاب العزيز الذى لم يحرّفه قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه، لا المثقفون ولا الأميون، ذلك الكتاب الذى لا يبليه الزمان والذى لا يزال إلى اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسـول الأمى البسـيط آخر الأنبـياء حـملة الشرائع عليـهم السلام، إلى هذا المـصدر الصافى دون غيره سـوف يرجع المسلمون حتى إذا نهلوا مباشرة من مـعين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب. وثمة بيّنات قوية على أن هذه العملية قد بدأت فعلاً)[3].

وهى تذكر ما يتميز به القرآن الكريم من الجاذبية، فقالت: (إن هذا الكتاب، الذى يتلى كل يوم فى طول العالم الإسـلامى وعرضه، لا يوقع فى نفس المؤمـن أيما حسّ بالملل. على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة يحبب نفسـه إلى المؤمنين أكثر فأكثـر يومًا بعد يوم. إنه يوقع فى نفس من يتلوه أو يصغى إليه حـسًا عميقًا من المهابـة والخشية. إن فى إمكان المرء أن يستظهره فى غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافًا من الناس القـادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفى مـصر وحـدها عدد الحفـاظ أكثـر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب فى أوروبا كلها)[4].

وهى تذكر مدى انسجام ما ذكره القـرآن من الكونيات مع البحث العلمى: (فيما يتصل بخلق الكون فإن القرآن على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصلية وإلى أصل العالم. . لا يقيم أيما حـدّ مهـما يكن فى وجـه قوى العقل البـشرى، ولكنه يتركهـا طليقة تتخـذ السبيل الذى تريد)[5].

(1) دفاع عن الإسلام، ص 56 - 57.
(2) دفاع عن الإسلام، ص 58 - 59.
(3) دفاع عن الإسلام، ص 133 - 134.
(4) دفاع عن الإسلام، ص 59.
(5) دفاع عن الإسلام، ص 60.

قلت: فما الثانية؟

قال: شهاداتهـا حول رسول الله ﷺ. . فلها ثناء عطر على رسول الله ﷺ يعـبر عما يحمله قلبها من محبة له.

قالت: (كان محمد المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلـهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كـيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًـا اعتقادًا منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتـهم وإخراجهم من الظلام إلى النور. . لقد عرف جيدًا أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشرى)[1].

وقالت: (حاول أقـوى أعداء الإسلام، وقد أعـماهم الحقد، أن يرمـوا نبى الله ببعض التهم المفـتراة. لقد نسـوا أن محمدًا كـان قبل أن يستـهل رسالته مـوضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسـبب أمانته وطهارة حيـاته. ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمـون أنفسهم عناء التسـاؤل؛ كيف جاز أن يقـوى محمـد على تهديد الكاذبين والمرائين، فـى بعض آيات القرآن اللاسعـة بنار الجحـيم الأبدية، لو كان هو قـبل ذلك وحاشاه رجـلاً كاذبًا؟ كـيف جرؤ على التبشيـر، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخليـة تحثه، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة، حثًا موصولاً؟ كيف استطـاع أن يستهل صراعًا كان يبدو يائسًا؟كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشـر سنوات، فى مكة، فى نجاح قليل جدًا، وفى أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمنًا إيمانًا عميقًا بصـدق رسالته؟كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا فى الدين الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالى إلى مجتمع مؤلف فى كثرته من الأرقاء، والعتقـاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا فى كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا فى حاجـة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغـربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقًا وأكيدًا)[2].

وقالت: (دعـا الرسول العـربى بصوت ملهم باتصـال عمـيق بربه، دعا عـبدة الأوثان وأتباع نصرانيـة ويهودية محرّفـتين على أصفى عقـيدة توحيدية. وارتضى أن يخـوض صراعًا مكشوفًا مع بعض نزعات البشر الرجعية التى تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى)[3].

وهى ترد بصدق وعلم على شبهة تعدد زوجات رسـول الله ﷺ، فتقول: (إن محمدًا طوال سنين الشباب التى تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش فى مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج، كمؤسسة اجتماعية، مفقودًا أو يكاد، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق سهلاً إلى أبعد الحدود، لم يتزوج إلا من امرأة واحـدة ليس غير، هى خـديجة التى كـانت سنّها أعلى من سنّه بكثـير، وأنه ظل طوال

(1) دفاع عن الإسلام، ص 73

(2) دفاع عن الإسلام، ص 37 - 38.

(3) دفاع عن الإسلام، ص 43.

خمس وعشرين سنة زوجها المخلص المحب، ولم يتزوج كرة ثانية، وأكثر من مرة، إلا بعد أن توفيت خديجة، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره. لقد كان لكل زواج من زواجاته هذه سبب اجتماعى أو سياسى، ذلك بأنه قصد من خلال النسوة اللاتى تزوجهن إلى تكريم النسوة المتصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى ابتغاء طريق جديد لانتشار الإسلام وباستثناء عائشة، ليس غير، تزوج محمد من نسوة لم يكنّ لا عذارى، ولا شابات، ولا جميلات، فهل كان ذلك شهوانية؟لقد كان رجلاً لا إلهًا. وقد تكون الرغبة فى الولد هى التى دفعته أيضًا إلى الزواج من جديد، لأن الأولاد الذين أنجبتهم خديجة له كانوا قد ماتوا. ومن غير أن تكون له موارد كثيرة أخذ على عاتقه النهوض بأعباء أسرة ضخمة، ولكنه التزم دائمًا سبيل المساواة الكاملة نحوهن جميعًا، ولم يلجأ قط إلى اصطناع حق التفاوت مع أى منهن. لقد تصرف متأسيًا بسنة الأنبياء القدامى، مثل موسى وغيره، الذين لا يبدو أن أحدًا من الناس يعترض على زواجهم المتعدد. فهل يكون مرد ذلك إلى أننا نجهل تفاصيل حياتهم اليومية،على حين نعرف كل شىء عن حياة محمد العائلية؟)[1].

قلت: فما الثالثة؟

قال: شهاداتها عن الدعوة الإسلامية، وكيفية انتشار الإسلام، فقد قالت: (إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة. إن الذى أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذى قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان فى ميسور محمد أن يقدمها إلى المترددين فى هذه الأرض)[2].

وقالت: (كانت حملة كبيرة على سوريا.. رهن الإعداد، عندما أسكت الموت إلى الأبد صوت النبى الذى كان قد أحدث هذه الهزة العميقة فى تلك القلوب كلها، والذى كان مقدرًا له أن يستهوى عما قريب شعوبًا أخرى تقيم فى مواطن أكثر إمعانًا فى البعد. وكان فى السنة الحادية عشرة من الهجرة)[3].

وقالت: (إن الآية القرآنية التى تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذى أنزله الله على نبيه ﴿...رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] هى نداء مباشر للعالم كله. وهذا دليل ساطع على أن الرسول شعر فى يقين كلّى أن رسالته مقدر لها أن تعدو حدود الأمة العربية وأن عليه أن يبلغ (الكلمة) الجديدة إلى شعوب تنتسب إلى أجناس مختلفة، وتتكلم لغات مختلفة)[4].

---

(1) دفاع عن الإسلام، ص 99 - 100.

(2) دفاع عن الإسلام، ص 59.

(3) دفاع عن الإسلام، ص 33.

(4) عن الإسلام، ص 24 - 25.

وقالت: (بفضل الإسلام هزمت الوثنية فى مختلف أشكالها. لقد حرّر مفهوم الكون، وشعائر الدين، وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولات أو المسوخ التى كانت تحط من قدرها، وحررت العقول الإنسانية من الهوى. لقد أدرك الإنسان آخر الأمر، مكانته الرفيعة.. لقد حررت الروح من الهوى، وأطلقت إرادة الإنسان من القيود التى طالما أبقته موثقًا إلى إرادة أناس آخرين، أو إلى إرادة قوى أخرى يدعونها خفية. لقد هوى الكهان، وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسرة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان والذين اعتقدوا بالتالى أن سلطتهم فوق إرادات الآخرين، لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم. إن الإنسان أمسى خادم الله وحده، ولم تعد تشده إلى الآخرين من الناس غير التزامات الإنسان الحرّ نحو الإنسان الحرّ. وبينما قاسى الناس فى ما مضى مظالم الفروق الاجتماعية، أعلن الإسلام المساواة بين البشر، لقد جُعل التفاضل بين المسلمين، لا على أساس من المحتد أو أى عامل آخر غير شخصية المرء، ولكن على أساس من خوف الله، وأعماله الصالحات، وصفاته الخلقية والفكرية ليس غير)[1].

وقالت: (إن التاريخ لم يشهد، قط، ظاهرة مثل ظاهرة الفتوحات هذه من قبل، ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التى حقق بها الإسلام فتوحه، والتى تحوّل بها من دين يعتنقه بضعة نفر من المتحمسين إلى دين يؤمن به ملايين الناس. ولا يزال العقل البشرى يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السّرّيّة التى مكنت جماعة من المحاربين.. من الانتصار على شعوب متفوقة عليه تفوقًا كبيراً فى الحضارة، والثروة، والخبرة، والقدرة على شن الحرب. ومن أدعى الأمور إلى الدهشة أن نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس أن يحتلوا تلك المناطق كلها، وأن يثبتوا بعد ذلك فتوحهم على نحو جعل حتى الحروب المتعاقبة قرنًا بعد قرن عاجزة عن إخراجهم منها، وكيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليا، وأن يحتفظوا بحيوية نابضة لم تعرفها الأديان الأخرى حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد، وأن يفرغوا فى عقول أتباعهم، على الرغم من انتسابهم إلى عصر وثقافة مختلفين كل الاختلاف عن عصر المسلمين الأولين وثقافتهم إيمانًا متقدًا لا يحجم عن القيام بأيما تضحية مهما غلت)[2].

وقالت: (لقد تحرك الجيش الإسلامى فى سرعة، وتتابعت المعارك، وبدا النجاح وكأنه قد جعل لأقدام الفاتحين أجنحة: فقد ترددت فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان أصداء الأنباء البهيجة الحاملة بشائر الانتصارات الرائعة. وقد اتبعت هذه الانتصارات بتنظيم البلدان المفتوحة وتوطيد أقدام العرب فيها. ولم يكن هذا الصنيع أقل إعجازاً من الفتوح نفسها. لقد قوضت

---

(1) عن الإسلام، ص 45 - 47.

(2) دفاع عن الإسلام، ص 22.

حضـارتان وزعزع دينان، وإذا بفيض جـديد من حياة عارمـة يتدفق فى عروق تلك الشـعوب الخائرة القوى. لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد، بسيط، سهل، يخاطب القلب والعقل جـميـعًا، وأقـيم شكل جديد من أشكال الحكومـة كان أسـمى إلى حد بعـيد - فى خصـائصه ومبـادئه الأخلاقـية - من تلك المعروفـة فى ذلك العصـر. وبدأ الذهب الذى كان مخبوءًا فى صناديق السراة ينتقل إلى أيدى الفقراء، مستهلاً نظامًا فى التداول السليم كرة أخرى وفى ظل من حكومة تسيّرها مثل عليا ديمقراطية أمينة، وجد الرجال المثقفون البارعون الأذكياء تشجيعًـا من النظام الجديد، فاستطاعوا أن يبلغوا أسمى المنـاصب العامة. ومن الممكن القول، فى اطمئنان، أن البلاد المفـتوحة عرفت - على الرغم من بعض الحالات المحـتومة النادرة التى تجاوز فيها الجند حدودهم أثناء الفتح - عـهدًا من الرخاء والازدهار، وشهدت غنى لم تشهده آسيا منذ قرون طويلة. وإلى هذا فـقد نعمت حياة الشعوب المغلوبـة وحقوق المدنيـة وأمـوالها بدرجة من الحماية تقارب تلك التى نعم بها المسلمون أنفسهم)[1].

وقالت: (أزعج التحـول السياسى والدينى العمـيق الذى أحدثته الفتـوحات طائفة من الناس فراحـوا يتساءلون مـا الذى أدى إلى حدوثه، ولكن كـثيرًا منهم كـانوا عميًـا، أو كانوا يغمضون أعينهم عمدًا هائمين طويلاً وعلى نحـو يائس ى متاهة التخمينات الخاطئة. إنهم لم يستطيعوا أن يدركـوا أن القوة الإلهية وحدها كان فى ميسـورها أن تقدم الحافز الأول لمثل هذه الحركة الواسـعة. إنهم لم يريدوا أن يعتقـدوا أن حكمة الله وحدها كانت مـسؤولة عن رسالة محمد، آخر الأنبياء الكبار حملة الشرائع عليهم السلام والنبى الذى ختم سلسلتهم إلى الأبد. أن مثل هذه الرسالة كان يتعين عليها أن تكون رسالة عالمية لجميع أفراد الجـس البشرى من غير تمييز وعلى اختلاف الجنسيات والأوطـان والأعـراق. لقد كان أولئك إما عميًا وإما غير راغبين فى أن يروا)[2].

وقالت: (كان العرب المنتصرون مستعدين دائمًا - حتى وهم فى أوج قوتهم وانتصارهم - لأن يقولوا لأعـدائهم: (ألقوا السـلاح وادفـعوا جزيـ يسيـرة نسبغ عليكم حمـاية كاملة. أو اتخذوا الإسلام دينًا وادخلوا فى ملتنا تتمتعوا بالحقوق نفسها التى نتمتع بها نحن). وإذا نظرنا إلى ما أوحى إلى محمد أو إلى الفتـوح الإسلامية الأولى سهل علينا أن نرى مدى الخطأ الذى ينطوى عليه الاتهام القـائل بأن الإسلام فرض بالسيف، وأن انتـشاره السريع الواسع لا يمكن تفسيره إلا بهذه الوسيلة)[3].

وقالت: (كان المسلمون لا يكادون يعقدون الاتفاقات مع الشعوب حتى يتركوا لها حرية المعتقد، وحـتى يحجموا عن إكراه أحد من أبنائها على الدخـول فى الدين الجديد. والجيوش

(1) دفاع عن الإسلام، ص 26 - 28.
(2) دفاع عن الإسلام، ص 28.
(3) دفاع عن الإسلام، ص 32.

الإسلامية ما كانت تتبع بحشد من المبشرين الملحاحين غير المرغوب فيهم، وما كانت تضع المبشرين في مراكز محاطة بضروب الامتياز لكي ينشروا عقيدتهم أو يدافعوا عنها. ليس هذا فحسب. بل لقد فرض المسلمون، في فترة من الفترات، على كل راغب في الدخول في الإسلام، أن يسلك مسلكًا لا يساعد من غير ريب على تيسير انتشار الإسلام. ذلك أنهم طلبوا إلى الراغبين في اعتناق الدين الجديد أن يمثلوا أمام القاضي ويعلنوا أن إسلامهم لم يكن نتيجة لأى ضغط، وأنهم لا يهدفون من وراء ذلك إلى أى كسب دنيوى. والواقع أن اليهود والنصارى لم يمنحوا حرية المعتقد الدينى فحسب، بل عهد إليهم في تولى المناصب الحكومية حين كانت مؤهلاتهم الشخصية من القوة بحيث تلفت انتباه الحاكمين)[1].

قلت: فما الرابعة؟

قال: شهاداتها المرتبطة بالحضارة الإسلامية، ومن ذلك قولها: (كيف نستطيع أن نقول إن الإسلام عاق نموّ الثقافة في القرون السالفة ونحن نعلم أن بلاطات الإسلام ومدارسه كانت آنذاك منارات ثقافة لأوروبا الغارقة في ظلمات القرون الوسطى، وأن أفكار الفلاسفة العرب بلغت آنذاك منزلة رفيعة جعلت العلماء الغربيين يقتفون آثارهم، وأن هارون الرشيد أصدر أمره آنذاك بأن يلحق بكل مسجد مدرسة يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم، وأن المكتبات الحافلة بمئات الآلاف من الكتب كانت مشرعة الأبواب آنذاك في وجه العلماء والدارسين في طول العالم الإسلامى وعرضه؟ ألم يكن العرب أول من اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل أن يعلن بيكون ضرورتها بزمن طويل؟ وتطور الكيمياء، وعلم الفلك، ونشر العلم الإغريقى، وتعزيز دراسة الطب، واكتشاف مختلف القوانين الفيزيائية، أليست هذه من مآثر العرب؟)[2].

وقالت: (نشأ الإسلام، مثل ينبوع من الماء الصافى النمير، وسط شعب همجى يحيا في بلاد منعزلة جرداء بعيدة عن ملتقى طرق الحضارة والفكر الإنسانى. وكان ذلك الينبوع غزيرًا إلى درجة جعلته يتحول، وشيكًا، إلى جدول، ثم إلى نهر، ليفيض آخر الأمر فتتفرع منه آلاف القنوات تتدفق في البلاد. وفي تلك المواطن التى ذاق فيها القوم طعم تلك المياه الأعجوبية سويت المنازعات وجمع شمل الجماعات المتناحرة. وبدلاً من الثأر الذى كان هو القانون الأعلى والذى كان يشد العشائر المنحدرة من أصل واحد فى رابطة متينة، ظهرت عاطفة جديدة، هى عاطفة الأخوة بين أناس تشد بعضهم إلى بعض مثل عليا مشتركة من الأخلاق والدين. وما إن أمسى هذا الينبوع نهرًا لا سبيل إلى مقاومته حتى طوق تياره الصافى العنيف ممالك جبارة تمثل حضارات قديمة. وقبل أن توفق شعوب تلك الممالك إلى إدراك

---

(1) دفاع عن الإسلام، ص 35 - 36.

(2) دفاع عن الإسلام، ص 130 - 131.

مغزى الحدث الحقيقى داهمها ذلك التيار . قاهراً البلاد، محطمًا الحواجز، موقظًا بصخبه عقولاً وسنى، منشئًا من أكبر عدد من الشعوب المتباينة، مجتمعًا موحدًا)[1].

قلت: فما الخامسة؟

قال: شهاداتها عن نظام الأسرة الذى شرعه الإسلام، فقد قالت: (فيما يتصل بالزواج لا تطالب السّنة الإسلامية بأكثر من حياة أمينة إنشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكراً الله من ناحية، ومحترمًا حقوق الجسد والأسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية)[2].

وقالت: (إنه لم يقم الدليل حتى الآن، بأى طريقة مطلقة، على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعى وعقبة فى طريق التقدم. ولكنا نؤثر ألا نناقش المسألة على هذا الصعيد. وفى استطاعتنا أيضًا أن نصرّ على أنه فى بعض مراحل التطور الاجتماعى، عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها، كأن يقتل عدد من الذكور ضخم إلى حد استثنائى فى الحرب مثلاً، يصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية والحق أن الشريعة الإسلامية التى تبدو اليوم وكأنها حافلة بضروب التساهل فى هذا الموضوع إنما قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة، وكان هذا التعدد حرا قبل الإسلام، مطلقًا من كل قيد. لقد شجب الإسلام بعض أشكال الزواج المشروط والمؤقت التى كانت فى الواقع أشكالاً مختلفة للتسرّى الشرعى (المعاشرة من غير الزواج). وفوق هذا منح الإسلام المرأة حقوقًا لم تكن معروفة قط من قبل. وفى استطاعتنا، فى كثير من اليسر، أن نحشر الشواهد المؤيدة لذلك)[3].

وقالت: (القرآن يبيح الطلاق. ومادام المجتمع الغربى قد ارتضى الطلاق أيضًا، واعترف به فى الواقع كضرورة من ضرورات الحياة، وخلع عليه فى مكان نف يًا صفة شرعية كاملة ففى ميسورنا أن نغفل الدفاع عن اعتراف الإسلام به. ومع ذلك فإننا بدراستنا له، وبمقارنتنا بين عادات العرب فى الجاهلية وبين الشريعة الإسلامية، نفوز بفرصة نظهر فيها أن القانون الإسلامى قد دشن فى هذا المجال أيضًا إصلاحًا اجتماعيا. فقبل عهد الرسول كان العرف بين العرب قد جعل الطلاق عملاً بالغ السهولة.. أما القانون الإلهى فقد سنّ بعض القواعد التى لا تجيز إبطال الطلاق فحسب بل التى توصى به فى بعض الأحوال.. وليس للمرأة حق المطالبة بالطلاق، ولكنها قد تلتمس فسخ زواجها باللجوء إلى القاضى، وفى إمكانها أن تفوز بذلك إذا كان لديها سبب وجيه يبرّره. والغرض من هذا التقيد لحق المرأة فى المبادرة هو وضع حد لممارسة الطلاق، لأن الرجال يعتبرون أقل استهدافًا لاتخاذ القرارات تحت

(1) دفاع عن الإسلام، ص 21 - 22.

(2) دفاع عن الإسلام، ص 88

(3) دفاع عن الإسلام، ص 97 - 98

تأثير اللحظة الراهنة من النساء. وكذلك جعل تدخل القاضى ضمانًا لحصول المرأة على جميع حقوقها المالية الناشئة عن إنجاز فسخ الزواج. وهذه القاعدة، والقاعدة الأخرى التى تنصّ على أنه فى حال نشوب خلاف داخل الأسرة يتعين اللجوء إلى بعض الموفقين ابتغاء الوصول إلى تفاهم، تنهضان دليلاً كافيًا على أن الإسلام يعتبر الطلاق عملاً جديرًا باللوم والتعنيف. والآيات القرآنية تقرر ذلك فى صراحة بالغة.. وثمة أحاديث نبوية كثيرة تحمل الفكرة نفسها)[1].

وقالت: (اجتنابًا للإغراء بسوء ودفعًا لنتائجه يتعيّن على المرأة المسلمة أن تتخذ حجابًا، وأن تستر جسدها كله، ماعدا تلك الأجزاء التى تعتبر حريتها ضرورة مطلقة كالعينين والقدمين. وليس هذا ناشئًا عن قلة احترام للنساء، أو ابتغاء كبت إرادتهن، ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال. وهذه القاعدة العريقة فى القدم، القاضية بعزل النساء عن الرجال، والحياة الأخلاقية التى نشأت عنها، قد جعلتا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية فى البلدان الشرقية، إلا حيثما كان للأجانب نفوذ أو سلطان. وإذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر قيمة هذه المكاسب فيتعين علينا أن نستنتج أن عادة الحجاب.. كانت مصدر فائدة لا تثمن للمجتمع الإسلامى)[2].

وقالت: (إذا كانت المرأة قد بلغت، من وجهة النظر الاجتماعية فى أوروبا، مكانة رفيعة، فإن مركزها، شرعيا على الأقل، كان حتى سنوات قليلة جدا، ولا يزال فى بعض البلدان، أقل استقلالاً من المرأة المسلمة فى العالم الإسلامى. إن المرأة المسلمة إلى جانب تمتعها بحق الوراثة مثل إخوتها، ولو بنسبة أصغر، وبحقها فى أن لا تزف إلى أحد إلا بموافقتها الحرة، وفى أن لا يسيء زوجها معاملتها، تتمتع أيضًا بحق الحصول على مهر من الزوج، وبحق إعالته إياها، وتتمتع بأكمل الحرية، إذا كانت مؤهلة لذلك شرعيا، فى إدارة ممتلكاتها الشخصية)[3].

سكت البابا، فقلت: لا أرى إلا أن هذه المرأة الصالحة امرأة مؤمنة تكتم إيمانها، فيستحيل على من يفيض قلبه بهذه الكلمات أن لا يكون قد امتلأ عشقا لهذا الدين، ولنبى هذا الدين.

قال: صدقت.. فقد يتكلف المرء كل شيء إلا فى هذا.

---

(1) دفاع عن الإسلام، ص 101 – 103.

(2) دفاع عن الإسلام، 103 – 104.

(3) دفاع عن الإسلام، ص 106.

**دافيد دى سانتيلانا:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (دافيد دى سانتيلانا)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل كتب له أن يعيش بين المسلمين.. وكتب لعينيه أن تكتحلا بجمال الشريعة.. ولذلك تجد فى كلماته من الصدق ما يرفعه فى عينك إلى مرتبة قد تخطئ فى التعبير عنها.

قلت: فما شهاداته؟

قال: لقد تحدث عن قدرة رسول الله ﷺ على تحويل الولاء للقبيلة الذى يمثل العنصرية إلى الولاء للإسلام الذى يمثل الولاء للفكرة، فقال: (ما كان من محمد إلا أن تناول المجتمع العربى هدمًا من أصوله وجذوره وشاد صرحًا اجتماعيًا جديدًا.. هذا العمل الباهر لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة الثاقبة. إن محمداً هدم شكل القبيلة والأسرة المعروفين آنذاك، ومحا منه الشخصية الفردية Gentes والموالاة والجماعات المتحالفة. من يعتنق دين الإسلام عليه أن ينشئ روابطه كلها ومنها رابطة قرباه وأسرته، إلا إذا كانوا يعتنقون دينه (إخوته فى الإيمان). فما داموا هم على دينهم القديم فإنه يقول لهم كما قال إبراهيم لأهله: (لقد تقطعت بيننا الأسباب)[2].

وتحدث عن ثمرة ذلك، فقال: (ذلكم هو شكل النظام الجديد الذى دعا إليه محمد.. ونحن نجد فى ظله أن قيمة الفرد بدأت تتضح وكينونته البشرية أخذت تبرز إلى عالم الوجود فصار يستمد حقوقه وواجباته من إيمانه ويستقيها من معين دينه لا من روابطه الاجتماعية والعرفية. فمن جماعة المؤمنين هؤلاء تكون المجتمع الإسلامى)[3].

وتحدث عن الوجهة التى يتوجه إليها ولاء المؤمن، فقال: (إن أساس الوحدة الاجتماعية يمثله (الله) فى الإسلام. فالله هو الاسم الذى يطلق على السلطة العاملة فى حقل المصلحة العامة. وعلى هذا المنوال يكون بيت المال هو (بيت مال الله)، والجند هم (جند الله)، حتى الموظفون العموميون هم (عمال الله) وليست العلاقة بين الله والمؤمن بأقل قوة من ذلك ولا يوجد بين المؤمن وربه (وسيط)، وما دام الإسلام لا يقرّ بسلطان كنسى وكهنوتى ولا يعترف

---

(1) دافيد دى سانتيلانا (1845 – 1931) David de Santillana ولد فى تونس، ودرس فى روما، أحرز الدكتوراه فى القانون، فدعاه المقيم العام الفرنسى فى تونس لدراسة وتدوين القوانين التونسية، فوضع القانونين المدنى والتجارى معتمداً بذلك على قواعد الشريعة الإسلامية ومنسقًا إياهما بحسب القوانين الأوروبية. كان على معرفة واسعة بالمذهبين المالكى والشافعى، وفى سنة 1910 عين أستاذًا لتاريخ الفلسفة فى الجامعة المصرية، وله محاضرات قيمة فيها. ثم استدعته جامعة روما لتدريس التاريخ الإسلامى.

من آثاره: (ترجمة وشرح الأحكام المالكية)، كتاب (الفقه الإسلامى ومقارنته بالمذهب الشافعى).. وغيرها.

(2) تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص 405 – 406.

(3) تراث الإسلام، ص 406

بأسرار كنيسة مقدسة، فأي فائدة ترتجى من الوسيط بين الإنسان وبين خالقه الذى كان يعرفه قبل أن يبدعه والذى هو ﴿ ... أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق]. . إن الله بعد أن أرسل إلى البشر خاتمة أنبيائه وكلمته النهائية، لم يعد ثم من ينطق بلسانه أو يعرف عن إرادته. الإنسان وحده ماثل أمام الله فى حياته وموته وله أن يخاطبه رأسًا بلا وسيط، أو شفاعة أو (إجراءات). . والإنسان من فجر حياته حتى موته تحت أنظار الله وهو وحده يمثل أمام الله يوم الحشر. . إن أشد المذاهب البروتستانتية صرامة إنما تكاد تكون مذهبًا كهنوتيًا صرفًا إذا ما قورنت بعقيدة التوحيد الراسخة التى لا تلين ولا تتزعزع ولا تسمح بالتدخل بين الخالق والمخلوق)[1].

وتحدث عن عالمية الرسالة، فقال: (كان محمد رسول الله إلى الشعوب الأخرى، كما كان رسول الله إلى العرب)[2].

وتحدث عن رعاية الشريعة للمصالح، فقال: (إن مبادئ الإسلام القانونية على تعدد أشكالها، تؤول إلى غاية واحدة هى الرفاه العام (المصلحة). لذلك فليس لهذا القانون: الإلهى مصدرًا والبشرى هدفًا، إلا سعادة البشر ورفاهه. والعين النافذة لا يمكن أن تخطئ رؤية هذه الغاية وإن شق عليها أن تتبينها لأول وهلة. لأن الله لا يمكن أن يعمل شيئًا لا تتجلى فيه الحكمة والرأفة اللتان هما باعثاه الأساسيان. لما كان البشر من روح وجسد فلابد أن يكون للمرء اتجاهان فى الحياة: اتجاه روحى واتجاه جسدى (مادى ومعنوى) وعلى هذا الأساس كانت القواعد (الحدود) الإلهية التى وضعها الله لتدبير البشر منقسمة إلى قسمين: ما يتعلق منها بالروح وما يختص منها بالجسد. فالدين والقانون هما نظامان متباينان لكنهما متلاحمان يتم أحدهما الآخر باتحادهما فى المصدر والغرض وهو سعادة البشر ورفاهه)[3].

وقال: (لما كان الشرع الإسلامى يستهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافًا لشريعتنا من بعض الوجوه. ثم إنها علم ما دامت تعتمد على المنطق الجدلى، وتستند إلى اللغة، إنها ليست جامدة، ولا تستند إلى مجرد العرف والعادة، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأى. فيقول أتباع المذهب الحنفى أن القاعدة القانونية ليست بالشىء الجامد الذى لا يقبل التغيير. إنها لا تشبه قواعد النحو والمنطق. ففيها يتمثل كل ما يحدث فى المجتمع بصورة عامة، إن المنفعة هى مبدأ الفقهاء والمشرعين، ولقد أدرك العرب بوضوح تام سرّ هذه المرونة وهو الاستعمال بلا ريب. . أن هذا التفاعل المستمر للفقه فى الحياة يمكن تتبعه فى مسالك التاريخ الإسلامى)[4].

---

(1) تراث الإسلام، ص 409 - 410.

(2) تراث الإسلام، ص 406.

(3) تراث الإسلام، ص 413 - 414.

(4) تراث الإسلام، ص 433 - 434.

ورد على من يدعى استمداد الشريعة من القانون الرومانى، فقال: (عبثًا نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقى فيهـا الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومـانية) كما استقر الرأى على ذلك. إن الشريعة الإسـلامية ذات الحدود المرسومـة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجـاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً)[1].

**فرانشيسكو كابرييلى:**

من الأسماء التى رأيتهـا فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (فرانشـيسكو كابرييلى)[2]، فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد حدثتنى حديثه فى رحلتك السابقة[3].

قال: أجل.. وسأحدثك اليوم عن بعض شهاداته:

فقد تحدث عن قدرة الإسلام على الانسجام مع البيئـات المختلفة، والتأثير فيها، فقال: (إنها القوة العجيبة التى تشع من العقيدة الجديدة، ومن الدولة التى أقامتها هذه العقيدة، والتى نمت فى كل اتجاه وأنتجت حـضارة موحدة إلى حدّ يدعو إلى الدهشـة، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التى ازدهرت عليها)[4].

وتحدث عن تأثير الحضـارة الإسلامية فى الحضارة الغربيـة، فقال: (إن الاتصالات بين العالم المسيحى، الذى كان مهلهلاً محـصوراً، وبين الإسلام الغازى فى منطقة البحر المتوسط، كانت على مـا يبدو متكررة ومـثمرة.. لقـد تسرّب (تراث) الحضارة الإسـلامية فى العـصور الوسطى إلى الغرب وتغلغل فيه)[5].

وقال: (إن ما خلفته الحضـارة العربية الإسلامية لإسبانيا فى المجالات الـثقافية والأدبية والفنية خلفته أيضًا لأوروبا بوصفه عنصرًا خصبًا من العناصر المكونة للحضارة الغربية)[6].

وتحدث عن إسلاميـة الحضارة الإسلامية، فـقال: (من الواضح أننا نعنى بالإسلام هنا كل (الحضارة الإسلامية) التى تطورت بما لهـا من مظهر خاص، من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسى والتى قامت على الإيمان برسـالة الرسول محمد.. ولا ريب أن العقـيدة الدينية قد

(1) تراث الإسلام، ص 431، وسنرد على هذه الشبهة فى رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

(2) فرانشيسكو كابرييلى Francesco. Gabrieli ولد عام 1904، كبير أساتذة اللغة العـربية وآدابها فى جامعة روما، برز فى دراسة الشعر العـربى من الجاهلية حتى العصر الحديث وفى تحقـيق التاريخ الإسلامى، وانتخب عضواً فى عدد من المجامع والجمعيات العلمية.

من آثاره: ألف العديد من الأبحاث والمصنفات منها: (تاريخ المسلـمين للحروب الصليبية) (1929)، و(العصبية لدى ابن خلدون) (1930)، و(عمر الخيام) (1930)، و(ابن المقفع)، و(العيد الألفى للمتنبى) (1936)، و(أصل الخوارج) (1942)، وغيرها.

(3) انظر: رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود)

(4) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث 1/ 101).

(5) تراث الإسلام، 1 / 109.

(6) تراث الإسلام، 1 / 143.

زودت هذه الحضارة ليس بعاملها المشترك فحسب، بل بمحورها ومظهرها الأساسى أيضًا. وأن كل مظاهر الحياة الأخرى من مادية وروحـية ومن سياسية وأدبية واقتصادية واجـتماعية، تحمل طابع هذا العنصر الدينى يعكس عليـها ألوانه، وتنمو وتتسع تحت تأثيره. وقـد قال أحدهم إن الإسلام دين (عالمى شامل) أكثر من أى دين آخر، ويشمل تأثيره الإنسان بأكمله وليس شعوره الدينى وحده)[1].

وتحدث عن تأثير الإسلام فى كل مناحى الحـياة، فقال: (إن الطابع الإسلامى إذا غلب على أمة من الأمم، لا يمكن محـوه البتة وأن كبار الشعـراء حتى حينما يعالجـون موضوعات سابقة للإسلام وخارجة عنه يطبعونه بالطابع الإسلامى أيضًا)[2].

**3 - بلجيكا:**

من الدول التى رأيتـهـا فى هذا الفـصل (بلجـيكا)، وقد رأيت من الأصـدقـاء الذين سجلهم البابا:

**جورج سارتون:**

قلت: من هو جورج سارتون[3]؟

قال: هذا رجل مهـتم بتاريخ العلوم، وقد كان له من البحث الصـادق ما جعله أوسع من أن ينحصر فى مجال تخصصه، فلهذا عرف من الحقائق ما جعله يشهد لها.

لقد ذكر القرآن، وتأثيره فى اللغة العربية، فـقال: (إن لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التى اختارها الله جل وعلا للوحى كانت، بهذا التحديد، كاملة.. وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مـقام المثل الأعلى فى التعبير عن المقاصد،.. وجـعل منها وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة)[4].

---

(1) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص 123.

(2) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، ص 141.

(3) جورج سارتون (1884 - 1956) G. Sarton ولد فى بلجـيكا، وحصل على الدكـتوراه فى العلوم الطبـيعـية والرياضية (1911)، فلما نشبت الحرب رحل إلى إنكلترا، ثـم تحول عنها إلى الولايات المتحدة، وتجنّس بجنسـيتها معين محاضراً فى تاريخ العلم بجامعة واشنطن (1916)، ثم فى جامعة هارفارد (1917-1949). وقد انكب على دراسة اللغـة العربية فى الجامعة الأمريـكية ببيروت (1931-1932) وألقى فيها وفى كلية المقاصد الإسـلامية محاضـرات ممتعة لتبيـان فضل العرب على التفكير الإنسـانى، زار عدداً من البلدان العربية، وتمرس بالعديد من اللغـات، ومنح عدة شهادات دكتوراه كما انتخب عضـواً فى عشرة مجامع علمية وفى عديد من الجمعيات العالمية، وأشرف على عدد من المجلات العلمية.

من آثاره: خلف أكثر من خمسمائة بحث، وخير تصانيفه وأجمعها: (المدخل إلى تاريخ العلم) فى خمسة مجلدات (1927، 1931، 1947).

(4) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 37 - 38

وتحدث عن صفات رسـول الله ﷺ وفضله، فقال: (صدع الرسول بـالدعوة نحو عام 610م وعمره يوم ذاك أربعون سنة، وكـان مثل إخوانه الأنبياء السابقـين ولكن كان أفضل منهم بما لا نسبة فيه.. وكان زاهداً وفقيهًا ومشرعًا ورجلاً عمليًا)[1].

بل إنه اعتبر انتصار رسول الله ﷺ أعظم انتصار حققه نبى من الأنبياء، فقال: (إنه لم يتح لنبى من قبل.. أن ينتصر انتصاراً تامًا كانتصار محمد)[2].

وقال: (كان النبى محمد أشمل فى دعوته وأعمق من كل من سواه من الأنبياء)[3].

وذكر اثـر النبى ﷺ فى الحضـارة الإسلامـية، فقـال: (لم يكن مـحمد نبـى الإسلام فحـــسب، بل نبى اللغة العـربية والثـقافـة العربـية[4]، على اختـلاف أجناس المتكلمـين بها وأديانهم)[5].

واعتبر المنجزات التى حققهـا رسول الله ﷺ أعظم المنجزات فى تاريخ البشرية، فقال: (ثمة حادثة واحدة من أخصب الحوادث نتائج فى تاريخ الإنسانية ألا وهى ظهور الإسلام)[6].

وتحدث عن شمولية الإسلام للدين والدولة، فقال: (كانت الهجرة حدًا فاصلاً فى حياة الرسول، وفى تاريخ الدين الجديد. إنها البدء الرسمى للإسلام كدين ودولة معًا)[7].

وتحدث عن مزايا التـشريعات الإسلاميـة، ومراعاتها للفطرة، فـقال: (ليس فى أركان الاسلام الخمسة شىء ينفر منه غـير المسلم، وعلى الرغم من بساطة هذه الفروض وقلة عددها وإنه لم يكن بالإمكان إدخال إصلاح ما عليها، يقود إلى أن تثـبت العقيدة الإسلامية فى نفسه كل مسلم أو تقـوى بعد ثبوتها ثم يسـهل انتشارها فوق مـا ثبتت وقويت وانتشـرت فعلاً. إن القيمة العملية للعقيدة الإسلامية لها دليل ذاتى من قوتها ورسوخها وانتشارها)[8].

وقال: (إن فرض الصيام فى كل نهار من مطلع الفجـر إلى غياب الشمس شهراً كاملاً كان امتحانًا قاسيًا لكل مسلم.. ولكنه كان وسيلة بارعة لسبر غور الإيمان فى صدر كل مسلم ولتثبيت ذلك الإيمـان أيضًا. ولقد أدرك الإسلام الحاجة إلى تنظيم شديد كيـما يقوى إيمان المسلمين وتتطهر قلوبهم. من أجل ذلك كان شهـر الصيام والحج من التمارين التى تحمل على هذا التنظيم وتقوم به أحـسن قيام، إن كـثيراً من كنائسنا نحن قـد ضعفت إلى درجة التـفاهة

(1) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 29 - 30 - 31.
(2) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 43.
(3) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته، 140.
(4) الثقافة العربية فى مجموعها ثقافة إسلامية.
(5) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 43.
(6) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 28.
(7) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 30.
(8) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 32.

لتساهلها ولفقـدان التنظيم فيها ولقلة ما تفرضه على أتباعـها. إن اتباع هذه الكنائس إذا دفعوا اشتراكاتهم (بدل جلوسهم على مقاعـد الكنيسة) عدوا من المؤمنين حقًا. إن مثل هذه الكنائس قد تكون غنية، ومع ذلك فإنها، من حيث التـأثير، في حكم المفقودة. فإذا كنتم تريدون أتباع كنائس ذوى إيمان فعليكم أن تفرضوا عليهم نظامًا شديدًا وأن تطلبـوا منهم تضحيات حقيقية. ولقد عرف محمد ذلك جيدًا، وهذه علامة أخرى من علامات عبقرية النبوة فيه)[1].

وتحدث عن حكمـة الإسلام من تحريم الخمـر، فقال: (حرم الإسلام الخـمر فى مطلع دعوته، وها نحن اليـوم بعد أن انتشرت الخمـور وزادت نسبة الكحول فـيها إلى درجة فـتاكة ندرك حكمة الإسلام وبعد نظره)[2].

وتحدث عن سـماحـة الإسلام، فقـال: (ما تميـز به الإسلام من السمـاحة والبـساطة والاعتـدال، يسرّ لأى إنسان فى أى موطن، أن يتـقبله وينفذ إلى روحـه وجوهره منذ اللحظة الأولى)[3].

وتحدث عن القيم التى كان يحملها الفاتحون، فقال: (إن الفاتحين العرب كانوا بلا ريب أميين، ولكنهم كانوا مـوحدين تمامًا، وكان يعمر قلوبهم إيمان وطيـد. وفى هذه أيضًا انتصر النبى انتصاراً بيّـنًا. أن الفتوح العربية لم تكن نتـيجة صراع بين برابرة جـياع وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون فى سلّم المدنية، بل كان فى الأكثر صراعًا بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة فى المحل الأول، ثم بين ثقافات منحلة متعادية قلقة فى المحل الثانى)[4].

وقال: (إن تفاصيل تلك الجـهود المدهشة فى الفتح الإسلامى تهم المؤرخين السـياسيين ولكن الحالة النفـسية للأسس التى تقوم عليـها تلك الفتوح فيـما يتعلق بالجانبـين (بالعرب ثم بالروم والفرس) هى ذات أهـمية كـبرى لمؤرخى العلم. لقد سـبق للإيمان المسـيحى أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التى امتدت قرونًا عديدة، والحرمـانات المتبادلة، فقاد ذلك إلى أن استقبل النصارى فى الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسيـة ثم إن الإسلام. . كان لا يزال غضًا مـوحدًا، كما أن المجاهدين المـسلمين كانت تملك عليهم لبّهم آمال عظام. . وكان الإيمان فى الإسـلام بسـيطًا، كريمًا ومعتدلاً، ومن ذلك فقد كان بالإمكـان أن تشيع فيه الحماسة حـين البأس على حد بعيد فينقلب المجـاهدون حينئذ ذوى حميـة إما أن يبلغوا بها الظفـر أو أن يسقطوا دونه شهداء. لقـد كان الظفر والاستـشهاد عندهم سِيَّين)[5].

(1) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 40 - 42.
(2) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 40.
(3) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص 140.
(4) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 46.
(5) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 47.

وقال: (وبمساعدة هذه المؤثرات العجيبة، كان يشعر المسلم فى كل مكان بأنه فى بلده، سواء أكان فى رحلاته خارج الحدود أم فى معاملاته مع تجار البلاد الأجنبية)[1].

وتحدث عن انفتاح المسلمين على الثقافات الأخرى، فقال: (إن إدراك الفاتحين لضرورة الأخذ عن ثقافات الشعوب المفتوحة قد فسح المجال لما يجوز أن نسميه معجزة العلم العربى، آتين بكلمة معجزة لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه العرب فى الثقافة والعلم مما يخرج تقريبًا عن نطاق التصديق وليس لذلك شبه فى تاريخ العالم كله ما عدا حسن اكتساب اليابانيين للعلم الحديث وللبراعة الفنية فى أثناء العصر الميجى 1868-1912م. إن هذه الموازنة مفيدة، لأن الموقف كان فى الحالين واحدًا. إن قادة الثقافة بين العرب قد أدركوا الحاجة الماسة إلى العلم اليونانى بقدر ما أدرك اليابانيون فى الجيلين السابقين حاجتهم إلى العلم الأوروبى الحديث. ولقد كان خير المعلمين لكلتا الأمتين الحاجة، الحاجة الملحة. على أن تينك الأمتين قد اتصفتا بالإرادة وبنوع من النشاط الروحى الذى يتغلب على المصاعب الشاقة)[2].

وقال: (إن غرابة العلم العربى وخصبه معًا يرجعان فى الحقيقة إلى أن ذلك العلم قد جمع العناصر اليونانية إلى العناصر الشرقية وخلق منها مركبًا جديدًا، أو أنه جعل خلق هذا المركب ممكنًا فى المستقبل. ولقد كان بالإمكان أن ينتقل العلم اليونانى على يد أوروبا اللاتينية لو لم تكن النصرانية الكاثوليكية مفصولة تمامًا عن النصرانية الأرثوذكسية بجدار من التعصب وسوء الظن والبغض. وبما أن هذا الجدار كان لسوء الحظ موجودًا، فإنه لم يكن من سبيل إلى اتصال العلم اليونانى السابق بالمستقبل التالى إلا من طريق المنحنى العربى. وإذا نحن نظرنا إلى العلم العربى من وجهة نظر التطور الإنسانى عمومًا، وجدنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت ذات أهمية بالغة، ذلك لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدنى وبين الغرب، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسيا البوذية)[3].

وتحدث عن امتداد الثقافة الإسلامية، فقال: (إن الأهمية العظمى التى يتمتع بها الشرق الأوسط على أنه مهد للثقافة الغربية قد قام البرهان عليه.. ولكن حب الحقيقة يحملنا على أن نبدى تحفظًا.. أن الثقافة العربية التى كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون أخر (ولنذكر أن ستة قرون ليست شيئًا يسيرًا) قد درجت من ذلك المهد، لا شك فى ذلك. ولكن الفتوح الإسلامية قد مدّتها شرقًا إلى الهند وأواسط آسيا حتى الصين ثم غربًا إلى إسبانيا ومراكش، أى إلى طرف العالم. فإذا نحن

---

(1) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 47.

(2) الثقافة العربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 49.

(3) الثقافة العربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 57.

سمينا هذه الثقافة إذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب فإننا نكون قد جئنا شيئًا غريبًا، إذ أن تلك الثقافة كانت قد امتدت فى العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى)[1].

وتحدث عن عظم المآثر التى خلفها المسلمون، فقال: (إن المآثر التى قامت بها الشعوب التى تتكلم اللغة العربية - وذلك بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر للميلاد- كانت عظيمة إلى درجة تخمل أفهامنا. على أن التأخر الذى أصاب المسلمين والعرب كان مستغربًا جدًا فى سرعته واكتماله كما كانت نهضتهم الرائعة مستغربة جداً أيضًا. وسيحاول العلماء الدارسون أبدًا تعليل ذلك، ولكن بلا جدوى من الناحية العملية على الأقل، ذلك لأن أشباه هذه المسائل معقدة جدًا، ولأن الإجابة عليها بالأساليب العادية تقع فى نطاق المستحيل)[2].

وقال: (مرة أخرى نستعمل كلمة (معجزة) لأن ما تحقق على أيدى العرب فى ميدان العلوم لا يكاد يصدّق. ولم يحدث قط فى تاريخ الإنسانية أن تمكن قوم من العلم هذا التمكن السريع، إلا فى حالة واحدة أخرى هى ما حققه عصر الإمبراطور موتسوهيتو Mutsuhito 1868-1912 لليابان من علم وفن حديث. والحق أن بين هاتين الحالتين من النهضة الإنسانية شبهًا أساسيًا)[3].

وتنبأ عن نهضة جديدة للعالم الإسلامى تمكنه من قيادة العالم، فقال: (إن شعوب الشرق الأوسط قد سبق لها أن قادت العالم فى حقبتين طويلتين، طوال ألفى سنة على الأقل قبل اليونان، ثم فى العصور الوسطى مدى أربعة قرون على الأقل. من أجل ذلك ليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد)[4].

وقال: (ليس ما يمنع الشعوب العربية اليوم من أن تبارى أسلافها وأن تستعيد ثانية مكانتها الأولى فى قيادة العالم. ومع أن ذلك ليس سهلاً - ثم هو يصبح أشد صعوبة يومًا بعد يوم - فإنه ممكن)[5].

وهو ينتقد التقدم المادى المجرد عن الدين، ويدعو إلى الدين المبنى على الحب، قال:(إن التقدم المادى الخالص مدمّر، وهو ليس تقدمًا على الإطلاق، بل تأخر أساسى. إن التقدم الصحيح - ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة - لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن، وفوق ذلك كله، على العلم، العلم الخالص، على محبة الله، على محبة الحقيقة، وعلى حب الجمال وحب العدل. وهذا يبدو لنا جليًا حينما نلقى نظرة واحدة إلى الوراء. من هم أولئك الذين كانوا رجالاً

---

(1) الثقافة العربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 57 - 58.

(2) الثقافة العربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 61.

(3) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص 136.

(4) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 69.

(5) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 70.

عظامًا فى التاريخ؟ من هم أولئك الذين أحسنوا إلينا؟ ومن هم أولئك الرجال الذين نحن مدينون لهم بمسرات حياتنا ونعمها؟ لقد كانوا رجالاً أمثال أفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس فى تاريخ اليونان. أما فى أثناء العصور الوسطى فكانوا رجالاً من أمثال الفارابى وابن سينا وابن الهيثم والبيرونى والغزالى وابن رشد وموسى بن ميمون وأبى الفداء وابن خلدون.. إن ما نراه واضحًا حينما نلقى نظرة إلى الوراء يجب أن يكون واضحًا أيضًا حينما نمد نظرنا إلى الأمام فيهدى خطانا إلى المستقبل)[1].

(إن المدنية ليست مرضًا، ولكن من الممكن أن تنقلب عند أهل الجدل شرًا وفسادًا والمدنية ليست شرقية ولا غربية، وليس مكانها فى واشنطن أكثر مما هو فى بغداد. إنما يمكن أن تكون فى كل مكان يكون فيه رجال صالحون ونساء صالحات يفهمونها ويعرفون كيف يستفيدون منها من غير أن يسيئوا استعمالها. والشرق الأوسط كان مهد الثقافة ومنه جاءت أسباب إنقاذ العالم فى أثناء العصور الوسطى حينما بدأ الستار الحديدى فى أوروبة يشطر العالم شطرين الأرثوذكسى والكاثوليكى. وها نحن اليوم ننظر إلى ماضى الشرق الأوسط بعين من عرفان الجميل ثم نرنو إلى مستقبله بعين من الأمل الحلو)[2].

قلت: إن شهادات هذا الرجل تنبئ عن فهم عميق للإسلام.

قال: لعل الأمر أعمق من أن يكون مجرد فهم.. فحديث هذا الرجل عن حب الله فى هذا العصر لا يدل إلا على الأعماق التى جعلته يصرح بهذه التصريحات.

**4 - النمسا:**

من الدول التى رأيتها فى هذا الفصل (النمسا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

**الكاردينال كوينج:**

قلت: من هو الكاردينال كوينج[3]؟

قال: هذا رجل دين من النمسا.

قلت: كيف يكون رجل دين، ويشهد للإسلام؟

قال: ليس ذلك مستغربا.. فلابد أن يعيش الإنسان فى حياته لحظة من لحظات الصدق.. وهذه اللحظات قد تنطقه بشهادة الحق التى ظل يبتعد عنها طول حياته.

قلت: فاذكر لى شهادات هذا الرجل.

قال: من شهاداته شهادته حول اهتمام القرآن بالفكر، مبينا اتفاقه مع الكتاب المقدس فى هذا، قال: (يحدثنا القرآن الكريم عن الإنسان ومحاولته الوصول إلى خالقه فى هذه

(1) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 72 - 73.

(2) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، ص 74 - 75.

(3) الكاردينال كوينج Quenge رئيس أساقفة النمسا.

الآيات البينات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة]، ويحدثنا الكتاب المقدس عن هذا المعنى فى هذه العبارة: (أن قدرة الله الأزلية وألوهيته منذ خلق العالم، تتجلى فى مخلوقاته بنور الفكر الإنسانى)(1).

وذكر اهتمام القرآن الكريم بالتوحيد، بل اعتباره الغاية الأسمى منه، فقال: (إن تاريخ الدين بوجه عام وتاريخ التوحيد على وجه خاص يظهرنا على أن الإيمان بالله وحده هو الجواب الشافى الوحيد عن كل سؤال عن أصل الكون والإنسانية والغاية من وجودهما فلا يمكن أن يكون للحياة الإنسانية من هدف إلا الله وحده وكل تديّن فى الإنسان مرده فى الأصل - عن إدراك أو بغير إدراك واع - إلى الإيمان بإله واحد، ولقد كان هناك توحيد حين ظهر الإسلام واتخذ الإسلام التوحيد سبيلاً لأتباعه المؤمنين. ولا شك أن الغزالى على حق يقرر أن الإيمان بالله وحده هو المقصد الأسمى للقرآن الكريم)(2).

وقال: (لنقلها إذن فى صراحة ووضوح: أن التوحيد عدو لكل من نصب نفسه معياراً للحياة الإنسانية فى هذه الأرض، وهذه الحقيقة هى التى ترسم لنا حدود مسؤولياتنا.. وليكن همنا فى هذه الأيام العصيبة أن نعين الناس على أن يستجيبوا لأمر الله فيقيسوا حياتهم وفق أمره ومشيئته وفى هذه الاستجابة لنداء الفطرة (كما يدعوها المسلمون) المستكنة فى قلب كل بشر، جوهر الإيمان بالله الحق المبين. ولعلنا بذلك نخطو الخطوة الحاسمة فى إقرار التوحيد بين البشر)(3).

**كوستاف فون كرونباوم:**

من الأسماء التى رأيتها فى دفتر البابا فى هذا الفصل اسم (كوستاف فون كرونباوم)(4)، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية، منها شهادته بتقبل الإسلام للحضارات المختلفة، وصهرها فى بوتقته، قال: (كانت الحضارة التى جاء بها العرب الفاتحون من جزيرة العرب هى فى حدّ ذاتها نتيجة الاندماج الأولى بين عناصر الثقافة المحلية

(1) عقيدة التوحيد فى العالم المعاصر، ص 10.

(2) عقيدة التوحيد فى العالم المعاصر، ص 15 - 16.

(3) عقيدة التوحيد فى العالم المعاصر، ص17.

(4) جوستاف فون جرونباوم Gustav Von Grunbaum (1909-1972)، ولد فى فينا فى 1/9/1909، درس فى جامعة فينا وفى جامعة برلين، هاجر إلى الولايات المتحدة والتحق بجامعة نيويورك عام 1938ثم جامعة شيكاغو ثم استقر به المقام فى جامعة كاليفورنيا حيث أسهم فى تأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط الذى أطلق عليه اسمه فيما بعد. من أهم كتبه الإسلام فى العصر الوسيط، كما اهتم بدراسة الأدب العربى وله إنتاج غزير فى هذا المجال.

للعرب وعناصر مستمدة من التقاليد اليهودية والمسيحية والتقاليد الهلينية. . وبين رسالة الإسلام التى كانت عنصرًا آخر وعاملاً من عوامل تبلور الحضارة الجديدة. وهذا التكامل الإسلامى الأول هو الذى فرض نفسه على نسبة كبيرة نوعًا ما من الشعوب المغلوبة فى الوقت الذى كان يجرى فيه كفاح شديد بينها وبين الحضارات القديمة المتأصلة فى تلك البلاد. وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانيات الإسلام الفلسفية والعملية إلى حيّز الفعل)[1].

وقال: (التفكير الإدارى والسياسى من فارس، والطرائق الهلنستية فى التفلسف والعلم، والطب والرياضيات من الهند، كل ذلك قد تمثله المسلمون واستوعبوه بغير عناء. وأن التعريب اللغوى لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها. وحينما توضح وجهة النظر الأجنبية فى داخل إطار إسلامى وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلاميًا صادقًا، ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجى بحقائق الدين الأولى ولما تشتمل عليه من ملابسات ثقافية، أخذ يساعد على توسيع الأساس الذى يقوم عليه التبادل بين الحضارات. وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية بين 760-840م إنما يمثل امتزاجًا ثانيًا للحضارة الإسلامية، وقد فسحوا المجال فيها للتقاليد (المحلية) التى استمدوا جزءًا منها من الكتب، إلا أن معظمها دخل فى التركيب الجديد على سبيل حقائق التعايش الفعلى)[2].

وقال: (إن ثقافة الإسلام العامة تملك تحت تصرفها وسائل متعددة تساعد على التوفيق بين الثقافات المحلية. ومن هذه الوسائل التى يتميز بها الإسلام فى الأخص الإجماع. فهذا الإجماع الذى هو عنصر فى Consensus Prudentium له سلطة الفصل فى شرعية أى عمل أو عقيدة أخذتها الجماعة)[3].

وقال: (إن العصر العباسى الأول لم يستعر علم الفلك الهندى مثلاً أو حتى الإدارة الفارسية، لأنه رأى فى تلك المنتجات الأجنبية الوسيلة الوحيدة لإعاقة التغلغل فى السيطرة السياسية أو الاقتصادية. إن الإسلام لم يكن إذ ذاك فى موقف دفاعى، ولكنه تبنى تلك الإمكانيات الأجنبية لمصلحته هو، وفعل ذلك فى ريث وأناة، إذا كان قد وقع تحت تأثير ضغط فلم يكن ذلك من الخارج ولكن بدافع من مرحلة التطور التى كان يمرّ بها. وبالاختصار، إن الملابسات السياسية التى توجه النقل الثقافى فى عصرنا الحاضر هى التى تجعله صعبًا من الوجهتين النفسية والاجتماعية، ومفككًا للجماعات التى تستقبل هذا النقل. فالاختيار، وتحديد الوقت، والتأثر الإيجابى، وردّ العدوان المعادى، كل أولئك لم يعد خاضعًا لحالة النموّ ولا للحاجات الذهنية والوجدانية للمستعير، ولكن يخضع للطموح الثقافى، ولسلسلة من الأحوال الاضطرارية التى ليس للمستعير عليها إلا تسلط محدود. ومن هنا نقول إن مقتضيات

(1) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص 38.

(2) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، ص 38 - 39.

(3) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، ص 53.

الموقف السياسى للعصر العباسى الأول - وقد كان مغايراً تماماً لموقفنا اليوم - هى التى مكنت العباسيين من أن يسيروا فى طريق. . حمى عصرهم من الأخطار المصاحبة للاستمداد الثقافى فى عصرنا الحاضر الذى يتحكم فى النزوع نحو الغرب)[1].

وانطلاقا من هذا لا يخاف هذا الرجل على الإسلام من الذوبان فى الحضارة الغربية، بل يرى أنه يمكن أن يستمد منها من غير أن يذوب فيها، قال: (ومن حيث إنه لا خطر على الإسلام من أن ينمحى إمحاءً ماديًا كنتيجة لتأثير الغرب، فإنه يلوح أن سريان العناصر الغربية إليه سيظل مقصوراً على ما يمكن أن (يهاجر من قوم إلى آخرين كالفنون الصناعية والعمالية والتطبيقية وطرقها). فعملية طبع العالم الإسلامى بالطابع الغربى. . لن تشمل - على الراجح - المبادئ الأساسية المتضمنة فى الدين والفلسفة والفن والنظرية العلمية. فالإسلام - باختصار - سوف لا يفقد نفسه فى المدنية الغربية إلى درجة انمحاء شخصيته على الرغم من استعمالها للمنشط الخارجى حافزاً لبث روح الحياة فيه من جديد)[2].

وقال: (لا مفرّ لنا من أن نعترف. . أن بطء التغيير فى موقف العالم الإسلامى يعطى نوعًا من الضمان ضد الاطراح الطائش للخصائص الأساسية لمدنيته التى لا ينبغى أن تطرح هكذا بسهولة. وفى عبارة أخرى، أن هذا البطء فى تعديل الموقف - ولو أنه فى بعض الأحيان يفسد التطبيق الناجح للاستمداد المرغوب فيه - يكون دفاعًا داخليًا قويًا، أو سداً ملطفًا لتأثير الأمواج الأجنبية التى سمح لها بالدخول فى ميادين الأفكار والنظم)[3].

### 5 - بولونيا

من الدول التى رأيتها فى هذا الفصل (بولونيا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

### بوجينا غيانة ستشيجفسكا:

قلت: من هى هذه المرأة التى تشرفت بأن يوضع اسمها فى كتاب يبحث فى القلوب التى صدقت مع محمد ﷺ؟

قال: هذه بوجينا غيانة ستشيجفسكا[4]، وهى باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام فى الأزهر الشريف، وقد مكنها ذلك من أن تعرف الإسلام عن كثب، ولهذا كان لها هذه الشهادات الصادقة.

---

(1) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص 189.

(2) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، ص 193.

(3) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية، ص 194.

(4) بوجينا غيانة ستشيجفسكا Bozena - Gajane Stryzewska باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام فى الأزهر على يد أساتذة ومشرفين أخصائيين زهاء خمس سنوات (1961-1965)، تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراساتها العليا فى كلية الحقوق، وفى معهد اللغات الشرقية فى بولونيا.

منها شهادتها حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، قالت: (إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات. كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة)[1].

ومنها شهادتها حول إيجابية الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام، قالت: (ليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر أن يترك المسلم العمل لأن القرآن والنبي أمرا بالعمل والاجتهاد في كل شيء. وقال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ... ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة][2].

ومنها شهادتها حول المقصد الشرعي من الصلاة، قالت: (فرض الله سبحانه وتعالى على المسلم خمس صلوات في اليوم ليكون دائم الاتصال بالله، وقبل أن يدخل المسلم الصلاة لابدّ أن يكون طاهرًا ونظيفًا فالإسلام دين النظافة)[3].

ومنها شهادتها حول الشورى في الإسلام، قالت: (كان تاريخ التشريع في عهد الخلفاء الراشدين يعتمد على الشورى، وأساسها قول الله تعالى: ﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]، وكذلك فعل الرسول مع أصحابه، فقد كان يستشيرهم في الأمور التي لم ينزل فيها عليه وحي)[4].

ومنها شهادتها حول أهمية الفقه، قالت: (كان الفقه مدار سياستهم وروح حياتهم وبه تدبير ملكهم. وكانت حركة الإسلام سريعة الانتشار حتى عمت المشارق والمغارب لأن الإسلام يأمر أهله بالوقوف عند حدود الشريعة وبصيانة حقوق الخلق أجمعين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. فكان للفقه (علم التشريع) زمان الخلفاء مكانة أعظم مما عليه علم الحقوق الآن عند الأمم المتمدنة، وكان الفقهاء هم أرباب الشريعة والشورى (نواب الأمة) وبيدهم تدبير كل الأمور ولا يصدر عمل عظيم أو حقير إلا وفاقًا للتشريع وعلى مقتضى الحق)[5].

ومنها شهادتها على عدالة نظام الحكم في الإسلام، قالت: (كان للأمة الحرية المطلقة والرقابة على أعمال الخلفاء الراشدين ومدى موافقتها لنصوص الشريعة وخضوعها لآراء الفقهاء، وسيرهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء. ولم ينقل أحد من المؤرخين سواء كانوا عربًا أم غيرهم انتقادًا للخلفاء بظلم أو سوء تصرف، بل اعترف الكل بأن عدلهم وحسن سلوكهم وصراحة طريقتهم قد حببت فيهم غيرهم من الشعوب، حتى أسقطوا عروش ملوكهم وخربوا دولهم وأسسوا بدلاً منها دولة الإسلام الذي عشقوه لعدل قوانينه، ونزاهة حكامه

---

(1) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 17.
(2) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 19.
(3) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 20.
(4) تاريخ الدول الإسلامية وتشريعها، ص 39.
(5) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 67.

وعفتهم ورفقهم واتباعهم لشرعهم لا يتعدونه، وكانت نصوص الشريعة واضحة لم يدخلها تأويل ولا شبهات)[1].

قلت: إن هذه شهادات قيمة.. ليتها ختمتها بالشهادتين.

قال: كل أمرها إلى الله.. فقد ينطق الإنسان بما لا يسمعه غيره.

**6 - كندا:**

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (كندا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

**ولفريد كانتويل سميث:**

قلت: من هو ولفريد كانتويل سميث[2]؟

قال: هذا باحث من كندا.. له شهادات طيبة عن الإسلام تؤهله لاعتباره صديقا.

منها شهادته بالعزة التي يحملها المسلمون بسبب إسلامهم، قال: (إنه ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتديّن به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم في غير تكلف ولا اصطناع، وأن الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحيانًا.. ولكن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلمًا باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين)[3].

ومنها شهادته على كون الإسلام نظاما شاملا لجميع مناحي الحياة، قال: (إن الغربي لا يفهم الإسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطنًا وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره أو يتقبلها بغير مناقشة، فليس التفكير بنافع شيئًا إن لم يكن مصحوبًا بتطور المعيشة وتطور أسلوب الحياة الظاهر والباطن في المجتمع الإسلامي)[4].

---

(1) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 68.

(2) ويلفرد كانتويل سميث. Wilfred Cantwell Smith: ولد في كندا عام 1916، درس اللغات الشرقية في جامعة تورنتو. حصل على الماجستير والدكتوراه في مجال دراسات الشرق الأدنى من جامعة برنستون. متخصص في دراسة الإسلام وأوضاع العالم الإسلامي المعاصرة وأشهر كتبه في هذا المجال(الإسلام في العصر الحديث) عمل أستاذًا في جامعة هارفارد وفي معهد الدراسات الإسلامية بجامعة مقيل بكندا. قام بتدريس الدين الإسلامي بكلية نورمان المسيحية بمدينة لاهور بباكستان 1941-1945. دعي للعمل أستاذًا زائراً في العديد من الجامعات. صدر له حديثا (1998) عدة كتب منها (نماذج الإيمان حول العالم) وكتاب (الإيمان نظرة تاريخية) وكتاب (الإيمان والاعتقاد والفرق بينهما)

(3) الإسلام في التاريخ الحديث، عن العقاد ما يقال عن الإسلام، ص 78.

(4) ما يقال عن الإسلام، ص 79

**7 - الهند:**

من الدول التى رأيتها فى هذا الفصل (الهند)، فقلت: كيف تثبت الهند فى الأصدقاء.. وأنت تعلم ما فعلت بكشمير؟

قال: ألا زلت تذكر لى الأرض.. انشغل بالسماء لتنال الأرض والسماء، فلا خير فى الأرض التى تفصلك عن السماء.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد كان أسلافكم أعظم أحلاما.. فلم تشغلهم العداوة عن الصداقة.

قلت: لم أفهم..

قال: ألم تر سلوك الحكمة الذى سلكه المسلمون مع المغول؟

قلت: لقد حولوه إلى دينهم.

قال: فحولوا الهند إلى دينكم.. لتتوجهوا أنتم والهند وكشمير وأهل الأرض جميعا إلى الله.

قلت: فهل نكف عن طلب حقوقنا؟

قال: لا تنشغلوا بحقوقكم عن واجباتكم.. إن الله أوجب عليكم أن تكونوا دعاة لا قتلة، فارموا أسلحتكم ليعطكم الله من أسلحة السماء ما يحميكم من أسلحة الأرض.

**جوار لال نهرو:**

كان من الأسماء التى ذكرت فى هذا المحل اسم (جوار لال نهرو)[1].. فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد كان رئيسا لوزراء الهند.

قال: وأنا أعرف هذا الرجل لأنه شهد بعض شهادات الصدق التى لا تزول مع زوال الأيام والدول:

لقد قال مخبرًا عن رسول الله ﷺ، وما بثه فى نفوس المسلمين من عزة قضت على الاستبداد: (لربما خامرت هؤلاء الملوك والحكام الذين تسلموا كتب الرسول الدهشة من هذا الرجل البسيط الذى يدعوهم إلى الطاعة. ولكن إرسال هذه الكتب يعطينا صورة عن مقدار ثقة محمد بنفسه ورسالته. وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزّة والمنعة وحولّهم من سكان صحراء إلى سادة يفتحون نصف العالم المعروف فى زمانهم.. وقد توفى محمد بعد أن جعل من القبائل العربية المتنافرة أمة واحدة تتقد غيرة وحماسًا)[2].

---

(1) جوار لال نهرو J. Lal Nahro ولد فى عام 1889، فى مدينة الله آباد، فى الهند، والتقى بغاندى فى أوائل عام 1919، اعتقل عدة مرات، وانتخب رئيسًا لحزب المؤتمر الهندى الوطنى عدة مرات، دخل الوزارة، وتولى الشؤون الخارجية، وأصبح نائبًا لرئيس المجلس التنفيذى، أول من تولى رئاسة الوزراء الهندية بعد استقلال الهند، له عدة مؤلفات فى التاريخ والسياسة والشؤون الهندية، توفى عام 1964م.

(2) لمحات من تاريخ العالم، ص 25 - 26.

وتحدث ـ في الوقت الذى غلب فيه المد الشيوعى ـ عن القيم النبيلة التى جاء بها الإسلام، فقال: (إن الإسلام هو الباعث والفكرة لليقظة العربية بما بثه في أتباعه من ثقة ونشاط.. ولقد كانت ثقة العرب وإيمانهم عظيمين. وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين. وهكذا ولد في العالم مبدأ ديمقراطى جديد. وأية مقارنة بين رسالة الأخوة الإسلامية وحالة النصرانية المنحلّة تجعل المرء يدرك مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها لا على العرب وحدهم ولكن على جميع شعوب البلدان التى وصل إليها العرب!)[1].

وقال: (كان للدين الذى بشر به محمد، بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة، تجاوب لدى الناس في البلدان المجاورة، لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين. لقد تعب الناس من النظام القديم وتاقوا إلى نظام جديد فكان الإسلام فرصتهم الذهبية لأنه أصلح الكثير من أحوالهم ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم)[2].

وتحدث عن معجزة الحاضرة الإسلامية، فقال: (المدهش حقًا أن نلاحظ هذا الشعب العربى الذى ظل منسيًا أجيالاً عديدة بعيدًا عما يجرى حوله قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق أدهش العالم وقلبه رأسًا على عقب. وأن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا، والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التى قدّموها للعالم هى أعجوبة من أعجوبات التاريخ)[3].

وقال: (سار العرب من فتح إلى فتح، وكثيرًا ما ربحوا الحروب بدون قتال. وفي غضون خمسة وعشرين عامًا من وفاة الرسول، فتح العرب جميع بلاد فارس وسوريا وأرمينية وجزءًا من أواسط آسيا الشرقية ومصر وجزءًا من شمال أفريقيا. وقد سلمت لهم مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست كثيرًا من استبداد الإمبراطورية الرومانية ومن الحروب الطائفية)[4].

وقال: (إن العرب كانوا في بداية يقظتهم متقدين حماسًا لعقيدتهم وأنهم كانوا مع ذلك قومًا متسامحين لأن دينهم يأمر في مواضع عديدة بالتسامح والصفح. وكان عمر بن الخطاب شديد الحرص على التسامح عندما دخل بيت المقدس، أما مسلمو إسبانيا فإنهم تركوا للجالية المسيحية الكبيرة هناك حرية العبادة.. والواقع أن أبرز ما يميز هذه الفترة من التاريخ هو الفرق الشاسع بين العرب المسلمين وتعصب النصارى الأوربيين!)[5].

وقال: (كانت حياة العرب في زمن محمد غريبة، وكانت عزيمتهم تختلف عن عزيمة الجنود والجيوش التى كان يعتمد عليها الملوك. لقد برز هؤلاء العرب بعقيدة متوقدة قهرت

(1) لمحات من تاريخ العالم، ص 24، 26.
(2) لمحات من تاريخ العالم، ص 27.
(3) لمحات، ص 23.
(4) لمحات، ص 27.
(5) لمحات، ص 31.

الجبال ونشرت الإسلام فى الآفاق كما تنتشر النار فى الهشيم. . برزوا شامخين فى عالمهم فدانت أمام زحفهم المظفر الجيوش الجرارة كانت الشعوب الأخرى متململة من أمرائها، فلاح العرب كبارقة الأمل لهذه القوة التى كانت ترقب الفرج والثورة الاجتماعية)[1].

وقال: (إذا عدت النظافة عيبًا فى العرب، فقد أسند إليهم عيب آخر ألا وهو التسامح الدينى! ويكاد المرء لا يصدق أن ذلك هي التهمة الرئيسية الموجهة للعرب فى كتاب رئيس أساقفة فالنسيا الذى وضعه فى عام 1602 بعنوان (إلحاد العرب وخياناتهم) وطالب فيه بإقصاء العرب عن إسبانيا. وقد قال: (أن العرب يحبذون جدًا حرية الضمير فى الشؤون المتعلقة بالدين، شأنهم فى ذلك شأن الأتراك والمسلمين الذين تركوا لأتباعهم الحرية الدينية). ولعمرى ما أجمل هذا المدح الذى قصد به ذم مسلمى إسبانيا الذين يمتازون بتسامحهم الدينى فى الوقت الذى استرسل فيه المسيحيون الأوروبيون فى التعصب والغلظة)[2].

وقال: (إننا لنجد أن الأسلوب العلمى العلمي لم يكن مطبقًا فى بلدان العالم القديم مثل مصر والصين والهند، ونجد القليل منه فى اليونان، ولا نجده فى روما. ولكن العرب امتازوا بهذه الروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث. . لقد بنى العرب على الأساس العلمى الذى استقوه من غيرهم أبحاثًا عظيمة وتوصلوا إلى اكتشافات عظيمة. لقد صنعوا أول مكبر، وصنعوا أول بوصلة، وكان أول أطبائهم وجراحيهم ذوى شهرة عالمية طبقت آفاق أوروبا. وكانت بغداد مركزًا لهذا الإشعاع الفكرى. وكانت قرطبة عاصمة إسبانيا العربية مثيلة بغداد فى دنيا الغرب. وكانت فى العالم العربى مراكز علمية أخرى ازدهرت فيها العلوم، ومنها القاهرة والبصرة والكوفة. ولكن بغداد. . فاقت هذه المراكز جميعًا. وكان عدد سكانها يربو على مليون نسمة، أى أكثر بكثير من سكان كلكتا أو بومبى فى يومنا هذا)[3].

وقال: (إن حكم العرب لأجزاء من إسبانيا مدة 700 سنة أمر يدعو إلى الإكبار، ويزيدنا إكبارًا لهم تلك المدنية الرفيعة والثقافة العربية الراقية التى وصفها أحد المؤرخين بقوله: (لقد نظم المغاربة مملكة قرطبة العظيمة التى كانت مفخرة العصور الوسطى والتى حملت نبارس العلوم والحضارة الزاهرة على العالم الغربى الذى كان مغمورًا فى الجهل والوحشية). وكتب مؤرخ آخر يقول: (بينما كان معظم الناس فى قرطبة يقرأون ويكتبون، كان أهل أوروبا المسيحيون فى جهل مطبق اللهم إلا رجال الدين منهم، ولم ينج من هذا الجهل حتى أعلى الطبقات الأوروبية). . لقد طارت شهرتها فى أرجاء الدنيا حتى سماها الكتاب الألمان بزينة

---

(1) لمحات، ص 33.

(2) لمحات، ص 48.

(3) لمحات، ص 35.

الدنيا، وقد أم جامعتها الطلاب من جميع أنحاء الدنيا، وشعت منها الفلسفة العربية حتى وصلت جامعات أوروبا الكبرى كجامعة باريس وأكسفورد وشمال إيطاليا)[1].

وقال: (اكتسب الصليبيون من عالم الإسلام الفنون والصناعة والترف والعلوم وحب الاستطلاع العلمى. وهذه هى الأشياء عينها التى كان بطرس الناسك داعية الحرب الصليبية وأمثاله أبعد الناس عن احترامها وتقديرها)[2].

وقال: (لنذكر أن صلاح الدين الأيوبى نفسه لم تشغله مهام الحرب عن إنشاء المعابد والكليات والمستشفيات وغيرها من مظاهر الرقى والمدنية. غير أن القدر يشاء أن تتعرض هذه الحياة السامية إلى جحافل المغول الزاحفين من الشرق)[3].

**8 - هولندا:**

من الدول التى رأيتها فى هذا الفصل (هولندا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

**جى. م. ج كرامرز:**

قلت: من هو جى. م. ج كرامرز[4]؟

قال: هذا رجل علم من هولندا له بعض الشهادات، منها شهادته حول الوحدة التى ربط بها الإسلام بين شعوب مختلفة، قال: (لو رسمنا خريطة تبين الأحوال السياسية الأوروبية والأفريقية وغربى آسيا فى حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى لوجدنا أن القسم الأعظم من العالم المسكون كان مسكونًا بأمم تخضع للحكم الإسلامى وتسودها الحضارة الإسلامية. إنها لم تكن فى ذلك الزمن وحدة سياسية متينة العرى، بل كانت مرتبطة فيما بينها برباط قوى من الدين والحضارة، حتى إن سكانها - مع أنهم لم يكونوا من المسلمين فقط - كانوا يشعرون بأنهم رعايا دولة إسلامية مترامية الأطراف مركزها الدينى مكة ومحورها السياسى بغداد. هذه الإمبراطورية العظيمة نمت وبلغت أشدها فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام، بسلسلة من الفتوحات ابتدأت بالمدينة المنورة، وكان ميدانها ومركز ثقلها شبه جزيرة العرب.. ومع أن الأقاليم التى فتحها الإسلام تختلف إذا قورنت بالبلاد التى يسكنها المسلمون الآن فضلاً عن أنها أوسع رقعة، فالحقيقة التى لا يمكن دحضها أنها كانت تؤلف

---

(1) لمحات، ص 45 - 46.

(2) لمحات، ص 54.

(3) لمحات، ص 54.

(4) البروفيسور جى. م. ج كرامرز Prof. J. M. Kramers ولد بهولندة، سنة 1891، وكان أستاذًا للتركية والفارسية فى جامعة ليدن حتى سنة 1939، اشتغل من 1915 حتى 1921 مترجمًا للسفارة الهولندية فى الأستانة. كان أحد المساهمين فى كتابة كثير من الموضوعات فى دائرة المعارف الإسلامية، وألف كتاب: (فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين) (1944).

كتلة دينية واحدة فضلاً عن وحدة سياسية متينة العرى متراصة البنيان جمعت بينها قوة السلاح وجعلت سكانها يقفون فى العالم كأعظم قوة مركزية متحدة عرفها البشر)[1].

ومنها حديثه عن سماحة الإسلام، قال: (إن أورشليم القدس المركز الدينى الأسمى لأوربا النصرانية دخلت منذ السنة 638م فى حوزة الإسلام. إلا أن الفتح الإسلامى لم يمنع من زيارة القبر المقدس أو يحول بين الأوربيين المسيحيين وبين إنجاز هذه الفريضة الدينية)[2].

ومنها حديثه عن انتشار الثقافة الإسلامية فى العالم، وبالتالى تأثيرها فيه، قال: (إن اكتشاف النقود الإسلامية فى بقعة عظيمة الرقعة من آسيا وأوروبا ينهض دليلاً على مدى انتشار الثقافة الإسلامية، ويقوم برهانًا على أن المسلمين كانوا يستبضعون مختلف السلع من الشعوب الشمالية الغربية)[3].

وقال: (إن الغنم الثقافى الذى نالته أوروبا من العالم الإسلامى فى صعيدى الجغرافية والتجارة لم يكن ثمرة ساعة واحدة. إنما قام على العلاقات المتبادلة التى ظلت متواصلة منذ مطلع القرن الحادى عشر الميلادى حتى الآن، فوصلت إلى ذروة مجدها أثناء حكم المغول فى القرن الثالث عشر. كذلك يجب أن نضع نصب أعيننا حقيقة واحدة وهى أن الحضارة الإسلامية بنموها وازدهارها عن طريق الدول التى أعقبتها فى الحكم كتركيا وإيران وشعوب الهند المسلمة وسكان جزر الهند الشرقية المسلمين، جعلت كثيرًا من الآراء والعادات الإسلامية معروفة مطبقة فى البلاد الأوروبية. ولكن لم يبد من فترة تاريخية تفوق ساحق عظيم للشعوب الإسلامية على العالم المسيحى كفترة القرن العاشر، أعنى عندما وصل الإسلام إلى أوج السؤدد والتقدم، وعندما كانت أوروبا المسيحية فى ركود وظلام حالك)[4].

**9 - روسيا:**

من الدول التى رأيتها فى هذا الفصل (روسيا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

**ف. بارتولد:**

قلت: من هو ف بارتولد[5]؟

(1) تراث الإسلام، (إشراف سيرتوماس ارنولد)، ص 127 - 128.
(2) تراث الإسلام، ص 129.
(3) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص 156.
(4) تراث الإسلام، ص 164. وعن إنجازات المسلمين فى ميدان الجغرافية والتجارة، انظر: المرجع نفسه، ص 105-106، 130-131، 142-143، 146-148، 152-153، 157-158، 161-164.
(5) ف. بارتولد (1879 - 1930) V. Barghold تخرج من جامعة بطرسبرغ (1891)، وعين أستاذًا لتاريخ الشرق الإسلامى فيها (1901)، فكان أول من درس تاريخ آسيا الوسطى. وعنى بالشرق الإسلامى وحقق المصادر العربية المتعلقة به وتخرج عليه عدد من المستشرقين. وقد انتخب عضوًا فى مجمع العلوم الروسى (1912) ورئيسًا دائمًا للجنة المستشرقين فيه بعد الثورة البلشفية حتى وفاته.
تربو آثاره على الأربعمائة، أشهرها: (تركستان عند غزو المغول لها) فى مجلدين (1898-1909)، (تاريخ دراسة الشرق فى أوروبا وآسيا) (1911)، (حضارة الإسلام) (1918)، (تاريخ تركستان) (1922)، (مغول الهند) (1928)، (تاريخ أتراك آسيا الوسطى) (19349. وغيرها.

قال: هذا رجل من روسيا. .

قلت: تلك التى. .

قاطعنى، وقال: دعك من هذا. . فلا ينبغى أن يشغلكم تجار الأسلحة عن دينكم وعن رسالتكم وعن السلام العظيم الذى بعثكم الله به.

قلت: صدقت. . لقد انشغلنا عن ديننا بحروب كثيرة لا ناقة لنا فيها ولا جمل. . فاذكر لى بعض شهادات هذا الصديق.

قال: لقد تحدث عن سماحة المسلمين، فقال: (كانت فى بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت الواقعة جنوبى البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها. وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة، ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم الدينية وكان فى المؤتمر الدينى الذى انعقد فى القسطنطينية سنة 680-681م مندوب من القدس أيضًا. ثم إن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطًا وثيقًا)[1].

وقال: (انتشر الدين الإسلامى فى القرن الرابع للهجرة فى قبائل الترك الرحل وفى بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة وبدون استخدام أى سلاح، فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى مسلمين)[2].

وتحدث عن تأليف الإسلام بين الشعوب المختلفة، فقال: (حضارة الإسلام، أو حضارة العرب، اسم لحضارة الشرق فى القرون الوسطى ولم يكن العرب وحدهم مبتكرى هذه الحضارة ولكن جميع سكان الشرق الأدنى، وقسم من أفريقيا، الذين ظلوا مدة طويلة منفصلين عن الحضارة الأوروبية، آخى بينهم الإسلام، دين الدولة؛ واللغة العربية، لغة العلم والأدب)[3].

وتحدث عن عالمية الحضارة الإسلامية واستفادتها من جميع التراث الإنسانى، فقال: (مما هو جدير بالملاحظة أن ابن خلدون وهو عربى، يدعى بأن الحضارة الإسلامية نتيجة مشتركة لجميع العالم الإسلامى، ويجعل الحضارة الإسلامية - وهو جد محق فى هذا - فوق ما سبقتها من الحضارات)[4].

ورد على اعتبار الغرب سبب نهوض المسلمين، فقال: (إن القول بأن العالم الإسلامى (كان فى نوم عميق) قبل أن يأخذ فى النهوض بتأثير أوروبا فى القرن التاسع عشر، مبالغ فيه كثيرًا. وحق أن الظروف الملائمة التى أنتجت الحضارة الإسلامية لم تبق)[5].

---

(1) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 54.

(2) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 122.

(3) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 35.

(4) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 94.

(5) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 152 - 153.

**10 - سويسرا:**

من الدول التى رأيتها فى هذا الفصل (سويسرا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

**مونته:**

قلت: من هو (مونته)[1]؟

قال: لهذا الرجل الفاضل شهادات طيبة عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام.

منها قوله فى وصف رسول الله ﷺ: (إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. فقد كان محمد مصلحًا دينيًا ذا عقيدة راسخة، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيرًا وبلغ سن الكمال بهذه الدعوة العظيمة التى جعلته من أسطع الأنوار الإنسانية فى الدين. وهو فى قتاله الشرك والعادات القبيحة التى كانت عند أبناء زمنه كان فى بلاد العرب أشبه بنبى من أنبياء بنى إسرائيل الذين نراهم كبارًا جدًا فى تاريخ قومهم. ولقد جهل كثير من الناس محمدًا وبخسوه حقه وذلك لأنه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها).

وقوله: (كان محمد كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هى صحة الحكم وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله)[2].

وقوله: (لا مجال للشك فى إخلاص الرسول وحماسته الدينية التى تشبعت بها نفسه وفكره)[3].

بل إنه اعتبر ما قام به رسول الله ﷺ من أعظم المنجزات فى التاريخ، قال: (ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد، وإن ما قام به من إصلاح أخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية)[4].

وتحدث عن المبادئ النبيلة التى جاء بها الإسلام، فقال: (إن الديانة الإسلامية كعقيدة توحيد، ليس فيها شىء مجهول فى ديانات التوحيد الأخرى إلا أن ظهورها فى جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعًا جديدًا باهرًا. وقد سميت الإسلام إشارة إلى تمام الانقياد لإرادة الله، وهى فى هذه العقيدة مشابهة للمسيحية إلا أنها تتجلى فى القرآن بقوة لا تعرفها النصرانية.. ولقد منع القرآن الذبائح البشرية، ووأد البنات والخمر والميسر، وكان لهذه

---

(1) مونته (1856 - 1927) Montet أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة جنيف، من كتبه (محمد والقرآن)، وترجمة جيدة للقرآن، و(حاضر الإسلام ومستقبله).

(2) محمد والقرآن، ص 18 (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامى 1 / 32).

(3) محمد والقرآن، ص 18 (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامى 1 / 67).

(4) محمد والقرآن، ص 18 (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامى 1 / 32)

الإصلاحات تأثير غير متناه في الخلق بحيث ينبغي أن يعدّ محمد في صف أعاظم المحسنين للبشرية. إن حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي إبقاء الإنسان من الصباح إلى المساء تحت تأثير الديانة، ليكون دائمًا بعيدًا عن الشر، وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الإنسان، وحكمة الحج هي توطيد الإخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية. فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه، وثبت ولا يزال ثابتًا بإزاء عواصف الدهور)[1].

وانطلاقا من هذه الشهادات دعا إلى احترام الإسلام وعقد صلات الأخوة مع معتنقيه، قال: (لما كان الإسلام دينًا من الأديان أصبح قوة أدبية عظيمة جدًا جديرة بالاحترام من وراء الغاية، ولذا تقضي الحال بأن تقوم الصلات مع أهله على أساس الإخاء والحب، وأهم الشروط في هذه الروابط الحسنة احترام الإسلام احترامًا مطلقًا. وأن هذا الدين بفضل ما نشره بعض الباحثين من العلماء المجردين عن الأغراض، وما وقف عليه بعض أرباب الرحلات قد أصبح معروفًا في أوروبا معرفة تامة، وغدًا يقدر قدره أكثر من قبل)[2].

قلت: بورك في هذا الرجل الحكيم.. وبورك فيما دعا له.. ولا أحسب إلا أن أيدي جميع المسلمين الصادقين ممدودة له ولأمثاله.

***

(1) محمد والقرآن، ص 22، (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، 1 / 32 - 33).

(2) الإسلام، (عن محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية 1 / 72).

■■■■■■■

# عاشرا - الأعداء

■■■■■■■

فتحت دفتر البابا على فصله العاشر، فوجدت عنوانه (الأعداء)، فقلت: ألا ترى من التناقض أن يوضع هذا العنوان في كتاب يبحث في القلوب التي تعلقت بمحمد ﷺ؟

قال: لا.. ليس ذلك من التناقض، فأكمل الناس من أجبر أعداءه على احترامه، ومحبته.. وقد كان محمد ﷺ أكمل من فعل ذلك.

قلت: لقد نطق القرآن بمثل هذا، فالله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]

قال: وقد كانت حياة رسول الله ﷺ نموذجا كاملا لهذا الخلق الرفيع.. فقد كان له صدر واسع يحول الأعداء أصدقاء، والحاقدين محبين، والهاجين مادحين.

قلت: صدقت.. وقد ذكرتني بما رويته لي في رحلتك التي تعرفت فيها على معجزات النبي ﷺ الحسية من تحول المعادين إلى محبين مخلصين[1].

قال: وأولهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فقد كان في جاهليته شديد العداوة للإسلام ولمحمد ﷺ، وقد ذكرت إحدى السابقات للإسلام، وهي أم عبد الله بنت أبي حثمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة، كيف كان المسلمون الأوائل يستبعدون إسلامه قبل أن يسلم، فقالت: إنا نرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف علي.

وكنا نلقى منه البلاء أذى، وشدة فقال: أتنطلقون يا أم عبد الله؟ قالت: قلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله فقد آذيتمونا، وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجا.

قالت: فقال صحبكم الله، قالت: فلما عاد عامر أخبرته، وقلت له: لو رأيت عمر، ورقته، وحزنه علينا! قال: أطمعت في إسلامه؟قلت: نعم، فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته، وشدته على المسلمين.

ولكن الله هداه فأسلم في موقف عدائي شديد لرسول الله ﷺ:

وقصة ذلك كما يرويها المؤرخون، وكما يحكيها هو نفسه، هي أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن يزيد بن عمرو العدوي، وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوما ومعه سيفه يريد النبي ﷺ، والمسلمين وهم مجتمعون في دار الأرقم عند الصفا، وعنده من لم يهاجر من

(1) انظر: رسالة (معجزات حسية)، فصل (حماية) من هذه السلسلة.

المسلمين فى نحو أربعين رجلا، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدا الذى فرق أمر قريش، وعاب دينها، فأقتله.

فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض، وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟

فقال عمر: وأى أهلى؟! قال: ختنك، وابن عمك سعيد بن زيد، واختك فاطمة، فقد أسلما.

فرجع عمر إليهما، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن.

فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب، وأخذت فاطمة الصحيفة، وألقتها تحت فخذيها، وقد سمع عمر قراءة خباب.

فلما دخل قال: ما هذه الهينمة؟! قالا: سمعت شيئا؟ قال: بلى، قد أخبرت أنكما تابعتما محمدا.

وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له اخته: قد أسلمنا، وآمنا بالله، ورسوله، فاصنع ما شئت.

ولما رأى عمر ما باخته من الدم ندم، وقال لها: أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد، قالت: إنا نخشاك عليها، فحلف أنه يعيدها.

ثم قالت له ـ وقد طمعت فى إسلامه ـ: إنك نجس على شركك، ولا يمسها إلا المطهرون، فقام، واغتسل، فأعطته الصحيفة وقرأ فيها: طه، وكان كاتبا فلما قرأ بعضها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

فلما سمع خباب ذلك خرج إليه وقال: أبشر يا عمر، فإننى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام.

فقال عمر عند ذلك: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم.

فدله خباب فأخذ سيفه، وجاء إلى النبى ﷺ، وأصحابه فضرب عليهم الباب فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا سيفه، فأخبر النبى ﷺ بذلك.

فقال حمزة: ائذن له، فإن كان يريد خيرا بذلناه له، وإن أراد شرا قتلناه بسيفه.

فأذن له فنهض إليه النبى ﷺ حتى لقيه، فأخذ بمجامع ردائه، ثم جذبه جذبة شديدة، وقال: ما جاء بك؟ما أراك تنتهى حتى ينزل الله عليك قارعة.

فقال عمر: يارسول الله جئت لأؤمن بالله، وبرسوله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف من فى البيت أن عمرا أسلم.

قال عمـر: لما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام، فضربت عليـه بابه، فخرج إلى وقال: مرحبـا يا بن أخى! ما جاء بك؟قلت: جئت لاخبرك أنى قـد أسلمت، وآمنت بمحمد ﷺ، وصدقت ما جاء به.

قال: فضــرب الباب فى وجـهى، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به[1]!

وقد حدث عمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ نفسه عن سبب إسلامـه، فقد خاطب مرة بعض الصحابة، فقال: أتحبـون أن أعلمكم كيف كان بدو إسلامي؟قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسـول الله ﷺ، فبينا أنا يومـا فى يوم شديد الحر بالهـاجرة، فى بعض طرق مكة، إذ لقينى رجل من قريش فـقال: اين تذهب يابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخـل عليك هذا الأمر فى بيـتك قال: قلت: ومـا ذاك؟قال: اخـتك قـد صبـأت قال: فرجعت مغضبا.

وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل، والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه، ويصيبان من طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختى رجلين.

قال: فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا؟قلت: ابن الخطاب.

قال: وكان القوم جلوسا يقرؤن القرآن فى صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتى تبادروا، واختفوا، وتركوا، أو نسوا الصحيفة من أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لى.

فقلت: يا عدوة نفسها، قد بلغنى أنك صبـوت، قال: فأرفع شيئا فى يدى فأضربها به قال: فـسال الدم: قال: فلمـا رأت المرأة الدم بكت، ثم قالت: يابن الخطاب ما كنت فـاعلا فافعل فقد أسلمت.

قال: فـدخلت، وأنا مغضب، فـجلست على السرير، فنظـرت فإذا بكتاب فى ناحـية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟أعطينيه.

فقالت: لا اعطيك لست من أهله، أنت لا تغـتسل من الجنابة، ولا تطهر، وهذا ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة].

قال: فـلم أزل بها حـتى أعطتنيه فـإذا فيـه: بسم الله الرحمن الرحـيم، فلمـا مررت بالرحمن الرحيم، ذعرت، ورميت بالصحيفة من يدى.

قال: ثم رجعت إلى نفسى، فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحديد].

---

(1) انظر: الكامل فى التاريخ: 2 / 84 - 85 - 86 - 87، نور الابصار: ص 54، الرياض النضرة: 1 / 272 - 276 ترجمة عمر.

قال: فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت، ثم ترجع إلى نفسى حتى بلغت: ﴿وما لكُمْ لا تُؤْمنونَ باللهِ والرَّسُولُ يدْعُوكُمْ لتُؤْمنُوا بربِّكم وقدْ أخذَ ميثاقكُمْ إن كُنتم مُؤْمنين ۝﴾ [الحديد]، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله[1].

ولما أسلم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: أى أهل مكة أنقل للحديث فقالوا: جميل بن معمر، فخرج عمر، حتى أتاه فقال: يا جميل هل علمت أنى أسلمت؟ فو الله ما راجعه الكلام حتى قام يجر رداءه، وخرج عمر يتبعه، حتى إذا قام على باب مسجد الكعبه صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش إن عمر قد صبأ!

ومنهم أبو سفيان بن الحارث أخو النبى ﷺ من الرضاع، فقد كان يألف النبى ﷺ أيام الصبا وكان له تربًا. فلما بُعث النبى ﷺ عاداه أبو سفيان عداوةً لم يعادها أحدًا قط، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه، ثم شاء الله أن يكفى رسوله ﷺ لسان أبى سفيان وهجاءه، لا بإهلاكه، وإنما بهدايته.

وحدث أبو سفيان عن نفسه، فقال: ثم إن الله ألقى فى قلبى الإسلام، فسرت وزوجى وولدى حتى نزلنا بالأبواء، فتنكرت وخرجت حتى صرت تلقاء وجه النبى ﷺ، فلما ملأ عينيه منى أعرض عنّى بوجهه إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى.

قالوا: فما زال أبو سفيان يتبعُهُ، لا ينزلُ منزلاً إلا وهو على بابه ومع ابنى جعفر وهو لا يكلمه، حتى قال أبو سفيان: والله ليأذنن لى رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابنى هذا حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخلا عليه.

ومنهم شيبة بن عثمان، فقد خرج من بيته يريد قتل رسول الله ﷺ، فلم يرجع إلا بحبه والإيمان به.

وقد حدث عن قصة ذلك، فقال: لما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة، وغزا حنينا، قلت أسير مع قريش إلى هوازن، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة، وتذكرت أبى وقتله حمزة، وعمى وقتله على بن أبى طالب، فقلت: اليوم أدرك ثأرى من محمد، وأكون أنا الذى قمت بثار قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا ما تبعته أبدا، فكنت مرصدا لما خرجت له، لا يزداد الأمر فى نفسى إلا قوة.

فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، وأصلت السيف، ودنوت منه، أريد ما أريد، فجئته من عن يمينه، فإذا العباس قائم عليه درع بيضاء، قلت: عمه لن يخذله، فجئته من عن يساره، فإذا بأبى سفيان بن الحارث فقلت: ابن عمه لن يخذله، فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسورة سورة بالسيف إذ رفع إلى فيما بينى وبينه شواظ من نار كانه

(1) أسد الغابة 4 / 54 - 55، الرياض النضرة: 2 / 277.

برق، فخفت أن يتمحشنى، فوضعت يدى على بصرى، خوفا عليه، ومشيت القهقرى، وعملت أنه ممنوع.

فالتفت إلى، وقال: «يا شيب أدن منى»، فدنوت منه، فوضع يده على صدرى وقال: «اللهم أذهب عنه الشيطان»، فرفعت إليه رأسى وهو أحب إلى من سمعى وبصرى وقلبى، ثم قال: «يا شيبة قاتل الكفار».

فتقدمت بين يديه أحب ـ والله ـ أن أقيه بنفسى كل شيء، فلما انهزمت هوازن رجع إلى منزله ودخلت عليه فقال: «الحمد لله الذى أراد بك خيرا مما أردت»، ثم حدثنى بما هممت به ﷺ[1].

ومنهم النضير بن الحارث[2] الذى حدث عن نفسه، فقال: الحمد لله الذى أكرمنا بالإسلام ومن علينا بمحمد ﷺ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء، فذكر حديثا طويلا، ثم قال: خرجت مع قوم من قريش، هم على دينهم بعد أبى سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير، فلما تراءت الفئتان ونحن فى حيز المشركين حملت هوازن حملة واحدة، ظننا أن المسلمين لا يجبرونها أبدا، ونحن معهم وأنا أريد بمحمد ما أريد.

وعمدت له فإذا هو فى وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه، فأقبلت عامدا إليه، فصاحوا بى: إليك، فأرعب فؤادى وأرعدت جوارحى، فقلت: هذا مثل يوم بدر، إن الرجل لعلى حق، وإنه لمعصوم، وأدخل الله تعالى فى قلبى الإسلام وغيره عما كنت أهم به.

فما كان حلب ناقة حتى كر أصحاب رسول الله ﷺ كرة صادقة، وتنادت الانصار بينها: الكرة بعد الفرة: يا للخزرج، يا للخزرج، فحطمونا حطاما، فرقوا شملنا، وتشتت أمرنا، وهمة كل رجل نفسه.

فتنحيت فى غبرات الناس، حتى هبطت بعض أودية أوطاس فكمنت فى خمر شجرة لا يهتدى إلى أحد إلا أن يدله الله (على، فمكثت فيه أياما وما يفارقنى الرعب مما رأيت، ومضى رسول الله ﷺ إلى الطائف، فاقام ما أقام، ثم رجع إلى الجعرانة، فقلت: لو صرت إلى الجعرانة، فقاربت رسول الله ﷺ ودخلت فيه المسلمون، فما بقى فقد رأيت عبرا، وقد ضرب الإسلام بجرانه، ولم يبق أحد، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ فعز محمد لنا عز، وشرفه لنا شرف.

---

(1) رواه ابن سعد وابن عساكر عن عبد الملك بن عبيد، وأبو القاسم البغوى، والطبرانى، والبيهقى، وأبو نعيم، وابن عساكر عن عكرمة.

(2) وهو غير النضر بن الحارث الذى مات على كفره.

فو الله إنى لعلى ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله ﷺ يلقانى بالجعرانة كنة لكنة فقال: «النضير؟» قلت: لبيك، فقال: «هذا خير لك مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه».

فأقبلت إليه سريعا، فقال: «قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه توضع»، قلت: قد أرى أن لو كان مع الله تعالى إلها غيره لقد أغنى شيئا، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم زده ثباتا»، قال النضير: فو الله الذى بعثه بالحق لكأن قلبى حجر ثباتا فى الدين وبصيرة فى الحق، وذكر الحديث[1].

ومنهم صفوان بن أمية الجمحى، الذى حدث عن نفسه، فقال: ما زال رسول الله ﷺ يعطينى من غنائم حنين، وهو أبغض الخلق إلى حتى ما خلق الله عز وجل شيئا هو أحب إلى منه[2].

وقال محمد بن عمر: يقال إن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ يتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء إبلا مما أفاء الله به على رسوله ﷺ فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء، فاعجب صفوان وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟» قال: نعم، قال: «هو لك بما فيه»، فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله ﷺ ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى.

وقد كان سلوك رسول الله ﷺ مع هؤلاء هو السر فى كل ذلك التحول الذى انتقلوا به من حربه وسبه إلى الإيمان به ومحبته.

وسأضرب لكم مثالا على هذا بصفوان بن أمية ـ الذى حدثتكم حديثه ـ فقد خرج بعد فتح مكة يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومى، وقد خرج هاربا منك، ليقذف نفسه فى البحر، فأمنه ﷺ قال: «هو آمن».

فخرج عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، وقال صفوان لغلامه يسار ـ وليس معه غيره ـ: ويح! أنظر من ترى؟ قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير بن وهب، والله ما جاء إلا يريد قتلى، قد ظاهر علىّ محمدا، فلحقه فقال: يا أبا وهب جعلت فداك، جئت من عند أبر الناس، وأوصل الناس، فداك أبى وأمى الله الله فى نفسك أن تهلكها، هذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به.

فقال: ويحك، أغرب عنى فلا تكلمنى، فقال عمير: أى صفوان فداك أبى وأمى.. أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك وملكه ملكك.

---

(1) رواه الواقدى فى المغازى.

(2) رواه البخارى.

فقال صفوان: إني أخافه على نفسي، فقال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، قال: ولا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فقال: امكث مكانك حتى آتيك بها.

فرجع عمير إلى رسول الله ﷺ فقال: إن صفوان أبي أن يأنس لي حتى يرى منك أمارة يعرفها، فنزع رسول الله ﷺ عمامته فأعطاه اياها، وهي البرد الذى دخل فيه رسول الله ﷺ معتجرا به برد حبرة.

فرجع معه صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي بالمسلمين العصر في المسجد، فلما سلم رسول الله ﷺ صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمرا وإلا سيرتني شهرين، فقال ﷺ: «انزل أبا وهب»، قال: لا والله حتى تبين لي قال: «بل لك تسير أربعة أشهر».

فنزل صفوان، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى هوازن وفرق غنائمها فرأى رسول الله ﷺ صفوان ينظر إلى شعب ملآن نعما وشاء ورعاء، فأدام النظر إليه، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «يا أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟» قال: نعم قال: «هو لك وما فيه».

فقبض صفوان ما في الشعب، وقال عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأسلم مكانه[1].

ومنهم سهيل بن عمرو، وقد كان سيدا من سادات قريش. . بل كان خطيبها المفوه، وكان يؤلب الناس على المسلمين ويحاربهم بكل ما أوتي من قوة، وكانت حرارة كلماته تصل إليهم، فتؤذيهم مما دفع عمر بن الخطاب - حين رأى سهيلا في الأسر يوم بدر - يشير على النبي ﷺ قائلا: «دعني أنزع ثَنِيَّتي سهيل، فلا يقوم علينا خطيبًا»، فقال ﷺ: «دعها، فلعلها أن تسُرَّك يومًا».

وعاش سهيل يحارب بسلاحي السيف واللسان حتى كان دورهُ الأكبر يوم الحديبية إذ جاء سهيل بن عمرو رسولاً من قِبَلِ قريش، فقال النبي ﷺ متفائلاً: «لقد سهل لكم أمركم»، وقال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

وكانت قريش قد قالت لسهيل بن عمرو: ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح.

وعندما بدأ الرسول ﷺ في إملاء شروط الصلح على الصحابي الجليل علي بن أبي طالب، كاتب الصحيفة، اعترض سهيل على كتابة كلمة (الرحمن) في البسملة، وأراد بدلاً عنها أن يكتب (باسمك اللهم)، لأنها عبارة الجاهليين، ورفض المسلمون ذلك، ولكن الرسول ﷺوافق على اعتراض سهيل.

(1) رواه ابن إسحاق عن عروة بن الزبير، والبيهقي عن الزهري.

ثم اعترض سهيل على عبارة (محمـد رسول الله)، وأراد بدلاً عنها عبارة: (محمد بن عبد الله)، فوافقه أيضًا على هذا الاعتراض.

وعندما قال الرسول ﷺ: (على أن تخلوا بيننا وبين البـيت فنطوف به) اعترض سهيل قائلاً: لا تتـحدث العرب أنا أخذنا ضـغطة قهرًا، ولكن ذلك فى العام المقـبل، فنخرج عنك فتدخلها بأصحابك فأقمت فيها ثلاثًا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف فى القرب. فوافق الرسول ﷺعلى هذا الشرط.

ثم قال سـهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان علـى دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله!كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟!

فبينما هو كـذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قـيوده، وقد خرج من أسفل مـكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسـلمين فقـال سهـيل: هذا يا محـمد أول من أقاضيك عليـه أن ترده إلى، فقال النبى ﷺ: (إنا لم نقض الكتاب بعد)، فقـال سهيل: والله إذن لن أصالحك على شيء أبدًا.

وألح الرسول ﷺعلى سـهيل أن يستثنى أبا جندل، فـرفض وتمسك بذلك، ولم يجد الرسول ﷺبدًا من إمضاء ذلك لسهيل.

ثم بعد هذا تم الاتفاق على بقية الشروط وهي: (على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عـيبة مكفوفة، فلا إسلال ولا إغلال، وأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه).

وظل سهيل على موقفه تجـاه الإسلام إلى يوم فتح مكة، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل البيت، ثم خرج فوضع يده على عضادتى الباب، فقال: «ماذا تقولون؟»

فقال سهيل بن عمرو: نقول خيرًا، ونظن خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، وقدرت.

فقال ﷺ: (أقول كما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم)[1].

ومع هذا الموقف العظيم من رسول الـله ﷺ ظل سهيل على كفـره.. فأرسل إلى ابنه عبد الله (أبى جندل) ليـستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه فـخرج إلى حنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركـه حتى أسلم بمنطقة تـسـمى الجعرانة، فـأعطاه رسول الله ﷺ يومئـذ مائة من الإبل من غنائم حنين[2].

ولكنه ما إن لامس الإسلام شغاف قلبه حتى امـتلأ به، وامتلأ بمحبة النبى ﷺ.. وقد شهـد له الصحابة ومن بعدهـم قائلين فى حقه: (لم يكـن أحد من كبراء قـريش الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم فتح مكة، أكثر صـلاة ولا صومًا ولا صدقة ولا أقبل على ما يعنيه من

(1) رواه البيهقى.

(2) رواه ابن سعد.

أمر الآخرة، من سهيل بن عمرو، حتى إن كان لقد شحب لونه. وكان كثير البكاء رقيقًا عند قراءة القرآن. لقد رُئى يختلف إلى معاذ بن جبل حتى يقرئه القرآن وهو بمكة، فقال له رجل: تذهب إلى معاذ؟!

أفلا ذهبت إلى رجل من أهل قريش يعلمك؟

فقال سهيل: هذا الذى صنع بنا ما صنع حتى سبقنا كل السبق، أى لعمرى اختلف إليه لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية، ورفع الله بالإسلام قومًا كانوا لا يُذكرون فى الجاهلية فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا).

وقد أمضى ما بقى من حياته فى تعويض ما فاته من صحبة النبى ﷺ، وقد اشتهر عنه قوله: (والله لا أدع موقفًا وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله، ولا نفقةً أنفقتها مع المشركين إلا أنفقتُ على المسلمين مثلها، لعل أمرى أن يتلو بعضه بعضًا)[1].

ولما مات النبى ﷺ وأخذت القبائل ترتد عن الإسلام، فأراد أهل مكة أن يحاكوا هذه البلاد المرتدة، قام سُهيل بن عمرو يثبت قومه وقال لهم: يا أهل مكة كنتم آخر الناس دخولا فى دين محمد، فلا تكونوا أول الناس خروجًا منه.. ثم قال لهم: (مَنْ كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت)[2].

وظل سهيل على الخير والإيمان كثير الصلاة والصيام والصدقة حتى خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا.

وظل مرابطًا بأرض الشام متذكرًا قوله ﷺ: (مقام أحدكم فى سبيل الله ساعة من عُمره خيرٌ من عمله عمره فى أهله) قال سهيل: فإنما أرابط حتى أموت، ولا أرجع إلى مكة، فلم يزل مقيمًا بالشام حتى مات فى طاعون عمواس[3]، وقد قال ﷺ: (الطاعون شهادة لكل مسلم)[4].

ومنهم الحارث بن هشام.. والذى ظل محاربًا للمسلمين حتى يوم فتح مكة، إذ علم أنه من أوائل المطلوبين، فاستجار بأم هانئ بنت أبى طالب فأجارته فأراد أخوها قتله فذكرت ذلك للنبى قائلة: زعم فلان- تقصد أخاها - ألا إجارة لى، فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ».

وكانت دهشته لا تقدر إذ صعد بلال بن رباح فوق الكعبة قارعًا آذانهم بقوله: جاء الحق وزهق الباطل.. إن الباطل كان زهوقا.

---

(1) الإصابة للحافظ ابن حجر: 3/ 178.

(2) رواه البيهقى.

(3) الإصابة للحافظ ابن حجر: 3/ 178.

(4) رواه البخارى ومسلم.

وكان الحارث يقول: يا ليتنى مت قبل هذا ولم أشهد هذا اليوم.

ولما قيل للحارث بن هشام: ألا ترى ما يصنع محمد من كسر الآلهة ونداء هذا العبد الأسود على الكعبة؟!

فقال الحارث: إن كان الله يكره هذا، فسيغيره..

وأخذت قلوب أئمة الكفر تفكر فى الإسلام خاصة، وأن النبى (عفا عنهم وأعطى الكثير منهم الأمان فى داره وفى المسجد.

وكان الحارث ممن أسلم يومئذ، ثم كانت غزوة حنين بعدها فتألف النبى (قلوب هؤلاء القوم فأعطاهم حتى رضوا.

وأعطى للحارث يومها مائة من الإبل، فكُسرت شوكة العداء والعناد فى قلبه، ثم أخذت تعاليم الإسلام تشق طريقها إلى قلبه فنما زرع الإيمان فى قلبه فحسن إسلامه.

ثم هاجر إلى الشام فى عهد عمر، فلم يزل مجاهدا، حتى كان يوم اليرموك فقال عكرمة بن أبى جهل: من يبايع على الموت فبايعه مائتان من الرجال على الشهادة فى سبيل الله.

وكان من بين هؤلاء الحارث بن هشام الذى استشهد باليرموك.

وقد ذكر له الرواه موقفًا عظيمًا فى الإيثار قبل موته، إذ جاءه رجل يريد أن يسقيه ماءً - وهو فى النزع الأخير - فسمع أنين عكرمة، فآثره على نفسه، وقال: اذهبوا إلى عكرمة. فذهبوا إلى عكرمة بالماء فسمع أنين عياش بن ربيعة، فأشار أن اذهبوا إلى عياش، فذهبوا إلى عياش فوجدوه قد فارق الحياة، ثم رجعوا إلى عكرمة فوجدوه قد فارق الحياة، ثم رجعوا إلى الحارث فوجدوه قد مات.

قلت: ولا زالت الأيام تلد أمثال هؤلاء الذين لم يملكوا إلا أن يسلموا لرسول الله ﷺ وللإسلام..

قال: ذلك صحيح.. ولكنه لن يتم إلا إذا حرص المسلمون على أن يكون لهم من الجاذبية ما يحول أخس المعادن إلى أكرمها.

قلت: وأول ذلك سعة الصدر.

قال: أجل.. فلا ينبغى للمؤمن الذى يحمل صدرا يسع المحيطات العميقة أن يستفزه جاهل، أو يغلبه على حلمه أحمق.

قلت: لقد ذكرتنى بحديثى معك أول ما التقينا.. فقد ذكرت لى شيئا من هذا.

قال: أجل.. فلولا أنى رأيت فى حياتى ناسا ذوى عقول راجحة.. ولولا أنى لاقيت معلم السلام الذى ملأ صدرى بالصفاء الذى لا تحركه الأعاصير لما تعرضت لكل تلك الأشعة التى شرفنى الله بالتعرض لها.

وجدت بعض الأسماء فى هذا الفصل فى دفتر البابا، فأردت أن أقرأها، فقال: حسبك بما ذكرت لك.. فلا ينبغى أن نسمى أحدا فى هذا الفصل.

قلت: ومن سميناهم؟

قال: أولئك كرام طيبون، وقد أخلدوا إلى ربهم، ولا يشك أحد فى فضلهم، وأخاف إن ذكرت بعض ما كتبته هنا أن يتأثر لذلك المتأثرون.. فينسخوا المحبة بالعداوة.

قلت: صدقت.. ففى قومنا من ينسخ جبال الحسنات بالسيئة الواحدة.

# الخاتمة

أخذ البابا الدفتر من يدى، واحتضنه، ثم قبله، وقال: لقد كان هذا الدفتر أنيسى عند كل وحشة.. ورفيقى عند كل ضيق.. ودوائى عند كل داء.

قلت: فما الذى جعلك تحن إليه؟

قال: حنينى إلى الحبيب الذى لا يعرف القلب غيره.. ألا تعلم أن حبيب الحبيب حبيب؟

قلت: أجل.. أعلم ذلك..

قال: ولهذا ترانى أمتلئ محبة وعشقا لكل من أحب رسول الله ﷺ.. بل إنى أشعر، وكأنى أتقوت بكلمات الصدق التى يتفوه بها المخلصون.

قلت: ألم تخش على نفسك، وأنت فى ذلك المحل الرفيع من سلم الكنيسة أن يتجسس عليك أحدهم.. فيلحظه معك.. فيشى بك وشاية تهدم كل أحلامك فى كرسى البابوية؟

قال: وهل نسيت أخى؟

قلت: ومن أخوك؟

قال: أخى التوأم.. ما بالك! إنه حصنى الذى كنت به أتحصن، كما كان الحجاب الذى به احتجبت عن شمس محمد ﷺ كل تلك المدة.

قلت: وأخوك.. ألم يلحظ هذا الدفتر؟

قال: بلى.. لقد لحظه.. فيستحيل أن يرى ما لا أرى، أو يسمع ما لا أسمع.. لقد آن أن يكون فخورا به غاية الفخر.. بل أستعمله وسيلة يرتقى بها فى معارج الكنيسة إلى الكرسى الذى ظللنا طول عمرنا نحلم به.

قلت: كيف هذا؟! هل أسلمت الكنيسة؟! إنك توقعنى فى حيرة لا تقل عن الحيرة التى أوقعتنى فيها أول مرة.

قال: لقد كان أخى يأخذ هذا الدفتر، ويتدراسه مع رجال الكنيسة حرفا حرفا، وكلمة كلمة..

قلت: لم كل هذا الاهتمام؟

قال: لقد ذكرت لك بأن الكنيسة أرادت أن تدرس أسرار انتشار الإسلام، وأسرار تغلغله إلى العقول والقلوب..

قلت: أتفعل ذلك لتوفر لنفسها من الخصائص ما يجعلها مهوى للأفئدة؟

قال: إنها إن فعلت ذلك تكون كعجوز شمطاء سرقت مساحيق شابة جميلة لتنافسها فى قلوب الرجال.. وذلك مستحيل.

قلت: فلم تبحث عن أسرار ذلك إذن؟

قال: أنت تعلم أن المنافس الأكبر للمسيحية هو الإسلام.. فلا يمكن للمسيحية أن تنتشر ما دام محمد يسكن العقول والقلوب.

قلت: أعلم هذا، ويعلم الكل هذا، فما فيه.

قال: لقد استخدمت الكنيسة - أو رجال التدبير فيها، وهم رجال اجتمعت لهم جميع حيل الشياطين - على تحليل أسرار المحبة والإقبال لتقضى عليها واحدة.. فتحول من جمال الإسلام دمامة.. ومن حياته موتا.

قلت: ومتى تبدأ تنفيذ هذه الخطة؟

قال: الأمة الآن تقع تحت أسرها.

قلت: أنحن الآن أسارى لهذا الخطة؟

قال: أجل.. لقد استعانت الكنيسة بكل القوى التى ينافسها الإسلام فى حلف ليس له من هدف إلى تفريغ الإسلام من قيم الجمال التى يتزين بها.

قلت: حلف..؟!

قال: أجل.. حلف يضم ساسة واقتصاديين وإعلاميين.. وغيرهم.

قلت: ولكنهم سيصطدمون بعقول متحجرة ترفض ما يملون عليها من أفكار.

قال: خطتهم هذه المرة خطة محكمة، لأن جنودها ليسوا صليبيين.. بل مسلمين!

قلت: أى مسلم يرضى لنفسه أن يمثل هذا الدور؟!

قال: كثيرون هم.. بل أكثرهم أسرع إلى ثكنات هذا الحلف ليسجل نفسه جنديا.

قلت: فهم يعطونهم أجورا مغرية إذن؟!

قال: لا.. أولئك الحمقى يتطوعون بمحض رغبتهم لتنفيذ ما يحلم به ذلك الحلف.

قلت: أنا إلى الآن لا أكاد أفهم.. إن كلماتك لا تزيدنى إلا حيرة.. فلست أفهم شيئا.. فانتقل من التلميح إلى التصريح.. ومن الألغاز إلى الكلام الذى تعودته منك.

قال: سأضرب لك أمثلة تعطيك صورة عن هذا الجند المتطوع.

دققت بصرى فى عينيه لأعرف سر هذا الجند الخفى الذى يريد أن يستل محمدا من القلوب، فقال: ألم تر فى كل الذى استهواهم الإسلام، وامتلأت قلوبهم بحب محمد ﷺ حبهم للسلام؟

قلت: بلى.. لقد لاحظت ذلك فى الأتباع والأصدقاء.

قال: فقد أراد هؤلاء أن يستلوا اسم السلام من الإسلام.. ليصبح دين السلام دين الإرهاب.. وقد تطوع لذلك بعض الأغبياء، فراحوا يقتلون الصغار والكبار، والظالم

والمظلوم، والمستكبر والمستضعف، ولسبب ولغيـر سبب، وكأن الإسلام جاء ليقتل لا ليحيي.. فهم يستدركون على الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... (٢٤)﴾ [الأنفال] لينسـخوا لآية بأهوائهم وفهومـهم السقيمـة، فيحولوا الحيـاة موتا، والأمن خوفا.

قلت: أعرف هذا.. وقد ساءني كما ساء كل مسلم.. لقد ذكر لي بعض أصدقائي في بلاد الغرب أنه كـان مقصـدا لكل سائل وباحث عن الحقـيقة.. وكان إذا سـار إلى أي محل تجتمع عليه الجموع لتسأله عن دينه، وعن نبيه، وعن ربه.

لكنه اليوم.. ما إن يدخل محلا حتى تنفض الجموع فارة فزعة.. وكأنه قنبلة موقوتة، أو كأنه مجذوم يفرون منه فرارهم من الأسد.

قال: فقد نجحوا في تحقيق ما لم يستطع أساطين العالم أن تحققه.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر على هذه المخططات القذرة.

قال: ألم تر أن كل من أحبوا محمدا تحدثوا عن رحـمته وحلمه وألفته ولطفه.. وغير ذلك من الخلال التي اجتـمعت له، فاستحق بها شـرف قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]!؟

قلت: بلى.. ومن لا يمتلئ إعجابا بتلك الخلال التي أعطت النموذج الأكمل للإنسان الأكمل.

قال: فقد قدر الكائدون ومكروا، فراحوا يستغلون بعض الحمقى ليختصروا رسول الله ﷺ في لحية طويلة، وجبة قصيرة، وتقطيب جبين، وغلظة دونها غلظة أكباد الإبل!

قلت: أعرف هذا.. وقـد سمعت بعضـهم يصف شيخا من هؤلاء يقـول عنه: (رأيته وكأنه السنة تمشي) مع أنه لم ير مـنه إلا ما كان يراه الناس من أبي لهب وأبي جهل مـن لحية وقميص وسواك.

قال: فقد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر.

قال: ألم تر الجـميع من الأصدقاء والأتبـاع يمتلئون إعـجابا بحرية الفكر التي أتاحـها الإسلام، فاجتذب أصـحاب العقول والأذواق.. واجتمع في حبه الأدباء والشـعراء والفلاسفة والعلماء وأهل الدين وأهل الدنيا؟

قلت: بلى.. قد سـمـعت الكثير ممن يذكر ذلك، ويفخـر به على الكنيسة التي طوقت العقول بأغلالها.

قال: فقد انتدب بعض الحمقى ليحـولوا من المسجد كنيسة لا ترسل المحبة.. بل ترسل الحرمان والتضليل والتبديع والتكفير..

قلت: أعرف هذا.. وأتألم له.. فالحب الذى ربط قلوب الأمة أجيالا طويلة تحول إلى بغضاء.. والإسلام الذى اتسع للجميع ضاق على أتباعه، فصار ـ فى منطق هؤلاء ـ يرفض كل من لم يلغ عقله وقلبه ومشاعره.

قال: فقد نجحوا فى هذا أيضا.

قلت: فاضرب لى مثالا آخر؟

قال: ألم تر إلى أولئك الأدباء الذين لهجوا بحب محمد ﷺ.. فراحوا يتغنون به آناء الليل وأطراف النهار.. وراح كل عندليب يغرد أشعارهم، ويملأ القلوب أشواقا تمحى كل ظلمة، وتنشر كل سعادة؟

قلت: بلى.. فقد مررنا على الأدباء، واستمتعنا بتلك المدائح العذبة.

قال: لكن هؤلاء حرموا الخلق من تلك المتعة، فراحوا يحكمون بالشرك على كل من مدح حبيبه.. بل راحوا يفرضون على الشعراء أن يحذفوا كل استعارة وكناية وتشبيه ومحسنات بديعية.. وراحوا يكتمون على أنفاس الحناجر الرقيقة الممتلئة أشواقا، فماذا جرى؟

قلت: لقد انصرف الناس عن البردة والهمزية وقصائد البرعى وشوقى والبارودى.

قال: ففى أى حفرة وقعوا؟

قلت: صاروا يلهثون وراء البوب والروك والراى والجاز والأغانى العصرية الممتلئ بالرقص والمجون.

قال: ونسوا حبيبهم ﷺ...

قلت: للأسف لقد حصل كثير من ذلك.. فإن أولئك يفضلون الجاز والروك على البردة والهمزية.. فالأولى عندهم فسق والثانية كفر وشرك!

قال: ألا ترى أنهم قد نجحوا فى هذا أيضا؟

قلت: للأسف.. لقد نجحوا نجاحا دونه كل نجاح.. فاضرب لى مثلا آخر؟

قال: سأكتفى بهذه الأمثلة ليعلم قومك مقدار الغفلة التى حاقت بهم، فجعلتهم ينفذون مخططات خصومهم من غير شعور.

قلت: إنك لم تزدنى إلا ألما.. فهل من مخرج مما نحن فيه؟

قال: المخرج بأيديكم.. يمكنكم فى أى لحظة أن تقفوا على أعتاب حبيبكم، وتقبلوا يديه وتعتذروا له، وتعيشوا الإسلام الذى رباكم عليه.

قلت: أى إسلام؟

قال: إسلام السلام والمحبة والأشواق الرفيعة والحضارة الراقية والهمم العالية..

قلت: فكيف نصل إلى هذا السلام؟

قال: بالعودة إلى رسول السلام.. فقد شوهتم صورته ورسالته.

قلت: ومن أين نتعرف عليه؟.

قال: من القرآن والسنة والسيرة..

قلت: نحن نقرأ كل ذلك.

قال: وتسيئون فهم ما تقرؤون.

قلت: فما المخرج؟.

قال: تبحثون عمن عرفوا رسول الله ﷺ.. وصاحبوه.. وامتلأت قلوبهم بمحبته.. وامتلأت حياتهم بسنته.

قلت: فهل يمكن أن نجد هؤلاء؟.

قال: لقد من الله عليّ، فوجدت كثيرا من هؤلاء..

قلت: فهل ستحدثني عنهم؟.

قال: أجل.. سأحدثك عنهم في الرحلات الثلاث التالية.. فلم تكن الرحلات التي ذكرتها إلا فراشا أوصلنا لعتبات الحبيب.

قلت: ثلاث رحلات[1]؟.

قال: ثلاث رحلات إلى النبي ﷺ.

قلت: فما الأولى؟.

قال: إلى النبي المعصوم.

قلت: والثانية؟.

قال: إلى النبي الإنسان.

قلت: والثالثة؟.

قال: إلى النبي الهادي.

* * *

(1) الأجزاء الثلاثة التالية لهذه الرسالة تحاول التعرف بقدر الإمكان على النبي ﷺ من خلال المصادر الأصلية.

# فهرس المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| البوصيرى: | 96 |
| ابن جابر الأندلسى: | 107 |
| صفى الدين الحلى: | 112 |
| محمود سامى البارودى: | 116 |
| أحمد شوقى: | 126 |
| السيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمى: | 132 |
| يحيى توفيق: | 136 |
| 3 ـ شعراء مسيحيون: | 138 |
| وصفى قرنفلى: | 138 |
| جورج صيدح: | 138 |
| جورج سلستى: | 139 |
| محبوب الخورى الشرتونى: | 140 |
| الشاعر القروى: | 140 |
| خليل مطران: | 140 |
| مارون عبود: | 141 |
| إلياس فرحات: | 141 |
| عبد الله يوركى حلاق: | 141 |
| جاك صبرى شماس: | 141 |
| إلياس قنصل: | 142 |
| شبلى الملاط: | 142 |
| 4 ـ أدباء أسلموا: | 142 |
| ويليام بيكارد: | 143 |
| فإنسان مونتييه: | 145 |
| **رابعا ـ الفنانون** | 147 |
| الفونس إيتان دينيه: | 148 |
| كات ستيفنس: | 153 |
| ويل سميث: | 158 |
| جينو لو كابوتو: | 158 |
| جيرمان جاكسون: | 159 |
| براين هوايت: | 160 |
| كريستيان باكر: | 161 |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

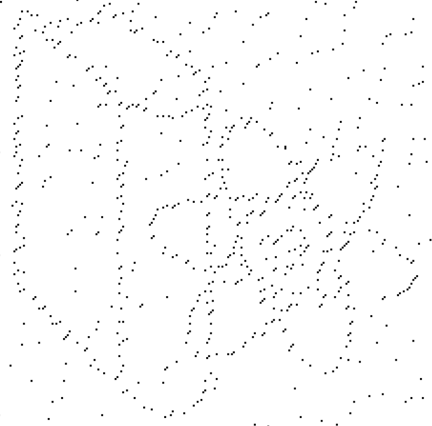
| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

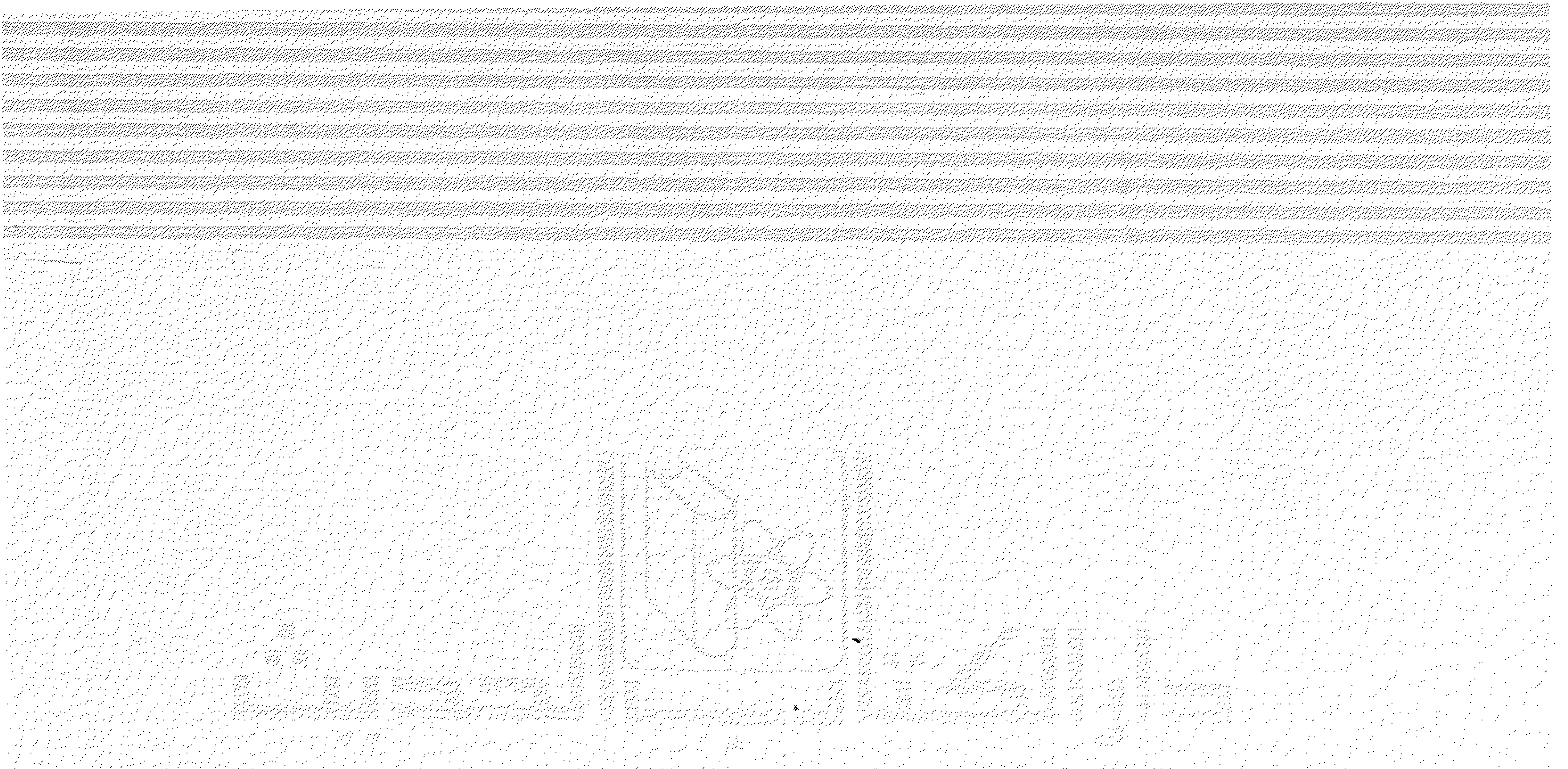
| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

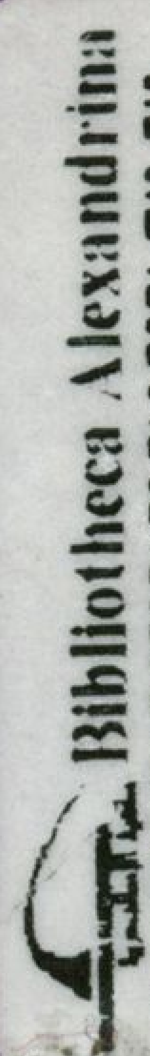
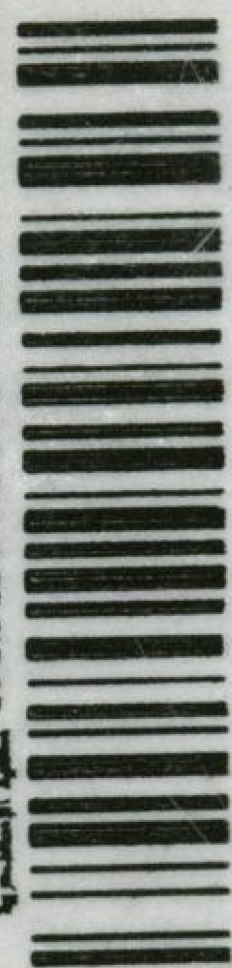
| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| 4 ـ أصدقاء من أمريكا | 543 |
| ول ديورانت | 544 |
| واشنجتون ايرفنج | 549 |
| لوثروب ستودارد | 550 |
| هارولد ب. سمث | 557 |
| سدنى فيشر | 559 |
| مايكل هارث | 560 |
| جورج كمبل | 561 |
| د. ميلر بروز | 562 |
| فرانز روزنثال | 563 |
| مارتن بلسنر | 565 |
| 5 ـ أصدقاء من ألمانيا | 567 |
| زيغريد هونكه | 567 |
| إلس ليختنستادتر | 573 |
| آدم متز | 574 |
| د. ج. كامبفماير | 576 |
| رودى بارت | 577 |
| ج. ك. بيرغ | 578 |
| جوزيف شاخت | 580 |
| ادوين كالفرلى | 582 |
| كويلر يونغ | 583 |
| بارتولد شبولر | 586 |
| ارنست بانرث | 586 |
| ماكس مايروهوف | 588 |
| كولد تسيهر | 589 |
| 6 ـ أصدقاء من دول شتى | 593 |
| 1 ـ إسبانيا | 593 |
| جون براند ترند | 593 |
| جوان فيرنيه | 595 |
| 2 ـ إيطاليا | 596 |
| لورا فيشيا فاغليرى | 596 |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |






Bibliotheca Alexandrina

0917087

محمد
صلى الله عليه وسلم